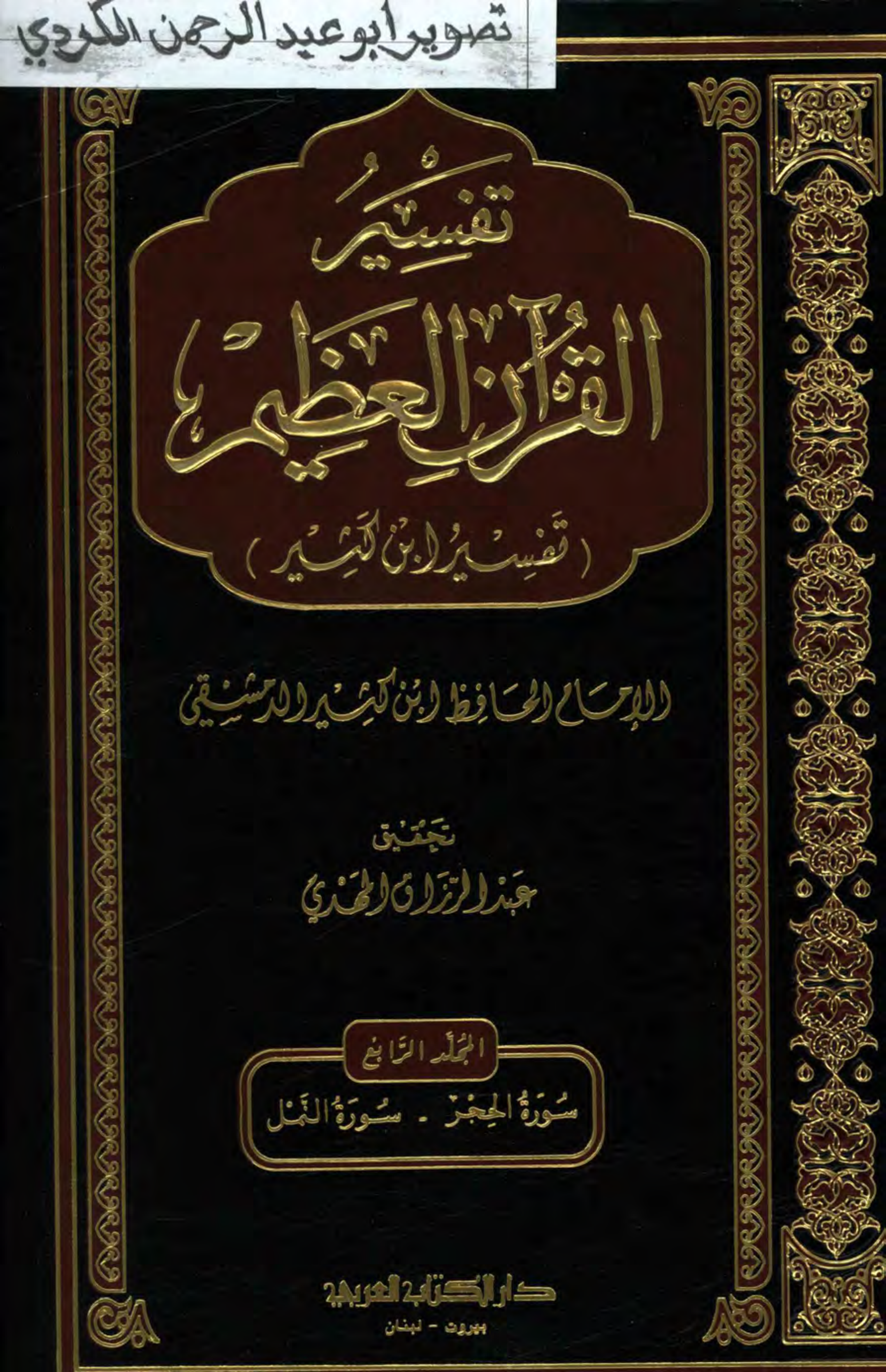

تصوير ابو عبد الرحمن الكردي
تفسير
القرآن العظيم
(تفسير ابن كثير)
الإمام الحافظ ابن كثير الدمشقي
تحقيق
عبد الرزاق المهدي
المجلد الرابع
سورة الحجر - سورة النمل
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

تفسير القرآن العظيم

(تفسير ابن كثير)

للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل
ابن كثير القرشي الدمشقي
(٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

تحقيق
عبد الرزاق المهدي

المجلد الرابع
سورة الحجر - سورة النمل

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

تفسير القرآن العظيم
(تفسير ابن كثير)

1432هـ ـ 2011 م

ISBN: 978-9953-27-015-9



الناشر
دار الكتاب العربي

العنوان : بيروت ـ شارع فردان ـ بناية بنك بيبلوس ـ الطابق الثامن
ص. ب. : 11-5769 بيروت 1107 2200 لبنان
هاتف : 861178 - 862905 - 800811 - 800832 (9611+)
فاكس : 805478 (9611+) بريد إلكتروني daralkitab@idm.net.lb
مواقعنا: www.dar-alkitab-alarabi.com
www.academiainternational.com



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾

قد تقدَّم الكلامُ على الحروف المقطعة في أوائل السوَر. وقولُه: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾، إخبار عنهم أنهم سيَندمُون على ما كانوا فيه من الكفر، ويَتمنَّون لو كانوا مع المسلمين في الدنيا. ونقَل السدِّي في تفسيره بسنَدِه المشهور عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما من الصحابة: أنَّ الكفَّار لما عُرضُوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين. وقيل: المرادُ أن كلَّ كافر يَوَدُّ عند احتضاره أن لو كان مؤمناً. وقيل: هذا إخبارٌ عن يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]. وقال سفيان الثوريُّ، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن أبي الزَّعراء، عن عبد الله في قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾، قال: هذا في الجُهَنمِيِّين إذ رأوهم يخرجون من النار. وقال ابنُ جرير: حدَّثني المثنى، حدثنا مسلم، حدثنا القاسم، حدثنا ابن أبي فَرْوَة العَبْدِيُّ: أن ابنَ عباس وأنسَ بن مالكٍ كانا يَتأوَّلان هذه الآية: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾، يتأوَّلانها يومَ يحبس الله أهلَ الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار، قال: فيقولُ لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدُون في الدنيا. قال: فيغضَبُ الله لهم بفضل رحَمتِه فَيُخرِجَهم، فذلك حين يقول: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾. وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا الثوريُّ، عن حَمَّادٍ، عن إبراهيمَ ـ وعن خُصَيف، عن مجاهد قالا: يقول أهلُ النار للموحِّدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا قالوا ذلك قال: أخرجُوا من كان في قَلْبِهِ مثقالُ ذرَّةٍ. قال: فعند ذلك قولُه: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾. وهكذا رُوِي عن الضحَّاكِ، وقتادةَ، وأبي العالية، وغيرهم. وقد وَرَد في ذلك أحاديثُ مرفوعةٌ.

[٤٠٣٥] فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن العباس ـ هو الأخرَمُ ـ، حدثنا محمد بن منصور الطوسيُّ، حدثنا صالح بن إسحاق الجهبذُ ـ دلني عليه يحيى بن معين[1] ـ حدثنا مُعَرِّف بن واصل، عن يعقوب بن أبي نباتة، عن عبد الرحمن الأغرِّ، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلُون النار بذنوبهم، فيقولُ لهم أهلُ اللاَّتِ والعُزَّى: ما أغنى عنكم قولُكم: لا إله إلا الله وأنتم معنا في النار! فيغضَبُ الله لهم فَيُخرِجُهم فَيُلقِيهم في نَهر الحياة، فيبرؤون من حَرْقهم كما

---

(١) وقع في بعض الطبعات «الجهبذ ـ رأى عليه بن موسى» وفي بعض «الجهبذي ـ وابن علية يحيى بن موسى» والمثبت عن المعجم ٧٢٨٩.

يبرأ القَمَرُ من خُسُوفه، فيدخلون الجنة، ويسمُّون فيها الجُهَنَّميين» فقال رجلٌ: يا أَنَسُ، أنت سَمِعتَ هذا من رَسُولِ الله ﷺ؟ فقال أنس: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من كَذَب عليَّ متعمداً فَلْيتبوَّأ مقعدَه من النار». نعم، أنا سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول هذا[1]. ثم قال الطبراني: تفرَّد به الجهْبذُ.

[٤٠٣٦] الحديث الثاني: وقال الطبرانيُّ أيضاً: حدثنا عبدُ الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبو الشعثاء علي بن الحُسَين الواسِطيُّ، حدثنا خالد بن نافع الأشعريُّ، عن سعيد بن أبي بُردَةَ، عن أبيه، عن أبي مُوسَى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا اجتمع أهلُ النار في النار، ومعهم مَن شاء الله من أهل القبلةِ، قال الكفارُ للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام فقد صِرتُم معنا في النار! قالوا: كانت لنا ذنوبٌ فأُخِذنا بها. فَسَمِع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرِجُوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مُسلِمين فنخرُجَ كما خَرَجوا. قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾». ورواه ابن أبي حاتم، من حديث خالد بن نافع، به، وزاد فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم»، عِوَضَ الاستعاذةِ[2].

[٤٠٣٧] الحديث الثالث: وقال الطَبَرانيُّ أيضاً: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاقُ بن راهويه قال: قلت لأبي أسامةَ: أحدثكم أبو رَوقٍ ـ واسمه عطيةُ بنُ الحارثِ ـ: حَدَّثني صالح بن أبي طريف قال: سألتُ أبا سعيدِ الخُدْرِيَّ فقلت له: هل سَمِعتَ رسولَ الله ﷺ يقولُ في هذه الآية: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾؟ قال: نعم، سَمِعتُه يقول: «يُخرِجُ الله ناساً من المؤمنين مِن النار بعدَما يأخذُ نِقْمَته منهم»، وقال: «لما أدخلَهم الله النارَ مع المشركين قال لهم المشركون: تزعمون أنكم أولياءُ الله في الدنيا، فما بالكم معنا في النار؟ فإذا سَمِعَ اللّهُ ذلك منهم أذن في الشفاعة لهم فتشفَعُ الملائكة والنبيُّون، ويشفَع المؤمنون، حتى يخرُجوا بإذن الله، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج منهم» قال: «فذلك قول الله ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾، فَيُسمون في الجنة الجُهَنَّمِيِّين، من أجل سَوَادٍ في وُجُوهِهِم، فيقولون: يا ربِّ، أذهِبْ عنا هذا الاسم. فيأمرُهم فيغتسلون في نهر الجنة، فيذهب ذلك الاسم عنهُم». فأقر به أبو أسامة، وقال: نعم[3].

[٤٠٣٨] الحديث الرابع: وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا العباس بن الوليد النَّرْسي، حدثنا مسكينٌ أبو فاطمة، حدثني اليمانُ بن يزيد، عن محمد بن جبرٍ، عن محمد بن علي، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «منهُم من تأخذُه النارُ إلى ركبتَيه، ومنهم من تأخذُه النارُ إلى حُجزَتِه، ومنهم من تأخذه النار إلى عنُقه، على قدر ذُنُوبهم وأعمالهم، ومنهم من يمكثُ فيها شهراً ثم يخرُج منها، ومنهُم مَن يمكثُ فيها سنةً ثم يخرج منها، وأطولُهم فيها مُكثاً بِقَدْرِ الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تَفْنَى، فإذا أراد الله أن

---

(١) ضعيف، أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٧٢٨٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨٥٣٣: فيه من لم أعرفهم اهـ. فيه غير واحد من المجاهيل، وأمارة الوهن ظاهرة على هذا المتن، والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» ٨٤٣ والطبراني كما في «المجمع» ١١١٠٤، وفيه خالد بن نافع قال الهيثمي: قال أبو داود: خالد بن نافع الأشعري متروك قال الذهبي: هذا تجاوز في الحد، فلا يستحق الترك فقد حدث عنه أحمد وغيره اهـ. وله شواهد تقويه انظر السنة لابن أبي عاصم ٨٤٤، وكذا ما بعده.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٨١٠٦ وإسناده ضعيف لجهالة صالح بن أبي طريف.

يخرجوا منها قالت اليهودُ والنصارى ومَن في النار من أهل الأديان والأوثان، لمن في النار من أهل التوحيد: آمنتم بالله وكُتبه ورُسله، فنحنُ وأنتم اليوم في النار سواءٌ، فيغضَب الله لهم غَضباً لم يَغضبه لشيءٍ فيما مَضى، فيُخرجهم إلى عينٍ في الجنةِ، وهو قولُه: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾[1].

وقولُه تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾، تهديدٌ لهم شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦﴾ [المرسلات: ٤٦]، ولهذا قال: ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾، أي: عن التوبة والإنابة، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، أي: عاقبة أمرهم.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾

يقولُ تعالى: إنه ما أهلك قريةً إلا بعد الحجّة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يُؤخر أمةً حان هلاكُها عن ميقاتها ولا يَتقدَّمُون عن مدّتهم. وهذا تنبيهٌ لأهلِ مَكَّةَ، وإرشادٌ لهم إلى الإقلاعِ عَمَّا هُم فيه من الشِّركِ والعنادِ والإلحادِ، الذي يَستحقُّونَ به الهلاكَ.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾

يُخبر تعالى عن كُفرهم وعُتُوّهم وعنادهم في قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾، أي: الذي يدّعي ذلك: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، أي: في دعائك إيّانا إلى اتّباعك وتركِ ما وَجدنا عليه آباءنا. ﴿لَّوْ مَا﴾، أي: هَلاَّ ﴿تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، أي: يَشهدُون لك بِصحّةِ ما جئتَ به، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. كما قال فرعونُ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ [الزخرف: ٥٣]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ۝٢١ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٢٢﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢]. وكذا قال في هذه الآية: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: بالرِّسالة والعذاب. ثم قرَّر تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظُ له من التغيير والتبديل. ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، على النبي ﷺ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. والمعنى الأول أولى، وهو ظاهرُ السِّياق.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

يقول تعالى مُسلّياً لرسوله في تكذيب مَن كَذّبه من كفار قريش: إنه أرسل من قَبْله في الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمةً رسولٌ إلا كذّبوه واستهزؤوا به. ثم أخبر أنه سَلَكَ التكذيب في قلوب المجرمين الذين عانَدُوا واستكبروا عن اتباع الهُدَى. قال أنسٌ، والحسنُ البصريُّ: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢﴾، يعني

---

(١) إسناده ضعيف، علي بن الحسين ـ زين العابدين ـ لم يدرك جده علياً، فهو منقطع، وفي الإسناد مجاهيل. لكن لبعضه شواهد، والله أعلم.

الشرك. وقولُه: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: قد عُلِم ما فَعَل تعالى بِمَن كَذَّب رُسلَه من الهلاكِ والدَّمارِ، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعَهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

يُخبر تعالى عن قُوَّة كُفرهم وعِنادِهم ومكابَرتِهم للحقِّ أنَّه لو فتح لهم باباً من السماء، فَجعلُوا يصعدون فيه لَما صَدَّقوا بذلك، بل قالوا: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾، قال مجاهدٌ، وابنُ كثير، والضحاك: سُدَّت أبصارُنا. وقال قتادة، عن ابن عباس: أُخِذَت أبصارنا. وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: شُبِّه علينا، وإنما سُحِرنا. وقال الكَلْبِيُّ: عَمِيت أبصارُنا. وقال ابنُ زيدٍ: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾، السكران الذي لا يعقِلُ.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾

يذكرُ تعالى خَلقَه السماءَ في ارتفاعها وما زَيَّنها به مِنَ الكَواكب الثَّواقِبِ لمن تأملها وكَرَّر النظر فيها يَرى فيها من العَجائِب والآيات الباهراتِ ما يَحارُ نظره فيه. ولهذا قال مجاهد، وقتادةُ: البروجُ ها هنا هي الكواكبُ، قلت: وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٦١]. ومنهم من قال: البروج هي منازلُ الشمسِ والقمرِ. وقال عطية العَوفي: البروج ها هنا هي قُصور فيها الحَرَس. وجعَل الشُّهُب حرساً لها من مَرَدة الشياطين لئلا يسمَعُوا إلى الملأ الأعلى، فمن تَمرَّد منهم لاستراق السمع جاءه ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ فأتلفه، فرُبَّما يكون قد ألقى الكلمة التي سَمِعها قبل أن يُدرِكَه الشهاب إلى الذي هو دُونَه، فيأخذها الآخرُ، ويأتي بها إلى وَلِيه، كما جاء مُصَرَّحاً به في الصحيح.

[٤٠٣٩] قال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيانُ، عن عمرو، عن عكرمة، عن أبي هُرَيرة يبلُغُ به النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمرَ في السماء ضَرَبت الملائكةُ بأجنحتها خُضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صَفوان»، قال علي: وقال غيره: صفوَان يَنْفُذُهم ذلك، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا لِلَّذي قال: الحقَّ، وهو العلي الكبير. فيسمعُها مسترِقُو السمع، ومسترِقُو السمع، هكذا واحد فوق آخر ـ ووصفَ سفيانُ بيده، فَفرَّج بين أصابع يده اليمنى، نَصَبَها بعضَها فوق بعض ـ فربما أدرك الشهابُ المستمع قبل أن يَرْمِي بها إلى صاحبه فيحرقَهُ، وربما لم يدركه حتى يَرْمي بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفلُ منه، حتى يُلقُوها إلى الأرض. وربما قال سفيانُ: حتى تنتهي إلى الأرض فَتُلْقَى على فم الساحر ـ أو: الكاهن ـ فيَكذب معها مئةَ كَذْبة، فيقولون: ألم يخبرنا يومَ كذا وكذا يكونُ كذا وكذا، فوجدناه حَقّاً لِلْكَلِمَةِ التي سُمِعت من السماء[١].

ثم ذكر تعالى خَلقَه الأرضَ، ومدَّه إياها وتوسيعَها وبسطها، وما جَعَل فيها من الجبال الرَّواسي، والأوديةِ والأراضِي والرِّمالِ، وما أنبت فيها من الزُّروع والثِّمار المتناسبة. وقال ابن عباس: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٠١ وأبو داود ٣٩٨٩ والترمذي ٣٢٢٣ وابن ماجه ١٩٤ وابن حبان ٣٦.

مَّوْزُونٍ﴾، أي: معلوم. وكذا قال سعيد بن جُبَير، وعكرمةُ، وأبو مالك، ومجاهدٌ، والحكم بن عُتَيبة، والحسن بن محمد، وأبو صالح، وقتادةُ. ومنهم من يقول: مُقَدَّر بقَدَرٍ. وقال ابنُ زيد: من كلِّ شيءٍ يُوزَن ويُقَدَّرُ بقَدر، وقال ابن زَيد: ما تَزِنهُ الأسواقُ. وقولُه: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾، يذكر تعالى أنه صَرَّفَهم في الأرض في صُنُوفِ الأسباب والمعايش، وهي جَمْعُ مَعِيشَةٍ. وقولُه: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾، قال مجاهد: وهي الدوابُّ والأنعام. وقال ابنُ جَرير: هم العبيدُ والإماءُ والدوابُّ والأنعام. والقصدُ أنه تعالى يمتنُّ عليهم بما يَسَّر لهم من أسباب المكاسب ووجُوه الأسباب وصُنوفِ المعايش، وبما سَخَّر لهم من الدوابِّ التي يركبونها والأنعام التي يأكُلونها، والعبيدِ والإماءِ التي يستخدمونها، ورزقُهم على خالقهم لا عَلَيهم، فلهم هم المنفعة، والرزقُ على الله تعالى.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

يُخبر تعالى أنه مالكُ كلِّ شيءٍ، وأن كُلَّ شيءٍ سهلٌ عليه، يَسِيرٌ لديه، وأنَّ عنده خزائنَ الأشياءِ من جميع الصنوف، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، كما يشاءُ وكما يريدُ، وَلِما لَهُ في ذلك من الحكمة البالغة والرحمةِ بعبادِه لا على جهة الوجوب، بل هُو كَتَب على نفسه الرحمةَ. قال يزيد بن أبي زياد، عن أبي جُحَيفة، عن عبد الله: ما من عام بأمطرَ من عام، ولكن الله يُقَسِّمه بينهم حيث شاء، عاماً ها هُنا، وعاماً ها هنا ثم قرأ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾. ورواه ابنُ جَرير. وقال أيضاً: حدثنا القاسم، حدثنا الحسن، حدثنا هُشَيم، أخبرنا إسماعيل بن سالم، عن الحكم بن عُتَيبة في قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، قال: ما عامٌ بأكثرَ مطراً من عام ولا أقلَّ، ولكنه يُمطَر قومٌ ويُحرَمُ آخرون، وربما كان في البحر. قال: وبَلَغَنا أنه ينزلُ مع المطرِ من الملائكة أكثرُ من عَدَدِ ولد إبليسَ وولدِ آدمَ، يُحصُون كُلَّ قطرةٍ حيثُ تَقَعُ وما تُنبِتُ.

[٤٠٤٠] وقال البزَّارُ: حدثنا داودُ ـ وهو ابن بكر التُستَريُّ ـ حدثنا حَيَّان بن أغلَب بن تميم، حدثني أبي، عن هشام، عن محمد بن سِيرينَ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «خزائن الله الكلامُ، فإذا أراد شيئاً قال له: كن، فكانَ»(1). ثم قال: لا يَرْوِيه إلا أغلبُ، ولم يكن بالقويِّ، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدِّمين، ولم يروه عنه إلا ابنه. وقولُه تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾، أي: تُلقِح السحابَ فتَدِرُّ ماءً، وتُلقِحُ الشجرَ فتتفتَّحُ عن أوراقِها وأكمامِها. هذه الرياح ذكرها بصيغة الجمع، لِيكُونَ منها الإِنتاجُ، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردَها ووصفها بالعقيم، وهو عدمُ الإنتاج، لأنه لا يكون إلا من شيئين فَصاعِداً.

وقال الأعمشُ، عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السَّكَن، عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾، قال: تُرسَلُ الريحُ فتحمِلُ الماءَ من السماء، ثم تَمْري السحابَ، حتى تَدِرَّ كما تَدِرُّ

---

(1) إسناده ضعيف جداً. فيه أغلب بن تميم، ذكره الذهبي في «الميزان» ١٠٢١ فقال: قال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن معين: ليس بشيء. وقال ابن حبان: خرج عن حد الاحتجاج به لكثرة خطئه، أهـ واكتفى البزار بقوله: ليس بالقوي، والصواب أنه ضعيف جداً.

اللَّقِحَة. وكذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وقتادةُ. وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب، فتُلقِحُهُ، فيمتلىءُ ماءً. وقال عُبيد بن عُمَير اللَّيثيُّ: يبعَثُ الله المُبشِّرة فتَقُمُّ الأرضَ قَمّاً، ثم يبعثُ الله المثيرة فتُثير السحابَ، ثم يبعَثُ الله المؤلفة فتؤلِّف السحابَ، ثم يبعث الله اللَّواقح فتُلقحُ الشجَرَ، ثم تلا: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾.

[٤٠٤١] وقد رَوَى ابنُ جرير، من حديث عبيس بن ميمون، عن أبي المُهَزِّم، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ قال: «الريحُ الجنوبُ من الجنة، وهي الريح اللواقحُ، وهي التي ذكر الله في كتابه، وفيها منافعُ للناسِ»[١]. وهذا إسناد ضعيف.

[٤٠٤٢] وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحُميدي في مُسندِه: حدثنا سفيانُ، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني يزيدُ بن جُعْدُبَةَ اللَّيثي: أنه سمع عبد الرحمن بن مِخْرَاقٍ يُحدِّث عن أبي ذرٍّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن الله خَلَق في الجنة ريحاً بعد الرِّيح بسبع سِنينَ، وإنَّ مِن دونها باباً مُغلَقاً، وإنما يأتيكم الرِّيحُ من ذلك البابِ، ولو فُتِح لأذرَتْ ما بين السماءِ والأرضِ من شيءٍ، وهي عند الله الأزيَبُ وهي فِيكُمُ الجَنُوبُ»[٢].

وقولُه تعالى: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾: أي: أنزلناه لكم عَذباً يُمكنُكُم أن تَشربُوا منه، ولو نشاءُ لجعلناه أُجَاجاً. كما يُنبِّه الله على ذلك في الآيةِ الأُخرَى في سورة الواقِعَةِ، وهو قولُه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠]، وفي قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل: ١٠]. وقولِه: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾، قال سفيان الثَّوريُّ: بمانعين. ويَحتمِلُ أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن نُنزلُه ونحفَظهُ عليكم، ونجعَلُه مَعِيناً ويَنابيعَ في الأرض ولو شاء تعالى لأغارَهُ وذَهَب به، ولكن من رَحمَتِه أنزَلَه وجعله عذباً، وحَفِظه في العُيُونِ والآبار والأنهار وغيرِ ذلك، ليبقى لهم في طُولِ السَّنةِ يشرَبُون ويُسقُون أنعامَهُم وزُروعَهم وثمارهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾، إخبارٌ عن قُدرته تعالى على بَدْءِ الخلق وإعادَتِه، وأنه هو الذي أحيا الخَلقَ من العَدَم، ثم يُميتُهم، ثم يَبْعَثُهم كُلَّهم ليوم الجَمْع. وأخبر أنه تعالى يَرِثُ الأرضَ ومن عليها وإليه يرجعون. ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهم، أوّلهم وآخرهم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾، قال ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: المُستقدِمُونَ: كُلُّ من هَلَكَ من لَدُن آدمَ عليه السلام، والمستأخرون: من هُو حَيٌّ ومن سيأتي إلى يوم القيامة. ورُوِي نحوُه عن عكرمةَ، ومجاهدٍ، والضحّاكِ، وقتادَةَ، ومحمد بن كعب، والشعبيِّ، وغيرِهم، وهو اختيارُ ابنِ جَرِير، رَحِمه الله.

وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن رجل، عن مَرْوان بن الحكم أنه قال: كان أناسٌ يستأخرون في الصفوف من أجلِ النساء فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾. وقد ورد في هذا حديث غريب جداً:

---

(١) ضعيف جداً، أخرجه الطبري ٢١١٠٩ و ٢١١١٠، فيه أبو المهزّم يزيد بن سفيان متروك، وعنه عبيس بن ميمون، وهو متروك أيضاً. والأشبه في هذا الوقف.

(٢) واهٍ بمرة. أخرجه البزار ٢٠٨٨ بهذا الإسناد، قال الهيثمي في «المجمع» ١٣٣٨٠: فيه يزيد بن عياض بن جعدبة، وهو كذاب.

[٤٠٤٣] فقال ابن جرير: حدثني محمد بن موسى الحَرَشِيُّ، حدثنا نوحُ بن قَيس، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجَوزاء، عن ابن عَبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت تُصَلِّي خَلْفَ رسول الله ﷺ امرأة حسناء، قال ابنُ عباس: لا والله ما إنْ رأيتُ مثلَها قطُّ، وكان بعضُ المسلمين إذا صَلَّوا استقدَمُوا ـ يعني لِئلاَّ يروها ـ وبعضٌ يستأخِرُونَ، فإذا سَجَدْنا نَظَرُوا إليها من تحت أيديهم!! فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1]. وكذا رواه أحمد وابنُ أبي حاتم في تفسيره، ورواه الترمذي والنسائيُّ في كتاب التفسير من سُنَنِهما، وابنُ ماجه من طُرُق عن نوح بن قيس الحُدَّاني، وقد وثقه أحمدُ وأبو داود وغيرهما، وحُكِي عن ابن معين تَضعيفُه، وأخرَجَ له مُسلمٌ، وأهلُ السنن. وهذا الحديثُ فيه نَكَارةٌ شَدِيدةٌ، وقد رواه عبد الرزَّاق، عن جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك وهو النُّكْرِيّ: أنه سمع أبا الجوزاء يقول في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾، في الصفوف في الصلاة ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾. فالظاهر أنه من كلام أبي الجَوزَاءِ فقط، ليس فيه لابن عباس ذكرٌ. وقد قال الترمذي: هذا أشبهُ من رواية نُوحِ بن قيس، والله أعلم. وهكذا رَوَى ابن جرير عن محمد بن أبي معشَر، عن أبيه: أنه سمع عَوْنَ بن عبد الله يُذاكر محمدَ بن كعب في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾، وأنها في صُفُوفِ الصلاة، فقال محمدُ بن كعب: ليس هكذا، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾: الميتُ والمقتولُ، و ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: من يُخلَقُ بعد، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾. فقال عونُ بنُ عبد الله: وَفَّقك الله وجَزاكَ خيراً.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

قال ابن عباس: ومجاهدٌ، وقتادةُ: المراد بالصلصال ها هنا: التراب اليابسُ. والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥]. وعن مجاهد أيضاً: الصلصال: المُنتنُ. وتفسيرُ الآيةِ بالآيةِ أولى. وقولُه: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، أي: الصَّلصالُ من حَمَإٍ، وهو: الطين، والمسنونُ الأملسُ، كما قال الشاعر:

ثُمَّ خاصَرتُها إلى القُبَّة الخَضْـ ـراءِ تَمْشي في مَرْمَرٍ مَسْنُونِ

أي: أَمْلَسَ صَقيلٍ. ولهذا رُوِي عن ابن عباس أنه قال: هو الترابُ الرَّطبُ. وعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك أيضاً: أن الحَمأَ المسنونَ هو المُنتنُ. وقيل: المراد بالمسنُونِ ها هنا المصبُوبُ. وقولُه: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبلِ الإنسانِ، ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾. قال ابن عباس: هي السمُومُ التي تقتلُ. وقال بعضُهم: السمومُ بالليل والنهار. ومنهم من يقول: السمُوم بالليل، والحرورُ بالنهار. وقال أبو داودَ

---

(١) منكر. أخرجه الترمذي ٣١٢٢ والنسائي ١١٢٧٣ «كبرى» وابن ماجه ٦/ ١٠٤ والحاكم ٢/ ٣٥٣ والطبراني ٢/ ١٧١ والواحدي ٥٥٢، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وأعله الترمذي بالإرسال، وقال: هو أصح أهـ ورجاله رجال مسلم، لكن المتن غريب ونوح بن قيس فيه كلام وإن روىٰ له مسلم، وخالفه جعفر بن سليمان، فرواه عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء من قوله، وليس فيه القصة، وإنما فسر معنىٰ الآية فقط، وهذا في تفسير عبد الرزاق ١٤٤٥ والطبري ٢١١٣٥. ومما يدل علىٰ وهن خبر ابن عباس هو أن الطبري اختار من قال «المتقدمين» الأموات من بني آدم. و «المستأخرين» هم الأحياء ومن سيأتي أهـ وأسنده ٢١١١٢ و ٢١١١٣ و ٢١١١٤ من طرق عن عكرمة. و ٢١١١٥ عن محمد بن القرظي وبنحوه ٢١١١٦ عن قتادة و ٢١١١٧ عن مجاهد، و ٢١١١٨ عن ابن عباس و ٢١١١٩ عن قتادة و ٢٢١١٢٢ عن الضحاك وروايات كثيرة في ذلك عن التابعين، وبهذا يتبين وهن الحديث الذي ورد عن ابن عباس، ويدل على صحة ما ورد عن أئمة التفسير الآية المتقدمة، والآية التي بعدها، والله أعلم.

الطَيَالسيُّ: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: دخلت على عَمْرو الأصمّ أعودُه، فقال: ألا أحدِّثُك حَديثاً سمعتُه من عبد الله بن مسعود، يقول: هذه السمُوم جزءٌ من سبعين جزءاً من السموم التي خُلِق منها الجانُّ، ثم قرأ: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾. وعن ابن عباس: أن الجان خُلق من لَهَب النار، وفي رواية: من أحسَن النارِ. وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس.

[٤٠٤٤] وقد وَرَد في الصحيح: «خُلِقَت الملائكة من نور، وخُلقت الجانُّ من مَارج من نار، وخُلِق بنو آدم مما وُصِف لكم»(١). ومقصودُ الآية التنبيهُ على شَرَف آدَمَ عليه السلامُ، وطيبِ عُنصرِه، وطهارَةِ مَحْتِدِه(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾

يذكُر تعالى تنويهَه بذكر آدمَ في ملائكتهِ قبلَ خَلْقِه له، وتشريفَه إيَّاه بأمره الملائكة بالسجُودِ له. ويذكُر تخلفَ إبليسَ عدوِّه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حَسَداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطلِ، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقولُه: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]. وقد رَوَى ابنُ جرير ها هنا أثراً غريباً عجيباً، من حديثِ شبيب بن بِشْرٍ، عن عِكْرَمَة، عن ابن عباس قال: لما خَلَق الله الملائكة قال: إني خالق بشراً من طين، فإذا أنا خلقته فاسجُدوا له. قالوا: لا نَفْعَلُ. فأرسل عليهم ناراً فَأحرقَتْهُم. ثم خلق ملائكة أخرى فقال لهم مثل ذلك فقالوا: لا نَفْعَلُ. فأرسلَ عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق ملائكةً أخرى فقال: إني خالقٌ بشراً من طين، فإذا أنا خلقتُه فاسجُدوا له فَأَبَوا، فأرسلَ عليهم ناراً فأحرَقتهم. ثم خلق ملائكة فقال: إني خالقٌ بشراً من طينٍ، فإنا أنا خلقتُه فاسجُدوا له. قالوا: سَمِعنا وأَطَعنا، إلا إبليس كانَ من الكافرين الأوَّلين. وفي ثُبوت هذا عنه بُعْدٌ، والظاهرُ أنَّه إسرائيليٌّ، والله أعلم.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالَفُ ولا يمانَعُ، بالخروج من المنزلةِ التي كان فيها من المَلأ الأعلى، وأنه ﴿رَجِيمٌ﴾، أي: مرجومٌ. وإنه قد أتبعه لعنةً لا تزال متصلة به، لاحقةً له، متواترةً عليه إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جُبَير أنه قال: لما لَعَنَ الله إبليسَ تَغيَّرت صورتُه عن صُورةِ الملائكة، ورَنَّ رنَّةً، فكلُّ رَنَّةٍ في الدنيا إلى يوم القيامة منها. رواه ابنُ أبي حاتم. وإنه لما تحقق الغَضَبُ الذي لا مَرَدَّ له سأَلَ من تمام

---

(١) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية ١٢.

(٢) المحتد: الأصل والجوهر.

حَسَدِهِ لآدم وذُرِّيته النَّظِرَةَ إلى يوم القيامة وهو يوم البعث، وأنه أجيبَ إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً، فلما تحقَّق النظِرة ـ قبَّحه الله ـ.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى مُخبراً عن إبليسَ وتمرُّده وعُتوِّه أنه قال للربِّ: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾، قال بعضهم: أقسم بإغواءِ الله له. قلت: وَيَحتَمِلُ أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾، أي: لذريةِ آدمَ عليه السلام. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أحبِّب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها، وأوزهم إليها وأزعجهم إزعاجاً، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾أي: كما أغويتني وقدَّرت عليَّ ذلك، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾، كما قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]. قال الله تعالى له مُتهدِّداً ومُتوعِّداً: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: مرجعكم كُلُّكم إليَّ، فأجازيكم بأعمالِكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤]. وقيل: طريقُ الحقِّ مرجِعُها إلى الله تعالى، وإليه تَنتَهي. قاله مجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ، كما قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]. وقرأ قيسُ بن عُباد، ومحمد بن سيرينَ، وقتادةُ: «هذا صِراطٌ عَلِيٌ مستقيمٌ»، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف: ٤]، أي: رفيعٌ. والمَشهورُ القراءةُ الأولى.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، أي: الذين قدرتُ لهم الهداية فلا سبيلَ لك عليهم، ولا وصولَ لكَ إليهم. ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾، استثناءٌ منقطعٌ. وقد أورد ابنُ جَرير ها هنا من حديث عبد الله بن المبارك، عن عبد الله بن مَوْهَب، حدثنا يزيدُ بن قُسيط قال: كانت الأنبياءُ يكونُ لهم مساجدُ خارجةٌ من قراهم، فإذا أراد النبي أن يستنبىء رَبَّه عن شيء خَرَجَ إلى مسجده فَصلَّى ما كتب الله له، ثم سأل ما بدا له، فبينا نبيٌّ في مسجده إذ جاء عدوُّ الله ـ يعني إبليسَ ـ حتى جلس بينَه وبينَ القبلةِ، فقال النبيُّ: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم. فقال عدوّ الله: أرأيت الذي تَعوّذُ منه؟ فَهُو هُو. فقال النبي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. قال: فَرَدَدَ ذلك ثلاثَ مراتٍ، فقال عدوُّ الله: أَخبِرني بأيِّ شيء تنجو مِنِّي؟ فقال النبي: بل أَخبِرني بأيِّ شيء تَغلبُ ابنَ آدم؟ مرتين، فأخذ كلُّ واحد منهما على صاحبه، فقال النبي: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾. قال عدو الله: قد سَمِعت هذا قبل أن تولد. قال النبيُّ ويقولُ الله تعالى ذكره: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وإني والله ما أحسستُ بك قَطُّ إلا استعذتُ بالله منك. قال عدوُّ الله: صدقتَ، بهذا تنجو مني. فقال النبي: أخبرني بأيِّ شيء تغلب ابنَ آدم؟ قال: آخذُه عند الغَضَبِ والهَوَى.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: جهنَّمُ موعدُ جميع من اتَّبع إبليسَ، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]. ثم أخبر أن لجهنَّم سبعةَ أبواب، ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾، أي: قد كُتِب لكلِّ بابٍ منها جزءٌ من أتباع إبليسَ يدخُلونه، لا محيدَ لهم عنه ـ أجارنا الله منها ـ وكلٌّ يدخلُ من بابٍ بحسب عمله، ويستقرُّ في دَرَكٍ بقدرِ فِعلِهِ. قال إسماعيل ابن عُلَيَّة وشعبةُ كلاهما عن أبي هارونَ الغَنَوي، عن حِطّانَ بن عبد الله أنه قال: سمعتُ علي بن أبي طالب وهو

يخطبُ قال: إن أبواب جهنم هكذا. قال أبو هارون: أطباقاً بعضُها فوق بعض. وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن هُبيرة بن يَرِيمَ، عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: أبوابُ جهنم سبعةٌ بعضُها فوق بعض، فيمتلىء الأولُ، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تُملأَ كُلُها. وقال عكرمة: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: سبعةُ أطباقٍ. وقال ابن جُرَيج: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: أولها جهنم، ثم لظَى، ثم الحُطَمة، ثم سعير، ثم سقَر، ثم الجَحِيم، ثم الهاوية. ورَوَى الضحاك، عن ابن عباس نَحْوَه. وكذا رُوِي عن الأعمش بنحوه أيضاً. وقال قتادةُ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾، هي والله منازلُ بأعمالهم. رواهنَّ ابن جرير. وقال جُويبر، عن الضحّاك: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾، قال: بابٌ لليهود، وبابٌ للنصارى، وبابٌ للصابئين، وبابٌ للمجُوسِ. وبابٌ للذين أشرَكوا ـ وهم كفارُ العَرَب ـ وبابٌ للمنافقين، وبابٌ لأهل التوحيدِ، فأهلُ التوحيد يُرجَى لَهم ولا يُرجَى لأولئك أبداً.

[٤٠٤٥] وقال الترمذيُّ: حدثنا عبدُ بن حُمَيدٍ، حدثنا عثمانُ بن عُمَر، عن مالك بن مِغْوَل، عن جُنَيدٍ، عن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ قال: «لجهنَّمَ أبوابٍ: بابٌ منها لمن سلَّ السيفَ على أمَّتي، أو قال: على أمّة محمدٍ»[١]. ثم قال: لا نعرِفُهُ إلا من حديث مالك بن مُغْوَل.

[٤٠٤٦] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عباس بن الوليد الخلال، حدثنا زيد ـ يعني ابن يحيى ـ حدَّثنا سعيدُ بن بشير، ،عن قتادة، عن أبي نَضْرَةَ، عن سَمُرة بن جُندَب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ ـ قال: إن من أهلِ النار من تأخذُه النار إلى كَعبيه، وإنَّ منهم من تأخذُه النار إلى حُجزَتِهِ، ومنهم من تأخذه النار إلى تَراقِيه، منازِلُ بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[٢].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

لما ذَكر تعالى حالَ أهلِ النار عَطفَ على ذكر أهل الجنة، وأنّهم في جناتٍ وعُيُون. وقولُه: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾، أي: سَالِمين من الآفاتِ، مُسَلَّماً عليكم، ﴿آمِنِينَ﴾ أي من كلِّ خَوفٍ وفَزَع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناءٍ. وقولُه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾، روى القاسم، عن أبي أمامة قال: يَدْخلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ على ما في صُدُورهم في الدنيا من الشحناءِ والضغائِن، حتى إذا توافَوا وتقابَلُوا نَزع الله ما في صُدُورهم في الدنيا من غِلٍّ، ثم قرأ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾. هكذا في هذه الرواية، والقاسم بن عبد الرحمن في روايته عن أبي أمامَةَ ضعيفٌ. وقد رَوَى سُنَيد في تفسيره: حدثنا ابنُ

---

(١) أخرجه الترمذي ٣١٢٣ والبخاري في «تاريخه» ١/ ٢/ ٢٣٥، وضعفه الترمذي بقوله: غريب. لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول أهـ، وجاء في تهذيب التهذيب: جنيد غير منسوب عن ابن عمر قال أبو حاتم: حديثه عن ابن عمر مرسل. وذكره ابن حبان في الثقات أهـ فالخبر منقطع، وقد تفرد ابن حبان بتوثيقه.

(٢) إسناده ضعيف، فيه عباس بن الوليد بن صُبح، قال أبو حاتم: شيخ ـ يكتب حديثه ـ وقال أبو داود: لا أُحدث عنه. راجع الميزان ٤١٨٥.

فضالة، عن لقمانَ، عن أبي أمامَةَ قال: لا يدخل مؤمنٌ الجنة حتى يَنزِعَ الله ما في صدره من غلّ، حتى ينزع منه مثلَ السَّبُع الضَّارِي.

[٤٠٤٧] وهذا موافق لما في الصحيح، من رواية قتَادَةَ: حدثنا أبو المتوكل النَّاجي: أن أبا سعيدٍ الخدريَّ حَدَّثهم؛ أن رسولَ الله ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار، فيُحْبَسُون على قنطرةٍ بين الجنة والنارِ، فَيُقْتَصُّ لبعضهم من بعضٍ، مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقّوا أُذِنَ لهم في دخولِ الجنة»[1].

وقال ابنُ جرير: حدثنا الحسن، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا هشامٌ، عن محمد ـ هو ابن سيرينَ ـ قال: استأذن الأشترُ على عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ وعنده ابن لطلحةَ، فَحَبَسه ثم أَذِن له. فلما دخل قال: إني لأراكَ إنما احتبستني لهذا؟ قال: أجل. قال: إني لأراه لو كان عندك ابنٌ لعثمانَ لحبستَني؟ قال: أجل، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وقال ابن جرير أيضاً حدثنا الحسنُ بن محمد: حَدَّثنا أبو معاوية الضريرُ، حدثنا أبو مالك الأشجعيُّ، عن أبي حَبيبة ـ مولىً لطلحةَ ـ قال: دخل عمرانُ بنُ طلحةَ على عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ بعدما فَرغ من أصحاب الجمل، فَرحَّب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾. قال: ورجلانِ جالسان على ناحية البساط، فقال: الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونون إخواناً! فقال علي ـ رضي الله عنه ـ: قوما أبعدَ أرضٍ وأسحقَها! فمن هم إذاً إن لم أكن أنا وطلحة؟! وذكر أبو معاوية الحديثَ بطُوله. وروى وكيع، عن أبان بن عبد الله البَجَلي، عن نُعَيم بن أبي هند، عن رِبْعِيِّ بن حراشٍ، عن علي، نحوه، وقال فيه: فقام رجلٌ من هَمْدانَ فقال: الله أعدلُ من ذلك يا أميرَ المؤمنين. قال: فصاحَ به عليٌّ صيحةً، فظننتُ أن القصر تَدَهْدَهَ لَهَا، ثم قال: إذا لم نكن نحنُ فمن هُم؟!

وقال سعيدُ بن مسروقٍ، عن أبي طلحةَ ـ وذكره ـ وفيه: فقال الحارثُ الأعورُ ذلك، فقام إليه عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ فضربه بشيءٍ كان في يده في رأسِهِ، وقال: فمن هُم يا أعورُ إذا لم نكن نحن؟! وقال سفيانُ الثوريُّ، عن منصور، عن إبراهيم قال: جاء ابنُ جُرموزٍ قاتلُ الزبير يستأذن على عليّ ـ رضي الله عنه ـ فَحجبه طويلاً، ثم أذن له، فقال له: أما أهلُ البلاءِ فَتجفُوهم. فقال علي: بفيك الترابُ، إني لأرجو أن أكونَ أنا وطلحةَ والزُّبير مِمَّن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾. وكذا روى الثوري، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عليٍّ، بنحوه. وقال سفيانُ بنُ عيينة، عن إسرائيلَ، عن أبي موسى، سَمِع الحسنَ البصريَّ يقول: قال علي: فينا واللّهِ ـ أهلَ بدرٍ ـ نزلَت هذه الآيةُ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾. وقال كثيرٌ النَّوّاء: دخلتُ على أبي جعفرٍ محمدِ بن علي فقلتُ: وَلِيِّي وليُّكم، وسِلْمِي سلمكم، وعَدُوِّي عَدُوُّكم، وحَرْبي حَرْبُكم. إني أسألُكَ بالله: أَتبرأ من أبي بكر وعمر؟ فقال: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦]، تَولَّهُمَا يا كَثِير، فما أدركَكَ فهو في رقبتي هذه. ثم تلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، قال: أبو بكر، وعمر، وعلي، رضي الله عنهم أجمعين. وقال الثوريُّ، عن رجل، عن أبي صالح في قوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، قال: هم عشرةٌ:

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٤٠ وأحمد ٣/ ١٣ وقد تقدم في سورة الأعراف عند الآية: ٤٣.

أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليٌّ، وطلحةُ، والزُّبير، وعبدُ الرحمنِ بنُ عَوفٍ، وسعدُ بن أبي وَقاص، وسعيدُ بنُ زيدٍ، وعبد الله بنُ مسعودٍ، رضي الله عنهم أجمعين. وقولُه: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ـ قال مجاهد ـ لا ينظر بعضُهم في قفا بعض. وفيه حديث مرفوع:

[٤٠٤٨] قال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك القزوينيُّ، حدثنا حَسَّان بنُ حَسَّان، حدثنا إبراهيم بن بَشِير، حدثنا يحيى بن معين، عن إبراهيم القُرَشي، عن سعيد بن شُرَحبيل، عن زيدِ بن أبي أوفى قال: خَرَج علينا رسولُ الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ المتحابّون في الله، ينظر بعضُهم إلى بعضٍ[١]. وقولُه: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾، يعني المشقَّةَ والأذى، كما جاء في الصَّحِيحَين:

[٤٠٤٩] «إن الله أَمَرني أن أَبَشِّرَ خديجة ببيت في الجَنَّةِ من قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ»[٢].

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، كما جاء في الحديث:

[٤٠٥٠] «يقال: يا أَهْلَ الجنةِ، إن لكم أن تَصِحُّوا فلا تَمرضُوا أبداً، وإن لكم أن تَعِيشوا فلا تَمُوتُوا أبداً، وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرمُوا أبداً، وإن لكم أن تُقِيمُوا فلاَ تَظْعَنُوا أبداً»[٣]. وقال الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف: ١٠٨]. وقولُه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾، أي: أخبر ـ يا محمد ـ عبادي أني ذُو رحمةٍ وذو عقابٍ أليم. وقد تَقَدَّم ذكرُ نظير هذه الآية الكريمة، وهي دالَّةٌ على مقامَي الرجاءِ والخوفِ.

[٤٠٥١] وذُكِر في سبب نزولها ما رواه مُوسى بن عُبَيدة، عن مصعب بن ثابت قال: مَرَّ رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكُون، فقال: «اذكُروا الجنةَ، واذكُروا النار». فنزلت: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾[٤]، رواه ابن أبي حاتم. وهو مُرسَلٌ.

[٤٠٥٢] وقال ابنُ جرير: حدثني المثنّى، حدثنا إسحاقُ، أخبرنا ابن المكّي، أخبرنا ابنُ المبارك، أخبرنا مُصَعبُ بن ثابت، حدثنا عاصم بن عُبَيد الله، عن ابن أبي رَبَاح، عن رجُلٍ من أصحاب النبي ﷺ قال: طَلَع علينا رسولُ الله ﷺ من الباب الذي يدخلُ منه بنو شيبةَ، فقال: «ألا أراكم تضحَكُون؟» ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رَجَع إلينا القَهقَرَى، فقال: «إني لما خرجتُ جاء جبريلُ ـ عليه السلام ـ فقال: يا محمد؟ إن الله يقول لك: لِمَ تُقنِط عبادي؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾»[٥].

[٤٠٥٣] وقال سعيدٌ، عن قتادةَ في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩﴾، قال: بلغنا أَنَّ

---

(١) إسناده ضعيف، سعيد بن شرحبيل مجهول كما في «اللسان» وإبراهيم القرشي مجهول أيضاً. وساقه البغوي في «تفسيره» ٣/ ٤٣ بدون إسناد.

(٢) صحيح، أخرجه البخاري ٣٨١٦ ومسلم ٢٤٣٤ من حديث عائشة بأتم منه.

(٣) صحيح. هو بعض حديث أخرجه مسلم ٢٨٣٧ والترمذي ٣٢٤٦ من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، وليس فيه قوله: «وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا».

(٤) ضعيف. هذا مرسل، لكن وصله الطبراني كما في «المجمع» ١١١٠٧ عن عبد الله بنِ الزبير، وأعله الهيثمي بقوله: موسىٰ بن عبيدة ضعيف أهـ، وفيه أيضاً مصعب بن ثابت. ضعفه يحيىٰ وأحمد.

(٥) ضعيف، أخرجه الطبري ٢١٢١٤ بهذا الإسناد، وهو ضعيف، له علتان: مصعب بن عبيد الله ضعفوه وقال أبو زرعة وأبو حاتم: منكر الحديث.

رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبدُ قدرَ عفوالله لما تورّع من حرام، ولو يعلَم قدرَ عقابِهِ لبَخع نفسه»[1].

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى: وخبِّرهم يا محمدُ عن قصّة ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ـ والضيفُ ـ يُطلَقُ على الواحد والجمع، كالزَّورِ والسَّفرِ ـ وكيف ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾، أي: خائفون. وقد ذُكر سببُ خوفِه منهم لمّا رأى أيديهم لا تصِلُ إلى ما قرَّبه لهم من الضيافة، وهو العجلُ السمينُ الحَنيذُ: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾، أي: لا تخَفْ، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وهو إسحاق عليه السلام، كما تقدم في سورة هود. ثم ﴿قَالَ﴾ مُتعجّباً من كِبَرِه وكِبَر زوجته ومتحقِّقاً للوعد ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، فأجابوه مؤكدين لما بَشّرُوه به تحقيقاً وبشارةً بعد بشارةٍ، ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ ـ وقرأ بعضهم: «القنطين» ـ فأجابهم بأنه ليس يقنَطُ ولكن يرجُو من الله الولد، وإن كان قد كَبِر وأسنّت امرأتُه فإنه يعلَمُ من قُدرَةِ الله ورَحمتِهِ ما هو أبلغُ من ذلك.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

يقولُ تعالى إخباراً عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لمّا ذهب عنه الروعُ وجاءته البُشرى: إنه شَرَع يسألُهم عما جاؤوا له، فقالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، يعنون قومَ لوطٍ. وأخبروه أنهم سَيُنجُون آل لُوطٍ من بينهم إلا امرأته فإنّها من المُهلكين. ولهذا قالوا: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾، أي: الباقين المُهلَكين.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾

يُخبر تعالى عن لوطٍ لما جاءته الملائكةُ في صورة شبابٍ حسانِ الوُجوهِ، فدخلُوا عليه داره ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾، يعنون: بعذابهم وهلاكهم ودَمارهم الذي كانوا يَشكُون في وُقُوعه بهم، وحُلُوله بساحتهم. ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨]. وقولُه: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، تأكيدٌ لخبرهم إيّاه بما أخبروه به من نجاتِه وإهلاكه قومِهِ.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يذكُر تعالى عن الملائكة أنّهم أمرُوه أن يُسريَ بأهله بعد مُضيِّ جانبٍ من الليلِ، وأن يَكُونَ لوطٌ ـ عليه

---

(١) ضعيف، أخرجه الطبري ٢١٢١٣ عن قتادة مرسلاً، والمرسل من قسم الضعيف عند أهل هذا الفن.

السلام ـ يمشي وراءهم، ليكونَ أحفظَ لهم. وهكذا كان رسولُ الله ﷺ يمشي في الغَزاةِ بما كان يكونُ ساقةً، يُزجِي الضَّعيفَ، ويَحمِلُ المُنقَطِعَ. وقولُه: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾، أي: إذا سمِعتُم الصيحة بالقوم فلا تَلْتَفِتُوا إليهم، وذَرُوهم فيما حلَّ بهم من العَذابِ والنَّكالِ، ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾، كأنه كانَ مَعَهم مَن يهديهم السَّبيل. ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ﴾، أي: تَقدَّمنا إليه في هذا ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾، أي: وقتَ الصباح، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾

يخبرُ تعالى عن مجيء قوم لوطٍ لمَّا عَلِمُوا بأضيافه وصَبَاحةِ وُجُوههم، وأنهم جاؤوا مُستبشِرين بهم فَرِحين، ﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾. وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلَم بأنهم رُسلُ الله كما في سياقِ سُورةِ هودٍ، وأمَّا ها هنا فتقدَّم ذِكرُ أنهم رُسُلُ الله، وعَطَف بذكر مجيء قومه ومحاجَّته لهم. ولكن الواو لا تقتضي الترتيبَ، ولا سيما إذا دلَّ دليلٌ على خلافه. فقالوا له مجيبين: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي أوَما نَهيناك أن تُضِيف أحداً؟! فأرشدهم إلى نسائهم، وما خَلَق لهم ربُّهم منهنَّ من الفُرُوج المباحَةِ. وقد تَقدَّم أيضاً القولُ في ذَلِكَ، بما أغنى عن إعادَتِهِ. هذا كلُّه وهُم غافِلُون عما يُراد بهم، وما قد أحاطَ بهم من البَلاَء، وماذا يُصبحهم من العذاب المنتظر. ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾، أقسم تعالى بحياة نَبيِّه صلواتُ الله وسلامُه عليه، وفي هذا تشريف عظيمٌ، ومقامٌ رفيعٌ وجاهٌ عريضٌ. قال عمرو بن مالك النُكريُّ، عن أبي الجَوزاء، عن ابن عباس أنه قال: ما خَلق الله وما ذَرأ وما بَرأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سَمِعتُ الله أقسم بحياة أحدٍ غيرَه. قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾. يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ رواه ابن جرير. وقال قتادةُ: ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾، أي: في ضَلالتهم، ﴿يَعْمَهُونَ﴾، أي: يلعبون. وقالَ عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿لَعَمْرُكَ﴾: لَعَيشُكَ، ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، قال: يَتَحيَّرون.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾، وهي ما جاءهم من الصَّوتِ القاصفِ عند شُروق الشمسِ، وهو طلوعُها، وذلك مع رَفْع بلادهم إلى عَنانِ السماء ثم قَلْبِها، وجَعْلِ عاليها سافلَها، وإرسالِ حجارةِ السِّجِّيل عليهم. وقد تقدَّم الكلام عن السِّجيل في هود بما فيه كفاية. وقولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾. أي: إنَّ آثار هذه النِّقم ظاهرةٌ على تلك البلادِ لمن تأمَّل ذلك وتوسَّمه بعين بَصَره وبصِيرته، كما قال مجاهدٌ في قوله: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، قال: المُتفرِّسين. وعن ابن عباس، والضحاك: للناظرين. وقال قتادةُ: للمُعتبِرين. وقال مالكٌ عن بعضِ أهلِ المدينة: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: للمُتَأمِّلين.

[٤٠٥٤] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الحسن بنُ عرفةَ، حدثنا محمد بن كَثير العَبْدِي، عن عمرو بن قيس، عن عَطِيَّةَ، عن أبي سعيد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ

النبي ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[1]. رواه الترمذيُّ، وابنُ جَرير، من حديث عَمْرو بن قيس المُلائِيِّ به، وقال الترمذيُّ: لا نَعرِفه إلا من هذا الوجه.

[٤٠٥٥]وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثني أحمد بن محمد الطوسيُّ، حدثنا الحسنُ بن محمد، حدثنا الفُراتُ بن السائِب، حدثنا ميمونُ بن مِهْران، عن ابن عُمَر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اتَّقُوا فَراسَةَ المؤمن فإنَّ المؤمنَ ينظُر بنور الله»[2].

[٤٠٥٦]وقال ابن جرير: حدثني أبو شُرَحبيل الحمصيُّ، حدثنا سُليمان بن سَلمة، حدثنا المؤمَّل بن سَعِيد بن يوسف الرَّحبي، حدثنا أبو المعلى أسدُ بن وَدَاعة الطائي، حدثنا وهبُ بن مُنَبِّه، عن طاووس بن كيسانَ، عن ثوبانَ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «احذَرُوا فِراسة المؤمنِ؛ فإنه ينظر بنور الله وينطِقُ بتوفيق الله»[3].

[٤٠٥٧]وقال أيضاً: حدثنا عبد الأعلى بن واصل، حدثنا سعيد بن محمد الجَرْميُّ، حدثنا عبد الواحد بن واصل، حدثنا أبو بشر المُزَلِّق، عن ثابتٍ، عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «إن لله عباداً يعرِفُون الناس بالتوسُّم»[4].

[٤٠٥٨]ورواه الحافظ أبو بكر البزَّارُ: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا سعيد بن محمد الجَرْميُّ، حدثَنا أبو بشر ـ يقال له: ابن المُزَلِّق ـ قال: وكان ثقة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ للهِ عِبَاداً يعرِفُون الناس بالتوسُّم»[5]. وقولُه: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾، أي: وإنَّ قرية سَدُومَ التي أصابها ما أصابها من القَلْبِ الصُّورِيِّ والمعنوي، والقَذْف بالحجارة، حتى صارت بحيرةً مُنتِنةً خَبيثة لَبِطَريقٍ مَهْيَع مسالِكُه، مُستَمِرَّةٍ إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الترمذي ٣١٢٧ والبخاري في «تاريخه» ٤/ ١/ ٣٥٤ والطبري ٢١٤٩ والعقيلي ٤/ ١٢٩ وأبو نعيم ١٠/ ٢٨١ ـ ٢٨٢ والخطيب ٧/ ٢٤٢ وابن الجوزي ٣/ ١٤٥ ـ ١٤٦، وإسناده ضعيف لأجل عطية، فقد ضعفوه، وهو مدلس وقد عنعن، وضعفه الترمذي بقوله: غريب، وأما ابن الجوزي فحكم بوضعه، وانظر ما بعده.

(٢) ضعيف، أخرجه الطبري ٢١٢٥١ وأبو نعيم ٤/ ٩٤ وابن الجوزي ٣/ ١٤٥ ـ ١٤٦ وعلته الفرات بن السائب ضعفه الجمهور، وقال أبو حاتم: كان كذاباً. وانظر ما بعده.

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري ٢١٢٥٥ وأبو الشيخ في «الأمثال» ١٢٨، وعلته سليمان بن سلمة الخبائري ضعفه النسائي وغيره، وقال ابن الجنيد: كان يكذب، أهـ وانظر ما بعده. وورد من حديث أبي أمامة أخرجه الخطيب ٥/ ٩٩ والطبراني ٧٤٩٧ وأبو نعيم ٦/ ١١٨ وابن الجوزي ٣/ ١٤٦ ـ ١٤٧ وعلته عبد الله بن صالح كاتب الليث، قال أحمد: ليس بشيء، وقال ابن حبان: يروي عن الثقات ما لا يشبه حديث الأثبات. وورد من حديث أبي هريرة، أخرجه أبو الشيخ في «الأمثال» ١٢٦ وابن الجوزي ٣/ ١٤٧ وأعله بسليمان بن أرقم، وأنه متروك. واتهمه ابن حبان بالوضع، فالخبر واهٍ واللفظ الآتي أحسن إسناداً ومتنه أقرب.

(٤) لا بأس به، أخرجه الطبري ٢١٢٥٢ والبزار ٣٦٣٢ والقضاعي ١٠٠٥ والطبراني في «الأوسط» ٢٩٥٦، ورجاله ثقات معروفون سوىٰ أبي بشر بكر بن الحكم، لينه أبو زرعة، ووثقه ابن حبان وأبو عبيدة الحداد وأبو سلمة التبوذكي، وقال الذهبي: في «الميزان» صدوق، وقال الحافظ ابن حجر: صدوق فيه لين، وحديثه حسنه الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٢٦٨ ووافقه السخاوي في المقاصد ٢٣ لكن استنكره أبو حاتم والذهبي حيث قال: روىٰ خبراً منكراً قاله أبو حاتم. ثم ذكره. ولعل الراجح وقفه والله أعلم.

(٥) إسناده كسابقه.

ـ ١٣٨]. وقال مجاهد، والضحَّاكُ: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾، قال: مَعْلَم. وقال قتادةُ: بطريقٍ واضح. وقال قتادةُ أيضاً: بِصُقْعٍ من الأرضِ واحدٍ. وقال السديُّ: بكتابٍ مبينٍ، يعني كقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. ولكن ليس المعنى على ما قال ها هنا، والله أعلم. وقولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾، أي: إن الذي صنعنا بقوم لوطٍ من الهلاكِ والدَّمارِ وإنجائنا لوطاً وأهلَه لدلالةٌ واضحةٌ للمؤمنين بالله ورُسُلِه.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

أصحابُ الأيكةِ: هم قومُ شُعيب. قال الضحَّاك، وقتادةُ، وغيرُهما: الأيكةُ الشجرُ الملتفُّ. وكان ظلمُهم بشركهم بالله وقطعِهم الطريقَ، ونَقْصِهم المكيالَ والميزانَ، فانتقم الله منهم بالصَّيحةِ والرَّجفةِ وعذاب يوم الظُّلَّةِ، وقد كانوا قريباً من قوم لوطٍ، بَعْدَهم في الزمان، ومُسامتين لهم في المكان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: طَريق مبين. قال ابن عباس، ومجاهد، والضَّحاكُ: طريق ظاهر. ولهذا لما أنذر شُعَيبٌ قومَه قال في نِذَارته إيّاهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

أصحابُ الحِجْرِ هم: ثمودُ الذين كَذَّبوا صالحاً نَبِيَّهم، ومن كَذَّب برسولٍ فقد كَذَّبَ بجميعَ المُرسَلين، ولهذا أطلق عَليهم تكذِيبَ المُرسَلين. وذكر تعالى أنه آتاهم من الآيات ما يدلُّهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقةِ التي أخرجها الله لهم بدُعاءِ صالحٍ من صخرةٍ صَمَّاءَ، فكانت تسرَحُ في بلادهم، لها شِرْبٌ ولهم شِربُ يوم معلوم، فلما عتَوا وعقَروها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. وذكر تعالى: أنهم ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾، أي: من غير خَوف ولا احتياج إليها، بل أشراً وبَطَراً وعَبَثاً، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحِجْرِ الذي مرَّ به رسولُ الله ﷺ وهو ذاهب إلى تَبوك فَقَنَّعَ رأسه، وأسرعَ دابَّته، وقال لأصحابه:

[٤٠٥٩] «لا تدخلُوا بيوتَ المعذَّبين، إلا أن تكونوا باكِين، فإن لم تبكوا فَتَباكَوا خشية أن يُصيبكم ما أصابهم»(١). وقولُه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾. أي: وقتَ الصباح من اليوم الرابع، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾، أي: ما كانوا يَستغلّونه من زُروعهم وثِمارهم التي ضَنُّوا بمائها عن الناقة، حتى عَقروها لئلا تُضيِّقَ عليهم في المياه، فما دَفَعت عنهم تلك الأموال، ولا نَفَعتهم لمَّا جاء أمرُ ربِّكَ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، أي: بالعدل، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾

(١) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية: ٧٣.

فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦]. ثم أخبرَ نَبيَّه بقيام الساعةِ، وأنها كائنةٌ لا محالةَ. ثم أَمَرَ بالصَّفح الجَمِيل عن المشركين في أذاهم له وتكذِيبهم ما جاءهم به، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف: ٨٩]. وقال مجاهدٌ وقتادةُ وغيرُهما: كان هذا قبلَ القِتالِ. وهو كما قالا، فإن هذه مكيَّةٌ، والقتالُ إنما شُرِعَ بعد الهجرة. وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾، تقريرٌ للمعادِ، وأنه تعالى قادرٌ على إقامةِ الساعة فإنه الخلاَّقُ الذي لا يُعجِزُه خلقُ ما يشاءُ، وهو العَلِيمُ بما تَمزَّق من الأجساد، وتفرَّق في سائر أقطار الأرض، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨١ ـ ٨٣].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

يقولُ تعالى لنبيِّه ﷺ: كما آتيناك القرآنَ العظيم فلا تنظرنَّ إلى الدنيا وزينتِها، وما مَتَّعنا به أهلَها من الزهرة الفانية لِنفتِنَهم فيه، فلا تغْبِطهم بما هُم فيه، ولا تذهَب نفسُك عليهم حَسَراتٍ حَزناً عليهم في تكذِيبهم لك، ومخالفتهم دينك. ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، أي: أَلِن لهم جانِبكَ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقد اختلف في السبع المثاني: ما هي؟ فقال ابنُ مسعود، وابنُ عُمَر، وابن عباس، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، والضَّحاك، وغيرُهم: هي السبع الطُّوَل. يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. نَصَّ عليه ابنُ عباس، وسعيد بن جُبَير. وقال سَعيد: بيَّن فيهنَّ الفرائضَ، والحدودَ والقَصَص، والأحكام. وقال ابنُ عباس: بيَّن الأمثال والخَبَر والعِبَر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عُمَر قال: قال سفيان: ﴿ٱلْمَثَانِى﴾، البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال وبراءةُ سورةٌ واحدةٌ. قال ابن عباس: ولم يُعطَهنَّ أحدٌ إلا النبيَّ ﷺ وأُعطِيَ موسى منهن ثنتين. رواه هُشَيم، عن الحجاج، عن الوليد بن العيزارِ، عن سعيد بن جُبَير، عنه. وقال الأعمش، عن مسلم البَطِين، عن سعيدِ بن جُبَير، عن ابن عباس قال: أوتي النبي ﷺ سبعاً من المثاني الطُّوَل، وأوتي موسى ـ عليه السلام ـ سِتاً، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنتان وبقيت أربع. وقال مجاهد: هي السبع الطُّوَل. ويقال: هي القرآن العظيم. وقال خُصَيف، عن زياد بن أبي مريم في قوله تعالى: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾، قال: أعطيتُكَ سبعة أجزاءٍ: آمر، وأنهى، وأبشّر، وأنذِر، وأَضربُ الأمثالَ، وأعدِّد النِّعَم، وأنبئك بِنَبأ القرآن. رواه ابنُ جَرير، وابنُ أبي حاتم. والقولُ الثاني: أنها الفاتحةُ، وهي سبعُ آياتٍ. رُوِي ذلك عن عُمَر، وعلي، وابن مسعودٍ، وابن عباس، قال ابن عباس: والبسمَلَةُ هي الآية السابعةُ، وقد خصَّكم الله بها. وبه قال إبراهيمُ النخَعِيُّ، وعبد الله بن عبيد الله عُمَير، وابن أبي مُلَيكة، وشهرُ بن حَوْشَبٍ، والحسن البصريُّ، ومجاهد.

وقال قتادةُ: ذُكِر لنا أنهنَّ فاتحةُ الكتابِ، وأنهنَّ يُثنَّينَ في كل قراءة. وفي رواية: في كلِّ ركعةٍ مكتوبةٍ أو تطوُّع. واختاره ابنُ جرير، واحتجَّ بالأحاديثَ الواردةِ في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة الفاتحة في أول التفسير، ولله الحمدُ، وقد أورَدَ البخاريُّ ـ رحمه الله ـ ها هنا حَدِيثين:

[٤٠٦٠]أحدُهما، قال: حدَّثنا محمد بن بشار، حدثنا غُندَرٌ، حدثنا شعبةُ، عن خُبيب بن عبد الرحمن، عن حَفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعلّى قال: مَرَّ بي النبيُّ ﷺ وأنا أصلِّي، فدعاني فلم آته حتى صلَّيتُ، ثم أتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنتُ أُصلِّي. فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾[1] [الأنفال: ٢٤]، ألا أعلِّمك أعظَمَ سورة في القرآن قبل أن أخرُجَ من المسجد؟» فذهبَ النبيُّ ﷺ ليخرُجَ، فذكَّرته فقال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيته».

[٤٠٦١]الثاني، قال: حدثنا آدم، حدثنا ابن أبي ذئب، حدثنا المَقبُريُّ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أمُّ القرآنِ هي السبعُ المَثاني والقرآنُ العظيم»[2]. فهذا نصٌّ في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا يُنافي وصفَ غيرها من السبع الطُّوَل بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا يُنافي وصفَ القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، فهو مثاني من وجه، ومُتَشابهةٌ من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً.

[٤٠٦٢]كما أنه عليه السلام لما سُئل عن المسجد الذي أُسِّس على التقوى، فأشار إلى مسجِدِه[3]، والآية نزلَت في مسجدِ قُباء، فلا تَنافِيَ، فإنَّ ذكر الشيء لا يَنفِي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصِّفَة، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾، أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عمَّا هم فيه من المتاع والزَّهرة الفانية؛ ومن ها هنا ذهب ابنُ عُيينَة إلى تفسير الحديثِ الصَّحيح:.

[٤٠٦٣] «ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن»[4]، إلى أنه يُستغنى به عما عداه، وهو تفسيرٌ صحيحٌ، ولكن ليس هو المقصود من الحديث، كما تقدَّم في أوَّلِ التفسير.

[٤٠٦٤]وقال ابن أبي حاتم: ذُكِر عن وكيع بن الجرَّاح، حدثنا موسى بن عُبَيدة، عن يَزيد بن عبد الله بن قُسَيطٍ، عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال: أضافَ النبي ﷺ ضيفٌ، ولم يكن عند النبيِّ ﷺ شيءٌ يُصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: يقول لك محمدٌ رسولُ الله: أَسْلِفني دقيقاً إلى هلالِ رجَب. قال: لا، إلاَّ برَهْن. فأتيت النبيَّ ﷺ فأخبرته فقال: «أما والله إني لأمينٌ من في السماء وأمينٌ مَن في الأرض، ولئن أسلَفني أو باعَني لأؤدِّيَنَّ إليه». فلما خرجتُ من عنده نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾ إلى آخر الآية، كأنهُ يعزِّيه عن الدنيا[5]. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، قال: نَهى الرجلَ أن يتمنَّى مالَ صاحِبِه. وقال مجاهدٌ: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾، هم: الأغنياء.

---

(١) وتقدم الحديث فيها.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٠٤ وقد تقدم.

(٣) تقدم في سورة التوبة.

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود ١٤٦٩ وأحمد ١/ ١٧٥ وابن حبان ١٢٠، صححه الحاكم ١/ ٥٦٩ ووافقه الذهبي.

(٥) إسناده ضعيف. فيه موسى بن عبيدة الربذي ضعفوه. وله علة ثانية: وهي الانقطاع بين ابن أبي حاتم، ووكيع، والخبر منكر، فليس المراد من الآية النهي عن السلف والدين.

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يأمر تعالى نبيَّه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يقولَ للناس: إنه ﴿ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾، البَيِّنُ النِّذارة، نذيرٌ للناس من عذاب أليم أن يحلَّ بهم على تكذيبه كما حَلَّ بمن تقدَّمهم من الأمم المُكَذِّبة لرسلها، وما أنزل اللَّهُ عليهم من العَذَابِ والانتقام. وقولُه: ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾، أي: المتحالفين. أي: تحالَفُوا على مخالفة الأنبياء وتكذِيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح إنهم، ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩] الآية، أي: نَقتلهم ليلاً. قال مجاهد: تقاسَمُوا: تحالَفُوا. ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩]، فكأنهم كانوا لا يُكذِّبون بشيء إلا أقسموا عليه، فَسُمُّوا مقتسمين. قال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ: المقتَسِمُونَ أصحابُ صَالح، الذين تقاسَمُوا بالله لَنُبيِّتنه وأهلَه.

[٤٠٦٥] وفي الصحيحين، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إنما مَثَلي ومثلُ ما بَعَثني الله به كَمَثلِ رَجُل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيتُ الجيش بعينيَّ، وإني أنا النذيرُ العريانُ، فالنَّجاءَ النَّجاءَ! فأطاعه طائفة من قومه فأدلَجُوا وانطلقوا على مَهلِهم فَنَجَوا، وكذَّبه طائفةٌ منهم فأصبَحُوا مكانهم، فَصَبحهم الجيشُ فأهلَكَهُم واجتاحَهُم. فذلك مثلُ من أطاعني واتَّبع ما جئتُ به، ومثلُ من عَصَانِي وكذب ما جئتُ بِهِ مِنَ الحقِّ»[1].

وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾، أي: جَزَّؤوا كُتبَهم المنزلَة عليهم، فآمنوا ببعضٍ وكَفَرُوا ببَعضٍ. قال البخاريّ: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيم، أنبأنا أبو بشر، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾، قال: هم أهل الكتاب، جَزَّؤوه أجزاءً، فآمنوا ببعضه، وكَفَرُوا ببعضه. حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾. قال: آمنوا ببعضٍ، وكفَرُوا ببعضٍ: اليهود والنصارى. قال ابنُ أبي حاتم: ورُوِي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن، والضحاك، مثلُ ذلك. وقال الحكم بن أبانَ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس: ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾، قال: السحر. وقال عكرمةُ: العَضَهُ: السحر بلسان قريش، تقول للساحرة: إنها العاضِهة. وقال مجاهد: عَضَوه أعضاءً، قالوا: سحرٌ، وقالوا: كهانةٌ، وقالوا: أساطيرُ الأولين. وقال عطاء: قال بعضهم: ساحر. وقال بعضهم: مجنون. وقال بعضُهم: كاهن. فذلك العِضُون. وكذا رُوِي عن الضحاك وغيره.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمةَ، عن ابن عباس: أن الوليدَ بن المُغيرة اجتمَعَ إليه نفرٌ من قُرَيش، وكان ذا شَرَفٍ فيهم، وقد حَضَر الموسم، فقال لهم: يا معشَرَ قريش، إنه قد حضَرَ هذا الموسمُ، وإنَّ وفودَ العرب ستقدِم عليكم فيه، وقد سَمِعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فَيُكَذِّبَ بعضُكم بعضاً، ويردَّ قولُكم بعضُه بعضاً. فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس فَقل وأقم لنا رأياً نقولُ به. قال: بل أنتم قولُوا لأسمَعَ. قالوا: نقولُ كاهن. قال: ما هو بكاهن! قالوا: فنقولُ مجنونٌ. قال: ما هو بمجنون! قالوا: فنقول شاعر. قال: ما هو بشاعر! قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر!

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٨٢ و ٧٢٨٣ ومسلم ١٢٨٣ وأبو يعلى ٧٣١٠.

قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لِقَولِهِ حلاوةً، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا هذا ساحرٌ. فَتَفَرَّقُوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أصنافاً، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾، أولئك النفرُ الذين قالوا ذلك لرسول الله ﷺ.

وقال عَطِيَّة العَوفيُّ، عن ابن عُمَرَ في قوله تعالى: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾، قال: عن لا إله إلا الله. وقال عبد الرزّاق: أنبأنا الثوري، عن لَيْثٍ ـ هو ابن أبي سُلَيم ـ عن مجاهد، في قوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾، قال: عن لا إله إلا الله.

[٤٠٦٦]وقد رَوَى الترمذي، وأبو يعلَى الموصلي، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، من حديث شَريك القاضي، عن ليث بن أبي سُليمَ، عن بَشِير بن نَهيك، عن أنس، عن النبي ﷺ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قال: عن لا إله إلا الله[١]. قال الترمذي: ورواه ابنُ إدريس، عن ليث، عن بَشير، عن أنسٍ موقوفاً.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك، عن هِلالٍ، عن عبد الله بن عُكَيم قال: قال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ: والذي لا إله غيرُه ما منكم من أحدٍ إلا سيخلُوا الله به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقَمَر ليلةَ البدر، فيقول: ابنَ آدمَ، ماذا غَرَّكَ مني بي؟ ابنَ آدمَ، ماذا عملتَ فيما علمت؟ ابنَ آدم، ماذا أجبتَ المرسَلِينَ؟ وقال أبو جعفر: عن الرَّبيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾، قال: يُسألُ العبادُ كلُّهم عن خَلَّتين يوم القيامة، عما كانوا يعبدُون، وماذا أجابُوا المرسلين؟. وقال ابن عيينة: عن عَمَلِكَ، وعن مَالِكَ.

[٤٠٦٧]وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحَوَارِي، حدثنا يونس الحَذَّاء، عن أبي حمزة الشيباني، عن معاذ بن جَبَل قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذُ، إنَّ المؤمن لَيُسألُ يومَ القيامةِ عن جميع سَعْيِه، حتى كحل عَيْنَيهِ، وعن فُتَات الطينة بإصبعه، فلا ألفيَنَّك يومَ القيامة وأحدٌ غيرك أسعدُ بما آتى الله منك»[٢]. وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾، ثم قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٣٩]، قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لِمَ عمِلتم كذا وكذا؟.

---

(١) ضعيف جداً، والصحيح موقوف. أخرجه الترمذي ٣١٢٦ والطبري ٢١٣٩٧ و ٢١٣٩٨ وأبو يعلىٰ ٤٠٥٨ من حديث أنس، ومداره علىٰ ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف لسوء حفظه، وضعفه الترمذي بقوله: غريب لا نعرفه إلا من حديث ليث، ورواه عبد الله بن إدريس عن ليث عن بشر عن أنس موقوفاً.

تنبيه: وقع عند ابن أبي حاتم والطبري «بشير بن نُهيك» وعلىٰ هذا، فللحديث علة واحدة، وهي ليث فإن «بشير بن نهيك» روىٰ له الستة، وقد وقع عند الترمذي وأبي يعلىٰ «بشر» غير منسوب، وهذا الأخير ذكره ابن حبان في الثقات، فقال: بشر بن دينار عن أنس وعن ليث بن أبي سليم أهـ، وانظر ما ذكره الشيخ حسين سليم أسد في مسند أبي يعلىٰ حول هذا الاختلاف، وبكل حال الخبر واهٍ، والصواب موقوف، والراجح أنهم سيسألون عن جميع أعمالهم كما بينته الآية التالية، فالخبر منكر.

(٢) ضعيف. أخرجه ابن الديلمي في «زهر الفردوس» ٤/ ٣٣٩، ويونس الحذاء عن أبي حمزة، كلاهما لم أعثر له علىٰ ترجمة، فالخبر واهٍ. وسيأتي في سورة العنكبوت، آية ١٣.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً رسولَه ـ صلواتُ الله وسلامهُ عليه ـ بإبلاغ ما بعثه به وبإنقاذِه والصَّدْع به، وهو مواجهةُ المشركين به، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، أي: أَمضِه، وفي رواية: افعل ما تؤمر. وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة. وقال أبو عُبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نَزَلت: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، فَخرج هو وأصحابهُ. وقولُه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾، أي: بَلِّغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يُريدون أن يَصدُّوكَ عن آياتِ اللهِ: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم: ٩]، ولا تَخفْهُم؛ فإن الله كافيكَ إيّاهم، وحافِظُك منهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

[٤٠٦٨] وقال الحافظ أبو بكر البزّار: حدثنا يحيى بن محمد بن السَّكن، حدثنا إسحاقُ بن إدريسَ، حدثنا عون بن كهْمَسَ، عن يزيد بن دِرْهَم، عن أنس قال: سَمِعتُ أنساً يقولُ في هذه الآية: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ قال: مرَّ رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم، فجاء جبريل ـ قال: أحسبه قال: فغمزهم، فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا[1].

[٤٠٦٩] وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين ـ كما حَدَّثني يزيدُ بن رُومان، عن عُروَةَ بن الزُّبير ـ خمسة نَفرٍ، وكانوا ذَوِي أسنانٍ وشَرَفٍ في قومهم: من بني أَسَدِ بن عبد العزّى بن قُصَيٍّ الأسودُ بن المطلب أبو زَمَعَةَ، كان رسولُ الله ﷺ فيما بلغني قد دعا عليه، لِمَا كان يَبلُغه من أذاه واستهزائِه، فقال: «اللهمَّ، أعْمِ بَصرَه، وأثْكِلْه ولدَه». ومن بني زُهرَةَ الأسودُ بن عبد يَغُوثَ بن وهب بن عبد مناف بن زُهْرَة. ومن بني مَخزوم الوليدُ بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم. ومن بني سهم بن عَمرو بن هُصَيص بن كعب بن لُؤَيٍّ العاصُ بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد. ومن خزاعة الحارثُ بن الطُّلاطِلَة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن مِلْكَانَ؛ فلما تمادَوا في الشرِّ وأكثرُوا برسول الله ﷺ الاستهزاءَ، أنزل الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾، إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وقال ابن إسحاق: فحدثني يزيدُ بن رُومان، عن عُروة بن الزبير، أو غيره من العلماء: أن جبريلَ أتى رسول الله ﷺ وهو يطوفُ بالبيت، فقام وقام رسولُ الله ﷺ إلى جنبه، فَمرَّ به الأسود بن المطلب، فرمى في وجهه بورقةٍ خضراء، فَعَمِي، ومَرَّ به الأسود بن عبد يَغُوثَ، فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه، فمات منه حبَناً[2]. ومَرّ به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جُرح بأسفلِ كعب رجله، كان أصابَه قبل ذلك بسنتين وهو يجرُّ إزارَه، وذلك أنه مَرَّ برجل من خُزاعة يَريشُ نَبْلاً له، فتعلق سهمٌ من نَبْلِهِ بإزاره، فَخَدش رجله ذلك

(١) أخرجه البزار ٢٢٢٢ والطبراني كما في «المجمع» ١١١١٢ من حديث أنس، قال الهيثمي: فيه يزيد بن درهم، ضعفه ابن معين، ووثقه الفلاس أهـ. وفيه عون، وهو مجهول، والخبر ضعيف.

(٢) الحَبَن: داء في البطن يعظم منه ويرم. والحِبن بالكسر: خُرَاجٌ كالدمّل وما يعتري الجسد فيقيح ويرم.

الخدش ـ وليس بشيء ـ فانتقضَ به فقتَله. ومرَّ به العاصُ بن وائل، فأشار إلى أخمَص قَدَمه، فخرج على حمارٍ له يريد الطائف، فربَض على شِبْرِقَةٍ فَدَخلت في أخْمَصِ رجلِه منها شوكةٌ فقتلته. ومَرَّ به الحارث بن الطلاَطِلة، فأشار إلى رأسه، فامتخط قَيحاً، فقتله[1].

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن رجُلٍ، عن ابن عباس قال: كان رأسُهم الوليدَ بن المغيرة، وهو الذي جَمَعَهُم. وهكذا رُوِيَ عن سعيد بن جُبَير وعِكْرِمةَ نحوُ سياق محمد بن إسحاقَ، عن يزيدَ، عن عروَة، بطوله. إلا أن سعيداً يقول: الحارثُ بن غَيْطَلة. وعِكْرِمةُ يقولُ: الحارثُ بن قيسٍ. قال الزهري: وصدقا، وهو الحارث بن قيس، وأمه غَيْطَلة. وكذا رُوِيَ عن مجاهد، ومِقْسَمٍ، وقتادة، وغير واحد: أنهم كانوا خمسةً. وقال الشعبيُّ: كانوا سبعةً، والمشهورُ الأوَّلُ.

وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦﴾، تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، لمن جَعَلَ مع الله معبوداً آخر. وقولُه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾، أي: وإنا لنعلَمُ ـ يا محمدُ ـ أنك يحصلُ لك من أذاهم لك انقباضٌ وضيقُ صدرٍ. فلا يَهيدَنَّكَ ذلك، ولا يُثنِيَنَّك عن إبلاغك رسالةَ الله، وتوكَّل على الله فإنه كافيكَ وناصرُكَ عليهم، فاشتغِل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادَتِه التي هي الصلاة، ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

[٤٠٧٠] حدثنا عبد الرحمن بن مَهدِيٍّ، حدثنا معاويةُ بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن كُثَير بن مُرَّة، عن نُعَيم بن هَمَّار: أنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «قال الله: يا ابن آدمَ، لا تَعْجِز عن أربعِ ركعاتٍ من أول النهار أكفك آخره»[2]. رواه أبو داودَ، من حديث مكحولٍ، عن كُثَير بن مُرة، بِنَحوِه.

[٤٠٧١] ولهذا كان رسولُ الله ﷺ إذا حَزبه أمرٌ صلَّى[3].

وقولُه تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾، قال البخاري: قال سالم: الموتُ. وسالم هذا هو: سالم بن عبد الله بن عمر؛ كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، عن سُفيانَ، حدثني طارق بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾، قال: الموت. وهكذا قال مجاهد، والحسنُ، وقتادةُ، وعبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ، وغيره. والدليل على ذلك قولُه تعالى إخباراً عن أهل النار أنَّهم قالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧﴾ [المدثر: ٤٣ ـ ٤٧].

[٤٠٧٢] وفي الصحيح من حديثِ الزهريِّ، عن خارجةَ بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ: أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمانَ بن مَظعُونٍ، وقد مات، قلتُ: رحمةُ الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليكَ لقد أكرمَكَ الله. فقال رسولُ الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمَه؟» فقلت: بأبي

---

(١) هذا مرسل، وقد شك ابن إسحق، هل ورد عن عروة بن الزبير أو غيره. وورد من وجه آخر من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني في «الطوال» ٣٣ وقال الهيثمي في «المجمع» ١١١١٣: فيه محمد بن عبد الحكم النيسابوري، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ. والخبر غريب، والأشبه أن المراد بالآية يوم بدر.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ١٢٨٩ وأحمد ٥/٢٨٦، وإسناده حسن صحيح.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٤٥.

وأمي يا رسولَ الله، فَمَن؟ فقال: «أمَّا هو فقد جاءه اليقينُ، وإني لأرجُو له الخيرَ»[١].

ويُستَدَلُّ من هذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾، على أنَّ العبادة كالصلاةِ ونحوها واجبةٌ على الإنسان ما دام عقلُه ثابتاً، فيصلي بحسب حاله،

[٤٠٧٣] كما ثَبَتَ في صحيح البخاري، عن عمرانَ بن حُصَين ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قائماً، فإن لم تَستطع فقاعداً، فإن لم تَستَطِع فعلى جَنبٍ»[٢]. ويُستَدلُّ بها على تخطئة من ذَهَب من الملاحدة إلى أن المراد باليقينِ المعرفةُ، فمتى وصلَ أحدُهم إلى المعرفة سَقَط عنه التكليفُ عندهم. وهذا كفرٌ وضلالٌ وجهلٌ؛ فإن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كانوا هم وأصحابهم أعلَمَ الناس بالله وأعرفَهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبدَ وأكثر الناسِ عبادةً ومواظبةً على فعل الخيرات إلى حين الوفاةِ، وإنما المرادُ باليقين ها هنا الموتُ، كما قَدمناه. ولله الحمدُ والمنَّة، والحمدُ لله على الهدايةِ، وعليه الاستعانةُ والتوكُّل، وهو المسؤول أن يتوفَّانا على أكمَلِ الأحوال وأحسَنِها. فإنه جواد كريم

* * *

آخرَ تفسيرِ سُورة الحِجْرِ، والحمدُ لله ربِّ العالمين

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٢٤٣ و ٣٩٢٩ والنسائي «الكبرى» ٧٦٣٤ وأحمد ٦/ ٤٣٦.

(٢) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٩١



وهي مكّية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودُنوّها معبراً بصيغة الماضي الدالّ على التحقُّق والوقوع لا محالةَ، كما قال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١] وقولُه: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، أي: قَرُبَ ما تباعد ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾. يَحتمِلُ أن يعودَ الضميرُ على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازمٌ، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤]. وقد ذَهب الضحّاكُ في تفسير هذه الآية إلى قولٍ عجيبٍ، فقال: في قوله ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، أي: فرائضه وحدوده. وقد ردَّه ابنُ جَرير فقال: لا نعلم أحداً استعجل الفرائضَ قبل وُجودها، بخلاف العَذابِ فإنَّهم استعجلوه قبل كَوْنِهِ، استِبْعاداً، وتكذيباً. قلتُ: كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: ١٨].

[٤٠٧٤] وقال ابنُ أبي حاتم: ذُكر عن يحيى بن آدم، عن أبي بكر بن عَيّاش، عن محمد بن عبد الله ـ مولى المغيرة بن شعبة ـ عن كعب بن عَلْقَمَةَ، عن عبد الرحمن بن حُجَيرَةَ، عن عُقبة بن عامر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تطلع عليكم عند الساعة سحابةٌ سوداء من المغرب مثلُ التُرسِ، فما تزال تَرْتَفِعُ في السماء، ثم ينادي منادٍ فيها: يا أيُها الناسُ. فيقبلُ الناسُ بعضهم على بعض: هل سَمِعتُم؟ فمنهم من يقول نعم ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية: يا أيها الناس. فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فيقولُون: نَعَم. ثم ينادِي الثالثَة: يا أيُّها الناسُ، أتى أمر الله فلا تستعجلوه». قال رسولُ الله ﷺ: «فَوالَّذِي نَفْسِي بيده، إنَّ الرَّجُلين لَيَنشُرَان الثوبَ فما يَطْويانه أبداً، وإنَّ الرجلَ ليمدُنَّ حَوْضَه فما يَسْقي فيه شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشرَبُه أبداً، قال: ويشتَغِلُ الناسُ»[1]. ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد ـ تعالى وتقدَّس عُلوّاً كبيراً وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾

---

(١) وصله الحاكم ٤/٥٣٩ ح ٨٦٢٢ عن يحيى بن آدم بهذا الإسناد، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأصله في الصحيحين، دون صدره. والله أعلم.

يقول تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾، أي: بالوحي كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾، وهم الأنبياء، كما قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٥، ١٦]. وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا﴾، أي: لينذروا ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال في هذه الآية: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾، أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعَبد غيري.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالَم العُلويّ وهو السموات، والعالَم السفليّ وهو الأرض بما حوَت، وأن ذلك مخلوقٌ بالحقّ لا لِلَّعبِ، بل ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. ثم نزّه نفسه عن شرك من عَبَد معه غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئاً وهم يُخلَقون، فكيف ناسب أن يُعْبَدَ معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شَريكَ له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له. ثم نبه على خلق جنس الإنسان ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾، أي: ضَعيفةٍ مَهينة، فلما استقلَّ ودَرَجَ إذا هو يخاصِمُ ربَّه تعالى ويُكَذِّبه، ويحارِبُ رُسُلَه. وهو إنما خُلِقَ ليكونَ عَبداً لا ضِدّاً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان: ٥٤ ـ ٥٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩].

[٤٠٧٥] وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بُسْر بن جحّاش قال: بَصَق رسولُ الله ﷺ في كَفِّه، ثم قال: «يقولُ الله تعالى: ابنَ آدَمَ، أنَّى تُعجِزني وقد خلقتُكَ من مثل هذِهِ؟! حتى إذا سَوَّيتُك فَعَدَلْتُك مَشَيت بين بُرْدَيك وللأرْضِ منك وَئِيدٌ، فجَمَعْتَ ومَنَعْتَ، حتى إذا بلغَتِ الحلقوم قلتَ: أتصدَّقُ؛ وأنّى أوانُ الصدقة»[1].

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾

يمتَنُّ تعالى على عباده بما خَلَق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما فَصَّلَها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جَعَل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترِشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجَمَال، وهو الزينة، ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾، وهو وقتُ رجوعها من المرعى عشياً، فإنها تكون أمَدَّه خواصِرَ، وأعظمه ضُروعاً، وأعلاه أسنمةً، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، أي: غُدْوة حين تَبعثُونها إلى المرعى. ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾، وهي

(١) أخرجه ابن ماجه ٢٧٠٧ وأحمد ٤/ ٢١٠ وصحح إسناده البوصيري في «الزوائد» وانظر «الصحيحة» ١٠٩٩.

الأحمالُ الثقيلة التي تعجِزُون عن نَقْلِها وحملها، ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾، وذلك في الحجِّ والعُمرةِ والغزوِ والتجارةِ، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمالِ من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١)﴾ [غافر: ٧٩ ـ ٨١]، ولهذا قال ها هنا بعد تعدادِ هذه النِّعَم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: رَبُّكم الذي قَيَّض لكم هذه الأنعام وسخَّرها لكم، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤)﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤].

قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: ثياب. و﴿وَمَنَافِعُ﴾: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل عن سِمَاكٍ عن عكرمةَ عن ابن عباس: ﴿دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾، نَسْلُ كُلِّ دابةٍ. وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: لباس يُنْسَجُ، ﴿وَمَنَافِعُ﴾: مَرْكَبٌ ولَحْمٌ ولَبَنٌ. وقال قتادةُ: ﴿دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾، يقول: لكم فيها لباس ومنفعة وبُلْغة. وكذا قال غيرُ واحدٍ من المفسرين، بألفاظ متقاربة.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)﴾

هذا صنف آخر مما خلق ـ تبارك وتعالى ـ لعباده، يمتَنُّ به عليهم، وهو: الخَيلُ والبِغالُ والحَميرُ، التي جَعَلها للركوبِ والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فَصلها من الأنعام وأفردَها بالذكر استدلَّ من استدل من العلماء ـ ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل ـ بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة ـ رحمةُ الله عليه ـ ومن وافقه من الفقهاء، لأنه تعالى قَرَنها بالبغالِ والحَمير، وهي حَرَام، كما ثبتت به السنةُ النبويةُ، وذهب إليه أكثر العلماء. وقد روى الإمام أبو جعفرِ بنُ جَرير: حدثني يعقوبُ، حدثنا ابنُ عُلَيَّةَ، أنبأنا هشام الدَّستَوائيُّ، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن مولى نافع بن علقمة أنَّ ابن عباس كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقولُ: قال الله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥)﴾، فهذِه للأكلِ، ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾، فهذه للركوب. وكذا روي من طريق سعيد بن جُبَير وغيره، عن ابن عباس، بمثله. وقال مثلَ ذلك الحكَمُ بن عُتَيْبَةَ أيضاً.

[٤٠٧٦] واستأنسوا بحديثٍ رواه الإمامُ أحمدُ في مُسنَدِهِ: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثنا ثَورُ بن يزيد، عن صالحِ بن يحيى بن المقدام بن مَعْدِ يَكرِبٍ، عن أبيه، عن جَدِّه، عن خالد بن الوليدِ قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن أكلِ لحوم الخيل، والبغال، والحمير[1]. وأخرجَه أبو داودَ، والنسائيّ، وابن ماجَه، من حديث صالح بن يحيى بن المقدام ـ وفيه كلام ـ به.

(١) حسن شاذ، أخرجه أبو داود ٣٧٩٠ والنسائي ٤٨٤٣ و ٤٨٤٤ «كبرى» والدارقطني ٤/ ٢٨٧ وابن ماجه ٣١٩٨ وأحمد ٤/ ٨٩، وإسناده لا بأس به، لكن الجمهور على خلافه، والأحاديث الصحيحة تعارضه، ولذا قال أبو داود عقبه: هو حديث منسوخ. وقال البخاري: صالح بن يحيى بن المقدام فيه نظر، وقال البيهقي في المعرفة: إسناده مضطرب. وانظر ما قاله القرطبي عند حديث ٣٨٥٤ و ٣٨٥٦ بتحقيقي.

[٤٠٧٧]ورواه أحمدُ ـ أيضاً من وجه آخر بأبسط من هذا وأدل منه ـ فقال: حدثنا أحمدُ بن عبد الملك، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا سليمان بن سُلَيم، عن صالح بن يحيى بن المِقْدام، عن جدِّه المِقْدام بن معد يكرب قال: غزونا مع خالد بن الوليد الصائِفَةَ، فَقَرِم أصحابُنا إلى اللحم، فسألوني رَمَكَةً فدفعتُها إليهم فَحَبلُوها، فقلت: مكانكم حتى آتي خالِداً فأسأله. فأتيتُه فسألتُه، فقال: غَزَونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر، فأسرع الناس في حظائر يهودَ، فأمرني أن أنادي: الصلاةَ جامعةً، ولا يدخل الجنة إلا مسلم. ثم قال: «أيها الناس، إنكم قد أسرعتم في حظائر يهودَ، ألا لا تَحلُّ أموالُ المعاهدين إلا بحقِّها، وحَرَام عليكم لحومُ الحُمُرِ الأهلية وخيلها وبغالها، وكلُّ ذي ناب من السباع، وكُلُّ ذِي مِخْلَبٍ من الطير»(١). والرَّمَكَةُ: هي الحِجْرَة. وقولُه: حَبَلُوها، أي: أوثَقُوها في الحبلِ لِيَذْبَحُوها. والحظائر: البساتين القريبة من العمران. وكأنه هذا الصنيع وَقَع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر، والله أعلم. فلو صَحَّ هذا الحديثُ لكان نصاً في تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يُقاوِمُ ما ثَبت في الصحيحين، عن جابِرِ بن عبد الله قال:

[٤٠٧٨]نَهَى رسول الله ﷺ عن لحوم الحُمُر الأهليّةِ، وأَذِنَ في لحوم الخيل(٢).

[٤٠٧٩]ورواه أحمدُ وأبو داودَ بإسنادَين، كلّ منهما على شرط مسلم، عن جابر قال: ذَبَحنا يومَ خيبر الخيلَ والبغالَ والحميرَ، فَنَهانا رسولُ الله ﷺ عن البِغَالِ والحَمِير، ولم يَنْهَنا عن الخيلِ(٣).

[٤٠٨٠]وفي صحيح مسلم، عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ ـ رضي الله عنهما ـ قالت: نَحَرْنا على عَهْدِ رسول الله ﷺ فَرَساً فَأكلناه ونحنُ بالمدينة(٤). فهذه أدل وأقوى وأثبت. وإلى ذلك صار جُمهورُ العلماءِ: مالك، والشافعي، وأحمد، وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله أعلم. وقال عبدُ الرزّاق: أنبأنا ابنُ جُرَيج، عن ابن أبي مُلَيكة، عن ابن عباس قال: كانت الخيلُ وحشية فَذَلَّلها الله لإسماعيلَ بن إبراهيمَ عليهما السلام. وذكر وهبُ بن مُنَبِّه في إسرائيلياته: أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب. فالله أعلم، فقد دَلّ النصُّ على جَوَازِ ركوبِ هذه الدوابِّ، ومنها البغالُ، وقد أهدِيتْ إلى رسولِ الله ﷺ بغلةٌ، فكان يركبها، مع أنه قد نَهَى عن إنزاء الحُمُر على الخيل لئلا ينقطع النسل.

[٤٠٨١]قال الإمام أحمدُ: حدثني محمد بن عُبَيد، حدثنا عُمَر من آل حُذَيفَة، عن الشعبي، عن دِحْيَةَ الكَلْبيِّ قال: قلت يا رسول اللّهِ، ألا أَحملُ لكَ حماراً على فرس، فَيَنْتِجَ لَكَ بغلاً فتركَبَها؟ قال: «إنما يفعلُ ذلك الذين لا يعلَمُون»(٥).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٨٩ وإسناده لا يبلغ درجة الصحة، وإنما ذكر الخيل شاذ، معارض بأحاديث صحيحة تجعله غير محفوظ والله أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢١٩ و ٥٥٢٠ ومسلم ١٩٤١ وأبو داود ٣٧٨٨ والنسائي ٧/ ٢٠١ وأحمد ٣/ ٣٦١ وابن حبان ٥٢٧٣.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٣٧٨٩ وأحمد ٣/ ٣٥٦ والبيهقي ٩/ ٣٢٧ وصححه ابن حبان ٥٢٧٢ وكذا الحاكم ٤/ ٢٣٥ ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٥٥١٩ ومسلم ١٩٤٢ وابن ماجه ٣١٩٠ وأحمد ٦/ ٣٤٥ و ٣٥٣ وابن حبان ٥٢٧١.

(٥) أخرجه أحمد ٤/ ٣١١ والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ٩٣٦٩، ونقل الهيثمي عن الطبراني قوله: الشعبي عن دحية، مرسل. اهـ. وفيه عمر مولى حذيفة لم أجد له ترجمة.

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يُسَارُ عليه في السبُل الحِسِّية نَبَّه على الطريق الدينية المعنوية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبورُ من الأمور الحسيَّة إلى الأمور المعنويَّة النافعة كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]. ولما ذَكَر تعالى في هذه السورة الحيواناتِ من الأنعام وغيرها، التي يركَبونها ويبلغُون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ـ شَرَع في ذكر الطرق التي يسلكها الناسُ إليه، فبَيَّن أن الحق منها ما هي موصلةٌ إليه، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١].

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، قال: طريقُ الحقِّ على الله وقال السديّ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، قال: الإسلامُ. وقال العوفيُّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، يقول: وعلى الله البيان، أي: تبيين الهدى والضلالة. وكذا رَوَى عليُّ بن أبي طلحة، عنه. وكذا قال قتادة، والضحاك. وقولُ مجاهدٍ ها هنا أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبَرَ أن ثَمَّ طرقاً تُسلَك إليه، فليس يصلُ إليه منها إلا طريقُ الحق، وهي الطريق التي شَرَعها ورَضِيَهَا، وما عداها مسدودة، والأعمالُ فيها مردودةٌ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾، أي: حائد مائل زائغ عن الحق. قال ابن عباس وغيره: هي الطرقُ المختلفةُ، والآراء والأهواء المتفرقة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابنُ مسعودٍ: «ومنكم جائرٌ». ثم أخبر تعالى أن ذلك كلَّه كائن عن قَدَرِهِ ومشيئته، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

لما ذكر سبحانه ما أنعَمَ به عليهم من الأنعام والدوابِّ، شَرَع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء ـ وهو العُلُوّ ـ مما لهم فيه بُلْغَة ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾، أي: جعله عذباً زُلالاً، يَسُوغُ لكم شرابه، ولم يجعله مِلْحاً أجاجاً. ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: وأخرج لكم به شجراً ترعَون فيه أنعامكم. كما قال ابن عباس، وعكرمة والضحاك، وقتادة، وابن زيد، في قوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، أي: ترعَون، ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي.

[٤٠٨٢] ورَوَى ابن ماجه: أن رسول الله ﷺ نَهَى عن السَّوْمِ قبل طُلُوعِ الشَّمس[1].

---

(١) ضعيف، أخرجه ابن ماجه ٢٢٠٦ وابن عدي ٣/ ١٣٥ من حديث علي، وإسناده ضعيف فيه نوفل بن عبد الملك ذكره الذهبي في «الميزان» ٩١٤٨ بهذا الحديث، وقال: قال يحيى: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: مجهول أهـ. وقع للحافظ في «التقريب» ٧٢١٥: مستور أهـ وفي ذلك نظر فقد ضعفه ابن معين كما تقدم فليس بمستور. ثم إن الحافظ ذكر في التقريب ١٨٨٥ الربيع بن حبيب، وقال: صدوق، ضعف بسبب روايته عن نوفل بن عبد الملك، قال أبو أحمد الحاكم: الحمل على نوفل أهـ أي في هذا الحديث، وأما ابن عدي فأعله بالربيع ونقل عن النسائي قوله: منكر الحديث، وعن أحمد: أحاديثه مناكير. والحديث منكر ضعيف بكل حال. والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾، أي: يُخرِجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صُنُوفها وطعومها وألوانها ورَوَائِحِها وأشكالها. ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: دَلالةٌ وحجَّةٌ على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠﴾ [النمل: ٦٠]. ثم قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣﴾

يُنبِّه تعالى عبادَه على آياته العظام، ومِنَنِه الجسام، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السمٰوات نوراً وضياء للمهتدين بها في الظلمات، وكلٌّ منها يسير في فَلَكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مُقدرة، لا يزيد عليها ولا ينقُصُ منها. والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]. ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، أي: لَدلالاتٍ على قُدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حُجَجه. وقولُه: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ﴾، لما نبَّه سبحانه على معالم السماء نبَّه على ما خَلَق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياءِ المختلفة، من الحيوانات والنبات والمعادن والجمادات على اختلافِ ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواصّ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾، أي: آلاء الله ونِعَمَه فيشكرونَها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٤ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٨﴾

يخبر تعالى عن تسخيرِه البحرَ المتلاطِمَ الأمواجِ، ويمتَنّ على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجَعْلِه السَّمَكَ والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حَيَّها وميتها، في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها. وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخرُه، أي: تشقّه. وقيل: تمخرُ الرياحُ ـ وكلاهما صحيح ـ بِجُؤْجُئِها ـ وهو صَدْرُها المسنَّم ـ الذي أرْشَد العباد إلي صنعتها، وهداهم إلى ذلك، إرثاً عن أبيهم نوح عليه السلام؛ فإنه أول من رَكِب السفن، وله كان تعليم صَنْعَتِها، ثم أخذها الناسُ عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، ويسيرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما ها هنا إلى هنالك. وما هنالك إلى ها هنا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، أي: نِعَمه وإحسانَه.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزّارُ في مُسْنَده: وجدتُ في كتابي عن مُحمَّدِ بن مُعاوِيَةَ البَغْدادِيِّ: حدثنا

عبد الرحمن بن عبد الله بن عُمَر، عن سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة قال: كلم الله هذا البحر الغربيَّ، وكَلَّم البحر الشرقي، فقال للبحر الغربي: إني حاملٌ فيك عباداً من عبادِي، فكيف أنت صانعٌ بهم؟ قال: أُغرِقُهم. قال: بأسُك في نواحيك، وأحملهم على يدي. وحَرَمه الحِلْيَةَ والصيد. وَكَلَّم هذا البحرَ الشرقي فقال: إني حامل فيك عباداً من عبادي، فما أنت صانع بهم؟ فقال: أحملهم على يدي، وأكون بهم كالوالدة لولدها. فأثابه الحلية والصيد. ثم قال البزّارُ: لا نعلم رواه عن سُهَيل غَيْرَ عبد الرحمن بن عبد الله بن عُمَر، وهو منكر الحديث، وقد رواه سُهَيل، عن النعمان بن أبي عَيَّاش، عن عبد الله بن عَمْرو موقوفاً[1].

ثم ذكر تعالى الأرضَ وما جَعَل فيها من الرواسي الشامخات والجبالِ الراسيات، لِتقرّ الأرض ولا تَميدَ، أي: تضطربَ بما عليها من الحيوان، فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾. وقال عبدُ الرزّاق: أنبأنا معمرٌ، عن قتادَةَ، سمعتُ الحسنَ يقول: لما خُلِقَت الأرضُ كانت تميدُ، فقالوا: ما هذه بمُقِرَّةٍ على ظهرها أحداً. فأصبحوا وقد خُلِقَتِ الجبالُ، فلم تَدْرِ الملائكةُ مِمَّ خُلِقَت الجبال وقال سعيدُ، عن قتادَةَ، عن الحسن، عن قيس بن عُبَاد: إنَّ الله تعالى لما خَلَق الأرضَ جَعَلتْ تمورُ فقالت الملائكة: ما هذه بمُقِرَّةٍ على ظهرها أحداً، فأصبحَتْ صبحاً وفيها رواسيها. وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا حَجّاج بن مِنْهالٍ، حدثنا حمّاد، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حبيب، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: لما خلق الله الأرض قَمَصَتْ وقالت: أيْ رَبِّ، تجعلُ عليَّ بني آدم يَعملُونَ عَلَيَّ الخطايا ويجعلون عليَّ الخَبَثَ؟! قال: فَأرسى الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقرارُها كاللحم يَتَرجرَجُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾، أي: وجَعَل فيها أنهاراً تجري من مكانٍ إلى مكانٍ آخَرَ، رِزقاً للعباد، يَنبُع في موضع وهو رِزقٌ لأهل موضع آخَرَ، فيقطَعُ البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصلُ إلى البلد الذي سُخِّر لأهله، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وَجنوباً وشَمالاً، وشرقاً، وغَرْباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت، وما بين نَبْع وَجمْع، وَقويِّ السير وَبَطيئه، بحسب ما أراد وقَدَّر، وسخر ويسر. فلا إله إلا هو، ولا رب سواه. وكذلك جَعَل في الأرض سُبلاً، أي: طرقاً يُسلَكُ فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطَع الجبلَ ليكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قالَ تَعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقولُه تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ أي: دَلائِلَ من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك، يستدلّ بها المسافرون براً وبحراً إذا ضَلُّوا الطريق بالنهار. وقولُه: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، أي: في ظلام الليل، قاله ابنُ عباس. وعن مالك في قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾: ويقولون: النجوم، وهي الجبالُ. ثم قال تعالى مُنَبِّهاً على عَظَمَتِه، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دونَ ما سواه من الأوثان، التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون، ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾. ثم نَبَّههم على كثرة نِعَمِه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾، أي: يتجاوزُ عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نِعَمِه لعجزتُم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتُم وتَركتُم، ولو عَذَّبكم لَعَذَّبكم وهو غيرُ ظالِم لكم، ولكنه غفورٌ رحيمٌ، ويغفرُ الكثيرَ، ويجازِي على اليسير. وقال ابنُ جرير: يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ لما كان منكم من تقصير في

(١) كلاهما موقوف، لكن صوب البزار رواية من رواه عن عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه روىٰ الكثير عن أهل الكتاب، بخلاف أبي هريرة، فتنبه، والله أعلم.

شكر بعض ذلك، إذا تُبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم أن يعذبكم عليه بعد الإنابة والتوبة.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائِرَ والسَّرائر كما يعلَم الظواهر، وسيَجْزِي كُلَّ عامل بعمله يومَ القيامة، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشر. ثم أخبر أنَّ الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقُون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]. وقولُه: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي: هي جمادات لا أرواحَ فيها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، أي: لا يدرُونَ متى تكونُ الساعةُ، فكيف يُرتَجى عندَ هذه نفعٌ أو ثوابٌ أو جزاء؟! إنما يُرتَجى ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالقُ كُلِّ شيء.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

يخبرُ تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحدُ الفردُ الصمَدُ، وأخبر أن الكافرين تُنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم مُتعجِّبين من ذلك: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥]. وقولُه: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ولهذا قال ها هنا: ﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، أي: وسَيَجزيهم على ذلك أتمَّ الجزاء، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقولُ تعالى: وإذا قِيلَ لهؤلاء المكذبين: ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ مُعرِضين عن الجواب: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: لم يُنزل شيئاً، إنما هذا الذي يُتلى علينا أساطيرُ الأولين، أي مأخوذٌ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥]، أي: يفترون على الرسول، ويقولون فيه أقوالاً متضادة مختلفة، كلّها باطلٌ، كما قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفرقان: ٩]، وذلك أن كل من خَرَج عن الحقّ فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون. ثم استقرَّ أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهمُ الوحيدُ المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لَمَّا ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر: ١٨ ـ ٢٤] أي: ينقل ويحكى، فتفرّقوا عن قوله ورأيه، قبحهم الله تعالى!

قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: إنما قدّرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليَحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يَتّبِعونهم ويُوَافِقُونَهم، أي: تَصير عليهم خطيئةُ

ضلالهم في أنفسهم، وخطيئةُ إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث:

[٤٠٨٣] «من دعا إلى هُدَىً كان له من الأجرِ مثلُ أجور من اتبعه، لا يَنْقُصُ ذلك من أجُورهم شيئاً، ومن دَعَا إلى ضلالة كان عليه من الإِثم مثلُ آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٣]. وهكذا رَوَى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: إنها كقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾. وقال مجاهِدٌ: يحمِلُون أثقالهم: ذُنُوبَهم وذنُوبَ من أطاعهم، ولا يُخفِّف ذلك عمن أطاعهم من العذاب شيئاً.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قال العوفيُّ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، قال: هو نُمرود الذي بنى الصَّرح. قال ابن أبي حاتم: ورُوِي عن مجاهدٍ نحوهُ. وقال عبد الرزّاق، عن معمر، عن زيد بن أسلَمَ: أولُ جَبَّار كان في الأرض نُمرودٌ، فبعثَ الله عليه بَعُوضةً فدخلت في مِنْخَره، فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسُه بالمطارق، وأرحَمُ الناس به من جَمَع يديه فضَرَب بهما رأسَه. وكان جباراً أربعمئة سنة، فَعَذَّبه الله أربعمئة سنة كَمُلْكِهِ، ثم أماته الله، وهو الذي كان بنى صرحاً إلى السماء، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾. وقال آخرون: بل هو بُخْتَنَصَّرُ. وذكروا من المكر الذي حكى الله ها هنا، كما قال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]. وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كَفَروا بالله وأشركوا في عبادته غيرَه، كما قال نوحٌ عليه السلام: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح: ٢٢]، أي: احتالوا في إضلال الناس بكُلِّ حيلةٍ وأمالوهم إلى شركهم بكُلِّ وسيلةٍ، كما يقول لهم أتباعُهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا . . .﴾ [سبأ: ٣٣] الآية.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾، أي: اجتثَّه مِن أصله، وأبطل عملهم وأصلَه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقولِه: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]. وقال ها هنا: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾، أي: يظهر فَضَائحهم، وما كانت تُجنُّه ضَمائرهم، فيجعله عَلانيةً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩]، أي: تَظهر وتَشتهِرُ، كما في الصحيحين عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال:

[٤٠٨٤] قال رسول الله ﷺ: «يُنصَبُ لِكلِّ غادر لواءٌ يوم القيامة عند استِهِ بِقَدْرِ غَدْرَته، فيقال: هذه غَدْرَة فُلان بنِ فُلانٍ»(٢). وهكذا هؤلاء، يظهرُ للناس ما كانوا يُسِرّونه من المكر، ويُخزيهم الله على رؤوس

(١) رواه مسلم وغيره، وتقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ٢.

(٢) متفق عليه، وتقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٢٤.

الخلائق؛ ويقول لهم الربُّ تبارك وتعالى مُقرِّعاً لهم وموبخاً: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾، أي: تحاربون وتعادون في سبيلهم، أين هُم عن نصركم وخَلاصكم ها هنا؟ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣]، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق: ١٠]. فإذا توَجَّهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأُسكِتُوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمُخبرون عن الحقِّ في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: الفضيحة والعذاب اليوم محيط بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضرّه ولا ينفعه.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يُخبر تعالى عن حال المشركين الظَّالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة: ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾، أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾، كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]. قال الله مكذباً لهم في قيلهم ذلك: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، أي: بئس المَقيل والمُقام والمكان من دار هَوَانٍ، لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله. وهم يَدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادَهم في قبورها من حرِّها وسَمُومِها، فإذا كان يومُ القيامة سُلِكت أرواحهم في أجسادهم، وخُلِّدت في نار جهنم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

هذا خبرٌ عن السُّعَداء بخلافِ ما أخبَرَ به عن الأشقياء، فإنَّ أولئك قيل لهم: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾، فقالوا معرضين عن الجواب، أي: لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين. وهؤلاء ﴿قَالُواْ خَيْرًا﴾، أي: أنزل خيراً، أي: رحمةً وبركةً وحُسناً لمن اتَّبعَه وآمن به. ثم أخبروا عما وَعَد الله عباده فيما أنزله على رسله فقالوا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، أي: من أحسنَ عَمَله في الدنيا أحسَنَ الله إليه في الدنيا والآخرة. ثم أخبروا بأنَّ دار الآخرة خيرٌ، أي: من الحياة الدنيا، والجزاءُ فيها أتمُّ من الجزاء في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٧]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى: ٤]. ثم وَصَفُوا الدار الآخرة فقالوا: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾، بدلٌ من ﴿دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، أي: لهم في الدار الآخرة ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾، أي: مُقَامَةٍ يدخلونها ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾، أي: بين أشجارها وقصورها، ﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

[٤٠٨٥] وفي الحديث: «إن السحابة لَتَمرُّ بالملأ من أهلِ الجنة وهُم جلوسٌ على شرابهم، فلا يشتهي أحدٌ منهم شيئاً إلا أمطرته عليهم، حَتّى إن منهم لمن يقول: أَمْطِرينا كواعِبَ أتراباً. فيكونُ ذلك»(١). ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، أي: هكذا يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسَنَ عمله. ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون ـ أي: مخلصون من الشرك والدنس وكُلِّ سُوءٍ ـ وأنَّ الملائكة تسلم عليهم ويبشرونهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ۝٣٢﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢]. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٣٣ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٤﴾

يقول تعالى مُتهدِّداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظرُ هؤلاء إلا الملائكةَ أن تأتِيَهم تَقبِضُ أرواحهم، قاله قتادةُ. ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾، أي: يومَ القِيامةِ وما يعاينونه من الأهوال. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، أي: هكذا تَمادَى في شركهم أسلافُهم ونُظراؤهم وأشباههم من المشركين، حتى ذاقوا بأسَ اللهِ وَحلُّوا فيما هم فيه من العذابِ والنَّكالِ. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾، لأنه تعالى أعذَر إليهم، وأقام حُجَجه عليهم بإرسال رُسله وإنزال كتبه، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، أي: بمُخالفتهم الرسل والتكذيب بما جاؤوا به، فلهذا أصابتهم عقوبةُ الله على ذلك، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: أحاطَ بهم من العذابِ الأليم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، أي: يسخَرُون من الرسل إذا تَوَعَّدوهم بعقاب الله، فلهذا يُقال لهم يوم القيامة: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٣٥ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٣٦ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٧﴾

---

(١) سيأتي تخريجه إن شاء الله في سورة النبأ.

يخبرُ تعالى عن اغترار المشركين بما هُم فيه من الشرك واعتذارهم مُحتجِّين بالقدر، في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾، أي: من البحائر والسوائب والوصَائِلِ وغير ذلك، مما كانوا ابتدعُوه واخترَعوه من قِبَلِ أنفُسهم، مما لم ينزل الله به سلطاناً. ومضمونُ كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لِمَا فَعَلنا لأنكره علينا بالعقوبة، ولَمَا مكَّننا منه. قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؟ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يُغَيِّره عليكم ولا أنكره، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل أمة، أي: في كل قَرْنٍ من الناس وطائفة رَسُولاً، وكلُّهم يَدْعُون إلى عبادة الله، ويَنهَوْن عن عبادة ما سواه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فلم يَزَلْ تعالى يُرسِلُ إلى الناس الرسل بذلك، منذ حَدَثَ الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أُرسِلَ إليهم نوحٌ، وكان أولَ رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن خَتَمهم بمحمد ﷺ الذي طَبَّقت دعوتُه الإنسَ والجنَّ في المشارق والمغارب، وكلُّهم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فكيف يَسُوغُ لأحدٍ من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾؟! فمشيئتُه تعالى الشرعية عنهم منتفية، لأنه نهاهم عن ذلك على ألسِنَةِ رُسُلِه، وأما مشيئته الكونية، وهي تَمْكينهُم من ذلك قَدَراً، فلا حُجَّة لهم فيها، لأنه تعالى خَلَق النار، وأهلها من الشياطين والكفَرَةِ، وهو لا يَرْضى لعباده الكُفر، وله في ذلك حُجَّةٌ بالغةٌ وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: فاسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكَذَّب بالحق كيف ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ [الملك: ١٨]. ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حِرْصَه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال نوح ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]. فقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾، أي: شأنه وأمرُه أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلهذا قال: ﴿لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾، أي: من أضلَّه فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟! أي: لا أحَدَ. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، أي: ينقذونهم من عذابه ووَثاقه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى مُخبراً عن المشركين أنهم حَلَفوا فأقسموا ﴿بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، أي: اجتهدوا في الحَلف

وغَلَّظُوا الأيمان على أنه ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، أي: استبعَدُوا ذلك، فكذبوا الرُّسُلَ في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نَقِيضه. فقال تعالى مُكذِّباً لهم وراداً عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾، أي: بل سيكون ذلك، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، أي: لا بُدَّ منه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فَبجهلهم يخالفون الرسل ويَقعُون في الكفر. ثم ذَكَر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجسادِ يوم التناد، فقال سبحانه: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾، أي: للناس ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، أي: من كلِّ شيءٍ، و ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾، أي: في أيمانهم وأقسامهم: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾. ولهذا يُدعُون يوم القيامة إلى نار جهنم دَعًّا، ويقول لهم الزبانية: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٤ ـ ١٦]. ثم أخبر تعالى عن قُدرته على ما يشاء، وأنه لا يُعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السماء. وأنَّه إذا أرادَ شيئاً أن يقول له: «كُنْ»، فيكونُ، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمُرُ به مَرَّةً واحدة، فيكونُ كما يشاء، كما قال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال في هذه الآية الكريمةِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾، أي: أنْ يأمُرَ به مَرَّةً واحدة فإذا هو كائن، كما قال الشاعر:

إذا مَـا أرادَ الـلَّـهُ أمْـراً فَـإنَّـمَـا ... يَـقُـولُ لَـهُ: كُـنْ؛ قَـولَـةً فَـيَـكُـونُ

أي: إنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيدٍ فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يُمانَعُ ولا يُخَالَفُ، لأنه هو الواحد القهار العظيم، الذي قَهر سلطانُه وجبروتُه وعزتُه كُلَّ شيءٍ، فلا إله إلا هُوَ، ولا ربَّ سواه. وقال ابن أبي حاتم: ذكر الحسن بن محمد بن الصبّاح، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيج، أخبرني عطاء: أنه سَمِعَ أبا هُرَيرة يقولُ: قال الله تعالى: سَبَّني ابنُ آدم ولم يكن يَنْبَغِي له أن يَسُبَّنِي، وكَذَّبني ولم يكن ينبغي له أن يُكَذِّبني، فأما تكذيبه إياي فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، قال: وقلت: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وأما سَبُّه إياي فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقلتُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾. هكذا ذكره موقوفاً، وهو في الصَّحِيحَينِ مرفوعاً بلفظٍ آخَرَ[1].

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يُخبرُ تعالى عن جَزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخِلاَّن، رجاءَ ثواب الله وجزائه. ويَحتمِلُ أن يكونَ سببُ نزول هذه الآية الكريمة في مُهاجِرَةِ الحبشة الذين اشتدَّ أذى قومهم لهم بمكَّة، حتى خَرَجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكَّنُوا من عبادة ربهم، ومن أشرافِهم: عثمانُ بن عفان، ومعه زوجتهُ رُقَيَّة بنت رسول الله ﷺ، وجعفرُ بن أبي طالب ابنُ عَمِّ رَسُولِ الله ﷺ، وأبو سَلَمة بنُ عبد الأسد في جماعةٍ قريبٍ من ثمانين ما بين رجل وامرأة وصِدِّيق وصِدِّيقة ـ رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد فَعَل ـ فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، قال ابن عباس والشعبيُّ، وقتادةُ: المدينة. وقيل؛ الرزق الطيب، قاله مجاهد.

---

(١) انظر ما تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١١٦.

ولا مُنافاة بين القولين، فإنهم تَرَكُوا مساكنهم وأموالهم فَعَوَّضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عَوَّضه الله بما هو خير له منه في الدنيا، وكذلك وقع، فإنهم مَكَّن الله لهم في البلاد وحَكَّمهم على رقاب العباد، فصاروا أمَراءَ حُكّاماً، وكُلٌّ منهم للمتقين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظمُ مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾، أي: مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، أي: لو كان المتخلِّفون عن الهجرة مَعَهم يعلمون ما ادَّخر الله لمن أطاعه واتبع رَسُوله، ولهذا قال هُشَيم، عن العَوّام، عَمَّن حدثه أن عُمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عَطاءَه يقول: خُذْ، بارَكَ الله لك فيه، هذا ما وَعَدك الله في الدنيا، وما ذَخَره لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾. ثم وَصفهم تعالى فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾، أي: صَبَروا على أذى من آذاهم من قومهم، مُتَوَكِّلين على الله الذي أحسَنَ لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قال الضحاكُ، عن ابن عباس: لما بَعَث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العربُ ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظمُ من أن يكون رسولُه بشراً. فأنزل اللّهُ تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢] الآية، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ يعني أهل الكتب الماضية: أبشراً كانت الرسُل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يَكُونَ محمد ﷺ رسولاً؟ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ليسوا من أهل السماء كما قُلتم. وهكذا روي عن مجاهد، عن ابن عباس، أن المراد بأهلِ الذكر أهلُ الكتاب. وقاله مجاهد، والأعمش. وقولُ عبد الرحمن بن زيد: الذكرُ القرآن، واستشهد بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] صحيحٌ، ولكن ليس هو المرادَ ها هنا، لأنَّ المخالِف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه. وكذا قولُ أبي جَعفرٍ الباقر: نحن أهلُ الذكر ـ ومراده أن هذه الأمّة أهلُ الذكر ـ صحيح، فإن هذه الأمة أعلَمُ من جميع الأمم السالفة، وعلماءُ أهلِ بيت الرسول ـ ﷺ، وعليهم السلامُ والرحمةُ ـ من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة، كعلي، وابن عباس، وبني علي: الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية، وعلي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبي جعفر الباقر ـ وهو محمد بن علي بن الحسن ـ وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم، ممن هو مُتمسِّك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعَرَف لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه، ونَزَّل كُلاً المنزلَ الذي أعطاه الله ورسوله، واجتمع إليه قلوبُ عباده المؤمنين. والغرضُ أنَّ هذه الآية الكريمةَ أخبرت بأنَّ الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بَشَرٌ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٣ ـ ٩٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠]. ثم أرشد الله تعالى مَن شكَّ في كَوْنِ الرسلِ كانوا بشراً أن يسألوا أهل

الذكر أصحاب الكتب المتقدّمة عن الأنبياء الذين سلفوا: هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة؟ ثم ذكر تعالى أنه أرسلَهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالدلائل والحُجج، ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾، وهي الكُتُبُ، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم. والزُّبُر: جمعُ زَبُور، تقولُ العرب: زَبَرْتُ الكتاب إذا كَتَبته، وقال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾ [القمر: ٥٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ - يعني القرآن - ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، من ربهم، أي: لِعِلْمِك بمعنى ما أنزل الله عليك، وحِرْصِك عليه، واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائقِ وسيد ولد آدم، فَتُفصِّلُ لهم ما أُجمِلَ، وتُبيِّن لهم ما أشكَلَ، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: ينظرون لأنفسهم فَيهتَدُون، فيفوزونَ بالنجاة في الدَّارَين.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٤٥ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٤٦ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾

يخبر تعالى عن حِلْمِهِ وإنظارِه العُصَاة الذين يعملون السيئات ويَدْعون إليها، ويمكُرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ [الملك: ١٦، ١٧]. وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾، أي: في تَقَلُّبهم في المعايش واشتغالهم بما في أسفارهم ونحوها من الأشغال المُلْهِيَة. قال قتادةُ والسديُّ: ﴿تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي: أسفارهم. وقال مجاهد، والضحاك: ﴿فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾، في الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨]. وقوله: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾، أي: لا يُعْجِزُون الله على أي حال كانوا عليه. وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾، أي: أو يأخذهم الله في حال خَوفهم من أخذه لهم، فإنه يكونُ أبلَغَ وأشدَّ حالةَ الأَخْذِ؛ فإن حصولَ ما يُتوقَّع مع الخوف شديدٌ. ولهذا قال العَوفي، عن ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾، يقول: إن شئتُ أخذتُه على أثرِ موت صاحبه وتخوّفه بذلك. وكذا رُوِيَ عن مجاهدٍ والضحاك، وقتادة، وغيرهم. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: حيث لم يعاجلكم بالعُقُوبةِ، كما ثَبَت في الصَّحِيحَين:

[٤٠٨٦] «لا أحد أصبَرُ على أذىً يسمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»[1].

[٤٠٨٧] وفي الصحيحين: «إن الله لَيُمْلي للظَّالم حتَّى إذا أخذَه لم يُفْلِته»، ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾[2] [هود: ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝٤٨﴾ [الحج: ٤٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ۝٤٨ وَلِلَّهِ

---

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١١٦.

(٢) وتقدم الحديث فيها.

﴿يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يخبر تعالى عن عَظمتِه وجَلالِه وكبريائه الذي خَضع له كلُّ شيء، ودانت له الأشياءُ والمخلوقاتُ بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلَّفُوها من الإنس والجن والملائكة. فأخبر أن كُلَّ ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال ـ أي: بكرة وعشياً ـ فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهدٌ: إذا زالت الشمسُ سجد كلُّ شيء لله عز وجل. وكذا قال قتادةُ، والضحاكُ، وغيرهم. وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾، أي: صاغرون. وقال مجاهد أيضاً: سجودُ كلِّ شيءٍ فَيْؤُه، وذكر الجبال قال: سُجودها فَيْؤُها. وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته. ونَزَّلَهم منزلة من يَعْقِل إذ أسند السجود إليهم. ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥]. وقولُه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: تسجد لله غَيْرَ مستكبرين عن عبادته، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾، أي: يَسجُدون خائِفينَ وَجِلين من الرب جَلَّ جلالُه، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، أي: مُثابرين على طاعة الله تعالى في امتثالِ أوامِرِه وترك زواجره.

﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يُقرر تعالى أنه لا إله إلا هُوَ، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ فإنه مالكُ كُلِّ شيءٍ وخالقُه وربُه. ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهِدٌ، وعكرمةُ، وميمونُ بن مِهْرَانَ، والسدِّيُّ، وقتادةُ، وغير واحد: أي دائماً. وعن ابن عباس أيضاً: واجباً، وقال مجاهد: خالصاً. أي: له العبادةُ وحدَه ممَّن في السموات والأرض، كقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]. فهذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخَبَرِ، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطَّلَب، أي: ارهبوا أن تشركوا بي شيئاً، وأخلصوا لي الطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]. ثم أخبر أنه مالك النَّفْع والضر، وأنَّ ما بالعباد من نعمةٍ وَرِزْقٍ وعافيةٍ ونصر فمن فضله عليهم. وإحسانه إليهم ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾، أي: لِعِلْمِكُم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه، وتسألونه وتلحون في الرغبة مُستغيثين به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]. وقال ها هنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾. قيل: «اللام» ها هنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل، بمعنى قيَّضنا لهم ذلك ليكفروا، أي: يستروا ويجحدوا نعمَة الله عليهم، وأنه المُسْدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النِّقَم. ثم توعَّدهم قائلاً: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾، أي: اعملوا ما شئتم وتمتَّعوا بما أنتم فيه قليلاً، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أي: عاقبة ذلك.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ

سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

يُخبر تعالى عن قَبائح المشركين الذين عَبَدُوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم، وجعلوا لها نصيباً مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، أي: جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفَضَّلُوها أيضاً على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألَنَّهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه، وليقابلنهم عليه وليجازينَّهم أوفر الجزاء في نار جهنم فقال: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جَعَلوا الملائكةَ الذين هم عبادُ الرحمن إناثاً، وجَعَلوها بناتِ الله، وعبدوها مَعَه فأخطؤوا خَطأً كبيراً في كلِّ مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً، ولا وَلَدَ له! ثم أعطوه أخس القِسمَين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢٢]، وقال ها هنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ﴾، أي: عن قولهم وإفكِهم، ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الصافات: ١٥١ ـ ١٥٤].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾، أي: يختارون لأنفسهم الذكور ويأنَفُون لأنفسهم من البنات التي نَسَبُوها إلى الله ـ تعالى الله عن قولهم عُلُوّاً كبيراً ـ فإنه ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾، أي: كَئيباً من الهمّ، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ساكتٌ من شدّة ما هو فيه من الحزن، ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾، أي: يكره أن يَراه الناسُ ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتني بها ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾، أي: يئدها، وهو: أن يدفنَها فيه حيَّةً، كما كانوا يصنَعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، أي: بئس ما قالوا، وبئس ما قَسَمُوا، وبئس ما نَسبوا إليه! كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الزخرف: ١٧]، وقال ها هنا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾، أي: النقص إنما يُنسَبُ إليهم، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾، أي: الكمال المطلق من كلِّ وجه، وهو منسوب إليه، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يخبر تعالى عن حِلمه بخلقه مع ظُلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما تَرَك على ظهر الأرض من دابة، أي: لأهلك جميع دوابِّ الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم. ولكن الرب ـ جَلَّ جلالُه ـ يحلُم ويستُر، ويُنظِر ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ﴾، أي: لا يُعاجِلُهم بالعقوبة؛ إذ لو فَعَل ذلك بهم لما أبقى أحداً. قال سفيانُ الثوريُّ، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص أنه قال: كاد الجُعَل[1] أن يُعذَّب بِذَنْبِ بني آدم، وقرأ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ

(١) الجعل: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية.

بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾. وكذا رَوى الأعمشُ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي عُبَيدَةَ قال: قال عبدُ الله: كادَ الجعل أن يَهلِكَ في جُحْرِه بخطيئة ابن آدم. وقال ابنُ جرير: حَدَّثني محمد بن المثنى، حدثنا إسماعيل بن حكيم الخُزاعي، حدثنا محمد بن جابر الحَنَفِي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سَلَمة قال: سمع أبو هُرَيرة رَجُلاً وهُوَ يقولُ: إن الظالم لا يضرُّ إلا نفسه. قال: فالتفت إليه فقال: بلى والله، حتى إن الحبارى لتموت في وكْرِها هزالاً بظلم الظالم.

[٤٠٨٨] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، أنبأنا الوليدُ بنُ عبد الملك بن عبيد الله بن مُسَرِّح، حدثنا سُلَيمان بن عطاء، عن مَسْلمة بن عبد الله، عن عمه أبي مَشْجَعَةَ بن رِبْعِيّ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذَكَرنا عند رسول الله ﷺ فقال: «إن الله لا يُؤَخِّر شيئاً إذا جاء أجلُه، وإنما زيادةُ العُمُر بالذرِّيَّةِ الصالحةِ، يرزقها الله العبدَ فيدعُون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادةُ العُمُر»[1].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾، أي: من البنات ومن الشركاء الذين هم عَبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريكٌ له في ماله. وقولُه: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾، إنكارٌ عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثَمَّ مَعادٌ ففيه أيضاً لهم الحسنى، كقوله إخباراً عن قِيل من قال منهم: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝﴾ [مريم: ٧٧، ٧٨]، وقال إخباراً عن أحد الرجلين: أنه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۝ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]، فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل، بأن يجازوا على ذلك حُسناً، وهذا مستحيل، كما ذكر ابن إسحاق: أنه وُجِدَ حَجَر في أساس الكعبة حين نَقَضُوها ليجددوها مكتوبٌ عليه حِكَمٌ ومواعظ، فمن ذلك: تَعمَلُون السيئاتِ وتُجزَون الحسنات؟! أجل كما يُجتنى من الشوك العِنَب! وقال مجاهد، وقتادةُ: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾، أي: الغِلْمانُ. وقال ابنُ جرير: ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾، أي: يوم القيامة. كما قدمنا بيانه، ولله الحمد، وهو الصواب. ولهذا قال تعالى راداً عليهم في تَمَنِّيهم: ﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: حقاً لا بد منه ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾، أي: يومَ القيامةِ، ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾. قال مجاهد، وَسعيد بن جُبَير، وقتادة، وغيرهم: مَنسِيُّون فيها مُضَيَّعون. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]. وعن قتادةَ أيضاً: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾، أي: مُعجَّلُون إلى النار، من الفَرَط وهو السابق إلي الوِرْد. ولا منافاة، لأنهم يُعَجلُ بهم يوم القيامة إلى النار، ويُنسَون فيها، أي: يُخلَّدون.

---

(١) ضعيف جداً، أخرجه ابن عدي ٣/ ٢٨٥ وابن حبان في «المجروحين» ١/ ٣٣١ بهذا الإسناد عن أبي الدرداء، وأعله ابن عدي بسليمان بن عطاء الحمراني. وقال ابن حبان: يروي عن مسلمة بن عبد الله الجهني بأشياء موضوعة، لا تشبه حديث الثقات، فلست أدري التخليط فيها منه، أو من مسلمة.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يذكر تعالى أنه أرسَلَ إلى الأمم الخالية رُسلاً، فكُذِّبت الرسلُ، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يَهيدَنَّك تكذيبُ قومِكَ لك، وأما المشرِكون الذين كذبوا الرسل فإنما حَملهم على ذلك تزيينُ الشيطان لهم ما فعلوه، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾، أي: هم تحتَ العقوبة والنكال، والشيطانُ وليُّهم، ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صَرِيخَ لهم، ولهم عذاب أليم. ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أُنزِلَ عليه الكتاب ليبين لهم، أي: للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناسِ في كل ما يتنازعون فيه، ﴿وَهُدًى﴾، أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً﴾، أي: لمن تَمسَّكَ به، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. وكما جعل تعالى القرآن حياةً للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يُحيِي الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، أي: يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناسُ ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾، وهي: الإبل والبقر والغنم، ﴿لَعِبْرَةً﴾، أي: لآيةً ودلالةً على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته، ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾، وأفرد ها هنا الضمير عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أي: نسقيكم مما في بطون هذا الحيوان. وفي الآية الأخرى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾﴾ [عبس: ١١ ـ ١٢]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٣٥ ـ ٣٦]، أي: المال.

وقولُه تعالى: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾، أي: يَتخلَّصُ الدمُ بياضه وطَعْمُه وحَلاوته من بين فرثٍ ودَم في باطن الحيوان، فيسري كُلٌ إلى موطنه، فإذا نَضِجَ الغِذاءُ في مَعِدته تصرَّفَ منه دمٌ إلى العروق، ولبنٌ إلى الضرع، وبولٌ إلى المثانة، ورَوْثٌ إلى المخرج، وكلٌ منها لا يَشُوب الآخرَ ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يَتغير به. وقولُه: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾، أي: لا يَغَصُّ أحدٌ به. ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جَعله شراباً للناس سائغاً، ثَنَّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة، من ثمراتِ النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتنَّ به عليهم فقال: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾، دَلَّ على إباحته شرعاً قبل تحريمه، ودل على التسوية بين السُّكَرِ المتخَذِ من العنب، والمتَّخذِ من النخل، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكَذَا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنَّةُ بتفصيل ذلك، وليس هذا موضعَ بسط ذلك، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، قال: السَّكَر: ما حَرُم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أُحِلَّ من ثمرتيهما ـ وفي رواية: السَّكر حَرَامه، والرزق الحسن حلاله. يعني ما يَبِسَ منهما من تَمْرٍ وزَبِيب، وما عُمِلَ منهما من طِلاَءٍ ـ وهو الدِّبْسُ ـ وخَلٌ ونَبِيذٌ، حلال يُشْرَب قبل أن يشتدَّ، كما وردت السنة بذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ناسب ذكرُ العقل ها هنا، فإنه أشرفُ ما في الإنسان، ولهذا حَرَّمَ الله

على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانةً لعقولها، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٤ ـ ٣٦].

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

المرادُ بالوحي ها هنا: الإلهامُ والهدايةُ والإرشادُ إلى النحلِ أن تتَّخِذَ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون. ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تَسْدِيسها ورصِّها، بحيث لا يكون بينها خَلَلٌ. ثم أَذِن لها تعالى إذناً قَدَرياً تسخيرياً أن تأكل من كلِّ الثمرات، وأن تسلُكَ الطرق التي جعلها الله تعالى لها مُذَلَّلة، أي: سهلة عليها حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبَرَارِي الشاسِعَة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعودُ كلُّ واحدةٍ منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها، وتَقِيءُ العسَلَ من فِيها، وتَبيض الفراخ من دُبُرها، ثم تُصبح إلى مراعيها.

وقال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾، أي: مُطِيعة. فجعلاه حالاً من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس: ٧٢]، قال: ألا تَرَى أنَّهم ينتقلون بالنحل ببيوته من بلد إلى بلد وهو يَصْحَبُهم. والقولُ الأول أظهرُ. وهو أنه حال من الطريق، أي: فاسلكيها مذلَّلةً لك، نص عليه مجاهد. وقال ابن جرير: كلا القولين مُتَّجِهٌ.

[٤٠٨٩] وقد قال أبو يعلى الموصلي: حدثنا شيبان بن فَرُّوخ، حدثنا سُكَين بن عبد العزيز، عن أبيه، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «عُمرُ الذباب أربعونَ يوماً، والذُّبابُ كلُّه في النارِ إلا النحلُ»(١).

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ ٤٢٣١ وابن عدي ٣/ ٤٦٣. وابن الجوزي في «الموضوعات» ٣/ ٢٦٦.

قال الهيثمي في «المجمع» ١٨٥٩٤: رجاله ثقات. وحسنه البوصيري فيما نقل الأعظمي كما في «تخريج المطالب العالية» ٢/ ٢٩٦، وفي ذلك نظر. وأعله ابن الجوزي بسكين، ونقل عن النسائي قوله: ليس بالقوي أهـ وجاء في التهذيب: وثقه العجلي وابن نمير وابن حبان، وأثنىٰ عليه غيرهم، وضعفه النسائي، وأبو داود وابن خزيمة أهـ قلت: الخبر منكر، والظاهر أن علته أبوه عبد العزيز بن قيس، فقد ذكره الذهبي في الميزان، وقال: مجهول، وذكره ابن حبان في الثقات أهـ وقال عنه الحافظ في التقريب: مقبول. أي حيث يتابع، ولم يتابعه الثقات علىٰ هذا. وورد من وجه آخر أخرجه أبو يعلىٰ ٤٢٩٠ وإسناده ضعيف جداً فيه عنبسة بن سعيد البصري، وحنظلة، وكلاهما واهٍ. ومما يدل علىٰ وهنه، هو أن الذباب يعمر فوق الأربعين يوماً بكثير. وعجزه ورد من حديث ابن عمر، أخرجه الطبراني ١٣٤٣٦ و ١٣٤٦٧ و ١٣٤٦٨ و ١٣٥٤٢ و ١٣٥٤٣ و ١٣٥٤٤ والبزار ٣٤٩٨ وابن عدي ١/ ٢٨٥ ـ ٣٤٩ و ٥/ ٤٤ وابن الجوزي ٣/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦: في الطريق الأول أيوب بن خوط، قال يحيىٰ: لا يكتب حديثه، وقال الفلاس والنسائي والرازي والسعدي: متروك. وفي الطريق الثاني: القاسم بن يزيد بن سفيان مجهول أهـ وقال الهيثمي: رجال بعض أسانيد الطبراني ثقات.

وورد من حديث ابن عباس، أخرجه الطبراني ١١٠٥٨ وقال الهيثمي ١٨٥٩٥: رجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن محمد بن حازم وهو ثقة. وورد من حديث ابن مسعود، أخرجه الطبراني ١٠٤٨٧، وقال الهيثمي ١٨٥٩٧: إسحق بن يحيىٰ بن طلحة متروك، وذكره ابن حبان في الضعفاء، وفي الثقات، وقال: يترك ما انفرد به، ويحتج بما وافق فيه الثقات. قال الهيثمي: وقد وافقه الثقات في أصل الحديث أهـ، وذكره السيوطي في «اللآلىء» ٢/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤ وذكر له طرقاً أخرىٰ لم يذكرها ابن الجوزي، وعلىٰ هذا فلا يحسن الحكم عليه بالوضع، كما أنه لا يبلغ درجة الصحيح، هذا بالنسبة لعجزه، وأما صدرهُ فهو منكر. تفرد به سكين وأبوه، وسكين ضعفه غير واحد كما تقدم، وأبوه مجهول، والله تعالىٰ أعلم بالصواب.

وقولُه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾، أي: ما بين أبيضَ وأصفر وأحمرَ وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومآكِلها منها. وقولُه: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، أي: في العسل شفاء للناس من أدواءٍ تعرضُ لهم. قال بعضُ من تَكَلَّم على الطب النبويّ: لو قال: فيه الشفاء للناس، لكان دواءً لكل داءٍ، ولكن قال: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، أي: يصلح لكلِّ أحدٍ من أدواءٍ باردة، فإنه حار، والشيءُ يُدَاوَى بِضِدِّه. وقال مجاهد بن جَبْرٍ في قوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾: يعني القرآن. وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهرَ ها هنا من سياق الآية، فإن الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهدٌ على قوله ها هنا، وإنما الذي قاله ذكروه في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. . . الآية، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧]. والدليل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، هو العسل.

[٤٠٩٠] الحديثُ الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، من رواية قتادة، عن أبي المتوكِّل علي بن داودَ الناجيِّ، عن أبي سعيد الخُدْري ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي اسْتَطْلَقَ بطنُه؟ فقال: اسقه عسلاً. فسقاهُ عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسولَ الله، سقيتُه عسلاً فما زادَه إلا استطلاقاً! قال: «اذهَبْ فاسقه عسلاً». فذهَبَ فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسولَ اللّهِ، ما زاده إلا استطلاقاً! فقال رسولُ الله ﷺ: «صدق الله وكَذَبَ بطنُ أَخِيكَ! اذهَبْ فاسقه عسلاً». فذهبَ فسقاه فَبَرَأ[١]. قال بعضُ العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلاتٌ، فلما سقاه عَسَلاً وهو حارٌّ تحللت، فأسرعَت في الاندفاع، فزاد إسهالُه، فاعتقد الأعرابي أن هذا مضرَّةٌ، وهو مَصْلَحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليلُ والدفعُ، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلاتُ الفاسدةُ المضرَّةُ بالبدن استمسك بطنه، وصَلَح مزاجه، واندفعت الأسقامُ والآلام ببركة إشارته، عليه من ربِّه أفضلُ الصلاةِ والسلام.

[٤٠٩١] وفي الصحيحين، من حديث هِشَام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشةَ: أن رسولَ الله ﷺ كان يَعجِبهُ الحَلْواءُ والعَسَلُ[٢]. هذا لفظُ البخاريّ.

[٤٠٩٢] وفي صحيح البخاري، من حديث سالم الأفطس، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شَرْطة مِحْجَمٍ، أو شربَةِ عَسَلٍ، أو كيَّةٍ بنار، وأنهى أُمَّتي عن الكَيِّ»[٣].

[٤٠٩٣] وقال البخاري: حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا عبد الرحمن بن الغَسِيل، عن عاصم بن عُمَر بن قتادَةَ: سمعت جابر بن عبد الله قال: سَمِعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيءٍ من أدويتكم ـ أو يكونُ في شيء من أدويتكم ـ خير ففي شرطة محجَم، أو شَرْبَةِ عَسَلٍ، أو لَذْعَةٍ بنارٍ توافق الداء، وما أحب أن أكتوِيَ»[٤]. ورواه مسلم من حديث عاصم بن عُمَر بن قتادَةَ، عن جابر، به.

[٤٠٩٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا سعيدُ بن أبي أيوب، حدثنا عبد الله بن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧١٦ ومسلم ٢٢١٧ والترمذي ٢٠٨٣ وأحمد ٣/١٩ و ٩٢ وأبو يعلى ١٢٦١.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٤٣١ و ٥٦١٤ ومسلم ١٤٧٤ وأبو داود ٣٧١٥ والترمذي ١٨٣٢ وابن ماجه ٣٣٢٣ وأحمد ٦/ ٥٩.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٦٨٠.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٥٦٨٣ ومسلم ٢٢٠٥ وأبو يعلى ٢١٠٠.

الوليد، عن أبي الخير، عن عُقبة بن عامر الجُهَني قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ثلاثٌ إن كان في شيءٍ شفاءٌ فشَرطة مِحْجَم، أو شَرْبَةُ عَسَل، أو كيَّة تُصِيب ألماً، وأنا أكرَهُ الكيَّ ولا أحبه»[(١)]. ورَواه الطبرانيُّ عن هارونَ بن مَلُولَ المصري، عن أبي عبد الرحمن المقرىء، عن عبد الله بن الوليد، به، ولفظه: «إن كان في شيء شفاء فَشَرْطَة مِحْجم...»[(٢)] وذكره، وهذا إسنادٌ صَحِيحٌ، ولم يُخرِّجُوه.

[٤٠٩٥] وقال الإمامُ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القَزْوينيّ في سننه: حدثنا علي بن سلمة ـ هو اللَّبقِيُّ ـ حدثنا زيد بن الحُباب، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عليكم بالشفائين العَسَل والقرآن»[(٣)]. وهذا إسنادٌ جيدٌ، تَفرّد بإخراجه ابن ماجَه مرفوعاً، وقد رواه ابنُ جرير، عن سفيانَ بن وكيع، عن أبيه، عن سفيان ـ هو الثوري ـ به موقوفاً؛ ولَهو أشبه. وروينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إذا أراد أحدُكم الشفاءَ فَلْيكتب آيةً من كتاب الله في صَحْفَة، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فَلْيَشْتَر به عَسَلاً فَلْيشربه بذلك، فإنه شفاء، أي من وجوه، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩]، وقال: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤]، وقال في العسل: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

[٤٠٩٦] وقال ابن ماجه أيضاً: حدثنا محمود بن خِدَاش، حدثنا سعيدُ بن زكريا القرشي، حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمي، عن عبد الحميد بن سالم، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من لَعِقَ العسل ثلاث غَدَواتٍ في كلِّ شهر، لم يُصِبْه عظيم من البلاء»[(٤)]. الزبير بن سعيد متروك.

[٤٠٩٧] وقال ابنُ ماجه أيضاً: حدثنا إبراهيمُ بن يوسفَ بن سَرْح الفِرْيابيُّ، حدثنا عمرو بن بكر السَّكْسَكيّ، حدثنا إبراهيم بن أبي عبْلَة: سمعت أبا أُبيّ بن أمّ حَرَام ـ وكان قد صَلّى القبلتين ـ يقول: سمعتُ

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٤/ ١٤٦ وأبو يعلى ١٧٦٥ وفي إسناده عبد الله بن الوليد لين الحديث كما في «التقريب» لكن يشهد له ما قبله. وذكره الهيثمي في «المجمع» ٥/ ٩٠ ـ ٩١ وقال: ورجاله رجال الصحيح خلا عبد الله بن الوليد بن قيس، وهو ثقة اهـ.

(٢) أخرجه الطبراني ١٩/ ٤٣٠ وصححه ابن كثير رحمه الله ويتأيد بما قبله.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٣٤٥٢ والحاكم ٤/ ٢٠٠ ـ ٤٠٣ والخطيب ١١/ ٣٨٥ وابن عدي ٣/ ٢١٠، صححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وفي إسناده زيد بن الحباب صدوق روى له مسلم لكن قال ابن معين: أحاديثه عن الثوري مقلوبة. وقال أحمد: صدوق كثير الخطأ. والحديث صحح إسناده البوصيري في «الزوائد» وأما ابن عدي فقد صوب الوقف وجعل الرفع من أوهام زيد بن الحباب. وكذا ذكره الذهبي في الميزان بهذا الحديث وقال: رواه جماعة عن الثوري موقوفاً على ابن مسعود، وكرره ابن عدي ٣/ ٣١٨ وقال: وهذا يعرف عن الثوري مرفوعاً من رواية زيد بن الحباب، وأما عن وكيع عن الثوري فهو موقوف، ورواه ابن أبي شيبة ٢/ ٦١/ ١٢ موقوفاً. وأخرجه البيهقي في «الشعب» ٢٥٨١ مرفوعاً، وقال: رفعه زيد بن الحباب، والصحيح موقوف على ابن مسعود. وكذا أخرجه الطبري ٢١١٧٥٤ عن وكيع عن الثوري به موقوفاً، ووكيع أثبت من زيد بن الحباب في الثوري، والله أعلم.

(٤) ضعيف جداً، أخرجه ابن ماجه ٣٤٥٠ وابن عدي ٥/ ٣٢٠. وابن الجوزي في «الموضوعات» ٣/ ٢١٥ من حديث أبي هريرة. قال البوصيري في الزوائد: في إسناده لين، ومع ذلك فهو منقطع. قال البخاري: لا نعرف لعبد الحميد ـ بن سالم ـ سماعاً من أبي هريرة أهـ وقال ابن الجوزي: لا يصح، قال العقيلي: وليس لهذا الحديث أصل عن ثقة، وأعله ابن كثير بالزبير فقط، وأنه متروك.

رسولَ الله ﷺ يقول: «عليكم بالسَّنا والسَّنوتِ؛ فإن فيهما شفاءً من كُلِّ داءٍ إلا السامَ». قيل: يا رسول الله، وما السامُ؟ قال: «الموت»[1]. قال عمرو: قال ابنُ أبي عبلة: السَّنُّوتُ: الشِّبِتُّ. وقال آخرون: بل هو العسل الذي في زِقَاق السمن، وهو قول الشاعر:

هُمُ السَّمْنُ بالسَّنُّوتِ لا أَلْسَ فِيهُمُ وَهمْ يمنَعُونَ الجَارَ أنْ يَتقَرَّدَا

كذا رواه ابنُ ماجه، وقولُه: لا ألسَ فيهم، أي: لا خَلْطَ. وقوله: يَمنَعُون الجارَ أن يَتَقَرَّدا، أي: يُضطهَدَ ويُظلَمَ. كذا قاله شيخُنا المِزِّيُ. وقولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: إن في إلهام الله لهذه الدوابّ الضعيفةِ الخلْقَةِ إلى السلوك في هذه المهامه والاجتناء من سائر الثمار، ثم جَمْعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة خالقها ومُقَدِّرها ومُسَخِّرها ومُيَسِّرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادرُ، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالى عن تَصَرُّفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العَدَم، ثم بعد ذلك يَتوفَّاهم، ومنهم من يَتركُه حتى يُدْرِكه الهرَم ـ وهو الضعف في الخِلْقَةِ ـ كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]. وقد رُوِي عن علي ـ رضي الله عنه ـ في أرذل العمر قال: خَمسٌ وسبعون سنةً. وفي هذا السنّ يحصُل له ضعفُ القُوَى والخَرَفُ وسوءُ الحِفظِ وقلَّة العلم. ولهذا قال: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، أي: بعدَما كانَ عالِماً أصبحَ لا يَدْرِي شيئاً من الفَنَد والخَرفِ.

[٤٠٩٨] ولهذا رَوَى البخاريُّ عند تفسير هذه الآية: حَدّثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا هارونُ بن موسى أبو عبد الله الأعور، عن شُعيبٍ، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذُ بك من البُخْلِ والكَسَل والهرم، وأرذَلِ العُمْرِ، وعَذَابِ القبر، وفتنة الدجالِ، وفتنة المحيا والممات»[2]. ورواه مسلم، من حديث هارون الأعور، به. وقال زهير بن أبي سُلمى في معلقته المشهورة:

سئِمتُ تَكاليفَ الحيَاةِ، وَمَنْ يعشْ ثمانينَ عاماً ـ لا أبا لَكَ ـ يَسْأَمِ

رَأيتُ المَنَايا خَبْطَ عَشْواءَ من تُصِبْ تُمِتْه وَمَنْ تُخطِىء يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

يُبيِّنُ تعالى للمشركين جَهْلَهم وكُفْرهم فيما يزعمون لله من الشركاء، وهم يَعْرِفون أنها عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبياتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فقال تعالى

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٤٥٧ بطوله وقال البوصيري في «الزوائد» عمرو بن بكر السكسكي قال فيه ابن حبان: روى عن إبراهيم بن أبي عبلة الأوابد والطامات لا يحل الاحتجاج به. لكن قال الحاكم: إنه إسناد صحيح اهـ. وتعقبه الذهبي بقوله: عمرو اتهمه ابن حبان. وقال ابن عدي عنده مناكير اهـ وذكره الألباني في «الصحيحة» ١٧٩٨ وقواه بشواهد واهية، فالله أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٠٧ ومسلم ٢٧٠٦ح٥٢.

منكراً عليهم: أنتم لا ترضَون أن تُساوُوا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيفَ يرضَى هو تعالى بمساواة عبيده له في الإلهية والتعظيم؟! كما قال في الآية الأخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]... الآية. قال العَوْفي، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: لم يكونوا لِيُشْرِكوا عَبِيدَهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني فذلك قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾. وقال في الرواية الأخرى، عنه: فكيف ترضَون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟!. وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثلٌ للآلهة الباطلة. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شَارَكَ مملوكه في زوجته وفي فراشِهِ، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟! فإن لم تَرْضَ لنفسِك هذا، فالله أحقُّ أن ينزَّه منك. وقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، أي: إنهم جعلوا لله ما ذَرَأ من الحرث والأنعام نصيباً، فجَحدُوا بنعمةِ الله، وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصريِّ قال: كتب عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هذه الرسالة إلى أبي مُوسَى الأشعريِّ: واقنع برزقك من الدنيا، فإنَّ الرحمن فَضَّل بعضَ عباده على بعض في الرزق، بل يبتلي به كُلاً، فيبتلي مَن بَسَط له، كيفَ شُكرهُ فيه؟ وشكرِ الله أداؤهُ الحقَّ الذي افترَضَ عليه فيما رزقَه وخوَّلَه؟. رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

يذكُر تَعالى نِعَمَه على عَبِيده، بأن جَعَل لهم من أنفُسِهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم وَزِيِّهم، ولو جَعَل الأزواجَ من نوع آخر لما حَصَل ائتلافٌ ومودَّة ورحمةٌ. ولكن من رحمته خَلَق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعَل الإناثَ أزواجاً للذُّكورِ. ثم ذكر تعالى أنه جَعَل من الأزواج البنين والحَفَدَة، وهم أولادُ البنين. قاله ابنُ عَبّاسٍ، وعكرمةُ، والحسنُ، والضحاك، وابنُ زيد. قال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: هم الوَلَدُ ووَلَدُ الوَلَدِ. وقال سُنَيد: حَدَّثنا حَجّاج، عن أبي بكر، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: بَنُوك حين يَحفِدُونك ويَرْفِدُونك، ويعينونك ويخدمونك، قال جَميلٌ:

حَفَدَ الولائدُ حَوْلَهُنَّ وأسلَمَتْ ... بأكُفِّهِنَّ أزِمَّةَ الأجمَالِ

وقال مجاهدٌ: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: ابنه وخادِمُه. وقال في رواية: الحَفَدَةُ: الأنصار والأعوان والخُدَّام. وقال طاووس: الحفدةُ الخدمُ. وكذا قال قتادة، وأبو مالك، والحسن البصري. وقال عبد الرزّاق: أنبأنا معمر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة أنه قال: الحَفَدَةُ من خَدَمك من وَلَدِك ووَلَدِ وَلَدِك. وقال الضحاك: إنما كانت العرب يخدُمها بنوها. وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾، يقول: بنو امرأة الرجل، ليسوا منه. ويقال: «الحفدة»: الرجل يعمل بين يدي الرجل، يقال: فلان يحفد لنا أي يعمل لنا. قال: وَزعَم رجال أن الحَفَدَةَ أَخْتَانُ الرجل. وهذا القولُ الأخير الذي ذكره ابنُ عباس قاله ابنُ مسعود، ومسروق، وأبو الضُّحى، وإبراهيم النَّخعيُّ، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، والقُرَظِيّ. ورواه عِكْرِمة عن ابن عباس. وقال عليُّ بنُ أبي طلحة، عن ابن عباس: هم الأصهار.

قال ابنُ جرير: وهذه الأقوال كلُّها داخلة في معنى الحَفْدِ، وهو الخدمة، الذي منه قوله في القُنُوتِ: وإليك نسعَى ونحفِدُ، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخُدَّام، فالنعمة حاصلةٌ بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾. قلت: فمن جعل ﴿وَحَفَدَةً﴾ متعلقاً بأزواجكم، فلا بد

أن يكونَ المرادُ الأولاد، وأولاد الأولاد، أو الأصهار؛ لأنهم أزواج البنات، أو البنات، أو أولاد الزوجة، كما قاله الشعبي والضحاك، فإنهم غالباً يكونون تحت كَنفِ الرجُلِ وفي حِجْرِه وفي خدمته.

[٤٠٩٩] وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بَصْرَة بن أَكْثَم: «والولَدُ عبدٌ لك»[١]. رواه أبو داود. وأما من جعل الحَفَدة هم الخدم فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: وجعل لكم خُدَّاماً. وقال تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، الرزق من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾، وهم: الأصنامُ والأندادُ، ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾، أي: يَستُرُون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره.

[٤١٠٠] وفي الحديث الصحيح: «إنَّ الله تعالى يقولُ للعبدِ يومَ القيامةِ ممتناً عليه: ألم أزوِّجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخِّر لك الخيلَ والإبلَ وأذَرْكَ ترأسُ وتَرْبَعُ؟»[٢].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

يقولُ تعالى إخباراً عن المشركين الذين عَبَدُوا معَه غيرَه، مع أنه هو المنعِم المتفضِّلُ الخالِقُ الرازِقُ وحدَه لا شريك له، ومع هذا يَعبُدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾، أي: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنباتِ زَرعٍ ولا شجرٍ، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي: ليس إليهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾، أي: لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قال العوفيُّ، عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن: وكذا قال قتادةُ، واختاره ابن جرير. فالعبدُ المملوك الذي لا يقدِرُ على شيء مثل الكافر. والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفقِ منه سراً وجهراً هو المؤمنُ. وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستَوي هذا وهذا؟! ولما كان الفرق ما بينهما بَيِّناً واضحاً ظاهراً لا يجهله إلا كلُّ غَبِيٍّ، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثم قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

قال مجاهد: وهذا أيضاً المرادُ به الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكَمُ لا يتكلَّم ولا ينطق بخير ولا شرٍّ، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مَقال، ولا فِعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾، أي: عيال وكلفة على

---

(١) أخرجه أبو داود ٢١٣١ وله قصة، وهو حديث حسن.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند الآية: ٤٦.

مولاه، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾، أي: يبعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه، ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾ من هذه صفاته، ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾، أي: بالقسط، فمقاله حق وفعاله مستقيمة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. وبهذا قال السديُّ، وقتادة وعطاء الخراساني. واختار هذا القولَ ابنُ جرير.

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: هو مَثَلٌ للكافر والمؤمنِ أيضاً كما تقدَّمَ. وقال ابن جرير: حدثنا الحسنُ بن الصباح البزّار، حدثنا يحيى بن إسحاق السَّيْلحيني، حدثَنا حمّاد، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن إبراهيمَ عن عِكْرِمةَ عن يَعْلَى بن أميّة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ قال: نزلت في رجل من قريش وعبده. وفي قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: هو عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: والأبكم الذي أينما يُوجّهه لا يأتِ بخيرٍ قال هو: مولىً لعثمانَ بن عفّان، كان عثمانُ ينفِقُ عليه ويَكفُله ويَكْفيه المؤنة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

يخبرُ تَعالى عن كماله وقدرتِهِ على الأشياء، في علمه غَيْبَ السمٰوات والأرض، واختصاصِه بذلك، فلا اطّلاع لأحد على ذلك إلا أن يُطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تُخالف ولا تُمانع، وإنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكونُ، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، أي: فيكونُ ما يريد كطَرْفِ العين. وهكذا قال ها هنا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. ثم ذكر تعالى مِنَّته على عباده، في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يَرزُقهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتي بها يُحسُّون المرئيّات، والأفئدة ـ وهي العقولُ ـ التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدِّماغ، والعقلُ به يُمَيِّز بين الأشياء ضارَّها ونافِعَها. وهذه القُوَى والحواسُّ تحصُلُ للإنسان على التَّدرج قليلاً قليلاً، كُلَّما كبر زِيدَ في سمعه وبصره، وقَوِيَ عقلُه حتى يبلغ أشده. وإنما جَعَل تعالى هذه في الإنسان، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعينَ بكل جارحة وعُضو وقُوّة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

[٤١٠١] «يقولُ تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارَزَني بالحرب. وما تَقرّب إليّ عبدي بأفضل من أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزالُ عَبْدِي يَتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه. فإذا أحببتُه كنتُ سَمْعَه الذي يسمَعُ به، وبصَرَه الذي يُبصِرُ به، ويده التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَه التي يمشي بها، وَلَئِن سَألني لأعطينّه، ولئن دعاني لأجيبنه، ولئن استعاذ بي لأعيذَنّه، وما تَرَدَّدتُ في شيءٍ أنا فاعله تَرَدُّدِي في قبض نفس عَبْدِي المؤمن، يكره الموتَ وأكره مساءَتَه، ولا بُدَّ له منه»[1]. فمعنى الحديثِ أنَّ العبدَ إذا أخلص الطاعة صارت أفعالُه كلُّها للّهِ

(١) تقدم الكلام عليه في سورة البقرة، آية: ٩٨.

عَزَّ وَجلَّ، فلا يسمَعُ إلا لله، ولا يُبصِرُ إلا لله، أي: ما شَرَعه الله له. ولا يَبْطِش ولا يمشي إلا في طاعة الله عَزَّ وجَلَّ، مُستَعِيناً بالله في ذلك كُلِّه. ولهذا جاء في بعض رواية الحديثِ في غير الصحيح، بعد قوله: «ورِجْلَه التي يمشي بها»: «فَبِي يَسْمَع، وَبِي يُبصِرُ، وَبِي يَبْطِش، وَبِي يَمْشي»، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الملك: ٢٣، ٢٤]. ثم نَبَّه تعالى عبادَه إلى النَّظر إلى الطير المسخَّر بين السماء والأرض، كيف جَعَله يطيرُ بجناحيه بين السماء والأرض، في جَوِّ السماء ما يُمسِكه هناك إلا الله بِقُدرته تعالى، الذي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسَخَّر الهواء يَحمِلُها ويسَّر الطير لذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: ١٩]. وقال ها هنا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

يذكُر تبارَكَ وتعالى تَمام نِعَمِه على عَبيده، بما جَعَل لهم من البيوتِ التي هي سَكَنٌ لهم، يَأْوُون إليها ويَسْتَقِرُّون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾، أي: من الأَدَم، يَستَخِفُّون حملها في أسفارهم، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر. ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾، أي: الغنم، ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾، أي: الإبل. ﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾، أي: المَعْز ـ والضمير عائد على الأنعام ـ ﴿أَثَٰثًا﴾، أي: تتخذون منه أثاثاً، وهو المال. وقيل: المَتَاع. وقيل: الثيابُ. والصحيح أعمُّ من هذا كلِّه، فإنه يتخذ منه الأثاث والبُسُط والثياب وغير ذلك، ويُتَّخَذُ مالاً وتجارةً. وقال ابن عباس: الأثاثُ: المتاعُ. وكذا قال مجاهد، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وعَطِيَّة العَوْفي، وعطاء الخُرَاساني، والضحاك، وقتادةُ. وقولُه: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى أَجَلٍ مُسمّى ووقتٍ معلوم.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾، قال قتادةُ: يعني الشَّجَرَ. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾، أي: حَصوناً ومعاقِلَ، كما ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، وهي الثيابُ من القطن والكتان والصوف، ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾، كالدروع من الحديد المصفَّح والزَّرَدِ وغير ذلك، ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، أي: هكذا يَجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته، ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، هكذا فَسَّره الجمهور، وقرؤوه بكسر اللام من ﴿تُسْلِمُونَ﴾ أي: من الإسلام. وقال قتادةُ: في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾. هذه السورةُ تُسمَّى سورةَ النِّعَم. وقال عبد الله بن المبارك وعَبّاد بن العوام، عن حَنْظَلةَ السدوسيِّ، عن شهر بن حوشَبٍ، عن ابن عباس أنه كان يقرؤها «تسلمون» ـ بفتح اللام ـ يعني من الجراح. رواه أبو عبيد القاسم بن سلام، عن عبّاد، وأخرجه ابن جرير من الوجهين، وردَّ هذه القراءة. وقال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآنُ على قَدْرِ معرفة العَرَبِ، ألا تَرَى إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ

﴿أَكْنَٰنًا﴾، وما جعل لكم من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال! ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، وما جعل لكم من غير ذلك أعظمُ منه وأكثر، ولكنهم كانوا أصحابَ وَبَر وشَعَر. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣]، يُعَجِّبهم من ذلك، وما أنزل من الثلج أعظمُ وأكثر، ولكنهم كانوا لا يَعرِفونه؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، وما يقي من البرد أعظمُ وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حَرٍّ. وقولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾، أي: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليكَ منهم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، وقد أدّيته إليهم. ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، أي: يَعْرِفُون أن الله تعالى هو المُسْدِي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويُسندون الرزق والنصر إلى غيره، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، كما قال ابن أبي حاتم:

[٤١٠٢] حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مجاهد: أن أعرابياً أتى رسولَ الله ﷺ فسأله، فقرأ عليه رسول الله ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، قال الأعرابي: نَعَم. قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾، قال الأعرابي: نعم. ثم قرأ عليه كُلَّ ذلك يقول الأعرابي: نعم، حتى بلغ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، فَوَلَّى الأعرابي، فأنزل الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم مَعادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعَثُ من كُلِّ أُمّةٍ شهيداً، وهو نَبِيُّها، يشهد عليها بما أجابته فيما بَلَّغَها عن الله تعالى، ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلَمون بُطلانَه وكَذِبه، كما قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٥ ـ ٣٦]. ولهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، أي: أشركوا ﴿ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾، أي: لا يُفتَّر عنهم ساعةً واحدةً، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، أي: ولا يُؤَخَّر عنهم، بل يأخُذُهم سَريعاً من الموقف بلا حِسابٍ.

[٤١٠٣] فإنه إذا جِيءَ بجهنَّم تُقاد بسبعين ألفَ زِمامٍ، مع كُلِّ زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عُنُق منها على الخلائق، وتَزْفِرُ زفرة فلا يبقى أحد إلا جَثَا لركبتيه، فتقول: إني وُكِلْتُ بكلِّ جَبّار عنيد، الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وبكذا وبكذا، وتَذكُر أصنافاً من الناس[2]، كما جاء في الحديث. ثم تنطوي عليهم وتتلقَّطُهم من الموقف كما يَتَلقَّط الطائر الحب، قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان:

---

(١) إسناده ضعيف، فهو مرسل، ومع إرساله فيه عبد الرحمن بن يزيد بن جابر فيه كلام.

(٢) متفق عليه، وسيأتي في الجاثية.

١٢ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٩ - ٤٠].

ثم أخبر تعالى على تبرّي آلهتهم منهم أحوجَ ما يكونون إليها فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾، أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، أي: قالت لهم الآلهة: كَذَبتم، نحن ما أمرناكم بعبادتنا. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ . . . الآية [القصص: ٦٤]. والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾، قال قتادةُ، وعكرمةُ: ذَلّوا واستسلَموا يومئذ، أي: استسلَموا لله جميعُهم، فلا أحدَ إلا سامعٌ مطيعٌ. كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، أي: ما أسمعَهم وما أبصرَهم يومئذٍ! وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وقال: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، أي: خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت. وقوله ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾، أي: ذَهَب واضمحلّ ما كانوا يعبدونَه افتراءً على الله، فلا ناصرَ لهم ولا مُعِينَ ولا مُجيرَ.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾، أي: عذاباً على كُفرهم، وعذاباً على صَدِّهم الناسَ عن اتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، أي: يَنهَوْنَ الناسَ عن اتباعه، ويبتعدون هُم منه أيضاً ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

وهذا دَليلٌ على تفاوُتِ الكفار في عَذَابهم، كما يتفاوَتُ المؤمنونَ في مَنَازِلهم في الجنة ودَرَجاتِهم، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سُرَيجُ بن يونس، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مُرّة، عن مسروق، عن عبد الله في قول الله تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾، قال: زيدوا عقارب أنيابُها كالنّخل الطُّوال. وحدثنا سُرَيج بن يونس، حدثنا إبراهيم بن سليمان، حدثنا الأعمشُ، عن الحسن، عن ابن عباس أنه قال: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾، قال: هي خمسةُ أنهارٍ تحت العرش يُعَذَّبون بِبَعضها بالليل وبِبَعضها بالنهار.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

يقولُ تعالى مخاطباً عبدَه ورسولَه محمداً ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، يعني أمته، أي: اذكر ذلك اليومَ وهولَه وما منحَكَ الله فيه من الشَّرَفِ العظيم والمَقَام الرفيع.

[٤١٠٤] وهذه الآية شبيهةٌ بالآية التي انتهى إليها عبدُ الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سُورَةِ النساء فلما وصلَ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[1] [النساء: ٤١]. فقال له رسولُ الله ﷺ: «حسبك!» قال ابنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ: فالتفتُّ فإذا عيناه تَذْرِفان.

وقولُه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، قال ابنُ مسعود: وقد بُيِّن لنا في هذا القرآن كلُّ علمٍ وكُلّ شيءٍ. وقال مجاهد: كل حلال وحرام. وقولُ ابن مسعودٍ أعمُّ وأشملُ، فإنَّ القرآنَ اشتمل على كُلِّ علمٍ نافعٍ من خبر ما سَبَق، وعِلْمِ ما سيأتي، وحُكم كُلِّ حلال وحرام، وما الناسُ إليه مُحتاجون في أمر دنياهم ودينِهم، ومعاشهم ومعادهم. و ﴿هُدًى﴾، أي: للقلوب، ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾. وقال الأوزاعيُّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: بالسنة. ووجهُ اقتران قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، مع قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾، أن المراد ـ والله أعلم ـ أنَّ الذي فَرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزلهُ عليكَ، سائلك عن ذلك يوم القيامة، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، أي: إن الذي أوْجَبَ عليك تبليغ القرآن لرادك إليه، ومُعِيدُك يوم القيامة، وسائِلك عن أداءِ ما فُرِضَ عَلَيك. هذا أحدُ الأقوال، وهو مُتَّجه حَسَنٌ.

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

يُخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القِسْطُ والموازنة، ويندُب إلى الإحسان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا، من شرعية العدل والندب إلى الفضل.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾، قال: شهادة أن لا إله إلا الله. وقال سفيان بن عُيَينة: العدلُ في هذا الموضع هو استواء السَّريرة والعلانية من كلِّ عاملٍ لله عملاً. والإحسانُ أن تكون سريرتُه أحسنَ من علانيته. والفحشاءُ والمنكرُ أن تكونَ علانيتُه أحسنَ من سريرته. وقولُه تعالى: ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾، أي: يأمرُ بصِلَةِ الأرحام، كما قال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦]. وقولُه: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾، فالفواحش: المحرَّمات. والمنكرات ما ظَهَر منها من فاعليها، ولهذا قال في الموضع الآخر: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وأما البغيُ فهو العدوانُ على الناس.

[٤١٠٥] وقد جاء في الحديث: «ما من ذنبٍ أجدرُ أن يُعَجِّلَ الله عُقُوبَتَه في الدنيا، مع ما يَدَّخِر لصاحبه في الآخرة، من البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»[2]. وقولُه: ﴿يَعِظُكُمْ﴾، أي: يأمُرُكم بما يأمُرُكم به من الخير،

---

(١) وتقدم تخريج الحديث فيها.

(٢) تقدم في تفسير سورة المائدة: ٣١. وهو حسن.

وينهاكم عن الذي ينهاكم عنه من الشرّ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. قال الشعبي، عن شُتَير بن شَكَل: سَمِعتُ ابنَ مسعود يقول: إن أجمع آيةٍ في القرآنِ في سُورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾... الآية. رواه ابنُ جرير. وقال سعيدٌ: عن قتادةَ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾... الآي:، ليس من خُلُق حسن كان أهلُ الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به. وليس من خُلُق سَيِّىءٍ كانوا يتعايَرُونه بينهم إلا نهى اللهُ عنه وقدّم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومَذَامِّهَا.

[٤١٠٦] قلت: ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يُحبُّ مَعَالي الأخلاقِ، ويكْرَهُ سَفْسَافَها»[(١)].

[٤١٠٧] وقال الحافظ أبو نُعيم في كتاب «معرفة الصحابة»: حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلي، حدثنا يحيى بن محمد مولى بني هاشم، حدثنا الحسن بن داود المُنْكَدِرِيُّ، حدثنا عُمَر بن عَليِّ المُقدَّمي، عن علي بن عبد الملك بن عمير، عن أبيه قال: بلغ أكثَمَ بن صَيْفِيٍّ مُخرَجُ النبي ﷺ فأراد أن يأتيه، فأبى قومُه أن يَدَعُوه وقالوا: أنت كبيرُنا، لم تكن لِتُخِفَّ إليه! قال: فَلْيَأْتِهِ من يُبْلِغه عَني ويُبْلِغُني عنه. فانتدبَ رجلان فأتيا النبي ﷺ فقال: نحن رسلُ أكثَم بن صَيْفِيٍّ، وهو يسألك: من أنت؟ وما أنت؟ فقال النبيُّ ﷺ: «أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسُوله»، قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾، قالوا: ارددْ علينا هذا القولَ. فَردَّدَه عليهم حتى حفظوه. فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسَبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكي النَّسَب، واسِطاً في مضر، وقد رمى إلينا بِكَلِمَاتٍ قد سمعناها. فلما سمعَهُنّ أكثَمُ قال: إني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن مَلائِمها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً، ولا تكونوا فيه أذناباً[(٢)].

[٤١٠٨] وقد وَرَد في نزول هذه الآيةِ الكريمةِ حديثٌ حَسَنٌ، رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شَهْرٌ، حدثني عبد الله بن عباس قال: بينما رسولُ الله ﷺ بفناءِ بيته جالس، إذ مَرّ به عثمانُ بن مظعون، فكشَرَ إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تجلس؟» فقال: بلى. قال: فجلس رسولُ الله ﷺ مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شَخَصَ رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعةً إلى السماء، وأخذ يَضَع بصره حتى وَضَعه على يَمْنَته في الأرض، فَتَحرَّفَ رسولُ الله ﷺ عن جليسه عثمانَ إلى حيث وَضَع بصره. فأخذ يُنغِضُ رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابنُ مظعون ينظُر، فلما قضى حاجتَه واستفقه ما يُقال له، شخَصَ بصَرُ رَسُولِ الله ﷺ إلى السماء كما شَخَص أوّل مرة، فأتبعه بَصَرَه حتى توارَى في السماء، فأقبلَ إلى عثمانَ بجلسته الأولى، فقال: يا محمدُ، فيم كنت أجالسك؟ ما رأيتك تفعَلُ كفعلك الغداةَ! قال: «وما رأيتني فعلتُ؟» قال: رأيتُكَ شَخَص بَصَرُكَ إلى السماء، ثم وضعتَه حيثُ وضعتَه على يمينك، فَتَحرَّفْتَ إليه وتركتني، فأخَذْتَ تُنْغِضُ رأسك كأنك تَستفِقهُ شيئاً يقال لك. قال: وفَطِنتَ لذلك؟ قال عثمان: نعم. قال رسولُ الله ﷺ: «أتاني رسولُ الله آنفاً وأنتَ جالسٌ». قال: رسولُ الله؟! قال: «نعم». قال: فما قال لك؟ قال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾. قال عثمانُ: فذلك حين استقرّ الإيمانُ في قَلْبِي، وأحببْتُ

---

(١) حسن. أخرجه الطبراني ٥٩٢٨ والحاكم ١/ ٤٨ وأبو نعيم في «الحلية» ٣/ ٢٥٥ والسلفي في «معجم السفر» ١/ ١٧٤ من حديث سهل بن سعد، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو حديث حسن وله شواهد.

(٢) إسناده ضعيف، عبد الملك بن عمير تابعي، فهو مرسل. وفي الحسن بن داود وعمر بن علي كلام.

محمَّداً[١]. إسنادٌ جيِّد متصل حسن. وَقَد بُيِّن فيه السماع المُتَّصِلُ. ورواه ابنُ أبي حاتمٍ، من حديث عبد الحميد بن بَهرام مختصراً.

[٤١٠٩] حديث آخر: عن عثمان بن أبي العاص الثَّقَفِيِّ في ذلك، قال الإمام أحمدُ: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا هُرَيم، عن ليث، عن شهر بن حَوْشَبٍ، عن عثمانَ بن أبي العاص قال: كنتُ عندَ رسول الله ﷺ جالساً، إذ شخَصَ بَصَرَه فقال: «أتاني جبريلُ، فأمرني أن أضعَ هذه الآية بهذا الموضِع من هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾»[٢]. وهذا إسنادٌ لا بأسَ به، ولعله عند شَهرِ بنِ حَوْشَبٍ من الوجهين، والله أعلم.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٩٢﴾

وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاءُ بالعهود والمواثيق، والمحافَظَةُ على الأيمانِ المؤكَّدةِ، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾. ولا تعارض بين هذه وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وبين قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، أي: لا تتركوها بلا تكفِير. وبين قوله ﷺ، فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال:

[٤١١٠] «إني والله إن شاء الله، لا أحلفُ على يمين فأرى غَيْرَها خيراً منها، إلا أتيت الذي هو خيرٌ وتَحلَّلتُها». وفي رواية: «وكَفَّرتُ عن يَميني»[٣] ـ لا تعارضَ بين هذا كلِّه، ولا بين الآية المذكورةِ ها هنا وهي قولُه: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾، لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلةُ في العهود والمواثيق، لا الأيمانُ التي هي واردة على حِنْثٍ أو مَنْعٍ؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، يعني الحِلف، أي: حِلْفَ الجاهلية؛

[٤١١١] ويؤيده ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد ـ هو ابن أبي شيبَة ـ حدثنا ابن نُمَير وأبو أسامَةَ، عن زكريا ـ هو ابنُ أبي زائِدَةَ ـ عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جُبَير بن مُطعِم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حِلْفَ في الإسلم، وأيُّما حِلْف كان في الجَاهِلِيَّة لم يَزِدْه الإسلامُ إلا شدَّةً»[٤]. وكذا رواهُ مُسلم، عن ابن أبي شيبةَ، به. ومعناه أن الإسلام لا يُحتاجُ معه إلى الحِلْف الذي كان أهل الجاهليَّة يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

---

(١) أخرجه أحمد ٣١٨/١ والطبراني ٨٣٢٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٤٨/٧ وقال: وشهر وثقه أحمد وجماعة، وفيه ضعف لا يضر وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد ٢١٨/٤ وحسن إسناده الهيثمي في «المجمع» ٤٨/٧ ـ ٤٩ وفي إسناده شهر بن حوشب صدوق كثير الأوهام والإرسال، ويدلس. ولم يصرح ههنا بالتحديث. وفيه ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٢٤ من حديث أبي موسى الأشعري.

(٤) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٣٣.

[٤١١٢] وأما ما وَرَد في الصَّحِيحين، عن عاصم الأَحْوَلِ، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: حالف رسولُ الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دُورنا[١] ـ فمعناه أنه آخى بينهم، فكانُوا يتوارَثُون به حتى نُسِخَ ذلك، والله أعلم. وقال ابنُ جرير: حدثني محمد بن عُمارة الأَسَدِي، حدثنا عُبَيد الله بن موسى، أخبرنا أبو لَيْلَى، عن بُرَيدَة في قَوْلِهِ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾، قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ كان من أسلم بايَعَ النبي ﷺ على الإسلام، فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾، هذه البيعةُ التي بايعتُم على الإسلام، ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾: البيعة، لا يحملنكم قِلَّةُ محمَّدٍ ﷺ وأصحابه وكثرةُ المشركين أن تنقضُوا التي بايعتُم على الإسلام[٢].

[٤١١٣] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا صخر بن جُوَيرية، عن نافع قال: لما خَلَع الناسُ يزيدَ بن معاوية، جَمَع ابنُ عمر بَنِيه وأهله ثم تشهَّدَ، ثم قال: أما بعدُ فإنا قد بايعنا هذا الرجلَ على بَيْعة الله ورسُولِهِ وإني سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر يُنصَبُ له لواءٌ يوم القيامة، فيقال: هذه غَدْرَةُ فلانٍ». وإن من أعظم الغَدْرِ ـ إلا أن يكونَ الإشراكُ بالله ـ أن يُبَايعَ رجُل رَجُلاً على بَيْعة اللّهِ ورسولِهِ، ثم ينكُث بيعتَه، فلا يخلعَنَّ أحدٌ منكم يزيدَ ولا يُسْرِفَنَّ أحدٌ منكم في هذا الأمر، فيكون صَيْلَمٌ بيني وبينه[٣]. المرفوعُ منه في الصَّحِيحَين.

[٤١١٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيدُ، حدثنا حَجّاج، عن عبد الرحمن بن عابسٍ، عن أبيه، عن حُذَيفَةَ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من شَرَط لأخيه شرطاً، لا يُرِيد أن يَفِي له به، فَهُو كالمُدْلِي جَارَه إلى غَيْر مَنْعَةٍ»[٤].

وَقَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، تهديدٌ ووعيدَ لمن نقَضَ الأيمانَ بعد توكيدها. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾ ـ قال عبد الله بن كثير، والسُّدِّيُّ: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كُلَّما غَزَلت شيئاً نقضته بعدَ إبرامِه. وقال مجاهدٌ، وقتادةُ، وابنُ زيد: هذا مثلٌ لمن نَقَض عَهْدَه بعد توكيده. وهذا القولُ أرجحُ وأظهرُ وسواءٌ كان بمكة امرأة تنقض غَزْلها أم لا. وقولُه: ﴿أَنكَـٰثًا﴾، يَحْتَمِلُ أن يكونَ اسمَ مَصْدَر، نَقَضَت غزلها أنكاثاً، أي: أنقاضاً. ويحتمل أن يكونَ بدلاً عن خبر كان، أي: لا تكونوا أنكاثاً، جمع نكث من ناكث، ولهذا قال بعده: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي: خَدِيعة ومكراً، ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾، أي: تحلِفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدرُ بهم غَدَرتُم. فنهى الله عن ذلك، لينبه بالأدنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغَدْرِ والحالةُ هذه فَلأَنْ يَنْهَى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

[٤١١٥] وقد قدمنا ـ ولله الحمد ـ في «سورة الأنفال قصَّةَ معاوية لما كانَ بينه وبين مَلِك الروم أَمَدٌ،

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٢٩٤ و ٧٣٤٠ ومسلم ٢٥٢٩ وأبو داود ٢٩٢٦ وأحمد ٣/ ١٤٥ و ٢٨١ وأبو يعلى ٣٣٥٦ من حديث أنس.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ٢١٨٧١ وإسناده ضعيف لضعف أبي ليلى، ولم يدرك بريدة.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٢/ ٤٨ و ٥٠٦٩ وإسناده على شرطهما. وتقدم في سورة الأنعام، آية ١٢٤.

(٤) أخرجه أحمد ٥/ ٤٠٤ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٤/ ١٦٧ وقال: وفيه الحجاج بن أرطاة، وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ. قلت: هو مدلس، وقد عنعن، فالإسناد ضعيف.

فسار معاويةُ إليهم في آخر الأَجَل، حتى إذا انقضى وهو قريبٌ من بلادهم، أغار عليهم وهو غارُّون لا يَشعرُون، فقال له عمرو بن عَبَسَةَ: الله أكبر يا معاويةُ، وفاءً لا غدراً! سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من كان بينَه وبين قوم أجلٌ فلا يَحُلَّنَّ عُقدةً حتى ينقضي أَمَدُها». فرَجَع معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ بالجيش[1]. قال ابنُ عبّاسٍ: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾، أي: أكثر. وقال مجاهدٌ: كانوا يحالفون الحلفاء، فَيجدُونَ أكثرَ منهم وأعزَّ، فينقضُون حِلْفَ هؤلاء ويُحالفون أولئكَ الذين هم أكثرُ وأعزُّ. فنهوا عن ذلك. وقال الضحاك، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ نحوه. وقولُه: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾، قال سَعِيد بن جُبَير: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾، يعني بالكثرة. رواه ابن أبي حاتم. وقال ابنُ جَرِيرٍ: أي بِأَمرِه إيّاكم بالوفاء بالعهد. ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، فيجازي كل عامل بعمله، من خيرٍ وَشرٍّ.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، أي: لوفَّق بينكم، ولما جعل اختلافاً ولا تباغُضَ ولا شَحناء ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]، وهكذا قال ها هنا: ﴿وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، ثم يسألكم يومَ القيامةِ عن جميع أعمالكم، فَيُجازيكم عليها على الفَتيل والنَّقِير والقِطْمير. ثم حَذَّر تعالى عبادَه من اتخاذ الأيمان دخلاً، أي: خَديعَةً ومَكراً، لئلا تَزِلَّ قَدَمٌ بعد ثبوتها، مثل لمن كان على استقامةٍ فحادَ عنها وزلَّ عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصدِّ عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غَدَر به لم يبق له وثوقٌ بالدين، فانصدَّ بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أي: لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عَرَض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، لو حِيزَت لابن آدمَ الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي: جزاءُ الله وثوابُه خيرٌ لمنِ آمن به ورجاه وطلبه، وحَفِظَ عَهْدَ الله رجاء موعوده. ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾، أي: يفرَغ وينقضي؛ فإنه إلى أجل معدود محصور مُقدَّر مُتناهٍ ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾، أي: وثوابُه لكم في الجنة باقٍ لا انقطاع له ولا نفادَ؛ فإنه دائم لا يَحُولُ ولا يَزُولُ، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قَسَمٌ من الربِّ ـ جلّ شأنه ـ مؤكد باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سَيِّئها.

---

(١) تقدم في تفسير سورة الأنفال.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

هذا وعدٌ من الله تعالى لمن عمل صالحاً ـ وهو العمل المُتَابِعُ لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأنَّ هذا العملَ المأمور به مشروع من عند الله ـ بأن يحييه الله حياةً طيبةً في الدنيا، وأن يُجزى بأحسن عَمَلِهِ في الدار الآخرة. والحياةُ الطيبةُ تشمَلُ وُجوهَ الراحة من أي جهة كانت. وقد رُوِي عن ابن عباس وجماعةٍ أنهم فَسَّرُوها بالرزق الحلال الطيِّب. وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه فَسَّرها بالقناعة. وكذا قال ابنُ عباس، وعكرمةُ، ووهب بن مُنَبِّه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هي السعادةُ. وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة: لا تطيب الحياةُ لأحدٍ إلا في الجنة. وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادةُ في الدنيا. وقال الضحاك أيضاً: هي العملُ بالطاعةِ والانشراحُ بها. والصحيح أنَّ الحياة الطيبة تشمل هذا كلَّه، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمدُ:

[٤١١٦] حدثنا عبدُ الله بن يَزيدَ، حدثنا سعيدُ بن أبي أيوب، حدثني شُرَحبيل بن أبي شَرِيك، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلحَ من أسلم ورُزِقَ كَفافاً، وقَنَّعه الله بما آتاه»[(١)]. وَرَواه مسلمٌ، من حديث عبد الله بن يزيد المُقرِىء، به.

[٤١١٧] ورَوَى الترمذيُّ والنسائيُّ، من حديث أبي هانىء عن أبي علي الجَنْبِيّ، عن فَضَالة بن عُبَيد: أنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هُدِي إلى الإسلام، وكان عيشه كَفَافاً، وقَنِعَ به»[(٢)]. وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

[٤١١٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا هَمَّام بن يحيى، عن قتادةَ، عن أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمنَ حسنةً يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة. وأما الكافر فَيُطْعَمُ بحسناته في الدنيا حَتّى إذا أفضَى إلى الآخرة لم تكن له حَسَنةٌ يُعطَى بها خيراً»[(٣)]. انفرد بإخراجه مسلمٌ، والله أعلم.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

هذا أمرٌ من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءةَ القرآن، أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم. وهو أمرُ ندبٍ ليس بواجبٍ، حكى الإجماعَ على ذلك الإمامُ أبو جعفر بن جَرير وغيرُه من الأئمة. وقد قَدَّمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطةً في أول التفسير، ولله الحمدُ والمنَّةُ. والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة، لئلا تَلْتَبِسَ على القارىء قراءتُه ويُخْلَطَ عليه، ويمنَعه من التدبر والتفكر. ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل القراءة، وحُكِي عن حمزةَ وأبي حاتم السجستانيِّ أنها تكون بعد

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٠٥٤ والترمذي ٢٣٤٨ وابن ماجه ٤١٣٨ وأحمد ٢/ ١٦٨ و ١٧٢ وابن حبان ٦٧.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٣٤٩ وأحمد ٦/ ١٩ وصححه ابن حبان ٧٠٥ وكذا الحاكم ١/ ٣٤ ـ ٣٥ ووافقه الذهبي وهو كما قالوا.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٠٨ وأحمد ٣/ ١٢٣ و ٢٨٣ وابن حبان ٣٧٧.

التلاوة، واحتجَّا بهذه الآية. ونقل النَّوَوِيُّ في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هُريرة أيضاً، ومحمد بن سيرين، وإبراهيم النَّخعي. والصحيح الأولُ، لما تقدَّم من الأحاديث الدالة على تقَدمها على التلاوة، والله أعلم. وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾، قال الثَّورِيُّ: ليس له عليهم سلطان أن يوقِعَهم في ذنب لا يَتُوبون منه. وقال آخرون: معناه لا حجةَ له عليهم. وقال آخرون: كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾. ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾، قال مجاهد: يُطِيعونه. وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله. ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾، أي: أشرَكُوه في عبادة الله تعالى. ويحتمل أن تكون الباء سببية، أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى. وقال آخرون: معناه أنه شَرِكهم في الأموال والأولاد.

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾

يُخبرُ تعالى عن ضَعف عُقُولِ المشركين وقلة ثَباتهم وإيقانِهم، وأنه لا يُتَصوَّر منهم الإيمان وقد كُتِب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول ﷺ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾، أي: كَذّاب. وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. وقال مجاهد: ﴿بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾، أي: رَفَعناها وأثبتنا غيْرَها. وقال قتادةُ، هو كقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. فقال تعالى مُجيباً لهم: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾، أي: جبريل، ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: بالصِّدق والعَدْل، ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فيُصدِّقوا بما نزل أولاً وثانياً وتُخبِتَ له قلوبهم، ﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾، أي: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله.

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن المشركين ما كانوا يَقُولونه من الكَذِب والافتراء والبَهْتِ: إن محمداً إنما يعلِّمه هذا الذي يَتلُوه علينا من القرآن بشرٌ، ويشيرون إلى رجل أعجَمِي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بُطون قريش، وكان بَيّاعاً يَبِيعُ عند الصفا، ورُبَّما كان رسولُ الله ﷺ يجلِسُ إليه ويُكَلِّمه بعضَ الشيء، وذاكَ كان أعجميَّ اللسان ولا يعرف بالعربية، أو أنه كانَ يعرِف الشيء اليسيرَ بِقَدرِ ما يَرُدّ جَوابَ الخطاب فيما لا بد منه، فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افترائهم ذلك: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾، يعني القرآنُ، أي: فكيف يتعلَّم من جاء بهذا القرآن، في فَصاحته، وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكملُ من معاني كُلِّ كتاب نَزَل على نبي أرسِلَ، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسْكَةٍ من العقل.

[٤١١٩] قال محمد بنُ إسحاقَ بن يَسَار في السيرة: كان رسولُ الله ﷺ، فيما بلغني ـ كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مَبِيعَةِ غلام نصرانيٍّ يقال له: جَبْرٌ، عبد لبعض بني الحَضْرَمي، فكانوا يقولون: والله ما يُعلِّم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني، غلام بَني الحضرمي فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ

إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1]. وكذا قال عبد الله بن كَثِير. وعن عكرمةَ وقتادةَ: كان اسمهُ يعيشَ.

[٤١٢٠] وقال ابنُ جرير: حدَّثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا أبو عاصم، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مسلم بن [كيسان أبو][2] عبد الله الملائي، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان رسولُ الله ﷺ يعلم قَيناً بمكة، وكان اسمُه بِلْعَامَ، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يَرَون رسولَ الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عندِه، فقالوا: إنما يعلمه بلْعَامُ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[3]. وقال الضحاك بن مزاحم: هو سَلْمَان الفارسي. وهذا القولُ ضعيفٌ، لأن هذه الآية مكية، وسلمانُ إنما أسلَم بالمدينة.

[٤١٢١] وقال عبد الله بن مسلم: كان لنا غلامان روميان يقرأان كتاباً لهما بلسانهما، فكان النبي ﷺ يمرُّ عليهما، فيقوم فيسمع منهما، فقال المشركون: يتعلم منهما. فأنزل الله تعالى هذه الآية[4]. وقال الزهريُّ، عن سعيد بن المسيَّب: الذي قال ذلك من المشركين رجلٌ كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فارتدَّ بعد ذلك عن الإسلام، وافترى هذه المقالةَ، قبَّحهُ الله!.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدِي من أعرَضَ عن ذكره وتَغافَلَ عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصدٌ إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسَلَ به رُسُلَه في الدنيا، ولهم عذاب أليم مُوجِعٌ في الآخرة. ثم أخبر تعالى أنَّ رسوله ﷺ ليس بمفترٍ ولا كَذَّاب؛ لأنه ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ على الله وعلى رسوله ﷺ شِرارُ الخلق، ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس. والرسولُ محمد ﷺ كان أصدقَ الناس وأبرَّهم وأكمَلَهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، مَعْرُوفاً بالصِّدق في قومه، لا يشكُّ في ذلك أحد منهم بحيث لا يُدْعى بينهم إلا بالأمين محمد ﷺ.

[٤١٢٢] ولهذا لما سأل هرقلُ ملكُ الروم أبا سفيانَ عن تلك المسائل التي سَألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له: أفكنتم تَتَّهِمُونه بالكَذِبِ قبلَ أن يَقُولَ ما قال؟ قال: لا. فقال هرقلُ: فما كان لَيَدعَ الكَذِبَ على الناس ويَذهَبَ فَيَكْذِبَ على الله، عز وجل[5].

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

---

(١) هذا معضل، لكن لعله يتأيد بالمراسيل الآتية، وكذا أثر ابن عباس الآتي.

(٢) سقط من المطبوع والطبري والاستدراك من كتب التراجم.

(٣) أخرجه الطبري ٢١٩٣٣ وإسناده ضعيف لضعف مسلم بن كيسان الملائي.

(٤) أخرجه الطبري ٢١٩٤٠. وهذا معضل.

(٥) أخرجه البخاري ٧ من حديث سفيان بن حرب، وقد تقدم.

وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

أخبر تعالى عَمَّن كفر به بعد الإيمان والتبصُّر، وشُرِح صدرُه بالكفر واطمأنَّ به: أنه قد غَضِب عليه؛ لِعلمِهم بالإيمان ثم عدولهم عَنْه، وأنَّ لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة؛ لأنهم استحَبُّوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدَمُوا على ما أقدموا عليه من الردَّة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قُلُوبهم ويُثَبِّتهم على الدين الحق فطبع على قلوبهم فهم لا يعقلون بها شيئاً يَنفعُهم، وخَتَم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يُرَاد بهم. ﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: لا بدَّ ولا عَجَب أنَّ من هذه صِفَتُه، ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، أي: الَّذين خَسِروا أنفسهم وأهاليهم يوم القيامة. وأما قولُه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، فهو استثناءٌ مَن كَفَر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مُكْرهاً، لما ناله من ضَرْب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئنٌ بالإيمان بالله ورسوله.

وقد رَوَى العوفيّ عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عَمَّار بن ياسر، حينَ عذَّبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ فوافقهم على ذلك مُسْتَكْرِهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية. وهكذا قال الشعبي، وأبو مالك، وقتادة.

[٤١٢٣] وقال ابنُ جرير: حدثنا ابنُ عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثَور، عن مَعْمَر، عن عبد الكريم الجَزرِيّ، عن أبي عُبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عَمار بن ياسر فَعذَّبوه حتى قارَبَهُم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «كيف تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قال: مطْمَئِناً بالإيمان. قال النبي ﷺ: «إن عَادُوا فَعُدْ»[١].

[٤١٢٤] ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه أنه سَبَّ النبي ﷺ وذَكَر آلهتهم بخير، وأنه قال: يا رسولَ الله، ما تُرِكتُ حتى سَبَبْتُكَ وذكرتُ آلهتهم بخير! قال: «كيف تَجِدُ قلبك؟» قال: مُطْمَئِناً بالإيمان. فقال: «إن عادوا فَعُد»[٢]. وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾. ولهذا اتفق العلماءُ على أنه يجوز أن يُوَاليَ المُكْرَهُ على الكفر إبقاءً لمهجته، ويجوز له أَنْ يَسْتَقتِلَ كما كان بلال ـ رضي الله عنه ـ يأبَى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضَعون الصخرَة العظيمة على صَدْرِه في شدَّة الحرّ، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول: أحدٌ، أحدٌ. ويقول: والله لو أعلمُ كلمةً هي أَغيظُ لكم منها لقلتها، رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حَبيبُ بن زيد الأنصاري لما قال له مُسَيلِمَةُ الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول أتشهد أنّي رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إرْباً إرْباً وهو ثابت على ذلك.

[٤١٢٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيلُ، حدثنا أيّوب، عن عكرمة، أن عَلياً ـ رضي الله عنه ـ حَرَّق ناساً ارتدُّوا عن الإسلام، فَبَلغ ذلك ابنَ عباس فقال: لم أكن لأحرقَهم بالنار، إنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

---

(١) أخرجه الطبري ٢١٩٤٦ عن ابن عبد الأعلى به. وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ١٥٠٩ والحاكم ٢/ ٣٥٧ والبيهقي ٢/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩، عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه عمار بن ياسر به. وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، مع أن مداره على محمد بن عمار بن ياسر، وهو مقبول ولم يرو له الشيخان، لكن أصل الخبر محفوظ فقد أخرجه الطبري ٢١٩٤٤ عن قتادة مرسلاً بنحوه، وكرره ٢١٩٤٧ عن أبي مالك مرسلاً أيضاً فهذه المراسيل تتقوى بمجموعها، وهذا الخبر مشهور في كتب السير، والله أعلم.

(٢) أخرجه البيهقي ٨/ ٢٠٨ وانظر ما قبله.

«لا تُعَذِّبُوا بعذاب الله». وكنت قاتِلَهم بقول رسول الله ﷺ: «من بَدَّل دينه فاقتُلُوه». فبلغ ذلك علياً فقال: وَيْحَ ابن أمِّ عباس[1]. رواه البخاري.

[٤١٢٦] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزَّاق، أنبأنا معمر، عن أيوبَ، عن حُميد بن هلال العَدَوِي، عن أبي بُرْدَة قال: قَدِم على أبي موسى معاذُ بن جَبَلٍ باليمن، فإذا رجل عنده، قال: ما هذا؟ قال: رجلٌ كان يهودياً فأسلم ثم تهوَّد، ونحن نريده على الإسلام مُنْذُ ـ قال: أحسبه ـ شهرين، فقال: والله لا أقعد حتى تَضرِبُوا عنقه. فَضُرِبت عنقه، فقال: قَضَى الله ورسوله أن من رَجَع عن دينه فاقتلوه. أو قال: «من بَدَّل دِينَه فاقتلوه»[2]. وهذه القصَّةُ في الصحيحين بلفظٍ آخَرَ. والأفضل والأولى أن يَثْبُتَ المسلمُ على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظُ ابن عساكر، في ترجمة عبد الله بن حُذافة السهمي أحد الصحابة: أنه أسرته الروم، فجاؤوا به إلى مَلِكهم، فقال له: تَنصَّر وأنا أشرَكك في ملكي وأزوجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميعَ ما تملك وجميعَ ما تملكُه العربُ على أن أرجعَ عن دين محمد ﷺ طرفةَ عين ما فعلتُ! فقال: إذاً أقتلك. قال: أنت وذاك! قال فأمَرَ به فَصُلِب، وأمر الرماة فَرَموه قريباً من يديه وَرِجْلَيه، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فَأُنزِل، ثم أمر بقدر ـ وفي رواية: ببقرة من نحاس ـ فَأُحْميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظامٌ تلوحُ. وعَرَض عليه فأبى، فأمر به أن يُلقَى فيها، فرفع في البَكْرَةِ لِيُلْقَى، فبكى، فَطَمع فيه ودعاه فقال له: إني إنما بَكيت لأن نفسي إنما هي واحدةٌ، تلقى في هذا القدر الساعةَ في الله، فأحببتُ أن يكون لي بعَددِ كُلِّ شعرة في جَسَدي نفسٌ تُعذَّب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات أنه سَجَنه ومَنَع عنه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يَقْرَبه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكُلَ؟ قال: أما إنه قد حَلّ لي، ولكن لم أكن لأشمِّتك فيّ. فقال له الملك: فَقَبِّل رأسي وأنا أُطلِقْكَ. فقال: وتطلق معي جَميعَ أسارى المسلمين؟ قال: نعم، فَقَبَّلَ رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميعَ أسارى المسلمين عنده، فلما رَجَع قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: حَقّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حُذَافة، وأنا أبدأ. فقام فقبَّل رأسه، رضي الله عنهما.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مُستَضْعَفين بمكة، مُهَانين في قومهم، قد وَاتَوْهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاصُ بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهليهم وأقوالهم ابتغاءَ رضوانِ الله وغُفرانِهِ، وانتظموا في سِلْكِ المؤمنين، وجاهَدُوا معهم الكافرين، وصبروا. فأخبر الله أنه مِنْ بَعدها، أي: تلك الفَعْلة، وهي الإجابةُ إلى الفتنة لغفور لهم، رَحِيم بهم يوم معادهم. ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ﴾، أي: تحاجُّ ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾، ليس أحدٌ يحاجُّ عنها

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٠١٧ و ٦٩٢٢ وأبو داود ٤٣٥١ والترمذي ١٤٥٨ والنسائي ٧/ ١٠٤ وابن ماجه ٢٥٣٥ وأحمد ١/ ٢١٧ ـ ٢٨٢ ـ ٢٨٣ وابن حبان ٤٤٧٦ و ٥٦٠٦.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٥/ ٢٣١ وإسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم. وأخرجه البخاري ٦٩٢٣ ومسلم ١٧٣٣ح١٥ وأحمد ٤/ ١٤٠ عن أبي بردة مطولاً.

لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة، ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، أي: من خير وشر، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، أي: لا يُنقصُ من ثواب الخير ولا يُزادُ على ثواب الشر، ولا يُظلَمون نقيراً.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

هذا مثلٌ أريد به أهلُ مكة؛ فإنها كانت آمنةً مطمئنةً مستقرةً يُتخطَّف الناسُ من حَولها، ومن دَخلها كان آمناً لا يَخافُ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، ولكن قال ها هنا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾، أي: هَنيئاً سهلاً، ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾، أي: جَحدت آلاء الله عليها وأعظمُ ذلك بعثةُ محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨ ـ ٢٩]، ولهذا بَدَّلهم الله بحاليهم الأوَّلين خِلافَهما، فقال: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ أي: ألبسَها وأذاقها الجوعَ بعد أن كان يُجبَى إليهم ثمراتُ كلُ شيء، ويأتيها رزقُها رغداً من كل مكان، وذلك لما استعصَوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بِسَبعٍ كَسَبْعِ يوسُفَ، فأصابتهم سَنَةٌ أذهبَتْ كُلَّ شيءٍ لهم، فأكَلُوا العِلْهِزَ، وهو: وَبَرُ البعير، يُجعَلُ بدَمِهِ إذا نَحَرُوه.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلْخَوْفِ﴾، وذلك أنَّهم بُدِّلوا بأمنهم خَوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سَطْوةِ سَرَاياهُ وجُيُوشه، وجعلوا كل ما لهم في سَفَالٍ ودمار، حتى فتحها الله على رسوله ﷺ. وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا﴾ [الطلاق: ١٠ ـ ١١]، الآية، وقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢]. وكما أنه انعكَسَ على الكافرين حالُهم، فَخافوا بعد الأمن، وجاعُوا بعد الرَّغد، بَدَّل الله المؤمنين من بعد خَوْفِهم أمناً، ورزَقَهم بعد العَيْلَة، وجعلهم أمراءَ الناس وحُكَّامهم وقادتهم وسادتهم وأئمتهم. وهذا الذي قلناه من أن هذا المثلَ مضروبٌ لمكة، قاله العَوْفِيّ، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهدٌ، وقتادةُ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكاه مالك عن الزُّهرِيّ رحمهم الله.

وقال ابنُ جرير: حدثني ابنُ عبد الرحيم البَرْقي، حدثنا ابنُ أبي مريم، حدثنا نافع بن يزيدَ، حدثنا عبد الرحمن بن شريح، أن عبد الكريم بن الحارث الحَضرمي حَدَّثه، أنه سمع مِشْرَح بن هاعان يقول: سمعتُ سُليم بن عِتْر يقول: صَدَرنا من الحج مع حفصة زوج النبي ﷺ وعثمانُ ـ رضي الله عنه ـ محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه: ما فعل؟ حتى رأت راكبين، فأرسلت إليهما تسألهما، فقالا: قُتِل. فقالت حفصةُ: والذي نفسي بيده إنها القريةُ التي قال الله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾. قال أبو شُرَيح: وأخبرني عُبيد الله بنُ المغيرةِ، عمَّن حدثه: أنه كان يقول: إنها المدينة.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

يقول تعالى آمراً عبادَه المؤمنين بأكْلِ رِزْقِه الحلال الطيِّب، وبِشكرِه على ذلك؛ فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له. ثم ذكر تعالى ما حَرَّمه علَيهم مما فيه مَضَرَّةٌ لهم في دينهم ودنياهم، من الميتة والدَّم، ولحم الخنزير. ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾، أي: ذُبح على غير اسم الله. ومع هذا ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾، أي: احتاج في غير بَغْيٍ ولا عدوان، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقد تقدَّم الكلام على مثلِ هذه الآيةِ في سورة البقرة بما فيه كفايةٌ عن إعادته، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حَلَّلوا وحَرَّموا بمجرد ما وضعوه واصطَلَحُوه عليه من الأسماء بآرائهم، من البَحِيرة والسائِبَة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما كان شَرْعاً لهم ابتدعوه في جاهليَّتِهِم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾. ويدخل في هذا كلُّ مُبْتَدِعٍ ابتدع بِدْعَةً ليس له فيها مستند شرعي، أو حَلَّلَ شيئاً مما حرم الله، أو حَرَّم شيئاً مما أباح الله؛ بمجرَّدِ رأيه وتَشَهِّيهِ. و«ما» في قوله: ﴿لِمَا﴾ مصدريَّة، أي: ولا تقُولوا الكَذِبَ لوصف ألسنتكم. ثم تَوعَّدَ على ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾، أي: في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فمتاعٌ قليلٌ، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

لما ذَكَر تعالى أنه إنما حَرَّم علينا الميتةَ والدمَ ولحمَ الخنزير، وما أهِلَّ لغير الله به، وأنه أرخصَ فيه عند الضرورة ـ وفي ذلك تَوْسِعةٌ لهذه الأمة، التي يُرِيدُ الله بها اليسر ولا يريد بها العسر ـ ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرَّمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والحَرَج والتَّضْيِيق، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾، يعني في سورة الأنعام، في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾، ولهذا قال ها هنا: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي: فيما ضَيَّقنا عليهم، ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: فاستحقُّوا ذلك، كما قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: ١٦٠]. ثم أخبر تعالى تكرُّماً وامتناناً في حق العصاة المذنبين: أنَّ من تاب منهم إليه تابَ عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾، قال بعض السلف: كل من عَصَى الله فهو جاهل. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾، أي: أقلعوا عما كانوا فيه من

المَعَاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك الفعلةِ والزلَّة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

يمدَحُ تبارك وتعالى عبده ورسوله وخَليله إبراهيمَ، إمامَ الحنفاء ووالدَ الأنبياء، ويُبرئهُ من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾، فأما الأمَّةُ فهو الإمام الذي يُقتدَى به. والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المُنحرِف قَصْداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. قال سفيانُ الثوريُّ، عن سلمة بن كُهَيلَ، عن مسلم البَطِين، عن أبي العُبَيدين: أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمَّةِ القَانِتِ فقال: الأمةُ: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله. وعن مالك قال: قال ابنُ عُمَر: الأمة الذي يعلم الناس دينهم. وقال الأعمش، عن الحكم، عن يحيى بن الجزَّار، عن أبي العُبَيدين: أنه جاء إلى عبد الله فقال: من نَسألُ إذا لم نسألك؟ فكأن ابن مسعودَ رقَّ له، فقال: أخبرني عن الأمَّة، فقال: الذي يُعلِّم الناس الخير.

وقال الشعبيُّ: حدثني فروَةُ بن نوفل الأشجعيُّ قال: قال ابنُ مسعود: إن مُعَاذاً كان أمةً قانتاً لله حنيفاً. فقلت في نفسي: غَلِط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ فقال: تَدْري ما الأمة؟ وما القانتُ؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: الأمة الذي يعلم الناس الخير. والقانت: المطيعُ لله ورسولِهِ. وكذلك كان معاذ يُعَلِّم الخير، وكان مطيعاً لله ورسوله. وقد رُوِي من غير وجه، عن ابن مسعود؛ حرَّره ابنُ جرير. وقال مجاهد: ﴿أُمَّةً﴾، أي: أمَّةً وحده، والقانتُ المطيعُ. وقال مجاهد أيضاً: كان إبراهيمُ أمةً، أي: مؤمناً وحدَه، والناسُ كلُّهم إذ ذاك كفارٌ. وقال قتادةُ: كان إمامَ هُدىً، والقانت: المطيعُ لله. وقولُه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾، أي: قائماً بِشُكر نِعَم الله عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧] أي: قام بجميعِ ما أمره الله تعالى به.

وقولُه تعالى: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾، أي: اختارَه واصطفاه، كما قال: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١]. ثم قال: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهو عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له على شرع مَرْضِيٍّ. وقولُه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، أي: جَمَعْنا له خيرَ الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمنُ إليه من إكمالِ حياته الطيبة، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. وقال مجاهدٌ في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، أي: لسانَ صِدْقٍ. وقولُه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، أي: ومن كماله وعَظَمته وصِحَّةِ توحيده وطريقه أنا أوحينا إليكَ يا خاتمَ الرُسل وسَيِّد الأنبياء: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، كما قال: في الأنعام، ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ثم قال تعالى منكراً على اليهود:

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

لا شكَّ أن الله تعالى شَرَعَ في كُلِّ مِلَّة يوماً من الأسبوع، يجتمِعُ الناسُ فيه للعبادة، فَشَرَعَ تعالى لهذه

الأمة يومَ الجُمُعة، لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت فيه وتَمَّت النعمةُ على عباده. ويقال: إنه تعالى شَرَع ذلك لبني إسرائيل على لسان مُوسى، فَعَدَلوا عنه واختاروا السبت، لأنه اليومُ الذي لم يخلُق فيه الربّ شيئاً من المخلوقات التي كمل خَلقُها يوم الجمعة. فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، وَوَصّاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمرهم إياهم بمتابعةِ محمد ﷺ إذا بعثه، وأخْذه مواثيقَهم وعهودهم على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾. قال مجاهد: اتبعوه وتَرَكُوا الجُمُعة. ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به، حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حَوّلهم إلى يوم الأحد، ويقال إنه: لم يَزَل على شريعة التوراة إلا ما نُسخ من بعض أحكامها وإنه لم يَزل محافظاً على السبت حتى رُفع، وإن النصارى بعده في زمان قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفةً لليهود، وتَحوّلُوا إلي الصلاة شرقاً عن الصَّخرة، والله أعلم.

[٤١٢٧] وقد ثبت في الصَّحيحين، من حديث عبد الرزَّاق، عن معمر، عن هَمّام، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتُوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومُهم الذي فَرَض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناسُ لنا فيه تَبَعٌ، اليهودُ غداً، والنصارى بعد غدٍ»[1]. لفظ البخاري.

[٤١٢٨] وعن أبي هُرَيرة وحُذَيفة رضي الله عنه قالا: قال رسولُ الله ﷺ: «أضلَّ الله عن الجُمُعة من كان قبلنا، فكان لليهود يومُ السبت، وكان للنصارى يومُ الأحد، فجاء الله بنا فهدانا اللّهُ ليوم الجُمُعة، فجعَلَ الجُمعةَ والسبتَ والأحدَ، وكذلك هم تَبَع لنا يومَ القيامة، نحن الآخِرون من أهل الدنيا والأوّلون يومَ القيامة، المقضيُّ بينهم قبل الخلائق»[2] رواه مسلم، والله أعلم.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعُوَ الخلق إلى الله بالحِكْمَةِ. قال ابنُ جرير: وهو ما أنزله عليك من الكتاب والسنة. ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس يُذَكِّرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالى. وقولُه: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، أي: من احتاج منهم إلى مناظرةٍ وجدالٍ، فَلْيكُن بالوجه الحسن، برفق ولين وحُسْن خِطاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] الآية، فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون حين بَعَثَهما إلي فرعونَ فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤]. وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، أي: قد عَلِم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفَرَغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تَذْهَب نفسك على من ضَلَّ منهم حَسَراتٍ، فإنه ليس عليك هُدَاهم، إنما أنت نذيرٌ، عليك البلاغُ، وعلينا الحساب، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، و ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ

(١) تقدم في سورة البقرة آية: ٢١٣ وسيأتي في تفسير سورة الجمعة.
(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٨٥٦ وسيأتي.

إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

يأمرُ تعالى بالعدلِ في الاقتصاص والمماثلةِ في استيفاء الحق، كما قال عبد الرزّاق، عن الثوري، عن خالد، عن ابن سيرينَ: أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾: إنْ أخذَ منك رجلٌ شيئاً فَخُذْ مثْلَه. وكذا قال مجاهدٌ، وإبراهيم، والحسن البصري، وغيرهم. واختاره ابنُ جَرِير. وقال ابنُ زيدٍ: كانوا أمِروا بالصفح عن المشركين، فأسلم رجالٌ ذَوُو مَنَعةٍ، فقالوا: يا رسولَ الله لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلابِ! فنزلت هذه الآية، ثم نُسِخ ذلك بالجهاد.

[٤١٢٩] وقال محمدُ بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورةُ النحل كلُّها بمكة، وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخِرها نزلت بالمدينة بعد أُحُدٍ، حيثُ قُتِلَ حَمزةُ ـ رضي الله عنه ـ ومُثِّل به، فقال رسول الله ﷺ: «لئن ظَهَرنا عليهم لَنُمثِّلَنَّ بثلاثين رَجُلاً منهم». فلما سَمِع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظَهَرنا عليهم لَنُمثِّلَنَّ بهم مثلة لم يُمَثِّلها أحدٌ من العرب بأحد قَطُّ. فأنزل الله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ . . . إلى آخر السُّورة[١]. وهذا مُرْسَل، وفيه رجلٌ مبهم لم يُسَمَّ، وقد رُوِي هذا من وَجْهٍ آخَرَ متصل، فقال الحافظ أبو بكر البزار:

[٤١٣٠] حدثنا الحسين بن يحيى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا صالح المُرِّيُّ، عن سليمان التَّيْمِيِّ، عن أبي عُثمانَ، عن أبي هُريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ حين استُشهِد، فنظر إلى منظر لم ينظر أوجعَ للقلب منه. أو قال: لقلبه، فنظر إليه وقد مُثِّل به فقال: رحمةُ الله عليك، إن كنتَ ـ ما علمتُ ـ لوصولاً للرحم، فَعُولاً للخيرات، والله لولا حُزن من بَعْدَك عليك لسرَّني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع ـ أو كلمة نحوها ـ أما والله على ذلك لأمثِّلنَّ بسبعين كَمُثْلَتِك». فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ . . . إلى آخر الآية، فكفَّر رسولُ الله ﷺ يعني عن يمينه ـ وأمسك عن ذلك[٢]. وهذا إسناد فيه ضعف، لأن صالحاً ـ هو ابن بَشِير المُرِّيُّ ـ ضعيفٌ عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث. وقال الشعبيُّ وابنُ جُرَيج: نزَلت في قولِ المسلمين يومَ أُحُدٍ فيمن مثِّل بهم: لَنُمثِّلَنَّ بهم، فأنزل الله فيهم ذلك.

[٤١٣١] وقال عبدُ الله ابنُ الإمام أحمَدَ في مسندِ أبيه: حدثنا هَدِيَّةُ بنُ عبدِ الوهّاب المَرْوَزِيُّ، حدثنا الفضلُ بن موسى، حدثنا عيسى بن عُبَيد، عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب قال: لما كانَ يومُ أحد قُتِل من الأنصار ستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يومٌ مثلُ هذا من المشركين لنُرْبِينَّ عليهم. فلما كان يومُ الفتح قال رجل لا يُعرفُ: لا قُرَيش بعدَ اليوم. فنادى منادٍ: إن رسول الله ﷺ أمَّن الأسودَ والأبيضَ إلا فلاناً وفلاناً ـ ناساً سَمَّاهم ـ فأنزلَ الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾. فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا

---

(١) هو مرسل، وانظر الآثار الآتية. و«دلائل النبوة» للبيهقي ٣/ ٢٨٦ ـ ٢٨٨.

(٢) ضعيف، أخرجه البزار ١٧٩٥ وقال: لا نعلمه يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠١٠٤: فيه صالح بن بشير المري، وهو ضعيف اهـ.

نعاقب»[١]. وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعيّة العدل والندب إلى الفَضل، كما في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾، ثم قال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠] الآية. وقال تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾، ثم قال عز وجل: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآية: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾، تأكيدٌ للأمر بالصَّبر، وإخبارٌ بأنَّ ذلك إنما يُنال بمشيئة الله وإعانَتِه، وحَوْلِهِ وقُوَّته. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: على من خالفَكَ، لا تحزَن عليهم؛ فإن الله قدَّر ذلك، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾، أي: غمٍّ ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾، أي: مما يَجهَدُون في عَداوَتِك وإيصَالِ الشر إليك، فإن الله كافيك وناصِرُك، ومؤيِّدك، ومُظهِرُك ومظفرك بهم. وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾، أي: مَعَهم بتأييده ونَصْرِه ومَعُونته وهَدْيه وسعيِه، وهذه مَعيّةٌ خاصَّةٌ، كقوله: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال: ١٢]. وقوله لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. وقول النبي ﷺ للصديق وهُمَا في الغار: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]. وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد: ٤]، وكقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة: ٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١] ومعنى: ﴿وَّٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾، أي: تركوا المُحرَّمات، ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾، أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء يحفظهم الله ويكلؤهم، وينصُرهم ويُؤيِّدهم، ويُظفِرُهم على أعدائهم ومُخالِفِيهم. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بَشّار، حدثنا أبو أحمد الزُّبَيْرِيُّ، حدثنا مِسْعَرٌ، عن أبي عَونٍ، عن محمد بن حَاطِبٍ قال: كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ من الذين آمنوا، والذين اتقوا، والذين هم مُحْسِنُون.

• • •

آخر تفسير سورة النحل، ولله الحمد أجمعُه والمنة، وبه المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل

---

(١) أخرجه الترمذي ٣١٢٩ وأحمد ٥/ ١٣٥ والبيهقي في «الدلائل» ٣/ ٢٨٩ وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من حديث أبي بن كعب، وإسناده حسن، ويتأيد بشواهده.



وهي مكّية

[٤١٣٢] قال الإمامُ الحافظ المُتْقِنُ أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاريُّ: حدثنا آدمُ بن أبي إياس، حدثنا شُعبَةُ، عن أبي إسحاق قال: سمعتُ عبدَ الرحمن بن يزيدَ، سمعت ابنَ مسعود - رضي الله عنه - قال في بني إسرائيلَ، والكَهفِ، ومَرْيَم: إنهنَّ من العِتَاق الأُوَلِ، وهُنَّ من تِلَادي(١).

[٤١٣٣] وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا عبدُ الرحمن، حدثنا حماد بن زيد، عن مَرْوانَ أبي لُبَابة، سمعت عائشة - رضي الله عنها - تقول: كان رسولُ الله ﷺ يَصُوم حتى نقول: ما يريد أن يُفطِرَ، ويُفْطِرُ حتى نَقُولُ: ما يُرِيد أن يصومَ، وكان يقرأ كلَّ ليلة: «بني إسرائيل» و «الزُّمَر»(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾

يُمَجِّد تعالى نفسَه، ويُعَظِّم شأنه، لقدرته على ما لا يَقْدِرُ عليه أحدٌ سواه، فلا إلهَ غيرُه، ﴿الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾، يعني محمداً ﷺ ﴿لَيْلًا﴾، أي: في جُنْح الليل، ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وهو مسجد مكة، ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾، وهو بيت المقدس الذي بإيلياءَ، مَعْدِن الأنبياءِ من لدن إبراهيم الخليل - عليه السلام - ولهذا جُمِعُوا له هنالك كلُّهم، فَأَمَّهم في مَحِلَّتهم وَدارِهم، فَدَلَّ على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدَّم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقولُه: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، أي: في الزروع والثمار، ﴿لِنُرِيَهُ﴾، أي: محمداً ﷺ ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾، أي: العظام، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ [النجم: ١٨]. وسنذكُر من ذلك ما وردت به السنّةُ من الأحاديث عنه، صلوات الله وسلامه عليه. وقولُه: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، أي: السميعُ لأقوالِ عبادِه، مُؤمِنِهم وكافِرِهم، مُصَدِّقهم ومُكَذِّبهم، البصيرُ بهم، فيعطي كُلاً ما يَستحقّه في الدنيا والآخرة.

---

(١) موقوف صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٩٤. والعتاق: هو كل ما بلغ الغاية في الجودة. وجاء في اللسان: «وهن من تلادي» يعني السورة، أي من قديم ما أخذت من القرآن، شبههن بتلاد المال. وهو: المال القديم الأصلي الذي وُلد عندك.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٦٨ و١٢٢ والترمذي ٢٩٢٠ و٣٤٠٥ والحاكم ٢/ ٤٣٤، سكت عليه الحاكم والذهبي، وإسناده حسن، رجاله ثقات.

ذكر الأحاديث الواردة في الإِسراء، رواية أنس بن مالك، رضي الله عنه:

[٤١٣٤] قال الإِمامُ أبو عبد الله البُخَارِيُّ: حدثني عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا سليمان ـ هو ابن بلال ـ عن شَرِيك بن عبد الله ـ يعني ابن أبي نَمِر ـ أنه قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ليلةَ أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنّه جاءه ثلاثة نفر قبلَ أن يُوحَى إليه وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أوّلُهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم. فكانت تلك الليلة، فلم يَرَهُم حتى أتوه ليلةً أخرى فيما يرى قلبه ـ وتنامُ عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قُلوبُهم ـ فلم يُكَلِّمُوه حتى احتملوه فوضَعُوه عند بئر زمزم، فتولاّه منهم جبريل، فشَقَّ جبريلُ ما بين نحره إلى لَبَّتِه، حتى فَرَغ من صدره وجوفه، فَغَسَله من ماء زمزم بيده، حتى أنقَى جَوفَه. ثم أتى بطَسْت من ذهب فيه تَورٌ من ذَهَبٍ محشُوٌّ إيماناً وحكمة، فحَشَا به صدره ولغاديده ـ يعني عُرُوق حلقه ـ ثم أطبقه. ثم عَرَج به إلى السماءِ الدنيا، فضَرَب باباً من أبوابها، فناداه أهلُ السماء: من هذا؟ فقال: جبريلُ. قالوا: ومن مَعَك؟ قال: معي محمد ﷺ. قالوا: وقد بُعِث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً، يَسْتَبْشِرُ به أهلُ السماء، لا يعلم أهل السماء بما يُريد الله به في الأرض حتى يُعْلِمَهُم. ووجَدَ في السماء الدنيا آدم، فقال له جبريلُ: هذا أبوكَ آدمُ، فسلِّم عليه. فسلَّم عليه، وردّ عليه آدم فقال: مرحباً وأهلاً بابني، فنعمَ الابنُ أنتَ. فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يَطَّرِدَان، فقال: ما هذان النهران يا جبريل؟ قال: هاذان النيلُ والفراتُ عُنصُرُهما. ثم مَضى به في السماء، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزَبَرْجَد، فضرب يده فإذا هو مسك أذْفَرُ، فقال: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الكوثر الذي خَبأ لك رَبُّك. ثم عَرَجَ به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثلَ ما قالت له الأولى: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد صلَّى الله عليه وسلم. قالوا: وقد بُعَث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً. ثم عَرَج به إلى السماء الثالثة، فقالوا له مثلَ ما قالت الأولى والثانية. ثم عَرَج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك. ثم عَرَج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثلَ ذلك. ثم عَرَج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثلَ ذلك. ثم عرَج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثلَ ذلك. كلُّ سماء فيها أنبياءُ قد سَمّاهم، قد وَعَيتُ منهم إدريسُ في الثانية، وهارونَ في الرابعة، وآخرَ في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيمَ في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله تعالىٰ. فقال موسى ـ عليه السلام ـ: «ربّ لم أظنّ أن يُرفع عليّ أحدٌ». ثم علا به فوق ذلك، بما لا يعلَمه إلا الله ـ عز وجلّ ـ حتى جاء سِدْرَة المنتهى، ودنا الجبَّار ربُّ العزّةِ فتدلّى، حتى كان منه قابَ قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه فيما يُوحِي خمسين صلاةً على أمتك كلّ يوم وليلة. ثم هَبَطَ به حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى فقال: يا محمدُ، ماذا عَهد إليك ربُّك؟ قال: عَهد إليّ خمسين صلاةً كلّ يوم وليلةٍ. قال: إن أُمّتكَ لا تستطيع ذلك، فارجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عنك ربّك وعنهم. فالتَفت النبي ﷺ إلى جبريلَ كأنه يستشيره في ذلك، فأشار إليه جبريل أنْ نعم، إن شئت. فعلا به إلى الجبّار تعالى وتقدس، فقال وهو في مكانه: «يا رب، خَفِّف عَنّا، فإن أمتي لا تستطيع هذا». فَوَضَع عنه عشر صلوات. ثم رجع إلى موسى فاحتَبَسَه، فلم يزل يردّده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صَلَوات. ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال: يا محمدُ، والله لقد راودتُ بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا، فضعُفُوا فتركوه، فأمتك أضعفُ أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجِعْ فَلْيخفف عنك ربُّك، كُلّ ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريلَ ليشير عليه، ولا يكرَه ذلك جبريلُ، فرفعه عند الخامسة فقال: «يا ربِّ، إن أمتي ضعفاءُ أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم، فخفف عنا. فقال الجبار تبارك وتعالىٰ: يا

محمد. قال: لَبَّيكَ وسَعْدَيك. قال: إنه لا يُبدّل القول لديّ؛ كما فرضتُ عليك في أم الكتاب: كلُّ حَسَنةٍ بعشر أمثالها. فهي خمسون في أم الكتاب؛ وهي خمس عليك» فرجع إلى موسى فقال: كيف فعلتَ؟ خَفَّفَ عنا، أعطانا بكل حَسَنةٍ عشر أمثالها. فقال موسى: قد والله راودتُ بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى رَبِّكَ فَلْيخَفِّف عنك أيضاً. قال رسول الله ﷺ: يا موسى، قد والله استَحْيَيتُ من رَبِّي عز وجل مما اختلفتُ إليه، قال: فاهبِطْ باسم الله. قال: فاستيقظ وهو في المسجد الحرام[1]. هكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد، ورواه في صِفَةِ النبيِّ ﷺ، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن أخيه أبي بكر عبد الحميد، عن سُليمان بن بلال. ورواه مسلم، عن هارون بن سعيد، عن ابن وَهبٍ، عن سليمان قال: «فزادَ ونَقصَ، وقَدَّمَ وَأخَّرَ». وهو كما قال مسلم ـ رحمه الله ـ فإن شَرِيكَ بن عبد الله بن أبي نمرٍ اضطرب في هذا الحديث، وساء حفظُه ولم يَضْبِطه، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ في الأحاديث الأُخَر. ومنهم من يجعل هذا مناماً توطئة لما وَقَع بعد ذلك، والله أعلم. وقد قال الحافظُ أبو بكر البيهقيُّ: «وفي حديث شَريكٍ زيادةٌ تفرّد به، على مذهب مَن زَعَمَ أنه ﷺ رأى ربَّه ـ عز وجلّ ـ يعني قوله: «ثم دنا الجبارُ ربُّ العزةِ فتدلّى، فكان قابَ قوسين أو أدنى» ـ قال: وقول عائشةَ وابنِ مسعودٍ وأبي هُرَيرة ـ رضي الله عنهم ـ في حملهم هذه الآياتِ على رؤيته جبريلَ أصحُّ». وهذا الذي قاله البيهقي ـ رحمه الله ـ هو الحقُّ في هذه المسألة، فإنَّ أبا ذرٍّ قال:

[٤١٣٥] يا رسولَ اللهِ، هل رأيتَ ربَّكَ؟ قال: نور، أنّى أراه؟. وفي رواية: «رأيت نوراً»[2]. أخرجه مسلم. وقولُه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ [النجم: ٨]، إنما هو جبريلُ عليه السلام، كما ثَبَت ذلك في الصحيحَين، عن عائشةَ أُمِّ المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنهم ـ ولا يُعرَف لهم مخالفٌ من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا.

[٤١٣٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حَمّاد بن سلمة، أخبرنا ثابت البُنَاني، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أُتِيتُ بالبُرَاق، وهو دابّة أبيضُ فوق الحمار ودُونَ البغل، يَضَع حافره عند منتهى طَرْفِهِ، فركبتُه فسار بي حتى أتيتُ بيت المقدس، فربطتُ الدابة بالحَلْقَةِ التي يَرْبِطُ فيها الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ثم دخلتُ فَصَلَّيت فيه ركعتين، ثم خرجت. فجاءني جبريلُ بإناءٍ من خمر وإناءٍ من لبن، فاخترت اللبنَ، قال جبريل: أصبتَ الفِطْرةَ. قال: ثم عَرَج بي إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ. فقيل: ومن معك؟ قال: مُحمَّد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أُرسِلَ إليه. فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بآدم؛ فرحَّب بي ودعا لي بخير. ثم عَرَج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: وقد أُرسِلَ إليه. فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بابنَي الخالةِ يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ فرحبا بي ودعَوَا لي بخير. ثم عَرَج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتَحَ جبريلُ، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد. فقيل: وقد أُرسِل إليه؟ قال: قد أُرسِل إليه. فَفَتح لنا، فإذا أنا بيوسفَ ـ عليه السلام ـ وإذا هو قد أُعطِي شَطْرَ الحُسْنِ، فَرَحَّب بي ودعا لي بخير. ثم عَرَج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريلُ. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد أُرسِل إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. فَفُتِحَ البابُ فإذا أنا بإدريسَ ـ عليه السلام ـ

(١) أخرجه البخاري ٧٥١٧، وقد تكلم العلماء في إسناد هذا الحديث والألفاظ التي تفرد بها شريك بن عبد الله، انظر فتح القدير ١٣/٤٨٨ وما بعدها.

(٢) أخرجه مسلم ١٧٨، وسيأتي في سورة النجم إن شاء الله تعالى.

فَرَحَّبَ بي وَدَعا لي بخير، ـ ثم قال: يقولُ الله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: ٥٧] ـ. ثم عَرَجَ بنا إلى السماءِ الخامِسة، فاستفتحَ جبريلُ، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريلُ: فقيل: ومن مَعَك؟ فقال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه. قال: قد بُعِث إليه. ففُتِح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عَرَج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ. فقيل: ومن معك. قال: محمد. فقيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه. فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بموسى ـ عليه السلام ـ فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عَرَج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم ـ عليه السلام ـ وإذا هو مُستَنِدٌ إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ثم لا يَعُودُون إليه. ثم ذهب بي إلى سِدْرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفِيَلَةِ، وإذا ثَمَرُها كالقِلاَل[١]، فَلَما غَشِيها من أمر الله ما غَشِيها تَغيَّرَت، فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها. قال: فَأَوحى الله إليَّ ما أوحى، وفَرَضَ عَلَيَّ في كل يوم وليلة خمسينَ صلاةً، فنزلتُ حتّى انتهيتُ إلى موسى فقال: ما فَرَض ربُّك على أمتك؟ قال: قلتُ: خمسين صلاةً في كلِّ يوم وليلة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ؛ فإن أمتك لا تُطِيقُ ذلك، وإني قد بَلَوتُ بني إسرائيل وخَبَرتُهم. قال: فرجعتُ إلى ربِّي فقلت: أيْ ربِّ، خَفِّفْ عن أُمتي. فَحَطَّ عني خمساً. فرجعت إلى موسى فقال: ما فعلتَ؟ قلتُ: قد حَطَّ عني خمساً. قال: إن أمتك لا تُطِيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: فلم أزل أرجعُ بين ربي وبين موسى، ويحطّ عني خمساً خمساً حتى قال: «يا محمد، هُنَّ خمس صلوات في كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة. وَمَن هَمَّ بحَسَنةٍ فلم يعملها كُتِبت له حسنة، فإن عَملها كتِبَت عشراً. ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب [شيئاً]، فإن عَمِلَها كُتِبت سيئةً واحدةً». فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى فأخبرتُهُ، فقال: ارجِعْ إلى ربك فاسأله التخفيفَ لِأُمَّتِك فإن أُمّتك لا تُطِيق ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد رَجَعْتُ إلى ربي حتّى استحييتُ»[٢]. ورواه مسلم عن شيبان بن فَرُّوخ، عن حماد بن سَلَمة بهذا السياق، وهو أصح من سياق شَرِيك. قال البيهقي: «وفي هذا السياق دليل على أنَّ المعراج كان ليلةَ أُسرِيَ به ﷺ من مكة إلى بيت المقدس». وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شَكَّ فيه ولا مِرْيَةَ.

[٤١٣٧] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا عبد الرَّزاق، حدثنا معمَرُ، عن قتادَةَ، عن أنس: أن النبي ﷺ أُتي بالبُرَاقِ ليلةَ أُسريَ به مُسْرَجاً مُلْجَماً ليركبه، فاستصعَبَ عليه، فقال له جبريلُ: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما رَكِبَكَ قطُّ أكرمُ على الله منه. قال: فارفَضَّ عرقاً[٣]. ورواه الترمذي، عن إسحاقَ بن منصور، عن عبد الرَّزاق، وقال: «غريبٌ لا نَعْرِفه إلا من حَدِيثه».

[٤١٣٨] وقال أحمدُ أيضاً: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوانِ، حدثني راشد بن سعد وعبدُ الرحمن بن جُبَير، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عَرَج بي إلى ربي ـ عزَّ وجل ـ مررت بقوم لهم أظفارٌ من نحاس، يخمِشُون بها وُجُوههم وصُدُورهم، فقلت: مَن هؤلاءِ يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحومَ

---

(١) القُلّة: جرة كبيرة تسع قربتين أو أكثر.

(٢) صحيح، أخرجه مسلم ١٦٢ وأحمد ٣/١٤٨.

(٣) أخرجه الترمذي ٣١٣١ وأحمد ٣/ ١٦٤ وابن حبان ٤٦ والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣ وإسناده صحيح على شرطهما. كما قال الشيخ شعيب.

الناس، ويقعون في أعراضهم»[١]. وأخرجَه أبو داود، من حديث صفوان بن عمرو به. ومن وجه آخر ليس فيه أنس، فالله أعلم.

[٤١٣٩] وقال أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا سفيانُ، عن سليمانَ التّيميِّ، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مررتُ ليلةَ أُسرِيَ بي على موسى ـ عليه السلام ـ قائماً يصلِّي في قبره»[٢]. ورواه مسلم من حديث حَمَّادِ بن سَلَمة، عن سليمان بن طَرْخان التيمي وثابت البُنانيِّ، كلاهما عن أنس، رضي الله عنه. قال النسائيُّ: وهذا أصحُّ من رواية من قال: سليمان، عن ثابت، عن أنس.

[٤١٤٠] وقال الحافظ أبو يَعْلَى الموصلي في مُسنَده: حدثنا وهب بن بقية، حدثنا خالد، عن التيمي، عن أنس قال: أخبرني بعضُ أصحاب النبي ﷺ «أن النبي ﷺ ليلةَ أُسرِي به مَرّ على موسى ـ عليه السلام ـ وهو يصلي في قبره»[٣].

[٤١٤١] وقال أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرة، حدَثنا مُعْتمِر، عن أبيه قال: سَمِعتُ أنساً: أن النبي ﷺ ليلة أُسرِيَ به مَرّ على موسى ـ عليه السلام ـ وهو يُصَلِّي في قبره ـ قال أنس: ذكِر أنه حُمل على البراق، فأوثَقَ الدابة أو قال: الفرس ـ فقال أبو بكر: صِفْها لي. فقال رسولُ الله ﷺ: «هي كَذِهْ وَذِهْ»[٤]. فقال: أشهد أنك رسولُ الله، وكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ قد رآها.

[٤١٤٢] وقال الحافظُ أبو بكر أحمدُ بن عمرو البَزّارُ في مُسَندِه: حدثنا سَلَمة بن شَبِيب، حدثنا سعيدُ بن منصور، حدثنا الحارثُ بن عُبَيد، عن أبي عِمْرانَ الجَوْني، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم إذ جاء جبريل عليه السلام، فوَكز بين كَتِفيَّ، فقمت إلى شجرة فيها كَوَكْرَي الطير، فَقَعَد في أحدهما وقعدتُ في الآخر، فسَمَتْ وارتفعَتْ حتى سَدَّتِ الخافقين وأنا أُقلِّبُ طَرْفي، ولو شئتُ أن أمسَّ السماء لَمِسِسْتُ، فالتفتُ إلى جبريل ـ عليه السلام ـ كأنه حِلْسٌ لاطٌ، فعَرَفتُ فَضْلَ عِلْمِه بالله عَلَيّ وفُتِح لي بابٌ من أبواب السماء فرأيتُ النورَ الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرفُ الدرِّ والياقوت، وأُوحِيَ إليّ ما شاء الله أن يوحي»[٥]. ثم قال: هذا الحديثُ لا نعلم رواه إلا أنسٌ، ولا نَعْلَم رواه عن أبي عمران الجَوْنِيِّ إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة. ورواه الحافظ البيهقي في «الدلائل» عن أبي بكر القاضي، عن أبي جعفر محمد بن علي بن دُحَيم، عن محمد بن الحسين بن أبي الحُنين، عن سعيد بن منصور، فذكره بسنده مثله، ثم قال: وقال غيرُه في هذا الحديث في آخره: «ولُطَّ دوني ـ أو قال: دون الحجاب ـ رَفْرَفُ الدرّ والياقوت». ثم قال: هكذا رواه الحارث بن عُبَيد.

[٤١٤٣] ورواه حَماد بن سلمة، عن أبي عمران الجوني، عن محمد بن عمير بن عطارد: أن النبيَّ ﷺ كان في ملأٍ من أصحابه، فجاءه جبريل، فَنَكَت في ظهره، فذهب به إلى الشجرة وفيها مثل وَكْرَي الطير، فقعد في أحدهما وقعد جبريل في الآخر، فَنَشأت بنا حتى بلغَتْ الأفق، فلو بَسَطْتُ يَدِي إلى السماء لنلتها، فَدُلِّي بسبَب وهبط النور، فوقع جبريل مغشياً عليه كأنه حِلس، فعرفتُ فَضْلَ خشيته على خشيتي. فَأُوحِيَ

---

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٨٧٨ وأحمد ٣/ ٢٢٤ وإسناده صحيح، وانظر «الصحيحة» ٥٣٣.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٣٧٥ والنسائي ٣/ ٢١٦ وأحمد ٣/ ١٢٠ وابن حبان ٤٩.

(٣) صحيح. أخرجه أبو يعلى ٤٠٦٧ وإسناده على شرط مسلم.

(٤) أخرجه أبو يعلى ١٣٢٩ وفيه: «فقال رسول الله ﷺ. . . وذكر كلمة». وإسناده على شرط مسلم.

(٥) انظر كشف الأستار ١/ ٤٧.

إلي: نَبِيّاً مَلِكاً أو نَبِيّاً عبداً؟ وإلى الجنة ما أنت؟ فأومأ إليّ جبريل وهو مضطجع: أن تواضع. قال: قلت: لا بل نبياً عبداً[١]. قلتُ: وهذا إن صَحَّ يقتضي أنها واقعةٌ غير ليلة الإسراء، فإنه لم يُذْكَر فيها بيتُ المقدس، ولا الصعود إلى السماء، فهي كائنة غير ما نحن فيه، والله أعلم.

[٤١٤٤] وقال البزار أيضاً: حدثنا عمرو بن عيسى، حدثنا أبو بحر، حدثنا شُعبَةُ، عن قَتَادَةَ، عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ: أن محمداً ﷺ رَأى رَبَّه عزّ وجلّ[٢]. وهذا غريب.

[٤١٤٥] وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، حدثنا عبد الله بن وهب، حدثني يعقوب بن عبد الرحمن الزُّهْرِي، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما جاء جبريل ـ عليه السلام ـ إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكأنها أَمَرّت ذنبها، فقال لها جبريل: مه يا براق. فوالله ما ركبك مثله. وسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقال: ما هذه يا جبريلُ؟ قال: سِرْ يا محمد. قال: فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعوهُ مُتنَحّياً عن الطريق يقول: هَلُمّ يا محمدُ. فقال له جبريلُ: سِرْ يا محمد. فسار ما شاء الله أن يسيرَ، قال: فلقيه خَلْق من الخَلْق فقالوا: السلامُ عليك يا أولُ، السلامُ عليك يا آخِرُ، السلامُ عليك يا حاشرُ. فقال له جبريلُ: اردِدْ السلامَ يا محمدُ. فَرَدَّ السلامَ، ثم لَقِيه الثانية فقال له مثلَ مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك، حتى انتهى إلى بيت المقدس. فعرض عليه الماء والخمرَ واللبن، فتناول رسولُ الله ﷺ اللبن، فقال له جبريلُ: أصبتَ الفِطْرة، ولو شَرِبت الماء لغرقتْ وغرقَت أمتُكَ، ولو شَرِبْتَ الخَمْرَ لَغَوَيت ولغَوَت أمتك. ثم بُعِث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام، فأَمّهم رسولُ الله ﷺ تلك الليلةَ. ثم قال له جبريلُ ـ عليه السلام ـ: أما العجوز التي رأيتَ على جانب الطريق، فلم يبقَ من الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز. وأما الذي أراد أن تميل إليه، فذاك عدوُّ الله إبليس، أراد أن تَميل إليه. وأما الذين سَلّمُوا عليك فإبراهيمُ وموسى وعيسى عليهمُ السلامُ[٣]. وهكذا رواه الحافظُ البيهقي في «دلائل النبوة» من حديث ابن وهب. وفي بعضِ ألفاظه نَكارةٌ وغرابة.

[٤١٤٦] طريق أخرى عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وفيها غرابةٌ ونكارة جداً ـ وهي في سُنَن النسائي المجتَبَى، ولَم أرَها في الكبير ـ قال: أخبرنا عمرُو بن هشام، حدثنا مَخْلَد ـ هو ابن الحسين ـ عن سعيد بن عبد العزيز، حدثنا يزيد بن أبي مالك، حدثنا أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «أُتِيتُ بدابة فوقَ الحمار ودُون البغل، خَطْوُها عند مُنتهى طَرْفِها، فركبتُ ومعي جبريل ـ عليه السلام ـ فسرتُ فقال: انزل فَصَلِّ فَصَلّيتُ، فقال: أتدري أين صليتَ؟ صَلّيتَ بطَيْبَةَ وإليها المُهَاجَرُ. ثم قال: انزل فَصَلِّ. فصَلّيتُ، فقال: أتدري أين صَلّيتَ؟ صَلّيتَ بطور سَيْناء، حيث كلّم الله موسى. ثم قال: انزل فصلِّ. فصليتُ، فقال: أتدرِي أين صَلّيتَ؟ صَلّيتَ ببيت لَحم، حيثُ ولد عيسى عليه السلام. ثم دخلتُ بيت المقدس. فَجُمِعَ لي الأنبياءُ عليهم السلام، فقدّمني جبريلُ حتى أَمَمْتُهم ثم صَعَدَ بي إلى السماء الدنيا، فإذا فيها آدم عليه السلامُ، ثم صَعِدَ بي إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى ويحيى عليهما السلامُ. ثم صعد بي إلى السماء

---

(١) ضعيف جداً، فهو مرسل محمد بن عمير تابعي، ومع ذلك، هو مجهول.

(٢) في إسناده أبو بحر عبد الرحمن بن عثمان، ضعيف الحديث، وسيأتي الكلام على ذلك في سورة النجم إن شاء الله تعالى.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٢٠٢٠ والبيهقي ٢/ ٣٦٢ وإسناده ضعيف لجهالة يعقوب بن عبد الرحمن وعبد الرحمن بن هاشم، وفي ألفاظه نكارة.

الثالثة فإذا فيها يوسف عليه السّلام. ثم صعِدَ بي إلى السماءِ الرابعة فإذا فيها هارون عليه السلامُ. ثم صَعِدَ بي إلى السماء الخامسة فإذا فيها إدريس عليه السلامُ. ثم صَعِد بي إلى السماء السادسة فإذا فيها موسى عليه السلامُ. ثم صَعِدَ بي إلى السماء السابعة فإذا فيها إبراهيم عليه السلامُ. ثم صَعِد بي فوق سبع سمٰوات، وأتيت سِدْرَةَ المنتهى، فَغَشِيَتني ضَبَابَةٌ فَخَررْتُ ساجداً، فقيل لي: إني يوم خلقت السمٰوات والأرض فرضتُ عليك وعلى أُمّتِك خمسين صلاة، فَقُم بها أنتَ وأمتُكَ. فَرَجَعْتُ بذلك حَتَّى أَمُرَّ على موسى ـ عليه السلام ـ فقال: ما فَرَضَ رَبُّك على أُمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: فإنك لا تستطيعُ أن تقومَ بها، لا أنت ولا أمتُك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ. فرجعتُ إلى ربيّ فخفّفَ عني عشراً. ثم أتيت موسى فأمرني بالرجوع، فرجَعْتُ فخفف عَنّي عشراً، ثم رُدّتْ إلى خمس صلوات. قال: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ، فإنه فَرَض على بني إسرائيل صلاتين فما قاموا بهما. فرجعت إلى ربي ـ عزّ وجلّ ـ فسألته التخفيف، فقال: إنّي يومَ خلقتُ السمواتِ والأرضَ فرضتُ عليك وعلى أمتك خمسين صلاةً، فخمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك. فعرفتُ أنها من الله تعالى صِرّى، فرجعت إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: ارجع. فعرفت أنها من الله صِرّى، يقول: أي حَتْمٌ ـ فلم أرجع»[1].

[٤١٤٧] طريق أخرى، وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا هشامُ بن عمار، حدثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيه، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما كان ليلةُ أسرِيَ برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، أتاهُ جبريلُ بدابّةٍ فوقَ الحمار ودُونَ البغلِ، حَمله جبريلُ ـ عليه السلام ـ عليها، ينتهي خُفُّها حيث ينتهي طَرْفُها. فلما بَلَغ بيت المقدِس وبَلَغ المكان الذي يُقال له: بابُ محمّدٍ، أتى إلى الحجر الذي ثَمَّةَ، فغَمَزَه جبريلُ بإِصْبَعِهِ فَثَقبه ثم ربطها. ثم صَعِدَ فلما استويا في صرْحَةِ المسجد، قال جبريلُ: يا محمّد، هل سألت ربَّكَ أن يُرِيَكَ الحور العِيْنَ؟ فقال: نعم. قال: فَانْطَلِقْ إلى أولئك النسوةِ، فَسَلّم عليهنَّ وهُنَّ جلوسٌ عن يسار الصَّخرةَ. قال: فأتيتُهنّ فسلمتُ عليهنّ، فرددْنَ عليّ السلام، فقلت: من أنتنّ؟ فَقُلن: نحن خَيْراتٌ حسان، نساءُ قوم أبرارٍ، نَقُوا فلم يَدْرَنوا، وأقاموا فلم يظعَنُوا، وخُلِّدوا فلم يموتوا. قال: وانصرفت، فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذَّن مُؤَذِّن، وَأُقِيمت الصلاةُ، فقمنا صفوفاً ننتظِرُ من يَؤُمُّنا. فأخذ بيدي جبريل ـ عليه السلام ـ فقدّمني فصلّيتُ بهم. فلما انصرفت قال جبريل: يا محمدُ، أتدري مَن صَلّى خلفك؟ قال: قلتُ: لا. قال: صلّى خلفك كلّ نبي بعثه الله عَزَّ وجلَ. قال: ثم أخذ بيدي جبريلُ فَصَعِد بي إلى السماء، فلما انتهينا إلى الباب استفتَحَ فقالوا: من أنتَ؟ قال: أنا جبريلُ. قالوا: ومَنْ مَعكَ؟ قَال: محمد. قالوا: وَقَد بُعِث؟ قال: نعم. قالَ: فَفَتَحُوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن مَعَك. قال: فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدمُ، فقال لي جبريلُ: يا محمدُ، ألا تُسَلّم على أبيك آدم؟ قال: قلت: بلى. فأتيته فَسَلَّمتُ عليه، فرد عليّ وقال: مرحباً بابني [الصالح] والنبيِّ الصالح. قال: ثم عَرَجَ بي إلى السماء الثانية فاستفتحَ، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن مَعَك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِث؟ قال: نعم. ففتحُوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها عيسى وابنُ خالته يحيى عليهما السلام. قال: ثم

---

(١) منكر، أخرجه النسائي ١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢، وظاهر إسناده الصحة. عمرو بن هشام ثقة، ومخلد بن حسين ثقة روى له مسلم، وسعيد بن عبد العزيز روى له مسلم، وهو ثقة لكن اختلط بأخرة، والظاهر أنه روى هذا الحديث بعد اختلاطه، فقد تفرد بألفاظ منكرة لا يتابع عليها، فمن ذلك «صلاته ـ عليه السلام بطيبة» و «طور سيناء» و «بيت لحم» وفي آخره «رجوعه عليه السلام بعد الخمس»، وهذا يعارض ما في الصحيح من أنه عليه السلام لم يرجع بعد الخمس. فالخبر عامة منكر.

عَرَج بي إلى السماء الثالثة فاستفتَحَ، قالوا: من أنتَ؟ قال: جبريلُ: قالوا: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِث؟ قال: نعم. قال: ففتحوا وقالوا: مَرحباً بِكَ وبمن مَعَك. فإذا فيها يوسف عليه السلام، ثم عَرَج بي إلى السماء الرابعة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ، قالوا: ومن مَعَك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِث؟ قال: نعم. فَفَتحُوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها إدريسُ عليه السلام. قال: فَعَرج بي إلى السماء الخامسة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِث؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها هارونُ عليه السلام. قال: ثم عَرَج بي إلى السماء السادسة فاستفتح، فقالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِث؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن مَعَكَ. فإذا فيها موسى عليه السلام. ثم عَرَج بي إلى السماء السابعة، فاستفتَحَ، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِث؟ قال: نعم. فَفَتَحُوا وقالوا: مرحباً بك وبمن مَعَك، فإذا فيها إبراهيمُ عليه السلام. فقال جبريل: يا محمد، ألا تُسَلِّم على أبيك؟ فقلتُ: بلى. فأتيتُه فسلمتُ عليه، فَرَدَّ عليَّ السلامَ، وقال: مرحباً بِابْني الصالح والنبيِّ الصالح. ثم انطلق بي على ظهر السماء السابعةِ، حتى انتهى بي إلى نهر عليه خيامُ الياقوتِ واللؤلؤ والزبرجَدِ، وعليه طيرٌ خُضر، أنعَمُ طير رأيتُ. فقلت: يا جبريل، إن هذا الطير لناعم؟ قال: يا محمدُ، آكِلُه أنعم منه. ثم قال: يا محمد، أتدري أيّ نهر هذا؟ قال: قلت: لا. قال: هذا الكوثرُ الذي أعطاكَ الله إياه. فإذا فيه آنية الذهب والفضة، يجري على رَضرَاض من الياقوتِ والزُمُردِ، وماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن. قال: فأخذتُ منه آنية من ذهب، فاغترفت من ذلك الماء فشربتُ، فإذا هو أحلى من العسل، وأشد رائحةً من المسك. ثم انطلق بي حتى انتهى إلى الشجرة، فَغَشِيَتني سحابةٌ فيها من كلِّ لون، فَرَفَضَني جبريل، وخَرَرْت ساجداً لله عزَّ وجلَّ، فقال الله لي: يا محمد، إني يوم خلقتُ السمٰواتِ والأرضَ فرضتُ عليك وعلى أُمَّتِك خمسين صلاة، فَقُم بها أنت وأمتُك. قال: ثم انجلَت عنّي السحابة وأخذَ بيدي جبريلُ فانصرفتُ سريعاً، فأتيت على إبراهيم فلم يَقُلْ لي شيئاً، ثم أتيتُ على موسى فقال: ما صنعتَ يا محمدُ؟ فقلت: فَرَض ربِّي عليّ وعلى أمتي خمسينَ صلاةً. قال: فلن تستطيعها أنتَ ولا أُمّتك، فارجِعْ إلى ربك فاسأله أن يُخَفِّف عنك، فرجعتُ سريعاً حتى انتهيتُ إلى الشجَرةِ، فَغَشِيَتْني السحابة، ورَفَضني جبريل ـ عليه السلام ـ، وخررت ساجداً، وقلت: رَبِّ، إنكَ فرضتَ عليّ وعلى أمتي خمسينَ صلاةً، ولن أستطيعها أنا ولا أُمّتي، فَخفِّف عنا. قال: وقد وضعتُ عنكم عشراً. قال: ثم انجلَتْ عَنّي السحابةُ، وأخذ بيدي جبريلُ ـ عليه السلام ـ فانصرفتُ سريعاً حتى أتيتُ على إبراهيم فلم يقل شيئاً. ثم أتيت على موسى ـ عليه السلام ـ فقال لي: ما صنعت يا محمدُ؟ فقلتُ: وضَعَ رَبي ـ عزّ وجلّ ـ عني عشراً. فقال: فأربعون صلاة، لن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك. فذكر الحديث كذلك إلى خَمسِ صلواتٍ، وخَمسٍ بخمسين، ثم أمره موسى ـ عليه السلام ـ أن يرجع فيسأل التخفيف، فقلت: إني قد استحييتُ منه تعالى. قال: ثم انحدر، فقال رسول الله ﷺ لجبريل: مالي لم آتِ أَهْلَ سماء إلا رَحَّبُوا بي وضحِكُوا إليّ، غير رجل واحد، فسلمت عليه فرد عَلَيَّ السلامَ ورحَّب بي ولم يضحك إليّ. قال: يا محمدُ، ذاك مالكٌ خازن جَهَنّم، لم يضحكْ منذ خُلِقَ، ولو ضَحِكَ إلى أحدٍ لَضَحِك إليك. قال: ثم رَكب منصرفاً، فبينا هو في بعض طريقِهِ مرّ بعير لِقُريش تحمل طعاماً، فيها جملٌ عليه غِرَارَتان: غِرارةٌ سوداءُ، وغِرَارةٌ بيضاءُ، فلما حاذى بالعير

نَفَرت منه واستدارت، وصُرِع ذلك البعيرُ وانكسر. ثم إنه مَضَى فأصبَحَ، فأخبر عمَّا كان، فلما سَمِع المشركون قوله أَتَوا أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ: فقالوا: يا أبا بكر، هل لك في صاحبك؟ يخبر أنه أتى في ليلته هذه مَسِيرة شَهْرٍ، ثم رَجع في ليلته. فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: إن كان قاله فقد صَدَق، وإنا لَنُصدِّقه فيما هو أبعدُ من ذلك، نُصَدِّقهُ على خَبَرِ السماء. فقال المشركون لرسولِ الله ﷺ: ما علامَةُ ما تقول؟ قال: مَرَرتُ بعيرٍ لقُرَيش، وهي في مكان كذا وكذا، فنفرت العير منا وَاسْتَدارَتْ، وفيها بعيرٌ عليه غِرارتان: غِرارةٌ سوداء، وغرارةٌ بيضاء، فَصُرِع فانكسر. فلما قدمت العير سَألوهم، فأخبروهم الخبر على مثل ما حَدَّثهم رسول الله ﷺ، ومن ذلك سُمّي أبو بكر: الصِّدِّيق، رضي الله عنه. وسألوه فقالوا: هل كان فيمن حضر معك موسى وعيسى؟ قال: نعم. قالوا: فَصِفهُم. قال: نعم، أما موسى فرجل آدم، كأنه من رجال أزْد عمان، وأما عيسى فَرَجُل ربعة، سَبْط، تعلوه حُمرَة، كأنه يتحادر من شعره الجُمانُ[1]. هذا سياقٌ فيه غرائبُ عجيبةٌ.

[٤١٤٨] **رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه**: قال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّانُ، حدثنا هَمَّام قال: سمعت قتادَةَ يحدّث عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن مالك بن صَعْصَعَة حَدَّثه: أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلةَ أُسْرِيَ به، قال: بينما أنا في الحَطِيم ـ وربما قال قتادةُ: في الحِجْرِ ـ مضطجعاً، إذ أتاني آتٍ فجعل يقول لصاحبه: الأوسطُ بين الثلاثة، قال: فأتاني فَقدَّ ـ وَسمِعتُ قتادَةَ يقول: فشق ـ ما بين هذه إلى هذه» ـ وقال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جَنْبي: ما يعني؟ قال: مِن ثُغرة نحره إلى شِعْرَته، وقد سمعته يقول: من قَصّته إلى شعرته، قال: فاستخرَجَ قلبي، قال: فَأُتِيتُ بطَسْتٍ من ذَهَبٍ مملوءٍ إيماناً وحكمةً، فَغَسل قلبي ثم حُشِي، ثم أعيد. ثم أُتِيتُ بدابّةٍ دونَ البغلِ وفَوقَ الحمار أبيض ـ قال: فقال الجارود: وهو البُراق يا أبا حَمْزَة؟ قال: نعم، يقع خَطْوُه عند أقصى طَرْفِهِ ـ قال: فَحُمِلْتُ عليه، فانطلق بي جبريل ـ عليه السلام ـ حتى أَتَى بي إلى السماء الدنيا: فاستفتَحَ فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَك؟ قال: محمَّدُ. قيل: أو قد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به، ولنعم المجيءُ جاءَ. قال: فَفُتِح فلما خَلَصتُ فإذا فيها آدم عليه السلام، قال: هذا أبوك آدم، فَسَلِّم عليه. فَسلَّمتُ عليه، فرَدّ السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبيِّ الصالح. ثم صَعِدَ حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ فقال: جبريل. قيل: ومن مَعَك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أُرسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيءُ جاء. قال: فَفُتِح، فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وهما ابنا الخالة، فقال: هذان يحيى وعيسى فَسَلِّم عليهما. قال: فسلمتُ فردًا السلام، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالحِ. ثم صَعِد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قيل: أوقد أُرسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيءُ جاء. قال: فَفُتِح فلما خلصتُ إذا بيوسف عليه السلام، قال: هذا يوسفُ، قال:

---

(١) ضعيف، في إسناده خالد بن يزيد بن عبد الرحمٰن بن أبي مالك الدمشقي، جاء في «الميزان»: وهاه ابن معين، وقال أحمد: ليس بشيء، وقال النسائي: غير ثقة، وقال الدارقطني: ضعيف أهـ باختصار، فالإسناد ضعيف والمتن في بعض ألفاظه نكارة وغرابة، ولبعضه الآخر شواهد.

فسلمتُ عليه، فَرَدَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صَعِد حتى أتى السماء الرابعة، فَاسْتَفْتَحَ فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَك؟ قال: محمدٌ. قيل: أوقد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجيءُ جاء. قال: فَفُتِح، فلما خَلَصْتُ فإذا إدريسُ ـ عليه السلام ـ قال: هذا إدريس، فَسَلِّمْ عليه قال: فسلَّمتُ عليه. فَرَدَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح. قال: ثم صَعِد حتى أتى السماءَ الخامسة فاستفتَح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَك؟ قال: محمدٌ. قيل: أو قد أرسِلَ إليه؟ قال: نَعَم. قيل: مرحَباً به، ولنعمَ المجيءُ جاء. قال: فَفُتِح، فلما خلصْتُ فإذا هارون عليه السلام، قال: هذا هارون فسلّم عليه، فسلمتُ عليه فردَ عَلَيَّ السلامَ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح. قال: ثم صَعِدَ حتى أتى السماء السادِسَة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَك؟ قال: محمدٌ. قيل: أو قد أُرسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، فَفُتِحَ، فلما خلصتُ فإذا أنا بموسى ـ عليه السلام ـ قال: هذا موسى فَسَلِّم عليه. فسلمتُ عليه فردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالحِ والنبيِّ الصالح. قال: فلما تجاوزْتُ بكى. قيل له: ما يُبْكِيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعِثَ بعدي، يدخل الجنةَ من أمته أكثرُ مما يدخلُها من أمتي، قال: ثُمَّ صَعِد حتى أتى السماء السابعة فاستفتَحَ، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أُرسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعمَ المجيءُ جاء. قال: فَفُتِح فلما خلصتُ فإذا إبراهيم عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فَسَلِّم عليه. قال: فَسَلَّمتُ عليه فَرَدَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالحِ والنبيِّ الصالح. قال: ثم رُفِعْتُ إلى سِدْرَة المنتهى، وإذا نَبِقُها مثل قِلاَل هَجَر، وإذا وَرَقُها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سِدْرةُ المنتهى. قال: وإذا أربعةُ أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات. قال: ثم رُفِعَ إلى البيت المعمور.

[٤١٤٩] قال قتادة: وحدثنا الحسنُ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: أنه رأى البيتَ المعمورَ يدخله كُلَّ يوم سبعونَ ألف مَلَك، ثم لا يعودون فيه. ثم رَجَع إلى حديث أنس قال: ثم أُتِيتُ بإناءٍ من خَمْرٍ وإناءٍ من لَبَن وإناء من عَسَلٍ، قال: فأخذتُ اللبنَ، قال: هذه الفطرةُ، أنتَ عليها وأمتُك. قال: ثم فُرِضَت الصلاةُ خمسين صلاة كلَّ يوم، قال: فَنَزَلْتُ حتى أتيتُ موسى ـ عليه السلام ـ قال: ما فرضَ ربُّك على أمَتك؟ فقلت: خمسين صلاةً كُلَّ يوم. قال: إن أمتك لا تستطيعُ خمسين صلاة، وإني قد خَبَرْتُ الناس قبلكَ وعالجتُ بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى رَبِّك فاسأله التخفيفَ عن أمتك. قال: فَرَجَعتُ فوضَعَ عني عشراً قال: فرجعتُ إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ قلت: بأربعين صلاةً كلّ يوم. قال: إن أمتكَ لا تستطيعُ أربعين صلاةً كُلَّ يوم، وإني قد خَبَرْتُ الناسَ قبلك، وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ لأمتك. قال: فرجعتُ فوضَعَ عني عشراً أُخَرَ. فرجعتُ إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ فقلت: أُمِرْتُ بثلاثين صلاة. قال: إن أُمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم، وإني خَبَرت الناس، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى رَبِّك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: فرجعتُ فوضَع عني عشراً أُخَرَ، فرجعت إلى موسى فقال: بِم أُمِرْتَ؟ قلت: بعشرينَ صلاة كلَّ يومٍ. فقال: إن أمتك لا تستطيع لعشرين صلاة كل يوم، وإني قد خَبَرْتُ الناسَ قبلك، وعالجت بني

إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: فرجعتُ فوضع عني عشراً أُخر، فرجعت إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: بم أُمِرْتَ؟ فقلتُ: أُمِرْتُ بعشر صَلَواتٍ كُلَّ يوم قال: [إن] أمتك لا تستطيع لعشر صلوات كُل يوم، وإني قد خَبَرْتُ الناسَ قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمَّتِك، قال: فرجعت فَأُمِرْتُ بخمس صلوات كُلَّ يوم، فرجعت إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: بم أُمِرْتَ؟ فقلت: أمرتُ بخمس صلوات كلَّ يوم. فقال: أمتُكَ لا تستطيع لخمس صلوات كُلَّ يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: قلت: قد سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأُسلِّم، فَنَفَذْتُ، فنادى منادٍ: قد أمضيتُ فريضَتِي، وخَفَّفْتُ عن عبادي»[1]. وأخرجاه في الصحيحين، من حديث قتادة، بنحوه.

[٤١٥٠] رواية أنس عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنهما: قال البخاري: حدثنا يحيى بن بُكَير، حدثنا الليثُ، عن يونُس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أبو ذَرٍّ يُحَدِّث أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «فُرِجَ سَقْفُ بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريلُ فَفَرَجَ صدْري، ثم غَسَله بماء زَمْزَمَ، ثم جاء بطَسْت من ذهب ممتلىءٍ حكمةً وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه. ثم أخذ بيَدِي فَعَرَج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئتُ إلى السماء قال جبريلُ لخازن السماء: افتَحْ. قال: من هذا؟ قال: جبريلُ. قال: هل معك أحدٌ؟ قال: نعم، مَعِي محمدٌ. قال: أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. فلما فَتَح عَلَونا السماء الدنيا فإذا رجلٌ قاعدٌ على يَمينه أَسْوِدَةٌ وعلى يسارِهِ أَسْوِدَةٌ، إذا نظر قِبَلَ يَمينهِ ضَحِك، وإذا نظر قِبَلَ شِمَالِهِ بكى. فقال: مَرْحَباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصالح. قلت لجبريلَ: من هذا؟ قال: هذا آدَمُ، وهذه الأسودةُ عن يمينه وعن شِمَاله نَسَمُ بَنِيه، فأهلُ اليمين منهم أهلُ الجنة، والأسودَةُ التي عن شِمَاله أهلُ النار، فإذا نَظَر عن يمينه ضَحك، وإذا نَظر عن شِمَاله بَكَى. ثم عَرَج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتَحْ. فقال له خازنُها مثل ما قالَ له الأولُ، فَفَتح، قال أنسٌ: فذكر أنه وَجَد في السمٰوات آدَمَ، وإدريسَ، وموسى، وعيسى، وإبراهيمَ، ولم يُثْبِتْ كيفَ منازِلُهم، غَيرَ أنه ذَكر أنه وَجَد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيمَ في السماء السادسة. قال أنس: فلما مَرَّ جبريلُ بالنبي ﷺ بإدريس قال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والأخ الصالح. فقلتُ: من هذا؟ قال: هذا إدريسُ. ثم مَرَرْتُ بموسى فقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والأخ الصالح. قلت: مَن هذا؟ قال: هذا موسى. ثم مررتُ بعيسى فقال: مَرْحَباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى. ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيمُ. قال الزهري: فأخبرني ابنُ حَزْم أَنَّ ابن عباس وأبا حَبَّة الأنصاري كانا يقولان: قال النبيُّ ﷺ: «ثم عَرَجَ بي حَتَّى ظهرتُ لمستوى أسمَعُ فيه صَرِيفَ الأقلام».

قال ابنُ حَزمٍ وأنسُ بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فَفَرَضَ اللَّهُ على أُمَّتي خمسين صلاةً، فرجعتُ بذلك حتى مَرَرْتُ على موسى ـ عليه السلام ـ فقال: ما فرض الله على أُمَّتِك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجِعْ إلى رَبِّك، فإن أُمَّتك لا تُطِيقُ ذلك. فَرَجعتُ فوضع شطرها، فَرجعتُ إلى موسى، قلت: وَضَعَ شَطْرَها. فقال: راجِع ربك، فإن أمتك لا تطيق. فَرَجعتُ فوضع شَطْرَها. فَرَجَعْتُ إليه فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تُطِيقُ ذلك. فراجعتُه فقال: هي خمسٌ وهي خمسُون، لا يُبَدَّلَ القولُ لديَّ. فرجَعْتُ إلى

(١) أخرجه البخاري ٣٢٠٧ و٣٣٩٣ ومسلم ١٦٤ وأحمد ٤/٢٠٨ ـ ٢٠٩ وابن حبان ٢٨. واللفظ لأحمد. ولفظ الحسن عن أبي هريرة لم يروه البخاري ومسلم، وهو ضعيف لانقطاعه.

موسى فقال: ارجِعْ إلى ربِّك. قلتُ: قد استحيَيْتُ من رَبِّي. ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سِدْرَةِ المُنتهَى، فَغَشِيها ألوانٌ لا أدري ما هي، ثم أُدخِلْتُ الجنة فإذا فيها جَنَابذ اللؤلؤ، وإذا تُرَابها المِسْكُ»[١]. هذا لفظ البخاري في «كتاب الصلاة»، ورواه في ذكر بني إسرائيل، وفي الحج، وفي أحاديث الأنبياء من طرق أخر، عن يُونُس، به. ورواه مسلم في صَحِيحه في كتابِ الإيمان، عن حَرمَلة، عن ابن وهب، عن يونس، به نحوه.

[٤١٥١] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفان، حدثنا هَمَّامٌ، عن قتادةَ، عن عبد الله بن شَقيق قال: قلتُ لأبي ذَرٍّ: لو رأيتُ رسول الله ﷺ لسألتهُ. قال: وما كنتَ تسألهُ؟ قال: كنتُ أسألُه: هل رأى ربَّه؟ فقال: إني قد سألته فقال: «إني قد رأيته نوراً أنّى أراه»[٢]. هكذا وقع في رواية الإمام أحمد.

[٤١٥٢] وأخرجه مسلم في صحيحه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادةَ، عن عبدالله بن شَقِيق: عن أبي ذَرٍّ قال: سألتُ رسول الله ﷺ: هل رأيتَ رَبَّك؟ قال: نور أَنّى أراه[٣].

[٤١٥٣] وعن محمد بن بَشّار، عن مُعاذِ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادَةَ، عن عبد الله بن شَقِيقٍ قال: قلتُ لأبي ذَرٍّ: لو رأيتُ رسول الله ﷺ لسألته. فقال: عَن أيِّ شيءٍ كنتَ تسألُه؟ قال: كنتُ أسألُه: هل رأيتَ ربَّكَ؟ قال أبو ذَرٍّ: قد سألتُه فقال: رَأيتُ نُوراً[٤].

[٤١٥٤] روايةُ أنس، عن أُبَيّ بن كعب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ: قال عبدُ الله بن الإمام أحمدَ: حدثنا محمد بن إسحاق بن محمد المُسَيَّبي، حدثنا أنس بن عياض، عن يونُس بن يزيد قال: قال ابنُ شهابٍ: قال أنسُ بن مالك: كان أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ يُحدِّث أن رسول الله ﷺ قال: «فُرِجَ سَقْفُ بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريلُ فَفَرَج صَدْري ثم غسله من ماءَ زَمْزَمَ، ثم جاء بطسْت من ذهب ممتلىءٍ حكمَةً وإيماناً، فأفرغها في صدري ثم أطبقه، ثم أَخَذَ بيدي فَعَرَجَ بي إلى السماء. فلما جاءَ السماءَ الدنيا فافْتَتَح فقال: من هذا؟ قال: جبريلُ. قال: هل معك أحدٌ؟ قالَ: نَعَم، معي محمدٌ. قال: أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم، فافتح. فلما عَلَونا السماء الدنيا إذا رجلٌ عن يمينه أَسْوِدَةٌ وعن يساره أَسْودَة، فإذا نَظَر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَل شِمَاله بَكَى ـ فقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابن الصّالح. قال: قلتُ لجبْريلَ: من هذا؟ قال: هذا آدمُ، وهذه الأَسْوِدَةُ التي عن يمينه وعن شماله نَسَمُ بَنِيه، فَأهلُ اليمين هم أهلُ الجَنةَ، والأسودة التي عن شماله هُم أهلُ النار، فإذا نظر قِبَلَ يمينه ضَحِكَ، وإذا نظر قِبَلَ شِماله بكى. قال: ثم عَرَجَ بي جبريل حتى أتى السماءَ الثانيةَ، فقال لخازنها: افتح. فقال له خَازِنُها مثلَ ما قال خازنُ السماءِ الدنيا فَفتح له، قال أنس: فَذَكر أنه وَجَد في السمٰوات: آدمَ، وإدريسَ، ومُوسى، وعيسى، وإبراهيم، ولم يُثبِتْ لي كيفَ منازِلُهم؟ غير أنه ذَكر أنه وَجَد آدم ـ عليه السلام ـ في السماء الدنيا، وإبراهيمَ في السماء السادِسَةِ، قال أنس: فلما مَرّ جبريل ـ عليه السلام ـ ورسولُ الله ﷺ بإدريس قال: مَرْحَبَاً بالنبيِّ الصالح والأخ الصالح. قال قلت: مَن هذا يا جبريل؟ قال: هذا إدريسُ. قال: ثم مررتُ بموسى، فقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والأخ الصالح. فقلتُ: مَنْ هذا؟ قال: هذا مُوسى. ثم مررتُ بِعيسى فقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والأخِ الصالح. قلتُ: من هذا؟

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٩ و٣٣٤٢ ومسلم ١٦٣

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٥/ ١٤٧ وإسناده على شرط مسلم.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٨ وأحمد ٥/ ١٧١.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٨ ح ٢٩٢.

قال: هذا عيسى ابن مريم. قال: ثم مررتُ بإبراهيمَ فقالَ: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم.

قال ابنُ شهاب: وأخبرني ابنُ حَزْم أنَّ ابن عباس وأبا حَبَّة الأنصاريَّ كانا يقولان: قال رسولُ الله ﷺ: ثم عُرِجَ بي حتى ظهرتُ لمستوى أسمعُ صَرِيفَ الأقلام. قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: فَرَض الله على أُمَّتي خمسينَ صلاةً، قال: فَرَجَعتُ بذلك حتى أَمُرَّ على موسى ـ عليه السلام ـ فقال موسى: ماذا فَرَض ربُّك على أمتك؟ قلت: فَرَض عليهم خمسينَ صلاةً. فقال لي موسى: راجع رَبَّك؛ فإن أمتك لا تُطِيق ذلك. قال: فَراجعتُ ربِّي. فوضع شطرها، فَرَجعتُ إلى موسى فأخبرتُه فقال: رَاجِعْ رَبَّك؛ فإن أمتك لا تُطِيقُ ذلك، فَرَاجعتُ ربِّي فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يُبدَّلُ القولُ لديَّ. قال: فَرَجعْتُ إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: رَاجِعْ ربك. فقلت: قد استحييتُ من ربي. قال: ثم انطَلَقَ بي حتى أَتَى سِدْرَةَ المنتهى، قال: فَغَشِيَها ألوانٌ لا أَدْرِي ما هي؟ قال: ثم أُدْخِلْتُ الجنة فإذا فيها جَنَابذ اللؤلؤ، وإذا ترابُها المِسْكُ[1]. هكذا رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه. وليس هو في شيء من الكتب الستة، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس، عن الزهري، عن أنس، عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ مثل هذا السياق سواءً، فالله أعلم.

[٤١٥٥] روايةُ بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي: قال الحافظ أبو بكر البَزَّار: حدثنا عبد الرحمن بن المتوكل ويعقوب بن إبراهيم ـ واللفظُ له ـ قالا: حدثنا أبو تُمَيلَةَ، حدثنا الزبير بن جُنادة، عن عبد الله بن بُرَيْدَةَ، عن أبيهِ قالَ: قالَ رسول الله ﷺ: «لما كانَ ليلةُ أُسْرِي بي قال: فَأَتَى جبريلُ الصخرةَ التي ببيتِ المقدس، قال: فوضَع إصبعَه فيها فَخرقها، فَشَدَّ بها البراق»[2]. ثم قال البَزار: لا نعلم رواه عن الزبير بن جُنادة إلا أبو نُمَيْلَةَ، ولا نَعْلَمُ هذا الحديث يُرْوَى إلا عن بُرَيدَة رضي الله عنه. وقد رواه الترمذي في التفسير من جامِعِه، عن يعقوبَ بن إبراهيم الدَّورَقِيِّ، به، وقال: غريبٌ.

[٤١٥٦] روايةُ جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ: قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا يعقوبُ، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب قال: قال أبو سَلَمة: سَمِعتُ جابرَ بن عبد الله يُحدِّثُ: أنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: لما كَذَبَتْني قريشٌ حين أُسري بي إلى بَيْتِ المَقْدِس، قمتُ في الحِجْر فَجَلَّى الله لي بيتَ المقدس، فطفقتُ أخبِرُهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[3]. أخرجاه في الصَّحِيحَين من حَديثِ الزُّهرِيِّ، به.

[٤١٥٧] وقال البيهقيُّ: أخبرنا أحمد بن الحسن القاضي، حدثنا أبو العباس الأصمُّ، حدثنا العباسُ بن محمد الدُّورِيُّ، حدثنا يعقوبُ بن إبراهيمَ، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهابٍ قال: سَمِعتُ ابنَ المسيّبِ يقول: إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس، لَقِيَ فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وإنه أُتي بقدَحَين: قَدحِ من لَبَن وقَدَح خَمْرٍ، فنظر إليهما، ثم أخذ قَدَح اللبن. فقال له جبريلُ ـ عليه السلام ـ:

---

(١) صحيح. أخرجه عبد الله بن أحمد ٥/١٤٣ ـ ١٤٤ في «زيادات المسند» وذكره الهيثمي في «المجمع» ١/ ٦٥ ـ ٦٦ وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الترمذي ٣١٣٢ وصححه الحاكم ٢/ ٣٦٠ وابن حبان ٤٧، وقال الترمذي حسن غريب. وهو كما قال، مداره على الزبير بن جنادة، وهو مقبول كما في التقريب أي حيث يتابع. ولم يتابع على هذا اللفظ.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٨٨٦ و٤٧١٠ ومسلم ١٧٠ والترمذي ٣١٣٢ وأحمد ٣/ ٣٧٧ و٣٧٨ وابن حبان ٥٥ والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٥٩.

هُدِيتَ الفطرةَ لو أَخَذتَ الخمر لَغَوَت أُمَّتُك. ثم رَجَع رسولُ الله ﷺ إلى مكة، فأخبر أنه أُسْرِيَ به، فافتتن ناسٌ كثير كانوا قد صَلُّوا معه. قال ابنُ شهاب: قال أبو سَلَمة بنُ عبد الرحمن: فَتَجهَّز ـ أو كلمةً نحوَها ـ ناسٌ من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعمُ أنه جاء بيتُ المقدسِ ثم رجعَ إلى مَكَّة في ليلة واحدة. فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: أوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأشهدُ لئن كان قال ذلك لقد صَدَق. قالوا: فَتُصدِّقه بأن يأتي الشام في ليلةٍ واحدةٍ ثم يرجعُ إلى مكة قبل أن يُصبحَ؟ قال: نعم، إني أصدقه بأبعد من ذلك، أُصَدِّقه بخبر السماء. قال أبو سلمة: فبها سُمِّي أبو بكر: الصديقَ. قال أبو سَلَمة: فسمعتُ جابر بنَ عبد الله ـ رضي الله عنه ـ يُحدِّث أنه سَمِع رسول الله ﷺ يقول: لما كَذَّبتني قريشٌ حين أُسرِيَ بي إلى بيت المقدس، قُمتُ في الحِجْر، فَجَلَّى الله لي بيتَ المقدس، فطِفقتُ أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[(١)].

[٤١٥٨] روايةُ حُذَيفةَ بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ: قال الإمام أحمد: حدّثنا أبو النضر، حدّثنا شيبانُ، عن عاصم، عن زِرِّ بن حُبَيش قال: أتيتُ عَلَى حُذَيفةَ بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ وهو يُحدِّث عن لَيلةَ أُسرِيَ بمحمد ﷺ وهو يقولُ: فانطلقنا حتى أتينا بيتَ المقدس ـ فلم يدخلاه ـ قال: قلتُ: بل دَخَلَه رسولُ الله ﷺ ليلتئذٍ وصَلَّى فيه. قال: ما اسمُك يا أَصلعُ، فإني أعرفُ وجهَك ولا أدري ما اسمُك؟ قال: قلتُ: أنا زِرُّ بن حُبَيش. قال: فما عَلَّمَك بأنَّ رسول الله ﷺ صلَّى فيه ليلتئذٍ؟ قال: قلت: القرآنُ يخبرني بذلك. قال: من تكلم بالقرآن فَلَجَ، اقرأ. قال: فقلتُ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾. قال: يا أصلعُ، هل تجدُ «صلَّى فيه»؟ قلت: لا. قال: والله ما صلَّى فيه رسولُ الله ﷺ ليلتئذٍ، ولو صَلَّى فيه لكُتِبت عليكم صلاةٌ فيه، كما كُتِب عليكم صلاةٌ في البيت العتيق، والله ما زايلا البُراق حتى فُتِحت لهما أبواب السماء، فرأيا الجنةَ والنار وَوَعْدَ الآخرة أجمَعَ، ثم عادا عَوْدَهما على بَدْئِهما. قال: ثم ضحك حتى رأيت نواجِذَه. قال: ويُحدِّثُون أنه ربطَه لا يفرُّ منه، وإنما سَخَّره له عالمُ الغيب والشهادة. قلت: أبا عبد الله، أيُّ دابّةٍ البُراقُ؟ قال: دابة أبيضُ طويلٌ هكذا، خَطوُه مَدّ البَصَرِ[(٢)]. ورواه أبو داود الطيالسي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، به. ورواه الترمذي والنسائي في التفسير، من حديث عاصم ـ وهو ابن أبي النَّجود ـ به، وقال الترمذي: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وهذا الذي قاله حُذَيفةُ ـ رضي الله عنه ـ نفيٌ، وما أثبته غيره عن رسول الله ﷺ من رَبْطِ الدابة بالحَلْقَةِ ومن الصلاة بالبيت المقدّس، مما سبق وما سيأتي مقدَّمٌ على قوله، والله أعلم بالصواب.

[٤١٥٩] روايةُ أبي سعيد سَعْدِ بن مالك بن سِنَانِ الخدريِّ ـ رضي الله عنه ـ: قال الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة»: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أبو بكر يحيى بن أبي طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، أخبرنا أبو مُحَمَّد راشِد الحمَّاني، عن أبي هارونَ العَبْدي، عن أبي سَعِيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال له أصحابُه: يا رسولَ الله، أخبرنا عن ليلة أسري بك فيها، قال: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ

---

(١) ضعيف. أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٢/٣٥٩ ـ ٣٦٠ وهو مرسل، وإبراهيم هو ابن سعد عنده غرائب، وقوله «فافتتن ناس كثير» منكر، بل لم يفتتن أحد، ثم لم يؤمن بالنبي ﷺ حينئذ كثير من الناس أصلاً.

(٢) أخرجه الترمذي ٣١٤٧ والنسائي في التفسير» ٣٠٠ وأحمد ٥/٣٨٧ والحاكم ٢/٣٥٩ وابن حبان ٤٥ والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٦٤ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وإسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود.

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾، قال: فأخبرَهُم قال: «بينا أنا نائم عَشاء في المسجد الحرام، إذ أتاني آتٍ فأيقظني، فاستيقظتُ فلم أرَ شيئاً، فإذا أنا بكهيئة خيالٍ، فأتبعتُه بَصَري حتى خرجت من المسجد الحرام، فإذا أنا بدابّةٍ أدنى شبهة بدوابكم هذه، بغالكم هذه، مضطرب الأذنين، يقال له: البراقُ. وكانت الأنبياءُ ـ عليهم السلام ـ تركبه قبلي، يَقَعُ حافره عند مَدّ بصره، فركبته. فبينما أنا أسير عليه إذ دعاني داعٍ عن يميني: يا محمد، انظِرْني أسألكَ، يا محمدُ، انظِرْني أسألك. فلم أجبه ولم أقِمْ عليه، فبينما أنا أسير عَليه إذ دَعَاني داع عن يساري: يا محمد، انظِرْني أسألْك، فلم أجبه ولم أقُم عليه. فبينما أنا أسير، إذ أنا بامرأة حاسرةٍ عن ذراعيها، وعليها من كل زينة خلقها الله، فقالت: يا محمد، انظرني أسألك. فلم ألتفت إليها ولم أقُم عليها، حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابّتي بالحَلْقَةِ التي كانت الأنبياءُ تُوثِقُها بها. ثم أتاني جبريل ـ عليه السلام ـ بإناءين: أحدهما خمر، والآخر لَبَن، فشربت اللبن، وتركت الخمرَ، فقال جبريل: أصبت الفطرة، أما إنَّك لو أخذت الخمر غوت أُمّتك. فقلت: الله أكبر، الله أكبر. فقال جبريل: ما رأيتَ في وَجْهِكَ هذا؟ قال: فقلت: بينما أنا أسير، إذ دَعَاني داعٍ عن يميني: يا محمد، انظرني أسألك. فلم أجبه ولم أُقِم عليه. قال: ذاك داعي اليهود، أما إنك لو أجبْته ـ أو: وقفت عليه ـ لتهوّدت أمتُك. قال: وبينما أنا أسير، إذ دعاني داعٍ عن يساري قال: يا محمدُ، انظرني أسألك. فلم ألتفت إليه ولم أُقِم عليه. قال: ذاك داعي النصارى، أما إنكَ لو أجبته لتنصَّرت أمتك. قال: فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها، عليها من كل زينة خَلقها الله تعالى تقول: يا محمد انظِرْني أسألك. فلم أُجبها ولم أقُم عليها. قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبتها أو أقمت عليها، لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة.

قال: ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلّى كل واحد منا ركعتين. ثم أُتيت بالمعراج الذي تَعْرُج عليه أرواح بني آدم، فلم يَرَ الخلائقُ أحسَنَ من المعراج، أما رأيتَ الميّت حين يَشُقُّ بَصَره طامحاً إلى السماءِ، فإنما يَشُقُّ بَصَرَه طامحاً إلى السماء عَجَبُه بالمعراج. قال: فَصَعِدت أنا وجبريل، فإذا أنا بِمَلَكٍ يقال له إسماعيلُ، وهو صاحبُ سماء الدنيا، وبين يديه سبعُون ألفَ مَلَكٍ، مع كل ملك جُنْدُه مائةُ ألفِ مَلَك، قال: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. قال: فاستفتَحَ جبريلُ بابَ السماء، قيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَك؟ قال: محمد. قيل: أو قد بُعِث إليه؟ قال: نعم. فإذا أنا بآدَمَ كهيئَتِهِ يومَ خلقه الله تعالى على صورته، لم يتغيّر منه شيء، فإذا هو تُعْرَض عليه أرواح ذُرّيته المؤمنين، فيقول: روحٌ طيبة ونفسٌ طيبة، اجعلوها في علّيين، ثم تعرض عليه أرواحُ ذريته الفُجّار، فيقول: روحٌ خبيثة ونفسٌ خبيثة، اجعلوها في سِجّين، فقلت: يا جبريلُ، من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم عليه السلام فسلَّمَ عليّ ورحّب بي فقال: مرحباً بالابن الصالح. ثم مضيتُ هُنيّةً، فإذا بِأَخْوِنَةٍ عليها لحم مُشَرَّحُ ليس يَقْرَبها أحدٌ، وإذا أنا بأخْوِنَةٍ أخرى عليها لحم قد أرْوَحَ وأنتَنَ، عندها أناس يأكلون منها، قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمّتِكَ، يتركون الحلال ويأتون الحرام. قال: ثم مَضَيتُ هُنَيّةً فإذا أنا بأقوام بطونُهم أمثالُ البيوت، كُلَّما نَهَضَ أحدُهم خرَّ يقولُ: اللهُمّ، لا تُقِم الساعةَ، قال: وهم على سَابِلَةِ آل فرعون، قال: فتجيءُ السابلةُ فتطَؤُهم، قال: فَسَمِعتُهم يَضِجُّون إلى الله عزّ وجلّ، قال: قلتُ: يا جبريلُ، من هؤلاءِ؟ قال: هؤلاءِ من أُمّتِك ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. قال: ثم مَضَيتُ هُنَيّةً فإذا أنا بأقوام مشافِرُهم[1] كمشافِرِ الإبل، قال فَتُفتَحُ أفواهُهُم ويُلْقَمُون من ذلك الجمر، ثم يخرج من

---

(١) المِشفر للبعير كالشفة للإنسان (أي شفاههم مثل شفاه الإبل).

أسافلهم. فسمعتهم يَضِجُّون إلى الله عزّ وجلّ. فقلتُ: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، قال: ثم مضيتُ هُنَيَّةً فإذا أنا بنساء يُعلَّقن بثُدُيِّهنَّ، فسمِعتُهنَّ يضججن إلى الله عزّ وجلّ، قلت: يا جبريل، من هؤلاء النساء؟ قال: هؤلاء الزناة من أمّتِكَ. قال: ثم مضيتُ هُنَيَّةً فإذا أنا بأقوام يقطع من جُنوبهم اللحمُ، فَيُلْقَمُون، فيُقال له: كُلْ كما كنتَ تأكلُ من لحم أخيك. قلتُ: يا جبريلُ، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمازون من أمتك اللمّازُونَ.

قال: ثم صَعِدْنا إلى السماء الثانية، فإذا أنا بِرَجُلٍ أحسنَ ما خلق الله عزّ وجلّ، قد فَضَل الناسَ بالحسن كالقمر ليلةَ البَدْرِ على سائر الكواكِبِ، قلتُ: يا جبريلُ، من هذا؟ قال: هذا أَخُوكَ يوسفُ ومعه نفر من قومه، فَسَلَّمت عليه، وسَلَّم عليّ. ثم صَعِدتُ إلى السماء الثالثة، فإذا أنا بيحيى وعيسى عليهما السلام، ومعهُما نَفَرٌ من قومهما، فسلمتُ عليهما، وسَلَّمَا عليّ. ثم صَعِدتُ إلى السماءِ الرابعَةِ، فإذا أنا بإدريس ـ عليه السلام ـ قد رفعه الله ـ عزّ وجلّ ـ مكاناً عَلِيّاً، فسلمت عليه، وسَلَّم عليّ. قال: ثم صَعِدتُ إلى السماء الخامسة فإذا بهارون ـ عليه السلام ـ ونصف لحيته بيضاءُ ونصفُها سوداءُ، تكادُ لحيتُه تصيب سُرّته من طولها، قلتُ: يا جبريلُ، من هذا؟ قال: هذا المحبّب في قومه، هذا هارونُ بن عمرانَ ومعه نَفَرٌ من قومه، فسلمتُ عليه، وسَلَّم عليّ. ثم صَعِدتُ إلى السماءِ السَّادِسَةِ، فإذا أنا بموسى بن عمران ـ عليه السلام ـ رجلُ آدمُ كثيرُ الشعر، لو كانَ عليه قميصان لنفَذَ شعره دون القميص، وإذا هُوَ يقولُ: يزعمُ الناس أني أكرمُ على اللّهِ من هذا، بل هذا أكرم على الله تعالى منّي. قال: قلتُ: يا جبريلُ، مَنْ هذا؟ قال: هذا أخوك موسَى بنُ عمران ومعه نَفَرٌ من قومه، فَسَلَّمْتُ عليه، وسلَّم عليّ. ثم صَعِدتُ إلى السماء السابعة، فإذا أنا بأبِينا إبراهيمَ خليلِ الرَّحمن ـ عليه السلام ـ سانداً ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال، قلت: يا جبريلُ، من هذا؟ قال: هذا أبوكَ إبراهيم خليلُ الرحمن ومعه نَفَر من قومه، فسلَّمتُ عليه، وسَلَّم عليّ، وإذا أنا بأمتي شطرين، شطرٌ عليهم ثيابٌ بيضٌ كأنها القراطيس، وشطر عليهم ثياب رُمْدٌ، قال: فدخلتُ البيتَ المعمور، ودَخَل معي الذين عليهم الثياب البيض، وحُجِبَ الآخرون الذين عليهم الثيابُ الرُمْدُ، وهم على خير. فَصَلَّيت أنا ومن مَعِي في البيت المعمور، ثم خرجت أنا ومن معي، قال: والبيتُ المعمورُ يُصلِّي فيه كُلَّ يوم سبعون ألف مَلَك، لا يَعُودُون فيه إلى يوم القيامة. قال: ثم دُفِعْتُ إلى سِدْرَة المنتهى، فإذا كُل ورقة منها تكاد أن تغطّي هذه الأمة، وإذا فيها عينٌ تجري يقال لها: سَلْسَبِيل، فينشقُّ منها نهران، أحدهما: الكوثر، والآخر يقال له: نهرُ الرحمةِ. فاغتسلتُ فيه، فغُفِرَ لي ما تَقَدَّم من ذَنبي وما تأخر. ثم إني دُفِعتَ إلى الجنة، فاستقبلتني جارية، فقلت: لمن أنتِ يا جارية؟ فقالت: لزيد بن حارثة، وإذا أنا بأنهار من ماءٍ غير آسن، وأنهارٍ من لَبَن لم يَتَغيّر طعمُه، وأنهارٍ من خَمْرٍ لذة للشاربين، وأنهارٍ من عَسَل مُصفى، وإذا رُمّانُها كأنه الدِّلاء عِظَماً، وإذا أنا بطيرها كأنها بختيكم هذه، فقال عندها ﷺ: «إن الله تَعَالى قد أعدّ لعباده الصالحين ما لا عين رَأَت، ولا أذنٌ سَمِعَت، ولا خَطَر على قلب بشر. قال: ثم عُرِضَت عليّ النارُ، فإذا فيها غضب الله وزَجْرُه ونِقْمَتُه، لو طُرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها، ثم أُغْلِقَتْ دوني. ثم إني دُفعت إلى سِدْرَة المنتهى، فَتَغَشَّاني، فكان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى، قال: ونَزَل على كل ورقة ملك من الملائكة، قال: وفُرِضَتْ عليّ خمسون صلاةً. وقال: لك بكل حسنة عشر، إذا هَمَمْتَ بالحسنة فلم تَعْمَلها كُتِبَتْ لك حسنةٌ، فإذا عملتها كُتِبت لك عشراً. وإذا هَمَمْتَ بالسيئة فلم تَعْمَلها لم يُكتَب عليك شيء، فإن عملتها كُتِبَتْ عليك سيئةٌ واحدةٌ. ثم دُفِعتُ إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: بِمَ أمرك ربُّك؟ قلت: بخمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله

التخفيفَ لأمتك، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، ومتى لا تُطِيقه تكفُر. فرجعت إلى ربي ـ عز وجل ـ فقلت: يا ربِّ، خَفِّف عن أمتي، فإنها أضعفُ الأُمَم. فوضع عني عشراً، وجعلها أربعين. فما زلتُ أختلف بين موسى ورَبِّي ـ عز وجل ـ، كُلَّما أتيت عليه قال لي مثلَ مَقَالته، حتى رجعتُ إليه فقال لي: بم أُمِرْتَ؟ فقلتُ: أُمِرْتُ بعشر صلوات. قال: ارجع إلى ربك ـ عزّ وجلّ ؛ فاسأله التخفيف لأمتك. فرجعتُ إلى ربي فقلت: أيْ ربّ، خَفِّف عن أمتي فإنها أضعفُ الأمم. فوضَعَ عني خمساً، وجعلها خمساً. فناداني مَلَكٌ عندها: تَمَّمتُ فَرِيضتي، وخَفَّفتُ عن عبادي، وأعطيتهم بكُلِّ حسنة عَشْرَ أمثالِها. ثم رَجَعتُ إلى موسى فقال: بم أُمِرْتَ؟ فقلت: بخمس صلوات. قال: ارجِعْ إلى رَبِّكَ فاسأله التخفيف، فإنه لا يؤوده شيء، فاسأله التخفيفَ لأُمَّتِك. فقلتُ: رجعتُ إلى ربِّي حتى استحييته. ثم أصبح بمكة يخبرهم بالعجائب: إني أَتيتُ البارحة بيتَ المقدس، وعُرِج بي إلى السماء، ورَأيتُ كذا ورأيتُ كذا. فقال أبو جهل ـ يعني ابن هشام ـ: ألا تَعجبُون مما يقول محمد؟ يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدِسِ، ثم أصبح فينا، وأحدُنا يضربُ مَطِيَّته مُصعِدةً شهراً ومُقْفِلةً شهراً، فهذا مَسِيرَةُ شهرين في ليلة واحدة. قال: فأخبرَهم بعيرٍ لقُرَيشٍ: لما كُنتُ في مُصْعَدِي رأيتُها في مكان كذا وكذا، وأنها نَفرت، فلما رَجَعْتُ رأيتها عند العقبة. وأخبرهم بكل رجل وبعيره كذا وكذا، ومتاعه كذا وكذا. فقال أبو جهل: يُخبِرُنا بأشياء. فقال رجلٌ من المشركين: أنا أعلم الناس ببيت المقدس، وكيفَ بناؤه؟ وكيف هيئَتُه؟ وكيف قُربُه من الجَبَل؟ فإن يَكُ محمدُ صادقاً فسأخبركم، وإن يكُ كاذباً فسأخبركم. فجاء ذلك المشركُ فقال: يا محمد، أنا أعلم الناس ببيت المقدسِ، فأخبرني: كيف بناؤه؟ وكيفَ هيئتُه؟ وكيف قربُه من الجبل؟ قال: فَرُفِع لرسولِ الله ﷺ بيتُ المقدس من مقعده، فَنَظَر إليه كَنَظر أحدِنا إلى بيته: بناؤُه كذا وكذا، وهيئتُه كذا وكذا، وقربه من الجبل كذا وكذا. فقال الآخر: صَدَقت. فَرَجَع إلى أصحابه فقال: صدق محمد فيما قال، أو نحو هذا من الكلام[1]. وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جَرِير بطوله، عن محمد بن عبد الأعلى، عن محمد بن ثَور، عن معمر، عن أبي هارون العَبْدي. وعن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزّاق، عن معمر، عن أبي هارون العبدي، به. ورواه أيضاً من حديث محمد بن إسحاق: حدثني رَوح بن القاسم، عن أبي هارون، به نحو سياقه المتقدم. ورواه ابنُ أبي حاتم، عن أبيه، عن أحمدَ بن عَبْدَة، عن أبي عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن أبي هارون العَبْدي، عن أبي سَعيد الخُدَري ـ رضي الله عنه ـ فذكره بسياق طويلٍ حَسَن أنيق، أجودَ مما ساقه غيره، على غرابته وما فيه من النَّكارة. ثم ذكره البيهقي أيضاً من رواية نُوحِ بن قيسٍ الحُدّاني وهُشَيم ومعمر، عن أبي هارون العَبْدِيِّ ـ واسمه عُمارة بن جُوَين ـ وهو مُضعَّفُ عند الأئمة. وإنما سقنا حديثه ها هنا لما في حديثه من الشواهد لغيره ولما رواه البيهقي:

[٤١٦٠] أخبرنا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن، أنبأنا أبو نُعَيم أحمد بن محمد بن إبراهيم البزاز، حدثنا أبو حامد بن بلال، حدثنا أبو الأزهر، حدثنا يزيد بن أبي حَكِيم قال: رأيت في النوم رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، رجل من أمتك يقال له: سفيان الثوري، لا بأس به؟ فقال رسول الله ﷺ: لا بأس به ـ حدثنا عن أبي هارون العَبْدِي، عن أبي سَعِيد الخُدْرِيّ، عنك ليلةَ أسريَ بك أنّك قلتَ: «رأيتُ في

(١) إسناده ضعيف جداً، أخرجه الطبري ٢٢٠٢٣ و ٢٢٠٢٤ والآجري في «الشريعة» ص ٤٢٦، والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٩٠ ـ ٣٩٦، ومداره على عمارة بن جوين أبي هارون العبدي، وهو ضعيف جداً متروك، وكما ذكر ابن كثير في بعض ألفاظ هذا الحديث غرابة ونكارة، ولبعضه الآخر شواهد، والله أعلم.

السماء...»، فحدّثته بالحديث؟ فقال لي: نعم. فقلت له: يا رسول الله، إن ناساً من أمتك يحدثون عنك في السُّرَى بعجائب؟ فقال لي: ذاك حديثُ القُصَّاصِ[(١)].

[٤١٦١] رواية شَدَّاد بن أوس ـ رضي الله عنه: قال الإمام أبو إسماعيلَ محمد بن إسماعيل التِّرمِذيُّ: حدثنا إسحاقُ بن إبراهيم بن العلاء بن الضحّاك الزُّبيدي، حدثنا عمرو بن الحارث، عن عبد الله بن سالم الأشعري، عن محمد بن الوليد بن عامر الزُّبيديِّ، حدثنا الوليد بن عبد الرحمن، عن جُبَير بن نُفَير، حدثنا شَدّادُ بن أَوْسٍ قال: قلنا: يا رسولَ الله، كيف أُسْرِي بك؟ قال: صَلَّيتُ لأصحابي صلاة العتمة بمكة مُعتِماً، قال: فأتاني جبريل عليه السلام بدابة أبيضَ، أو قالَ: بيضاء، فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب. فاستَصْعَبَتْ عليّ، فَرازها بأذنها، ثم حملني عليها، فانطلقتْ تَهْوِي بنا يقع حافرها حيث أَدْرَكَ طَرْفها، حتى بلغنا أرضاً ذاتَ نخل، فأنزلني فقال: صَلِّ. فصليتُ، ثم ركبنا فقال: أتدري أين صَلَّيتَ؟ قلت: الله أعلم. قال: صليتَ بيثربَ، صليت بطَيْبَة. فانطلقتْ تَهْوِي بنا يقع حافرها حيثُ أَدْرَكَ طَرْفُها. ثم بلغنا أرضاً فقال: انزل فنزلتُ، ثم قال: صَلِّ. فصليتُ، ثم ركبناً فقال: أتدرِي أين صَلَّيتَ؟ قلت: الله أعلمُ. قال: صَلَّيت بمدين، صليت عند شَجرة موسى ـ عليه السلام ـ. ثم انطلقت تَهْوِي بنا يقع حافرها حيث أدرك طَرْفُها، ثم بلغنا أرضاً، بَدَت لنا قصور، فقال: انزل. فنزلتُ، فقال: صَلِّ. فصليتُ، ثم رَكِبْنَا فقال: أَتَدْرِي أين صليتَ؟ قلتُ: الله أعلم. قال: صَلَّيت ببيت لحم حيثُ وُلِدَ عيسى المسيحُ ابن مَرْيَم. ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينةَ من بابها اليماني، فأتى قبلةَ المسجدِ، فَرَبط فيه دابّته، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، فصليتُ من المسجد حيث شاء الله، وأخذني من العطش أشدُّ ما أخذني، فَأُتِيتُ بإناءين، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، أُرسِلَ إليّ بهما جميعاً، فَعَدلْتُ بينهما، ثم هداني الله تعالى، فأخذت اللَّبَن فَشَرِبْتُ حتى قرعْتُ به جَبِيني، وبين يدي شيخ متكىء، على مَثْوَاة له، فقال: أخذ صاحبك الفِطْرَةَ، إنه ليُهْدَى. ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فيه المدينة، فإذا جَهَنَّم تنكشِفُ عن مثل الرَّوابي، قلت: يا رسول الله، كيف وجدتَها؟ قال: مثل الحَمَّة السَّخِينَة، ثم انصرفَ بي، فَمَررنا بِعِير لقُرِيش بمكان كذا وكذا، قد أَضَلُّوا بعيراً لهم قد جَمَعه فلان، فسلمت عليهم، فقال بعضُهم: هذا صوتُ محمد. ثم أتيت أصحابي قبل الصُّبح بمكة، فأتاني أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا رسولَ الله، أين كُنتَ الليلة؟ فقد التمستك في مَنَامِك. فقَال: عَلِمْتَ أني أتيتُ بيتَ المقدِسِ الليلة؟ فقال: يا رسول الله، إنه مسيرةُ شهرٍ فَصِفْه لي. قال: فَفُتِح لي صراطٌ كأني أنظر إليه، لا يسألني عن شَيءٍ إلا أنبأته عنه. قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أشهد أنك رسول الله. فقال المشركون: انظروا إلى ابن أبي كبشة، يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة. قال: فقال: إن من آيةِ ما أقولُ لكم أني مَرَرْتُ بعير لكم بمكان كذا وكذا، قد أَضَلُّوا بعيراً لهم، فَجَمَعه فلان، وَإِنَّ مَسِيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا، ويأتونَكم يومَ كذا وكذا، يَقدُمهم جَمَلٌ آدم، عليه مِسْحٌ أسود وغِرَارتان سوداوان. فلما كان ذلك اليومُ أشرفَ الناسُ ينظرون، حتى كان قريبٌ من نصف النهار، حتى أقبلت العِيرُ يقدُمُهم ذلك الجملُ، الذي وَصَفه رسولُ الله ﷺ[(٢)]. هكذا رواه البيهقي من طريقين، عن أبي إسماعيل الترمذي، به. ثم

---

(١) ذكره البيهقي ٢/ ٤٠٥ إثر الحديث المتقدم مستدلاً به على عدم صحة الحديث المتقدم.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦ والطبراني في «الكبير ٧١٤٢ وقال البيهقي: هذا إسناد صحيح. وذكره الهيثمي في «المجمع» ١/ ٧٣ ـ ٧٤ وقال: وفيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء وثقه يحيى بن معين وضعفه النسائي اهـ. وضعفه أبو داود ومحمد بن عوف الطائي، لكن للحديث شواهد.

قال بعد تمامه: «هذا إسناد صحيح، وروى ذلك مفرقاً في أحاديث غيره، ونحن نذكُرُ من ذلك إن شاءَ الله ما حَضَرنا». ثم ساق أحاديثَ كثيرةً في الإسراء كالشاهد لهذا الحديث. وقد روى هذا الحديثَ عن «شدّاد بن أوس» بطوله الإمامُ أبو محمد عبدُ الرحمن بنُ أبي حاتم في تفسيره، عن أبيه، عن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزُّبيدِيّ، به. ولا شَكَّ أنَّ هذا الحديث ـ أعني الحديث المرويَّ عن شَدَّاد بن أوس ـ مشتملٌ على أشياءَ منها ما هو صحيحٌ كما ذكره البيهقيُّ، ومنها ما هو مُنْكَر، كالصلاة في بيت لَحْمٍ، وسُؤَالِ الصدِّيقِ ـ رضي الله عنه ـ عن نَعْتِ بيت المقدس، وغير ذلك، والله أعلم.

[٤١٦٢] روايةُ عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جريرٌ، عن قابوسَ، عن أبيه قال: حَدَّثنا ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ليلةَ أسريَ بنبيِّ الله ﷺ دخل الجنة، فَسَمِعَ في جانبها وَجْساً فقال: يا جبريلُ، ما هذا. قال: هذا بلالٌ المؤذن. فقال رسول الله ﷺ حين جاء إلى الناس: قد أفلح بلال، قد رأيت له كذا وكذا. قال: فلقيه موسى ـ عليه السلام ـ فَرَحَّب به، وقال: مرحباً بالنبيِّ الأميِّ، قال: وهو رَجُلٌ آدم طويل، سَبْط شعرُه مع أذنيه أو فوقهما، فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا موسى. قال: فمضى، فلقيه شيخٌ جليل مُتهيِّبٌ فرحَّب به وسلَّم عليه، وكلُّهم يُسَلِّم عليه، قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم عليه السلام. قال: ونظر في النار، فإذا قومٌ يأكلون الجِيَفَ، قال: مَن هؤلاء يا جبريلُ؟ قال: هؤلاءِ الذينَ يأكلون لحومَ الناس. ورأى رجلاً أحمَرَ أزرَقَ جداً، قال: مَن هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا عاقِرُ الناقةِ. فلما أتى النبي ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي، فالتفَتَ ثم التَفَت فإذا النبيُّونَ أجمعون يُصَلُّون معه. فلما انصرف جيء بقَدَحين، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، في أحدهما لبن وفي الآخر عَسَلٌ، فأخذ اللبن فَشَرِب منه، فقال الذي كان معه القدح: أَصَبْتَ الفِطْرَةَ[1]. إسناد صحيح، ولم يخرجوه.

[٤١٦٣] طريق أخرى، وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ثابت أبو زيد، حدثنا هلال، حَدَّثني عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أُسرِيَ بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فَحَدَّثَهم بمسيره وبعَلاَمَة بيت المقدس وبعيرِهم، فقال ناس: نحنُ لا نُصدِّق محمداً بما يقول. فارتدُّوا كفاراً، فضرب الله رقابهم مع أبي جهل، ـ قَبَّحهم الله ـ. وقال أبو جهل ـ قبحه الله ـ يُخَوِّفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تَمراً وزُبداً فَتَزَقَّموا. ورأى الدجالَ في صورته رُؤيا عين ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم ـ عليهم السلام ـ فَسُئِل النبي ﷺ عن الدجال، فقال: رأيته فَيلمَانياً أَقْمَر هِجَاناً، إحدى عينيه قائمةٌ كأنها كوكب دُرّي، كأن شعر رَأسِه أغصانُ شَجَرةٍ. ورأيت عيسى أبيض، جَعْدَ الرأس، حديد البصر، مبَطّن الخَلْق. ورأيت موسى ـ عليه السلام ـ أسحمَ آدَمَ، كثير الشعر، شديد الخَلْق. ونظرت إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلم أنظر إلى أرب منه إلا نظرت إليه مني، حتى كأنه صاحبكم. قال جبريل: سَلِّم على مالك. فسلمتُ عليه»[2]. ورواه النسائي من حديث أبي زيد ثابت بن يزيد، عن هلال ـ وهو ابن خَبَّاب ـ به، وهو إسنادٌ صَحِيحٌ.

[٤١٦٤] طريق أخرى، وقال البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر الشافعي، أنبأنا

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٥٧، وقال الهيثمي في «المجمع» ٩/ ٣٠٠: ورجاله رجال الصحيح غير قابوس، وقد وثق وفيه ضعف. وصحح إسناده ابن كثير، والصواب أن قابوس غير قوي. وانظر ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ١/ ٣٧٤ والنسائي في «الكبرى» ١١٢٨٣ وأبو يعلى ٢٧٢٠.

إسحاق بن الحسن، حدثنا الحُسين بن محمد، حدثنا شيبانُ، عن قتادةَ، عن أبي العالية قال: حدثنا ابنُ عَمِّ نبيكم ﷺ ابن عباس ـ رَضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: رأيتُ ليلةَ أسريَ بي موسى بنَ عمران، رَجُلاً طُوالاً جَعْداً، كأنه من رجال شَنُوءةَ، ورأيت عيسى ابنَ مَرْيَم، مربوع الخَلْقِ، إلىٰ الحمرة والبَيَاض، سَبْطَ الرأس. وأُرِيَ مالكاً خازن جَهَنَّمَ والدجال، في آيات أراهُنَّ الله إيّاه، قال: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ [السجدة: ٢٣] ـ فكان قتادةُ يُفَسِّرها: أن نبيَّ الله ﷺ قد لقي موسى ـ عليه السلام ـ ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء، ٢، والسجدة: ٢٣]، قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل[١]. رواه مسلم في الصحيح عن عَبْدِ بن حُمَيد، عن يُونُس بن مُحمَّد، عن شيبانَ، وأخرجاه من حديث شعبة، عن قتادة مختصراً.

[٤١٦٥] طريقٌ أخرى، وقال البيهقيُّ: أخبرنا علي بن أحمد بن عَبْدان، أنبأنا أحمد بن عُبَيد الصَّفّار، حدثنا دُبَيس المُعَدِّلُ، حدثنا عَفّان قال: حدثنا حَمّاد بن سَلَمة، عن عطاءِ بن السّائبِ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ اللّهِ ﷺ: لما أُسْرِي بي مرّت بي رائحةٌ طَيِّبةٌ، فقلت: ما هذه الرائحةُ؟ قالوا: ماشِطةُ بنتِ فِرْعَون وأولادُها، سقط مُشطها من يدها، فقالت: باسم الله. فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: رَبِّي وربُّكَ وربُّ أبيك. قالت: أَوَلَكِ ربٌّ غيرُ أبي؟ قالت: نَعَم، رَبِّي وربُّك وربُّ أبيك الله. قال: فدعاها فقال: أَلَكِ ربٌّ غيري؟ قالت: نعم، رَبِّي وربُّك الله عَزَّ وجلّ. قال: فأمر بِنُقرَةٍ من نحاس فَأُحْمِيَتْ، ثم أَمَر بها أَنْ تُلْقَى فيها، قالت: إن لي إليك حاجةً. قال: ما هي؟ قالت: تَجمَعُ عظامي وعظامَ وَلَدِي في موضع. قال: ذاك لك، لما لَكِ علينا من الحقِّ. قال: فأمر بهم فَأُلقُوا واحداً واحداً، حتى بَلَغَ رَضِيعاً فيهم، فقال: قَعِي يا أُمّاهُ ولا تَقَاعَسِي، فإنّا على الحقّ. قال: وتَكَلَّم أربعةٌ وهم صغارٌ: هذا، وشاهدُ يوسف، وصاحِبُ جُريج، وعيسى ابن مَرْيَم عليه السلام. إسناد لا بأس به[٢]، ولم يخرجوه.

[٤١٦٦] طريق أخرى، وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وَرَوْحُ ـ المَعْنَى ـ قالا: حدثنا عوف عن زُرارة بن أَوْفَى، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: لما كان ليلةَ أُسريَ بي فَأَصبحْتُ بمكة، فَظِعْتُ بأمري وعرفتُ أن الناسَ مُكَذِّبِيَّ. فقعد معتزلاً حزيناً، فمر به عدو الله أبو جهل ـ قبحه الله ـ فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزىء: هل كانَ من شيءٍ؟ فقال له رسولُ الله ﷺ: نعم. قال: وما هو؟ قال: إني أُسرِيَ بي الليلة. قال: إلى أينَ؟ قال: إلى بيتِ المَقْدِس. قال: ثم أَصبَحتَ بين ظهرانينا؟. قال: نعم. قال: فلم يُرِه أنه يكذبه مخافةَ أن يَجْحَدَه الحَديثَ إن دعا قومه إليه. فقال: أرأيتَ إن دَعَوتُ قومَكَ إليك أتحدِّثُهم بما حدثتني؟ فقال رسولُ الله ﷺ: نعم. فقال: هيا معشَرَ بني كعب بن لُؤَي. قال: فَانْفَضَتْ إليه المجالسُ وجاءوا حتى جلسوا إليهما. قال: حَدِّثْ قومَكَ بما حَدَّثتني. فقال رسول الله ﷺ إنّي أُسرِيَ بي الليلةَ، فقالوا: إلى أينَ؟ قال: إلى بيتِ المقدس. قالوا: ثم أصبحتَ بين ظهرانينا؟. قال: نعم. قال: فَمن بين مُصَفِّقٍ، ومن بين واضع يدَه على رأسه مُتعجِّباً للكذب ـ زَعَم ـ قالوا: وتستطيعُ أن تنعَتَ المسجِدَ؟ ـ وفي القوم مَن قد سافر إلى ذلكَ البلد ورأى المسجد ـ قال رسول الله ﷺ: فذهبتُ أنعتُ، فما زلتُ أنعتُ حتى التبسَ عليَّ بعضُ النعت ـ قال: فجيءَ بالمسجدِ وأنا أنظرُ إليه، حتى وُضِع دون دار

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٦٥ ح/ ٢٦٧ والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٨٦. وأخرجه البخاري ٣٣٩٦ ومسلم ١٦٥ من حديث ابن عباس مختصراً.

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله! والصواب أن إسناده ضعيف، أخرجه البيهقي ٢/ ٢٨٩ وعطاء بن السائب اختلط بأخَرَه، ثم إن عجزه موقوف من قول ابن عباس، وتقدم الكلام عليه في سورة يوسف: ٢٦.

عقيل ـ أو: عقال ـ فنعتّه، وأنا أنظر إليه ـ قال: وكان مع هذا نعت لم أحَفَظْهُ ـ يقول عوف ـ قال: فقال القومُ: أما النعتُ فوالله لقد أصابَ فيه»(١). وأخرجه النسائي من حديث عوف بن أبي جَميلة، وهو الأعرابيُّ، به. ورواه البيهقيّ من حديثِ النَّضرِ بن شميل وهوذَةَ، عن عوف، وهو ابن أبي جَميلَةَ الأعرابي، أحدِ الأئمةِ الثّقاتِ، به.

[٤١٦٧] روايةُ عبدِ الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: قال الحافظُ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أَبُو عبدِ الله الحافظِ، أخبرنا أبو عبد الله محمدُ بن يَعقُوبَ، حدثنا السَّري بن خُزَيمة، حدثنا يُوسُفَ بن بُهلُولٍ، حدثنا عبد الله بن نُمير، عن مالك بن مِغْوَلٍ، عن الزُّبَير بن عَدِيّ، عن طلحة بن مُصرِّفٍ، عن مُرَّة الهَمداني، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ فانتهى إلى سِدْرَةِ المنتهى، وهي في السماء السادِسَةِ، وإليها ينتهي ما يُصعَد به حتى يقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَط به من فوقها حتى يقبض منها، ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝﴾، قال: غَشِيها فراش من ذهب، وأعطي رسول الله ﷺ الصلوات الخمس، وخواتِيمَ سورةِ البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله المُقْحِمَاتُ، يعني الكبائر(٢). ورواه مسلمٌ في صحيحه، عن محمد بن عبد الله بن نُمَير وزُهَير بن حرب، كلاهما عن عبد الله بن نُمَير، به. ثم قال البيهقي: «وهذا الذي ذكره عبدُ الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ طَرَفٌ من حديث المعراج، وقد رَوَاه أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبي ﷺ، ثم عن أبي ذَرٍّ، عن النبي ﷺ، ثم رواه مَرَّةً مرسلاً دون ذكرهما». ثم إن البيهقي ساق الأحاديث الثلاثة كما تَقَدّم.

[٤١٦٨] قلت: وقد رُوِي عن ابن مسعود، ـ رضي الله عنه ـ بأبسط من هذا، وفيه غرابة؛ وذلك فيما رواه الحسن بن عَرَفة في جزئه المشهور: حدثنا مَرْوان بن معاوية، عن قَنَان بنُ عبد الله النُّهمي، حدثنا أبو ظَبْيَان الجَنْبيّ قال: كُنَّا جُلوساً عند أبي عُبَيدة بن عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، وهما جالسان، فقال محمد بن سعد لأبي عُبَيدة: حَدِّثنا عن أبيك ليلةَ أسري بمحمد ﷺ. فقال أبو عُبَيدة: لا، بل حَدِّثنا أنت عن أبيك. فقال محمد: لو سألتني قبل أن أسألك لفعلتُ. قال: فأنشأ أبو عُبَيدة يحدّث ـ يعني عن أبيه ـ كما سُئِل، قال: قال رسولُ الله ﷺ: أتاني جبريلُ بدابة فوقَ الحمار ودُونَ البَغْلِ، فحملني عليه، ثم انطلق يَهْوِي بنا كُلَّما صَعِد عَقَبَةً استوت رجلاه كذلك مع يديه، وإذا هَبَط استوت يداه مع رجليه، حتى مَرَرنا برجل طُوَالَ سَبْطِ آدَمَ، كَأَنّه من رجالِ أزد شَنُوءَةَ، وهو يقولُ ـ فَرَفَعَ صَوْتَهُ ـ: أكرمتَهُ وفَضّلته. قال: فَدَفعنا إليه فسلّمنا عليه، فردّ السلام، فقال: من هذا معكَ يا جبريل؟ قال: هذا أحمدُ. قال: مرحباً بالنبيِّ الأمي العربي، الذي بَلَّغ رسالة رَبِّه ونصح لأُمّتِهِ. قال: ثم اندفعنا فقلت: من هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا موسى بن عمران. قال: قلتُ: ومن يعاتب؟ قال: يُعاتِبُ ربَّه فيك. قلت: وَيَرفَع صَوتَه على ربِّه؟. قال: إن الله ـ عزّ وجلّ ـ قد عرف له حِدَّته. قال: ثم اندفعنا حتى مَرَرنا بشجرة كأن ثمرها السُّرجُ تحتها شيخ وعياله، قال: فقال لي جبريل: اعمِدْ إلى أبيك إبراهيم، فَدَفَعنا إليه فَسلَّمنا عليه فردَّ السلام، فقال إبراهيم: من هذا مَعَك يا جبريلُ؟ قال: هذا ابنُك أحمَدُ. قال: فقال: مرحباً بالنبيِّ الأميِّ الذي بَلَّغ رسالة ربه ونَصَح لأمته، يا بني، إنك لاقٍ ربَّك الليلة، وإن أمتك آخرُ الأمم وأضعَفُها، فإن استطعت أن تكونَ حاجتك

---

(١) صحيح. أخرجه النسائي في «الكبرى» ١١٢٨٥ وأحمد ١/ ٣٠٩ والطبراني في «الأوسط» ٢٤٦٨ والبيهقي ٢/٣٦٣. وذكره الهيثمي في «المجمع» ١/ ٦٤ ـ ٦٥ وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٣ والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

أو جُلُها في أُمّتِك فافعل. قال: ثم انْدَفَعْنَا حتى انتهينا إلى المسجد الأقصى، فنزلت فربطت الدابة بالحَلْقَةِ التي في باب المسجد التي كانت الأنبياء ـ عليهم السلام ـ تَرْبِط بها. ثم دخلتُ المسجدَ فعرفت النبيِّين من بين قائم وراكع وساجد، قال: ثم أُتِيتُ بكأسين من عَسَل ولبن، فأخذت اللَّبن فَشَرِبْتُ، فَضَرب جبريلُ ـ عليه السلام ـ مَنْكِبي وقال: أصبتَ الفطرة وربِّ محمد. قال: ثم أُقِيمت الصلاة فَأَممتُهم، ثم انصرفنا فأقبلنا». إسنادٌ غَريبٌ ولم يُخرِجُوه، فيه من الغَرَائِبِ: سؤالُ الأنبياء عنه ـ عليه السلام ـ ابتداءً، ثم سُؤَاله عنهم بعد انصرافه. والمشهور في الصحاح كما تقدم: أنَّ جبريل ـ عليه السلام ـ كان يُعْلِمُه بهم أولاً ليسلِّم عليهم سلامَ مَعْرِفَةٍ. وفيه أنه اجتمع بالأنبياء ـ عليهم السلام ـ قبل دخوله المسجدَ، والصحيحُ أنه إنما اجتمع بهم في السمٰوات، ثم نزل إلى بيتِ المقدس ثانياً وهم معه، وصَلَّى بهم فيه، ثم رَكِبَ البُرَاقَ وكَرَّ راجعاً إلى مكة[١]، والله أعلم.

[٤١٦٩] طريق أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا هشَيم، أخبرنا العَوّام، عن جَبَلة بن سُحَيم، عن مُؤثِر بن عَفَازَةَ، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: لقيتُ ليلةَ أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ فتذاكروا أمر الساعة، قال: فَرَدُّوا أمرهم إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال: لا عِلْمَ لي بها. فَرَدُّوا أمرهم إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: لا عِلْمَ لي بها. فَرَدُّوا أمرهم إلى عيسى ـ عليه السلام ـ فقال: أما وَجْبَتُها فلا يعلم بها أحدٌ إلا الله عزّ وجلّ، وفيما عَهِد إليَّ رَبِّي أنَّ الدجّال خارج، قال: ومعي قضيبان، فإذا رآني ذابَ كما يَذُوب الرَّصاصُ، قال: فيهلكه الله إذا رآني، حتى إن الحجَر والشجَر يقول: «يا مسلمُ، إن تحتي كافراً، فتعال فاقتله»، قال: فَيُهلِكهم الله، ثم يرجعُ الناسُ إلى بلادِهم وأوطانهم، قال: فعند ذلك يخرُج يأجوجُ ومأجوجُ وهم من كل حَدَب ينسلون، فيطئون بلادَهم، فلا يؤتونَ على شيءٍ إلا أهلَكُوه. ولا يمرّون على ماء إلا شَربوه، قال: ثم يرجع الناس إليّ فيشكونهم، فأدعو الله عليهم، فَيُهلكُهم ويُميتُهم، حتى تَجْوَى الأرض من نَتْن ريحهم ـ أي: تُنْتِنُ ـ قال: فَيُنزِل الله المطر، فَتُجْرَفُ أجسادُهم حتى يَقْذِفَهم في البحر. ففيما عَهد إليّ رَبيّ أنّ ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المُتِمّ، لا يدري أهلها متى تفجَؤُهم بولادها ليلاً أو نهاراً[٢]. وأخرجه ابنُ ماجه، عن بُنْدَارٍ، عن يزيدَ بنِ هارونَ، عن العَوّام بن حَوْشَبٍ.

[٤١٧٠] روايةُ عبد الرحمن بن قُرْط ـ رضي الله عنه ـ أخي عبد الله بن قُرْطٍ الثُّمالي: قال سعيد بن منصور: حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة، حدثني عُروَةُ بن رُويم، عن عبدِ الرحمن بن قُرْطٍ: أن رسول الله ﷺ ليلةَ أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بين زَمْزَمَ والمقام، جبريلُ عن يمينه وميكائيلُ عن يساره، فطارا به حتى بلغ السموات العُلَى. فلما رَجَع قال: سمعت تَسْبيحاً في السمٰوات العُلَى مع تسبيح كَثِيرٍ، سَبّحتِ السمٰوات العُلَى من ذي المهابة مُشْفِقَاتٍ من ذي العلوّ بما علاَ، سبحان العَليِّ الأعلى، سبحانه وتعالى. ونذكرُ هذا الحديث عند قوله تعالى من هذه السورة: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[٣] [الإسراء: ٤٤]. . . الآية.

---

(١) فيه إرسال بين أبي عبيدة وأبيه ابن مسعود، وفيه غرابة لكن لأكثر الحديث شواهد، وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٠٨١ وأحمد ١/ ٣٧٥ وقال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، ومؤثر بن عفازة ذكره ابن حبان في «الثقات»، وباقي رجال الإسناد ثقات. وصححه الحاكم ٤/ ٤٨٨ ووافقه الذهبي.

(٣) وسيأتي الحديث فيها حيث نُخرجه.

[٤١٧١] روايةُ عُمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أسود بن عامر، حَدَّثنا حماد بن سلمة، عن أبي سنان، عن عُبَيدِ بن آدَمَ وأبي مَرْيَمَ وأبي شعيب: أن عُمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ؛ كان بالجابية، فذكر فتح بيت المقدس ـ قال: قال أبو سَلَمة: فحدَّثني أبو سنان، عن عُبَيد بن آدم قال: سَمِعتُ عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول لكعب: أين تَرَى أن أُصلِّي؟ فقال: إن أخذت عَنّي صَلَّيتَ خَلْفَ الصخرة، فكانت القدس كلُّها بين يديك. فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: ضاهيتَ اليهودية، ولكن أصلِّي حيث صَلّى رسولُ الله ﷺ فتقدم إلى القبلة فصلّى، ثم جاء فَبَسط رداءه، وكَنَس الكُناسَةَ في رِدَائه، وكَنَس الناس»[١]. فلم يُعظِّم الصخرة تعظيماً يُصَلِّي وراءها وهي بين يديه، كما أشار به كعبُ الأحبار، وهو من قوم يعظمونها حتى جَعَلوها قبلتهم. ولكن مَنَّ الله عليه بالإسلام فهُدِيَ إلى الحقّ. ولهذا لما أشار بذلك قال له أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ: «ضاهيتَ اليهودية»، ولا أهانها إهانةَ النصارى الذين كانوا قد جعلوها مَزْبلة من أجل أنها قبلَةِ اليهود، ولكن أماط [عنها] الأذى، وكنس عنها الكُناسة بِردائِهِ.

[٤١٧٢] وهذا شبيه بما جاء في صحيح مسلمٍ، عن أبي مَرْثَدِ الغَنَوي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها»[٢].

[٤١٧٣] رواية أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وهي مُطَوَّلة جداً، وفيها غَرابةٌ: قال الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير «سورة سبحان»: حدثنا عليّ بن سهل، حدثنا حجاج، حدثنا أبو جعفر الرازيّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية الرِّياحي، عن أبي هريرة ـ أو غيره ـ شك أبو جعفر ـ في قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾، قال: جاء جبريل ـ عليه السلام ـ إلى النبي ﷺ ومعه ميكائيل، فقال جبريلُ لميكائيلَ: ائتني بطَسْتٍ من ماء زمزم، كيما أُطهِّرَ قَلْبَه وأشرَحَ له صَدْرَه. قال: فَشقّ عنه بطنه فغسله ثلاثَ مرات. واختلفَ إليه ميكائيلُ بثَلاثِ طِسَاسٍ من ماءِ زَمْزم، فشرح صدره ونزع ما كان فيه من غِلّ، وملأه حلماً وعلماً، وإيماناً ويقيناً وإسلاماً، وختم بين كتفيه بخاتَم النبوة. ثم أتاه بفرس فحَمَله عليه، كلُّ خَطوة منه مُنتِهى بَصَرِهِ ـ أو: أقصى بَصَره ـ قال: فسار وسار معه جبريلُ ـ عليه السلام ـ قال: فأتى على قَوم يَزرَعون في يوم ويحصدون في يوم، كُلّما حصدوا عاد كما كان، فقال رسول الله ﷺ: يا جبريلُ، ما هذا؟ قال: هؤلاءِ المجاهدونَ في سبيل الله، تُضاعَف لهم الحسنةُ بسبعمائةِ ضِعْفٍ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه، وهو خيرُ الرازقين. ثم أتى على قوم تُرْضَخُ رؤوسُهم بالصخر، كُلّما رُضِخَت عادت كما كانت، ولا يُفتَّر عنهم من ذلك شيءٌ، فقال: ما هؤلاءِ يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء الذين تَتَثاقل رؤوسُهم عن الصلاةِ المكتُوبَةِ. ثم أَتى على قَوم على أقبالهم رِقَاعٌ وعلى أدبارهم رِقَاعٌ، يَسْرَحون كما تَسْرَح الإبلُ والنَّعم، ويأكُلون الضَّريعَ والزقومُ ورَضْفَ جهنّم وحجارَتها، قال: ما هؤلاءِ يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء الذين لا يُؤَدُّون صَدَقاتِ أموالهم، وما ظَلَمهم الله شيئاً، وما الله بظلام للعبيد. ثم أَتى على قَوْم بين أيديهم لحمٌ نَضِيج في قِدْرٍ، ولحمٌ آخرُ نيْءٌ في قِدْرٍ خبيث، فجعلوا يأكُلون مَن النَّيء الخبيث ويَدَعُونَ النَّضِيج الطيب، فقال: ما هؤلاء يا جبريلُ؟ فقالَ: هذا الرجلُ من أمتك، تكون عنده المرأة الحلال الطيب، فيأتي امرأةً خبيثةً فيبيتُ عندها حتى يُصبحَ، والمرأة تقومُ من عند زَوْجِها حَلالاً طيباً، فتأتي رجلاً خبيثاً فَتَبِيتُ عنده حتى تُصبحَ. قال: ثم أَتى على خشبةٍ على

(١) أخرجه أحمد ٣٨/١ ح ٢٦٣ وإسناده ضعيف لضعف أبي سنان ـ عيسى بن سنان ـ وشيخه عبيد مجهول.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٩٧٢ والترمذي ١٠٥١ وأبو داود ٣٢٢٩ وأحمد ٤/ ١٣٥ وابن حبان ٢٣٢٠.

الطريق، لا يمرُّ بها ثوب إلا شَقَّته، ولا شيء إلا خرقته، قال: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا مثل أقوام من أمتك، يقعدُون على الطريق فيقطعونه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٨٦]. قال: ثم أتى على رجل قد جمعَ حُزْمة حطب عَظِيمة لا يستطيعُ حَمْلها، وهو يَزيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الرجلُ من أمتك يكون عليه أماناتُ الناس لا يقدر على أدائِها، وهو يُريد أن يَحْمِلَ عليها. ثم أتى على قوم تُقرَضُ ألسنتُهم وشفاهُهم بمقاريضَ من حديد، كُلَّما قُرِضت عادت كما كانت، لا يُفَتَّر عنهم من ذلك شيءٌ، قال: ما هؤلاءِ يا جبريلُ؟ فقال: هؤلاء خطباء الفتنة. ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثورٌ عظيم، فجعل الثورُ يريد أن يرجع من حيث خَرَج، فلا يستطيعُ فقال: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا الرجلُ يتكلّم بالكلمة العظيمة، ثم يندمَ عليها فلا يستطيع أن يردَّها. ثم أتى على وادٍ فوجَدَ ريحاً طيبة باردة، وريحَ مِسْكٍ، وسَمِع صوتاً، فقال: يا جبريلُ، ما هذه الريحُ الطيِّبة الباردةُ؟ وما هذا المسكُ؟ وما هذا الصوت؟ قال: هذا صوتُ الجنةِ، تقول: يا ربِّ، ائتني بما وعدتني فقد كَثُرت غُرَفي، وإستبرقي وحَريري وسُندُسي وعبقريّي، ولُؤلُؤي ومَرْجَاني، وفِضّتي وذَهَبي، وأكوابي وصحافي وأباريقي ومراكبي، وعَسَلي ومائي ولبني وخمري، فآتني ما وعدتني. فقال: لك كلُّ مسلم ومسلمة، ومُؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبِرُسُلي وعَمِل صالحاً ولم يُشرِكْ بي، ولم يَتَّخِذَ من دوني أنداداً. ومن خَشِيني فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني جزيته، ومن توكّل عليَّ كفيته، إني أنا الله، لا إلهَ إلا أنا، لا أُخلِفُ الميعادَ، وقد أفلَحَ المؤمنونَ، وتبارك الله أحسنُ الخالقين. قالت: قد رَضِيتُ. قال: ثم أتى على وادٍ فَسَمِع صوتاً منكراً، ووَجد ريحاً مُنْتِنَةً، فقال: ما هذه الريحُ يا جبريلُ؟ وما هذا الصوت؟ فقال: هذا صوتُ جهنَّمَ، تقول: يا ربِّ، آتني ما وعدتني، فقد كَثُرت سلاسلي وأغلالي، وسَعِيري وحَميمي، وضَريعي وغُسّاقي وعذابي، وقد بَعُدَ قَعْري واشتدَّ حرِّي، فآتني ما وَعَدْتَني. فقال: لك كلُّ مُشْرِك ومُشْرِكة، وكافِر وكافرةٍ، وكلُّ خبيثٍ وخبيثةٍ. وَكُلُّ جَبّار لا يؤمن بيوم الحساب. قالت: قد رَضِيتُ.

قال: ثم سار حتى أتى بيت المقدس، فنزلَ فَرَبَطَ فَرَسه إلى صَخْرَةٍ، ثم دخَلَ فصلى مع الملائكة، فلما قُضِيتِ الصلاةُ قالوا: يا جبريلُ، من هذا معك؟ قال: محمدٌ ﷺ قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حَيّاه الله من أخٍ ومن خليفةٍ، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيءُ جاءَ. قال: ثم لقي أرواحَ الأنبياء ـ عليهم السلامَ ـ فأثنوا على رَبِّهم، فقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وأعطاني مُلْكاً عظيماً، وجعلني أمّة قانتاً يُؤتَمّ بي، وأنقذني من النار، وَجَعلها عَلَيَّ برداً وسلاماً. ثم إن موسى ـ عليه السلام ـ أثنى على ربِّه ـ عزّ وجلّ ـ فقال: الحمدُ لله الذي كَلَّمني تكليماً، وجَعَلَ هلاكَ آل فرعون ونجاةَ بني إسرائيل على يديَّ، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون. ثم إن داود ـ عليه السلام ـ أثنى على رَبِّه ـ عزّ وجلّ ـ فقال: الحمد لله الذي جعل لي مُلكاً عَظِيماً، وعَلَّمني الزبور، وألان لي الحديدَ، وسخَّر لي الجبالَ يُسَبِّحْن والطير، وأعطاني الحكمةَ وفَصْلَ الخِطَابِ. ثم إن سليمان ـ عليه السلام ـ أثنى على ربه ـ عزّ وجلّ ـ فقال: الحمدُ لله الذي سخَّر لي الرياح، وسخَّر لي الشياطين يعملون لي ما شئتُ من محاريبَ وتماثيلَ، وجفانٍ كالجَوَابي وقُدُور راسياتٍ، وعَلَّمني مَنطِق الطير، وآتاني من كل شيء فضلاً، وسَخَّر لي جُنودَ الشياطين والإنس، والطير، وفَضَّلني على كثيرٍ من عبادِهِ المؤمنين، وآتاني ملكاً عظيماً لا يَنبغي لأحدٍ من بَعْدِي، وجَعَل ملكي ملكاً طيباً ليس فيه حساب. ثم إن عيسى ـ عليه السلام ـ أثنى على ربِّه ـ عزّ وجلّ ـ فقال: الحمدُ لله الذي جَعَلني كلمتَه، وجعل مَثَلي مَثَل آدم، خَلَقه من تراب ثم قال له: كن، فيكونُ. وعَلَّمني الكتابَ والحكمةَ والتوراة والإنجيل، وجَعَلَني أخلُق من الطين كهيئةِ الطير فأنفخُ فيه فيكون طيراً

بإذن الله، وجَعَلني أُبرِىءُ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله، ورفعني وطَهَّرني، وأعاذني وأُمّي من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطانِ علينا سبيلٌ. قال: ثم إن محمداً رسول الله ﷺ أثنى على ربه ـ عزّوجلّ ـ فقال: كُلُكم أثنى على رَبِّه، وإنّي مُثْنٍ على ربي ـ عزّ وجلّ ـ فقال: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافَّةً للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليّ الفرقان فيه بيان لكلِّ شيء، وجعل أمتي خَيْرَ أمة أُخرِجَت للناس، وجعل أُمّتي أمةً وسطاً، وجَعَل أُمّتي هم الأولون وهم الآخِرُون، وشرح لي صَدْرِي، وَوَضَع عني وِزْرِي، وَرفَع لي ذِكْرِي، وَجَعلني فاتحاً وخاتماً. فقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: بهذا فَضَلَكُم محمدٌ ﷺ. قال أبو جعفر الرازيُّ: خاتِم النبوة، فاتِحٌ بالشفاعَة يوم القيامة. ثم أُتي بآنية ثلاثةٍ مُغطَّاةٍ أفواهُها، فَأُتي بإناء منها فيه ماء فقيل: اشرَبْ. فَشَرِب منه يسيراً، ثم دفع إليه إناء آخَرَ فيه لبَنٌ، فقيل له: اشرَبْ. فَشَرِبَ منه حتى رَوِي. ثم دفع إليه إناء آخر فيه خَمْرٌ فقيل له: اشرَبْ. فقال: لا أُرِيدُه قد رَوِيتُ. فقال له جبريل ـ عليه السلام ـ أما إنها ستُحَرَّم على أُمَّتك، ولو شَرِبت منها لم يتبعك من أمتك إلا قليل.

قال: ثم صَعِدَ به إلى السماء فاستفتح، فقيل: من هذا يا جبريلُ؟ فقال: محمدٌ. قالوا: أَوَ قد أُرسِلَ؟ قال: نعم. قالوا: حَيّاه الله من أخٍ ومن خَلِيفة، فنعم الأخُ ونعم الخليفةُ، ونعم المجيءُ جاء. فدخل فإذا هو برجل تام الخَلْقِ، لم ينقُص من خَلقِه شيء كما يَنْقُص من خَلْقِ الناس، على يمينه باب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، إذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نَظَر إلى الباب الذي عن يَسَاره بكى وحَزِن، فقلتُ: يا جبريلُ، من هذا الشيخُ التام الخَلْق الذي لم ينقُص من خلقه شيءٌ؟ وما هذان البابان؟ فقال: هذا أبوك آدم ـ عليه السلام ـ وهذا الباب الذي عن يمينه باب الجنة، فإذا نظر إلى من يدخُله من ذريته ضَحِك واستبشر، والباب الذي عن شماله باب جهنم، إذا نظر إلى من يدخله من ذريته بكى وحزن. ثم صَعِدَ به جبريلُ إلى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا مَعَك؟ فقال: محمدٌ رسولُ الله. قالوا: أو قد أُرسِل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حَيّاه الله من أخٍ ومن خَلِيفَةٍ، فَنِعْم الأخ ونِعْمَ الخليفةُ، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل، فإذا هو بشابين فقال: يا جبريل، مَن هذان الشابان؟ قال: هذا عيسى ابن مريم، ويحيى بنُ زكريا، ابنا الخالة عليهما السلام. قال: فَصَعِدَ به إلى السماءِ الثالثة فاستفتَح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن مَعَك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حَيّاه الله من أَخٍ ومن خليفةٍ، فنعم الأخُ ونعم الخليفةُ، ونعم المجيءُ جاءَ. قال: فدخل فإذا هو برجلٍ قد فَضَل على الناس في الحُسن، كما فَضَلَ القمر ليلةَ البدرِ على سائر الكَوَاكب، قال: مَن هذا يا جبريلُ الذي [قد] فَضَل على الناس في الحسن؟ قال: هذا أخوك يوسفُ عليه السلام. قال: ثم صَعِد به إلى السماء الرابعة فاستفتَحَ، فقالوا: من هذا؟ قال جبريلُ. قالوا: ومن مَعَك؟ قال: محمدٌ. قالوا: أَوَ قد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قالوا: حَيّاه الله من أَخٍ ومن خَليفةٍ، فنعم الأخُ ونعم الخليفةُ، ونعم المجيءُ جاءَ! قال: فدخل، فإذا هو برجُلٍ، قال: من هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا إدريسُ ـ عليه السلام ـ رفعه الله مكاناً عليّاً. ثم صَعِد به إلى السماء الخامسة فاستفتَح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن مَعَك؟ قال: محمدٌ. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حَيّاه الله من أخٍ ومن خَليفةٍ، فنعم الأخُ ونعم الخليفةُ، ونعم المجيءُ جاء. ثم دخل فإذا هو برجُلٍ جالسٍ وحوله قومٌ يقصُّ عليهم، قال: من هذا يا جبريلُ؟ ومن هؤلاءِ حوله؟ قال: هذا هارون المحبَّبُ في قومه ـ عليه السلام ـ وهؤلاءِ بنُو إسرائيل. ثم صَعِدَ به إلى السماء السادِسة فاستفتَح، فقيل: من هذا؟ قال: جِبريلُ. قالوا: وَمَن معكَ؟ قال: محمدٌ. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حَيّاه الله من أَخٍ ومن خَليفةٍ، فنعم الأخُ ونعم الخليفةُ، ونعم المجيءُ جاءَ. فإذا هو برجل جالسٍ، فجاوزه فبكى

الرجلُ، فقال: يا جبريلُ، من هذا؟ قال: موسى ـ عليه السلام ـ قال: فما باله يبكي؟ قال: يَزْعم بنو إسرائيل أني أكرم بني آدم على الله عَزّ وجَلَّ، وهذا رجل من بني آدمَ قد خَلَفني في دنيا، وأنا في أخرى، فلو أنه بنفسه لم أُبالِ، ولكن مع كل نبي أمته.

قال: ثم صَعِدَ به إلى السماء السابعة فاستفتَحَ، فقيل له: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: وَمَن معكَ؟ قال: محمدٌ. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حَيَّاه الله من أَخ ومن خَليفةٍ، فَنِعْم الأخُ ونِعْم الخليفةُ، ونعم المجيءُ جاء. قال: فدخَل، فإذا هو برجلٍ أشمطَ جالس عندَ باب الجَنَّة على كرسيّ، وعنده قوم جُلوسٌ بِيضُ الوجوهِ أمثالُ القَراطيس، وقوم في ألوانهم شيءٌ، فقام هؤلاء الذين في ألوانهم شيء فدخَلُوا نهراً فاغتسلوا فيه فَخَرجوا وقد خَلَص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخَرَ فاغتسلوا فيه، فَخَرَجُوا وقد خَلَص من ألوانهم شيء، ثم دَخَلُوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فَخَرجوا وقد خلَصت ألوانُهم فصارت مثلَ ألوانِ أصحابهم، فجاؤوا فجلسوا إلى أصحابهم، فقال: يا جبريلِ، من هذا الأشمطُ؟ ثم من هؤلاء البيض الوجوه؟ ومن هؤلاءِ الذين في ألوانهم شيءٌ؟ وما هذه الأنهار التي دَخَلوا فيها فجاؤوا وقد صَفَت ألوانُهم؟ قال: هذا أبوك إبراهيم ـ عليه السلام ـ أول من شَمِطَ على الأرض. وأما هؤلاء البيضُ الوجوهِ فَقَومٌ لم يَلبِسُوا إيمانهم بِظُلم. وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيءٌ فقومٌ خَلَطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتابُوا فتاب الله عليهم. وأما الأنهار فأولها رحمة الله، والثاني نعمةُ الله، والثالث سقاهم ربُهم شرابا طهوراً.

قال: ثم انتهى إلى السِّدرة فقيل له: هذه السّدرةُ ينتهي إليه كلُّ أحد خَلاَ من أمتك على سُنَّتِكَ. فإذا هي شجرةٌ يخرُج من أصلها أنهارٌ من ماء غير آسن، وأنهارٌ من لَبَن لم يتغيّر طعمُه، وأنهارٌ من خمر لَذَّةٍ للشاربين، وأنهارٌ من عَسَل مصفًى، وهي شجرة يسير الراكب في ظِلِّها سبعين عاماً لا يقطعها، والورقة منها مُغَطِّية للأمة كلها. قال: فَغَشِيَها نُورُ الخَلاّقَ عَزّ وجلّ، وغشيتها الملائكةُ أمثالُ الغِرْبان حين يقعن على الشجرة من حُبّ الربّ تبارك وتعالى، قال: فكلّمه الله تعالى عند ذلك فقال له: سَلْ. قال: إنك اتخذتَ إبراهيم خليلاً، وأعطيته مُلكاً عظيماً، وكَلّمت موسى تكليماً، وأعطيتَ داود ملكاً عظيماً، وألنت له الحديد، وسَخّرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً، وسخرت له الجن والإنس والشياطين، وسَخّرت له الد ياح، وأعطيته ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحدٍ من بعده. وعَلّمت عيسى التوراة والإنجيلَ، وجَعَلته يُبرِىءُ الأكمه والأبرصَ ويحيي الموتى بإذنك، وأعذتَه وأمَّه من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان عليهما سبيلٌ. فقال له الربُّ عَزّ وجَلّ: وقد اتخذتُك خليلاً ـ وهو مكتوبٌ في التوراة: حبيب الرحمن ـ وأرسلتك إلى الناس كافّةً بشيراً ونذيراً، وشرحتُ لكَ صَدرَك، ووضعتُ عنكَ وِزرَكَ. ورَفَعتُ لك ذكرك، فلا أُذكَر إلا ذُكِرت معي، وجَعَلتُ أُمّتك خيرَ أمة أُخرجَت للناس، وجعلتُ أُمّتَك أُمّةً وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولين وهم الآخرين، وجعلتُ أُمّتك لا تجوزُ لهم خطبةٌ حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أُمتك أقواماً قلوبُهم أناجيلُهم، وجعلتُك أوّل النبيين خَلْقاً وآخِرَهم بعثاً وأولَهم يُقضَى له. وأعطيتُك سبعاً من المثاني لم يُعطَها نبي قبلك، وأعطيك خواتيم سُورَةِ البقرة من كَنْزِ تحتَ العَرْش لم أُعطِها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلامُ، والهجرةَ، والجهادَ، والصدقةَ، والصلاةَ، وصومَ رمضانَ، والأمرَ بالمعروف، والنهي عن المنكر. وجعلتك فَاتِحاً وخاتماً. فقال النبي ﷺ: فَضّلني ربي بست: أعطاني فَواتِحَ الكَلِم وخواتيمه، وجوامع الحديث، وأرسلني إلى الناس كافّةً بشيراً ونذيراً. وقذف في قلوب عَدُوّي الرُّعبَ من مسيرة شهر، وأُحِلّت لي الغنائمُ ولم تَحلّ لأحد قبلي، وجُعِلَت لي الأرضُ كُلُّها طهوراً ومسجداً. قال: وفرض عَلَيّ خمسين صلاة. فلما رَجَع إلى موسى قال: بم أمرت يا محمدُ؟ قال: بخمسين صلاة. قال: ارجع إلى رَبّك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعفُ الأمم، فقد لقيتُ من بني إسرائيلَ شدّة، قال: فرجع

النبي ﷺ إلى ربه - عَزَّ وجَلَّ - فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. ثم رَجَع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتَ؟ قال: بأربعين. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعفُ الأُمَم، وقد لَقِيت من بني إسرائيل شدة. قال: فرجع النبي ﷺ إلى رَبِّه فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. فرجع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتَ؟ قال: أُمِرْتُ بثلاثين. فقال له موسى: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شِدَّة. قال: فرجع إلى رَبِّه فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. فرجع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكَمْ أُمِرْتَ؟ أُمِرْتُ بعشرين قال: ارجِعْ إلى رَبِّك فاسأله التخفيف، فإن أمّتك أضعفُ الأمم، وقد لَقِيت من بني إسرائيل شدة. قال: فرجع إلى ربه - عَزَّ وجَلَّ - فسأله التخفيف، فوضَعَ عنه عشراً. فَرجَع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتَ؟ قال: أُمِرْت بِعَشْرٍ. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيتُ من بني إسرائيل شِدَّة. قالَ: فرجع على حياء من ربه، فسأله التخفيف فَوَضَع عنه خمساً. فرجِعَ إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتَ؟ قال: بخمس. فقال: ارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمّتك أضعفُ الأمم، وقد لقيتُ من بني إسرائيل شِدَّةً، قال: قد رَجَعتُ إلى ربي حتى استحييتُ، فما أنا راجعٌ إليه. قيل: أما إنَّك كما صَبرت نفسَك على خمس صلوات، فإنهن يُجْزِينَ عنك خمسين صلاة، فإن كلَّ حسنة بعشر أمثالها. قال: فَرَضِي محمد ﷺ كلَّ الرضا. قال: وكان موسى - عليه السلام - من أشدّهم عليه حين مَرَّ به، وخَيْرِهم له حين رجع إليه[1]. ثم رواه ابنُ جرير عن محمد بن عُبَيد الله، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر الرازيِّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية أو غيره - شك أبو جعفر - عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ فذكره بمعناه. وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقيُّ عن أبي سَعْدٍ الماليني، عن ابن عَدِيٍّ، عن محمد بن الحسن السُّكوني البالسيّ بالرملة، حدثنا علي بن سهل... فذكر مثل ما رواه ابن جرير، عنه. وذكر البيهقي أن الحاكم أبا عبد الله رواه عن إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعراني، عن جده، عن إبراهيم بن حمزة الزُّبيري، عن حاتم بن إسماعيل، حدثني عيسى بن ماهان - يعني أبا جعفر الرازي - عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ فذكره. وقال ابنُ أبي حاتم: ذَكَر أبو زرعة، حدثنا محمد بن عبد الله بن نُمَير، حدثنا يونس بن بُكير، حدثنا عيسى بن عبد الله التميمي - يعني أبا جعفر الرازي - عن الربيع بن أنس البكري، عن أبي العالية أو غيره - شك عيسى - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: قال الله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[2]... فذكر الحديث بطوله كنحو مما سُقناه. قلت: أبو جعفر الرازي، قال فيه الحافظ أبو زُرعَةَ الرازي: «يَهِم في الحديث كثيراً». وقد ضعّفه غيره أيضاً، ووثَّقه بعضهم. والأظهر أنه سَيِّءُ الحِفْظِ، ففيما تفرد به نظر. وهذا الحديث في بعض ألفاظه غرابةٌ ونَكارةٌ شديدةٌ، وفيه شيء من حديث المنام من رواية سَمُرة بن جُندَب في المنام الطويل عند البخاري، ويشبه أن يكون مجموعاً من أحاديث شتى، أو منام وقصة أخرى غير الإِسراءِ، والله أعلم.

[٤١٧٤] وقد روى البخاري ومسلم في الصَّحيحين من حديث عبد الرزّاق: أنبأنا معمر، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب، عن أبي هُرَيرة قال: قال النبي ﷺ حين أُسرِي به: لقيتُ موسى - عليه السلام -

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبري ٢٢٠٢١، والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٩٧ - ٤٠٤ من حديث أبي هريرة، وفيه عيسىٰ بن أبي عيسىٰ، أبو جعفر الرازي ضعفه الجمهور، وقد روىٰ مناكير كثيرة، وقد شك في روايته، وقد تفرد في هذا الحديث بألفاظ، وهو غير حجة.

(٢) إسناده ضعيف كسابقه.

قال: فَنَعَتَه، فإذا رجل حَسِبتُه قال ـ: مضطرب، رَجِلُ الرأسِ، كأنّه من رجال شنوءَة، قال: ولقيت عيسى ـ عليه السلام ـ فَنَعَته النبي ﷺ قال: ربعةٌ أحمرُ، كأنما خرج من دِيماسٍ ـ يعني حَمَّاماً ـ قال: ورأيت إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأنا أشبَهُ وَلَدِه به. قال: وَأُتِيت بإناءَين في أحدهما لبن وفي الآخر خَمْرٌ، قيل لي: خُذْ أَيُّهما شِئْتَ. فأخذتُ اللبن فشرِبتُ، فقيل لي: هُدِيتَ الفطرة ـ أو: أصبْتَ الفِطْرَةَ ـ أمَا إنك لو أخذتَ الخمر غَوَت أمتك»[١]. وأخرجاه من وجه آخر، عن الزهريِّ، به نحوه.

[٤١٧٥] وفي صحيح مسلم عن زُهَير بن حَرْبٍ عن حُجَين بن المثنىٰ، عن عبد العزيز بن أبي سَلَمة. عن عبد الله بن الفضل الهاشمي، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحِجْر وقُرَيشٌ تسألني عن مَسْرَاي، فَسَألوني عن أشياءَ من بيت المقدِس لم أُثبِتْها، فَكُرِبْتُ كَرْباً ما كُرِبتُ مثله قَطُّ. فَرَفعه الله لي أنظرُ إليه، ما سألوني عن شيءٍ إلا وأنبأتهم به. وقد رأيتُني في جماعةِ من الأنبياءِ فإذا موسى ـ عليه السلام ـ قائم يصلي، فإذا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْد كأنه من رجال شَنُوءة، وإذا عيسى ابن مريم قائمٌ يصلّي أقربُ الناس به شبهاً عروةُ بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ قائم يصلّي أشبه الناس به صاحبكم ـ يعني نفسه ـ فحانت الصلاةُ فَأَممتُهم، فلما فرغتُ قال قائل: يا محمدُ، هذا مالِك صاحبُ النار، فَسَلِّم عليه فالتفت إليه، فبدأني بالسلام»[٢].

[٤١٧٦] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حَمّاد بن سَلَمة، عن علي بن زيد، عن أَبي الصَّلت، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «رأيتُ ليلةَ أسريَ بي لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فَوقُ فإذا رَعْدٌ وبَرْقٌ وصواعق ـ قال: وأتيتُ على قَوْم بطونُهم كالبيوت فيها الحيّات تُرَى من خارج بطونهم، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء أَكَلَةُ الربَا. فلما نزلتُ إلى السماء الدنيا نظرتُ أسفَلَ مني فإذا أنا برَهَج ودُخَانٍ وأصواتٍ، فقلتُ: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذه الشياطينُ يحومون على أعين بني آدَمَ لا يتفكرون في مَلَكُوت السمّوات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائِبَ»[٣]. ورواه الإمامُ أحمدُ عن حَسنٍ وعفانَ، كلاهما عن حَمّاد بن سلمة. به. ورواه ابنُ ماجه من حديث حَمّادٍ، به.

رواية جماعة من الصحابة ممن تَقَدَّم وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ:

[٤١٧٧] قال الحافظ البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله ـ يعني الحاكم ـ أخبرنا عبدان بن يزيد بن يعقوب الدقاق بهمَذَان، حدثنا إبراهيم بن الحسين الهَمذاني، حدثنا أبو محمد ـ هو إسماعيل بن موسى ـ الفَزَارِيّ، حدثنا عُمَر بن سَعد النَّضري، من بني نَصْر بن قُعَين، حدثني عبد العزيز، وليث بن أبي سُلَيم، وسليمان الأعمش، وعَطاء بن السائب ـ بعضُهم يزيد في الحديث على بَعْضٍ ـ عن علي بن أبي طالب وعن عبد الله بن عباس ـ ومحمد بن إسحاق بن يسار، عمن حدثه عن ابن عباس ـ وعن سليم بن مسلم العُقَيلي،

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٣٧ ومسلم ١٦٨ والترمذي ٣١٣٠ وأحمد ٢/ ٢٨٢ والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٨٧ وابن حبان ٥١.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٢ والبيهقي في «الدلائل» ٢/ ٣٥٨.

(٣) ضعيف، أخرجه ابن ماجه ٢٢٧٣ وفي إسناده علي بن زيد، وهو ضعيف، وشيخه أبو الصلت، وهو مجهول كما في التقريب، والحديث تقدم تخريجه في سورة الأعراف عند آية: ١٨٥.

عن عامر الشَّعبِيّ، عن عبد الله بن مسعود ـ وجُوَيبر، عن الضحّاك بن مزاحم ـ قالوا: كان رسولُ الله ﷺ في بيت أم هانىء راقداً وقد صَلّى العشاء الآخرة[١]، قال أبو عبد الله الحاكم: قال لنا هذا الشيخ. . . وذكر الحديث، فكتبتُ المتن من نسخة مسموعة منه، فذكر حديثاً طويلاً، يذكر فيه عدد الدَّرَج والملائكة وغَيْرَ ذلك مما لا يُنكَرُ شيءٌ منها في قدرة الله إن صَحَّت الرواية. قال البيهقي: فيما ذكرنا قبلُ في حديث أبي هارون العَبْدِيّ في إثبات الإسراء والمعراج كفاية، وبالله التوفيق. قلت: وقد أرسل هذا الحديثَ غيرُ واحد من التابعين وأئمة المفسرين، رَحمَةُ الله عليهم أجمعين.

[٤١٧٨] **رواية عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ**: قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني مكرم بن أحمد القاضي، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البَلَدِي، حدثنا محمد بن كثير الصَّنعَاني، حدثنا معمر بن راشد، عن الزُهري، عن عُروَةَ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما أُسرِيَ بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يُحَدّث الناسَ بذلك، فارتدَّ ناسٌ ممن كانوا آمنُوا به وصَدَّقوه، وسَعَوا بذلك إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعمُ أنه أُسرِيَ به الليلةَ إلى بيتِ المقدِس. فقال: أوَ قال ذلك؟ قالوا: نَعَم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صَدَق. قالوا: فتصدقه أنه ذهبَ الليلةَ إلى بيتِ المقدس، وجاء قبل أن يُصبح؟. قال: نَعَم، إني لأصدقه بما هو أبعدُ من ذلك، أُصَدِّقه بخبر السماء في غَدْوة أو رَوْحة. فلذلك سُمِّي أبو بكر الصِّديق، رضي الله عنه[٢].

[٤١٧٩] **رواية أم هانىء بنت أبي طالب ـ رضي الله عنها ـ**: قال محمد بن إسحاق: حدثني محمدُ بن السائب الكلبي، عن أبي صالح باذانَ، عن أم هانىء بنت أبي طالب ـ رضي الله عنها ـ في مَسْرَى رسول الله ﷺ أنها كانت تقول: ما أسري برسول الله ﷺ إلا وَهُو في بيتي، نائم عندي تلك الليلة، فصلَّى العشاء الآخِرَة ثم نام ونمنا، فلما كان قُبَيل الفجر أَهَبّنا رسولُ الله ﷺ، فلما صلَّى الصبحَ وصلَّينا معه قال: يا أُمَّ هانىء، لقد صَلَّيت معكُم العشاءَ الآخرة كما رأيتُ بهذا الوادي، ثم جِئتُ بيتَ المقدِس فَصلَّيت فيه، ثم صَلَّيت صلاة الغداةِ معكم الآن كما تَرَينَ[٣]. الكلبي: متروك بمرَّةٍ ساقطٌ. لكن رواه أبو يعلى في مُسنَدِه عن محمد بن إسماعيل الأنصاري، عن ضَمْرَة بن رَبيعَةَ، عن يحيى بن أبي عمرو السَّيباني، عن أبي صالح، عن أم هانىء[٤] بأبسط من هذا السياق، فَلْيكتب ها هنا.

[٤١٨٠] وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الأعلى بن أبي المُسَاور، عن عكرمة، عن أُمّ هانىء قالت: باتَ رسول الله ﷺ ليلَةَ أُسرِيَ به في بيتي، فَفَقَدتُه من الليل، فامتنعَ مني النومُ مخافَةَ أن يكونَ عَرَض له بعضُ قُرَيش، فقال رسولُ الله ﷺ: إن جبريلَ عليه السَّلام أتاني فأخذ بيدي فأخرجني، فإذا على الباب دابةٌ دون البغل وفوقَ الحمار، فَحملني عليها ثم انطلق حتى انتهى بي إلى بيتِ المقدِس، فأراني إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ يُشبِهُ خَلْقُه خَلْقِي، ويُشْبِهُ خَلقي خَلْقَه، وأراني موسى ـ عليه السلام ـ آدمَ طويلاً سَبْط

---

(١) إسناده ضعيف جداً. أخرجه البيهقي ٢/ ٤٠٤ وضعفه بقوله: راويه مجهول، وهو منقطع.

(٢) ضعيف. أخرجه الحاكم ٣/ ٦٢ والبيهقي ٢/ ٣٦٠ وصححه الحاكم! ووافقه الذهبي! وفيه محمد بن كثير، وهو ضعيف. قال أحمد: حدث بمناكير ليس لها أصل ولفظ «فارتد ناس» من مناكيره، فإنه لم يرتد أحد في حادثة الإسراء إذ لم يكن آمن قبل الإسراء إلاّ القليل.

(٣) إسناده ضعيف جداً. محمد بن السائب متروك، وشيخه أبو صالح باذام ضعفه البخاري والنسائي وغيرهما.

(٤) وهو معلول بأبي صالح أيضاً كما تقدم.

الشَّعر، شبهتُه برجال أزْد شنوءة. وأراني عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ رَبْعة أبيضَ يضربُ إلى الحمرة، شبَّهتُه بعُروةَ بن مسعودٍ الثقفي. وأراني الدجَّالَ ممسوحَ العين اليمنى، شبَّهته بقَطَن بن عبد العُزّى. قال: وأنا أُريد أن أخرج إلى قريش، فأخبِرُهم بما رأيت. فأخذتُ بثوبه فقلت: إني أذكِّرك الله، إنك تأتي قوماً يكذبونك وينكرون مقالتك، فأخاف أن يَسْطُوا بك. قالت: فَضَرب ثوبَه من يدي، ثم خَرَج إليهم فأتاهم وهم جُلوس، فأخبَرَهم ما أخبَرَني. فقام جُبَير بن مُطعِم فقال: يا محمد، لو كنتُ شاباً كما كنت، ما تكلمتُ بما تكلمتَ به وأنت بين ظهرانينا. فقال رجلٌ من القوم: يا محمد، هل مررتَ بإبلٍ لنا في مكانِ كذا وكذا؟ قال: نَعَم، والله وَجَدتُهم قد أَضَلُّوا بعيراً لهم، فهم في طَلَبه. قال: فهل مَرَرت بإبل لبني فلان؟ قال: نعم، وجدتهم في مكان كذا وكذا، وقد انكسرت لهم ناقة حمراء، وعندهم قَصعَةٌ من ماء، فشربت ما فيها. قالوا: فأخبرنا عِدَّتها وما فيها من الرعاة، قال: قد كنتُ عن عِدَّتها مشغولاً. فقام فَأُتِيَ بالإبل فعدَّها وَعَلِمَ ما فيها من الرعاة. ثم أتى قريشاً فقال لهم: سألتموني عن إبلِ بني فلانٍ، فهي كذا وَكذا، وفيها من الرعاة فلان وفلان. وسألتُموني عن إبلِ بني فلانٍ، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة ابنُ أبي قُحَافةَ وفلانٌ وفلانٌ، وهي مُصبِحتكم بالغداة على الثنية. قال: فقعدوا على الثنية يَنظُرون أَصَدَقهم ما قال؟ فاستقبلوا الإبلَ فسألوهم: هل ضَلَّ لكم بعيرٌ؟ قالوا: نَعَم. فسألوا الآخر: هل انكسرت لكم ناقةٌ حمراء؟ قالوا: نعَم. قالوا: فهل كانت عندكم قصعةٌ؟ قال أبو بكر: أنا والله وضعتُها فما شَرِبها أحد، ولا أهراقوه في الأرض. فَصَدَّقه أبو بكر وآمن به، فَسُمِّي يومئذٍ الصديق[١].

فصـــل: فإذا حصل الوقوفُ على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وَحَسَنها وضعيفها، يحصُلُ مَضْمُون ما اتفقَتْ عليه من مَسرَى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مَرَّةٌ واحدةٌ، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه وزاد بعضهم أو نَقَص منه، فإن الخطأ جائزٌ على من عدا الأنبياءَ عليهمُ السلامُ. ومن جعل من الناس كُلَّ رواية خالفت الأخرى مَرَّة على حدَة، فأثبت إسراءاتٍ مُتعدِّدة، فقد أبعدَ وأغرَب. وهَرَب إلى غير مَهرَب، ولم يتحصَّل على مطلب. وقد صَرَّح بعضُهم من المتأخرين بأنه ﷺ أسرِيَ به مَرَّة من مكة إلى بيت المقدس فَقَط، ومَرَّة من مكة إلى السماء فقط، ومَرَّةً إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وفَرِح بهذا المسلك، وأنه قد ظَفِرَ بشيءٍ يخلُص به من الإشكالات. وهذا بعيدٌ جداً، ولم يُنقَل هذا عن أحدٍ من السلف، ولو تعدَّد هذا التعددُ لأخبَر النبيُّ ﷺ به أُمَّته، ولنقلته الناسُ على التعدُّد والتكرر.

قال موسى بن عُقبَة، عن الزُّهريِّ: كان الإسراء قبلَ الهجرةِ بسنةٍ. وكذا قال عُروَةُ. وقال السدِّيُّ: بستةَ عشرَ شهراً. والحق أنه ﷺ أسري به يقظةً لا مناماً إلى بيت المقدس، راكباً البراقَ، فلما انتهى إلى باب المسجد رَبَط الدابة عند الباب، ودخله فصلَّى في قبلته تحيةَ المسجدِ ركعتين. ثم أُتيَ بالمعراج ـ وهو كالسلم ذو دَرَج يَرْقَى فيها ـ فَصعِدَ فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السمٰوات السبع، فتلقَّاه من كلِّ سماء مقرَّبوها، وسلم عليه الأنبياء ـ عليهم السلام ـ الذين في السمٰوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مَرَّ بموسى الكليم ـ عليه السلام ـ في السادسة، وإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ في السابعة، ثم جاوز منزلتهما ﷺ

---

(١) واهٍ بمرة، أخرجه الطبراني ٢٤/ ٤٣٢ ـ ٤٣٤، وفي «الأوسط» (٤١ مجمع البحرين) من حديث أم هانىء، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٣٩: فيه عبد الأعلى بن أبي المساور متروك كذاب أهـ. فالإسناد ساقط لا شيء، لكن لأصله شواهد وعجزه تقدم آنفاً، والله أعلم.

وعليهما وعلى سائر الأنبياء - حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صَريف الأقلام، أي: أقلام القَدَر بما هو كائن، ورأى سِدْرَةَ المنتهى وغَشِيَهَا من أمرِ الله تعالى عظمةٌ عظيمةٌ، من فَراش من ذَهَب، وألوان متعددة، وغَشِيَتها الملائكةُ، ورأى هنالك جبريل - عليه السلام - على صورته، له ستمائة جَنَاح، ورأى رَفرفاً أَخْضَرَ قد سدَّ الأفق. ورأى البيتَ المعمورَ، وإبراهيمَ الخليل - عليه السلام - باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه، لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سَبعُون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودُون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار، وفَرَض الله - عزّ وجلّ - عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خَففها إلى خمس، رحمةً منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناءٌ عظيمٌ بشَرَفِ الصلاة وعظمتها.

ثم هَبَط ﷺ إلى البيت المقدّس، وهبطَ مَعه الأنبياءُ فصلّى بهم فيه لما حانت الصلاة. ويَحتَمِل أنها الصبح من يومئذٍ: ومن الناس من يزعمُ أنه أمّهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه بيتُ المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دُخُوله إليه والظاهر أنه بعد رجوعه إليه. لأنه لما مَرّ بهم في منازلهم جَعَل يسأل عنهم جبريل - عليه السلام - واحداً واحداً، وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائِقُ لأنه كان أوّلاً مطلوباً إلى الجناب العلوي، ليفرض عليه وعلى أمته ما شاءَ الله تعالى. ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتَمَع هو وإخوانه من النّبيِّين - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين - ثم أظهر شَرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل - عليه السلام - له في ذلك. ثم خَرَج من بيت المقدس فَرَكِبَ البُرَاق وعاد إلى مكة بغَلَسٍ، والله سبحانه وتعالى أعلم. وأما عَرْضُ الآنية عليه من اللبن والعَسَل، أو اللبن والخَمْر، أو اللبن والماء، أو الجميعُ، فقد وَرَدَ أنه في البيت المقدّس، وجاء أنه في السماء. ويَحتَمِلُ أن يكونَ ها هنا وها هنا، لأنه كالضِّيافة للقادم، والله أعلم.

ثم اختلفَ الناسُ: هل كان الإسراءُ ببدنه ﷺ وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثرون من العلماء على أنه أُسريَ ببَدنهِ ورُوحه يقظةً لا مناماً، ولا يُنْكِرون أن يكونَ رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة، لأنه ﷺ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح. والدليل على هذا قولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، فالتسبيح إنما يكونُ عند الأمور العظام، ولو كان مناماً لم يكن فيه كبيرُ شيءٍ ولم يكن مستعظماً، وَلَمَا بادرت كفارُ قريشٍ إلى تكذيبه، ولَمَا ارتدَّ جماعةٌ ممن كان قد أسلم. وأيضاً فإنّ العبدَ عبارة عن مجموع الرُّوح والجسد، وقد قال - عزّ شأنه -: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - هي رُؤيا عَينٍ، أُرِيهَا رسولُ الله ﷺ ليلة أُسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم. رواه البخاري، وقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧]، والبصرُ من آلاتِ الذاتِ لا الروح. وأيضاً فإنه حُمل على البراق، وهو دابة بيضاء بَرّاقة لها لَمعانٌ، وإنما يكون هذا للبَدَنِ لا للروح، لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مَركب يُركَبُ عليه، والله أعلم.

وقال آخرون: بل أُسرِيَ بِرسُول الله ﷺ بروحه لا بجسده.

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السِّيرة: حدثني يعقوبُ بن عتبة بن المغيرةِ بن الأخنَسِ: أن معاوية بن أبي سفيان كان إذا سُئِل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة[1]. وحدثني

---

(١) موقوف ضعيف. أخرجه الطبري ٢٢٠٣٢، من طريق ابن إسحق، وهو منقطع بين يعقوب ومعاوية.

بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول: ما فُقِدَ جَسَدُ رسولِ الله، ولكن أسري بروحه[١]. قال ابن إسحاق: فلم يُنكرْ ذلك من قولها، لقول الحسن: إن هذه الآية نَزَلت ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، ولقول الله في الخبر عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ثم مضى على ذلك. فعرفتُ أن الوحي يأتي للأنبياءِ من الله أيقاظاً ونياماً.

[٤١٨١] وكان رسول الله ﷺ يقول: «تنام عيناي، وقَلْبِي يقظانُ»[٢] فالله أعلم أيَّ ذلك كان قد جاءه، وعاين فيه مِنَ الله ما عاين، على أيّ حالاته كان، نائماً أو يقظانَ، كلّ ذلك حق وصدق. انتهى كلام ابن إسحاق. وقد تَعَقّبه أبو جعفر بن جرير في تفسيره بالردّ والإنكار والتشنيع، بأنّ هذا خلافُ ظاهرِ سياق القرآن، وذكر من الأدلة على رده بعض ما تَقَدّم، والله أعلم.

فائدةٌ حسنةٌ جليلة:

[٤١٨٢] روى الحافظ أبو نُعَيم الأصبهاني في كتاب «دلائل النبوّة»، من طريق محمد بن عُمر الواقدي: حدثني مالك بن أبي الرجال، عن عُمَر بن عبد الله، عن محمد بن كعب القرظي، قال: بَعَث رسول الله ﷺ دِحيَةَ بن خليفة إلى قيصر، فذكر وُرُودَه عليه وقدومه إليه، وفي السياق دلالةٌ عظيمةٌ على وُفُور عقل هِرَقل، ثم استدعى من بالشام من التجار، فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم، كما سيأتي بيانُه، وجَعَل أبو سفيان يَجْهَدُ أن يَحْقِرَ أمره ويُصَغِّره عنده، قال في هذا السياق، عن أبي سفيان: والله ما يمنعني أن أقولَ عليه قولاً أُسقطهُ من عينه إلا أني أكره أن أكذبَ عنده كِذبةً يأخذها عليَّ، ولا يُصَدِّقني بشيء. قال: حتى ذكرتُ قولَه ليلة أُسرِي به، قال: فقلتُ: أيها الملك، ألا أُخبرك خبراً تعرف أنه قد كَذَب؟ قال: وما هو؟ قال: قلتُ: إنه يزعُم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحَرَم في ليلة، فجاء مسجدكم هذا مسجدَ إِيلِيَاءَ[٣]، فرجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبِطْرِيقُ إِيلِيَاءَ عند رأس قيصر، فقال بطريق إِيلِيَاءَ: قد علِمتَ تلك الليلة؟ قال: فنظر إليه قيصر وقال: وما عِلْمُك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقتُ الأبوابَ كُلَّها غير باب واحد غَلَبني، فاستعنتُ عليه بعمالي ومن يحضرني كلُّهم فعالجتهُ فغلبني، فلم نستطع أن نُحرّكه، كأنما نزاول به جبلاً. فَدعوتُ إليه النَّجاجِرَةَ[٤] فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النُّجاف والبنيان، وما نستطيع أن نحركه حتى نُصبحَ فَنَنظُر من أين أتى. قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين. فلما أصبحتُ غَدَوتُ عليهما، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أَثَرُ مَرْبطِ الدابة. قال: فقلتُ لأصحابي: ما حُبِس هذا الباب الليلة إلا على نبيٍّ، وقد صَلَّى الليلة في مسجدنا[٥] . . . وذكر تمام الحديث.

---

(١) باطل لا أصل له من كلام عائشة. أخرجه الطبري ٢٢٠٣٣ من طريق ابن إسحق عن بعض آل أبي بكر عن عائشة، بعض آل أبي بكر مجاهيل، وابن إسحق حدث عن مجاهيل بما لا أصل له وهذا منها. ولا يصح عن عائشة رضي الله عنها فإن عائشة لم تبلغ آنذاك خمس سنوات، ولم تكن بعد عند رسول الله ﷺ، فكيف تنفي فقدان جسد رسول الله؟!، نعم إن عائشة نفت الرؤية كما سيأتي في سورة النجم.

(٢) بعض حديث متفق عليه، وتقدم.

(٣) إيلياء: بيت المقدس، ومسجدها هو الأقصى.

(٤) النجاجرة: جمع نجار.

(٥) إسناده ضعيف جداً، فهو مرسل محمد بن كعب تابعي، وله علة ثانية محمد بن عمر الواقدي متروك، وحديث هرقل وحواره مع أبي سفيان، ليس فيه هذا الذي ذكره الواقدي.

فائدة: قال الحافظُ أبو الخطّاب عُمَر بن دِحيَةَ في كتابه: «التنويرُ في مولِد السِّراج المنير» وقد ذكر حديث الإِسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد ـ ثم قال: وقد تواترتِ الرواياتُ في حديث الإِسراء عن عُمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأبي ذرٍّ، ومالك بن صَعْصَعَةَ، وأبي هُرَيرة، وأبي سعيد، وابن عَبّاس، وشدّاد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قُرْط، وأبي حَبّة وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد الله بن عُمَر، وجابر، وحذيفة، وبُرَيدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسَمُرة بن جُنْدُب، وأبي الحمراء، وصُهَيب الرومي، وأم هانىء، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصَره على ما وقع في المسانيد. وإن لم تكن روايةُ بعضهم على شرط الصحّة، فحديثُ الإِسراء أجمَعَ عليه المسلمون، واعترض فيه الزنادقةُ الملحدون، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

لما ذَكَر تعالى أنه أسرَى بعبده محمد ﷺ عطف بِذِكر موسى عبده وكليمه ـ عليه السلام ـ أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني التوراةَ، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾، أي: الكتاب ﴿هُدًى﴾، أي: هادياً ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ أي: لئلاً تَتَّخِذوا، ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾، أي: ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني؛ لأن الله تعالى أنزل على كلِّ نبيٍّ أرسله أن يعبدَه وحدَه لا شَرِيكَ له. ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، تقدِيرهُ: يا ذُرِّيةَ مَن حملنا مع نوح. فيه تَهييجٌ وتَنْبيهٌ على المِنّة، أي: يا سُلالَةَ مَن نَجّينا فحَملنا مع نوح في السفينة، تَشَبّهوا بأبيكم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم مُحمداً ﷺ. وقد وَرد في الحديثِ. وفي الأثر عن السَّلَفِ: أن نوحاً ـ عليه السلام ـ كان يحمَدُ الله على طعامه وشرابه ولباسه وشَأنِهِ كلِّه، فلهذا سُمِّي عبداً شكوراً. قال الطبرانيّ: حَدَّثنا علي بنُ عبد العزيز، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا سفيان، عن أبِي حُصَين، عن عبد الله بن سِنَانٍ، عن سَعد بن مَسْعُودٍ الثقفي قال: إنما سُمّي نوحٌ عبداً شكوراً، لأنه كان إذا أكَل أو شرب حَمد الله.

[٤١٨٣] وقال الإِمامُ أحمدُ: حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن سعيد بن أبي بُردَة، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لَيَرْضَى عن العَبْدِ أنْ يأكُلَ الأَكْلَةَ أو يَشْرَبَ الشَّربة، فيحمَدَ الله عليها»[1]. وهكذا رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، من طريق أبي أسامة، به. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان يحمدُ الله على كلِّ حال.

[٤١٨٤] وقد ذكر البخاري هُهنا حديث أبي زُرْعَةَ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة» بطوله، وفيه: «فيأتون نُوحاً فيقولون: يا نوحُ، أَنتَ أولُ الرسُلِ إلى أهل الأرض، وقد سَمَّاكَ اللَّهُ عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك»[2]. . . وذكر الحديث بكماله.

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٣٤ والترمذي ١٨١٧ وأحمد ٣/ ١١٧ وأبو يعلى ٤٣٣٢.

(٢) يأتي عند آية: ٧٩ من هذه السورة إن شاء الله.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: إنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي: تَقَدَّم إليهم وأَخبَرهم في الكتاب الذي أنزلَه عليهم: أنهم سَيُفسِدُون في الأرض مَرَّتين ويَعلُون عُلواً كبيراً، أي: يَتَجبَّرون ويطغَون ويفجُرُونَ على الناس، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر: ٦٦]، أي: تَقَدَّمنا إليه وأخبرناه بذلك، وأعلمناه به. وقولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾، أي: أولى الإفسادتين، ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، أي: سَلَّطنا عليكم جُنداً من خَلقِنا أولي بأسٍ شديدٍ، أي: قُوَّةٍ وعُدَّة وسلطة شديدة، ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾، أي: تملكوا بلادكم وسَلَكُوا خِلالَ بيوتكم، أي: بينَها وَوَسْطَها، وتَصرَّفُوا ذاهبين وجائين، لا يخافونَ أحداً، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

وقد اختلف المفسِّرون من السلَفِ والخلَفِ في هؤلاء المسلطين عليهم: من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجَزَريّ وجنوده، سُلِّط عليهم أولاً، ثم أُديلوا عليه بعد ذلك، وقَتَل داودُ جالوتَ، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾. وعن سعيد بن جُبَير: أنه ملك الموصل سَنْحَارِيبُ وجنودُه. وعنه أيضاً، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل. وقد ذكر ابنُ أبي حاتم له قصةً عجيبةً في كيفية تَرَقيه من حال إلى حال، إلى أن ملك البلاد، وأنه كان فقيراً مُقعَداً ضَعيفاً يستعطي الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحالُ إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس، فقتلَ بها خلقاً كثيراً من بني إسرائيل. وقد روى ابنُ جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حُذَيفة مرفوعاً مطولاً[1]. وهو حديثٌ موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث.. والعَجَب كُلُّ العَجَب كيف راج عليه مع إمامته وجلالة قدره. وقد صرّح شيخنا الحافظُ العلاّمة أبو الحجاج المِزّي رحمه الله بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب. وقد وَرَدت في هذا آثارٌ كثيرةٌ إسرائيليةٌ لم أرَ تطويلَ الكتاب بذكرها، لأنَّ منها ما هو موضوعٌ، من وَضعِ بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتملُ أن يكونَ صحيحاً، ونحن في غُنيَةٍ عنها، ولله الحمد. وفيما قصَّ الله تعالى علينا في كتابه غنية عما سِوَاه من بقيَّةِ الكتب قبلَه، ولم يُحوِجْنا الله ولا رسولُه إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بَغَوا وطَغَوا سلط عليهم عَدُوَّهم، فاستباح بَيْضتهم، وسَلَك خلال بُيُوتهم وأذلَّهم وقَهَرهم، جزاء وفاقاً، وما رَبُّك بظلام للعبيد فإنهم كانوا قد تَمرَّدوا وقَتَلُوا خلقاً من الأنبياء والعلماء.

وقد روى ابنُ جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سُلَيمان بن بلال، عن

(١) هو عند الطبري ٢٢٠٥٧ من حديث حذيفة بن اليمان، وفيه رواد بن الجراح متهم، والحمل عليه فيه.

يحيى بن سعيد قال: سَمِعتُ سعيد بن المسيِّب يقول: ظهر بُختَنَصّر على الشام، فَخرّب بيتَ المقدسِ وقتلهم. ثم أتى دِمشقَ فوجدَ بها دماً يغلي على كِباً، فسألهم: ما هذا الدمُ؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وَكُلَّما ظَهَر عليه الكِبَا ظهر. قال: فقتَل على ذلك الدَّمِ سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فَسَكَن. وهذا صحيحٌ إلى سَعِيد بن المسيِّب، وهذا هو المشهورُ، وأنه قتلَ أشرافَهم وعُلَماءَهم، حتى إنه لم يبقَ من يحفظُ التوراة، وأخذَ معه خلقاً منهم أُسَراءً من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجَرَت أمورٌ وكوائن يطول ذكرُها. ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربُه، لجاز لنا كتابتُه وروايتُه، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، أي: فعليها. كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]. وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: المرَّة الآخرة، أي: إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم، ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾، أي: يُهينوكم ويَقْهَروكم، ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾، بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾، أي: يُدَمِّروا ويُخرِّبوا ﴿مَا عَلَوْا۟﴾، أي: ما ظَهَروا عليه ﴿تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾، أي: فيصرفهم عنكم، ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾، أي: متى عدتم إلى الإفساد ﴿عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا، مع مَا نَدّخِره لكم في الآخرة من العذابِ والنكالِ، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾، أي: مُستقراً ومَحْصَراً وسِجناً لا مَحيدَ لهم عنه. وقال ابن عباس: ﴿حَصِيرًا﴾، أي: سجناً. وقال مجاهد: يُحصَرون فيها. وكذا قال غيره. وقال الحسن: فراش ومهاد. وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيلَ، فَسَلَّط الله عليهم هذا الحي، محمداً ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾

يمدح تعالى كتابَه العزيزَ الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآنُ، بأنه يهدِي لأقوم الطرق وأوضحِ السُبُل، ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على مقتضاه، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، أي: يوم القيامة، ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: ويُبشِّرُ الذين لا يؤمنون بالآخرة أن ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤].

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾

يُخبِر تعالى عن عَجَلَةِ الإنسان، ودُعائِهِ في بعضِ الأحيانِ على نفسه أو ولده أو ماله ﴿بِٱلشَّرِّ﴾، أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجابَ له ربُّه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]. وكذا فَسَّره ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ.

[٤١٨٥] وقد تقدَّم في هذا الحديثُ: «لا تَدْعُوا على أنفُسِكم ولا عَلَى أموالِكم، أن توافقوا من الله ساعةَ إجابةٍ يستجِيبُ فيها»[1]. وإنما يحمل ابنَ آدم على ذلك عَجَلتُه وقَلَقُه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾. وقد ذكر سلمانُ الفارسيُّ وابنُ عباس ها هنا قصة آدم ـ عليه السلام ـ حين هَمّ بالنهوض قائماً قبل

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٣٠٠٩ وابن حبان ٥٧٤٢.

أن تَصِل الروح إلى رجليه، وذلك أنه جاءته النفخةُ من قِبَل رَأْسِه، فلما وصلت إلى دِمَاغِه عَطِسَ، فقال: الحمد لله. فقال الله: يرحمُك ربُّك يا آدم. فلما وَصَلت إلى عينيه فَتَحهما، فلما سَرَت إلى أعضائه وجَسَده جَعَل ينظر إليه ويُعجِبُه، فَهمَّ بالنهوض قبلَ أن تَصِلَ إلى رِجْلَيه فلم يَسْتَطِعْ، وقال: يا ربِّ، عَجِّل قبلَ الليلِ.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا (١٢)﴾

يمتَن تعالى على خَلْقِه بآياته العِظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار؛ ليسكُنوا في الليل ويَنتشِرُوا في النهار، للمعايشِ والصنائِع والأعمالِ والأسفارِ، وليعلَمُوا عَدَد الأيام والجُمَعِ والشهورِ والأعوام، ويَعْرِفوا مُضيّ الآجال المَضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجاراتِ وغير ذلك، ولهذا قال: ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: في معايشكم وأسفارِكم ونحو ذلك، ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾، فإنه لو كان الزمان كُلُّه نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً، لما عرف شيءٌ من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٣]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥]. وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٩٦)﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٣٨)﴾ [يس: ٣٧، ٣٨]. ثم إنه تعالى جعل الليل آيةً، أي: علامةً يُعرَفُ بها، وهي الظلامُ وظهورُ القمر فيه، وللنهار علامة، وهي النورُ وظهورُ الشمس النيِّرة فيه، وفاوت بين ضياء القمر وضياء الشمس ليُعرفَ هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾، إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥، ٦]، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]... الآية.

قال ابن جُرَيج، عن عبد الله بن كثير في قولِهِ: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، قال: ظلمة الليل وسُدْفَة النهار. وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد: الشمس آية النهارَ، والقمرُ آية الليل. ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾، قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خَلَقَه الله تعالى. وقال ابن جُرَيج: قال ابن عباس: كان القمرُ يضيءُ كما تُضِيءُ الشمسُ، والقمرُ آيةُ الليل، والشمسُ آيةُ النهار، ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾: السواد الذي في القمر. وقد رَوَى أبو جعفر بنُ جَرير من طرق متعددة جيدة: أن ابن الكَوَّاء سأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللَّطْخَةُ التي في القمر؟ فقال: ويحكَ. أما تقرأُ القرآنَ: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ فهذه مَحوه. وقال قتادةُ في قولِهِ: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾: كنا نُحدَّث أن مَحوَ آيةِ الليل سَوادُ القَمرِ الذي فيه ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، أي: منيرة، وخَلَقَ الشمسَ أنورَ من القَمرِ وأعظم. وقال ابنُ أبي نَجيحٍ، عن ابن عباس: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾، قال: ليلاً ونهاراً، كذلكَ خَلَقهما اللهُ تعالى.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾

يقولُ تعالى بعد ذِكرِ الزمان، وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾. وطائِرُه: هو ما طَار عنه من عمله ـ كما قال ابنُ عباس ومجاهد وغير واحد ـ من خير وشر، يُلزم به ويُجَازي عليه، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]، وقال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٤]. وقال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧]، وقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]. والمقصودُ أن عمل ابن آدم محفوظٌ عليه، قليلُه وكثيرُه، ويُكتَب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً.

[٤١٨٦] قال الإمامُ أحمد: حدثنا قُتيبة، حدثنا ابن لَهيعَةَ، عن أبي الزُّبير، عن جابر: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «طائرُ كُلِّ إنسانٍ في عُنُقِه». قال ابن لهيعة: يعني الطِّيَرَةَ[1]. وهذا القولُ من ابن لَهيعة في تفسير هذا الحديث غَرِيبٌ جداً، والله أعلم.

وقولُه: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾، أي: نجمَعُ له عمله كله في كتابٍ يُعطاه يومَ القيامة، إما بيمينه إن كان سَعِيداً، أو بشماله إن كان شَقِيّاً. ﴿مَنشُورًا﴾، أي: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميعُ عَمله من أول عمره إلى آخره: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: ١٣ ـ ١٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾، أي: إنك تعلم أنَّك لم تُظلَم ولم يُكتَب عليكَ غير ما عَمِلْتَ، لأنك ذَكَرت جَميعَ ما كان منك، ولا يَنْسَى أحدٌ شيئاً مما كان منه، وكلُّ أحدٍ يقرأ كتابه من كاتب وأمي. وقولُه: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، إنما ذكر العُنُقَ، لأنه عضوٌ لا نَظِير له في الجسد، ومن أُلزِمَ بشيء فيه فلا مَحيدَ له عنه، كما قال الشاعر:

اذهَبْ بِهَا، اذهَبْ بِهَا طُوِّقتها طَوقَ الحَمَامَة

[٤١٨٧] قال قتادة، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ عن نبي الله ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا طِيَرَةَ، وكلُّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه»[2]. كذا رواه ابن جرير.

[٤١٨٨] وقد رواه الإمامُ عبدُ بن حُمَيد ـ رحمه الله ـ في مسنده مُتَّصِلاً[3]، فقال: حدثنا الحسن بن

---

(١) إسناده ضعيف، أخرجه أحمد ٣/ ٣٦٠، ح ١٤٤٦٤ من حديث جابر. قال الهيثمي في «المجمع» ١١٢٣: فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح! كذا قال الهيثمي رحمه الله، والصواب أن ابن لهيعة ضعيف الحديث، وليس الراوي عنه أحد العبادلة، وللحديث علة ثانية: أبو الزبير مدلس، وقد عنعن، فالإسناد ضعيف، وسيأتي عن قتادة عن جابر، ليس فيه تفسير ابن لهيعة وهو أصح.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢١٣١ مسنداً عن قتادة عن جابر: وفيه عنعنة قتادة.

(٣) الظاهر أن إسناد الطبري إلى قتادة سقط من النسخة التي اعتمدها الحافظ ابن كثير، لذا قال «رواه عبد بن حميد متصلاً» والله أعلم. وإسناد الطبري ثابت برقم ٢٢١٣١: حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا معاذ بن هشام، قال: ثني أبي، عن قتادة، عن جابر بن عبد الله، فذكره مرفوعاً.

موسى، حدثنا ابن لَهيعَةَ، عن أبي الزبير، عن جابر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «طَيرُ كلِّ عبدٍ في عُنُقِه»[(١)].

[٤١٨٩] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا علي بن إسحاقَ، حدَّثنا عبد الله، حدثنا ابن لَهيعَةَ، حدثني يَزيدُ: أن أبا الخير حَدَّثه: أنه سَمِع عُقبَةَ بنَ عامر[رضي الله عنه] يُحَدِّث عن النبي ﷺ قال: «ليس من عَمَلِ يوم إلاَّ وَهُو يُخْتَم عليه، فإذا مَرِضَ المؤمن قالت الملائكةُ: يا ربَّنا، عبدُك فلانٌ، قد حَبَسْتَه؟ فيقول الربـ ـ جل جلالُه ـ اختِمُوا له على مثل عمله، حتى يبرأ أو يموت»[(٢)]. إسنادٌ جيد قوي، ولم يُخرجوه. وقال مَعْمرٌ، عن قتادةَ: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، قال: عمله، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، قال: نخرج ذلك العمل ﴿كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾، قال معمرٌ: وتلاَ الحسنُ البَصريُّ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، يا ابنَ آدمَ، بَسطتُ لك صَحيفَتَك، وَوُكِّلَ بك مَلَكان كريمان، أحدُهما عن يَمينِك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفَظُ حَسَناتِك، وأما الذي عن يَسارِك فيحفظ سَيِّئاتِك، فاعمل ما شئت، أَقْلِل أو أكثر، حتى إذا متَّ طُويتْ صحيفتُك فجعلت في عنقك مَعَك في قَبْرِك، حتى تَخرُجَ يوم القيامةِ كتاباً تلقاه منشوراً، ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾، قد عدل ـ والله ـ عليك من جَعلك حَسِيبَ نَفْسِك. هذا من حَسَنِ كلام الحَسَن، رَحِمه الله.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

يُخبِرُ تعالى أن من اهتدَى واتَّبع الحقَّ واقتفى آثار النبوة فإنما يُحصِّل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾، أي: عَن الحق، وزاغ عن سبيلِ الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعودُ وبالُ ذلك عليه. ثم قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي: لا يحملُ أَحَدٌ ذنبَ أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسِه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾ [فاطر: ١٨]. ولا منافاةَ بين هذا وبين قَولِهِ تَعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]؛ فإن الدعاة عليهم إثمُ ضَلالهم في أنفسهم، وإثم آخرُ بِسبَبِ ما أضلوا مَن أضلُّوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً. وهذا من عَدْلِ الله ورحمتِهِ بعباده. وكذا قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾: إخبارٌ عن عدله تعالى، وأنه لا يُعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجَّةِ عليه بإرسال الرسولِ إليه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨ ـ ٩]، وكذا قولُه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]، إلى غير ذلك من الآياتِ الدالَّةِ على أن الله تعالى لا يُدخِلُ أحداً النارَ إلا بعد إرسال

---

(١) أخرجه أحمد ١٤٢٨١ (٣/٣٤٣) وفيه ابن لهيعة، لكن يقويه حديث قتادة المتقدم عن جابر، فإن رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد ٤/١٤٦ والطبراني ١٧/٢٨٤، وعبد الله بن المبارك حدث عن ابن لهيعة قبل الاختلاط فالإسناد لا بأس به، وله شواهد يتقوى بها انظر «مجمع الزوائد» ٢/٣٠٣ ـ ٣٠٤.

الرسول إليه. ومن ثَمَّ طعن جَماعةٌ من العلماء في اللفظة التي جاءت مُقْحَمَةً في صحيح البخاري، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

[٤١٩٠] حدثنا عُبَيد الله بن سعد، حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «اختصمتِ الجنةُ والنارُ»... فذكر الحديث إلى أن قال: «وأما الجنةُ فلا يظلم الله مِنْ خلقه أحداً، وإنه يُنشِيءُ[1] للنار خلقاً فَيُلقَون فيها، فتقول: هل من مزيد؟ ثلاثاً»... وذكر تمام الحديث. فهذا إنما جاء في الجنة لأنها دارُ فضل، وأما النار فإنها دار عدل، لا يدخُلها أحدٌ إلا بعد الإعذار إليه، وقيام الحجَّةِ عليه. وقد تَكَلَّم جماعةٌ من الحفاظ في هذه اللفظة، وقالوا: لعله انقلَبَ على الراوي،

[٤١٩١] بدليل ما أخرجاه في الصحيحين ـ واللفظ للبخاري ـ من حديث عبد الرزّاق، عن مَعْمَرٍ، عن هَمَّام، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «تحاجَّتِ الجنة والنار»، فَذَكر الحديثَ إلى أن قال: «فأما النارُ فلا تَمتلِيءُ حتى يَضَع فيها قَدَمه، فتقول: قَطْ، قَطْ، فهنالك تمتليءُ ويُزْوَى بعضُها إلى بعض، ولا يظلِمِ اللَّهُ من خَلقِهِ أحداً، وأما الجنة فإن الله يُنشِيءُ لها خَلْقاً»[2].

بَقِي ها هنا مسألةٌ قد اختلف العُلَماء فيها قَدِيماً وحديثاً، وهي الوِلدانُ الذين ماتُوا وهم صغار وآباؤهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنونُ والأصمُّ والشيخ الخَرِف، ومن مات في الفَتْرة ولم تبلغه دَعوة. وقد وردت في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه، ثم نذكر فصلاً مُلَخَّصاً من كلام الأئمة في ذلك، والله المستعان.

[٤١٩٢] فالحديث الأول عن الأسود بن سَرِيع: قال الإمام أحمدُ: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا مُعاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادَةَ، عن الأحنفِ بنِ قيس، عن الأسودِ بن سَرِيع ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ نبي الله ﷺ قال: «أربعة يحتجّون يوم القيامة: رجل أَصَمُّ لا يسمَع شيئاً، ورجل أحمَقُ، ورجل هَرِمٌ، ورجل مات في فَتْرَةٍ. فأما الأصمُّ فيقولُ: ربِّ، لقد جاء الإسلام وما أسمعُ شيئاً. وأما الأحمق فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام والصبيان يَحْذِفوني بالبَعْرِ. وأما الهَرِمُ فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام وما أعقِلُ شيئاً. وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ، ما أتاني لك رسولٌ. فيأخذُ مواثيقهم ليُطيعُنَّه، فيرسِلُ إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً»[3].

[٤١٩٣] وبالإسناد عن قتادة، عن الحَسَن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مثل هذا الحديث غير أنه قال في آخره: «فمن دخلها كانت عليه بَرْداً وسَلاَماً، ومن لم يدخلها يُسْحَبْ إليها»[4]. وكذا رواه إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد، من حديث حَنْبَل بن إسحاق، عن علي بن عبد الله المَدينيِّ، به، وقال: هذا إسناد صحيح.

---

(١) هذا الحديث عند البخاري ٧٤٤٩ بهذا الإسناد من حديث أبي هريرة، وقد جزم الحافظ ابن القيم رحمه الله بأن هذه الزيادة غلط من الراوي، وكذا أنكر هذه الرواية الحافظ البُلقيني. راجع فتح الباري ١٣/٤٣٧.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٤ وسيأتي في تفسير سورة ق عند آية: ٣٠ إن شاء الله.

(٣) أخرجه أحمد ٤/٢٤ والبزار ٢١٧٤ والبيهقي في «الاعتقاد» ص ١٣٥، وصحح إسناده الهيثمي في «المجمع» ٧/٢١٦.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٨٤١ ورجاله ثقات. وصحح إسناده الهيثمي في «المجمع» ٧/٢١٦ والبيهقي في «الاعتقاد».

[٤١٩٤] وكذا رواه حَمّاد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي رافع، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعةٌ كلُّهم يُدْلي على الله بحجة»[١]. . . فذكر نحوه.

ورواه ابنُ جرير، من حديث مَعْمَرٍ، عن هَمّام، عن أبي هُريرة، فذكره موقوفاً، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. وكذا رواه مَعْمرٌ، عن عبد الله بن طاووس، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً[٢].

[٤١٩٥] الحديث الثاني عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا الربيع، عن يزيد ـ هو ابنُ أبان ـ قال: قلنا لأنس: يا أبا حَمزةَ، ما تقول في أطفال المشركين؟ فقال: قال رسولُ الله ﷺ: «لم يكن لهم سيئاتٌ فَيُعذَّبوا بها، فيكونوا من أهل النار. ولم يكن لهم حسناتٌ فَيُجازَوا بها فيكونوا مُلُوك أهل الجنة، هم خَدَمُ أهل الجنة»[٣].

[٤١٩٦] الحديث الثالث عن أنس أيضاً: قال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا أبو خَيْثَمةَ، حدثنا جرير، عن لَيثٍ، عن عبد الوارث، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأربعةٍ يومَ القيمةِ: بالمولود، والمعتوهِ، ومن مات في الفترة، والشيخ الفاني الهِمِّ، كلهم يتكلَّم بحجته، فيقول الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ لِعُنُق من النار: ابرُزْ. ويقول لهم: إني كنتُ أبعَثُ إلى عبادي رُسُلاً من أنفسهم، وإني رَسُولُ نفسِي إليكم، ادخلوا هذه. قال: فيقولُ من كُتِب عليه الشقاء: يا رب، أنّى ندخُلُها ومنها كنا نَفِرُّ؟ قال: ومن كُتِبت عليه السعادةُ يمضي فَيقتَحِمُ فيها مسرعاً، قال: فيقول الله تعالى: أنتم لِرُسُلي أشدُّ تكذيباً ومعصية. فَيُدخِلُ هؤلاءِ الجنةَ، وهؤلاءِ النارَ»[٤]. وهكذا رواه الحافظُ أبو بكر البَزّار، عن يُوسُفَ بن موسى، عن جَرِيرِ بن عبد الحميدِ، بإسناده مثلَه.

[٤١٩٧] الحديثُ الرابع عن البَرَاء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ: قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده أيضاً: حدثنا قاسم بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله ـ يعني ابن داود ـ عن عمر بن ذَرٍّ، عن يزيدَ بن أُميَّةَ، عن البَرَاء ـ رضي الله عنه ـ قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن أطفال المسلمين، قال: هُم مع آبائهم. وسئل عن

---

(١) إسناده ضعيف لضعف علي بن زيد لكن يصلح للمتابعة.

(٢) وهو، وإن روي موقوفاً، فمثله لا يقال بالرأي، والمرفوع ورد من طرق، وعن جماعة من الصحابة. انظر الإحسان ٧٣٥٧ بتخريج الشيخ شعيب، وللحديث شواهد ستأتي، وقد قال الحافظ في «الفتح» ٣/ ٢٤٦: وقد صحت مسألة الامتحان في حق المجنون، ومن مات في الفترة من طرق صحيحة أهـ. باختصار.

(٣) ضعيف، أخرجه الطيالسي ٢١١١ وأبو يعلى، ٤٠٩٠ والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١١٩٥٦، وأبو نعيم ٦/ ٣٠٨ من حديث أنس، قال الهيثمي: في إسناد أبي يعلى، يزيد الرقاشي، وهو ضعيف، وقال ابن معين: رجل صدق، ووثقه ابن عدي، وبقية رجالهما ثقات أهـ، بل الصواب أن يزيد بن أبان واهٍ، روى مناكير كثيرة، قال النسائي: متروك، وقال الدارقطني وغيره: ضعيف، وقال ابن معين: في حديثه ضعف. ثم إن للحديث علة أخرى، فيه الربيع بن صبيح، ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما، وقال عفان: أحاديثه مقلوبة. والحديث ضعفه ابن كثير كما سيأتي قبل الحديث ٤٢١١، وكذا ضعفه الحافظ في «الفتح» ٣/ ٢٤٦. وورد من وجه آخر أخرجه البزار ٢٣٢ عن مبارك بن فضالة عن علي بن زيد عن أنس، لكن علي بن زيد ضعيف، روى مناكير كثيرة، وعنه مبارك بن فضالة وثقه قوم، وضعفه آخرون، وهو مدلس، وقد عنعن. ثم إن البزار كرره موقوفاً، لم يرفعه. والله أعلم.

(٤) أخرجه أبو يعلى ٤٢٢٤ والبيهقي في «الاعتقاد» ص ١٣٥ ـ ١٣٦ وإسناده ضعيف، لضعف ليث أبي سليم وكذا عبد الوارث مولى أنس.

أولاد المشركين فقال: هم مع آبائهم. فقيل: يا رسول الله، ما يعملون؟ قال: الله أعلم بهم[١]. ورواه عُمَر بن ذَرّ، عن يزيدَ بن أُمَيَّة، عن رَجل، عن البَرَاء، عن عائشة ـ رضي الله عنه ـ فذكره.

[٤١٩٨] الحديثُ الخامسُ عن ثوبان: قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عَمْرِو بن عبد الخالق البَزّارُ في مسنده: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهريّ، حدثنا ريحان بن سعيد، حدثنا عَبّاد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قِلابَةَ، عن أبي أسماءَ، عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ: أن نبيَّ الله ﷺ عَظّم شأن المسألة، قال: إذا كان يومُ القيامة، جاء أهلُ الجاهلية يحملون أوثانَهم على ظُهُورهم، فَيَسْألُهم ربُّهم، فيقولون: رَبَّنا لَمْ تُرْسِل إلينا رسولاً، ولم يَأْتِنا لك أمر، ولو أرسلْتَ إلينا رسُولاً لكنا أطوعَ عبادك. فيقول لهم ربُّهم: أرأيتُم إن أمرتُكم بأمر تطيعوني؟ فيقولون: نعم. فيأمُرُهم أن يَعْمِدُوا إلى جَهَنَّم فيدخلوها، فينطلِقُونَ حتى إذا دَنَوا منها وجدوا لها تَغَيُّظاً وزَفِيراً، فرجعوا إلى رَبِّهم فيقولون: ربنا أخرجنا ـ أو: أجرنا ـ منها، فيقول لهم: ألم تزعموا أنكم إن أمرتكم بأمر تطيعوني؟ فيأخذ على ذلك مواثيقَهم. فيقول: اعمِدُوا إليها، فادخلوها. فينطلقون حتى إذا رأوها فَرِقوا وَرَجَعُوا، فقالوا: ربنا فَرِقنا منها، ولا نستطيع أن ندخلها. فيقول: ادخُلُوها داخرين. فقال نبي الله ﷺ: لو دخلوها أَوّل مَرّةٍ كانت عليهم برداً وسلاماً»[٢]. ثم قال البَزّار: ومَتْنُ هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه، لم يَرْوِه عن أيوب إلا عَبّاد، ولا عن عَبّاد إلا ريحانُ بن سعيد. قلت: وقد ذكره ابن حِبّان في ثِقَاته. وقال يحيى بن مَعِين والنسائي: لا بأس به، ولم يرضه أبو داود. وقال أبو حاتم: شيخ لا بأس به، يكتب حديثه ولا يحتج به.

[٤١٩٩] الحديث السادس، عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سِنان الخُدري ـ رضي الله عنه ـ: قال الإمام محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا سعيد بن سليمان، عن فُضَيل بن مرزوق، عن عَطِيَّةَ، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [يؤتى] بالهالك في الفترة والمعتوه والمولود، يقول الهالك في الفترة: لم يأتني كتابٌ. ويقول المعتُوه: ربِّ، لم تجعل لي عقلاً أعقِلُ به خَيراً ولا شرّاً. ويقول المولود: ربِّ، لم أدرك العقل. فَتُرفع لهم نارٌ فيقال لهم: رِدُوها. قال: فَيَرِدُها من كان في علم الله سعيداً لو أدرَكَ العمَلَ، ويُمسِكُ عنها من كان في علم الله شَقيّاً لو أدرك العمل، فيقول: إيايَ عصيتم، فكيفَ لو أن رسلي أتتكم؟[٣] وكذا رواه البزار، عن محمد بن عُمَر بن هَيّاج الكوفي، عن عُبَيد الله بن موسى، عن فُضَيل بن مرزوق، به. ثم قال: لا يُعرف من حديث أبي سعيد إلا من طريقه، عن عطية، عنه. وقال في آخره: «فيقول الله: إياي عصيتم، فكيف برسلي بالغيب».

[٤٢٠٠] الحديث السابع، عن مُعَاذِ بن جَبَلٍ ـ رضي الله عنه ـ: قال هشام بن عَمّار، ومحمد بن المبارك الصُّورِيّ: حدثنا عَمْرو بن واقد، عن يونس بن حَلْبَس، عن أبي إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ عن نبي الله ﷺ قال: «يُؤتَى يومَ القيامةِ بالممسُوح عقلاً، وبالهالك في الفَتْرَةِ، وبالهالِكِ صَغِيراً. فيقول الممسُوح عقلاً: يا ربِّ، لو آتيتني عقلاً ما كان من آتيته عقلاً بأسعد بعقله مني. وذكر في

---

(١) إسناده ضعيف، فيه يزيد بن أمية. ذكره الذهبي في «الميزان» ٩٦٧١ فقال: يزيد بن أمية عن رجل عن البراء، مجهول، تفرد عنه عمر بن ذر اهـ.

(٢) في إسناده ضعف، أخرجه البزار ٣٤٣٣ و٣٤٣٤ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٣٤٧ وقال: رواه البزار بإسنادين ضعيفين اهـ. لكن له شواهد، تقدم بعضها وسيأتي شواهد أخرىٰ.

(٣) أخرجه البزار ٢١٧٦ وإسناده ضعيف، لضعف عطية العوفي.

الهالك في الفَتْرة والصَّغير نحوَ ذلك، فيقول الربُّ ـ عَزَّ وجلَّ ـ: إني آمركم بأمر فَتُطِيعُوني؟ فيقولونَ: نَعَم. فيقول: اذهبُوا فادخلُوا النارَ. قال: ولو دَخَلُوها ما ضَرَّتْهم، فَتُخرج عليهم قوابص، فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء، فيرجعون سراعاً، ثم يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك، فيقول الربُّ ـ عزَّ وجلَّ ـ: قبل أن أخلقكم عَلِمتُ ما أنتم عاملون، وعلى عِلْمِي خلقتكم، وإلى علمي تَصِيرون، ضُمِّيهم. فتأخذهم النار»[١].

[٤٢٠١] الحديث الثامن عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ: قد تقدم روايته مندرجةً مع رواية الأسود بن سَرِيع ـ رضي الله عنه ـ[٢].

[٤٢٠٢] وفي الصحيحين، عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسولَ الله ﷺ قال: «كلُّ مولود يُولَدُ على الفِطْرَةِ، فأبواهُ يُهَوِّدانه ويُنصِّرانه ويُمجِّسانه، كما تُنْتَج البهيمةُ بهيمةً جَمْعَاء، هل تحسّون فيها من جَدْعَاء»؟[٣]. وفي رواية قالُوا: يا رسول الله، أفرأيتَ من يموتُ صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[٤].

[٤٢٠٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبدُ الرّحمن بنُ ثابتٍ، عن عطاء بن قُرَّةَ، عن عبد الله بن ضَمْرة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ فيما أعلم، شَكَّ موسى ـ قال: «ذَرَاريّ المسلمين في الجنة، يكفُلُهم إبراهيم عليه السلام»[٥].

[٤٢٠٤] وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حِمَارٍ، عن رسولِ الله ﷺ عن الله ـ عَزّ وجلَّ ـ أنه قال: «إني خلقت عبادي حُنَفاء»[٦]. وفي رواية لغيره: مسلمين.

[٤٢٠٥] الحديث التاسعُ عن سَمُرة ـ رضي الله عنه ـ: رواه الحافظُ أبو بكر البَرْقانيّ في كتابه «المستخرج على البخاري» من حديث عَوْفٍ الأعرابي، عن أبي رَجَاءٍ العَطَاردي، عن سَمُرَة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ مولود يُولَد على الفِطْرَة. فنادَاه الناسُ: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: وأولادُ المشركين»[٧].

[٤٢٠٦] قال الطبراني: حدثنا عبدُ الله بن أحمدَ، حدثنا عقبة بن مُكْرَم الضبّي، عن عِيسى بن شُعَيب، عن عَبّاد بن منصور، عن أبي رجاءٍ، عن سَمُرةَ قال: سَألْنا رسولَ الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «هم خَدَمُ أهلِ الجَنّة»[٨].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٢٠/ ٨٣ وإسناده ضعيف فيه عمرو بن واقد. وهو متروك وبه أعله الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٢) تقدم برقم ٤١٩٣ و٤١٩٤.

(٣) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١١٩.

(٤) هذه الرواية عند مسلم ٦٦٥٨ ح ٢٣ وأخرجه البخاري ١٣٨٤ ومسلم ٢٦٥٩ والنسائي ٤/ ٥٨ وابن حبان ١٣١ من وجه آخر من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ٣٢٦ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢١٩ وقال: وفيه عبد الرحمن بن ثابت، وثقه المديني وجماعة، وضعفه ابن معين وغيره، وبقية رجاله ثقات اهـ.

(٦) تقدم مراراً.

(٧) عوف فمن فوقه رجال البخاري ومسلم، ولم يذكر المصنف من دون عوف.

(٨) ضعيف، أخرجه البزار ٢١٧٢، والطبراني ٦٩٩٣، وفي «الأوسط» كما في «المجمع» ١١٩٥٥ من حديث سمرة، =

[٤٢٠٧] الحديث العاشر، عن عم خَنساء: قال أحمد: أخبرنا رَوْحٌ، حدثنا عَوفٌ، عن خَنساءَ بنتِ معاويةَ، من بني صُرَيم قالت: حَدَّثني عَمِّي قال: قلتُ: يا رسولَ الله ـ من في الجنة؟ قال: «النبيُّ في الجنةِ، والشهيدُ في الجنةِ، والمولودُ في الجنةِ، والوئيدُ في الجنة»[١].

فمن العلماءِ من ذَهَب إلى التوقف فيهم لهذا الحديث. ومنهم من جَزَم لهم بالجنة:

[٤٢٠٨] لحديث سَمُرة بن جُندَب ـ رضي الله عنه ـ في صحيح البخاري: أنه ﷺ قال في جُملة ذلك المنام، حين مَرّ على ذلك الشيخ تحتَ الشجرةِ وحولَه ولدان، فقال له جبريلُ: «هذا إبراهيم عليه السلام، وهؤلاء أولادُ المسلمين وأولادُ المشركين، قالوا: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: نعم، وأولاد المشركين»[٢]. ومنهم من جَزَم أنهم في النار، لقوله ﷺ: «هم مع آبائهم»[٣]. ومنهم من ذهب إلى أنهم يُمْتَحنون يوم القيامة في العَرَصات، فمن أطاع دَخَل الجنة وانكشف علمُ الله فيه بسابق السعادَة، ومن عَصَى دخل النار داخراً، وانكشف علم الله فيه بتقدُّم الشقاوة. وهذا القولُ يجمع بين الأدلّة كلها، وقد صَرَّحت به الأحاديثُ المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضُها لبعضٍ، وهذا القولُ هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ـ رحمه الله ـ عن أهلِ السنّة والجماعة. وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي ـ رحمه الله ـ في «كتاب الاعتقاد»، وكذلك غيرُه من مُحَقِّقي العلماء والحفاظ النقاد. وقد ذَكَر الشيخ أبو عمر بن عبد البرّ النَّمَرِيّ ـ رحمه الله ـ بعض ما تقدم من أحاديث الامتحان، وقال: وأحاديث هذا الباب ليست قوية، ولا تقومُ بها حجة، وأهل العلم ينكرونها؛ لأن الآخرةَ دارُ جزاءٍ وليست دار عمل ولا ابتلاء، وكيف يُكَلَّفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يُكَلِّف نفساً إلا وُسْعَها؟.

والجواب عما قال: أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيحٌ، كما قد نصَّ على ذلك غير واحد من أئمة العلماء، ومنها ما هو حَسَن، ومنها ما هو ضعيف يَتقوىٰ بالصحيح والحسن. وإذا كانت أحاديثُ الباب الواحدِ متعاضدةً على هذا النمط، أفادت الحجّةَ عند الناظر فيها. وأما قولُه: «إنَّ الآخرةَ دارُ جزاء»، فلا شكَّ

= وقال الهيثمي: فيه عباد بن منصور وثقه يحيىٰ القطان، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات أهـ، قلت: إسناده ضعيف، جاء في «الميزان» ٤١٤١: عباد بن منصور، لم يرضه يحيىٰ بن سعيد ـ القطان ـ وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال ابن الجنيد: متروك، وضعفه النسائي، وقال يحيىٰ وأبو حاتم: يكتب حديثه مع ضعفه، وقال الساجي: ضعيف مدلس، وقال أحمد: روىٰ مناكير، وقال أبو الحسن بن القطان: كان يحيىٰ ابن سعيد، حسن الرأي فيه أهـ، فتلخص من ذلك أنه إلى الضعف أقرب، وفي الإسناد عيسىٰ بن شعيب البصري، قال الفلاس: صدوق، وقال ابن حيان: كان ممن يخطىء حتىٰ فحش خطؤه فاستحق الترك. وزاد الألباني في الصحيحة ١٤٦٨ شاهداً آخر فقال: رواه ابن مندة في «المعرفة» ١/ ٢/ ٢٦١ معلقاً: حدث إبراهيم ابن المختار عن محمد بن إسحق عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أبي مالك مرفوعاً، ثم قال الألباني: وهذا إسناد ضعيف، ابن إسحق مدلس، وقد عنعن، وإبراهيم بن المختار صدوق سيء الحفظ، ثم ذكر حديث أنس وحديث سمرة وذكر كلام الهيثمي ووافقه وحكم بصحة الحديث لشواهده، ولم يصب، فقد بينت وهن حديث سمرة وأنس. وأما حديث أبي مالك الذي استشهد به الألباني، واكتفىٰ بتضعيفه، فليس كذلك، فإن له علة ثالثة لم يذكرها وهي سعد بن سنان، قال الجوزجاني: أحاديثه واهية، وقال النسائي: منكر الحديث، وقال الدارقطني: ضعيف. ويزيد مدلس، وقد عنعن، وهو معلق فالخبر واهٍ بمرة لا شيء، ولا يصلح للاستشهاد به، فالخبر واهٍ، والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٠٩ و٥٨ وإسناده لين، حسناء مقبولة، لكن للحديث شواهد انظر «المجمع» ٧/ ٢١٩.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٨٦ و٧٠٤٧ وأحمد ٥/ ٨ ـ ٩ وابن حبان ٦٥٥ مطوّلاً.

(٣) تقدم برقم ٤١٩٧، ولهذه الفقرة شواهد، والله أعلم.

أنها دار جزاء، ولا ينافي التكليفَ في عَرَصاتها قبلَ دخولِ الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحَسَن الأشعريُّ عن مذهب أهل السنةِ والجماعةِ، من امتحان الأطفال، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [القلم: ٤٢].

[٤٢٠٩] وقد ثبتت السنة في الصحاح وغيرها: أن المؤمنين يَسجُدُون لله يوم القيامة، وأما المنافق فلا يَستَطِيعُ ذلك ويعود ظهره طَبَقاً واحداً كُلَّما أرادَ السجُودَ خَرَّ لِقَفَاه[١].

[٤٢١٠] وفي الصحيحَين في الرَّجُلِ الذي يَكُونُ آخرَ أهلِ النارِ خُرُوجاً منها: أنَّ الله يأخذُ عهودَه ومواثيقَه ألاَّ يَسألَ غيرَ ما هو فيه، ويتكرَّر ذلكَ مِراراً، ويقولُ الله تعالى: «يا ابنَ آدَمَ، ما أَغدَرَكَ! ثم يأذَنُ له في دُخُول الجنَةِ»[٢].

وأما قولُه: «وكيف يُكَلِّفُهم الله دخولَ النار، وليس ذلك في وُسْعِهم؟»، فليس هذا بمانعٍ من صحَّة الحديث، فإنَّ الله يأمرُ العباد يومَ القيامة بالجواز على الصراط، وهو جِسْرٌ على جهنم أَحَدُّ من السَّيفِ وأدقُّ من الشَّعْرَةِ، ويمرُّ المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبَرْقِ وكالرِّيح وكأجاويد الخيل والرِّكاب، ومنهم السَّاعي ومنهم الماشي، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المكدُوسُ على وَجْهِهِ في النار. وليس ما ورد في أولئك بأعظمَ من هذا، بل هذا أطمُّ وأعظَمُ. وأيضاً فقد ثَبَتَتِ السنّةُ بأن الدجالَ يكون معه جَنَّةٌ ونار، وقد أمر الشارعُ المؤمنين الذين يُدرِكُونه أن يشرَبَ أحدهم من الذي يرى أنه نار، فإنه يكونُ عليه بَرْداً وسَلاماً، فهذا نظير ذلك؛ وأيضاً فإن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتُلوا أنفُسَهم، فقَتَل بعضُهم بعضاً حتى قَتَلُوا فيما قيل في غَدَاةٍ واحدةٍ سبعين ألفاً، يقتلُ الرجلُ أباه وأخاه، وهم في عَمَايةِ غَمامةٍ أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبةٌ لهم على عبادتهم العِجْلَ، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لا يتقاصَرُ عما ورد في الحديث المذكور، والله أعلم.

فصل: إذا تقرَّر هذا، فقد اختلفَ الناسُ في ولدانِ المشركين على أقوالٍ: أحدُها: أنهم في الجنة.

[٤٢١١] واحتجوا بحديث سَمُرة ـ رضي الله عنه ـ أنه ﷺ رأى مع إبراهيم عليه السَّلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين[٣].

[٤٢١٢] وبما تقدم في رواية أحمد، عن حسناء، عن عمها أن رسول الله ﷺ قال: «والمولودُ في الجنة»[٤]. وهذا استدلالٌ صحيحٌ، ولكنَّ أحاديثَ الامتحانِ أخصُّ منه؛ فمن عَلِم الله ـ عزّ وجلّ ـ منهم أن يُطيع جعل رُوحَه في البَرْزَخ مع إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفِطْرَة، ومن عَلِم منهم أنه لا يُجيب، فأمرُه إلى الله تعالى، ويوم القيامة يكون في النار كما دَلَّت عليه أحاديث الامتحان، ونقله الأشعريُّ عن أهل السنّة والجماعة، ثم مِن هؤلاء القائلين بأنهم في الجنة مَنْ يَجعلهم مُستقلِّين فيها، ومنهم مَن يَجعلُهم خَدَماً لهم، كما جاء في حديث علي بن زَيدٍ[٥]، عن أنس، عند أبي داود الطيالسي، وهو ضعيف، والله أعلم.

---

(١) يأتي في سورة القلم إن شاء الله.
(٢) تقدم مطوّلاً.
(٣) هو المتقدم برقم ٤٢٠٨.
(٤) هو المتقدم برقم ٤٢٠٧.
(٥) كذا وقع في سائر النسخ. والصواب أن الطيالسي رواه من طريق يزيد الرقاشي عن أنس، والذي رواه عن علي بن زيد إنما هو البزار كما تقدم في الحديث رقم ٤١٩٥.

القولُ الثاني: أنّهم مع آبائهم في النار، واستدلّ عليه بما رواه الإمامُ أحمدُ بن حنبل، عن أبي المغيرة:

[٤٢١٣] حدثنا عُتبةَ بن ضَمْرة بن حَبيب، حَدَّثني عبد الله بن أبي قيس مولى غُطَيف، أنه أَتَى عائشة ؛ رضي الله عنها ـ فسألها عن ذَرَارِي الكفار فقالت: قال رسول الله ﷺ: هم تَبَع لآبائهم: فقلت: يا رسولَ اللّهِ، بلا عَمَلٍ؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين(١).

[٤٢١٤] وأخرجه أبو داود من حديث محمد بن حَرْب، عن محمد بن زياد الألهاني، سَمِعت عبد الله بن أبي قيس، سمعت عائشة تَقُول: سألت رسول الله ﷺ عن ذَرَارِي المؤمنين، قال: هم من آبائهم. قلت: فَذَرَارِي المشركين؟ قال: هم من آبائهم. قلت: بلا عمل؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين(٢).

[٤٢١٥] ورواه الإمامُ أحمد أيضاً، عن وكيع، عن أبي عَقِيل يحيى بن المتوكل، وهو متروكٌ، عن مولاته بُهَيَّةَ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ «أنها ذكرت لرسول الله ﷺ أطفال المشركين فقال: إنْ شِئْتِ أسمعتك تَضَاغِيَهم في النار»(٣).

[٤٢١٦] وقال عبد الله ابنُ الإمام أحمد: حدثنا عثمانُ بن أبي شيبة، عن محمد بن فُضَيل بن غَزْوان، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: سألَتْ خديجة ـ رضي الله عنها ـ رسولَ الله ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية، فقال: هما في النار. قال: فلما رأى الكراهية في وجهها قال: لو رأيت مكانهما لأبغضتِهما. قالت: فولدي منك؟ قال: إن المؤمنين وأولادَهم في الجَنَّةِ، وإن المشركين وأولادهم في النار. ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾(٤) [الطور: ٢١]، وهذا حَديثٌ غريبٌ، فإن في إسناده محمد بنَ عثمان مجهولُ الحال، وشيخُه زاذان لم يُدرِكْ علياً ـ رضي الله عنه ـ والله أعلم.

[٤٢١٧] وروى أبو داود من حديثِ ابن أبي زائدة، عن أبيه، عن الشَّعبيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «الوائدةُ والموءودةُ في النار»(٥). ثم قال الشعبي: حدثني به علقمة، عن أبي وائل، عن ابن مسعود [عن النبي ﷺ].

[٤٢١٨] وقد رواه جماعةٌ، عن داود بن أبي هند، عن الشَّعبي، عن عَلْقَمة، عن سَلَمَة بن قيس

---

(١) إسناده قوي. أخرجه أحمد ٦/ ٨٤، وفيه «مع آبائهم» بدل «تبع لآبائهم».

(٢) جيد، أخرجه أبو داود ٤٧١٢، وانظر صحيح أبي داود ٣٩٤٣.

(٣) ضعيف جداً، أخرجه أحمد ٦/ ٢٠٨ وابن الجوزي في «العلل» ١٥٤١، قال ابن الجوزي: لا يصح، قال أحمد بن حنبل: يحيىٰ بن المتوكل يروي عن بهية أحاديث منكرة وهو واهي الحديث. وقال يحيىٰ: ليس بشيء، وقال علي والفلاس والنسائي: ضعيف، وقال ابن حبان: ينفرد بأشياء ليس لها أصول، وقال السعدي: سألت عن بهية كي أعرفها، فأعيانا أهـ، وقال الحافظ في الفتح ٣/ ٢٤٦: إسناده ضعيف جداً أهـ. وتضاغيهم: أي صياحهم وضجيجهم.

(٤) والحديث ضعيف، أخرجه عبد الله في «المسند» ١١٣١، وابن أبي عاصم في «السنة» ٢١٣ عن علي عن خديجة، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٩٤٠: فيه محمد بن عثمان، ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح أهـ، وقال الذهبي في الميزان ٧٩٣٣: لا يدرىٰ من هو، فتشت عنه في أماكن، وخبره منكر، ثم ذكر هذا الحديث. وكذلك الإسناد منقطع بين علي وزاذان كما ذكر ابن كثير. وورد من وجه آخر أخرجه أبو يعلىٰ ٧٠٧٧ والطبراني ٢٣/ ١٦، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٩٤٢: رجالهما ثقات إلا أن عبد الله بن الحارث بن نوفل، وابن بريدة، لم يدركا خديجة أهـ، فالخبر منقطع.

(٥) أخرجه أبو داود ٤٧١٧ عن الشعبي مرسلاً، وكرره موصولاً ورجاله ثقات، وانظر صحيح أبي داود ٣٩٤٨.

الأشجعيِّ قال: أتيت أنا وأخي النبي ﷺ فقلنا: إنَّ أمنا ماتت في الجاهلية، وكانت تَقْرِي الضيفَ وتَصِلُ الرَّحِم، وإنها وأدت أختاً لَنا في الجاهلية لم تبلغ الحِنْثَ. فقال: الوائدَةُ والموءودَةُ في النار، إلا أن تُدرِكَ الوائدة الإِسلامَ فَتسلِمَ[1]. وهذا إسنادٌ حسنٌ.

والقولُ الثالث: التوقُّف فيهم، واعتمَدُوا على قوله ﷺ: «الله أعلمُ بما كانوا عاملين».

[٤٢١٩] وهو في الصحيحين من حديث جَعفرِ بن أبي إياسٍ، عن سعيد بنُ جبير، عن ابن عباس: سُئِل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين قال: «الله أعلَم بما كانوا عَامِلِين»[2].

[٤٢٢٠] وكذلك هو في الصحيحين، من حديث الزهري، عن عطاء بن يزيد، وعن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: أنه سُئِل عن أطفال المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[3]. ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف. وهذا القولُ يرجع إلى قول من ذَهَب إلى أَنَّهم من أهل الجنةِ، لأن الأعراف ليس دَارَ قرارٍ، ومآل أهلِها إلى الجنَّةِ كما تَقدَّم تقريرُ ذلك في «سورة الأعراف»، والله أعلم.

فصل: وَلْيُعلم أن هذا الخلافَ مخصوصٌ بأطفال المشركين، فأما وِلدانُ المؤمنين فلا خلافَ بين العلماء ـ كما حكاه القاضي أبو يَعلَى بن الفرّاء الحنبلي، عن الإِمام أحمد أنه قال: لا يُختلَفُ فيهم أَنّهم من أهل الجنة. وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذي نَقطَعُ به إن شاء الله تعالى. فأما ما ذكره الشيخُ أبو عمر بنُ عبد البرّ، عن بعض العلماء: أنهم توقَّفوا في ذلك، وأن الولدان كلهم تحت مَشِيئة الله تعالى، قال أبو عمر: ذهب إلى هذا القول جماعةٌ من أهل الفقه والحديث منهم: حمادُ بن زيد، وحمادُ بن سلَمة، وابنُ المبارك، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، قالوا: وهو يشبه ما رَسَم مالك في مُوطئه في أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث في ذلك، وعلى ذلك أكثر أصحابه. وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة، وأطفال الكفار تحت المشيئة. انتهى كلامه، وهو غريبٌ جداً. وقد ذَكَر أبو عبد الله القرطبي في كتاب «التذكرة» نحو ذلك أيضاً، والله أعلم.

[٤٢٢١] وقد ذَكَرُوا في ذلك حديث عائشة بنت طلحةَ، عن عائشة أُمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قالت: «دُعِي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبيٍّ من الأنصار، فقلتُ: يا رسول الله، طُوبى له عصفورٌ من عصافير الجنة. لم يعمَل السوءَ ولَم يُدْرِكه. فقال: «أوغير ذلك يا عائشة، إن الله خَلَق الجنةَ وخَلَق لها أهلاً وهم في أصلابِ آبائهم، وخَلَق النار وخَلَق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم»[4]. رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

ولما كان الكلامُ في هذه المسألة يحتاجُ إلى دلائلَ صحيحةٍ جيدةٍ، وقد يتكلَّم فيها من لا عِلْمَ عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، رُوِي ذلك عن ابن عباس، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن الحنفية وغيرهم.

---

(١) إسناده كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٨٣ و٦٥٩٧ ومسلم ٢٦٦٠ وأبو داود ٤٧١١ والنسائي ٤/ ٥٩.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٨٤ ومسلم ٢٦٥٩ وأحمد ٢/ ٢٥٩ والنسائي ٤/ ٥٨ وابن حبان ١٣١.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٦٢ وأبو داود ٤٧١٣ والنسائي ٤/ ٥٧ وابن ماجه ٨٢ وأحمد ٦/ ٤١ وابن حبان ١٣٨.

[٤٢٢٢] وأخرج ابن حبَّان في صحيحه، عن جرير بن حَازِم: سمعت أبا رَجَاء العَطَاردي، سَمِعتُ ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ وهو على المنبر يقول: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يزالُ أمر هذه الأمة مواتياً ـ أو: مُقَارِباً ـ ما لم يتكلَّموا في الولدان والقدر»[١]. قال ابن حِبَّان: يعني أطفال المشركين. وهكذا رواه أبو بكر البزَّار، من طريق جَرِير بن حازم، به. ثم قال: وقد رواه جماعةٌ عن أبي رَجَاءٍ، عن ابن عباس مَوقُوفاً.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾

اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ ـ فالمشهور قراءة التخفيف. واختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناه أَمرنا مترفيها فَفسقوا فيها أمراً قَدَرياً، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]؛ فإن الله لا يأمر بالفحشاء. قالوا: معناه أنه سَخَّرهم إلى فعل الفواحش، فاستحقوا العذاب، وقيل: معناه أَمَرناهم بالطاعاتِ فَفَعلُوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة. رواه ابن جُرَيج عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جُبَير أيضاً. وقال ابنُ جَرِير: وقد يحتمل أن يكون معناه: جعلناهم أمراء. قلت: هذا إنما يجيء على قراءة من قرأ: (أَمَّرْنا مترفيها)؛ قال علي بن طلحةَ، عن ابن عباس قوله: (أَمَّرْنا مترفيها ففسقوا فيها)، يقول: سَلَّطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]. وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والربيعُ بن أنس.

وقال العوفي: عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: (وإذا أردنا أن نُهلك قرية آمرنا مترفيها ففسقوا فيها)، يقول: أكثرنا عددهم. وكذا قال عكرمةُ، والحسنُ، والضحَّاكُ، وقتادةُ، وعن مالك، عن الزهريِّ: (آمرنا مترفيها): أكثرنا. وقد استشهد بعضُهم بالحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال:

[٤٢٢٣] حدثنا روحُ بن عُبادة، حدثنا أبو نَعَامة العدويُّ، عن مسلم بن بُدَيل، عن إياس بن زُهَير، عن سُوَيد بن هُبَيرَةَ، عن النبي ﷺ قال: «خيرُ مالِ امرىءٍ مُهرةٌ مأمورةٌ، أو سِكَّةٌ مأبورةٌ»[٢]. قال الإمام أبو عُبَيد القاسم بن سَلَّام ـ رحمه الله ـ في كتابه الغريب: المأمورةُ كثيرةُ النَّسْل. والسِّكَّة: الطريقةُ المصطفةُ من النخل. والمأبورة من التأبير. وقال بعضهم: إنما جاء هذا متناسباً، كقوله:

[٤٢٢٤] «مَأزُوراتٍ غير مَأجُوراتٍ»[٣].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى مُنذِراً كفَّار قريش في تكذيبهم رسولَه محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذِّبين للرسل من

---

(١) أخرجه ابن حبان ٦٧٢٤، والحاكم ١/ ٣٣، والبزار ٢١٨٠، والطبراني ١٢٧٦٤، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٢٠٢: رجاله رجال الصحيح، وصحح إسناده الشيخ شعيب، لكن أعله البزار بقوله: رواه جماعة، فوقفوه على ابن عباس. وقد أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» ٧٠٣ واللالكائي في «السنة» ١١٢٧ من طريق جرير بن حازم به موقوفاً، وهو أشبه، والله تعالى أعلم.

(٢) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٤، وهو حديث ضعيف.

(٣) إسناده ضعيف، أخرجه ابن ماجه ١٥٧٨ من حديث علي، وله قصة، قال البوصيري في «الزوائد»: دينار بن عمر أبو عمر، وإن وثقه وكيع وابن حبان، فقد قال الأزدي: متروك، وقال أبو حاتم: ليس بالمشهور، وقال الخليلي في «الإرشاد»: كذاب»، وإسماعيل بن سليمان، قال أبو حاتم صالح. لكن قال ابن حبان في «الثقات» يخطىء.

بعد نوح، ودلَّ هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ على الإسلام، كما قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلّهم على الإسلام. ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذَّبتم أشرَف الرسل وأكرم الخلائق، فعُقوبتكم أولى وأحرى. وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾، أي: هو عالمٌ بجميعِ أعمالِهم، خَيْرِها وَشرِّها، لا يخفى عليه منها خافيةٌ، سبحانه وتعالى.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

يُخبِرُ تعالى أنه ما كلُّ من طَلَب الدنيا وما فيها من النعيم يحصُل له، بل إنما يحصُل لمن أراد الله ما يشاء. وهذه مقيّدةٌ لإطلاقِ ما سواها من الآيات، فإنه قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿يَصْلَىٰهَا﴾، أي: يَدْخُلُها حتى تغمُرَه من جميع جوانبه، ﴿مَذْمُومًا﴾، أي: في حال كونه مذموماً على سوء تَصرُّفه وصَنيعه، إذِ اختار الفاني على الباقي، ﴿مَّدْحُورًا﴾، مُبعَداً مَقصِيّاً حقيراً ذليلاً مهاناً.

[٤٢٢٥] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسين، حدثنا ذُوَيد، عن أبي إسحاق، عن زُرْعَةَ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دارُ من لا دار له، ومالُ مَن لا مالَ له، ولها يجمع من لا عقلَ له»[1]. وقولُه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، أي: أراد الدارَ الآخِرَة وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾، أي: طَلَب ذلك من طريقه، وهو متابعةُ الرسولِ، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، أي: وقلبهُ مؤمن، أي: مُصدِّق مُوقِنٌ بالثواب والجزاء، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿كُلًّا﴾، أي: كلُّ واحد من الفريقين الذين أرادُوا الدنيا والذين أرادُوا الآخرة، نُمدُّهم فيما هم فيه ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾، أي: هو المتصرِّفُ الحاكم الذي لا يجورُ، فيعطي كُلاً ما يَستَحِقُّه من الشقاوة والسعادة. ولا رادَّ لحكمه، ولا مانعَ لما أعطى، ولا مُغيِّرَ لما أراد. ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، أي؛ ممنوعاً، أي: لا يمنعه أحدٌ ولا يردُّه رادٌّ. قال قتادةُ: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، أي: منقوصاً. وقال الحسن، وابن جُريج، وابن زيد: ممنُوعاً. ثم قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي: في الدنيا، فمنهم الغنيُّ والفقيرُ وبينَ ذلك، والحسنُ والقبيحُ وبين ذلك، ومن يموتُ صَغيراً، ومن يُعمَّرُ حتى يبقَى شيخاً كبيراً، وبين ذلك، ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، أي: وَلَتَفاوُتُهم في الدَّار الآخرةِ أكبرُ من الدنيا، فإن منهم مَن يكون في الدَّركاتِ في جَهنّم وَسَلاسِلِها وأغلالها، ومنهم مَن يكونُ في الدرجات العُلَى وَنعيمِها وسُرُورِها ثم أهلُ الدَّركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أنَّ أهلَ الدرجاتِ مُتفاوِتُونَ، فإنَّ الجنةَ مائةُ درجةٍ ما بين كلِّ درجَتَينِ كما بين السماءِ والأرضِ.

---

(١) تقدم في سورة البقرة: ٢١٢.

[٤٢٢٦] وفي الصحيحين: «إن أهل الدرجات العُلَى ليرَوْنَ أهلَ عِلّيين كما ترَون الكوكبَ الغَابِر في أُفُق السَّماءِ»[١]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

[٤٢٢٧] وفي الطبراني، من رواية زاذان، عن سلمان مرفوعاً: «ما من عبدٍ يريد أن يرْتَفِعَ في الدنيا دَرَجةً فارتفعَ إلا وَضَعَه الله في الآخرة أكبَرَ منها»، ثم قرأ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[٢].

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

يقولُ تعالى: والمرادُ المكلَّفون من الأمّةِ، لا تجعَلْ أيها المُكلَّف في عبادَتِك رَبّكَ له شَرِيكاً، ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ على شِرْكك به ﴿مَّخْذُولًا﴾، لأن الربَّ تعالى لا ينصُرك، بل يَكِلُك إلى الذي عَبَدت معه، وهو لا يَملِكُ لك ضرّاً ولا نفعاً، لأن مالك النَّفع والضَّر هو الله وحده، لا شريكَ له.

[٤٢٢٨] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد الزُبيري، حدثنا بشير بن سَلْمَانَ، عن سَيَّار أبي الحكم، عن طَارِق بن شِهَاب، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقةٌ فأنزلها بالناس لم تُسدّ فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما غنىً آجلٍ، وإما غِنىً عاجلٍ»[٣]. ورواه أبو داود، والترمذي من حديث بَشِير بن سَلْمَانَ، به، وقال الترمذيُّ: «حسنٌ صَحيحٌ غَرِيب».

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له؛ فإن القضاء ها هنا بمعنى الأمر، قال مجاهد: ﴿وَقَضَىٰ﴾، يعني: وَصّى. وكذا قرأ ذلك أبيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، والضحّاك بن مُزَاحم. «ووَصّى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه» ولهذا قَرَن بعبادته برّ الوالدين فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، أي: وأمر بالوالدين إحساناً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾. وقولُه: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾، أي: لا تُسْمِعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مَراتِب القول السيِّيء، ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾، أي: ولا يصدُر منك إليهما فعلٌ قبيحٌ، كما قال عطاء بنُ أبي رَبَاحٍ في قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: ولاَ تَنْفُض يدك على والديك. ولما نهاه عن القول القَبيح والفِعْل القَبِيح، أمره بالقول الحَسَنِ والفِعْل الحَسَنِ، فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، أي: لَيِّناً طيباً حَسَناً بأدبٍ وتوقير وتعظِيمٍ. ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٥٦ ومسلم ٢٨٣١ من حديث أبي سعيد الخدري وصدره «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم...».

(٢) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني ٦١٠١، وأبو نعيم في «الحلية» ٤/ ٢٠٤، قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٢٤: فيه أبو الصّباح عبد الغفور، وهو متروك.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ١٦٤٥ والترمذي ٢٣٢٧ وأحمد ١/ ٤٠٧ وأبو يعلى ٥٣١٨، صححه الحاكم ٢/ ٤٠٨ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾، أي: تواضعْ لهما بفِعْلِكَ، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾، أي: في كِبَرِهما وعند وَفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾. قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: ثم أنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣].

وقد جاء في برِّ الوالدين أحاديثُ كثيرة، منها:

[٤٢٢٩] الحديث المرويُّ من طُرُق عن أنس وغيره: أنّ رسولَ الله ﷺ لما صَعِد المنبر قال: «آمين، آمين، آمين. فقالوا: يا رسولَ الله، عَلامَ أمَّنتَ؟» قال: أتاني جبريلُ فقال: يا محمد، رَغِم أنفُ امرىءٍ ذُكِرتَ عنده فلم يُصلِّ عليك، قل: آمين. فقلتُ: آمين. ثم قال: رَغِمَ أنفُ امرىءٍ دخل عليه شهرُ رمضانَ ثم خَرَج فلم يُغفرَ له، قل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رَغِم أنفُ امرىءٍ أدرَك أبويه أو أحدَهما فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين. فقلتُ: آمينَ»[(١)].

[٤٢٣٠] حديثٌ آخرُ، وقال الإمام أحمدُ: حدثنا هُشَيم، حدثنا علي بن زيد، أخبرنا زُرارةُ بن أوفى، عن مالك بن الحارث، رَجُل منهم، أنه سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقول: «من ضَمَّ يتيماً بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حَتَّى يستغني عنه، وَجَبت له الجنةُ البتةَ. ومن أعتقَ امرأً مسلماً كان فَكاكَه من النار، يُجزي بكلِّ عُضوٍ منه عضواً منه»[(٢)].

[٤٢٣١] ثم قال: حدَّثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعبة: سَمِعتُ عليَّ بن زيد... فذكر معناه، إلا أنه قال: عن رجل من قومه يقال له: مالك أو ابن مالك، وزاد: ومن أدرَكَ والديه أو أحدَهما، فدخلَ النار، فأبعده الله»[(٣)].

[٤٢٣٢] حَديثٌ آخرُ، وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عفان، حدثنا حَمّاد بن سَلَمة، أخبرنا علي بن زيد، عن زُرارة بن أوفى، عن مالك بن عمرو القُشَيري: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من أعتَقَ رقبةً مسلمةً فهي فِداؤه من النار، مكان كل عظم من عظام مُحَرِّرِه بعظم من عظامه، ومن أدرك أحدَ والديه ثم لم يُغفر له فأبعده الله عَزَّ وجَلَّ. ومن ضَمَّ يتيماً بين أبوينِ مُسْلِمَين إلى طعامه وشرابه حتى يُغنِيَه الله وَجَبت له الجنةُ»[(٤)].

[٤٢٣٣] حديث آخرُ، وقال الإمام أحمدُ: حدثنا حجّاجٌ ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا شعبةُ، عن قتادة، سَمِعتُ زُرارةَ بن أوفى يُحدِّث عن أُبيّ بن مالك القُشَيري قال: قال النبي ﷺ: «من أدركَ وَالِدَيه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك، فأبعده الله وأسحقه»[(٥)]. وَرَواه أبو داودَ الطَّيالسيُّ عن شُعبةَ، به. وفيه زياداتٌ أُخرُ.

[٤٢٣٤] حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عَفّان، حدثنا أبو عَوَانة، حدثنا سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «رَغِمَ أنفُ، ثم رَغِمَ أنفُ، ثم رَغِمَ أنفُ رجلٍ أدرَكَ

---

(١) حسن. أخرجه البزار كما في «المجمع» ١٠/١٦٦ من حديث أنس وقال: وفيه سلمة بن وردان، وهو ضعيف، وقد قال البزار: صالح، ورقية رجاله رجال الصحيح اهـ. وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ٦٤٦ وإسماعيل القاضي ١٨ وابن حبان ٩٠٧ من حديث أبي هريرة وإسناده حسن.

وفي الباب من حديث جابر عند البخاري في «الأدب المفرد» ٦٤٤. وانظر «المجمع» ١٠/ ١٦٤ ـ ١٦٧.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ٥/ ٢٩ (١٩٨١٩) وإسناده ضعيف لضعف علي بن زيد لكن له شواهد.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ٥/ ٢٩ (١٩٨١٨) وهو حسن لشواهده.

(٤) حسن. أخرجه أحمد ٤/ ٣٤٤ وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/ ١٣٩ ـ ١٤٠: وإسناده حسن. وله شواهد.

(٥) صحيح. أخرجه أحمد ٤/ ٣٤٤ وإسناده صحيح، وله شواهد.

وَالِدَيه، أحدهما أو كِلاهما عند الكِبَرِ، ولم يَدْخُلِ الجنة»[1]. صحيحٌ من هذا الوَجْهِ، ولم يُخرِجْه سوى مسلم، من حديثِ أبي عَوانَةَ وجَرِير وسُلَيمان بن بِلاَلٍ، عن سُهَيلٍ، به.

[٤٢٣٥] **حديثٌ آخرُ**، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا رِبعيُّ بن إبراهيم. قال أحمدُ: وهو أخو إسماعيل بنُ عُلَيَّةَ، وكان يُفَضّل على أخيه، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِم أنفُ رَجُلٍ ذُكرتُ عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ. وَرَغِم أنفُ رَجُلٍ دخل عليه شهرُ رمضانَ فانسلخ قبل أن يُغفَرَ له، وَرَغم أنفُ رَجُلٍ أدرك عنده أبواه الكِبَرَ فلم يدخلاه الجنة». قال رِبْعيٌّ: ولا أعلمه إلا قال: «أو أحدهما»[2]. ورواه الترمذي، عن أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقي، عن ربعيّ بن إبراهيم، ثم قال: غريبٌ من هذا الوَجْهِ.

[٤٢٣٦] **حديثٌ آخرُ**، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يونُس بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن الغَسِيل، حدثنا أَسيدُ بن علي، عن أبيه علي بن عُبَيدٍ، عن أبي أسيد وهو مالك بن ربيعة السَّاعِدي قال: «بينما أنا جالسٌ عندَ رسولِ الله ﷺ إذ جاءه رجلٌ من الأنصار فقال: يا رسولَ الله، هل بقي عليَّ من برِّ أبَوَيَّ شيء بعد موتهما أبرُّهما به؟ قال: نعم، خصال أربع: الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عهدهما، وإكرامُ صَدِيقهما، وصِلَة الرحم التي لا رَحِم لك إلا من قِبَلِهما، فهو الذي بَقِي عليك مِن برِّهما بعد موتهما»[3]. ورواه أبو داودَ وابن ماجَه، من حديثِ عبد الرَّحمنِ بن سُلَيمان، وهو ابن الغَسِيل، به.

[٤٢٣٧] **حديثٌ آخرُ**، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا رَوْحٌ، أخبرنا ابن جُرَيج، أخبرني محمد بن طلحةَ بن عبد الله بن عبد الرحمن، عن أبيه، عنه معاوية بن جاهِمَةَ السُّلمي: أن جاهمة ـ رضي الله عنه ـ جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أردتُ الغَزْو، وَجِئتُكَ أستَشِيرُك؟ فقال: هلْ لَكَ من أُمٍّ؟ قال: نعم. فقال: الزَمْها، فإنَّ الجنةَ عند رِجلِها، ثم الثانيةَ ثم الثالثةَ، في مَقَاعِدَ شتى، كَمِثْلِ هذا القَوْلِ[4]. ورواه النَّسائي وابن ماجَه، من حديث ابن جُريج، به.

[٤٢٣٨] **حديثٌ آخرُ**، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا خَلَف بنُ الوليد حدثنا ابن عَيَّاش، عن بَحِير بن سَعدٍ، عن خالد بنِ مَعْدَان، عن المِقْدام بن مَعْدِ يكرب الكِنْدِيِّ، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله يُوصِيكم بآبائكم، إن الله يُوصِيكُم بأُمَّهاتكم، إنَّ الله يُوصِيكم بأُمَّهاتكم، إنَّ الله يُوصِيكُم بأُمَّهاتكم، إنَّ الله يُوصِيكُم بالأقربِ فالأقربِ»[5]. وقد أخرجه ابنُ ماجه، من حديث ابن عياش، به.

[٤٢٣٩] **حديثٌ آخرُ**، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يونسُ، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن أشعث بن سُلَيم، عن أبيه، عن رجل من بني يَرْبُوع قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ فسمعتُه وهو يُكَلِّم الناسَ يقولُ: «يَدُ المعطِي العُلْيا. أُمَّك وأَبَاك، وأُختَك وأَخاك، ثم أدنَاك أدناك»[6].

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٥١ وأحمد ٢/ ٣٤٦.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٥٤٥ وأحمد ٢/ ٢٥٤ وابن حبان ٩٠٨.

(٣) أخرجه أبو داود ٥١٤٢ وابن ماجه ٣٦٦٤ وأحمد ٣/ ٤٩٨ وفيه علي بن عبيد، قال الذهبي في الميزان: لا يُعرف، وانظر ضعيف أبي داود ١١٠١.

(٤) حسن. أخرجه النسائي في «الكبرى» ٤٣١٢ وابن ماجه ٢٧٨١ وأحمد ٣/ ٤٢٩.

(٥) حسن. أخرجه ابن ماجه ٣٦٦١ وأحمد ٤/ ١٣١ و١٣٢ وإسناده حسن، وله شواهد.

(٦) صحيح، أخرجه أحمد ٤/ ٦٤ ـ ٦٥ و٥/ ٣٧٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٣/ ٩٨: ورجاله رجال الصحيح.

[٤٢٤٠] حديثٌ آخرُ، قال الحافظ أبو بكر أحمدُ بن عَمْرو بنِ عبد الخالق البَزّارُ في مُسنَدِه: حدثنا إبراهيم بن المستمر العُرُوقي، حَدّثنا عمرو بن سُفيان، حدثنا الحسنُ بن أبي جَعفرٍ، عن ليث بن أبي سُلَيم، عن علقمةَ بن مَرْثَدٍ، عن سليمان بن بُرَيدةَ، عن أبيه: أنّ رَجُلاً كان في الطواف حَامِلاً أُمّه يطوفُ بها، فسأل النبيَّ ﷺ: هل أديتُ حقَّها؟ قال: لا، ولا بزَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ، أو كما قال[١]. ثم قال البزّار: لا نعلَمُه يُروَى إلا من هذا الوجه. قلت: والحسن بنُ أبي جَعفرٍ ضعيف، والله أعلم.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

قال سعيد بن جُبَير: هو الرجل تكونُ منه البادِرَةُ إلى أبويه، وفي نِيَّته وقلبه أنه لا يُؤخَذُ به. وفي رواية: لا يُريدُ إلا الخيرَ بذلك، فقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾. وقولُه تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾، قال قتَادة: للمطيعين أهلِ الصلاة. وعن ابن عباس: المسبِّحين. وفي رواية عنه: المُطِيعين المُحسِنين. وقال بعضُهم: هم الذين يُصَلُّون بين العِشَاءين. وقال بعضُهم: هم الذين يُصَلُّون الضحى. وقال شعبة، عن يحيى بن سَعيد، عن سَعِيد بن المسيَّب في قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾، قال: الذي يُصِيب الذنب ثم يتُوب، ويُصِيب الذنب ثم يتوبُ. وكذا رواه عبد الرزاق، عن الثوري ومعمر، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيَّب، به. وكذا رواه الليث وابن جُرَيج، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيَّب به. وكذا قال عطاء بن يسار.

وقال مجاهد، وسعيد بن جُبَير: هم الراجعون إلى الخير. وقال مجاهد، عن عُبَيد بن عُمَير في قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾، قال: هو الذي يذكر ذنوبه في الخَلاَء، فيستغفر الله منها. ووافقه مجاهدٌ في ذلك. وقال عبد الرزّاق: أخبرنا محمد بن مُسلِمة، عن عمرو بن دينار، عن عُبَيد بن عُمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾، قال: كُنّا نعد الأواب الحفيظ، أن يقول: اللهمّ اغفِرْ لي ما أحببتُ في مجلسي هذا. قال ابنُ جرير: «والأولَى في ذلك قولُ مَن قال: هو التائبُ من الذنب، الراجعُ عن المعصية إلى الطاعة، مما يكرهُ الله إلى ما يحبه ويرضاه. وهذا الذي قاله هو الصوابُ: لأن الأوّاب مشتق من الأوْبِ، وهو الرجوعُ، تقول: آب فلانٌ إذا رَجَعَ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [الغاشية: ٢٥].

[٤٢٤١] وفي الحديث الصَّحيحِ أنّ رسول الله ﷺ كان إذا رَجَع من سفر قال: «آيبون تائبون عابدون، لربّنا حامدون»[٢].

﴿وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

لما ذَكَر تعالى برَّ الوالدين، عَطَف بذكر الإحسان إلى القرابة وصِلَةِ الأرحام.

[٤٢٤٢] كما تقدم في الحديث: «أُمّك وأباك، ثم أدناك أدناك»، وفي رواية: «ثم الأقرب فالأقرب»[٣].

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني في «الصغير» ٢٥٥ من هذا الوجه بنحوه، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨/ ١٣٧ وقال: وفيه الحسن بن أبي جعفر، وهو ضعيف من غير كذب، وليث بن أبي سليم مدلس اهـ.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٧٩٧ ومسلم ١٣٤٤ وأبو داود ٢٧٧٠ وأحمد ٢/ ٦٣ وابن حبان ٢٧٠٧ من حديث ابن عمر مطوّلاً.

(٣) تقدم برقم ٤٢٣٩.

[٤٢٤٣] وفي الحديث: «مَن أحَبَّ أنْ يُبسطَ له في رزقه وينسَأ له في أجله، فَلْيَصِلْ رَحِمَه»[١].

[٤٢٤٤] وقال الحافظ أبو بكر البَزّار: حدثنا عَبّاد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التيمي، حدثنا فُضَيل بن مرزوق، عن عَطِيّة، عن أبي سعيد قال: لما نَزلت هذه الآيةُ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾، دعا رسولُ الله ﷺ فاطمة فأعطاها «فَدَك»[٢]. ثم قال: لا نعلم حَدّث به عن فُضَيلِ بن مَرْزوقٍ إلا أبو يحيى التيمي، وحُمَيد بن حَمّاد بن أبي الخَوّار. وهذا الحديث مشكلٌ لو صحّ إسنادُه؛ لأنّ الآيةَ مكية، وفَدَك إنما فتحت مع خيبر سنة سَبْع من الهجرة، فكيفَ يلتئمُ هذا مع هذا؟. فهو إذاً حديث مُنكر، والأشبه أنه من وَضْعِ الرافضةِ. والله أعلم.

وقد تقدَّم الكلامُ على المساكين وابن السبيل في «سورة براءة» بما أغنى عن إعادته ها هنا. وقولُه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾، لما أَمَر بالإنفاق نَهَى عن الإسراف فيه، بل يكون وَسَطاً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧]. ثم قال مُنفِّراً عن التبذير والسَّرَف: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، أي: أشباههم في ذلك. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: والتبذير الإنفاق في غير حق. وكذا قال ابن عباس. وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مُبذراً. ولو أنفق مُدّاً في غير حقه كان تبذيراً. وقال قتادةُ: التبذيرُ الإنفاق في المعصية، وفي غير الحق وفي الفساد.

[٤٢٤٥] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ليث، عن خالد بن يزيدَ، عن سَعيد بن أبي هلال، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: أتى رجلٌ من بني تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إنّي ذو مالٍ كثيرٍ، وذو أهلٍ وَوَلدٍ وحاضِرَةٍ، فأخبرني: كيف أُنفِقُ وكيف أصنَعُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: تخرِجِ الزكاة من مالك، فإنها طُهرَة تُطَهِّرك، وتَصِلُ أقرباءك، وتَعرف حقَّ السائلِ والجار والمسكين. فقال: يا رسول الله، أقلل لي؟ قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦﴾، فقال: حَسبي يا رسول الله، إذا أديتُ الزكاةَ إلى رسولِكَ فقد بَرِئتُ منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «نعم إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها، فلك أجرُها، وإثمُها على من بَدلها»[٣].

وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، أي: في التّبذير والسَّفَهِ، وتَرْكِ طاعةِ الله وارتكاب معصيته. ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾، أي جَحُوداً، لأنه أنكر نعمةَ الله عليه، ولم يعمَلْ بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته. وقولُه: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾، أي: وإذا سَألك أقرباؤك ومن أمَرناك بإعطائهم، وليس عندك شيءٌ، وأعرضت عنهم لفقد النفقة، ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾، أي: عدهم وَعْداً بسهولة ولين: إذا جاء رِزقُ الله فَسَنَصِلكم إن شاء الله. هكذا فَسَّر قوله: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ بالوعد ـ مجاهدُ، وعكرمةُ، وسعيدُ بن جُبَير، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرُ واحد.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٨٦ ومسلم ٢٥٥٧ وأحمد ٣/ ٢٢٩ وابن حبان ٤٣٨.

(٢) باطل، أخرجه أبو يعلى ١٠٧٥ و ١٤٠٩، والطبراني كما في «المجمع» ١١١٢٥، وإسناده ضعيف جداً. قال الهيثمي: فيه عطية العوفي، ضعيف متروك أهـ، وله علة ثانية: فضيل بن مرزوق، وإن وثقهُ ابن عيينة وابن معين، فقد ضعفه النسائي والدارمي، وقال الحاكم: عيب على مسلم إخراجه له في الصحيح. وقال ابن حبان: منكر الحديث جداً، يروي عن عطية الموضوعات، قال الذهبي: عطية أضعف منه، وضعفه ابن معين أهـ الميزان ٦٧٧٢.

(٣) جيد. أخرجه أحمد ٣/ ١٣٦ والطبراني في «الأوسط» ٨٧٩٧ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣/ ٦٣ وقال: ورجاله أحمد رجال الصحيح.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش، ذامّاً للبخل، ناهياً عن السَّرَف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، أي: لا تكُن بخيلاً مَنُوعاً، لا تُعطِي أحداً شيئاً، كما قالت اليهودُ ـ عليهم لعائنُ الله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، أي: نَسَبوه إلى البخل، تعالى وتقدّس الكريم الوهاب. وقولُه: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾، أي: ولا تُسرِف في الإنفاق، فتعطيَ فوقَ طاقَتِك، وتُخرجَ أكثر من دَخلِك، فتقعد ملوماً محسوراً. وهذا من باب اللَّف والنَّشر، أي: فتقعد إن بَخِلت ملوماً، يلومُك الناسُ ويذمُّونك ويستغنُونَ عنك، كما قال زُهَير بن أبي سُلمى في المعلَّقة:

وَمَنْ كَانَ ذا مَال يَبْخَلْ بِمَالِهِ عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ ويُذْمَمِ

ومتى بَسَطت يدَك فوق طاقتك قَعَدت بلا شَيءٍ تنفقه، فتكون كالحسير ـ وهو: الدابَّةُ التي قَد عَجَزت عن السير، فوقفت ضَعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحَسِير، وهو مأخوذ من الكِلال، كما قال تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٣، ٤]، أي: كليلٌ عن أن يرى عيْباً. هكذا فَسَّر هذه الآيةَ بأن المرادَ منها البخل والسرف ابنُ عباس، والحسنُ، وقتادةُ، وابنُ جُريج، وابنُ زيد، وغيرهم.

[٤٢٤٦] وقد جاء في الصحيحَيْن، من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ أنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: مثلُ البَخِيل والمُنفِق كَمَثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد، من ثُدِيِّهما إلى تَرَاقيهما. فأما المنفق فلا يُنفِقُ إلا سَبغَت ـ أو: وَفَرَت ـ على جلده، حتى تُخفِيَ بَنَانه وتَعفُوَ أثره. وأما البخيلُ فلا يُريدُ أن يُنفِقَ شيئاً إلا لَزِقَت كُلُّ حَلْقةٍ مكانها، فَهو يُوَسِّعها ولا تَتَسع»[١]. هذا لفظ البخاري في «الزكاة».

[٤٢٤٧] وفي الصحيحين، من طريق هِشام بن عُروة، عن زوجته فاطمةَ بنتِ المنذر، عن جَدَّتها أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنفِقي هكذا وهكذا وهكذا، ولا تُوعِي فَيُوعِيَ الله عليك، ولا تُوكِي فَيُوكِيَ اللهُ عليك». وفي لفظ: «ولا تُحصِي فَيحصِيَ الله عليك»[٢].

[٤٢٤٨] وفي صحيح مسلم من طريق عبد الرزّاق، عن مَعْمَر، عن هَمّام، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن الله قال لي: أَنفِقْ أُنفِقْ عليك»[٣].

[٤٢٤٩] وفي الصحيحين من طريق مُعَاوية بن أبي مُزَرِّد، عن سعيد بن يَسَار، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من يوم يُصبح العبادُ فيه إلا ومَلَكَانِ يَنْزِلان من السماء، يقول أحدهما: اللهم أعطِ مُنفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهم أَعْطِ ممسكاً تَلَفاً»[٤].

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٤٤٣ ومسلم ١٠٢١.
(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٤٣٣ ومسلم ١٠٢٩ وأحمد ٦/ ٣٤٥ وابن حبان ٣٢٠٩.
(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٩٩٣ ح ٣٧.
(٤) صحيح. أخرجه البخاري ١٤٤٢ ومسلم ١٠١٠.

[٤٢٥٠] وروى مسلم، عن قُتَيبة، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «ما نَقَص مالٌ من صَدَقة، وما زادَ الله عبداً بِعَفو إلا عزّاً، ومن تَواضَعَ لله رفعه الله»[١].

[٤٢٥١] وفي حديث أبي كثير، عن عبد الله بن عَمْرو ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: «إياكم والشحَّ، فإنه أهلك من كان قَبْلَكم، أمرهم بالبُخل فَبَخِلُوا، وأمَرَهم بالقَطيعة فَقطعوا، وأمرهم بالفجور فَفَجَرُوا»[٢].

[٤٢٥٢] وروى البيهقي من طريق سعْدان بن نصر، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن ابن بُرَيدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يخرج رَجُلٌ صدقةً حتى يَفُكَّ لَحْيي سبعين شيطاناً»[٣].

[٤٢٥٣] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو عُبَيدة الحداد، حدثنا سُكَين بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم الهَجَري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد»[٤].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾: إخبارٌ أنَّه تعالى هو الرزّاق، القابضُ الباسط، المتصرِّفُ في خلقه بما يشاء، فَيُغني من يشاء ويُفقِر من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾، أي: خَبيرٌ بصيرٌ بمن يستحقّ الغِنَى ومن يستحقّ الفقر، كما جاء في الحديث:

[٤٢٥٤] «إنَّ من عبادي لمَنْ لا يُصلِحه إلا الفقر ولو أغنيتُه لأفسدتُ عليه دينه. وإنَّ من عبادي لمن لا يُصلِحُه إلا الغِنَى ولو أفقرتُه لأفسدتُ عليه دينَه»[٥]. وقد يكون الغنى في حَقِّ بعضِ الناس استدراجاً، والفقر عقوبةً، عياذاً بالله من هذا وهذا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

هذه الآيةُ الكريمة دالَّة على أن الله تعالى أرحمُ بعباده من الوالد بولده؛ لأنه تعالى ينهَى عن قتل الأولاد كما أوصى بالأولاد في الميراث، وقد كان أهلُ الجاهلية لا يُوَرِّثون البناتِ، بل كان أحدُهم ربَّما قتلَ ابنتَه لئلا تكثر عيلتُه، فَنهى الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾، أي: خوفَ أن تَفْتَقِرُوا في ثاني

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٨٨ والترمذي ٢٠٢٩ وأحمد ٢/ ٢٣٥ وابن حبان ٣٢٤٨.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ١٦٩٨ من حديث عبد الله بن عمرو بهذا السياق. وأخرجه أحمد ٢/ ١٩٥ والحاكم ١/ ١١ وابن حبان ٥١٧٦ والبيهقي ١٠/ ٢٤٣ من حديث ابن عمرو بأتم منه، وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٣٥٠ والبيهقي في «السنن» ٤/ ١٨٧ وصححه الحاكم ١/ ٤١٧ على شرطهما، ووافقه الذهبي، ووثق رجاله الهيثمي في «المجمع» ٣/ ١٠٩، وقال المنذري في «الترغيب» ١٢٨٢: رواه أحمد والبزار والطبراني وابن خزيمة في «صحيحه» وتردد في سماع الأعمش عن بريدة اهـ. قلت: فيه عنعنة الأعمش وهو مدلس.

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٤٤٧، والطبراني ١٠١١٨، والبيهقي في «الشعب» ٦٥٦٩، والقضاعي ٧٦٩ و ٧٧٠ من حديث ابن مسعود، وفي إسناده إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو ضعيف. وورد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني ١٢٦٥٦، والبيهقي ٦٥٧٠ وإسناده ضعيف، الضحاك لم يلقَ ابن عباس. وورد من حديث ابن عمر بنحوه، أخرجه البيهقي ٦٥٦٨ وفيه مخيس بن تميم عن حفص، قال أبو حاتم: مجهولان، وورد بمعناه أحاديث واهية ربما يتقوى. بها راجع «المقاصد الحسنة» ١٤٠، والشذرة ١٢٥، والله أعلم.

(٥) يأتي تخريجه في سورة الشورى، آية ٢٧ إن شاء الله تعالى.

الحال، ولهذا قَدّم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، وقال في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾، أي: من فقر، ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾، أي: ذنباً عظيماً. وقرأ بعضهم «كان خَطأً كبيراً»، وهو بمعناه.

[٤٢٥٥] وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ الذنب أعظمُ؟ قال: أن تجعلَ لله نِداً وهو خلقك. قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: أن تقتل وَلَدك خَشيَةَ أن يَطْعَم معك. قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: أن تُزَاني حَليلة جارِكَ[١].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مُقاربته، وهو مخالطة أسبابه ودَوَاعيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾، أي: ذنباً عظيماً، ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، أي: وبئسَ طريقاً ومسلكاً.

[٤٢٥٦] وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ بن هارونَ، حدثنا جريرُ، حدثنا سُلَيم بن عامر، عن أبي أُمامَةَ قال: إن فتىً شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ائذن لي بالزنا. فأقبل القومُ عليه فَزَجَرُوه، وقالوا: مَهْ مَهْ. فقال: ادنُهْ. فدنا منه قريباً، فقال: اجلِسْ. فَجَلس، قال: أَتُحِبُّه لأمِّكَ؟ قال: لا والله، جعلني الله فداكَ. قال: ولا الناس يحبُّونه لأمهاتهم. قال: أفتحبُّه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أتحبُّه لأختك؟ قال: لا والله، جَعَلني الله فِدَاك. قال: ولا الناس يُحبُّونه لأخواتهم، قال: أفتحبُّه لِعَمَّتِك؟ قال: لا والله، جَعَلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال: أفتحبَه لخالَتِك؟ قال: لا والله، جَعَلني الله فداك. قال: ولا الناس يُحبُّونه لخالاتهم. قال: فَوَضع يدَه عليه وقال: اللهم، اغفِرْ ذَنْبَه، وطَهِّر قلبه، وحَصِّن فرجه. قال: فلم يَكُن بعد ذلك الفتى يلتفتُ إلى شيء[٢].

[٤٢٥٧] وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بقية، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنبٍ بعد الشركِ أعظمَ عند الله من نُطفة وَضَعَها رجلٌ في رَحِم لا يحلّ له»[٣].

﴿وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ناهيا عن قتل النفس بغير حَقّ شرعي، كما ثبت في الصحيحين أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

[٤٢٥٨] «لا يحلُّ دمُ امرىءٍ مسلم يشهَدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله إلا بإحدى ثلاث: النفسُ بالنفس، والزاني المحصَن، والتاركُ لِدينه المفارقِ للجماعة»[٤].

---

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٢ و١٦٥.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٥/٢٥٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ١/١٢٩: ورجال رجال الصحيح.

(٣) إسناده ضعيف جداً. فهو مرسل، الهيثم تابعي، وفيه بقية مدلس، وقد عنعن، وفيه أيضاً أبو بكر ضعيف.

(٤) تقدم.

[٤٢٥٩] وفي السُّنَن: «لَزَوالُ الدنيا أهونُ عند الله من قَتْلِ المُسلِم»[1]. وقولُه: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، أي: سُلطة على القاتل، فإنه بالخيارِ فيه، إن شاءَ قتله قَوَداً، وإن شاء عَفَا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مَجّاناً، كما ثبتت السنةُ بذلك. وقد أخذ الإمام الحَبْرُ ابنُ عباس من عُموم هذه الآية الكريمةِ ولايةَ معاوية السلطنة، وأنه سَيَمْلِكُ؛ لأنه كانَ وَلِيَّ عثمان، وقد قُتِلَ عثمان ـ رضي الله عنه ـ مظلوماً. وكان معاويةُ يطالب علياً رضي الله عنه أن يُسَلِّمه قَتَلته حتى يقتصَّ منهم، لأنه أُمَوِيّ، وكان علي رضي الله عنه يَسْتَمْهِله في الأمر حتى يتمكَّنَ ويفعلَ ذلك، ويطلب عليٌّ من معاويةَ أن يسلمه الشام، فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلَةَ، وأبى أن يبايع علياً هو وأهلُ الشام، ثم مع المطاولة تمكن معاويةُ، وصار الأمر إليه كما تفاءل ابن عباس واستنبط من هذه الآية الكريمة. وهذا من الأمرِ العجيبِ.

وقد روى ذلك الطبرانيُّ في معجمه حيث قال: حدثنا يحيى بن عبد الباقي، حدثنا أبو عُمَير بن النحاس، حدثنا ضَمْرَة بن ربيعة، عن ابن شَوْذب، عن مَطَر الورّاق، عن زَهْدَم الجرْمي قال: كُنّا في سَمَرِ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال: إني محدثكم حديثاً ليس بِسرٍّ ولا عَلانيةٍ؛ إنه لما كان من أمر هذا الرجلِ ما كان، يعني عثمان، قلت لعليٍّ: اعتزلْ، فلو كنتَ في جُحر طُلِبتَ حتى تُستَخْرَجَ. فعصاني، وايمُ الله ليتأمَّرَنَّ عليكم معاويةُ، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾، وَلَيَحْمِلَنَّكُم قريشٌ على سُنَّةِ فارس والروم، ولَيُؤتَمنَنَّ عليكم النصارى واليهودُ والمجوسُ، فمن أَخَذ منكم يومئذٍ بما يُعرَف نجا، ومن تَرَكَ، وأنتم تاركون، كنتم كقَرْنٍ من القُرونِ، هَلَكَ فيمن هلك[2]. وقوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾، قالوا: معناه: فلا يُسرِفِ الوليُّ في قتل القاتل، بأن يُمَثِّل به، أو يقتصَّ من غير القاتل. وقولهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾، أي: إنَّ الولي منصورٌ على القاتل شَرْعاً، وغالباً قَدَراً.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، أي: لا تَتَصرفُوا له إلاّ بالغِبْطَةِ، ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، و ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

[٤٢٦٠] وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «يا أبا ذَرّ، إني أراكَ ضعيفاً، وإني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي: لا تَأمَّرَن على اثنين، ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم»[3]. وقولُه: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾، أي: الذي تُعاهِدُون عليه الناسَ والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهدَ والعقدَ كلٌّ منهما يُسأل صاحبهُ عنه، ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾، أي: عنه.

وقولهُ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾، أي: من غير تطفيف، ولا تبخَسُوا الناس أشياءهم. ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾،

---

(١) تقدم.

(٢) موقوف، أخرجه الطبراني ١٠/ ٣٢٠، وفيه مطر بن طَهْمَان الورّاق، روى له مسلم، ولكن ضعفه أبو حاتم، وقال ابن سعد: فيه ضعف، وقال يحيى وأحمد: ضعيف في عطاء خاصة اهـ. فالأثر غير قوي.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٨٢٦ وأبو داود ٢٨٦٨ والنسائي ٦/ ٢٥٥ وابن حبان ٥٥٦٤.

قُرِيءَ بضم القاف وكَسْرِها كالقُرطاس، وهو: الميزان. وقال مجاهد: هو العدل بالرومية. وقولهُ: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾، أي: الذي لا اعوجاجَ فيه ولا انحرافَ ولا اضطرابَ. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، أي: لكم في معاشكم ومعادكم، ولهذا قال: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي: مآلاً ومنقلباً في آخرتكم.

[٤٢٦١] قال سعيدُ، عن قتادةَ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي: خير ثواباً وعاقبة. وأُخبِرْنا أَنَّ ابنَ عباس كان يقول: يا معشَرَ الموالي، إنكم وُلِّيتم أمرين بهما هَلَكَ الناسُ قبلكم: هذا المكيال، وهذا الميزان. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يقدرُ رجل على حرام ثم يدعه، ليس به إلا مخافةُ الله، إلا أبدلَه الله في عاجِلِ الدنيا قبل الآخِرَةِ ما هو خيرٌ له من ذلك»[(١)].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

قال عليّ بن أبي طلحَةَ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يقول: لا تَقُلْ. وقال العَوْفيُّ عنه: ولا تَرْمِ أحَداً بما ليس لك به عِلْم. وقال محمد بن الحَنفيّة: يعني شهادة الزور. وقال قتادةُ: لا تقل رأيتُ، ولم ترَ. وسَمِعتُ، ولم تسمع. وعَلِمتُ، ولم تَعْلَم. فإن الله [تعالى] سائلك عن ذلك كلّه. ومضمونُ ما ذكروه أن الله تعالى نهى عن القول بلا عِلْم، بل بالظنِّ الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

[٤٢٦٢] وفي الحديث: «إيّاكم والظنّ، فإنّ الظنّ أكْذَبُ الحديث»[(٢)].

[٤٢٦٣] وفي سنن أبي داود: «بئْسَ مطيةُ الرجل: زَعَموا»[(٣)].

[٤٢٦٤] وفي الحديث الآخر: «إنّ أفْرَى الفِرَى أن يُرِيَ الرجلُ عَيْنَيه ما لم تَرَيا»[(٤)].

[٤٢٦٥] وفي الصَّحِيح: «من تَحَلَّم حلماً كُلِّفَ يومَ القيامة أن يَعْقِد بين شَعِيرتَين، وَليسَ بفاعلٍ»[(٥)].

وقولهُ تعالى: ﴿كُلُّ أُولَٰٓئِكَ﴾، أي: هذه الصِّفات من السمع والبصر والفُؤاد. ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾، أي: سَيُسأَل العبدُ عنها يوم القيامة، وتُسألُ عنه وعَمّا عَمِل فيها. ويصحُّ استعمال «أولئك» مكان «تلك»، كما قال الشاعر:

ذُمَّ المَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَى وَالعَيْشَ بَعْدَ أولَئِكَ الأيَّامِ

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾

يقولُ تعالى ناهياً عبادَه عن التَّجبُّر والتبختر في المِشْيَة: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾، أي: متبختراً

---

(١) هذا مرسل، أخرجه الطبري ٢٢٣٠٦ لكن له شواهد بمعناه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٠٦٦ ومسلم ٦٥٦٣ وأبو داود ٤٠٩١٧ وأحمد ٢/ ٤٦٥ وابن حبان ٥٦٨٧ من حديث أبي هريرة.

(٣) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٨٣.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٧٠٤٣ من حديث ابن عمر.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ٧٠٤٢ وأحمد ١/ ٢١٦ وابن حبان ٥٦٨٦ وأبو داود ٥٠٢٤ من حديث ابن عباس بأتم منه.

متمايلاً مشي الجبّارين، ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: لن تقطع الأرضَ بمشيتك، قاله ابن جرير، واستشهد عليه بقول رؤبة بن العَجّاج:

وَقَـاتِـمِ الأعْـمَـاقِ خَـاوِي الـمُـخْـتَـرَقْ

وقولهُ تعالى: ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾، أي: بتمايلكَ وفَخْرِك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازى فاعِلُ ذلك بنقيض قَصْدِه، كما ثبتَ في الصَّحِيح:

[٤٢٦٦] «بَيْنَا رجلٌ يمشي فيمن كان قبلكم، وعليه بُرْدَان يَتَبخترُ فيهما، إذ خُسِفَ به الأرضُ، فهو يَتَجَلْجَلُ فيها إلى يوم القيامة»[١]. وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنّه خَرَجَ على قومه في زينته، وأن الله تعالى خَسَفَ به وبداره الأرض.

[٤٢٦٧] وفي الحديث: «من تَواضَعَ لله رَفَعه الله، فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير، ومن استكبر وَضَعَه الله فَهُو في نَفسِه كبيرٌ وعند الناس حقير، حتى لهو أبغضُ إليهم من الكلب أو الخنزير»[٢].

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب «الخُمُول والتواضع»: حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير، حدثنا حجاج بن محمد، عن أبي بكر الهُذَلي قال: بينما نحن مع الحسن إذ مَرَّ عليه ابن الأهتم يريد المقصورة وعليه جِبَابُ خزّ قد نُضِّد بعضُها فوق بعضٍ على ساقه، وانفرَجَ عنها قباؤه، وهو يمشي يتبختر، إذ نظر إليه الحسنُ نظرةً فقال: أُفٍّ أُفٍّ، شامخٌ بأنفِه، ثانٍ عِطْفَه، مُصعِّر خَدَّه، ينظر في عطفيه: أي حُمَيقُ، انظر في عِطْفيكَ في نِعَم غير مَشْكُورةٍ ولا مَذْكُورةٍ، غير المأخوذِ بأَمْرِ الله فيها ولا المؤدّى حَقُّ الله منها. والله إن يمشي أحدهم طبيعته يَتَلجلَجَ تَلَجْلُجَ المجنون، في كل عُضوٍ من أعضائه لله نعمة، وللشيطان به لَعْنَة. فَسَمِعه ابن الأهتم فَرَجَع يعتذر إليه، فقال: لا تعتذر إليّ، وَتُب إلى رَبِّك، أما سَمِعتَ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾[٣].

ورأى العمريُّ العابدُ رجلاً من آل علي يمشي وهو يخطِرُ في مِشْيَتِه، فقال له: يا هذا، إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مِشْيتُه. قال: فتركها الرجلُ بعدُ. ورأى ابنُ عمر رجلاً يَخْطِر في مشيته، فقال: إن للشياطين إخواناً. وقال خالد بن مَعْدَان: إياكم والخَطْرُ، فإن الرّجُلَ قد نبا فؤاده من دون سائر جسده. رواهما ابنُ أبي الدنيا.

[٤٢٦٨] وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا خَلَفُ بن هشام البزّارُ، حدثنا حَمّاد بن زيد، عن يحيى بن سعيد، عن يُحَنّس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مشت أمتي المُطَيطاء، وخَدَمتهم فارس والروم، سُلِّطَ بعضُهم على بعض»[٤].

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧٨٩ ومسلم ٢٠٨٨ وأحمد ٢/ ٣١٥ وأبو يعلى ٦٣٣٤ من حديث أبي هريرة.

(٢) صدره «من تواضع لله رفعه» صحيح، فهو عجز حديث، أخرجه مسلم، وتقدم برقم ٤٢٥٠، وله شواهد أخرى، وأما باقي المتن، فضعيف جداً أخرجه الخطيب ٢/ ١١٠، والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١٣٦٧ من حديث عمر، وقال الهيثمي: فيه سعيد بن سلام العطار، وهو كذاب.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» ٢٣٧، عن الحسن به.

(٤) حسن لشواهده، أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٦/ ٥٢٥ وابن أبي الدنيا ٢٤٩ كلاهما عن يُحَنّس بن عبد الله، وهو تابعي =

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾، أما من قرأ «سيئةً»، أي: فاحشة. فمعناه عنده: كلُّ هذا الذي نَهينا عنه، من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ إلى ها هنا، فهو سيئة مُؤاخذ عليها ﴿مَكْرُوهًا﴾ عند الله، لا يحبه ولا يرضاه. وأما من قرأ ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ على الإضافة فمعناه عنده، كلُّ هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلى ها هنا، فسيئه، أي: فقبيحه مكروه عند الله، هكذا وجّه ذلك ابنُ جرير رحمه الله.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاقِ الجميلةِ، ونَهيناكَ عنه من الصِّفاتِ الرذيلة، مما أوحيناهُ إليك يا محمد، لتأمر به الناس. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾، أي: تلومك نفسك ويلومك الله والخلق، ﴿مَّدْحُورًا﴾، أي: مبعداً من كل خير؛ وقال ابنُ عباسٍ وقتادةُ: مطروداً. والمرادُ من هذا الخطاب الأمةُ بواسطة الرسول ﷺ، فإنه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ معصومٌ.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

يقولُ تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين ـ عليهم لعائن الله ـ أن الملائكة بناتُ الله، فَجعلوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثاً، ثم ادّعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطئوا في كلّ من المقاماتِ الثلاثِ خَطأً عظيماً، فقال تعالى مُنكِراً عليهم: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾، أي: خَصَّصَكم بالذكور ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾، أي: واختار لنفسه على زَعْمِكم البنات؟. ثم شَدَّد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾، أي: في زعمكم أن لله ولداً، ثم جَعْلكم ولده الإناث اللاتي تأنفون أن يَكُنّ لكم، وربما قتلتموهُنّ بالوأد، فتلك إذاً قسمةٌ ضِيزَى. وقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

يقولُ تعالى: ولقد صَرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثلٍ ليذكّروا؛ وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذّكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾، أي: الظالمين منهم ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾، أي: عن الحق، وبعداً منه.

= ثقة، فهو مرسل، ووصله الطبراني في «الأوسط» ١٣٢ بذكر أبي هريرة وحسنه الهيثمي ١٠/ ٢٣٧ مع أن فيه ابن لهيعة، وهو ضعيف، لكن له شواهد. فقد أخرجه ابن المبارك ١٨٧ «رواية نُعيم» والترمذي ٢٢٦١، والعقيلي ٤/ ١٦٢، وابن عدي ٦/ ٢٣٣٥، والبغوي ٤٢٠٠ من حديث ابن عمر، وفي إسناد الجميع موسى بن عبيدة، وهو ضعيف. لكن ساقه الترمذي من طريق آخر، وإسناده قوي، رجاله ثقات. وورد من حديث خولة بنت قيس أخرجه ابن حيان ٦٧١٦ وإسناده غير قوي، لكن يشهد لما قبله، فالحديث حسن بشواهده، إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾

يقولُ تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأنّ معه آلهة تُعْبدُ لتقرّبَ إليه وتشفَع لديه، لكان أولئك المعبودُون يعبدونه ويتقرّبُون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحدَه كما يعبدُه من تدْعُونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحبُّ ذلك ولا يَرْضاه، بل يكرَهُه ويأباه. وقد نَهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه. ثم نَزّه نفسه الكريمة وقدّسها فقال: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾، أي: هؤلاء المشركون المعتدُون الظالمون في زعمهم أن معه آلهةً أخرى، ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، أي: تَعالياً كبيراً، بل هو الله الأحدُ الصّمَدُ، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُواً أحد.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

يقولُ تعالى: تُقَدّسُه السمٰوات السبع والأرضُ ومن فيهنّ، أي: من المخلوقات، وتُنَزّهه وتُعَظّمه وتُبجلّه وتُكبِرُه عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهَدُ له بالوحدانية في رُبُوبيته وَإلهيّتِهِ:

فَفِي كُلّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلّ عَلَى أنّه واحدُ

كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾.

[٤٢٦٩]وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا مسكين بن ميمون مؤذّن مسجد الرملة، حدثنا عُرْوَة بن رويم، عن عبد الرحمن بن قُرْطٍ: أن رسول الله ﷺ ليلةَ أُسْرِيَ به إلى المسجد الأقصى كان بين المقام وزمزم، جبريلُ عن يمينه وميكائيلُ عن يساره، فطارا به حتى بَلَغ السمٰوات السبع، فلما رَجع قال: سَمِعْتُ تسبيحاً في السّمٰواتِ العُلى مع تسبيح كَثير: سَبّحتِ السمواتُ العُلَى من ذي المهابة، مُشْفِقاتٍ لذي العلو بما علا، سبحانَ العَلِيّ الأعلى، سبحانَه وتعالى»[١].

وقولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾، أي: وما من شيء من المخلوقات إلاّ يُسَبّح بحمد الله، ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس، لأنها بخلاف لغاتكم. وهذا عامٌّ في الحيوان والنبات والجماد، وهذا أشهرُ القولين.

[٤٢٧٠]كما ثبت في صَحِيحِ البُخَارِيّ، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «كنا نَسمَعُ تسبيحَ الطعام وهو يُؤكل»[٢].

---

(١) منكر. أخرجه الطبراني كما في «المجمع» ٢٤٣ والذهبي في الميزان ٨٤٤٠، وقال الذهبي: مسكين بن ميمون، لا أعرفه، وخبره منكر، ونقل الهيثمي كلام الذهبي، ووافقه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٧٩ والترمذي ٣٦٣٣ وابن حبان ٦٤٩٣.

[٤٢٧١] وفي حديث أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ أخذ في يده حَصَيات، فَسُمِعَ لهنَّ تسبيحٌ كَحَنين النَّحل. وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وهو حديثٌ مشهورٌ[١] في المسانيد.

[٤٢٧٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابنُ لَهِيعَةَ، حدثنا زَبّان، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه مَرّ على قوم وهم وقوفٌ على دوابٍّ لهم ورواحلَ، فقال لهم: «اركبوها سالمةً، ودعوها سالمةً، ولا تتّخِذُوها كراسيَّ لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فَرُبَّ مركوبةٍ خير من راكبها، وأكثر ذكراً لله تعالى منه»[٢].

[٤٢٧٣] وفي سُنَن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: نقيقها تسبيحٌ[٣]. وقال قتادة، عن عبد الله بن باباه، عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ: أن الرجُلَ إذا قال: «لا إله إلا الله»، فهي كلمة الإخلاص التي لا يَقبَلُ الله من أحد عملاً حتى يقولها. وإذا قال: «الحمدُ لله» فهي كلمةُ الشكر التي لم يشكر الله عبدٌ قط حتى يقولها، وإذا قال: «الله أكبر» فهي تملأُ ما بين السماء والأرض، وإذا قال «سبحان الله»، فهي صلاةُ الخلائقِ التي لم يَدْعُ الله أحدٌ من خلقه إلا قَرَّرَه بالصلاة والتسبيح. وإذا قال «لا حول ولا قوة إلا بالله»، قال: أسلم عبدي واستسلم.

[٤٢٧٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا وهبُ بن جرير، حدثنا أبي، سمعت الصَّقْعَبَ بن زُهَير يُحدِّث عن زيدِ بن أسلَمَ، عن عطاءِ بن يَسَار، عن عبد الله بن عَمْروٍ قال: أتى النبيَّ ﷺ أعرابيٌّ عليه جُبّةٌ من طيالسة مكفوفة بديباج، أو: مزرُورةٍ بديباج، فقال: إن صاحبكم هذا يُريد أن يَرْفَع كلَّ راعٍ ابن راعٍ، ويضع كلَّ رأس ابنِ رأس. فقام إليه النبي ﷺ مُغضَباً، فأخذ بمجامع جُبّته فاجتَذَبه، فقال: لا أرىَ عليكَ ثيابَ مَن لاَ يَعقِل. ثم رَجَع رسول الله ﷺ فجلس فقال: إن نوحاً ـ عليه السلام ـ لما حَضَرتَه الوفاة، دعا ابنيه فقال: إني قاصّ عليكما الوصية: آمرُكما باثنتين وَأنهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشركِ والكِبْرِ، وآمركما بلا إله إلا الله، فإنَّ السمٰواتِ والأرضَ وما فيهما لو وُضِعت في كِفّة الميزان، وَوُضعَت «لا إله إلا الله» في الكِفّةِ الأخرى، كانت أرجَحَ. ولو أن السمٰوات والأرض كانتا حَلْقَةً، فَوُضِعت «لا إله إلا الله» عليهما لَفَصَمَتْها أو لقَصَمَتْها. وآمركما بسبحانَ اللّهِ وبحمدِه، فإنها صلاةُ كُلِّ شيء، وبها يُرزَق كل شيء[٤]. ورواه الإمام أحمد أيضاً عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن الصَّقْعَب بن زهير، به، أطول من هذا. تَفَرَّد به.

[٤٢٧٥] وقال ابنُ جرير: حدثني نصر بن عبد الرحمن الأَوْدِيُّ، حدثنا محمد بن يَعلَى، عن موسى بن

---

(١) كذا ذكر المصنف رحمه الله! والصواب أنه غير مشهور، بل هو إلى الضعف أقرب. أخرجه البزار ٢٤١٣ و ٢٤١٤ والطبراني في «الأوسط» ١٢٦٥، وقال في «المجمع» ١٤١٠٣: رواه البزار بإسنادين رجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف اهـ. وضعفه الحافظ في «الفتح» ٦/ ٥٩٢ وهو كما قال، ففي أحد إسناديه مجهول، وفي الآخر صالح بن أبي الأخضر، وقد ضعفه الجمهور.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤٤٠ ح ١٥٢١٩ وفيه ابن لهيعة عن زبّان عن سهل بن معاذ، وثلاثتهم ضعفاء، لكن رواه أحمد برقم ١٥٢١٢ و ١٥٢١٣ و ١٥٢١٤ من وجه آخر عن سهل بن معاذ به، وسهل ضعيف الحديث، روى مناكير.

(٣) مضىٰ في سورة المائدة: ٩٦.

(٤) جيد. أخرجه أحمد ٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠ و٢٢٥ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٤/ ٦١٩ ـ ٦٢٠ وقال: ورجاله ثقات اهـ. قلت: رجال الإسناد على شرطهما سوى الصقعب، وهو ثقة.

عُبَيدة، عن زيد بن أسلَمَ، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ألا أُخبرُكم بشيءٍ أمر به نوحٌ ابنه؟ إن نوحاً ـ عليه السلام ـ قال لابنه: يا بني، آمرُكَ أن تَقولَ: «سبحان الله»، فإنها صلاةُ الخَلْقِ وتسبيح الخلق، وبها يُرزَقُ الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾»[1]. إسناده فيه ضعف، فإن الرَّبذي ضعيف عند الأكثرين. وقال عكرمةُ في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، قال: الأسطوانة تُسبِّح، والشجرةُ تُسبِّح. الأسطوانة: السارية. وقال بعضُ السلف: إن صرير الباب تسبيحُه، وخَرير الماء تسبيحُه، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. وقال سفيانُ الثوري، عن منصور، عن إبراهيم قال: الطعام يُسبِّح. ويشهد لهذا القول آيةُ السَّجدة في أول الحج. وقال آخرون: إنما يُسبِّح ما كان فيه روح. يعنُون من حيوان أو نبات، قال قتادةُ في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، قال: كُلُّ شيء فيه الروح يسبِّح من شَجَرةٍ أو شيء فيه الروح.

وقال الحسن، والضَّحَّاكُ في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، قالا: كلُّ شيء فيه الروح.

وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن حُمَيد، حدثنا يحيى بن واضح وَزيدُ بن حُبَاب قالا: حدثنا جرير أبو الخطاب قال: كنا مع يَزيدَ الرَّقاشي ومعه الحسن في طَعَام، فَقدَّموا الخِوَان، فقال يزيدُ الرَّقَاشِيُّ: يا أبا سعيد، يُسَبِّح هذا الخِوَان؟ فقال: كان يسبح مَرّة. قلت: الخِوَان هو المائدةُ من الخشب. وكأن الحسن ـ رحمه الله ـ ذهب إلى أنه لما كان حَيّاً فيه خُضرة كان يُسَبِّح، فلما قُطِع وصار خَشَبة يابسة انقطع تسبيحُه.

[٤٢٧٦] وقد يُستأنَس لهذا القول بحديثِ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: «إنهما لَيُعذَّبان، وما يُعَذَّبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يَسْتَترُ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة. ثم أخذ جرِيدَةً رَطْبَة، فشقها نصفين، ثم غرَزَ في كُلِّ قبر واحدة، ثم قال: «لَعَلَّه يخفف عنهما ما لم ييبسا»[2]. أخرجاه في الصحيحَين. قال بعضُ من تكلَّم على هذا الحديث من العلماء: إنما قال: «ما لم ييبسا» لأنهما يُسبِّحان ما دام فيهما خضرَةٌ، فإذا يبسا انقطع تَسْبيحهما، والله أعلمُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، أي: إنه لا يُعاجِل من عصاه بالعُقوبة، بل يُؤَجِّله ويُنْظِره، فإن استمرَّ على كُفره وعناده أخذَه أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ، كما جاء في الصحيحَين:

[٤٢٧٧] «إن الله لَيُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢][3]... الآية، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨]. ومن أقلع عما هُو فيه من كُفرٍ أو عِصيانٍ ورجعَ إلى الله وتاب إليه تابَ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠]. وقال ها هنا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، كما قال في آخر فاطر: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾، إلى أن قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٢٣٢٥ من حديث جابر وإسناده ضعيف، لضعف موسى بن عبيدة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٧٨ ومسلم ٢٩٢ وأبو داود ٢٠ والترمذي ٧٠ والنسائي ١/ ٢٨ ـ ٣٠ وابن ماجه ٣٤٧ وأحمد ١/ ٢٢٥ وابن حبان ٣١٢٨.

(٣) وتقدم الحديث في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٦.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾

يقولُ تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأتَ ـ يا محمدُ ـ على هؤلاء المشركين القرآنَ جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً. قال قتادةُ، وابنُ زيدٍ: هو الأكنةُ على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، أي: مانع حائل أن يَصِل إلينا مما تقول شيءٌ.
وقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾، أي: بمعنى ساتر، كميمون ومشؤوم بمعنى يامن وشائم، لأنه من يَمَنَهم وشأمَهم.
وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى تَرْجِيحه ابنُ جرير رَحِمه الله.

[٤٢٧٨] وقال الحافظ أبو يَعْلَى الموصلي: حدثنا أبو موسى الهروي إسحاق بن إبراهيم، حدثنا سفيان، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن تدرس، عن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، جاءت العَوْرَاء أم جُميل ولها وَلْوَلَة، وفي يدها فِهر وهي تقول: مُذَمماً أتينا، أو: أبينا، قال أبو موسى: الشك مِنّي ـ ودينه قَلَيْنا، وأمره عَصَينا. ورسولُ الله ﷺ جالس، وأبو بكر إلى جنبه، أو قال: معه، قال: فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: إنها لن تراني، وقرأ قرآناً اعتصم به منها: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾. قال: فجاءت حتى قامَتْ على أبي بكر، فلم ترَ النبي ﷺ فقالت: يا أبا بكر، بَلَغني أن صَاحِبَك هجاني. فقال أبو بكر: لا وربِّ هذا البيت ما هَجَاكِ. قال: فانصرفت وهي تقول: لقد عَلِمَت قُريشٌ أني بنتُ سَيِّدها[1].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جمع «كِنَانٍ»، الذي يَغْشى القلبَ، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، أي: لئلا يفهمُوا القرآن، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، وهو الثِّقَلُ الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به.
وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾، أي: إذا وَحَّدْتَ الله في تلاوتك، وقُلْتَ: «لا إله إلا الله»، ﴿وَلَّوْا۟﴾، أي: أدْبَرُوا راجِعِينَ ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾، ونفورٌ: جمع نافر، كقُعود جمع قاعد. ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥]. قال قتادةُ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾: إن المسلمين لما قالوا: «لا إله إلا الله»، أنكر ذلك المشركون، وكَبُرت عليهم، وَصَافَّها إبليسُ وجنودُه، فأبى الله إلا أن يُمضِيَها وينصُرها ويُظهرها على من نَاوأها، إنها كلمة من خاصم بها فَلَج، ومن قاتَلَ بها نُصِر، إنما يَعرِفها أهلُ هذه الجزيرة من المسلمين، التي يقطعها الراكب في ليالٍ قلائلَ، ويسير الدهر في فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرّون بها.

قولٌ آخرُ في الآية: قال ابن جرير: حدثني الحسين بن محمد الذَّارع، حدثنا روح بن المسيَّب أبو رجاء الكلبي، حدثنا عَمْرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾: هم الشياطين. وهذا غريب جداً في تفسيرها، وإلا فالشيطان إذا قُرِىء القرآن، أو نُودِي بالأذانِ، أو ذكر الله، انصَرَفَ.

---

(١) أخرجه أبو يعلى ٢٥ و٢٣٥٨ من حديث ابن عباس دون ذكر الآية ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ . . .﴾ وإسناده ضعيف.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

يخبر تعالى نبيَّه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بما تناجى به رُؤساءُ كُفَّار قريش، حين جاؤوا يستَمِعُون قراءة رسول الله ﷺ سراً من قومهم، بما قالوا من أنه رجلٌ مسحورٌ، من السِّحْرِ على المشهور، أو من «السَّحْر»، وهو الرئة، أي: إنْ تتبعون ـ إن اتبعتم محمداً ـ إلا بشراً يأكل، كما قال الشاعر:

فَإن تَسْأَلِينا فِيمَ نَحْنُ فَإنَّنا ... عَصَافِيرُ مِنْ هَذا الأنَامِ المُسَحَّرِ

وقال الآخر:

ونُسْحَرُ بالطَّعَامِ وبالشَّرَابِ

أي نُغَذَّى: وقد صَوَّب هذا القولُ ابنُ جرير. وفيه نظر، لأنهم إنما أرادوا ها هنا أنه مسحورٌ له رَئِيٌّ يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلُوه. ومنهم من قال: شاعر، ومنهم من قال: كاهن، ومنهم من قال: مجنون، ومنهم من قال: ساحر، ولهذا قال [تعالى]: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾، أي: فلا يهتدون إلي الحق، ولا يَجدُون إليه مخلصاً.

[٤٢٧٩] قال محمد بن إسحاقَ في السيرة: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزُّهري، أنه حُدِّثَ أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جَهلٍ بن هشام، والأخنسَ بن شَرِيق بن عمرو بن وَهْب الثقفي، حليف بني زُهرَةَ، خرجوا ليلة ليستمعُوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كلُّ واحد منهم مجلساً يَسْتَمِعُ فيه، وكلٌّ لا يعلَمُ بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجرُ تفرّقوا فَجَمَعتهم الطريقُ فتلاوموا، وقال بعضُهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعضُ سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كلُّ رجُلٍ منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجرُ تَفرّقوا، فَجَمَعَتْهم الطريقُ، فقال بعضهم لبعضٍ مثل ما قال أول مَرَّةٍ، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أَخَذَ كلُّ رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فَجَمَعَتْهُم الطريقُ فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نَتَعاهد لا نعودُ. فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شَرِيق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعتَ من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبةَ، والله لقد سمعتُ أشياءَ أعرِفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعتُ أشياء ما عرفتُ معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنسُ: وأنا والذي حَلَفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ـ لعنه الله ـ فدخل عليه بيتَه، فقال: يا أبا الحَكم، ما رأيُكَ فيما سَمِعتَ من محمد؟ قال: ماذا سمعتُ؟. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ: أطعموا فأطعمنا، وحَمَلوا فَحملنا، وأعطَوا فأعطَينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كَفَرَسَي رِهان قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماء، فَمَتى نُدرِك هذه؟ والله لا نُؤمِن به أبداً ولا نُصدِّقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه[١].

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُل كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا

(١) هذا مرسل، ولأصله شواهد تعضده.

مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾. أي: تراباً. قاله مجاهد. وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: غُباراً. ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: يومَ القيامةِ ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعدما بَلِينا وصِرْنا عَدَماً يذكر، كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [النازعات: ١٠ ـ ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وهكذا أمر [سبحانه] رسُوله هنا أن يجيبهم فقال: ﴿۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾، إذ هما أشدُّ امتناعاً من العظام والرفات، ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾. قال ابن إسحاقَ عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: سألتُ ابنَ عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن ذلك فقال: هو الموت. ورَوَى عطيةُ، عن ابن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال في تفسير هذه الآية. لو كنتم موتى لأحييتُكم. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسنُ، وقتادةُ، والضحّاك. ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتُم أنكم لو صُرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيءٌ إذا أراده.

[٤٢٨٠] وقد ذكر ابنُ جرير حديث: «يُجاءُ بالموتُ يوم القيامة كأنه كبش أملحُ، فَيُوقَفُ بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أَهلَ الجَنَّةِ، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. ثم يقال: يا أهل النار، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. فَيُذْبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهلِ الجنة خُلودٌ بلا موت، ويا أهل النارِ، خُلودٌ بلا موت»[1]. وقال مجاهد: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾، يعني: السماء والأرضَ والجبال. وفي رواية: ما شئتم فكونوا، فَسَيعيدكم الله بعد موتكم. وقد وقع في التفسير المروي عن الإمام مالك، عن الزهريِّ في قوله: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾، قال: «النبي ﷺ» قال مالك: ويقولون: هو الموتُ.

وقولُه تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾، أي: من يُعيدنا إذا كنا حجارةً أو حديداً أو خلقاً آخرَ شديداً، ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صِرْتم بشراً تنتشرون، فإنه قادرٌ على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال، فَهُو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهوَنُ عليه. وقولُه: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾، قال ابن عباس وقتادة: يُحرِّكونها استهزاءً. وهذا الذي قالاه هو الذي تَفهَمُه العرب من لغاتها، فإن الإنغاض هو: التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظليم، وهو وَلَد النعامه نَغْضاً، لأنه إذا مشى عَجِلَ في مِشْيته وحَرّك رأسه. ويقال: نَغضَت سِنُّه: إذا تَحرّكت وارتفعت من مَنْبِتها، قال الراجزُ:

وَنَـغَـضَـتْ مِـنْ هَـرَمٍ أَسْـنَـانُـهَـا

وقولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾، إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٣٠ ومسلم ٢٨٤١ من حديث أبي سعيد الخدري.

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. وقوله: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾، أي: احذَرُوا ذلك، فإنه قريبٌ إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكلُّ ما هو آتٍ آتٍ. وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾، أي: الرب تعالى ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، أي: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يُخالَف ولا يُمانع، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، و ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣ ـ ١٤]، أي: إنما هو أمرٌ واحدٌ بانتهار، فإذا الناسُ قد خَرَجوا من باطنِ الأرضِ إلى ظاهرها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾، أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته. قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾، أي: بأمره. وكذا قال ابن جُريج. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته. وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾، أي: وله الحمدُ في كلِّ حال.

[٤٢٨١] وقد جاء في الحديث: «ليس على أهلِ «لا إله إلا الله» وَحْشَةٌ في قبورهم، وكأني بأهل «لا إله إلا الله» يقومُون من قبورهم يَنفضُونَ التراب عن رؤوسهم، يقولُون: «لا إله إلا الله»، وفي رواية يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾»[1]، وسيأتي في سورة فاطر، إن شاء الله تعالى. وقولُه: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾، أي: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾، أي: في الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، كما قال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه: ١٠٢ ـ ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤].

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾

يأمرُ تبارك وتعالى رسولَه ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنه إذا لم يفعلوا ذلك نَزَغَ الشيطان بينهم، وأخرج الكلامَ إلى الفعال، ووقع الشرُّ والمخاصمة والمقاتلة، فإنَّ الشيطان عدوٌّ لآدم وذريته من حينَ امتنعَ من السجود لآدم، فعداوتُه ظاهرةٌ بيِّنة، ولهذا نهى أن يُشير الرجلُ إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان يَنْزَغ في يده، فربما أصابه بها.

[٤٢٨٢] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن هَمَّام، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُشيرَنَّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يَدْرِي أحدُكم لعلَّ الشيطانَ أن يَنزغ في يده، فيقع في حفرة من نار»[2]. أخرجاه من حديث عبد الرزاق.

[٤٢٨٣] وقال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّان، حدثنا حَمَّاد، أنبأنا علي بن زيد، عن الحسن قال: حَدَّثني رجل من بني سَلِيطٍ قال: أتيتُ النبي ﷺ وهو في أَزْفَلَةٍ[3] من الناس، فسمعتُه يقول: المسلمُ أخو المسلم لا

---

(١) يأتي في فاطر.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٧٠٧٢ ومسلم ٢٦١٧ وأحمد ٢/٣١٧ وابن حبان ٥٩٤٨.

(٣) الأزفلة: الجماعة.

يظلمه ولا يخذُله، التقوى ها هنا ـ قال حَمّاد: وقال بيده إلى صدره ـ وما تَوَادَّ رجلان في الله فَيُفَرِّق بينهما إلا بِحَدَثٍ يحدثه أحدهما، والمحدِثُ شرّ، والمحدِث شرٌّ، والمُحدَث شرٌّ»[١].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

يقول الله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ﴾ أيها الناسُ، أي: أعلم بمن يستحقّ منكم الهدايةَ ومن لا يستحق، ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بأن يُوَفِّقكم لطاعته والإنابة إليه، ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، أي: إنما أرسلناك نذيراً، فمن أطاعك دَخلَ الجنةَ، ومن عَصَاك دخلَ النار، وقولُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾، أي: بمراتبهم في الطاعةِ والمعصيةِ، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾، كما قال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

[٤٢٨٤] وهذا لا يُنافي ما ثبت في الصحيحَيْن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تُفَضِّلوا بين الأنبياء»[٢]، فإن المرادَ من ذلك هو التفضيلُ بمجرّد التشهّي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، لأنه إذا دَلّ الدليلُ على شيءٍ وَجَب اتباعه، ولا خلافَ أن الرُّسُل أفضلُ من بقية الأنبياء، وأنَّ أولي العَزْم منهم أفضلهم، وهم الخمسةُ المذكورون نصّاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي الشورى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]. ولا خلافَ أن محمداً ﷺ أفضلُهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى ثم عيسى ـ عليهم السلام ـ على المشهور، وقد بَسَطنا هذا بدلائله في غير هذا الموضع، والله الموفق. وقولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾: تنبيهٌ على فضله وشرفه.

[٤٢٨٥] قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر، أخبرنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمَرٌ، عن هَمّام، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «خُفِّف على داود القراءة، فكان يأمر بِدَابَّتِه لِتُسْرَجَ، فكان يقرأ قبل أن يَفْرُغَ» يعني القرآن[٣].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمدُ لهؤلاء المشركين الذين عَبَدُوا غير الله: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغَبُوا إليهم، فإنهم ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾، أي: بالكلية، ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾،

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٧١ ح ٢٠١٦٦ بهذا الإسناد، وهو ضعيف، والحديث صحيح وله شواهد كثيرة دون عجزه فإنه تفرد به علي بن زيد، وهو غير حجة، وقد خالفه مبارك بن فضالة فلم يذكر عجز الحديث، وهذا أخرجه أحمد ٢٠١٦٥ و٢٢٧٠٢ وعن عباد بن راشد رواه عن الحسن ٢٢٧١٨ بدون عجزه، وهو أصح، والله أعلم.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية ٢٥٣.

(٣) تقدم في تفسير سورة الرعد عند آية: ٣١.

أي: أن يحولوه إلى غيركم. والمعنى: أن الذي يقدرُ على ذلك هو الله وحدَه لا شريكَ له الذي له الخلقُ والأمرُ. قال العوفيُّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾، قال: كان أهلُ الشرك يقولون: نعبدُ الملائكةَ والمسيحَ وعُزَيراً، وهم الذين يَدْعُون، يعني الملائكةَ والمسيحَ وعُزَيراً.

وقولُه تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، روى البخاريّ، من حديث سليمانَ بن مِهرانَ الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي مَعْمَرٍ، عن عبد الله في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، قال: ناس من الجن، كانوا يُعْبَدون، فأسلموا، ـ وفي رواية قال: كان ناسٌ من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجنّ وتمسك هؤلاء بدينهم. وقال قتادة، عن معبد بن عبد الله الزِّمّاني، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، قال: نَزَلت في نَفَرٍ من العرب، كانوا يعبُدُون نفراً من الجنّ، فأسلم الجِنّيّون والإنس الذين كانوا يعبدُونهم لا يشعُرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية. وفي رواية عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجنُّ فذكره وقال السدّي، عن أبي صالح، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، قال: عيسى، وأمه، وعُزَير. وقال مغيرة، عن إبراهيم، كانَ ابنُ عباس يقولُ في هذه الآية: هم عيسى، وعُزيرٌ، والشمسُ، والقمرُ. وقال مجاهد: عيسى، والعُزيرُ، والملائكة، واختار ابنُ جرير قولَ ابن مسعودٍ، لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، وهذا لا يُعبَّر به عن الماضي، فلا يَدْخل فيه عيسى والعُزير والملائكة، وقال: والوسيلةُ هي القُربة كما قال قتادةُ، ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾. وقولُه تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: لا تتمُّ العبادةُ إلا بالخوفِ والرجاءِ، فبالخوفِ ينكفُّ عن المناهي وبالرجاءِ ينبعث إلى الطاعات. وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾، أي: ينبغي أن يُحذَر منه، ويُخافَ من وُقُوعه وحصوله، عياذاً بالله منه.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

هذا إخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ بأنه قد حَتَم وقَضَى بما قد كتبه عنده في اللوح المحفوظ، أنّه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يُبيد أهلها جميعَهم أو يُعذِّبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾، إما بقتل أو ابتلاءٍ بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق: ٨ ـ ٩].

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾

[٤٢٨٦] قال سُنَيد، عن حماد بن زيد، عن أيوبَ، عن سعيد بن جُبَير قال: قال المشركُون: يا محمّد، إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياءُ، فمنهم من سُخِّرت له الريح، ومنهم من كان يُحيي الموتى، فإن سَرّك أن نؤمن بك ونُصدِّقك، فادعُ ربك أن يكونَ لنا الصَّفا ذهباً. فأوحى الله إليه: إني قد سَمِعتُ الذي قالوا، فإن شِئتَ أن

نفعل الذي قالوا، فإن لم يؤمنوا نَزَل العذابُ؛ فإنه ليس بعد نزول الآيةِ مناظرةٌ، وإن شِئتَ أن تستأني بقومك استأنيتُ بهم؟ قال: يا رب، أستأني[1]. وكذا قال قتادةُ، وابن جُرَيج، وغيرُهما.

[٤٢٨٧] وقال الإمام أحمدَ: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جَرير، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: سأل أهلُ مكّة النبيَّ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يُنَحّي الجبالَ عنهم فَيَزْدَرِعُوا. فقيل له: إن شِئْتَ أن تَسْتَأني بهم، وإن شئت أن نُؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أُهلِكُوا كما أَهْلَكتُ من كان قبلهم من الأمم. قال: لا، بل أستأني بهم. فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[2]. وقد رواه النسائي من حديث جرير، به.

[٤٢٨٨] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن عمران بن الحكم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قالت قُريشٌ للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصَّفَا ذَهَباً، ونُؤمِنَ بِكَ. قال: وتفعلون؟ قالوا: نَعَم. قال: فَدَعا، فأتاه جبريلُ ـ عليه السلام ـ فقال: إنَّ ربَّك يقرأ عليك السلامَ ويقولُ لك: إن شئتَ أصبحَ الصفا لهم ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عَذَّبتُه عذاباً لا أُعَذِّبه أحداً من العالمين، وإن شئتَ فتحتُ لهم باب التوبة والرحمة. فقال: بل بابَ التوبةِ والرَّحمة»[3].

[٤٢٨٩] وقال الحافظ أبو يَعْلَى في مسنده: حدثنا محمد بن إسماعيل بن علي الأنصاري، حدثنا خَلَف بن تَميم المَصّيصيّ، عن عبد الجبّار بن عُمر الأَيْلي، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم، عن جدته أم عَطَاء مولاةِ الزُبير بن العوام قالت: سَمِعتُ الزبير ـ رضي الله عنه ـ يقول: لما نزلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صاح رسولُ الله ﷺ على أبي قبيس[4]: يا آل عَبْدِ مناف، إني نذير. فجاءته قريشٌ، فَحَذَّرهم وأنذَرهم، فقالوا: تَزْعُم أنك نبيٌّ يُوحَى إليك، وأن سليمان سُخِّر له الريحُ والجبالُ، وأنَّ موسى سُخِّر له البحر، وأنَّ عيسى كان يحيي الموتى، فادع الله أن يُسَيِّر عنا هذه الجبالَ، وَيُفَجِّر لنا الأرضَ أنهاراً، فَنَتَّخِذَها مَحارِثَ فَنزرَعَ ونأكُلَ، وإلاّ فادعُ الله أن يُحيِيَ لنا موتانا فَنُكَلِّمهم ويُكَلِّمونا، وإلا فادعُ الله أن يُصَيِّر هذه الصخرةَ التي تحتك ذهباً، فَنَنحَتَ منها وتُغنِيْنَا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنَّكَ تزعُم أنك كَهَيئَتِهم. قال: فبينا نحنُ حوله إذ نَزَل عليه الوحيُ، فلما سُرِّيَ عنه قال: والذي نَفسي بيده، لقد أعطاني ما سَألتم، ولو شئتُ لكَان، ولكنّه خَيَّرني بين أن تدخُلُوا باب الرحمة، فيؤمن مُؤمِنُكم، وبين أن يَكِلَكم إلى ما اخترتُم لأنفسكم فَتَضِلُّوا عن باب الرحمة، فلا يُؤمِن منكم أحدٌ، فاخترتُ بابَ الرحمةِ، فيؤمنُ مؤمنكم. وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كَفَرتم إنه يُعذِّبكم عَذَاباً لا يُعَذِّبه أحداً من العالمين. ونزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ حتى قرأ ثلاث آيات، ونزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٢٤٠٠ عن سعيد بن جبير مرسلاً. وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه النسائي في «التفسير» ٣١٠ وأحمد ١/٢٥٨ والطبري ٢٢٩٨، وصححه الحاكم ٢/٣٦٢ ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه أحمد ١/٢٤٢ وذكر الهيثمي في «المجمع» ٧/٥٠ الرواية المتقدمة وهذه الرواية وقال: ورجال الروايتين رجال الصحيح، إلاّ أنه وقع في أحد طرقه عمران بن الحكم، وهو وهم، وفي بعضها عمران أبو الحكم، وهو الصحيح، وهو من رجال الصحيح، ورواه البزار بنحوه اهـ.

(٤) جبل بمكة.

قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[١] [الرعد: ٣١]... الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾، أي: نبعث الآيات ونأتيَ بها على ما سأل قومُك منك، فإنه سَهلٌ علينا يسيرٌ لدينا، إلا أنه قد كَذَّب بها الأولون بعدما سألوها، وجَرَت سُنَّتُنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يُؤَخَّرون إذا كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في المائدة: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾. وقال تعالى عن ثمود، حين سألوا أن يُخرج لهم ناقة تخرج من صخرة عَيَّنُوها، فدعا صالح ـ عليه السلام ـ ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: كفروا بمن خلَقها، وكذَّبوا رَسوله وعقَروا الناقة، فقال: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: دالة على وَحدانيّة مَن خلقها وصِدقِ الرسول الذي أُجيب دعاؤه فيها، ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾، أي: كَفروا بها ومنعوها شِرْبها وقَتلُوها، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقَم منهم، وأخذَهم أخْذَ عَزيزٍ مقتدر.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، قال قتادة: إن الله يخوف الناس بما يشاء من آياته، لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذُكر لنا أن الكوفة رُجِفَت على عهد ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا أيها الناس، إنَّ ربكم يَسْتَعتِبُكم، فأعتبوه. وهكذا رُوي أن المدينة زُلزِلَت على عهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مرات، فقال عمر: أَحْدَثْتم، والله لَئِن عادَتْ لأَفْعلَنَّ ولأَفعلَنَّ.

[٤٢٩٠] وكذا قال رسولُ الله ﷺ في الحديث المُتَّفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله ـ عز وجلّ ـ يُخَوِّف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزَعُوا إلى ذكره ودُعَائِهِ واستغفاره. ثم قال: يا أُمَّةَ محمد، والله ما مِن أحدٍ أغيرُ من الله أن يزني عبدُه أو تزني أمتُه، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلَمُ لَضَحِكتُم قليلاً ولَبَكيتم كثيراً»[٢].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

يقولُ تعالى لرسوله ﷺ مُحرِّضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عَصَمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وَهُم في قَبْضَتِهِ وتحت قهره وَغَلَبتِهِ. قال مجاهدٌ، وعُروة بن الزُّبير، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرُهم في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾، أي: عَصَمَك منهم. وقولُه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ الآية.

[٤٢٩١] قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيانُ، عن عمرو، عن عكرمةَ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، قال: هي رُؤيا عَينٍ أُرِيَهَا رسول

---

(١) والحديث ضعيف. أخرجه أبو يعلى ٦٧٩، وفي إسناده عبد الجبار الأيلي، ضعيف، وشيخه عبد الله بن عطاء، قال يحيى: لا شيء. وشيخ أبي يعلى، ذكره المزي، وقال: أحد النُسّاك، ولم أجد له ترجمة أهـ. وقال الهيثمي ١١٢٤٥ «مجمع» عبد الجبار، وعبد الله بن عطاء، كلاهما وثق، وضعفهما الجمهور.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٠٤٤ ومسلم ٩٠١ وأبو داود ١١٩١ والنسائي ٣/ ١٣٢ والبيهقي ٣/ ٣٣٨ من حديث عائشة مطوّلاً.

الله ﷺ ليلة أُسرِيَ به، ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ﴾: شجرةُ الزقوم[1]. وكذا رواه أحمد، وعبد الرزاق، وغيرهما، عن سفيان بن عُيَينة، به. وكذا رواه العَوفي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وهكذا فَسَّر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد، وسَعيد بن جُبَير، والحسنُ، ومسروق، وإبراهيم، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وغيرُ واحد. وقد تقدَّمت أحاديثُ الإسراءِ في أول السورة مستقصاة، ولله الحمد والمنّة. وتقدَّم أن ناساً رجعُوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلُوبهم وعقولُهم ذلك، فَكَذَّبوا بما لم يُحيطُوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً وَيقيناً لآخرين، ولهذا قال: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾، أي: اختباراً وامتحاناً. وأما «الشجرة الملعونة»، فهي شجرة الزَّقُّوم، كما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزَّقُّوم، فَكَذَّبوا بذلك حتى قال أبو جهل - عليه لعائن الله -: هاتُوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل هذا بهذا، ويقول: تَزَقَّموا، فلا نعلم الزَّقُّوم غيرَ هذا. حكى ذلك ابن عباس، ومسروق، وأبو مالك، والحسن البصري، وغيرُ واحد: وكل من قال: إنها ليلة الإسراء، فسره كذلك بشجرة الزقوم. وقد قيل: المرادُ بالشجرةِ الملعونةِ: بَنُو أمية. وهو غريبٌ ضَعيفٌ.

[٤٢٩٢] قال ابنُ جَرير: حُدثت عن محمد بن الحسن بن زَبَالة، حدثنا عبدُ المُهَيمن بن عَبّاس بن سهل بن سعد، حَدَّثني أبي، عن جدي قال: رأى رسولُ الله ﷺ بني فلان يَنزُون على مِنبَرهِ نَزْوَ القرود، فساءه ذلك، فما استُجْمِع ضاحكاً حتى مات، قال: فأنزل الله في ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[2] . . . الآية، وهذا السندُ ضَعيفٌ جداً، فإن محمد بن الحسن بن زَبَالة متروك، وشيخه أيضاً ضعيفٌ بالكلية. ولهذا اختار ابنُ جرير: أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرةَ الملعونةَ هي شجرة الزقوم، قال: لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أي: في الرؤيا والشَّجَرَةِ. وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾، أي: الكفار بالوعيد والعذاب والنَّكال، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾، أي: تمادياً فيما هُم فيه من الكفر والضلال. وذلك من خِذْلانِ الله لهم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

يذكرُ تبارك وتعالى عداوةَ إبليس - لعنه الله - لآدم، عليه السلام وذُرِّيته، وأنها عَداوة قديمة منذ خُلِق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجُود، فَسَجدُوا كلُّهم إلا إبليسَ استكبر وأبى أن يَسجُد له؛ افتخاراً عليه واحتقاراً له، ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾. كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]. وقال أيضاً: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾، يقول للربِّ جَرَاءة وكفراً، والربُّ يحلُم ويُنظِر، ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾. قال عَليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لأستولِين على ذُرِّيته إلا قليلاً. وقال مجاهد: لأحتوِينَّ. وقال ابن زيدَ: لأُضِلَّنَّهُمْ. وكلُّها متقاربة، والمعنى أنه يقول: أرأيتَكَ هذا الذي شرَّفته وعظَّمته عليَّ، لئن أنظرتني لأُضِلَّنَّ ذُرِّيَّته إلا قليلاً منهم.

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧١٦.

(٢) باطل. أخرجه الطبري ٢٢٤٣٣ معلقاً بقوله «حُدِّثت» وهذه علة، وأعله ابن كثير أيضاً بالحسن بن زبالة، وأنه متروك، وأن شيخه ضعيف بالكلية والصحيح ما رواه البخاري آنفاً.

بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾

لما سَأَلَ إبليسُ ـ عليه اللعنةُ ـ النَّظِرَةَ قال الله له: ﴿ ٱذْهَبْ ﴾، فقد أنظرتُك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾ [ص: ٨٠ ـ ٨١]. ثم أوعده ومن تبعه من ذُرية آدم جهنمَ، فقال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ ﴾، أي: على أعمالكم، ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾. قال مجاهد: وافراً. وقال قتادة: مَوْفُوراً عليكم، لا يُنقَصُ لكم منه. وقولهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾، قيل: هو الغناء، قال مجاهد: باللهو والغناء، أي: استخفهم بذلك. وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾، قال: كلُّ داعٍ دعا إلى معصية الله عزَّ وجلَّ. وقاله قتادةُ، واختاره ابن جرير. وقولهُ تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾، يقول: واحمل عليهم بجنودك خيَّالَتِهم ورجَّالتهم؛ فإن الرَّجْل جمعُ راجلٍ، كما أن الركب جمع راكب، وصحب جمع صاحب. ومعناه: تُسَلَّط عليهم بكل ما تقدِرُ عليه. وهذا أمرٌ قَدَري، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ [مريم: ٨٣]، أي: تُزعِجُهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقُهم إليها سوقاً. وقال ابن عباس، ومجاهد في قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾، قال: كُلّ راكب وماشٍ في معصية الله. وقال قتادةُ: إنَّ له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس، وهم الذين يُطِيعونه. وتقول العربُ: «أَجْلَب فلانٌ على فلان»: إذا صاح عليه. ومنه نُهِيَ في المسابَقَةِ عن الجَلَب والجَنَب، ومنه اشتقاقُ الجَلَبةِ، وهي ارتفاعُ الأصواتِ. وقولُه تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾، قال ابنُ عباسٍ ومجاهدٍ: هو ما أمرهُم به من إنفاقِ الأموال في معاصي الله [تعالى]. وقال عطاء: هو الرِّبا. وقال الحسن: [هو] جَمْعُها من خَبيثٍ، وإنفاقُها في حَرَام. وكذا قالَ قتادةُ. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أمَّا مشاركَتُه إياهم في أموالهم فهو ما حرمُوه من أنعامهم، يعني من البحائر والسوائبِ ونحوها. وكذا قال الضحَّاكُ وقتادةُ. ثُمَّ قال ابنُ جرير: والأولى أن يُقالَ: إن الآية تَعُمُّ ذلك كلَّه. وقولهُ: ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾، قال العوفيُّ عن ابن عباسٍ، ومجاهدٍ، والضحاكِ: يعني أولاد الزنا. وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو ما كانوا قَتَلُوا من أولادهم سَفَهاً بغير علم. وقال قتادةُ، عن الحسن البصريِّ: قد والله شارَكَهُم في الأموال والأولاد، مَجَّسُوا وهَوَّدُوا ونَصَّروا وصَبَغُوا غير صِبغَةِ الإسلام، وجَزَّءوا من أموالهم جزءاً للشيطان. وكذا قال قتادةُ سواءً. وقال أبو صالح، عن ابن عباس: هو تَسمِيتُهم أولادَهم عبد الحارث، وعبدَ شمس، وعبدَ فلان. قال ابنُ جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كلُّ مولود وَلَدته أنثى عُصِي الله فيه بتسميته بما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله. أو بالزنا بأمه، أو بقتله أو وأده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصي الله بفعله به أو فيه، فقد دَخَل في مشاركة إبليس فيه مَن وُلِد ذلك الولدُ له أو منه؛ لأن الله لم يخصص بقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ معنى الشَّركة فيه بمعنى دُونَ معنى، فَكلُّ ما عُصِي الله فيه أو به، وأُطِيع فيه الشيطانُ أو به، فهو مشاركة. وهذا الذي قاله مُتَّجهٌ، وكلُّ من السلف ـ رحمهم الله ـ فسَّر بعضَ المشاركة.

[٤٢٩٣] فقد ثبت في صحيح مسلم، عن عياض بن حمَار أن رسولَ الله ﷺ قال: «يقول الله عزَّ وجلَّ: إني خَلقتُ عبادي حُنَفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالَتْهم عن دِينِهم، وحَرَّمت عليهم ما أحلَلْتُ لهم»(١).

(١) تقدم مراراً.

[٤٢٩٤] وفي الصحيحَين أنّ رسول الله ﷺ قال: «لو أنَّ أحدَهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللهُمَّ جَنِّبْنا الشيطانَ وجَنِّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقدَّرْ بينهما ولدٌ في ذلك لم يَضُرَّه الشيطانُ أبداً»(١).

وقولهُ: ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، كما أخبر تعالى عن إبليسَ أنه يقول إذا حَصْحَصَ الحقُّ يوم يُقضى بالحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. . . الآية. وقولهُ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: إخبارٌ بتأييده تعالى عبادَه المؤمنين، وحِفْظِه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾، أي: حافظاً ومؤيداً وناصراً.

[٤٢٩٥] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، عن موسى بن وَرْدَان، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن لَيُنضِي شَياطينه، كما يُنْضِي أحدُكم بَعِيرَه في السفر». يُنْضِي، أي: يأخذُ بناصيته ويَقْهَره(٢).

﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾

يخبر تعالى عن لُطفه بخَلْقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر، وتَسْهيله لها لمصالح عباده لابتغائهم من فَضْلِهِ في التجارة من إقليم إلى إقليم. ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، أي: إنما فَعَلَ هذا بكم من فَضْلِهِ عليكم ورحمته بكم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

يخبر تبارك وتعالى أنه إذا مَسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعَوه مُنِيبين إليه مُخلِصين له الدينَ. ولهذا قال [تعالى]: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾، ذَهَب عن قُلوبكم كلُّ ما تعبدون غَيْرَ الله [تعالى]، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فَتْح مكة، فذهب هارباً، فَرَكِبَ في البحر ليدخل الحبشة، فجاءهم ريح عاصف، فقال القوم بعضُهم لبعض: إنه لا يُغني عنكم إلا أن تدعُوا الله وحده. فقال عكرمة في نَفسِه: والله لَئِن كان لا ينفع في البحر غيرُه فإنه لا ينفعُ في البرّ غيرُه. اللهم لك عليَّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبَنَّ فَلأَضعَنَّ يدي في يَدِ مُحَمَّد، فلأجدنَّه رءُوفاً رَحِيماً. فَخَرجُوا من البحر، فَرَجَع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه. رَضِيَ الله عنه. وقولهُ [تعالى]: ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾، أي: نَسِيتم ما عرفتُم من توحيدِهِ في البحر، وأعرضتُم عن دعائه وحده لا شريكَ له. ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾، أي: سَجيَّتُه هذا، ينسَى النِّعم ويجحَدُها، إلا مَن عَصَم الله.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى: أفحسبتم إنْ يُخرجكم إلى البر أَمِنتم من انتقامه وعذابه؟. ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وهو المَطَرُ الذي فيه حجارة، قاله مجاهد وغير واحد. كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٤١ و٣٢٧١ ومسلم ١٤٣٤ وأبو داود ٢١٦١ والترمذي ١٠٩٢ وابن ماجه ١٩١٩ وأحمد ١/ ٢١٧ وابن حبان ٩٨٣ من حديث ابن عباس.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٢/ ٣٨٠ من حديث أبي هريرة، وفي إسناده ابن لهيعة ضعيف الحديث، وليس الراوي عنه أحد العبادلة، واكتفى الهيثمي في «المجمع» ٤٥٢ بقوله: فيه ابن لهيعة.

عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [القمر: ٣٤]، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦ ـ ١٧]. وقولُه: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾، أي: ناصِراً يَرُدُّ ذلك عنكم ويُنقِذكم منه. والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

يقولُ تبارك وتعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أيُّها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ في البحر مرة ثانية، ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾، أي: يَقْصِف الصواري[1] ويُغرق المراكب؛ قال ابن عباس وغيرهُ: القاصفُ ريح البحار التي تكسِرُ المراكِبَ وتُغرِقها. وقولهُ: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾، أي: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى. وقولُه: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾، قال ابن عباس: نَصِيراً. وقال مجاهدٌ: نصيراً ثائراً. أي: يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادةُ: ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

يُخبِرُ تعالى عن تَشْرِيفه لبني آدم وتكريمه إياهم، في خَلْقِه لهم على أحسن الهيئات وأكمَلِها، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]، أي: يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجَعَل له سمعاً وبَصَراً وفؤاداً، يفقه بذلك كلّه وينتفعُ به، ويفرق بين الأشياء، ويعرِف منافعها وخواصَّها ومَضارَّها في الأمور الدينية والدنيوية. ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ﴾، أي: على الدواب من الأنعام والخيل والبغالِ، ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ أيضاً على السفن الكبار والصغار. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، أي: من زُروع وثِمار، ولُحوم وألبانٍ، من سائر أنواع الطعُوم والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعةِ من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافِها وألوانِها وأشكالِها، مما يصنعُونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرُهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. وقد استُدِلّ بهذه الآية [الكريمة] على أفضليّة جنس البشر على جنس الملائكةِ.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكةُ: يا رَبَّنا، إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلُون منها ويتنعَّمُون، ولم تُعطنا ذلك فأعطِناهُ في الآخرة. فقال الله تعالى: وعزّتي وَجَلالي لا أجعلُ صالحَ ذُرِّيةِ مَن خلقتُ بيديَّ كمن قلت له: كن، فكان. وهذا الحديثُ مرسَلٌ[2] من هذا الوجه، وقد رُوِيَ من وجه آخرَ مُتَّصلاً. فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني:

---

(١) صواري السفينة: هي الأعمدة التي ينصب عليها الشراع.

(٢) قوله مرسل، فيه نظر، فإن زيد بن أسلم لم يروه عن النبي ﷺ، حتى يقال: هو مرسل، ولعل المصنف استدل على كونه مرسلاً بما بعده، والله أعلم.

[٤٢٩٦] حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي، حدثنا حجاج بن محمد. حدثنا أبو غسَّان محمد بن مُطرِّف، عن صفوان بن سُليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عَمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا ربَّنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال: لا أجعل صالح ذُرِّية من خلقت بيديَّ، كمن قلت له: كن، فكان»[١].

[٤٢٩٧] وقد روى ابن عساكر من طريق محمد بن أيوب الرازي: حدثنا الحسن بن علي بن خلف الصيدلاني، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثني عثمان بن حصن بن عبيدة بن علاق، سمعت عُروة بن رُوَيم اللخمي، حدثني أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الملائكة قالوا: ربنا، خلقتنا وخلقتَ بني آدم، فجعلتهم يأكلون الطعام، ويشربون الشراب، ويلبسون الثياب، ويتزوجون النساء، ويركبون الدواب، ينامون ويستريحون، ولم تجعل لنا من ذلك شيئاً فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال الله عزّ وجلّ: لا أجعل من خلقته بيدي، ونفخت فيه من روحي، كمن قلت له: كن، فكان»[٢].

[٤٢٩٨] وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا عمر بن سهل، حدثنا عُبَيد الله بن تمام، عن خالد الحذاء، عن بشر بن شَغَاف، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما شيءٍ أكرمَ على الله يوم القيامة من ابن آدَم. قيل: يا رسولَ اللّهِ. ولا الملائكةُ؟ قال: ولا الملائكةُ، الملائكةُ مجبورون بمنزلة الشمس والقمر»[٣]. وهذا حديث غريب جداً.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنّه يحاسِبُ كُلَّ أمة بإمامهم. وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهدٌ وقتادةُ: أي بنَبيِّهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس: ٤٧]. وقال بعضُ السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث، لأن إمامهم النبي ﷺ. وقال ابنُ زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع. واختاره ابن جرير، ورَوَى عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد أنه قال: بكُتُبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد ما رواه العَوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾، أي: بكتاب أعمالهم. وكذا قال أبو العالية، والحسنُ، والضحّاك. وهذا القولُ هو الأرجحُ، لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا

(١) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» كما في «المجمع» ٢٦٥، وقال الهيثمي: فيه إبراهيم ابن عبد الله المصيصي، كذاب متروك، وفي سند «الأوسط» طلحة بن زيد، كذاب أهـ وانظر ما بعده.

(٢) إسناده ضعيف جداً، فيه محمد بن أيوب الرازي كذبه أبو حاتم كما في الميزان ٧٢٥٨، والأشبه في هذا الخبر، وما قبله، كونهما من كتب الأقدمين، والله أعلم.

(٣) إسناده ضعيف جداً، أخرجه الطبراني كما في «المجمع» ٢٦٦ بهذا الإسناد، وقال الهيثمي: فيه عبيد الله بن تمام، وهو ضعيف أهـ ونقل الذهبي في الميزان ٥٣٤٨ عن البخاري قوله: عنده عن خالد الحذاء عجائب أهـ وهذا رواه عن خالد فهو من عجائبه.

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٨ ـ ٢٩]. وهذا لا ينفي أن يُجاء بالنبي إذا حَكَم الله بين أمته، فإنه لا بدَّ أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]. ويَحْتَمِل أنَّ المراد ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أي: كلُّ قوم بمن ائتمُّوا به، فأهلُ الإيمان ائتمُّوا بالأنبياء ـ عليهم السلامُ ـ وأهلُ الكفر ائتمُّوا بأئمتهم، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١].

[٤٢٩٩] وفي الصحيحين: «لتتبع كلّ أمةٍ ما كانت تعبُد، فيتبع من كان يعبُد الطواغيت الطواغيت»[(١)]. . . الحديث. ولكنَّ المراد ها هنا بالإمام هو كتابُ الأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾، أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤهُ ويحبُّ قراءته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٦]. وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، قد تقدَّم أن «الفَتِيلَ» هو الخيطُ المستطيلُ في شِقِّ النواةِ.

[٤٣٠٠] وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً في هذا فقال: حدثنا محمد بن مَعْمَر، ومحمد بن عثمان بن كَرَامَةَ قالا: حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيلَ، عن السُّدِّي، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ قال: يُدعَى أحدُهم فيُعطى كتابه بيمينه، ويُمَدّ له في جسمه، ويُبَيَّض وجهه، ويجعَلُ على رأسه تاجٌ من لؤلؤة تَتَلألأُ، فينطلق إلى أصحابه فَيَرَوْنه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتِنا بهذا، وبارك لنا في هذا. فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا، فإنَّ لكلِّ رجل منكم مثلَ هذا. وأما الكافر فَيَسْوَدُّ وجهُهُ، ويُمدُّ له في جِسْمه، ويراه أصحابُه فيقولون: نعوذ بالله من هذا، أو: من شر هذا، اللهم لا تأتنا به. فيأتيهم فيقولون: اللهمَّ أَخْزِه. فيقول: أَبْعَدكُم الله. فإنَّ لكلِّ رجلٍ منكم مثلَ هذا[(٢)]. ثم قال البزار: لا يُرْوَى إلا من هذا الوجه. وقولُه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادةُ، وابن زيدٍ: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ﴾، أي: في الحياة الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن حجج الله وآياته وبيناته، ﴿فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾، أي: كذلك يكون، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، أي: وأضلّ منه، كما كان في الدنيا، عياذاً بالله من ذلك.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

يخبر تعالى عن تأييد رسوله ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ وتَثْبيته، وعِصْمَتِه وسَلاَمته من شَرِّ الأشرار

---

(١) هو بعض حديث الرؤية، أخرجه البخاري ٧٤٣٧ ومسلم ١٨٢ عن أبي هريرة، وسيأتي.

(٢) أخرجه الترمذي ٣١٣٦ وصححه ابن حبان ٧٣٤٩ والحاكم ٢/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣ وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي!! مع أن مداره عند الجميع على عبد الرحمٰن بن أبي كريمة (والد السدّي)، وهو مجهول كما قال الحافظ في التقريب. وقال الذهبي في الميزان: ما روى عنه سوى ابنه اهـ. لكن وثقه ابن حبان، وحسّن الترمذي حديثه هذا. ولهذا الحديث شواهد تعضده وإن حكم غير واحد بضعفه، والله أعلم.

وكيد الفُجّار، وأنه تعالى هو المتولّي أمره ونصره، وأنه لا يَكِله إلى أحدٍ من خلقه، بل هو وَلِيُّه وحافِظُه ونَاصِرُه ومؤيده ومُظْفِرُه، ومُظهِرُ دينِه على من عاداه وخَالَفه وناوأه، في مشارق الأرض ومغاربها، ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

قيل: نزلت في اليهود، إذْ أشاروا على النبي ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء، وتَرْكِ سُكْنَى المدينة. وهذا القولُ ضعيفٌ، لأن هذه الآية مكية، وسُكْنَى المدينة بعد ذلك. وقيل: إنها نزلت بتبوك. وفي صِحَّته نظرٌ.

[٤٣٠١] روى البيهقيُّ، عن الحاكم، عن الأصمِّ، عن أحمد بن عبد الجبّار العُطَاردي، عن يونس بن بُكَير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حَوْشَبٍ، عن عبد الرحمن بن غَنْم أنَّ اليهودَ أتوا رسولَ الله ﷺ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنتَ صادقاً أنّك نبيٌّ فالْحَقْ بالشام، فإنَّ الشام أرضُ المحشر وأرضُ الأنبياء. قال: فصدّق ما قالوا، فغزا غزوةَ تبوك لا يريد إلا الشام. فلما بلغ تَبُوكَ أنزل الله عليه آيات من سُورة بني إسرائيل بعدما خُتِمت السورةُ: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾، إلى قوله: ﴿تَحْوِيلًا﴾، فأمره الله تعالى بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك، ومنها تُبعَثُ[1]. وفي هذا الإسناد نظرٌ. والأظهر أنَّ هذا ليس بصحيح، فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، ولقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩]. وغزَاها ليقتصَّ وينتقم ممن قَتَل أهلَ مؤتة من أصحابه، والله أعلم.

[٤٣٠٢] ولو صَحَّ هذا لَحُمل عليه الحديث الذي رواه الوليد بن مسلم، عن عُفَير بن مَعْدان، عن سُلَيم بن عامر، عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أُنزِلَ القرآنُ في ثلاثة أمكنة: مكَّةَ، والمدينةِ، والشام»، قال الوليد: يعني بيت المقدس[2]. وتفسير الشام بتبوك أحسن مما قال الوليد: إنه بيت المقدس. والله أعلم. وقيل: نَزَلت في كُفَّار قُرَيش، هَمُّوا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فَتَوعَّدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجُوه لما لبثوا بعدَه بمكَّة إلا يسيراً. وكذلك وَقَعَ؛ فإنه لم يكن بعد هِجْرَته من بين أظهرهم، بعدما اشتدَّ أذاهم له إلا سَنَة ونصف. حَتَّى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسَلَّطه عليهم وأَظْفَرَه بهم، فَقَتل أشرافهم، وسَبى ذراريهم. ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾، أي: هكذا عادتنا في الذين كَفَرُوا برسلنا وآذوهم: يخرج الرسول من بين أظهرهم ويؤتيهم العذاب،

---

(١) إسناده ضعيف جداً، والمتن باطل. أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ٥/ ٢٥٤. وفي إسناده: عبد الرحمٰن بن غنم مختلف في صحبته، وعدّه العجلي في ثقات التابعين. وفيه أيضاً: العطاردي، ذكره الذهبي في «الميزان» ٤٤٣ وقال: ضعفه غير واحد، وقال ابن عدي: أجمعوا على ضعفه، وقال الدارقطني: لا بأس به، وكذبه مطيّن، واتهمه ابن عقدة، والحديث ذكره الواحدي ٥٨٥ بدون إسناد. وأنكره القرطبي وذكر أن الآية مكية، والخطاب يتناول كفار قريش، راجع كلامه عند هذه الآية.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه الطبراني ٧٧١٨ من حديث أبي أمامة، وأعله الهيثمي ١١٦٢٠ بضعف عفير بن معدان، ولكن للحديث علة أخرىٰ، الوليد هو ابن مسلم يدلس التسوية، وقد عنعن.

ولولا أنه عليه الصلاة والسلام رسولُ الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قِبَل لأحد به. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣].

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾، قيل لغروبها. قاله ابن مسعود، ومجاهد، وابن زيد. وقال هُشيم، عن مغيرة، عن الشعبي، عن ابن عباس؛ دُلُوكها: زوالها. ورواه نافع، عن ابن عُمَر. ورواه مالك في تفسيره، عن الزُّهري، عن ابن عُمَر. وقاله أبو بَرْزَة الأسلمي وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود، ومجاهد. وبه قال الحسنُ، والضحّاكُ، وأبو جعفر الباقر، وقتادةُ. واختاره ابنُ جرير.

[٤٣٠٣] ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حُمَيد، عن الحكم بن بَشير، حدثنا عمرو بن قيس، عن ابن أبي ليلى، عن رجل، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: دعوتُ رسولَ الله ﷺ ومن شاء من أصحابه، فَطَعِمُوا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرجَ النبي ﷺ فقال: اخرج يا أبا بكر، فذاك حين دَلَكت الشمس»[١]. ثم رواه عن سهل بن بكار، عن أبي عَوَانة، عن الأسود بن قيس، عن نُبَيح العَنَزيِّ، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ، نحوه. فعلى هذا تكون هذه الآية دَخَل فيها أوقاتُ الصلوات الخمسة، فمن قوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ ـ وهو: ظلامه، وقيل: غروبُ الشمس ـ أُخِذَ منه الظهرُ والعصرُ والمغربُ والعشاءُ. وقولهُ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾، يعني: صلاة الفجر. وقد ثبتت السنةُ عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله، بتفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه عمل أهل الإسلام اليوم، مما تَلَقَّوه خلفاً عن سلف، وقرناً بعد قرن، كما هو مُقرَّر في مواضعه، ولله الحمد. ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

[٤٣٠٤] قال الأعمشُ، عن إبراهيم، عن ابن مسعود ـ وعن أبي صالح، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار»[٢].

[٤٣٠٥] وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمر، عن الزُّهري، عن أبي سلمة ـ وسعيد بن المسيب، عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «فَضلُ صلاةِ الجميع على صلاة الواحد خمسٌ وعشرون درجةً، وتجتمع ملائكةُ الليل وملائكةُ النهارِ في صلاةَ الفجرِ». يَقُولُ أبو هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[٣].

[٤٣٠٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباطٌ، حدثنا الأعمش، عن إبراهيمَ، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ وحدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٢٥٨٣ برواية: «اخرج يا أبا بكر، قد دلكت الشمس»، وفي إسناده: راوٍ لم يسمّ، وكرره ٢٢٥٨٤ بسند فيه مجهول.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢٥٩٤ وفيه أسباط بن محمد غير قوي، والراجح وقفه.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٨ ومسلم ٦٤٩ ح ٢٤٦.

﴿ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، قال: تشهَدُه ملائكة الليل، وملائكة النهار[١]. ورواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ثلاثتهم عن عُبَيدِ بن أسباطِ بن محمد، عن أبيه، به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

[٤٣٠٧] وفي لفظ في الصحيحَين، من طريق مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، ويَجتَمِعُون في صلاةِ الصُّبح وفي صلاةِ العَصْرِ، فَيَعْرُجُ الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم ـ وهو أعلَمُ بهم ـ: كيف تركتُم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يُصَلُّونَ، وتركناهم وهم يُصَلُّون»[٢]. وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعَدُ هؤلاء ويُقِم هؤلاء. وكذا قال إبراهيم النخَعِيّ، ومجاهد، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ في تفسير هذه الآية.

[٤٣٠٨] وأما الحديثُ الذي رَوَاه ابنُ جرير ها هنا، من حديث الليث بن سعد، عن زِيادةَ، عن محمد بن كعب القُرَظي، عن فضالة بن عُبَيد، عن أبي الدَّرداء، عن رسول الله ﷺ فذكر حديثَ النزول، وأنه تعالى يقول: «من يَستغفرني أغفر له، من يَسألني أُعطِه، مَنْ يَدْعُني فأستجيبُ له حتى يطلع الفجر». فذلك قول الله ـ عز وجلّ ـ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، فيشهده الله، وملائكةُ الليلِ، وملائكة النهار[٣] فإنه تَفَرَّد به زِيادَة، وله بهذا حديث في سُنَنِ أبي داود.

وقولهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾، أمرٌ له بقيام الليل بعد المكتوبة.

[٤٣٠٩] كما وَرَد في صحيح مسلم، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ: أنه سُئِل: أيُّ الصلاةِ أفضلُ بعد المكتوبة؟ قال: «صلاةُ الليل»[٤]. ولهذا أمر تعالى رسولَه بعد المكتوبات بقيام الليل، فإنَّ التهجُّدَ ما كان بعد نوم. قاله علقمةُ، والأسود، وإبراهيم النخعي، وغيرُ واحد، وهو المعروف في لغة العرب. وكذلك ثبتت الأحاديثُ عن رسول الله ﷺ أنه كان يَتَهجَّد بعد نومه، عن ابن عباس، وعائشة، وغير واحد من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كما هو مبسوط في مَوْضِعه، ولله الحمد والمنّة. وقال الحسنُ البصري: هو ما كان بعد العِشَاء. ويُحملُ على ما بعد النوم. واختُلِف في معنى قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾، فقيل: معناهُ أنك مخصوص بوجوبِ ذلك وحدك، فَجَعلُوا قيام الليل واجباً في حَقِّه دون الأمة. رواه العَوفي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهو أحدُ قولَي العلماء، وأحدُ قَولَي الشافعي رحمه الله، واختاره ابنُ جرير. وقيل: إنما جُعِل قيامُ الليل في حَقِّه نافلة على الخصوص، لأنه قد غُفِر له ما تَقَدَّم من ذنبه وما تأخر، وغيرُه من أمته إنما يُكَفِّر عنه صلواتُه النوافلُ الذنوبَ التي عليه. قاله مجاهد، وهو في المسند عن أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه.

---

(١) أخرجه الترمذي ٣١٣٥ والنسائي في «التفسير» ٣١٣ وابن ماجه ٦٧٠ وأحمد ٢/ ٤٧٤ وإسناده غير قوي لأجل أسباط بن محمد، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٥ ومسلم ٦٣٢ والنسائي ١/ ٢٤٠ وأحمد ٢/ ٤٨٦ وابن حبان ١٧٣٧.

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٢٥٩٥ من حديث أبي الدرداء. وفي إسناده زيادة بن محمد الأنصاري، قال الحافظ في «التقريب»: منكر الحديث. وذكره الذهبي في «الميزان» ٢٩٨٨ بهذا الحديث، وقال: فهذه ألفاظ منكرة، لم يأتِ بها غير زيادة. قال البخاري والنسائي: منكر الحديث.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١١٦٣ وأبو داود ٢٤٢٩ والنسائي ٣/ ٢٠٧ وابن ماجه ٧٤٢ وأحمد ٢/ ٣٠٣ و٣٢٩ وأبو يعلى ٦٣٩٢.

وقولهُ تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾، أي: افعلْ هذا الذي أمرتُك به لِنُقيمك يوم القيامة مقاماً يحمَدُك فيه الخلائق كلُّهم وخالِقُهم تبارك وتعالى. قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقُومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربُهم من عظيم ما هم فيه من شدّة ذلك اليوم.

ذكْرُ من قال ذلك: حدثنا ابن بَشّار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاقَ، عن صِلَةَ بن زفرَ، عن حُذَيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: يُجمَع الناسُ في صعيدٍ واحدٍ، يُسْمِعُهم الداعي وَيَنفُذُهم البصر، حُفاةً عُراةً كما خُلِقوا قياماً، لا تَكلّم نفسٌ إلا بإذنه، ينادَى: يا محمدٌ، فيقول: لَبّيك وسَعدَيْك، والخيرُ في يديك، والشرُّ ليس إليك، والمهدي من هَدَيت، وعبدُك بين يديك، وبك وإليك، لا منجَى ولا مَلْجَأ منك إلا إليك، تباركتَ وتعاليتَ، سُبحانَكَ رَبَّ البيت. فهذا المقامُ المحمودُ الذي ذَكَره الله تعالى. ثم رواه عن بُنْدَار، عن غُندر، عن شعبة، عن أبي إسحاقَ، به. وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر والثوري، عن أبي إسحاق، به. وقال ابن عباس: المقامُ المحمود مقامُ الشفاعة. وكذا قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، وقاله الحسن البصري. وقال قتادة: هو أول من تَنشقُّ عنه الأرض، وأولُ شافع، وكان أهلُ العلم يرون أنه المقامُ المحمودُ الذي قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾.

قلت: لرسول الله ﷺ تشريفاتٌ لا يَشْرَكُه فيها أحدٌ، وتشريفات لا يُساوِيه فيها أحدٌ، فهو أوّل من تَنشقُّ عنه الأرضُ، ويبعث راكباً إلى المحشَر، وله اللواءُ الذي آدمُ فمن دونَه تحتَ لوائه، وله الحوضُ الذي ليس في الموقِفِ أكثرُ وارداً منه، وله الشفاعةُ العظمى عند الله لِيَأتيَ لِفَصْلِ القضاءِ بين الخلائق، وذلك بعدما يسألُ الناسُ آدمَ ثم نوحاً ثم إبراهيمَ ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: لستَ لها، حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها»[١]، كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضع إن شاء الله تعالى. ومن ذلك أنه يشفَع في أقوام قد أُمِرَ بهم إلى النار، فَيُردُّون عنها. وهو أول الأنبياء يَقْضِي بين أمته، وأولُهم إجازة على الصِّراط بأمته. وهو أولُ شَفِيع في الجنة، كما ثبت في صحيح مسلم. وفي حديث الصُّور[٢]: أن المؤمنين كُلَّهم لا يدخلون الجنةَ إلا بشفاعَتِه، وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم. ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلُغها أعمالهم، وهو صاحبُ الوسيلةِ التي هي أعلى مَنْزِلةٍ في الجنة، لا تليق إلا له. وإذا أذِنَ الله تعالى في الشفاعة في العُصَاة تَشفَعُ الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفَعُ هو في خلائق لا يَعلَم عدتهم إلا الله تعالى، ولا يشفَعُ أحد مثله ولا يُساوِيه في ذلك. وقد بَسَطْتُ ذلك مُستَقصىً في آخِر كتاب «السِّيرَةِ» في باب الخَصَائِصِ، ولله الحمدُ والمنّةُ.

وَلْنَذْكُرِ الآنَ الأحاديثَ الوارِدَةَ في المقام المحمود، وبالله المستعانُ:

[٤٣١٠] قال البخاري: حدثنا إسماعيلُ بن أبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدَمَ بن علي، سَمِعْتُ ابن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ يقولُ: إن الناس يعبرون يوم القيامة جُثاً، كل أمة تتبع نَبيَّها، يقولون: «يا فلان اشفع، يا فلان اشفع»، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعَثُه الله مقاماً محموداً[٣]. ورواه حمزةُ بن عبد الله، عن أبيه، عن النبي ﷺ.

---

(١) تقدم مراراً.

(٢) تقدم تخريجه باستيفاء، وهو حديث مطول.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧١٨.

[٤٣١١] قال ابنُ جَرِير: حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا شُعَيب بن الليث، حَدَّثني الليثُ، عن عُبَيد الله بن أبي جَعفر أنه قال: سَمِعتُ حمزةَ بنِ عبد الله بن عُمَر يقول: سَمِعتُ عبد الله بن عمر يقولُ: قال رسولُ آلله ﷺ: «إنَّ الشمسَ لتَدنُو حتى يَبْلُغَ العَرَقُ نِصْفَ الأذن، فبينما هم كذلك استغاثُوا بآدم ـ عليه السلام ـ فيقول: لستُ صاحِبَ ذلك. ثم بموسى ـ عليه السلام ـ فيقول كذلك، ثم بمُحَمَّد فيشفَعُ بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجَنَّة، فيومئذٍ يبعثُه الله مقاماً محموداً»[١].

[٤٣١٢] وهكذا رواه البخاريُ في «الزكاة» عن يحيى بن بُكَير وعبد الله بن صَالح، كلاهما عن الليث بن سعد، به: وزاد: «فيومئذٍ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجَمْعِ كلهم»[٢].

[٤٣١٣] قال البخاري: وحدثنا علي بن عَيَّاش، حدثنا شُعَيب بن أبي حَمْزَة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أن رسولَ الله ﷺ قال: «من قال حين يسمَعُ النداء: اللهمَّ، ربَّ هذه الدعوةِ التامَّةِ والصلاةِ القائمةِ، آتِ مُحمَّداً الوسيلةَ والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ـ حَلَّت له شفاعتي يوم القيامة»[٣]. انفرد به دون مسلم.

[٤٣١٤] **حديث أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه،** قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزديّ، حدثنا زُهَير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامة كنتُ إمامَ الأنبياء وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم غَيْرَ فَخْرٍ»[٤]. وأخرجه الترمذي، من حديث أبي عامر عبد الملك بن عَمْرٍو العَقَدِيّ، وقال: «حديث حسن صحيح». وابنُ ماجه، من حديث عبد الله بن محمد بن عَقِيلٍ، به.

[٤٣١٥] وقد قدَّمنا في حديث «أبي بن كعب» في قراءة القرآن على سبعة أحرف، قال رسولُ الله ﷺ في آخره: فقلت: اللهمَّ، اغفرْ لأمَّتي، اللهُمَّ اغفِر لأُمَّتِي، وأخرتُ الثالثةَ ليومٍ يرغَب إليَّ فيه الخلقُ، حَتَّى إبراهيمُ عليه السلام»[٥].

[٤٣١٦] **حديثُ أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ:** قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، حدثنا قتادةُ، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: يُجمَع المؤمنونَ يَوْمَ القيامة، فَيُلْهَمُون ذلك فيقولُون: لو استَشْفَعنا إلى ربِّنا، فأراحنا من مكاننا هذا. فيأتون آدَمَ فيقولون: يا آدم، أنتَ أبو البَشَرِ، خَلَقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعَلَّمك أسماء كلّ شيء، فاشفع لنا إلى رَبِّك حتى يُريحنَا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدمُ: لستُ هناكم. ويَذْكُر ذَنْبَه الذي أصاب، فَيَستَحِي ربَّه ـ عزّ وجلّ ـ من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا نُوحاً، فإنه أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض. فيأتون نوحاً فيقول: لست

---

(١) صحيح. أخرجه الطبري ٢٢٦٣٧ وإسناده صحيح.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٤٧٤ ـ ١٤٧٥.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦١٤ وأبو داود ٥٢٩ والترمذي ٢١١ والنسائي ٢/ ٢٦ ـ ٢٨ وأحمد ٣/ ٣٥٤ وابن حبان ١٦٨٩.

(٤) أخرجه الترمذي بإثر ٣٦١٣ وابن ماجه ٤٣١٤ وأحمد ٦/ ١٣٧ و١٣٨ وإسناده غير قوي من أجل عبد الله بن محمد بن عقيل، لكن يشهد لمعناه أحاديث الباب، وانظر صحيح ابن ماجه ٣٤٨٢.

(٥) تقدم.

هناكم، ويذكر خطيئةَ سُؤاله ربَّه ـ عزَ وجلَ ـ ما ليس له به علم، فَيَسْتَحِي رَبَّه من ذلك، ولكن ائتُوا إبراهيمَ خليلَ الرحمن. فيأتونه فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا موسى، عَبْداً كلمه الله تعالى، وأعطاه التوراة. فيأتون موسى فيقولُ: لست هناكم، ويذكر لهم النفس التي قَتَل بغير نفس، فَيَسْتَحِي رَبَّه ـ عزَ وجلَ ـ من ذلك، ولكن ائتوا عيسى، عبدُ الله ورسوله، وكلمتُه وروحُه. فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم. ولكن ائتوا محمداً ﷺ عبداً غَفَر الله له ما تَقدَّم من ذَنْبِهِ وما تَأَخَر. فيأتوني ـ قال الحسنُ هذا الحرفَ: فأقوم فأمشي بين سِمَاطين من المؤمنين ـ قال أنس: حتى أستأذِنَ على ربي، فإذا رأيت ربي وَقَعْتُ له ـ أو ـ خَرَرْتُ ـ ساجداً لربي، فيَدَعني ما شاء الله أن يدعني، قال: ثم يقال: ارفَعْ محمدُ، قُل تسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأرفع رأسي، فأحمده بتحميد يُعلِّمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة. ثم أعود إليه الثانية فإذا رأيت ربي وقعت ـ أو خَرَرتُ ـ ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل تُسمَعْ، وسَل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأحمَدُه بِتحمِيد يُعَلِّمنيه، ثم أشفع فَيَحُدُ لي حَدًّا، فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه الثالثة؛ فإذا رأيت ربي وقعت ـ أو: خررت ـ ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل تسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأحمَدُه بِتَحمِيد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فَيَحُدُّ لي حَدّاً، فأدخلهم الجنة. قال: ثم أعود الرابعة فأقول: يا رب، ما بقي إلا من حَبسَه القرآن. فحدثنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: فَيَخرُج من النار من قال: «لا إله إلا الله»، وكان في قلبه من الخير ما يَزِن شعيرة، ثم يَخرُج من النار من قال: «لا إله إلا الله»، وكان في قلبه من الخير ما يَزِن بُرّة. ثم يَخرُج من النار من قال: «لا إله إلا الله»، وكان في قلبه من الخير ما يَزِن ذَرّة»[1]. أخرجاه في الصحيح من حديث سعيد، به. وهكذا رواه الإمامُ أحمدُ، عن عفَّان، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بطوله.

[٤٣١٧] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يونُس بن محمد، حدَّثنا حَرْب بن ميمون أبو الخطَّاب الأنصاري، عن النَّضر بن أنس، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ حَدَّثني نبيُّ الله ﷺ: «إني لقائمٌ أنتظر أُمَّتي تَعبُر الصِّراط، إذ جاءني عيسى ـ عليه السلام ـ فقال: هذه الأنبياءُ قد جاءتك يا مُحَمَّد يسألون ـ أو قال: يجتمعون إليك ـ ويَدْعُون الله أن يُفرِّق بين جميع الأمم إلى حيثُ يشاء الله، لِغَمّ ما هُم فيه، فالخلق مُلجَمون بالعرق، فأما المؤمنُ فهو عليه كالزُّكْمَة، وأما الكافر فيغشاه الموت. فقال: انتظر حتى أرجعَ إليك. فذهبَ نبيُّ الله ﷺ فقام تحتَ العرش، فلقي ما لم يَلْقَ مَلَك مصطفى ولا نبيٌّ مُرسَلٌ، فأوحى الله ـ عز وجلّ ـ إلى جبريل: أن اذْهَبْ إلى محمد، وقل له: ارفع رأسَكَ، وَسَلْ تُعطَه، واشفع تشفّع. فَشَفَعتُ في أمتي: أَنْ أُخرِجْ من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً، فما زلت أترَدَّدُ إلى ربي عزّ وجلّ، فلا أقوم منه مقاماً إلا شَفَعت، حتى أعطاني الله عزَّ وجلَّ من ذلك، أن قال: يا محمد، أَدْخِلْ من أُمّتِك مِن خَلْق الله ـ عزّ وجلّ ـ مَنْ شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً، ومات على ذلك»[2].

[٤٣١٨] **حديث بُرَيدة ـ رضي الله عنه ـ**: قال الإمام أحمدُ بن حنبل: حدثنا الأسود بن عامر، أخبرنا أبو إسرائيل، عن الحارث بن حَصِيرة، عن ابن بُرَيدة، عن أبيه: أنه دَخَل على معاوية ـ رضي الله عنه ـ فإذا رجلٌ يتكلم، فقال بُرَيدة: يا معاويةُ، إيذَنْ لي في الكلام؟ فقال: نَعَم، وهو يرى أنه سيتكلّم بمثل ما قال

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٤٧٦ و٦٥٦٥ ومسلم ١٩٣ وأحمد ٣/١١٦ وابن حبان ٦٤٦٤.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٣/١٧٨ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/٣٧٣ وقال: ورجاله رجال الصحيح.

الآخر، فقال بُرَيدة: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إني لأرجو أن أشفَعَ يومَ القيامة عَدَد ما على الأرض من شجرة ومَدَرة». قال: فَتَرْجُوها أنت يا معاوية ولا يرجوها علي رضي الله عنه؟[(١)].

[٤٣١٩] حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: قال الإمام أحمد: حدثنا عارِمُ بن الفضل، حدثنا سعيدُ بن زيد، حدثنا علي بن الحكم البُنَاني، عن عثمان، عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء ابنا مُلَيكة إلى النبي ﷺ فقالا: إن أمّنا كانت تُكْرِمُ الزوج، وتَعْطِف على الولد، قال: وذكر الضَّيفَ، غير أنها كانت وَأَدَت في الجاهلية؟ فقال: أمُّكما في النار. قال: فأدبرا والسوءُ يُرَى في وجوههما، فأمر بهما فرُدّا، فرَجَعا والسرور يُرَى في وجوههما؛ رجاء أن يكون قد حدث شيءٌ، فقال: أمي مع أمكما. فقال رجل من المنافقين: وما يُغني هذا عن أُمه شيئاً ونحن نَطَأُ عَقِبه. فقال رجل من الأنصار ـ ولم أرَ رَجُلاً قَطُّ أكثرَ سُؤَالاً منه ـ: يا رسولَ اللّهِ، هل وَعَدكَ ربُّك فيها أو فيهما؟ قال: فَظَنَّ أنه من شيءٍ قد سَمِعَه، فقال: ما شاء الله رَبِّي، وما أطمَعَني فيه، وإني لأقومُ المقامَ المحمودَ يوم القيامة. فقال الأنصاريّ: يا رسولَ اللّهِ، وما ذاك المقامُ المحمودُ؟ قال: ذاك إذا جِيءَ بكم حُفَاة عُرَاة غُرْلاً، فيكون أولُ مَن يُكْسَى إبراهيمَ عليه السلام، فيقول: اكسُوا خَلِيلي. فَيُؤتي بِرَيطَتَينِ بَيْضَاوَين، فيلبَسُهما ثم يُقعِدُه مستقبلَ العرش، ثم أُوتي بِكِسوَتي فألبسها، فأقوم عن يَمينه مقاماً لا يقومُه أحد، فيغبطني فيه الأولون والآخرون. [قال] ويفتح لهم نهر من الكوثر إلى الحوض. فقال المنافقون: إنه ما جَرَى ماء قَطُّ إلا على حال أو رَضراض. فقال رسول الله ﷺ: حالُه المسك، ورَضْرَاضه التُّوم. قال المنافق: لم أسمَعْ كاليوم. فإنه قلَّما جرى ماء قَطُّ على حَال أو رضراض إلا كان له نَبْتَةٌ. فقال الأنصاري: يا رسول الله، هل له نبت؟ فقال: نعم، قُضبَانُ الذَّهَبِ. قال المنافِقُ: لم أسمَع كاليوم، فإنه قلما ينبُت قضيبٌ إلا أورق، وإلا كان له ثَمر. فقال الأنصاري: يا رسولَ الله، هل له ثَمَرَةٌ؟ قال: نعم، ألوان الجَوهَر، وماؤُه أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، من شَرِب منه شَرْبةً لا يظمأ بعدَه، ومن حُرِمه لم يَرْوَ بعده[(٢)].

[٤٣٢٠] وقال أبو داود الطيالسي؛ حدثنا يحيى بن سَلَمة بن كُهَيل، عن أبيه، عن أبي الزَّعْرَاء، عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: ثم يأذن الله ـ عزّ وجلّ ـ في الشفاعة، فيقوم روحُ القدُس جبريلُ، ثم يقوم إبراهيم خليل الله، ثم يقوم عيسى أو موسى ـ قال أبو الزعراء: لا أدري أيُّهما ـ قال: ثم يقوم نبيكُم ﷺ رابعاً، فيشفع لا يشفع أحدٌ بعده أكثر مما شفع، وهو المقام المحمود الذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[(٣)].

[٤٣٢١] حديثُ كعبِ بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيدُ بن عبدِ رَبِّهِ، حدثني محمد بن حَرْبٍ، حدثنا الزّبيديِ، عن الزّهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «يُبعَثُ الناس يوم القيامة فأكونُ أنا وأُمّتي على تَلّ،

---

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٥/٣٤٧ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/٣٧٨ وقال: رواه أحمد، ورجاله وثقوا على ضعف كثير في أبي إسرائيل الملائي.

(٢) ضعيف. أخرجه أحمد ١/٣٩٨ ـ ٣٩٩ والطبراني ١٠٠١٧ والبزار ٣٤٧٨ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/٣٦١ ـ ٣٦٢ وقال: وفي أسانيدهم كلهم عثمان بن عمير، وهو ضعيف.

(٣) إسناده ضعيف لضعف يحيىٰ بن سلمة بن سهيل، وفي الباب أحاديث تغني عنه.

ويكسوني ربِّي ـ عزّ وجَلّ ـ حُلَّةً خضراء. ثم يُؤذَن لي فأقولُ ما شاء الله أن أقول، فذلك المقامُ المحمودُ»(١).

[٤٣٢٢] حديث أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ: قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعَة، حدثنا يزيد بن أبي حَبيب، عن عبد الرحمٰن بن جُبَير، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أول من يُؤذَنُ له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يُؤذن له أن يَرْفَع رأسه، فأنظرُ إلى ما بين يَدَيَّ، فأعرفُ أُمَّتي من بين الأمم، ومن خَلْفِي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك. فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، كيف تعرفُ أُمّتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «هم غُرّ مُحَجَّلُون من أَثَرِ الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفُهم أنهم يُؤتَونَ كُتُبَهم بأيمانهم، وأعرِفهم تسعَى بين أيديهم ذُرِّيَتهم»(٢).

[٤٣٢٣] حديث أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ: قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يحيى بن سَعِيد، حدثنا أبو حَيَّان، حدثنا أبو زُرعة بن عَمرو بن جَرير، عن أبي هُرَيرَة ـ رضي الله عنه ـ قال: أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بلحم، فَرُفِعَ إليه الذراعُ ـ وكانت تُعجِبُه ـ فَنَهَس منها نَهْسَةً، ثم قال: «أنا سيدُ الناس يوم القيامة، وهل تدرُون مِمّ ذاك؟ يَجْمَع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يُسْمِعهم الداعي وَيَنفُذُهم البصر، وتدنو الشمسُ فيبلُغ النَاسَ من الغمّ والكَرْب ما لا يُطِيقُون ولا يحتملون. فيقول بعضُ الناس لبعض: ألا تَرَون إلى ما أنتم فيه؟ ألا تَرَون إلى ما قد بلغكُم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربّكم؟ فيقول بعضُ النَاس لبعض: أبوكم آدمُ. فيأتون آدم ـ عليه السلام ـ فيقولون: يا آدمُ، أنتَ أبو البشر، خَلَقك الله بيده، ونَفَخ فيك من رُوحه، وأمر الملائكة فَسجَدُوا لك؛ فاشفع لنا إلى ربك، ألا تَرَى ما نحنُ فيه، ألا ترى ما قد بَلَغنا؟ فيقول آدم: إنّ ربي قد غَضِبَ اليوم غضباً لم يَغْضَبْ قبله مثلَه، ولن يَغْضَب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فَعَصيتُه. نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح عليه السلام. فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوحُ، أنت أولُ الرسل إلى أهل الأرض، وسَمَّاك الله عبداً شكوراً، فاشفَع لنا إلى ربِّك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بَلَغنا؟ فيقولُ نوحٌ: إنَّ ربِّي قد غَضِب اليوم غَضباً لم يَغضَب قبلَه مِثْلَه، ولن يَغضَب بعده مثلَه، وإنه كانت لي دعوةٌ دعوتها على قومي، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي. اذهَبُوا إلى غَيْري، اذهَبُوا إلى إبراهيم عليه السلام. فَيأتُون إبراهيمَ فيقولون: يا إبراهيمُ، أنت نبيُ الله وخليلهُ من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا تَرَى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بَلَغنا؟ فيقول: إنّ ربي قد غضِب اليوم غضَباً لم يغضَب قبله مثله، ولن يغضَب بعده مثله، فذكر كذبَاتِهِ. نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى عليه السلام. فَيأتُون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسولُ الله، اصطفاك الله برسالاتِهِ وبتكليمه على الناس، اشفَعْ لنا إلى رَبِّك، ألا ترى ما نحنُ فيه، ألا تَرَى ما قد بَلَغنا؟ فيقولُ لهم موسى: إنّ ربِّي قد غَضِب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلتُ نفساً لم أُومَرْ بقتلها، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى عليه السلام. فَيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسولُ الله وكلمتهُ ألقاها إلى مريم وروحٌ منه. قال: هكذا هُوَ. وكلمتَ الناس في المهد، فاشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بَلَغنا؟ فيقول لهم

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣/٤٥٦ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٧/٥١ وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد ٥/١٩٩ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٧/٣٤٤ وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو ضعيف وقد وثق اهـ ولأصل الحديث شواهد يقوى بها.

عيسى: إن ربي قد غَضِب اليوم غضباً لم يغضَب قبلَه مثله، ولن يغضبَ بعدَه مثله. ولم يَذْكُر ذنباً، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ فَيأْتوني فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غَفَر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بَلَغنا؟ فأقومُ فآتي تحت العرش، فأقَعُ ساجداً لربِّي عزَّ وجلَّ، ثم يفتح علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه وشيئاً لم يفتحه على أحدٍ قبلي فيقال يا محمد: ارفَع رأسك، وسَلْ تُعطَه، واشفع تُشفَّع. فأقول: يا ربِّ، أُمتي أُمتي. يا ربِّ، أُمتي أمّتي. يا ربِّ، أُمّتي أُمّتي. فيقال: يا محمد، أَدْخِلْ من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمنَ من أبواب الجَنة، وهم شُرَكاء الناسِ فِيما سِوَاه من الأبواب. ثم قال: والذي نَفْسُ محمدٍ بيده لَمَا بين مِصْراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهَجَر، أو كما بين مكة وبُصْرَى»[١] أخرجاه في الصحيحَين.

[٤٣٢٤] وقال مسلم ـ رحمه الله ـ: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا هِقْلُ بن زياد، عن الأوزاعي، حدثني أبو عمار، حَدَّثني عبد الله بن فَرّوخ، حدثني أبو هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يوم القيامة، وأولُ من ينشق عنه القبرُ، وأولُ شافعٍ، وأول مُشَفَّع»[٢].

[٤٣٢٥] وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حَدَّثنا وَكيع، عن داود بن يزيد الزَّعافِرِيِّ، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾، سئل عنها فقال: هِيَ الشفاعة[٣].

[٤٣٢٦] ورواه الإمامُ أحمدُ عن وكيع ومحمد بن عُبيد، عن داود، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾، قال: هو المقامُ الذي أشفَعُ لأُمَّتي فيه[٤].

[٤٣٢٧] وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمرٌ، عن الزهري، عن علي بن الحُسَين قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يومُ القيامة، مَدَّ الله الأرضَ مَدَّ الأديم، حتى لا يكونَ لبشرٍ من الناس إلا موضعُ قدميه، قال النبي ﷺ: فأكونُ أولَ من يُدْعَى، وجبريلُ عن يمين الرحمن، والله ما رآه قبلها، فأقول: أيْ رَبِّ، إن هذا أخبرني أنك أرسلته إليّ. فيقولُ الله عزّ وجلّ ـ: صدق، ثم أشفَعُ. فأقول: يا ربِّ، عبادُك عَبَدُوك في أطراف الأرض. قال: فهو المقام المحمود»[٥]. وهذا حديثٌ مرسَلٌ.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾﴾

[٤٣٢٨] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا جرير، عن قابوسَ بن أبي ظَبْيَان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: كان

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٤٠ ومسلم ١٩٤ والترمذي ٢٤٣٤ وأحمد ٢/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦ وابن حبان ٦٤٦٥.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٧٨.

(٣) أخرجه الطبري ٢٢٦٣٤ وإسناده ضعيف لضعف داود بن يزيد.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٤٤١ و٥٢٨ وإسناده ضعيف كسابقه.

(٥) ضعيف، أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ١٦١٤ وعنه الطبري ٢٢٦٣٩ و ٢٢٦٤٠ عن علي بن الحسين رضي الله عنهما، وهو مرسل، والمرسل من قسم الضعيف، والغريب فيه لفظ «ما رآه قبلها» وبقية المتن له شواهد تقويه. والله أعلم.

النبي ﷺ بمكة ثم أُمِر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾[1].

وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إنَّ كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يَطردوه أو يُوثِقوه، وأراد الله قتالَ أهل مكة، فأمرَه أن يخرُج إلى المدينة، فهو الذي قال الله ـ عَزَّ وجلّ ـ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾. وقال قتادةُ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، يعني المدينةَ، ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، يعني مكَّةَ. وكذا قال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول هو أشهرُ الأقوال. وقال العوفي، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، يعني الموت، ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، يعني الحياة بعد الموت. وقيل غير ذلك من الأقوال. والأول أصح، وهو اختيارُ ابنِ جرير. وقولُه تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾، قال الحسنُ البصريُّ في تفسيرها: وعده ربه ليَنْزِعنَّ ملك فارس وعزَّ فارس، ولَيَجْعَلنّه له، وعز الروم وملك الروم، ولَيجْعَلنَّه له. وقال قتادةُ فيها: إن نبي الله ﷺ علم أن لا طاقَةَ له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله ولحدود الله ولفرائض الله ولإقامة دين الله؛ فإنَّ السلطانَ رحمةٌ من الله جعله بين أظهر عباده، لولا ذلك لأغار بعضُهم على بعضٍ فأكَلَ شديدُهم ضعيفَهم. وقال مجاهد: ﴿سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾: حُجَّةً بينةً. واختار ابن جرير قولَ الحسنِ وقتادةَ، وهو الأرجحُ، لأنه لا بدَّ مع الحقِّ من قهر لمن عاداه وناوأه، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥].

[٤٣٢٨ م] وفي الحديث: «إن الله لَيَزَع بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن»[2]. أي: لَيمنَعُ بالسلطَان عن ارتكاب الفَواحِشِ والآثام ما لا يمتنع كثيرٌ من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقعُ.

وقولُه تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ تهديدٌ ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحقُّ الذي لا مِرْيَة فيه ولا قبل لَهُم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وزَهَق باطلُهم، أي: اضمحَلَّ وهلك، فإنَّ الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

[٤٣٢٩] وقال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن أبي مَعْمَرٍ، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: دخل النبيُّ ﷺ مكَّة وحول البيت ستون وثلاثُمائةِ نُصُبٍ، فجعل يَطْعَنها بعُودٍ في يده، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[3] [سبأ: ٤٩]. وكذا رواه البخاريُّ أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم، والترمذي، والنسائي، كُلُّهم من طُرُقٍ عن سفيانَ بن عُيَينَةَ، به. وكذا رواه عبد الرزاق، عن الثَّوريِّ، عن ابن أبي نَجيح.

[٤٣٣٠] وقال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا زُهَير، حدثنا شَبَابَةُ، حدثنا المُغِيرة، حدثنا أبو الزبير، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: دخلنا مع النبي ﷺ مكة، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً يُعْبَدُون من دون

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٢٣ وإسناده ضعيف لضعف قابوس.

(٢) ورد عن عثمان من قوله، وكذا عن عمر، وليس بمرفوع.

(٣) والحديث صحيح. أخرجه البخاري ٢٤٧٨ و٤٧٢٠ ومسلم ١٧٨١ والترمذي ٣١٣٨ وأحمد ١/ ٣٧٧ وابن حبان ٥٨٦٢.

الله. فأمر بها رسول الله ﷺ فَأُكِبَّتْ لوجهها، وقال: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حَميد ـ إنه ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: يُذْهِب ما في القلوبِ من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزَيغ ومَيل، القرآنُ يَشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمانُ والحكمةُ وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصَدَّقه واتبعه، فإنه يكون شفاءً في حَقِّه ورحمة. وأما الكافرُ الظالم نفسَه بذلك، فلا يزيده سماعةُ القرآنَ إلا بُعداً وتكذيباً وكفراً. والآفةُ من الكافرِ لا من القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥]؛ والآيات في هذا كثيرة. قال قتادة في قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: إذا سَمِعه المؤمن انتفعَ به وحَفِظه ووعاه، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾، أي لا ينتفعُ به ولا يحفظُه ولا يَعيه، فإن الله تعالى جَعَل هذا القرآن شفاءً ورحمةً للمؤمنين.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

يخبر تعالى عن نَقْصِ الإنسان من حيثُ هو، إلا من عَصَمَ الله تعالى في حالَتي سَرَّائه وضَرَّائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يُريد، ﴿أَعْرَضَ﴾ عن طاعةِ الله تعالى وعبادته ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾، قال مجاهد: بَعُد عنا. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧] ـ وبأنه إذا مسه الشرُّ، وهو المصائب والحوادث والنوائب، ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾، أي: قَنِطَ أن يعودَ يحصلُ له بعد ذلك خير، كما قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٩ ـ ١١].

وقولهُ تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، قال ابن عباس: على ناحيته. وقال مجاهد: على حِدَتِهِ وطبيعته. وقال قتادة: على نِيَّته. وقال ابن زيد: دينه. وكُلُّ هذه الأقوال مُتقاربةٌ في المعنى. وهذه الآية ـ والله أعلم ـ تهديدٌ للمشركين ووعيدٌ لهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود: ١٢١ ـ ١٢٢]. ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾، أي: منا ومنكم، وسيجزي كُلَّ عامل بعمله، فإنه لا يخفى عليه خافية.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

---

(١) إسناده صحيح، ليس فيه إلا عنعنة أبي الزبير، لكن يتأيد بما قبله، فهو صحيح.

[٤٣٣١] قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود، رضي الله عنه ـ قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حَرْثٍ في المدينة، وهو مُتوكِّىءٌ على عَسِيبٍ[١]، فمرَّ بقوم من اليهود، فقال بعضُهم لبعضٍ: سَلُوه عن الروح. فقال بعضهم: لا تَسْألوه. قال: فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمدُ، ما الروحُ؟ فما زال متوكئاً على العَسِيب، قال: فظننت أنه يُوحَى إليه، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾. قال: فقال بعضُهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه[٢]. وهكذا رواه البخاريُّ ومسلم، من حديث الأعمش، به.

[٤٣٣٢] ولفظُ البخاريِّ عند تفسير هذه الآية، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حَرْث، وهو مُتَّكِىءٌ على عَسِيب، إذ مرَّ اليهودُ، فقال بعضهم لبعض: سَلُوه عن الروح، فقال: ما رَابَكم إليه. وقال بعضُهم: لا يستقبلنَّكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سَلُوه فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ﷺ فلم يَرُدَّ عليهم شيئاً، فعلمتُ أنه يُوحَى إليه، فقمتُ مقامي، فلما نزل الوحيُ قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ . . . الآية[٣]. وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادِيَ الرأي أنَّ هذه الآيةَ مدنيةٌ، وأنها إنما نَزَلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كُلَّها مكية. وقد يُجَاب عن هذا بأنها قد تكون نَزلت عليه بالمدينة مَرَّةً ثانية كما نَزَلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نَزَل عليه وَحيٌ بِأَن يُجيبهم عَمَّا سألوا بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾.

[٤٣٣٣] ومما يَدُل على نزول هذه الآية بمكَّةَ ما قال الإمام أحمد: حَدَّثنا قتيبة: حدثنا يحيى بن زكريا، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قالت قريش ليهودَ: أعطونا شيئاً نَسأل عنه هذا الرجلَ. فقالوا: سَلُوه عن الروح. فَسَألُوه، فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾، قالوا: أوتينا عِلماً كثيراً، أوتينا التوراةَ، ومن أُوتِيَ التوراةَ فقد أوتي خيراً كثيراً. قال: وأنـزل الله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[٤] [الكهف: ١٠٩].

[٤٣٣٤] وقد روى ابنُ جرير، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن داود، عن عكرمة قال: سأل أهلُ الكتاب رسولَ الله ﷺ عن الرُوح، فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾، فقالوا: أتزعمُ أنا لم نُؤتَ من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراةَ، وهي الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً. قال: فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[٥] [لقمان: ٢٧]، قال: ما أُوتِيتُم من علم فنجاكم الله به من النار فهو كثير طيب، وهو في علم الله قليل.

---

(١) العسيبة: جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٢٥ ومسلم ٢٧٩٤ والترمذي ٣١٤٠ وأحمد ١/ ٤٤٤ وأبو يعلى ٥٣٩٠.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢١، وانظر الحديث المتقدم.

(٤) والحديث أخرجه الترمذي ٣١٣٩ وأحمد ١/ ٢٥٥ وأبو يعلى ٢٥٠١ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. قلت: هو من رواية داود بن حصين عن عكرمة، وهي ضعيفة. ومع ذلك صحيح إسناده الألباني في صحيح الترمذي ٢٥١٠.

(٥) أخرجه الطبري ٢٢٦٧٧ وهذا مرسل، وهو من رواية داود عن عكرمة.

[٤٣٣٥] وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاءِ بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. فلما هاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، أتاه أحبار يهود فقالوا: يا محمد، ألم يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. أفعَنَيْتَنا أم عَنيتَ قومَك؟ فقال: كُلاً قد عنيتُ. قالوا: فإنك تتلو أنا أوتينا التوراة، وفيها تِبيان كُلِّ شيءٍ؟ فقال رسول الله ﷺ: هي في علم الله قليلٌ، وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتُم، وأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾[١].

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ها هنا على أقوال، أحدها: أن المراد بالروح أرواح بني آدم.

[٤٣٣٦] قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾... الآية، وذلك أن اليهودَ قالوا للنبي ﷺ: أخبِرْنا ما الروحُ؟ وكيف تُعذَّب الروحُ التي في الجسد، وإنما الروحُ من الله؟ ولم يكن نَزل عليه فيه شيءٌ فلم يُحرْ إليهم شيئاً. فأتاه جبريلُ فقال له: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فأخبرهم النبيُّ ﷺ بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ فقال: جاءني به جبريلُ من عند الله؟ فقالوا: والله ما قاله لك إلا عدوٌّ لنا. فأنزل الله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[٢] [البقرة: ٩٧]، الآية. وقيل: المرادُ بالروح ها هنا جبريلُ. قاله قتادة، قال: وكان ابنُ عباس يكتُمه. وقيل: المرادُ به ها هنا مَلَك عظيم بِقَدرِ المخلوقات كلها. قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾، يقول: الروحُ ملكٌ[٣].

[٤٣٣٧] وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله بن عُرْسٍ المِصْري، حدثنا وهب الله بن رزق أبو هريرة، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعي، حدثنا عطاء، عن عبد الله بن عباس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ لله مَلَكاً، لو قيل له: التقم السمٰوات السبع والأرضين بِلَقْمَةٍ واحدة، لفعل، تسبيحُه: سبحانكَ حيث كنت»[٤]. وهذا حديثٌ غريبٌ، بل منكر.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثنا أبو هِزَّانَ يزيدُ بن سَمُرة صاحب قيسارية، عَمَّن حدثه، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾، قال: هو مَلَك من الملائكة، له سبعون ألفَ وجهٍ، في كلِّ وجهٍ منها سبعونَ ألفَ لسانٍ، لكل لسان منها سبعون ألفَ لغةٍ، يُسبِّح الله تعالى بتلك اللغات كُلِّها، يخلق الله تعالى من كلِّ تسبيحة مَلَكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة[٥]. وهذا أثر غريب عجيبٌ، والله أعلم.

وقال السُّهيلي: رُوِيَ عن علي أنه قال: هو مَلَك، له مائةُ ألفِ رأسٍ، لكلِّ رأسٍ مائةُ ألفِ وجهٍ، لكلِّ

---

(١) هو مرسل، ومع إرساله فيه مجاهيل.

(٢) والحديث أخرجه الطبري، وفيه عطية العوفي، ضعيف.

(٣) هذا بعيد جداً يعارض الأحاديث الصحيحة التي تقدمت آنفاً.

(٤) باطل، والمتن منكر، أخرجه الطبراني ١١٤٧٦ وفي «الأوسط» ٦٤٣٨، وقال: تفرد به وهب الله بن رزق، قال الهيثمي ٢٥٤: ولم أرَ من ذكر له ترجمة أهـ فهو مجهول، والحمل عليه في هذا الحديث، فإنه من الإسرائيليات بلا ريب وقد ساقه من طريق الأوزاعي بإسناد كالشمس.

(٥) لا يصح عن علي. أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» ٤١٠ وفيه مجاهيل، والأشبه أنه من الإسرائيليات، فقد أسنده أبو الشيخ ٤٠٧ عن وهب بن منبه، وهو أصح، ووهب روى الكثير عن كتب الأقدمين.

وجهٍ مائةُ ألفِ فم، في كل فَم مائةُ ألفِ لسانٍ، يُسَبِّح الله بلغاتٍ مختلفة. قال السهيلي: وقيل: المرادُ بذلك طائفة من الملائكة على صُوَرِ بني آدم. وقيل: طائفةٌ يرون الملائكة ولا تراهم، فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم. وقولهُ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾، أي: من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، أي وما أطلعَكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يُحيط أحدٌ بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى. والمعنى: أنَّ عِلمكم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يُطلعكم عليه، كما أنه لم يُطلِعكم إلا على القليل من علمه تعالى.

[٤٣٣٨] وسيأتي إن شاء الله في قصة موسى والخَضر «أن الخَضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة، فنقر في البحر نَقرةً، أي: شرب منه بمنقاره، فقال: يا موسى، ما علمي وعلمُك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر». أو كما قال صلواتُ الله وسلامُه عليه. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

وقال السُّهيلي: قال بعضُ الناس: لم يجبهم عَمَّا سألوا، لأنهم سَألوا على وجه التعنت. وقيل: أجابهم. وعوّل السهيليُّ على أن المراد بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾، أي: من شَرْعِه، أي: فادخُلوا فيه، وقد علمتم ذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة، وإنما يُنال من جهة الشرع. وفي هذا المسلك الذي طرقه وسلكه نظر، والله أعلم.

ثم ذكر السُّهَيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس، أو غيرها، وقَرَّر أنها ذات لطيفة كالهواء، ساريةٌ في الجسد كسريان الماء في عُروق الشجر. وقَرّر أن الروح التي ينفخها المَلَك في الجَنِين هي النفسُ بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفاتِ مدح أو ذم، فهي إما نفس مطمئنة أو أمّارة بالسوء. قال: كما أن الماء هو حياة الشجر، ثم يكتسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعِنَبة وعُصِر منها صار إما مُصْطاراً[١] أو خمراً، ولا يقال له: «ماء» حينئذٍ إلا على سبيل المجاز. وهكذا لا يقال للنفس: «روحٌ» إلا على هذا النحو، وكذلك لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه. فحاصِلُ ما نقولُ أنَّ الروحَ هي أصلُ النفس ومادتها، والنفسُ مُركَّبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجه لا من كُلِّ وجه. وهذا معنى حسن، والله أعلم. قلت: وقد تكَلَّم الناسُ في ماهية الروح وأحكامها وصنفوا في ذلك كتباً، ومن أحسن من تكلّم على ذلك الحافظُ ابن مَنْدَه في كتابٍ سمعناه في الرُّوح.

﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾﴾

يذكُر تعالى نعْمَته وفَضلَه العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآنِ المجيدِ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: تطرُق الناسَ ريح حمراء ـ يعني في آخِرِ الزمان ـ من قِبَلِ الشام، فلا يبقى في مُصحف رجل ولا في قلبه آية،

---

(١) المصطار: الخمر التي تصرع شاربها.

ثم قرأ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾. . . الآية. ثم نبَّه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعتِ الإنسُ والجن كلُّهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولا استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فَإِنَّ هذا أمرٌ لا يستطاع، وكيف يُشْبِهُ كلامُ المخلوقين كلامَ الخالق، الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عَدِيلَ له. وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن سَعيدِ بن جبير أو عكرمةَ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: أن هذه الآية نَزَلت في نفر من اليهود، جاؤوا رسولَ الله ﷺ فقالوا له: إنَّا نأتيك بمثل ما جئتَنَا به، فأنزل الله هذه الآية. وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ هذه السورةَ مكيّة، وسياقُها كلُّه مع قريش، واليهودُ إنما اجتمعوا به في المدينة، فالله أعلم. وقولهُ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي: بينَّا لهم الحُجج والبراهين القاطعة، ووضَّحنا لهم الحقّ وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، أي: جحوداً للحق ورداً للصَّواب.

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

[٤٣٣٩] قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا يونس بن بُكَير، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني شيخٌ من أهل مصرَ قَدِم منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمةَ، عن ابن عباس: أن عُتبةَ وشيبةَ ابني ربيعة، وأبا سفيانَ بن حَرْبٍ، ورجلاً من بني عبد الدار، وأبا البَخْتَرِيّ أخا بني أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزَمعةَ بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأُميّة بن خلف، والعاص بن وائل، ونُبيهاً ومُنَبِّهاً ابني الحجاج السَّهْمِيّين اجتمعوا، أو: من اجتمع منهم، بعد غُروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضُهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصِمُوه حتى تُعذرُوا فيه. فبعثوا إليه أنّ أشرافَ قومِك قد اجتَمعُوا لك لِيُكلّموك. فجاءهم رسولُ الله ﷺ سريعاً وهو يظنُّ أنه قد بدا لهم في أمره بدَاءٌ ـ وكان عليهم حريصاً، يحب رُشْدَهم، ويعِزُّ عليه عَنَتُهم ـ حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمدُ، إنا قد بعثنا إليك لنُعْذَرَ فيك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلتَ على قومك. لقد شتمتَ الآباء، وعِبْتَ الدين، وسَفَّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بَقِي من قَبِيح إلا وقد جئتَه فيما بيننا وبينك. فإن كنتَ إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً، جَمَعنا لك من أموالنا حتى تكونَ أكثَرنا مالاً، وإن كنتَ إنما تطلبُ الشرف فينا سَوّدناك علينا، وإن كنت تُريد ملكاً ملكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رَئِيّاً تراه قَدْ غلب عليك ـ وكانوا يسمون التابع من الجن: الرَّئِيّ ـ فَرُبَّما كان ذلك، بَذَلنا أموالنا في طَلَب الطبِّ، حتى نُبرئَكَ منه، أو نُعذرَ فيك. فقال رسولُ الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئتُكم بما جئتُكم به أطلبُ أموالَكم، ولاَ الشرفَ فيكم، ولا المُلكَ عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فَبلّغتُكم رسالةَ ربِّي ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا منِّي ما جئتكم به فهو حَظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبرْ لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم. أو كما قال رسول الله ﷺ. فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منَّا ما عَرضنا عليك، فقد عَلِمتَ أنه ليس أحدٌ من الناس أضيق

بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً مِنّا، فَسَلْ لنا ربَّكَ الذي بَعَثك بما بعثك به، فَلْيُسيِّر عنا هذه الجبالَ التي قد ضَيَّقت علينا، وَلْيبسُط لنا بلادنا، وَليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وَلْيبعَثْ لنا مَن مضى من آبائنا، وليكن فيمن يَبْعَث لنا منهم قُصيّ بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول، حَقّ هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصَدَّقُوكَ، صَدَّقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثكَ رسولاً كما تقول. فقال لهم رسولُ الله ﷺ: ما بهذا بُعثت. إنما جئتُكم من عند الله بما بعثني به، فقد بَلَّغتكم ما أرسِلْتُ به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرةِ، وإن تَردُّوه عليّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فإن لم تفعَلْ لنا هذا فخذ لنفسك، فَسَلْ ربَّك أن يبعث مَلَكاً يُصَدِّقك بما تقول، ويراجعنا عنك، اسأله فيجعل لك جناناً، وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نَعرِف فَضْلَ منزلتك من ربك، إن كنتَ رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل رَبَّه هذا. وما بُعِثْتُ إليكم بهذا. ولكن الله بَعَثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جِئتُكم به فهو حَظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تَردوه عليّ أصبرْ لأمْر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فَأسقِطْ السماء كما زعمتَ أن ربك إن شاء فَعَل، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله، إن شاء فعل بكم ذلك. فقالوا: يا محمدُ، أما عَلِم ربُّك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيتقدَّم إليك ويُعْلِمك ما تُراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتَنا به؛ فقد بَلَغَنا أنه إنما يُعلِّمك هذا رجل باليمامة، يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذَرْنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركُكَ وما فعلتَ بنا حتى نُهلِكَك أو تُهلِكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهنَّ بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً. فلما قالوا ذلك قام رسولُ ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أميّة بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم ـ وهو ابن عمته، عاتكة ابنة عبد المطلب ـ فقال: يا محمدُ، عَرض عليك قومُك ما عرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تَفْعَلْ ذلك، ثم سألوك أن تُعَجِّلَ ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وايم الله لو فعلتَ ذلك لظننتُ أني لا أُصدِّقك. ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف رسولُ الله ﷺ إلى أهله حزيناً أسِفاً لما فاته مما كان طَمع فيه من قومه حين دعوه، ولمَا رأى من مباعدتهم إياه[1]. وهكذا رواه زياد بن عبد الله البَكّائِيُّ، عن ابن إسحاق: حَدَّثني بعض أهل العلم، عن سعيد بن جُبَير وعكرمة، عن ابن عباس، فذكر مثله سواء. وهذا المجلس الذي اجتمعَ هؤلاء له، لو عَلِم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً، فقيل لرسول الله ﷺ: إن شئتَ أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا عَذَّبتُهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئتَ فتحتُ عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: بل تفتَحُ عليهم باب التوبة والرحمة. كما تقدم ذلك في حديثي ابن عباس والزبير بن العوام أيضاً، عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾. وقـال تـعـالـى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٢٧١٩، وفيه رجل لم يسمّ، وكرره ٢٢٧٢٠ من وجه آخر وفيه محمد بن أبي محمد شيخ ابن إسحق، قال الذهبي: لا يعرف، راجع الميزان. لكن المتن يتأيد بالآيات الكريمة، والله أعلم.

فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان: ٧ ـ ١١].

وقولهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾، اليَنْبُوعُ: العينُ الجارية، سألوه أن يجري لهم عَيْناً مَعِيناً في أرض الحجاز ها هنا وها هنا. وذلك سهلٌ يسير على الله تعالى، لو شاء لَفَعَله ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]. وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١].

وقولُه تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾، أي: إنك وعدتنا أن يوم القيامة تَنْشَقُّ السماءُ وتَهي، وتُدَلَّى أطرافها، فعجّل ذلك في الدنيا، وأسقطها كِسَفاً، أي: قطعاً، كما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وكذلك سَأل قومُ شُعَيب منه فقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظُّلَّة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبيُّ التوبة ونبيُّ الرحمة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعلّ الله أن يُخرِجَ من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً. وكذلك وقع، فَإنَّ من هؤلاء الذين ذُكروا مَن أسلم بعد ذلك وَحَسُنَ إسلامُهُ، حتى عبدُ الله بن أبي أُميةَ الذي تَبع النبيَّ ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً، وأناب إلى الله عزّ وجلّ.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادةُ: هو الذهبُ. وكذلك هُوَ في قراءة ابن مسعود: «أو يكون لك بيت من ذهب»، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: تصعَد في سلم ونحن ننظر إليك، ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾، قال مجاهدٌ: أي مكتوبٌ فيه إلى كل واحد صحيفةٌ: هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، تُصبح عند رأسه موضوعة. وقولهُ تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾، أي: سبحانه وتعالى وتقدّس أن يتقدّم بين يديه أحد في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعّالُ لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم، أُبلّغكم رسالاتِ ربِّي وأنصحُ لكم، وقد فعلتُ ذلك، وأمرُكم فيما سألتم إلى الله عزّ وجلّ.

[٤٣٤٠] قال الإمام أحمدُ: حدثنا علي بن إسحاقَ، حدثنا ابنُ المبارك، حدثنا يحيى بن أيوبَ، عن عبيد الله بن زَحْرٍ، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «عَرَض رَبِّي ـ عزّ وجلّ ـ ليجعلَ لي بطحاءَ مكّة ذهباً، فقلتُ: لا يا ربِّ، ولكن أشبَعُ يوماً وأجوع يوماً، أو نحو ذلك، فإذا جُعتُ تضرَّعتُ إليك وذكرتك، وإذا شبعتُ حَمدتك وشَكَرتك»[1]. ورواه الترمذي في «الزهد» عن سُوَيد بن نصر، عن ابن المبارك، به وقال: هذا حديثٌ حسنٌ. وعلي بن يزيد يُضعَّفُ في الحديث.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٤٧ وأحمد ٥/ ٢٥٤، وإسناده ضعيف، فهو مسلسل بالضعفاء ابن زحر وابن يزيد والقاسم. ومع ذلك حسنه الترمذي، مع أنه قال: علي بن يزيد ضعيف الحديث، والظاهر أن مراده: حسن المتن دون الإسناد، والله أعلم.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾، أي: أكثرَهم، ﴿أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابُهم من بَعْثَتِه البشر رُسلاً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]. وقال فرعونُ وملؤُه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. وكذلك قالت الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، والآيات في هذا كثيرة. ثم قال تعالى مُنبِّهاً على لطفه ورحمته بعباده: إنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقَهُوا عنه ويفهَمُوا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مُواجهته ولا الأخذَ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢]. ولهذا قال ها هنا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾، أي: كما أنتم فيها، ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾، أي: من جنسهم. ولمَّا كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

يقول تعالى مُرشداً نبيَّه ﷺ إلى الحجَّةِ على قومه، في صدق ما جاءهم به: إنه شاهد عَلَيَّ وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام، كما قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]، وقولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾، أي: عليمٌ بهم بمن يستحقُّ الإنعامَ والإحسانَ والهداية، ممن يستحقُّ الشقاء والإضلال والإزاغة، ولهذا قال:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن تَصرُّفه في خلقه، ونُفوذِ حكمه، وأنه لا مُعقِّب له، بأنه من يَهْدِهِ فلا مُضِلَّ له، ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾، أي: يهدونهم، كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. وقولُهُ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾.

[٤٣٤١] قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا ابن نمير، حَدَّثنا إسماعيل، عن نُفَيع قال: سَمِعتُ أَنَس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يقول: قيل: يا رسولَ الله، كيف يُحشَرُ الناسُ على وجوههم؟ قال: الذي أمشاهم على أرجُلِهم قادرٌ على أن يمشيهم على وجوههم[1]. وأخرجاه في الصحيحين.

[٤٣٤٢] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيد، حدثنا الوليد بن جُميع القرشي، حدثنا أبو

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٦٠ ومسلم ٢٨٠٦ وأحمد ٣/٢٢٩ وابن حبان ٧٣٢٣.

الطُّفَيل عامر بن واثلة، عن حُذَيفة بن أَسِيدٍ قال: قام أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا بني غِفَار، قولوا ولا تَخلفوا، فإنَّ الصادق المصدوق حدثني: أن الناس يُحشرون على ثلاثة أفواج: فوجٍ راكبين طاعمين كاسِينَ، وفوج يمشُونَ ويَسعَون، وفوجٍ تَسحَبُهم الملائكةُ على وجوههم وتَحشُرهم إلى النار. فقال قائلٌ منهم: هذان قد عرفناهما، فما بالُ الذين يمشُون ويسعَون؟ قال: يُلقي الله ـ عزّ وجلّ ـ الآفة على الظهر، حتى لا يبقي ظهرٌ، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة المعجبة، فيعطيها بالشارِفِ ذات القَتَب، فلا يقدر عليها»[1]، وقولهُ: ﴿عُمْيًا﴾، أي: لا يُبصِرون. ﴿وَبُكْمًا﴾، يعني لا ينطقون. ﴿وَصُمًّا﴾، لا يسمعون. وهذا يكون في حال دون حال. جزاءً لهم، كما كانوا في الدنيا بُكماً وعُمياً وصُمّاً عن الحق، فَجُوزُوا في مَحشَرهم بذلك أحوجَ ما يحتاجون إليه، ﴿مَّأْوَىٰهُمْ﴾، أي مُنقلبهم ومَصِيرهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾، قال ابنُ عباس: سكنت. وقال مجاهد: طفِئت. ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾، أي: لَهباً وَوَهَجاً وجَمْراً، كما قال: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

يقولُ تعالى: هذا الذي جازيناهم به من البعث على العَمَى والبَكَم والصَّمَم جزاؤهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كَذَّبوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: بأدلّتنا وحُجَجِنا واستبعدوا وقوعَ البعث، ﴿وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾، أي: باليةً نَخِرَةً، ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾، أي: بعدما صِرْنا إلى ما صِرْنا إليه من البِلَى والهلاك، والتفرُّق والذهاب في الأرض نُعاد مرة ثانية؟. فاحتج تعالى عليهم ونَبَّههم على قدرته على ذلك، بأنه خلق السمٰوات والأرض، فقدرتُه على إعادتهم أسهلُ من ذلك، كما قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨١ ـ ٨٣]. وقال ها هنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة، يعيدُ أبدانهم ويُنْشِئهم نَشأةً أخرى، ويُعيدهم كما بدأهم. وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: جعلَ لإعادتهم وإقامتِهم من قبورهم أجلاً مضرُوباً ومدة مقدّرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤]. وقولهُ: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: بعدَ قيام الحجّة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾، إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ١٦٤ والنسائي في «الكبرى» ٢٢١٣ وصححه الحاكم ٢/ ٣٦٧ وقال الذهبي: على شرط مسلم، لكنه منكر، وقد قال ابن حبان في الوليد: فحش تفرده حتى بطل الاحتجاج به اهـ. وقد رجع الحاكم فقال في الوليد: لو لم يذكره مسلم في صحيحه لكان أولى، فالخبر ضعيف. والآفة: أي آفة الموت. والشارف: الناقة المسنة. والقتب: الرحل الصغير.

يقول تعالى لرسوله ـ صلواتُ الله عليه وسلامه ـ قُل لهم: يا محمدُ، لو أنكم، أيُّها الناس، تملكون التصرُّفَ في خزائن الله ﴿لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾. قال ابنُ عباس وقتادةُ: أي الفقر. أي: خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تَفرُغ ولا تَنفَد أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾. قال ابن عباس، وقتادة: أي بخيلاً مَنُوعاً. وقال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾ [النساء: ٥٣]، أي: لو أن لهم نصيباً من مُلْكِ الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نَقِيرٍ، والله تعالى يَصِفُ الإنسانَ من حيثُ هو، ـ إلا من وفقه الله وهداه ـ، بالبخل والجزع والهَلَع، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢]. ولهذا نظائرُ كثيرةٌ في القرآن العزيز، ويدلّ هذا على كَرَم الله وجوده وإحسانه.

[٤٣٤٣] وقد جاء في الصَّحِيحَين: «يد الله ملأى لا يَغِيضها نفقةٌ، سَحَّاءُ الليلَ والنهارَ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السمٰوات والأرض، فإنه لم يَغِض ما في يمينه»[1].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝١٠١ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۝١٠٢ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ۝١٠٣ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝١٠٤﴾

يخبر تعالى أنه بَعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحَّةِ نُبُوته وصِدْقه فيما أخبر به عمَّن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا، واليد، والسنين، والطوفان، والبحر، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. قاله ابن عباس. وقال مُحمَّد بن كعب: هي اليدُ، والعصا، والخمس في الأعراف، والطَّمْسَة، والحجر. وقال ابنُ عباسُ أيضاً، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، وقتادة: هي يدُه، وعصاه، والسِّنين، ونقصُ الثمرات، والطُّوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. وهذا القولُ ظاهر جليٌّ حسن قَوِيٌّ. وجعل الحسن البصري «السنين ونقص الثمرات» واحدة، وعنده أن التاسعة هي: تَلَقُّفُ العصا ما يأفكون. ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسُهم ظلماً وعُلُواً، وما نَجعَت فيهم، وكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾... إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا، إلا أن يشاء الله، كما قال فرعونُ لموسى، وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات، قال: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾، قيل: بمعنى ساحر. والله تعالى أعلم. فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادةُ ها هنا، وهي المعنيّة في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢﴾ [النمل: ١٠ ـ ١٢]. فذكر هاتين الآيتين العصا واليد، وبيَّن الآيات الباقيات في «سورة الأعراف» وفصَّلها. وقد أُوتيَ موسى ـ عليه السلام ـ آيات أُخَر كثيرةٌ، منها: ضربُه الحَجَر بالعصا، وخروج الأنهار منه، ومنها تَظْلِيلُهم الغمامَ، وإنزال المنِّ والسلوى، وغير ذلك مما

---

(١) تقدم في سورة هود عند آية: ٧.

أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلادَ مصر، ولكن ذكر ها هنا التسعَ الآيات التي شاهدها فرعونُ وقومُه من أهل مصر، وكانت حُجَّةً عليهم فخالَفُوها وعاندوها كُفراً وجُحُوداً.

[٤٣٤٤] فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدّثنا يزيد، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مُرّة قال: سمعتُ عبد الله بن سلمة يحدّث عن صَفوان بن عَسّال المرادي ـ رضي الله عنه ـ قال؛ قال يَهُودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبيّ حتى نَسْأله عن هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾. فقال: لا تقل له: نبي، فإنه لو سَمِعك لصارت له أربعة أعينُ. فسألاه، فقال النبي ﷺ: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنُوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تَسحَرُوا، ولا تأكلُوا الربا، ولا تمشُوا ببريءٍ إلى ذي سلطانٍ ليقتلَه، ولا تقذفوا محصنة، أو قال: لا تَفِرُّوا من الزحف ـ شُعبةُ الشاكّ ـ وأنتم يا يهود، عليكم خاصةً ألاَّ تَعْدُوا في السبت. فقبّلا يديه ورجليه، وقالا: نَشهد أنك نبي. قال: «فما يمنعكما أن تتّبعاني؟ قالا: لأنَّ داود ـ عليه السلام ـ دعا أن لا يزال من ذريته نَبِيٌّ، وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود»[1]. فهذا الحديثُ رواه هكذا الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابنُ جرير في تفسيره من طُرُق، عن شعبة بن الحجاج، به. وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو حديث مشكل، وعبدُ الله بن سَلِمَة في حفظه شيءٌ، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبَه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها وصايا في التوراة لا تَعَلُّق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم. ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾، أي: حُجَجاً وأدلّةً على صدق ما جئتُك به، ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، أي: هَالِكاً. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ ملعوناً. وقال أيضاً هو والضحاك: ﴿مَثْبُورًا﴾، أي: مغلوباً. والهالك ـ كما قال مجاهد ـ يشمل هذا كله، قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى:

إذْ أُجارِي الشَّيْطانَ في سَنَنِ الغَـ ... ـيِّ وَمَـنْ مـالَ مَـيْـلَـهُ مَـثْـبُـورُ

بمعنى هالك. وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله: «علمت» ورُوي ذلك عن علي بن أبي طالب. ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]. فهذا كله مما يَدُلُّ على أن المراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدّم ذكرُه من العصا، واليد، والسنين، ونقص الثَّمرات، والطوفان، والجَرَاد، والقُمّل، والضفادع، والدم. التي فيها حُجَج وبراهينُ على فرعونَ وقومه، وخوارقُ ودلائلُ على صِدْقِ موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله وليس المراد منها كما ورد في هذا الحديث فإن هذه الوصايا ليس فيها حُجَج على فرعون وقومه، وأيُّ مناسبة بين هذا وبين إقامةِ البراهين على فرعون؟ وما جاء هذا الوهم إلا من قبل «عبد الله بن سلمة»، فإن له بعض ما يُنكَرُ. والله أعلم. ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات، فاشتبه على الراوي بالتسع الآيات، فَحَصَل وهم في ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي يُجليهم منها ويزيلهم عنها، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾،

---

(١) ضعيف، أخرجه الترمذي ٢٧٣٣ و ٣١٤٤ والنسائي في «الكبرى» ٣٥٤١ و ٨٦٥٦ وابن ماجه ٣٧٠٥ وأحمد ٤/٢٣٩ ـ ٢٤٠، وإسناده ضعيف، فيه عبد الله بن سَلِمَةَ، قال شعبة: عن عمرو بن مرة، سمعت عبد الله بن سلمة يحدثنا، وإنا لنعرف وننكر، وكان قد كبر، وقال البخاري: لا يتابع علىٰ حديثه. ووثقه العجلي ويعقوب بن شيبة. وقال أبو حاتم والنسائي: يعرف وينكر. أهـ من الميزان ٤٣٦٠ والظاهر أنه رواه بعدما كبر فأتىٰ بألفاظ غريبة، نبه ابن كثير على بعضها، وسكت عن بعضها الآخر، والله أعلم.

وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهلَ مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾. ولهذا أورث الله رسولَه مكة، فدخلها عَنْوَةً على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارقَ الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٩]، وقال ها هنا: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾، أي: جَميعِكم أنتم وعَدُوِّكم. قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ، والضحّاكُ: ﴿لفيفاً﴾، أي: جميعاً.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كتابه العزيزِ، وهو القرآنُ المجيدُ، أنه بالحق نزل، أي: مُتضمِّناً الحق، كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]، أي؛ مُتضمِّناً عِلْمَ الله الذي أراد أن يُطْلِعَكم عليه، من أحكامِه وأمرِه ونهيِه. وقولهُ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾، أي: وَوَصل إليك، يا محمدُ، محفوظاً محروساً، لم يُشَب بغيره، ولا زِيدَ فيه ولا نُقِص، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديدُ القُوَى، الأمينُ المكينُ المطاعُ في الملأ الأعلى، وقولهُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾، أي: يا محمدُ ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعَكَ من المؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك من الكافرين. وقولهُ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾، أما قراءة من قَرَأ بالتخفيف، فمعناه: فَصَّلناه من اللوح المحفوظ إلى بيتِ العزَّةِ من السماء الدنيا، ثم نزل مُفرَّقاً مُنجَّماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. قاله عكرمة عن ابن عباس. وعن ابن عباس أيضاً أنه قرأه «فرّقناه»، بالتشديد. أي؛ أنزلناه آية آية، مُبيَّناً مُفسَّراً، ولهذا قال: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي: لتُبلِّغَهُ الناسَ وتتلوه عليهم ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، أي: مَهَلٍ، ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾، أي: شيئاً بعد شيء.

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾

يقولُ تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾، أي: سواء آمنتم به أم لا، هو حقٌّ في نفسه، أنزله الله ونَوّه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المُنزَّلةِ على رُسله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾، أي: من صالح أهل الكتاب الذين يُمَسّكون بكتابهم ويُقيمونه، ولم يُبدِّلوه ولا حَرّفوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآنُ، ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾، جمع ذَقْن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾، أي: لله ـ عزّ وجلّ ـ شكراً على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلاً أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾، تعظيماً وتوقيراً على قُدرته التامّة، وأنه لا يُخلِف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾. وقولهُ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾، أي: خضوعاً لله ـ عزّ وجلّ ـ وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ الله ﴿خُشُوعًا﴾، أي: إيماناً وتسليماً كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى

وَءَاتَنهُمْ تَقْوَنهُمْ ﴿١٧﴾ [محمد: ١٧]. وقوله: ﴿يَخِرُّونَ﴾، عطف صفة على صفة لا عطف سجود على سجود، كما قال الشاعر:

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمام ولَيْثِ الكَتِيبَةِ في المُزْدَحَم

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ المُنكِرينَ صفة الرحمة لله عز وجلّ، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: لا فرقَ بين دعائكم له باسم «الله» أو باسم «الرحمن»، فإنه ذُو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾، إلى أن قال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

[٤٣٤٥] وقد رَوَى مكحول: أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده: «يا رحمنُ يا رحيم»، فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو اثنين. فأنزل الله ـ عز وجلّ ـ هذه الآية[1]. وكذا رُوِي عن ابن عباس، رواهما ابنُ جرير. وقولهُ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ . . . الآية.

[٤٣٤٦] قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت هذه الآيةُ ورسولُ الله ﷺ مُتوارٍ بمكة، ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، قال: كان إذا صلّى بأصحابِهِ رَفَع صوتَهُ بالقرآن، فلما سَمِعَ ذلك المشركون سَبُّوا القرآن، وسَبُّوا من أنزله، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى: لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾، أي: بقراءتك، فيسمَع المشركُون فيسبُّوا القرآنَ، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تُسمِعَهُم القرآن حتى يأخذوه عنك، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[2]. أخرجاه في الصحيحَين من حديث أبي بشر جعفر بن إياس، به. وكذا رَوَاه الضحّاكُ عن ابن عباس، وزاد: «فلما هاجَرَ إلى المدينة سَقَط ذلك، يفعلُ أيَّ ذلك شاء».

[٤٣٤٧] وقال محمدُ بن إسحاقَ: حدثني داودُ بن الحُصَين، عن عكرمةَ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا جَهَر بالقرآن وهو يُصَلِّي تفرّقوا عنه وأَبَوا أن يَستَمِعُوا منه، فكان الرجلُ إذا أرادَ أن يَستَمِع من رسول الله ﷺ بعضَ ما يتلُو وهو يُصَلِّي، استرق السمع دونهم فَرَقاً منهم، فإن رأى أنهم قد عَرَفوا أنه يستمع ذَهَبَ خشيةَ أذاهم فلم يستمع. فإن خفضَ رسول الله ﷺ صوته لم يسمع الذين يَستَمِعون من قراءته شيئاً، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فَيَتفرّقوا عنك، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فلا تُسمع من أراد أن يسمَعَها ممن يسترق ذلك [دونهم]، لعله يَرْعَوي إلى بعض ما يسمَع فينتفع به، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ

(١) أخرجه الطبري ٢٢٨٠٢ عن مكحول مرسلاً، ووصله ٢٢٨٠١ من وجه آخر، وكذا ابن مردويه، كما في «أسباب النزول» للسيوطي ٧٠٥ كلاهما عن ابن عباس، وفي إسناده الحسين بن داود ـ سُنيد ـ وهو ضعيف.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢٢ ومسلم ٤٤٦ والترمذي ٣١٤٦ والنسائي في «التفسير» ٣٢٠ وأحمد ١/ ٢٣ و٢١٥ والطبري ٢٢٨٢٥.

سَبِيلًا﴾[1]. وهكذا قال عكرمةُ، والحسنُ البصري، وقتادةُ: نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة. وقال شعبة، عن أشعثَ بن سُلَيم، عن الأسود بن هلال، عن عبد الله بن مسعود: لم يُخافتْ بها مَنْ أسمع أذنيه.

[٤٣٤٨] قال ابنُ جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، عن سَلْمة بن علقمة، عن محمد بن سيرين قال: نُبِئْتُ أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ كان إذا صلَّى فقرأ خَفَض صوته، وأن عمر ـ رضي الله عنه ـ كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر: لِمَ تصنعُ هذا؟ قال: أناجي ربِّي ـ عزّ وجلّ ـ وقد عَلِم حاجتي. فقيل: أحسنتَ. وقيل لعمر: لم تصنعُ هذا؟ قال: أطردُ الشيطانَ وأوقظ الوَسْنانَ. قيل: أحسنتَ. فلما نزلت: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، قيل لأبي بكر: ارفَعْ شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً[2]. وقال أشعث بن سَوَّار، عن عكرمةَ، عن ابن عباس: نزلت في الدعاء. وكذا رَوَى الثوري، ومالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها أنها: نزلت في الدعاء. وكذا قال مجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، وأبو عِيَاض، ومكحولٌ، وعُروَةُ بن الزبير. وقال الثوريُّ، عن ابن عَيَّاش العامِريِّ، عن عبد الله بن شَدَّادٍ قال: كان أعرابٌ من تَميمٍ إذا سلم رسول الله ﷺ قالوا: اللهم ارزقنا إبلاً وولداً. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾.

قولٌ آخر، قال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا حفصُ بن غياث، عن هشام بن عُروَةَ، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: نزلت هذه الآية في التشهُّد: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾. وبه قال حفص، عن أشعث بن سوار، عن محمد بن سيرين، مثله.

قولٌ اخرُ، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ﴾، قال: لا تُصَلِّ مراءاةَ الناس، ولا تَدَعها مخافة الناس. وقال الثوريُّ، عن منصور، عن الحسن البصري: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، قال: لا تُحسِنْ علانِيتَها وتُسِيء سَرِيرتها. وكذا رواه عبد الرزّاق، عن معمر، عن الحسن، به. وهُشَيم، عن عوفٍ، عنه به. وسعيد، عن قتادة، عنه كذلك.

قولٌ آخرُ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، قال: أهلُ الكتابِ يخافتون. ثم يجهر أحدُهم بالحرف فيصيح به، ويَصِيحون هم به وراءه، فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء، وأن يُخافِتَ كما يُخافِتُ القوم، ثم كان السبيلُ الذي بين ذلك الذي سَنَّ له جبريلُ من الصلاة.

وقولهُ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، لما أثبتَ تعالى لنفسه الكريمةِ الأسماءَ الحسنى، نَزَّه نفسه عن النقائص فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، بل هُو الله الأحدُ الصمدُ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَد، ولم يكن له كُفُواً أحد. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾، أي: ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له وَلِيٌّ أو وزيرٌ أو مُشِيرٌ، بل هو تعالى خالقُ الأشياء وحدَه، لا شريكَ له ومُقَدِّرها ومُدَبِّرها بمشيئته وحدَه، لا شريكَ لَه. قال مجاهدٌ في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾: لم يُحَالِفْ أحداً ولا يبتغي نَصْر أحد. ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾، أي: عَظِّمه وأجِلّه عما يقولُ الظالمون المعتدُون عُلوّاً كبيراً.

قال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابنُ وهب، أخبرني أبو صخر، عن القُرَظي أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾... الآية، قال: إنَّ اليهودَ والنصارَى قالُوا: اتخذ الله ولداً. وقالت

---

(١) أخرجه الطبري ٢٢٨٣٠ وإسناده ضعيف لأنه من رواية داود عن عكرمة، لكن له شواهد تعضده.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢٨٣٥ وهذا مرسل ضعيف.

العرب: لبيك، لا شريك لك؛ إلا شريكاً هو لَكَ، تملكه وما ملك. وقال الصابئونَ والمجوس: لولا أولياء الله لذلّ. فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ هذه الآية: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾.

[٤٣٤٩] وقال أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة: ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يُعَلِّم أهلَه هذه الآية: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾، الصغيرَ من أهلِهِ والكبيرَ[١].

[٤٣٥٠] قلت: وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سَمَّاهَا آية العِزّ[٢]. وفي بعض الآثار: أنها ما قرئت في بيت في ليلة فَيُصِيبَه سَرَقٌ أو آفَةٌ. والله أعلم.

[٤٣٥١] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا بشر بن سَيحان البصري، حدثنا حرب بن ميمون، حدثنا موسى بن عبيدة الرَّبَذيُّ، عن محمد بن كعب القُرظي، عن أبي هُريرة قال: خرجتُ أنا ورسولُ الله ﷺ ويَدُه في يَدِي ـ أو يدي في يده ـ فأتى عَلَى رجُلٍ رَثَّ الهيئةِ، فقال: أيْ فلانُ، ما بَلَغ بك ما أرَى؟ قال: السُّقم والضرُّ يا رسولَ الله. قال: ألا أُعَلِّمك كلماتٍ تُذْهِبُ عنكَ السُّقَمَ والضرّ؟ قال: لا ما يسرُّني بها. إنّي شَهِدْتُ معك بدراً وأُحداً. قال: فَضَحِك رسول الله ﷺ وقال: وهل يُدرِك أهلُ بدر وأهلُ أحدٍ ما يدرك الفقيرُ القانعُ؟ قال: فقال أبو هُريرة: يا رسول الله، إياي فَعَلِّمني. قال: فقل يا أبا هُرَيرة: توكلتُ على الحي الذي لا يموتُ، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾. قال: فأتى عَلَيَّ رَسُول الله وقد حَسُنَتْ حَالِي، قال: قال لي: مَهْيَمْ. قال: قلتُ: يا رسول الله، لم أَزَل أقولُ الكلماتِ التي علمتني[٣]. إسنادهُ ضعيفٌ، وفي مَتْنِه نكارةٌ. والله أعلم.

آخر تفسير سورة «سبحان»، ولله الحمد والمنة

---

(١) أخرجه الطبري ٢٢٨٥٢ عن قتادة، وهذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف، لكن ورد من وجه آخر أخرجه ابن السني ٤٢٤ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وإسناده ضعيف، فيه عبد الكريم، أبو أمية، ضعيف، وكذا سفيان بن وكيع تغير حفظه، فضعفوه.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠ والطبراني ٢٠/ ١٩٢ من حديث سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه مرفوعاً، قال في «المجمع» ١١١٤٢: رواه أحمد من طريقين، في إحداهما رشدين بن سعد، وهو ضعيف، وفي الأخرىٰ، ابن لهيعة، وهو أصلح منه اهـ، وله علة ثانية زبان بن فائد ضعيف، وكذا شيخه سهل بن معاذ، فهذه علة ثالثة للحديث، والله أعلم.

(٣) ضعيف منكر. أخرجه أبو يعلىٰ ٦٦٧١، قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٤٣: فيه موسىٰ بن عبيدة، وهو ضعيف. وقوله: «مهيم» أي ما شأنك، ما أمرك.



وهي مكّية

ذِكْرُ ما وَرَدَ في فَضْلها، والعَشْرِ الآياتِ من أوّلها وآخرها، وأنها عِصمةٌ من الدجّال:

[٤٣٥٢] قال الإمام أحمدُ: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن أبي إسحاق قال: سمعتُ البَرَاء يقول: قرأ رجلٌ الكهفَ، وفي الدار دابّة، فَجَعلت تَنفِرُ، فَنظَر فإذا ضَبَابة، أو: سحابة، قد غَشِيته، فَذَكَر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلانُ، فإنها السَّكِينةُ تنزّلت عند القرآن، أو تنزّلت للقرآن»[١]. أخرجاه في الصحيحَينِ، من حديث شعبة، به. وهذا الرجلُ الذي كان يتلوها هو: أُسَيدُ بن الحُضَير، كما تَقَدَّم في تفسير سُورة البَقرةِ.

[٤٣٥٣] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ، أخبرنا هَمّام بن يحيى، عن قتادةَ، عن سالم بن أبي الجَعْدِ، عن مَعْدَان بن أبي طَلْحَةَ، عن أبي الدَّرداء، عن النبي ﷺ قال: من حَفِظَ عَشر آياتٍ من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجّال[٢]. رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، والترمذي من حديث قتادة به، ولفظ الترمذي: «من حَفِظ الثلاثَ الآيات من أول الكهف»، وقال: حسن صحيح.

[٤٣٥٤] طريقٌ أخرى، قال الإمامُ أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن قتادةَ، سَمِعتُ سالم بن أبي الجعد يُحدِّثُ عن معدان، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِم من فتنة الدَّجَّالِ[٣]. ورواه مسلم أيضاً والنسائي، من حديث قتادة، به. وفي لفظ النَّسائي: «من قرأ عشر آيات من الكهف»، فذكره.

[٤٣٥٥] حديثٌ آخَرُ وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى، عن خالد، عن شعبة، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه عِصْمَةٌ له من الدجّال»[٤]. فَيَحتَمِل أن سالماً سَمِعه من ثوبانَ ومن أبي الدَّرداء.

[٤٣٥٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا زَبّان بن فايد، عن سهل بن مُعَاذ بن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٦١٤ ومسلم ٧٩٥ والترمذي ٢٨٨٥ وأحمد ٤/ ٢٨١ وابن حبان ٧٦٩.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٨٠٩ وأبو داود ٤٣٢٣ والترمذي ٢٨٨٦ والنسائي في «عمل اليوم والليلة» ٩٥١.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٦/ ٤٤٦ ومسلم ٨٠٩ والنسائي في «الكبرى» ١٠٧٨٦.

(٤) أخرجه النسائي في «الكبرى» ١٠٧٨٤، وإسناده صحيح إن كان سمعه سالم من ثوبان، فإنه كثير الإرسال. لكن يقويه ما قبله.

أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ أولَ سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من قَدَمِهِ إلى رأسه. ومن قرأها كُلَّها كانت له نوراً ما بين السماء إلى الأرض»(١). انفرد به أحمد ولم يخرجوه.

[٤٣٥٧] وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره بإسناد له غريب، عن خالد بن سعيد بن أبي مَرْيَم، عن نافع، عن ابن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سُورَةَ الكهفِ في يوم الجُمُعة سطع له نورٌ من تحتِ قدمه إلى عَنَان السماء، يُضِيءُ له يومَ القيامة، وغُفِر له ما بين الجمعتين»(٢). وهذا الحديث في رفعه نظرٌ، وأحسنُ أحواله الوقفُ. وهكذا روى الإمام سعيدُ بن منصور في سُنَنه، عن هُشَيم بن بَشِير، عن أبي هاشم، عن أبي مِجْلَزٍ، عن قيس بن عُبَاد، عن أبي سعيد الخُدْري ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: من قرأ سورة الكهف إلى يوم الجمعة أضاء له مِنَ النور ما بينه وبين البيت العَتِيق. هكذا وقع موقوفاً. وكذا رواه الثوريُّ، عن أبي هاشم، به، من حديث أبي سَعِيد.

[٤٣٥٨] وقد أخرجه الحاكمُ في مُستَدرَكه، عن أبي بكر محمد بن المؤَمل، حدثنا الفَضل بن محمد الشَّعراني، حدثنا نُعَيم بن حَمّاد، حدثنا هشيم، حدثنا أبو هاشم، عن أبي مجْلَز، عن قيس بن عُبَادٍ، عن أبي سَعِيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبينه الجمعتين»(٣). ثم قال: هذا حديث صحيح الإِسناد، ولم يخرجاه. وهكذا رواه الحافظُ أبو بكر البيهقيُّ في سُنَنه، عن الحاكم.

[٤٣٥٩] ثم قال البيهقي: ورواه يحيى بنُ كثير، عن شعبة عن أبي هاشم بإسناده أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف كما أُنزِلَت كانت له نوراً يوم القيامة»(٤). والله أعلم.

[٤٣٦٠] وفي «المختارة» للحافظ الضِّياء المقدسي من حديث عبد الله بن مصعب بن منظور بن زيد بن خالد الجهني، عن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي مرفوعاً: من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة، وَإِن خَرَجَ الدجّال عُصِم منه(٥).

* * *

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٣٩ والطبراني ٢٠/ ١٩٧ من حديث معاذ بن أنس، قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٤٤: في إسناد أحمد، ابن لهيعة، وهو ضعيف، وقد يحسّن بحديثه اهـ. قلت: وفيه زبان بن فائد، ضعيف، وسهل بن معاذ ضعيف أيضاً، وأحسن منه المتن الآتي برقم ٤٣٥٩.

(٢) إسناده ضعيف جداً، ذكره الذهبي في «الميزان» ٧٤٧٠ في ترجمة محمد بن خالد الختّلي، ونقل عن ابن الجوزي قوله: كذبوه، وقال ابن مندة: روىٰ مناكير. ثم ساقه الذهبي بهذا الإسناد.

(٣) أخرجه الحاكم ٢/ ٣٦٨ والبيهقي في «السنن» ٣/ ٢٤٩ وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي فقال: نعيم بن حماد، ذو مناكير. وأخرجه البيهقي في «الشعب» ٢٤٤٤ والدارمي ٢/ ٤٥٤ من طريق هشيم عن أبي سعيد الخدري موقوفاً، وصوب البيهقي الوقف فيه.

(٤) أخرجه الحاكم ١/ ٥٦٤ والبيهقي في «الشعب» ٢٤٤٦ والطبراني في «الأوسط» ١٤٧٨ وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ورواه الثوري فوقفه اهـ ووافقه الذهبي. ورجح البيهقي الوقف فيه على أبي سعيد وانظر «مجمع الزوائد» ١/ ٢٣٩.

(٥) فيه عبد الله بن مصعب الجهني، ذكره الذهبي في «الميزان» ٤٦١٠ فقال: عن أبيه عن جده، فرفع خطبة منكرة، وفيهم جهالة اهـ. والغرابة في صدر المتن فقط، وأما عجزه، فتقدم قبل قليل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾

قد تقدَّم في أول التفسير أنه تعالى يَحمَدُ نفسه المقدَّسة عند فَوَاتح الأمور وخَوَاتيمها، فإنه المحمودُ على كلِّ حال، وله الحمدُ في الأولى والآخرة. ولهذا حَمَد نَفْسَه على إنزاله كتابَه العزيزَ على رسوله الكريم محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فإنه أعظمُ نعمةٍ أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجَهم به من الظلمات إلى النور، حيث جَعَله كتاباً مستقيماً لا اعوجاجَ فيه ولا زيغ، بل يَهدِي إلى صراط مستقيم، بيِّناً واضِحاً جلياً، نَذِيراً للكافرين وبَشِيراً للمؤمنين. ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ﴾، أي: لم يجعَلْ فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا مَيْلاً، بل جَعَله معتدلاً مستقيماً. ولهذا قال: ﴿قَيِّمًا﴾، أي: مستقيماً. ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾، أي: لمن خَالَفه وكَذَّبه ولم يُؤمن به، يُنذِرُه بأساً شديداً، عقوبةً عاجلة في الدنيا وآجلةً في الأخرى، ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾، أي: من عند الله الذي لا يُعذِّب عذابه أحد، ولا يُوثِقُ وثاقه أحد. ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: بهذا القرآن الذين صَدَّقوا إيمانهم بالعمل الصالح، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾، أي: مَثُوبةً عند الله جميلة، ﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣)﴾، في ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدين فيه، ﴿أَبَدًا﴾، دائماً لا زوالَ له ولا انقضاء.

وقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤)﴾، قال ابنُ إسحاقَ: وهم مشركُو العرب في قولهم: نحن نعبدُ الملائكةَ، وهم بنات الله. ﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾، أي: بهذا القول الذي افتَروه وتَقَوَّلوه، ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ﴾، أي: أسلافهم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾: نصب على التمييز تقديره: كَبُرت كلمتُهم هذه ﴿كَلِمَةً﴾. وقيل: على التعجب، تقديره: أعْظِمْ بكلمتهم كلمةً، كما تقول: أَكْرِمْ بزيد رجلاً. قاله بعض البصريين. وقرأ ذلك بعضُ قراءِ مكة «كبرت كلمةٌ»، كما يقال: «عَظُم قولُك»، و «كَبُر شأنُك». والمعنى على قراءة الجمهور أظهر، فإن هذا تبشيعٌ لمقالتهم واستعظامٌ لإفكهم، ولهذا قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ﴾، أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليهم إلا كذبهم وافتراؤُهم؛ ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

[٤٣٦١] وقد ذكر محمد بن إسحاق سببَ نزول هذه السورة الكريمة، فقال: حدثني شيخٌ من أهل مصرَ، قَدِمَ علينا منذ بضع وأربعين سنةً، عن عكرمة، عن ابنِ عباس قال: بَعَثت قريشٌ النضرَ بن الحارث، وعُقبة بن أبي مُعَيطٍ، إلى أحبار يَهُودَ بالمدينة، فقالوا لهم: سَلُوهم عن محمد وَصِفُوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهلُ الكتاب الأوَّلِ، وعندهم علمُ ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فَخرجا حتى قَدِما المدينة، فسألوا أحبارَ يَهُودَ عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعضَ قوله، وقالا: إنكم أهلُ التوراة، وقد جئناكم لِتُخبِرُونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالت لهم أحبار يهود: سَلُوه عن ثلاث نأمركم بهنّ فإن أخبركم بهنّ فهو

نبيٌّ مُرسَلٌ، وإن لم يفعل فالرجل مُتقَوّل فرَوْا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذَهَبُوا في الدهرِ الأوَّل، ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديثٌ عجيب. وسَلُوه عن رَجُلٍ طَوّافٍ بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نَبَؤُه؟ وسَلُوه عن الروح، ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبيٌّ فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رَجُلٌ متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضرُ وعقبةٌ حتى قَدِما على قريش، فقالا: يا معشرَ قريش، قد جئناكم بِفَصْلِ ما بينكم وبين محمد، قد أمَرَنا أحبارُ يهودَ أن نسأله عن أمور، فَأَخْبَروهم بها، فجاؤوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا. فسألوه عما أمرُوهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أُخبِرُكم غداً بما سألتم عنه». ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسولُ الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يُحدثُ الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريلُ عليه السلام، حتى أرجفَ أهلُ مَكّة وقالوا: وَعَدَنا محمد غداً، واليومُ خمسَ عشرةَ قد أصبحنا فيها، لا يُخبرنا بشيء عما سألناه عنه. وحتى أحزنَ رسول الله ﷺ مُكثُ الوحي عنه، وشَقَّ عليه ما يتكلم به أهلُ مكة، ثم جاءه جبرائيلُ ـ عليه السلام ـ من عندالله ـ عزَّ وجلَّ ـ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبتُه إيّاه على حُزنِه عليهم، وخَبَر ما سألوه عنه من أمر الفِتْية والرجل الطَّوّاف، وقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥][1].

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

يقولُ تعالى مُسلّياً رسوله ﷺ في حُزنِه على المشركين، لتركهم الإيمان وبُعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٧٠]، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣]. باخع، أي: مُهلِكٌ نفسَك بِحُزنِكَ عليهم. ولهذا قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، يعني: القرآن. ﴿أَسَفًا﴾، يقولُ: لا تُهلِكْ نفسَك أسَفاً، قال قتادةُ: قَاتِلٌ نَفْسَك غضباً وحزناً عليهم. وقال مجاهد: جزعاً. والمعنى متقاربٌ، أي: لا تأسف عليهم، بل أبلِغْهم رسالةَ الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضَلَّ فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات. ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية، مُزَيَّنَةً بزينة زائلة. وإنما جعلها دارَ اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾.

[٤٣٦٢] قال قتادة، عن أبي نَضْرة، عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون. فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيلَ كانت في النساء»[2]. ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها، وذَهابها وخَرابها، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾، أي: وإنا لَمُصَيِّروها بعد الزينة إلى الخَراب والدّمار، فنجعلُ كُلَّ شيء عليها هالكاً ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾، لا يُنْبِتُ ولا يُنْتَفَعُ به، كما قال العَوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾، يقول: يهلك كل شيء عليها ويَبيد. وقال مجاهد: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾: بلقعاً. وقال قتادة: الصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات. وقال ابنُ زيد: الصعيد الأرض

---

(١) والحديث ضعيف، أخرجه الطبري ٢٢٨٦١ من طريق ابن إسحق به، وإسناده ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحق، فإنه لم يسمّه، وفي بعض ألفاظه نكارة.

(٢) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٦٥.

التي ليس فيها شيء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة: ٢٧]. وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾، يعني الأرضَ، إن ما عليها لفانٍ وبائدٌ، وإن المرجع لإلى الله، فلا تأسَ ولا يحزنك ما تسمَع وترَى.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بَسَطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾، يعني يا محمد، ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾، أي: ليس أمرُهم عَجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خَلْق السمٰوات والأرض، واختلافَ الليل والنهار، وتسخيرَ الشمس والقمر والكواكب وغيرَ ذلك من الآيات العظيمة الدالّة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزُه شيءٌ، أعجبُ من خبر أصحاب الكهف والرقيم، كما قال ابن جُرَيج، عن مجاهد: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾، يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجبُ من ذلك. وقال العوفي، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾، يقول: الذي آتيتُكَ من العلم والسنّة والكتاب أفضلُ من شأنِ أصحابِ الكهفِ والرَّقيم. وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرتُ من حُجَجي على العباد أعجبُ من شأن أصحاب الكهفَ والرقيم. وأما الكهف فهو الغارُ في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما «الرقيم» فقال العوفي، عن ابن عباس: هو وادٍ قَريبٌ من أَيلَةَ. وكذا قال عطية العوفي، وقتادة. وقال الضحاك: أما الكهف فهو: غار الوادي، والرقيم اسم الوادي. وقال مجاهد: الرقيمُ: كان بنيانهم، ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم. وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوريُّ، عن سِمَاكٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس في قوله: «الرقيم»، قال: يزعمُ كعبٌ أنها القرية. وقال ابن جُرَيج، عن ابن عباس: «الرقيم»: الجبل الذي فيه الكهف. وقال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: اسمُ ذلك الجبلِ بنجلوس. وقال ابن جَريج: أخبرني وهبُ بن سُلَيمان، عن شُعَيب الجَبَئيّ: أنّ اسم جَبَلِ الكَهْفِ بناجلوس، واسم الكهف حيزم، والكلب حُمَران. وقال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيلُ، عن سِمَاكٍ، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس قال: القرآن أعلمه إلا حَنَاناً، والأواه، والرقيم. وقال ابن جُرَيج: أخبرني عَمرو بن دينار، أنه سمع عِكْرِمَةَ يقولُ: قال ابن عباس: ما أدري ما الرقيم؟ أكتاب أم بنيان؟ وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «الرقيمُ» الكتابُ. وقال سعيد بن جُبَير: «الرقيم» لوحٌ من حجارةٍ، كَتَبُوا فيه قِصَصَ أصحابِ الكهفِ، ثم وضَعُوه على باب الكهف. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الرقيم» الكتاب. ثم قرأ: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ [المطففين: ٩]. وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيارُ ابن جرير قال: «الرقيمُ» فَعِيلٌ بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول: قتيل، وللمجروح: جَرِيح. والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾. يُخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فَرُّوا بدينهم من قَوْمِهم لئلا يفتنوهم عنه، فَهَرَبوا منهم فَلَجَئُوا إلى غار في جبل لِيَختَفُوا عن قومهم، فقالوا حين دَخَلُوا سائلين من الله تعالى رحمتَه ولُطفه بهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾،

أي: هَبْ لنا من عندك رحمةً ترحَمُنا بها وتسترنا عن قومنا، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، أي: وقَدِّر لنا من أمرنا هذا رشداً، أي: اجعل عاقبته رشداً، كما جاء في الحديث:

[٤٣٦٣] «وما قَضَيتَ لنا من قَضاءٍ فاجعَلْ عاقبته رَشَداً»(١).

[٤٣٦٤] وفي المسند من حديث بُسْر بن أرطأة، عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم، أحسِنْ عاقبتنا في الأمور كُلِّها، وأجِرْنا من خِزْيِ الدنيا وعذاب الآخرة»(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾، أي: ألقينا عليهم النومَ حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنينَ كثيرةً. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾، أي: من رَقْدَتهم تلك، وخَرَج أحدُهم بدراهِمَ معه ليشتري لهم بها شيئاً يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾، أي: المختلِفين فيهم، ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾، قيل: عدداً. وقيل: غايةً، فإن الأمد الغاية كقوله:

سَبْقَ الجَوَادِ إذَا اسْتَولى عَلَى الأَمَدِ

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

من ها هنا شَرع في بَسْطِ القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتيةٌ، وهم الشباب، وهم أقبلُ للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عَتَوا وعَسَوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثرُ المستجيبين لله تعالى ولرسوله شباباً. وأما المشايخُ من قُرَيش فعامتهم بَقُوا على دينهم، ولم يُسلِم منهم إلا القليلُ. وكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فِتيةً شباباً. قال مجاهدٌ: بلغني أنه كان في آذان بَعضِهم القِرْطة ـ يعني الحَلَق ـ فألهمهم الله رُشْدَهم وآتاهم تقواهم. فآمنوا بربهم، أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو. ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾: استدلَّ بهذه الآية وأمثالها غيرُ واحد من الأئمة كالبُخاري وغيره، ممن ذَهَب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيدُ وينقصُ. ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالَّةِ على ذلك. وقد ذُكر أنهم كانوا على دين [المسيح] عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ والله أعلم. والظاهر أنهم كانوا قبل مِلَّةِ النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبارُ اليهود بحفظ خَبَرهم وأمرهم، لمباينتهم لهم. وقد تقدم عن ابن عباس: أن قُرَيشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياءَ يمتحنُون بها رسولَ

---

(١) هو بعض حديث سيأتي.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٨١ والطبراني ١١٩٦ ـ ١١٩٨ وابن حبان ٩٤٩ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ١٧٨ وقال: ورجال أحمد، وأحد أسانيد الطبراني ثقات اهـ، لكن بسر مختلف في صحبته.

الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذي القرنين، وعن الرُّوح، فدلّ هذا على أنَّ هذا أمرٌ محفوظ في كتب أهل الكتاب، وأنه متقدِّم على دين النصرانية، والله أعلم.

وقولهُ تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يقولُ تعالى: وصَبّرناهم على مخالفة قومهم ومُباينتهم، ومفارَقة ما كانوا فيه من العيش الرَّغيد والسعادة والنعمة؛ فإنه قد ذَكَر غيرُ واحد من المفسِّرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خَرَجُوا يوماً في بعض أعيادِ قومهم وكان لهم مُجتَمَع في السَّنَةِ يجتمعُون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبُدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: دقيانوس، وكان يأمر الناس بذلك ويحثُّهم عليه ويدعُوهم إليه. فلما خَرج الناس لِمُجتَمعِهم ذلك، وخَرَج هؤلاء الفتيةُ مع آبائهم وقومهم ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السمٰوات والأرض. فجعل كلُّ واحدٍ منهم يتخلص من قومه، وينحاز عنهم، ويَتَبرَّزُ عنهم ناحية. وكان أول من جلس منهم وحده أحدُهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخَر، وإنما جمعهم هنالك الذي جَمعَ قلوبهم على الإيمان.

[٤٣٦٥] كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً، من حديث يحيى بن سعيد، عن عَمْرَةَ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «الأرواحُ جنودٌ مجندة، فما تعارَفَ منها ائتلَفَ، وما تناكر منها اختلَفَ»[1]. وأخرجه مسلم في صحيحه، من حديث سُهيل، عن أبيه، عن أبي هُريرة، عن النبي ﷺ.

والناسُ يقولون: الجنسيةُ عِلّة الضَّمّ. والغرض أنه جعل كلُّ واحد منهم يكتم ما هو فيه عن أصحابه، خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثلُه، حتى قال أحدهم: تَعلَمُون ـ والله يا قوم ـ أنه ما أخرجَكُم من قومكم وأفرَدكُم عنهم إلا شيءٌ، فَلْيُظهِرْ كلُّ واحدٍ منكم ما بأمره. فقال الآخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفتُ أنه باطل، وإنما الذي يستَحق أن يُعبَدَ وحده ولا يُشرَك به شيءٌ، هو الله الذي خلق كل شيء، السمٰوات والأرض وما بينهما. فقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلُّهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة وإخوانَ صِدْقٍ، فاتخذوا لهم معبداً يعبدُون الله فيه، فعرف بهم قومُهم، فَوَشَوا بأمرهم إلى مَلِكهم، فاستحضَرَهم بين يديه فَسَألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابُوه بالحقّ، ودَعَوه إلى الله عزّ وجلّ، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾. ولن: لنفي التأبيد، أي: لا يقع منا هذا أبداً، لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطِلاً، ولهذا قال عنهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾، أي: باطلاً وكَذِباً وبهتاناً. ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾، أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، يقولون: بل هم ظَالِمُون كاذبون في قولهم ذلك. فيقال: إنَّ ملكهم لما دَعَوه إلى الإيمان بالله أَبى عليهم، وتَهَدّدهم وتوعدهم، وأَمَر بِنَزْع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجّلهم لينظروا في أمرهم، لَعَلّهم يراجعون دِينهم الذي كانوا عليه. وكان هذا من لُطف الله بهم، فإنَهم في تلك النَّظِرَةِ تَوصَّلوا إلى

(١) ذكره البخاري ٣٣٣٦ معلقاً من حديث عائشة. وأخرجه مسلم ٢٦٣٨ والبخاري في «الأدب المفرد» ٩٠١ وأبو داود ٤٨٣٤ وأحمد ٢/ ٥٢٧ و٥٣٩ وابن حبان ٦١٦٨.

الهَرَب منه، والفِرَارِ بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يَفِرّ العبدُ منهم خَوْفاً على دينه، كما جاء في الحديث:

[٤٣٦٦] «يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنماً يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجِبَالِ ومَوَاقع القطر، يَفِرُّ بدينه من الفِتَن»[١]؛ ففي هذه الحال تُشرَعُ العزلة عن الناس ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع. فلما وقع عزمُهم على الذهاب والهَرَب من قومهم، واختار الله [تعالى] لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك، في قوله: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أي: وإذ فارقتُموهم وخالفتُموهم بأديانكم في عبادتهم غيرَ الله، ففارقُوهم أيضاً بأبدانكم، ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم، ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم﴾ الذي أنتم فيه، ﴿مِّرۡفَقٗا﴾، أي: أمراً تَرتفِقُون به. فعند ذلك خَرجوا هُرّاباً إلى الكهف، فأَووا إليه، فَفقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتَطلَّبهم الملك فَيقال: إنه لم يظفر بهم، وعَمَّى الله عليه خبرهم.

[٤٣٦٧] كما فعل بنبيه ﷺ وصاحِبِهِ الصديق، حين لجآ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطَّلَب، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يَمُرُّون عليه، وعندها قال النبي ﷺ حين رأى جَزَع الصديق في قوله: «يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قَدَميه لأبصرنا»، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟». وقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[٢] [التوبة: ٤٠]، فقصة هذا الغارِ أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف. وقد قيل: إن قومهم ظفروا بهم ووقفوا على باب الغار الذي دَخلُوا فيه فقالوا: ما كنا نُريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم. فأمر الملك بِرَدْم بابه عليهم لِيَهلكُوا مكانهم، فَفُعِل ذلك. وفي هذا نظر، والله أعلم؛ فإن الله تعالى قد أخبر أن الشمس تدخُلُ عليهم في الكهف بكرةً وعشيةً، كما قال تعالى:

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾﴾

هذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال؛ لأن الله تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تَزوَرّ عنه ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾، أي: يتقلّصُ الفَيءُ يمنة، كما قال ابن عباس، وسعيد بن جُبير، وقتادة: ﴿تَّزَٰوَرُ﴾، أي: تميل. وذلك أنها كُلّما ارتفعت في الأفق تقلّصَ شعاعُها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان. ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية الشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بَيّن لمن تأمّله، وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه: أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دَخل إليه منها شيءٌ عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيءٌ عند الطلوع ولا عند الغُرُوب، ولا تزاور

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٩ و٣٣٠٠ وأبو داود ٤٢٣٧ والنسائي ٨/ ١٢٣ ـ ١٢٤ وأحمد ٣/ ٤٣ و٥٧ وأبو يعلى ٩٨٣ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) وتقدم الحديث أثناء تفسيرها.

الفيءُ يميناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه ولله الحمد.

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ، ﴿تَّقۡرِضُهُمۡ﴾: تتركهم. وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أيّ البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصدٌ شرعي. وقد تكلف بعض المفسرين بذلك، فذكروا فيه أقوالاً، فَتَقدَّم عن ابن عباس أنه قال: هو قريبٌ من أَيْلَة. وقال ابن إسحاق: هو عند نِينَوَى. وقيل: ببلاد الروم. وقيل: ببلاد البلقاء. والله أعلم بأيّ بلاد الله هو. ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه.

[٤٣٦٨] فقد قال رسول الله ﷺ: «ما تركتُ شيئاً يُقرِّبكم إلى الجنة ويُباعِدُكم من النار إلا وَقد أعلمتُكم به»[١]. فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾، قال مالك، عن زيد بن أسلم: تميل ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾، أي: في متسع منه داخلاً، بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت ثيابهم وأجسادهم، قاله ابن عباس. ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾، حيث أرشدَهُم تعالى إلى هذا الغارِ الذي جَعَلهم فيه أحياءً، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانُهم، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾. ثم قال: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾؛ أي: هو الذي أرشَدَ هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم؛ فإنه من هَدَاه الله اهتدى، ومن أَضلَّه فلا هادِيَ له.

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾﴾

ذكَرَ بعضُ أهل العلم أنهم لما ضَرَب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يُسرِع إليها البِلَى، فإذا بقيت ظاهرةً للهواء كان أبقَى لها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾. وقد ذُكِر عن الذئب أنه ينام فَيُطبِقُ عَيناً ويفتح عَيناً، ثم يطبق هذه ويفتح هذه وهو راقد، كما قال الشاعر:

يَنَامُ بِإِحْدَى مُقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي ... بِأُخْرَى الرَّزَايَا، فَهْوَ يَقْظَانُ نَائِمُ

وقولهُ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾، قال بعض السلف: يُقلَّبون في العام مرَّتين. قال ابن عباس: لو لم يُقلَّبوا لأكلتهم الأرضُ. وقولهُ: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وقتادة: الوصيد الفِناءُ. وقال ابنُ عباس: بالباب. وقيل: بالصعيد، وهو التراب. والصحيحُ أنه بالفناء، وهو الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ﴿٨﴾﴾، أي: مطبقة مغلقة. ويقال: «وَصِيد» و «أصيد». ربض كلبُهم على الباب كما جرت به عادةُ الكِلاَب. قال ابن جُريج: يحرسُ عليهم الباب. وهذا من سَجِيَّته وطبيعته، حيثُ رَبَض ببابهم كأنه يحرسُهم، وكان جلوسُه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخُل بيتاً فيه كلب، كما ورد في الصحيح، ولا صورةٌ ولا جُنبٌ ولا كافر[٢]، كما ورد به

---

(١) هو بعض حديث تقدم.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٢٧ و ٤١٥٢ والنسائي ١/ ١٤١ و ٧/ ١٨٥ من حديث علي، حسنه ابن كثير رحمه الله، وفي ذلك نظر، فإن في إسناده نُجَيّ الحضرمي، قال عنه الحافظ: مقبول، وقال عنه الذهبي في الميزان ٩٠١٩: لا يدرىٰ من هو. قلت: وللحديث شواهد سوىٰ لفظ «جنب» فقد تفرد به، وهو غير حجة، وضعف حديثه هذا غير واحد. وذكر الكلب والصورة في الصحيح، وقد تقدم.

الحديث الحسن. وشمِلَت كَلْبَهم بَرَكَتُهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال. وهذا فائدةُ صُحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكرٌ وَخَبرٌ وشأنٌ. وقد قيل: إنه كان كلبَ صيدٍ لأحدهم، وهو الأشبه. وقيل: كان كَلْبَ طباخ الملكِ، وكان قد وافقهم على الدِّين فَصَحبَه كلبهُ، فالله أعلم.

وقد روى الحافظُ ابن عساكر في ترجمة «همام بن الوليد الدمشقي»: حدثنا صَدَقة بن عُمَر الغساني، حدثنا عباد المنقري، سمعت الحسن البصري رحمه الله يقول: كان اسمُ كَبْشِ إبراهيمَ جرير، واسم هدهد سليمان عَنقز، واسم كلب أصحاب الكهف قِطمير، واسم عجل بني إسرائيل الذي عبدوه: بَهْموت. وهبط آدم ـ عليه السلام ـ بالهند، وحواء بجَدَّة وإبليسُ بدست بيسان، والحيةُ بأصبهان. وقد تقدم عن شُعَيب الجَبَئِيّ أنه سماه حمران. واختلفوا في لَونه على أقوال لا حاصلَ لها، ولا طائلَ تحتها ولا دليلَ عليها، ولا حاجة إليها، بل هي مما ينهى عنه فإن مُسْتَنَدَها رجم بالغيب.

وقولُه تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾، أي: إنه تعالى ألقى عليهم المهابةَ بحيثُ لا يقع نظرُ أحدٍ عليهم إلا هابهم، لما أُلبِسُوا من المهابة والذعر لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس، حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه، وتنقضِي رَقدتُهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة، والرحمة الواسعة.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

يقولُ تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صَحِيحةً أبدانُهم وأشعارُهم وأبشارهم، لم يَفْقِدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، أي: كم رَقدتُم؟ ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا﴾، كأنه كان دخولُهم إلى الكهف في أول نهار، وإيقاظهم كان في آخر نهار، فلهذا استدركوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تَرَدّد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجُهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾، أي: فِضّتكم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فَتصدَّقوا منها وَبَقِيَ منها، فلهذا قالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي: مَدِينتكم التي خرجتُم منها. والألف واللام للعهد. ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾، أي: أطيب طعاماً، كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى: ١٤]. ومنه الزكاةُ التي تُطَيِّب المال وتُطَهِّره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زكا الزرعُ إذا كَثُر، قال الشاعر:

قَبَائِلُنَا سَبْعٌ وأنتُمْ ثَلاثَةٌ ... ولَلسَّبْعُ أزْكَى مِنْ ثَلاثٍ وَأطْيَبُ

والصحيحُ الأولُ؛ لأن مقصودَهم إنما هو الطيّبُ الحَلاَلُ، سواء كان قليلاً أو كثيراً. وقولُهُ: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾، أي: في خُروجه وذَهابه، وشرائِهِ وإيابه، يقولون: وَلْيَتَخَفَّ كُلَّ ما يقدر عليه. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾،

أي: يُغلِمنّ ﴿بِكُمْ أَحَدًا ١٩ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي: إن علِموا بمكانكم رَجَموكُم، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾، يعنون أصحاب دقيانوس. يخافون منهم أن يَطّلعوا على مكانهم، فلا يزالُون يُعذِّبونهم بأنواع العَذَاب إلى أن يُعِيدوهم في مِلّتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن وَاتوهم على العودة في الدين فلا فلاح لهم في الدنيا ولاَ في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ٢١﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾، أي: أطلعنا عليهم الناس، ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾. ذكر غيرُ واحد من السلف أنه كان قد حَصَل لأهل ذلك الزمان شكٌّ في البعث وفي أمر القيامة. وقال عكرمة: كان منهم طائفةٌ قد قالوا: تُبعَثُ الأرواحُ ولا تُبعَثُ الأجسادُ. فبعث الله أهل الكهف حُجّةً ودلالة وآية على ذلك. وذكروا أنه لما أراد أحدُهم الخروجَ ليذهَبَ إلى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه، تنكّر وخرجَ يمشي في غير الجادّة حتى انتهى إلى المدينة، وذكروا أن اسمَها دَفْسُوسُ، وهو يظن أنه قريبُ العهد بها، وكان الناسُ قد تبدّلوا قرناً بعد قرن، وجِيلاً بعد جِيلٍ، وأُمّةً بعد أُمّةٍ، وتَغيّرت البلادُ ومن عليها، كما قال الشاعر:

أمـا الـدّيـارُ فـإنّـهـا كـديـارهـم وأرَى رجـالَ الـحَـيّ غـيـرَ رجـالـه

فَجعَل لا يرى شيئاً من مَعَالم البلد التي يعرفُها، ولا يعرِفُ أحداً من أهلها، لا خواصَّها ولا عوامَّها، فجعل يتحيّر في نفسه ويقول: لعلّ بي جنوناً أو مساً، أو أنا حالم. ويقول: والله ما بي شيءٌ من ذلك، وإنّ عهدي بهذه البلدة عشيةَ أمسِ على غير هذه الصفة. ثم قال: إنّ تعجيلَ الخروجِ من ها هنا لأولى لي. ثم عَمَدَ إلى رجلٍ ممن يبيعُ الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعَه بها طعَاماً. فلمّا رآها ذلك الرجل أنكرَها وأنكر ضَرْبها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداوَلُونها بينهم ويقولون: لعل هذا قد وجد كنزاً. فسألوه عن أمره، ومن أين له هذه النفقةُ؟ لعلّه وجدها من كنز، وَمِمّن أنت؟ فجعل يقولُ: أنا من أهل هذه المدينةِ، وعهدي بها عشيةَ أمسِ وفيها دقيانوس. فَنَسبُوه إلى الجنون، فحملوه إلى وليِّ أمرهم، فسأله عن شانه وعن أمرِه، حَتّى أخبرهم بأمره، وهو متحيّرٌ في حاله، وما هو فيه. فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف، مُتَوَلِّيَ البلد وأهلها، حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال: دَعُوني حتى أتقدّمَكم في الدخول لأعلم أصحابي، فَدَخَل فيقال: إنهم لا يدرون كيف ذَهَب فيه، وأخفى الله عليهم خَبَره، ويُقَال: بل دخلوا عليهم، ورأوهم وسلّم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مُسلِماً فيما قيل، واسمه تِيذُوسِيسُ، ففرحوا به وآنسوه بالكلامِ، ثم وَدّعوه وسَلّموا عليه، وعادوا إلى مضاجِعِهم، وتوفاهم الله عزّ وجلّ؛ فالله أعلم.

قال قتادة: غزا ابنُ عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بكهف في بلاد الروم، فرأوا فيه عظاماً، فقال قائل: هذه عظامُ أصحاب الكهف؟ فقال ابنُ عباس: لقد بَلِيَت عظامُهم من أكثر من ثلاثِمائة سنة. رواه ابن جرير. وقولهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم أطلعنا عليهم أهلَ ذلك الزمان، ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾، أي: في أمر القيامة، فمن مُثْبتٍ لها ومن مُنكِرٍ، فجعل الله ظُهورَهم على أصحاب الكهف حُجّةً لهم وعليهم. ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ

أَعْلَمُ بِهِمْ﴾، أي: سُدُّوا عليهم باب كهفهم الذي هم فيه، وذَرُوهم على حالهم، ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾. حكى ابنُ جرير في القائلين ذلك قولين، أحدهما: أنهم المسلمونَ منهم. والثاني: أهلُ الشِّركِ منهم، فالله أعلم. والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحابُ الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر، لأن النبي ﷺ قال:

[٤٣٦٩] «لعن الله اليهودَ والنصارى، اتَّخذوا قُبورَ أنبيائهم وصالحيهم مساجِدَ»[١]، يُحَذِّر ما فعلوا. وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه لما وَجَد قبر دانيالَ في زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس، وأن تُدفَنَ تلك الرقعةُ التي وَجَدُوها عنده فيها شيءٌ من الملاحم وغيرها.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن اختلافِ الناس في عِدَّةِ أصحاب الكهف، فَحَكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضَعَّف القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، أي: قول بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصابَ فَبلا قصدٍ. ثم حكى الثالث وسَكَت عليه أو قَرَّره بقوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، فدلّ على صحته، وأنه هو الواقعُ في نفس الأمر. وقولهُ: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشادٌ إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رَدُّ العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقفنا حيث وَقَفنا.

وقولهُ تعالى: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أي: من الناس. قال قتادةُ: قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله عزّ وجلّ، كانوا سبعة. وكذا رَوَى ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عنه، أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله عزّ وجلّ، ويقول: عدتهم سبعة. وقال ابن جرير: حَدَّثنا ابن بشار، حَدَّثنا عبد الرحمن، حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، قال: أنا من القليل، كانوا سبعة. فهذه أسانيدُ صحيحةٌ إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة، وهو موافقٌ لما قدمناه.

وقال محمدُ بن إسحاقَ بن يَسَار، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد قال: لقد حُدِّثتُ أنه كان على بعضهم من حداثة سِنِّه وَضَحُ الوَرِقِ. قال ابن عباس: فكانوا كذلك ليلَهم ونهارَهم في عبادة الله، يبكون ويستغيثون بالله، وكانوا ثمانية نفر: مَكْسلمينا، وكان أكبَرهم وهو الذي كَلَّم الملك عنهم ومحسيميلنينا، ويمليخا، ومَرْطوس، وكشوطوش، وبيرونس، وديموس، ويطونس قالوش. هكذا وقع في هذه الرواية، ويحتمل أن يكون هذا من كلام ابن إسحاق، أو من بَيْنه وبَينه، فإن الصحيح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنهم كانوا سبعةً، وهو ظاهرُ الآية. وقد تقدم عن شُعَيب الجَبَئِيِّ أن اسم كلبهم حُمران. وفي تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظر في صحته، والله أعلم؛ فإن غالبَ ذلك مُتَلَقَّىً من أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾، أي: سهلاً هَيِّناً؛ فإن الأمرَ في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبيرُ فائدة، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾، أي: فإنهم لا عِلْمَ لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رَجْماً

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٣٣٠ ومسلم ٥٢٩ وأحمد ٦/ ٨٠ و١٢١ من حديث عائشة.

بالغيب، من غير استنادٍ إلى كلامِ معصومٍ، وقد جاءك الله ـ يا محمد ـ بالحق الذي لا شَكَّ فيه ولا مِرْيَةَ، فهو المقدَّم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتُب والأقوال.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

هذا إرشادٌ من الله تعالى لرسوله ـ صلواتُ الله وسلامُهُ عليه ـ إلى الأدَبِ فيما إذا عَزَم على شيءٍ ليفعَله في المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ـ عز وجلّ ـ علام الغيوب، الذي يعلمَ ما كان وما يكون، وما لم يكُن لو كان كيفَ كان يكون.

[٤٣٧٠] كما ثبت في الصَّحِيحَين عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ: لأطوفن الليلة على سبعين امرأةً ـ وفي رواية: على تسعين امرأة. وفي رواية: مائة امرأة ـ تَلد كلُّ امرأة منهن غلاماً يُقاتِلُ في سبيل الله. فقيل له، وفي رواية: فقال له الملكُ: قُل: إن شاء الله. فلم يَقُلْ، فطاف بهن فلم تَلِدْ منهم إلا امرأة واحدةٌ نِصفَ إنسان، قال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو قال: «إن شاء الله»، لم يحنَثْ، وكان دَرَكاً لحاجته»[1] وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[2]. وقد تقدَّم في أول السورة ذكْرُ سبب نزول هذه الآية في قَوْلِ النبي ﷺ، لما سُئِل عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أُجِيبكم». فتأخر الوحيُ خمسةَ عَشَر يوماً، وقد ذكرناه بطوله في أول السورة، فأغنى عن إعادته. وقولهُ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل: معناه: وإذا نسيت الاستثناء، فاستثنِ عند ذكرك له. قاله أبو العالية، والحَسَنُ البصريُّ. وقال هُشَيم، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس في الرجل يحلِفُ؟ قال: له أن يستثني ولو إلى سنة. وكان يقول: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في ذلك. قيل للأعمش: سَمِعتَه من مجاهدٍ؟ قال: حَدَّثني به ليث بن أبي سليم، يرى رَهَب كسائي هذا. ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، به. ومعنى قول ابن عباس: «أنه يستثني ولو بعد سنة»، أي: إذا نَسِي أن يقول في حَلفه أو كلامه «إن شاء الله»، وذكر ولو بعد سنة، فالسُّنَّةُ له أن يقول ذلك، ليكون آتياً بسُنَّة الاستثناء، حتى لو كان بعد الحنث، قاله ابنُ جرير ـ رحمه الله ـ ونص على ذلك، لا أن يكون ذلك رافعاً لحنث اليمين ومُسقِطاً للكفارة. وهذا الذي قاله ابنُ جرير هو الصحيحُ. وهو الأليق بحَمْلِ كلام ابن عباس عليه، والله أعلم. وقال عكرمةُ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، أي: إذا غَضِبْتَ. وهذا تَفسيرٌ باللازِم. وقد قال الطَّبَرَانيُّ: حدثنا أحمد بن يحيى الحلواني، حدثنا سَعِيد بن سُليمان، عن عَبَاد بن العوّام، عن سفيان بن حُسَين، عن يعلَى بن مسلم، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله. وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الحارث الجُبَيلي، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن مسلم، عن عبد العزيز بن حُصَين، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قال: إذا نَسِيتَ الاستثناء فاستثن إذا ذكرتَ. وقال: هي خَاصَّة لرسول الله ﷺ وليس لأحد منّا أن يَسْتَثْنيَ إلا في صلةٍ من يمينه. ثم قال: تَفَرَّد به الوليد، عن عبد العزيز بن الحُصَين. ويُحتمل في الآية وجهٌ آخَرُ، وَهُو أن يكون الله عزّ وجلّ ـ قد أرشد من نَسِي الشيءَ في كلامه إلى

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٤٢ ومسلم ١٦٥٤ والنسائي ٧/ ٣١ وأحمد ٢/ ٢٧٥ وأبو يعلى ٦٢٤٤.

(٢) هذه الرواية عند مسلم برقم ١٦٥٤ ح ٢٥.

ذكر الله تعالى لأن النسيان مَنْشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾، وذِكْرُ الله تعالى يَطْرُد الشيطانَ، فإذا ذَهَب الشيطانُ ذَهَب النسيانُ، فَذِكْرُ الله تعالى سَبَبٌ للذكر، ولهذا قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾. وقوله: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾، أي: إذا سُئلت عن شيءٍ لا تعلمه، فاسأل الله تعالى فيه، وتوجَّه إليه في أن يُوَفِّقَكَ للصواب والرشد في ذلك. وقيل غير ذلك في تفسيره، والله أعلم.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ۝٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ۝٢٦﴾

هذا خَبرٌ من الله تعالى لرسولِهِ ﷺ بمقدار ما لَبِث أصحابُ الكهف في كهفهم، منذ أرقَدَهم الله إلى أن بَعثَهم وأعثَرَ عليهم أهلَ ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائةُ سنةٍ بالشمسية، فإنَّ تفاوُتَ ما بين كل مائةِ سنةٍ بالقمرية إلى الشمسية ثلاثُ سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾. وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾، أي: إذا سُئِلت عن لُبثِهم وليس عندك في ذلك تَوقيفٌ من الله تعالى، فلا تَتَقدَّم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطْلَعَه الله عليه من خَلْقِهِ، وهذا الذي قلناه عليه غيرُ واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾: هذا قولُ أهل الكتاب، وقد رَدَّه الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾، قال: وفي قراءة عبد الله: «وقالوا: وَلَبِثُوا»، يعني أنه قاله الناس. وهكذا قال ـ كما قال قتادة ـ مُطَرِّف بن عبد الله. وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله قد حَكَى قولَهم لما قال: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾، وظاهرُ الآية إنما هو من أخبار الله، لا حكاية عنهم. وهذا اختيار ابن جرير ـ رحمه الله ـ ورواية قتادة قراءةَ ابنِ مسعود منقطعة، ثم هي شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور. فلا يحتجّ بها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾، أي: إنه لبصير بهم سميع لهم. وقال ابن جرير: «وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصَرَه وأسمَعَه. وتأويلُ الكلام: ما أبصر الله لكلِّ موجودٍ، وأسمَعَه لكلِّ مسمُوع، لا يخفَى عليه من ذلك شيءٌ». ثم رَوَى عن قتادةَ في قوله: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾، فلا أحدَ أبصرُ من الله ولا أسمعُ. وقال ابنُ زيد: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾، يَرَى أعمالهم، ويسمَعُ ذلك منهم سميعاً بصيراً. وقولُهُ: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾، أي: إنه تعالى هو الذي له الخلقُ والأمرُ، الذي لا مُعَقِّب لحكمه، وليس له وزيرٌ ولا نصيرٌ ولا شريكٌ ولا مُشيرٌ، تعالى وتقدس سبحانه.

﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ۝٢٧ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ۝٢٨﴾

يقولُ تعالى آمراً رسولَه ﷺ بتلاوةِ كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي: غير مُغيَّر لها ولا محرف ولا مُؤوَّل. وقولُه: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾، عن مجاهد ﴿مُلۡتَحَدٗا﴾ قال: مَلْجأ. وعن

قتادة: ولياً ولا مولى قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمَّد لم تَتْلُ ما أُوحِي إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله. كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، أي: سائلك عما فَرَض عليك من إبلاغِ الرسالةِ.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، أي: اجلِسْ مع الذين يذكرون الله ويُهَلِّلونه، ويحمَدُونه ويُسبِّحونه ويكبِّرونه، ويسألونه بُكرةً وعَشِيّاً من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضُعفاء. يقال: إنها نَزَلت في أشراف قريش، حين طَلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وَحْدَه ولا يُجَالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصُهَيب وخَبَّاب وابن مسعود، ولْيُفردْ أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]... الآية، وأمَرَه أن يَصْبِر نفسه في الجُلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

[٤٣٧١] وقال مسلمٌ في صَحِيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمدُ بن عبد الله الأَسَدِيُّ، عن إسرائيلَ، عن المِقْدَام بن شُرَيح، عن أبيه، عن سَعْدٍ ـ هو ابن أبي وقَّاص ـ وقال: كُنَّا مع النبي ﷺ سِتَّةَ نَفَر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرُدْ هؤلاء لا يَجتَرِئُون علينا. قال: وكنتُ أنا وابنُ مسعود، ورجلٌ من هُذَيل، وبلال، ورجلان نسيتُ اسمَهُمَا. فوَقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يَقَع، فَحدَّث نفسه، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[1]. انفرد بإخراجه مسلم دون البخاريِّ.

[٤٣٧٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمدُ بن جعفرٍ، حدثنا شعبةُ، عن أبي التَّيَّاح قال: سَمِعتُ أبا الجَعْدِ يُحَدِّث عن أبي أُمامة قال: خَرَج رسولُ الله ﷺ على قاصٍّ يقصُّ، فَأَمسَكَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «قُصَّ، فَلأَنْ أقعُدَ غُدوةً إلى أن تُشرِق الشمسُ أحبُّ إليّ من أن أُعتِقَ أربعَ رِقَابٍ»[2].

[٤٣٧٣] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا هشام، حدثنا شُعبَةُ، عن عبدَ المَلِكِ بن مَيْسَرَةَ قال: سَمِعتُ كُردُوس بن قَيس ـ وكان قاصَّ العامَّةِ بالكُوفة ـ يقول: أخبَرَني رجلٌ من أصحاب بَدْرٍ: أنه سمع النبي ﷺ يقول: لأَنْ أقعُدَ في مثلِ هذا المَجلسِ أحبُّ إليّ من أن أُعتِقَ أربعَ رِقَابٍ. قال شعبةُ: فقلت: أَيَّ مَجْلِسٍ؟ قال؛ كان قاصّاً[3].

[٤٣٧٤] وقال أبو داود الطَّيالِسي في مُسنَدِهِ: حدثنا مُحمَّد، حدثنا يزيد بن أبانَ، عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لأَن أُجالِسَ قوماً يَذْكُرون الله من صَلاَة الغَدَاةِ إلى طلوع الشمس أَحَبُّ إليّ مما طَلَعت عليه الشمس، ولأَنْ أذكُرَ الله من صَلاة العَصْر إلى غروب الشمس أَحَبُّ إليَّ من أن أُعتِقَ ثمانيةً من وَلَد إسماعيلَ، دِيَةُ كُلِّ وَاحدٍ منهم اثنا عَشَر ألفاً». فَحَسَبنا دياتِهم ونحن في مَجلِس أنسٍ، فبلغت ستةً وتسعين ألفاً، وها هنا

---

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ٥٢.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢٦١ ح ٢١٧٥١ والطبراني كما في «المجمع» ٩١١ من حديث أبي أمامة. قال الهيثمي: رجاله موثقون، إلا أن أبا الجعد، إن كان الغطفاني، فهو من رجال الصحيح. وإن كان غيره، فلم أعرفه اهـ... قلت: لم ينسب، ولم أجد قرينة تعينه، فلينظر.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٤٧٤ من حديث كردوس عن رجل من أهل بدر، قال الهيثمي في «المجمع» ٩١٢: كردوس ابن قيس، وثقه ابن حبان، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ، وقال الذهبي في «الميزان» ٦٩٥٦: كردوس بن قيس، لا يُعرف اهـ، وقال أبو حاتم الرازي: فيه نظر.

من يقول: أربعة من ولد إسماعيل، والله ما قال «إلا ثمانية، دِيَةُ كُلِّ واحدٍ منهم اثنا عشر ألفاً»[1].

[٤٣٧٥] وقال الحافظُ أبو بكر البزّار: حدثنا أحمدُ بن إسحاقَ الأهوازيُّ، حدثنا أبو أحمد الزّبيريّ، حدثنا عَمرو بن ثابت، عن علي بن الأقمَر، عن الأغرِّ أبي مسلم ـ وهو كوفي ـ أن رسول الله ﷺ مرَّ برجل يقرأ سورةَ الكهف فلما رأى النبيَّ ﷺ سَكَت، فقال رسولُ الله ﷺ: «هذا المجلسُ الذي أُمِرْتُ أن أَصْبِرَ نفسي معهم»[2]. هكذا رواه أبو أحمد، عن عَمرو بن ثابت، عن علي بن الأقمرِ، عن الأغرِّ مرسلاً.

[٤٣٧٦] وحدّثناه يحيى بن المُعَلّى بن منصور، حدثنا محمد بن الصَّلْتِ، حدثنا عَمرو بن ثابت، عن عليِّ بن الأقمَر، عن الأغرِّ أبي مسلم، عن أبي هُرَيرةَ وأبي سعيدٍ قالا: جاء رسولُ الله ﷺ ورجلٌ يقرأ سُورة الحِجْر أو سورة الكهف، فسكَتَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «هذا المجلسُ الذي أُمِرْتُ أن أصبِرَ نفسي معهم»[3].

[٤٣٧٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدّثنا ميمون المَرَئيّ، حدثنا ميمون بن سِياه، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم اجتَمَعُوا يذكرُون الله، لا يُرِيدُون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم منادٍ من السماءِ: أن قُومُوا مغفوراً لكم، قد بُدِّلت سيئاتُكم حَسَناتٍ»[4]. تفرد به أحمد رحمه الله.

[٤٣٧٨] وقال الطبراني: حدثنا إسماعيل بن الحسن، حدثنا أحمدُ بن صالح، حدثنا ابنُ وهب، عن أسامةَ بن زيد، عن أبي حازم، عن عبد الرحمن بن سَهل بن حُنَيفٍ قال: نَزَلَت على رسولِ الله ﷺ وهو في بعض أبياته: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾، فخرج يَلْتَمِسُهم، فوجد قوماً يذكُرون الله، منهم ثائرُ الرأس، وجَافي الجِلْدِ، وذُو الثوبِ الواحدِ، فلما رآهم جَلَس معهم وقال: «الحمدُ لله الذي جعل في أمتي مَنْ أمرني الله أن أصبر نفسي معهم»[5]. عبد الرحمن هذا ذكره أبو بكر بنُ أبي داود في الصحابة. وأما أبوه فمن سادة الصحابة رضي الله عنهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، قال ابنُ عباس: «ولا تُجاوِزْهم إلى غيرهم». يعني: تطلب بَدَلهم أصحابَ الشرفِ والثروة. ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾، أي: شُغِل عن الدِّين وعبادة ربه بالدنيا، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ أي: أعماله وأفعاله سَفَهٌ وتفريطٌ وضياع، ولا تكن مُطيعاً له ولا مُحبّاً لطريقته، ولا تَغْبطه بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾ [طه: ١٣١].

---

(١) أخرجه الطيالسي ٢١٠٤ وفيه يزيد بن أبان الرقاشي، ضعيف لكن للحديث شواهد راجع المجمع ١/ ١٩٠ و ١٠/ ١٠٤ ـ ١٠٥. وفي الباب أحاديث أخرىٰ، والله تعالىٰ أعلم.

(٢) إسناده ضعيف، فيه عمرو بن ثابت، وهو متروك.

(٣) ضعيف. أخرجه البزار ٢٣٢٦ «كشف» وذكره الهيثمي في «المجمع» ٧/ ١٦٤ وقال: رواه البزار متصلاً ومرسلاً، وفيه عمرو بن ثابت أبو المقدام، وهو متروك.

(٤) أخرجه أحمد ٣/ ١٤٢ وأبو يعلى ٤١٤١ والطبراني في «الأوسط» ١٥٧٩ وذكره الهيثمي في «المجمع ١٠/ ٧٦ وقال: وفيه ميمون المرئي وثقه جماعة، وفيه ضعف، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.

(٥) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ٢٣٠١٧ عن عبد الرحمن بن سهل وهو مختلف في صحبته، وفيه أُسامة بن زيد، وهو متروك ليس بشيء وتقدم أن السورة مكية وهذا الخبر مدني.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

يقولُ تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقُلْ يا محمدُ للناس؛ هذا الذي جئتُكم به من ربِّكم هو الحقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيه ولا شك، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾: هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾، أي: أرصدنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾، وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابِهِ ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سُورُها.

[٤٣٧٩] قال الإمام أحمد: حدثنا حسنُ بن موسى، حدثنا ابنُ لَهيعةَ، حدثنا دَرّاج، عن أبي الهَيثم، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لِسُرَادقِ النار أربعةُ جُدُر، كَثَافَةُ كلِّ جدار مثلُ مسافةِ أربعين سنة»[(١)]. وأخرجه الترمذي في «صفة النار»، وابنُ جرير في تفسيره، من حديث دَرّاجٍ أبي السَّمح، به. وقال ابنُ جُرَيج: قال ابن عباس: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، قال: حائط من نار.

[٤٣٨٠] قال ابنُ جرير: حدثني الحسين بن نصر والعباس بن محمد قالا: حدثنا أبو عاصم، عن عبد الله بن أُمَيَّة، حدثني محمد بن حُيَيّ بن يعلى، عن صفوان بن يعلى، عن يعلى بن أمية قال؛ قال رسولُ الله ﷺ: البحر هو جهَنَّم[(٢)]، قال؛ فَقِيل له: كيف ذلك؟، فتلا، أو قرأ هذه الآية: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، ثم قال: والله لا أدخلها أبداً، أو: ما دمت حياً، ولا تصيبني منها قطرة[(٣)].

وقولُه تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، قال ابن عباس: المهل: ماء غليظ مثل دُرْدِيِّ الزيت. وقال مجاهد: هو كالدم والقَيح. وقال عكرمة: هو الشيءُ الذي انتهى حَرُّه. وقال آخرون: هو كلُّ شيءٍ أُذِيبَ. وقال قتادةُ: أذاب ابنُ مسعود شيئاً من الذهب في أُخدُود، فَلَمَّا انماع وأزْبَدَ قال: هذا أشبه شَيْءٍ بالمهل. وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهي سوداء، وشجرها أسودُ، وأهلها سُود. وهذه الأقوالُ ليس شيء منها ينفي الآخر، فإنَّ المُهل يجمعُ هذه الأوصافَ الرذيلةَ كُلَّها، فهو أسود مُنْتِنٌ غليظٌ حارٌّ، ولهذا قال: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾، أي: من حَرِّه، إذا أراد الكافرُ أن يشربَه وقرَّبه من وجهه شواه حتى يسقُطَ جلد وجهه فيه.

[٤٣٨١] كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، بإسناده المتقدم في سُرَادق النار، عن أبي سعيد الخُدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَاءٌ كالمهل»، قال: كَعَكَرِ الزيْت فإذا قُرِّب إليه سَقَطت فَرْوَةُ وَجْهِه فيه»[(٤)]. وهكذا رواه الترمذيّ في صفة النار من «جامعه»، من حديث رِشْدِينَ بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دَرّاج، به. ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث «رشدين»، وقد تُكُلِّمَ فيه من قِبلِ حفظه». هكذا قال، وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حَسَن الأشيب، عن ابنِ لَهيعة، عن دَرّاج، والله أعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٥٨٤ وأبو يعلىٰ ١٣٨٩، وأحمد ٣/٢٩، والحاكم ٤/٦٠٠ ـ ٦٠١ كلهم من حديث أبي سعيد، وابن لهيعة تابعه رشدين، لكن في رواية دراج عن أبي الهيثم ضعف، ومع ذلك صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وفي هذه الأحاديث يمكن التساهل.

(٢) إلىٰ هنا الحديث المرفوع، وما بعده من كلام يعلىٰ بن أمية، كما هو واضح في مسند أحمد.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣٠٣٦ وأحمد ٤/٢٢٣، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨٥٦٩: رجال أحمد ثقات.

(٤) تقدم تخريجه في سورة إبراهيم: ١٧.

[٤٣٨٢] وقال عبدُ الله بن المبارك، وبَقِيَّةُ بن الوليد، عن صفوان بن عَمْرو، عن عُبَيد الله بن بُسْرٍ، عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾، قال: «يُقرَّب إليه فيَتَكرَّهه، فإذا قُرِّب منه شَوَى وَجْهَهُ وَوَقَعتْ فَروةُ رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءَه، يقولُ الله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾»[1]. وقال سعيد بن جُبَير: إذا جاع أهل النار استغاثُوا بشجَرةِ الزقُّوم، فأكلُوا منها فاختَلَست جُلُودَ وجوههم، فلو أنَّ ماراً مرَّ بهم يَعْرِفهم لعرف جُلُود وجوههم فيها. ثم يُصَبُّ عليهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود. ولهذا قال تعالى بعد وَصْفه هذا الشرابَ بهذه الصفات الذَّميمة القبيحة: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾، أي: بئس هذا شَراباً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ [الغاشية: ٥]، أي: حارَّةٍ، كما قال تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٤٤]. ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، أي: وساءت النار مَنْزِلاً ومَقِيلاً ومجتمَعاً ومَوْضِعاً للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾

لما ذكر تعالى حالَ الأشقياء ثنَّى بذكر السُّعَداء الذين آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعَمِلوا بما أَمَروهم به من الأعمالِ الصالحة، فلَهم ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، والعَدْنُ: الإقامةُ. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: من تحت غُرَفهم ومنازِلهم، قال فرعون: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ الآية. ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، أي: من الحِلْيةِ ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾، وقال في المكان الآخر: ﴿وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، وفصَّله ها هنا فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، فالسندُس: ثيابٌ رِفاعٌ رِقاقٌ كالقمصان وما جَرَى مجراها، وأما الإستبرقُ فغَليظ الديباجِ وفيه بَريق. وقولُه: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾، الإتكاءُ قيل: الاضطجاع. وقيل: التربُّع في الجلوس. وهو أشبه بالمراد ها هنا.

[٤٣٨٣] ومنه الحديث الصحيح: «أما أنا فلا آكل متكئاً»[2]، فيه القولان. والأرائك: جمع أَريكة، وهي السَّرير تحت الحَجلةِ، والحَجَلةُ كما يعرفهُ الناسُ في زمَاننا هذا بالبَشْخَانة. والله أعلم. قال عبد الرزاق: أخبرنا معمرٌ، عن قتادةُ: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾، قال: هي الحِجالُ. قال معمَر: وقال غيره: السُّرُرُ في الحِجَال. وقولُه: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، أي: نِعْمَتِ الجنةُ ثواباً على أعمالهم، ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: حَسُنت منزلاً ومَقِيلاً ومقاماً، كما قال في النار: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾. وهكذا قابل بينهما في سورةِ الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦﴾.

---

(١) تقدم كسابقه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٣٩٨ والترمذي ١٨٣٠ وابن ماجه ٣٢٦٢ وأحمد ٤/٣٠٩ وابن حبان ٥٢٤٠ من حديث أبي جحيفة.

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

يقولُ تعالى بعد ذِكْرِهِ المشركين المستكبرين عن مُجَالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين، جعَل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، أي: بستانين من أعناب، محفوفَتَين بالنخل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزرُوع، وكلٌّ من الأشجار والزروع مثمر مُقبِلٌ في غاية الجودة، ولهذا قال: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾، أي: أخرجت ثمرها، ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾، أي: ولم تنقُصْ منه شيئاً، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾، أي: والأنهارُ تَتَخرَّق فيهما ها هنا وها هنا. (وَكَانَ لَهُ ثُمُرٌ) قيل: المرادُ المالُ. رُوِي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادةَ. وقيل: الثمار. وهو أظهر ها هنا، ويؤيده القراءة الأخرى. (وكان له ثُمْرٌ) بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثَمرَة، كخشَبَة وخشب. وقرأ آخرون: ﴿ثَمَرٌ﴾ بفتح الثاء والميم. ﴿فَقَالَ﴾، أي: صاحبُ هاتين الجنتين ﴿لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾، أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويرأسُ: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، أي: أكثر خَدَماً وحَشَماً وَوَلَداً. قال قتادة: تلك ـ والله ـ أمنيةُ الفاجر: كثرةُ المالِ وعزّةُ النَّفر.

وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، أي: بكفره وتَمرُّده وتَكبُّره وتَجبُّره وإنكاره المعادَ، ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، وذلك اغترارٌ منه، لمَّا رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطَّردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تَفنَى ولا تَفْرُغ ولا تَهلِك ولا تَتْلَف، وذلك لقلة عقله، وضعف يَقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكُفره بالآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، أي: كائنةً، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾، أي: ولئِن كانَ معاد ورَجْعَة وَمَردٌ إلى الله لَيَكونَنّ لي هناك أحسنُ من هذا لأني مُحظَىً عند ربي، ولولا كرامَتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]. وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم: ٧٧]، أي: في الدّار الآخرة، تَألّى على الله عز وجل. وكان سَبَبُ نزولها في العاص بن وائل، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة، وعليه التكلان.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبُه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عمّا هو فيه من الكفر بالله والاغترار: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾، وهذا إنكارٌ وتعظيم لما وَقَع فيه جُحود ربِّه، الذي خلَقه وابتدأ خَلْقَ الإنسان من طين، وهو آدم، ثم جعل نَسْلَه من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، أي: كيف تجحَدُون ربكم،

ودلالته عليكم ظاهرة جَلِيّة، كلُّ أحَدٍ يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلَم أنه كان مَعدُوماً ثم وُجِد، وليس وجودُه من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوفات، لأنه بمثابته، فَعُلِمَ استنادُ إيجادِهِ إلى خالقه، وهو الله، لا إله إلاَّ هُو، خالقُ كلِّ شيء، ولذا قال المؤمن: ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾، أي: أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالربوبية، والوحدانية، ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾، أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له. ثم قال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾: هذا تحضيض وحثٌّ على ذلك، أي: هلا إذ أعجبتك جَنّتُك حين دَخلْتها ونَظَرْتَ إليها حَمدْتَ الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يُعْطِ غيرك، وقلت: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ولده أو ماله، فليقل: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾. وهذا مأخوذٌ من هذه الآيةِ الكريمةِ.

[٤٣٨٤] وقد رُوِي فيه حديث مرفوع أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده. حدثنا جَرّاح بن مُخلَد، حدثنا عُمَر بن يونس، حدثنا عيسى بن عون، حدثنا عبد الملك بن زُرارة، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعَمَ الله على عبدٍ نعمةً من أهلٍ أو مالٍ أو وَلَدٍ، فيقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فيرى فيه آفةً دون الموت». وكان يتأوّل هذه الآية: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[١]. قال الحافظُ أبو الفتح الأزديُّ: عيسى بنُ عونٍ، عن عبد الملك بن زُرارة، عن أَنسٍ: لا يَصِحُّ حديثُه.

[٤٣٨٥] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا مُحمّد بن جعفر، حدثنا شعبةُ وحجاج، حدثني شعبة، عن عاصم بن عُبَيد الله، عن عبيد مولى أبي رُهْم، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أدُلُّك على كَنْزٍ من كُنُوزِ الجنّةِ؟ لا قوة إلا بالله»[٢]. تَفَرَّد به أحمَدُ.

[٤٣٨٦] وقد ثبت في الصحيح، عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلُّك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حَولَ ولا قُوّة إلا بالله»[٣].

[٤٣٨٧] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا بكير بن عيسى، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بَلْج، عن عَمْرو بن ميمون قال: قال أبو هُرَيرة: قال لي نبيُّ الله ﷺ: «يا أبا هُرَيرة، ألا أدلُّك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟ قال: قلت: نَعَم، فِدَاكَ أبي وأمي. قال: أن تقولَ: لا قُوّةَ إلا بالله. قال أبو بَلْج: وأحسَبُ أنه قال: فَإنَّ الله يقولُ: أسلم عبدي واستسلم. قال: فقلتُ لعمرو، قال أبو بَلْج: قال عَمْرو: قُلتُ لأبي هُرَيرة: لا حولَ ولا قوة إلا بالله؟ فقال: لا، إنها في سورة الكهف: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[٤].

---

(١) ضعيف، أخرجه الطبراني في «الصغير» ٥٨٨ و «الأوسط» كما في «المجمع» ١٧١٥١، وقال الهيثمي: عبد الملك بن زرارة، ضعيف. وانظر «الميزان» ٥٢٠٦. ونسبه ابن كثير لأبي يعلى، والظاهر أنه في المسند الكبير، والخبر ضعيف بكل حال.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٤٦٩ وإسناده لين، عبيد هو ابن كثير مقبول. والصحيح ما بعده.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٣٨٤ و٦٦١٠ ومسلم ٢٧٠٤ وأبو داود ١٥٢٨ والترمذي ٣٣٧١ وأحمد ٤/ ٤٠٢ وأبو يعلى ٧٢٥٢.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٣٣٥ و٣٠٩ والبزار ٣٠٨٦، وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٩٩ وقال: رواه أحمد والبزار بنحوه، =

وقولُه تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾، أي: على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تَبيد ولا تفنى، ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، قال ابن عباس، والضحاك، وقتادةُ، ومالك عن الزهريِّ: أي عذاباً من السماء. والظاهر أنه مَطَرٌ عظيم مزعج، يقلَع زَرْعَها وأشجارَها، ولهذا قال: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾، أي: بلقعاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قَدَمٌ. وقال ابن عباس: كالجرُزُ الذي لا ينبت شيئاً. وقولُه: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾، أي: غائراً في الأرض، وهو ضِدُّ النابع الذي يطلبُ وجهَ الأرض، فالغائر يطلبُ أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠]، أي: جارٍ وسائحٍ، وقال ها هنا: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾، والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه، كما قال الشاعر:

تَـظَـلُّ جِـيَـادُهُ نَـوْحـاً عَـلَـيْـه مُـقَـلَّـدَةً أعِـنَّـتَـهـا صُـفُـونـا

بمعنى: نائحاتٍ عليه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾: بأمواله، أو بثماره، على القول الآخر. والمقصودُ أنه وَقَع بهذا الكافر ما كان يحذَر، مما خَوَّفه به المؤمنُ من إرسال الحُسبان على جَنَّتِه التي اغتر بها وَأَلْهته عن الله عزَّ وجلَّ، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾، قال قتادة: يصفق كَفَّيه متأسفاً مُتلهِّفاً على الأموال التي أذهبها عليها. ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾، أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعزّ. ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ ـ اختلف القراء ها هنا، فمنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ﴾، أي: في ذلك الموطن الذي حَلَّ به عذاب الله، فلا منقذ له منه، ويبتدىء بقوله: ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾، ومنهم من يقف على: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾، ويبتدىء بقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾. ثم اختلفوا في قراءة ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾، فمنهم من فتح الواو، فيكون المعنى: هنالك المُوَالاة لله، أي: هنالك كلُّ أَحَدٍ من مؤمن أو كافر، يرجع إلى الله وإلى مُوَالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [غافر: ٨٤]، وكقوله إخباراً عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩١]. ومِنْهُم من كَسر الواو من ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾، أي: هنالك الحكمُ لله الحق. ثم منهم من رَفع ﴿ٱلْحَقُّ﴾، على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦]. ومنهم من خَفض القاف، على أنه نعت لله ـ عز وجل ـ كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾، أي: جزاءً ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾، أي: الأعمال التي تكون لله عزَّ وجلَّ ثوابها خير، وعاقبتها حَميدة رَشيدة، كُلُّها خير.

= ورجالهما رجال الصحيح، غير أبي بلج الكبير، وهو ثقة اهـ. قلت: وثقه ابن معين والنسائي والدارقطني، وقال البخاري: فيه نظر، وقال أحمد: روى حديثاً منكراً، وقال الجوزجاني: غير ثقة، وقال ابن حبان: كان يخطىء. فالخبر ضعيف بهذا اللفظ، والصحيح حديث أبي موسى المتقدم.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم﴾ يا محمد للناس ﴿مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾، في زوالها وفَنائها وانقضائها، ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، أي: ما فيها من الحَبّ، فشب وحَسُن، وعَلاه الزهرُ والنُّور والنُّضرةُ، ثم بعد هذا كلِّه ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابساً، ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ﴾، أي: تُفرِّقه وتَطرَحه ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾، أي: هو قادرٌ على هذه الحالِ وهذه الحالِ، وكثيراً ما يضرب الله مثلَ الحياة الدنيا بهذا المثل كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤]. . . الآية، وقال في سورة الـــزمـــر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾. وقال في سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوٓا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى الْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

[٤٣٨٨] وفي الحديث الصَّحيح: «الدنيا حُلْوَة خضِرة»[1]. وقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾، كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَٰتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَٰطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَٰمِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ الْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥]، أي: الإقبالُ عليه والتفرُّغُ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم، والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾، قال ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، وغير واحد من السلف: ﴿وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ﴾: الصلواتُ الخمس. وقال عطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ﴾: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وهكذا سُئِلَ أميرُ المؤمنين عثمان بنُ عفان ـ رضي الله عنه ـ عن ﴿وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ﴾، ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحانَ الله، والحمدُ لله، والله أكبر، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله.

[٤٣٨٩] رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن المقرىء، حدثنا حَيْوَةُ، أنبأنا أبو عقيل، أنه سَمِعَ الحارث مولى عثمان ـ رضي الله عنه ـ يقول: جلس عثمانُ يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا بماء في إناء، أظنه أنه سيكون فيه مُدّ، فتوضأ ثم قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يتوضأ وُضوئي هذا، ثم قال: من توضأ وُضوئي هذا، ثم قام فصلّى صلاة الظهر، غفرَ له ما كان بينها وبين الصبح، ثم صلّى العصر غُفر له ما بينها وبين الظهر، ثم صلّى المغرب غُفر له ما بينها وبين العصر، ثم صلّى العشاء غُفِر له ما بينها وبين المغرب، ثم لعله يبيتُ يتمرّغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلّى صلاة الصبح غُفر له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهن الحسناتُ يُذهِبْنَ السيئات. قالوا: هذه الحسناتُ، فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: هي لا إله إلا الله،

---

(١) تقدم.

وسبحانه الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله»[١]. تفرَّد به.

وروى مالك، عن عمارة بن عبد الله بن صياد، عن سَعِيد بن المُسَيَّب قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقال محمدُ بن عجلان، عن عُمارة قال: سألني سعيد بن المسيب عن ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، فقلت: الصلاة والصيام. قال: لم تُصِبْ. فقلت: الزكاةُ والحجُّ. فقال: لم تُصِبْ، ولكنَّهن الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقال ابنُ جُرَيج: أخبرني عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن نافع بن سرجس، أنه أخبره أنه سأل ابنَ عمر عن ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله. قاله ابنُ جُرَيج: وقال عطاء بن أبي رباح مثل ذلك. وقال مجاهد: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: سبحانَ الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الحسن وقتادة في قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، هُنّ الباقياتُ الصالحاتُ.

[٤٣٩٠] قال ابنُ جرير: وجَدت في كتابي عن الحسن بن الصباح البزار، عن أبي نصر التمار، عن عبد العزيز بن مسلم، عن محمد بن عجلان، عن سعيدٍ المُقبريِّ، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، مِنَ الباقيات الصالحات»[٢].

[٤٣٩١] قال: وحدثني يونس، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث، أن دَرّاجاً أبا السَّمْح حَدّثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ أن رسول الله ﷺ قال: استكثِرُوا من الباقياتِ الصَّالحاتِ. قيل: وما هُنَّ يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: المِلَّةُ. قيل: وما هِيَ يا رسول الله؟ قال: التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله[٣]. وهكذا رواه أحمد، من حديث دراج، به.

[٤٣٩٢] وبه قال ابن وهب: أخبرني أبو صخر أن عبد الله بن عبد الرحمن، مولى سالم بن عبد الله حَدّثه قال: أرسلني سالم إلى محمد بن كعب القُرَظي، فقال: قُل له: الْقَني عند زاويةِ القبر، فإنَّ لي إليك حاجةً. قال: فالتقيا، فَسَلَّم أحدُهما على الآخر، ثم قال سالم: ما تعدُّ الباقياتِ الصالحاتِ؟ فقال: لا إله إلا الله، وسبحانَ الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فقال سالم: متى جعلتَ فيها «لا حولَ ولا قوة إلا بالله»؟ فقال: ما زلت أجعلها، قال: فراجعتُه مرتين أو ثلاثاً، فلم يَنْزع، قال: فَأَبْت. قال سالم: أجل فَأَبْت؛ فإن أبا أيّوب الأنصاري حَدّثني أنه سَمِع رسول الله ﷺ وهو يقول: «عُرِج بي إلى السماء فأَريتُ إبراهيم عليه السلام، فقال: يا جبريلُ، من هذا معك؟ فقال: محمد. فَرَحَّب بي وسَهَّل، ثم قال: مُرْ أُمّتك فَلْتُكثر من غِراسِ الجنة، فإنَّ تربتها طَيِّبة، وأرضَها واسعةٌ. فقلت: وما غِراسُ الجنة؟ قال: لا حولَ ولا قُوَّةَ إلاَ بالله[٤].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٧١ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١/ ٢٩٧ وقال: ورجاله رجال الصحيح غير الحارث بن عبد الله، وهو ثقة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣١٠٠ وجادة، وهي أضعف أنواع تحمل الحديث. لكن للحديث ما يؤيده. وأخرجه الطبراني في «الصغير» ٤٠٧ من حديث أبي هريرة من وجه آخر بنحوه وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٨٨: ورجال الصغير، رجال الصحيح غير داود بن بلال، وهو ثقة اهـ.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣١٠٢ وإسناده ضعيف لضعف دراج، لكن له شواهد، راجع «المجمع»، ١٠/ ٨٨ ـ ٩١.

(٤) أخرجه الطبري ٢٣٠٩٩ وإسناده ضعيف لضعف أبي صخر واسمه حميد بن زياد.

[٤٣٩٣] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن يزيد، عن العَوَّام، حدثني رجل من الأنصار من آل النعمان بن بَشِير، عن النعمان بن بَشير، قال: خَرَج علينا رسولُ الله ﷺ ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلى السماء ثم خَفَض، حتى ظَنَنَّا أنه قد حَدَث في السماء شيءٌ، ثم قال: أما إنه سيكونُ بعدي أمراء، يَكْذِبون ويَظْلِمون، فمن صَدَّقهم بِكَذِبهم ومَالأهم على ظُلْمهم فليس مِنِّي ولا أنا منه، ومن لم يُصَدِّقهم بِكَذِبهم ولم يمالئهم على ظلمهم، فهو مني وأنا منه. ألا وإنَّ «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» هُنّ الباقياتُ الصالحاتُ»[١].

[٤٣٩٤] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن زيد، عن أبي سلام، عن مَولَى لرسول الله ﷺ أن رسول الله قال: بَخٍ بَخٍ لخمس ما أثقلَهُنّ في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يُتَوفَّى فَيحتسبه والده. وقال: بخٍ بخٍ لخمس، من لقي الله مستيقناً بهنّ دخل الجنة، يؤمن بالله، واليومِ الآخِرِ، وبالجنةِ والنارِ، وبالبعثِ بعد الموتِ، وبالحساب»[٢].

[٤٣٩٥] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا روح، حدثنا الأوزاعي، عن حَسَّانَ بن عطية قال: كان شداد بنُ أوس ـ رضي الله عنه ـ في سفر فَنَزَل منزلاً، فقال لغُلامه: «ائتنا بالشَّفرة نَعْبَثُ بها». فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمتُ بكلمةٍ منذ أسلمت إلا وأنا أخْطِمُها وأَزُمُّها غير كلمتي هذه. فلا تحفظوها علي، واحفَظُوا ما أقول لكم: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا كَنَز الناسُ الذهبَ والفضةَ فاكنِزُوا هؤلاء الكلماتِ: اللهمَّ إني أسألك الثباتَ في الأمر، والعَزِيمةَ على الرُّشدِ، وأسألك شُكْرَ نِعْمَتِك، وأسأَلُك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذُ بك من شَرِّ ما تعلم، وأستغفرك لما تَعْلَم، إنّك أنت عَلاّمُ الغُيُوب»[٣]. ثم رواه أيضاً النسائي من وجه آخر، عن شداد، بنحوه.

[٤٣٩٦] وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا محمد بن سعد العوفي، حدثني أبي، حدثنا عمي الحسين، عن يونس بن نُفَيع الجَدَلي، عن سعد بن جُنادةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: كنتُ في أوّل مَنْ أتى النبي ﷺ من أهل الطائف، فخرجت من أهلي من السَّراةِ غُدْوَة، فأتيتُ مِنًى عند العَصْرِ، فتصاعدتُ في الجبل ثم هبطتُ، فأتيت النبي ﷺ فأسلمتُ، وعَلَّمني: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾، و ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، وعلمني هؤلاء الكلمات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وقال: «هن الباقيات الصالحات»[٤].

[٤٣٩٧] وبهذا الإِسناد: «من قام من الليل فتوضأ ومَضْمَضَ فاه، ثم قال: سبحانَ الله مائةَ مرّةٍ، والحمدُ لله مائةَ مرّةٍ، والله أكبر مائةَ مرّةٍ، ولا إله إلا الله مائةَ مرّةٍ ـ غُفِرَت ذنوبُه إلا الدماءَ فإنها لا تبطُل»[٥].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، قال: هي ذكرُ الله، قولُ: لا إلهَ

---

(١) أخرجه أحمد ٤/٢٦٧ ـ ٢٦٨ وفي إسناده رجل لم يسمّ، لكن لصدره شواهد في كتاب أحاديث الإمارة، ولعجزه شواهد، وهي المتقدمة. فالمتن حسن إن شاء الله.

(٢) أخرجه أحمد ٣/٤٤٣ و٤/٢٣٧ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/٨٨ وقال: ورجاله رجال الصحيح، والصحابي الذي لم يسم هو ثوبان إن شاء الله.

(٣) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ٣٥.

(٤) أخرجه الطبراني ٥٤٨٢، قال الهيثمي في «المجمع» ١١٦٧٦: فيه الحسين بن الحسن العوفي، وهو ضعيف اهـ قلت: لكن لعجزه شواهد، وهي المتقدمة.

(٥) إسناده كسابقه، وأصل هذا الحديث في الصحيح.

إلاّ الله، والله أكبرُ، وسبحانَ الله، والحمدُ لله، وتباركَ الله، ولا حَوْلَ ولا قُوّةَ إلا باللّهِ، وأستغفرُ الله وصَلّى الله على رسول الله، والصيامُ، والصلاةُ، والحجُّ والصدقَةُ، والعِتْقُ، والجِهادِ، والصِّلَةُ، وجميعُ أعمالِ الحسناتِ. وَهُنّ الباقياتُ الصالحاتُ، التي تبقى لأهْلِها في الجنةِ ما دامت السمٰوات والأرض. وقال العوفي، عن ابن عباس: هُنّ الكلام الطيِّبُ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلُها، واختاره ابن جرير رحمه الله.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكونُ فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطور: ٩ ـ ١٠]، أي: تذهبُ من أماكِنها وتزولُ، كما قال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٥]، وقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧]، يقولُ تعالى: إنه تذهبُ الجبالُ، وتتساوى المهادُ، وتبقى الأرضُ ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾، أي: سطحاً مستوياً لا عِوَج فيه، ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾، أي: لا وادي ولا جبل. ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، أي: باديةً ظاهرةً، ليس فيها مَعْلَم لأحد ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم، لا تخفى عليه منهم خافية. قال مجاهدٌ، وقتادةُ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، لا خَمَرَ فيها ولا غَيابةَ. وقال قتادةُ: لا بِناءَ ولا شجَرَ. وقولُه: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، أي: وجَمعناهم، الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحداً، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩ ـ ٥٠]. وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقولُه تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾، يحتمل أن يكونَ المراد: أنّ جميع الخلائق يقومُون بين يَدَي الله صفّاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: ٣٨]، ويحتمل أن يقوموا صفوفاً صفوفاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]. وقولُه: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾: هذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخٌ لهم على رؤوس الأشهاد، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾، أي: ما كان ظَنُّكم أن هذا واقعٌ بكم، ولا أن هذا كائن. وقولُه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، أي: كتابُ الأعمالِ الذي فيه الجليل والحقير، والفَتيل والقِطْمير، والصغير والكبير، ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾، أي: من أعمالهم السيّئة وأفعالِهم القبيحةِ، ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾، أي: يا حسرَتَنا وويلنا على ما فَرّطنا في أعمارنا، ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾، أي: لا يتركُ ذنباً صَغيراً ولا كبيراً ولا عَملاً وإن صَغُر، ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾، أي: ضبطها وحَفِظَها.

[٤٣٩٨] وروى الطبراني، بإسناده المتقدم في الآية قبلها، إلى سَعْدِ بن جُنادة قال: لما فَرَغ رسول الله ﷺ من غزوة حُنَين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ: اجمعوا، من وَجَد عُوداً فلْيأت

به، ومن وجد حَطَباً أو شيئاً فليَأتِ به. قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه رُكاماً، فقال النبي ﷺ: أترون هذا؟ فكذلك تُجمعُ الذنوبُ على الرجل منكم كما جَمَعْتم هذا. فَلْيتَّقِ الله رجلٌ ولا يذنب صغيرةً ولا كبيرةً، فإنها مُحصَاةٌ عليه»[١].

وقولُه تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾، أي: من خَير أو شرّ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩]، أي: تَظهَرُ المخبآتُ والضمائر.

[٤٣٩٩] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شُعْبةُ، عن ثابتٍ، عن أَنَسٍ، عن النبي ﷺ قال: «لكل غادِرٍ لواءٌ يوم القيامة يُعرَفُ به»[٢]. أخرجاه في الصَّحيحَين.

[٤٤٠٠] وفي لفظٍ: «يُرْفَعُ لِكُلِّ غادِرٍ لواءٌ يوم القيامةِ عند استِهِ بِقَدْرِ غدْرَته، يقال: هذه غَدْرَة فلان بن فلان»[٣].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، أي: فيحكُم بين عباده في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يعفُو ويصفَحُ ويغفِر ويرحَمُ، ويُعَذِّب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأُ النار من الكفّار وأصحاب المعاصي، ثم ينجِّي أصحاب المعاصي ويُخَلِّد فيها الكافرين، وهو الحاكمُ الذي لا يجورُ ولا يظلِمُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]. والآيات في هذا كثيرة.

[٤٤٠١] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ، أخبرنا هَمّام بن يحيى، عن القاسم بن عبد الواحد المكي، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، أنه سَمِعَ جابر بن عبد الله يَقول: بلغني حديثٌ عن رَجُلٍ سَمِعه من رسول الله ﷺ فاشتريت بعيراً ثم شَدَدتُ عليه رحلي، فَسِرْت عليه شهراً، حتى قَدِمت عليه الشام، فإذا عبدُ الله بن أُنيسٍ. فقلت للبواب: قل له: جابرٌ على الباب. فقال: ابنُ عبد الله؟ قلت: نعم. فخَرَج يَطأ ثوبه، فاعتَنَقني واعتنقته، فقلت: حديثٌ بلَغَني عنك أنك سَمِعتَه من رسول الله ﷺ في القصاص، فَخَشِيتُ أن تموتَ أو أموتَ قبل أن أسمَعَه. فقال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: يَحشُر الله ـ عزَّوجلَّ ـ الناسَ يومَ القيامة، أو قال: العبادَ، عُراةً غُرْلاً بُهماً ـ قلتُ: وما بُهماً؟ قال: ليس معهم شيء ـ ثم يناديهم بصوتٍ يسمَعُه من بعد، كما يسمَعُه من قَرُب: أنا الملك، أنا الديّان، لا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخلَ النار وله عند أحدٍ من أهل الجنة حقٌّ، حتى أُقِصَّه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وله عند أحدٍ من أهل النار حَقٌّ حَتّى أُقِصَّه منه حتى اللَّطمةُ. قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي الله عُراةً غُرْلاً بُهماً؟ قال: بالحسَنَاتِ والسيِّئَاتِ»[٤].

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ٥٤٨٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ١٩٠: وفيه نفيع بن داود، وهو ضعيف.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣١٨٧ ومسلم ١٧٣٧ وأحمد ٣/ ١٤٢ وأبو يعلى ٣٣٨٢.

(٣) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٢٤.

(٤) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٣٤٥: ورجاله وثقوا.

[٤٤٠٢] وعن شعبة، عن العَوّام بن مُزاحم، عن أبي عُثمانَ، عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الجَمّاء لتقتصُّ من القَرْناء يوم القيامة». رواه عبد الله ابنُ الإمام أحمدَ. وله شواهدُ من وجوهٍ أُخَرَ، قد ذكرناها عند قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، وعند قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1] [الأنعام: ٣٨].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

يقولُ تعالى مُنَبِّهاً بني آدم على عَداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومُقَرِّعاً لمن اتَّبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، وهو الذي أنشأه وابتداه، وبألطاف رزقه غذَاه، ثم بعد هذا كُلِّه والى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، أي: لجميعِ الملائكةِ، كما تقدم تقريره في أول سورة «البقرة». ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾، أي: سجودَ تشريفٍ وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر، الآيتان ٢٨ ـ ٢٩]. وقولُه: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: خانه أصلُه، فإنه خلق من مارج من نارٍ، وأصلُ خَلْق الملائكة من نور.

[٤٤٠٣] كما ثبت في صحيح مسلم، عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خُلِقَت الملائكة من نور، وخُلق إبليس من مارج من نار، وخُلِق آدم مما وُصِفَ لكم»[2]. فعند الحاجة نَضَح كُلُّ وعاءٍ بما فيه، وخانَه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعالِ الملائكة وتَشَبُّه بهم، وتَعَبُّد وتَنَسُّك، فلهذا دخلَ في خطابهم، وعَصَى بالمخالفة. ونَبَّه تعالى ها هنا على أنه ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: إنه خُلِق من نار، كما قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]. قال الحسنُ البصري: ما كان إبليسُ من الملائكةَ طَرْفَةَ عين قَطُّ، وإنه لأصلُ الجِنِّ، كما أن آدم ـ عليه السلام ـ أصل البشر. رواه ابنُ جرير بإسنادٍ صحيحٍ عنه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: كان إبليسُ من حيٍّ من أحياء الملائكة، يقال لهم «الجنُّ»، خلقوا من نار السَّمُوم من بين الملائكة، وكان اسمُه الحارث، قال: وكان خازِناً من خُزّان الجنة، [قال:] وخُلقت الملائكة من نور غَيْرَ هذا الحي، قال: وخُلِقت الجنُّ الذين ذُكِروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت. وقال الضحاك أيضاً، عن ابن عباس: كان إبليسُ من أشرف الملائكةِ وأكرَمهم قبيلَة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض، وكان مما سَوَّلت له نفسُه من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شَرَفاً على أهل السماء، فوقع من ذلك في قَلْبِهِ كبرٌ لا يعلَمُه إلا الله. فاستخرج الله ذلك الكِبْرَ منه حين أمره بالسُّجودِ لآدَمَ، ﴿وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، قال ابن عباس: وقوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، أي: من خُزّان الجنان، كما يُقال للرجل: مَكّي، ومَدَني، وبَصْرِي، وكُوفي. وقال ابن جريج، عن ابن عباس، نحو ذلك.

---

(١) وتقدم تخريج الحديث هناك.

(٢) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية ١٢.

وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: هو من خُزّانِ الجَنّة، وكان يُدَبِّر أمر السماء الدنيا. رواه ابن جرير من حديث الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد، به. وقال سعيدُ بن المسيَّب: كان رئيسَ ملائكةِ سماء الدنيا. وقال ابن إسحاق، عن خلاد بن عطاء، عن طاووس، عن ابن عباس قال: كان إبليسُ قبل أن يركب المعصية من الملائكة، اسمُه عزازيل، وكان من سُكّان الأرضِ. وكان من أشدِّ الملائكةِ اجتهاداً وأكثَرِهم علماً، فذلك دعاه إلى الكِبْر، وكان من حَيٍّ يسمون جِنّاً.

وقال ابن جُريج، عن صالح مولى التَّوأمة وشريك بن أبي نَمِر، أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة من الجنّ، وكان إبليس منها، وكان يَسُوس ما بين السماء والأرض. فَعَصى، فَسَخِط الله عليه، فمسخه شيطاناً رجيماً ـ لعنه الله ـ مَمسُوخاً، قال: وإذا كانت خطيئةُ الرَّجُل في كِبْرٍ فلا تَرْجُه، وإذا كانت في مَعصيةٍ فارجُه. وعن سعيد بن جُبَير أنه قال: كان من الجَنّانين، الذين يعملون في الجنة. وقد رُوي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تُنقل لِيُنظَر فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يُقطَع بكذبه لمخالفته الحقّ الذي بأيدينا، وفي القرآن غُنْيَةٌ عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين يَنفُونَ عنها تَحريفَ الغالين وانتحالَ المبطلين، كما لهذه الأمةِ من الأئمة العُلَماء، والسادةِ الأتقياءِ، البَرَرةِ النجباء، من الجهابذة النُّقّاد، والحُفّاظ الجيّاد، الذين دَوّنوا الحديثَ وحَرّرُوه، وبَيّنُوا صَحيحه من حَسَنِهِ، من مُنكَره وموضُوعه، ومَتروُكه ومَكذُوبه، وعَرَفوا الوضّاعين والكذّابين والمجهولينَ، وغير ذلك من أصناف الرجال، كُلُّ ذلك صيانةٌ للجَناب النبويِّ والمقام المحمديِّ، خاتَم الرسل، وسيِّد البشر ـ عليه أفضلُ التحيّات والصلوات والتسليمات ـ أن يُنسَب إليه كَذِبٌ، أو يُحدّث عنه بما لَيس منه. فَرضي الله عنهم وأرضاهم، وجَعَل جناتِ الفِرْدَوسِ مأواهم، وقد فَعَل.

وقولُه تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، أي: فَخرَج عن طاعة الله، فإن الفسق هو الخُروج، يُقال: «فَسقت الرُّطَبَة»: إذا خرجت من أكمامها «وفَسَقت الفأرة من جُحْرها»: إذا خرجت منه للعَيْث والفساد. ثم قال تعالى مُقَرِّعاً وموبِّخاً لمن اتبعه وأطاعه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾، أي: بَدلاً عنّي، ولهذا قال: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾. وهذا المقامُ كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومَصِير كلٍّ من الفريقين السُّعَداء والأشقياء في سورة يسٓ: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتُموهم أولياء من دوني عَبيدٌ أمثالُكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خَلْقِي للسموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقلُّ بخلق الأشياء كُلِّها، ومُدَبِّرُها ومُقَدِّرها وَحْدي، ليس معي في ذلك شَريك ولا وَزير، ولا مُشِير ولا نَظِير، كما قال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبا: ٢٢]. . . الآية. ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾. قال مالك: أعْواناً.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى مُخبراً عما يُخاطِبُ به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، تقريعاً لهم وتوبيخاً: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: في الدار الدنيا، ادعوهم اليوم، يُنقِذُونكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾، كما قال: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص: ٦٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]. . . وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾، قال ابن عباس، وقتادة، وغير واحد: مَهْلِكاً. وقال قتادةُ: ذُكر لنا أنَّ عَمْراً البِكَاليَّ حدث عن عبد الله بن عَمرو وقال: هو وادٍ عميق، فُرِق به يومَ القيامة بين أهل الهُدَى وأهلِ الضَّلَالَةِ. وقال قتادةُ: ﴿مَّوْبِقًا﴾: وادياً في جهنم.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سنان القَزَّاز، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيدُ بن درْهَم، سمعتُ أنس بن مالك يقول في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾، قال: وادٍ في جهنم، من قَيْح ودَم. وقال الحسن البصريُّ: ﴿مَّوْبِقًا﴾عداوةً. والظاهرُ من السياق ها هنا: أنه المَهْلِكُ، ويجوز أن يكون وادياً في جهنَّم أو غيره، إلا أن الله تعالى أخبر أنه لا سبيلَ لهؤلاء المشركين، ولا وصولَ لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعُمون في الدنيا، وأنه يُفرِّق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاصَ لواحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مَهْلِك وهَولٌ عظيم وأمرٌ كبيرٌ. وأما إن جعل الضميرُ في قوله: ﴿بَيْنَهُم﴾، عائداً إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبدُ الله بن عَمرو: إنهُ يُفرِّق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس: ٢٨ ـ ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾، أي: إنهم لما عاينوا جَهنَّم حين جيء بها تُقاد بسبعين ألف زِمَام، مع كلِّ زمام سبعون ألفَ مَلَكٍ، فإذا رأى المجرمون النار، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكونَ ذلك من باب تعجيل الهمِّ والحزن لهم، فإنَّ توقُّع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذابٌ ناجز؛ وقوله: ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾، أي: وليس لهم طريقٌ يعدلُ بهم عنها، ولا بدَّ لهم منها.

[٤٤٠٤] قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابنُ وَهب، أخبرني عَمرو بن الحارث، عن دَرَّاج، عن أبي الهيثَم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الكافِرَ لَيَرَى جهنم فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة»[1].

[٤٤٠٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا حسنٌ، حدثنا ابن لَهيعَة، حدثنا دَرَّاج، عن أبي الهَيثَمِ، عن أبي

(١) أخرجه الطبري ٢٣١٥٤ بهذا الإسناد، وانظر ما بعده.

سَعيدِ الخُدْرِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنصَب الكافر مقدارُ خمسين ألف سنة كما لم يعمل في الدنيا. وإن الكافر ليرى جهنم، ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة»[(١)].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى: ولقد بيّنا للناس في هذا القرآن، ووضّحنا لهم الأمور وفصّلناها لِئَلاً يَضِلُّوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهُدَى. ومع هذا البيان وهذا الفُرقان الإنسانُ كثيرُ المجادلة والمخاصَمَةِ والمعارضَةِ للحقّ بالباطل، إلا من هَدَى الله وبَصّره لطريق النجاة.

[٤٤٠٦] قال الإمام أحمد: حَدَّثنا أبو اليَمَان، أخبرنا شُعَيب، عن الزُّهري، أخبرني عليُّ بن الحسن، أَنّ حسين بن علي أخبره، أنّ علي بن أبي طالب أخبرَه، أنّ رسول الله ﷺ طَرَقَهُ وفاطمةَ بنت رسول الله ﷺ ليلةً، فقال: ألاَ تُصَلِّيان؟ فقلتُ: يا رسول الله، إنما أنفُسنا بيَدِ الله، فإذا شاءَ أن يبعثنا بَعَثنا. فانصرف حين قلت ذلك، ولم يَرْجِع إليّ شيئاً، ثم سمعته وهو مُولٍّ يضربُ فَخِذَه ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[(٢)]. أخرجاه في الصحيحين.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

يخبر تعالى عن تَمَرُّد الكفرة في قَدِيم الزمان وحَدِيثه، وتَكْذِيبهم بالحقّ البيِّن الظاهر، مع ما يشاهدون من الآيات والآثار والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طَلبهم أن يشاهِدُوا العَذاب الذي وُعِدُوا به عِياناً، كما قال أولئك لنبيِّهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وآخرون قالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. وقالت قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾ [الحجر: ٦، ٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم قال عزّ وجلّ: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾، من غِشيانهم بالعذاب، وأَخْذِهم عن آخرهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾، أي: يَرَونه عياناً مواجهةً ومقابلةً، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، أي: قبل العذاب مُبَشِّرين من صَدَّقهم وآمن بهم، ومُنْذِرين مَنْ كَذَّبهم وخالَفَهُم. ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ﴾ أي: لِيُضعِفوا به ﴿الْحَقَّ﴾ الذي جاءتهم به الرسلُ، وليس ذلك بحاصل لهم.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥ وأبو يعلى ١٣٨٥ والحاكم ٤/ ٥٩٧ وصححه، ووافقه الذهبي، وكذا حسنه الهيثمي ١٠/ ٣٣٦ «مجمع» مع أنه من رواية درّاج عن أبي الهيثم، وفيها ضعف. لكن ورد من طريق آخر عن دراج عن ابن حجيرة، وهو ثقة، عن أبي هريرة مرفوعاً، أخرجه ابن حبان ٧٣٥٢، ودراج حسن الحديث في روايته عن غير أبي الهيثم، وقد حسن إسناده الشيخ شعيب، والله تعالى أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١١٢٧ و٤٧٢٤ ومسلم ٧٧٥ والنسائي في «التفسير» ٣٢٥ وأحمد ١/ ٩١ وابن حبان ٢٥٦٨.

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾، أي: اتخذوا الحُجَجَ والبراهين وخَوارق العادات التي بُعِث بها الرسلُ وما أنذروهم وخوَّفوهم به من العذاب ﴿هُزُوٗا﴾، أي: سَخِرُوا منهم في ذلك، وهو أشدُّ التكذيب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٗاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدٗا ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى: وأيُّ عبادِ الله ﴿أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: تناساها وأعرض عنها، ولم يصغ لها، ولا ألقى إليها بالاً، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ﴾، أي: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةً﴾، أي: أغطيةً وغشاوةً، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾، أي: لئلاَّ يفهَمُوا هذا القرآن والبيان، ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٗاۖ﴾، أي: صَمَمٌ معنوي عن الرشاد، ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ﴾، أي: ربُّك ـ يا محمد ـ غفورٌ ذو رحمةٍ واسعةٍ، ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ﴾، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]. والآياتُ في هذا كثيرةٌ. ثم أخبر أنه يَحلُم ويستُر ويَغفِر، وربَّما هدى بَعضَهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمرَّ منهم فله يومٌ يَشِيبُ فيه الوليد، وتَضَع كلُّ ذات حمل حملها. ولهذا قال: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلٗا﴾، أي: ليس لهم عنه مَحيدٌ ولا مَحيصٌ ولا مَعْدِلٌ. وقولُه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾، أي: الأمم السالفةُ والقرون الخاليةُ أهلكناهم بسبب كُفرهم وعِنادهم، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدٗا﴾، أي: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معلوم معين، لا يزيد ولا ينقُص، أي: وكذلك أنتم أيها المشركون احذَرُوا أن يُصِيبَكُم ما أصابَهم، فقد كَذَّبتم أشرفَ رسولٍ وأعظَم نَبيٍّ، ولستم بأعزَّ علينا منهم، فخافوا عذابي ونُذُري.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبٗا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبٗا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدٗا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةٗ مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمٗا ﴿٦٥﴾﴾

سَبَبُ قول موسى ـ عليه السلام ـ لفتاه، وهو يُوشَعُ بن نُونٍ، هذا الكلامَ: أنه ذُكر له أنَّ عبداً من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحطْ به موسى، فأحبَّ الذَّهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، أي: لا أزال سائراً حتى أبلُغَ هذا المكانَ الذي فيه مجمَعُ البحرين، قال الفرزدق:

فَمَا بَرِحُوا حَتَّى تَهَادَتْ نِسَاؤُهُمْ ... بِبَطْحَاءِ ذي قارٍ، عِيابَ اللَّطَائِمِ

قال قتادةُ وغيرُ واحد: وهما بحرُ فارس مما يلي المشرق، وبحرُ الروم مما يلي المغرب. وقال محمد بن كعب القُرَظي: مجمعُ البحرين عند طنجَةَ، يعني في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم. وقولُه: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾، أي: ولو أني أسير حقباً من الزمان. قال ابن جرير رحمه الله: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقب في لغة قيس سَنَةٌ. ثم رَوَى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحُقُب ثمانون سنة. وقال مجاهد: سَبْعُون خريفاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾، قال: دهراً. وقال قتادة وابنُ زيد مثل ذلك. وقولُه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وذلك أنَّه كان قد أُمِر بحمل حُوت مملُوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثَمَّة. فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهنالك عين يقال لها: عين الحياة، . فناما هنالك، وأصاب الحوتَ من رَشَاش ذلك الماء، فاضطرب، وكان في مِكْتَلٍ مع يُوشَع، وطَفَر[1] من المِكْتَل إلى البحر، فاستيقظ يُوشَع ـ عليه السلام ـ وسقط الحوت في البحر وجعل يسير فيه، والماءُ له مثل الطاق لا يلتئم بعده، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾، أي: مثل السَّرَب في الأرض. قال ابن جُريج: قال ابن عباس: صار أثرُه كأنه حَجَر، وقال العوفي، عن ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يَبِس، حتى يكون كَصَخْرَةٍ.

[٤٤٠٧] وقال محمد ـ هو ابن إسحاق ـ عن الزُّهريِّ، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن أُبيِّ بن كَعْب قال: قال رسولُ الله ﷺ حين ذكر حديثَ ذلك: ما انجابَ ماءٌ منذ كان الناسُ غيرُه، ثبت مكان الحوت الذي فيه، فانجاب كالكُوَّة حتى رجع إليه موسى فرأى مَسْلَكه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾[2]. وقال قتادةُ: سَرَب من البَرِّ[3] حتى أفضىٰ إلى البحر، ثم سَلَك فيه فجعَلَ لا يسلُك فيه طريقاً إلا صار ماء جامداً.

وقولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾، أي: المكانَ الذي نَسِيا الحوتَ فيه، ونُسب النسيان إليهما وإن كان يُوشَع هو الذي نَسِيه، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من المالح على أحد القولين. فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه مَرْحَلَةً ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾، أي: الذي جاوزا فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾، يعني تعباً. ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾، قال قتادة: وقرأ ابن مسعود: «أذكركه». ولهذا قال: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾، أي: طريقه ﴿فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾، أي: هذا الذي نطلب، ﴿فَٱرْتَدَّا﴾، أي: رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾، أي: طريقهما ﴿قَصَصًا﴾، أي: يَقُصَّان أثر مشيهما، ويقفُوان أثرهما. ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾، وهذا هو الخَضِرُ عليه السلام، كما دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة بذلك عن رسول الله ﷺ.

[٤٤٠٨] قال البخاريّ: حدثنا الحُمَيديُّ، حدثنا سفيان، حدثنا عَمْرو بن دينار، أخبرني سَعيد بن جُبَير قال: قلتُ لابن عباس: إن نَوفاً البِكَاليّ يزعُم أن موسى صاحبَ الخَضِر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيلَ. قال ابنُ عباس: كَذَب عَدُوُّ الله. حدثنا أُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ أنه سَمِع رسول الله ﷺ يقول: إنّ موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فَسُئِل: أيُّ الناس أعلمُ؟ فقال: أنا. فَعَتَب الله عليه إذ لم يَرُدَّ

(١) المكتل: زنبيل يُعمل من خوص. وطفر: وثب.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣١٨٥، بإسناد ضعيف، ابن إسحق مدلس، وقد عنعن.

(٣) كذا في الأصل والذي في تفسير الطبري ٢٣١٨٧ «الجزّ» بدل «البر». والجز: الحبل.

العِلْم إليه، فأوحى الله إليه: إنّ لي عبداً بمجمَع البحرين هو أعلَمُ منك. فقال موسى: يا ربِّ، وكيفَ لي به؟ قال: تأخذُ معك حُوتاً، فتجعَلُه في مكتَلٍ، فحيثما فقدت الحوتَ فهو ثَمَّ. فأخذ حُوتاً، فجعله بِمكْتَل، ثم انطلق وانطلق معه فَتَاه يُوشَع بن نُونٍ عليهما السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وَضَعا رؤوسهما فنَاما، واضطرب الحوتُ في المِكْتَلِ، فخَرجَ منه، فَسقط في البحر، فاتَّخذ سبيله في البحر سَرباً، وأمسَكَ الله عن الحوت جِرْيَةَ الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نَسِيَ صاحبُه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغَد قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾. ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوَزا المكان الذي أمره الله به. قال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾. قال: فكان للحوت سَرباً ولموسى ولفتاه عَجَباً، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، قال: فرجعا يَقُصّان أثرهما، حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رَجُلٌ مُسَجّىً بثوب، فسلَّم عليه موسى، فقال الخَضِرُ: وَأنّى بأرضك السلام. قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتُعلِّمني مما عُلِّمت رشداً. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾، يا موسى، إني على علم من عِلْم الله عَلَّمَنيه، لا تعلَمُه أنت، وأنت على علم من عِلْم الله عَلَّمَكَه الله لا أعلَمُه. فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾. قال له الخَضِرُ: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرّت سفينة فكلَّموهم أن يحمِلُوهم فعَرفوا الخَضِرَ، فحَملوهم بغير نَول، فلما ركبا في السفينة لم يَفجَأْ إلا والخَضِر قد قَلَع لوحاً من ألواح السفينة بالقَدُوم، فقال له موسى: قد حَمَلونا بغير نَولٍ، عَمَدْتَ إلى سفينتهم فَخرقتها، لِتُغرِق أهلها؟. لقد جئت شيئاً إمراً. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾، قال: وقال رسول الله ﷺ: «وكانت الأولى من موسى نسياناً». قال: وجاء عصفور فوقَعَ على حَرْفِ السفينة، فنقر في البحر نَقْرَةً، فقال له الخَضِرُ: ما عِلْمي وعِلمُك في علم الله إلاَّ مثل ما نقصَ هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخَضِرُ غلاماً يلعَب مع الغلمان، فأخذ الخَضِرُ رأسه بيده، فاقتلعه بيده فَقَتله، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾. قال: وهذه أشدُّ من الأولى. ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، قال: مائل، فقال الخَضِرُ بيده ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾. فقال رسول الله ﷺ: «وَدِدْنا أنَّ موسى كان صَبر حتى يَقُصّ الله علينا من خبرهما». قال سعيد بن جُبَير: كان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينةٍ صالحة غصباً»، وكان يقرأ: «وأما الغلامُ فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين»[1].

[٤٤٠٩] ثم رواه البخاريُّ عن قتيبة، عن سفيان بن عُيينة، فذكر نحوه، وفيه: «فخرج موسى ومعه فتاه يُوشَعُ بن نون، ومعهما الحوتُ حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها، قال: فوضع موسى رأسه فنام، قال سفيان: وفي حديث غير عمرو قال: وفي أصل الصَّخرة عَين يقال لها الحياة، لا يصيب من مائها شيءٌ إلا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢٥ وأحمد ٥/ ١١٧ و١١٨ ومسلم ٢٣٨٠ وأبو داود ٤٧٠٧ والترمذي ٣١٤٩ وابن حبان ٦٢٢٠ من طرق عن سفيان به.

حَيِيَ، فأصاب الحوت من ماء تلك العين، قال: فتحرك وانسلَّ من المِكْتَل، فدخل البحر، فلما استيقظ قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾. الآية قال، وساقَ الحديث: «ووقع عصفورٌ على حرف السفينة، فغمسَ منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمي وعلمك وعلْمُ الخلائق في عِلْم الله إلا مقدارُ ما غمس هذا العصفورُ منقاره». وذكر تمامه بنحوه[1].

[٤٤١٠] وقال البخاريُ أيضاً: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هِشَام بن يوسف، أن ابن جُريج أخبرهم قال: أَخبرَني يَعلى بن مسلم وعَمرو بن دينار، عن سَعِيد بن جُبَير ـ يزيد أحدُهما على صاحبه ـ وغيرُهما قد سمعته يُحَدِّث عن سعيد بن جبير قال: إنَّا لعند ابن عباس في بيته، إذ قال: سَلُوني. فقلت: أَيْ أبا عبَّاسٍ. جعلني الله فداك، بالكوفة رجل قاصٌ، يقال له «نَوْفٌ»، يَزعُم أنه ليس بموسى بني إسرائيل ـ أما عمرو فقال لي: قال: كَذَب عَدو الله. وأما يَعْلَى فقال لي: قال ابن عباس: حَدَّثني أبيّ بن كعب قال: قال رسولُ الله ﷺ: موسى رسولُ الله، ذكَّر الناسَ يوماً، حتى إذا فاضتِ العيونُ ورقَّت القلوبُ وَلَّى فأدركه رجل فقال: أيْ رسولَ الله، هل في الأرض أحد أعلمُ منك؟ قال: لا. فعتبَ الله عليه إذ لم يَرُد العلم إلى الله، قيل: بلى. قال: أيْ ربِّ، وأينَ؟ قال: بمجمَع البحرين. قال: أيْ رب، اجعل لي عَلَماً أعلم ذلك به. قال لي عَمْرو: قال: حيث يُفارِقك الحوت. وقالَ لي يعلى: خُذْ حوتاً ميتاً حيث يُنفَخ فيه الروح. فأخذ حُوتاً فجعله في مِكْتَلٍ، فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال: ما كُلِّفْتَ كبيراً. فذلك قولُه جلَّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ يُوشَع بن نُونٍ، ليست عن سعيد بن جُبَير ـ قال: فبينا هو في ظل صخرة في مكان ثَرْيَانَ[2] إذ تَضَرَّب الحوت وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظُه، حتى استيقظ فنَسِي أن يخبره، وتَضَرَّبَ الحوتُ حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جِرْيَةَ الماء حتى كأنَّ أثَرهُ في حَجَرٍ، قال: فقال لي عمرو: هكذا كأنَّ أثَرَهُ في حَجَرٍ، وحلَّق بين إبهاميه واللتين تَلِيانهما ـ ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، قال: «وقد قَطَع الله عنك النَّصَبَ» ليست هذه عن سعيد أخبره ـ فرجعا فوجدا خَضِراً. قال: قال لي عثمان بن أبي سليمان: على طِنْفِسَةٍ خضراء على كبد البحر. قال سعيد بن جُبَير: مُسَجّىً بثوب، قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فَسلَّم عليه موسى، فكشف عن وجهه وقال: هل بأرضي من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك؟ قال: جئتكَ لِتُعلِّمني مما عُلِّمت رشداً. قال: أما يكفيك أن التوراة بيدك، وأن الوحي يأتيك. يا موسى، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلَمه، وإن لَكَ علماً لا ينبغي لي أن أعلَمه. فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال: والله ما علْمي وعلمك في جَنْبِ علم الله إلا كما أَخَذ هذا الطائر بمنقاره من البحر، حتى إذا ركبا في السفينة وجدا مَعَابِرَ صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى ذلك الساحل الآخر ـ عرفوه فقالوا: عبد الله الصالح؟ ـ قال: فقلنا لسعيد: خَضِرٌ؟ قال نعم: لا تحمِلُه بأجر. فَخرقها، وَوَتَدَ فيها وَتَداً. قال موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ ـ قال مجاهد: منكراً ـ قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، كانت الأولى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عَمْداً. ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾، فانطلقا حتى لقيا غلاماً فَقَتله ـ قال يعلى: قال سعيد، وجد غلماناً يلعبون، فأخذ غلاماً كافراً ظَرِيفاً فأضجَعه، ثم ذبحه بالسكين، قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾: لم تَعْمَل الحِنْثَ، وابن عباس قرأها ﴿زَكِيَّةً﴾ ـ ﴿زَكِيَّةً﴾: مُسْلمَة كقولك: غلاماً زكياً ـ فانطلقا، فوجدا جداراً يريد أن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢٧ وانظر ما تقدم.

(٢) الثريان: يقال ذلك إذا رسخ المطر في الأرض حتى التقى ونداها.

ينقض فأقامه قال بيده، هكذا ورفع بيده فاستقام ـ قال يَعْلَى: حَسِبتُ أنّ سعيداً قال: فَمسحه بيده فاستقام، قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، قال سعيد: أجراً نأكله. ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾: وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: ﴿أمامهم ملك﴾، يزعمون عن غير سعيد أنه هُدَدُ بن بُدَدَ، والغلام المقتول اسمه ـ يزعمون ـ جَيسُور ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، فأردتُ إذا هي مرت به أن يَدَعها بعيبها، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها. ومنهم من يقول: سَدُّوها بقارورة، ومنهم من يقول: بالقار. ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾، وكان كافراً، ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾. أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ لقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾. وقوله: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾: هما به أرحمُ منهما بالأول الذي قتل خَضِرٌ. وزَعَم غيرُ سعيد بن جبَير أنهما أبدِلا جارية. وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد: إنها جارية[1]. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمَرٌ، عن أبي إسحاق، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: خَطب موسى ـ عليه السلام ـ بني إسرائيل فقال: ما أحدٌ أعلمُ بالله وبأمره مني. فَأمِرَ أن يلقى هذا الرجلَ. فذكر نحو ما تقدّم بزيادة ونقصان؛ والله أعلم.

[٤٤١١] وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن عُمَارة، عن الحكم بن عُتَيبة، عن سعيد بن جُبَير قال: جلستُ عند ابن عباس، وعنده نَفَرٌ من أهل الكتاب، فقال بعضُهم: يا أبا العباس، إن نوفاً ابن امرأة كعب يَزْعُم عن كعب، أن موسى النبي الذي طَلَب العالمَ إنما هو موسى بن ميشا؟ قال سعيد: فقال ابنُ عباس: أنوفٌ يقولُ هذا؟ قال سعيد: فقلت له: نعم، أنا سَمِعتُ نوفاً يقولُ ذلك. قال: أنتَ سمعته يا سعيد؟ قال: قلت: نعم، قال: كَذَبَ نوفٌ. ثم قال ابن عباس: حدثني أُبيّ بن كعب، عن رسول الله ﷺ: أن موسى بني إسرائيل سأل ربه فقال: أيْ ربِّ، إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني، فَدُلَّني عليه. فقال له: نعم، في عبادي من هو أعلمُ منك. ثم نَعَت له مَكانَه وأذِن له في لُقِيِّه. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه حوتٌ مَلِيحٌ، قد قيل له إنه إذا حَيِيَ هذا الحوت في مكان فَصَاحِبُك هنالك، وقد أدركتَ حاجَتَكَ. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه ذلك الحوتُ يحملانه، فسار حتى جَهَده السيرُ، وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء ماء الحياة، من شَرِب منه خَلَدَ، ولا يقاربه شيء مَيّتٌ إلا حَيِيَ. فلما نَزَلا ومسَّ الحوتَ الماءُ حَيِي ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾. فانطلقا فلمّا جاوزا مُنْقَلَبه قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ قال الفتى، وذَكَر: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾، قال ابن عباس: فظهر موسى على الصخرة حتى انتهيا إليها، فإذا رجلٌ مُتَلفِّف في كساء له، فسلم موسى عليه، فرد عليه العالم، ثم قال له: ما جاء بك إن كان لك في قومك لَشُغُلٌ؟. قال له موسى: جئتُك لِتُعلِّمني مما عُلِّمت رُشداً. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ ـ وكان رجلاً يعلَمُ عِلْمَ الغيب، قد عُلِّم ذلك ـ فقال موسى: بلى. قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾؟ أي: إنما تعرف ظاهر ما تَرَى من العدل، ولم تُحطْ من علم الغيب بما أعلم. ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾، وإن رأيتَ ما يخالفني، قال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ ـ وإن أنكرتَه ـ ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر يتعرّضان الناس، يَلْتَمِسان مَنْ يحملهما، حتى مَرّت بهما سفينة جديدة وثيقة، لم يمرَّ بهما من السفن شيء أحسن ولا أجمل ولا أوْثقَ منها. فسألا أهلَها أن يحملوهما، فَحَمَلُوهما، فلما اطمأنا فيها وَلَجَجَتْ بهما مع أهلها، أخرج مِنقاراً له ومِطْرَقَةً، ثم عَمَد إلى ناحيةٍ منها فَضرب فيها بالمنقَار

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢٦.

حتى خَرَقها. ثم أخذ لوحاً فطبّقه عليها، ثم جلس عليها يرْقَعُها. فقال له موسى، ورأى أمراً فَظِعَ به: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾، أي: بما تَرَكْتُ من عَهْدِك، ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾. ثم خرجا من السفينة فانطلقا، حتى إذا أتَيا أهل قرية فإذا غلمانٌ يلعَبُون خَلْفَها، فيهم غلام ليس في الغلمان غلامٌ أظرف منه ولا أثرى ولا أوضأ منه، فأخذه بيده، وأخذ حجراً، قال: فضرب به رأسه حتى دمَغَه فقتله، قال: فرأى موسى أمراً فَظِيعاً لا صَبْر عليه، صَبيٌّ صغير قتله لا ذَنْبَ له، قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾، أي: صَغيرة ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾، أي: قد أعذَرتَ في شأني، ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، فهَدَمه ثم قَعَد يبنيه، فضَجِر موسى مما يراه يصنع من التكليف، وما ليس له عليه صبر، فقال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أي: قد استطعمناهم فلم يُطعِمُونا، وضِفْناهم فلم يُضَيِّفُونا، ثم قعدتَ تعمل من غير صَنِيعة، ولو شئت لأعطِيتَ عليه أجراً في عمله. قال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ ـ وفي قراءة أبيّ بن كعب: «كل سفينة صالحة» ـ وإنما عِبْتُها لأرُدَّه عنها، فَسلِمت منه حين رأى العيب الذي صَنعتُ بها. ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾، أي: ما فعلته عن نفسي، ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾. فكان ابن عباس يقول: ما كان الكنزُ إلا علماً[1].

[٤٤١٢] وقال العوفيُّ، عن ابن عباس قال: لما ظهر موسى وقومه على مصر أنزل قومه مصر، فلما استقرت بهم الدار أنزل الله: أن ذكِّرهم بأيام الله[2]. فخطب قومه، فَذكَر ما آتاهم الله من الخير والنعمة، وذَكَّرهم إذْ أنجاهم الله من آل فرعون، وذَكَّرهم هلاكَ عَدوِّهم، وما استخلفهم الله في الأرض، وقال: كلم الله نبيَّكم تكليماً، واصطفاني لنفسه، وأنزل عليّ محبة منه، وآتاكم الله من كُلِّ ما سألتموه، فنبيُّكم أفضلُ أهل الأرض، وأنتم تقرؤون التوراة، فلم يترك نعمةً أنعمها عليهم إلا ذكرها وعَرّفهم إيّاها. فقال له رجل من بني إسرائيل: هُوَ كذلك يا نبي الله، قد عرفنا الذي تقول، فهل على الأرض أحدٌ أعلمُ منك يا نبيَّ اللّهِ؟ قال: لا. فبعث الله جبريل ـ عليه السلام ـ إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: إن الله يقول: وما يُدرِيك أين أضعُ علمي؟ بلى، إن على شَطِّ البحر رجلاً أعلم منك ـ قال ابن عباس: هو الخَضِرُ ـ فسأل موسى ربه أن يُرِيَه إياه، فأوحى إليه: أن ائت البحر، فإنَّك تجد على شطِّ البحر حُوتاً، فَخُذه فادفعه إلى فتاك، ثم الزم شَطَّ البحر، فإذا نَسِيتَ الحوت وهَلَك منك فثَمّ تجدُ العبدَ الصالح الذي تطلب. فلما طال سَفَرُ موسى نبيّ الله ونَصِب فيه سأل فتاه عن الحوت، فقال له فتاه وهو غلامه: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ لك، قال الفتى: لقد رأيتُ الحوتَ حين اتخذ سبيله في البحر سَرَباً فأعجبهُ ذلك. فرجَع حتى أتى الصخرة فوجد الحوتَ، فجعل الحوتُ يضربُ في البحر وَيَتْبَعهُ موسى، وجعل موسى يقدِّم عصاه يَفْرُج بها عنه الماء يتبع الحوت، وجعل الحوتُ لا يَمَسُّ شيئاً من البحر إلا يَبِس، حتى يكون

(١) أخرجه الطبري ٢٣٢٠٩، وإسناده ضعيف، فيه عنعنة ابن إسحق، وضعف الحسن بن عمارة.

(٢) انظر سورة إبراهيم: ٥.

صخرة، فجعل نبيّ الله يعجب من ذلك، حتى انتهى به الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر، فلقي الخَضِرَ بها فَسَلَّم عليه، فقال الخَضر: وعليك السلام. وأنّى يكون هذا السلامُ بهذه الأرض؟ ومن أنت؟ قال: أنا موسى. فقال الخَضِر: أصاحب بني إسرائيل؟ قال: نعم. فرحب به وقال: ما جاء بك؟ قال: جئتك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، يقول: لا تطيق ذلك. قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾. قال: فانطلَق به، وقال له: لا تسألني عن شيءٍ أصنعُه حتى أُبينَّ لك شأنَه، فذلك قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[1].

[٤٤١٣] وقال الزهريُّ، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، عن ابن عباس: أنه تَمارى هو والحُرُّ بن قيس بن حصْن الفَزَاري في صاحِب مُوسَى، فقال ابنُ عباس: هو خَضِر. فَمرَّ بهما أُبيُّ بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريتُ أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيلَ إلى لُقِيّه، فهل سمعتَ رسولَ الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إني سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «بينا موسى ـ عليه السلام ـ في مَلأٍ من بني إسرائيل، إذ جاءه رجلٌ فقال: تَعلَمُ مكانَ رجل أعلَم منك؟ قال: لا. فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدُنا خَضِرٌ. فسأل موسى السبيلَ إلى لُقيّه، فجعل الله له الحوتَ آيةً، وقيل له: إذا فَقَدتَ الحوت، فارجعْ فإنك ستلقاه. فكان موسى يَتْبَع أثر الحُوتِ في البحر. فقال فتى موسى لموسى: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾. قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾. فَوَجدا عبدَنا خَضِراً، فكان من شأنهما ما قصَّ الله في كتابه»[2].

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى ـ عليه السلام ـ لذلك الرجل العالم، وهو الخَضِرُ، الذي خصّه الله بعلم لم يَطَّلِع عليه موسى، كما أنه أعطِيَ موسى من العلم ما لم يُعطه الخَضِر، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، سؤال بتلطفٍ لا على وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغي أن يكونَ سؤالُ المتعلم من العالم. وقوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾، أي: أصحبك وأرافقك، ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، أي: مما علَّمَك الله شيئاً استرشد به في أمري، من علم نافع وعَمَل صالح. فعندها ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، أي: أنت لا تَقْدِر أن تصاحِبني، لما ترى من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأني على علم من علم الله ما علمكه الله، وأنت على عِلْم من عِلْم الله ما عَلَّمَنِيه الله، فكل منا مُكَلَّف بأُمورٍ من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدِرُ على صحبتي. ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾، فأنا أعرف أنك ستنكر عَلَيّ ما أنتَ معذورٌ فيه، ولكنْ ما اطَّلعْتَ على حكمته ومصلَحته الباطنةِ التي اطلعتُ أنا عليها دونك ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، أي: على ما أرى من أُمورِك، ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾، أي: ولا أخالِفُك في شيء. فعند ذلك شارطَهُ الخَضِرُ ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ ابتداءً ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، أي: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

قال ابنُ جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوبُ عن هارونَ بن عَنْتَرَةَ، عن أبيه عن ابن عباس قال: سأل

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣٢١١ موقوفاً على ابن عباس، وهو ضعيف لضعف العوفي وهو عطية بن سعد.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٣٨٠ ح ١٧٤ والطبري ١٣٢١٣.

موسى عليه السَّلام رَبَّه ـ عَزَّ وجلَّ ـ قال: أيْ رَبِّ، أي عبادِك أحبُّ إليك؟ قال: الذي يذكُرني ولا ينسَاني. قال: فَأَيُّ عبادِك أقضى؟ قال: الذي يقضِي بالحقِّ ولا يَتْبع الهَوى. قال: أيْ ربِّ، أيْ عبادك أعلَمُ؟ قال: الذي يبتغي عِلْمَ الناس إلى علمِهِ، عسى أن يُصيب كلمة تَهدِيه إلى هُدىً أو تَرُدُّه عن ردى. قال: أيْ رَبِّ، فهل في الأرض أعلمُ منِّي؟ قال: نعم. قال: فمن هُوَ؟ قال: الخَضِرُ. قال: فأين أطلبُه؟ قال: على السَّاحِل عند الصَّخرة التي ينفلت عندها الحوت. قال: فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله، وانتهىٰ موسى إليه عند الصخرة، فسلَّم كلُّ واحد منهما على صاحبه. فقال له موسى: إني أريدُ أن تصحَبَني. قال: إنك لن تُطِيق صُحبتي. قال: بلى. قال: فإن صَحِبْتَني ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، قال: فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحور، وليس في الأرض مكان أكثر ماءً منه. قال: وبعَثَ الله الخُطَّاف فجعل يستقي منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخطاف رَزأ[1] من هذا الماء؟ قال: ما أَقَلَّ ما رَزأَ. قال: يا موسى، فَإنَّ عِلْمي وعِلْمَكَ في عِلْم الله كَقَدْرِ ما استقَى هذا الخُطَّاف من هذا الماء. وكان موسى قد حَدَّث نفسه أنه ليس أحدٌ أعلَمُ منه، أو تَكلم به، فمن ثَمَّ أُمِر أن يأتي الخَضر[2]. وذكر تمام الحديث في خَرْق السفينة وقَتْلِ الغُلام، وإصْلاَح الجِدَارِ، وتَفْسيرَه له ذلك.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن موسى وصاحِبه، وهو الخَضِرُ، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه ألاَّ يسأَلَه عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدىء به من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة. وقد تقدَّم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عَرَفوا الخَضِر، فحملوهما بغير نَول ـ يعني بغير أجرة ـ تكرمةً للخَضِر. فلما استقلت بهم السفينة في البحر، ولَجَجت، أي: دخلت اللُّجَّة، قام الخَضِرُ فَخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها، ثم رَقَعها، فلم يملك موسى ـ عليه السلام ـ نفسه أن قال منكراً عليه: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾. وهذه اللام لامُ العاقبة لا لام التعليل، كما قال الشاعر:

لِـــدُوا لِـــلْـــمَـــوتِ وابْـــنُـــوا لِـــلْـــخَـــرَاب

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾، قال مجاهد: مُنكَراً. وقال قتادةُ: عَجَباً. فعندها قال له الخَضِرُ مُذكِّراً بما تَقدَّم من الشرط: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، يعني وهذا الصنيعُ فعلتُه قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك ألاَّ تَنكِر عليَّ فيها، لأنك لم تُحط بها خُبراً، ولها دَاخِلٌ هو مصلحة، ولم تعلمه أنت. ﴿قَالَ﴾، أي موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾، أي: لا تضيق علي ولا تُشدِّد. ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت الأُولى من موسى نسياناً».

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

---

(١) رزاه: أصاب منه شيئاً.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣٢٠٤ هكذا موقوفاً، وإسناده غير قوي لأجل هارون بن عنترة.

يقول تعالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾، أي: بعد ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾. وقد تقدّم أنّه كان يلعبُ مع الغلمان في قرية من القُرَى، وأنه عَمَد إليه من بينهم، وكان أحسنَهم وأجمَلهم وأوضأَهم، فقتله، فرُوي أنه احتزَّ رأسه، وقيل: رَضَخه بحجر. وفي رواية: اقتلعه بيده. فالله أعلم. فلما شاهد موسى ـ عليه السلام ـ هذا أنكره أشدَّ من الأول، وبادر فقال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾، أي: صغيرة لم تعمل الحنث، ولا حَملت إثماً بعدُ فقتلته ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، أي: بغير مُستَنَد لقتلهِ، ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾، أي: ظاهر النكارة. ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾، فأكّد أيضاً في التذكار بالشرط الأول، فلهذا قال له موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا﴾، أي: إن اعترضتُ عليكَ بشيءٍ بعدَ هذه المرَّةِ، ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾، أي: قد أعذَرْتَ إليّ مرةً بعد مرة.

[٤٤١٤] قال ابنُ جَريرٍ: حدثنا عبدُ الله بن أبي زياد، حدثنا حَجّاج بن محمد، عن حمزَة الزيَّات، عن أبي إسحاقَ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، عن أُبيِّ بن كَعْب قال: كان النبيُّ ﷺ إذا ذَكَر أحداً فدعا له، بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: رَحْمةُ الله علينا وعلى مُوسى، لو لَبِثَ مع صاحبه لأَبْصَرَ العَجَبَ، ولكنه قال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾، مُثقَّلَة[١].

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عنهما أنّهما انطلقا بعد المرتين الأوليين، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، روى ابن جرير، عن ابن سيرين أنها الأَيْلة.

[٤٤١٥] وفي الحديث: «حتّى إذا أتيا أهلَ قَرْيةٍ لِئاماً»[٢]، أي: بخلاء، ﴿فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، إسنادُ الإرادة ها هنا إلى الجِدَارِ على سَبيلِ الاستعارةِ، فَإنَّ الإرادةَ في المحدثات بمعنى الميل. والانقضاضُ هو السقوطُ. وقوله: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾، أي فَرَدَّه إلى حالة الإستقامةِ. وقد تقدّم في الحديث أنه رَدَّه بيديه، ودَعَمه حتى رَدَّ ميله. وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أي: لأجل أنهم لم يُضَيِّفونا، كان ينبغي ألاَّ تعمَلَ لهم مجاناً، ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾، أي: لأنك شرطت عند قَتْلِ الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تُصاحبني، فهذا فراقُ بيني وبينِك، ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾، أي: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

هذا تفسيرُ ما أشكلَ أمرُه على موسى ـ عليه السلام ـ وما كان أنكر ظاهِرَه وقد أظهر الله الخَضِر ـ عليه السلام ـ على حكمة باطنه، فقال: أما السفينة فإنما خَرَقتُها لأعيبها، لأنهم كانوا يمرُّون بها على مَلِك من

---

(١) صحيح. أخرجه الطبري ٢٣٢٣٢ بهذا الإسناد. وأخرجه أبو داود ٣٩٨٤ والنسائي في «الكبرى» ١١٣١٠ وابن حبان ٩٨٩ من طرق عن حمزة الزيات به. وهو حديث صحيح. وأخرجه مسلم ٢٣٨٠ ح ١٧٢ في أثناء حديث طويل.

(٢) جاء في رواية مسلم ٢٣٨٠ ح ١٧٢، دون البخاري.

الظَّلَمَةِ، يأخذ كلَّ سفينة صالحةٍ، أي: جيّدة غَصْباً، فأردتُ عَيْبَها لأردَّه عنها بِعَيْبِها فينتفعَ بها أصحابُها من المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرُها. وقد قيل: إنهم أيتامٌ. وروى ابنُ جُرَيج، عن وهب بن سليمان، عن شُعَيب الجَبئِيِّ: أن اسمَ ذلك المَلِك هُدَدُ بن بُدَد. وتقدم أيضاً في رواية البخاري، وهو مذكورٌ في التوراة في ذرية العِيص بن إسحاق، وهُو من الملوكِ المنصوصِ عليهم في التوراة، والله أعلم.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾

قد تَقَدَّم أن هذا الغلام كان اسمه جَيْسُور.

[٤٤١٦] وفي الحديث عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي قتله الخَضِرُ طُبِعَ يوم طبع كافراً»(١). رواه ابنُ جرير من حديث أبي إسحاقَ، عن سعيدٍ، عن ابن عباس، به، ولهذا قال: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾، أي: يحملهما حُبُه على متابعته على الكفر. قال قتادةُ: قد فَرِح به أبواه حين وُلِد، وحَزِنا عليه حين قُتِل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرضَ امرؤٌ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمنِ فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب».

[٤٤١٧] وصح في الحديث: «لا يقضي الله للمؤمن قَضَاءً إلا كان خيراً له»(٢). وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وقولُه: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، أي: ولداً أزكى من هذا، وهما أرحمُ به منه. قال ابن جُرَيج. وقال قتادة: أَبَرَّ بوالديه. وقد تقدم أنهم بُدِّلا جارية. وقيل: لما قتله الخَضِرُ كانت أُمُّه حاملاً بغلام مسلم. قاله ابن جُرَيج.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة، لأنه قال أولاً: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، وقال ها هنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، يعني مكة والطائف. ومعنى الآية: أن هذا الجِدَار إنما أصلَحه لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما. قال عكرمة، وقتادة، وغير واحد: كانَ تَحته مال مدفونٌ لهما. وهذا ظاهرُ السياق من الآية، وهو اختيارُ ابن جرير رحمه الله.

وقال العوفي، عن ابن عباس: كان تحته كَنْزُ عِلْمٍ، وكذا قال سعيد بن جُبَير. وقال مجاهد: صُحُفٌ فيها عِلْمٌ. وقد ورد في حديث مرفوع ما يقوي ذلك:

[٤٤١٨] قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البَزّار ـ في مسنده المشهور ـ. حدثنا

---

(١) أخرجه مسلم ٢٣٨٠ ح ١٧٢ والترمذي ٣١٤٨ في أثناء حديث طويل. وأخرجه أبو داود ٤٧٠٥ و٤٧٠٦ والطبري ٢٣٢٤٧ وابن حبان ٦٢٢٢ من حديث أبي بن كعب مختصراً.

(٢) صحيح. وقد تقدم.

إبراهيمُ بن سعيدٍ الجوهري، حدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحارث بن عبد الله اليحصبي، عن عياش بن عباس القِتْباني، عن ابن حُجَيرةَ، عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ رَفَعه قال: إن الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوحٌ من ذهب مُصْمَت[١] مكتوب فيه: عَجِبتُ لمن أيقنَ بالقدَر، لِمَ يَنْصِبُ؟ وعَجِبْتُ لمن ذكر النار، لِمَ يضحك؟ وعَجِبتُ لِمن ذَكَر الموتَ، لِمَ غَفَلَ؟ لا إله إلا الله، مُحمَّدٌ رسول الله[٢]. وبشر بن المنذر هذا يقال له: قاضي المَصِّيصَة، قال الحافظ أبو جعفر العُقَيلِيُّ: في حديثه وَهَمٌ. وقد روي في هذا آثار عن السلف.

فقال ابن جَرير في تفسيره: حدّثني يعقوب، حدثني الحَسن بن حبيب بن نَدَبة، حدثنا سلمة، عن نُعَيم العَنْبَرِيِّ ـ وكان من جلساء الحسن ـ قال: سَمِعت الحسن ـ يعني البصريَّ ـ يقول في قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾، قال: لوحٌ من ذَهَب مكتوب فيه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، عَجِبت لمن يؤمن بالقَدَرِ، كيف يحزَنُ؟ وعجبت لمن يوقن بالموت، كيف يَفْرَح؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها، كيف يَطْمَئِنُّ إليها؟ لا إله إلا الله مُحمَّد رسول الله.

وحدّثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش، عن عُمَر مولى غُفْرَة قال: إن الكنز الذي قال الله في السورة التي يذكر فيها الكهفَ: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾، قال: كان لوحاً من ذهب مُصْمَتٍ، مكتوباً فيه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، عَجَبٌ لمن عرف النار ثم ضَحِك. عَجَبٌ لمن أيقن بالقَدَر ثم نَصِبَ. عَجَبٌ لمن أيقن بالموت ثم أَمِن. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وحدثني أحمد بن حازم الغِفَاريُّ، حَدَّثتنا هُنادَةُ بنتُ مالك الشيبانيّة قالت: سَمِعتُ صاحبي حَمّاد بن الوليد الثقفي يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾، قال: سطران ونصف لم يتم الثالث: عَجِبتُ للموقن بالرِّزق كيف يتعَبُ؟ وعَجِبتُ للمُوقِن بالحساب كيف يَغفُل؟ وعَجِبتُ للموقن بالموت كيف يفرَح؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. قالت: وذُكِر أنهم حُفِظا بصَلاَح أبيهما، ولم يُذْكَر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذي حُفظا به سبعة آباء، وكان نساجاً. وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة، وورد به الحديث المتقدِّمُ، وإن صحَّ[٣] لا ينافي قول عكرمة: إنه كان مالاً؛ لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مالٌ جزيل، أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم، وهو حِكَمٌ ومواعظ، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يُحفَظُ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقرَّ عينهُ بهم، كما جاء في القرآن ووردت به السنة، قال سعيد بن جُبَير عن ابن عباس: حُفِظَا بصلاح أبيهما، ولم يُذكر لهما صلاح. وتقدم أنه كان الأب السابع، فالله أعلم. وقولُه: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾، ها هنا أسند الإرادة إلى الله تعالى، لأنَّ بلوغَهما الحُلُم لا يقدر عليه إلا الله. وقال في الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾، وقال في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، فالله أعلم.

---

(١) أي خالص، لا يخالطه شيء.

(٢) إسناد ضعيف، والمتن منكر، أخرجه البزار ٢٢٢٩ بهذا الإسناد، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١١٥١: بشر ابن المنذر عن الحارث بن عبد الله اليحصبي، ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات. أهـ. قلت: بشر بن المنذر، صدوق، ذكره ابن أبي حاتم، وعلة الحديث، شيخه الحارث اليحصبي، فإنه مجهول، والمتن منكر، والأشبه أنه متلقى عن أهل الكتاب، وليس بمرفوع، وقد ورد عن الحسن وغيره كما هو الآتي، وهو أصح، والصواب أنه كنز من المال.

(٣) لم يصح كما تقدم، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾، أي: هذا الذي فعلتُه في هذه الأحوالِ الثلاثةِ إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالِدَي الغلام، وَوَلَدَي الرجل الصالح، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾، لكنني أمرتُ به ووُقِفتُ عليه. وفيه دَلالَةٌ لمن قال بنُبوّة الخَضر ـ عليه السلام ـ مع ما تقدم في قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾. وقال آخرون: كان رسولاً. وقيل: بل كان مَلَكاً. نقله الماوردي في تفسيره. وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً، بل كان ولياً. فالله أعلم.

وذكر ابنُ قتيبة في «المعارف» أن اسم الخضر بَلْيَا بن مَلْكان بن فالغ بن غابر بن شَالَخ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح عليه السلام. قالوا: وكان يُكنَى أبا العباس، ويُلقَّب بالخَضِر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووي في تهذيب الأسماء، وحكى هو وغيره في كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابنُ الصلاح إلى بقائه، وذكروا في ذلك حكايات وآثاراً عن السلف[١]، وجاء ذكرهُ في بعضِ الأحاديثِ. ولا يصحُ شيءٌ من ذلك، وأشهرُها حديثُ التعزيةِ[٢]، وإسنادهُ ضعيفٌ. ورَجّح آخرون من المحدّثين وغيرهم خلافَ ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

[٤٤١٩] وبقول النبي ﷺ يوم بدر: «اللهمَّ، إن تهلِكْ هذه العصابة لا تُعبَدْ في الأرض»[٣]، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حَضَر عنده، ولا قاتلَ معه. ولو كان حيّاً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه، لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين: الجن والإنس.

[٤٤٢٠] وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حَيَّيْن ما وَسِعَهما إلا اتباعي»[٤].

[٤٤٢١] وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقَى مِمَّن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تَطْرِفُ[٥]. إلى غير ذلك من الدلائل.

[٤٤٢٢] قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابنُ المبارك، عن معمر، عن همام بن مَنَبّه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في الخضر قال: إنما سُمِّي خَضِراً لأنه جَلَس على فَرْوَةٍ بيضاءَ، فإذا هي تحته تهتزُّ خضراء»[٦]. ورواه أيضاً عن عبد الرزاق.

[٤٤٢٣] وقد ثبت في صحيح البخاري، عن هَمّام، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سُمِّي الخَضِر لأنه جَلَس على فَرْوَةٍ فإذا هي تهتزُّ من تحته خَضْراءَ»[٧]. والمراد بالفَرْوَةِ ها هنا الحشيشُ اليابسُ، وهو الهَشِيمُ من النبات، قاله عبد الرزّاق. وقيل: المراد بذلك وجه الأرض. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، أي: هذا تفسير ما ضِقْتَ به ذرعاً، ولم تَصْبِرْ حتى أخبرَك به ابتداء، ولما أن فسّره له وبيّنه

---

(١) لا يحتج بالحكايات والآثار في هذه المواضع، فإنه يعارض ظاهر الآيات، والأحاديث الصحيحة.

(٢) تقدم الكلام عليه، وأنه خبر باطل، وانظر تفسير القرطبي بتعليقي عقب حديث ٤١٨٩.

(٣) تقدم.

(٤) يأتي في سورة يوسف عند آية: ٣ وفي سورة العنكبوت عند آية: ٥١ إن شاء الله. وتقدم أيضاً في سورة آل عمران عند آية: ٨٢.

(٥) صحيح. أخرجه البخاري ١١٦ و٥٦٤ ومسلم ٢٥٣٧ وأبو داود ٤٣٤٨ والترمذي ٢٢٥١ وأحمد ٢/ ٨٨ وابن حبان ٢٩٨٩ من حديث ابن عمر.

(٦) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٠٢ والترمذي ٣١٥١ وأحمد ٢/ ٣١٢ وابن حبان ٦٢٢٢.

(٧) هو الحديث المتقدم.

ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾، وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، فقابل الأثقل بالأثقل، والأخفَّ بالأخفِّ، كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾، وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾، وهو أشقُّ من ذلك، فقابل كُلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم.

فإن قيل: فما بال فتى موسى ذُكِر في أول القصّة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخَضِر، وذكر ما كان بينهما. وفتى موسى معه تَبَعٌ. وقد صُرِّح في الأحاديث المتقدِّمة في الصحاح وغيرها أنه يُوشَعُ بن نُون، وهو الذي كان يلي بَني إسرائيل بعد موسى عليهم السلام. وهذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير في تفسيره، حيث قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، حدثني ابن إسحاق، عن الحسن بن عُمَارة، عن أبيه، عن عكرمة قال: قيل لابن عباس: لم نسمع بفتى موسى يُذْكَر في حديث وقد كان معه؟ فقال ابنُ عباس فيما يَذْكُر من حديث الفتى، قال: شَرِب الفتى مِن الماءِ فَخُلِّد، فأخذه العالِمُ، فطابق به سفينةً ثم أرسله في البحر، فإنها لتَموجُ به إلى يوم القيامة، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب. إسناد ضعيف، والحسن متروك، وأبوه غير معروف.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، أي: عن خبره. وقد قَدّمنا أنه بَعَث كفارُ مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحِنُون به النبي ﷺ فقالوا: سَلُوه عن رجل طَوَّاف في الأرض. وعن فِتيةٍ لا يُدرَى ما صنعوا، وعن الرُّوح. فنزلت سورة الكهف[(١)].

[٤٤٢٤] وقد أورد ابنُ جرير ها هنا، والأموي في مغازيه، حديثاً أسندَه وهو ضعيفٌ، عن عقبة بن عامر: أن نفراً من اليهود جاؤوا يسألون النبي ﷺ عن ذي القرنين، فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداءً، فكان فيما أخبرهم به: «أنه كان شاباً من الروم، وأنه بنى الإسكندرية، وأنه علا به مَلَكٌ في السماء، وذهب به إلى السدّ، ورأى أقواماً وجوهُهم مثل وجوه الكلاب»[(٢)]. وفيه طول ونَكَارةٌ، ورفعه لا يصحُّ، وأكثر ما فيه من أخبار بني إسرائيل. والعجب أن أبا زُرعَةَ الرازي مع جلالة قدره، ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة، وذلك غريبٌ منه، وفيه من النكارة أنه من الروم، وإنما الذي كان من الروم الإسكندر الثاني، وهو ابن فيليبس المقدوني، الذي تُؤَرِّخ به الروم، فأما الأول فقد ذكر الأزرقي وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ أول ما بناه وآمن به واتبعه، وكان معه الخَضِر عليه السلام. وأما الثاني فهو إسكندر بن فيليبس المقدوني اليوناني، وكان وزيرُه أرسطاطاليس الفيلسوفُ المشهور، والله أعلم. وهو الذي تُؤَرِّخ به من مملكته ملة الروم. وقد كان قبل المسيح ـ عليه السلام ـ بنحو من ثلثمائة سنة، فأما الأولُ المذكورُ في القرآن فكان في زمن الخليل، كما ذكره الأزرقي وغيره، وأنه طاف مع الخليل عليه السّلام بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم ـ

---

(١) تقدم في أول السورة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣٢٧٥ من حديث عقبة بن عامر، وإسناده ضعيف جداً، فيه ابن لهيعة وعبد الرحمن بن زياد الأفريقي، وكلاهما ضعيف، والراوي عن عقبة لم يسمّ.

عليه السلام ـ وقَرَّبَ إلى الله تعالى قرباناً، وقد ذكرنا طرفاً صالحاً من أخباره في كتاب «البداية والنهاية» بما فيه كفاية، ولله الحمدُ.

قال وهب بن مُنَبِّه: كان ملكاً، وإنما سمِّي ذا القرنين لأنَّ صفحتي رأسه كانتا من نحاس. قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنه مَلَكَ الروم وفارس. وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرْنين. وقال سفيان الثَّوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي الطُّفَيل قال: سُئِل علي ـ رضي الله عنه ـ عن ذي القرنين، فقال: كان عبداً ناصَحَ الله عز وجل فناصَحَه، دعا قومه إلى الله فَضُرِبَ على قَرْنِهِ فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قَرْنِهِ فمات، فَسُمِّي ذا القرنين. وكذا رواه شعبة، عن القاسم بن أبي بَزَّةَ، عن أبي الطُّفَيل، سَمِعَ علياً يقول ذلك. ويقال: إنه إنما سُمِّي ذا القرنين لأنه بَلَغَ المشارق والمغارب، من حيث يطلع قرنُ الشمس ويغرب. وقولُه: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: أعطيناه مُلكاً عظيماً متمكناً، فيه له من جميع ما تُؤتَى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحصَارات. ولهذا مَلَكَ المشارِقَ والمغاربَ من الأرض، ودانت له البلادُ، وخَضَعت له ملوك العِبَادِ، وخَدَمته الأمم، من العَرَب والعَجَم. ولهذا ذكر بعضُهم أنه إنما سُمِّي ذا القَرنين لأنه بلغ قَرْنَي الشمس مشرقها ومغربها. وقولُه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾، قال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٍ، وسعيد بن جُبيرٍ، وعكرمةُ، والسدِّي، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعني علماً. وقال قتادة أيضاً في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾، قال: منازِلَ الأرضِ وأعلامها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾، قال: تعليم الألسنة، قال كان لا يغزُو قوماً إلا كَلَّمهم بلسانهم. وقال ابن لهيعة: حدثني سالم بن غَيلان، عن سعيد بن أبي هلال: أن معاويةَ بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يَرْبِط خيله بالثُّريا؟ فقال له كعب: إن كنتُ قلتُ ذاك فإن الله تعالى قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾. وهذا الذي أنكره معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ على كعب الأحبار هو الصوابُ، والحقُّ مع معاوية في ذلك الإنكار؛ فإن معاوية كان يقول عن كعب: «إن كنا لنبلُو عليه الكَذِبَ». يعني فيما ينقله، لا أنه كان يعتمَّد نقل ما ليس في صُحُفِهِ، ولكن الشأن في صُحُفِهِ أنها من الإسرائيليَّاتِ التي غَالِبُها مُبَدَّل مصحَّف مُحرَّف مختلَق، ولا حاجة لنا مع خَبَر الله تعالى ورسوله ﷺ إلى شيءٍ منها بالكُلِّية، فإنه دَخَل منها على الناس شر كثير، وفَسَاد عَرِيض. وتأويلُ كعب قولَ الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾، واستشهاده في ذلك على ما يجده في صُحُفه من أنه كان يربِطُ خيلَه بالثريَّا، غيرُ صحيحٍ ولا مطابقٍ؛ فإنه لا سبيل للبشَر إلى شيءٍ من ذلك، ولا إلى الترقي في أسباب السمٰوات. وقد قال الله تعالىٰ في حق بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أي: مما يؤتَى مثلُها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسَّرَ الله له الأسباب أي الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضي وكَسْر الأعادي، وكَبْت مُلوك الأرض، وإذلالَ أهلَ الشرك. قد أُوتي من كُلِّ شيءٍ ما يَحتاج إليه مثلُه سبباً، والله أعلم. وفي «المختارة» للحافظ الضِّيَاء المقدسي، من طريق قُتَيبة، عن أبي عَوانة، عن سماك بن حَرْبٍ، عن حبيب بن حِمَارٍ قال: كنتُ عند علي ـ رضي الله عنه ـ وسأله رجلٌ عن ذي القرنين: كيفَ بلَغَ المشرق والمغرب؟ فقال: سبحان الله، سَخَّر له السَّحَابَ، وقدَّرَ له الأسبابَ، وبسط له اليَدَ.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

قال ابن عباس: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾، يعني بالسَّبب المنزلَ. وقال مجاهد: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب. وفي رواية عن مجاهد: ﴿سَبَبًا﴾، قال: طَرَفَي الأرضِ. وقال قتادةُ: أي اتَّبع منازِلَ الأرض ومَعَالِمها. وقال الضَّحاك: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾، أي: المنازِلَ. وقال سعيد بن جُبَير في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾، قال: عِلْماً. وهكذا قال عكرمةُ، وعُبَيد بن تِعْلَى، والسدِّيُّ. وقال مطر: معالم الأرض وآثارٌ كانت قبل ذلك. وقولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾، أي: فَسَلك طريقاً حتى وصَلَ إلى أقصى ما يُسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصولُ إلى مغرب الشمس من السماءِ فمتعذِّر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدَّة والشمس تغرب من ورائه، فشيءٌ لا حقيقةَ له، وأكثرُ ذلك من خرافاتُ أهل الكتاب، واختلاقُ زنادِقتهم وكَذَبَتِهم. وقولُه: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، أي: رأى الشمسَ في منظره تَغربُ في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرُبُ فيه، وهي لا تفارق الفلَكَ الرابع الذي هي مُثْبَتة فيه لا تفارِقُه. والحَمِئَةُ: مُشتقة على إحدى القراءتين من «الحَمْأَة» وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]، أي: طينٍ أملسَ. وقد تقدم بيانه.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، حدثني نافع بن أبي نُعَيم: سَمِعتُ عبد الرحمن الأعرج يقول: كان ابن عباس [يقول][1]: ﴿فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، ثم فَسَّرها: ذات حَمْأة. قال نافع: وسُئِل عنها كعب الأحبار، فقال: أنتم أعلَمُ بالقرآن منّي، ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينةٍ سوداءَ. وكذا رَوَى غير واحد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وغير واحد.

[٤٤٢٥] وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا محمد بن دينار، عن سعد بن أوس، عن مِصدَعَ، عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب: أن النبي ﷺ أقرأه ﴿حَمِئَةٍ﴾[2]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «وجدها تغرب في عين حامية»، يعني: حارة. وكذا قال الحسن البصري. وقال ابنُ جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، فأيهما قَرَأ القارِىءُ فهو مصيبٌ. قلت: ولا منافاة بين مَعْنَييهما، إذ قد تكون حارَّةً لمجاورتها وَهَج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل. و ﴿حَمِئَةٍ﴾: في ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره.

[٤٤٢٦] وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا العوام، حدثني مولى لعبد الله بن عمرو، عن عبد الله قال: نظر رسولُ الله ﷺ إلى الشمس حين غابَتْ، فقال: «في نار الله الحامية، في نار الله الحامية، لولا ما يَزَعُها من أَمْرِ الله لأَحرقَت ما عَلَى الأَرْضِ»[3]. قلت: ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون. وفي صحة رفع هذا الحديث نظر، ولعله من كلام عبد الله بن عمرو، من زَامِلَتَيهِ اللَّتين وجدَهما يوم اليرموك، والله أعلم.

---

(١) سقط من الأصل، والاستدراك من تفسير الطبري.

(٢) أخرجه أبو داود ٣٩٨٦ والترمذي ٢٩٣٤ والطبري ٢٣٣٠٨ وضعفه الترمذي بقوله: غريب. والصحيح ما روي عن ابن عباس قراءته اهـ. أي ليس بمرفوع. لكن ورد من وجه آخر عن ابن عباس مرفوعاً: أخرجه الحاكم ٢/ ٢٤٤ وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وانظر «فتح القدير» للشوكاني ١٥٢٧ بتخريجي.

(٣) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٣٣٠٧ وأحمد ٦٩٣٤، قال الهيثمي في «المجمع» ١٣٣٦١: فيه راوٍ لم يسم أهـ فالخبر ضعيف، وقد أشار ابن كثير لذلك.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا حَجّاج بن حَمْزَة، حدثنا محمد ـ يعني ابنَ بشرٍ ـ حدثنا عَمرو بن ميمون أنبأنا ابن حاضر، أن ابن عباس ذُكرَ له أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف: «تغرب في عين حامية»، قال ابن عباس: فقلتُ لمعاوية: ما نقرؤُها إلا ﴿حَمِئَةٍ﴾، فسأل معاوية عبد الله بن عمرو: كيف تقرؤها؟ فقال عبد الله: كما قرأتها. قال ابن عباس: قلتُ لمعاويةَ: في بيتي نزل القرآن. فأرسلَ إلى كعب فقال له: أين تجد الشمس تغرُب في التوراة؟ فقال له كعب: سَلْ أهلَ العربية، فإنّهم أعلم بها، وأمّا أنا فإني أجدُ الشمسَ تغرُب في التوراة في ماء وطين. وأشار بيده إلى المغرب، قال ابنُ حاضر: لو أنّي عندكما أفدتُكَ بكلام تَزدادُ فيه بصيرةً في ﴿حَمِئَةٍ﴾. قال ابن عباس: وإذاً ما هو؟ قلت: فيما يُؤثر من قول تبع، فيما ذكر به ذا القرنين، في تَخَلّقه بالعلم واتّباعِهِ إياه:

بَلَغَ المَشَارِقَ وَالمَغَارِبَ يَبْتَغِي ... أسْبَابَ أَمْرٍ مِنْ حَكِيمٍ مُرْشِدِ
فَرَأى مغيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا ... في عَيْنِ ذي خُلُبٍ وَثَأْطٍ حَرْمَدِ

قال ابن عباس: ما الخُلُب؟ قلت: الطين بكلامهم ـ يعني بكلام حِمْيَر ـ قال: فما الثَّأْط؟ قلت: الحَمْأَة. قال: فما الحَرْمَدُ؟ قلت: الأسودُ. قال: فدعا ابنُ عباس رجلاً أو غُلاماً، فقال: اكتُبْ ما يقولُ هذا الرَّجلُ. وقال سعيد بن جُبَير: بينا ابنُ عباس يقرأُ سورةَ الكهف فَقَرأ: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾. فقال كعب: والذي نفسُ كعب بيده ما سَمِعتُ أحداً يقرؤُها كما أُنزِلَتْ في التوراةِ غيرَ ابن عباس؛ فإنا نجدها في التوراة تغرب في مَدَرَة سوداء.

وقال أبو يعلى الموصلي: حدَّثنا إسحاقُ بنُ أبي إسرائيلَ، حدَّثنا هشام بن يوسف قال: في تفسير ابن جريج: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾، قال: مدينة لها اثنا عشرَ ألف باب، لولا أصوات أهلها لسمع الناس وُجوبَ الشمس حين تَجِبُ. وقوله: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾، أي: أمة من الأُمم ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم. وقوله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، معنى هذا: أن الله تعالى مَكّنه منهم، وحكّمه فيهم، وأظهره عليهم، وخيّره إن شاء قَتَلَ وَسَبَى، وإن شاء مَنّ وأفْدَى، فَعُرِفَ عدلُه وإيمانهُ فيما أبداه عدله وبيانه، في قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾، أي: من استمرّ على كُفره وشِرْكِهِ بربِّه، ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾، قال قتادةُ: بالقتل، وقال السدّي: كان يحمي لهم بَقَرَ النّحاس ويضعهم فيه حتّى يَذُوبوا. وقال وَهْبُ بن مُنَبِّه: كان يُسَلِّط الظُّلْمَة فتدخلُ أفواههم وبُيوتهم، وتَغشّاهم من جَميع جِهَاتِهم، والله أعلم. وقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾، أي: شديداً بليغاً وجيعاً أليماً. وفي هذا إثباتُ المَعَاد والجَزَاء. وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾، أي: تابَعَنا على ما ندعُوه إليه من عبادة الله وحدَه لا شريكَ له، ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: في الدار الآخرة عند الله عز وجل، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾، قال مجاهد: معروفاً.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

يقول: ثم سَلَك طريقاً فسار من مَغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كُلّما مرّ بأمّة قهرَهم وغَلَبهم ودَعَاهم إلى الله عز وجل، فإن أطاعوه وإلا أذلّهم وأرغمَ آنافهم، واستباح أموالهم وأمتعتهم، واستخدم من كلِّ أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل الإقليم المتاخِم لهم. وذُكِر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة، يجوب الأرض طولها والعرض، حتى بلغ المشارق والمغارب. ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾، أي: أمّة ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، أي: ليس لهم بناء يَكُنُّهم، ولا

أشجار تُظِلُّهم وتسترهم من حر الشمس. قال سعيد بن جُبَير: كانوا حُمْراً قصاراً، مَسَاكِنُهم الغِيرانُ، أكثَرُ مَعِيشَتِهم من السَّمَكِ.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا سهل بن أبي الصلت، سَمِعتُ الحسَنَ وسُئِلَ عن قَوْلِ الله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، قال: إن أرضَهم لا تحمِلُ البناءَ، فإذا طَلعت الشمسُ تَغَوَّروا في المياه، فإذا غَرَبت خرَجُوا يتراغون كما ترغي البهائم.

[٤٤٢٧] فَحُدِّثت عن الحسن، عن سَمُرة قال: قال النبيُّ ﷺ: «سِتْراً: أي بناء، لم يُبْنَ فيها بناءٌ قطُّ؛ كانوا إذا طَلَعَتِ الشمسُ دَخَلُوا أَسْرَاباً لهم حَتَّى تزول الشمس»(١). وقال قتادة: ذُكِر لنا أنهم بأرض لا تُنبِت لهم شيئاً، فَهُم إذا طَلَعَت الشمسُ دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حُرُوثهم ومعايشهم. وعن سلمة بن كُهَيل أنه قال: ليس لهم أكنان، إذا طَلَعَت عليهم، فَلأَحَدِهم أذنان يفترش إحداهما ويلبس الأخرى. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، قال: هم الزنج. وقال ابن جُرَيج في قوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، قال: لم يبنوا فيها بناء قط، ولم يُبْنَ عليهم فيها بناء قط؛ كانوا إذا طلعتِ الشمسُ دخلوا أسراباً لهم حتى تَزُول الشمسُ، أو دخَلُوا البحر، وذلك أن أرضَهم ليس فيها جَبَلٌ، جاءهم جيش مَرَّةً فقال لهم أهلها: لا تطلعَنَّ عليكم الشمسُ وأنتم بها. قالوا: لا نَبْرَحُ حتى تطلع الشمسُ، ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جِيَفُ جيشٍ طلعَت عليهم الشمس ها هنا فماتوا. قال: فذهَبُوا هاربين في الأرض. وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾، قال مجاهد، والسّدّيُّ: عِلماً. أي: نحن مُطَّلِعُون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيءٌ، وإن تفرّقَت أُمَمهم وتَقَطَّعت بهم الأرضُ، فإنه تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن ذي القرنَين: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾، أي: ثم سَلَك طريقاً من مشارقِ الأرضِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾، وهما جبلان متناوحان بينهما ثُغرَةٌ يخرج منها يأجوجُ ومأجوجُ على بلاد الترك، فَيَعِيثون فيهم فساداً، ويُهلِكون الحرثَ والنسلَ، ويأجوجُ ومأجوجُ من سُلالَة آدمَ عليه السلام.

[٤٤٢٨] كما ثَبَت في الصحيحين: «إن الله تعالى يقول: يا آدمُ. فيقول: لَبَّيكَ وسَعْدَيكَ. فيقول: ابعَث بَعْثَ النار. فيقول: وما بَعثُ النار؟ فيقول: من كلِّ ألفٍ تسعُمائةٍ وتسعةٌ وتسعون إلى النار، وواحِدٌ إلى

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» ٩٧٨ و ٩٧٩ بهذا الإسناد، وهو ضعيف، له علتان: ابن جريج لم يذكر من أخبره به عن الحسن، والحسن لم يسمع من سمرة سوىٰ حديث العقيقة، وهذا قول الأكثر، والله أعلم.

تنبيه: كان هذا الحديث في الأصول بعد أثر ابن جريج الذي رواه أبو يعلى الموصلي في الصفحة السابقة. وفي الأصول هنا عبارة «قال الحسن: هذا حديث سمرة»! هكذا فقط. ولا معنى له في المحل الأول، ويفهم من العبارة في المحل الثاني أن مكانه هنا فلينقل؛ وهذا ما فعلناه، والله أعلم.

الجنة؟ فحينئذ يَشِيبُ الصغيرُ، وتَضَع كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، فيقال: إنَّ فيكم أُمَّتين، ما كانتا في شيءٍ إلا كَثَّرتاه: يأجوج ومأجوج»[١]. وقد حكى النووي ـ رحمه الله ـ في «شرح مسلم»، عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خُلِقوا من مَنِيٍّ خَرَج من آدم فاختلط بالتراب، فَخُلِقوا من ذلك. فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسُوا من حواء. وهذا القولُ غريب جداً، لا دليلَ عليه لا من عقلٍ ولا نقلٍ، ولا يجوز الاعتمادُ ها هنا على ما يحكيه بعضُ أهل الكِتاب، لما عندهم من الأحاديثِ المفتعلة، والله أعلم.

[٤٤٢٩] وفي مسند الإمام أحمد، عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «وَلَدُ نوح ثلاثة: سامٌ أبو العرب، وحامٌ أبو السودان، ويافِثُ أبو الترك»[٢]. فقال بعضُ العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي الترك. قال: إنما سُمُّوا هؤلاء تُرْكاً لأنهم تُرِكوا من وراء السدِّ من هذه الجهة، أو لأنهم أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجَرَاءة. وقد ذكر ابنُ جرير ههنا عن وهب بن مُنَبِّه أثراً طويلاً عجيباً في سِيَر ذي القرنين، وبنائه السدَّ، وكيفيَّة ما جَرَى له. وفيه طُولٌ وغرَابَةٌ ونَكَارَةٌ في أشكالِهم وصِفَاتِهم، وطُولِهم وقِصَر بَعْضِهم، وآذانِهم. وَرَوَى ابنُ أبي حاتم أحاديثَ غريبةً في ذلك لا تَصِحُّ أسانيدها، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، لاستعجام كلامهم وبُعدِهم عن الناس. ﴿قَالُوا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾، قال ابن جُرَيج عن عطاء، عن ابن عباس: أجراً عظيماً. يعني أنهم أرادوا أن يجمَعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعَل بينهم وبينهم سدّاً. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصَلاح وقصد للخير: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خيرٌ لي من الذي تجمَعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]. وهكذا قال ذو القَرنين: الذي أنا فيه خيرٌ من الذي تبذُلونه، ولكن سَاعِدوني ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أي: بِعَمَلكم وآلات البناءِ، ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾، والزُّبَر: جمع زُبْرَة، وهي القطعة منه. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وهي كاللَّبِنَة، يقال: كل لبنة زنة قنطار بالدمشقي، أو تزيد عليه. ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾، أي: وَضَع بعضه على بعض من الأساس حتَّى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً. واختلفوا في مساحة عَرضِه وطوله على أقوال، ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أي: أَجِّجْ عليه النار حتى صار كلّه ناراً، ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ ـ قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والضحاكُ، وقتادةُ، والسُّدِّيُّ: هو النحاس. وزاد بعضهم: المُذَاب. ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبا: ١٢]، ولهذا يشبه بالبُرْدِ المُحبَّر.

[٤٤٣٠] قال ابن جرير: حدثنا بشرٌ، حدثنا يزيدُ، حدثنا سعيدٌ، عن قتادةَ قال: «ذُكِر لنا أن رجلاً قال: يا رسول الله، قد رأيتُ سدَّ يأجوج ومأجوج. قال: انعته لي. قال: كالبُرْد المحبَّر، طريقة سوداءُ، وطريقة حمراءُ. قال: قد رأيته»[٣]. هذا حديث مرسل. وقد بعث الخليفةُ الواثقُ في دولته بعضَ أمرائه، وجَهَّزَ معه جيشاً سريَّةً، لينظروا إلى السدِّ ويُعاينوه وينعَتُوه له إذا رجعوا. فتوصَّلوا من بلاد إلى بلاد، ومن مُلْك إلى

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٣٠ ومسلم ٢٢٢ وأحمد ٣/ ٣٢ ـ ٣٣ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١١ من حديث الحسن عن سمرة، وفيه عنعنة الحسن. وأخرجه الطبراني ١٨/ ١٤٥ ـ ١٤٦ والحاكم ٢/ ٥٤٦ من حديث الحسن عن عمران بن حصين عن سمرة بن جندب، وصححه الحاكم! ووافقه الذهبي! وفيه عنعنة الحسن، وهو مدلس، ونفى أبو حاتم سماعه من عمران.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣٣٤٠ عن قتادة، وهذا مرسل، وهو بصيغة التمريض، فهو ضعيف جداً، والمتن باطل.

مُلْك، حتى وَصَلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللَّبن والعَمَل في بُرج هناك، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه عالٍ منيف شاهق، لا يُستطاع ولا ما حوله من الجبالِ. ثم رَجَعوا إلى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين، وشاهَدُوا أهوالاً وعجائِبَ. ثم قال الله تعالى:

﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن يأجوجَ ومأجوجَ أنهم ما قَدَرُوا على أن يصعَدُوا فوق هذا السدِّ، ولا قَدروا على نَقْبِهِ من أسفله. ولما كان الظهورُ عليه أسهلَ من نَقْبِهِ قابل كُلاًّ بما يناسبه، فقال: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾. وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نَقْبِهِ، ولا شيءٍ منه.

[٤٤٣١] فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيدُ بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة، حدثنا أبو رافع، عن أبي هُرَيرَة، عن رسولِ الله ﷺ قال: «إن يأجوجَ ومأجوجَ ليحفرون السدَّ كلَّ يوم، حتى إذا كادُوا يَرَون شُعاعَ الشمسِ قال الذي عليهم: ارجِعُوا، فستحفرُونه غداً. فيعودُون إليه كأشدِّ ما كان، حتى إذا بلغت مُدَّتُهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس، حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا، فستحفرونه غداً إن شاء الله. ويستثني، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تَرَكُوه، فيحفرونه ويخرجُون على الناس، فَيَنْشِفُون المياه، ويتحصَّن الناس منهم في حصونهم، فيرمُون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيئَةِ الدم، فيقولون: قَهَرنا أهلَ الأرض وعَلَونا أهل السماء. فيبعث الله عليهم نَغَفاً في أقفائهم، فيقتلهم بها. قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن دوابَّ الأرضِ لتسمَنُ، وتَشْكَرُ شكْراً من لحومهم ودمائهم»[1]. ورواه أحمد أيضاً عن حسن ـ هو ابنُ موسى الأَشيبُ ـ عن سفيان، عن قتادَةَ، به. وكذا رواه ابنُ ماجه، عن أزهر بن مَرْوَان، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة قال: حدث أبو رافع. وأخرجه الترمذي، من حديث أبي عوانة، عن قتادة. ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وهذا إسناد جيِّدٌ قويٌّ، ولكن في رفعه نَكارة، لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمَكَّنوا من ارتقائه ولا من نَقْبِهِ، لإحكام بنائه وصلابته وشدته. ولكن هذا قد رُوِي عن كعب الأحبار: أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحَسُونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون: غداً نفتحه. فيأتون من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون كذلك، ويصبحون وهو كما كان، فيلحَسُونه ويقولون: غداً نفتحه. ويُلْهَمون أن يقولوا: «إن شاء الله» فيصبحون وهو كما فارقوه، فيفتحونه. وهذا مُتَّجه، ولعل أبا هُريرة تلقَّاه من كعب، فإنه كثيراً ما كان يجالسه ويُحدِّثه، فَحَدَّث به أبو هُريرة، فتوهَّم بعضُ الرواة عنه أنه مرفوع، فرفعه. والله أعلم. ويؤكد ما قلناه، من أنهم لم يتمكَّنوا من نَقْبه ولا نَقْبِ شيءٍ منه، ومن نَكارة هذا المرفوع، قولُ الإمام أحمد:

---

(١) إسناد حسن، ومتن غريب، أخرجه الترمذي ٣١٥٣، وابن ماجه ٤١٩٩، والحاكم ٤/ ٤٨٨، والطبري ٢٣٣٣١ وأحمد ٢/ ٥١٠ ـ ٥١١ من حديث أبي هريرة، صححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري: إسناده صحيح، رجاله ثقات، وهو كما قال، لكن استنكر ابن كثير رحمه الله المتن وذكر أحاديث ـ ستأتي ـ أصح منه، ومفادها أن فتح الردم يكون شيئاً فشيئاً، والله أعلم، وانظر الأحاديث الآتية.

[٤٤٣٢] حدثنا سفيان، عن الزهري عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة بنت أُم حبيبة بنت أبي سفيان، عن أُمها أُمِّ حَبِيبة، عن زينبَ بنت جَحشٍ زوج النبي ﷺ قال سفيان: أربعُ نسوةٍ ـ قالت: استيقَظَ النبيُّ ﷺ من نومه وهو محمَرٌ وجههُ، وهو يقول: لا إله إلا الله. ويل للعرب من شرٍّ قد اقتربَ. فُتِحَ اليومَ من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذا، وحلّق، قلت: يا رسولَ اللّهِ، أنَهلِكُ وفينا الصَّالحون؟ قال: نعم إذا كَثُر الخَبَثُ»[١] . هذا حديث صحيح اتّفق البخاريُّ ومسلمٌ على إخراجه، من حديث الزهري. ولكن سقط في رواية البخاري ذِكر حبيبة، وأثبتها مسلم. وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع في صناعة الإِسناد، منها رواية الزهري عن عروةَ، وهما تابعيان، ومنها اجتماع أربعِ نسوة في سَنَدِهِ، كلُّهن يروي بعضهن عن بعض. ثم كلُّ منهن صحابية، ثم ثنتان ربيبتان وثنتان زوجتان، رضي الله عنهن.

[٤٤٣٣] وقد روي نحو هذا عن أبي هريرة أيضاً، فقال البزار: حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا مؤمل بن إسماعيل حدثنا وهب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وعقد التسعين[٢] . وأخرجه البخاري ومسلم من حديث وهب به.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ ، أي لما بناه ذو القرنين ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ ، أي: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العبث في الأرض والفساد ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ ، أي إذا اقترب الوعد الحق ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ ، أي ساواه بالأرض تقول العرب ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي مساوياً للأرض. وقال عكرمةُ في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ ، قال: طريقاً كما كان. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ، أي: كائناً لا محالَةَ. وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ ، أي: الناس يومئذٍ، أي: يوم يُدَكُّ هذا السدُّ ويخرجُ هؤلاء فيموجُون في الناس ويُفسِدُون على الناس أموالَهم ويُتلِفون أشياءهم، وهكذا قال السدّيُّ في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ ، قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا كلُّه قبلَ يوم القيامة وبعد الدجّال، كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله تعالى ـ عند قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦ ـ ٩٧]، وهكذا قال ها هنا: ﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ ، قال ابنُ زيد في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ . قال: هذا أوّلُ يوم القيامة، ثم ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ على أثر ذلك، ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ . وقال آخرون: بل المرادُ بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ ، أي: يومَ القيامة يختلِطُ الإِنسُ والجنُّ.

روى ابنُ جرير، عن محمد بن حُمَيد، عن يعقوبَ القُمّي، عن هارون بن عَنْتَرَةَ، عن شَيْخ من بني فَزارَةَ في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ ، قال: إذا ماجَ الجنّ والإِنسُ قال إبليس: أنا أعلمُ لكم عِلْمَ هذا الأمر. فيظعَن إلى المشرق، فيجد الملائكة قد تَطبّقوا الأرض، ثم يظعَنُ إلى المغرب فيجدُ الملائكة تَطبّقوا الأرض، ثم يظعن يميناً وشمالاً حتى ينتهي إلى أقصى الأرض، فَيَجِدُ الملائكة تَطبّقوا الأرضَ، فيقول: ما من مَحيص فبينما هو كَذَلك إذ عَرَضَ له طريقٌ كالشّراك، فأخذ عليه هو وذُرّيّته، فبينما هم عليه إذ هجموا على النار، فأخرجَ الله خازناً من خُزّان النار، فقال: يا إبليسُ، ألم تكن لك المنزلةُ عند ربك؟. ألم تكن في الجِنان؟. فيقول: ليس هذا يومَ عتاب، لو أن الله فَرَضَ عَلَيّ فريضة لعبدتُه فيها عبادةً لم يَعْبُده مثلَها

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٤٦ ومسلم ٢٨٨٠ وأحمد ٦/٤٢٨ والترمذي ٢١٨٧ وابن ماجه ٣٩٥٣ وابن حبان ٣٢٧.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٤٧ ومسلم ٢٨٨١.

أحدُ من خلقه. فيقول: فإن الله قد فَرَض عليك فريضةً. فيقول: ما هي؟ فيقول: يأمرك أن تدخل النار. فَيتلكَّأ عليه، فيقولُ به وبِذُرِّيته بجناحيه فيقذِفُهم في النار. فتزفر جهنم زفرة لا يبقى مَلَك مُقرَّب ولا نبي مُرسَل إلا جَثَا لِرُكبتَيهِ. وهكذا رواه ابنُ أبي حاتم من حديث يعقوب القُمِّي، به. ورواه من وجه آخَرَ، عن يعقوب، عن هارون بن عَنْتَرَةَ، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، قال: الجِن والإنس، يموجُ بعضُهم في بعض.

[٤٤٣٤] وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الأصبهاني، حدَّثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا المغيرة بن مسلم، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أُرسلوا لأفسَدُوا على الناس مَعَايِشَهُم. ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذُرِّيته ألفاً فصاعداً، وإن من ورائهم ثَلاثَ أُمَم: تاويل، وتاريس، ومنسَك»[1]. هذا حديث غريب، بل منكر ضعيف.

[٤٤٣٥] ورَوى النسائي من حديث شعبةَ، عن النعمان بن سالم، عن ابن عمرو بن أوس، عن أبيه، عن جده، مرفوعاً: «إن يأجوج ومأجُوجَ لهم نساء يُجَامعون ما شاؤوا، وشجَر يَلْقَحُون ما شاؤوا، ولا يموتُ منهم رجلٌ إلا ترك من ذُرِّيته ألفاً فصاعداً»[2]. وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾.

[٤٤٣٦] والصُورُ كما جاء في الحديث: قَرنٌ يُنفَخُ فيه، والذي ينفخُ فيه إسرافيل عليه السلام[3]، كما تقدَّم في الحديث بطوله، والأحاديث فيه كثيرة.

[٤٤٣٧] وفي الحديث عن عطيّة، عن ابن عباس وأبي سَعِيد مرفوعاً: «كيف أنعَمُ وصاحب القرن قد التقم القَرْن، وحنى جبهته واستمع متى يؤمر. قالوا: كيف نقولُ؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونِعْمَ الوكيلُ، على الله توكلنا»[4]. وقوله: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾، أي: أحضرنا الجميعَ للحساب ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩ ـ ٥٠]، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

يقولُ تعالى مخبِراً عما يفعله بالكُفَّار يوم القيامة، أنه يَعرِض عليهم جَهَنَّم، أي: يُبرِزها لهم ويظهرها، ليَرَوا ما فيها من العذاب والنَّكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغَ في تَعْجِيل الهمّ والحُزْن لهم.

---

(١) أخرجه الطيالسي ٢٢٨٢ والطبراني كما في «المجمع» ١٢٥٧١، وقال الهيثمي: رجاله ثقات أهـ. ومداره على وهب بن جابر الخَيْواني، جاء في التهذيب: وثقه يحيى في رواية، وكذا العجلي، وابن حبان، وقال علي المديني والنسائي: مجهول. وذكره الذهبي في «الميزان» ٩٤٢٣ فقال: قال ابن المديني: مجهول، قلت: لا يكاد يعرف تفرد عنه أبو إسحق أهـ وللحديث علة ثانية أبو إسحق هو السبيعي، مدلس، وقد عنعن. وقال ابن كثير في النهاية ١/ ١٤٥: غريب، وقد يكون من كلام عبد الله بن عمرو من الزاملتين، والله أعلم.

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» ١١٣٣٤ وفيه ابن أوس ذكره الحافظ في التهذيب من غير جرح ولا تعديل، وقال: اسمه عبد الرحمن.

(٣) تقدم في سورة الأنعام عند آية: ٧٣.

(٤) تقدم في سورة آل عمران عند آية: ١٧٣.

[٤٤٣٨] وفي صحيح مسلم، عن ابن مسعود قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُؤتى بجهنم يوم القيامة تُقادُ بسبعين ألفَ زِمَام، مع كُلِّ زِمَام سبعُونَ ألفَ مَلَكٍ»(١). ثم قال مخبراً عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾، أي: تعامَوا وتغافَلوا وتَصامّوا عن قبول الهُدى واتّباع الحق، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال هـا هـنـا: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾، أي: لا يعقِلُون عن الله أمره ونَهيه. ثم قال: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أعتقَدُوا أنهم يصحُّ لهم ذلك، وينتفعون بذلك؟ ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨٢]، ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعدَّ لهم جهنّم يوم القيامة منزلاً.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عَمْرو، عن مُصعَب قال: سألت أبي ـ يعني سَعْدَ بن أبي وقاص ـ عن قول الله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ أهم الحَرُورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ وأما النصارى فكفروا بالجَنّةِ، وقالوا: لا طعامَ فيها ولا شَرابَ، والحروريّة الذين ينقضُون عهدَ الله من بعد ميثاقه. وكان سعد ـ رضي الله عنه ـ يسميهم الفاسقين، وقال علي بن أبي طالب، والضحاك، وغير واحد: هم الحَرُورية. ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحروريّة كما تشملَ اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعمُّ من هذا؛ فإنّ هذه الآية مكية قبل خطاب اليهودِ والنصارى وقبل وُجودِ الخوارج بالكلية، وإنما هي عامّة في كل من عبدَ الله على غير طريقةٍ مَرْضيَّةٍ يَحْسب أنه مصيبٌ فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطىء وعملُه مردودٌ، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]. وقال في هذه الآية الكريمة، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾، أي: نُخبِركم ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾؟ ثم فسرهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: عَمِلوا أعمالاً باطلةً على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، أي: يَعتقِدون أنّهم على شيءٍ، وأنهم مَقبُولون مَحبُوبون. وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾، أي: جَحدوا آياتِ الله في الدنيا، وبَراهينَه التي أقام على وحدانيته، وصِدْق رسله، وكَذّبوا بالدار الآخرة، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾، أي: لا نُثقِلُ موازينهم لأنها خالية عن الخير.

[٤٤٣٩] قال البخاري: حدثنا محمدُ بن عبد الله، حدثنا سعيدُ بن أبي مريم، أخبرنا المغيرةُ، حدَّثني أبو الزناد، عن الأعرجِ، عن أبي هُريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه لَيأتي الرجلُ العظيمُ السمينُ يومَ القيامة، لا يَزِنُ عند الله جناحَ بعوضةٍ، وقال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾»(٢). وعن

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٤٢.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢٩ ومسلم ٤٦٧٨.

يحيى بن بُكَير، عن مغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد، مثله. هكذا ذَكَره عن يحيى بن بكير مُعَلّقاً. وقد رواه مسلم، عن أبي بكر محمد بن إسحاق، عن يحيى بن بكير، به.

[٤٤٤٠] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن صالح مولى التَّوأمةِ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُؤتَى بالرَّجُلِ الأكُولِ الشروبِ العَظِيم، فَيُوزَن بحبَّة فلا يَزِنُها». قال: وقرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[1]. وكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيب، عن أبي الصَّلْت عن ابن أبي الزِّنادِ، عن صالح مولى التَّوْأمَةِ، عن أبي هُرَيرة مرفُوعاً. فذكره بلفظ البخاري سواء.

[٤٤٤١] وقال أحمدُ بن عَمْرو بن عَبدِ الخالق البزّارِ: حدثنا العباسُ بنُ محمدٍ، حدثنا عَون بن عُمَارة، حدثنا هشام بن حَسَّان، عن واصل، عن عبد الله بن بُرَيدة، عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل رجل من قريش يَخْطِرُ في حُلّة له، فلما قامَ على النبي ﷺ قال: يا بُرَيدَةُ، هذا ممن لا يُقيم الله له يوم القيامة وزناً»[2]. ثم قال: تَفَرّد به واصلٌ مولى أبي عنبسة، وعنه عَوْن بن عُمَارةَ وليس بالحافِظ. ولم يتابع عليه.

وقد قال ابنُ جرير أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبدُ الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن شِمْرٍ، عن أبي يحيى، عن كعب قال: يؤتى يوم القيامة برجلٍ عظيم طويل، فلا يَزِن عند الله جناح بعوضةٍ، اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾، وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟﴾، أي: إنما جازيناهم بهذا الجزاءِ بِسَببِ كُفرِهم واتّخاذِهم آياتِ الله ورُسلِه هُزواً، استهزؤوا بهم وكَذَّبوهم أشدَّ التكذيب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

يخبر تعالى عن عباده السُّعَداء، وهم الذين آمنوا بالله ورُسُلِه وصَدَّقوهم فيما جاؤوا به، بأنَّ لهم جناتِ الفِرْدَوس. قال مجاهد: الفردوس هو البُستان بالروميّة. وقال كعبٌ، والسدّي، والضّحاك: هو البستان الذي فيه شجرُ الأعناب. وقال أبو أمامة: الفردوس سُرّة الجنة. وقال قتادةُ: الفردوسُ: ربوةُ الجنة وأوسطها وأفضلها.

[٤٤٤٢] وقد رُوي هذا مرفوعاً من حديث سعيد بن بَشير، عن قتادَةَ، عن الحسن، عن سَمُرة، عن النبي ﷺ: «الفردوسُ رَبوةُ الجنة، هي أوسطها وأحسنها»[3]. وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن سَمُرة، مرفوعاً. ورُوي عن قتادة، عن أنس بن مالك مرفوعاً بنحوه. روى ذلك كلَّه ابن جرير.

[٤٤٤٣] وفي الصحيحين: «إذا سألتُم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنةِ وأوسطُ الجنةِ، ومنه تَفَجّرُ أنهارُ الجنة»[4]. وقوله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾، أي: ضِيافةً، فإنَّ النّزُلَ الضِّيافةُ. وقولُه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مُقِيمين ساكنين فيها، لا يظعَنُون عنها أبداً، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، أي: لا يختارون غيرَها، ولا يُحِبُّون سواها، وكما قال الشاعر:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣٣٩٩، وفي الإسناد صالح بن نبهان، اختلط، لكن يشهد له ما قبله.

(٢) أخرجه البزار ٢٩٥٦، وقال الهيثمي في «المجمع» ٨٥٣٢: عون بن عمارة، ضعيف.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣٤١٥ و٢٣٤١٦ والطبراني ٦٨٨٦ و٨٨٥ و٧٠٨٨ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/٣٩٨، وقال: وأحد أسانيد الطبراني رجاله وثقوا، وفي بعضهم ضعف اهـ. قلت: يشهد له ما بعده.

(٤) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٣٣.

فَحَلَّتْ سُوَيدَا القَلْبِ، لاَ أَنَا بَاغِياً سِوَاهَا، وَلاَ عَنْ حُبِّهَا أَتَحَوَّلُ

وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، تنبيهٌ على رَغْبَتِهم فيها، وحبهم لها، لأنَّه قد يُتَوهَّم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يَمَلُّه، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السَّرمَدِيِّ لا يختارون عن مقامهم ذلك مُتحوَّلاً ولا انتقالاً، ولا ظَعْنا ولا رِحلةً ولا بَدَلاً.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

يقولُ تعالى: قل يا مُحمَّدُ: لو كان ماءُ البحرِ مِدَاداً للقلم الذي تُكتَبُ به كلمات رَبِّي وحِكَمه وآياته الدالة عليه، لَنَفِد البحر قبلَ أن تَفرُغَ كتابة ذلك، ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾، أي: بمثل البحر آخرَ، وهَلُمَّ جرّاً، بُحورٌ تَمُدُّه ويُكتَب بها، لما نَفِدَت كلماتُ الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧]. قال الربيع بن أنس: إنَّ مثل علم العبادِ كُلِّهم في علم الله كَقَطْرَةٍ من ماء البحور كُلِّها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾. يقولُ: لو كان البحر مِدَاداً، والشجر كُلُّها أقلامٌ، لانكسرت الأقلام وَفَني ماءُ البحر، وبَقِيت كلماتُ الله قائمةً لا يُفنيها شيءٌ، لأن أحداً لا يستطيع أن يَقْدُرَ قدرها ولا يُثني عليه كما ينبَغي، حتى يكونَ هو الذي يُثني على نفسه، إن ربَّنا كما يقول وفوق ما نقول، إنَّ مَثَلَ نعيم الدنيا أولَها وآخرها في نعيم الآخرة كحبَّة من خَرْدَلٍ في خلال الأرض.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

يقولُ تعالى لرسوله محمد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المكذِّبين برسالتك إليهم: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، فمن يَزعُم أني كاذب فَلْيأتِ بمثلِ ما جئتُ به، فإني لا أعلَمُ الغيب فيما أخبرتُكم به من الماضي، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف، وخَبَرِ ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلَعَني الله عليه. وأنا أخبركم ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي أدعوكُم إلى عبادته، ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، لا شريكَ له، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، أي: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، وهو ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، وهو الذي يُرادُ به وَجْهُ الله وحدَه لا شريكَ له. وهذان ركنا العَمل المتقبَّل. لا بدَّ أن يكونَ خالِصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ.

[٤٤٤٤] وقد روى ابنُ أبي حاتم، من حديث معمر، عن عبد الكريم الجَزَري، عن طاووس قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله، إني أقف المواقف أريد وجهَ الله، وأحبُّ أن يُرَى موطني. فلم يَرُدَّ عليه رسول الله ﷺ شيئاً، حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1]. وهكذا أرسل هذا مجاهدٌ، وغيرُ واحد.

[٤٤٤٥] وقال الأعمش: حدثنا حمزة أبو عُمَارة مولى بني هاشم، عن شَهْرِ بن حَوْشَب قال: جاء رجلٌ إلى عُبَادَةَ بن الصامت فقال: أنبئني عما أسألُكَ عنه: أرأيتَ رَجُلاً يُصَلِّي يبتغي وجه الله ويحب أن يُحْمَدَ، ويصوم ويبتغي وجهَ الله ويُحبُّ أن يُحمَدَ، ويَتَصدَّق ويبتَغي وجه الله ويحبُّ أن يحمد، ويحج ويبتغي وَجْهَ

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٣٤٢٧ مرسلاً، وذكر نزول الآية ضعيف، فإنها مكية، والصواب أنه تلاها عليه.

الله ويُحبُّ أن يُحمَدَ؟ فقال عبادةُ: ليس له شيءٌ، إنَّ الله تعالى يقولُ: أنا خيرُ شريكٍ، فمن كان له مَعي شريك فهو له كلُّه، لا حاجةَ لي فيه[١].

[٤٤٤٦] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير، حدثنا كثير بن زيد، عن رُبيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخُدْرِي، عن أبيه عن جَدِّه قال: كُنَّا نتناوَبُ رسولَ الله ﷺ فَنبيت عنده، تكونُ له الحاجةُ، أو يطرُقه أمرٌ من الليل، فيبعثنا. فكثر المحتسبون وأهل النُّوب، فكنا نتحدَّثُ، فخرج علينا رسولُ الله ﷺ فقال: ما هذه النَّجْوَى؟ [ألم أنهكم عن النجوى] قال: فقلنا: تُبنا إلى الله أَيْ نبيَّ الله، إنما كنا في ذكر المسيح، وفَرِقنا منه، فقال: ألا أُخبركم بما هو أخوفُ عليكم من المسيح عندي؟ قال: قلنا: بلى. قال: الشركُ الخفيُّ، أن يقومَ الرجلُ يُصَلِّي لمكَانِ الرَّجل[٢].

[٤٤٤٧] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، يعني ابن بَهرام، قال: قال شهر بن حَوْشَبٍ: قال ابنُ غَنْم: لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء، لقينا عبادَةَ بن الصامت، فأخذ يميني بشِمالِه، وشمالَ أبي الدرداء بيمينه، فخرَجَ يمشي بيننا ونحن نتناجَى به، والله أعلم بما نتناجى به، فقال عبادةُ بن الصامت: إن طال بكما عمرُ أحدكما أو كليكما لَتُوشِكان أن تَرَيا الرجل من ثَبَج المسلمين ـ يعني من وسط ـ قرَأ القرآن على لسان محمد ﷺ فأعاده وأبدأه، وأحل حلاله وحرَّم حرامه، ونزل عند منازله. أو قرأه على لسان أخيه على لسان محمد ﷺ فأعاده وأبدأه، وأحلّ حلاله وحرم حرامه، ونَزَلَ عند منازله، لا يَحُورُ فيكم إلا كما يَحُورُ رأس الحمار الميت. قال: فبينما نحنُ كذلك، إذ طَلَع شداد بن أوس، وعوف بن مالك، فجَلَسا إلينا، فقال شَدَّادٌ: إن أخوَفَ ما أخافُ عليكم أيها الناس ما سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: من الشهوة الخَفِيَّةِ والشرك. فقال عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء: اللهم غَفْراً. أولم يكن رسول الله ﷺ قد حَدَّثنا أن الشيطان قد يَئِسَ أن يُعبَد في جزيرة العرب. وأما الشهوةُ الخفيَّةُ فقد عَرَفناها، هي شَهَوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذي تُخَوِّفنا به يا شداد؟ فقال شداد: أرأيتكم لو رأيتُم رَجُلاً يُصَلِّي لرجل، أو يصوم لرجل أو يتَصدَّق له، أترون أنه قد أشرك؟ قالوا: نعم، والله إنه من صلّى لرجل أو صام له أو تصدَّق له، لقد أشرك. فقال شداد: فإني سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من صلَّى يُرَائي فقد أشرك، ومن صام يُرَائي فقد أشرك، ومن تَصدَّق يرائي فقد أشرك». فقال عوفُ بن مالك عند ذلك: أفلا يعمِد الله إلى ما ابتُغي به وجهَه من ذلك العمل كُلِّه، فيقبل ما خَلَص له ويَدَع ما أشرك به؟ فقال شداد عند ذلك: فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إن الله يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئاً فإنَّ عَمَله قَلِيلَه وكَثِيرَه لِشَرِيكِهِ الذي أَشرَكَ به، أنا عنه غنيٌّ»[٣].

[٤٤٤٨] طريقٌ أُخرَى لبعضه، قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني عبد الواحد بن زيد، أخبرنا عُبادةُ بن نُسَيٍّ، عن شَدَّاد بن أَوْسٍ رضي الله عنه أنه بَكَى، فقيل له: ما يُبكِيك؟ قال: شيء سَمِعْتُه من رسول الله ﷺ فأبكاني، سمِعتُ رسول الله يقول: أتخوَّفُ على أُمَّتي الشرك والشهوةَ الخفيَّة. قلتُ: يا رسول

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣٤٢٩ وفيه إرسال بين شهر وعبادة بن الصامت، لكن للحديث شواهد.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٣٠ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١/ ٣١٥ وقال: ورجاله موثقون. قلت: بل رُبيح غير معروف، وقال البخاري: منكر الحديث، فالإسناد ضعيف. لكن لأصل الحديث شواهد.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٢٥ ـ ١٢٦، وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٢٢١ وقال: وفيه شهر بن حوشب وثقه أحمد وغيره، وضعفه غير واحد، وبقية رجاله ثقات اهـ. قلت: شهر غير حجة، لكن للحديث شواهد.

اللَّهِ، أَتُشركُ أمتك من بعدك؟ قال: نعم، أما إنهم لا يعبدُون شمساً ولا قمراً، ولا حجراً ولا وَثَناً، ولكن يُراؤون بأعمالهم، والشهوةُ الخفيّة أن يصبح أحدُهم صائماً فتعرض له شهوةٌ من شَهَواته فيترُك صَوْمَه»[١]. ورواه ابن ماجه من حديث الحسن بن ذكوان، عن عبادة بن نُسَيّ، به. وعبادةُ فيه ضعفٌ، وفي سماعه من شداد نظر.

[٤٤٤٩] حديث آخر، قال الحافظ أبو بكر البزّار: حدثنا الحُسَين بن علي بن جعفر الأحمر، حدثنا علي بن ثابت، حدثنا قيس بن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله يوم القيامة: أنا خيرُ شريك، من أشرك بي أحداً فهو له كلّه»[٢].

[٤٤٥٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، سمعت العلاء يُحدِّث عن أبيه، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ يرويه عن ربِّه ـ عز وجل ـ أنه قال: أنا خيرُ الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريءٌ، وهو للذي أشرك»[٣]. تفرد به من هذا الوجه.

[٤٤٥١] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا الليث، عن يزيد ـ يعني ابن الهاد ـ عن عمرو، عن محمود بن لبيد: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أخوَفَ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ. قالوا: وما الشركُ الأصغرُ يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: الرياءُ، يقولُ الله يومَ القيامةِ إذا جَزَى الناسَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراؤون في الدنيا، فانظروا هل تَجِدُون عندهم جزاءً»[٤].

[٤٤٥٢] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بَكْرٍ، أخبرنا عبد الحميد ـ يعني ابنَ جعفر ـ أخبرني أبي، عن زياد بن ميناءَ، عن أبي سعيد بن أبي فَضَالَةَ الأنصاري ـ وكان من الصحابة ـ أنه قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: إذا جَمَع الله الأوَّلين والآخرينَ ليوم القيامة، ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: من كان أشركَ في عملٍ عَمِله لله أحداً فَلْيطلُبْ ثوابَه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك[٥]. وأخرجه الترمذي وابن ماجه، من حديث محمد بن بكر، وهو البُرْسَاني به.

[٤٤٥٣] حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا بكار، حدثني أبي ـ يعني عبد العزيز بن أبي بكرةَ ـ عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من سَمَّع سَمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به»[٦].

[٤٤٥٤] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا معاويةُ، حدثنا شيبانُ، عن فِرَاسٍ، عن عطيَّةَ، عن أبي سعيدٍ الخدري، عن رسولِ الله ﷺ قال: «من يُرَائِي يُرائِي الله به، ومن يُسَمِّع يُسَمِّع الله به»[٧].

---

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٤/ ١٢٤ ح ١٦٦٧١، وابن ماجه ٤٢٠٥ والحاكم ٤/ ٣٣٠ ح ٧٩٤٠ وصححه، ورده الذهبي بقوله: عبد الواحد ـ بن زيد ـ متروك. وذكره المنذري ٥٠، ونقل تصحيح الحاكم، ثم عقبه: كيف، وعبد الواحد بن زيد الزاهد، متروك اهـ. وأعله ابن كثير بعبادة بن نُسيّ أيضاً.

(٢) إسناده غير قوي، علي بن ثابت فيه ضعف، لكن المتن صحيح بشواهده.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٤/٢٢٨٩ وأحمد ٢/ ٣٠١ و٤٣٥ والطيالسي ٢٥٥٩ وابن ماجه ٤٢٠٢ وابن حبان ٣٩٥.

(٤) تقدم.

(٥) حسن. أخرجه الترمذي ٣١٥٤ وابن ماجه ٤٢٠٣ وأحمد ٣/ ٤٦٦ والبيهقي في «الشعب» ٦٨١٧، وقال الترمذي: حسن غريب اهـ وله شواهد كثيرة تقويه.

(٦) جيد. أخرجه أحمد ٥/ ٤٥ والبزار ٣٥٦٣ والطبراني كما في «المجمع» ١٠/ ٢٢٢ وقال الهيثمي: وأسانيدهم حسنة.

(٧) متن جيد، أخرجه الترمذي ٢٣٨١ وأحمد ٣/ ٤٠ وقال الترمذي: حسن صحيح. كذا قال، والإسناد ضعيف لضعف عطية بن سعد، لكن المتن محفوظ بشواهده.

[٤٤٥٥] حديثٌ آخرُ: قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يحيى بنُ سعيدٍ، عن شُعبةَ، حدثني عَمرو بن مُرَّة، قال: سَمِعتُ رجلاً في بيت أبي عبيدة أنه سَمِع عبد الله بن عمرو يُحدِّث ابن عمر، أنه سَمع رسولَ الله ﷺ يقول: «من سَمَّع الناس بعمله سَمَّع الله به، سامِعَ خَلْقَه، وصَغَّره وحَقَّره». فَذَرِفت عينا عبد الله[١].

[٤٤٥٦] وقال الحافظ أبو بكر البزّار: حدثنا عَمرو بن يحيى الأيلي، حدثنا الحارثُ بن غَسّانَ، حدثنا أبو عمرانَ الجَوْنيُّ، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تُعرَض أعمال بني آدم بين يَدَي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يوم القيامة في صُحُف مُختَّمةٍ فيقولُ الله: ألقُوا هذا، واقبلَوا هذا. فتقولُ الملائكةُ: يا ربِّ، والله ما رأينا منه إلا خيراً. فيقولُ: إنَّ عمله كان لغير وَجْهِي، ولا أقبل اليومَ من العمل إلا ما أُرِيد به وجهي»[٢]. ثم قال: الحارثُ بن غسّانَ، روى عنه جماعةٌ، وهو ثقة بصري ليس به بأس.

[٤٤٥٧] قال ابنُ وَهْبٍ: حدثني يزيدُ بن عياض، عن عبد الرحمن الأعرج، عن عبد الله بن قيس الخُزَاعِيِّ: أن رسول الله ﷺ قال: «من قام رياءً وسُمعةً لم يزل في مَقْتِ الله حتى يجلس»[٣].

[٤٤٥٨] وقال أبو يعلَى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا محمد بن دينار، عن إبراهيم الهَجَرِيِّ، عن أبي الأحوص عوف بن مالك، عن ابن مسعود قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأساءها حيثُ يخلُو. فتلك استهانة استهان بها ربَّه عز وجل»[٤].

[٤٤٥٩] وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عَمرو السَّكُوني، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن عيَّاش، حدثنا عمرو بن قيس الكِنْدِيّ: أنه سَمِع معاويةَ بن أبي سفيان تلا هذه الآية... ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، وقال: إنها آخر آية نزلت في القرآن[٥]. وهذا أثرٌ مشكل، فإن هذه الآية آخِرُ سورةِ الكهف، والكهفُ كلُّها مكيّة، ولعلَّ معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسَخُها ولا تُغيِّر حكمها، بل هي مُثبتة محكَمة، فاشتَبه ذلك على بعضِ الرواة، فروى بالمعنى على ما فَهِمه، والله أعلم.

[٤٤٦٠] وقال الحافظ أبو بكر البزّار: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا النضر بن شُميل، حدثنا أبو قُرَّة، عن سعيد بن المسيَّب، عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ في ليلةٍ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، كان له نورٌ من عَدَنِ أبينَ إلى مَكّةَ، حَشْوُهُ الملائكة»[٦]. غريبٌ جداً.

---

(١) حسن. أخرجه أحمد ٢/ ١٦٢ و١٩٥ و٢١٢ و٢٢٣ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٢٢ وقال: رواه الطبراني وأحمد باختصار، وسمى الطبراني الرجل، وهو هيثمة بن عبد الرحمن، فبهذا الاعتبار رجال أحمد، وأحد أسانيد الطبراني في «الكبير» رجال الصحيح.

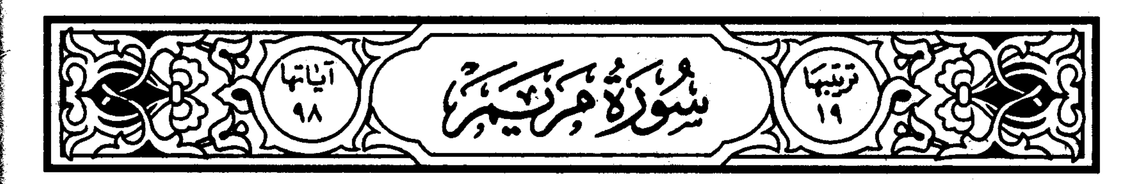
(٢) أخرجه العقيلي ١/ ٢١٨، وأعله بالحارث بن غسان، وأنه حدث بمناكير. وقال الذهبي في الميزان: مجهول، فالخبر إلى الضعف أقرب.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبراني كما في «المجمع» ١٠/ ٢٢٣ وقال الهيثمي: وفيه يزيد بن عياض، وهو متروك.

(٤) تقدم في سورة النساء: ١٤٢.

(٥) فيه هشام بن عمار، صدوق، لكن تغير بأخرَه، وفيه إسماعيل بن عياش غير قوي، وقد صح أن آخر آية نزلت ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾.

(٦) ضعيف، أخرجه الحاكم ٢/ ٣٧١ ح ٥٤٠٣، والبزار ٣١٠٨، صححه الحاكم!، وتعقبه الذهبي بقوله: أبو قرة، فيه جهالة، ولم يضعف اهـ. وقال في الميزان: مجهول، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٠٦٢: أبو قرة لم يروِ عنه غير النضر بن شميل اهـ.



وهي مَكّية

وقد روى محمدُ بن إسحاق في السِّيرة من حديثِ أم سَلَمَةَ، وأحمدُ بن حَنْبَلٍ، عن ابن مسعود، في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة: أن جعفرَ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه. والله أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾

أمّا الكلامُ على الحروف المُقطَّعة فقد تقدَّم في أول سورةِ البقرة. وقولُه: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾. أي: هذا ذكر رحمة ربِّك بعبده زكريا. وقرأ يحيى بن يعمر: «ذَكَّرَ رحمةَ ربك عبدَه زكريا». ﴿زَكَرِيَّآ﴾: يُمَدُّ ويُقصرُ، قراءتان مشهُورَتَان. وكان نبيّاً عَظِيماً من أنبياءِ بني إسرائيلَ. وفي صحيح البخاري: أنه كان نَجّاراً[١]، أي: إنه كان يأكلُ من عَمَل يدَيه في النّجارة. وقولُه: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣﴾، قال بعضُ المفسرين: إنما أخفى دُعاءَه لئلا يُنسَبَ في طلب الولد إلى الرّعُونة لِكِبَرِهِ. حكاه الماوردي. وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحبُّ إلى الله. كما قال قتادةُ في هذه الآية: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣﴾: إن الله يعلم القلب التَّقِيَّ، ويسمَعُ الصوتَ الخَفِيّ. وقال بعضُ السَّلَفِ: قام من اللَّيل وقد نام أصحابُه، فجعل يهتف بربِّه، يقول خُفيَةً: يا ربِّ، يا ربِّ، يا ربِّ. فقال الله: لَبَّيك، لَبَّيك، لَبَّيك. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾، أي: ضَعُفَ، وخارَتِ القُوَى، ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾، أي: اضطرم المَشِيب في السَّواد، كما قال ابن دريد في مقصورته:

إمّـا تَـرَىْ رَأْسِـيَ حَـاكَـى لَـونُـهُ ... طُـرّةَ صُبْـحٍ تَـحـتَ أذيـال الـدُّجَـى
وَاشْـتَـعَـلَ الـمُـبْـيَـضُ فـي مُـسْـوَدِّه ... مِـثْـلَ اشتِـعَـالِ الـنَّـارِ في جَـزْلِ الـغَـضَـا

والمرادُ من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائِله الظاهرة والباطنة. وقولُه: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ

(١) أخرجه مسلم ٢٣٧٩ وأحمد ٢/٢٩٦ و٤٠٥ و٤٨٥ وابن ماجه ١١٥٠ وأبو يعلى ٦٤٢٦ من حديث أبي هريرة، ولم أره عند البخاري.

رَبِّ شَقِيًّا﴾، أي: ولم أعهَدْ مِنك إلاّ الإجابةَ في الدعاء، ولم ترُدَّني قطُّ فيما سألتُك. وقولُه: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾، قرأ الأكثرون بنصب «الياء» من ﴿ٱلْمَوَٰلِيَ﴾، على أنه مفعول. وعن الكسائي أنه سكن الياء، كما قال الشاعر:

كَأنَّ أيديهِنَّ في القَاعِ القَرِقْ[1] ... أيدي جَوَارٍ يَتَعاطَينَ الورِقْ

وقال الآخر:

فَتَى لو يُبَاري الشَّمسَ أَلقَتْ قِناعَها ... أو القَمرَ السَّاري لألْقَى المَقَالِدَا

ومنه قول أبي تَمّام حَبِيب بن أوس الطائي:

تَغَايَرَ الشِعرُ فيه إذْ سَهِرتُ لَهُ ... حتّى ظَنَنتُ قَوَافِيْهِ سَتَقْتَتِلُ

وقال مجاهدٌ، وقتادةُ، والسّديُّ: أراد بالموالي العَصَبةُ. وقال أبو صالح: الكَلاَلَةُ. وروي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يَقرؤُها: «وإنّي خَفَّتِ الموالي من ورائي»، بتشديد «الفاء»، بمعنى: قَلَّت عَصَبَاتي من بعدي. وعلى القراءة الأولى وجهُ خَوفه أنّه خَشِي أنْ يتصرّفوا من بعده في الناس تَصرُّفاً سيئاً، فسأل الله ولداً يكون نبيّاً من بعده، ليسُوسَهم بنبوته وما يوحى إليه. فأجيب في ذلك، لا أنه خَشِي من وِرَاثَتِهم له ماله، فإن النبي أعظمُ منزلةً وأجلُّ قدراً من أن يُشفِقَ على ماله إلى ما هذا حدّه وأن يأنف من وراثة عَصَباته له، ويسأل أن يكون له ولد، لِيَحُوزَ ميراثه دونهم. هذا وجه.

الثاني: أنه لم يُذكَر أنه كان ذا مال، بل كان نَجّاراً يأكل من عَمَل يَدِهِ، ومثل هذا لا يجمع مالاً، ولا سيما الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فإنهم كانوا أزهد شيءٍ في الدنيا.

[٤٤٦١] الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورَثُ؛ ما تركنا فَهو صَدَقة»[2].

[٤٤٦٢] وفي رواية عند الترمذي بإسنادٍ صحيح: «نحن ـ مَعَاشر الأنبياء ـ لا نُورَثُ»[3]. فعلى هذا تعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي﴾، على ميراث النبوة، ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾، أي: في النبوة، إذ لو كان في المال لما خَصَّه من بين إخوته بذلك، ولَما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والمِلَل أنَّ الولد يَرِثُ أباه، فلولا أنها وراثةٌ خاصة لما أخبر بها. وكل هذا يُقرِّرُه ويُبَيِّنُه ما صحّ في الحديث:

[٤٤٦٣] «نحن ـ معشر الأنبياء ـ لا نُورَثُ، ما تركنا فَهو صدقةٌ»[4].

---

(١) القرق: المكان المستوي، والقاع: أرض سهلة مطمئنة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٠٩٤ ومسلم ١٧٥٧ وأبو داود ٦٩٦٣ والترمذي ١٦١٠ وأبو يعلى ٢ من حديث أبي بكر الصديق، في أثناء حديث.

(٣) لم يروه الترمذي ولا غيره بلفظ «نحن» وقد نص على ذلك الحافظ في «الفتح» ٨/ ١٢ بقوله: وما اشتهر في كتب الأصول وغيرهم بلفظ «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» فقد أنكره جماعة من الأئمة، وهو كذلك بالنسبة للفظ «نحن» لكن أخرجه النسائي من طريق ابن عيينة عن أبي الزناد بلفظ «إنا معشر الأنبياء لا نورث» وهو كذلك ي مسند الحميدي عن ابن عيينة، وهو أتقن أصحاب ابن عيينة. اهـ ملخصاً، وانظر مسند الحميدي ٢٢ وانظر ما قاله الحافظ في الجمع بين هذه الأحاديث والآية الكريمة.

(٤) هو كسابقه.

قال مجاهدٌ في قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾: كان وِراثَتُه عِلماً، وكان زكريّا من ذرية يعقوب. وقال هُشَيم: أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، قال: يكون نبياً، كما كانت آباؤه أنبياء. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادَة، عن الحسن: يَرِث نُبوّته وعِلْمَه. وكذا قال السّدّي: يرث نُبُوّتي ونبوة آل يعقوب. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، قال: نبوتهم. وقال جابرُ بن نُوح ويزيدُ بن هارونَ، كلاهما عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، قال: يَرِثُ مالي، ويَرِثُ من آل يعقوبَ النبوّة. وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره.

[٤٤٦٤] وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة: أن رسول الله ﷺ قال: «يرحَمُ الله زكريا. وما كان عليه من وَرَثة؟ ويرحَمُ الله لوطاً. إن كان لَيأوِي إلى رُكْنٍ شديدٍ»[١].

[٤٤٦٥] وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا جابر بن نوح، عن مبارك ـ هو ابنُ فضالَةَ ـ عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِم الله أخي زكريا. ما كان عليه من وَرَثةِ مالِهِ حين يقول: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾»[٢]. وهذه مُرسَلات لا تعارض الصحاح، والله أعلم. وقولُه: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، أي: مرضياً عندك وعند خَلْقِكَ، تُحبّه وتحبّبه إلى خلقك، في دينه وخُلُقِهِ.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾

هذا الكلام يَتَضمَّنُ محذوفاً، وهو أنه أُجيبَ إلى ما سأل في دعائه، فقيل له: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾، كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران: ٣٨ ـ ٣٩]. وقولُه: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾، قال قتادةُ: وابن جُريج وابنُ زيد، أي: لم يُسمَّ أحد قبله بهذا الإسم، واختاره ابن جرير رحمه الله. وقال مجاهد: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾، أي: شبيهاً. أخذه من معنى قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، أي: شبيهاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي لم تلد العَوَاقِرُ قبله مثلَه. وهذا دليل على أن زكريا ـ عليه السلام ـ كان لا يُولَد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة ـ عليهما السلام ـ فإنهما إنما تَعَجّبا من البشارة بإسحاقَ لكبرهما، لا لِعُقْرِها، ولهذا قال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]، مع أنه كان وُلِد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة، وقالت امرأته: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾ [هود: ٧٢ ـ ٧٣].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾

---

(١) ضعيف، أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ١٧٣٥، والطبري ٢٣٥٠٠ و ٢٣٥٠١ هكذا مرسلاً، والمرسل من قسم الضعيف، والوهن في صدره فقط، وأما عجزه، فقد ورد موصولاً بأسانيد صحيحة.

(٢) ضعيف، أخرجه الطبري ٢٣٤٩٩ عن الحسن مرسلاً، والمرسل من قسم الضعيف، وله علة ثانية: جابر بن نوح ضعفه يحيى وغيره. وفيه مبارك بن فضالة، غير قوي.

هذا تَعَجُّبٌ من زكريا ـ عليه السلام ـ حين أُجيب إلى ما سأل، وبُشِّر بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأَلَ عن كيفية ما يُولَد له، والوجهُ الذي يأتيه منه الولدُ، مع أنَّ امرأته عاقرٌ لم تَلد من أول عمرها مع كِبَرها، ومع أنه قد كبر وعَتَا، أي: عَسَا عَظْمُه ونَحُل، ولم يبق فيه لقاحٌ ولا جماعٌ. تقول العرب للعُودِ إذا يَبس: «عَتَا يَعْتُو عِتِيّاً وعُتُوّاً، وعَسَا يعسُو عُسوّاً وعِسِيّاً». وقال مجاهد: ﴿سَمِيًّا﴾ يمعنى نُحُولِ العظم. وقال ابن عباس وغيره: ﴿عِتِيًّا﴾، يعني الكِبَرَ. والظاهرُ أنه أخصُّ من الكِبَر.

[٤٤٦٦] وقال ابنُ جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيم، أخبرنا حُصَين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قد عَلِمتُ السنّةَ كُلَّها، غير أني لا أدري أكانَ رسولُ الله ﷺ يقرأ في الظُّهر والعَصْرِ أم لا؟ ولا أدري كيفَ كان يقرأ هذا الحرفَ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، أو «عِسِيّاً»[1]. وَرَوَاهُ الإمامُ أحمد عن سُرَيج بن النعمان، وأبو داود، عن زياد بن أيُّوب، كلاهما عن هُشَيم، به. ﴿قَالَ﴾، أي: الملك مجيباً لزكريا عما استعجب منه: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أي: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها، ﴿هَيِّنٌ﴾، أي: يَسِيرٌ سَهْلٌ على الله. ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ①﴾ [الإنسان: ١].

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑩ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ⑪﴾

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾، أي: علامةً ودليلاً على وُجودِ ما وعدتَني لتستقرَّ نفسي ويطمئنَّ قلبي بما وعدتَني، كما قال إبراهيمُ عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]... الآية، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾، أي: علامتك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، أي: أن تحبس لسانكَ عن الكلام ثلاث ليالٍ وأنت صحيح سَوِي من غير مَرض ولا عِلَّةٍ. قال ابن عباس. ومجاهد، وعكرمة، ووهبُ بنُ مُنَبِّهٍ، والسّديُّ، وقتادةُ، وغير واحد: اعتُقِلَ[2] لسانُه من غير مرض ولا علة. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: كان يقرأ ويُسَبِّح، ولا يستطيع أن يُكلِّم قومَه إلا إشارة. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، أي: متتابعات. والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح، كما قال تعالى في آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ④①﴾. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، من غير خرس. وهذا دليل على أنه لم يكن يكلِّم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾، أي: إشارةً، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾، أي: الذي بُشِّر فيه بالولد، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾، أي: أشار إشارةً خَفِيَّةً سريعة: ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، أي: موافقةً له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادةً على أعماله، وشكراً لله على ما أولاه، قال مجاهد: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾، أي: أشار إليهم. وبه قال وهبٌ، وقتادةُ. وقال مجاهد في رواية عنه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾، أي: كتب لهم في الأرض. وكذا قال السديُّ.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣٥١٤ وأحمد ١/٢٤٩ و٢٥٧ ـ ٢٥٨. وإسناده ضعيف: حصين هو ابن عبد الرحمن اختلط.

(٢) كذا ورد عن جمهور المفسرين، لكن يشكل على ذلك الآية في آل عمران ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ فأمر الله عز وجل له بالذكر والتسبيح، يدل على أنه لم يعقد لسانه، أو أنه عُقد عن الناس دون ذكر الله، والله تعالى أعلم.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

وهذا أيضاً تضمَّن محذوفاً، تقديره: أنه وُجِد هذا الغلام المُبَشَّر به. وهو يحيى ـ عليه السلام ـ وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التي كانوا يتدارَسُونها بينهم، ويحكمُ بها النبيون الذين أسلموا للذين هادُوا والربانيّون والأحبار. وقد كان سِنُّهُ إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوّه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾، أي: تعلَّم الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أي: بجدٍّ وحرصٍ واجتهادٍ، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: الفهم والعلم والجدَّ والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حديث السِّنِّ. قال عبد الله بن المبارك، قال معمر: قال الصِّبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. قال: ما لِلَّعِبِ خُلِقْنَا. قال: فلهذا أنزل الله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾. وقولُه: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، يقول: ورحمةً من عندنا. وكذا قال عكرمة، وقتادةُ، والضحاكُ وزاد: لا يقدِرُ عليها غيرُنا. وزاد قتادةُ: رحِم الله بها زكريا. وقال مجاهدٌ: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، وتعطُّفاً من ربِّه عليه. وقال عكرمةُ: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، قال: محبّةً عليه. وقال ابنُ زيدٍ: أمّا الحنانُ فالمحبة. وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، قال: تعظيماً من لدنا. وقال ابن جُرَيج: أخبرني عَمرو بن دينار، أنه سَمِع عِكرِمةَ، عن ابن عباس قال: لا والله، ما أدرِي ما حَنَاناً.

وقال ابنُ جَرير: حَدَّثنا ابن حُمَيد، حدثنا جَرير، عن منصور، سألت سعيدَ بنَ جُبَير عن قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، فقال: سألتُ عنها ابنَ عبّاس، فلم يُحرْ فيها شيئاً. والظاهر من هذا السياق أن قوله: ﴿وَحَنَانًا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، أي: وآتيناه الحكم، وحناناً، وزكاة، أي: وجعلناه ذا حَنَانٍ وزكاةٍ، فالحنان هو المحبة في شَفَقةٍ ومَيْلٍ، كما تقول العرب: «حَنَّت الناقة على ولدها، وحَنَّت المرأة على زوجها». ومنه سميت المرأة «حَنَّة» من الحِنةِ، وحَنَّ الرجلُ إلى وَطَنِهِ، ومنه التعطف والرحمة، كما قال الشاعر:

تَحَنَّنْ عَلَيَّ ـ هَدَاكَ المَلِيكُ ـ فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالا

[٤٤٦٧] وفي المسند للإمام أحمد، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «يبقى رجلٌ في النار، ينادي ألفَ سنةٍ: يا حَنَّانُ، يا مَنَّانُ»[1]. وقد يُثَنَّى، ومنهم من يجعل ما وَرَد من ذلك لغةً بذاتها، كما قال طَرَفَة:

أَبا مُنذِرٍ، أَفْنَيتَ، فَاسْتَبْقِ بَعْضَنا حَنَانَيكَ، بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وقولُه تعالى: ﴿وَزَكَوٰةً﴾، معطوف على ﴿وَحَنَانًا﴾، فالزَّكاةُ الطهارةُ من الدَّنَسِ والآثامِ والذنوبِ. وقال قتادةُ: الزكاة: العملُ الصالحُ. وقال الضحاك، وابن جُرَيج: العمل الصالح الزكي. وقال العَوْفيُّ، عن ابن عَباس: ﴿وَزَكَوٰةً﴾ قال: بركةً ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾: طَهُر، فلم يعمل بذنب. وقولُه: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾: لَمّا ذكر تعالى طاعتَه لربِّه وأنّه خلقه ذا رحمةٍ وزكاةٍ وتُقىً، عطف بذكر طاعته لوالدَيه وبِرِّه بهما، ومجانبته عُقوقَهما، قولاً وفعلاً أمراً ونهياً. ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾. ثم قال بعد هذه

---

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٣/ ٢٣٠ وأبو يعلى ٤٢١٠ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٣٨٤ وقال: ورجالهما رجال الصحيح، غير أبي ظلال، وضعفه الجمهور، ووثقه ابن حبان.

الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾، أي: له الأمان في هذه الثلاثة الأحوالِ. وقال سفيان بن عُيينة: أوحشُ ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يومَ وُلِدَ، فيرى نفسَه خارجاً مما كان فيه. ويوم يَموت، فيرى قوماً لم يكن عايَنَهم. ويوم يُبعَثُ، فيرى نفسَه في محشرٍ عظيم. قال: فأكرَمَ الله فيها يحيى بن زكريا، فَخَصَّه بالسلام عليه فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾. رواه ابن جرير، عن أحمد بن منصور المَرْوزِيِّ، عن صدقَة بن الفضل، عنه.

[٤٤٦٨]وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعمرٌ، عن قتادةَ، في قوله: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، قال: كان ابن المسيَّب يذكر قال: قال النبي ﷺ: ما من أحدٍ يلقى الله يوم القيامة إلا ذَا ذنب، إلا يحيى بن زكريا. قال قتادة: ما أذنَب، ولا هَمّ بامرأة[١]. مرسل.

[٤٤٦٩]وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيَّب، حدثني ابن العاص أنه سَمِع رسول الله ﷺ قال: «كلُّ بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنبٌ، إلا ما كان من يحيى بن زكريا»[٢]. ابنُ إسحاقَ مُدَلِّس. وقد عنعنَ هذا الحديثَ، فالله أعلم.

[٤٤٧٠]وقال الإمامُ أحمد: حدثنا عَفّان، حدثنا حَمّاد، أخبرنا علي بن زيدٍ، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحدٍ من ولد آدمَ إلا وقد أخطأ، أو هَمَّ بخطيئةٍ، ليس يحيى بن زكريا وما ينبغي لأحدٍ أن يقولَ: أنا خير من يونس بن متى»[٣]. وهذا أيضاً ضعيف، لأن علي بن زيد بن جُدعان له منكرات كثيرة، والله أعلم.

وقال سَعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة: أنَّ الحسن قال: إنَّ يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ التَقَيا، فقال له عيسى: استغفِرْ لي، أنت خيرٌ مِني. فقال له الآخرُ: استغفِرْ لي، أنت خيرٌ مِنيّ. فقال له عيسى: أنت خير مِنّي، سَلَّمْتُ على نفسي، وسلَّم الله عَليكَ. فعُرف والله فضلُها.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا ـ عليه السلام ـ وأنه أوجد منه في حال كِبرَه وعُقْم زوجته ولداً زكيّاً طاهراً مباركاً، عَطَف بذكر قِصّة مريم في إيجاده ولدها عيسى ـ عليهما السلام ـ منها من غير أَب، فإن بين القصتين مناسبةً ومشابهة. ولهذا ذكرهما في آل عمران وها هنا، وفي سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما

---

(١) هو مرسل لكن يعتضد بما بعده، ومراسيل ابن المسيب صحيحة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣٥٦٦ وفي إسناده ابن إسحاق، وهو مدلس، وقد عنعن كما ذكر المصنف.

(٣) أخرجه أحمد ١/٢٥٤ و٢٩٢ وأبو يعلى ٢٥٤٤ وإسناده ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان، وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/٢٠٩: وفيه علي بن زيد ضعفه الجمهور، وقد وثق، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح اهـ. قلت: لكن للحديث شواهد يقوى بها، انظر «مجمع الزوائد» ٨/٢٠٨ ـ ٢٠٩ وهو يعتضد بما قبله عن عبد الله بن عمرو بن العاص وبمرسل ابن المسيب، والله أعلم، وعجز الحديث صحيح.

بينهما في المعنى، ليدلَّ عبادَه على قُدرته وعَظَمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادرٌ، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾، وهي مريم بنت عِمرانَ، من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل. وقد ذكر الله تعالى قِصَّةَ ولادةِ أُمِّها لها في «آل عمران»، وأنها نَذرتْها مُحرَّرةً، أي: لخدمة بيت المقدس، وكانوا يتقرَّبون بذلك، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ [آل عمران: ٣٧]، ونشأت في بني إسرائيل نشأةً عظيمةً، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادةِ العظيمة والتبتّل والدُّؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها ـ وقيل: خالتها ـ زكريا نبيِّ بني إسرائيل إذْ ذاك وعظيمهم، الذي يَرجِعُون إليه في دينهم. ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بَهره، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، فذكر أنه كان يجد عندها ثَمر الشتاءِ في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء، كما تقدم بيانه في «آل عمران». فلَّما أراد الله تعالى ـ وله الحكمةُ والحجَّةُ البالغة ـ أن يُوجد منها عبده ورسوله عيسى ـ عليه السلام ـ أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام، ﴿ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾، أي: اعتزلتْهُمْ وتنحَّت عنهم، وذهبت إلى شرقيِّ المسجد المقدس. قال السديّ: لحيضٍ أصابها. وقيل لغير ذلك. قال أبو كُدَينةَ، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن أهل الكِتاب كُتِب عليهم الصلاةُ إلى البيت والحجُّ إليه، وما صَرفهم عنه إلا قيل ربك: ﴿ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾. قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً فصلوا قبل مطلع الشمس؛ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا إسحاق بن شاهين حدثنا خالد بن عبد الله عن داود عن عامر عن ابن عباس قال: إني لأعلم خلق الله لأي شيءٍ اتخذت النصارى المشرق قبلة لقوله الله تعالى: ﴿ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾؛ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة. وقال قتادة ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾: شاسعاً مُتنَحِياً. وقال محمد بن إسحاق: ذهبت بقُلَّتِها تستقي من الماء. وقال نوف البِكالي: اتخذت لها منزلاً تتعبد فيه. فالله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾، أي: استترت منهم وتوارَتْ، فأرسل الله تعالى إليها جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾، أي: على صورة إنسان تامٍّ كاملٍ. قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن جريجٍ، ووهب بن منبّه، والسّديُّ في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾، يعني جبريل عليه السلام. وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن، فإنه تعالى قد قال في الآية الأخرى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤]. وقال أبو جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبيِّ بن كَعْبٍ قال: إن روح عيسى ـ عليه السلام ـ من جملة الأرواح التي أُخِذ عليها العهدُ في زمان آدَمَ عليه السّلام، وهو الذي تَمثَّلَ لها بشراً سوياً، أي: روح عيسى، فحملت الذي خاطبها وحل في فيها. وهذا في غاية الغرابة والنَّكارة، وكأنه إسرائيلي. ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾، أي: لما تَبَدّى لها المَلك في صُورَة بشرٍ، وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجابٌ، خافته وظَنَّت أنه يريدها على نفسها، فقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾، أي: إن كنت تخاف الله، تذكيرٌ له بالله. وهذا هو المشروع في الدفع أن يكونَ بالأسهلِ [فالأسهل]، فخوَّفَته أولاً بالله عَزَّ وجَلَّ.

قال ابن جرير: حدثني أبو كريب، حدثنا أبو بكر، عن عاصم قال: قال أبو وائل ـ وذكر قصَّةَ مريم ـ فقال: قد عَلِمْتُ أن التَّقِيَّ ذُو نُهْية حين قالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾. أي: فقال لها المَلَك مجيباً لها ومزيلاً ما حَصَل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تَظُنِّين، ولكني رسول ربك، أي: بعثني الله إليك. ويقال: إنها لما ذكرتِ الرحمن انتفضَ جبريلُ فَرَقاً، وعاد إلى

هَيْئتِهِ، وقال: ﴿إنما أنا رسول ربك لِيَهَبَ لك غلاماً زكياً﴾، هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء، أحدُ مشهوري القراء. وقرأ الآخرون: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾، وكلا القراءتين له وجه حسن، ومعنى صحيح، وكلٌ تستلزم الأخرى. ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾، أي: فتَعجَّبت مريمُ من هذا وقالت: كيف يكونُ لي غلامٌ؟ أي: على أيِّ صفةٍ يوجَدُ هذا الغلامُ مِنِّي، ولستُ بذاتِ زَوج، ولا يُتصوَّر مني الفُجور. ولهذا قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾. والبغيُّ: هي الزانية.

[٤٤٧١] ولهذا جاء في الحديث النهيُ عن مهر البَغِيّ[1]. ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أي: فقال لها الملك مُجيباً لها عما سَألت: إن الله قد قال: إنه سيُوجِدُ منك غلاماً، وإن لم يكن لك بَعْلٌ، ولا توجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاءُ قادر، ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، أي: دَلالةً وعلامةً للناس على قُدرةِ بارئهم وخَالقهم، الذي نَوَّع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخَلَق حواء من ذكر بلا أُنثى، وخَلَق بقية الذُّرِّية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمةُ الرُّباعيَّة الدالة على كَمَالِ قُدرَتِهِ وعظيم سلطانه، فلا إله غيرُه، ولا رَبَّ سواه.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾، أي: ونَجعل هذا الغلامَ رحمةً من اللّهِ نبياً من الأنبياء، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦]، أي: يدعو إلى عبادة الله ربِّه في مَهْدِهِ وكُهُولته. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم ـ دُحيمٌ ـ حَدثنا مروان، حدثنا العلاء بن الحارث الكوفي، عن مجاهد قال: قالت مريم ـ عليها السلام ـ كنت إذا خلوتُ حَدَّثني عيسى وكَلَّمني وهو في بطني، وإذا كنتُ مع الناس سَبَّح في بطني وكَبَّر[2]. وقولُه: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾، يَحتمِلُ أن هذا من تمام كلام جبريلَ لمريم، يُخبرها أَنَّ هذا أمرٌ مقدَّر في علم الله تعالى وقَدَره ومشيئته. وَيَحْتَمِلُ أن يكون من خَبَرِ الله تعالى لرسوله محمد ﷺ، وأنه كَنى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. قال محمد بن إسحاق: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾، أي: إن الله قد عزَم على هذا، فليس منه بدٌّ. واختار هذا أيضاً ابنُ جرير في تفسيره، ولم يَحْكِ غيره، والله أعلم.

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريلُ عن الله تعالى ما قال استسلمت لقضاءِ الله تعالى، فذكر غيرُ واحدٍ من علماء السَّلَف أن المَلَك ـ وهو جبريلُ عليه السلام ـ عند ذلك نفخ في جَيْبِ درعها، فنزلت النفخةُ حتى وَلَجت في الفرج، فحملت بالولد بإذن الله تعالى. فلما حملت ضاقت ذرعاً به، ولم تَدْرِ

(١) يشير المصنف لحديث أبي مسعود الأنصاري عند البخاري ٢٢٣٧ ومسلم ١٥٦٧ وأبو داود ٣٤٨١ والترمذي ١٢٧٦ وابن ماجه ٢١٥٩ وأحمد ٤/١١٩ و١٢٠ وابن حبان ٥١٥٧ ولفظه «نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن».

(٢) هو متلقى عن أهل الكتاب، لا حجة فيه البتة.

ماذا تقولُ للناس، فإنها تعلَم أنَّ الناس لا يُصَدِّقونها فيما تخبرُهم به، غير أنها أفشت سرَّها وذكرت أمرها لأختِها امرأةِ زكريا. وذلك أن زكريا ـ عليه السلام ـ كان قد سأل الله الولد، فأُجِيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها، وقالت: أشَعَرْتِ يا مريم أني حبلى؟ فقالت لها مريم: وهل عَلِمْتِ أيضاً أني حبلى؟ وذكرت لها شأنها وما كان من خبرها، وكانوا بيت إيمان وتصديق، ثم كانت امرأةُ زكريا بعد ذلك إذا واجهت مريم تَجدُ الذي في بَطْنِها يسجد للذي في بطن مريم، أي: يُعَظِّمه ويخضع له، فإن السجود كان في مِلَّتهم عند السلام مشروعاً، كما سَجَد ليوسف أبواه وإخوته، وكما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدمَ عليه السلام. ولكن حُرِّم في ملتنا هذه، تكميلاً لتعظيم جَلاَل الربِّ تعالى.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين قال: قُرِىء على الحارث بن مسكين وأنا أسمَعُ: أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال: قال مالك ـ رحمه الله ـ: بَلَغني أنَّ عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السَّلام ابنا خالة، وكان حَمْلهُما جميعاً معاً، فبلغني أن أُمَّ يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجُد لما في بطنك. قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى ـ عليه السلام ـ لأن الله جعله يُحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص. ثم اختلف المفسرون في مُدة حمل عيسى ـ عليه السلام ـ فالمشهورُ عن الجمهورِ أنها حَمَلت به تسعةَ أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر. قال؛ ولهذا لا يعيشُ ولدٌ لثمانيةِ أشهُرٍ. وقال ابن جُرَيج: أخبرني المغيرة بن عثمانَ بن عبد الله الثقفي، سمع ابن عباس وسئل عن حَمل مريم، قال: لم يكن إلا أن حَمَلت فوضعت. وهذا غريب، وكأنه مأخوذٌ من ظاهر قوله تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب كلِّ شيءٍ بحسَبه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]. فهذه الفاءُ للتعقيب بحسبها.

[٤٤٧٢] وقد ثبت في الصَّحِيحَين أنَّ بين كُلِّ صفتين أربعين يوماً[1]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]، فالمشهورُ الظاهرُ ـ والله على كلِّ شيءٍ قديرٌ ـ أنها حَمَلت به كما تَحْمِلُ النساءُ بأولادهنَّ، ولهذا لما ظَهرت مخايلُ الحمل عليها، وكان معها في المسجد رجلٌ صالح من قَرَاباتها يخدم معها البيتَ المقدَّس، يقال له يوسف النجار، فلما رأى ثِقَل بطنِهَا وكِبَره أنكر ذلك من أمرها، ثم صَرَفه ما يعلم من بَرَاءتها ونزاهتها ودِينها وعبادتها، ثم تأمَّل ما هي فيه، فجعل أمرُها يجوس في فكره، لا يستطيع صَرْفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عَرَّض لها في القول، فقال: يا مريم، إني سائلك عن أمر فلا تعجلي عَلَيَّ. قالت: وما هُو؟ قال: هل يكون شجرٌ قَطُّ من غير حَبٍّ؟ وهل يكون زَرْع من غير بَذْرٍ؟ وهل يكونَ وَلَدٌ من غير أب؟ فقالت: نعم ـ وفَهِمَت ما أشار إليه ـ: أما قولك: «هل يكون شجر من غير حَبٌّ، وزرعٌ من غير بَذْرٍ» فإن الله قد خَلَق الشجر والزرع أول ما خَلَقهما من غير حَبٍّ ولا بَذْرٍ. «وهل يكون وَلَدٌ من غير أب»، فإن الله تعالى قد خلَق آدم من غير أبٍ ولا أُمٍّ. فصدَّقها، وسَلَّم لها حالَها. ولما استشعرَت مريمُ من قومها اتِّهامَهَا بالرِّيبة، انتبذَت منهُم مكاناً قَصِيّاً، أي: قاصياً منهم بعيداً عنهم، لِئلاً تراهُم ولا يَرَوها. قال محمد بن إسحاق: فَلمَّا حَمَلت به وَمَلأت قُلَّتها وَرَجَعَت استمسَكَ عنها الدمُ، وأصابها ما يُصِيبُ الحامل على الولد من الوَصَب والتوحُّم وتَغَيُّر اللونِ حتى فُطِر لسانُها، فما دخلَ على أهل بيت ما

(١) مراده «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة...» الحديث أخرجه البخاري، وتقدم.

دَخَل على آل زكريا، وشاع الحديثُ في بني إسرائيلَ، فقالوا: إنما صاحبُها يوسفُ. ولم يكن معها في الكَنِيسة غيرُه، وتوارت من الناس، واتخذت من دونهم حجاباً، فلا يراها أحدٌ ولا تَرَاه. وقولُه: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، أي: فاضطرَّها وألجأها الطلقُ إلى جذع النخلةِ، وهي نخلة في المكان الذي تَنَحَّت إليه. وقد اختلفوا فيه، فقال السدِّيُّ: كان شرقيَّ محرابها الذي تُصَلِّي فيه من بيت المقدِس. وقال وَهْبُ بن مُنَبِّه: ذهبت هاربةً، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ضَرَبها الطلقُ. وفي رواية عن وَهْبٍ: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس، في قرية هناك يقالُ لها: بيتُ لحم.

[٤٤٧٣] قلت: وقد تقدَّم في حديث الإسراء، من رواية النَّسائي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ والبيهقي عن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ: أن ذلك ببيت لحم[١]. فالله أعلم. وهذا هو المشهورُ الذي تلقَّاه الناسُ بعضُهم عن بعضٍ، ولا تَشُكُّ فيه النصارى أنه ببيتِ لحم، و [قد] تلقاه الناس. وقد وَرَد به الحديث إن صَحَّ.

وقولُه تعالى إخباراً عنها: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، فيه دليلٌ على جواز تمنِّي الموت عند الفتنة، فإنها عَرَفت أنها ستُبتَلى وتُمتَحنُ بهذا المولود، الذي لا يحمل الناسُ أمرَها فيه على السَّدَادِ، ولا يُصَدِّقونها في خَبَرِها، وبعدما كانت عندهم عابدةً ناسكةً، تُصبحُ عندَهم فيما يظنُّون عاهرةً زانيةً، فقالت: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾، أي: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، أي: لم أُخلَق ولم أَكُ شيئاً. قاله ابن عباس. وقال السدِّيّ: قالت وهي تُطْلَقُ من الحَبَل، استحياءً من الناس: يا ليتني مِتُّ قبل هذا الكَرْبِ الذي أنا فيه، والحزن بولادتي المولود من غير بَعْلٍ ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، نُسِي فتُرك طلبُه، كخِرَقِ الحيضَ التي إذا أُلقِيت وطُرِحَت لم تُطلَب ولم تُذكر. وكذلك كل شيء نُسِي وتُرك فهو نَسْيٌ. وقال قتادةُ: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، أي: شيئاً لا يُعرَفُ ولا يُذْكَر ولا يُدْرَى من أنا. وقال الربيع بن أنس: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ هُوَ السِّقْطُ وقال ابنُ زيدٍ: لم أكن شيئاً قطُّ. وقد قدَّمنا الأحاديثَ الدالَّة على النهي عن تَمنِّي الموت إلا عند الفتنة عند قوله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

قرأ بعضُهم: «مَنْ تحتها» بمعنى الذي تحتها. وقرأ آخرون ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾، على أنه حرف جر. واختلف المفسِّرون في المُرَاد بذلك، مَنْ هو؟ فقال العَوْفيُّ وغيرُه، عن ابن عباس ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾: جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. وكذا قال سعيد بن جُبير، والضحاك، وعمرو بن ميمون، والسدِّيُّ، وقتادةُ: إنه المَلَك جبريل عليه الصلاة والسلام، أي: ناداها من أسفلِ الوادي. وقال مجاهدٌ: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾، قال: عيسى ابنُ مريم. وكذا قال عبد الرزّاق، عن مَعمَر، عن قَتادةَ قال: قال الحسنُ: هو ابنُها. وهو إحدى الرِّوايتين عن سعيد بن جُبَير: أنه ابنها[٢]، قال: أولم تَسمع الله يقول: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾: واختاره ابنُ زيدٍ، وابنُ جرير في تفسيره. وقولُه: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾، أي: ناداها قائلاً: لا تحزني، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ

---

(١) تقدم في سورة الإسراء كما ذكر المصنف.

(٢) الراجح ما قاله ابن عباس وغيره، والله أعلم.

سَرِيًّا﴾، قال سفيان الثوريُّ وشعبةُ، عن أبي إسحاق، عن البَرَاء بن عازب: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، قال: الجدول. وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: السَّرِيّ: النهر. وبه قال عمرو بن ميمون: نهر تَشرَبُ منه. وقال مجاهد: هو النهر، بالسريانية. وقال سعيد بن جُبَير: السَّرِيُّ: النهر الصغير بالنَّبَطِيَّةِ، وقال الضحاك: هو النهر الصغير بالسريانية. وقال إبراهيمُ النَّخَعِيُّ: هو النهرُ الصغيرُ. وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز. وقال وهب بن مُنَبِّه: السَّرِيُّ: هو رَبيع الماء. وقال السدِّيُّ: هو النهر. واختار هذا القولَ ابنُ جرير.

[٤٤٧٤] وقد وَرد في ذلك حديث مرفوع، فقال الطبراني: حدثنا أبو شُعَيب الحرَّاني، حدثنا يحيى بن عبد الله البَابلتيُّ، حدثنا أيُّوب بن نَهيكٍ، سمعت عكرمة مولى ابن عباس يقولُ: سَمِعتُ ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن السَّرِيَّ الذي قال الله لمريم: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، نهر أخرجَه الله لِتَشربَ منه»[1]. وهذا حديثٌ غريبٌ جداً من هذا الوجه. وَأيُّوب بن نَهيك هذا هو الحُبْلي، قال فيه أبو حاتم الرازي: ضَعِيف. وقال أبو زُرعَةَ. منكرُ الحديثِ، وقال أبو الفتح الأَزْدِيُّ: متروك الحديث.

وقال آخرون: المرادُ بالسَّرِيِّ عيسى عليه السلام، وبه قال الحسنُ، والربيعُ بن أنس، ومحمد بن عَبَّاد بن جعفر: وهو إحدى الروايتين عن قتادةَ، وقولُ عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم. والقولُ الأوَّلُ أظهرُ، ولهذا قال بعده: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، أي: وخذي إليك بجذع النخلة. قيل: كانت يابسةً، قاله ابنُ عباس. وقيل: مثمرةً. قال مجاهد: كانت عجوةً. وقال الثوريُّ، عن أبي داود نُفيع الأعمى: كانت صَرَفَانَةً. والظاهرُ أنها كانت شجرةً، ولكن لم تَكُن في إبَّان ثَمَرها، قاله وهبُ بن مُنَبِّه. ولهذا امتنَّ عليها بذلك أن جعل عندها طعاماً وشراباً، فقال: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾، أي: طيبي نفساً. ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنُّفَساءِ من التَّمرِ والرُّطَبِ، ثم تَلاَ هذه الآيةَ الكريمةَ.

[٤٤٧٥] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسَين، حدثنا شيبانُ، حدثنا مسرور بن سعيد التميمي، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، عن عُروَة بن رُويم، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا عمَّتكم النخلة، فإنها خُلِقت من الطين الذي خُلِق منه آدم عليه السلام، وليس من الشجر شيء يُلقَحُ غيرُها، وقال رسول الله ﷺ: أطعموا نساءكُمُ الوُلَّدَ الرّطب، فإن لم يكن رُطَبٌ فتمر، وليس من الشجرةِ شَجَرةٌ أكرَمُ على الله من شجرة نَزَلت تحتها مريمُ بنتُ عمران»[2]. هذا حديث منكر جداً، ورواه أبو يعلى، عن شيبانَ به.

---

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني ١٣٣٠٣ من حديث ابن عمر، وأعله الهيثمي في «المجمع» ١١١٥٦ بضعف يحيى بن عبد الله البابلتي أهـ وله علة ثانية وهي ضعف أيوب بن نهيك، بل هو متروك.

وورد من حديث البراء بن عازب أخرجه الطبراني في «الصغير» ٦٨٥ وقال الهيثمي ١١١٥٥: فيه معاوية بن يحيى الصدفي، وهو ضعيف أهـ. وله علة ثانية بقية بن الوليد مدلس، وقد عنعن، وفيه سعيد بن سنان فيه ضعف، والأشبه في هذا كونه عن ابن عباس، وغيره كما تقدم، والله أعلم.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه أبو يعلى ٤٥٥ وابن حبان في «المجروحين» ٣/ ٤٤ وأبو نعيم ٦/ ١٢٣ وابن عدي ٦/ ٤٣١ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ١٨٤ وأعله الهيثمي في «المجمع» ٥/ ٨٩ بمسرور بن سعيد، وهو ضعيف أهـ وقال ابن حبان: يروي عن الأوزاعي المناكير، وحكم ابن الجوزي بوضعه، وللحديث علة ثانية: عروة بن رويم عن علي منقطع، والله أعلم.

وقرأ بعضهم: «تَسَّاقط»، بتشديد السين، وآخرون بتخفيفها. وقرأ أبو نَهيك: «تُسْقِطْ عليك رطباً جنياً»، وروى أبو إسحاق، عن البراء: أنه قرأها «يَسَّاقَطُ»، أي: الجذع؛ والكل متقارب.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾، أي: مهما رأيت من أحدٍ، ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾، والمراد بهذا القولِ الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد به القولُ اللفظي، لئلا ينافي ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾. قال أنس بن مالك في قوله: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾، أي: صَمْتاً. وكذا قال ابن عباس، والضحّاك. وفي روايةٍ عن أنس: «صوماً وصمتاً»، وكذا قال قتادة وغيرهما. والمراد أنهم كانوا إذا صامُوا في شريعتهم يحرُم عليه الطعامُ والكلامُ، نصَّ على ذلك السدّي، وقتادةُ، وعبد الرحمن بن زيد.

وقال أبو إسحاقَ، عن حارثةَ قال: كنتُ عند ابن مسعود، فجاء رجلان فسلَّم أحدُهما ولم يسلم الآخر، فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حَلف ألاَّ يكلِّم الناسَ اليومَ. قال عبدُ الله: كَلِّم الناس وسَلِّم عليهم، فإنَّ تلك امرأةٌ عَلِمت أن أحداً لا يُصَدِّقها أنها حَمَلت من غير زوج ـ يعني بذلك مريم عليها السلام ـ ليكون عُذْراً لها إذا سُئِلَت. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير رحمهما الله. وقال عبد الرحمن بنُ زيد: لما قال عيسى لمريم: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾، قالت: وكيف لا أحزَن وأنت معي؟. لا ذاتُ زوج ولا مملوكة، أيُّ شيءٍ عُذري عند الناس؟ يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نَسْياً مَنْسياً، قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلامَ، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾، قال: هذا كلُّه من كلام عيسى لأمه. وكذا قال وهبٌ.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أُمِرَت أن تصومَ يومها ذلك، وألاَّ تُكلِّم أحداً من البشر، فإنها سَتُكْفى أَمْرها ويقام بِحُجّتِها فَسلَّمت لأمر الله ـ عز وجل ـ واستسلمت لقضائِهِ، وأخذت وَلَدها ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾، فلمَّا رأوها كذلك، أعظموا أمرها واستنكَرُوه جداً، و﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، أي: أمراً عظيماً. قاله مجاهد، وقتادة، والسدّيُّ، وغيرُ واحد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سَيّار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا أبو عمران الجوني، عن نوفِ البِكَاليّ قال: وخَرَج قومها في طلبها. قال: وكانت من أهل بيت نُبوّةٍ وشَرف، فلم يُحسُّوا منها شيئاً، فرأوا راعي بقر فقالوا: أرأيت فتاة كذا وكذا نَعْتُها؟ قال: لا، ولكن رأيتُ الليلة من بَقري ما لم أره منها قطُّ، قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيتها الليلة سُجَّداً نحو هذا الوادي.

قال عبد الله بن أبي زياد: وأحفَظُ عن سَيار أنه قال: رأيت نوراً ساطعاً. فتوجَّهُوا حيثُ قال لهم، فاستقبلتهُم مريمُ، فلما رأتهم قَعدَت وحَمَلت ابنها في حِجْرِها، فجاؤوا حتى قاموا عليها، ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، أمراً عظيماً. ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾، أي: يا شبيهةَ هارونَ في العبادة ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾، أي: أنت من بيتٍ طَيِّبٍ طاهرٍ، معروف بالصلاح والعبادة والزَّهَادَةِ، فكيف صَدَر هذا منك. قال علي بن أبي طلحة، والسدّيُّ: قيل لها: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾، أي: أخي موسى، وكانت من نَسْلِه،

كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمضريّ: يا أخا مضر. وقيل: نُسِبَت إلى رَجُلٍ صالح كان فيهم اسمه هارون، وكانت تُقاس به في العبادة والزهادَة. وحكى ابنُ جريرٍ عن بعضهم: أنهم شبَّهُوهاً برجل فاجرٍ كان فيهم، يقال له: هارون. ورواه ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جُبَير.

وأغربُ من هذا كلِّه ما رواه ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا عليُّ بن الحُسَين الهِسِنْجَانيُّ، حدثنا ابنُ أبي مريم، حدثنا المُفضَّل ـ يعني ابن فَضَالة ـ حدثني أبو صَخرٍ، عن القُرَظِيِّ، في قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾، قال: هي أختُ هارونَ لأبيه وأمِّه، وهي أخت موسى أخي هارون التي قَصت أثر موسى، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١]. وهذا القولُ خطأٌ محضٌ، فإنَّ الله تعالى قد ذَكَر في كتابه أنه قَفَّى بعيسى بعد الرسل، فدلَّ على أنه آخر الأنبياء بعثاً، وليس بعده إلا محمد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ.

[٤٤٧٦] ولهذا ثَبَت في صحيح البخاري، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا أولى الناس بابن مريم، إلا أنه ليس بيني وبينه نبيٌّ»[1]، ولو كان الأمرُ كما زعَمَ مُحمَّد بن كعب القُرَظِيُّ لم يكن مُتأخراً على الرسل سِوَى مُحمَّد، ولكان قبل سليمان وداودَ؛ فإنَّ الله قد ذكر أن داود بعد موسى ـ عليهم السلام ـ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فَذَكَر القصة إلى أن قال: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥١]. . . الآية. والذي جَرَّأَ القُرَظيَّ على هذه المقالة ما في التوراة بعد خروجِ موسى وبني إسرائيل من البحر، وإغراقِ فِرْعَونَ وقَوْمِهِ، قال: «وكانت مريم بنت عمران أختَ موسى وهارون النبيَّين تضربُ بالدُّفِّ هي والنساءُ معها يُسَبِّحن الله ويشكُرْنَه على ما أنعم به على بني إسرائيل». فاعتقد القرظي أن هٰذِهِ هي أم عيسى. وهي هفوةٌ وغلطَةٌ شديدةٌ، بل هي باسم هذه، وقد كانوا يُسمُّون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم، كما قال الإمام أحمد:

[٤٤٧٧] حدثنا عبد الله بن إدريس، سمعت أبي يذكُره عن سِمَاكٍ، عن علقمةَ بن وائل، عن المغيرةِ بن شُعبَةَ قال: بعثني رسولُ الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرأيتَ ما تقرؤون: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجَعْتُ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ. فقال: «ألا أخبرتَهم أنَّهم كانوا يُسمُّون بالأنبياءِ والصالحين قبلهم»[2]. انفرد بإخراجه مسلمٌ والترمذيُّ والنسائيُّ، من حديث عبد الله بن إدريسَ، عن أبيه، عن سِمَاكٍ، به. وقال الترمذيّ: «حسنٌ صحيحٌ غريبٌ، لا نعرِفه إلاَّ من حديثِ ابن إدريسَ». وقال ابنُ جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن سعيد بن أبي صَدقة، عن محمد بن سيرينَ قال: نُبِّئْتُ أن كعباً قال: إنَّ قوله: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾. ليس بهارون أخي موسى. قال: فقالت له عائشة: كذبتَ. فقال: يا أُمَّ المؤمنين، إن كان النبي ﷺ قاله فهو أعلمُ وأخبرُ، وإلا فإني أجد بينهما سِتَّمئةِ سنةٍ. قال: فسكتَتْ[3]. وفي هذا التاريخ نظر.

وقال ابنُ جَريرٍ أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيدُ، حدثنا سعيدٌ، عن قتادةَ قولُه: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾، قال: كانت من أهل بيتٍ يُعرفون بالصَّلاح ولا يُعرَفُون بالفساد، ومن الناس من يُعرفَون بالصَّلاح ويَتَوالَدُون به، وآخرُون يُعرَفون بالفساد ويَتَوالَدُون به. وكان هارونَ مصلحاً محبَّباً في عشيرته، وليس بهارونَ أخِي موسى، ولكنه هارونُ آخر، قال: وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون

---

(١) تقدم في سورة النساء عند آية: ١٥٩.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢١٣٥ والترمذي ٣١٥٥ والنسائي في «الكبرى» ١١٣١٥ وأحمد ٤/ ٢٥٢ والطبري ٢٣٦٩١.

(٣) أخرجه الطبري ٢٣٦٨٩ بإسنادٍ ضعيف لانقطاعه، حيث فيه لفظ «نُبِّئت».

ألفاً، كلهم يُسمَّى هارونَ، من بني إسرائيل. وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾، أي: إنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قصّتها، وقالوا لها ما قالوا معرّضين بقذفها ورَمْيها بالفرْية، وقد كانت يومَها ذلك صائمةً صامتةً، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا مُتهكِّمين بها، ظانِّين أنها تَزْدَري بهم وتلعب بهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾. قال ميمونُ بن مِهران: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾، قالت: كَلِّموه. فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نُكلِّم من كان في المَهْدِ صبيّاً! وقال السدّيُّ: لما أشارت إليه غضِبوا، وقالوا: لَسُخْرِيَّتُها بنا حين تأمُرنا أن نُكلِّم هذا الصبيَّ أشدُّ علينا من زناها. ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾، أي: من هو موجودٌ في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، أوّلُ شيء تكلَّم به أن نَزَّه جناب ربه تعالى، وبَرّأ الله عن الولد، وأثبت لنفسِه العُبُوديّة لربه. وقوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: تبرئةٌ لأمّه مما نَسبت إليه من الفاحشةِ. قال نَوف البِكَاليُّ: لما قالوا لأمه ما قالوا، كان يرتَضِع ثَدْيه، فَنَزَع الثدي من فَمِه، واتَّكأ على جنبه الأيسر، وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، إلى قوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾. وقال حَمّاد بن سلمة، عن ثابت البُناني: رفع إصبعه السبابة فوق مَنْكِبِه، وهو يقول: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾... الآية. وقال عكرمة: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، أي: قضى أن يُؤتيني الكتابَ فيما قَضى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن المُصَفَّى، حدثنا يحيى بن سعيد ـ هو العطار ـ عن عبد العزيز بن زياد، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان عيسىٰ ابنُ مريَمَ قد دَرَسَ الإنجيل وأَحْكَمَه وهو في بَطْنِ أمه، فذلك قوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[1]. يحيى بنُ سعيد العَطّار الحِمْصِي متروك.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، قال مجاهد، وعَمْرو بن قيس، والثوري: وجعلني معلماً للخير، وفي رواية عن مجاهد: نَفَّاعاً. وقال ابن جرير: حدثني سليمان بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن يزيد بن خُنَيسِ المخزومي، سمعتُ وُهَيْبَ بن الوَرْد مولى بني مخزوم قال: لَقِي عالم عالماً هو فوقه في العلم، فقال له: يرحَمُك الله، ما الذي أُعلِنُ من علمي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنه دينُ الله الذي بَعَث به أنبياءه إلى عبادِهِ، وقد أجمعَ الفقهاءُ على قول الله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، قيل: ما بَرَكَتُه؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أينما كان. وقوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس في قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾، قال: أخبَره ما هو كائنٌ من أمره حتى يموت، ما أثبتها لأهل القدر. وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾، أي: وأمرني بِبِرِّ والدتي، ذَكَره بعد طاعة الله رَبِّه، لأنه الله تعالى كثيراً ما يقرِن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، أي: ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادَتِه وطاعَتِهِ وبِرِّ والدتي، فأشقى بذلك. قال سفيان الثوريُّ: الجبّارُ الشقيُّ: الذي يُقْبِل على الغَضَب. وقال بعض السلف: لا تَجد أحداً عاقّاً لوالديه إلا وجدتَه جَبَّاراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾، قال: ولا تجد سَيِّىءَ الملكة إلا وَجَدْتَه مُختالاً فَخُوراً، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

---

(١) لا يصح عن أنس، وهو من منكرات يحيىٰ بن سعيد العطار، فقد روى موضوعات ومناكير، وشيخه مجهول، ولم يدرك أنساً، وهو ظاهر البطلان.

وقال قتادةُ: ذُكِر لنا أن امرأةً رأت ابنَ مريم يُحيي الموتَى ويُبرِىءُ الأكمَهَ والأبرصَ، في آياتٍ سلَّطه الله عليهنّ، وأذِن له فيهنّ، فقالت: طُوبَى للبطن الذي حَملَكَ والثَّدْيِ الذي أُرضِعْتَ به. فقال نبيُّ الله عيسى ـ عليه السلام ـ يُجيبها: طوبى لمن تلا كتاب الله، فاتّبع ما فيه، ولم يكن جبَّاراً شقيّاً. وقولُه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾: إثباتٌ منه لعبوديته لله ـ عز وجل ـ وأنه مخلوقٌ من خلْق الله، يَحيا ويموتُ ويُبعَث كسائرِ الخلائق، ولكن له السلامةُ في هذه الأحوال الّتِي هي أشقُّ ما يكونُ علَى العباد، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذي قَصصنا عليكَ من خَبر عيسى، ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾، أي: يختلف المُبطِلُون والمُحِقُّون ممن آمن به وكَفر به، ولهذا قرأ الأكثرون: «قولُ الحقِّ»، برفع قول. وقرأ عاصم، وعبد الله بن عامر: ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾. وعن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾. والرفعُ أظهرُ إعراباً، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ [البقرة: ١٤٧]. ولما ذكر تعالى أنه خَلقه عبداً نبيّاً نَزّه نفسَه المقدّسة فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾، أي: عما يقولُ هؤلاءِ الجاهِلُون الظّالمون المعتدُون عُلوّاً كبيراً، ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، أي: إذا أراد شيئاً فإنما يأمر به، فيصيرُ كما يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٠].

وقولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦﴾، أي: ومما أمر به عيسى قومَه وهُو في مَهْدِه، أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربُّه وربُّهم، وأمرَهم بعبادته، فقال: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾، أي: هذا الذي جئتُكم به عن الله صراطٌ مستقيم، أي: قويمٌ، من اتّبعه رَشَدَ وهُدِي، ومن خالَفه ضَلّ وغَوَى. وقولُه: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾، أي: اختلفَت أقوالُ أهلِ الكِتاب في عيسى بعد بيان أمرِه ووضوح حاله، وأنه عبدُه ورسولُه وكَلِمتُه ألقاها إلى مَرْيَم وروحٌ منه، فصَمَّمَتْ طائفة ـ وهم جمهورُ اليهود، علَيهم لعائنُ الله ـ على أنه ولدُ زِنْيَةٍ، وقالوا: كلامهُ هذا سحرٌ. وقالت طائفة أخرى: إنما تكَلّم الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قولُ الحقّ، الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد رُوِي نحوُ هذا عن عمرو بن ميمون، وابن جُريج، وقتادة، وغير واحد من السَلفِ والخَلَفِ.

قال عبد الرزّاق: أخبرنا معمَرٌ، عن قتادةَ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾، قال: اجتمع بنُو إسرائيل، فأخرجوا منهم أربعة نفَرٍ، أخرجَ كُلُّ قوم عَالِمهم، فامترَوا في عيسى حين رُفِع، فقال أحدهم: هو الله هَبَط إلى الأرض فأحيا من أحيا، وأماتَ من أماتَ، ثم صَعِدَ إلى السماء. وهم اليعقوبية. فقال الثلاثة: كَذَبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قُلْ أنت فيه. قال: هو ابن الله. وهم النسطورية. فقال الاثنانِ: كَذَبْتَ. ثم قال أحد الاثنين للآخر: قُلْ فيه. قال: هو ثالث ثلاثة: الله إله، وهو إله، وأمه إله. وهم الإسرائيليّة ملوكُ النصارى، عليهم لعائن الله. قال الرابع: كَذَبْتَ، بل هو عبدُ الله ورسولُه ورُوحه وكَلِمتُه. وهم المسلمون. فكان لكلّ رجل منهم أتباع على ما قالوا، فاقتتلوا، فَظُهِرَ على

المسلمين، فذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١]. وقال قتادةُ: وهم الذينَ قال الله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾، قال: اختلفوا فيه فَصارُوا أحزاباً.

وقد رَوَى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، وعن عُروَة بن الزبير، وعن بعض أهل العلم، قريباً من ذلك. وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم: أن قسطنطين جَمَعهم في مَحفِلٍ كبيرٍ من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة ألفين ومئةً وسبعين أسقُفاً، فاختلفوا في عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ اختلافاً متبايناً جداً، فقالت كُلُّ شرذمة فيه قولاً، فمئة تقولُ فيه قولاً، وسبعون تقولُ فيه قولاً آخَرَ، وخمسون تقولُ فيه شيئاً آخر، ومئةٌ وستون تقولُ شيئاً، ولم يجتمع على مقالةٍ واحدة أكثر من ثلثمائةٍ وثمانيةٍ منهم، اتفقوا على قول وصَمَّمُوا عليه، ومال إليهم الملك، وكان فيلسوفاً، فقدمهم ونَصَرهم وطَرَد من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة، بل هي الخيانةُ العظيمةُ، ووضَعُوا له كتب القوانين، وشَرّعوا له أشياء، وابتدعوا بِدَعاً كثيرةً، وحرّفوا دينَ المسيح وغَيّروه، فابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبارَ في مملكته كلها: بلاد الشام، والجزيرة، والروم، فكان مبلغ الكنائسِ في أيامه ما يقاربُ اثني عشر ألفَ كنيسةٍ، وبنت أُمُّه هيلانةُ قُمامة على المكان الذي صُلِب فيه المصلوبُ الذي تزعم اليهود والنصارى أنه المسيحُ، وقد كَذَبوا، بل رَفَعه الله إلى السماء. وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ لمن كَذَب على الله وافترى، وزَعَم أن له ولداً. ولكن أنظرهم تعالى إلى يومِ القيامةِ وأجَّلَهم حِلْماً وثقةً بقدرته عليهم؛ فإنه الذي لا يَعْجَل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين:

[٤٤٧٨] «إنّ الله لَيُملي للظّالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1] [هود: ١٠٢].

[٤٤٧٩] وفي الصحيحين أيضاً، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبرُ على أذىً سَمِعه من الله، إنهم يجعلُون له ولداً وهُوَ يرزقُهم ويُعافِيهم»[2]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢]، ولهذا قال ها هنا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أي: يوم القيامة.

[٤٤٨٠] وقد جاء في الحديث الصحيح المتّفق على صِحّته، عن عُبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدُ الله ورسولُه، وكَلِمتُه ألقاها إلى مَرْيَم وروحٌ منه، وأنَّ الجنةَ حَقٌّ والنار حق، أدخلَه الله الجنةَ على ما كانَ من العَمَلِ»[3].

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) وتقدم الحديث في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٦.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١١٦

(٣) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١٧١.

يقولُ تعالى مُخبراً عن الكفار يومَ القيامة أنّهم يكونون أسْمَعَ شيءٍ وأبْصرَه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢] أي: يقولون ذلك حين لا ينفعُهم ولا يُجدي عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبلَ معاينةِ العذابِ لكانَ نافِعاً لهم ومِنقِذاً من عذاب الله، ولهذا قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾، أي: ما أسمعَهم وأبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾، يعني يوم القيامة، ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: في الدنيا ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: لا يسمَعُون ولا يُبصِرُون ولا يَعقِلُون، فحيث يُطلَبُ منهم الهُدى لا يهتَدُون، ويكونون مُطيعين حيثُ لا ينفعُهم ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾، أي: أنذِرِ الخلائقَ يوم الحسرَة، ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: فصلٍ بين أهل الجنّةِ وأهلِ النارِ، ودخلَ كلٌّ إلى ما صار إليه مُخلَّداً فيه، ﴿وَهُمْ﴾، أي: اليومَ ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾ عما أُنذروا به، ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لا يُصدِّقون به.

[٤٤٨١] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجَنّةَ وأهلُ النار النارَ، يُجاءُ بالموت كأنه كبشٌ أملَحُ، فيوقَفُ بين الجنّةِ والنّارِ، فيقال: يا أهلَ الجنةِ، هل تعرفون هذا؟ فيشرئِبُّونَ فينظرُون ويقولُون: نَعَم، هذا الموتُ. قال: فيقال: يا أهلَ النار، هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبُّون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيؤمَرُ به فيذبَحُ، قال: ويقال: يا أهل الجنةِ، خلودٌ ولا موت، ويا أهلَ النارِ، خلودٌ ولا موتَ. قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾، وأشارَ بِيَدِه. قال: «أهلُ الدنيا في غفلة الدنيا»[1]. هكذا رواه الإمامُ أحمدُ، وقد أخرجه البخاريُّ ومسلم في صَحِيحيهما، من حديث الأعمش. به. ولفظهما قريبٌ من ذلك. وقد رَوى هذا الحديثَ الحسنُ بن عرَفَةَ: حدثني أسباط بن محمد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً، مثله. وفي سُنَن ابن ماجه وغيره، من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سَلَمَة، عن أبي هُريرة، بنحوه. وهو في الصحيحين عن ابن عُمر. ورواه ابن جُرَيج قال: قال ابن عباس: فذكر من قيله نحوه. ورواه أيضاً عن أبيه أنه سمع عُبَيد بن عُمير يقول في قَصصه: يؤتى بالموت كأنه دابّة، فَيُذبَحُ والناس ينظرون.

وقال سفيان الثوريُّ، عن سلمة بن كُهَيل: حدثنا أبو الزَّعراء، عن عبد الله ـ هو ابنُ مسعود ـ في قصة ذكرها، قال: فليس نفسٌ إلا وهي تنظُر إلى بيتٍ في الجنّةِ وبيت في النارِ، وهو يومُ الحَسرةِ. فَيَرَى أهلُ النارِ البيتَ الذي كان قد أعدّه الله لهم لو آمنوا، فيقال لهم: لو آمنتم وعملتم صالحاً، كان لكم هذا الذي ترونه في الجنة. فتأخذُهم الحسرةُ، قال: وَيَرى أهل الجنة البيت الذي في النار. فَيُقال: لولا أن مَنَّ الله عليكُم. وقال السدّيُّ. عن زِيَادٍ، عن زِرِّ بن حُبَيشٍ، عن ابن مَسعُودٍ في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، قال: إذا دَخَلَ أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ أتي بالموت في صورة كبش أملَحَ، حتى يُوقَفَ بين الجنة والنار، ثم ينادِي مُنادٍ: يا أهلَ الجنةِ، هذا الموتُ الذي كان يُميتُ الناسَ في الدنيا، فلا يبقى أحدٌ في أهل علّيين ولا في أسفل درجةٍ من الجنة إلا نَظر إليه، ثم يُنادَى: يا أهلَ النار، هذا الموتُ الذي كان يُميتُ الناسَ في الدنيا. فلا يبقى أحدٌ في ضَحْضَاح من نار ولا في أسفلِ درك من جهنم إلا نَظر إليه، ثم يُذْبَح بين الجنة والنار، ثم

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٣/٩. وأخرجه البخاري ٤٧٣٠ ومسلم ٢٨٤٩ وأبو يعلى ١٠٧٥ والبيهقي في «البعث» ٥٨٤ من طرق عن الأعمش به بنحوه. وفي الباب من حديث أبي هريرة عند الترمذي ٢٥٥٧ وابن ماجه ٤٣٢٧ وأحمد ٢/٢٦١ وابن حبان ٧٤٥٠. ومن حديث ابن عمر عند البخاري ٦٥٤٤ و٦٥٤٨ ومسلم ٢٨٥٠ وأحمد ٢/١١٨ وابن حبان ٧٤٧٤.

يُنادَى: يا أهلَ الجنةِ، هو الخلودُ أبدَ الآبدين، ويا أهلَ النارِ، هو الخلودُ أبدَ الآبدِينَ. فَيَفرَحُ أهلُ الجنّة فرحةً لو كان أحدٌ ميتاً من فرح ماتُوا، ويَشهَقُ أهلُ النارَ شهقةً لو كان أحد ميتاً من شَهْقَةٍ ماتوا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾، يقول: إذ ذُبِحَ الموت. رواه ابنُ أبي حاتم في تفسيره. وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾، من أسماءِ يوم القيامة، عَظَّمهُ الله وحذّره عباده. وقال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾، قال: يومُ القيامة، وقرأ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾: يخبر تعالى أنه الخالقُ المالكُ المتصرِّف، وأنّ الخلق كُلَّهم يَهْلِكُون ويبقى هو ـ تعالى وتقدس ـ ولا أحدَ يَدّعِي مُلكاً ولا تصرُّفاً، بل هو الوارثُ لجميع خَلْقه، الباقي بعدهم، الحاكمُ فيهم، فلا تُظْلَم نفسٌ شيئاً ولا جَنَاحَ بعوضةٍ ولا مِثقالَ ذرَّةٍ.

قال ابن أبي حاتم: ذكر هُدبَة بن خالد القَيسي: حدثنا حَزم بن أبي حَزْم القُطَعي قال: كتب عُمَر بن عبد العزيز إلى عَبدِ الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعدُ فإن الله كَتَب على خَلْقِهِ حين خَلَقهم الموت، فَجَعلَ مَصيرهم إليه، وقال فيما أنزَلَ في كتابِهِ الصَّادِقِ الذي حَفظه بِعِلْمِهِ، وأشهدَ ملائكتَه على خلقه: إنه يَرث الأرضَ ومن عليها، وإليه يُرْجَعُون.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)﴾

يقولُ تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ واتله على قومك، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكُر لهم ما كان من خبر إبراهيمَ خليلِ الرحمن الذين هم من ذُرِّيته، ويَدّعون أنهم على مِلّته، وقد كان ﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ مع أبيه، كيف نَهاه عن عبادةِ الأصنام، فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾، أي: لا ينفعُك ولا يدفع عنك ضرراً. ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾. يقول: فإن كنتُ من صُلبِكَ وتَرَى أني أصغر منك، لأني ولدُك، فاعلم أني قد اطّلعتُ من العلم من الله على ما لم تَعلَمه أنت ولا اطّلعت عليه ولا جاءَك بعدُ، ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي: طريقاً مستقيماً مُوصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهُوبِ. ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾، أي: لا تُطِعه في عبادَتِك هذه الأصنامَ، فإنّه هو الداعي إلى ذلك، والراضِيَ به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠]، وقال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧)﴾ [النساء: ١١٧].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾، أي: مُخالِفاً مستكبراً عن طاعة ربّه، فطَرَدَه وأبعدَه، فلا تَتْبعه تَصِرْ مثله. ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾، أي: على شركك وعصيانك لما آمرُكَ به، ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾، يعني: فلا يكون لك مولىً ولا ناصراً ومغيثاً إلا إبليسُ، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيءٌ، بل اتباعك له موجبٌ لإحاطةِ العَذاب بك، كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ [النحل: ٦٣].

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن جَواب أبي إبراهيم لولَدِه إبراهيمَ فيما دَعَاه إليه أنه: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي﴾ يعني إن كنت لا تُريدُ عبادتَها ولا تَرضَاها؟ فانتَه عن سَبِّها وشَتْمِها وعَيْبِها، فإنك إن لم تَنْتَهِ عن ذلك اقتصصتُ منك وشتمتُكَ وسَببتُكَ، وهو قولُه: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، قاله ابنُ عبَّاسٍ، والسدِّيُّ، وابنُ جُريجٍ، والضحَّاك، وغيرهم. وقولُه: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، قال مجاهد، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن إسحاقَ: يعني دهراً. وقال الحسنُ البصريُّ: زماناً طويلاً. وقال السدِّيُّ: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، قال: أبداً. وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، والعوفيُّ، عن ابن عبَّاس: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، قال: سَوِياً سالماً قبل أن تصيبك مني عُقُوبة. وكذا قال الضحاك، وقتادة، وعَطِية الجَدَليُّ، وأبو مالك، وغيرهم. واختاره ابنُ جَرير. فعندها قال إبراهيمُ لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾، كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥]. ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾، يعني: أمّا أنا فلا يَنالُك مِنّي مكروه ولا أذىً، وذلك لِحُرمة الأبُوّة، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾، أي: ولكن سَأسألُ الله تعالى فيك أنْ يَهديَكَ ويَغفِرَ ذنبك، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾. قال ابنُ عباس وغيره: لطيفاً، أي في أن هداني لعبادته والإخلاص له، وقال مجاهدُ، وقتادةُ، وغيرهما: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾، قالوا: عَوَّدَهُ الإجابَةَ. وقال السّديُّ: «الحفيّ» الذي يَهْتَمّ بأمرِه.

وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مُدّةً طويلةً، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنَى المسجدَ الحرام، وبعد أن وُلِد له إسماعيلُ وإسحاقُ ـ عليهما السلام ـ في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١]. وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهلهم من المشركين في ابتداءِ الإسلام، وذلك اقتداءً بإبراهيم الخليلِ في ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤] الآية، يعني إلا في هذا القول، فلا تتأسّوا به. ثم بين تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك، ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤]، وقوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي﴾، أي: أجتنبكم وأتبرأُ منكم ومن آلهتكم التي تعبدُونها من دون الله، ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّي﴾، أي: وأعبد ربِّي وحدَه لا شريكَ له، ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ «وعسى» هذه مُوجِبَةٌ لا مَحالَةَ فإنه ـ عليه السلام ـ سيِّد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

يقولُ: فلَما اعتزلَ الخليلُ أباه وقومَه في الله أبدلَه الله من هو خيرٌ منهم، ووَهَبَ له إسحاقَ ويعقوبَ،

يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. ولا خلاف أنَّ إسحاقَ والد يعقوب، وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ولهذا إنما ذكر ها هنا إسحاق ويعقوب، أي: جَعَلنا له نسلاً وعَقباً أنبياء، أقرَّ الله بهم عينَه في حياته، ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، فلو لم يكن يعقوبُ عليه السَّلام قد نُبِّىءِ في حياة إبراهيم لَمَا اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف فإنه نَبيٌّ أيضاً.

[٤٤٨٢] كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صِحَّتِهِ، حين سُئِل عن خير الناس، فقال: «يوسفُ نبيُّ الله ابنُ يعقوب نبيِّ الله، ابنِ إسحاقَ نبيِّ الله، ابن إبراهيمَ خليلِ الله»[١].

[٤٤٨٣] وفي اللَّفظِ الآخَرِ «إنَّ الكريمَ ابنَ الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيمَ»[٢]. وقولُه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني الثناء الحسَنَ. وكذا قال السدّيُّ، ومالكُ بنُ أنَسٍ. وقال ابنُ جرير: إنما قال: ﴿عَلِيًّا﴾، لأن جَميع المِلَلِ والأديانِ يُثنون عليهم ويمدَحُونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

لما ذَكر تعالى إبراهيمَ الخليلَ وأثنى عليه عَطَف بِذِكرِ الكَلِيم، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام، من الإخلاص في العبادة. قال الثوريُّ، عن عبد العزيز بن رُفيع، عن أبي لُبَابَةَ قال: قال الحواريُّون: يا رُوح الله، أخبرنا عن المخلص لله. قال: الذي يعمل لله، لا يحبُّ أن يحمَدَهُ الناسُ. وقرأ الآخرون بفتحها، بمعنى أنه كان مُصطفىً، كما قال تعالى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾، جَمَعَ الله له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أُولي العزم الخمسة، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلواتُ الله وسلامُه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

وقولُه تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، أي: الجبَل ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾، أي: من جانِبِهِ الأيمن من موسى، حين ذهب يبتغي من تلك النار جَذوةً، رآها تلوح فقصدها، فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، غَرْبِيَّه عند شاطىء الوادي. فكلمه الله تعالى، وناداه وقربه فناجاه.

قال ابن جرير: حدثنا ابن بَشّار، حدثنا يحيى ـ هو القَطّان ـ حدثنا سفيان، عن عطاء بن السائب، عن سَعيد بن جُبَير، عن عباس: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾، قال: أُدْني حتى سَمِع صَريفَ القَلَم. وهكذا قال مجاهدٌ، وأبو العالية، وغيرُهم. يعنون صريفَ القلم بكتابة التوراة. وقالَ السّديُّ: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾، قال: أدخل في السماء فَكُلِّم، وعن مجاهد نحوه. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادةَ: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾، قال: نجا بِصِدْقه.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عبدُ الجَبّار بن عاصم، حدثنا محمد بن سَلَمة الحَرّانيُّ، عن أبي واصِلٍ، عن شهر بن حَوْشَبٍ، عن عَمرو بن معدِ يكرِبِ قال: لما قَرَّب الله موسى نَجيًا بطور سيناء، قال: يا موسى،

(١) تقدم في تفسير سورة يوسف عند آية: ٤.

(٢) أيضاً تقدم في تفسير سورة يوسف.

إذا خلقتُ لك قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تُعِينُ على الخير فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزنُ عنه [هذا] فلم أفتح له من الخير شيئاً. وقولُه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾، أي: وأجبنا سُؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الآخرى: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٤]، وقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وقال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء: ١٣ ـ ١٤]. ولهذا قال بعضُ السلف: ما شَفَع أحدٌ في أحد شفاعةً في الدنيا أعظَمَ من شفاعةِ موسى في هارونَ أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾. قال ابنُ جرير: حدّثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، عن داودَ، عن عكرمةَ قال: قال ابنُ عباسٍ قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾، قال: كان هارونُ أكبر من موسى، ولكن أراد، وهب له نبوته. وقد ذكره ابنُ أبي حاتم مُعلّقاً، عن يعقوب ـ وهو ابنُ إبراهيمَ الدَّوْرَقي ـ به.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

هذا ثناءٌ من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل ـ عليهما السلام ـ وهو والد عَرَبِ الحجاز كلِّهم بأنه ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾. قال ابنُ جُريج: لم يعِدْ ربَّه عدةً إلا أنجزها. يعني ما التزم عبادةً قَطُّ بنذرٍ إلا قام بها، ووفّاها حقَّها. وقال ابن جرير: حدّثني يونُس، أنبأنا ابنُ وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن سهل بن عَقِيل حَدَّثه: أن إسماعيل النبي ـ عليه السلام ـ وَعَد رَجُلاً مكاناً أن يأتيه فيه، فجاء ونَسِي الرجلُ، فظلَّ به إسماعيل وبات حتى جاء الرجلُ من الغد، فقال: ما بَرِحتَ من ها هنا؟ قال: لا. قال: إني نَسِيتُ. قال: لم أكُن لأبرحَ حتى تأتيني. فلذلك: ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾. وقال سفيانُ الثوريُّ: بَلَغني أنه أقامَ في ذلك المكان ينتظِرُه حولاً حتى جاءه. وقال ابنُ شَوْذَبٍ: بَلَغني أنه اتَّخذ ذلك الموضعَ سكناً.

[٤٤٨٤] وقد روى أبو داود في سُنَنه، وأبو بكر محمد بن جَعفر الخَرائِطي في كتابه «مكارم الأخلاق»، من طريق إبراهيم بن طهمان، عن بُدَيل بن مَيْسَرَةَ، عن عبد الكريم ـ يعني ابن عبد الله بن شَقِيق ـ عن أبيه، عن عبد الله بن أبي الحمساء قال: بايعتُ رسولَ الله ﷺ قبل أن يُبعَثَ فَبَقِيتْ له عليّ بقيّة، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك، قال: فنسيت يومي والغد، فأتيته في اليوم الثالث، وهو في مكانه ذلك، فقال لي: يا فَتى، لقد شققتَ عليّ، أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك[1]. لفظ الخرائطي، وساق آثاراً حسنة في ذلك. ورواه ابنُ مَنْدَه أبو عبد الله في كتابِ «معرفةِ الصحابة»، بإسنادِهِ عن إبراهيمَ بن طهمانَ، عن بُدَيل بن ميسرَةَ، عن عبد الكريم، به.

وقال بعضهم: إنما قيل له: ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾، لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فَصدَق في ذلك. فَصِدْقُ الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خُلْفَه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾.

[٤٤٨٥] وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كَذَب، وإذا وَعَد أخلَف، وإذا أُوْتُمِن

---

(١) ضعيف، أخرجه أبو داود ٤٩٩٦، ومداره على عبد الكريم بن عبد الله العقيلي. ذكره الذهبي في الميزان ٥١٦٢ فقال: لا يُعرف، وقال عنه الحافظ في التقريب: مجهول، وفي هذا المتن نكارة.

خانَ»[١] . ولما كانت هذه صفاتِ المنافقين، كانَ التلبُّس بِضدِّها من صفاتِ المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عَبْدِهِ ورسُولِه إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسولُ الله ﷺ صادقَ الوعد أيضاً، لا يَعِدُ أحداً شيئاً إلا وفَى له به.

[٤٤٨٦] وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينبَ، فقال: «حَدَّثني فَصَدَقني، ووعَدَني فَوفى لي»[٢] .

[٤٤٨٧] ولما تُوفِّي النبي ﷺ قال الخليفةُ أبو بكر الصدِّيقُ: من كان له عند رسول الله ﷺ عِدَةٌ أو دينٌ فَلْيأتِني أُنجِزْ له. فجاءَهُ جابرُ بن عبد الله، فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان قال: «لو جاء مال البحرَينِ أعطيتُك هكذا وهكذا وهكذا ـ يعني مِلْءَ كَفَّيهِ ـ فلما جاء مالُ البحرَين أمرَ الصدِّيقُ جَابِراً فغرف بيده من المال، ثم أمره بِعدِّهِ، فإذا هو خَمسمئة درهم، فأعطَاه مِثْليها مَعَها»[٣] .

وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ ، في هذا دلالَةٌ على شَرَف إسماعيل على أخيه إسحاقَ، لأنه إنما وُصِفَ بالنبوَّة فقط، وإسماعيلُ وُصِف بالنبوَّة والرسالة.

[٤٤٨٨] وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل»[٤] . وذكر تَمامَ الحديثِ، فَدَلَّ على صحة ما قلناه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ : هذا أيضاً من الثناء الجَمِيل، والصِّفة الحَمِيدة والخُلُقِ السَّديدَةِ، حيث كان مُثابِراً على طاعة ربه عزَّ وجلَّ آمراً بها أهْلَه، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]. . . الآية، أي: مُرُوهم بالمعروفِ، وانهوهم عن المنكر، ولا تَدَعوهم هَمَلاً فتأكلَهم النار يوم القيامة.

[٤٤٨٩] وقد جاء في الحديث، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِم الله رجُلاً قام من الليل فصلَّى، وأيقظ امرأتَه، فإن أبت نَضَح في وجهها الماء. رَحِم الله امرأةً قامت من الليل فَصَلَّت، وأيقظت زوجها، فإن أَبَى نَضَحت في وجهه الماء»[٥] . أخرجه أبو داود وابن ماجه.

[٤٤٩٠] وعن أبي سَعِيد، وأبي هُرَيرة ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظَ الرجلُ من الليل وأيقظَ امرأته، فَصَلّيا ركعتين، كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»[٦] . رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، واللفظ له.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

---

(١) تقدم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٧٢٩ من حديث المسور بن مخرمة.

(٣) لم أره بعد، فلينظر.

(٤) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٢٤.

(٥) جيد. أخرجه أبو داود ١٣٠٨ والنسائي ٣/ ٢٠٥ وابن ماجه ١٣٣٦ وأحمد ٢/ ٢٥٠ و٤٣٦ وابن حبان ٢٥٦٧ والبيهقي ٢/ ٥٠١ وصححه الحاكم ١/ ٣٠٩ ووافقه الذهبي، وإسناده قوي.

(٦) جيد. أخرجه أبو داود ١٣٠٩ والنسائي في «الكبرى» ١٣١٠ وابن ماجه ١٣٣٥ وابن حبان ٢٥٦٨ والبيهقي ٢/ ٥٠١ وإسناده صحيح، صححه الحاكم ١/ ٣١٦ ووافقه الذهبي، وانظر «صحيح أبي داود» ١١٦٣.

وهذا ذِكْرُ إدريسَ ـ عليه السلامُ ـ بالثناء عليه، بأنه كان صِدِّيقاً نَبِيّاً، وأن الله رَفَعه مكاناً علياً.

[٤٤٩١] وقد تقدم في الصحيح: أن رسول الله ﷺ مَرّ به ليلةَ الإسراءِ وهو في السماء الرابعة[١].

وقد روى ابنُ جَرِيرٍ ها هنا أثراً غريباً عجيباً، فقال: حدثني يونُس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابنُ وهب، أخبرني جَرير بن حازم، عن سُليمان الأعمش، عن شِمْر بن عطية، عن هلالٍ بن يَساف قال: سأل ابنُ عباس كَعباً وأنا حاضرٌ، فقال له: ما قولُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾؟ فقال كعب: أما إدريسُ فإن الله أوحى إليه أني أرفعُ لك كُلَّ يوم مثلَ عَمَلَ جَميع بني آدم. فأُحبَّ أن يَزْداد عملاً. فأتاه خليلٌ له من الملائكةِ فقال: إنَّ الله أوحى إليَّ كذا وكذا، فَكَلِّم لي مِلكَ الموت، فَلْيؤخِّرني حتى أزداد عملاً. فَحَمَله بين جناحيه، ثم صَعِد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم مَلَك الموت مُنْحَدِراً، فَكَلَّم ملكَ الموت في الذي كَلَّمه فيه إدريسُ، فقال: وأين إدريسُ؟ فقال: هوذا على ظهري. قال ملك الموت: فالعجبُ. بُعِثْتُ وقيل لي: اقبِضْ روحَ إدريسَ في السماءِ الرابعة: فجعلت أقول: فكيفَ أقبِضُ روحه في السماء الرابعة، وهو في الأرض؟ فَقَبضَ روحَه هناك. فذلك قولُ الله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾. هذا من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات، وفي بعضه نَكارة، والله أعلم. وقد رواه ابنُ أبي حاتم من وجه آخر، عن ابن عباس: «أنه سَأَل كعباً»... فذكر نحو ما تقدَّم، غير أنه قال لذلك الملك: هل لك أن تسأله ـ يعني ملكَ الموت ـ كم بَقِي من أجلي؟ لكي أزدادَ من العمل... وذكر باقيه، وفيه أنه لما سأله عما بقي من أجَلِه، قال: لا أدري حتى أنظر، فنظر ثم قال: إنك تسألني عن رَجُلٍ ما بقي من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك تحت جَناحِه إلى إدريس، فإذا هو قد قُبِضَ عليه السلام، وهو لا يشعُر به. ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس: أن إدريسَ كان خياطاً، فكان لا يغرِزُ إبرةً إلا قال: «سبحان الله»، فكان يمسي حين يمسي، وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه. وذكر بقيته كالذي قبله، أو نحوه.

وقال ابنُ أبي نَجِيح، عن مجاهد في قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾، قال: إدريسُ رُفِع ولم يَمُتْ، كما رفع عيسى. وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ قال: السماء الرابعة. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾، قال: رُفِع إلى السماءِ السادسَةِ فماتَ بها، وهكذا قال الضَّحَّاكُ بن مُزاحم. وقال الحَسَن، وغيره، في قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾، قال: الجنة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾

يقولُ تعالى: هؤلاء النبيّون ـ وليس المراد المذكورين في هذه السّورةِ فقط، بل جنسَ الأنبياءِ عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاصِ إلى الجنس ـ ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾... الآية. قال السّديُّ وابنُ جَرير: فالذي عُني به من ذُرِّية مَن حملنا مع نوح إبراهيم، والذي عُني به من ذُرِّية إبراهيم إسحاقُ ويعقوبُ وإسماعيل، والذي عُني به من ذُرِّية إسرائيلَ موسى، وهارونُ، وزكريا، ويحيى، وعيسى ابنُ مريم. قال ابنُ جَريرٍ: «ولذلك فرّق أنسابهم، وإن كان يجمَع جميعهم آدمُ، لأنَّ فيهم من ليس من وَلَدِ مَنْ كان مع نوح في السفينة، وهو إدريسُ، فإنه جَدُّ نُوحٍ». قلت: هذا هو الأظهرُ أنَّ إدريسَ في عَمُود نَسَب

---

(١) متفق عليه، وتقدم في الإسراء.

نوح عليهما السلام. وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيلَ، أخذاً من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ:

[٤٤٩٢] «مرحباً بالنبي الصالح، والأخ الصالح»[1] ولم يَقُل: والولد الصالح، كما قال آدمُ وإبراهيمُ عليهما السلام.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني ابن لَهِيعَة، عن يزيد بن أبي حَبِيب، عن عبد الله بن عَمْرو أن إدريس أقدمُ من نوح، بعثَه الله إلى قَوْمِهِ، فأمَرَهم أن يقولُوا: لا إله إلا الله، ويعمَلوا ما شاؤوا، فأبوا، فأهلكهم الله عز وجل. ومما يُؤَيِّد أنَّ المراد بهذه الآيةِ جنسُ الأنبياء، أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾، إلى أن قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾، وقال سبحانه تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. وفي صحيح البخاري، عن مجاهد: أنه سأل ابنَ عبّاس: أفي «ص» سَجْدة؟ فقال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، فنبيكم ممن أُمِرَ أن يَقتَدِيَ بهم، قال: وهو منهم. يعني داود. وقال الله تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾، أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائِله وبَراهِينه سَجَدُوا لربهم خضوعاً واستكانة، وحَمْداً وشُكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة. والبُكِيُّ: جَمْعُ باكٍ، فلهذا أَجْمَعَ العلماءُ على شرعيّةِ السجود ها هنا، اقتداءً بهم، واتباعاً لمنوالهم. قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبرهيم، عن أبي مَعْمَرٍ، قال: قرأ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سورة مريم فسجد وقال: هذا السجودُ، فأين البُكِيّ؟ يريد البكاء. رواه ابنُ أبي حاتم وابنُ جَريرٍ، وسَقَطَ من روايته ذِكْرُ أبي مَعْمَرٍ ـ فيما رأيتُ ـ والله أعلم.

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾

لما ذكر تعالى حِزبَ السعداء، وهم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ومن اتَّبعَهم، من القائمين بحدُود الله وأوامره، المؤدِّين فرائضَ الله، التاركين لزواجِره، ذكر أنه خَلَفَ ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾، أي: قُرون أُخر، ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيعُ، لأنها عِمادُ الدِّين وقِوامه، وخيرُ أعمال العباد. وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذِّها، ورضُوا بالحياةِ الدُّنيا واطمَأنُّوا بها، فهؤلاء سيَلقَون غياً، أي: خَساراً يوم القيامة. وقد اختلفوا في المراد بإضاعةِ الصلاة ها هنا، فقال قائلون: المراد بإضاعَتِها تَرْكُها بالكلية، قاله محمد بن كعب القرظي، وابنُ زيدِ بن أسلَم، والسدّيّ، واختاره ابنُ جرير. ولهذا ذَهَبَ مَن ذَهَب من السَّلَف والخَلَف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقولٌ عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة، لحَديث:

(١) تقدم في سورة الإسراء، وهو صحيح.

[٤٤٩٣] «بين العبدِ وبين الشِّركِ تَركُ الصلاة»[١].

[٤٤٩٤] والحديث الآخر: «العهدُ الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تَركَهَا فقد كفر»[٢]. وليس هذا محلَّ بسطِ هذه المسألة. وقال الأوزاعيُّ، عن موسى بن سُليمان، عن القاسم بن مُخَيمِرَة في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، قال: إنما أضاعُوا المواقيتَ، ولو كان تَركاً كان كُفراً. وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم بن عبد الرحمن والحسن بن مسعود، عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يُكْثِر ذِكر الصلاة في القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: ٥]، و ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]، و ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]، فقال ابن مسعود: على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على التَّركِ؟ قال: ذلك الكفرُ. [و] قال مسروقٌ: لا يحافِظ أحدٌ على الصلواتِ الخَمسِ فَيُكتَبَ من الغافِلِينَ، وفي أفراطِهنَّ الهلكةُ. وإفراطُهنَّ إضاعَتُهنَّ عن وقتهنَّ. وقال الأوزاعيُّ، عن إبراهيم بن يزيد: أن عمر بن عبد العزيز قرأ: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾، ثم قال: لم تكن إضاعتُهم تَركَها، ولكن أضاعُوا الوقْتَ. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾، قال: عند قيام الساعة وذَهاب صالحي أُمَّةِ محمدٍ ﷺ، يَنزُو بعضهم على بعضهم في الأزِقَّة، وكذا رَوى ابن جُرَيج، عن مجاهد، مثله. وروى جابر الجُعْفيّ، عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح: أنهم من هذه الأمة. يعنُون في آخر الزمان. وقال ابنُ جَرير: حدثني الحارث، حدثنا الحسنُ الأشيبُ، حدثنا شَريكٌ، عن إبراهيم بن مُهَاجر، عن مجاهد: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾، قال: هم في هذه الأمة، يتراكبون تراكب الأنعام والحُمُر في الطرق، لا يخافُون الله في السماء، ولا يستَحْيُون الناسَ في الأرض.

[٤٤٩٥] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرىء، حدثنا حَيْوَةُ، حدثنا بَشِير بن أبي عَمرو الخَولاني: أن الوليد بن قَيس حَدَّثه، أنه سَمِع أبا سعيد الخُدْري يقول: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: يكُون خَلْفٌ بعد ستِّين سنة، أضاعُوا الصلاة وَاتَّبعُوا الشهواتِ فَسوف يَلْقَون غيّاً. ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدوُ تراقِيَهم. ويقرأ القرآن ثلاثةٌ: مؤمن، ومنافق، وفاجر. قال بَشِيرٌ: قلتُ للوليد: ما هؤلاءِ الثلاثةُ؟ قال: المؤمنُ مؤمنٌ به، والمنافقُ كافرٌ به، والفاجرُ يَتَأَكَّلُ به[٣]. وهكذا رواه أحمد، عن أبي عبدِ الرَّحمنِ المُقرِىءِ، به.

[٤٤٩٦] وقال ابنُ حاتم أيضاً: حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا عيسى بن يونُسَ، حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن مَوْهَب، عن مالك، عن أبي الرِّجَالِ: أن عائشة كانت تُرسِل بالشيء صدقةً لأهل الصُّفَّة، وتقول: لا تُعطُوا منه بَرْبَرياً ولاَ بَرْبَرية، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: هم الخَلْفُ الذين قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٤]. هذا حديث غريبٌ. وقال أيضاً: حدثني أبي، حدثنا

---

(١) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٣١ وهو صحيح.

(٢) تقدم أيضاً في تفسير سورة النساء، وهو صحيح.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٣٨ بهذا الإسناد، من حديث أبي سعيد، ورجاله ثقات كلهم سوىٰ الوليد بن قيس، وثقه ابن حبان والعجلي فقط وقال الحافظ في التقريب: مقبول أهـ أي حيث يتابع. والغريب فيه ذكر «ستين سنة» ولباقيه شواهد، والله تعالى أعلم.

(٤) إسناد ضعيف، والمتن منكر، أخرجه الحاكم ٢/ ٢٤٤ ح ٢٩٦٣، وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: عبيد الله ـ ابن عبد الرحمن بن موهب ـ مُختلف في توثيقه، ومالك لا أعرفه، ثم هو منقطع أهـ فهذه علل ثلاث مع نكارة متنه، والظاهر أنه من وضع أحد دعاة الشعوبية.

عبد الرحمن بن الضحاك، حدثنا الوليد، حدثنا حَرِيزٌ، عن شَيْخٍ من أهل المدينة: أنه سمع مُحمَّد بن كعب القُرَظِيَّ يقول في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾الآية، قال: هم أهلُ الغرب، يملكون، وهم شَرُّ من ملك.

وقال كعب الأحبار: والله إنّي لأجدُ صِفَةَ المنافقين في كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ شَرَّابين للقَهَواتِ، تَراكين للصَّلَواتِ، لَعَّابين بالكَعَبَات، رَقَّادين عن العَتَمات، مُفَرِّطين في الغَدَواتِ، تاركين للجُمُعَاتِ، قال: ثم تَلاَ هـذه الآيـة: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾. وقـال الـحـسـنُ البصريُّ: عَطَّلوا المساجدَ ولَزِموا الضَّيعَاتِ. وقال أبو الأشهب العَطَارِديُّ: أوحى الله تعالى إلى داودَ: يا داودُ، حَذِّر وَأَنذِرْ أصحابَكَ أَكْلَ الشهوات، فإن القُلوب المعلَّقة بشَهَواتِ الدنيا عُقولها عَنِّي محجوبةٌ، وإنَّ أهوَنَ ما أصنَعُ بالعبد من عَبِيدِي إذا آثر شهوةً من شهواته عَلَيَّ أن أَحْرِمَه طاعتي.

[٤٤٩٧] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا زيدُ بن الحُبَاب، حدثني أبو السَّمْح السَّهْمي، عن أبي قَبِيلٍ، أنه سمع عُقْبَةَ بن عامر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّي أخاف على أُمتي اثنتَين: القرآن واللَّبَن، أمَا اللبن فَيَبْتَغُون الرِّيفَ، وَيتبِعُون الشهوات، ويتركون الصلوات، وأما القرآن فيتعلمه المنافقون، فيجادلون به المؤمنين»[١]. ورواه عن حسن بن موسى، عن ابن لَهيعة، حدثنا أبو قَبِيلٍ، عن عُقْبَةَ، به مرفوعاً بنحوه. تفرد به.

وقولُه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾، قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾، أي: خسراناً. وقال قتادة: شراً. وقال سفيان الثوري، وشعبة، ومحمد بن إسحاق، عن أبي إسحاقَ السَّبيعي، عن أبي عُبَيْدَةَ، عن عبد الله بن مسعودٍ: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾، قال: وَادٍ في جَهنّم، بعيدُ القَعر، خَبيث الطَّعم. وقال الأعمش، عن زيادٍ، عن أبي عياضٍ في قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾، قال: واد في جهنم من قَيْحٍ ودَمٍ.

[٤٤٩٨] وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير: حدثني عباس بن أبي طالب، حدثنا محمد بن زِيَادِ بن زبَّار، حدثنا شَرْقيُّ بن قُطَامِيٍّ، عن لُقمانَ بن عامر الخُزاعيِّ قال: جئتُ أبا أُمَامَة صُدَيَّ بن عَجْلاَن الباهليَّ فقلت: حَدِّثنا حديثاً سَمِعتَه من رسول الله ﷺ قال: فدعا بطَعَام، ثم قال: قال رسولُ الله ﷺ: لو أن صَخْرَةً زِنَةَ عَشر أواقٍ قُذف بها من شَفِير جَهَنَّم ما بَلَغت قَعْرَها خمسين خريفاً، ثم تنتهي إلى غَيٍّ وأثام. قال: قلت: وما غيٌّ وأثامٌ؟ قالَ: بئران في أسفل جَهَنَّم، يسيل فيهما صديدُ أهل النار، وهما اللَّتان ذَكَرَ الله في كتابه: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾. وقوله في الفرقان: ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾[٢] [الفرقان: ٦٨]. هذا حديثٌ غريبٌ، ورفعُه منكَرٌ.

وَقولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾، أي: إلاَّ من رَجَع عن تَرْكِ الصلوات واتِّباع الشهواتِ فإن الله يتقبّل تَوْبتَه، ويُحسِنُ عاقبته، ويجعله من وَرَثة جَنَّة النعيم. ولهذا قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾، وذلك لأن التوبة تَجب ما قبلها.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٦ و٥/ ٢٧٤ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١/ ١٨٧ وقال: وفيه درّاج أبو السمح، وهو ثقة مختلف في الاحتجاج به اهـ، وأخرجه أحمد ٤/ ١٥٥ وأبو يعلى ١٧٤٦ من وجه آخر بنحوه وإسناده ضعيف، لضعف ابن لهيعة. وأخرجه الحاكم ٢/ ٣٧٤ من وجه آخر أيضاً وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) والحديث أخرجه الطبري ٢٣٧٩٠ والبيهقي في «البعث» ٥٢٢ والطبراني ٧٧٣١. قال الهيثمي في «المجمع» ١٨٥٩١: فيه ضعفاء، قد وثقهم ابن حبان، وقال: يخطئون اهـ. وهو في الزهد لابن المبارك ٣٠٢ عن أبي أمامة موقوفاً، ولأكثره شواهد، والوهن فقط في قوله «غيّ وآثام».

[٤٤٩٩] وفي الحديث الآخر: «التائبُ من الذَّنب كَمَن لا ذنبَ لَهُ»[1]، ولهذا لا يُنْقَصُ هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عَمِلوها شيئاً، ولا قُوبِلوا بما عَمِلوه قبلها فَينقص لهم مما عَمِلوه بعدها لأنَّ ذلك ذَهَب هَدراً وتُرِكَ نَسياً، وذهب مَجّاناً، من كَرَم الكريم، وحِلْم الحَليم. وهذا الاستثناءُ ها هنا كَقَولِهِ تعالى في سُورَةِ الفُرْقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

يقولُ: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم، هي ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾، أي: إقامة ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ﴾ بظهر الغيب، أي: هي من الغيب الذي يُؤمِنون به وما رأوه، وذلك لشدَّةِ إيقانهم وقوة إيمانهم. وقولُه: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾، تأكيد لحصولِ ذلك وثبوته واستقراره، فإن الله لا يُخلِفُ الميعادَ ولا يُبَدِّلُه، كقوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾، أي: كائنٌ لا مَحالَةَ. وقولُه ها هنا: ﴿مَأْتِيًّا﴾ أي: العبادُ صائِرُون إليه، وسيأتُونَه. ومنهم من قال مأتيّاً آتياً، لأن كُلَّ ما أتاك فقد أتيته، كما تقول العرب: أَتَتْ عَلَيَّ خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد. وقولُه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾، أي: هذه الجناتُ ليس فيها كلامٌ ساقطٌ تافِهٌ لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا. وقولُه: ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥ ـ ٢٦]. وقولُه: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، أي: في مثل وقت البُكُراتِ ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقَبُ، يعرفون مُضِيَّهَا بأضواءٍ وأنوارٍ.

[٤٥٠٠] كما قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمَرٌ، عن هَمّام، عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زُمْرَة تَلِجُ الجنةَ صُوَرُهم على صُورَةِ القمر ليلةَ البدر، لا يبصقُون فيها، ولا يتمخَّطون فيها، ولا يَتَغوَّطون. آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومَجامِرُهم الألُوَّةُ[2]، ورَشْحُهم المِسْكُ، ولِكُلِّ واحدٍ منهم زوجتان، يرى مُخ ساقها من وَرَاءِ اللَّحم؛ من الحسن لا اختلافَ بينهم ولا تباغُضَ، قُلوبُهم على قلبِ واحدٍ، يُسَبِّحونَ الله بُكرَةً وعَشِيّاً»[3]. أخرجاه في الصحيحين، من حديث مَعْمَرٍ به.

[٤٥٠١] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاقَ، حدثني الحارث بن فُضَيل الأنصاريّ، عن محمود بن لَبيد الأنصاريّ، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الشُّهداء على بارقٍ نهرٍ ببابِ الجَنَّةِ، في قُبَّة خضراءَ، يخرُجُ عليهم رزقُهم من الجنة بكرة وعشياً»[4]. تفرد به أحمد من هذا الوجه.

---

(١) حسن. أخرجه ابن ماجه ٤٢٥٠ والطبراني في «الكبير» ١٠٢٨١ وأبو نعيم في «الحلية» ٤/ ٢١٠ والقضاعي ١٠٨ من حديث ابن مسعود، وإسناده منقطع، أبو عبيدة لم يسمع من أبيه شيئاً علىٰ الراجح، وقيل: سمع أحرفاً يسيرة. وللحديث شواهد منها حديث أبي سعيد الأنصاري عند الطبراني ٢٢/ ٧٧٥ وأبي نعيم ١٠/ ٤٩٨، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» ٣٤٢٧.

(٢) الألوة: عود يتبخر به.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٤٥ ومسلم ٢٨٣٤ والترمذي ٢٥٣٧ وأحمد ٢/ ٣١٦ وابن حبان ٧٤٣٦.

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٢٦٦ والطبري ٨٢١٣ والطبراني ١٠٨٢٥ وابن حبان ٤٦٥٨ وصححه الحاكم ٢/ ٧٤ ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» ٥/ ٢٩٨: ورجال أحمد ثقات.

وقال الضحَّاك، عن ابنِ عباسٍ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، قال: مقاديرَ الليلِ والنهارِ.

وقال ابنُ جرير: حدثنا علي بن سَهْلٍ، حدثنا الوليد بن مسلم قال: سألت زُهير بن محمد، عن قول الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، قال: ليسِ في الجنة ليل، هم في نُورٍ أبداً، ولهم مقدارُ الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاءِ الحُجُب وإغلاقِ الأبواب. ويعرِفُون مقدارَ النهار برفع الحُجَبِ وفَتْحِ الأبواب. وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم، عن خُلَيد، عن الحسن البصري ـ وذَكرَ أبوابَ الجنة فقال ـ: أبوابٌ يُرَى ظاهِرُها من بَاطِنها، فَتُكلِّم وتُكلَّم، فتفهَمُ انفتِحِي انغَلِقِي، فَتَفعلُ. وقال قتادةُ في قولِه: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. فيها ساعتان، بُكرةٌ وعَشِيٌّ، ليس ثم ليلٌ ولا نَهارٌ، وإنما هو ضَوءٌ ونورٌ. وقال مجاهد: ليس فيها بكرة ولا عَشِيٌّ، ولكن يُؤتَون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا. وقال الحسن، وقتادةُ، وغيرهما: كانت العربُ، الأنْعَمُ فيهم، من يَتَغَدَّى ويتعَشَّى، ونَزَل القرآن على ما في أنفسهم من النَّعيم، فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. وقال ابنُ مهديٍّ، عن حَمَّاد بن زيد، عن هشام، عن الحسن: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، قال: البكورُ يَرِدُ على حُدَيرِ العَشِيِّ، والعَشِيُّ يَرِدُ على البكور، ليس فيها ليلٌ.

[٤٥٠٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سُليم بن منصور بن عَمَّار، حدثني أبي، حدثنا محمد بن زياد قاضي أهل شِمْشَاطَ[1]، عن عبد الله بن حُدَير، عن أبي سلَمة بن عبد الرحمن، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ قال: «ما من غَدَاةٍ من غَدَوَاتِ الجنة، وكلُّ الجنة غَدَواتٌ، إلا أنه يُزَفُّ إلى وليِّ الله فيها زوجة من الحُورِ العين، أدناهُنَّ التي خُلِقت من الزَّعفرانِ»[2]. قال أبو محمد: هذا حديثٌ غريب منكَرٌ.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾، أي: هذه الجنة التي وَصَفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نُورِّثها عبادَنا المُتَّقِين، وهم المطيعون لله ـ عز وجل ـ في السَّراء والضرَّاءِ، والكاظِمُون الغيظَ، والعافُون عن الناس، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، إلى أن قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

[٤٥٠٣] قال الإمام أحمد: حدثنا يَعْلى ووكيع قالا: حدثنا عمر بن ذَرٍّ، عن أبيه، عن سعيد بن جُبَير، عن ابنِ عَبَّاسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ لجبريلَ: ما يَمنَعُك أن تَزُورَنا أكثرَ مما تَزُورُنا؟ قال: فَنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[3]. انفرد بإخراجه البخاري، فَرَواه عند تَفسير هَذِهِ الآيةِ عن أبي نُعَيم، عن عُمَرَ بن ذَرٍّ به. ورواه ابن أبي حاتم وابنُ جرير، من حديث عُمَرَ بن ذَرٍّ، به. وعندهما زيادةٌ في آخر الحديث: فكان ذلك الجواب لمحمد ﷺ.

[٤٥٠٤] وقال العَوفيُّ، عن ابن عَبَّاسٍ: احتبسَ جِبْريلُ عن رسولِ الله ﷺ فَوَجدَ رسولُ الله ﷺ من ذلك

---

(١) مدينة بالروم على شاطىء الفرات أهـ معجم البلدان.

(٢) حكم أبو محمد، وهو ابن أبي حاتم، بنكارة هذا الحديث، وهو كما قال، في إسناده، منصور بن عمار الواعظ، قال أبو حاتم: ليس بالقوي، وقال ابن عدي: منكر الحديث، وقال الدارقطني: يروي عن ضعفاء أحاديث، لا يتابع عليها أهـ. الميزان، وشيخه مجهول لم أجد من ترجمه.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٣ و٧٤٥٥ والترمذي ٣١٥٨ والنسائي في «التفسير» ٣٣٩.

وَحزن، فأتاه جبريلُ وقال: يا محمدُ، ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾[١].

[٤٥٠٥] وقال مجاهدٌ: لَبث جبريلُ عن محمد ﷺ اثنتي عشرةَ ليلةً، ويقولون: أُقْلِيَ؟ فلما جاءه قال: يا جبريلُ، لقد رِثْتَ عَلَيَّ حتى ظنَّ المشركون كُلَّ ظَنٍّ. فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾[٢]، قال: وهذه الآية كالَّتي في الضحى. وكذلك قال الضحاك بن مُزاحم، وقتادةُ، والسديُّ، وغيرُ واحد: إنها نزلت في احتباسِ جبريل.

[٤٥٠٦] وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: أبطأ جبريلُ النزولَ على رسول الله ﷺ أربعين يوماً، ثم نَزَل، فقال له النبيُّ ﷺ: ما نَزلت حتى اشتقتُ إليكَ. فقال له جبريلُ: بل أنا كنتُ إليك أشوقَ، ولكنّي مأمور، فَأُوحِيَ إلى جبريلَ أن قُل له: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَۖ﴾ . . . الآية[٣]. رواه ابنُ أبي حاتِم [رحمه الله]، وهو غريبٌ.

[٤٥٠٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو مُعَاوية، حدثنا الأعمشُ، عن مجاهد قال: أبطأتِ الرُسُلُ على النبيِّ ﷺ، ثم أتاه جبريل فقال له: ما حَبَسك يا جبريل؟ فقال له جبريل: وكيف نَأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تُنقون بَرَاجمكُم، ولا تأخُذُون شَوَارِبكم، ولا تَستَاكُون؟ ثم قرأ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَۖ﴾ . . . الآية[٤].

[٤٥٠٨] وقد قال الطَّبَرانيُّ: حدثنا أبو عامر النحويُّ، حدثنا محمد بن إبراهيم الصُّوريُّ، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدِّمَشقِيُّ، حدثنا إسماعيل بنُ عياش، أخبرني ثعلبةُ بن مسلم، عن أبي كَعْبٍ مولى ابن عباس، عن ابن عَبّاس، عن النبيِّ ﷺ أن جبريل أبطأ عليه، فَذكر ذلك له، فقال: وكيف وأنتم لا تَستنُّون، ولا تُقَلِّمون أظفاركم، ولا تقصُّون شَوَاربكم، ولا تُنقون رَوَاجِبَكم[٥]. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي اليمان، عن إسماعيل بن عياش، به نحوه.

[٤٥٠٩] وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا المُغِيرةُ بن حَبيب خَتَنُ مالك بن دينار: حَدَّثني شيخٌ من أهل المدينة، عن أم سَلَمة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أصلحي لنا المَجلِس، فإنه يَنزل ملك إلى الأرض لم يَنْزِل إليها قَطُّ»[٦]. وقولُه: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾، قيل: المراد بـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: أمْرُ الدنيا، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: أمر الآخرة، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ﴾: ما بين النفختين. هذا قول أبي العالية، وعكرمةَ، ومجاهدٍ، وسعيد بن جُبَير. وقتادة ـ في رواية عنهما ـ والسديُّ، والربيع بن أنس. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما نستقبل من أمر الآخرة، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾، أي: ما مَضى من الدنيا، ﴿وَمَا بَيْنَ

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣٨٠٧. بإسناد ضعيف لضعف عطية العوفي، لكن يتأيد بما قبله.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣٨١١ وإسناده ضعيف، والمحفوظ لفظ البخاري وأحمد.

(٣) هذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف.

(٤) ضعيف، أورده الواحدي ٦٠٧ عن مجاهد بدون إسناد، وعلته الإرسال، وانظر ما بعده.

(٥) منكر. في إسناده سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي فيه كلام، لكن وُثق، وفيه ثعلبة بن مسلم، قال عنه الحافظ: مستور، وقال الذهبي في الميزان: عن أبي كعب، وعنه إسماعيل بن عياش، بخبر منكر.
سنّ الأضراس: سوّكها. والرواجب: مفاصل أصول الأصابع، أو بواطن مفاصلها.

(٦) إسناده ضعيف، أخرجه أحمد ٦/ ٢٩٦ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٥٩٤. فيه تابعي لم يسمّ، وبقية رجاله ثقات.

ذَٰلِكَ﴾، أي: ما بين الدنيا والآخرة. يُروى نحوه عن ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، وقتادة، وابن جُرَيج، والثوريّ. واختاره ابنُ جَرير أيضاً، والله أعلم.

وقولُه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، قال مجاهد: معناه ما نَسِيكَ ربك. وقد تقدَّم عنه أن هذه الآية كقوله: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى: ١ ـ ٣].

[٤٥١٠] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا يزيدُ بن محمد بن عبد الصَّمَدِ الدمشقي، حدثنا محمد بن عثمان ـ يعني أبا الجُماهر ـ حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا عاصم بن رجاء بن حَيْوة، عن أبيه، عن أبي الدرداء ـ يرفعه ـ قال: ما أحلَّ الله في كتابه فهو حَلال، وما حَرَّم فهو حَرَام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبَلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً. ثم تَلاَ هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[1]. وقوله: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: خالقُ ذلك ومدبِّره، والحاكمُ فيه والمتصرِّف الذي لا مُعقِّب لحكمه، ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، قال علي بن أبي طلحة. عن ابن عباس: هل تعلم للرب مِثْلاً أو شِبْهاً. وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وقتادة، وابن جُرَيج، وغيرهم. وقال عكرمة، عن ابن عَبّاسٍ: ليس أحَدٌ يسمَّى الرحمنَ غيرُه. تبارك وتعالى، وتقدَّس اسمه.

﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

يُخْبِرُ تعالى عن الإنسان أنه يَتعجَّب ويستبعدُ إعادَتَه بعد موته، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩]. وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾، يَستدِلُّ تعالى بالبَدأة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسانَ ولم يَكُ شيئاً، أفلا يُعيدُه وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

[٤٥١١] وفي الصحيح: «يقول الله تعالى: كَذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له أن يكذبني. وآذاني ابنُ آدم ولم يكن له أن يُؤذيني، أمّا تكذيبُه إيّاي فقوله: لن يُعيدَني كما بَدأني. وليس أولُ الخلق بأهونَ عَليّ من آخره. وأما أذاه إيّاي فَقولُه: إنّ لي ولداً، وأنا الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُواً أحدٌ»[2].

وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أقسم الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ بنفسه الكريمة، أنه لا بد أن يحشُرَهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدُون من دون الله، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾. قال العوفي، عن ابن عباس: يعني قعوداً، كقوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾. وقال السّديُّ في قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ

---

(١) أخرجه البزار ١٢٣ و٢٢٣١ وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٥٥، ورجاله ثقات اهـ. وإسناده لا بأس به، عاصم صدوق يخطىء، وإسماعيل حسن الحديث في روايته عن أهل بلده، وهذا إسناد شامي.

(٢) صحيح. وقد تقدم في سورة البقرة عند آية: ١١٦

جِثِيًّا﴾، يعني: قياماً. ورُوي عن مُرّة، عن ابن مسعود مثله. وقولُه: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾، يعني من كُلِّ أمة. قاله مجاهد، ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾. قال الثوري، عن علي بن الأقمر، عن أبي الأحْوَصِ، عن ابن مسعود قال: يُحبَس الأولُ على الآخر، حتى إذا تكاملت العِدَّةُ أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جُرماً. وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾. وقال قتادةُ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾، قال: ثم لننزعنَّ من أهل كُلِّ دين قادتَهم ورُؤوسهم في الشرِّ. وكذا قال ابن جُريج، وغيرُ واحدٍ من السَّلَفِ. وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف: ٣٨ ـ ٣٩]. وقولُه: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾، ثُمَّ هاهنا لعطف الخبر على الخبر، والمرادُ أنه تعالى أعلَمُ بمن يستحِقُّ من العباد أن يَصلَى بنار جَهنَّم ويَخلُد فيها ومَن يستحقُّ تَضعِيفَ العذاب، كما قال في الآية االمتقدِّمةِ: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

[٤٥١٢] قال الإمامُ أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا غالب بن سليمان، عن كثير بن زياد البُرْسَانيّ، عن أبي سُمَيَّةَ قال: اختلفنا في الوُرودِ، فقال بعضنا: لا يدخلُها مؤمن. وقال بعضنا: يدخُلونَها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله، فقلت له: إنا اختلفنا في الوُرود، فقال: يَرِدُونها جميعاً ـ وقال سليمان مَرّةً[1]: يدخُلونها جميعاً ـ فأهوى بِإِصبَعَيه إلي أُذُنيه، وقال: صُمَّتا إن لم أكن سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دَخلها، فتكون على المؤمنين بَرْداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيمَ، حتى إنَّ للنارِ ضَجِيجاً من بَرْدِهِمْ، ثم يُنَجِّي الله الذين اتقوا، ويَذَرُ الظالمين فيها جِثِيّاً»[2]. غريبٌ، ورواه الحاكم وصححه، والبيهقي، ولم يُخرِجُوه.

وقال الحسنُ بن عرفَةَ: حَدَّثنا مَرْوَان بن مُعَاوِيَةَ، عن بَكّار، عن أبي مَرْوان، عن خالد بن مَعْدَان قال: قال أهلُ الجَنَّةِ بعدما دَخَلُوا الجنةَ: ألم يَعِدْنا ربُّنا الورودَ على النار؟ قال: قد مَرَرْتُم عليها وهي خامدة. وقال عبد الرزاق، عن ابن عُيَيْنَة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حَازِم قال: كان عبد الله بن رَوَاحَةَ واضعاً رأسَه في حِجْرِ امرأتِهِ، فبكَى، فبكَت امرأتُه فقال: ما يُبكِيكِ؟ فقالت: رأيتُك تَبكِي فَبَكَيتُ. قال: إني ذكرتُ قولَ الله عزَّ وجلَ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فلا أدري أنجو منها أم لا؟ وفي رواية: وكان مريضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا ابنُ يَمَان، عن مالك بن مِغْوَلٍ، عن أبي إسحاقَ: كان أبو مَيسَرَةَ إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليتَ أُمِّي لم تَلِدني. ثم يَبْكِي، فقيل: ما يُبكِيكَ يا أبا مَيْسَرَة؟ فقال: أخبرنا أنَّا وارِدُوها، ولم نُخبَرْ أنا صادِرُون عنها. وقال عبدُ الله بن المُبَارك، عن الحسن البصري قال: قال رجلٌ لأخيه: هل أتاك بأنَّكَ واردُ النارَ؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك صادر؟ قال: لا. قال: فَفِيمَ الضحك؟

---

(١) في مسند أحمد ٣/ ٣٢٩ «وقال بعضنا» بدل «وقال سليمان مرة».

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٣٢٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٥٥: ورجاله ثقات، ولجابر في الصحيح في الورود شيء موقوف غير هذا اهـ. وصححه الحاكم ٤/ ٥٨٧ ووافقه الذهبي، وهو حديث حسن.

قال: فما رُئي ضاحِكاً حتَّى لَحِقَ بالله. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عُيينةَ، عن عمرو، أخبرني من سَمِع ابن عباس يُخاصم نافع بن الأزرق، فقال ابنُ عباس: الورودُ الدخولُ؟ فقال نافع: لا. فقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وَرَدُوا أم لا؟ وقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، أورَدُوها أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل تخرُج منها أم لا؟ وما أرى الله مخْرِجك منها بتكذيبك. فضحك نافع.

وروى ابنُ جُرَيج، عن عطاءٍ قال: قال أبو راشِدِ الحَرُورِيُّ ـ وهو نافع بن الأزرَقِ ـ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢]: فقال ابن عباس: ويلك. أمجنون أنت؟ أين قوله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾، ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]، ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ والله إن كان دعاءُ من مضى: اللهُمَّ، أخرِجني مِن النار سالماً، وأدخلني الجنة غانماً. وقال ابنُ جريرٍ: حَدثني محمد بن عُبَيد المحاربيُّ، حدثنا أسباطٌ، عن عبد الملك، عن عبيد الله، عن مُجاهِدٍ قال: كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يُقَال له: أبو راشد، وهو نافعُ بن الأزرق، فقال له: يا ابنَ عباس، أرأيت قول الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾؟ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشدٍ فَسَنَرِدُها، فانظر: هل نصدر عنها أم لا؟

وقال أبو داود الطيالسي: قال شعبة، أخبرني عبد الله بن السائِب، عَمَّن سَمِع ابنَ عباس يقرؤها كذلك: «وَإِن مِنهم إلاَّ وَارِدُهَا» يعنِي الكفار. وهكذا روى عُمَر بن الوليد الشني، أنه سمع عكرمة يقرؤها كذلك «وإن منهم إلا واردها»، قال: وهم الظلمة، كذلك كنا نقرؤها. رواه ابنُ أبي حاتم، وابنُ جَرِير.

وقال العَوْفيّ، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾، يعني البر والفاجِرَ، ألا تسمع إلى قول الله لفرعونَ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾، ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾، فَسمَّى الوُرُود في النار دُخولاً، وليس بصادر.

[٤٥١٣] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عبدُ الرحمن، عن إسرائيلَ، عن السدّيّ، عن مُرَّةَ، عن عبد الله ـ هو ابنُ مسعود ـ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال رسول الله ﷺ: «يَرِدُ النـاسُ كُـلُّهـم، ثـم يـصدُرُونَ عـنـهـا بأَعمالهم»(١). ورواه التِّرمِذيُّ عن عبد بن حُمَيد، عن عُبَيد الله، عن إسرائيلَ، عن السّديّ، به. ورواه من طريق شُعبَةَ، عن السّديّ، عن مُرّة، عن ابن مسعود موقوفاً(٢). هكذا وقع هذا الحديثُ ها هنا مرفوعاً.

وقد رواه أسباط، عن السّديّ، عن مُرة، عن عبد الله بن مسعود قال: يَرِدَ الناس جميعاً الصراط، وورودُهم قيامُهم حولَ النار، ثم يصدُرون عن الصّراط بأعمالهم، فمنهُم من يمرّ مثلَ البرق، ومنهم من يمرُ مثلَ الريح، ومنهم من يمرُ مثلَ الطير، ومنهم من يمرُ كأجودِ الخيل، ومنهم من يمرُ كأجودِ الإبِل، ومنهم من يمرُ كَعَدْوِ الرجل، حتى إنَّ آخرهُم مَرّاً رجلٌ نورُه على موضِعَي إبهامَيْ قَدَمَيْهِ، يَمُرُ يتكفَّأُ به الصِّراطُ،

---

(١) حسن. أخرجه الترمذي ٣١٥٩ وأحمد ١/ ٤٣٥ والدارمي ٢/ ٣٢٩ والحاكم ٢/ ٣٧٥ وإسناده حسن لأجل السدّي، وهو إسماعيل بن عبد الرحمن، فهو وإن روى له مسلم، لكن فيه كلام، والحديث صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وله شواهد تعضده. انظر «الترغيب والترهيب» ٥٢٦٥ و٥٣١٤.

(٢) هكذا وقع في بعض النسخ «موقوفاً» وفي بعض «مرفوعاً» وكلاهما محتمل فهو عند الترمذي ٣١٦٠ عن شعبة عن السدي عن مرة عن ابن مسعود موقوف، ثم ذكر الترمذي عن شعبة قوله لابن مهدي: وقد سمعته من السدي مرفوعاً، ولكني عمداً أدَعُهُ.

والصراط دَحْضٌ مَزَلَّةٌ، عليه حَسَكٌ كَحَسكِ القَتَادِ، حافَتَاهُ ملائكةٌ، معهم كَلاَلِيبُ من نارٍ، يختطفُون بها الناس... وذكر تَمام الحديثِ. رواه ابنُ أبي حاتم.

وقال ابنُ جَرِيرٍ: حدثنا خَلاَّد بن أسلم، حدثنا النضر، حدثنا إسرائيل، أخبرنا أبو إسحاقَ، عن أبي الأحوصِ، عن عبد الله في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال: الصِّراط على جَهَنَّم مثلُ حَدِّ السيفِ، فتمرُّ الطبقة الأولى كالبرق، والثانيةُ كالرِّيح، والثالثةُ كأجودِ الخيلِ، والرابعةُ كأجوَدِ البهائم، ثم يَمُرون والملائكةُ يقولون: اللهمَ سَلِّم سَلِّم. ولهذا شواهِدُ في الصَّحِيحَين وغيرهما، من روايةِ أنَسٍ، وأبي سعيدٍ، وأبي هُرَيرةَ، وجابر، وغيرهم من الصحابة، رضي الله عنهم.

وقال ابنُ جَرِير: حدثني يعقوبُ، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن الجُرَيرِيِّ، عن أبي السَّلِيل، عن غُنَيم بن قَيْسٍ قال: ذَكَروا وُرُودَ النارِ، فقال كعبٌ: تُمْسِكُ النارُ للنَّاسِ كَأنها مَتْنُ إِهَالَةٍ حتى يَستوِي عليها أقدامُ الخلائق، بَرُّهُم وفاجِرُهم، ثم يناديها منادٍ: أن أَمسِكِي أصحابَكِ، ودَعِي أصحابي. قال: فَتَخْسِفُ بكل وَلِيٍّ لها، وَلَهِيَ أعلم بهم من الرجل بولده، ويخرج المؤمنون نَدِيَّةً ثيابُهم. قال كعبٌ: ما بين مَنْكِبَي الخازن من خَزَنتها مسيرة سنة، مع كل واحد منهم عَمُودٌ ذو شُعبتَينِ، يَدفَعُ به الدَّفْعَةَ فيصرَعُ به في النار سَبْعَمئةِ أَلْفٍ.

[٤٥١٤] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن أبي سفيانَ، عن جابر، عن أم مُبَشِّر، عن حفصَةَ قالت: قال رسولُ الله ﷺ: إني لأرجو ألاَّ يدخلَ النار إن شاء الله أحدٌ شهدَ بدراً والحُدَيبِيَةَ. قالت: فقلت: أليس الله يقولُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ قالت: فَسَمِعتُه يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[١].

[٤٥١٥] وقال أحمدُ أيضاً: حدثنا ابنُ إدريسَ، حدثنا الأعمشُ، عن أبي سفيانَ، عن جابر، عن أمِّ مُبَشِّر - امرأة زيد بن حارثة - قالت: كان رسولُ الله ﷺ في بيتِ حفصةَ، فقال: لا يدخلُ النارَ أحدٌ شهد بدراً والحديبية. قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾[٢].

[٤٥١٦] وفي الصَّحِيحَين، من حديث الزُّهري، عن سَعِيد، عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتُ لأحدٍ من المسلمين ثلاثة من الوَلَدِ تَمَسُّه النارُ، إلا تَحِلَّةَ القَسَم»[٣].

[٤٥١٧] وقال عبدُ الرزَّاق: قال معمرٌ: أخبَرَني الزهريُّ، عن ابن المسيَّب، عن أبي هُرَيرَةَ: أن النبي ﷺ قال: «من مات له ثلاثة لم تَمَسُّه النارُ إلا تَحِلَّةَ القَسم». يعني الوُرُودَ[٤].

[٤٥١٨] وقال أبو داودَ الطَّيَالسيُّ: حدثنا زَمعَةُ، عن الزُّهريِّ، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هُرَيرَةَ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يَمُوتُ لمسلمٍ ثلاثةٌ من الوَلَد، فتمسه النارُ إلا تَحِلَّةَ القَسَمِ». قال

---

(١) صحيح. أخرجه ابن ماجه ٤٢٨١ وأحمد ٦/ ٢٨٥. وأخرجه مسلم ٢٤٩٦ وأحمد ٦/ ٤٢٠ من وجه آخر عن جابر به.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ٦/ ٣٦٢ وابن حبان ٤٨٠٠ والطبري ٢٣٨٥٨ وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ١٢٥١ و٦٦٥٦ ومسلم ٢٦٣٢ والترمذي ١٠٦٠ والنسائي ٤/ ٢٥ وأحمد ٢/ ٢٣٩ وابن حبان ٢٩٤٢ من طرق عن الزهري به.

(٤) صحيح. أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ١٧٧٨، ورجاله رجال البخاري ومسلم.

الزُّهريُّ: كأنه يريدُ هذه الآيةَ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾[١].

[٤٥١٩] وقال ابنُ جَريرٍ: حدثني عمرانُ بن بَكَّارٍ الكَلاعِيُّ، حدثنا أبو المغيرةِ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيدَ بن تميم، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرةَ قال: خَرَج رسولُ الله ﷺ يعودُ رجلاً من أصحابه وَعِكاً، وأنا معه، ثم قال: «إن الله تعالى يقولُ: هي نارِي أُسَلِّطها على عبدي المؤمن، لتكون حظه من النار في الآخرة»[٢]. غريب، ولم يُخرِجُوه من هذا الوَجْهِ.

وحدثنا أبو كُرَيبٍ، حدثنا ابن يَمانٍ، عن عثمانَ بن الأسودِ، عن مجاهدٍ قال: الحُمّى حَظُّ كلِّ مؤمن من النارِ، ثم قرأ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

[٤٥٢٠] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا زَبَّانُ بن فائد، عن سهل بن مُعَاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها عَشْرَ مَرَّاتٍ، بَنَى الله له قصراً في الجنة. فقال عمر: إذاً نستكثر يا رسولَ الله. فقال رسول الله ﷺ: «الله أكثر وأطيبُ»[٣].

[٤٥٢١] وقال رسولُ الله ﷺ: «من قرأ ألفَ آيةٍ في سبيل اللّهِ كُتِب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، إن شاء الله. ومن حَرَس من وراء المسلمين في سبيل الله مُتَطَوّعاً لا بأجرة سُلطانٍ لم يَرَ النارَ بعينيه إلا تَحلة القَسَم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، وإن الذكر في سبيل الله يُضَاعَفُ فوق النفقة بسبعمائةِ ضعفٍ، وفي رواية: بسبعمائة ألف ضِعْف»[٤].

[٤٥٢٢] وروى أبو داود، عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، عن يحيى بن أيوب وسعيد بن أبي أيوب، كلاهما عن زبّان، عن سهل، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: «إن الصلاة والصيام والذكر تُضَاعَفُ على النفقة في سبيل الله بسبعمائة ضِعف»[٥]. وقال عبد الرزّاق، عن معمرٍ، عن قتادةَ قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال: هو المَمرُّ عليها.

[٤٥٢٣] وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قولِهِ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال: ورودُ المسلمين المرور على الجسر بين ظهريها، وورود المشركين أن يدخلوها، وقال النبي ﷺ: «الزالُّون والزالأت يومئذٍ كثيرٌ، وقد أحاط بالجسْرِ يومئذ سِمَاطان[٦] من الملائكة، دعاؤهم: يا الله، سَلِّم سَلِّم»[٧]. وقال السُّدِّيُّ، عن مُرّة، عن ابن مسعودٍ في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾، قال: قسماً واجباً. وقال مجاهد: حتماً، قال: قضاء. وكذا قال ابن جُرَيج.

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾، أي: إذا مَرّ الخلائق كلُّهم على النار، وسقط فيها من سَقَط من

---

(١) متن صحيح. أخرجه الطيالسي ٢٣٠٤ بإسناد ضعيف لضعف زمعة، وهو ابن صالح، لكن توبع في الحديث المتقدم، والمتن صحيح.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٣٨٥١ وفي إسناده: عبد الرحمن بن يزيد، وهو ضعيف متروك.

(٣) إسناده ضعيف، ويأتي في سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

(٤) إسناده ضعيف، تقدم تخريجه في سورة النساء: ٦٩.

(٥) أخرجه أبو داود ٢٤٩٨ وقد تقدم تخريجه.

(٦) سماط القوم: صفهم.

(٧) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ٢٣٨٤٩، وهذا معضل، وابن زيد ضعيف الحديث.

الكفّار والعُصاة ذوي المعاصي، بحَسَبهم، نَجّىٰ الله تعالى المؤمنين المُتّقين منها بحَسب أعمالهم. فجَوَازُهم على الصراط وسُرعَتُهم بقَدْر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يُشَفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفَعُ الملائكةُ والنبيُّون والمؤمنون، فيُخرِجُون خَلْقاً كثيراً قد أكلتهم النارُ، إلا داراتِ وجوههم ـ وهي مواضعُ السجود ـ وإخراجهُم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيُخرجُون أوّلاً من كان في قلبه مثقالُ دينارٍ من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، حتى يُخرجُون من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقالِ ذرّةٍ من إيمانٍ، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر: «لا إله إلا الله»، وإن لم يعمل خيراً قطُّ، ولا يبقى في النار إلا من وَجَب عليه الخلودُ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحةُ عن رسول الله ﷺ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾

يخبر تعالى عن الكُفّار حيث تُتلى عليهم آيات الله ظاهرةَ الدلالة بَينةَ الحجّة واضحةَ البرهان، أنّهم يَصِدُّون عن ذلك، ويُعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومُحتجين على صِحّة ما هم عليه من الدِّين الباطل بأنهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، أي: أحسنُ منازلَ وأرفعُ دُوراً وأحسنُ نَدِيّاً، وهو مُجتَمَعُ الرجال للحديث، أي: ناديهم أعمرُ وأكثر وارداً وطارقاً، يعنون: فكيف نكونُ ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق؟. كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. وقال قومُ نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣]، ولهذا قال تعالى رَدّاً عليهم شبهتهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾، أي: وكم من أُمّة وقرنٍ من المكذّبين قد أهلكناهم بكفرهم، ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾، أي: كانوا أحسنَ من هؤلاءِ أموالاً وأمتعةً ومناظِرَ وأشكالاً. قال الأعمشُ، عَن أبي ظَبيانٍ، عن ابن عَبّاس: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، قال: المقامُ: المنزلُ، والنديُّ: المجلِسُ، والأثاثُ: المتاعُ، والرِّئيُ: المنظرُ. وقال العَوفيُّ، عن ابن عَبّاس: المقامُ: المسكنُ، والنّديُّ: المجلس والنعمة والبهجة التي كانوا فيها، وهو كما قال الله تعالى لقوم فرعون حين أهلكهم وقصّ شأنَهم في القرآن: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٦]، فالمقام: المسكن والنعيم، والندي: المجلسُ والمجمَعُ الذي كانوا يجتَمِعُون فيه، وقال فيما قَصّ على رسوله من أمر قَوْم لوط: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، والعربُ تُسمّي المجلِسَ: الناديَ. وقال قتادةُ: لما رأوا أصحابَ محمد ﷺ في عيشهم خشونةً، وفيهم قَشافةٌ[1]، فَعَرَضَ أهلُ الشرك بما تسمعون: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾. وكذا قال مجاهد، والضحاك. ومنهم من قال في الأثاث: هو المالُ. ومنهم من قال: المتاعُ. ومنهم من قال: الثيابُ. والرِّئيُ: المنظر، كما قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقال الحسن البصريُّ: يعني الصُّوَر. وكذا قال مالك: ﴿أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾: أكثر أموالاً وأحسن صُوَراً. والكل متقارب صحيحٌ.

---

(١) القشف: ضيق العيش، ورثاثة الهيئة.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ لهؤلاء المشركين بربِّهم المدَّعِين أنَّهم على الحقِّ وأنكم على الباطل: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾، أي: منا ومنكم، ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾، أي: فأمهَلَه الرحمن فيما هو فيه، حتى يَلْقى ربَّه وينقضيَ أجلُه، ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ يُصيبه، ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ بغتةً تأتيه، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ في مُقابلةِ ما احتجُّوا به من خيْرية المقام وحسن النَّدِيِّ. قال مجاهدٌ في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾، فَلْيَدَعْهُ الله في طُغيانه. وهكذا قرَّر ذلك أبو جعفر بن جَريرٍ رحمه الله. وهذه مباهلةٌ للمشركين الذين يزعمون أنهم على هُدىً فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهَلَة اليهود في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [الجمعة: ٦]، أي: ادعوا بالموت على المبطل منا أو منكم، إن كنتم تَدَّعون أنَّكم على الحقِّ فإنه لا يضرُّكم الدعاء. فنكلُوا عن ذلك، وقد تقدَّم تقرير ذلك في سورة «البقرة» مبسوطاً، ولله الحمد. وكما ذكر تعالى المباهَلَةَ مع النصارى في سورة «آل عِمْران» حين صَمَّمُوا على الكفر، واستمرُّوا على الطغيان والغُلُو في دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حُجَجَه وبراهينَه على عبوديةِ عيسى، وأنه مخلوقٌ كآدم، قال بعد ذلك: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾، فنَكَلُوا أيضاً عن ذلك.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

لما ذَكر تعالى إمدادَ من هُو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو علَيه، أخبر بزيادة المُهتَدين هُدى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. وقولُه تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، قد تقدَّم تفسيرُها والكلامُ عليها، وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة «الكهف». ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾، أي: جزاءً ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾، أي: عاقبة ومَرَدّاً على صاحبها.

[٤٥٢٤] وقال عبد الرزّاق: أخبرنا مَعْمَر بن راشد، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن قال: جلس رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم، فأخذ عُوداً يابساً فَحطَّ وَرَقَه ثم قال: «إن قَولَ لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله تَحُطُّ الخطايا كما تَحُطُّ ورق هذه الشجرةِ الريحُ، خُذْهُنَّ يا أبا الدرداء قبل أن يُحَال بينك وبينهن، هُنَّ الباقياتُ الصالحاتُ، وهُنَّ من كُنُوزِ الجنة». قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذُكر هذا الحديثَ قال: لأُهَلِّلَنَّ الله، ولأُكَبِّرنَّ الله، ولأُسبِّحنَّ الله، حتى إذا رآني الجاهلُ حَسِب أني مجنون[1]. وهذا ظاهرُه أنه مرسَلٌ، ولكن قد يكون من رواية أبي سَلَمة، عن أبي الدرداء، والله أعلم. وهكذا وقع في سُنَن ابن ماجه، من حديث أبي مُعاوية، عن عُمَر بن راشِدٍ، عن يحيى، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي الدَّرداءِ، فذكَر نحوه.

---

(١) ضعيف. أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» ١٧٨٥ والطبري ٢٣٨٩٨. وابن ماجه ٣٨١٣ وقال البوصيري في «الزوائد» في إسناده عمر بن راشد قال فيه البخاري: حديثه عن ابن أبي كثير مضطرب ليس بالقائم، قال ابن حبان: يضع الحديث، لا يحل ذكره إلاّ على سبيل القدح فيه.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

[٤٥٢٥] وقال الإمامُ أحمد: حدثنا أبو مُعاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن مُسْلِم، عن مَسْرُوقٍ، عن خَبَّاب بن الأرتِّ قال: كنت رَجُلاً قيناً، وكان لي على العاص بن وائل دينٌ، فأتيتُه أتقاضاه. فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفُر بمحمد. فقلت: لا، والله لا أكفُر بمحمدٍ ﷺ حتى تَموتَ ثم تُبعَثَ. قال: فإنِّي إذا مِتُّ ثم بُعِثْتُ جئتني وَلِي ثَمَّ مالٌ وولدٌ، فأعطيتُكَ. فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾[١]. أخرجه صاحبا الصَّحيح وغيرهما، من غير وجهٍ، عن الأعْمَش به. وفي لفظ البخاريِّ: كنت قَيناً بمكَّةَ، فَعَمِلْتُ للعاص بن وائل سيفاً، فجئتُ أتقاضَاه[٢]... فذكر الحديث، وقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾، قال: مَوْثِقاً.

[٤٥٢٦] وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا الثوريُّ، عن الأعمَشِ، عن أبي الضُّحَى، عن مَسروق قال: قال خَبَّابُ بن الأرَتِّ: كنت قيناً بمكَّة، فكنت أعملُ للعاص بن وائل، قال: فاجتمعت لي عليه دراهمُ، فجئتُ لأتقاضاه، فقال لي: لا أقضِيكَ حتى تكفُر بمُحَمَّدٍ، فقلت: لا أكفر بمحمد حتَّى تَموتَ ثم تبعَثَ. قال: فإذا بُعِثتُ كان لي مالٌ وولدٌ. قال: فذكرتُ ذلك لرسولِ الله ﷺ فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[٣]. وقال العَوفِيُّ، عن ابن عباس: إن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يَطلُبون العاصَ بنَ وائل السَّهمِيَّ بدين، فأتوه يتقاضَونَه، فقال: ألستُم تزعُمون أن في الجنة ذهباً وفضَّة وحَريراً، ومن كلِّ الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: فإنَّ موعدكم الآخرة، فوالله لأوتَيَنَّ مالاً وولداً، ولأوتَيَنَّ مثل كِتَابِكم الذي جِئتُم به. فضَرب الله مثله في القرآن فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾. وهكذا قال مجاهد، وقتادةُ، وغيرهم: إنها نزلت في العاص بن وائل. وقولُه: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾، قرأ بعضُهم بفتح «الواو» من «ولداً»، وقرأ آخرون بضمها، وهو بمعناه، قال رؤبة:

الحَمْدُ لِلهِ العَزِيزِ فَرْدَا ... لَمْ يَتَّخِذْ مِنْ وُلْدِ شَيْءٍ وُلْدَا

وقال الحارث بن حِلِّزَةَ:

وَلَقَدْ رَأيتُ مَعَاشِراً ... قَدْ ثَمَّرُوا مَالاً وَوُلْدَا

وقال الشاعر:

فَليتَ فُلاناً كانَ في بَطْنِ أمِّه ... وَلَيتَ فُلاناً كانَ وُلْدَ حِمَارِ

وقيل: إنَّ الوُلْدَ ـ بالضم ـ جمعٌ، والوَلَدَ ـ بالفتح ـ مُفرَدٌ، وهي لغةُ قيسٍ، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾، إنكارٌ على هذا القائل: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾، يعني يوم القيامة، أي: أعلمَ ماله في الآخرة حتى تألَّى وَحَلَف على ذلك، ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾، أم له عند الله عَهد أن سيؤتِيه ذلك؟ وقد تقدَّم عند البخاري: أنه المَوْثِقُ. وقال الضحَّاك، عن ابن عباس: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٩١ ومسلم ٢٧٩٥ الترمذي ٣١٦٢ وأحمد ٥/ ١١١ وابن حبان ٤٨٨٥.

(٢) هذا اللفظ عند البخاري برقم ٤٧٣٣.

(٣) صحيح. أخرجه عبد الرازق في «التفسير» ١٧٩٣ وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾، قال: لا إله إلا الله، فيرجوه بها. وقال محمد بن كعب القُرظيُّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، قال شهادةُ أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾: هي حرف رَدْع لما قبلها وتأكيد لما بعدها، ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾، أي: مِن طَلَبه ذلك وحُكْمه لنفسه بما تمناه، وكُفْره بالله العظيم، ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾، أي: في الدارِ الآخرة، على قوله ذلك، وكفره بالله في الدنيا، ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾، أي: من مال ووَلَدٍ، نسلُبه منه، عكس ما قال: إنه يُؤتى في الدار الآخرة مالاً وولداً زيادةً على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يُسلَب مِنَ الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، أي: من المال والولد. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ قال: نَرِثُهُ. وقال مجاهد: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾: ماله وولده، وذلك الذي قال العاص بن وائل. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾، قال: ما عنده، وهو قولُه: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾. وفي حَرْفِ ابن مسعود «ونرثه ما عنده». وقال قتادة: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾: لا مالَ له ولا وَلَد. وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾، قال: ما جَمَع من الدنيا، وما عَمِل فيها، قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، قال: فرداً من ذلك، لا يتبعه قليلٌ ولا كثير.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾

يُخبر تعالى عن الكُفار المشركين بربِّهم أنهم اتَّخذوا من دونه آلِهةً، لتكُونَ لهم تلك الآلهةُ ﴿عِزًّا﴾ يعتزون بهم ويستنصرونهم. ثم أخبر أنه ليس الأمرُ كما زَعَموا، ولا يكون ما طَمِعُوا، فقال: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾، أي: يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، أي: بخلاف ما ظَنُّوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦]. وقرأ أبو نَهيكٍ: «كُلٌّ سيكفرون بعبادتهم». وقال السُّدي: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾، أي: بعبادة الأوثان. وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، أي: بخلاف ما رَجَوْا منهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، قال: أعواناً. قال مجاهد: عَوناً عليهم، تُخاصمُهم وتُكذِّبُهم. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، قال: قُرَناء. وقال قتادةُ: قرناء في النار، يلعَنُ بعضهم بعضاً، ويكفُر بعضُهم ببعض. وقال السُّديُّ: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، قال: الخصماء الأشدَّاء في الخصومة. وقال الضحَّاك: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، قال: أعداءً. وقال ابنُ زيدٍ: الضدُّ: البلاءُ. وقال عكرمةُ: الضدُّ: الحسرةُ. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: تُغويهم إغواء. وقال العوفيُّ عنه: تُحرِّضُهم على محمدٍ وأصحابه وقال مجاهدٌ: تُشليهم إشلاء. وقال قتادةُ: تُزعِجُهم إزعاجاً إلى معاصي الله. وقال سفيان الثوريُّ: تُغريهم إغراءً وتستعجِلُهم استعجالاً. وقال السُّديُّ: تُطغيهم طُغياناً. وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]. وقولـه: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾، أي: لا تعجلْ يا محمدُ على هؤلاءِ في وقوع العذاب بهم، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾، أي: إنما نُؤخِّرهم لأجلٍ معدودٍ مضبوطٍ، وهم صائرون لا محالة، إلى عذاب الله ونكاله، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢]، ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧]، ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ

غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ [لقمان: ٢٤]، ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]. وقال السدِّيُّ: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾، السنين، والشهور، والأيام، والساعات. وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباسٍ: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾، قال: نعدُّ أنفاسَهم في الدنيا.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

يخبر تعالى عن أوليائِهِ المُتَّقين الذي خافوه في الدار الدنيا، واتبعُوا رسلَه وصَدَّقوهم فيما أخبرُوهم، وأطاعوهم فيما أمرُوهم به، وانتهوا عما عنه زَجروهم: أنه يحشُرهم يوم القيامةِ وَفداً إليه. والوفدُ: همُ القادِمُون ركباناً، ومنه الوفود، وركُوبهم على نَجائِبَ من نور، من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمونَ على خير مَوفُودٍ إليه، إلى دار كرامته ورضوانه. وأما المجرمُون المُكَذِّبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يُساقون عُنفاً إلى النار، ﴿وِرْدًا﴾: عطاشاً، قاله أبو هُريرة، وابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ. وها هنا يُقال: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُ، حدثنا أبو خالد، عن عَمرو بن قَيسٍ المُلائِيِّ، عن أبي مرزُوقٍ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾، قال: يَستقبِلُ المؤمنُ عند خُروجِهِ من قبره أحسنَ صورة رآها، وأطيبهُ ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تَعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن [الله] قد طَيَّب ريحك وحسَّن وَجهَك. فيقول: أنا عَمَلُك الصالح، وهكذا كُنت في الدنيا، حَسَنَ العمل طَيِّبَه، فطالما رَكِبتُك في الدنيا، فَهَلُمَّ اركَبْني. فيركَبُه، فَذَلِك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾. وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباسٍ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾، قال: ركباناً.

وقال ابنُ جرير: حدثني ابن المثنى، حدثنا ابنُ مهدِيٍّ، عن سعيد، عن إسماعيلَ، عن رجلٍ، عن أبي هُريرة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾، قال: على الإبلِ. وقال ابن جُرَيج: على النجائب. وقال الثوريُّ: على الإبل النوقِ. وقال قتادةُ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾، قال: إلى الجنة.

وقال عبدُ الله بن الإمام أحمدَ في مُسنَدِ أبيه: حدثنا سُوَيد بن سَعيد، أخبرنا علي بن مُسْهِرٍ، عن عبد الرحمن بن إسحاقَ، حدثنا النُّعمان بن سَعدٍ قال: كنا جلوساً عند علي ـ رضي الله عنه ـ فقرأ هذه الآيةَ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾، قال: لا، والله ما على أرجلهم يُحشَرُون، ولا يُحشَر الوفد على أرجُلِهم، ولكن بِنُوقٍ لم يَرَ الخلائقُ مثلَها، عليها رحائِلُ من ذَهَبٍ، فيركبون عليها، حتى يَضربُوا أبواب الجنة. وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابنُ جرير، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدني، به. وزاد: «عليها رحائلُ الذهبَ، وأزمَّتُها الزبرجد»[1]، والباقي مثله.

[٤٥٢٧] وقد روى ابن أبي حاتم ها هنا حديثاً غريباً جداً مرفوعاً، عن علي ـ رضي الله عنه ـ فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النَّهدِيُّ، حدثنا مسلمَةُ بن جعفر البَجَليُّ، سمعت أبا مُعَاذٍ البصري قال: إن علياً كان ذاتَ يومٍ عند رسولِ الله ﷺ فقرأ عليٌّ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ

---

(١) موقوف ضعيف جداً، أخرجه الطبري ٢٣٩٢٩، وفي إسناد ابن أبي حاتم، سويد بن سعيد ضعيف جرحه ابن معين، لكن توبع عند الطبري، ومداره عندهما على عبد الرحمن بن إسحق أبو شيبة الواسطي، جاء في الميزان ٤٨١٢: ضعفوه، قال أحمد: منكر الحديث، وقال يحيى: متروك، وضعفه النسائي.

وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾، فقال: ما أظنُّ الوفدَ إلاَّ الركبَ يا رسولَ الله. فقال رسولُ الله ﷺ: والذي نفسي بيده إنَّهم إذا خَرَجُوا من قُبُورِهم يُسْتَقبلُون ـ أو: يُؤتَون ـ بنُوقٍ بيض لها أجنحة، وعليها رحالُ الذَّهب، شُرُكُ نِعالهم نور، يتلألأ كُلُّ خطوةٍ منها مَدَّ البصر، فينتَهُون إلى شجرةٍ يَنبُع من أصلها عينان، فيشرَبُون من إحداهما، فَتَغْسِل ما في بطونهم من دَنَسٍ ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارُهم ولا أشعارُهم بعدها أبداً، وتَجري عليهم نضرةُ النعيم، فَينتهُون، أي: فيأتون باب الجنة، فإذا حَلْقَةٌ من ياقوتةٍ حمراءَ على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصَّفِيحة فَيُسمع لها طَنِينٌ يا عليُّ، فيبلُغ كُلَّ حوراء أَنَّ زوجها قد أقبل، فتبعَثُ قَيِّمها فيفتَحُ له، فإذا رآه خَرّ له ـ قال مسلمةُ: أراه قال: ساجداً ـ فيقول: ارفَعْ رأسَك، إنما أنا قَيِّمك، وُكِلْتُ بأمرك فيتبَعُه ويقفُو أثره، فَتستَخِفُّ الحوراءَ العجلةُ، فتخرُج من خيام الدُّرِّ والياقوتِ حتى تَعتنِقَه، ثم تقول: أنت حِبِّي وأنا حِبُّك، وأنا الخالدةُ التي لا أموتُ، وأنا الناعمةُ التي لا أبأَسُ، وأنا الراضيةُ التي لا أسخَطُ، وأنا المقيمةُ التي لا أظعَنُ. فيدخل بيتاً من أُسِّه إلى سقفه مئةُ ألفِ ذراعٍ، بناؤُهُ على جَنْدَلِ اللؤلؤ طرائِقُ أصفرُ وأحمرُ وأخضرُ، ليس منها طريق تشاكِلُ صاحبتَها. وفي البيتَ سبعونَ سَرِيراً، على كُلِّ سرير سبعون حَشِيَّةً، على كل حَشِيَّةٍ سبعون زوجة، على كل زوجةٍ سبعون حُلَّةً، يُرَى مُخُّ ساقِها من وراء الحُلَل، يُقضَى جماعُها في مقدارِ ليلةٍ من لياليكم هذه، الأنهار من تحتهم تَطَّرِدُ، أنهارٌ من ماء غير آسن ـ قال: صافٍ لا كَدَر فيه ـ وأنهار من لبن لم يتغيَّر طعمُه، لم يخرُج من ضروع الماشية، وأنهار من خمر لذة للشاربين، لم يعتصرها الرجال بأقدامهم، وأنهار من عَسَلٍ مُصَفّىً لم يخرج من بُطُونِ النحل، فيستحلي الثِّمار، فإن شاء أكلَ قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاء متكئاً، ثم تلا: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: ١٤]، فيشتهي الطعام فيأتيه طيرٌ أبيضُ، وربما قال: أخضرُ، فَترفع أجنحتَها، فيأكُل من جُنُوبها أيَّ الألوان شاء، ثم تطيرُ فتذهبُ، فيدخل الملك فيقول: سلامٌ عليكم، ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢]، ولو أن شعرة من شعر الحور العين وقعت لأهل الأرض لأضاءت الشمسُ معها سوادٌ في نُورٍ»[1]. هكذا وَقَع في هذه الرِّواية مرفوعاً، وقد رويناه في المقدِّمات من كلام علي ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وهو أشبه بالصحة، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾، أي: عطاشاً، لا يملكون الشفاعة، أي: ليس لهم من يشفَعُ لهم كما يشفَعُ المؤمنونَ بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[2]. وقولُه: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذَ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيامُ بحقِّها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، قال: العهدُ شهادةُ أن لا إله إلا الله ويبرأ من الحَوْلِ والقُوَّةِ، ولا يرجُو إلا الله عزَّ وجلَّ. وقالَ ابن أبي حاتم: حدثنا عَمَّار بن خالد الواسطي، حدثنا محمد بن الحسن الواسطي، عن المسعودي، عن عون بن عبدالله، عن أبي فاختةَ، عن الأسود بن يزيد قال: قَرَأ عبد الله ـ يعني ابنَ مسعود ـ هذه الآية: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾، ثم قال: اتخذوا عند الله عهداً، فإن الله يقولُ يوم القيامة: «من كان له عند الله عَهْدٌ فَلْيقُم» قالوا: يا أبا عبد الرحمٰن، فَعَلِّمنا. قال: قولوا: اللهم، فاطر السمٰوات والأرض،

---

(١) ضعيف جداً، فيه أبو معاذ سليمان بن أرقم، متروك الحديث، ولم يدرك علياً، فهاتان علتان تقدحان في صحة الحديث، وتقدم موقوفاً.

(٢) الشعراء، الآيتان ١٠٠ ـ ١٠١.

عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلني إلى عملي يُقرّبني من الشر ويُباعِدْني من الخير، وَإِنّي لا أثِقُ إلا بِرَحْمَتِكَ، فاجعل لي عندك عهداً تُؤدّيه إليّ يوم القيامة، إنك لا تُخلِفُ الميعادَ. قال المسعودي: فحدثني زكريا، عن القاسم بن عبد الرحمن، أخبرنا ابن مسعود: وكان يُلحِقُ بهن: خائفاً مستجيراً مستغفراً، راهباً راغباً إليك. ثم رواه من وجه آخر، عن المسعودي، بنحوه.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

لما قَرَّر تعالى في هذه السورة الشريفة عُبوديّةَ عيسى عليه السلام، وذَكَر خلْقه من مَرْيَم بلا أبٍ، شَرَع في مقام الإنكار على من زَعَم أن له ولداً ـ تعالى وتَقَدَّسَ وتَنزَّه عن ذلك عُلوّاً كبيراً ـ فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ﴾، أي: في قولكم هذا ﴿شَيْئًا إِدًّا﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومالك: أي عظيماً. ويقال: «إدّاً» بكسر الهمزة وفتحها، ومع مَدِّها أيضاً، ثلاثُ لغاتٍ، أشهرُها الأولى. وقولُه: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾، أي: يكاد يكون ذلك عند سماعِهِنَّ هذه المقالة من فَجَرة بني آدمَ، إعظاماً للربِّ وإجلالاً، لأنهنّ مخلوقات ومُؤسّساتٌ على توحيدِهِ، وَأنّه لا إله إلا هو، وأنّه لا شريكَ له، ولا نَظيرَ له، ولا وَلَدَ له، ولا صاحِبَةَ له، ولا كُفْءَ له، بل هو الأحَدُ الصَّمَدُ:

وفي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ ... تَدُلُّ على أنّه واحِدُ

[٤٥٢٨] وقال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا عبدُ الله، حدثني معاويةُ، عن عَليٍّ، عن ابن عباس، في قولهِ: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾، قال: إن الشِّركَ فَزِعَت منه السمٰواتُ والأرضُ والجبالُ، وجميع الخَلائق إلا الثَّقلين، فكادت أن تزولَ منه لعظمةِ الله، وكما لا ينفَعُ مع الشِّرْكِ إحسانُ المشركِ، كذلك نَرْجُو أن يغفر الله ذنوبَ المُوَحِّدين. وقال رسول الله ﷺ: «لَقِّنوا موتاكم شهادَةَ أن لا إله إلا الله، فمن قالَها عند موتِهِ وَجَبَتْ له الجنةُ. قالوا: يا رسولَ اللّهِ، فمن قالها في صِحَّتِهِ؟ قال: تلك أَوجبُ وأوجبُ. ثم قال: والذي نفسِي بيده، لو جِيءَ بالسمٰوات والأرضينَ وما فيهنّ، وما بينهنّ، وما تحتهنّ، فَوُضِعْنَ في كفّةِ الميزان، ووُضِعت شهادةُ أن لا إله إلا الله في الكِفّةِ الأخرى، لرجَحتْ بهن»[١]. هكذا رواه ابن جَرير، ويشهَدُ له حديثُ البِطَاقةِ[٢]، والله أعلم.

وقال الضّحاكُ: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾، أي: يتشققن فَرَقاً من عظمة الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: ﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ﴾، أي: غضباً لله عزّ وجلّ. ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾، قال ابن عباس: هَدْماً. وقال سعيد بن جُبير: ﴿هَدًّا﴾: ينكسر بعضها على بعضٍ متتابعاتٍ.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٣٩٥٣ وفيه إرسال بين علي بن أبي طلحة وابن عباس، لكن له ما يشهد له.

(٢) يأتي في سورة الأنبياء عند آية: ٤٧ إن شاء الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيدَ المقرئ، حدثنا سُفيان بن عُيَينَةَ، حدثنا مِسْعَر، عن عَونِ بن عبد الله قال: إنَّ الجبلَ لَيُنادي الجبلَ باسمِهِ: يا فلانُ، هل مَرَّ بك اليومَ ذاكرُ الله عزَّ وجلَّ؟ فيقول: نعم، ويستبشرُ قال عوفٌ: فهي للخير أسمعُ، أفيسمَعْنَ الزُّورَ والباطلَ إذا قيل ولا يسمَعْنَ غيرَه، ثم قرأ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم أيضاً: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا هَوْذَة، حدثنا عوفٌ، عن غالبِ بن عَجْرَدٍ، حدثني رجل من أهل الشام في مسجد مِنىً قال: بَلَغني أنَّ الله لما خَلَق الأرضَ وخَلَق ما فيها من الشَّجر، لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعةً ـ أو قال: كان لهم فيها منفعةٌ ـ ولم تَزَل الأرضُ والشجرُ بذلك، حتى تكلَّم فَجَرَةُ بني آدمَ بتلك الكلمةِ العظيمةِ، قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، فلما تكلّموا بها اقشعرَّت الأرض، وشاك الشجرُ. وقال كعبُ الأحبارِ: غَضِبت الملائكة، واستعرت جَهَنَّمُ حين قالوا ما قالوا.

[٤٥٢٩] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمشُ، عن سعيد بنُ جُبير، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِي عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: لا أحدَ أصْبَرُ على أذىً سَمِعهُ من الله؛ إنه يُشْرَك به، ويُجْعَلُ له ولدٌ، وهو يعافيهم ويَدْفَع عنهم، ويَرزقهم[١]. أخرجاه في الصَّحيحَين. وفي لفظ: «إنهم يجعلون له وَلَداً، وهو يَرزُقُهم ويُعافيهم». وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾، أي: لا يصلح له، ولا يَلِيقُ به لِجَلالِهِ وعَظَمَتِهِ، لأنه لا كُفْءَ له من الخلق، لأنَّ جميع الخلائق عبيد له، ولهذا قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾، أي: قد علم عَدَدهم منذ خَلَقهم إلى يوم القيامة، ذَكَرهم وأُنثاهم، وصَغيرَهم وكَبيرَهم. ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾، أي: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكُم في خَلْقِهِ بما يشاء، وهو العادِلُ الذي لا يَظْلِم مثقال ذَرَّةٍ، ولا يَظْلِمُ أحداً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾

يخبر تعالى أنه يَغرِسُ لعباده المؤمنين الذي يعملون الصالحات ـ وهي الأعمالُ التي تُرضي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لمتابعتها الشريعة المحمدية ـ يَغرس لهم في قلوب عباده الصالحين مَحبّةً ومودَّةً، وهذا أمرٌ لا بدَّ منه، ولا مَحيدَ عنه. وقد وَرَدت بذلك الأحاديثُ الصَّحيحةُ عَن رسول الله ﷺ من غير وجهٍ.

[٤٥٣٠] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفَّانُ، حدثنا أبو عَوَانَةَ، حدثنا سُهَيل، عن أبيه، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إن الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريلَ فقال: يا جبريلُ، إني أحبُّ فلاناً فَأَحِبَّه. قال: فَيُحِبُّه جبريلُ. قال: ثم ينادِي في أهل السماء: إن الله يحبُّ فلاناً. قال: فَيُحِبُّه أهلُ السماء، ثم يُوضَع له القبولُ في الأرض. وإن الله إذا أبغضَ عبداً دعا جبريلَ فقال: يا جبريلُ، إني أبغضُ فلانا فَأَبغِضهُ. قال: فَيُبغِضُه جبريلُ. ثم يُنادي في أهلِ السماء: إن الله يُبغِضُ فلاناً فَأبغِضُوه. قال: فيُبْغِضُه أهلُ السماءِ، ثم تُوضَعُ له

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١١٦ و١٢٦ وهو عند البخاري ٦٠٩٩ ومسلم ٢٨٠٤ وأحمد ٤/ ٣٩٥.

البغضاءُ في الأرض»[١]. ورواه مسلم من حديث سُهَيل. ورواه أحمَدُ والبخاريُّ، من حديث ابن جُرَيج، عن موسى بن عُقْبَةَ، عن نافع مولى ابن عمر، عن أبي هُريرة، عن النبي ﷺ بنحوه.

[٤٥٣١] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بَكْرٍ، حدثنا ميمون أبو محمد المَرَئِي، حدثنا محمد بن عَبَّاد المخزومي، عن ثوبانَ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إن العبد لَيَلْتَمِسُ مرضاة الله عزَّ وجلَّ، فلا يَزَالُ بذلك، فيقول الله عز وجل لجبريل: إن فلاناً عبدي يلتمسُ أن يُرضِيَني؛ ألا وإنَّ رحمتي عليه، فيقول جبريلُ: رحمة الله على فلان، ويقولُها حملة العرش، ويقولُها مَن حولهم، حتى يقولها أهلُ السمواتِ السبع، ثم تهبط إلى الأرض»[٢]. غريبٌ، ولم يُخرِّجوه من هذا الوجه.

[٤٥٣٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حدّثنا أسودُ بن عامر، حدثنا شريكٌ، عن مُحمّدِ بن سعدِ الواسطيِّ، عن أبي ظَبْيَةَ، عن أبي أُمَامَةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن المِقَةَ من الله ـ قال شَريكٌ: هي المحبة ـ والصيت من السماء، فإذا أحبَّ الله عبداً قال لجبريلَ عليه السلامُ: «إني أحبُّ فلاناً». فينادي جبريلُ: إن ربكم يَمِقُ ـ يعني يُحبُّ ـ فلاناً، فَأَحِبُّوه ـ وأَرَى شَريكاً قد قال: فتنزلُ له المحبَّةُ في الأرض ـ وإذا أبغضَ عبداً قال لجبريل: إني أبغضُ فلاناً فَأَبغِضْهُ. قال: فينادي جبريلَ: إن ربكم يُبغِضُ فلاناً فأبغضوه ـ قال: أرَى شريكاً قد قال: فيجري له البُغضُ في الأرض»[٣]. غريبٌ، ولم يُخرِجُوه.

[٤٥٣٣] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حَدَّثنا أبو داودَ الحَفَرِيُّ، حدثنا عبد العزيز ـ يعني ابنَ محمد، وهو الدَّرَاوَرْدِيُّ ـ عن سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُرَيرةَ [رضي الله عنه] أن النبي ﷺ قال: «إذا أحبَّ اللّهُ عبداً نادى جبريلَ: «إني قد أحببت فلاناً فَأَحِبَّه». فينادي في السماء، ثُم يُنزلُ له المحبة في أهلِ الأرضِ، فذلك قولُ الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾»[٤]. ورواه مسلم والترمذيُّ كلاهما عن قُتَيبَة، عن الدَّرَاوَرْدِيِّ به، وقال الترمذيُّ: حسن صحيح.

وقال عليُّ بن أبي طَلْحَة، عن ابن عباسٍ في قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾، قال: حُبّاً. وقال مجاهد عنه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾، قال: محبةً في الناسِ في الدّنيا. وقالَ سعيد بنُ جُبَير، عنه: يُحبّهم ويُحَبِّبُهم، يعني: إلى خَلْقِه المؤمنين. كما قال مجاهد أيضاً، والضحاك، وغيرهم. وقال العَوفي، عن ابن عباس أيضاً: الوُدُّ من المسلمين في الدنيا، والرِّزقُ الحسَنُ، واللسان الصادقُ. وقال قتادةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾. أي والله، في قلوبِ أهل الإيمان، وذكرَ لنا أنَّ هَرِم بن حَيَّان كان يقولُ: ما أقبلَ عبدٌ بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يَرزُقَه مَودَّتَهم ورحمتهم. وقال قتادةُ: وكان عثمانُ بن عفان ـ رضي الله عنه ـ يقول: ما من عبدٍ يعمَلُ خيراً أو شراً، إلا كَسَاه الله ـ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٠٩ و٧٤٨٥ ومسلم ٢٦٣٧ والترمذي ٣١٦١ وأحمد ٢/ ٢٦٧ و٥٠٩ وابن حبان ٣٦٤ من طرق عن أبي هريرة به.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٩، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٢٠٢: ورجاله رجال الصحيح غير ميمون بن عجلان، وهو ثقة. وقال الذهبي في «الميزان» ٤/ ٢٣٤: قال الفلاس: صدوق، لكنه ضعيف الحديث. وقال النسائي: ليس بالقوي. ثم ذكر الذهبي حديثاً غير هذا قال هذا منكر. فالإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٢٦٣ و٢٥٩ والطبراني ٧٥٥١ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٢٧١: ورجاله وثقوا. قلت: شريك ساء حفظه لما تولى القضاء، فالإسناد ضعيف لكن لأصله شواهد.

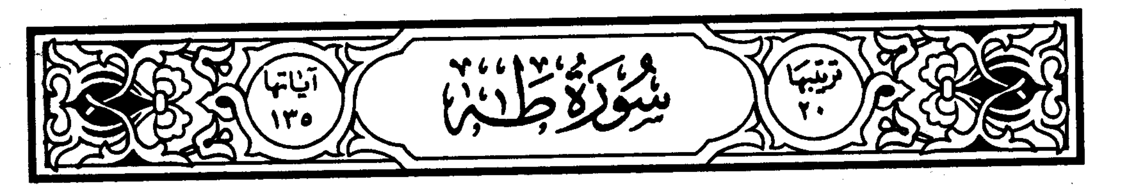
(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٣٧ والترمذي ٣١٦١.

عز وجل ـ رِداء عَمَلِه. وقال ابنُ أبي حاتم ـ رحمه الله ـ: حدثنا أحمد بن سنان، حدَّثنا عبدُ الرحمن بنُ مهديّ، عن الرَّبيع بن صَبيح، عن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ قال رجلٌ: والله لأعبُدَنَّ الله عبادةً أُذكَرُ بها. فكان لا يُرَى في حين صلاةٍ إلا قائماً يُصَلِّي، وكان أولَ داخل إلى المسجد وآخِرَ خَارِج، فكان لا يُعَظَّمُ، فمكث بذلك سبعةَ أشهر، وكان لا يمرُّ على قوم إلا قالوا: انظروا إلى هذا المرائي. فأقبلَ على نفسه فقال: لا أراني أُذكَر إلا بَشرّ، لأجعلن عملي كُلَّه لله عز وجل، فلم يَزِدْ على أن قَلَب نيَّتَه، ولم يزد على العمل الذي كان يعمل. فكان يمرُّ بعدُ بالقوم، فيقولون: رحم الله فلاناً الآنَ. وتلا الحسن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾. وقد رَوَى ابنُ جَريرٍ أثراً أنّ هذه الآيةَ نَزلت في هِجْرَةِ عبد الرحمن بن عوف. وهو خَطَأ، فإنّ هذه السورةَ بِتَمامها مكية لم ينزل منها شيءٌ بعد الهجرةِ، ولم يَصِحّ سندُ ذلك، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾، يعني: القرآن، ﴿بِلِسَانِكَ﴾، أي: يا محمدُ، وهو اللسان العربيُّ المبين الفصيحُ الكاملُ، ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي: المستجيبين لله المُصَدِّقين لرسوله، ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾، أي: عُوجاً عن الحقِّ مائلين إلى الباطل. وقال ابن أبي نَجيح، عن مُجاهِدٍ: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: لا يستقيمون. وقال الثوريُّ، عن إسماعيل، وهو السديّ، عن أبي صالحٍ، ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾: عُوجاً عن الحق. وقال الضحاك: الألَدُّ: الخَصِمُ. وقال القُرَظِيُّ: الألدُّ الكذابُ. وقال الحسن البصري: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: صُمّاً. وقال غيره: صُمُّ آذان القلوب. وقال قتادة: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ يعني قريشاً. وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: فُجّاراً. وكذا رَوَى ليث بن أبي سليم، عن مجاهد. وقال ابن زيد: الألدُّ: الظلوم، وقرأ قول الله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]. وقولُه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾، أي: من أُمَّةٍ كَفروا بآيات الله وكذبوا رسله، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾، هل تَرى منهم أحداً، ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾، قال ابن عباس، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن البصري، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، وابن زيد: يعني: صوتاً. وقال الحسنُ، وقتادةُ: هل ترى عيناً، أو تسمَعُ صوتاً. والرِّكزُ في أصلِ اللغة هو: الصوتُ الخفيُّ، قال الشاعر:

فَتَوجَّسَتْ رِكْزَ الأَنِيسِ فَرَاعَهَا ... عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ، والأَنِيسُ سَقَامُها

آخر تفسير سورة مريم، ولله الحمد والمنّة



وهي مَكّية

[٤٥٣٤] وروى إمامُ الأئمةُ محمدُ بن إسحاق بن خُزيمَةَ في كتاب التوحيد، عن زيادِ بن أيُوبَ، عن إبراهيم بن المنذرِ الحِزَاميِّ: حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن مِسْمارٍ، عن عمر بن حفص بن ذَكْوانَ، عن مولى الحُرقَة ـ يعني عبد الرحمن بنَ يعقوبَ ـ عن أبي هُرَيرة قال. قال رسولُ الله ﷺ: إن الله قَرَأ طه ويس قبل أن يخلُق آدَمَ بألفِ عام، فلما سَمِعَتِ الملائكةُ قَالُوا: طُوبىَ لأمةٍ ينزل عليهم هذا، وطُوبَى لأجوافٍ تحمِلُ هذا. وطُوبَى لألسُنٍ تَكَلَّمُ بهذَا»[1]. هذا حديثٌ غريبٌ، وفيه نَكارَةٌ، وإبراهيم بن مُهَاجِرٍ وشيخُه تُكُلِّم فيهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾

تَقَدَّم الكلامُ على الحروف المُقطَّعة في أول سُورَةِ البَقرةِ بما أغنَى عن إعادَتِهِ. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الحُسَين بن محمد بن شَنْبَةَ الواسطي، حدثنا أبو أحمد ـ يعني الزُّبيريَّ ـ أنبأنا إسرائيل، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: طه: يا رجلُ. وهكذا رُوِي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء، ومحمد بن كعب، وأبي مالك، وعطية العَوفي، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسّديّ، وابن أَبْزىَ أنهم قالوا: طه: يا رَجُل. وفي رواية عن ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، والثوري: أنها كلمة بالنَّبطِيَّةِ معناها: يا رجلُ. وقال أبو صالح: هي مُعَرَّبة.

[٤٥٣٥] وأسند القاضي عياضٌ في كتابه «الشفاء» من طريق عَبْدِ بن حُمَيدِ في تفسيره: حدثنا هاشمُ بنُ القاسِم، عن أبي جعفر، عن الربيع بن أنس قال: كان النبيُّ ﷺ إذا صَلّى قام على رِجل ورفعَ الأخرى،

---

(١) ضعيف جداً. أخرجه الدارمي ٢/ ٤٥٦ ح ٣٢٩٠ وابن عدي ١/ ٢١٦ وابن حبان في «المجروحين» ١/ ١٠٨ وابن الجوزي ١/ ١١٠ «موضوعات». قال ابن عدي: لم أجد لإبراهيم بن مهاجر حديثاً أنكر من هذا. وقال البخاري: ابن المهاجر: منكر الحديث. وقال ابن الجوزي: وفيه عمر بن حفص، قال أحمد: خرقنا حديثه، وقال ابن حبان: هذا متن موضوع، وتعقبه السيوطي في «اللآلىء» بما لا طائل تحته، على أن الدارمي يطلقون على كتابه اسم الصحيح، أهـ واكتفى العراقي في الإحياء ١/ ٢٧٤ بقوله: ضعيف أهـ.

فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾، يعني طإِ الأرض يا محمد، ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[1]. ثم قال: ولا خفاء بما في هذا من الإكرام وحسن المعاملة. وقولُه: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾، قال جُوَيبر، عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قُرَيش ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى. فأنزَلَ الله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾. فليس الأمرُ كما زعَمَه المبطِلُونَ، بل مَن آتاه الله العِلْم فقد أراد به خيراً كثيراً؛ كما ثبت في الصحيحَينِ، عن مُعاوية قال:

[٤٥٣٦] قال رسولُ الله ﷺ: «من يُرد الله به خيراً يُفقِّهْهُ في الدين»[2]. وما أحسن الحديث الذين رواه الحافظ أبو القاسم الطَّبَرانيُّ في ذلك حيثُ قال:

[٤٥٣٧] حدثنا أحمد بن زُهَير، حدثنا العلاء بن مَسْلَمة أبو سالم، حدثنا إبراهيم الطالَقَانيُّ، حدثنا ابنُ المُبَارك، عن سُفْيَانَ، عن سِمَاكِ بن حرْبٍ، عن ثعلَبة بن الحَكَم قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يقولُ الله تعالى للعُلَماءِ يومَ القيامَةِ إذا قَعَد على كُرسِيِّه لِقَضَاءِ عبادِهِ: إني لم أجعَلْ عِلْمِي وحِكْمَتي فيكم إلاَّ وأنا أُريدُ أَن أغفر لكم، على ما كان منكم، ولا أُبالي»[3]. إسنادُه جَيِّد، وثعلبةُ بن الحَكَم هذا هو الليثيُّ، ذكره أبو عُمَرَ في استيعابه، وقال: نَزَل البصرة، ثم تَحوَّلَ إلى الكوفة، ورَوَى عنه سِمَاكُ بنُ حَرْبٍ.

وقال مجاهدٌ في قَوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾: هي كَقَولِهِ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، وكانوا يُعَلِّقون الحِبالَ بصُدورهم في الصلاة. وقال قتادةُ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾: لا، والله ما جَعَله شقاءً، ولكن جَعَله رحمةً ونُوراً، ودليلاً إلى الجنَّةِ. ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾: إن الله أنزل كتابه، وبعثَ رسوله رحمةً، رَحِمَ بها العبادَ، ليتذكَّر ذاكرٌ، وينتفع رجلٌ بما سَمِع من كتاب الله، وهو ذكرٌ أنزل الله فيه حلاله وحرامه. وقولُه: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾، أي: هذا القرآنُ الذي جاءك

---

(١) هذا مرسل، الربيع بن أنس تابعي، وأبو جعفر هو الرازي عيسىٰ بن أبي عيسىٰ، ضعفه غير واحد، وورد موصولاً من حديث علي بلفظ «كان النبي ﷺ يراوح بين قدميه، يقوم علىٰ كل رجل، حتى نزلت ﴿طه...﴾»، أخرجه البزار ٢٢٣٢ وقال الهيثمي في «المجمع» ١١١٦٥: فيه يزيد بن بلال، قال البخاري: فيه نظر، وكيسان أبو عمرو، وثقهُ ابن حبان، وضعفه ابن معين، وبقية رجاله ثقات أهـ وحسنه السيوطي في «الدر» ٤/ ٥١٦ أهـ وهذا اللفظ أقرب وأحسن من لفظ الربيع بن أنس المتقدم. وورد من وجوه أخرىٰ، أوردها السيوطي في «الدر المنثور» ٤/ ٥١٦، وبهذا يعلم أن له أصلاً، لكن المعتمد حديث علي رضي الله عنه، والله أعلم.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٤٩.

(٣) منكر. أخرجه الطبراني ١٣٨١، وقال الهيثمي في «المجمع» ٥٢٧: رجاله موثقون أهـ وكذا وقع للمنذري في «الترغيب» ١٣١: رجاله موثقون. وجوده الحافظ ابن كثير! مع أن مداره علىٰ العلاء بن مسلمة أبو سالم، ذكره الذهبي في «الميزان» ٥٧٤٣ ونقل عن الأزدي قوله: لا تحل الرواية عنه، وقال ابن طاهر: كان يضع الحديث، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات، ثم إنه تفرد بلفظ «إذا قعد علىٰ كرسيه» وهذه اللفظة منكرة جداً، وورد بدون هذه اللفظة، أخرجه الطبراني في «الصغير» ٥٩١ من حديث أبي موسىٰ، وقال الهيثمي ٥٢٨: فيه موسىٰ بن عبيدة الرَّبذي، وهو ضعيف جداً. وأدرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ٢٦٣ وأعله بطلحة بن زيد أيضاً. وورد من حديث أبي أمامة أو واثلة بن الأسقع، أخرجه ابن عدي ٥/ ١٦٢، ومن طريقه ابن الجوزي ١/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤ وأعله بعثمان بن عبد الرحمٰن وأن عنده عجائب. وورد من ديث ابن عباس أخرجه العقيلي ٣٣٢ وفيه مجالد بن سعيد، ضعيف، وأعله العقيلي بعدي بن أرطاة. والخبر منكر، فإن العالم سيسأل ويحاسب كغيره من العامة، أو أكثر، والحديث لا يرتقي عن درجة الضعيف لشدة ضعف أسانيده، والله أعلم.

يا محمدُ تنزيلٌ من ربِّ كلِّ شيءٍ ومَليكه، القادرُ على ما يَشاء، الذي خَلَقَ الأرضَ بانخفاضها وكَثافَتِها، وخَلَق السمٰوات العُلَى في ارتفاعها ولطافَتِها.

[٤٥٣٨] وقد جاء في الحديث الذي صَحَّحه الترمِذِيُّ وغيرُه: إنَّ سُمْكَ كلِّ سَماء مَسِيرةُ خَمْسمئةِ عَام، وبُعدَ ما بينها وبين التي تليها مَسيرَةُ خمسمئة عام[١]. وقد أوردَ ابنُ أبي حاتمٍ ها هنا حَدِيثَ الأَوْعَالِ، مَن روايةِ العباس عَمِّ رسول الله ﷺ ورَضِي الله عنه[٢].

وقولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾: تَقدَّم الكلامُ على ذلك في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته أيضاً، وأن المسلك الأسلم في ذلك طَريقةُ السَّلَف، إمرارُ ما جاءَ في ذٰلِكَ من الكتابِ والسنَّةِ من غير تَكْيِيفٍ ولا تَحريفٍ، ولا تَشْبِيهٍ ولا تَعطيلٍ ولا تَمْثِيل. وقولُه: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾، أي: الجميعُ ملكه وفي قَبْضَتِهِ، وتحت تَصْريفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالقُ ذلك ومالكه وإلٰهُهُ، لا إله سِواه، ولا رَبَّ غيرُه. وقولُه: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾، قال مُحمَّد بن كعب: أي ما تحت الأرض السابعة. وقال الأوزاعي: إن يحيى بن أبي كثير حَدَّثه أن كعباً سُئِلَ فَقِيلَ له: ما تحت هذه الأرض؟ قال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرضُ. قيل: وما تحتَ الأرضِ؟ قال: الماء. قِيل: وما تحت الماء؟ قال الأرضُ. قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماءُ. قيل: وما تحت الماء؟ قالَ: الأرضُ. قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماءُ. قيل: وما تحت الماء. قال: الأرضُ. قيل: وما تحت الأرضُ؟ قال: صخرةٌ. قيل: وما تحت الصخرةِ؟ قال: مَلَكٌ. قيل: وما تحت المَلَكِ؟ قال: حُوتٌ مُعَلَّق طرفاه بالعَرْشِ. قيل: وما تحت الحُوتِ؟ قال: الهواءُ والظلمةُ، وانقطع العلم[٣].

[٤٥٣٩] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو عُبَيدِ الله ابن أخي ابن وَهْبٍ، حدثنا عَمِّي، حدثنا عبدُ الله بن عَيَّاشٍ، حدثني عبد الله بن سليمان، عن دَرَّاج، عن عيسى بن هلال الصَّدَفي، عن عبد الله بن عَمْرو قال: قال رسولُ الله ﷺ: إن الأرضين بين كلِّ أرضٍ والتي تَلِيها مسيرةُ خمسمئة عام، والعُليا منها على ظَهْرِ حُوتٍ، قد التقى طرفاه في السماء، والحوتُ على صَخْرَةٍ، والصَّخْرَةُ بِيَدِ المَلَك، والثانية سجنُ الرِّيح، والثالثة فيها حجارةُ جَهَنَّمَ، والرابعةُ فيها كِبْرِيتُ جَهَنَّم، والخامسةُ فيها حَيَّاتُ جَهَنَّم، والسادسة فيها عقارب جَهَنَّم، والسابعة فيها سَقَرَ، وفيها إبليس مُصَفَّدٌ بالحديد، يَدٌ أمامَه ويَدٌ خَلْفَه، فإذا أراد الله أن يُطلِقَه لما يشاء أَطْلَقَه»[٤]. هذا حديثٌ غريب جداً، ورفعُه فيه نظر.

[٤٥٤٠] وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا أبو موسى الهَرَوِيّ، عن العباس بن الفضل قال:

---

(١) سيأتي تخريجه إن شاء الله.

(٢) يأتي تخريجه إن شاء الله.

(٣) هو من تخليطات بني إسرائيل، وليس بصحيح لا من جهة النقل، ولا العقل، ولا العلم.

(٤) إسناده ضعيف جداً، ولا أصل له في المرفوع، والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص من الزاملتين اللتين وقعتا له يوم اليرموك، وكون الأرض علىٰ ظهر حوت إلخ كل ذلك من الإسرائيليات. وأما الإسناد، ففيه دراج أبو السمح، روى مناكير كثيرة، وضعفه غير واحد، وعنه عبد الله بن سليمان المصري قال البزار: حدث بأحاديث لا يتابع عليها. وعنه عبد الله بن عياش القتباني، روىٰ له مسلم في الشواهد. ضعفه النسائي، ووثقه ابن حبان، وقال ابن يونس: منكر الحديث. وفيه ابن أخي عبد الله بن وهب، واسمه أحمد بن عبد الرحمن جاء في «الميزان» ٤٤٤ قال ابن عدي: رأيت شيوخ مصر مجمعين علىٰ ضعفه، وقال ابن حبان: أتىٰ بمناكير، وقال ابن خزيمة: روىٰ أحاديث أنكروها عليه، فرجع عنها أهـ فهذا حديث مسلسل بالضعفاء، لا يصح رفعه البتة، كما ترىٰ، والله أعلم.

قلت: ابن الفضل الأنصاري؟ قال: نعم ـ عن القاسم بن عبد الرحمن، عن محمد بن علي، عن جابر بن عبد الله قال: كنتُ مع رسول الله ﷺ في غزوة تَبُوكَ، فأقبلنا راجعين في حَرٍّ شديدٍ، فنحن متفرّقون بينَ واحد واثنين، مُنتَشِرينَ، قال: وكنتُ في أوّلِ العسكر إذْ عارضَنَا رجلٌ فَسَلَّم، ثم قال: أيكُم مُحمّد؟ ومَضَى أصحابي وَوَقَفْتُ معه، فإذا رسولُ الله ﷺ قد أقبلَ في وَسَط العَسْكر على جَمَلٍ أحمَرَ، مُقَنَّع بِثوبه على رأسِهِ من الشمسِ، فقلت: أيّها السائلُ، هذا رسولُ الله قد أتاك. فقال: أيُّهم هو؟ فقلت: صاحب البَكْرِ الأحمَر. فدنا منه، فأخَذ بِخِطَام راحلته، فكفَّ عليه رسولَ اللّهِ، فقال: أنتَ محمّدٌ؟ قال: نعم. قال: إني أريد أن أسألك عن خِصَالٍ لا يعلَمُهُنَّ أحدٌ من أهلِ الأرض إلا رَجُلٌ أو رجلان. فقال رسولُ الله ﷺ: سَلْ عَمّا شِئْتَ. فقال: يا محمّدُ، أينام النبي؟ فقال رسولُ الله ﷺ: تنام عيناه ولا ينامُ قلبُه. قال: صَدَقْتَ. ثم قال: يا محمّدُ، مِنْ أين يُشبه الوَلَد أباه وأمَّه؟ فقال رسول الله: ماءُ الرجل أبيضُ غِلِيظٌ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيُّ الماءين غَلَب على الآخر نَزَع الوَلَدُ. فقال: صَدَقْتَ. فقال: ما للرَّجُلِ من الولد وما للمرأة منه؟ فقال: للرجُل العِظَامُ والعُروق والعصب، وللمرأة اللحم والدم والكبد والشعر. قال: صَدَقْتَ. ثم قال: يا محمّدُ، ما تحت هذه؟ يعني الأرض. فقال رسولُ الله ﷺ: خَلْقٌ. فقال: فما تحتهم؟ قال: أرض. قال: فما تحت الأرضِ؟ قال: الماءُ. قال: فما تحتَ الماءِ؟ قال: ظُلْمَةٌ. قال: فما تحت الظُّلْمَةِ؟ قال: الهَوَاءُ. قال: فما تحتَ الهواء؟ قال: الثرى. قال: فما تحتَ الثَّرَى؟ ففاضت عَيْنَا رسول الله ﷺ بالبكاء، وقال: انقطع عِلْمُ المخلوقين عند عِلْم الخالق أيها السائلُ ما المسؤول عنها بأعلَمَ من السائل. قال: فقال: صَدَقْتَ، أشهد أنّك رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: أيها الناسُ، هل تدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلَمُ. قال: هذا جبريلُ ﷺ[1]. هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيبٌ تَفَرّد به القاسم بن عبد الرحمن هذا، وقد قال فيه يحيى بن مَعِين: «ليس يُساوِي شيئاً»، وضَعَّفه أبو حاتم الرازي، وقد قال ابنُ عَدِيٍّ: لا يُعرَفُ. قلت: وقد خَلَّطَ في هذا الحديث، ودَخَلَ عليه شيءٌ في شيء، وحديثٌ في حديثٍ. وقد يَحتَمِلُ أنه تَعَمَّد ذلك، أو أُدخِلَ عليه فيه، فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾، أي: أنزل هذا القرآنَ الذي خَلَق الأرض والسموات العُلَى الذي يعلم السرّ وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان: ٦]. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾، قال: السرُّ ما أسرَ ابنُ آدمَ في نفسه، ﴿وَأَخْفَى﴾، ما أُخفِيَ على ابن ادم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كلّه، فَعِلْمُه فيما مَضَىٰ من ذلك وما بَقِيَ عِلْمٌ واحد، وجميعُ الخلائقُ في ذلك عندَه كنفسٍ واحدةٍ، وهو قولُه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [سورة لقمان: ٢٨]. وقال الضحاك: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾، قال: السرُّ ما تُحَدِّث به نفسك، وأخفى ما لم تُحَدِّث به نفسك بعد.

وقال سعيد بن جُبَير: أنت تعلَمُ ما تُسِرُّ اليوم، ولا تعلم ما تُسِرُّ غداً، والله يعلم ما تُسِرُّ اليوم، وما تُسِرُّ غداً. وقال مجاهد: ﴿وَأَخْفَى﴾، يعني الوَسْوسَةَ. وقال أيضاً هو وسعيد بن جُبَير: ﴿وَأَخْفَى﴾، أي: ما هو

---

(١) إسناد واهٍ. أعله ابن كثير رحمه الله بالقاسم بن عبد الرحمن ذكره الذهبي في الميزان ٦٨٢٢ بقوله: ضعفه أبو حاتم، وقال: حدثنا عنه محمد بن عبد الله الأنصاري بحديثين باطلين. وقال ابن معين: لا يساوي شيئاً اهـ. والظاهر أن أحد الحديثين هو هذا، وقد خلط في هذا الحديث كما ذكر ابن كثير، فبعضه محفوظ، جاء في روايات أخرى، وبعضه الآخر منكر. والله أعلم.

عاملُه مما لم يُحدِّث به نفسه. وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾، أي: الذي أنزل عليك القرآنَ هو الله الذي لا إله إلا هُوَ ذُو الأسماء الحسنى والصفات العُلَى. وقد تقدَّم بيانُ الأحاديثِ الواردةِ في الأسماءِ الحُسنَى في أواخِرِ سُورَةِ الأعراف، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾

من ها هنا شَرَع تبارك وتعالى في ذِكرِ قِصَّةِ مُوسَى، وكيف كان ابتداءُ الوَحْيِ إليه وتكليمُه إياه، وذلك بعدما قَضَى موسى الأَجَلَ الذي كان بينه وبين صِهْرِه في رعاية الغَنَم وسار بأهله، قيل: قاصداً بلاد مصر، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضلَّ الطريق، وكانت ليلةً شاتيةً، ونَزَل مَنْزِلاً بين شِعَابٍ وجِبَالٍ، في برد وشِتَاءٍ، وسحاب وظلام وضَبابٍ، وجعل يَقْدَح بزَنْدٍ معه ليُورِيَ ناراً، كما جرت له العادةُ به، فجعل لا يقدَح شيئاً، ولا يخرج منه شَرَرٌ ولا شَيءٌ. فبينا هو كذلك، إذ آنَسَ من جانب الطور ناراً، أي: ظهرت له نار من جانب الجَبَلِ الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يُبَشِّرُهم: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، أي: شهابٍ من نَارٍ. وفي الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، وهي الجَمْرُ الذي معه لَهَبٌ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، دلَّ على وُجُودِ البَرْدِ، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دلَّ على وجود الظلام.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾، أي: يَهْدِيني الطريقَ، دلَّ على أنه قد تاه عن الطريق. كما قال الثوريُّ، عن أبي سعيد الأعور، عن عكرمة، عن ابن عَبَّاسٍ في قوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾، قال: من يَهْدِيني إلى الطريق. وكانوا شَاتِينَ وضَلُّوا الطريقَ. فلما رأى النار قال: إن لم أَجِدْ أحداً يهديني إلى الطريق أتيتُكم بنار تُوقِدُون بها.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾

يقولُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾، أي: النارَ واقتربَ منها، ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، وقال ها هنا: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، أي: الذي يُكلِّمكَ ويُخاطِبُكَ، ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾. قال علي بن أبي طالب، وأبو ذرٍّ، وأبو أيُّوب، وغيرُ واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذَكِيٍّ. وقيل: إنما أمره بخَلْع نعليه تعظيماً للبسة. قال سعيد بنُ جُبَير: كما يُؤمَرُ الرجلُ أن يخلَعَ نعلَيه إذا أراد دخول الكعبة. وقيل: لِيَطَأَ الأرضَ المقدَّسَة بقَدَمِيهِ حَافِياً غير مُنْتَعِلٍ. وقيل غيرُ ذلك، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿طُوًى﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو اسمٌ للوادي. وكذا قال غيرُ واحد، فعلى هذا يكون عطفَ بيانٍ. وقيل: عبارةٌ عن الأمر بالوَطْءِ بقدميه. وقيل: لأنه قُدِّس مرَّتين، وطُوِي له البركة وكُرِّرت. والأول أصح، كقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾ [النازعات: ١٦]. وقولُه: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾، كقوله: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أي: على جميع الناس مِنَ

الموجودين في زَمَانِه. وقد قيل: إن الله تعالى قال: يا موسى، أتدري لم خصصتُك بالتكليم من بين الناس؟ قال: لا. قال: لأني لم يتواضَعْ لي أحدٌ تواضُعَك. وقولُه: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، أي: اسمع الآن ما أقولُ لَكَ وأُوحِيه إليك، ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾: هذا أول واجبٍ على المكلَّفين أن يعلَمُوا أنّه لا إلهَ إلاّ الله، وحدَه لا شريكَ له.

وقولُه تعالى: ﴿فَٱعْبُدْنِى﴾، أي: وحِّدني وَقُم بعبادَتي من غير شريكٍ، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾، قيل: معناه صَلِّ لِتذكُرَني. وقيلَ: معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي.

[٤٥٤١] ويشهدُ لهذا الثاني ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِيّ، حدثنا المثنى بن سعيد، عن قتادَةَ، عن أَنَس، عن النبيِّ ﷺ قال: إذا رَقَد أحدكم عن الصلاة، أو غَفَل عنها، فَلْيُصَلِّها إذا ذَكَرها، فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[1].

[٤٥٤٢] وفي الصَّحِيحَين عن أَنَسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «من نَام عن صَلاة أو نَسِيهَا فَكَفَّارتها أن يُصَليها إذا ذكرها، لا كَفَّارة لها إلا ذلك»[2]. وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾، أي: قائمةٌ لا محالَةَ، وكائنةٌ لا بدَّ منها. وقولُه: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، قال الضَّحاك، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤُها: «أكاد أُخفِيهَا من نَفْسِي»، يقول: لأنها لا تخفَى من نَفْسِ الله أبداً. وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: من نفسه. وكذا قال مجاهد، وأبو صالح، ويحيى بن رافع. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، يقول: لا أُطْلِعُ عليها أحداً غيري. وقال السّديُّ: ليس أحدٌ من أهل السمواتِ والأرضِ إلا قد أخْفَى الله عنه عِلْمَ السّاعةِ، وهي في قراءة ابن مسعود: «إني أكاد أُخفِيها من نفسي»، يقول: كتمتُها من الخلائق، حتى لو استطعتُ أن أكتُمَها من نَفْسِي لفعلتُ. وقال قتادةُ: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، وهي في بعض القراءة «أُخفيها من نفسي»، ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكةِ المُقرَّبين، ومن الأنبياء والمرسلين. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، أي: ثقل علمُها على أهل السمٰوات والأرض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعَةَ، حدثنا منجاب، حدثنا أبو تُمَيلَة، حدثني محمد بن سَهل الأسديُّ، عن وِقَاءٍ قال: أقرأنيها سعيد بن جُبَيرٍ «أكادُ أَخفيها» ـ يعني بنَصْبِ الألف وخَفْضِ الفاء ـ يقول: أُظهِرها، ثم قال: أما سَمِعت قول الشاعر:

دَأَبَ شَهْرَيْن، ثم شَهْراً دَمِيكاً بِأَرِيكَيْنِ يَخْفِيانِ غَمِيرَا

وقال السدي: الغَمِير: نبتٌ رَطْبٌ، يَنبُتُ في خِلاَل يَبَسٍ. والأرِيكَيْن: مَوْضِعٌ، والدَّمِيك: الشهر التام. وهذا الشعر لِكَعب بن زُهير. وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، أي: أُقيمها لا محالَةَ لأجزيَ كُلَّ عاملٍ بِعَمَلِهِ، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٦، ٧]، و ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧]. وقولُه: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾، المرادُ بهذا الخطاب آحادُ المُكلَّفين، أي: لا تتبعوا سَبِيلَ مَنْ كذب بالساعة، وأقبل على ملاذِّه في دنياه، وعَصَى مولاه، واتَّبعَ هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخَسِر، ﴿فَتَرْدَىٰ﴾، أي: تَهلِكَ وتَعْطَبَ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ [الليل: ١١].

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٦٨٤ و٣١٦ وأحمد ٣/ ١٨٤ من طريق المثنى به.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٧ ومسلم ٦٨٤ وأبو داود ٤٤٢ والترمذي ١٧٨ والنسائي ١/ ٢٩٣ وابن ماجه ٦٩٦ وأحمد ٣/ ٢٤٣ و٢٦٩ وابن حبان ١٥٥٥.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾

هذا برهانٌ من الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ ومعجزةٌ عظيمةٌ، وخرقٌ للعادة، دالٌّ على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله ـ عز وجل ـ وأنه لا يأتي به إلا نبيٌ مُرسل. فقولُه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾، قال بعضُ المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له. وقيل: إنما قال له ذلك على وَجْهِ التقرير، أي: أما هذه التي في يَمينك عَصَاك التي تَعرفُها فَسترى ما نصنع بها الآن. ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾، استفهام تقرير، ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾، أي: أعتمد عليها في حال المشي ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، أي: أَهُزُّ بها الشجرةَ لِيسقُطَ ورقُها، لترعاه غنمي. قال عبدُ الرحمن بن القاسم، عن الإمام مالك: والهَشُّ: أن يضعَ الرجلُ المِحْجَنَ في الغُصْنِ، ثم يُحرِّكه حتى يسقطَ ورقه وثَمَرُه، ولا يكسِرَ العودَ، فهذا الهش، ولا يَخبِطَ. وكذا قال مَيمون بن مِهْرَانَ أيضاً.

وقولُه تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾، أي: مصالحُ ومنافعُ وحاجاتٌ أُخَرُ غير ذلك. وقد تَكلّف بعضُهم لِذِكرِ شيءٍ من تلك المآرب التي أُبهِمَتْ، فقيل: كانت تُضِيء له بالليل، وتحرُس له الغَنَم إذا نام، ويَغرِسُها فتصير شجرة تُظِلُّه، وغير ذلك من الأمور الخارقةِ للعادةِ. والظاهرُ أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثُعباناً، فما كان يفرُّ منها هارباً، ولكن كلُّ ذلك من الأخبار الإسرائيلية. وكذا قولُ بعضهم: إنها كانت لآدمَ عليه السلام. وقولُ الآخرَ: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامةِ. وَرُوِي عن ابن عباس أنه قال: كان اسمُها ماشا. والله أعلمُ بالصَّوابِ.

وقولُه تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾، أي: هذه العصا التي في يدك يا مُوسى، ألقها. ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾، أي: صارت في الحال حَيّةً عَظِيمةً، ثُعباناً طَويلاً، يَتَحرَّك بحركَةٍ سريعة، فإذا هي تهتزّ كأنها جانٌّ، وهي أسرعُ الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكِبَرِ، وفي غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْعَىٰ﴾، أي: تمشي وتضطرب. قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عَبْدَة، حدثنا حَفْصُ بن جُمَيع، حدثنا سِمَاك، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾: ولم تكن قبلَ ذلك حَيّةً، فمرَّت بشجرةٍ فأكَلَتها، ومَرَّتْ بصخرة فابتلعتها، فجعل موسى يَسْمَع وَقْعَ الصَّخرة في جوفها، فوَلَّى مُدبراً، فَنُودِيَ أن: يا مُوسَى، خُذها. فلم يأخُذَها، ثم نُودِي الثانيَة: أن خُذها ولا تَخَف. فَقِيلَ له في الثالثةِ: إنَّكَ من الآمِنِينَ. فأخذَها. وقال وهبُ بن مُنَبِّهٍ في قوله: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾، قال: فألقاها على وجه الأرْضِ، ثم حانت منه نظرةٌ فإذا بأعظم ثعبان نَظَر إليه الناظرون، يَدِبُّ يلتمسُ كأنه يبتغي شيئاً يُريدُ أخْذَه، يمر بالصَّخرة مثل الخَلِفَةِ من الإبل فَيلتقمها، ويطعنُ بالنَّاب من أنيابه في أصل الشجرة العَظِيمة فَيجتثُّها، عيناه تتقدان ناراً، وقد عاد المِحجَنُ منها عُرفاً، قيل: شعرُه مثل النَّيازك، وعاد الشُّعبَتَان منها مثل القَلِيب الواسع، فيه أضراسٌ وأنيابٌ، لها صَريف. فلما عاين ذلك موسى وَلَّى مدبراً ولم يُعقِّب. فَذَهب حتى أمعَنَ، ورأى أنه قد أعجزَ الحية، ثم ذكر ربه فوقفَ استحياءً منه، ثم نُودِيَ: يا موسى، أنْ ارجعْ حيثُ كُنتَ. فرجَعَ موسى وهو شديدُ الخوف، فقال: ﴿خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾، وعلى مُوسَى حينئذٍ مِدرَعَة من صُوفٍ، قَد خَلَّها بِخلالٍ من عِيدانٍ، فلما أمره بأخذها أدْلَى طرف المِدرعة على يَدِهِ،

فقال مَلَكٌ: أرأيتَ يا مُوسى، لو أذِن الله بما تُحاذِر أكانت المدرعة تُغني عَنْكَ شيئاً؟ قال: لا. ولكنّي ضعيف، ومن ضَعْفٍ خُلِقْتُ. فكشف عن يَدِه ثم وضعها على فم الحيَّةِ، حتى سَمِع حِسَّ الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هي عَصَاه التي عَهِدها، وإذا يَدُه في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشُّعْبَتَين. ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾، أي: إلى حالِها التي تُعرَفُ قبل ذلك.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى (٢٣) ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى (٢٥) وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى (٢٦) وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى (٢٧) يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى (٢٨) وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى (٢٩) هَٰرُونَ أَخِى (٣٠) ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى (٣٢) كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾

وهذا بُرهان ثانٍ لموسى عليه السلام، وهو أنَّ الله أمرَهُ أن يُدخِلَ يدَه في جيبه، كَمَا صَرَّح به في الآية الأخرى، وها هنا عَبَّر عن ذلك بقوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾، وقال في مكان آخر: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢]. وقال مجاهد: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾: كَفَّه تَحتَ عَضُدِهِ وذلك أن موسى ـ عليه السلام ـ كان إذا أدخَلَ يده في جَيْبِه ثم أخرجها، تخرج تتلألأ كأنها فِلْقَةُ قمر. وقولُه: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، أيْ: من غير بَرَصٍ ولا أذىً، ومن غير شَينٍ. قاله ابنُ عباس، ومجاهِدٌ، وعكرمةُ، وقتادةُ، والضَّحاكُ، والسدّيُّ، وغيرُهم. وقال الحسن البصريّ: أخرجَهَا ـ والله ـ كأنها مصباحٌ، فعلم موسى أنه قد لَقِيَ ربَّه عز وجل، ولهذا قال تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى (٢٣)﴾. وقال وهبٌ: قال له ربُّه: ادْنُهْ. فلم يَزَلْ يُدنيه حتى أسند ظهره بِجِذْعِ الشجرة، فاستقر وذهبت عنه الرِّعدَةُ، وجَمَع يدَه في العَصَا، وخَضَع برأسِه وعُنُقِه.

وقولُه تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خَرَجت فاراً منه وهارباً، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فَلْيُحْسِن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبَغَى، وآثر الحياة الدنيا، ونسي الرب الأعلى. وقال وهبُ بن مُنَبِّهٍ: قال الله لموسى: انطلِقْ بِرسالتي فإنَّك وبعيني وسَمْعِي، وَإِنَّ معك أَيْدِي ونَصْري، وإني قد ألبستُكَ جُنَّةً من سلطاني لتَستكمِلَ بها القُوَّةَ في أمري، فأنتَ جندٌ عَظِيمٌ من جُندي، بعثتُك إلي خَلْقٍ ضعيفٍ من خَلْقِي، بَطِرَ نِعْمَتي، وأَمِنَ مَكْرِي، وغرّته الدنيا عَنّي، حتى جَحَد حَقِّي، وأنكر رُبُوبيّتي، وزَعَم أنه لا يَعرِفني؛ فإني أُقسِم بعزَّتي لولا القَدَرُ الذي وضعتُ بيني وبين خلقي لبطشتُ به بَطشَة جَبَّارٍ، يَغضَب لغضبه السمٰوَاتُ والأرضُ، والجبالُ والبحارُ، فَإِنْ أمرتُ السماء حَصَبَتْهُ، وإِنْ أمرتُ الأرضَ ابتلعَتْهُ، وإن أمرتُ الجبَالَ دَمَّرته، وإن أمرتُ البِحَارَ غَرّقته، ولكنّه هانَ عليَّ، وسقَط من عَيْني، ووسِعَهُ حِلْمي، واستغنيتُ بما عندي. وحَقٌّ إني أنا الغنيُّ لا غنيَّ غيري. فَبَلِّغه رسالتي، وادعُه إلى عبادَتي وتوحيدي وإخلاصِي، وذَكِّره أيامي، وحَذّره نِقمَتي وبَأسِي، وأَخبره أنه لا يقومُ شَيْءٌ لِغَضبي، وقُلْ له فيما بين ذلك قولاً ليناً لعلّه يتذكَّر أو يخشَى، وخَبِّره أني إلي العَفْو والمغفرة أسرَعُ منّي إلى الغَضَب والعقوبة ولا يُرَوِّعَنَّك ما ألبسته من لباس الدُّنيا، فإنَّ ناصيته بيدي، ليس ينطِقَ ولا يَطرِف ولا يَتنفَّسُ إلا بإذْني. وقل له: أجب ربَّك فإنه واسع المغفرةَ، وقد أمهلك أربعمئة سنة، في كلها أنت مبارِزُه بالمحاربة، تَسُبُّه وتتمثّل به، وتصدُّ عباده عن سبيله، وهو يُمطِرُ عليك السَّماءَ، ويُنبِتُ لك الأرضَ، لم تَسْقَم ولـم تَهرَمْ ولم تَفتقِرْ ولم تُغلَبْ، ولو شاء أن يُعَجِّل لك العقوبَةَ لَفَعَل، ولكنه ذو أَناةٍ وحِلْمٍ عظيمٍ. وجاهِدْه

بنفسك وأخيك، وأنتما تحتسِبان بجهاده، فإني لو شئتُ أن آتيه بجنود لا قِبَلَ له بها لَفَعَلت، ولكن ليعلَم هذا العبدُ [الضعيف] الذي قد أعْجَبَتْهُ نفسه وجموعُه أنّ الفئة القليلة ـ ولا قليلَ منّي ـ تغلِبُ الفئةَ الكثيرةَ بإذني. ولا تُعجِبنّكُما زينتُه، ولا ما مُتّع به، ولا تَمُدّا إلى ذلك أعيُنَكما، فإنها زَهرَةُ الحياة الدنيا، وزينةُ المُترَفين. ولو شِئت أن أُزيّنَكُما من الدنيا بزينةٍ لِيعلَمَ فِرْعَونُ حينَ ينظُرُ إليها أن مَقْدِرَته تَعجِزُ عن مثل ما أوتيتما، فعلتُ. ولكن أرغَبُ بكما عن ذلك وأَزْوِيه عنكما. وكذلك أفعل بأوليائي. وقديماً ما جرت عادتي في ذلك، فإني لأذودُهم عن نعيمها ورَخائها، كما يَذُودُ الراعي إبِلَه عن مَبارِكِ المعرّةِ. وما ذاك لهوانهم عليّ، ولكن ليستكملوا نصيبَهم من كَرامتي سالماً موفراً لم تَكْلَمْه الدنيا. واعلم أنه لا يتزيّن لي العباد بزينةٍ هي أبلغ فيما عندي من الزُّهْدِ في الدنيا، فإنها زينةُ المتَّقينَ، عليهم منها لباسٌ يُعرَفُون به من السكينة والخشوع، سِيماهُم في وُجُوهِهِم من أثَرِ السُّجُودِ، أُولئِكَ أوليائِي حَقّاً حقّاً، فإذا لَقِيتَهُم فاخفِض لهم جناحَك، وذَلّل قلبكَ ولسانَك، واعلم أنه من أهانَ لي وليّاً أو أخافه فقد بارَزَني بالمُحارَبَةِ، وبادأني وعَرَّض لي نفسه ودَعاني إليها، وأنا أسرعُ شيءٍ إلى نُصرةِ أوليائي، أفيظنُّ الذي يحاربني أنْ يقُوم لي، أم يَظُنُّ الذي يُعادِيني أن يُعجزني، أم يظن الذي يُبارزُني أن يسبقني أو يفُوتني. وكيف وأنا الثائر لهم في الدنيا والآخرة، لا أَكِلُ نُصرَتَهُم إلى غيري، رَوَاه ابنُ أبي حاتمٍ.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾، هذا سُؤال من موسى ـ عليه السلام ـ لربه ـ عزّ وجلّ ـ أن يشرَحَ له صدرَه فيما بعثَه به، فإنّه قد أمره بأمرٍ عظيم، وخَطْبٍ جسيم، بعثه إلى أعظَم ملك على وجه الأرض إذْ ذاكَ وأجْبَرِهِم وأشدِّهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم مُلكاً، وأطغاهم وأبلَغِهم تَمَرُّداً، بَلَغ من أمره أن ادَّعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلَم لرعاياه إلهاً غيره. هذا وقد مكث موسى في داره مُدّةً وليداً عندهم، في حِجْر فِرْعَون على فراشه، ثم قَتَل منهم نفساً فَخافَهُم أن يقتلوه، فَهرَب منهم هذه المدّة بكمالها. ثُمّ بعدَ هذا بَعَثه ربُهُ ـ عزّ وجلّ ـ إليهم نَذِيراً يدعُوهم إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يعبدُوه وحدَه لا شريكَ له. ولهذا قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾، أي: إن لم تكن أنت عَوْني ونَصِيري، وعَضُدِي وظَهِيري، وَإلاّ فَلاَ طاقَةَ لي بِذَلِكَ. ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾، وذلك لِمَا كان أصابه من اللَّثغ، حين عَرَض عليه التمرة والجَمْرَة، فأخذ الجَمْرَة فوضَعَها على لسانه، كما سيأتي بيانه. وما سأل أن يَزُولَ ذلك بالكلّية، بل بحيث ما يزولُ العِيُّ ويحصُلُ لهم فَهْمُ ما يُرِيدُ منه وهو قَدْرُ الحاجَةِ. ولو سَأل الجميعَ لزالَ، ولكنّ الأنبياءَ لا يسألونَ إلا بِحَسَبِ الحاجَةِ، ولهذا بَقِيَتْ بقيّةٌ. قال الله تعالى إخباراً عن فِرْعَونَ أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٢]، أي: يفصح بالكلام. وقال الحسنُ البَصريُّ: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾، قال: حُلَّ عُقدةً واحدةً، ولو سَأل أكثر من ذلك أُعطِيَ. وقال ابنُ عباس: شَكَا موسَى إلى ربِّه ما يتخوّف من آل فِرْعَون في القتيل، وعقدةَ لسانه، فإنه كان في لِسَانه عُقدَةٌ تمنعه من كَثِيرٍ من الكَلاَمِ، وسأل ربّه أن يُعِينَهُ بأخِيه هارونَ يكون له رِدْءاً ويتكلّم عنه بكثير مما لا يُفصِحُ به لسانه، فآتاه سُؤلَه، فَحلَّ عقدةً من لِسانه. وقال ابن أبي حاتم: ذُكِرَ عن عَمْرو بن عثمانَ، حدَّثنا بقيّةُ، عن أرطاةَ بن المنذرِ، حَدَّثني بعضُ أصحاب محمد بن كعب، عنه قال: أتاه ذُو قرابة له فقال له: ما بك بأسٌ لولا أنك تلحَنُ في كلامك، ولست تُعرب في قراءتك، فقال القُرَظي: يا ابن أخي، ألستُ أُفهِمُكَ إذا حدَّثتك؟ قال: نعم. قال: فإن موسى عليه السلام إنما سأل رَبه أن يحل عُقدَةً من لسانِهِ كي يفقَهَ بَنُو إسرائيل كلامَه، ولم يَزِد عليها. هذا لفظه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠﴾، وهذا أيضاً سؤال من موسى عليه السّلام في أمرٍ خارجيٍّ عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له. قال الثوريُّ، عن أبي سعيدٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس أنه قال: فَنُبِّئَ هارونُ ساعَتئذٍ حين نُبِّئَ موسى عليهما السلام.

وقال ابن أبي حاتم: ذُكِر عن ابن نُمَير، حدثنا أبو أُسَامَة، عن هِشَام بن عُروةَ، عن أبيه، عن عائشة أنّها خَرَجت فيما كانت تعتمر، فنَزلت ببعض الأعرابِ، فَسمِعَت رجلاً يقول: أيّ أخ في الدنيا كان أنفعَ لأخيه؟ قالوا: ما نَدْري. قال: أنا والله أدري؟ ـ قالت: فَقلتُ في نفسي: في حَلِفِهِ لا يستثني إنه لَيَعْلَم أيُّ أخ في الدُّنيا كانَ أنفعَ لأخيه ـ قال: موسى حين سأل لأخيه النبوّةَ. فقلتُ: صَدَق والله. قلتُ: وفي هذا قالَ الله تعالى في الثناء على موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقولُه تعالى: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١﴾، قال مجاهد: ظَهري. ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢﴾ أي: في مشاورتي، ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤﴾، قال مجاهد: لا يكون العبدُ من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً. وقولُه: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥﴾، أي: في اصطفائِكَ لنا، وإعطائِكَ إيانا النبوّةَ، وبَعْثِكَ لنا إلى عَدُوِّك فِرْعونَ، فلك الحمد على ذلك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۝٣٩ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ﴾

هذه إجابةٌ من الله لرسوله موسى ـ عليه السلام ـ فيما سأل من رَبّه ـ عزَّ وجلَّ ـ وتذكيرٌ له بِنِعَمِهِ السَّالفةِ عليه، فيما كان ألهم أمّه حين كانت تُرضِعُهُ، وتَحذَرُ عليه من فرعون ومَلَئِهِ أن يقتلُوه، لأنه كانَ قد وُلِدَ في السنَةِ التي يقتلون فيها الغلمَانَ. فاتخذَتْ له تَابوتاً، فكانت تُرضِعَه ثم تَضعُه فيه، وتُرسِلُه في البحر ـ وهو النيل ـ وتُمسِكُه إلى مَنْزلها بحبل، فَذَهبت مرة لِتَربطَه فانفلت منها وذهب به البحر، فَحَصَل لها من الغَمِّ والهمِّ ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، فذهَب به البحرُ إلى دَارِ فِرْعون، ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، أي: قَدَراً مقدُوراً من الله، حيث كانوا هم يقتلُون الغلمان من بني إسرائيلَ، حَذَراً من وجود موسى، فَحكَم الله ـ وله السلطانُ العظيم والقدرةُ التامة ـ أن لا يُربّى إلاَّ على فراش فرعون، ويُغذَّى بطَعَامِهِ وَشَرابه، مع مَحبّتِهِ وزوجَتِهِ له. ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾. أي: عند عَدُوِّك، جَعلته يُحبُّكَ. قال سَلَمة بن كُهيلٍ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ قال: حَبّبْتُكَ إلى عبادي: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾، قال أبو عمران الجَوْني: تُرَبى بعين الله. وقال قتادةُ: تُغذّى على عيني. وقال معمَرُ بن المثنى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾، يحيثُ أرَى. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني أجعله في بيت المُلْكِ، يَنْعَم ويَتْرَفُ، غذاؤهُ عندهُم غذاءُ المُلكِ، فتلك الصنعةُ.

وقولُه تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، وذلك أنه لما استقرَّ عند آل فِرْعَونَ، عَرَضُوا عليه المَرَاضِعَ، فأباها. قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾، فجاءت أختُه وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]، تعني

هل أدلكم على من تُرْضِعُهُ لكم بالأجرة؟ فذهبَتْ به وَهُم معها إلى أُمِّه، فعرضَت عليه ثَدْيَها، فَقَبِله، فَفَرِحُوا بذلك فَرَحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادةٌ ورفعةٌ وراحةٌ في الدنيا، وفي الآخِرة أعظمُ وأجزَلُ. ولهذا جاء في الحديث:

[٤٥٤٣] «مَثَلُ الصَّانع الذي يحتسِبُ في صَنْعَتِهِ الخيرَ كَمَثَل أُمِّ موسى، تُرضِع وَلَدَها وتأخُذ أَجرَها»(١).

وقال تعالى ها هنا: ﴿فَرَجَعْنَكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، أي: عليك، ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾، يعني: القِبْطِيِّ، ﴿فَنَجَّيْنَكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾، وهو ما حصل له بسبب عَزْم آل فِرعُون على قَتْلِهِ، فَفرّ منهم هارباً، حتى وَرَد ماء مَدْيَن، وقال له ذلك الرجلُ الصالحُ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

وقولُه تعالى: ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾؛ قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شُعَيبِ النسائي ـ رحمه الله ـ في كتاب التفسير من سُنَنِهِ: قوله: ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾، حَدِيث الفُتُون:

[٤٥٤٤] حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أنبأنا أصبغُ بن زَيدٍ، حدثنا القاسمُ بن أبي أيُوب، أخبرني سَعيد بن جُبَير قال: سألتُ عبد الله بن عباس عن قول الله ـ عزَّ وجل ـ لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾، فسألته عن الفتون، ما هو؟ فقال: استأنِفِ النَّهارَ يا ابن جُبَير فإنَّ لها حديثاً طويلاً. فلما أصبحتُ غدوتُ إلى ابن عباس لأتَنَجَّزَ منه ما وَعَدَني من حديث الفُتُون، فقال: تذاكَرَ فِرْعون وجلساؤُه ما كان الله وَعَد إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يجعَلَ في ذُرِّيتِهِ أنبياءَ ومُلوكاً، فقال بعضُهم: إنَّ بَني إسرائيلَ ينتظرون ذلك، ما يَشُكُّون فيه، وكانوا يَظُنُّون أنَّهُ يوسف بن يعقوب. فلما هَلَك قالوا: ليس هكذا كان وعدَ إبراهيمَ. فقال فِرعَونُ: فكيف تُرَون؟ فائتمَرُوا وأجمَعُوا أَمْرَهم على أن يبعث رجالاً معهم الشِّفَار يطوفُونَ في بني إسرائيل، فلا يجدُون مولوداً ذكراً إلا ذَبَحُوه. فَفعلُوا ذلك، فلما رَأوا أنَّ الكِبار من بني إسرائيل يَمُوتُون بآجالهم والصِّغار يُذبَحُون، قالوا: لَيُوشِكَنَّ أن تُفنُوا بني إسرائيلَ فَتَصيرُوا أن تُباشِرُوا من الأعمال والخِدْمة التي كانوا يَكْفُونكم، فاقتلوا عاماً كُلَّ مولودٍ ذَكَرٍ، فيقلُّ نَبَاتُهم، وَدَعُوا عاماً فلا تقتُلوا مِنهم أحداً، فيشبُّ الصِّغار مكانَ من يَمُوتُ من الكِبَارِ، فإنهم لن يكثُروا بمن تستحيُون منهم، فتخافوا مُكاثَرَتُهم إياكم، ولن يَفنَوا بمن تقتلون وتحتاجُون إليهم. فَأَجمَعُوا أمرَهُم على ذلك، فَحَملت أُمُّ موسى بهارونَ في العام الذي لا يُذْبَحُ فيه الغلمان، فولدته علانيةً آمِنةً، فلما كان من قابل حَمَلت بموسى عليه السلام، فَوقَع في قلبها الهَمُّ والحُزن ـ وذلك من الفُتُون يا ابنَ جُبَيرَ ـ ما دَخَلِ عليه وهو في بطن أُمِّه، مما يُرَاد به. فأوحى الله إليها أن لا تَخافي ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. فأمَرَها إذا ولدت أن تجعَلَه في تابوتٍ ثم تُلقيه في اليَمّ. فلما وَلَدت فَعَلت ذلك، فلما تَوَارَى عنها ابنُها أتاها الشيطَانُ، فقالت في نفسها: ما فعلتُ يا بني، لو ذُبِحَ عندي فواريته وَكَفَّنتُه كان أحبَّ إليَّ من أن أُلقِيَهُ إلى دَوَابِّ البحرِ وحِيتَانِهِ. فانتهى الماءُ به حتَّى أوفى به عند فُرْضَة مُستَقَى جَوَاري امرأةِ فِرْعَون، فلما رَأَينه أَخَذْنَه فَهَمَمْنَ أن يفتَحْنَ التابوتَ، فقال بعضُهنَّ: إنَّ في هذا مالاً، وإنَّا إن فَتَحناه لم تُصَدِّقنا امرأةُ الملك بما وَجَدْنا فيه، فَحمَلْنَه كهيئَتِهِ لم يُخرِجْنَ منه شيئاً حتى دَفَعْنَه إليها. فلما فَتَحتْه رَأَتْ فيه غلاماً، فَأُلقِيَ عليها منه محبةٌ لم يُلْقَ منها على أحدٍ قَطُّ. وأصبح فؤادُ أم موسى فارِغاً من ذِكرِ كلِّ شيء، إلا من ذِكْرِ موسى. فلما سَمِع الذبَّاحون بأَمْرِهِ أقبلُوا بشِفارِهم إلى امرأة فِرْعَون ليذْبَحُوه ـ وذلك من الفُتُون يا ابن جُبَير ـ فقالت لهم: أَقِرُّوه فإن هذا الواحدَ لا يَزيدُ في بني إسرائيل حتى آتيَ فِرْعَونَ فَأَستوهِبَه منه، فإن وَهَبه لي كُنتمْ قد أحسنتُم وأجمَلتُم، وإن أمر بِذَبحه لم أَلُمكم. فَأتت فِرعَونَ

(١) لم أره بعد بحث، ولا يصح، ويشبه أن يكون من كلام أهل التفسير.

فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فقال فِرعَونُ: يكونُ لك، فأما لي فلا حاجةَ لي فيه؛ فقال رسول الله ﷺ: «والذي يُحلَفُ به لو أقرَّ فِرعَونُ أن يكون قُرَّةَ عين له، كما أقرَّت امرأتُه، لهداه الله كما هداها، ولكن حَرَمَه ذلك». فأرسَلَت إلى من حَوْلَها، إلى كلِّ امرأةٍ لها لبنٌ لتختار له ظِئْراً، فجعَلَ كُلَّما أخذته امرأةٌ منهنّ لِتُرضِعَه لم يَقْبَل ثَدْيَهَا حَتَّى أشفقَت امرأةُ فِرْعَون أن يَمْتنِع من اللَّبَنِ فَيمُوتَ، فأحزَنَها ذلك. فَأَمرَتْ به فَأُخرِج إلى السوق ومَجْمَعِ النَّاسِ، ترجُو أن تَجِدَ له ظِئراً تأخذهُ منها، فلم يَقْبَل.

وأصبحت أمُّ موسى وَالِهاً، فقالت لأخته: قُصّي أثَره واطلُبِيه، هل تَسمَعِين له ذِكْراً؟ أحيٌّ ابني أم قد أكلته الدوابُّ؟ ونَسِيتْ ما كان الله وَعَدَها فيه، فَبَصُرَتْ به أُختُه عن جُنُبٍ وهم لا يشعُرون ـ والجُنُبُ: أن يَسمُوَ بَصَرُ الإنسان إلى شيءٍ بعيد، وهو إلى جنبه، وهو لا يُشعَر به ـ فقالت من الفَرَح حين أعياهم الظُّئورات: أنا أدلُّكم على أهل بيتٍ يكفُلونه لكم وهُم له ناصحون. فأخذوها فقالوا: ما يُدرِيكِ؟ ما نصحُهم له؟ هل تَعرِفونه؟ حتى شَكُّوا في ذلك ـ وذلك من الفُتون يا ابن جُبَير ـ فقالت: نُصحُهم له وشَفَقتُهم عليه رَغْبَتُهم في ظئورة الملك، ورجاءُ منفعةِ المَلِكِ. فأرسَلُوها فانطلقت إلى أُمِّها، فأخبرتها الخبَرَ، فجاءت أُمُّه، فلما وضَعته في حجرها نزا إلى ثَدْيِها فَمَصَّه حَتَّى امتلأ جنباه رِيّاً، وانطلق البُشَراء إلى امرأة فرعَونَ يُبَشّرونَها أن قد وَجدنا لابنك ظِئراً. فأرسلت إليها فَأَتت بها وَبِهِ، فلما رأت ما يصنَعُ بها قالت: امكُثي تُرضِعي ابني هذا، فإني لم أُحِبَّ شيئاً حُبَّه قَطُّ. قالت أُمُّ موسى: لا أستطيع أن أَدَعَ بَيْتي وَوَلَدِي فَيَضِيعَ، فإن طابت نفسُكِ أن تُعطِينيه، فَأذهَبَ به إلى بيتي، فَيكُونَ معي لا آلُوه خيراً فَعَلتُ، فإني غيرُ تَارِكةٍ بيتي وولدي، وذَكَرت أُمُّ موسى ما كان الله وعَدَها فيه، فتعاسَرَت على امرأةِ فِرْعَونَ، وأيقنَتْ أن الله منجِزٌ مَوْعُودَه، فَرَجعت به إلى بيتها من يَوْمِها، وأنبتَه الله نباتاً حسناً، وحُفِظَ لما قد قَضَى فيه.

فلم يَزَل بنُو إسرائيلَ وهم في ناحية القَرية ممتنعين من السُّخرة والظُّلم ما كان فيهم، فلما تَرعرَع قالت امرأةُ فرعونَ لأم موسى: أزيريني ابني؟ فوعَدَتْها يوماً تُزيرها إيَّاه فيه، وقالت امرأة فِرعَونَ لخزّانها وظُئورِها وقَهَارِمَتها: لا يبقينَّ أحدٌ منكم إلا استقبل ابني اليومَ بهديَّة وكرامةٍ لأرى ذلك فيه، وأنا باعثةٌ أميناً يُحصِي ما يَصنَعُ كُلُّ إنسانٍ منكم، فلم تَزَلِ الهدايا والنُّحَلُ والكرامةُ تستقبله من حين خَرَج من بيت أمه إلى أن دَخَلَ على امرأةِ فِرْعَون، فلما دخل عليها نَحَلَتْه وأكرمته وفَرِحَتْ به، ونَحلت أُمَّه لِحُسْنِ أثرِها عليه، ثم قالت: لآتِيَنَّ به فِرْعَونَ فَلْيَنْحَلنَّه ولَيُكرِمَنَّه. فلما دَخَلت به عليه جَعَلَه في حِجْرِه، فتناولَ موسى لِحية فِرْعَون فَمدَّها إلى الأرض، فقال الغُوَاةُ من أعداءِ الله لِفِرعَون: ألا ترى ما وَعَدَ الله إبراهيم نَبيَّه، إنه زَعَم أن يرثك ويعلُوك ويصرَعُكَ. فأرسل إلى الذَّبّاحين ليذبَحُوه؛ وذلك من الفتون يا ابن جُبَير، بعد كُلِّ بلاءٍ ابتُلِي به وأُرِيد به فُتُوناً. فجاءت امرأة فرعون فقالت: ما بَدَا لك في هذا الغلام الذي وَهَبته لي؟ فقال: ألا ترَيْنَه، إنه يَزْعُمُ أنه يصرَعُني ويعلوني. فقالت: اجعَلْ بيني وبينَكَ أمراً يُعرَفُ فيه الحقُّ، إيتِ بجَمْرَتَين ولُؤْلُؤتَينِ فَقَرِّبْهُنَّ إليه، فإن بَطَش باللُّؤْلُؤتين واجتنب الجَمْرتين عَرَفْتَ أنه يَعقِلُ، وإن تناول الجَمْرتين ولم يُرِد اللُّؤْلُؤتَين عَلِمْتَ أنَّ أحداً لا يُؤثِرُ الجَمْرَتين على اللُّؤلُؤتَين وهو يَعقِلُ. فَقُرِّب إليه، فتناول الجَمْرَتَين فانتزعوهما منه مخافةَ أن تحرقا يَدَه، فقالت المرأةُ: ألا ترى؟ فَصَرفه الله عنه بعدما كان قد هَمَّ به، وكان الله بالغاً فيه أَمْرَه.

فلما بلغ أَشُدَّه وكانَ من الرجال لم يكن أَحَدٌ من آل فِرْعَونَ يَخلُصُ إلى أحدٍ من بني إسرائيلَ معه بظُلم ولا سُخرة، حتى امتنعوا كُلَّ الامتناع. فبينما موسى ـ عليه السلام ـ يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجُلَين يَقْتَتِلانِ، أحدُهما فِرْعَوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثَهُ الإسرائيليُّ على الفِرْعَوني، فَغَضِبَ موسى غضباً

شديداً، لأنه تَناوله وهو يعلَمُ مَنزلَته من بني إسرائيل وحِفْظَه لهم، لا يعلم الناسُ إلا أنما ذلك من الرَّضاع، إلا أمَّ موسى، إلاَّ أن يكون الله أطلعَ مُوسى من ذلك على ما لم يُطْلِعْ عليه غَيْرَه. فوكز موسى الفِرْعَونيّ فَقَتلَه، وليس يراهما أحدٌ إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والإسرائيليّ، فقال موسى حين قَتَل الرجل: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾، ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾. فأصبح في المدينة خائفا يترقَّبُ الأخبارَ. فَأُتي فرعونَ فقيل له: إنَّ بني إسرائيل قَتلوا رجلاً من آل فِرْعَون، فخُذْ لنا بِحَقِّنا ولا تُرْخِصْ لهم. فقال: ابغُوني قَاتِلَهُ ومن يَشهد عليه، فإنَّ المَلِكَ وإن كان صِغوُه مع قَوْمِهِ لا يستقيم له أن يَقيدَ بغير بيِّنة ولا ثَبَت. فاطلبوا لي علْمَ ذلك آخُذْ لكم بِحَقِّكم. فبينما هم يَطُوفون ولا يَجدُون ثَبَتاً إذا مُوسَى من الغَد قد رَأى ذلك الإسرائيليّ يُقاتِلُ رَجُلاً من آلِ فِرْعونَ آخَرَ، فاستغاثه الإسرائيليُّ على الفِرْعَونيّ، فصادَفَ موسى قد نَدِمَ على ما كان منه وكَرِه الذي رأى، فَغَضِبَ الإسرائيليُّ وهو يُريد أن يَبْطِش بالفرْعَونِيّ، فقال للإسرائيلي لِمَا فعل بالأمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾. فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعدما قال له ما قال، فإذا هو غَضْبَانُ كغَضَبه بالأمس الذي قَتَل فيه الفِرْعَونيّ، فخاف أن يكون بعدما قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، أن يكون إيّاه أرادَ، ولم يكن أرادَهُ إنما أراد الفِرْعَونيّ. فخافَ الإسرائيليُّ وقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾، وإنما قَالَه مخافَة أن يكونَ إيّاه أراد موسى لِيقتُلَهُ فَتتاركَا، وانطلقَ الفِرْعَونيُّ فأخبَرهم بما سَمِعَ من الإسرائيليّ من الخبر حين يقولُ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾، فأرسَل فِرْعَونُ الذَّبّاحِينَ ليقتلوا موسى، فأخذ رُسُل فِرْعَون في الطريق الأعظَم يمشُون على هِينَتِهم يطلبون موسى وهم لا يخافُون أن يفوتَهم، فجاء رَجُلٌ من شِيعَةِ مُوسَى من أقصى المدِينةِ، فاختَصر طريقاً حتى سَبَقَهم إلى موسى، فأخبره الخبر؛ وذلك من الفُتون يا ابن جُبَير.

فَخرج مُوسى مُتَوجِّهاً نحو مَديَن، لم يَلْقَ بلاءَ قبل ذلك، وليس له بالطَّريق عِلْمٌ إلا حُسْنُ ظَنِّه بربِّه عزَّ وجلَّ؛ فإنه قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، يعني بذلك حابستين غَنَمَهُمَا، فقال لهما: ما خَطْبُكما مُعتزلَتين لا تَسْقِيان مع الناس؟ فقالتا: ليس لنا قُوّة نُزَاحِمُ القَوْمَ، وإنما ننتظر فُضُول حِياضِهِم. فسَقَى لهما، فجعل يغترفُ في الدلو ماءً كثيراً، حَتَّى كان أوَّل الرِّعاءِ. فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما. وانصرف موسى ـ عليه السلام ـ فاستظلَّ بِشَجَرةٍ، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. واستنكر أبوهما سُرعَةَ صُدُورهما بغَنَمِهما حُفَّلاً بِطَاناً فقال: إنَّ لكما اليوم لَشأناً. فأخبرتاه بما صَنع موسى. فأمر إحداهما أن تَدْعُوَه، فأتَت موسى فَدَعَته، فلما كلَّمه قال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ليس لفرعون ولا لِقَوْمِه علينا سُلطان، ولسنا في مَمْلَكته، فقالت إحداهما: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾. فاحتمَلَتْهُ الغيرةُ على أن قال لها: ما يُدْرِيكِ ما قُوّته؟ وما أمانته؟ قالت: أما قُوّته فما رأيتُ منه في الدَّلْو حين سقى لنا، لم أرَ رجلاً قَطُّ أقْوَى في ذلك السَّقْي منه، وأما الأمانةُ فإنه نَظَر إليّ حين أقبلتُ إليه وشَخَصْتُ له، فلما عَلِم أني امرأةٌ صَوَّب رأسه فلم يَرْفَعه حتى بَلَّغته رِسالَتك. ثم قال لي: امشِي خَلْفِي، وانْعَتي لي الطريقَ، فلم يفعَلْ هذا إلا وهو أمينٌ. فسُرِّي عن أبيها وصَدَّقها، وَظنَّ به الذي قالت، فقال له: هل لك ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]. ففعل، فكانت على نَبيِّ الله موسى ثَماني سنينَ واجبةٌ، وكانت سنتان عِدَةً منه، فَقَضى الله

(١) الآيات السابقة في هذا الحديث كلها من سورة القصص، الآيات ٧ ـ ٢٧.

عنه عِدتَه فَأَتَمَّها عَشراً. قالَ سَعِيدٌ، وهو ابنُ جُبَير: فَلَقِيَني رجلٌ من أهلِ النَّصرانية من عُلَمائهم، قال: هل تَدرِي أيَّ الأجلين قَضَى موسى؟ قلت: لا ـ وأنا يومئذ لا أدري ـ فَلَقِيتُ ابنَ عباس، فَذَكرتُ ذلك له، فقال: أما عَلِمْتَ أن ثَمانياً كانت على نَبِيِّ الله واجِبةً، لم يكن نبيُّ الله لِينقُصَ منها شيئاً، ويعلَمُ أنَّ الله كان قَاضِياً عن موسى عِدَتَه التي وعَدَه فإنه قَضَى عشر سِنين. فَلَقِيت النصرانيَّ فأخبرتُه ذلك، فقال: الذي سألتَه فأخبَرَكَ أعلَمُ منك بذلك. قلت: أَجَلْ، وأَوْلَى.

فلما سار موسى بأهله كان من أَمْرِ النار والعَصَا ويَده ما قَصَّ الله عليكَ في القرآن، فَشَكا إلى الله سبحانه ما يتخوَّف من آل فِرْعَون في القَتيل وعُقْدَةَ لسانه، فإنه كان في لسانه عُقدةٌ تمنعه من كَثيرٍ من الكلام، وسَأَل ربَّه أن يُعينه بأخيه هارونَ، يكون له رِدْءاً، ويتكلَّم عنه بكثير مما لا يُفصِحُ به لسانُه. فآتاه الله سُؤْلَه، وحَلَّ عُقْدَةً من لسَانِهِ، وأوحى الله إلى هارونَ وأمَره أن يَلْقَاه. فاندفع موسى بعَصَاه حتى لقِي هارونَ ـ عليهما السلام ـ فانطلقا جميعاً إلى فِرْعَونَ، فأقاما على بابه حيناً لا يُؤْذَنُ لهما، ثم أُذِن لهما بعد حِجَابٍ شديد، فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ [طه: ٤٧ ـ ٤٩]. فأخبره بالذي قَصَّ الله عَليك في القرآن. قال: فما تُريدان؟ وذَكَّرَه القَتِيل، فاعتَذر بما قد سَمِعْتَ. قال: أريد أن تؤمن بالله، وتُرْسِل معي بني إسرائيل. فَأَبى عليه وقال: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. فَألقَى عصاه فَإذا هي حَيَّةٌ تسعَى عظيمةٌ فاغرَةٌ فاها، مُسرعةٌ إلى فِرْعَون. فلما رآها فِرْعَون قاصدةً إليه خَافَها، فاقتحَم عن سريره واستغاث بِمُوسَى أن يَكُفَّها عنه. ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاءَ من غير سُوءٍ ـ يعني من غير بَرَص ـ ثم رَدَّها فعادت إلى لونها الأول. فاستشار الملأ حولَه فيما رأى، فقالوا له: هذانِ ساحران ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣] ـ يعني مُلْكَهم الذي هم فيه والعيشُ ـ فَأَبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طَلَب، وقالوا له: اجمع لهما السَّحرة، فإنَّهم بأرضك كثيرٌ حتى تَغْلِب بِسِحْرِك سِحْرَهما. فأرسل إلى المدائن فَحَشَر له كُلَّ ساحر مُتَعالِم، فلما أَتَوا فِرْعَونَ قالوا: بِمَ يعمَلُ هذا الساحرُ؟ قالوا: يعمَلُ بالحيَّاتِ. قالوا: فلا والله ما أحدٌ في الأرض يعملُ بالسِّحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمَلُ. وما أَجْرُنا إن نحنُ غَلَبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصَّتي، وأنا صانع إليكم كُلَّ شيءٍ أَحْبَبْتُم. فتواعدوا يومَ الزينة، ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

قال سعيد بن جُبَير: فَحَدَّثني ابنُ عباسٍ أَنَّ يومَ الزينة اليومُ الذي أظهر الله فيه مُوسَى على فِرْعَونَ والسَّحرَةِ، هُوَ يوم عاشُورَاء. فلما اجتمعوا في صَعِيدٍ قال الناسُ بعضُهم لبعضٍ: انطلِقُوا فَلْنحضُرْ هذا الأَمْرَ، ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء: ٤٠]، يعنُونَ موسى وهارون استهزاءً بهما، فقالوا: يا مُوسَى ـ لقُدْرَتِهم بِسِحرهم ـ ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]. ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ [طه: ٦٦]. ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء: ٤٤]. فَرَأى مُوسَى من سِحْرِهم ما أوجسَ في نفسه خِيفَةً، فأوحى الله إليه أن ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمةً فاغرةً فاها، فجعلت العِصِيُّ تلتبس بالحبال حتى صارت جَزَراً إلى الثعبان تدخُل فيه، حتى ما أبقت عَصاً ولا حَبْلاً إلا ابتلعَتْه، فلما عَرَفَ السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سِحراً لم يبلُغ من سِحرنا كُلَّ هذا، ولكنه أَمْرٌ من الله ـ عز وجلَّ ـ آمنَّا بالله وبما جاء به موسى، ونَتُوب إلى الله مما كُنَّا عليه. فَكَسَر الله ظَهر فِرْعَونَ في ذلك الموطن وأشياعِهِ، وظهرَ الحقُّ، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: ١١٨، ١١٩] وامرأة فرعون بارِزَةٌ مُتَبَذِّلة تدعو الله بالنَّصر لموسَى على فرعَونَ وأشياعه، فمن رَآها من آل فِرْعَون ظَنَّ أنها إنما ابتذَلتْ للشفقَةِ على فِرْعَونَ وأشياعِهِ، وإنما كان حُزنُها وهَمُّها لِمُوسَى.

فلما طال مُكثُ مُوسَى بِمَوَاعِيدِ فِرْعَونَ الكاذبة، كُلَّما جاء بآية وَعَده عندها أن يُرْسِلَ معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلَفَ موْعِدَه وقالَ: هل يستطيع رَبُّك أن يصنع غَيْرَ هذا؟ فأرسل الله على قومه الطُّوفَانَ والجَرَادَ والقُمَّل والضفادِعَ والدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ، كُلُّ ذلك يشكو إلى مُوسَى ويَطلُب إليه أن يكفَّها عنه، ويُواثِقُه على أن يُرسِلَ معه بني إسرائيلَ، فإذا كُفَّ ذلك عنه أخلَفَ مَوْعِدَه، ونَكَثَ عَهْدَه. حتى أَمَرَ الله موسى بالخُروج بقومه فَخَرج بهم ليلاً، فلما أصبَحَ فِرْعَونُ ورأى أنّهم قد مضَوا أرسَلَ في المدائن حاشِرِينَ، فَتَبِعه بجنودٍ عظيمةٍ كثيرةٍ، وأوحى إلى البحر؛ إذا ضَرَبك عَبْدِي موسى بعصاه فانْفَلِقِ اثنتي عشرة فِرْقَةً، حتى يجوزَ موسى ومن مَعَه، ثم الْتَقِ على من بَقِي بعدُ من فِرْعَونَ وأشياعِهِ. فَنَسِيَ موسى أن يضرِبَ البحرَ بالعَصَا، وانتهَى إلى البَحْرِ وله قَصِيفٌ مخافَةَ أن يَضْرِبَه موسى بعصاه وهو غافلٌ فَيَصِيرَ عاصياً لله.

فلما تراءى الجمعان وتَقاربا، ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] افعَلْ ما أمرَكَ به ربُّك، فإنه لم يَكْذِبْ ولم تَكْذِبْ: قال: وَعَدَني إذا أتيتُ البحرَ انفرق اثنتي عشرةَ فرقةً حتى أُجاوِزَه. ثم ذَكَر بعد ذلك العَصَا، فضرَبَ البحرَ بعصَاه حين دَنا أوائلُ جُنْدِ فِرْعَونَ من أواخر جُنْدِ موسى، فانفرَق البحرُ كما أمره ربُّه وكما وَعَد موسى، فلما أن جازَ موسى وأصحابُه كُلُّهم البحرَ، ودَخل فرعونَ وأصحابُه، التقى عليهم البحرُ كما أُمِرَ، فلما جاوَزَ موسى البحرَ قال أصحابه: إنا نخافُ ألاَّ يكونَ فِرْعَونَ غَرِق ولا نُؤمِنُ بهلاكه. فدعا ربَّه فأخرَجَه له بِبَدَنِه حتى استيقنُوا بِهَلاكِهِ. ثم مَرُّوا بعد ذلك على قوم يعكُفون على أصنام لَهُم ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]، قد رأيتُم من العِبَرِ وَسمِعتُم ما يكفيكُم ومَضَى. فأنزلهم موسى منزلاً وقال: أطِيعُوا هارونَ فإني قد استخلفتُه عليكم، فإني ذاهب إلى ربي. وأجَلَهَم ثلاثين يوماً أن يرجعَ إليهم فيها. فلما أتى ربَّه وأراد أن يُكَلِّمه في ثلاثين يوماً وقد صامَهُنَّ ليلهُنَّ ونهارهُنَّ، وكَرِه أن يُكلِّم رَبَّه وريحٌ فيه ـ ريحُ فَمِ الصائم ـ فتناولَ موسى من نبات الأرض شيئاً فَمضَغَه، فقال له رَبُّه حين أتاه: لِمَ أفطَرْتَ؟ ـ وهو أعلم بالذي كان ـ قال: يَا ربِّ، إني كرهتُ أن أُكلِّمكَ إلا وفمي طَيِّب الريح. قال: أو مَا عَلِمْتَ يا موسى أن ريح فَمِ الصَّائِم أطيبُ من رِيحِ المِسْكِ، ارجع فَصُمْ عشراً ثم ائتِني. فَفَعل مُوسَى ـ عليه السلام ـ ما أُمِرَ به.

فَلَمَّا رأى قومُ موسى أنه لم يَرْجع إليهم في الأجل ساءَهُم ذلك. وكان هارون قد خَطَبهم وقال: إنكم قد خَرَجتُم من مصر، ولِقَوْم فرعون عندكم عَوَارِيُّ وَوَدائعُ، ولكم فيهم مثلُ ذلك، وأنا أرى أنكم تحتسِبُون مالكم عندهم، ولا أُحلُّ لكم وَديعةً استُودِعتُمُوها ولا عاريَّةً، ولسنا بِرَادِّين إليهم شيئاً من ذلك ولا مُمْسِكيه لأنفسنا، فَحَفر حَفِيراً، وأمَر كُلَّ قوم عندهم من ذلك من متاع أو حِلْيَةٍ أن يَقذِفُوه في ذلك الحَفِير، ثم أوقد عليه النارَ فأحرَقَه، فقال: لا يكون لَنا ولا لَهُم. وكان السامريُّ من قوم يَعبُدونَ البقَر جيرانٍ لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيلَ، فاحتَمَل مع موسى وبني إسرائيل حين احتَمَلوا، فَقُضِي له أن رأى أثراً فقبَضَ منه قَبضةً، فمرَّ بهارونَ، فقال له هارُون ـ عليه السلام ـ: يا سامريُّ، ألا تُلقِي ما في يَدِكَ؟ وهو قابضٌ عليه، لا يَرَاه أَحَدٌ طَوَالَ ذلك، فقال: هذه قبضةٌ من أثَر الرسول الذي جاوَزَ بكم البحرَ، ولا أُلقِيها لشيءٍ إلا أن تَدْعُوَا الله إذا أَلقيتُها أن يكونَ ما أريد. فألقاها، ودعا له هارونُ، فقال: أريد أن يكونَ عِجلاً. فاجتمع ما كان في الحَفِيرةِ من متاع أو حِلْيَةٍ أو نُحاسٍ أو حَدِيدٍ، فصار عِجْلاً أجوفَ، ليس فيه روحٌ، له خُوَارٌ. قال ابنُ عباس: لا والله ما كان له صوتٌ قطُّ، إنما كانت الرِّيح تدخُل في دُبُرِه وتخرُج من فيه، فكان ذلك الصوتُ من ذلكَ. فتفرَّق بنو إسرائيل فِرَقاً، فقالت فرقةٌ: يا سامريُّ، ما هذا؟ وأنت أعلمُ به. قال: هذا ربُّكم، ولكن موسى أضلَّ الطريق. وقالت فرقةٌ: لا نُكذِّب بهذا حتى يرجعَ إلينا مُوسَى، فإن كان ربَّنا لم نكن ضَيَّعناه وعَجَزنا فيه

حين رأينا وإن لم يكن رَبَّنا فإنا نتَّبِعُ قولَ موسى. وقالت فرقةٌ: هذا عَمَلُ الشيطان، وليس بِرَبِّنا ولا نُؤمِن به ولا نُصَدِّق، وَأُشْرِبَ فرقةٌ في قلوبهم الصِّدْقَ بما قال السَّامِرِيُّ في العجل وأَعْلَنُوا التَّكْذِيبَ به، فقال لهم هارون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [طه: ٩٠] وليس هكذا. قالوا: فما بالُ موسى وَعَدَنا ثلاثين يوماً ثُمَّ أخلفنا؟ هذه أربعونَ يوماً قد مضت. وقال سفهاؤُهم: أخطأ ربَّه فهو يطلُبه ويتبَعُه. فلما كلم الله موسى وقال له ما قال: أخبره بما لَقِيَ قَوْمُه من بعده، ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾، فقال لهم ما سَمِعتُم في القرآن، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وألقى الألواحَ من الغَضب، ثم إنه عَذَر أخاه بعُذْرِه، واستغفر له، وانصرف إلى السامريِّ فقال له: ما حَمَلك على ما صنعتَ؟ قال: قبضتُ قَبْضَةً من أَثَرِ الرسول، وفَطِنتُ لها وعُمِّيتْ عليكم، ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٦، ٩٧]، ولو كان إلهاً لم يُخلَصْ إلى ذلك منه. فاستيقن بَنُو إسرائيلَ بالفتنةِ، واغتبطَ الذين كان رأيُهم فيه مثلَ رَأْيِ هارونَ، فقالوا لجماعَتِهم: يا موسى، سَلْ لنا ربَّك أن يفتَحَ لنا بابَ توبةٍ نصنَعُها، فَيُكفِّر عنا ما عملنا. فاختار موسى قومَه سبعين رجلاً لذلك، لا يَأْلُوا الخيرَ خيار بني إسرائيل، ومن لم يُشرِك في العِجل، فانطلق بهم يسأَلُ لهم التوبة، فَرُجِفَت بهم الأرضُ، فاستحيا نبيُّ الله مِنْ قومِهِ ومن وَفْدِه حينَ فُعِل بهم ما فُعِل، فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وفيهم من كان الله اطَّلَعَ منه على ما أُشرِبَ قلبُه من حُبِّ العجل وإيمانٍ بِهِ، فلذلك رَجَفَتْ بهم الأرضُ، فقال: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧]. فقال: يا ربِّ، سألتُكَ التوبةَ لقومي، فقلت: إنَّ رحمتي كتبتُها لقوم غير قومي، فَلَيتك أَخَّرتني حتى تُخرجني في أُمَّةِ ذلك الرَّجُلِ المَرْحُومَةِ. فقال له: إنَّ توبتهم أن يَقْتُلَ كُلُّ رجل منهم مَنْ لقي من وَالِدٍ وَوَلَدٍ، فَيَقتله بالسيف ولا يبالي من قَتَلَ في ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خَفِيَ على مُوسَى وهارونَ واطَّلع الله من ذُنُوبِهِمْ فاعتَرَفُوا بها، وَفَعلوا ما أُمِرُوا، وغَفَرَ الله للقاتِلِ والمقتُولِ.

ثم سار بهم موسى ـ عليه السلام ـ مُتَوجِّهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواحَ بعدما سَكَت عنه الغضبُ، فأمرهم بالذي أَمره به أن يُبَلِّغهم من الوظائف، فَثَقُلَ ذلك عليهم، وأَبَوْا أن يُقِرُّوا بها، فَنَتق الله عليهم الجَبَل كأنه ظُلَّةٌ، وَدَنا منهم حتى خَافُوا أن يَقَع عليهم، فأخذوا الكتابَ بأيمانهم وهم مُصغُونَ ينظرُون إلى الجَبَل، والكتابُ بأيديهم، وهُم من وراءِ الجَبَل مخافَةَ أن يَقَعَ عليهم. ثم مَضَوا حتى أَتَوا الأرضَ المُقَدَّسَةَ، فوجَدُوا مدينةً فيها قومٌ جبَّارونَ، خَلْقُهُمْ خَلْقٌ مُنكَرٌ ـ وذَكَروا من ثِمارهم أمراً عجيباً من عِظَمها ـ فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ لا طاقَةَ لنا بهم، ولا ندخُلُها ما داموا فيها، ﴿فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ ـ قيل ليزيدَ: هكذا قَرَأه؟ قال: نعم، من الجبَّارين ـ آمنا بِموسى. وخَرَجا إليه، فقالوا: نحن أعلمُ بقومنا، إن كنتم إنما تَخافون ما رأيتُم من أجسامهم وعَدَدِهم، فإنَّهم لا قُلُوبَ لهم ولا مَنَعة عندهم، فادخُلوا عليهم الباب، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾، ويقول أناس: إنهما من قوم موسى ـ فقال الذين يَخافُون، بَنُو إسرائيل: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1] . فأغضَبُوا موسى، فدعا عليهم وسَمَّاهم فاسقين، ولم يَدْعُ عليهم قبل ذلك، لِما

---

(١) الآيات السابقة من سورة المائدة، ٢٢ ـ ٢٤.

رأى منهم من المعصِيَة وإساءتهم، حتى كان يومئذٍ فاستجاب الله تعالى له، وسَمَّاهم كما سَمَّاهم موسى: فاسقين، فَحَرَّمها عليهم أربعين سنَةً يَتيهونَ في الأرْضِ، يُصبِحُون كلَّ يوم فَيَسيرُون ليس لهم قَرَارٌ. ثم ظَلَّل عليهم الغَمَام في التِّيه، وأنزل عليهم المنَّ والسَّلْوَى، وجعل لهم ثياباً لا تَبْلَى ولا تَتَّسِخُ، وجعل بين ظهرانَيهم حَجَراً مُربَّعاً، وأمر موسى فَضَرَبه بعصاه، ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]، في كل ناحيةٍ ثلاثُ أعينٍ، وأعْلَم كُلَّ سِبْط عَيْنَهُم التي يشربُون منها، فلا يَرْتَحلُون من مَرحلة إلا وَجَدُوا ذلك الحَجَر بينهم بالمكانِ الذي كانَ فيه بالأمسِ. رفع ابنُ عباس هذا الحديثَ إلى النبي ﷺ وصَدَّقَ ذلك عندي أن معاوية سَمِعَ ابن عباس حَدَّثَ هذا الحديثَ، فأنكر عليه أن يكون الفِرْعَوني الذي أفشَى على موسى أمْرَ القتيل الذي قَتَل، فقال: كيف يُفشِي عليه ولم يكن عَلِمَ به ولا ظَهَرَ عليه إلا الإسرائيليُّ الذي حَضَر ذلك؟ فَغَضِبَ ابنُ عباس، فأخذ بِيَدِ مُعاوية فانطلقَ به إلى سَعْد بن مالك الزُّهريِّ، فقال له: يا أبا إسحاقَ، هل تذكُرُ يومَ حَدَّثَنا رسولُ الله ﷺ عن قَتِيل موسى الذي قَتَل من آل فِرعون؟ الإسرائيليّ الذي أفشَى عليه أم الفِرْعَوني؟ قال: إنما أفشَى عليه الفِرْعَونيُّ بما سمع من الإسرائيليّ الذي شَهِد على ذلك وحَضَره[١]. هكذا رواه الإمام النسائيُّ في «السُّنَن الكبرى»، وأخرجه أبو جعفر بن جَرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما، كلُّهم من حديث يزيد بن هارون، به. وهو موقوفٌ من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوعٌ إلا قليلٌ منه، وكأنه تلقاه ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ مما أُبيح نقله من الإسرائيليات عن كَعْب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسَمِعتُ شيخنا الحافظ أبا الحجاج المِزِّيّ يقولُ ذلك أيضاً.

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً لموسى ـ عليه السلام ـ: إنه لَبِث مُقيماً في أهل مَدْيَنَ فاراً من فرعون وَمَلَئِهِ، يَرْعَى على صهره، حتى انتهت المدَّةُ وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لِقَدَرِ الله وإرادته من غير ميعاد، والأمرُ كلُّه لله تبارك وتعالى، وهو المسَيِّر عباده وخَلْقه فيما يشاء، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾، قال مجاهد: أي على مَوْعِدٍ. وقال عبد الرزّاق، عن مَعْمرٍ، عن قتادةَ في قوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾، قال: على قَدَرِ الرِّسالة والنبوة. وقولُه: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾، أي: اصطفيتُكَ واجتبيتُكَ رَسُولاً لنفسي، أي: كما أُريد وأشاء.

[٤٥٤٥] وقال البخاري عند تَفْسِيرها: حدثنا الصَّلْتُ بن محمد، حدثنا مَهْدِيُّ بن مَيمُونٍ، حدثنا

(١) أخرجه بطوله النسائي في «الكبرىٰ» ١١٣٢٦ وأبو يعلىٰ ٢٦١٨ والطبري ٢٤١٣١ قال ابن كثير رحمه الله: وهو موقوف، ليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وفيما قاله ابن كثير نظر، فإن الراوي ذكر في آخر الحديث أن ابن عباس رفع هذا الحديث، والمراد بذلك كل الحديث. والإسناد ضعيف بكل حال مداره علىٰ أصبغ بن زيد، جاء في «الميزان» ١٠١٠: وثقه يحيىٰ، وقال النسائي: ليس به بأس، وقال الدارقطني: ثقة، وقال ابن عدي وقد ساق له ثلاثة أحاديث: وهذه غير محفوظة، وهو راوي حديث الفتون. وزاد الحافظ في التهذيب ١/٦٥٦: وقال أبو زرعة: شيخ، وقال أبو حاتم: ما بحديثه بأس، وقال ابن سعد: كان ضعيفاً في الحديث، وقال ابن حبان: كان يخطىء كثيراً، لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد، وقال مسلمة بن قاسم: ليّن، ليس بحجة أهـ فتلخص بهذا أن الجمهور علىٰ توهينه، وأنه إلىٰ الضعف أقرب، ولم يتابعه علىٰ هذا الحديث أحد، فالمرفوع ليس بصحيح سواء بعضه، أو كله، وأما كونه موقوفاً، فليس ببعيد، فإن ابن عباس، روىٰ أشياء عن أهل الكتاب كما ذكر غير واحد، وهو الذي اختاره ابن كثير ههنا، وكذا شيخه المزي، والله تعالىٰ أعلم.

محمد بن سِيرينَ، عن أبي هُريرَةَ، عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدمُ وموسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيتَ الناسِ وأخرجتَهم من الجنة؟ فقال آدم: أنتَ الذي اصطفاكَ الله برسالاته، واصطفاك لنفسِهِ، وأنزل عليك التوراةَ؟ قال: نعم. قال: فوجدتَهُ قد كَتَبَ عَليَّ قبل أن يخلُقني؟ قال: نَعَم. فَحَجَّ آدمُ موسى»[1]. أخرجاه.

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾، أي: بحُجَجِي وبراهيني ومعجزاتي، ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾، قال علي بن أبي طلحَةَ، عن ابن عباس: لا تُبْطِئا. وقال مجاهد، عن ابن عباس: لا تَضْعُفا. والمرادُ أنَّهما لا يَفْتُران في ذِكْرِ الله، بل يَذْكُران الله في حالِ مواجهةِ فِرْعَون، ليكون ذِكْرُ الله عَوْناً لهما عليه، وقُوَّةً لهما وسلطاناً كاسِراً له؛ كما جاء في الحديث:

[٤٥٤٦] «إن عَبْدِي كلّ عبدي لَلّذِي يذكُرُني وهو مُناجِزٌ قِرْنَه»[2]. ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾، أي: تَمرَّد وعَتَا وتَجهرم على الله وعَصَاه، ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾، هذه الآية فيها عِبرةٌ عظيمة، وهو أن فِرْعَون في غاية العُتُوِّ والاستكبار، وموسى صَفْوَةُ الله من خَلْقِهِ إذ ذاك، ومع هذا أُمِرَ ألاَّ يخاطب فِرْعَونَ إلا بالملاطفة واللِّين، كما قال يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ عند قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: يا مَن يتحبَّبُ إلى من يعاديه، فكيف بمن يَتَولاه ويُناديِه؟ وقال وهب بن مُنَبه: قولا له: إني إلى العَفْوِ والمغفِرَةِ أقرب مِنّي إلى الغَضَبِ والعُقُوبَةِ. وعن عِكْرِمَة في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، قال: لا إله إلاَّ الله. وعن عَمْرو بن عُبَيد، عن الحسن البَصْريّ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: أَعْذِرا إليه، قُولاً له: إنَّ لك ربّاً، ولكَ مَعاداً، وإنَّ بين يَدَيْك جَنَّةً وناراً. وقال بقيَّةُ، عن علي بن هارونَ، عن رجل، عن الضَّحاك بن مُزَاحِم، عن النَّزَّال بن سَبْرة، عن علي في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، قال: كَنِّهِ. وكذا رُوِيَ عن سُفيانَ الثَّورِيِّ: كَنِّه بأبي مُرَّةَ. والحاصلُ من أقوالهم أنَّ دعوتهما له تكون بكلام رقيق لَيِّن قَرِيبٍ سَهْلٍ، لِيَكُون أوقعَ في النفوس وأبلغَ وأنجعَ، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]... الآية. وقوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أي لعلّه يرجع عما هو فيه من الضّلال والهلكة، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أي: يُوجِدُ طاعةً من خشيةِ ربِّه، كما قال تعالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، فالتذكُّرُ: الرجوعُ عن المحذُورِ، والخشيةُ: تَحصِيلُ الطَّاعَةِ. وقال الحسنُ البَصرِيّ: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، يقول: لا تَقُلْ أنتَ يا موسى وأَخُوكَ هارون: أَهْلِكْه، قبل أن تُعذِرا إليه.

وها هنا نذكُر شعرَ زَيدِ بنِ عَمرو بن نُفَيل، ويُرْوَى لأُمَيّة بن أبي الصَّلْتِ فيما ذَكَره ابنُ إسحاق:

وَأَنْتَ الذي مِنْ فَضْلِ مَنٍّ وَرحْمةٍ ... بَعَثْتَ إلى مُوسَى رَسُولاً مُنَادِيا
فَقُلْتَ له: فاذهَبْ وَهارُونَ فادعُوَا ... إلى الله فِرعونَ الذي كانَ بَاغِيَا
فَقُولا له: هَلْ أَنْتَ سَوَّيتَ هَذِهِ ... بِلاَ وَتِدٍ حتَّى اسْتَقلَّتْ كَمَا هِيَا؟
وَقُولا لَه: آأنت رَفَعْتَ هذِهِ ... بِلا عَمَدٍ؟ أَرْفِقْ إذاً بِكَ بَانِيا
وَقُولاَ لَه؛ آأنت سَوَّيت وَسْطَها ... مُنِيراً إذا ما جَنَّهُ اللَّيلُ هَادِيا؟
وقُولاَ له: مَنْ يُخرِجُ الشَّمْسَ بُكْرَةً ... فَيُصْبِحَ مَا مَسَّتْ مِنَ الأرْضِ ضَاحِيا؟

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٣٦ ومسلم ٢٦٥٢ من طريق ابن سيرين به.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٥٨٠ من حديث عمارة بن زعكرة وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلاَّ من هذا الوجه، ليس إسناده بالقوي اهـ. قلت: فيه عفير بن معدان، وهو ضعيف الحديث.

وقولاً له: مَنْ يُنْبِتُ الحَب في الثّرى ... فَيُصبِحَ منه البَقْلُ يَهتَزُّ رَابِيَا؟
ويُخْرِجُ مِنْهُ حَبّه في رُؤوسه ... فَفِي ذاكَ آياتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ أنهما قالا مُستجيرَين بالله تعالى شاكيَيْن إليه: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾، يعنيان أن يَبْدُرَ إليهما بعُقوبةٍ، أو يعتدي عليهما فيعاقِبَهما وهما لا يستحقان منه ذلك. قال عبدُ الرحمن بن زيد: ﴿أَن يَفْرُطَ﴾: يَعْجَل. وقال مجاهد: يَبْسُطَ علينا. وقال الضّحّاكُ، عن ابن عبّاسٍ: ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾: يَعْتَدِيَ. ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، أي: لا تَخافا منه، فإنني معكما أسمعُ كَلامَكما وكَلامَه، وأرى مَكانكما ومَكانه، لا يخفى عَليَّ من أمركم شيءٌ، واعلَما أنَّ ناصِيتَه بِيَدي، فلا يَتكلَّم ولا يَتنفَّسُ ولا يَبْطِشُ إلا بإذني وبعد أمري، وأنا مَعَكُما بِحفْظي ونَصْري وتأْييدي.

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا عَلي بن محمد الطّنَافِسِيُّ، حدثنا أبو معاويةَ، عن الأعمش، عن عَمْرو بن مُرّة، عن أبي عُبيدة، عن عبد الله قال: لما بعث اللَّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ موسى إلى فِرْعَونَ قال: ربِّ، أيَّ شيءٍ أَقُولُ؟ قال: قُلْ: هيا شر هيا. قال الأعمشُ: تفسير ذلك. الحيُّ قبل كلِّ شيءٍ، والحيُّ بعدَ كلّ شيءٍ[1]. إسناد جيد، وشيء غريبٌ. ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، قد تَقَدَّم في حديثِ «الفُتُونِ» عن ابن عبّاسٍ أنه قال؛ مَكَثا على بابِهِ حيناً لا يُؤذَنُ لهما، ثم أَذِن لهما بعد حِجابٍ شَدِيدٍ.

وذكر مُحمَّد بن إسحاقَ بن يَسارٍ: أنَّ موسى وأخاه هارونَ خرجا فوقفا بباب فِرْعَونَ يَلتمِسانِ الإِذْنَ عليه وهما يَقُولان: إنا رُسُل ربِّ العالمين، فآذِنُوا بنا هذا الرجُلَ. فمكَثا فيما بلغني سنتين يَغْدُوان ويَرُوحَان، لا يعلَمُ بهما ولا يجترىءُ أحدٌ على أن يُخبِرَه بشأنهما، حتى دخل عليه بَطّالٌ له يُلاعِبُه ويُضحِكُه، فقال له: أيُّها الملك، إنَّ على بابك رَجُلاً يقول قولاً عجباً، يزعُم أنَّ له إلهاً غيرَكَ أرسلَه إليكَ. قال: ببابي؟ قال: نعم. قال: أدخِلُوه. فَدَخل ومعه أخوه هارونُ وفي يده عَصَاه، فلما وَقَف على فِرْعَونَ قال: إني رسولُ ربِّ العالمين، فَعَرَفَه فِرْعَونُ. وذكر السّدّي أنه لما قَدِم بلاد مِصْرَ، ضاف أُمَّه وأخاه وهما لا يَعْرِفانه، وكان طَعَامُهم لَيْلَتَئِذٍ الطُّفَيْشَلَ وهو اللِّفْتُ، ثم عَرَفاه وسَلَّما عليه، فقال موسى: يا هارونُ، إن ربِّي قد أمرني أن آتيَ هذا الرجلَ فِرْعَونَ فأدعُوه إلى الله، وَأمر أن تُعاوِنَني. قال: افعَلْ ما أمرَكَ ربُّك. فَذَهبا، وكان ذلك ليلاً، فَضَرَبَ موسى بابَ القصر بِعَصَاه، فسمع فِرْعَونُ فغضب وقال: من يجترىء على هذا الصَّنيع؟ فأخبره السّدنة والبَوّابون بأن ها هنا رجلاً مجنوناً يقول: «إنه رسولُ الله». فقال: عَلَيَّ به. فلما وقفا بين يديه قالا وقال لهما ما ذَكَر اللَّهُ في كتابه.

وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾، أي؛ بِدَلالَةٍ ومُعجِزَةٍ من ربِّك، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، أي: والسلامُ عليكَ إن اتَّبعت الهُدَى.

[٤٥٤٧] ولهذا لَما كَتَب رسولُ اللهِ ﷺ إلى هِرَقْلَ عظيم الروم كتاباً، كان أوَّلَه: «بسم الله الرحمن

---

(١) جوده المصنف! وفيه نظر، فإن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، وفيه عنعنة الأعمش، فالإسناد ضعيف.

الرحيم، من محمد رسول الله إلى هِرَقْل عظيم الروم، سلامٌ على من اتّبع الهُدَى. أما بعدُ، فإني أدعوكَ بدعايةِ الإِسلام، فَأَسْلِم تَسْلَم يُؤتِكَ الله أَجْرَكَ مَرّتَين»[1].

[٤٥٤٨] وكذلك لما كَتَب مُسَيلمة إلى رَسُولِ الله ﷺ كتاباً صُورتهُ: «من مسيلِمَةَ رسول الله إلى محمد رسول الله، سلامَ عليك. أما بعد، فإني قد أُشرِكتُ في الأمر مَعَك، فَلَكَ المَدَرُ ولي الوَبَرُ، ولكن قُريشاً قَومٌ يعتدون». فكتب إليه رسولُ الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكَذّاب، سلامٌ على من اتّبع الهدى، أما بعد فإنَّ الأرضَ لله يُورثُها من يشاءُ من عِباده، والعاقبةُ للمتقّين»[2]. ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لِفرعونَ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾، أي: قد أَخْبَرَنا الله فيما أوحاه إلينا من الوَحْي المعصُوم أنَّ العذاب مُتَمحِّض لمن كَذَّب بآيات الله وَتَولّى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٦]. وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٣١ ـ ٣٢]، أي: كذبَ بِقلْبِهِ وتولّى بِفعْلِهِ.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن فِرْعَونَ أنه قال لموسى مُنكِراً وُجودَ الصّانع الخالق، إلَهِ كلِّ شيءٍ وَربّه وَمَلِيكه، قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾، أي: الذي بعَثك وأرسلك مَنْ هو؟ فإني لا أعرِفُه، وما عَلِمْتُ لكم من إلهٍ غَيري، ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾. قال علي بن أبي طلحَةَ، عن ابن عباس، يقول: خَلَقَ لكل شيءٍ زَوْجة. وقال الضَّحاكُ، عن ابن عباس: جَعَل الإِنسان إنساناً، والحمار حِماراً، والشاةَ شاةً. وقال لَيثُ بن أبي سُلَيم، عن مجاهد: أعطى كُلَّ شيءٍ صُورَته. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: سَوّى خَلْقَ كلِّ دابةٍ. وقال سعيد بنُ جبير في قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، قال: أعطى كُلَّ ذي خَلْق ما يُصلِحه من خَلْقه، ولم يجعل للإِنسان من خَلْق الدابة، ولا للدّابة من خلق الكَلْبِ، ولا للكلب من خَلْقِ الشّاة، وأعطى كُلَّ ذي شَيءٍ ما ينبغي له من النكاح، وهيّأ كُلَّ شيءٍ على ذلك، ليس شيءٌ يُشبه شيئاً من أفعَاله في الخَلْق والرِّزْقِ والنكاح. وقال بعضُ المفسِّرين: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٣]، أي: قَدَّر قدراً، وهَدَى الخلائق إليه، أي: كَتَب الأعمالَ والآجالَ والأرزاقَ، ثم الخلائقُ ماشُونَ على ذلك، لا يَحيدُون عنه، ولاَ يَقدِرُ أحدٌ على الخروج منه. يقول: رَبُّنا الذي خَلَق، وقَدّر القدر، وجَبَل الخَليقة على ما أراد.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾، أصحُ الأقوالِ في معنى ذلك أَنّ فِرْعَونَ لما أخبرَه مُوسى بأنَّ ربّه الذي أرسله هو الذي خَلَق ورزَقَ وقدَّر فهدى، شَرَعَ يحتج بالقُرون الأولى، أي: الذين لم يَعبُدوا الله، أي: فما بالُهم إذ كان الأمرُ كما تقول لم يعبُدوا رَبّك، بل عبدُوا غيره؟ فقال له موسى في جَواب ذلك: هُم وإن لم يعبدُوه، فإنَّ عَمَلهم عند الله مضبوطٌ عليهم، وسَيَجْزيهم بعَمَلِهم في كتاب الله، وهو اللوحُ المحفوظُ وكتابُ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧ وقد تقدم.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٢٠٩ في أثناء خبر طويل عن ابن عباس والمسور بن رفاعة وعمرو بن أُمية وغيرهم، وفي الإِسناد الواقدي، وهو إمام في المغازي لكنه واهي الحديث، ولكن الشواهد تعضده.

الأعمال، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، أي: لا يَشِذُّ عنه شيء، ولا يفوتُه صغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا ينسَى شيئاً. يَصِفُ علمه تعالى بأنه بكلِّ شيءٍ محيطٌ، وأنه لا ينسَى شيئاً، تبارك وتعالى وتَقَدَّس، فإنَّ علم المخلوقِ يَعتريه نُقصانانِ، أحدُهما: عَدَمُ الإحاطةِ بالشيءِ، والآخرُ نِسيانُه بعد عِلْمِهِ، فَنَزَّه نفسَه عن ذلك.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾

هذا من تمام كلام مُوسَى فيما وصف به ربَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ حين سأله فِرْعَون عنه، فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهاداً﴾[1]، وفي قراءة بعضهم: ﴿مَهْدًا﴾، أي: قَراراً تَستقِرُّون عليها وتَقُومون وتنامون عليها وتُسافِرُون على ظهرها، ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، أي: جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾. أي: من ألوان النباتات من زُرُوعٍ وثِمار، من حامِضٍ وحُلْوٍ، وسائر الأنواع. ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾، أي: شيءٌ لطعامكم وفاكهتكم، وشيءٌ لأنعامكم لأقواتها خضراً ويابساً. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ﴾، أي: لدلالات وحُجَجاً وبراهينَ ﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾، أي: لِذَوِي العُقول السليمة المستقيمة، على أنّه لا إلهَ إلا الله، ولا ربَّ سواه. ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾، أي: من الأرض مَبدَؤكم، فإنَّ أباكم آدمُ مخلوقٌ من تُرابٍ من أَدِيم الأرْض، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، أي: وإليها تَصِيرون إذا مِتّم وبَلِيتُم، ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾، ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥٢]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٥].

[٤٥٤٩] وفي الحديث الذي في السُّنن أن رسولَ الله ﷺ حَضَر جنازةً، فلما دُفِن الميتُ أخذَ قبضةً من التُّراب فألقاها في القبر ثم قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ﴾. ثم أَخَذَ أُخرى وقال: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾. ثم أُخرَى وقال: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾. وقولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾، يعني فِرْعَون، أنه قامت عليه الحُجَجُ والآياتُ والدَّلالاتُ، وعايَنَ ذلك وأبصَرَه، فكذَّب بها وأباها كُفراً وعِناداً وبَغْياً، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن فِرْعَون أنه قال لموسَى حين أراه الآيةَ الكُبرى، وهي إلقاءُ عصاه فصارَتْ ثعباناً عَظِيماً، ونَزَع يده من تحتِ جَناحِهِ فخرجت بيضاءَ من غير سُوءٍ، فقال: هذا سحر، جئتَ لِتَسحَرَنا وتستوليَ به على الناس، فيتَّبعونك وتُكاثرنا بهم، ولا يتمُّ هذا معك، فإنَّ عندنا سِحراً مثل سِحرك، فلا يَغُرَّنك ما أنتَ فيه، ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾، أي: يوماً نجتمعُ نحن وأنتَ فيه، فنعارض ما جئتَ به بما عندنا من السحر في مكانٍ مُعَيَّن ووقتٍ مُعيَّن. فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾، وهو يومُ عِيدِهم

(١) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: (مهاداً)، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: (مهداً).

وَتَنَزُّهِهِم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم، ليشاهدَ الناسُ قدرةَ الله على ما يشاء، ومُعجِزاتِ الأنبياء، وبطلانِ معارَضَةِ السِّحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾، أي: جميعهم ﴿ضُحًى﴾، أي: ضَحْوَةَ من النهار ليكونَ أظهرَ وأجلَى وأبْيَنَ وأوضحَ. وهكذا شأنُ الأنبياءِ، كُلُّ أَمْرِهم واضحٌ بيِّنٌ، ليس فيه خَفَاءٌ ولا ترويجٌ. ولهذا لم يقل: ليلاً، ولكن نهاراً ضُحىً. قال ابن عبَّاسٍ: وكان يومُ الزينة يومَ عاشوراء. وقال السديُّ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ: كان يومَ عيدهم. وقال سعيد بن جُبَير: يوم سُوقهم. ولا منافاة. قلت: وفي مثله أهلك الله فِرْعَونَ وجُنودَه، كما ثبت في الصحيح[1]. وقال وهب بن مُنبِّه: قال فِرْعَونُ: يا مُوسَى، اجعَلْ بيننا وبينكَ أجلاً ننظرُ فيه. قال موسى: لم أُومر بهذا، إنما أُمِرْتُ بمُناجَزَتِك، إن أنت لم تخرج دخلت إليك. فأوحى الله إلى موسى أن اجعَلْ بينَكَ وبينَه أجلاً، وقل له أن يجعلَ هو. قال فِرْعَونُ: اجعله إلى أربعين يوماً. ففعل. وقال مجاهدٌ، وقتادةُ: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾، قال: مُنصِفاً. وقال السديُّ: عدلاً. وقال عبدُ الرحمن بن زَيْدِ بن أسلمَ: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾: يَتَبيَّن الناسُ ما فيه، لا يكونُ صَوبٌ ولا شيءٌ يَتَغَيَّبُ بعضُ ذلك عن بَعْضٍ، مُستوٍ حينَ يُرَى.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن فِرْعَونَ أنه لما تواعَدَ هو وموسى ـ عليه السلام ـ إلى وقتٍ ومكان معلومَين، تولَّى، أي: شَرَعَ في جَمْعِ السَّحرةِ من مدائن مملكته، كُلّ من نُسِبَ إلى سِحر في ذلك الزمان. وقد كان السِّحرُ فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس: ٧٩]. ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾، أي: اجتمع الناسُ لميقاتِ يوم معلوم وهو يومُ الزينة، وجلسَ فِرْعَونُ على سَرير مملكته، واصطفَّ له أكابُر دَوْلَتِه، ووقفَت الرعايا يمنةً ويسرةً، وأقبل موسى ـ عليه السلام ـ يتوكأُ على عصاه، ومعه أخوه هارونُ، ووقف السَّحرةُ بين يَدَي فرعون صُفُوفاً، وهو يُحرِّضُهم ويَحُثُّهم، ويُرَغِّبهم في إجادةِ عَمَلهم في ذلك اليوم، وَيَتَمَنَّون عليه، وهو يَعِدُهم ويُمنِّيهم، فيقولون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: ١١٣ ـ ١١٤]. ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: لا تُخيِّلوا للناس بأعمالكم إيجادَ أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله، ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾، أي: يُهلِكَكُم بعقوبةٍ هَلاكاً لا بَقيّة له، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، قيل: معناه أنهم تَشاجَرُوا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحرٍ، إنما هذا كلامُ نبيٍّ. وقائلٌ يقولُ: بل هو ساحرٌ. وقيل غير ذلك. والله أعلم. وقولُه: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾، أي: تناجَوا فيما بينهم، ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾، هذه لغةٌ لبعضِ العَرَبِ جاءت هذه القراءة على إعرابها. ومنهم من قَرَأَ: (إن هذين لساحران)، وهذه اللغةُ المشهورةُ. وقد تَوسَّع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليسَ هذا موضعَه. والغرضُ أن السحرة قالوا فيما بينهم: تَعلمُونَ أنَّ هذا الرجلَ وأخاه ـ يعنون موسى وهارونَ ـ ساحران عالمان خَبيران

---

(١) يأتي عند الآية ٨٢، والمراد يوم عاشوراء.

بصناعةِ السِّحر، يريدان في هذا اليوم أن يَغْلِباكم وقَوْمِكم ويَسْتَوليا على الناس، وتتبعهما العامَّةُ ويُقاتِلاَ فِرْعَونَ وجنودَه، فينتصرا عليه ويُخرِجَاكم من أرْضِكم. وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾، أي: ويستبدَّا بهذه الطريقة، وهي السحر، فإنَّهم كانوا مُعَظَّمِين بسببها، لهم أموالٌ وأرزاقٌ عليها، يقولون: إذا غلب هذانِ أهلكَاكُم وأخرجَاكم من الأرض، وتفرَّدا بذلك، وتَمحَّضَت لهما الرِّياسة بها دُونكم. وقد تقدَّم في حديث الفُتُون عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾، يعني: مُلْكَهم الذي هم فيه والعيش. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نُعَيم بن حَمّاد، حدثنا هُشَيم، عن عبد الرحمٰن بن إسحاق، سَمِع الشعبيَّ يُحدِّث عن عَليٍّ في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾، قال: يَصْرِفان وجوهَ الناس إليهما. وقال مجاهدٌ: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾: قال: أولي الشَّرفِ والعَقْلِ والأنسَابِ. وقال أبو صالح: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾: أشرافكم وسَرَواتكم. وقال عكرمة: بخيركم. وقال قتادة: وطريقتهم المثلى يومئذ بنو إسرائيل، كانوا أكثَرَ القوم عدداً وأموالاً، فقال عدو الله: يُريدان أن يذهبا بها لأنفسهما. وقال عبدُ الرحمن بن زيدٍ: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾، بالذي أنتم عليه. وقوله: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾، أي: اجتَمِعُوا كلُّكم صفاً واحداً، وألقُوا ما في أيديكم مَرَّةً واحدةً، لتبهروا الأبصارَ، وتَغْلِبوا هذا وأخاه، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾، أي: منّا ومنه، أما نحن فقد وَعدنا هذا الملكُ العطاءَ الجزيل، وأما هو فينال الرِّياسة العظيمةَ.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن السَّحَرة حين توافقوا هم وموسى ـ عليه السلام ـ أنهم قالوا لموسى: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾، أي أنتَ أولاً. ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ﴾، أي: أنتم أولاً لنرى ماذا تصنَعُون من السِّحر، وليظهَرَ للناس جَليَّةُ أمرهم، ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾. وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا قالوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]: وقال ها هنا: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾. وذلك أنهم أودَعُوها من الزئبق ما كانت تتحرَّك بسببه وتضطربُ وتَميدُ، بحيث يُخيَّل للناظِرِ أنها تسعَى باختيارها، وإنما كانت حيلةً، وكانوا جَمّاً غفيراً وَجمْعاً كَبيراً، فألقى كلُّ منهم عَصاً وحبلاً، حتى صار الوادي ملآنَ حياتٍ يركَبُ بعضُها بعضاً.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾، أي: خاف على الناس أن يَفْتَتِنُوا بسحرهم ويَغترُّوا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾، يعني عصاه، فإذا هي تلقَّف ما صَنَعوا، وذلك أنها صارت ثعباناً عظيماً هائلاً ذا عيونٍ وقوائمَ وعُنُق ورأسٍ وأضراس، فجعلت تَتبعُ تلك الحبالَ والعصي حتى لم تُبقِ منها شيئاً إلا تَلَقَّفته وابتلعَته، والسحرةُ والناسُ ينظرون إلى ذلك عِياناً جَهْرَةً، نَهاراً ضحوةً. فقامت المعجزةُ، واتَّضح البرهان، ووقع الحق وبَطَلَ السِّحرُ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

[٤٥٥٠] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن موسى الشَّيباني، حدثنا حماد بن خالد،

حدثنا ابن معاذ ـ أحسبه الصائغ ـ عن الحسن، عن جُنْدَب بن عبد الله البَجَليّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أخذتم ـ يعني الساحر فاقتلوه، ثم قرأ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، قال: لا يُؤمَنُ به حيث وُجِد»[1]. وقد رَوَى أصلَه التِّرمذيُّ موقوفاً ومرفوعاً. فلما عاين السحرة ذلك وشاهدُوه، ولهم خبرة بفُنون السِّحر وطُرقه ووُجوهِهِ، عَلِموا عِلْمَ اليقين أنَّ هذا الذي فَعَله موسى ليس من قَبِيل السحر والحيل، وأنه حقٌّ لا مِرْيَةَ فيه، ولا يَقدِر على هذا إلا الذي يقولُ للشيءِ كُن فيكون. فعند ذلك وقَعوا سُجداً لله وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢١ ـ ١٢٢]. ولهذا قال ابن عباس، وعُبَيد بن عُمَير: كانوا أول النهار سَحرةً، وفي آخر النهار شُهَداءَ بَرَرةً. وقال محمدُ بن كعب: كانوا ثمانين ألفاً. وقال القاسم بن أبي بَزَّة: كانوا سبعين ألفاً. وقال السديُّ: بضعةً وثلاثين ألفاً. وقال الثوري، عن عبد العزيز بن رُفَيع، عن أبي ثُمامة: كان سَحَرَةُ فرعون تسعة عَشَرَ ألفاً. وقال محمد بن أبي إسحاق: كانوا خمسةَ عشَرَ ألفاً. وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً. وقال ابنُ أبي حاتِم: حدثنا عَليُّ بن الحُسَين، حدثنا مُحمَّد بن علي بن حَمْزَةَ، حدثنا علي بن الحُسين بن وَاقِدٍ، عن أبيه، عَن يزيدَ النحويِّ، عن عكرمةَ، عن ابن عباسٍ قال: كانت السحرةُ سبعينَ رَجُلاً[2]، أصبحوا سَحرَةً وأمسَوْا شُهَداء.

قال ابنُ بي حاتم: حَدَّثنا أبي، حَدَّثنا المُسيَّبُ بن وَاضِح بمكَّةَ، حَدَّثنا ابنُ المبارَكِ قال: قال الأوزاعيُّ: لما خرَّ السَّحرةُ سُجَّداً رُفِعَتْ لهم الجنَّةُ حتى نَظَرُوا إليها. قال: وذُكِر عن سعيد بن سلاَّم: حدثنا إسماعيلُ بن عبد الله بن سليمان، عن سالم الأفطَس، عن سعيد بن جُبَير. قولُه: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾، قال: رَأوا منازِلَهم تُبنَى لهم وهم في سُجودِهم. وكذا قال عِكْرِمَةُ، والقاسم بن أبي بَزَّةَ.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبِراً عن كفر فِرْعونَ وعناده وبَغْيِهِ ومُكَابَرَتِهِ الحقَّ بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمةَ، ورَأى الذين قد استنصَرَ بهم قد آمنوا بحضرة الناس كُلِّهم وغُلِب كل الغَلَب ـ شرَع في المكابرة والبَهْتِ، وعَدَل إلى استعمال جاهه وسُلطانه في السَّحرة، فتهددهم وأوعدهم، وقال: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾، أي: صَدَّقتموه ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾، أي: وما أمرتكم بذلك وافتُتِنتُم عليَّ في ذلك. وقال قولاً يعلَم هو والسحرةُ والخلقُ كلُّهم أنه بَهت وكَذِبٌ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، أي: أنتم إنما أخذتُم السِّحر عن موسى، واتفقتُم أنتم وإياه عليَّ وعلى رَعِيتي لتظهروه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]. ثم أخذ يَتهدَّدهُم فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، أي: لأَجعلنّكم مُثلةً ولأَقتلنكم ولأُشهِرَنَّكم. قال ابنُ عباس: فكان أول من

---

(١) الحسن عن جندب، منقطع، لم يسمع منه كما في «مراسيل» ابن أبي حاتم ص ٤٢، وتقدم الكلام على ذلك باستيفاء في سورة البقرة، عند الآية ١٠٢.

(٢) الأرقام المتقدمة، فيها ضرب من الخيال، وهذا الوارد عن ابن عباس، هو الأقرب، فلو كانوا آلافاً مؤلفة لا يجوز لهم الاستسلام بل عليهم مقاتلة فرعون وجنوده. كيف ومعهم نبي من أُولي العزم. والله أعلم.

فَعَل ذلك. رواه ابنُ أبي حاتم. وقولُه: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾، أي: أنتم تقولون: إنّي وقومي على ضَلالةٍ، وأنتُم مع موسى وقَوْمِهِ على الهُدَى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقَى فيه. فلما صال عليهم بذلك وتوعَّدهم، هانت عليهم أنفسُهم في الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾، أي: لن نختارك على ما حَصَل لنا من الهُدى واليقين. ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾: يَحتمِلُ أن يكون قسماً، ويَحتمِلُ أن يكون معطوفاً على البينات. يعنون: لن نختارَك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العَدَم، المبتدىءِ خَلْقَنا من الطِّين، فهو المستحقُّ للعبادةِ والخُضُوع لا أنت. ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾، أي: فافعل ما شئتَ وما وَصَلَت إليه يدُك، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، أي: إنما لك تَسَلُّطٌ في هذه الدارِ، وهي دارُ الزَّوال، ونحن قد رَغِبنا في دَارِ القَرَارِ. ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾، أي: ما كان منا من الآثام، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لِتُعارِضَ به آية الله تعالى ومعجزة نَبِيِّه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نُعَيم بن حَمّاد، حدثنا سفيان بن عُيَينة، عن أبي سَعْدٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عَبّاس في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾، قال: أخذَ فِرْعَونُ أربعين غُلاماً من بني إسرائيلَ، فأمر أن يُعلَّمُوا السحر بالفَرَمَا، وقال: علموهم تعليماً لا يَغْلِبهم أحدٌ في الأرض. قال ابنُ عباس: فَهُم من الذين آمنوا بموسى، الذين قالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾. وكذا قال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلمَ. وقولُه: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، أي: خيرٌ لنا منك، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾، أي: أدومُ ثواباً مما كنتَ وَعَدتنا ومَنَّيْتَنا. وهو رواية عن ابن إسحاقَ، رَحِمَه الله. وقال محمد بن كعب القرظي ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾، أي: لنا منك إن أطيع، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾، أي: منك عذاباً إن عُصِيَ، ورُوِي نحوه عن ابنِ إسحاقَ أيضاً. والظاهر أن فِرْعَون ـ لعنَهُ الله ـ صَمَّم على ذلك وفَعله بهم، رَحِمَهم الله. ولهذا قال ابنُ عباس وغيرُه من السَّلَفِ: أصبحوا سَحرةً، وأمسَوا شُهداء.

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

الظاهرُ من السِّياق أن هذا من تَمام ما وَعَظ بِهِ السحرةُ لفرعون، يُحَذِّرونه من نِقْمَةِ الله وعَذابه الدائم السرمَدِي وَيُرغِّبونه في ثوابه الأبديِّ المخلَّد، فقالوا: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾، أي: يلقى الله يومَ القيامةِ وهو مجرمٌ، ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾. كقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى: ١١ ـ ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

[٤٥٥١] وقال الإمامُ أحمدُ بن حَنبل: حدثنا إسماعيل، أخبرنا سَعِيدُ بن يَزِيدَ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سَعِيدِ الخُدْرِي قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أما أهلُ النار الذين هم أهلها فإنَّهم لا يموتُون فيها ولا يَحْيَون، ولكن أُناسٌ تُصِيبهم النارُ بذُنُوبهم فتُمِيتُهم إماتةً، حتى إذا صاروا فحماً أُذِن في الشفاعة، فَجِيءَ بهم ضَبائِرَ، فَبُثوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أَفِيضُوا عليهم. فينبُتُونَ نَبات الحِبَّةِ تكون في حَميلِ السَّيلِ»، فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالباديةِ[1]. وهكذا أخرجه مُسلِمٌ في كتابهِ الصَّحيح من رواية شُعبةَ وبِشر بن المُفَضَّلِ، كِلاهُما عن أبي مَسْلَمَة سعيدِ بن يزيدَ، به.

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٨٥ وابن ماجه ٤٣٠٩ وأحمد ١١/٣ و٧٨ وابن حبان ١٨٤.

[٤٥٥٢] وقال ابنُ أبي حاتم: ذُكِرَ عن عبد الوارث بن عبد الصَّمَدِ بن عبد الوارث قال: حدثنا أبي، حدثنا حَيَّان، سَمِعْتُ سُلَيمان التيميَّ، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سَعيد: أن رسولَ الله ﷺ خَطَب فأتى على هذه الآية: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾، قال النبيُّ ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلُها فلا يَموتون فيها ولا يحيَون، وأما الذين ليسوا من أهلها فإن النار تمسُّهم، ثم يقوم الشفعاءُ فيشفَعُون، فتجعلُ الضَّبائر، فيُؤتى بهم نهراً يقال له: نهرُ الحياة ـ أو: الحيوان ـ فَيَنبتُون كما يَنبُتَ الغُثاءُ في حَميلِ السَّيل»[1].

وقولُه تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: ومن لَقِيَ ربَّه يوم المعاد مؤمنَ القلب، قد صَدَّق ضميرَه بقوله وعمله، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: الجنةُ ذاتُ الدرجاتِ العالياتِ، والغُرَفِ الآمناتِ، والمساكن الطيِّباتِ.

[٤٥٥٣] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفَّان، أنبأنا هَمَّام، حدثنا زيدُ بن أسلَمَ، عن عطاءِ بن يَسَارٍ، عن عُبادَةَ بن الصَّامِتِ، عن النبيِّ ﷺ قال: «الجنة مئةُ درجَةٍ، ما بين كُلِّ درجتَين كما بين السماء والأرض، والفِرْدَوس أعلاها درجةً، ومنها تخرجُ الأنهارُ الأربعةُ، والعرشُ فَوقَها، فإذا سألتم الله فاسألُوه الفردَوس»[2].

ورواه الترمذيُّ، من حديث يزيدَ بن هارونَ، عن هَمَّام، به.

وقال ابنُ أبي حاتِم: حدثنا أبي، حدثنا سُليمان بن عبد الرحمن الدِّمشقي، أخبرنا خالدُ بن يزيدَ بن أبي مالك، عن أبيه قال: كأن يقال: الجنةُ مئةُ دَرَجةٍ، في كلِّ درجة مئةُ درجة، ما بينَ كلِّ دَرَجَتَينِ كما بينَ السماءِ والأرض، فيهنَّ الياقوت والحلي، في كُلِّ درجةٍ أميرٌ، يَرَون له الفَضلِ والسؤْدُدِ.

[٤٥٥٤] وفي الصَّحِيحَين: «إنَّ أهل عِلِّيين ليَرَونَ من فَوقَهُم كما تَرونَ الكَوكب الغابرَ في أُفُق السَّماء، لتفاضُلِ ما بينهم. قالُوا: يا رسولَ اللّهِ، تلك منازلُ الأنبياء؟ قال: بلى، والذي نفسي بيَدِهِ رجالٌ آمَنُوا بالله وصَدَّقوا المرسلين»[3].

[٤٥٥٥] وفي السنن: «وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما»[4]. وقولُه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، أي: إقامة. وهو بدل من ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها أبداً، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾، أي: طَهَّر نفسَه من الدَّنَسِ والخَبَثِ والشِّرْكِ، وعبَدَ الله وحدَه لا شَريكَ له، واتَّبع المرسَلين فيما جاؤوا بِهِ من خَبَرٍ وطَلَبٍ.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً أنه أَمَرَ مُوسى ـ عليه السلام ـ حين أَبى فِرْعَونُ أن يُرسِلَ معه بني إسرائيلَ، أن يُسرِيَ

---

(١) إسناده ضعيف، فهو معلق بصيغة التمريض، والوهن في تفسير الآية، وأما أصل الحديث ففي الصحيح.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٥٣١ وأحمد ٢/ ٢٩٢ و٥/ ٣١٦ وإسناده على شرط الشيخين وله شواهد.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٦٥٦ و٦٥٥٦ ومسلم ٢٨٣١ وأحمد ٥/ ٣٤٠ وابن حبان ٧٣٩٣ من حديث أبي سعيد الخدري وصدره «إن أهل الجنة ليتراءون الغرف. . .».

(٤) أخرجه أبو داود ٣٩٨٧ والترمذي ٣٦٥٩ وابن ماجه ٩٦ وأحمد ٣/ ٢٧ و٩٨ وأبو يعلى ١١٣٠ من حديث أبي سعيد الخدري، وإسناده ضعيف، لضعف عطية العوفي.

بهم في الليل، ويذهبَ بهم من قَبْضَةِ فرعون. وقد بَسَطَ الله هذا المقامَ في غير هذه السورةِ الكريمةِ. وذلك أن موسى لما خَرج ببني إسرائيل أصبحُوا وليس منهم بمصر لا داعٍ ولا مُجيب، فَغَضِبَ فِرْعَونُ غضباً شديداً وأرسَلَ في المدائن حاشرين، أي: من يجمعون له الجند من بلدانه وَرَساتيقه يقول: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥﴾. ثم لما جَمَعَ جنده واستوسق له جيشهُ، ساق في طلبهم ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ۝٦٠﴾، أي: عند طلوع الشمس، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي؛ نظر كل من الفريقين إلى الآخر، ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾، ووقف موسى ببني إسرائيل، البحرُ أمامهم، وفرعونُ وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾، فضرب البحر بعصاه، وقال: «انفلِق بإذن الله»، ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[1] أي؛ الجبل العظيم. وأرسلَ الله الرِّيح على أرض البحر فَلَفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض، ولهذا قال: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾، أي: من فرعون، ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾، يعني من البحر أن يُغرِقَ قومَك، ثم قال تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ﴾، أي: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمۡ﴾، أي: الذي هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم: ٥٣ ـ ٥٤]، وكما قال الشاعر:

أنـا أبـو الـنَّـجـمِ وشِـعْـرِي شِـعْـري

أي: الذي يُعرف، وهو مشهورٌ. وكما تَقدَّمهم فِرعون فَسلك بهم في اليمّ فأضلَّهم وما هَدَاهم إلى سبيلِ الرَّشادِ، كذلك ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ۝٩٨﴾ [هود: ٩٨].

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ۝٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ۝٨١ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ۝٨٢﴾

يذكرُ تعالى نِعمَه على بني إسرائيلَ العِظَام، ومِنَنَه الجِسَام، حيث نَجّاهم من عَدُوِّهم فِرْعَونَ، وأقر أعينَهم منه، وهم ينظُرون إليه وإلى جُندِه قد غَرِقُوا في صبيحةٍ واحدةَ، لم يَنجُ منهم أَحَدٌ، كما قال: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾.

[٤٥٥٦] وقال البخاري: حَدثنا يعقوبُ بن إبراهيمَ، حدثنا رَوحُ بن عُبَادة، حدثنا شعبة، حدَّثنا أبو بِشْرٍ، عن سعيدِ بن جُبَير، عن ابن عَبَّاسٍ قال: لما قَدِم رسولُ الله ﷺ المدينةَ واليهودُ تصومُ عاشوراءَ، فسألَهم فقالوا: هذا اليومُ الذي أظهر الله فيه مُوسَى على فِرْعَونَ. فقال: نَحنُ أولى بموسى، فَصُومُوه[2]. رواه مسلمٌ أيضاً في صَحِيحه. ثم إنَّه تعالى واعَدَ موسى وبني إسرائيل بعد هَلاك فِرْعَون إلى جانب الطُّور الأيمن، وهو الذي كَلَّمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك. وفي غُضُون ذلك عَبدَ بَنُو إسرائيل العِجلَ، كما يقصُّه تعالى قريباً. وأما المنُّ والسَّلْوَى، فقد تَقدَّم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها. فالمنُّ: حَلْوى كانت تنزلُ عليهم من السماء. والسَّلوى: طائرٌ يسقُط عليهم، فيأخذُون من كلِّ قدرَ الحاجةِ إلى الغدِ، لُطفاً من الله ورحمةً بهم وإحساناً إليهم. ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا

(١) الآيات السابقة من سورة الشعراء: ٥٤ ـ ٦٣.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٨٠ و٤٣٣٧ ومسلم ١١٣٠ ح ١٢٧ وأبو داود ٢٤٤٤ وأحمد ١/ ٢٩١ وابن حبان ٣٦٢٥.

﴿تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾، أي: كلُوا من هذا الذي رزقتكم، ولا تطغَوا في رِزْقِي فتأخذوه من غيرِ حاجة، وتخالِفُوا ما آمركم به، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾، أي: أغضبُ عليكم، ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي فقد شَقِيَ. وقال شُفَيُّ بن ماتِع: إن في جَهَنَّم قصراً يُرْمَى الكافر من أعلاه، فَيَهوي في جَهَنَّم أربعين خَرِيفاً قبل أن يبلُغَ الصَّلْصَال، وذلك قوله: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾. رواه ابنُ أبي حاتم. وقولُه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾، أي: كلُّ من تاب إليَّ تبتُ عليه مِن أيِّ ذنبٍ كان، حتى إنه تاب تعالى على من عبد العِجْلَ من بني إسرائيل. وقولُه: ﴿تَابَ﴾، أي: رَجَع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية. وقوله: ﴿وَآمَنَ﴾، أي: بِقَلْبِهِ، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، أي: بجوارِحِه. وقولُه: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ثم لم يَشْكُكْ. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾، أي: استقام على السنَّة والجماعةِ. ورُوِي نحوُه عن مجاهِدٍ، والضَّحاكِ، وغير واحد من السَّلَف. وقال قتادةُ: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾، أي: لَزِم الإِسلام حتى يَمُوتَ. وقال سفيانُ الثَّوري: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾، أي: عَلِم أن لهذا ثواباً. وثُمَّ ها هنا لترتيب الخَبرِ على الخبر، كَقَولِهِ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧]. . . الآية.

﴿۞ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾

لمَّا سار موسى ـ عليه السلام ـ ببني إسرائيل ـ بعد هلاك فِرعَون، وأتوا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٣٩]. وواعده ربُّه ثلاثين ليلة ثم أَتَمَّها له عشراً، فتمَّت له أربعين ليلةً، أي: يصومُها ليلاً ونهاراً. وقد تقدم في حديث «الفتون» بيانُ ذلك. فسارع موسى ـ عليه السلام ـ مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارونَ، ولهذا قال تعالى: ﴿۞ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾، أي: قادِمُون ينزلُون قريباً من الطُّور، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، أي: لتزداد عني رضا.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾. أخبر تعالى نَبِيَّه موسى بما كان بعده من الحَدَثِ في بني إسرائيل، وعبادَتِهم العِجْلَ الذي عَمِله لهم ذلك السامريُّ. وفي الكتب الإِسرائيلية: أنه كان اسمُه هارون أيضاً، وكتب الله تعالى في هذه المُدّة الألواحَ المتضمِّنة التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: ١٤٥]، أي: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري.

وقولُه تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾، أي: بعدما أخبره تعالى بذلك، في غاية الغَضب والحَنَق عليهم، هُوَ فيما هو فيه من الاعتناءِ بأمرهم، وتَسَلُّم التوراةِ التي فيها شريعَتُهم، وفيها شرفٌ لهم. وهُم قوم قد عبدوا غير الله ما يَعْلمُ كلُّ عاقلٍ له لبٌّ بطلانَ ما هُم فيه وسخافةَ عُقُولِهم وأذهانِهم. ولهذا رجع

إليهم غضبانَ أسِفاً. والأسَفُ: شدَّةُ الغَضَب. وقال مجاهدٌ: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ﴾، أي: جزعاً. وقال قتادةُ والسُّدِّي: ﴿أَسِفًاۚ﴾، أي: حزيناً على ما صَنعَ قَومُه من بعده. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾، أي: أما وَعَدكم على لساني كُلَّ خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبةِ، كما قد شاهدتُم مِن نُصرته إيَّاكم على عَدُوِّكم وإظهارِكُم عليه، وغير ذلك من أياديه عِندَكم؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾، أي: في انتظار ما وَعَدكم الله، ونسيانِ ما سلَف من نِعَمِه، وما بالعهدِ من قِدَم. ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. أم: ها هنا بمعنى بل، وهي للإضراب عن الكلام الأول، وعُدُولٍ إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحلَّ عليكم غضبٌ من رَبِّكم ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى قَالُوا۟﴾، أي: بنو إسرائيل في جواب ما أنَّبهم موسى وقرَّعهم: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾، أي: عن قُدرَتِنا واختيارِنا. ثُم شرعُوا يعتذِرُون بالعذر البارد، ويُخبرون عن تورُّعهم كما كان بأيديهم من حُلي القِبْطِ الذي كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصرَ، ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾، أي: ألقيناها عنا، وقد تَقدَّم في حديثِ «الفتون» أن هارون ـ عليه السلام ـ هو الذي كان أمرهم بإلقاءِ الحُليِّ في حَفِيرةٍ فيها نارٌ. وفي رواية السُّدِّي، عن أبي مالك، عن ابن عباس: إنما أراد هارون أن يجتمعَ الحُليُّ كلهُ في تلك الحَفِيرة، ويُجعَلَ حَجَراً واحِداً، حتى إذا رَجَع موسى ـ عليه السلام ـ رأى فيه ما يشاء. ثُم جاء بعدَ ذلك السامريُّ فألقى عليها تلك القبضةَ التي أخذها من أثر الرسول، وسأَل هارون أن يدعُوَ الله أن يستَجيبَ له في دعوته، فَدعا له هارون ـ وهو لا يعلمُ ما يُريدُ ـ فأُجيبَ له، فقال السامريُّ عند ذلك: أسأل الله أن يكون عِجْلاً. فكان عِجلاً له خُوارٌ، أي: صوتٌ، استدراجاً وإمهالاً ومحنةً واختِبَاراً، ولهذا قالوا: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَبادةَ بن البَخْتَري، حدثنا يزيدَ بن هارونَ، أخبرنا حَمَّادٌ، عن سِمَاكٍ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: أنَّ هارونَ مَرَّ بالسامريِّ وهو يَنحَتُ العِجْلَ. فقال له: ما تصنَعُ؟ فقال: أصنعُ ما يضرُّ ولا ينفَعُ. فقال هارون: اللهمَّ أعطِه ما سأَل على ما في نَفْسِهِ. ومضى هارونُ، فقال السامريُّ: اللهم، إني أسألك أن يَخورَ، فكان إذا خَارَ سَجَدُوا له، وإذا خارَ رفعوا رؤوسَهُم. ثم رَوَاه من وَجهٍ آخر عن حَمَّادٍ، وقال: أعمل ما ينفعُ ولا يَضرُّ. وقال السدِّيُّ: كان يخورُ ويمشِي. ﴿فَقَالُوا۟﴾، أي: الضُّلَّال منهم الذين افتُتِنُوا بالعِجْل وعَبَدوه: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾، أي: نَسِيه ها هنا، وذَهَب يَتطلَّبه. كذا تَقدَّم في حديث «الفتون» عن ابن عباس. وبه قال مجاهدٌ. وقال سماكٌ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس: ﴿فَنَسِىَ﴾، أي: نَسِيَ أن يُذَكِّرَكُم أنَّ هذا إلهكم. وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جُبَير، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس فقالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾، قال: فعكفوا عليه وأحبُّوه حباً لم يحبُّوا شيئاً قطُّ يعني مثله، يقول الله: ﴿فَنَسِىَ﴾، أي: تَرَك ما كان عليه من الإسلام، يعني السامِرِيَّ. قال الله تعالى رَدّاً عليهم، وتقريعاً لهم، وبياناً لفضيحتهم وسخافةِ عُقُولهم فيما ذَهبوا إليه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾؟ أي: العِجْلُ، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أنه لا يُجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطَبُوه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، أي: في دنياهم ولا في أخراهم. قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: لا والله ما كان خُوَاره إلا أن يدخُلَ الرِّيح في دُبُره فيخرُجَ من فِيه، فَيُسمَع له صوتٌ. وقد تَقدَّم في متون الحديث عن الحسن البصريِّ: أن هذا العجلَ اسمُه بُهموتٌ. وحاصلُ ما اعْتَذَرَ به هؤلاء الجهلةِ أنهم تَوَرَّعوا عن زِينَة القِبطِ، فألقَوها عنهم وعَبَدُوا العِجْلِ. فَتورَّعوا عن الحَقير وفَعَلُوا الأمر الكبير.

[٤٥٥٧] كما جاء في الحديث الصَّحيح عن ابن عُمَر: أنه سَأله رجلٌ من أهل العراقِ عن دمِ البَعُوض إذا

أصاب الثوبَ ـ يعني: هل يُصلّى فيه أم لا؟ ـ فقال ابنُ عمر ـ رضي الله عنه ـ: انظُروا إلى أهلِ العِراقِ، قَتلوا ابنَ بنتِ رَسُولِ الله ﷺ ـ يعني الحُسَينَ ـ وهم يسألونَ عن دم البَعُوض[١]؟

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾

يُخبر تعالى عما كان من نَهْي هارون ـ عليه السلام ـ لهم عن عبادة العِجْل، وإخباره إياهم أنما هذا فتنة لكم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ الذي خلَق كُلَّ شيءٍ فقدَّره تَقديراً، ذو العرش المجيد، الفعَّالُ لما يريد، ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾، أي: فيما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه. ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾، أي: لا نترك عبادَته حتى نَسمع كلامَ موسى فيه. وخالَفُوا هارونَ في ذلك وحارَبوه، وكادُوا أن يقتلُوه.

﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾

يُخبر تعالى عن موسى ـ عليه السلام ـ حين رَجَع إلى قومه، فَرَأى ما قد حَدَث فيهم من الأمر العظيم، فامتلأ عند ذلك غيظاً، وألقى ما كان في يَدِه من الألواح الإلهيَّة، وأخذ بِرَأسِ أخيه يجرُه إليه، وقد قدمنا في «الأعراف» بَسْطَ ذلك.

[٤٥٥٨] وذكرنا هناك حديث: «ليس الخبرُ كالمُعَايَنةِ»[٢]. وشرَع يلوم أخاه هارون فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾، أي: فَتُخبرني بهذا الأمر أوّلَ ما وَقع، ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾، أي: فيما كُنتَ تَقدَّمتُ إليك، وهو قوله: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. قال: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾، تَرفَّق له بذكر الأُمِّ، مع أنه شقيقُه لأبويه، لأنَّ ذكر الأمّ ها هنا أرَقُّ وأبلَغ في الحنوّ والعَطْفِ، ولهذا قال: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾. هذا اعتذارٌ من هارونَ عند مُوسَى في سبب تَأخُره عنه، حيثُ لم يلحقه فيُخبِرَه بما كان من هذا الخَطْبِ الجَسِيم، قال: ﴿إِنِّى خَشِيتُ﴾ أن أتبعَكَ فَأُخبِرَك بهذا، فتقول لي: لِمَ تركتَهُم وحدَهم وفرَّقتَ بينَهُم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾، أي: وما راعيت ما أمرتُك به حيث استخلفتك فيهم. قال ابن عباس: وكان هارون هائِباً له مُطِيعاً.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

يقول موسى ـ عليه السلام ـ للسامريّ: ما حَمَلك على ما صنعتَ؟ وما الذي عَرَض لك حتّى فَعلْتَ ما فَعلْتَ؟. قال محمد بن إسحاقَ، عن حكيم بن جُبَير، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كان السامريُّ

---

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٣٧٧٠ بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري ٥٩٩٤ وأبو يعلى ٥٧٣٩ بنحوه.

(٢) تقدم تخريجه في سورة الأعراف.

رجلاً من أهل بَاجرْمَا، وكان من قوم يعبدُون البَقرِ، وكان حُبُّ عِبادةِ البَقرِ في نفسه، وكان قد أظهر الإسلامَ مع بَني إسرائيل، وكان اسمُ السامريِّ: موسى بن ظَفَر. وفي رواية عن ابن عباس: كان من كِرْمانَ. وقال قتادةُ: كان من قرية اسمها سامَرًا. ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾، أي: رأيتُ جبريلَ حين جاء لهلاك فِرْعون، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي من أَثَرِ فَرَسِهِ. وهذا هو المشهورُ عند كَثِيرٍ من المفسِّرين أو أكثرِهم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَمَّار بن الحارث، أخبرنا عُبَيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن السدِّي، عن أبي بن عُمَارة، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: إن جبريل ـ عليه السلام ـ لما نَزَل فَصَعِد بموسى إلى السماء، بَصُر به السامريُّ من بين الناس، فقبض قبضةً من أثر الفَرَسِ، قال: وحَمل جبريلُ موسى خَلْفَه، حتى إذا دَنَا من باب السماءِ، صَعِد وكتبَ الله الألواح وهو يسمعُ صَرير الأقلام في الألواحِ. فلما أخبرَه أنَّ قومَه قد فُتِنُوا من بعده قَال: نَزلَ موسى، فأخذ العجل فأحرقه. غرِيب.

وقال مجاهد: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾، قال: من تحت حافر فرسِ جبريل، قال: والقبضة مِلْءُ الكَفِّ، والقَبْضَةُ بأطرافِ الأصابع. قال مجاهد: نَبَذ السامريّ، أي: ألقى ما كان في يده على حِلْيَةِ بني إسرائيل، فانسبك عجلاً جسداً له خُوارٌ، حفيفُ الرِّيح فيه، فهو خُوَارُه. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا علي بن المديني، حدثنا يزيد بن [زُريع]، حدثنا عُمَارة، حدثنا عِكرمة: أن السامريَّ رأى الرسولَ فَأُلقِيَ في رُوعِه أنك إن أخذتَ من أَثَر هذا الفرس قبضةً فألقيتَها في شيءٍ، فقلت له: كُن، فكان. فقبض قبضةً من أثر الرسولِ، فَيَبِسَتْ أصابعُه على القَبْضة، فلما ذهبَ موسى للميقات، وكان بنو إسرائيل استعاروا حُليَّ آل فِرْعَونَ، فقال لهم السامري: إنَّ ما أصابكم من أجل هذا الحُليِّ، فاجمَعُوه. فَجَمَعُوه فأوقدوا عليه، فذاب، فرآه السامريُّ فَأُلقِيَ في رُوعه أنك لو قذفتَ هذه القَبْضَةَ في هذه فَقلت: كُن. فكان. فقذف القَبْضَةَ وقال: كُن. فكان عجلاً له خُوَارٌ، فقال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾. ولهذا قال: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾، أي: ألقيتُها مع من ألقى، ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾، أي: حَسَّنته وأعجبها إذ ذاك، ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾، أي: كما أَخَذْتَ ومَسِسْتَ ما لم يكنْ لك أخذُه ومسُّه من أثر الرسول، فعُقوبَتُك في الدنيا أن تَقُولَ: لا مِسَاسَ، أي: لا تُماسُّ الناسَ ولا يَمسّونَك. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾، أي: يومَ القيامة، ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾، أي: لا مَحيدَ لَكَ عنه. قال قتادةُ: «أن تقول لا مساس»، قال: عقوبةٌ لهم، وبقاياهم اليوم يَقُولون: لا مسَاسَ. وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾، قال الحسن، وقتادة، وأبو نَهيكَ: لن تَغِيب عنه. وقوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾، أي: مَعبُودكَ، ﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾، أي: أقمتَ على عبادتِهِ ـ يعني العجل ـ ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾، قال الضحاك، عن ابن عباس، والسُّديّ: سَحَلَه بالمَبَارِدِ وألقاه على النَّارِ. وقال قتادةُ: استحال العجلُ من الذَّهب لحماً ودماً، فحرقه بالنار، ثم ألقاه، أي: رمادَه في البحر، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عُمارةَ بن عَبْدٍ وأبي عبد الرحمن، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: إن موسى لَمَّا تعجَّلَ إلى ربِّهِ عَمَد السامِرِيُّ فجمع ما قَدَر عليه من حُليِّ نساءِ بنِي إسرائيلَ، ثم صَوَّره عِجْلاً، قال: فعمد موسى إلى العجل فوضع عليه المَبارِدَ فبَرده بها، وهو على شط نَهر. فلم يشرب أحد من ذلك الماء مِمَّن كانَ يعبُد العِجلَ إلا اصفرَّ وجهُهُ مثل الذهب. فقالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضُكم بعضاً. وهكذا قال السّديُّ. وقد تقدم في تفسير سُورَة البقرة، ثم في حديث الفُتُون بسط ذلك.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾، يقول لهم موسى عليه السلام: ليس هذا إلهكُم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، أي: لا يستحقُّ ذلكَ على العبادِ إلا هو، ولا تنبغي العبادةُ إلا له، فإن كلَّ شيءٍ فقيرٌ إليه، عبدٌ له. وقولُه: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، نصب على التمييز، أي: هو عالم بكلِ شيءٍ، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجن: ٢٨] فلا ﴿يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبـا: ٣]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنـعـام: ٥٩]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦]. والآيات في هذه كثيرةٌ جداً.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾

يقولُ تعالى لنبيِّه محمد ﷺ: كما قَصصْنَا عليك خَبَرَ مُوسَى، وما جَرَى له مع فِرْعَونَ وجنودِه على الجَليَّة وبالأمر الواقع، كذلك نقصُّ عليك الأخبارَ الماضيةَ كما وَقَعت من غير زيادةٍ ولا نقص، هذا ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا﴾، أي: من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾، وهو القرآن العظيم، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، الذي لم يُعطَ نبيٌّ من الأنبياء ـ منذ بُعِثُوا إلى أن خُتِمُوا بمحمَّدٍ ﷺ ـ كتاباً مثله ولا أكملَ منه، ولا أجمعَ لخبر ما سبَقَ وخَبَرِ ما هو كائن، وحُكْم الفَصْلِ بينَ الناسِ منه. ولهذا قال تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾، أي: كَذَّب به وأعرضَ عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهُدَى في غَيْرِه فإن الله يُضِلُّه ويهديه إلى سَوَاءِ الجَحِيم، ولهذا قال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾، أي: إثماً، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

وهذا عام في كلِّ من بلغه القرآن من العَرَب والعَجَم، أهل الكتابِ وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فكُلُّ من بلغه القرآن فهو نَذِيرٌ له وَدَاع، فمن اتَّبعه هُدى، ومن خَالفه وأعرضَ عنه ضلَّ وشَقِي في الدنيا، والنار موعِدُه يوم القيامة. ولهذا قال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾، أي: لا مَحيد لهم عنه ولا انفكاك، ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾، أي: وبئس الحِمْلُ حِمْلُهُم.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

[٤٥٥٩] ثَبت في الحديثِ أنَّ رسول الله ﷺ سُئِلَ عن الصُّور، فقال: «قَرْن يُنفخُ فيه»(١).

[٤٥٦٠] وقد جاء في حديث الصُّور من رواية أبي هُرَيرة: أنه قرنٌ عظيمٌ، الدَّارةُ منه بِقَدْرِ السمٰوات والأرض، ينفُخُ فيه إسرافيلُ عليه السلام»(٢).

[٤٥٦١] وجاء في الحديث: «كيفَ أنعَمُ وصاحبُ القَرن قد التقَمَ القَرْنَ وحَنىٰ جَبْهته وَانتَظَرَ أن يُؤذَنَ

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ٧٣.

(٢) تقدم.

له». فقالوا: يا رسولَ اللَّهِ، كيفَ نقولُ؟ قال: «قُولوا: حسبُنا الله ونعمَ الوكيلُ، على الله تَوَكَّلنا»[1]. وقولُه: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾، قيل: معناه زُرْقُ العيون من شدَّةِ ما هُم فيه من الأهوال. ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾، قال ابن عباس: يَتَسارُّون بينهم. أي: يقولُ بعضهم لبعض: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾، أي: في الدار الدنيا، لقد كان لُبثُكم فيها قليلاً، عشرةُ أيام أو نحوها. قال الله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾، أي: في حال تَناجيهم بينَهم، ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾، أي: العاقلُ الكاملُ فيهم، ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، أي: لِقِصَر مُدَّةِ الدُّنيا في أنفسهم يوم المعادِ، لأنَّ الدنيا كُلَّها وإن تكررتْ أوقاتُها وتعاقَبَتْ لياليها وأيامُها وساعاتُها كأنَّها يومٌ واحِدٌ، ولهذا يَستَقْصِرُ الكافرونَ مُدَّةَ الحياة الدنيا يوم القيامة. وكان غرضهم في ذلك دَرْءَ قيام الحُجَّةِ عليهم، لِقِصَر المدَّةِ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم: ٥٥ ـ ٦٥]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤]، أي: إنما كان لُبثكم فيها قليلاً، ولو أنكم كنتم تعلمون لآثرتُم الباقِيَ على الفانِيَ، ولكن تَصَرَّفتم فأسأتم التصرُّفَ، قَدَّمتُم الحاضِرَ الفانِيَ على الدائم الباقي.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾، أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزولُ؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾، أي: يُذهِبُها عن أماكنها ويمحَقها ويُسيرها تسييراً، ﴿فَيَذَرُهَا﴾، أي: الأرضَ ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾، أي: بساطاً واحداً. والقاع: هو المستوي من الأرض. والصفصفُ تأكيدٌ لمعنى ذلك. وقيل: الذي لا نبات فيه. والأولُ أولى، وإن كان الآخر مُراداً أيضاً باللازم. ولهذا قال: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾، أي: لا تَرى في الأرض يومئذٍ واديا ولا رابيةً، ولا مكاناً منخفِضاً ولا مُرتَفِعاً، كذلك قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف. ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾، أي: يوم يرون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مُسارِعين إلى الدَّاعي، حيثُما أُمرُوا بادَروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث كان لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٨]. قال محمد بن كعب القُرَظيُّ: يحشرُ الله الناس يوم القيامة في ظلمة، وتُطوَى السماءُ، وتَتَناثر النجومُ، وتذهب الشمسُ والقمرُ، وينادي منادٍ، فَيَتَّبعُ الناسُ الصوتَ فيأتونه، فذلك قولُه: : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾. وقال قتادةُ: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾، لا يميلون عنه. وقال أبو صالح: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾، لا عِوج عنه.

وقولُه تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، قال ابن عباس: سَكَنت. وكذا قال السّديُّ. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، قال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: يعني وَطْءَ الأقدام. وكذا قال عكرمةُ، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ، والربيعُ بن أنس، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، وغيرُهم. وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا

---

(١) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٧٣.

هَمۡسٗا﴾: الصوت الخفي وهو رواية عن عكرمة والضحاك وقال سعيد بن جبير: ﴿فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ الحديث وسره، وَوَطْءَ الأقدام. فقد جَمَع سعيدٌ كلا القولين وهو مُحتمِلٌ، أما وَطْءُ الأقدام فالمراد سَعْيُ الناس إلى المحشر، وهو مَشيُهم في سُكُون وخُضوع. وأما الكلام الخَفِيُّ فقد يكون في حالٍ دون حال، فقد قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾ [هود: ١٠٥].

﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ١١١ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾

يقول تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾، أي: يومَ القيامة ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، أي: عنده ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾، كقولِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقولِهِ: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨﴾ [النبأ: ٣٨].

[٤٥٦٢] وفي الصحيحَين من غير وجه، عن رَسُولِ الله ﷺ، وهو سَيِّد وَلَدِ آدم، وأكرم الخلائق على الله عزّ وجلّ أنه قال: «آتي تحت العرش فأخِرُّ لله ساجداً، ويفتَح عَلَيَّ بمحامِدَ لا أُحصيها الآن، فيدَعني ما شاء الله أن يَدَعني، ثم يقول: يا محمدُ، ارفع رأسك، وقل تُسمَع، واشفع تُشَفَّع. قال: فيَحُدُّ لي حَدّاً، فأُدخِلُهم الجنة، ثم أعود». فذكر أربعَ مَرَّاتٍ. صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء[1].

[٤٥٦٣] وفي الحديث أيضاً «يقول تعالى: أخرجوا من النار من كان في قلبه مِثقالٌ من إيمان. فيُخرجُون خَلقاً كثيراً، ثم يقول: أخرِجوا من النار من كان في قلبه نصفُ مِثقالٍ من إيمان، أخرِجوا من النار من كان في قلبه ما يزن ذَرَّةً، من كان في قلبه أدنى أدنى مِثقالِ ذَرَّةٍ من إيمان»[2]... الحديث.

وقولُه: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾، أي: يُحيطُ علماً بالخلائق كلِّهم، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾، كقولِهِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقولُه: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾، قال ابنُ عباس وغيرُ واحدٍ: خَضَعت وذَلَّت واستسلَمَتْ الخلائقُ لجبَّارها الحيِّ الذي لا يَموت، القيوم: الذي لا ينام، وهو قَيِّمٌ على كُلِّ شيءٍ، يُدَبِّره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كلّ شيءٍ فقيرٌ إليه، لا قِوَامَ له إلا به. وقولُه: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾، أي: يوم القيامة، فإن الله سيؤدّي كل حق إلى صاحبه، حتى يُقتصّ للشاة الجَمَّاء من الشاة القَرْناءِ.

[٤٥٦٤] وفي الحديث: «يقول الله تعالى: وعِزّتي وجَلالي، لا يُجاوِزُني اليومَ ظلمُ ظالم»[3].

[٤٥٦٥] وفي الصحيح: «إياكم والظلمَ، فإن الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة»[4]. والخيبة كُلُّ الخَيْبَةِ لِمن

---

(١) تقدم.

(٢) تقدم، وانظر صحيح مسلم ١٨٣ حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) يأتي تخريجه.

(٤) يأتي في سورة الحشر عند آية ٩ من حديث جابر، أخرجه البخاري.

لَقِي الله وهو مُشرِكٌ به، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقولُه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾، لما ذكر الظالمين ووعيدَهم ثنّى بالمتقين وحُكْمِهم، وهو أنهم لا يُظلَمون ولا يُهضَمون، أي: لا يُزاد في سيئاتهم ولا يُنقَصُ من حسناتهم. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والضحّاك، والحسن، وقتادة، وغير واحد. فالظلم: الزِّيادةُ بأن يحمِلَ عَلَيه ذنبُ غَيرِه والهَضْمُ: النقصُ.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

يقولُ تعالى: وَلَمّا كان يوم المَعَاد والجَزاء بالخير والشر واقعاً لا محالَةَ، أنزلنا القرآنَ بشيراً ونذيراً، بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ فَصِيح، لا لبسَ فيه ولا عِيّ، ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: يتركون المآثم والمحارِمَ والفَوَاحش، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾، وهو إيجادُ الطَّاعة وفعلُ القُربات، ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تنزّه وتَقَدّس الملكُ الحقُّ، الذي هو حَقٌّ، وَوَعدُه حقٌّ، وَوَعيدُه حقٌّ، ورُسُلُه حق، والجنَّةُ حقٌّ، والنارُ حقٌّ، وكلُّ شيءٍ منه حقٌّ. وعدله تعالى ألاّ يُعذِّب أحداً قبلَ الإنذار وبعثةِ الرُّسُلِ والإعذارِ إلى خَلْقِهِ، لئلا يبقى لأحدٍ حُجّةٌ ولا شُبهَةٌ. وقولُه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، كقوله تعالى في سورة «لا أقسم بيوم القيامة»: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

[٤٥٦٦] وثبت في الصحيح عن ابن عباس أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يُعالِجُ من الوَحْي شِدَّةً، فكان مما يُحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية[1]. يعني أنه ـ عليه السلام ـ كان إذا جاءه جبريلُ بالوحي، كلَّما قال جبريل آيةً قالها مَعَه، من شدَّةِ حِرْصِه على حِفظ القرآنِ، فأرشدَه الله تعالى إلى ما هو الأسهلُ والأخفُّ في حقه؛ لئلا يشقَّ عليه، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾، أي: أن نجمَعَه في صَدْرِك، ثم تقرأه على النّاسِ من غير أن تَنْسَى منه شيئاً، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾. وقال في هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، أي: بل أنصت، فإذا فَرَغ المَلَك من قراءته عليك فاقرأه بعده، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي: زِدْنِي منكَ عِلماً. قال ابنُ عُيينة رَحِمه الله: ولم يَزَل ـ ﷺ ـ في زيادة من العلم حتى تَوَفَّاه الله عَزَّ وجلَّ. ولهذا جاءَ في الحديث:

[٤٥٦٧] إنَّ الله تابع الوَحْي على رسوله، حتى كان الوحيُ أكثَرَ ما كانَ يوم تُوُفِّي رسولُ الله ﷺ[2].

[٤٥٦٨] وقال ابنُ ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبةَ، حدثنا عبد الله بن نُمير، عن موسى بن عُبَيدةَ، عن محمد بن ثابت، عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقول: «اللهمَّ، انفعني بما عَلَّمتَني، وعَلِّمني ما ينفَعُني، وزِدْني عِلماً. والحمدُ لله على كل حالٍ»[3]. وأخرجه الترمِذيُّ، عن أبي كُرَيبَ، عن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٢٧ ومسلم ٤٠٤٨ والنسائي ٢/ ١٤٩ والترمذي ٣٣٢٩ وأحمد ١/ ٣٤٣ وابن حبان ٣٩ من حديث ابن عباس بأتم منه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٦٨٢ ومسلم ٣٠١٦ وأحمد ٣/ ٢٣٦ والنسائي في «فضائل القرآن» ٨ من حديث أنس.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٥٩٩ وابن ماجه ٢٥١ و٣٨٣٣. حسنه الترمذي، واستغربه، والإسناد ضعيف، له علتان: موسى بن عبيدة الربذي، ضعيف، ومحمد بن ثابت مجهول كما في التقريب، والوهن فقط في «والحمد...» وأما صدره فله شواهد.

عبد الله بن نُمير، به. وقال: غريبٌ من هذا الوجه. ورواه البَزّارُ عن عمرو بن على الفلاّس، عن أبي عاصمٍ، عن موسى بن عُبيدَة، به. وزاد في آخره: «وأعوذُ بالله من حالِ أهلِ النّارِ»[1].

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن سنان، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: إنما سُمّي الإنسان لأنه عُهِد إليه فَنَسِي. وكذا رواه عليُّ بن أبي طَلْحَةَ، عنه. وقال مجاهدٌ، والحسنُ: تَرَكَ. وقولُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾، يذكر تعالى تشريفَ آدمَ وتكريمَه، وما فَضَّله به على كثير ممّن خَلَق تفضيلاً. وقد تقدّم الكلام على هذه القصة في سورة «البقرة»، وفي «الأعراف»، وفي «الحجر»، و«الكهف» وسيأتي في آخر سورة (ص) ـ إن شاء الله تعالى ـ يذكر فيها تعالى خَلْقَ آدمَ وأَمْرَه الملائكةَ بالسُّجودِ له تشريفاً وتكريماً، ويُبيِّن عداوةَ إبليسَ لبني آدَمَ ولأبيهم قديماً. ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾، أي: امتنع واستكبر، ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾، يعني حَوّاءَ عليهما السلام، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾، أي: إياك أن يسعى في إخراجك منها فتتعَبَ وتَعْنى وتَشْقى في طَلَب رِزْقِك، فإنك هاهنا في عيشٍ رغيدٍ هَنيءٍ، لا كُلفَةَ ولا مَشقَّة. ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾: إنما قَرَنَ بين الجوع والعُري لأن الجوعَ ذُلّ الباطن والعُرْيَ ذُلُّ الظاهر. ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾: وهذان أيضاً متقابلان، فالظَّمأ: حَرُّ الباطن، وهو العطش. والضُّحِيُّ: حَرُّ الظاهِرِ.

وقولُه تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾: قد تقدم أنه دلاّهما بغرورٍ، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢١]. وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعيَّنة في الجنة. فلم يَزَلْ بهما إبليسُ حتى أكَلاَ منها، وكانت شجرةَ الخُلْدِ ـ يعني التي من أكل منها خَلَد ودام مكثه ـ

[٤٥٦٩] وقد جاء في الحديث ذِكْرُ شجرة الخُلدِ، فقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبةُ، عن أبي الضَّحّاكِ، سَمِعتُ أبا هُرَيرة يحدِّث، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ في الجنّة شجرةً يسيرُ الراكبُ في ظِلّها مائةَ عامٍ، مَا يقْطَعها، وهي شجرةُ الخُلدِ»[2]. ورواه الإمامُ أحمدُ.

[٤٥٧٠] وقولُه: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾. قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سَعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادَة، عن الحسن، عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله خَلَق آدم رَجُلاً طُوَالاً كثيرَ شَعْرِ الرأس، كأنه نخلةٌ سَحُوقٌ. فلما ذاق الشجرة سَقَط عنه لباسُه، فَأَوّلُ ما بدا منه عَوْرَتُه، فلما نَظَر إلى عَوْرَتِه جعل يَشْتَدُّ في الجنة، فأخذَتْ شعرَه شجرةٌ،

---

(١) هذه الرواية عند البيهقي في «الشعب» ٤٣٧٦ من طريق أبي عاصم به.

(٢) تقدم في تفسير سورة الرعد عند آية: ٢٩.

فنازعها، فناداه الرحمنُ: يا آدمُ، مِنّي تَفِرُّ؟ فَلَمَّا سَمِع كلامَ الرَّحمن قال: يا ربِّ لا، ولكن استحياءً، أرأيت إن تبتُ ورجعتُ، أعائِدي إلى الجنَّةِ؟ قال: نعم، فَذلك قولُه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾[1] [البقرة: ٣٧]. وهذا منقطعٌ بين الحسن وأُبيِّ بن كعب، فلم يَسْمعه منه، وفي رفعه نظرٌ أيضاً.

وقولُه تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾، قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب. وكذا قال قتادةُ والسدِّي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن عَوْنٍ، حدثنا سفيان، عن ابن أبي ليلى، عن المِنْهالِ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾، قال: يَنْزِعان وَرَقَ التِّين، فيجعلانِه على سَوْآتِهما. وقولُه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾.

[٤٥٧١] قال البخاريُّ: حدثنا قُتَيبة، حدثنا أيوبُ بن النَّجار، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرةَ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «حاجَّ موسى آدمَ فقال له: أنت الذي أخرجتَ الناسَ من الجنَّةِ بذنبك وأشقيتَهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسَالاته وبكلامه، أتلومُني على أمرٍ قد كَتَبه الله عليَّ قبل أن يخلقَني، أو: قَدَّره الله عليَّ قبل أن يخلقني؟ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: فَحَجَّ آدمُ موسى»[2]. وهذا الحديث له طرق في الصحيحين وغيرهما من المسانيد.

[٤٥٧٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرني أنس بن عِياض، عن الحارث بن أبي ذُبَاب، عن يزيدَ بن هُرمُزَ قال: سمعتُ أبا هُرَيرة يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «احتجَّ آدَمُ وموسى عند رَبِّهما، فحج آدمُ موسى، قال موسى: أنت الذي خلقَكَ الله بيده، ونفَخَ فيك من رُوحه، وأسجَدَ لك ملائكته، وأسكنَكَ في جَنّته، ثم أهبطتَ الناسَ إلى الأرضِ بخطيئتكَ. قال آدم: أنتَ مُوسَى الذي اصطَفاكَ الله برسالَتِهِ وكَلامِهِ، وأعطاكَ الألْوَاحَ فيها تبيان كلِّ شَيْءٍ، وقرّبك نَجياً، فَبِكَم وَجدْتَ الله كتَبَ التوراةَ؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وَجدتَ فيها: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟ قال: نعم. قال: أَفَتَلُومني على أن عملتُ عملاً كَتَب الله عليَّ أن أعمَلَه قبل أن يخلُقَني بأربعينَ سنةً، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: فحجَّ آدمُ موسى». قال الحارثُ: وحدَّثني عبد الرحمن بن هُرمُزَ بذلكَ عن أبي هُرَيرة، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ[3].

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾

يقولُ تعالى لآدَمَ وحوّاء وإبليسَ: اهبطوا منها جميعاً، أي: من الجنَّةِ كُلُّكم. وقد قدَّمنا بَسْطَ ذلك في سورة البقرة. ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾، قال: آدمُ وذُرِّيته، وإبليسُ وذُرِّيته. وقولُه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾، قال أبو العالية: الأنبياءُ والرسلُ والبيانُ. ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾، قال ابنُ عباس: لا يَضِلّ في الدنيا، ولا يشقَى في الآخِرَةِ. وقولُه: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾، أي: خالفَ أمري وما أنزلتُه على رَسُولي،

---

(١) وإسناد الحديث ضعيف، وتقدم تخريجه.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٣٨ بهذا الإسناد، وأخرجه البخاري ٦٦١٤ ومسلم ٢٦٥٢ وأبو داود ٤٧٠١ وابن ماجه ٨٠ وأحمد ٢/٢٤٨ وابن حبان ٦١٨٠ من طرق من حديث سفيان عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٥٢ ح ١٥ من طريق أنس بن عياض به.

أعرَضَ عنه وتناساه وأخَذَ من غيره هداه، ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، أي: في الدنيا، فلا طمأنينةَ له، ولا انشراحَ لصدرِه، بل صَدْرُه ضَيّقٌ حَرِجٌ لضلالِه، وإن تَنَعَّم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكَلَ ما شاء، وسَكَن حيث شاء، فإنَّ قلبه ما لم يخلُصْ إلى اليقينِ والهُدَى، فهو في قَلَقٍ وَحيْرَةٍ وشَكٍّ، فلا يزالُ في رِيبَةٍ يتردَّدُ. فهذا من ضَنْكِ المَعيشَةِ. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، قال: الشقاء. وقال العَوْفي، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، قال: كلّ مال أعطيتُه عبداً من عبادي، قل أو كثر، لا يتقيني فيه، فلا خَير فيه، وهو الضَّنْكُ في المَعيشةِ. ويُقال أيضاً: إنَّ قوماً ضُلالاً أعرضُوا عن الحقِّ، وكانوا في سَعَةٍ من الدنيا مُتكبِّرين، فكانت معيشتهم ضَنكاً؛ ذلك أنَّهم كانوا يَرَون أنَّ الله ليس مُخلفاً لهم معايشهم، من سُوء ظَنِّهم بالله والتكذيبِ، فإذا كان العبدُ يُكذِّب بالله، ويُسيىء الظنَّ به والثقةَ به، اشتدَّت عليه معيشتُه، فذلك الضَّنْكُ. وقال الضحاك: هو العمل السيِّىءُ، والرزقُ الخبيثُ. وكذا قال عكرمةُ، ومالك بن دينار. وقال سفيان بنُ عُيَيْنة، عن أبي حَازِم، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي سعيد في قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، قال: يُضيَّق عليه قبرُه حتى تَختلفَ أضلاعُه فيه. وقال أبو حاتم الرازيُّ: النعمانُ بن أبي عَيَّاشٍ يُكنَى أبا سَلَمةَ.

[٤٥٧٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا صفوانُ، حدثنا الوليد حدثنا عبد الله بن لَهيعةَ، عن دَرّاج، عن أبي الهَيْثَم، عن أبي سَعِيدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ في قولِ الله عَزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، قال: ضَمَّة القبر[١]. الموقوف أصح.

[٤٥٧٤] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا الربيعُ بن سُليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لَهيعَةَ، حدثنا دَراج أبو السَّمْحِ، عن ابن حُجَيْرَة ـ واسمه عبد الرحمن ـ عن أبي هُرَيرة، عن رسولُ الله ـ ﷺ ـ قال: «المؤمن في قبره في روضة خضراء، ويُرَحَّب له في قبره سبعون ذراعاً، ويُنَوَّر له قبرُه كالقَمَر ليلةَ البَدْرِ، أتدرُونَ فيم أُنزِلَت هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؟ أتدرون ما المعيشةُ الضَّنك؟ قالوا: الله ورسولُه أعلَمُ. قال: عَذابُ الكافِرِ في قبره، والذي نفسي بِيَدِهِ إنه لَيُسلَّط عليه تسعةٌ وتسعون تِنّيناً، أتدرون ما التِّنين؟ تسعةٌ وتسعون حَيَّةً، لِكُلِّ حية سبعة رُؤوس ينفخُون في جِسْمِه، ويَلسَعُونَه ويخدِشُونه إلى يوم يُبعَثُونَ»[٢]. رَفعهُ مُنكر جداً.

[٤٥٧٥] وقال البزَّارُ: حدثنا محمد بن يحيى الأزدي، حدثنا محمد بن عمرو، حدثنا هشام بن سَعْدٍ، عن سَعِيد بن أبي هِلاَل، عن ابن حُجَيرَةَ، عن أبي هُرَيرَة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، قال: المعيشة الضنكُ الذي قال الله تعالى: أنه يُسَلَّطُ عليه تسعةٌ وتسعونَ حيةً، ينهَشُونَ لحمَه حتى تَقومَ الساعةُ»[٣].

[٤٥٧٦] وقال أيضاً: حدثنا أبو زُرعَةَ، حَدَّثنا أبو الوليد، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن مُحَمَّد بن عمرو، عن

---

(١) إسناده ضعيف؛ له علتان: ابن لهيعة، ضعيف، ودراج ضعيف في روايته عن أبي الهيثم.

(٢) أخرجه ابن حبان ٣١٢٢ والطبري ٢٤٤٢٦ من طريقين عن دراج بهذا الإسناد، وعلى هذا توبع ابن لهيعة عند ابن حبان، لكن علة الحديث دراج، وقد حسن بعضهم حديثه إذا كان من روايته عن غير أبي الهيثم، وقد حسن إسناده الشيخ شعيب. وقد توبع دراج عند البزار ٢٢٣٣، لكن قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٧٠: فيه من لم أعرفه. وورد من حديث أبي سعيد مختصراً. أخرجه ابن حبان ٣١٢١ والدارمي ٢٧١١ وأحمد ٣/ ٣٨ لكنه من رواية دراج عن أبي الهيثم، وفيها ضعف. وانظر ما بعده.

(٣) تقدم مع ما قبله.

أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة، عن النبي - ﷺ -: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: عذاب القبر[1]. إسنادٌ جيّدٌ.

وقولُه تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾، قال مجاهد: وأبو صالح، والسدّيّ: لا حُجّة له. وقال عكرمة: عُمّي عليه كلُّ شيء إلا جهنَّم. ويَحتَمِلُ أن يكون المراد أنه يُحشَر أو يبعث إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ولهذا يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾، أي: في الدنيا، ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾، أي: لما أعرضت عن آيات الله، وعامَلْتَها معاملةَ مَن لم يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتَها وأعرضتَ عنها وأغفلتها، كذلك اليوم نُعامِلُك معاملةَ مَنْ ينساك، ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]؛ فإنَّ الجزاءَ من جِنسِ العَمَل. فأما نِسيانُ لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان مُتوَعّداً عليه من جَهةٍ أخرى؛ فإنه قد وَرَدَت السُّنةُ بالنهي الأكيد والوعيدِ الشديد في ذلك.

[٤٥٧٧] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا خَلَفُ بن الوليد، حدثنا خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عيسى ابن فائد، عن رَجُلٍ، عن سعد بن عُبادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما من رجل قَرَأ القرآن فَنَسِيه إلا لقي الله يومَ يلقاه وهو أَجْذَمُ»[2] ثم رواه الإمامُ أحمدُ من حديث يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن عُبادة بن الصامت، عن النبي - ﷺ -، فذكر مثله سواء.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾

يقولُ تعالى: وهكذا نُجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة، ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد: ٣٤]، ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾، أي: أشد ألماً من عذاب الدنيا، وأدومُ عليهم، فهم مخلَّدون فيه.

[٤٥٧٨] ولهذا قال رسول الله - ﷺ - للمتلاعنين: «إنَّ عذابَ الدنيا أهونُ من عَذابِ الآخرة»[3].

---

(١) جوده المصنف، وفي ذلك نظر، فإن محمد بن عمرو روى له الشيخان متابعة، وقال يحيى ثقة، وفي رواية: كانوا يتقون حديثه. وقال الجوزجاني: ليس بالقوي، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به، وقد أخرجه الطبري ٢٤٤٢١ من وجه آخر عن محمد بن عمرو بهذا الإسناد موقوفاً، وورد عن أبي سعيد مرفوعاً. أخرجه الحاكم ٢/ ٣٨١ ح ٣٤٣٩ وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، لكنه معلول، فقد أخرجه الطبري ٢٤٤١٧ ٢٤٤١٨ و٢٤٤١٩ و٢٤٤٢٠ و٢٤٤٢٥ من عدة طرق عن أبي سعيد موقوفاً، وهو أصح من المرفوع لمجيئه من طرق كلها صحاح. فالخبر فيه ضعف، وظاهر الآية أن المراد بذلك في الحياة الدنيا، كما يفهم من لفظ «معيشة»؛ والله أعلم بالصواب.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٥/ ٢٨٥ ح ٢١٩٥٧. والبزار ١٦٤٢ والطبراني ٥٣٨٨، وإسناده ضعيف جداً، له ثلاث علل: يزيد بن أبي زياد ضعفه الجمهور، وعيسى بن فائد، هو أمير الرقة مجهول، وفيه رجل لم يسمّ، والظاهر أن له علة رابعة، وهي أنه جعله من حديث سعد بن عبادة، والظاهر أنه وهم فيه أحد الرواة، وأن صوابه من حديث عبادة بن الصامت، كما أخرجه أحمد ٥/ ٣٢٣ ح ٢٢٢٥ وإسناده ضعيف جداً فهو الإسناد السابق. وقد أخرجه عبد الله ٥/ ٣٢٣ ح ٢٢٢٧٥ عن يزيد عن عيسى عن عبادة، وهكذا أسنده عبد الله بإسقاط الرجل الذي لم يسمّ في رواية أبيه، وأياً كان فله علل ثلاث كما تقدم. وبهذا يتبين أن قول الهيثمي في «المجمع» ٩٠٣٤ و٩٠٣٥: - فيه راوٍ لم يسم، وبقية أحد إسنادي أحمد رجالها رجال الصحيح - غير سديد، فإن يزيد بن أبي زياد، ما روى له مسلم في الأصول، وإنما روى له متابعة، وقد ضعفه يحيى وابن المبارك وغيرهما كما تقدم، فالخبر واهٍ، والله تعالى أعلم. ثم إن عيسى بن فائد مجهول كما في التقريب» وروايته عن الصحابة مرسلة. فإسناد عبد الله بن أحمد منقطع أيضاً.

(٣) يأتي في سورة النور إن شاء الله.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ لهؤلاء المكذِّبين بم جئتهم به ـ يا محمَّدُ ـ كم أهلكنا من الأُمَم المكذِّبين بالرسل قبلهم، فبادوا، فليس لهم باقيةٌ ولا عينٌ ولا أثرٌ، كما يُشاهِدُون ذلك من ديارهم الخالية التي خَلَفُوهم فيها، يمشُون فيها، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾، أي: العقول الصحيحة، والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، وقال في سورة «السَّجدةِ»: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾، أي: لولا الكلمةُ السابقة من الله، وهو أنه لا يُعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجَّة عليه ـ والأجلُ المسمى الذي ضَرَبه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدَّةٍ مُعَيَّنة ـ لجاءهم العذاب بغتةً. ولهذا قال لنبيِّه مسلياً له: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾، أي: تكذيبهم لك، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾، يعني صلاةَ الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاة العصرِ.

[٤٥٧٩] كما جاء في الصحيحين، عن جرير بن عبد الله البَجَليِّ رضي الله عنه قال: كُنَّا جُلوساً عندَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، فَنظر إلى القمر ليلةَ البدرِ، فقال: «إنكم سَترون رَبَّكم كما تَرَونَ هذا القمر، لا تُضامُون في رؤيته، فإن استطعتم ألاَّ تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا»، ثم قرأ هذه الآيةَ[1].

[٤٥٨٠] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سُفيان بن عُيَينة، عن عبد الملك بن عُمير، عن عمارة بن رُوَيبَةَ قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لن يَلِجَ النار أحدٌ صَلَّى قبلَ طلوع الشمس، وقبل غُروبِها»[2]. رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عُمَير، به.

[٤٥٨١] وفي المُسْنَد والسُّنَن، عن ابن عُمَر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ أدنى أهل الجنَّةِ منزلةً من ينظُر في مُلْكِه مسيرةَ ألفي سنةٍ، ينظر إلى أقصاه كما ينظُر إلى أدناه، وإنَّ أعلاهم مَنْزِلةً لِمَن ينظر إلى الله عزَّ وجلَّ في اليوم مَرَّتين»[3]. وقولُه: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾، أي: ساعاتِه فتهجَّد به. وحَمَله بعضُهم على المغرب والعِشاءِ، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾، في مقابلة آناءِ الليل، ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾﴾ [الضحى: ٥].

[٤٥٨٢] وفي الصَّحِيح: «يقول الله تعالى: يا أهلَ الجنة. فيقولون: لَبَّيكَ رَبَّنا وسَعْدَيْكَ. فيقول: هل رَضِيتم، فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتَنا ما لم تُعط أحداً من خَلْقِكَ؟ فيقول: أنا أُعطِيكم أفضلَ مِن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٤ و٤٨٥١ ومسلم ٦٣٣ وأبو داود ٤٧٢٩ والترمذي ٢٥٥١ وابن ماجه ١٧٧ وأحمد ٤/٣٦٠ وابن حبان ٧٤٤٢.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٦٣٤ وأبو داود ٤٢٧ والنسائي ١/٢٣٥ وأحمد ٤/١٣٦ و٢٦١ وابن حبان ١٧٤٠.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٥٥٣ وأحمد ٢/٦٤ وأبو يعلى ٥٧١٢ والآجري في «الشريعة» ٦٣١ والبيهقي في «البعث والنشور» ٤٧٧ وإسناده ضعيف، لضعف ثوير بن أبي فاختة، وكذا ذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/٤١٠ وقال: وفي أسانيدهم ثوير بن أبي فاختة مجمع على ضعفه اهـ.

ذلِكَ. فيقولون: وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أَسخطُ عليكم بعده أبداً»[١].

[٤٥٨٣] وفي الحديث الآخر يقال: «يا أهلَ الجنّةِ، إنَّ لكم عند الله مَوْعِداً يُريد أن يُنجِزكُموه. فيقولون: وما هو؟ ألم يُبيِّض وجوهنا؛ ويُثَقِّل موازيننا، ويُزَحزِحنا عن النار، ويُدخِلْنا الجنة؟ فيُكشَفُ الحجابُ، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهي الزيادة»[٢].

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

يقول تعالى لنبيِّه محمد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: لا تنظر إلى ما متَّعنا به هؤلاء المترَفين وأشباهَهم ونُظَراءهم، وما هم فيه من النعيم، فإنما هو زَهرةٌ زائلةٌ، ونعمة حائلة، لِنَختبِرَهم بذلك، وقليلٌ من عبادِيَ الشكورُ. وقال مجاهدٌ: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾، يعني الأغنياء، فقد آتاك الله خيراً مما آتاهم. كما قال في الآية الأُخرى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٧ ـ ٨٨]، وكذلك ما ذَخَره الله تعالى لرسوله ﷺ في الدار الآخرة أمْرٌ عظيمٌ لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: ٥]، ولهذا قال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

[٤٥٨٤] وفي الصَّحِيح أن عُمَر بن الخطاب لما دَخل على رسولِ الله ـ ﷺ ـ في تلك المَشْرُبة التي كان قد اعتزل فيها نساءه، حين آلى منهن، فرآه متوسداً مضطجعاً على رِمالِ حصير، وليس في البيت إلا صُبْرَة من قَرَظٍ وأَهَبَةٌ مُعلَّقة، فابتَدَرتْ عينا عُمرَ بالبُكَاءِ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما يبكيك يا عُمَر؟ فقال: يا رسولَ الله، إنَّ كسرى وقيصرَ فيما هُما فيه، وأنتَ صَفوةُ اللهِ من خَلْقِهِ؟ فقال: «أوَ في شَكٍّ أنت يا ابن الخطاب؟! أولئك قومٌ عُجِّلت لهم طَيِّباتُهم في حَيَاتِهم الدنيا»[٣]. فكان ـ صلوات الله وسلامُه عليه ـ أزهدَ الناس في الدُّنيا مع القُدرةِ عليها، إذا حَصَلت له يُنفِقُها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يَدَّخِر لنفسه شيئاً لغد.

[٤٥٨٥] وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس، أخبرني ابنُ وَهبٍ، أخبرني مالك، عن زَيدِ بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الحياة الدنيا. قالوا: وما زَهرةُ الدنيا يا رسول الله؟ قال: بركاتُ الأرض»[٤]. وقال قتادةُ، والسدّيُّ: زهرة الدنيا، يعني زينةُ الحياةِ الدنيا، وقال قتادةُ: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ لِنَبتَلِيَهُم. وقولُه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، أي: استَنقِذْهم من عذاب الله بإقامِ الصَّلاةِ، واصطَبِرْ أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابنُ وهب، أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلَمَ، عن أبيه أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده [من غلمانه] أنا ويَرْفا[٥]. وكان له ساعةٌ من الليل يُصلّي فيها، فَرُبّما لم يَنَمْ فَنَقولُ: لا يَقُومُ الليلةَ كما كانَ يَقُومُ. وكان إذا استيقظَ أَقَامَ ـ يعني أهلَه ـ وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٤٩ و٧٥١٨ ومسلم ٢٨٢٩ وأحمد ٣/٨٨ والترمذي ٢٥٥ وأبو نعيم في «صفة الجنة» ٢٨٢ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) تقدم في سورة يونس.

(٣) يأتي في سورة التحريم عند آية: ٤.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٩٢١ ومسلم ١٠٥٢ في أثناء حديث.

(٥) هو مولى عمر، وما بين المعقوفتين من الطبري ٢٤٤٦١.

وقوله تعالى: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، يعني إذا أقمتَ الصَّلاة أتاك الرِّزْقُ من حيثُ لا تحتَسِبُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]، ولهذا قال: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، قال الثوري: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾، أي: لا نُكلِّفُك الطَّلَبَ. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا حفصُ بنُ غياثٍ، عن هشام، عن أبيه: أنه كان إذا دخل على أهلِ الدنيا، فرأى من دنياهم طَرَفاً فإذا رَجعَ إلى أهله فَدَخل الدار قرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، ثم يقول: الصلاةَ الصلاةَ، رَحِمكم الله.

[٤٥٨٦] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدَّثنا أبي، حدثنا عبدُ الله بنُ أبي زيادِ القَطَوانيّ، حدثنا سَيّار، حدثنا جعفر، عن ثابت قال: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ إذا أصابه خصاصةٌ نادى أهله: يا أهلاه، صَلُّوا. صَلُّوا. قال ثابتٌ: وكانت الأنبياء إذا نَزَل بهم أمرٌ فَزعُوا إلى الصَّلاةِ[١].

[٤٥٨٧] وقد رَوَى الترمذيّ وابنُ ماجه، من حديث عمرانَ بن زائدة، عن أبيه، عن أبي خالد الوالبيّ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يقول الله تعالى: يا ابنَ آدمَ، تَفرَّغ لعبادَتِي أَملأْ صدرَك غِنىً، وأَسُدَّ فَقْرَك. وإن لم تَفعَلْ ملأتُ صدرَكَ شُغلاً، ولم أسدَّ فَقْرَك»[٢].

[٤٥٨٨] وروى ابن ماجه من حديث الضحّاك عن الأسود عن ابن مسعود سمعت نبيكم ﷺ يقول: «من جعل الهموم همّاً واحداً هم المعاد كفاه الله همّ دنياه ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك»[٣].

[٤٥٨٩] ورَوَى أيضاً من حَديثِ شُعبةَ، عن عُمَر بن سُليمَان، عن عبد الرحمن بن أَبانَ، عن أبيه، عن زيدِ بن ثابتٍ: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «من كانت الدُّنيا هَمَّه فرَّقَ الله عليه أَمْرَه، وجَعَلَ فَقْرَه بين عينيه، ولم يَأْتِهِ من الدنيا إلا ما كُتِبَ له. ومن كانت الآخرة نِيَّتَه جَمَع له أَمْرَه، وجَعَل غناه في قَلْبِه، وأتته الدُّنيا وهي راغمة»[٤]. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، أي: وحسنُ العاقبةِ في الدنيا والآخرة ـ وهي الجنة ـ لمن اتَّقى الله.

[٤٥٩٠] وفي الصحيح أنَّ رَسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «رأيتُ الليلَةَ كأنا في دار عُقبةَ بن رَافِع، وأَنَّا أُتِينا بِرُطَب من رُطَبِ ابنِ طَابِ، فَأَوّلتُ ذلك أَنَّ العاقِبَةَ لنا في الدّنيا والرفعة، وأَنَّ دِينَنا قد طَابَ»[٥].

---

(١) هذا مرسل، ثابت هو بن أسلم البناني، تابعي فحديثه مرسل، والمرسل من قسم الضعيف.

(٢) جيد. أخرجه الترمذي ٢٤٦٦ وابن ماجه ٤١٠٧ وأحمد ٢/٣٥٨ والحاكم ٤٤٣٢ وابن حبان ٣٩٣ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن غريب اهـ، وانظر الصحيحة ١٣٥٩.

(٣) أخرجه ابن ماجه ٢٥٧ و٤١٠٦ وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده ضعيف، فيه نهشل، قيل إنه يروي المناكير، وقيل بل الموضوعات اهـ. لكن المتن محفوظ فقد أخرجه الحاكم ٢/٤٤٣ والبيهقي في «الشعب» ١٠٣٤٠ من حديث ابن عمر، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وهو بهذا الإسناد حسن.

(٤) جيد. أخرجه ابن ماجه ٤١٠٥ وابن حبان ٦٨٠ والطبراني في «الأوسط» ٧٢٦٧ والبيهقي في «الشعب» ١٧٣٦ و١٠٣٣٨. وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وللحديث شواهد يقوى بها، انظر «تفسير البغوي» ٤٦٣ بتخريجي، و«الترغيب والترهيب» ٤/ ٢٤ ـ ٢٦ للمنذري.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٧٠ وأبو داود ٥٠٢٥ وأحمد ٣/٢٨٦ وأبو يعلى ٣٥٢٨ من حديث أنس.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن الكفَّار في قولهم: ﴿لَوْلَا﴾، أي: هَلاَّ ﴿يَأْتِينَا﴾ مُحمَّدٌ ﴿بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾، أي: بعلامَةٍ دالَّةٍ على صِدْقِه في أنَّه رسولُ الله؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾، يعني القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله وهو أُمِّي لا يُحسِنُ الكتابَة، ولم يُدارِسْ أهلَ الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدُّهورِ، بما يُوافِقُه عليه الكُتُب المتقدِّمة الصحيحة منها، فإن القرآنَ مُهَيمِنٌ عليها، يُصدِّق الصحيحَ، ويُبيِّن خطأَ المكذُوب فيها وعليها. وهذه الآيةُ كقوله تعالى في سورة «العنكبوت»: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١].

[٤٥٩١] وفي الصحيحين عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «ما من نبيٍّ إلا وقد أُوتيَ من الآيات ما آمَنَ على مِثْلِه البشرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُه وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القيامةِ»[1]. وإنما ذُكِرَ هاهنا أعظمِ الآيات التي أُعطيها عليه السلام، وهو القرآنُ، وله مِنَ المعجزات ما لا يُحدُّ ولا يُحصَرُ، كما هو مُودَعٌ في كتبه، ومُقرَّر في مواضعه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾، أي: لو أنَّا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نُرْسِلَ إليهم هذا الرسولَ الكريم، ونُنزِّل عليهم هذا الكتابَ العظيمَ لكانوا قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تهلِكنا، حتى نُؤمِنَ به ونتَّبعَه؟ كما قال: ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾، يبين تعالى أنَّ هؤلاء المكذبين مُتعنِّتون مُعانِدُون لا يؤمنون، ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٧]، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٧]، وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: ٤٢]. وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩ ـ ١١٠].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾، أي: يا محمد لمن كذَّبك وخالَفك واستمرَّ على كفره وعناده: ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾، أي: منَّا ومنكم، ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾، أي: فانتظروا، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾، أي: الطريق المستقيم، ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾، إلى الحق وسبيل الرشاد. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢] وقال: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر: ٢٦].

آخرُ تفسير سُورة طه، ولله الحَمْدُ والمنّة

(١) تقدم في سورة الرعد: ٣١.



وهي مكية

قال البخاريُّ: حدثنا مُحمَّد بن بَشَّار، حدثنا غُنْدَر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاقَ: سَمعتُ عبد الرحمٰن بن يزيد، عن عبد الله قال: بنو إسرائيل، والكهفُ، ومريمُ، وطه، والأنبياءُ هُنَّ من العِتاقِ الأُوَلِ، وهنَّ من تلادِي[(١)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝٥ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

هذا تنبيهٌ من الله عزَّ وجلَّ على اقتراب الساعة ودُنُوِّها، وأنَّ الناس في غَفْلَةٍ عنها، أي: لا يعملُون لها، ولا يستعدون من أجلها.

[٤٥٩٢] وقال النَّسائي: حدثنا أحمد بن نصر، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسيُّ، حدثنا أبو معاويةُ، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سَعيدٍ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ: ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، قال: «في الدنيا»[(٢)]. وقال تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ١ ـ ٢]. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هانىء أبي نُوَاس الشاعرِ أنه قال: أشعرُ الناسِ الشيخُ الطاهر أبو العتاهية حيث يقولُ:

الـنَّـاس فـي غَـفَـلاتِـهِـمْ ... وَرَحـا الـمَـنِـيَّـةِ تَـطْـحَـن

فقيل له: من أين أخذتَ هذا؟ قال: من قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

[٤٥٩٣] ورَوَى في ترجمة عامر بن ربيعةَ، من طريق مُوسى بنُ عُبيدةَ الرَّبذيِّ، عن عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلَمَ، عن أبيه، عن عامرِ بن رَبيعَةَ: أنه نزل به رجلٌ من العَرَب فأكرَمَ عامِرٌ مَثواه، وكَلَّم فيه رسولَ الله ـ ﷺ ـ فجاءه الرجلُ فقال: إني استقطعتُ من رسولِ الله ـ ﷺ ـ وادياً في العَرَبِ، وقد أردتُ أن أُقطِعَ لك

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٣٩، وتقدم في سورة الإسراء.

(٢) صحيح. أخرجه النسائي في «التفسير» ٣٥٢ بهذا الإسناد، وأخرجه البخاري ٤٧٣٠ ومسلم ٢٨٤٩ ج ٤١ من طريق محمد عن الأعمش به مطوّلاً.

منه قطعةً تكونُ لك ولِعَقِبكَ من بعدك. فقال عامر: لا حاجةَ لي في قَطِيعَتِكَ، نزلَتِ اليومَ سورةٌ أذهَلَتْنا عن الدُّنيا: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾[1].

ثم أخبر تعالى أنهم لا يُصغون إلى الوَحْيِ الذي أنزله الله على رسوله، والخطابُ مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾، أي: جديد إنزالُه ﴿إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾، كما قال ابن عباس: مالكم تسألون أهلَ الكُتُب عما بأيديهم وقد حرَّفوه وبَدَّلوه، وزادوا فيه ونَقَصُوا منه، وكتابُكم أحدثُ الكتبِ بالله تقرؤونه مَحْضاً لم يُشَبْ. رواه البخاريّ بنحوه.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، أي: قائلين فيما بينهم خِفْيَةً: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾، يعنونَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يستبعدُون كونَه نبياً، لأنه بَشَر مثلهم، فكيف اختصَّ بالوحي دونهم؟! ولهذا قال: ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾، أي: أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلَم أنه سحر. فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه، من الكذب: ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، أي: الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافيةٌ، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض. وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، أي: السميعُ لأقوالكم، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بأحوالكم. وفي هذا تهديد لهم ووعيد. وقولُه: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾: هذا إخبار عن تَعَنُّتِ الكفار وإلحادهم، واختلافِهم فيما يَصِفُون به القرآن وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه. فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاثَ أحلام، وتارة يجعلونه مُفترىً، كما قال: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٤٨]. وقولُه: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾، يعنُون ناقةَ صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]... الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾، أي: ما آتينا قريةً من القُرَى الذين بُعِثَتْ فيهم الرسلُ آيةً على يَدَيْ نبيها فآمنوا بها، بل كَذَّبوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآياتِ لو رَأَوْها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]. هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات، على يَدَيْ رسولِ الله ـ ﷺ ـ ما هو أظهر وأجلى، وأبهرُ وأقطع وأقهر، مما شُوهِدَ مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامُه عليهم أجمعين.

[٤٥٩٤] قال ابن أبي حاتم رحمه الله: ذكر عن زيد بن الحُبَاب: حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا الحارث ابن يزيد الحَضرمي، عن علي بن رَبَاح اللَّخمي، حدَّثني من شهد عُبادة بن الصامت يقول: كُنّا في المسجد، ومعنا أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يُقرىءُ بعضنا بعضاً القرآن، فجاء عبد الله بن أُبَيّ ابن سَلُولَ، ومعه نُمرُقة وزربيَّة، فوضع واتَّكأ، وكان صبيحاً فَصيحاً جدلاً، فقال: يا أبا بكر، قل لمحمد يأتينا بآية كما جاء الأولون؟ جاء موسى بالألواح، وجاء داوُدُ بالزَّبُور، وجاء صالح بالناقة، وجاء عيسى بالإنجيل وبالمائدة. فبكى أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فخرج رسول الله ـ ﷺ ـ فقال أبو بكر: قوموا بنا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ نستغِيثُ به من هذا المنافق. فقال رسول الله: إنه لا يقام لي، إنما يقام لله عزَّ وجلَّ. فقلنا: يا رسول الله، إنا لقينا من هذا المنافق! فقال: أتى جبريل فقال لي: اخرج فأخبِر بنعمِ الله التي أنعَم بها عليك، وفَضِيلته التي فُضِّلتَ بها.

---

(١) إسناده ضعيف، له علتان: موسى بن عبيدة ضعيف الحديث، ومثله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

فبشرني أنه بعثني إلى الأحمر والأسود، وأمرني أن أنذر الجنّ، وآتاني كتابه وأنا أمّي، وغفر ذنبي ما تقدم وما تأخر، وذكر اسمي في الأذان، وأمدّني بالملائكة، وآتاني النصر، وجعل الرّعب أمامي، وآتاني الكوثر، وجعل حوضي من أعظم الحِياض يوم القيامة، ووعدني المقام المحمود والناس مُهطِعُون مُقْنِعو رُؤوسهم، وجعلني في أول زمرة تخرج من الناس، وأدخل في شفاعتي سبعين ألفاً من أمتي الجنةَ بغير حساب، وآتاني السُّلطانَ والمُلكَ، وجعلني في أعلى غُرْفَةٍ في الجنةِ في جنات عَدْنٍ، فليس فوقي أحدٌ إلا الملائكةُ الذين يحمِلُون العرش، وأحلّ لي ولأمتي الغنائِمَ، ولم تحلّ لأحدٍ كان قبلنا»[1]. وهذا الحديث غريب جداً.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾

يقولُ تعالى راداً على من أنكر بعثةَ الرُّسُل من البشر: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾، أي: جميعُ الرُّسُلِ الذين تقدموا كانوا رِجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما في الآية الأخرى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: اسألوا أهلَ العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرُّسُل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ إنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نِعَم الله على خَلْقِهِ، إذْ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم. وقولُه: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، أي: بل كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، أي: قد كانوا بشراً من البشر، يأكلون ويشربُون مثلَ الناس، ويدخلون الأسواق للتكسُّب والتِّجارة، وليس ذلك بِضَار لهم ولا ناقص منهم شيئاً، كما توهمه المشركون في قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٨].

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾، أي: في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾، وخاصّتهم أنهم يُوحَى إليهم من الله عزّ وجلّ، يتنزّل عليهم الملائكة عن الله بما يحكُم في خَلْقِه، مما يأمر به وينهى عنه. وقولُه: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾، أي: الذي وَعَدهم ربُّهم، ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، صَدَقهم الله وعده، فَفَعل ذلك، ولهذا قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾، أي: أتباعَهم من المؤمنين، ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، أي: المكذِّبين بما جاءت الرسل به.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ

---

(١) إسناده ضعيف، له علتان: ابن لهيعة ضعيف الحديث، وفيه راو لم يسمّ، وتقدم بسياق آخر، والله أعلم.

فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

يقولُ تعالى مُنبِّهاً على شَرَف القرآن، ومُحرِّضاً لهم على معرفة قدره: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، قال ابن عباس: شَرَفُكم، وقال مجاهد: حَديثُكم. وقال الحسن: دِينُكم. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: هذه النعمةَ وتَتلقَّونها بالقَبول، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾. هذه صيغةُ تكثير، كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾، أي: أُمَّةً أخرى بَعْدَهم. ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ﴾، أي: تَيَقَّنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيُّهم، ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾، أي: يَفِرُّون هاربينَ، ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾، هذا تَهكُّم بهم نزراً، أي: قيل لهم نزراً: لا تركُضُوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النِّعمةِ والسُّرور، والعِيشَةِ والمساكن الطيبة. قال قتادة: استهزاءً بهم. ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾، أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعمة. ﴿قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾﴾، اعترَفُوا بذنوبهم حين لا ينفعُهم ذلك، ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾، أي: ما زالت تلك المقالةُ ـ وهي الاعترافُ بالظلم ـ هِجِّيراهُم حَتّى حَصَدْناهُم حَصْداً. وخَمدت حركاتُهم وأصواتُهم خُموداً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يخبر تعالى أنه خلق السَّمواتِ والأرْضَ بالحقِّ، أي: بالعَدْلِ والقسط، ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عَبَثاً ولا لَعِباً، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧]. وقولُه تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾، قال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾، يعني من عندنا، يقول: وما خَلَقنا جَنَّةً ولا ناراً، ولا مَوْتاً ولا بعثاً، ولا حِسَاباً. وقال الحسن، وقتادةُ وغيرهما: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾، اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن. وقال إبراهيم النخعيُّ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [قال: نساء][(١)]، ﴿لَّاتَّخَذْنَٰهُ﴾، من الحُورِ العِينِ. وقال عكرمةُ، والسدِّيُّ: المرادُ باللهو هاهنا الولد. وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [الزمر: ٤]، فَنَزَّه نفسه عن اتِّخاذ الوَلَد مُطلقاً، لا سِيَّما عما يقولون من الإفك والباطل، من اتِّخاذِ عيسى، أو عُزيرٍ، أو الملائكةِ، سُبحان الله عما يقولون عُلوّاً كبيراً. وقولُه: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، قال قتادة،

(١) ما بين المعقوفتين من الدر المنثور ٤/ ٥٦٥.

والسّدّي، وإبراهيم النخعيُّ، ومغيرة بن مِقْسَم: أي ما كنا فاعلين. وقال مجاهد: كل شيء في القرآن «إنْ» فهو إنكار. وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾، أي: نُبيِّن الحق فيَدحَضُ الباطلَ، ولهذا قال: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: ذاهبٌ مُضمحِلٌ، ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾، أي: أيها القائلون: لله وَلَدٌ، ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾، أي: تقولون وتفترُونَ. ثم أخبر تعالى عن عُبوديةِ الملائكةِ له، ودأبِهم في طاعتِهِ ليلاً ونَهاراً، فقال: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ﴾، يعني الملائكةَ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾، أي: لا يستنكفون عنها، كما قال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء: ١٧٢]. وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾، أي: لا يَتْعَبُون ولا يَملُّون، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾، فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مُطيعون قصداً وعَمَلاً، قادِرون عليه، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

[٤٥٩٥] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عليُّ بن أبي دُلامة البَغْدادي، أنبأنا عبد الوهاب بن عَطاءٍ، حدثنا سعيد، عن قتادةَ، عن صفوان بن مُحرز، عن حكيم بن حِزَام قال: بينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمَعُون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمَعُ من شيءٍ. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إني لأسمع أَطِيطَ السماءِ، وما تُلام أن تَئِطُّ، وما فيها مَوْضِع شِبْرٍ إلا وعليه ملك ساجد أو قائم»[1]. غريب ولم يُخرجُوه. ثم رواه ابن أبي حاتم من طريق يزيد بن زُرَيعٍ، عن سعيد، عن قتادة، مرسلاً. وقال محمد بن إسحاق، عن حسّان بن مخارق عن عبد الله بن الحارث بنِ نوفل قال: جلستُ إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرأيتَ قولَ الله تعالى للملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾، أما يشغلهم عن التَّسبيح الكلامُ والرسالةُ والعملُ؟ فقال: من هذا الغُلامُ؟ فقالوا: من بَني عبد المطّلب. قال: فَقبّل رأسي، ثم قال لي: يا بُنَيَّ، إنه جَعَل لهم التسبيح كما جَعَل لكم النَّفسَ، أليس أنتَ تتكلم وأنت تَتَنفَّسُ، وأنت تمشي وأنت تَتَنفَّسُ؟

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يُنكر تعالى على من اتَّخذ من دونه آلهةً، فقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾، أي: أهم يُحيون الموتى ويُنشِرُونهم من الأرض؟! أي: لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نِدّاً وعَبدُوها معه؟! ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لَفسَدت السمواتُ والأرضُ، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾، أي في السماء والأرض، ﴿لَفَسَدَتَا﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال هاهنا: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي: عما يقولون أنّ له ولداً أو شريكاً، سُبحانه وتعالى وتقدّس وتنزّه عن الذي يفترون ويأفكون عُلوّاً كبيراً. وقوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾، أي: هو الحاكم الذي لا مُعقِّبَ لِحُكمِهِ، ولا يعترضُ عليه أحدٌ، لعَظمته وجلاله وكبريائه، وعُلوِّه وحكمته وعَدله ولُطفه، ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، أي: وهو سائلٌ خلقَه عمّا يعملون، كَقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣]. وهذا كَقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

---

(١) في إسناده عبد الوهاب بن عطاء الخفاف قال يحيى: ليس به بأس. وقال أحمد: ضعيف الحديث مضطرب، ووثقه الدارقطني. وهو غريب بهذا اللفظ، ولعجزه شواهد. والغرابة فقط في صدره.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ﴾ يا محمدُ: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ﴾، أي: دَليلكم على ما تقولون، ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾، يعني القرآن، ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ﴾، يعني الكتبَ المتقدمةَ على خلافِ ما تقولون وتزعُمون، فكلُّ كتابٍ أُنزِلَ على كُلِّ نبيٍّ أُرسِلَ ناطقٌ بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم ـ أيُّها المشركون ـ لا تعلَمونَ الحقَّ، فأنتم مُعرضُونَ عنه. ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾، كما قال: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، فكُلُّ نبيٍّ بعثه الله يدعُو إلى عبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، والفِطرَةُ شاهدةٌ بذلك أيضاً، والمشركون لا بُرْهانَ لهم، وحُجَّتهم داحضةٌ عند رَبِّهم، وعليهم غَضَبٌ، ولهم عذابٌ شديدٌ.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يقولُ تعالى راداً على من زَعَم أنَّ له ـ تعالى وتقدَّس ـ ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بَناتُ الله، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، أي: الملائكةُ عبادُ الله، مُكرَمُون عندَه في منازِلَ عاليةٍ ومقاماتٍ ساميةٍ، وَهُم له في غايةِ الطاعةِ قَولاً وفِعلاً. ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: لا يَتقدَّمون بين يديه بأمرٍ ولا يُخالِفُونه فيما أَمَر به، بل يُبادِرُون إلى فِعْلِه، وهو تعالى عِلْمُه محيطٌ بهم، فلا يَخْفى عليه منهم خافيةٌ، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، كقولِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقولِه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: ٢٣]، في آياتٍ كثيرة في معنى ذلك. ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾، أي: من خَوفه ورَهبتِه ﴿مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾، أي: مَن ادَّعى منهم أنه إلهٌ من دُونِ الله، أي: مَعَ الله، ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: كُلَّ من قال ذلك. وهذا شرطٌ، والشرطُ لا يلزَم وقوعُه، كقولِهِ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١]، وقولِهِ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقولُ تعالى مُنبِّهاً على قُدرته التامة وسُلطانه العظيم في خَلْقِهِ الأشياء، وقَهرِه لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، أي: الجاحدُون لإلهيته العابدُون معه غيره، ألم يعلَمُوا أن الله هو المستقلُّ بالخلق،

المستبدُ بالتدبير، فكيفَ يليقُ أن يُعبَد معه غيرُه أو يُشرَك به ما سواه، ألم يَروا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، أي: كان الجميع مُتَّصِلاً، بعضُه ببعضٍ متلاصقٌ، متراكمٌ بعضُهُ فوق بعض في ابتداء الأمر، ففَتَق هذه من هذه فَجَعل السمٰواتِ سبعاً، وفصل بينَ سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماءُ وأنبتت الأرضُ، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: وهم يشاهِدُون المخلوقاتِ تحدُثُ شيئاً فشيئاً عِياناً، وذلك كله دليلٌ على وجود الصانع، الفاعل المختارِ، القادرِ على ما يشاءُ:

فَـفِـي كُـلِّ شَـيءٍ لَـهُ آيَـةٌ ... تَـدُلُّ عَـلَـى أنَّـهُ وَاحِـدُ

قال سفيانُ الثوريُّ، عن أبيه، عن عكرمة قال: سُئِل ابن عباس: الليلُ كان قبلُ أو النهار؟ فقال: أرأيتم السمواتِ والأرض حين كانتا رَتْقاً، هل كان بينها إلا ظلمة؟ ذلك لتعلمُوا أن الليل قبل النهار.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن حمزةَ، حدثنا حاتم، عن حمزة بن أبي محمد، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عُمَر: أن رجلاً أتاه يسألُهُ عن السموات والأرض ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، قال: اذهَبْ إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعالَ فأخبرني ما قال لك. قال: فَذَهب إلى ابن عباس فسأله، فقال ابن عباس: نعم، كانت السمواتُ رَتْقاً لا تُمطِرُ، وكانت الأرض رَتْقاً لا تُنبِتُ، فلما خَلَق للأرضِ أهلاً فَتَق هذه بالمطر، وفَتَق هذه بالنبات. فرجع الرجُل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمتُ أن ابن عباس قد أُوتي في القرآن علماً، صَدَق، هكذا كانت. قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يُعجبني جَرَاءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد عَلِمتُ أنه قد أُوتي في القرآن عِلماً. وقال عطيةُ العَوفِيُّ: كانت هذه رتقاً لا تُمطر، فأمطرت. وكانت هذه رتقاً لا تُنبِت فَأَنبَتَتْ.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: سألت أبا صالح الحَنَفيَ عن قوله: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، قال: كانت السماءُ واحدة فَفَتق منها سَبْعَ سموات، وكانت الأرضُ واحدةً ففتق منها سَبْعَ أَرَضِينَ. وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن الأرضِ والسماء متماسَّتَينِ. وقال سَعيد بن جُبَير: بل كانت السماءُ والأرضُ مُلتزِقَتَين، فلما رَفَع السماء وأبرزَ منها الأرضَ كان ذلك فَتْقَهُما الذي ذكر الله في كتابه. وقال الحسنُ، وقتادةُ: كانتا جَميعاً ففصَلَ بينهما بهذا الهَوَاءِ.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾، أي: أَصلُ كُلِّ الأحياءِ منه.

[٤٥٩٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجُماهر، حدثنا سعيد بن بَشِير، حدثنا قتادة، عن أبي ميمونَةَ، عن أبي هُرَيرة أنه قال: يا نبي الله، إذا رأيتك قَرَّتْ عيني وطَابَتْ نَفْسِي، فأخبرني عن كل شيء. قال: «كلّ شيء خلق من ماء»[١].

[٤٥٩٧] وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا هَمَّام، عن قتادَةَ، عن أبي ميمونَةَ، عن أبي هُرَيرة قال: قلت: يا رسولَ الله، إني إذا رأيتُك طابت نفسي وقَرَّت عيني، فَأَنبِئني عن كلِّ شيء. قال: كلّ شيء خلق من ماء قال: قلتُ: أَنبِئني عن أمرٍ إذا عملتُ به دخلتُ الجَنَّة. قال: أَفْشِ السلام، وَأَطعِم الطَّعَام، وصِل الأَرْحَام، وقُم بالليلِ والناسُ نيام، ثم ادخُلِ الجَنَّةَ بِسَلامٍ[٢]. ورواه أيضاً عن عبد الصمد، وعفّان، وبَهْز، عن

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢٩٥، وصححه الحاكم ٤/ ١٦٠! ووافقه الذهبي! وقال الهيثمي في «المجمع» ٥/ ١٦: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، خلا أبا ميمونة، وهو ثقة. قلت: إسناده ضعيف. قال الذهبي في الميزان ٤/ ٥٧٩: أبو ميمونة عن أبي هريرة، وعنه قتادة قال الدارقطني: مجهول يُترك. وفيه عنعنة قتادة وهو مدلس.

(٢) إسناده ضعيف كسابقه. لكن لفظ «أفش السلام...» له شواهد صحاح.

همّام. تفرّد به أحمد. وهذا إسنادٌ على شَرْطِ الصحيحين. إلا أن أبا ميمونةَ من رجال السُّنن واسمُه سُلَيم[1]، والترمذيُّ يُصحِّح له. وقد رَوَاه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلاً، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾، أي: جبالاً أرْسَى الأرضَ بها وقرَّرها وثقَّلها، لئلا تميد بالناس، أي: تضطرب وتتحرّك، فلا يحصُلُ لهم عليها قرارٌ، لأنها غامرة في الماء إلا مقدارَ الربع، فإنه بادٍ للهواء والشمس، ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات، والحكم والدلالات. ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾، أي: لئلاً تميدَ بهم. وقولُه: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾، أي: ثغراً في الجِبال يَسلُكون فيها طُرُقاً من قُطْرٍ إلى قُطرٍ، وإقْلِيم إلى أقْليم، كما هو المُشاهَدُ في الأرض، يكونُ الجَبَلُ حائلاً بين هذه البلادِ وهذه البلادِ، فيجعلُ الله فيه فَجْوَةً لغيره، ليَسلُكَ الناسُ فيها من هاهنا إلى هاهنا. ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾، أي: على الأرض، وهي كالقُبّة عليها، كما قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ [الشمس: ٥]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦]، والبناءُ هو نَصْبُ القُبّة، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

[٤٥٩٨] «بُني الإسلامُ على خمسٍ»[2]، أي: خمس دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخِيام، على ما تَعْهَدُه العربُ. ﴿مَّحْفُوظًا﴾، أي: عالياً مَحرُوساً أن يُنالَ. وقال مجاهدٌ: مَرْفُوعاً.

[٤٥٩٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدَّشْتَكيّ، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث ـ يعني ابن إسحاق القُمّي ـ عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال رجل: يا رسولَ الله، ما هذه السماءُ، قال: «هذا موجٌ مكفوفٌ عنكم»[3]. إسناد غريب.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾. كقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥﴾ [يوسف: ١٠٥]، أي: لا يَتفكّرون فيما خَلَق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر، وما زُيِّنت به من الكواكب الثَّوابت والسيارات في ليلها، وفي نهارها من هذه الشمس التي تَقْطَع الفُلك بكماله في يوم وليلة، فتسيرُ غايةٍ لا يعلمِ قدرها إلا الذي قَدَّرها وسَخَّرها وسَيَّرها.

وقد ذكر ابن أبي الدنيا في كتابه «التفكُّرِ والاعتبار»: أن بَعْضَ عُبّاد بني إسرائيل تَعبَّد ثلاثين سنة، وكان الرجل منهم إذا تَعبَّد ثلاثين سنة أظلته غَمامة، فلم يَرَ ذلك الرجلُ شيئاً مما كان يُرىٰ لغيره، فشكا ذلك إلى أُمّه، فقالت له: يا بني فلعلك أذنبت في مدة عبادتك هذه، فقال: لا، والله ما أعلم، قالت: فَلَعلّكَ هَمَمْتَ؟ قال: لا، والله ولا هَمَمْتُ. قالت: فَلَعلّكَ رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر، فقال: نعم، كثيراً. قالت: فمن هاهنا أُتيتَ. ثم قال مُنبِّهاً على بعض آياته: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: هذا في ظلامه وسُكُونه، وهذا بضيائه وأُنسه، يَطولُ هذا تارةً ثم يقصُر أخرى، وعكسُه الآخر، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، هذه لها

---

(١) أبو ميمونة الذي في الإسناد مجهول، وهو غير أبي ميمونة الذي يروي له أصحاب السنن.

(٢) تقدم.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» ٥٤١، رجاله ثقات سوى جعفر بن أبي المغيرة، ذكره ابن أبي حاتم من غير جرح ولا تعديل، وقال ابن مندة: ليس بالقوي في سعيد بن جبير، راجع الميزان ١٥٣٦. والراجح وقفه على ابن عباس، والله أعلم.

نورٌ. يخصُّها وفَلَكٌ بذاته، وزمانٌ على حِدَةٍ، وحَرَكةٌ وسير خاصٌ، وهذا بنورٍ خاصٍّ آخرَ وفَلَكٍ آخرَ[1]، وسير آخَرَ، وتقديرٍ آخرَ ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾، أي: يَدُورونَ. قال ابن عباس: يَدُورون كما يَدُور المِغْزَل والقمرُ، لا يدورون إلا به ولا يَدور إلا بهنَّ كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، أي: يا محمد، ﴿ٱلْخُلْدَ﴾، أي: في الدنيا، بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧]. وقد استَدلَّ بهذه الآية الكريمة مَن ذَهب من العلماء إلى أن الخَضِر ـ عليه السلام ـ مات وليس بحيٍّ إلى الآن، لأنه بشر، سواء كانَ ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾. وقولُه: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾، أي: يا محمد، ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾؟! أي: يُؤمِّلُون أن يَعيشوا بعدكَ، لا يكون هذا، بل كلٌّ إلى فناءٍ ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، وقد رُوِي عن الشافعي رحمه الله، أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين:

تَمَنَّى رجَالٌ أن أمُوتَ، وَإن أمُتْ فتلْكَ سَبيلٌ لَسْتُ فيهَا بأوْحَدِ
فَقُلْ للَّذي يَبْغي خِلافَ الذي مضى: تَهَيَّأ لأخرى مِثْلِها فَكَأنْ قَدِ

وقولُه تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، أي: نَختَبِرُكم بالمصائبِ تارةً وبالنِّعم أُخرى، لِننظُر مَن يشكُر ومن يكفر، ومن يصبِر ومن يقنطُ، كما قَال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباسَ: ﴿وَنَبْلُوكُم﴾، يقول: نبتليكم بالشر والخير فتنة، بالشدةِ والرخاءِ، والصِّحة والسَّقَم، والغِنَى والفقرِ، والحلالِ والحَرَامِ، والطاعة والمعصِيَة، والهدى والضلال. وقولُه: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، أي: فَنُجازيكم بِأعمالِكم.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾

يقولُ تعالى لنبيِّه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾، يعني: كُفَّار قُريش، كأبي جَهلٍ وأشباهه، ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾، أي: يَستهزِئُون بك ويَنتقِصُونَك، يقولونَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾، يعنون: أهذا الذي يَسُبُّ آلهتكم ويُسفِّه أحلامكم، قال الله تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، أي: وهم كافرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله كما قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان: ٤١ ـ ٤٢].

وقولُه تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، أي: في الأمور. قال مجاهد: خَلَق الله آدمَ بعد كلِّ شيءٍ من آخر النهار من يوم خلق الخلق، فلما أحيا الرُّوحُ عينيه ولسانَه وَرأسَهُ، ولم يبلغ أسفله قال: يا ربِّ استعجل بِخَلْقِي قبل غروب الشمس.

---

(١) كذا قال المصنف رحمه الله جرياً على ما كان عليه الأقدمون، والصواب، وكما ثبت علمياً في العصر الحديث، أن القمر لا نور له خاص، وإنما هو يعكس ضياء الشمس ونورها. وفلكه تبع لفلك الشمس.

[٤٦٠٠] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن سِنَانٍ، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا محمد بن عمرو ابن علقمة بن وَقّاص الليثي، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «خيرُ يوم طَلَعت فيه الشمس يومُ الجمعة، فيه خُلِقَ آدمُ، وفيه أُدْخِلَ الجنةَ، وفيه أُهبِطَ منها، وفيه تقومُ الساعةُ، وفيه ساعةٌ لا يُوافِقُها عبد مؤمنٌ يُصَلِّي ـ وقَبَض أصابعه يقَلِّلُها ـ فسأل الله خيراً إلا أعطاه إياه. قال أبو سَلَمةَ: فقال عبدُ الله بن سَلاَمٍ: قد عرفتُ تلك الساعةَ، وهي آخر ساعات النهار من يوم الجُمُعةِ، وهي التي خَلَق الله فيها آدمَ[1].

قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾، والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾؛ لأنه تعالى يُملي للظالِم حَتّى إذا أَخَذَه لم يُفلِتْه، يُؤجِّل ثم يُعَجِّل، ويُنظِر ثم لا يُؤخِّر، ولهذا قال: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾، أي: نِقَمِي وحُكْمِي واقتداري على من عَصَاني، ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يُخبرُ تعالى عن المشركين أنهم يَستَعْجِلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وجُحوداً وكُفراً وعِناداً واستبعاداً، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾، قال الله تعالى: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ﴾، أي: لو تيقَّنوا أنها واقعةٌ بهم لا محالَةَ لما استعجَلُوا به، ولو يعلمون حين يَغْشَاهم العذابُ من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال في هذه الآية: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ﴾، وقال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: ٥٠]، فالعذابُ محيط بهم من جَميع جِهَاتِهم، ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾، أي: لا ناصر لهم، كما قال: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ [الرعد: ٣٤]. وقوله: ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ﴾، أي: تأتيهم النارُ بغتةً، أي: فجاءةً ﴿فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾، أي: تذْعَرُهم فَيَستسلِمُون لها حائِرينَ لا يَدْرون ما يَصنعُون، ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾، أي: ليس لهم حيلَةٌ في ذلك، ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾، أي: ولا يُؤخَّر عنهم ذلك ساعةً واحدةً.

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى مُسَلِّياً لرسوله عما آذاه به المشركونَ من الاستهزاءِ والتكذيب: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن

---

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ١٠٤٦ والترمذي ٤٩١ وأحمد ٢/٤٨٦ والحاكم ١/٢٧٨ ـ ٢٧٩ وابن حبان ٢٧٧٢ وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وإسناده قوي. وأخرج صدره فقط مسلم ٨٥٤ والترمذي ٤٨٨ والنسائي ٣/٨٩ ـ ٩٠ وأحمد ٢/٤٠١.

قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، يعني: من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤]. ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده في حِفْظِه لهم بالليل والنهار، وكَلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾، أي: بَدَل الرحمن، بمعنى غيره كما قال الشاعر:

جَارِيَةٌ لَمْ تَلْبَسِ المُرَقَّقَا وَلَمْ تَذُقْ مِنَ البُقُولِ الفُسْتُقَا

أي: لم تذق بَدَلَ البُقُول الفُستُق. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾، أي: لا يعترفون بنعَمِهِ عليهم وإحسانِهِ إليهم، بل يُعرِضُون عن آياتِهِ وآلائِهِ. ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾، استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي: ألهم آلهةٌ تمنعهم وتكلؤهم غيرُنا؟! ليس الأمرُ كما توَهَّموا، لا ولا كما زَعَمُوا، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: هذه الآلهةُ التي استَنَدُوا إليها غَيْرَ اللهِ لا يَستطيعُون نَصْرَ أنفسِهم. وقولُه: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾، قال العَوفي، عن ابن عباس: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾، أي: يُجَارُونَ. وقال قتادة: لا يُصْحَبون من الله بخير. وقال غيره: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾: يُمْنَعُون.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غَرَّهم وحَملَهم على ما هم فيه من الضَّلالِ أنهم مُتِّعوا في الحياة الدنيا ونُعِّموا، وطالَ عليهم العُمر فيما هُم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء. ثم قال واعظاً لهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، اختلف المفسِّرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة «الرَّعد» وأحسنُ ما فُسِّرَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف: ٢٧]. وقال الحسنُ البَصريّ: يعني بذلك ظُهورَ الإسلام على الكُفر. والمعنى: أفلا يعتبرون بنَصْر الله لأوليائِهِ على أعدائِهِ، وإهلاكِه الأمَمَ المُكذِّبة والقرى الظَّالمة، وإنجائِهِ لعباده المؤمنين. ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، يعني: بل هُم المغلوبون الأسفلُون الأخسرُونَ الأرذلُونَ. وقولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾، أي: إنما أنا مبلغ عن الله ما أُنذِرُكم به من العَذاب والنَّكال، ليس ذلك إلا عمّا أوحاه الله إليّ، ولكن لا يُجدِي هذا عمَّن أعمى الله بَصِيرَتَه، وخَتم على سَمْعِهِ وقَلْبِهِ، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾. وقولُه: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾، أي: ولئن مَسَّ هؤلاءِ المكذبين أدنى شيءٍ من عذاب الله ليعترِفُنَّ بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدنيا. وقولُه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾، أي: ونضعُ الموازين العَدْلَ ليوم القيامة. الأكثر على أنه إنما هو ميزانٌ واحدٌ، وإنما جُمعَ باعتبار تَعدُّد الأعمالِ الموزُونةِ فيه. وقولُه: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]،

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠]، وقال لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ۝١٦﴾ [لقمان: ١٦].

[٤٦٠١] وفي الصحيحَين عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كَلِمَتان خَفِيفَتَان على اللِّسانِ، ثَقِيلَتانِ في الميزان حبيبتان إلى الرَّحمٰن: سبحانَ الله وبِحَمْدِهِ، سُبحَانَ اللهِ العظيم»[١].

[٤٦٠٢] وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاقَ الطَّالْقَانيُّ، حدثنا ابنُ المبارك، عن لَيث بن سعد، حدثني عامر بن يحيى، عن أبي عبد الرحمٰن الحُبُلِيِّ قال: سَمعتُ عبد الله بن عَمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ يستخلِصُ رَجُلاً من أُمَّتي على رُؤوس الخَلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعةً وتسعين سِجِلاً، كلُّ سجلٍ مدُّ البصر، ثم يقول: أتُنكرُ من هذا شيئاً؟ أظلَمتْكَ كَتَبَتي الحافِظُون؟ قال: لا، يا ربِّ. قال: أفلك عُذرٌ أو حَسَنَةٌ؟ قال: فَيُبْهَت الرَّجُل فيقول: لا، يا ربِّ. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنةً واحدةً، لا ظلم اليومَ عليك. فَيُخرِجُ له بطاقةً فيها: «أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه»، فيقول: أحضِرُوه. فيقول: يا ربِّ، ما هذه البطاقةُ مع هذه السِّجِلاَّتُ فيقال: إنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات وثَقُلَت البطاقةُ. قال: ولا يثقل شيءٌ بسم الله الرحمٰن الرحيم»[٢]. ورواه التِّرمِذِيُّ وابن ماجه، من حديث اللَّيثِ ابن سَعْدٍ، به، وقال التِّرمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

[٤٦٠٣] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا قُتَيبةُ، حدثنا ابن لَهيعَةَ، عن عامر[٣] بن يحيى، عن أبي الرحمٰن الحُبُلِيِّ، عن عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «تُوضَعُ الموازينُ يومَ القيامة، فيُؤتَى بالرجل فيوضع في كِفَّةٍ، فيوضَع ما أُحصِيَ عليه، فتَمَايَلَ به الميزانُ، قال: فَيُبعَثُ به إلى النار، قال: فإذا أَدبَرَ به إذا صائحٌ من عند الرحمن ـ عَزَّ وجلَّ ـ يقول: لا تَعجَلُوا فإنه قد بَقَى له. فَيُؤتَى بِبِطاقةٍ فيها: «لا إله إلا الله»، «فتُوضَعُ مع الرجل في كِفَّةٍ، حتى يَميلَ به الميزانُ»[٤].

[٤٦٠٤] وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حَدَّثَنا أبو نُوح قُرَاد، أنبأنا ليثُ بن سَعدٍ، عن مَالِكِ بن أَنَسٍ، عن الزُّهريِّ، عن عُروَةَ، عن عائِشَةَ، أن رَجُلاً من أصحابِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ جَلَسَ بين يديه، فقال: يا رسول الله، إن لي مملُوكِين يَكْذِبُونَني ويَخُونونَني ويَعصُونني، وأضرِبهم وأشتُمُهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: يُحسَب ما خانُوك وعَصَوك وكَذَبُوكَ وعقابُك إياهم، إن كان عقابك إياهم دُون ذُنُوبهم كان فَضلاً لك. وإنْ كان عقابُك إياهم بقَدْرِ ذنوبهم كان كَفَافاً، لا لك ولا عليك. وإنْ كان عقابُك إياهم فوق ذنوبهم

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٠٦ و٧٥٦٣ ومسلم ٢٦٩٤ والترمذي ٣٤٦٧ وابن ماجه ٣٨٠٦ وأحمد ٢/ ٢٣٢ وابن حبان ٨٣١.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٦٣٩ وابن ماجه ٤٣٠٠ وأحمد ٢/ ٢١٣ و٢٢٢ والحاكم ١/ ٦ ـ ٥٢٩ وابن حبان ٢٢٥ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: حسن غريب اهـ. ورجاله ثقات رجال مسلم.

(٣) وقع في مسند أحمد «عمرو» وكذا في سائر الأصول، والوهم، إما من ناسخ المسند، أو من غيره، والتصويب عن رواية أحمد المتقدمة، وكتب التراجم، والله أعلم.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢١، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٨٢: وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ. قلت: ابن لهيعة ضعيف، لكن لحديثه شواهد.

اقتصَّ لهم منكَ الفضلُ الذي بَقِيَ قبلَك. فجعَلَ الرجلُ يبكي بين يَدي رسولِ الله ـ ﷺ ـ ويهتف، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما له؟! أما يقرأ كتاب الله؟: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾. فقال الرجل: يا رسولَ الله، ما أجدُ شيئاً خيراً من فِراق هؤلاء ـ يعني عبيدَهُ ـ إني أُشهِدُكَ أنهم أحرارٌ كُلُّهم»(١).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قد تقدَّم التنبيهُ على أن الله تعالى كثيراً ما يَقرن بين ذِكْرِ موسى ومحمدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهما ـ وبين كتابيهما، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾. قال مجاهد: يعني الكتابَ. وقال أبو صالح: التوراةَ. وقال قتادةُ: التوراةَ حلالَها وحرامَها، وما فرَّق الله بين الحق والباطل. وقال ابنُ زيد: يعني النصر. وجامعُ القول في ذلك أنَّ الكُتُب السماوية تشتمِلُ على التفرقة بين الحقِّ والباطل، والهُدَى والضَّلالِ، والغيِّ والرشاد، والحلالِ والحَرام، وعلى ما يحصُل نوراً في القُلُوب، وهداية وخَوْفاً وإنابةً وخشيةً، ولهذا قال: ﴿ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: تذكيراً لهم وعظة. ثم وَصَفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، كقوله: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢]، ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾، أي: خائفون وَجِلُون. ثم قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾، يعني القرآن العظيمَ، الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيه ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزيلٌ من حَكِيم حَمِيدٍ، ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، أي: أفتُنكِرُونه وهو في غاية الجَلاءِ والظُّهور؟!.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

يخبر تعالى عن خَلِيله إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه آتاه رُشدَه من قبل، أي: من صِغره ألهمَه الحقَّ والحُجَّةَ على قومه، كما قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وما يُذكَرُ عنه من الأخبار في إدخال أبيه له في السَّرَبِ وهو رضيع، وأنه خَرَج به بعد أيام، فَنَظَر إلى الكواكب والمخلوقاتِ فَتَبصَّر فيها، وما قصَّه كثيرٌ من المفسرين وغيرهم فَعامَّتها أحاديثُ بني إسرائيل، فما وافق منها الحقَّ مما بأيدينا عن المعصوم قَبِلناه لموافقتِهِ الصحيحَ، وما خالَف شيئاً من ذلك رَدَدناه، وما ليس فيه موافقةٌ ولا مخالفَةٌ لا نُصدِّقه ولا نُكَذِّبه، بل نجعَلُه وقفاً. وما كان من هذا الضَّرْبِ منها فقد تَرَخَّص كثيرٌ من السلَفِ في

---

(١) منكر. أخرجه الترمذي ٣١٦٥ وأحمد ٦/ ٢٨٠ وقال الترمذي: غريب. وذكره المنذري في «الترغيب» ٥٢٨ وقال: إسناده أحمد والترمذي متصلان، ورواتهما ثقات. وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٢٥٣١ ولم يذكر له شواهد كعادته، وليس بصحيح، مداره على قُراد، وهو وإن وثقه غير واحد، فقد قال غير واحد: روى مناكير، ومنها هذا الحديث، بل قال أبو أحمد الحاكم: روى عن الليث حديثاً منكراً، ومراده هذا الحديث. وقال أحمد بن صالح: هذا باطل، مما وضع الناس. وقال الدارقطني: ليس هذا من حديث مالك، أخطأ قراد فيه. راجع «الميزان» ٢/ ٥٨١ و«التهذيب» ٦/ ٢٢٤.

روايتها، وكثيرٌ من ذلك مِمّا لا فائدةَ فيه، ولا حاصلَ له مما يُنتفَعُ به في الدين، ولو كانت فيه فائدةٌ تعودُ على المُكلَّفين في دينهم لَبَيَّنته هذه الشريعةُ الكاملةُ الشاملةُ. والذي نَسْلُكه في هذا التفسير الإعراضُ عن كثير من الأحاديثِ الإسرائيليّة، لما فيها من تَضييع الزمانِ، ولما اشتَمل عليه كثيرٌ منها من الكَذِب المروَّج عليهم، فإنهم لا تَفرِقَةَ عندهم بين صَحيحها وسَقيمها، كما حَرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة.

والمقصودُ هاهنا أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيمَ رُشدَه من قبل، أي: من قبل ذلك. وقولُه: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾، أي: وكان أهلاً لذلك. ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾، هذا هو الرُّشد الذي أُوتيه من صِغَره، الإنكارُ على قومه عبادةَ الأصنام من دون الله عزَّ وجلَّ، فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، أي: مُعتكِفُون على عِبادتها.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد الصباح، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا سَعْدُ بن طَريف، عن الأصبَغ بن نُباتَةَ، قال: مَرَّ عليٌّ رضي الله عنه على قوم يلعبون بالشُّطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ لأنْ يَمَسَّ صاحبُكم جَمراً حتى يَطْفَأَ خيرٌ له من أن يَمَسَّها. ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾، لم يكن لهم حُجّةٌ سِوى صَنيع آبائِهم الضُّلالَ، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: الكلام مع آبائِكم الذين احتجَجْتُم بصنيعهم كالكَلامِ معكم، فأنتم وهم في ضَلالٍ، على غير الطريق المستقيم. فلما سَفَّه أحلامَهُم، وضَلَّل آباءَهم، واحتَقَر آلهتهم ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾، يقولون: هذا الكلامُ الصادرُ عنك تقولُه لاعباً أو مُحقّاً فيه؟ فإنا لم نَسْمَع به قبلك. قال: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾، أي: ربُّكم الذي لا إله غيره هو الذي خَلَق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات، الذي ابتدأ خلقَهُنَّ، وهو الخالقُ لجميعِ الأشياءِ، ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، أي: وأنا أشهدُ أنه لا إلهَ غيرهُ، ولا رَبَّ سِواهُ.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

ثم أقسم الخليلُ قسماً أسمعَه بعضَ قومه: ليكيدَنَّ أصنامَهُم، أي: ليحرِصَنَّ على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، أي: إلى عِيدهم. وكان لهم عيدٌ يخرجون إليه. قال السُّدّيُّ: لما اقترب وقتُ ذلك العيد قال أبوه: يا بُنَيَّ، لو خَرَجْتَ معنا إلى عيدنا لأعجَبَك دينُنا! فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نَفْسَه إلى الأرض وقال: إني سقيمٌ. فجعلوا يَمُرُّون عليه وهو صريعٌ فيقولون: مَهْ! فيقول: إني سقيمٌ. فلما جَاز عامَّتُهم وبَقِيَ ضُعَفاؤُهم، قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾، فَسَمِعَه أولئك. وقال أبو إسحاق عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: لما خَرَجَ قوم إبراهيم إلى عيدهم، مرُّوا عليه فقالوا: يا إبراهيم، ألا تخرُج معنا؟ قال: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾. وقد كان بالأمس قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾، فَسَمِعَه ناسٌ منهم. وقولُه: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾، أي: حُطاماً، كَسَرَها كُلَّها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾، يعني إلا الصَّنم الكبيرَ عندهم، كما قال: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: ٩٣]. وقولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: ذكروا أنه وضع القَدُوم في يَدِ كبيرهم، لعلهم يعتقِدون أنه هو الذي غارَ لنفسِه، وأَنِفَ أن تُعبَدَ معه هذه الأصنام

الصغار، فكسرها. ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾، أي: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليلُ بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدالّ على عدم إلهيتها، وعلى سخافة عُقول عابديها ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾، أي في صنيعه هذا. ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾، أي: قال من سَمِعه يَحلِفُ إنه لَيَكيدنَّهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾، أي: شاباً ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا جريرُ بن عبد الحميد، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عبّاس قال: ما بَعَث الله نبياً إلا شاباً[١]، ولا أوتي العلم عالمٌ إلا وهو شابٌ، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾، أي: على رُؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحَضرَة الناس كلّهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يُبيّنَ في هذا المحفل العظيم كثيرةَ جَهْلهم وقِلّة عقولهم في عبادة هذه الأصنام، التي لا تدفع عن نفسها ضَرّاً، ولا تستطيع لها نصراً، فكيف يُطلَبُ منها شيءٌ من ذلك. ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، يعني الذي تركه لم يكسره، ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾. وإنما أراد بهذا أن يُبادِرُوا من تِلقاء أنفُسِهم فيعترِفُوا أنهم لا ينطقون، فإنّ هذا لا يصدُر عن هذا الصّنَم، لأنه جَمادٌ.

[٤٦٠٥] وفي الصحيحين من حديث هشام بن حَسّانَ، عن محمد بن سِيرينَ، عن أبي هُرَيرة، أنّ رَسُول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يَكْذِبْ غير ثلاث، ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]. قال: وبينا هو يسيرُ في أرض جَبّار من الجبابرة، ومعه سارَةَ إذْ نَزَل مَنزلاً، فأتى الجبارَ رجلٌ فقال: إنه قد نزل ههنا بأرضك رجلٌ معه امرأة أحسنُ الناس. فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأةُ منك؟ قال: هي أختي. قال: فاذهب فأرسل بها إليّ. فانطلق إلى سارَة فقال: إن هذا الجَبّار سألني عنك، فأخبرته أنك أختي، فلا تُكذّبيني عنده، فإنك أُختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلمٌ غيري وغيرك. فانطلق بها إبراهيمُ ثم قام يُصَلّي، فلما دَخلت عليه فرآها أَهْوَى إليها فتناولها فَأُخِذَ أخذاً شَدِيداً، فقال: ادعِي الله لي ولا أضُرُّكِ. فَدَعَت له فَأُرسِلَ، فأهوى إليها فَتَناولها، فأُخِذَ بمثلها أو أشَدَّ. فَفعل ذلك الثالثةَ فأُخِذَ. فَذَكر مثل المرتين الأولَيين، فقال: ادْعِي الله فلا أضُرُّك. فدعت له فأُرسِلَ، ثم دعا أدنى حُجّابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان، وإنما أتيتني بشيطان، أَخْرِجها وأعطِها هاجَرَ. فَأُخرجت وأُعطِيَت هاجَرَ، فأقبلَت. فلما أحسَّ إبراهيمُ بمجيئها انفتَلَ من صلاته، قال: مَهْيَم[٢]؟ قالت: كَفَّ الله كَيْدَ الكافر الفاجِر، وأخدَمَني هاجَرَ. قال محمد بن سيرين. فكان أبو هريرَة ـ رضي الله عنه ـ إذا حَدَّث بهذا الحديث قال: فَتِلْكَ أُمّكم يا بَني ماءِ السّماءِ[٣].

---

(١) في صحة ذلك عن ابن عباس نظر. فيه قابوسُ بن أبي ظبيان، ضعفه غير واحد. وأما المتن ففيه نظر، فإن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ فيما بعد الكهولة، وهو في الأربعين، في حين قال عن يحيى ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ والحكم هنا النبوة. فتنبه، والله تعالى أعلم.

(٢) قوله «مهيم» أي ما الشأن، ما الأمر.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٥٨ و٥٠٨٤ ومسلم ٢٣٧١ وأبو داود ٢٢١٢ وأحمد ٢/ ٤٠٣ وابن حبان ٥٧٣٧ والبيهقي ٧/ ٣٦٦.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۝٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٧﴾

يُخبِرُ تَعالى عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، أي: بالمَلامَة في عَدَم احترازِهِم وَحِراستهم لآلهتهم، فقال: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: في تَرْكِكم لها مهملةً لا حافظَ عندها. ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾، أي: ثم أطرَقُوا في الأرض فقالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾. قال قتادةُ: أدركت القوم حيرة سوء، فقالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾. وقال السُّدِّيُّ: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾، أي: في الفتنةِ. وقال ابنُ زيد: أي في الرأي. وقولُ قتادة أظهرُ في المعنى، لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً، ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، فكيف تقولُ لنا: سَلُوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطِقُ؟! فعندها قال لهم لما اعترفُوا بذلك: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾، أي: إذا كانت لا تنطِقُ، وهي لا تَضرُّ ولا تنفع، فَلِم تعبدونها من دون الله؟! ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٧﴾، أي: أفلا تَتدبَّرون ما أنتم فيه من الضَّلال والكُفر الغليظ، الذي لا يروجُ إلا على جاهلٍ ظالم فاجرٍ؟! فأقام عليهم الحجَّة وألزمَهم بها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٨٣]... الآية.

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ۝٧٠﴾

لما دحضت حُجَّتُهم، وبان عجزُهم، وظهر الحقُّ، واندفع الباطلُ، عَدَلوا إلى استعمالِ جاه مُلكهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾. فجمعُوا حَطَباً كثيراً جداً ـ قال السدِّيُّ: حتى إن كانت المرأةُ تمرَضُ، فَتنذِرُ إن عُوفِيَتْ أن تحمِل حَطباً لحريقِ إبراهيم ـ ثم جعلوه في جَوْبَة من الأرض، وأضرموها ناراً، فكان لها شَرَرٌ عظيم ولَهَب مرتفع، لم توقد قطُّ نارٌ مثلها، وجَعَلوا إبراهيم ـ عليه السلام ـ في كِفَّة المَنْجنيق بإشارةِ رجل من أعراب فارس من الأكراد ـ قال شُعَيبُ الجَبَئِيُّ: اسمه هَيْزَن ـ فخسَفَ الله به الأرضَ، فهو يَتَجلْجَلُ فيها إلى يوم القيامة، فلما ألقوه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل».

[٤٦٠٦] كما رواه البخاري، عن ابن عباس أنه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل»، قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾[1] [آل عمران: ١٧٣].

[٤٦٠٧] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو هشام، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي جعفر، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لما أُلقِيَ إبراهيمُ عليه السلام في النار قال: اللهمَّ، إنك في السماء واحدٌ، وأنا في الأرض واحدٌ أعبدُك»[2]. ويُرْوَى أنه لما جَعَلوا يُوثقُونه قال: لا

---

(١) والحديث صحيح. أخرجه البخاري ٤٥٦٣.

(٢) ضعيف، أخرجه البزار ٢٣٤٩ «كشف الأستار» والدارمي في «الرد على الجهمية» ٧٥ وأبو نعيم ١/١٩ والخطيب ١٠/٣٤٦ والذهبي في «الميزان» ٨٣٢٦. قال الهيثمي في «المجمع» ١٣٧٦٦: فيه عاصم بن عمر ابن حفص، وثقه ابن حبان، =

إله إلا أنت، سُبحانك، لك الحمدُ، ولك الملكُ، لا شريكَ لك. وقال شُعَيبٌ الجَبَئِيُّ: كان عمره إذ ذلك ستَّ عشرةَ سنةً. فالله أعلم. وذكر بعض السلف أنه عرَض له جبريل وهو في الهواءِ، فقال: ألك حاجةٌ؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من الله فبلى. وقال سعيد بن جُبَير ـ ويُروَى عن ابن عباس أيضاً ـ قال: لما أُلقِيَ إبراهيمُ جَعَل خازنُ المَطَر يقول: متى أُومر بالمطر فأُرسِلَه؟ قال: وكان أمرُ الله أسرَع من أمرِه، قال الله: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، قال: فَلَم يبْقَ من الأرض نارٌ إلا طفِئَتْ. وقال كعب الأحبار: لَم ينتفعْ أحدٌ يومئذٍ بنارٍ، ولم تحرق النارُ من إبراهيم سِوَى وَثَاقه.

وقال الثوري، عن الأعمش، عن شيخ، عن علي بن أبي طالب: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾، قال: بَردَتْ عليه حتى كادت تقتلُه[1]، حتى قيل: ﴿وَسَلَٰمًا﴾، قال: لا تَضُرِّيه. وقال ابنُ عباس، وأبو العالية: لولا أن الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ قال: ﴿وَسَلَٰمًا﴾، لآذَى إبراهيمَ بَرْدُهَا. وقال جُوَيبرٌ، عن الضحاك: ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، قال: صَنعُوا له حَظِيرةً مِن حَطَب جَزْل، وأشعَلُوا فيه النار من كلِّ جانب، فأصبح ولم يُصبه منها شيءٌ، حتى أخمَدَها الله. قال: وَيذكُرون أنَّ جبريلَ كان مَعَهُ يمسَحُ وجهَه من العَرَقِ، فلم يُصِبْه منها شيءٌ غير ذلك. وقال السدِّيُّ: كان معه فيها مَلَكُ الظِّلِّ.

وقال ابنُ أبي حاتم حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا يوسُفُ بن موسى، حدثنا مِهرانُ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن المنهال بن عَمْرو قال: أُخبِرتُ أنَّ إبراهيم أُلقِيَ في النار، فقال: كان فيها إما خَمسينَ وإما أربعين، قال: ما كنتُ أياماً وليالي قَطُّ أطيبَ عيشاً إذ كنتُ فيها، وَوَدِدْت أن عيشي وحياتي كلَّها مثلِ عيشي إذْ كُنتُ فيها. وقال أبو زُرعَةَ بنُ عمرو بن جَرير، عن أبي هُرَيرة قال: إن أحسنَ شيءٍ قال أبو إبراهيم لما رُفع عنه الطَّبقُ وهو في النار، وجده يَرْشح جبينهُ، قال عند ذلك: نعْمَ الربُّ ربُّك يا إبراهيم. وقال قتادةُ: لم يأْت يومئذٍ دابةٌ إلا أطفأت عنه النارَ، إلا الوَزَغَ.

[٤٦٠٨] وقال الزهري: أمر النبي ـ ﷺ ـ بقتله وسماه فُوَيسقاً[2].

[٤٦٠٩] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عُبَيد اللهِ ابن أخي ابن وَهْبٍ، حدثني عَمّي، حدثنا جَرير ابن حازم، أن نافعاً حدَّثه قال: حَدَّثتني مولاةُ الفَاكِهِ بن المغيرة المخزُوميّ قالت: دخلتُ على عائشةَ فرأيتُ في بيتها رُمحاً. فقلتُ: يا أُمَّ المؤمنين، ما تصنَعين بهذا الرُّمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاغَ، إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن إبراهيم حين أُلقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تُطفىءُ النارَ غَيْرَالوَزَغ، فإنه كان ينفُخ على إبراهيمَ. فَأمرَنا رسول الله ـ ﷺ ـ بقتلـه»[3]. وقولُه: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ۝٧٠﴾، أي: المغلُوبين الأسفَلينَ، لأنهم أرادُوا بنبيِّ الله كيداً، فكادهم الله ونَجّاه من النار، فَغُلِبوا هنالك. وقال عَطيّة

= وقال: يخطىء، ويخالف، وضعفه الجمهور. كذا وقع للهيثمي، وقد نسبه الذهبي فقال: عاصم بن بهدلة اهـ وهو صدوق سيّىء الحفظ. ثم إن فيه أبو جعفر، وهو الرازي اسمه عيسى ابن عبد الله ضعفه الجمهور، وكذا فيه أبو هشام، محمد بن يزيد قال البخاري: رأيتهم مجمعين على ضعفه. وقال ابن نمير: كان يسرق الحديث، والحديث ضعفه الذهبي بقوله: غريب جداً.

(١) لا يصح عن أمير المؤمنين، فلم تكد النار لتقتله، وهو بحفظ الله ورعايته، وفيه رجل لم يسمّ، والصواب أن يقال: لو لم يقل الله «وسلاماً» ربما قتلته من بردها. والله أعلم.

(٢) هذا مرسل، ومراسيل الزهري واهية كما هو مقرر في كتب المصطلح، وانظر ما بعده.

(٣) إسناده ضعيف. فيه أحمد بن عبد الرحمن أبو عبيد الله: قال ابن عدي: رأيت شيوخ مصر مجمعين على ضعفه، وقال ابن حبان: أتى بمناكير في آخر عمره. وقال ابن يونس: لا تقوم به حجة.

العوفيُّ: لما أُلقِيَ إبراهيمُ في النار جاءَ مَلِكُهم لينظر إليه، فطارت شرارةٌ فوقعت على إبهامِهِ، فأحرقته مثل الصُّوفَةِ.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن إبراهيم أنّه سَلَّمه الله من نار قَوْمِه، وأخرجَه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المُقَدسة منها، كما قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبيِّ بن كعب في قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾. قال: الشام، وما من ماءٍ عذبٍ إلا يخرُج من تحت الصَّخْرَةِ. وكذا قال أبو العالية أيضاً. وقال قتادةُ: كانا بأرض العِرَاقِ، فأُنجيَا إلى الشام، وكان يُقَال الشامُ عِمَادُ دارِ الهجرة، وما نَقَصَ من الأرض زِيدَ في الشام، وما نَقَص من الشام زِيدَ في فلسطين. وكان يُقَال: هي أرض المحشرِ والمنشَر، وبها ينزِلُ عيسى ابن مريم عليه السلامُ، وبها يهلك المسيح الدجّال. وقال كعبُ الأحبار في قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾: إلى حَرّان. وقال السدّيُّ: انطلق إبراهيمُ ولوط قِبَلَ الشام، فَلَقِيَ إبراهيمُ سارَةَ، وهي ابنة ملك حَرّان، وقد طَعَنَتْ على قومها في دينهم، فَتَزَوَّجَها على ألا يُغَيِّرَها. رواه ابنُ جرير. وهو غَرِيبٌ، والمشهورُ أنها ابنةُ عمِّه، وأنه خَرَج بها مُهاجراً من بلادِهِ. وقال العَوفيُّ، عن ابن عبَّاسٍ: إلى مكة، ألا تسمَعُ قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦].

وقولُه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، قال عطاء، ومجاهد: عطيةً. وقال ابنُ عباس، وقتادةُ، والحَكَم بن عُتَيْبَةَ: النافلةُ ولدُ الولد. يعني أنّ يعقوبَ وَلَد إسحاقَ، كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: سأل واحداً فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٠]، فأعطاه الله إسحاقَ وزادَه يعقوبَ نافلةً ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾، أي: الجميعُ أهلُ خير وصلاح، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾، أي: يُقتَدى بهم، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، أي: يَدْعُون إلى الله بإذنه، ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، من باب عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ، ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾، أي: فاعِلين لما يأمُرون الناسَ به. ثم عَطَف بذكر لوطٍ ـ وهو لوطُ بنُ هارانَ بن آزَرَ ـ كان قد آمَنَ بإبراهيم واتَّبعه، وهاجرَ معه، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، فآتاه الله حُكماً وعِلماً، وأوحى إليه، وجَعَله نبياً، وبعثَه إلى سَدُومَ وأعمالها، فخالَفوه وكَذّبوه، فأهلَكهم الله ودَمَّر عليهم، كما قَصَّ خَبَرَهم في غير ما موضع من كتابه العزيز، ولهذا قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يُخبرُ تعالى عن استجابته لعبده ورَسُوله نُوح عليه السلامُ، حين دعا على قومه لما كَذَّبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى

مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧]. ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾، أي: الذين آمنوا به، كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. وقوله: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: من الشدّةِ والتّكذيب والأذى، فإنه لَبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عاماً يدعُوهم إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ فلم يُؤمن به منهم إلا القليلُ، وكانوا يَتصدون لأذاه، ويتواصَوْنَ قَرْناً بعد قَرْنٍ، وجيلاً بعدَ جيلٍ على خِلافِهِ. وقولُه: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾، أي: ونَجّيناه وخَلّصناه منتصراً من القوم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾، أي: أهلكَهم الله بعامّةٍ، ولم يُبْقِ على وَجْهِ الأرضِ منهم أحداً، إذ دَعا عليهم نَبِيُّهم.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قال أبو إسحاق، عن مُرّة، عن ابن مسعود: كان ذلك الحَرْثُ كَرْماً قد نَبَتَتْ عناقيده. وكذا قال شُرَيح. قال ابن عباس: النَّفْشُ الرَّعْيُ. وقال شريحٌ، والزهري، وقتادةُ: النَّفْشُ بالليل. زاد قتادةُ: والهَمَلُ بالنهار. قال ابنُ جَرير: حدَّثنا أبو كُرَيب وهارون بن إدريسَ الأصمّ قالا: حدثنا المحاربيّ، عن أشعث، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾، قال: كَرْمٌ قد أنْبتَ عناقِيدَه، فأفسدَتْه، قال: فقضى داودُ بالغَنَم لصاحب الكَرْم فقال سُليمان: غيرُ هذا يا نبيّ الله! قال: وما ذاك؟ قال: تَدْفَع الكَرْم إلى صاحب الغنم فيقومُ عليه حتى يعودَ كما كان، وتَدْفَع الغنم إلى صاحب الكرم فيُصِيب منها، حتى إذا كان الكَرْمُ كما كان دَفَعْتَ الكَرْمَ إلى صاحبه، وَدَفَعْتَ الغَنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾. وهكذا رَوى العَوْفي، عن ابن عباس.

وقال حَمّاد بن سلمة، عن علي بن زيد حدثنا خليفةُ، عن ابن عباس قال: قضى داودُ بِالغَنِم لأصحاب الحرث، فَخرج الرِّعاء معهم الكلابُ، فقال لهم سُليمان: كيف قَضَى بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وُلِّيتُ أمْرَكُم لَقَضيتُ بغير هذا! فأُخبِرَ بذلك داودُ، فدعاه فقال: كيف تَقْضِي بينهم؟ قال: أَدفَع الغَنَم إلى أصحاب الحرث فيكون لهم أولادُها وألبانُها وسِلاؤها وَمَنافعها، ويبذُر أصحابُ الغَنَم لأهلِ الحَرْثِ مثل حَرْثِهم، فإذا بَلَغ الحرثُ الذي كان عليه أَخَذَ أَصْحَابُ الحَرْثِ الحَرْثَ، وردُّوا الغَنَم إلى أَصْحَابِهَا.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سَعِيد بن سُليمان، حدثنا خُدَيجٌ، عن أبي إسحاق، عن مُرّة، عن مَسْرُوقٍ قال: الحَرْثُ الذي نَفَشت فيه الغنم إنما كان كَرْماً نَفَشَت فيه الغَنَمُ، فلم تَدَع فيه وَرَقَةً ولا عُنقوداً من عِنَبٍ إلاّ أكلَتْه، فأتوا دَاوُد فأعطاهم رِقابها، فقال سُليمان: لا، بل تؤخذ الغَنَم فتُعطَى أهل الكَرْم، فيكونُ لهم لَبَنُها ونفعُها، ويُعطَى أهلُ الغَنَم الكَرْم فَيَعْمُروه ويُصلِحوه، حتى يَعُودَ كالذي كان ليلةَ نَفَشتْ فيه الغَنَمُ، ثم يُعطى أهلُ الغَنَم غنَمَهم، وأهلُ الكرم كَرْمُهم. وهكذا قال شُرَيح، ومُرَّةُ، ومجاهِدٌ، وقتادةُ، وابنُ زَيدٍ، وغيرُ واحد.

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا ابنُ أبي زِيَادٍ، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أنبأنا إسماعيلُ، عن عامر، قال: جاء رجلان إلى شُرَيحٍ، فقال أحدُهما: إن شياه هذا قَطعت غزلاً لي، فقال شُرَيحٌ: نهاراً أم ليلاً؟ فإن كان نهاراً فقد بَرِئَ صاحبُ الشاة، وإن كان ليلاً فقد ضَمِنَ، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾... الآية. وهذا الذي قاله شُرَيح شَبِيهٌ بما رواه الإمامُ أحمد، وأبو داودَ، وابنُ ماجه، من حديث الليث بن سَعْدٍ عن الزُّهري، عن حَرَام بن مُحَيِّصَةَ:

[٤٦١٠] أن ناقَةَ البَرَاء بن عازبٍ دَخلت حائطاً، فأفسدَت فيه، فَقَضى رسولُ الله ـ ﷺ ـ على أهل الحوائط حِفظَها بالنهار، وما أفسدَت المواشي بالليل ضَامِنٌ على أهلِها[1]. وقد عُلِّل هذا الحديثُ، وقد بَسَطنا الكلام عليه في كتاب «الأحكام» وبالله التوفيق.

وقولُه تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، قال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا مُوسَى بنُ إسماعيل، حدثنا حَمَّاد، عن حُمَيد: أنَّ إياسَ بنَ مُعاويَةَ لما استُقْضِيَ أتاه الحَسَن فبكى، قال: ما يُبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بَلَغني أن القضاة: رجل اجتهَد فأخطأ فَهُو في النار، ورجُلٌ مال به الهَوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسنُ البصري: إن فيما قَصَّ الله من نَبَإِ داود وسُليمان ـ عليهما السلام والأنبياء ـ حُكماً يَرُدُّ قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾، فأثنى الله على سليمان ولم يَذُمَّ داود. ثم قال: ـ يعني الحسنَ ـ: إن الله اتَّخذ على الحُكَماءِ ثلاثاً: لا يَشتروا به ثمناً قليلاً، ولا يَتَّبِعُوا فيه الهَوَى، ولا يخشَوا فيه أحداً، ثم تلا: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١].

قلتُ: أما الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فكلُّهم معصُومُون مُؤيَّدُونَ من الله عَزَّ وجلَّ، وهذا مِمَّا لا خِلافَ فيه بين العلماء المحقِّقين من السَّلفِ والخَلَفِ.

[٤٦١١] وأما مَن سواهم فقد ثَبَت في صحيح البخاري، عن عَمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «إذا اجتهد الحاكم فأصابَ فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجرٌ»[2]، فهذا الحديث يَرُدُّ نَصاً ما توهَّمه «إياس» من أن القاضيَ إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار، والله أعلم.

[٤٦١٢] وفي السُّنَنِ: «القضاةُ ثلاثةٌ: قاضٍ في الجَنة، وقاضِيانِ في النَّار: رَجُل عَلِم الحَقَّ وقَضَى به فَهُو في الجَنَّةِ، ورجل حَكَم بين الناس على جَهْلٍ فَهُو في النار، ورجل عَلِم الحق وقَضَى بخلافه فَهُو في النار»[3]. وقَرِيبٌ من هذه القصَّةِ المذكُورَةِ في القرآن ما رواه الإمامُ أحمدُ في مُسنَدِه، حيث قال:

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٥٧٠ وأحمد ٥/ ٤٣٦ وابن ماجه ٢٣٣٢ وابن الجارود ٧٩٦ والحاكم ٢/ ٤٧ من طرق عن الزهري به. وفيه إرسال. وورد موصولاً عند أبي داود ٣٥٦٩ وأحمد ٥/ ٤٣٦ والبيهقي ٨/ ٣٤٢ من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن حرام بن محيصة عن أبيه به، وانظر مزيد الكلام عليه في «الأحكام» ١٤٩٧ لابن العربي بتخريجي.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٧٣٥٢ ومسلم ١٧١٦ وأبو داود ٣٥٧٤ وأحمد ٤/ ١٩٨ وابن ماجه ٢٣١٤ وابن حبان ٥٠٦١.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٣٥٧٣ وابن ماجه ٢٣١٥ والحاكم ٤/ ٩٠ والبيهقي في «الشعب» ٧٥٣١ من حديث بريدة، وإسناده حسن. ويشهد له حديث ابن عمر عند الطبراني في «الكبير» كما في «المجمع» ٤/ ١٩٣ والقضاعي ٣١٧ وقال الهيثمي: ورجاله ثقات.

[٤٦١٣] حدثنا علي بن حَفْصٍ، أخبرنا وَرْقَاءُ، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخَذَ أحد الابنين، فتحاكمتا إلى داودَ، فَقَضى به للكبرى، فَخَرجتا. فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السِّكين أَشُقُّه بينهما، فقالت الصُّغرَى: يَرحمُكَ اللهُ! هو ابنُها، لا تَشُقَّه. فقضى به للصُّغْرى»[١]. وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما. وبَوَّبَ النسائيُّ عليه في كتاب القَضَاءِ: «بابُ الحاكِمِ يُوهِمُ خلافَ الحُكْمِ ليستَعلِمَ الحقَّ».

وهكذا القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تَرْجَمة سُلَيمان ـ عليه السلام ـ من تاريخه، من طريق الحسن بن سفيان، عن صَفْوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، فذكر قِصَّةً مُطَوَّلة، ملخصُها: أن امرأة حسناءَ في زمان بني إسرائيلَ، راوَدَها عن نفسها أربعةٌ من رُؤَسائهم، فامتنعت على كُلٍّ منهم، فاتَّفقوا فيما بينهم عليها، فَشَهِدوا عليها عند داود ـ عليه السلام ـ أنها مَكَّنَت من نفسها كلباً لها، قد عَوَّدته ذلك منها، فَأَمر بِرَجْمِها. فلما كانَ عَشِيَّةُ ذلك اليوم جلس سليمانُ، واجتمع معه وِلْدانٌ مِثلُه، فانتصب حاكِماً، وتَزَيَّا أربعةٌ منهم بِزِيِّ أولئك، وآخر بِزِيِّ المرأةِ وشَهِدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كَلْباً، فقال سليمان: فَرِّقوا بينهم. فقال لأَوَّلِهم: ما كانَ لونُ الكَلْبِ؟ فقال: أسودُ، فَعَزله، واستدعى الآخر فَسأَله عن لونه، فقال: أحمر. وقال الآخر: أغبش. وقال الآخر: أبيض. فأمر بِقَتْلِهم، فَحُكِيَ ذلك لداود، فاستدعى من فَوْرِه بأولئك الأربعة، فسألهم مُتَفَرِّقين عن لون ذَلِك الكَلْبِ، فاختلَفُوا عليه، فأمر بقتلهم[٢].

وقولُه تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، وذلك لطيب صوته بتلاوةِ كتابه الزَّبُور، وكان إذا تَرَنَّم به تَقِفُ الطيرُ في الهواء فَتُجاوِبُه، وتَرُدُّ عليه الجبالَ تأويباً.

[٤٦١٤] ولهذا لَما مَرَّ النبيُّ ـ ﷺ ـ على أبي موسى الأشعري، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوتٌ طَيِّب جداً، فَوَقَفَ واستَمَع لقراءته، وقال: «لقد أُوتِيَ هذا من مَزَامِيرِ آلِ دَاوِدَ» قال: يا رسول الله، لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تَحْبِيراً[٣]. وقال أبو عثمان النَّهْدي: ما سمعت صوت صَنج ولا بَرْبَطٍ[٤] ولا مِزْمارٍ مثل صَوْتِ أبي موسى رضي الله عنه. ومع هذا قال عليه الصلاة والسلام: «لقد أُوتِيَ مِزْماراً من مزامير آل داود».

وقولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ﴾، يعني: صنعةَ الدروع. قال قتادةُ: إنما كانت الدرُوع قَبْلَه صفائح، وهو أول من سَرَدَها حِلَقاً. كما قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠ ـ ١١]، أي: لا توسع الحلقة، فَتقلِقَ المِسْمارَ ولا تُغْلِظِ المِسْمَارَ فَتَقُدَّ الحَلْقة، ولهذا قال: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ﴾، يعني: في القتالِ، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾، أي: نِعَمَ الله عليكم، لما أَلْهَمَ به عبده داودَ، فَعَلَّمه ذلك من أجلكم؟ وقولُه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾، أي: وسَخَّرنا لسليمان الريح

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٢٧ و٦٧٦٩ ومسلم ١٧٢٠ والنسائي ٨/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦ وأحمد ٢/ ٣٢٢ و٣٤٠ وابن حبان ٥٠٦٦.

(٢) هو متلقىً عن أهل الكتاب، ولعله لا يصح عن ابن عباس أصلاً، فإن الوليد بن مسلم، يدلس التسوية، وقد عنعن. وهو أثر غريب جداً.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٧٩٣ والنسائي في «فضائل القرآن» ٨٣ وأحمد ٥/ ٣٤٩ والبيهقي ١٠/ ٢٣٠ من حديث بريدة.

(٤) الصنج: صفيحة مدورة من صُفر يُضرب بها على أخرى مثلها؛ والبربط: العود (وهما من آلات الموسيقى).

العاصفة، ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، يعني أرض الشام، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾، وذلك أنه كانَ له بِساطٌ من خَشَبٍ يُوضَع عليه كُلُّ ما يُحتاج إليه من أمورِ المملكة، والخَيْلِ والجمالِ والخِيام والجُنْدِ، ثم يأمُرُ الرِّيح أن تَحْمِله فتدخُلَ تحته، ثم تحمِلُه فترفعه وتسيرَ به، وتُظِلُّه الطير من الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزلُ وتُوضَعُ آلاتُه وخَشَبُه، قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص: ٣٦]، وقال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبا: ١٢].

قال ابن أبي حاتم: ذُكِر عن سفيان بن عُيَيْنَةَ، عن أبي سنان، عن سَعِيد بن جُبَير قال: كان يُوضَع لسليمان ستمئة ألف كُرسيّ، فيجلسُ مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مُؤمِنُو الجن، ثم يأمر الطيرَ فَتُظِلُّهم، ثم يأمر الرِّيح فتحملُه ـ ﷺ ـ. وقال عبدُ الله بن عُبَيد بن عمير: كان سليمانُ يأمر الريحَ فَتَجتَمِعُ كالطَّودِ العظيم ـ كالجبل ـ ثم يَأمُر بِفراشه فَيُوضَع على أعلى مكانٍ منها، ثم يدعُو بفَرَس من ذَوَاتِ الأجنحة فترتَفِع حتى تصعَدَ على فِرَاشه، ثم يَأمرُ الريحَ فترتفع به كل شَرَفٍ دون السماء، فهو مطأطِئٌ رأسه، ما يَلْتَفِتُ يميناً ولا شمالاً، تعظيماً لله ـ عَزَّ وجلَّ ـ وشُكراً لما يعلم من صِغرِ ما هو فيه في ملك الله تعالى، حتى تَضعَه الريح حيث يشاءُ أن تَضعَه.

وقولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾، أي: في الماء يستخرجُون الجواهر واللآلىء، ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي: غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧ ـ ٣٨]. وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾، أي: يحرسُه الله أن ينالَه أحد الشياطين بسوء بل كلٌّ في قَبْضَتِه وتحت قهره، لا يتجاسَرُ أحد منهم على الدُّنُوِّ إليه والقُرب منه، بل هو يحكُم فيهم إن شاء أطلقَ، وإن شاء حَبَس منهم من يشاء. ولهذا قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يذكُر تعالى عن أيُّوبَ ـ عليه السلام ـ ما كان أصابَه من البلاء في ماله وَوَلدِه وجَسَده، وذلك أنه كان له من الدوابِّ والأنعام والحَرْثِ شيءٌ كثيرٌ، وأولادٌ كثيرةٌ، ومنازلُ مرضيَّةٌ، فَابتُلِيَ في ذلك كُلِّه وذَهَبَ عن آخره، ثم ابتُلِي في جَسَده ـ يقال بالجذام في سائر بَدَنه، ولم يبق منه سليمٌ سوى قلبِه ولسانِه، يذكر بهما الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ حتى عَافه الجليسُ، وأُفرِدَ في ناحيةٍ من البلد، ولم يبقَ من الناس أحدٌ يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقومُ بأمْرِه، ويقال: إنها احتاجت فَصارت تخدُم الناسَ من أجله.

[٤٦١٥] وقد قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثلُ»[(١)].

[٤٦١٦] وفي الحديث الآخر «يُبتَلى الرجلُ على قَدْرِ دينه، فإن كان في دينه صَلابةٌ زِيدَ في بلائِهِ»[(٢)].

وقد كان نبيُّ اللهِ أيوبُ ـ عليه السلام ـ غايةً في الصَّبرِ، وبه يُضرَبُ المثلُ في ذلك. وقال يزيدُ بن مَيْسَرَة: لما ابتلى الله أيوبَ ـ عليه السلام ـ بذهاب الأهل والمال والوَلَد، ولم يبق له شيءٌ، أحسَنَ الذِّكر، ثم قال: أحمدُكَ ربَّ الأَرْبَابِ الذي أحسنتَ إليَّ، أعطيتَني المالَ والولَدَ، فلم يبق من قلبي شعبةٌ إلاَّ قد دَخله

---

(١) صحيح. أخرجه الترمذي ٢٣٩٨ وابن ماجه ٤٠٢٣ وأحمد ١/ ١٧٢ و١٨٥ والحاكم ١/ ٤١ من حديث سعد ابن أبي وقاص. وإسناده حسن لأجل عاصم بن بهدلة وله شواهد، وليس فيه قوله «ثم الصالحون».

(٢) هو تتمة الحديث المتقدم انظر الإحسان ٢٩٠١ وجامع الأصول ٧٣٥٢.

ذلك، فأخذتَ ذلك كُلَّه منيّ، وفرّغت قلبي، ليس يحولُ بَيني وبينكَ شيءٌ، لو يعلَم عَدُوّي إبليس بالذِي صنعتَ حَسَدَني! قال: فَلَقِيَ إبليسُ من ذلك مُنكراً. قال: وقال أيوب ـ عليه السلام ـ: يا ربِّ إنّكَ أعطيتَني المالَ والولَدَ فَلَم يَقُم على بابي أحدٌ يشكُوني لظلم ظَلَمتُه، وأنت تعلم ذلك. وإنه كان يُوَطَّأ لي الفِرَاشُ فأتركُها وأقولُ لنفسي: يا نفسُ، إنك لم تُخلقي لِوَطْءِ الفُرُشِ، ما تركت ذلك إلا ابتغاءَ وَجْهِكَ. رواه ابنُ أبي حاتم. وقد ذُكِر عن وَهْب بن مُنَبِّهٍ في خَبَرِه قِصَّةٌ طويلةٌ ساقها ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتم بالسَّنَدِ عنه، وذَكرها غيرُ واحدٍ من مُتَأخري المُفَسِّرينَ، وفيها غَرَابةٌ تركناها لِحَالِ الطُّولِ. وقد رُوي أنه مكث في البلاء مُدّةً طويلةً ثم اختلفوا في السبب المُهَيِّج له على هذا الدعاء، فقال الحسن وقتادةُ: ابتُلي أيوب ـ عليه السلام ـ سبع سنين وأشهراً مُلقىً على كُناسَةٍ[1] لِبني إسرائيلَ، تَختَلِفُ الدوابُ في جَسَدِه، فَفَرّجَ الله عنه، وعَظَّم له الأجرَ، وأحسَنَ عليه الثناء. وقال وهبُ بن مُنَبِّه: مكَثَ في البلاءِ ثلاثَ سنين، لا يزيد ولا يَنقُصُ.

وقال السدّيُ: تساقَطَ لحمُ أيوبَ حتى لم يَبْقَ إلا العَصَبُ والعظامُ، فكانت امرأتُه تقومُ عليه وتأتيه بالرماد يكون فيه، فقالت له امرأتُه لما طَال وجعَه: يا أيوبُ، لو دَعَوت الله فَفَرّجَ عنك! فقال: قد عِشتُ سبعين سنة صحيحاً، فهل قليلٌ لله أن أصبِرَ سبعين سنةً؟ فَجزِعَتْ من ذلك فَخرجَتْ، فكانت تعملُ للناس بأجرٍ وتأتيه بما تُصِيب فَتُطعِمُه، وإن إبليس انطلق إلى رجلين من أهل فِلَسْطِينَ كانا صديقين له وأخوين، فأتاهُمَا فقال: أخوكُما أيّوبُ أصابَه من البلاءِ كَذَا وكَذَا، فَأْتياه وَزُوراه واحمِلاَ مَعَكما من خَمر أرضكما، فإنه إن شَرِب منه بَرَأ. فَأَتياه فلما نَظَرا إليه بَكَيا، فقال: من أنتم؟ فقالا: نحن فلانٌ وفلانٌ. فرحَّب بهما وقال: مرحباً بمن لا يجفُوني عند البلاء. فقالا: يا أيوبُ، لَعلَّك كنت تُسر شيئاً وتُظهر غيره، فلذلك ابتلاكَ الله؟ فَرَفَع رأسه إلى السماء ثم قال: هو يَعلَمُ، ما أَسَرِرتُ شيئاً أظهرتُ غيره. ولكن ربِّي ابتلاني لينظُرَ أأصبِر أم أجزَعُ؟ فقالا له: يا أيّوبُ، اشرب من خَمرِنا، فإنك إن شَرِبْتَ منه بَرأتَ. قال: فَغَضِبَ وقال: جاءكما الخبيثُ فأمركما بهذا؟ كلامُكما وطعامُكما وشرابكما عَليّ حَرَام؟ فقَامَا من عنده، وخَرَجَتْ امرأتُه تعمَل للناس، فَخبزت لأهل بيتٍ لهم صبيٌ، فَجَعَلَتْ لهم قِرصَةً وكان ابنُهم نائماً، فَكَرِهُوا أن يُوقِظُوه، فَوَهَبُوه لها. فأتت به إلى أيّوب، فأنكره وقال: ما كُنتِ تَأتِيني بهذا، فما بالُكِ اليومَ؟ فأخبَرَته الخَبرَ، قال: فلعلَّ الصبيَّ قد استيقظَ فطلب القُرصَ فلم يَجِدْه، فهو يبكي على أهله، فانْطَلِقي به إليه. فَأَقبلَتْ حتى بَلَغَتْ دَرَجةَ القوم فَنَطَحَتْها شاةٌ لهم فقالت: تَعِسَ أيّوبُ الخَطَّاءُ! فلما صَعِدَتْ وَجَدتِ الصَّبي قد استيقَظَ وهو يطلب القُرصَ، ويبكي على أهله، لا يقبلُ منهم شيئاً غَيْرَه، فقالت: رَحم الله أيّوبَ! فدفعت إليه القُرص ورَجَعت. ثم إن إبليسَ أتاها في صُورة طبيب، فقال لها: إنّ زوجَكِ قد طال سُقْمُه، فإذا أراد أن يَبرَأ فَلْيأخذ ذُباباً فَلْيَذْبحه باسم صَنَم بني فلان، فإنه يبرأ ويتوبُ بعد ذلك؟ فقالت ذلك لأيوبَ، فقال: قد أتاكِ الخبيثُ، لله عَليَّ إن بَرَأتُ أن أجلِدَكِ مائةَ جَلْدَةٍ! فخرجت تسعَى عليه، فَحُظرَ عنها الرزقُ، فَجعلت لا تأتي أهلَ بَيْتٍ فَيُريدُونَها، فلما اشتدَّ عليها ذاك وخافَتْ على أيّوب الجوعَ، حلقت من شعرها قَرْناً، فباعته من صِبْيَةٍ من بناتِ الأشراف، فأعطَوها طعاماً طَيِّباً كثيراً، فأتت به أيوبَ، فلما رآه أنكره، وقال: من أين لك هذا؟ قالت: عَمِلت لأناس فأطعَمُوني. فأكل منه، فلما كان الغد خَرَجت فَطَلبت أن تعمَل فلم تجد، فَحَلقت أيضاً قَرناً فباعَته من تلك الجارية، فأعطوها من ذلك الطعام، فأتت به أيّوبَ، فقال: والله لا أطعَمُه حتى أعلَمَ من أين

---

(١) ذكر الكناسة ونحو ذلك، لا يليق بأنبياء الله، وهو متلقىً عن أهل الكتاب، لم يرد شيء من ذلك عن الصادق المصدوق ﷺ.

هو؟ فَوَضعت خِمَارها، فلما رأى رَأسها محلوقاً جَزِعَ جَزَعاً شديداً، فعند ذلك دعا رَبّه عزّ وجلّ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(١).

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حَمَّاد، حدثنا أبو عِمْران الجَوْنيّ، عن نوفِ البكاليّ: أن الشيطان الذي عَرَّجَ في أيوب كان يقال له: مِسْوَطٌ قال: وكانت امرأةُ أيوبَ تقولُ: ادعُ الله فَيَشفِيَكَ. فَجعل لا يدعو، حتى مَرَّ به نفرٌ من بني إسرائيل، فقال بعضُهم لبعض: ما أصابَهُ إلا بِذَنْبٍ عظيم أصابَهُ. فعند ذلك قال: «رَبِّ إني مَسَّني الضرُّ وأنتَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». وحَدَّثنا أبي، حدثنا أبو سَلَمة، حدثنا جَرِير بنُ حازمٍ، عن عَبْدِ الله بن عُبَيد بن عُمَير قال: كان لأيُوبَ ـ عليه السلام ـ أخَوَانِ فجاءا يوماً فلم يستطيعَا أن يدنُوا منه، من ريحه، فَقَاما من بَعِيدٍ، فقال أحدُهما للآخر: لو كان الله عَلِمَ من أيُوبَ خيراً ما ابتلاهُ بهذا، فَجَزِعَ أيُوبَ من قولهما جَزَعاً لم يجزَع من شيء قَطُّ، فقال: اللهمَّ، إن كنتَ تعلمُ أني لم أبِت ليلةً قَطُّ شبعان وأنا أعلمُ مكان جائع فَصدقني. فَصُدِّق من السماء وهما يسمَعَان. ثم قال: اللهمَّ، إنْ كنت تعلم أني لم يَكُن لي قَمِيصَانِ قَطُّ، وأنا أعلم مكانَ عارٍ فَصَدِّقني. فَصُدِّق من السماء وهما يسمعان، ثم قال: اللهم بِعِزَّتِك. ثم خر سَاجداً، ثم قال: اللّهم بعِزَّتِكَ لا أرفَعُ رَأسي أبداً حتى تَكْشِفَ عنِّي. فما رفع رأسه حتى كَشَفَ عنه.

[٤٦١٧] وقد رواه ابنُ أبي حاتم من وَجْهٍ آخرَ مرفوعاً بنحو هذا، فقال: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابنُ وهبٍ، أخبرني نافعُ بن يزيدَ، عن عُقَيلٍ، عن الزُّهْرِيّ، عن أنس بن مالك، أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ نبيَّ الله أيوب لَبِثَ به بلاؤُهُ ثماني عشرةَ سنةً، فَرَفَضَه القريبُ والبعيدُ، إلاَّ رَجلين من إخوانه، كانا من أخصِّ إخوانه له، كانا يغدُوان إليه ويرُوحَان، فقال أحدُهما لصاحِبِه: تَعَلَّم ـ والله ـ لقد أذنَبَ أيُّوبُ ذنباً ما أذنَبَهُ أحدٌ من العالمين. فقال له صاحبُه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرةَ سنةً لم يَرْحمْه الله فَيَكْشِفَ ما به. فلما راحا إليه لم يَصْبِر الرجلُ حتى ذَكَرَ ذلك له، فقال أيُوبُ عليه السلام: لا أدري ما تقول، غير أن الله عزَّ وجلَّ يعلم أني كنتُ أمُرُّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فَأرْجِعُ إلى بيتي فَأُكَفِّر عنهما كراهةَ أن يَذْكُرا الله إلا في حَقٍّ. قال: وكان يخرُجِ في حاجَتِهِ، فإذا قَضَاها أمسكَتِ امرأته بيدِه حتى يبلُغ، فَلَمَّا كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى الله إلى أيُوبَ في مكانِهِ: أن اركُضْ برجلك، هذا مُغتسَلٌ باردٌ وشَرَابٌ»(٢). رَفْعُ هذا الحديثِ غريبٌ جداً.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي حَدَّثنا موسى بن إسماعيلَ، حدثنا حَمَّادُ، أخبرنا عليُّ بن زيدٍ، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: وألبسه الله حلَّةً من الجنة، فَتَنَحَّى أيوبُ فَجلس في ناحية، وجاءت امرأته فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله، أين ذَهَبَ هذا المُبتَلَى الذي كان هاهنا؟ لعلَّ الكلابَ ذَهَبَت به أو الذئابُ، فَجعلَت تُكلِّمه ساعةً، فقال: ويحك! أنا أيُوبُ! قالت: أتَسخَرُ مِنّي يا عبد الله؟ فقال: أنا أيوب، قد

---

(١) هذا الأثر بطوله عن السدي، وهو يروي الكثير عن كتب الأقدمين، وهذا منها.

(٢) أخرجه البزار ٢٣٥٧ وأبو يعلىٰ ٣٦١٧ وابن حبان ٢٨٩٨ والحاكم ٢/ ٥٨١ ـ ٥٨٢ ح ٤١١٥ والطبراني في «الطوال» ٤٠ وأبو نعيم ٣/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥ كلهم عن نافع بن يزيد بهذا الإسناد، قال الحاكم: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٣٨٠٠: رجال البزار رجال الصحيح اهـ وقال أبو نعيم: غريب من حديث الزهري لم يروه إلا عُقَيل، ورواته متفق علىٰ عدالتهم، تفرد به نافع اهـ. ورواه يونس بن يزيد عن عقيل عن الزهري مرسلاً، أسنده نُعيم في «زوائد الزهد» ١٧٩. وانظر «البداية والنهاية» ١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣، والله أعلم.

رَدَّ الله عَلَيَّ جَسَدِي. وبه قال ابن عباس: وَرَدَّ عليه مالَه وولَده عياناً، ومِثْلَهم معهم. وقال وَهْبُ بن مُنَبِّه: أوحى الله إلى أيُّوب: قد رَدَدْتُ عليك أهلك ومالك ومثلهم مَعَهم، فاغتسل بهذا الماءِ، فإن فيه شفاءَك، وقرِّب عن صاحبتك قُرباناً، وَاسْتَغْفِر لهم، فإنهم قد عَصَوني فيك. رواه ابن أبي حاتم.

[٤٦١٨] وقال أيضاً: حَدَّثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا هَمَّام، عن قتادَةَ، عن النَّضْرِ ابن أنسٍ، عن بَشير بن نَهيكٍ، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لما عافى الله أيُّوبَ أمطَرَ عليه جَراداً من ذَهَب فجعلَ يأخذُ بيدِهِ ويجعَلُه في ثَوْبِهِ، قال: فَقِيلَ له: يا أيُّوبُ، أما تَشْبَعُ؟ قال: يا رَبِّ وَمَن يَشْبَع من رَحْمَتِكَ[١]؟! أصله في الصَّحِيحَين، وسيأتي في مَوْضِعٍ آخَرَ.

وقولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾، قد تَقَدَّم عن ابن عباس أنه قال: رُدُّوا عليه بأعيانِهم. وكذا رواهُ العَوفي، عن ابن عباس أيضاً، ورُوِي مثله عن ابن مسعود ومجاهد. وبه قال الحسنُ وقتادةُ. وقد زَعَم بعضهم أن اسم زَوْجَتِهِ رَحمةُ، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النُّجعة، وإن كان أخذَه من نقل أهل الكتاب، وصَحَّ ذلك عنهم، فهو مما لا يُصَدَّق ولا يكذب. وقد سماها ابن عساكر في تاريخه ـ رَحِمَه الله تعالى ـ قال: ويُقال: اسمُها لَيَّا ابنةُ مِنَشَّا بن يوسف بن يعقوب بنت إسحاق بن إبراهيم، قال: ويقال: لَيَّا بنتُ يعقوبَ عليه السلام، زوجةُ أيُّوبَ، كانت معه بِأرْضِ البَثَنِيَّةِ. وقال مجاهدٌ: قيل له: يا أيُّوبُ، إن أهلَكَ لَكَ في الجنَّةِ، فإن شِئْتَ أتيناكَ بهم، وإن شِئْتَ تَرَكناهم لَكَ في الجَنَّة، وعَوَّضناكَ مثلهم؟ قال: لا بل اترُكْهُم لي في الجنة. فَتُرِكوا له في الجنة وعُوِّض مِثْلَهم في الدنيا. وقال حَمَّاد بن زيد، عن أبي عِمْرانَ الجَوْني، عن نَوفٍ البِكَاليِّ قال: أُوتي أجْرَهم في الآخرة، وأُعطِيَ مثلهم في الدنيا. قال: فَحدَّثْتُ به مُطَرِّفاً، فقال: ما عَرَفْت وجهها قبل اليوم. وهكذا رُوِيَ عن قَتَادَةَ، والسدِّيِّ، وغير واحد من السَّلَفِ، والله أعلم. وقولُه: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، أي: فَعَلنا به ذلك رحمةً من الله به، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾، أي: وجعلناه في ذلك قدوةً، لئلا يَظُنَّ أهلُ البلاء أنَّما فعلنا بهم ذلك لِهوانهم علينا، وليتأسَّوا به في الصَّبر على مَقْدُوراتِ الله وابتلائِه لعبادِه بما يشاء، وله الحكمةُ البالغةُ في ذلك.

﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

أما إسماعيلُ فالمرادُ به ابنُ إبراهيمَ الخليل عليهما السلام، وقد تَقَدَّم ذكرُه في سُورَة مريم، وكذلك إدريسُ عليه السلام. وأما ذُو الكِفْلِ فالظاهرُ من السياق أنه ما قُرِنَ مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكانَ مَلِكاً عَادلاً، وحكماً مُقْسِطاً. وتَوقَّفَ ابنُ جريرٍ في ذلك، فالله أعلم. وقال ابنُ جُرَيج، عن مجاهد في قوله: ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾، قال: رجلٌ صالح غيرُ نَبيٍّ، تَكَفَّل لِنبيِّ قومه أن يكفيه أَمْرَ قومه ويُقيمهم له، ويَقْضِي بينهم بالعَدْلِ، ففَعَلَ ذلك، فَسُمِّي: ذا الكِفْلِ. وكذا روى ابن أبي نَجِيح، عن مُجاهِدٍ أيضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عَفَّان، حدثنا وُهَيبٌ، حدثنا داودُ، عن مجاهدٍ قال: لما كَبِر اليَسَعُ قال: لو أني استخلفتُ رَجُلاً على الناس يعمَلُ عليهم في حياتي، حتى أنظُرَ كيفَ يعملُ؟

(١) إسناده حسن، رجاله ثقات. وسيأتي في تفسير سورة ص عند آية: ٤٤.

فجمَعَ الناسَ، فقال: مَن يَتقبَّلُ بثَلاثٍ: أَستخلِفُه يصومِ النَّهارِ، ويَقُومُ الليلَ، ولا يغضَبُ؟ قال: فقام رجلٌ تَزدَرِيه العينُ، فقال: أنا. فقال: أنت تصومُ النَّهار، وتقومُ الليلَ، ولا تغضبُ؟ قال: نعم. قال: فَردَّهم ذلك اليوم، وقال مثلَها في اليوم الآخر، فسكت الناسُ، وقام ذلك الرجل فقال: أنا. فاستخلَفه، قال: فجعل إبليسُ يقولُ للشياطين: عليكُم بفُلانٍ. فأعياهم ذلك الرَّجُلُ، قال: دعُوني وإياه، فأتاه في صُورة شيخ كبيرٍ فقيرٍ، فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلةِ ـ وكان لا ينامُ الليل والنهار إلا تلك النومةَ ـ فَدقَّ الباب، فقالَ: من هذا؟ قال: شيخٌ كبيرٌ مظلومٌ. قال: فقام ففتح الباب، فجعل يقصُّ عليه، فقال: إن بيني وبين قومي خصومةً وإنهم ظَلَموني، وفعلوا بي وفعلوا. وجعل يُطَوِّل عليه حتى حَضَر الرَّوَاحُ وذَهبتِ القائلةُ، فقال: إذا رُحتُ فأتني آخذ لك بحقِّك. فانطلق، وراح، فكان في مجلسه، فجعل ينظر هل يَرَى الشيخَ؟ فلم يَرَه، فقام يَتْبَعُه، فلما كان الغدُ جعل يقضي بين الناس، وينتظره فلا يَراه، فلما رَجَع إلى القائلة فأخذ مَضْجَعه أتاه فَدَقَّ الباب، فقال: من هذا؟ قال: الشيخ الكبير المظلوم. ففتح له فقال: ألم أقل لك، إذا قعدتُ فأتِني؟ قال: إنهم أخبثُ قومٍ، إذا عَرَفوا أنك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقك وإذا قمت جَحَدوني. قال: فانطَلِقْ، فإذا رحتُ فَأتِني. قالَ: ففاتته القائلة، فراح، فجعل ينتظره ولا يراه، وشَقَّ عليه النُّعاسُ، فقال لبعض أهله: لا تَدَعَنَّ أحداً يَقرُب هذا البابَ حتى أنام، فإنه قد شَقَّ عليَّ النوم. فلما كان تلك الساعةُ جاء فقال له الرجلُ: وراءَكَ وراءَكَ. فقال: إني قد أتيتُه أمس فذكرت له أمري. فقال: لا، والله لقد أمرنا ألاَّ نَدَع أحداً يَقرَبُه. فلما أعياه نظر فرأى كُوَّةً في البيت، فَتَسوَّرَ منها، فإذا هو في البيت، وإذا هو يَدُق الباب من داخل، قال: فاستيقظَ الرجلَ فقال: يا فلانُ، ألم آمرْكَ؟ فقال: أما من قِبَلي والله فلم تُؤْتَ، فانظر مِنْ أينَ أُتِيتَ؟ قال: فَقَامَ إلى الباب فإذا هو مُغلَقٌ كما أغلقَه، وإذا الرجلُ معه في البيتِ، فعرفَه، فقال: أعدوُّ الله؟ قال: نعم، أعيَيْتَني في كلِّ شيءٍ، ففعلتُ ما تَرَى لأُغضِبَكَ. فسمّاه الله ذا الكِفلِ، لأنه تكفَّلَ بأمرٍ، فوَفَى به. وهكذا رواه ابنُ أبي حاتم، من حديث زُهَيرِ بن إسحاقَ، عن داودَ، عن مُجاهِدٍ، بمثلِه.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن مسلم قال: قال ابن عباس: كان قاضٍ في بني إسرائيل فَحَضَره الموتُ، فقال: مَن يقومُ مَقامي على ألاَّ يغضَبَ؟ قال: فقال رجلٌ: أنا. فَسُمِّي ذا الكِفْلِ. قال: فكان ليلَه جميعاً يصلِّي، ثم يُصبِحُ صائماً فيقضي بين الناس ـ قال: وله ساعة يقيلها ـ قال: فكان كذلك، فأتاه الشيطانُ عند نَوْمَتِهِ، فقال له أصحابه: مالك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حقٌ، وقد غلبني عليه. قالوا: كما أنت حتى يستيقظ ـ قال: وهو فوقُ نائمٌ ـ قال: فجعَلَ يَصِيح عمداً حتى يُوقِظَه، قال: فَسَمِعَ، فقال: ما لَكَ؟ قال: إنسانٌ مسكينٌ، له على رجُلٍ حق. قال: اذهب فقل له يُعطِيك. قال: قد أبى. قال: اذهَبْ أنت إليه. قال: فذهب، ثم جاء من الغد، فقال: ما لك؟ قال: ذهبتُ إليه فلم يرفع بكلامِكَ رأساً. قال: اذهَبْ إليه فقل له يُعطيك حَقَّك. قال: فذَهَب، ثم جاء من الغد حين قال، قال: فقال له أصحابه: اخرُج، فَعَلَ الله بك، تجيء كُلَّ يوم حين ينامُ، لا تَدَعُهُ ينام؟ فجعل يَصِيح: من أجل أنّي إنسان مسكين، لو كُنت غنياً؟ قال: فَسمِع أيضاً، فقال: ما لك؟ قال: ذهبتُ إليه فَضَرَبني. قال: امشِ حتى أجيء معك. قال: فهو ممسكٌ بيده، فلما رآه ذَهَبَ معه نَتَر يدَه منه، فَفَرّ. وهكذا رُوِي عن عبد الله بن الحارث، ومُحمَّد بن قَيسٍ، وابنِ حُجَيرةَ الأكبر، وغيرِهِم من السَّلَفِ، نحوُ من هذه القصَّةِ، والله أعلم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجُمَاهِرِ، أخبرنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة، عن أبي كنانة

الأخنس قال: سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر: ما كان ذو الكفل بنبي، ولكن كان ـ يعني في بني إسرائيل ـ رجل صالح يصلي كل يوم مئة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي كل يوم مئة صلاة، فسمي ذا الكفل. وقد رواه ابنُ جَرير من حديث عبد الرزّاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادَةَ قال: «قال أبو موسى الأشعري. . .». فذكره منقطعاً، والله أعلم.

[٤٦١٩] وقد رَوى الإمام أحمد حديثاً غريباً فقال: حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمشُ، عن عبد الله بن عبد الله، عن سَعْدٍ مولى طلحة، عن ابن عُمَر قال: سَمِعتُ من رسولِ الله ـ ﷺ ـ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرَّةً أو مَرّتين ـ حتى عدّ سبع مرات ـ ولكن قد سَمِعتُهُ أكثَرَ من ذلك، قال: كان الكِفْلِ من بني إسرائيل، لا يتورَّعُ من ذَنْب عَمِله، فأتته امرأةٌ فأعطاها ستين ديناراً على أن يَطَأها، فلما قَعَد منها مَقعدَ الرجل من امرأته، أرْعِدَتْ وبَكَتْ، فقال: ما يُبْكِيكِ؟ أكْرَهْتُكِ؟ قالت: لا، ولكن هذا عملٌ لم أعْمَله قطُّ، وإنما حَمَلَني عليه الحاجةُ، قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قَطُّ؟ ثم نَزَلَ فقال: اذهبي فالدَّنانيرُ لَكِ. ثم قال: واللهِ لا يَعصِي الله الكِفْلُ أبداً. فماتَ من ليلتِهِ، فأصبحَ مكتُوباً على بابِهِ: قد غَفَر الله للكِفْلِ[1]. هكذا وقع في هذه الرواية: «الكفل»، من غير إضافةٍ، فالله أعلم. وهذا الحديث لم يُخرِّجه أحدٌ من أصحاب الكتب الستة[2]، وإسنادُه غريبٌ، وعلى كلِّ تقديرٍ فلفظُ الحديثِ إن كان «الكفل»، ولم يقل: «ذو الكفل»، فَلَعلَّه رَجلٌ آخرُ، والله أعلم.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾

هذه القصّة مذكورةٌ هاهنا وفي سورة «الصافات» وفي سُورَةِ «ن»، وذلك أن يونسَ بن مَتّى ـ عليه

---

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٤٩٦ وأحمد ٢/ ٢٣ والحاكم ٤/ ٢٥٤ ح ٧٦٥١ وصححه! وسكت الذهبي! مع أن في إسناده سعد مولى طلحة، وهو مجهول كما في التقريب. وأخرجه ابن حبان ٣٨٧ عن أبي بكر بن عياش عن الأعمش عن عبد الله الرازي إلا أنه قال: عن سعيد بن جبير عن ابن عمر، وهذا إسناد ظاهره الحسن لكنه معلول. قال الترمذي عقب روايته: حديث حسن، ورواه غير واحد عن الأعمش، رفعوه، ورواه بعضهم عن الأعمش فلم يرفعه. ورواه أبو بكر بن عياش، فأخطأ فيه، فقال عن سعيد بن جبير عن ابن عمر، وهو غير محفوظ اهـ فالحديث إنما هو عن سعد مولى طلحة، وقد ذكره الذهبي في «الميزان» ٣١٣٠ فقال: عن ابن عمر، وعنه عبد الله الرازي فقط، وهذا إشارة منه إلى جهالته. وهناك علة أخرى، وهي الاضطراب في المتن ففي مسند أحمد وسنن الترمذي والمستدرك «كان الكفل» وعند ابن حبان «ذو الكفل». وعند ابن حبان «سمعته أكثر من عشرين مرة» وعند غيره «سبع مرات». ولو كان حدث به النبي ﷺ «سبع مرات» لرواه جمع من الصحابة غير ابن عمر. بل جاء عند ابن حبان «عشرين مرة» فكيف ذلك ولا يرويه إلا رجل مجهول، فأمارة الوهن على هذا الخبر ظاهرة، وقد جاء في قصة «أصحاب الغار الثلاثة الذين توسّلوا بصالح أعمالهم» نحو هذا، وهو أصح. والله تعالى أعلم.

تنبيه: ولفظ «ذو الكفل» كما وقع في رواية ابن حبان، لا يصح البتة، فقد جاء ذكره مع الأنبياء، ووصفه الله بالصبر، والحديث يذكر أنه مات من ليلته التي تاب فيها. فلم يكن منه صبرٌ، والحديث ضعيف بكل حال كما تقدم، والله تعالى أعلم.

(٢) كذا وقع للمصنف رحمه الله، وتقدم أن الترمذي قد رواه، والله تعالى أعلم.

السلام ـ بعثه الله إلى أهل قرية «نِينَوَى»، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فَأبوا عليه وتمادوا على كُفرهم، فَخَرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعَدَهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحقَّقُوا منه ذلك، وعلموا أن النبيّ لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفَرّقُوا بين الأمهات وأولادها، ثم تَضرَّعُوا إلى الله عزّ وجلّ، وجَأَروا إليه، وَرَغَتِ الإبل وفُصْلانها، وخارت البَقَرُ وأولادها، وثَغَتِ الغنم وحُمْلانُها. فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم سَفينةٍ فَلَجَّجَتْ بهم وخافوا أن تَغرَق بهم، فاقترعوا على رجل يُلقونَه من بينهم يَتَخفَّفونَ منه، فوقَعَت القرعةُ على يونس، فأَبَوا أن يُلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، فأبوا، ثم أعادوا القُرعَةَ فوقَعَت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصافات: ١٤١]، أي: وقعت عليه القُرعَةُ، فقام يونس ـ عليه السلام ـ وتَجرَّد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ من البحر الأخضر ـ فيما قاله ابنُ مسعود ـ حوتاً يَشُقُّ البحار، حتى جاء فالتقم يونُس حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت ألاّ يأكُلَ له لحماً، ولا يهشِم له عَظماً، فإن يونس ليس لك رِزْقاً، وإنما بطنُك يكون له سِجناً.

وقولُه تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، يعني الحُوتَ، صحت الإضافة إليه بهذه النِّسبة. وقولُه: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾، قال الضحاكُ: لقومه ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: نُضيِّقَ عليه في بطن الحُوتِ. يُروَى نحوُ هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضَّحَّاكِ، وغيرهم، واختاره ابنُ جرير، واستشهدَ عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. وقال عطية العَوفي: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أي: نَقضِي عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قَدر وقَدَّر بمعنى واحد، قال الشاعر:

فَـلاَ عَـائِـدٌ ذاكَ الـزمَـانُ الـذِي مَـضَـى   تَـبَـارَكْـتَ، ما تَـقْـدِرْ يَـكُـنْ، فَـلَـكَ الأَمْـرُ

ومنه قولُه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]، أي: قُدِّر. وقولُه: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قال ابنُ مسعود: ظلمةُ بطنِ الحُوتِ، وظلمةُ البحرِ، وظلمةُ الليلِ. وكذا رُوِي عن ابن عباس، وعَمرو بن ميمون، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن كعب، والضحاك، والحسن، وقتادةَ. وقال سالم بن أبي الجعد: ظُلْمَةُ حُوتٍ، في بَطْنِ حُوتٍ آخَرَ، في ظُلْمَةِ البحر. قال ابن مسعود، وابنُ عباس وغيرهما: وذلك أنه ذَهَبَ به الحوتُ في البحار يَشُقُّها، حتى انتهى به إلى قرار البحر حتى سَمِعَ يونُس تسبيحَ الحَصَى في قَرَارِهِ. فعند ذلكَ وهنالكَ قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾. وقال عوف الأعرابي: لما صار يونُس في بَطنِ الحوت ظن أنه قد مات، ثم حَرّك رجليه فلما تَحرَّكت سجد مكانه، ثم نادى: يا ربِّ، اتخذتُ لك مسجداً في موضع ما اتَّخذه أحد من الناس. وقال سعيدُ بن أبي الحَسَن البصري: مكث في بطن الحوت أربعين يوماً. رواهما ابن جرير.

[٤٦٢٠] وقال محمدُ بن إسحاقَ بن يَسَارٍ، عَمَّن حَدَّثَه، عن عبد الله بن رافع ـ مولى أُمِّ سَلَمة ـ سَمِعتُ أبا هُرَيرة يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لما أراد الله حَبْسَ يُونُس في بطن الحُوتِ، أوحى الله إلى الحُوتِ أن خُذه ولا تخدِش له لحماً ولا تكسر عَظماً. فلما انتهى به إلى أسفلِ البَحْرِ سَمِع يونس حِسّاً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه، وهو في بَطنِ الحُوتِ: إن هذا تسبيحُ دَوَابِّ البحر. قال: فَسَبَّح وهو في بطن

الحوت، فَسَمِعت الملائكةُ تسبيحه فقالوا: يا رَبَّنا إنا نسمعُ صوتاً ضَعيفاً بأرض غريبة! قال: ذلك عبدي يونُسَ، عَصَاني فحبسته في بَطْنِ الحُوتِ في البحر. قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعَدُ إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. قال: فَشَفَعُوا له عند ذلك، فأمر الحوتَ فَقَذَفه في الساحل، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[1]. رواه ابنُ جَرير، ورواه البَزّار في مُسنَدِه، من طريق محمد بن إسحاقَ، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هُرَيرة، فَذَكَرَهُ بنحوه، ثم قال: لا نعلمه يُروَى عن النبي ـ ﷺ ـ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

[٤٦٢١] وَرَوى ابن عبد الحق من حديث شعبة، عن عمرو بن مُرّة، عن عبد الله بن سَلِمة، عن علي مرفوعاً: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى، سَبَّح لله في الظلمات»[2]. وقد رُوِي هذا الحديث بدون هذه الزيادة، من حَدِيثِ ابنِ عَبّاسٍ، وابنِ مسعُودٍ، وعبد الله بن جعفر، وسيأتي أسانيدُها في سورة «ن».

[٤٦٢٢] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو عُبَيد الله أحمد بن عبد الرحمٰن بن أخي ابن وهب، حدثنا عمّي: حدثني أبو صَخرٍ أن يزيد الرَّقاشِيَّ حدّثه قال: سمعتُ أنس بن مالك ـ ولا أعلم إلا أن أنساً يرفَعُ الحديثَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أن يونُسَ النبي ـ عليه السلام ـ حين بدا له أن يدعُوَ بهذه الكلمات وهو في بَطْنِ الحُوتِ، قال: اللهمّ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فأقبلت هذه الدعوة تَحُفُّ بالعرش، فقالت الملائكة: يا ربِّ، صوتٌ ضعيفٌ معروفٌ من بلاد غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لا، يا ربنا، ومَن هوَ؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدُك يونس الذي لم يَزل يَرفَعُ له عَمَلاً مُتقبَّلاً، ودعوةً مجابةً؟! قال: نعم. قالوا: يا ربِّ أفلا ترحَمُ ما كان يَصْنَعُ في الرخاء فتنجيَه من البلاء؟ قال: بلى. فَأَمَرَ الحُوتَ فَطَرحه في العَرَاءِ[3].

وقولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾، أي: أخرجناه من بَطْنِ الحُوتِ وتلك الظُّلُماتِ، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: إذا كانوا في الشدائد ودَعَونا مُنِيبين إلينا، ولا سِيَّما إذا دَعَوا بهذا الدُّعاءِ في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء بها عن سَيِّد الأنبياء ﷺ.

[٤٦٢٣] قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن عُمَر، حدثنا يُونُس بن أبي إسحاقَ الهَمْدَانِيُّ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد، حدثني والدي محمد، عن أبيه سَعْدٍ ـ وهو ابنُ أبي وَقّاصٍ رضي الله عنه ـ قال: مَرَرْتُ بعثمانَ بن عَفّان ـ رضي الله عنه ـ في المسجد، فَسَلّمتُ عليه فَمَلأَ عينيهِ مني ثم لم يَردُدْ عليَّ السَّلام، فأتيت عُمَر بن الخطاب فقلت: يا أميرَ المؤمنين، هل حَدَث في الإسلام شَيءٌ؟ مَرّتين، قال: لا، وما ذاك؟

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤٧٧٨ من طريق ابن إسحق بهذا الإسناد، وفيه راو لم يسمّ. وأخرجه البزار ٢٢٥٤ من طريق ابن إسحق عن عبد الله بن رافع، وعلى هذا يكون سقط الواسطة بين ابن إسحق وعبد الله، فابن إسحق مدلس، وقد عنعن ههنا، وقال الهيثمي في «المجمع» ١١٣٠٢: رواه البزار عن بعض أصحابه، ولم يسمّه. وفيه ابن إسحق مدلس اهـ. فالإسناد ضعيف، وله شاهد ضعيف، وهو الآتي.

(٢) إسناده غير قوي من أجل عبد الله بن سلمة، وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٣١٨٥٤ والطحاوي في «المشكل» ١٠١٣ من طريق شعبة عن عمرو بن مرّة عن ابن سلمة عن علي قال: قال الله عز وجل. . . فذكره ولم يرفعه إلى النبي ﷺ.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» ٣٢ بهذا الإسناد، وفيه يزيد بن أبان الرقاشي ضعيف، وعنه أبو صخر حميد بن زياد مختلف فيه، ضعفه النسائي، ووثقه يحيى وابن حبان، ويشهد له ما قبله، والله أعلم.

قلتُ: لا، إلا أنّي مررتُ بعثمان آنِفاً في المسجِدِ، فَسلَّمت عليه، فملأ عينيه مِنّي، ثم لم يَرْدُد عَلَيَّ السَّلامَ: قال: فأرسل عُمَر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما مَنَعَك ألاّ تكونَ رَدَدْتَ على أخيكَ السلام؟ قال: ما فعلتُ. قال سعدٌ: قلتُ: بلى. حتى حَلَفَ وحَلَفْتُ، قال: ثم إنَّ عثمان ذَكَرَ فقال: بلى، وأستغفِرُ الله وأتوبُ إليه، إنَّكَ مَرَرْتَ بي آنفاً وأنا أحدِّثُ نفسي بِكَلِمَة سَمِعتُها من رسولِ الله ـ ﷺ ـ لا والله ما ذكرتها قطُّ إلا تَغْشَى بَصَري وقلبي غِشَاوةٌ. قال سعدٌ: فأنا أُنبِئُك بها، إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ ذَكَرَ لنا أوَّلَ دَعْوَةٍ، ثُمَّ جاء أعرابي فَشغَله، حتى قامَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فاتَّبعتَهُ، فَلَما أشفقتُ أن يَسبِقني إلى مَنْزِله ضَرَبْتُ بِقَدَمِي الأرض، فالتفتَ إليَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: من هذا؟ أبو إسحاق؟ قال قلت: نَعَم، يا رسول الله، قال: «فمه» قلت: لا والله إنك ذكرت لنا أولَ دعوةٍ ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك، قال: نعم دعوةُ ذِي النُونِ، إذ هُوَ في بَطْنِ الحُوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنه لم يدعُ بها مسلمٌ ربَّه في شَيْءٍ قطُّ إلا استجاب له»[1]. ورواه الترمذي والنسائي في «اليوم والليلة»، من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه، عن سعد، به.

[٤٦٢٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُ، حدثنا أبو خالِدِ الأحمرُ، عن كَثير بن زيد، عن المطلب بن حَنطَب ـ قال أبو خالد: أحسبه عن مُصعَبٍ ـ يعني ابن سَعْدٍ ـ عن سَعْدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: من دعا بدعاء يونُسَ استُجِيبَ له. قال أبو سعيد: يُريد به ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

[٤٦٢٥] وقال ابن جرير: حدثني عمران بن بَكار الكَلاعِيُّ، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمٰن، حدثني بِشْر بن منصور، عن علي بن زَيدٍ، عن سعيد بن المُسَيّب قال: سَمِعْتُ سعدَ بن مالك ـ وهو ابن أبي وَقَّاص ـ يقول: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: اسمُ الله الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطَى، دعوةُ يونس بن مَتّى. قال: قلت: يا رسول الله، هي ليونُسَ خاصّةً أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونُسَ بن مَتّى خاصّةً ولجماعة المؤمنين عامةً إذا دَعَوا بها، ألم تسمَع قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾. فهو شَرْطٌ من الله لمن دعاه به[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي سُرَيج، حدثنا داود بنُ المُحبَّر بن قحذَم المَقدِسيُّ، عن كَثير بن مَعْبدٍ قال: سألتُ الحسَن، قلت: يا أبا سَعِيدٍ، اسمُ الله الأعظَمُ الذي إذا دُعِي بهِ أجابَ، وإذا سُئل به أعطَى؟ قال: ابن أخي، أما تقرأ القرآن؟ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ابنَ أخي، هذا اسمُ الله الأعظمُ، الذي إذا دُعِيَ به أجابَ، وإذا سُئِل به أعطَى.

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ١٧٠ وأبو يعلى ٧٧٢ من طريق إسماعيل بن عمر به، وإسناده صحيح. وأخرجه الترمذي ٣٥٠٥ والنسائي في «الكبرى» ١٠٤٩٢ وصححه الحاكم ١/ ٥٠٥ و٢/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣ ووافقه الذهبي من طريق إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن سعد به مختصراً، ويؤيده ما بعده.

(٢) حسن. أخرجه أبو يعلى ٧٠٧، ورجاله ثقات. خلا كثير بن زيد، وهو صالح الحديث، ويشهد لما قبله.

(٣) إسناده ضعيف، أخرجه الحاكم ١/ ٥٠٥ ـ ٥٠٦ ح ١٨٦٥ والطبري ٢٤٧٧٩ كلاهما من حديث سعد، وفي إسناد الطبري، علي بن زيد، وهو ضعيف. وعند الحاكم عمرو بن بكر السكسكي الرملي، قال ابن عدي: له مناكير عن الثقات، وقال ابن حبان: يروي عن الثقات الطامات، وقال الذهبي: أحاديثه موضوعة. وذكر الحاكم أحاديث في اسم الله الأعظم تعارضه، وهي أصح من هذا الحديث، والله تعالى أعلم.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٨٩) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ (٩٠)﴾

يُخبِرُ تعالى عن عبده زكريًا، حين طَلَبَ أن يَهَبَه الله وَلَداً، يكونُ من بعده نبياً. وقد تَقَدَّمت القصة مبسوطةً في أول سورة «مريم» وفي سورة «آل عمران» أيضاً، وهاهنا أخصَرُ منهما، ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، أي: خِفْيةً عن قومه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾، أي: لا ولدَ لي ولا وَارِثَ يقومُ بَعدِي في الناس، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، دعاءٌ وثناءٌ مناسبٌ للمسألة. قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي: امرأته. قال ابن عباس، ومجاهد، وسَعِيد بن جُبَير: كانت عاقراً لا تَلِد، فولدت. وقال عبد الرحمٰن بن مَهديّ، عن طلحة بن عمرو، عن عطاءٍ: كان في لسانها طولٌ فأصلحها الله. وفي روايةٍ: كان في خَلْقها شيءٌ فأصلحها الله. وهكذا قال محمد بن كعب، والسدّي. والأظهرُ من السياق الأولُ.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي: في عَمَل القُرُبات وفِعْلِ الطاعات، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، قال الثوريُّ: ﴿رَغَبًا﴾، فيما عندنا، و﴿وَرَهَبًا﴾ مما عندنا، ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾. قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عبّاس: أي مُصدِّقين بما أنزلَ الله. وقال مجاهد: مُؤمنين حقاً. وقال أبو العالية: خائِفينَ. وقال أبو سِنَانَ: الخشوعَ هو الخوفُ اللازمُ للقلب، لا يُفارِقُه أبداً. وعن مجاهد أيضاً ﴿خَٰشِعِينَ﴾، أي: مُتواضِعينَ. وقال الحسن، وقتادة، والضحاك: ﴿خَٰشِعِينَ﴾ أي: مُتذلِّلين لله عزّ وجل. وكلُّ هذه الأقوال متقاربة. وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حَدَّثنا علي بن محمد الطُّنافِسيُّ، حدثنا محمد بن فُضَيل، حدثنا عبد الرحمٰن بن إسحاق، عن عبد الله القُرَشيِّ، عن عبد الله بن حكيم قال: خَطَبنا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ثم قال: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، وتثنُوا عليه بما هو له أهلٌ، وتَخلِطُوا الرَّغبةَ بالرَّهبةِ، وتجمَعُوا الإلحافَ بالمسألة، فإن الله عزّ وجلّ أثنى على زكريا وأهلِ بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (٩١)﴾

هكذا يقرن تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيىٰ عليهما السلام فيذكُر أولاً قصةَ زكريا، ثم يتبعها بقصة مريمَ، لأنَّ تلك مُوطِّئةٌ لهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طَعَنَ في السنّ، ومن امرأةٍ عجوزٍ عاقرٍ لم تكن تَلِد في حال شبابها، ثم يذكر قصَّة مريمَ وهي أعجبُ، فإنها إيجادُ وَلَدٍ من أنثى بلا ذكر. هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم، وهاهنا ذكر قصة زكريا، ثم أتبعها بقصّةِ مريم. فقوله: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، يعني مريم عليها السلام. كما قال في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: دَلالةً على أن الله على كلّ شيءٍ قديرٌ، وأنه يخلُق ما يشاء، و﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس: ٨٢]. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَمرو بن علي، حَدَّثنا أبو عاصم الضَّحاك بن مَخلَدٍ، عن شَبيب ـ يعني ابن بِشرٍ ـ عن عكرمة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، قال: العالمين الجنُّ والإنسُ.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

قال ابنُ عباس، ومجاهد، وسعيد بنُ جُبَير، وقتادة، وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلَمَ في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، يقول: دينكم دينٌ واحدٌ. وقال الحسن البصري في هذه الآية: بيَّن لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال: سُنَّتكم سُنَّةٌ واحدةٌ. فقوله ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾: إن واسمها، وأمتكم خبر إنَّ، أي: هذه شريعتُكم التي بُيِّنت لكم ووضَحت لكم. وقوله: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ نصب على الحال، ولهذا قال: ﴿ﷺ﴾، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٢].

[٤٦٢٦] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «نحن مَعْشَر الأنبياء أولادُ عَلَّات[1] دينُنا واحدٌ»، يعني أنَّ المقصودَ هو عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له بشرائع مُتَنوِّعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، أي: اختلفتِ الأممُ على رُسُلها، فمن بين مُصدِّقٍ لهم ومُكذِّبٍ، ولهذا قال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾، أي: يوم القيامة، فَيُجازِيَ كلاً بحسب عمله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ، ولهذا قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، أي: قلبُه مصدِّقٌ، وعَمِل عَملاً صالحاً، ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾، كقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، أي: لا نَكْفُرُ سعيَهُ، وهو عمله، بل نَشْكُرُ، فلا يُظلَم مثقالَ ذرّة، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي: نكْتُبُ جميعَ عَمَلِه فَلا يَضِيعُ عليه منه شيءٌ.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾، قال ابن عباس: وجب. يعني قدراً مُقدّراً أن كُلَّ أهلِ قرية أُهلِكُوا أنهم لا يرجِعُون إلى الدنيا قبلَ يوم القيامة. وهكذا صَرَّح به ابنُ عباس، وأبو جعفرٍ الباقِرُ، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ. وفي رواية عن ابن عباس: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، أي: لا يَتُوبونَ. والقول الأول أظهر، والله أعلم.
وقولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾، قد قدّمنا أنهم من سلالة آدم ـ عليه السلام ـ بل هُم من نَسْلِ نوح أيضاً، من أولاد يافث أبي الترك، والتركُ شرذمةٌ منهم، تُركوا من وَرَاءِ السدِّ الذي بَنَاهُ ذُو القرنين. وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٨ ـ ٩٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾. أي: يُسرعون في المشي إلى الفساد. والحَدَبُ: هو المرتَفِعُ مِن الأرض، قاله ابنُ عباس، وعكرمةُ، وأبو صالح، والثوريُّ، وغيرهم. وهذه صفتُهم في حال خُروجهم، كأنَّ السامعَ مشاهد لذلك، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، هذا إخبار عَالِم ما كانَ وما يكونُ، الذي يعلَمُ غيبَ السَّمواتِ والأرضِ، لا إله إلا هُوَ.

---

(١) أي من أمهات شتى، والأب واحد. وقد تقدم الحديث.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المُثنَّى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن عُبَيد الله بن أبي يزيدَ قال: رأى ابنُ عباس صبياناً ينزُو بعضُهم على بعضٍ، يَلعَبُونَ، فقال ابن عباس: هكذا يخرُج يأجوجُ ومأجوجُ. وقد وَرَد ذكرُ خُروجهم في أحاديثَ متعدِّدةٍ من السنة النبوية.

[٤٦٢٧] فالحديث الأوَّلُ، قال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا يعقوبُ، حَدَّثنا أبي، عن ابن إسحاقَ، عن عاصم بن عُمَر بن قتادة، عن محمود بن لَبيد، عن أبي سعيد الخُدريِّ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول «يُفتَح يأجوجُ ومأجوجُ، فيخرجون على الناس كما قال الله عَزَّ وجلَّ: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، فيغشَونَ الناس، وينحازُ المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحُصونهم، ويَضُمُّون إليهم مَوَاشِيَهُم، ويشربون مياه الأرضِ، حتى إن بعضَهم لَيَمرُّ بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يَبَساً، حتى إن مَنْ بعدهم لَيَمرُّ بذلك النهر فيقول: قد كان هاهنا ماءٌ مرةً، حتى إذا لم يبقَ من الناس أحد إلا أحدٌ في حصن أو مدينةٍ قال قائلُهم: هؤلاءِ أهلُ الأرض، قد فَرَغنا منهم، بقي أهلُ السماء. قال: ثم يهزُّ أحدُهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع إليه مُختَضِبَةً دماً، للبلاءِ والفتنةِ. فبينما هم على ذلك إذْ بعَثَ الله عَزَّ وجلَّ دوداً في أعناقهم كنَغَف الجرادِ الذي يخرجُ في أعناقه، فَيُصبحون موتى لا يُسمَعُ لهم حِسٌ، فيقول المسلمون: ألا رجلٌ يَشري لنا نفسَه فينظر ما فَعَل هذا العدوُّ؟ قال: فَيَتَجرَّد رجلٌ منهم مُحتَسِباً نفسه، قد أوطَنَها على أنه مقتولٌ، فينزل فيجدهم موتى، بعضُهم على بعضٍ، فينادي: يا معشَرَ المسلمين، ألا أبشروا، إن الله عَزَّ وجلَّ قد كفاكم عَدُوَّكم فَيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويُسرِّحون مواشِيَهم، فيما يكون لها رعيٌ إلا لحومهم، فَتَشكَرُ[1] عنه كأحسن ما شَكَرَت عن شيءٍ من النَّباتِ أصابته قطُّ»[2]. ورواه ابنُ مَاجه، من حديث يُونُسَ بن بُكَير، عن ابن إسحاقَ، به.

[٤٦٢٨] الحديث الثاني، قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدِّمشقي، حدثنا عبد الرحمن بن يزيدَ بن جابرٍ، حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حِمصٍ، حدثني عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير الحَضرمِي، عن أبيه، أنه سَمِع النَّوَّاس بن سِمعانَ الكلابي قال: ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ الدَّجال ذاتَ غَداة، فَخفَّضَ فيه ورَفَّعَ. حتى ظننَّاه في طائفة النخل، فلما رُحْنا إليه عَرَف ذلك في وُجُوهنا، فسألناه فقلنا: يا رسولَ الله، ذكرت الدجَّالَ الغَدَاة، فَخفَّضتَ فيه ورَفَّعتَ حتى ظنناه في طائفة النخل. فقال: غيرُ الدجال أخْوَفُني عليكم، فإن يخرُجْ وأنا فيكم فأنا حَجيجُه دونكم، وإن يخرج ولستُ فيكم فامرؤٌ حجيجُ نفسِهِ، والله خليفتي على كلِّ مسلم. إنه شاب جَعْدٌ قَطَطٌ عينهُ طافيةٌ، وإنه يخرج خَلَّةً بين الشام والعراقِ، فعاث يميناً وشمالاً، يا عباد الله، اثبتُوا. قلنا: يا رسول الله، ما لبثه في الأرض؟ قال: أربعين يوماً، يومٌ كَسَنَةٍ، ويومٌ كَشهرٍ، ويومٌ كجُمُعَةٍ، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسولَ الله، فذاك اليومُ الذي هو كسنة، أيكفينا فيه صلاةُ يوم وليلة؟ قال: لا، لا أقدُروا له قَدْرَه. قلنا: يا رسولَ الله، فما إسراعُه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الرِّيحُ. قال: فيمرُّ بالحي فيدعُوهم، فيستجيبون له، فيأمُر السماءَ فَتُمطِرُ، والأرضَ فَتُنبِتُ، وتروح عليهم سَارِحتُهم وهي أطول ما كانت ذُراً، وأمده خواصر، وأسبغه ضروعاً. ويمرُّ بالحي فيدعوهم فيردُّون عليه قولَه، فتتبعه أموالُهم، فَيُصبحون مُمحِلين، ليس لهم من أموالهم شيءٌ! ويمر بالخَرِبَةِ فيقول لها: «أخرجي كُنوزَكِ». فَتتبعهُ كنوزُها كَيَعاسِيب النحل. قال: ويأمُر برجُلٍ فيُقتَلُ، فيضربُه بالسيف فيقطعه جزْلَتينِ رَمْيَةَ

---

(١) تَشكَر: أي تَسمَن.

(٢) حسن. أخرجه ابن ماجه ٤٠٧٩ وأحمد ٣/٧٧ وأبو يعلى ١٣٥١ والحاكم ٤/٤٨٩ ـ ٤٩٠ وابن حبان ٦٨٣٠ وصحح إسناده البوصيري في الزوائد، وكذا الحاكم، ووافقه الذهبي، وانظر الصحيحة ١٧٩٣.

الغَرَض، ثم يدعوه فيقبل إليه يتهلّلَ وجهُه. فبينما هُم على ذلك إذ بَعَثَ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ المسيحَ ابن مَرْيَم، فينزلُ عند المَنارةِ البيضاءِ، شرقِيِّ دِمَشْقَ، بين مَهْرُودَتَين واضعاً يَدَه على أجنحةِ مَلَكين، فيتبعَهُ فيُدْرِكُه، فيقتلُه عند باب لُدّ الشَّرْقِيّ. قال: فبينما هُم كذلك إذْ أوحَى الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ إلى عيسى ابن مَرْيَمَ أنِّي قد أخرجتُ عباداً من عبادي لا يَدَان لك بقتالهم، فَحَرِّزْ عبادي إلى الطور، فيبعث الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ يأجوجَ ومأجوجَ وهم كما قال الله: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، فيرغَب عيسى وأصحابُه إلى الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ فيرسل الله عليهم نَغَفاً[(١)] في رقابهم، فيصبحون فَرْسَى، كموت نفس واحدة. فيهبطُ عيسى وأصحابُه فلا يجدونَ في الأرض بيتاً إلا قد ملأه زَهَمُهم ونَتْنُهم، فيرغَب عيسى وأصحابه إلى الله فيرسِل عليهم طيراً كأعناق البُخْت[(٢)]، فتحمِلُهم فتطرَحُهم حيث شاء الله. قال ابنُ جابر: فحدثني عطاء بن يزيدَ السَّكْسَكِيّ، عن كعب أو غيره، قال: فتطرحهم بالمَهْبِل. قال ابن جابر: فقلت: يا أبا يزيدَ، وأين المَهْبِلُ؟ قال: مَطْلِع الشَّمس. قال: ويرسِلُ الله مطراً لا يَكُنُّ منه بيت مَدَر ولا وَبَر أربعين يوماً، فيغسِلُ الأرضَ حتى يتركها كالزَّلَقَةِ، ويقال للأرض: أنبتي ثَمرتك، وَرُدِّي بَرَكَتكِ. قال: فيومئذ يأكُل النفَرُ من الرمَّانةِ وَيَسْتَظِلُّون بقِحْفِها، ويُبارك في الرِّسَل، حتى إن اللِّقْحَةَ من الإبل لتكفي الفِئَامَ من الناس، واللِّقْحَةَ من البقرِ تكفي الفَخِذ[(٣)]. والشاة من الغنم تكفي أهل البيت. قال: فبينما هُم على ذلك إذ بَعَثَ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ ريحاً طيبة تحت آباطهم فتقبِضُ روحَ كُلِّ مسلم ـ أو قال: كُلِّ مؤمن ـ ويبقى شرارُ الناس يتهارَجُون تهارُجَ الحمير، وعليهم تقوم الساعة[(٤)]. انفرد بإخراجه مُسلمٌ دونَ البُخاريِّ، فرواه مع بَقِيَّة أهلِ السُّنَنِ من طُرُقٍ، عن عبد الرحمٰن بن يزيدَ بن جابرٍ، به. وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ صَحيحٌ.

[٤٦٢٩] الحديث الثالث، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن بِشْرٍ، حدَّثنا محمد بن عَمْرو، عن ابن حَرْمَلَةَ، عن خَالَته قالت: خَطَب رسولُ الله ـ ﷺ ـ وهو عاصبٌ إصْبَعَهُ من لَدْغَةِ عَقْرَبٍ، فقال: إنكم تقولون: لا عَدُوَّ لكم. وإنَّكم لا تزالون تُقاتِلون عَدُوّاً حتى يأتي يأجوجُ ومأجوجُ عِراضُ الوجوهِ صغارُ العيونِ، شهْبُ الشِّعافِ من كلِّ حَدَبٍ يَنسِلُون، كأن وُجُوهَهُم المَجانُّ المُطْرَقَة[(٥)]. وكذا رواه ابنُ أبي حاتم من حديث مُحَمَّد بن عمروٍ، عن خالِد بن عبدِ الله بن حَرْمَلَةَ المُدْلِجيِّ، عن خالةٍ له، عن النبي ـ ﷺ ـ فذكره مِثْلَهُ سَوَاءً.

[٤٦٣٠] الحديث الرابع: قد تقدَّم في تفسير آخرِ سُورَةِ الأعراف من رواية الإمام أحمدَ، عن هُشَيم، عن العَوَّام، عن جَبَلَةَ بن سُحَيم، عن مُؤثِر بن عَفَازَة، عن ابن مسعود، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لَقِيتُ ليلةَ أُسرِيَ بي إبراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ قال: فتذاكَرُوا أمر الساعة، فَرَدُّوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا عِلْمَ لي بها. فَرَدُّوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها. فردّوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وَجْبَتُها فلا يعلَم بها أحدٌ إلا الله، وفيما عَهِدَ إليَّ ربِّيَ أن الدجال خارج. قال: ومعي قَضِيبان، فإذا رآني ذاب كما يَذُوبُ الرَّصاص، قال: فَيُهلِكه الله إذا رآني، حتى إنَّ الحَجَر والشجرَ يقول: يا مسلم إن تحتي كافراً فتعالَ

(١) النغف: دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

(٢) البُخت: النوق الخراسانية، وما وراء النهر.

(٣) بعض القبيلة. كبني هاشم، فإنهم بعض قريش.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٣٧ وأبو داود ٤٣٢١ والترمذي ٢٢٤٠ والنسائي في «الكبرى» ١٠٧٨٣ وابن ماجه ٤٠٧٥.

(٥) حسن. أخرجه أحمد ٥/ ٢٧١ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٦/ ٨ وزاد نسبته للطبراني وقال: ورجالهما رجال الصحيح.

فاقتُله. قال: فَيُهلِكُهم الله. ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم. قال: فعند ذلك يخرُج يأجوجَ ومأجُوج وهم من كل حَدَبٍ يَنسلون، فيطئون بلادَهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يَمُرُّونَ على ماء إلا شربوه. قال: ثم يَرْجِعُ الناسُ إليّ يشكونَهم فأدعُو الله عليهم فيهلكُهم ويميتهم، حتى تَجوَى الأرضُ من نَتْن ريحِهم، ويُنزِلُ الله المطر فَيَجترِفُ أجسادَهم، حتى يَقْذِفَهم في البحرِ. ففيما عهد إليّ ربي أن ذلك إذا كان كذلك أنَّ الساعة كالحامِلِ المُتِمّ، لاَ يَدْرِي أهلُها مَتَى تَفْجَؤُهم بولادتها ليلاً أو نهاراً»[١]. ورواه ابن ماجه، عن محمد بن بَشّار، عن يزيدَ بن هارونَ، عن العَوّام بن حَوْشَب، به نحوه وزاد: «قال العَوّامُ، وَوُجِدَ تصديقُ ذلك في كتاب الله عَزّ وجَلّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾. ورواه ابنُ جرير هاهنا من حديث جبلة، به. والأحاديثُ في هذا كَثِيرٌ جداً. والآثارُ عن السَّلَفِ كَذَلِكَ.

وقد رَوَى ابنُ جَرير وابن أبي حاتم، من حديث مَعْمَرٍ، عن غير واحد، عن حُمَيد بن هلالٍ، عن أبي الصَّيْف قال: قال كعب: إذا كان عند خُروج يأجوجَ ومأجوجَ حفروا حتى يسمَعَ الذين يَلُونَهم قَرْعَ فُؤُوسِهِم، فإذا كان الليلُ قالوا: نَجِيء غداً فنخرج. فيعيدُه الله كما كان، فيجيئون من الغد، فيجدونه قد أعاده الله كما كان. فَيحفِرُونه حتى يسمَع الذين يلونَهم قَرْعَ فُؤُوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول: نجيء غداً فنخرج إن شاء الله. فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه. فيحفرون حتى يخرجوا. فتمرُّ الزُّمرة الأولى بالبُحيرة فيشربون ماءها، ثم تمر الزُّمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمر الزُّمرة الثالثة فيقولون: قد كان هاهنا مَرَّةً ماءٌ، ويفِرُّ الناس منهم، لا يقومُ لهم شيء. ثم يَرْمُون بِسهامهم إلى السماء فترجِعُ مُخَضَّبة بالدماء فيقولُون: غَلَبْنا أهلَ الأرضِ وأهلِ السماءِ. فيدعو عليهم عيسى ابنُ مريَمَ عليه السلام فيقول: اللهم، لا طاقة ولا يَدَينِ لنا بهم، فاكفناهم بما شئت. فَيُسلِّط الله عليهم دُوداً يقال له النَّغَفُ، فَيفرسُ رقابهم، ويبعث الله علَيهم طَيراً تأخذهم بمناقيرها فتلقيهم في البحر، ويبعث الله عَيْناً يقال لها: الحياة، يُطهِّر الله الأرضَ ويُنبِتُها، حتى إنَّ الرمانة ليشبع منها السَّكْنُ ـ قيل: وما السَّكْنُ يا كعبُ؟ قال: أهلَ البيت ـ قال: فبينما الناسُ كذلكَ إذ أتاهم الصَّريخُ أن ذا السُّوَيقَتَين يريده فيبعَثُ عيسى ابن مريم طَليعةً سبعمئة، أو بين السبعمئة والثمانمئة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بَعَث الله ريحاً يمانيةً طَيِّبة، فَيَقبَضُ فيها روحُ كُلِّ مؤمن، ثم يبقى عَجَاج الناس، فيتسافدون كما تَتَسَافَدُ البهائم، فَمَثل الساعةِ كَمثل رجُلٍ يُطيفُ حول فَرسِهِ ينتظرها متى تضع؟ قال كعب: فمن تَكَلَّفَ بعد قولي هذا شيئاً أو: بعد علمي هذا شيئاً ـ فهو المُتكَلِّف. هذا من أحسن سياقات كعب الأحبار، لما شَهِدَ له من صحيح الأخبار، وقد ثَبَتَ في الحديث أن عيسى ابن مَرْيَم ـ عليه السلام ـ يحجُّ البيت العتيق.

[٤٦٣١] وقال الإِمامُ أحمدُ: حدثنا سُليمَان بن داودَ، حدثنا عمران، عن قتادَةَ، عن عبد الله بن أبي عُتبَةَ، عن أبي سَعيدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لَيُحَجَّن هذا البيتُ، ولَيُعْتَمَرَنَّ بعد خُروج يأجوجَ ومأجوجَ»[٢]. انفرد بإخراجه البخاري. وقولُه تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني يومَ القيامةِ، إذا وُجِدَت هذه الأهوالُ والزلازلُ والبلابلُ أَزِفَت الساعة واقتربت، فإذا كانت ووَقَعت قال الكافرون: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: من شدة ما يشاهدونه من الأمورِ العِظَام. ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ أي: يقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، أي: في الدنيا، ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، يَعْتَرِفُون بِظُلمهم لأنفُسِهم، حيثُ لا ينفعُهم ذلك.

---

(١) تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية: ١٨٧.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٧.

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قُرَيش ومن دَان بِدِينهم من عَبَدَةِ الأصنام والأوثان: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، قال ابنُ عَبّاسٍ: أي وقودُها. يعني كقولِه: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾. وقال ابن عباس أيضاً: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، بمعنى شَجَر جهنم. وفي رواية قال: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يعني حطب جهنَّم، بالزنجية. وقال مجاهد، وعكرمة، وقتادة: حَطَبُها. وهي كذلك في قراءة عَلِيٍّ وعائشَة، رَضِي الله عنهما. وقال الضحّاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، أي: ما يُرمَى به فيها. وكذا قال غيره. والجميعُ قريبٌ. وقولُه: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾، أي: داخلون. ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾، يعني: لو كانت هذه الأصنامُ والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهةً صحيحةً لما وَرَدوا النار، وَلِمَا دَخلُوها، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: العابدون ومعبوداتهم، كُلُّهم فيها خالدون. ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾. والزفير: خروجُ أنفاسِهم، والشهيق: ولوجُ أنفاسِهم، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾. قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطَّنافسي، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عبد الرحمٰن ـ يعني المسعودي ـ عن أبيه قال: قال ابنُ مسعود: إذا بقي من يُخلَّد في النار جُعِلُوا في توابيت من نار، فيها مسامير من نار، فلا يَرَى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره، ثم تلا عبد الله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾. ورواه ابنُ جرير، من حديث حجاج ابن محمد، عن المسعودي، عن يونس بن خَبّاب، عن ابن مَسعُودٍ فذكره.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، قال عكرمةُ: الرحمةُ. وقال غيره: السعادةُ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، لما ذَكرَ تعالى أهلَ النار وعذابَهم بسبب شِرْكِهم بالله، عَطَف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسُله، وهم الذين سَبَقَت لهم من الله السعادةُ، وأسلفوا الأعمالَ الصالحةَ في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾، فكما أحسنُوا العمل في الدنيا، أحسنَ الله مآلهم وثوابهم، فنجاهم من العذاب، وحصَّل لهم جَزيل الثوابِ، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾، أي: حريقها في الأجساد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عفان، حدثنا حَمّادُ بن سَلَمَة، عن أبيه، عن الجُرَيري، عن أبي عثمان: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾، قال: حيات على الصراط تلسعهم، فإذا لسعتهم قال: حَسِّ حَسِّ. وقولُه: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾، فَسلَّمهم من المحذور والمرهُوب، وحَصَّل لهم المطلوبَ والمحبوبَ. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي سُرَيج، حدثنا محمد بن الحَسَن بن أبي يزيدَ الهَمْداني، عن ليث بن أبي سُلَيم، عن ابن عَمّ النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير قال: ـ وسَمَر مع علي ـ رضي الله عنه ـ ذات ليلة، فقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾، قال: أنا منهم، وعُمَر منهم، وعُثمان منهم، والزبير منهم، وطلحة منهم، وعبد الرحمٰن

منهم ـ أو قال: سَعدُ منهم ـ قال: وأقيمت الصلاة فقام، وأظنه يَجرُّ ثوبه، وهو يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.

وقال شعبةُ، عن أبي بشر، عن يُوسف المَكي، عن محمد بن حاطب قال: سَمِعت علياً يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، قال: عُثمانُ وأصحابه. ورواه ابن أبي حاتم أيضاً، ورواه ابنُ جرير من حديث يوسُفَ بن سعدٍ ـ وليس بابن ماهك ـ عن محمد بن حاطب، عن علي، فذكره ولفظه: عثمان منهم. وقال عليّ بن أبي طَلحَةَ، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾: فأولئك أولياءُ الله يَمرُّون على الصِّراط مَرّاً هو أسرعُ من البَرْقِ، ويبقى الكفارُ فيها جِثِيّاً. فهذا مطابقٌ لما ذكرناه. وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عُزَير والمسيح. كما قال حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جُرَيج وعثمان بن عطاءٍ، عن عطاءٍ، عن ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ثم استثنى فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، فقال: هم الملائكةُ، وعيسى، ونحو ذلك مما يُعبد من دون الله عزَّ وجلَّ. وكذا قال عكرمة، والحسنَ وابن جُرَيج. وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، قال: نَزلت في عيسى ابن مَرْيَمَ وعُزير عليهما السلام. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحُسَين بن عيسى بن مَيْسَرة، حدثنا أبو زُهَير، حدثنا سعد بن طَريف، عن الأصبغ، عن علَي ـ رضي الله عنه ـ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ قال: كلُّ شيءٍ يُعبَد من دون الله في النار إلا الشمسَ والقمرَ وعيسى ابن مَرْيَم. إسنادُه ضعيفٌ[1]. وقال ابنُ أبي نَجيحٍ، عن مُجاهِدٍ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، قال: عيسى، وعُزيرٌ، والملائكةُ. وقال الضحّاك: عيسى، ومريم، والملائكة، والشمس، والقمر. وكذا رُوِي عن سعيد بن جُبَير، وأبي صَالِحٍ وغيرِ واحدٍ. وقد رَوَى ابنُ أبي حاتم في ذلك حَدِيثاً غريباً جداً، فقال:

[٤٦٣٢] حدَّثنا الفضلُ بن يعقوبَ الرُّخامي، حدثنا سعيد بن مَسْلَمة بن عبد الملك، حدثنا الليثُ ابن أبي سُلَيم، عن مُغيثٍ، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾، قال: عِيسَى، وعُزيرٌ، والملائكةُ[2]. وذكر بعضهم قِصّة ابن الزِّبَعْرَى ومناظرة المشركين.

[٤٦٣٣] قال أبو بكر بن مَرْدُوَيه: حدثنا محمد بن علي بن سهل، حدثنا محمد بن الحسن الأنماطي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرَةَ، حدثنا يزيدُ بن أبي حَكيم، حدثنا الحكم، ـ يعني ابن أبانَ ـ عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: جاء عبد الله بن الزِّبَعْرَى إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: تزعُم أن الله أنزل عليك هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾، فقال ابنُ الزِّبعرى: قد عُبِدَتِ الشمسُ والقمرُ والملائكة، وعُزيرٌ وعيسى ابن مَرْيَم، كلُّ هؤلاءِ في النار مع آلهتنا؟ فنزلت: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٥٨]. ثم نزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾. رواه الحافِظُ أبو عبد الله في كِتَابِهِ «الأحاديثُ المختارة». وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أبي،

---

(١) سعد وأصبغ كلاهما واهٍ.

(٢) إسناده ضعيف، له علتان: سعيد بن مسلمة وليث بن أبي سليم، كلاهما ضعيف. وقد صح عن ابن عباس من قوله، وهو الصواب.

حدثنا قَبيصة بن عقبة، حدثنا سفيانُ ـ يعني الثوريَّ ـ عن الأعمش، عن أصحابه، عن ابن عباس قال: لما نـزلـت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾، قـال الـمـشـركـون: فالملائكةُ، وعُزيرٌ، وعيسى يُعْبَدون من دون الله؟ فنزلت: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾، الآلهة التي يعبدون، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. وَرُوِيَ عن أبي كُدَينَةَ، عن عَطاءِ بنِ السَّائب، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاسٍ مثلَ ذلك، وقال: فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

[٤٦٣٤] وقال الإمام مُحمَّد بن إسحاق بن يسار ـ رحمه الله ـ في كتاب السيرة وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المسجد غيرُ واحدٍ من رجال قريش، فتكلَّم رسول الله ـ ﷺ ـ فعَرض له النضرُ بن الحارث، فكلَّمه رسول الله ـ ﷺ ـ حتـى أفـحـمَـهُ، وتـلا عـلـيـه وعـلـيـهـم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾. ثم قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأقبل عبدُ الله بن الزِّبعْرَى السَّهمِيُّ حتى جَلَس، فقال الوليدُ بن المغيرة لعبد الله بن الزِّبَعرى: والله ما قام النضرُ بن الحارث لابن عبد المُطَّلب آنفاً ولا قَعَد، وقد زَعَمَ مُحمَّد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حَصَبُ جَهنَّم. فقال عبد الله بن الزِّبَعرى: أما والله لو وَجدتُه لَخَصَمته، فَسَلُوا محمداً: كلُّ ما يُعبَدُ من دُونِ الله في جهنَّم مع مَن عَبَدَه؟ فنحنُ نعبدُ الملائكة، واليهودُ تعبدُ عزيراً، والنصارى تعبدُ عيسى ابن مريَم؟! فَعَجب الوليدُ ومن كان معه في المجلس من قَولِ عبد الله بن الزِّبعرى، ورأوا أنه قد احتجَّ وخاصَم. فَذُكِر ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «كل مَنْ أحبَّ أن يُعْبَدَ من دُون الله فهو مع من عَبَدَه، إنَّهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمَرتْهُم بعبادته. وأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾، أي: عيسى، وعُزيرٌ ومن عُبِدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يَعبدُهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله. ونَزَل فيما يذكَرون أنهم يعبدُون الملائكة، وأنهم بنات الله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾. إلـى قـولـه: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩]، ونَزل فيما ذُكِر من أمر عيسى، وأنه يُعبَد من دون الله، وعَجِبَ الوليد ومَن حَضَره من حُجَّته وخصومته: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٦١]، أي ما وَضَعتُ على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراءِ الأسقام، فكَفى به دليلاً على عِلْم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾»[1]. وهذا الذي قاله ابن الزِّبعرى خَطأ كبيرٌ، لأن الآية إنما نزلَت خطاباً لأهل مَكَّة في عبادتهم الأصنام التي هي جمادٌ لا تَعقِلُ، ليكون ذلك تقريعاً وتوبيخاً لِعابديها، ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، فكيف يُورِدُ عَلَى هذا المسيحَ والعُزَير ونحوهما ممن له عملٌ صالحٌ، ولم يَرْضَ بعبادة من عَبَده، وعَوَّل ابنُ جرير في تفسيره في الجواب على أن «ما» لما لا يعقل عند العرب. وقد أسلم عبد الله بن الزِّبعرى بعد ذلك، وكان من الشعراء المشهورين. وكان يُهاجِي المسلمين أوّلاً، ثم قال مُعتذِراً:

(١) هذا إسناد معضل، أخرجه الطبري ٢٤٨٣٦، ولأصله شواهد عن ابن عباس. والله تعالى أعلم، وانظر «الدر المنثور» ٤/ ٦٠٧ ـ ٦٠٨.

يا رَسُولَ المليك، إنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ
إذْ أُجَارِي الشيطَانَ في سَنَنِ الغيِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَه مَثْبُورُ

وقولُه تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾، قيل: المرادُ بذلِكَ الموتُ. رَوَاهُ عبد الرزّاق، عن يحيى بن رَبيعَةَ، عن عطاء. وقيل: المرادُ بالفَزَعِ الأكبرِ النفخةُ في الصُّور. قاله العَوفيُّ عن ابن عَبَّاسٍ، وأبو سِنَانٍ سعيدُ بن سِنَانٍ الشَّيباني، واختاره ابنُ جريرَ في تفسيره. وقيل: حين يُؤمَر بالعبدِ إلى النار. قاله الحسنُ البصري. وقيل: حين تُطبِقُ النارُ على أهلها. قاله سَعيد بن جُبَير، وابن جُرَيج. وقيل: حين يُذبَحُ الموتُ بين الجنة والنار. قاله أبو بكر الهُذَلي، فيما رواه ابنُ أبي حاتم، عنه. وقولُه: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، يعني تقولُ لهم الملائكةُ، تُبَشِّرهم يومَ مَعَادهم إذا خَرَجُوا من قُبورِهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، أي: قَابِلُوا ما يسرُّكم.

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

يقولُ تعالى: هذا كائنٌ يومَ القيامة، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

[٤٦٣٥] وقد قال البخاري: حدثنا مُقَدَّمُ بن محمد، حدثني عَمِّي القاسم بن يحيى، عن عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عُمَر، عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ، قال: «إن الله يَقبِضُ الأرضينَ يوم القيامةِ، وتكونُ السمواتُ بِيَمينِهِ»[١]. انفرَد به من هذا الوجهِ البخاريُّ، رحمه الله.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حَدَّثنا محمد بن أحمد بن الحجَّاج الرَّقِّي، حدثنا محمد بن سَلَمة، عن أبي الواصِلِ، عن أبي المُلَيح الأزدِيِّ، عن أبي الجَوزَاءِ الأزديِّ، عن ابن عباس قال: يَطوي الله السمواتِ السَّبعَ بمافيها من الخليقَةِ، والأرضينَ السَبعَ بما فيها من الخَليقَةِ، يَطوي ذلك كلَّه بِيَمينِهِ، يكونُ ذلك كلُّه في يَدِهِ بمنزلة خَرْدَلَةٍ. وقولُه: ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قيل: المراد بالسجلِّ الكتاب. وقيل: المراد بالسِّجلِّ هاهنا مَلَك من الملائكة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن يمان، حدثنا أبو الوفاء الأشجعي، عن أبيه، عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾. قال: السجلُّ مَلَك، فإذا صَعِد بالاستغفار قال: اكتُبها نوراً. وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيب، عن ابن يَمَانٍ. قال ابن أبي حاتم: ورُوِيَ عن أبي جَعفَرٍ مُحمَّد ابن عَليِّ بن الحُسين أنَّ السِّجلَّ مَلَكٌ. وقال السُّدِّيُّ في هذه الآية: السِّجلُّ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بالصُّحُفِ، فإذا مات الإنسانُ رُفِع كِتَابُه إلى السِّجلِّ فطَوَاه، وَرَفَعَه إلى يوم القِيامَةِ. وقيل: المراد به اسم رجل صحابيٌّ كان يكتُب للنبيِّ ـ ﷺ ـ الوَحيَ. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا نَصرُ بن عليٍّ الجَهضَميّ، حدثنا نُوحُ بن قيس، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجَوزَاءِ، عن ابن عباس: يوم نَطوِي السماء كَطي السجلِّ للكتب، قال: السجل هو الرَّجُلُ. قال نوحٌ: وأخبرني يزيدُ بن كعب ـ هو العَوْذِيُّ ـ عن عمرو ابن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: السِّجلُّ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤١٢ من حديث ابن عمر.

كاتبٌ للنبيِّ ـ ﷺ ـ. وهكذا رواهُ أبو داودَ والنسائيُّ عن قُتَيبةَ بن سعيد، عن نُوحِ بن قيس، عن يزيدَ بن كعبٍ، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، قال: السجلُ كاتبُ للنبي ـ ﷺ ـ[١]. ورواه ابنُ جرير عن نَصْر بن علي الجَهْضَمِيِّ، كما تقدم. ورواه ابنُ عَدِيٍّ من روايةِ يحيى بن عمرو بن مالك النُّكريّ، عن أبيه، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: كان للنبي ـ ﷺ ـ كاتبٌ يُسمَّى السِّجلُ، وهو قولُه: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قال: كما يَطْوي السِّجِلُّ الكتابَ، كذلك نَطْوِي السماءَ[٢] ثم قال: وهو غير محفوظ.

وقال الخطيبُ البغدادي في تاريخه: أنبأنا أبو بكر البَرْقَاني، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوبَ الحجاجي، أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخي، أن حَمْدَانَ بن سَعِيد حَدَّثهم، عن عبد الله بن نُمَير، عن عُبيدَ الله بن عُمَر، عن نافع، عن ابن عُمَر، قال: السِّجلّ كاتبٌ للنبي ـ ﷺ ـ. وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر[٣]، لا يصح أصلاً، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس، من رواية أبي داود وغيره، لا يصح أيضاً. وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ـ وإن كان في سنن أبي داود ـ منهم: شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المِزِّي، فَسَحَ الله في عُمرِه، ونَسأَ في أَجَله، وخَتَمَ له بصالح عَمَلِه، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حِدَةٍ، ولله الحمد. وقد تصدَّى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث، وَرَدَّه أتَمَّ رَدٍّ، وقال: لا يُعرَف في الصحابة أحدٌ اسمُه السِّجِلُّ، وكتاب النبي ـ ﷺ ـ معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السِّجِلُّ. وَصَدَقَ ـ رحمه الله ـ في ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نَكَارة هذا الحديث. وأما مَنْ ذكر في أسماء الصحابة هذا فإنما اعتَمَدَ على هذا الحديث، لا على غيره، والله أعلم. والصحيح عن ابن عباس أن السجلَّ هي الصحيفة. قاله علي بن أبي طلحة والعوفي، عنه. ونَصَّ على ذلك مجاهد، وقتادةُ، وغير واحد. واختارَه ابنُ جَرير، لأنه المعروفُ في اللغة، فَعَلى هذا يكونُ معنى الكلام: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي: على الكتاب، بمعنى المكتوب، كَقَولِه: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات: ١٠٣]، أي: على الجَبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم. وقولُه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾، يعني هذا كائنٌ لا محالَةَ، يومَ يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، أي: كما بَدَأهم هو القادِرُ على إعادتهم، وذلك واجبُ الوقوع، لأنه من جُمْلَةِ وَعْدِ الله الذي لا يُخلَف ولا يُبدَّلُ، وهو القادرُ على ذلك. ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾.

[٤٦٣٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ وابن جَعفر وعَفَّانُ المَعْنيُّ قالوا: حدثنا شعبةُ، عن المغيرة ابن النعمان، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ـ ﷺ ـ بموعظةٍ فقال: «إنكم محشورون إلى الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ حُفاةً عُراةً غُرْلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾[٤] ... وذكر تمام الحديث. أخرجاه في الصَّحِيحَين من حديث شعبة. ورواه البخاريُّ عند هذه الآية في كتابه. وقد رَوَى

(١) باطل. لا يصح هذا عن ابن عباس، فيه يزيد بن كعب العوذي، وهو مجهول، كما في التقريب. وقال الذهبي في «الميزان» ٩٧٤٣: لا يدرىٰ من ذا أصلاً، ثم ذكر له هذا الحديث. وقد حكم بوضعه الإمام المزي وابن كثير وكذا رده الطبري، والله أعلم.

(٢) في إسناده يحيى بن عمرو النكري، رماه حماد بن زيد بالكذب. راجع الميزان ٩٥٩٥.

(٣) ذكره الذهبي في ترجمة حمدان بن سعيد ٢٢٨٦ «ميزان» وقال: هذا خبر كذب اهـ بتصرف.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤٠ و٤٦٢٥ ومسلم ٢٨٦٠ ح ٥٧ وأحمد ١/ ٢٣٥ و٢٥٣.

ليثُ بن أبي سُليم، عن مجاهد، عن عائشة عن النبي -ﷺ- نحو ذلك(١). وقال العَوْفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، وقال: نُهلِكُ كل شيء، كما كان أوَّل مَرَّة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عمَّا حَتَمه وقَضاه لعباده الصالحين، من السعادة في الدنيا والآخرة، وَوِرَاثة الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]. وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]... الآية. وأخبر تعالى أنَّ هذا مكتوبٌ مسطورٌ في الكتب الشرعية والقَدَرية، فهو كائن لا محالة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾، قال الأعمش: سألت سعيد بن جُبَير عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾، فقال الزَّبور: التوراة، والإنجيل، والقرآن. وقال مجاهد: الزَّبُور الكتاب. وقال ابنُ عباسٍ، والشعبيُّ، والحسنُ، وقتادةُ، وغير واحد: الزَّبورُ الذي أُنزل على داود، والذِّكر التوراة. وعن ابن عباسٍ: الذكر القرآن. وقال سعيد بن جُبَير: الذكر الذي في السماء. وقال مجاهد: الكُتُبُ بعد الذكر. والذِّكرُ: أُمُّ الكتاب عند الله. واختار ذلك ابنُ جرير رَحِمه الله. وكذا قال زيدُ بن أسلم: هو الكتاب الأوَّل، وقال الثوريُّ: هو اللوح المحفوظ. وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: الزَّبور: الكُتُب التي أُنزلت على الأنبياء، والذكرُ: أُمُّ الكتاب الذي يُكتَبُ فيه الأشياءُ قبل ذلك. وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: أخبرَ الله سُبحانه في التوراة والزَّبور وسَابق عِلْمه قبلَ أن تكونَ السمواتُ والأرضُ، أن يُورثَ أمةَ محمد -ﷺ- الأرضَ ويُدخِلَهم الجنةَ، وهم الصالحون. وقال مجاهدٌ، عن ابن عباس: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾، قال: أرضُ الجنة. وكذا قال أبو العالية، ومجاهدٌ، وسَعِيد بن جُبَير، والشعبيُّ، وقتادةُ، والسديُّ، وأبو صالح، والربيعُ بن أنس، والثوريُّ. وقال أبو الدرداء: نحن الصالحون. وقال السّديُّ: هم المؤمنون. وقولُه: ﴿إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾، أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد -ﷺ- لبلاغاً: لَمنفعة وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عَبَدوا الله بما شرَعه وأحبَّه ورَضِيه، وآثَرُوا طاعة الله على طاعة الشيطان وشَهَوات أنفسهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾: يُخبِرُ تعالى أن الله جَعَلَ محمداً -ﷺ- رحمةً للعالمين، أي: أرسله رحمةً لهم كُلِّهم، فمن قَبِل هذه الرحمةَ وشكرَ هذه النِعمةَ سَعِد في الدنيا والآخرة، ومن رَدَّها وجَحَدها خَسِر في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨ ـ ٢٩]، وقال الله تعالى في صفة القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

[٤٦٣٧] وقال مُسلِمٌ في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر، مَرْوَانُ الفَزاريُّ، عن يَزيدَ بن كيسانَ، عن أبي

---

(١) ليث فيه ضعف، ومجاهد عن عائشة منقطع، إلا أن الحديث يعتضد بما قبله، والله أعلم.

حازم، عن أبي هُرَيرة قال: قيل: يا رسولَ اللهِ، ادعُ على المشركين. قال: «إني لم أبعَثْ لَعَّاناً، وإنما بُعِثْتُ رحمةً»(١). انفرد بإخراجه مسلم.

[٤٦٣٨] وفي الحديث الآخر: «إنما أنا رحمةٌ مُهداةٌ»(٢). رواه عبد الله بن أبي عِرابَةَ وغيره، عن وَكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً. قال إبراهيم الحربي. وقد رواه غيره عن وكيع، فلم يذكر أبا هريرة. وكذا قال البخاري، وقد سُئِل عن هذا الحديثِ، فقال: كان عند حفصِ بن غِياثٍ مرسلاً.

[٤٦٣٩] قال الحافظُ ابنُ عساكِرَ: وقد رواه مالكُ بن سُعَير بن الْخِمْسِ، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة مرفوعاً. ثم ساقه من طريق أبي بكر بن المقرىء وأبي أحمدِ الحاكم، كلاهما عن بكر بن محمد بن إبراهيم الصوفي: حدثناإبراهيم بن سعيد الجوهري، عن أبي أسامة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنما أنا رحمَةٌ مهداة»(٣).

[٤٦٤٠] ثم أورده من طريق الصَّلْتِ بن مسعودٍ، عن سفيان بن عيينة، عن مسعر، عن سعيد بن خالد، عن رجل، عن ابن عُمَر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله بعثني رحمة مهداة، بُعِثْتُ بِرَفْعِ قوم وخَفْضِ آخرين»(٤).

[٤٦٤١] قال أبو القاسم الطبرانيُّ: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحّانُ، حدثنا أحمد بن صالح قال: وجدتُ كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدَّراوَرْدِيِّ وإبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عُمَر بن عبد الرحمن بن عَوْفٍ، عن محمد بن صالح التَّمار، عن ابن شِهَابٍ، عن محمد بن جُبَير بن مُطْعِم، عن أبيه قال: قال أبو جَهلٍ حين قَدِمَ مكة مُنصَرَفه عن حَمْزَةَ: يا معشر قريش، إن محمداً نزل يَثْرِبَ وأرسَلَ طلائِعَه، وإنما يُريد أن يُصِيب منكم شيئاً، فاحذروا أن تَمُرُّوا طريقَه أو تقاربوه، فإنه كالأسد الضاري، إنه حَنِقٌ عليكم لأنكم نَفَيتُمُوه نفي القِرْدَان عن المَنَاسِم(٥)، والله إن له لَسحَرةً. ما رأيته قطُّ ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين، وإنكم قد عرفتم عداوَةَ ابني قَيلَةَ ـ يعني الأوس والخزرج ـ فهُو عدو استعان بعدو، فقال له مُطعِم بن عَدِي: يا أبا الحكم والله ما رأيتُ أحداً أصدقَ لساناً ولا أصدَقَ مَوعِداً من أخيكم الذي طَرَدتُم، وإذ فعلتم الذي فَعَلتم فكونوا أكفَّ الناس عنه. قال أبو سُفيان بن الحارث: كونوا أشدَّ ما كنتُم عليه، إن ابني قيلَةَ إن ظَفَرُوا بكم لم يرقُبوا فيكم إلاً ولا ذِمَّةً، وإن أَطَعتُمُوني أَلْجَمْتُمُوهُ خَيرَ كِنَانَةَ، أو تُخرِجُوا مُحمَّداً من بين ظَهرَانَيهِم، فيكون وحيداً مطروداً، وأما ابنا قَيلَةَ فوالله ما هُما وأهلُ دَهْلَكَ في المذلَّة إلا سواءٌ، وسأَكْفِيكُم حَدَّهم، وقال:

سَأَمنَحُ جَانِباً مِنّي غَلِيظاً ... عَلَى مَا كَانَ مِنْ قُربٍ وبعدِ
رِجَالَ الخَزْرَجِيَّةِ أهلَ ذُلٍّ ... إذَا مَا كَانَ هَزْلٌ بَعدَ جِدِّ

فَبَلَغ ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: والَّذي نفسي بيدِه، لأَقتُلَنَّهم ولأُصَلِّبَنَّهم ولأَهدِيَنَّهم وهم كارهون،

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٩٩ وأبو يعلى ٦١٧٤.

(٢) جيد. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٣٠٠٥ والحاكم ١/ ٣٥ والقضاعي ١١٦٠ من طريق الأعمش به وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وهو يتقوى بما قبله، وله شواهد أخرى، منها ما يأتي، وانظر «مجمع الزوائد» ٥/ ٦٩ و٣٠٥.

(٣) إسناده حسن، رجاله ثقات وله طرق وشواهد.

(٤) فيه راوٍ لم يسمّ، وصدره يتقوىٰ بشواهده، والوهن فقط في عجزه.

(٥) المنسم: خف البعير.

إني رحمةٌ بعثني الله، ولا يَتوفاني حتى يُظهِرَ الله دينه، لي خمسةُ أسماءٍ: أنا محمد، وأحمدُ، وأنا الماحي الذي يمحُو الله بي الكُفرَ، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشَر الناسُ على قَدَمِي، وأنا العاقِبُ»[١]. وقال أحمد بنُ صالحٍ: أرجو أن يكون الحديثُ صَحيحاً.

[٤٦٤٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا معاوية بن عَمرو، حدثنا زائدةُ، حدثني عَمرو بن قَيس، عن عَمرو بن أبي قُرَّةَ الكِندِيّ قال: كان حُذَيفةُ بالمدائن، فكان يذكُر أشياءَ قالها رسول الله ﷺ فجاء حذيفةُ إلى سَلْمان فقال سلمانُ: يا حذيفةُ، إنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يغضَبُ فيقولُ، ويرضَى فيقولُ، لقد علمت أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ خَطَبَ فقال: أيما رجل من أمتي سَبَبْتُهُ سَبّةً في غَضَبِي أو لعنتُه لعنةً، فإنّما أنا رجلٌ من وَلَدِ آدم، أغضَب كما يَغضَبُون، وإنما بَعَثَنِي رَحمةً للعالمين، فاجعلها صلاةً عليه يوم القيامة[٢]. وَرَواه أبو داود، عن أحمدَ بن يُونُسَ، عن زَائِدةَ. فإن قِيلَ: فأيّ رَحْمَةٍ حَصَلت لمن كفر به؟ فالجوابُ ما رواه أبو جعفر بن جرير: حدثنا إسحاقُ بن شَاهِينَ، حدثنا إسحاق الأزرقُ، عن المَسْعوديّ، عن رَجُل يقال له: سعيدُ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾، قال: من آمن بالله واليوم الآخر كُتِبَ له الرحمةُ في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورَسُوله عُوفي مما أصاب الأُمَمَ من الخَسْفِ والقَذْفِ. وهكذا رَوَاه ابن أبي حاتم، من حديث المسعودي، عن أبي سَعدٍ ـ وهو سَعِيدُ بن المرزُبان البَقّالُ ـ عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، فَذَكره بنحوه، والله أعلم.

وقد رواه أبو القاسِم الطبراني عن عبدانَ بن أحمدَ، عن عيسى بن يونُسَ الرَّمْلي، عن أَيُّوبَ بن سُوَيد، عن المسعُوديّ، عن حَبيب بن أبي ثابت، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾، قال: من تَبِعَه كان له رَحمةً في الدُّنيا وَالآخِرَةِ، ومن لم يَتْبَعه عُوفِيَ مما كان يُبتَلَى به سائِرُ الأُمَمِ من الخَسْفِ والمَسْخ والقَذْفِ.

﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾

يقولُ تعالى آمراً رسولَه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أن يقولَ للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨﴾، أي: مُتّبِعون على ذلك مُستَسْلِمونَ مُنقادُونَ له. ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾، أي: تركوا ما دعوتَهم إليه، ﴿فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾، أي: أعلمتُكم أني حَرْبٌ لكم كما أنّكم

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه الطبراني ١٥٣٢ بهذا الإسناد، وقال الهيثمي في «المجمع» ٩٩٤٠: رواه الطبراني من طريق أحمد بن صالح وجادة ورجاله ثقات اهـ قلت: علته فقط كونه وجادة، وهي أدنى أنواع التحمل، ثم إن في أحمد بن صالح كلام، وإن وثقه الجمهور. فقد ورد عن يحيى أنه جرحه وكذا النسائي، راجع الميزان، وذكر الأسماء محفوظ في الصحيح؛ والله أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٦٥٩ وأحمد ٥/ ٤٣٧ وإسناده حسن، لكن المتن صحيح فله شاهد من حديث أنس عند مسلم ٣٦٠٣ وابن حبان ٦٥١٤، وله شواهد أخرى.

حَرْبٌ لي، بَرِيءٌ منكم كما أنكم بُرَآء مني، كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١]. وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، أي: لِيَكن عِلْمُك وعِلْمُهم بِنَبْذِ العُهودُ على السَّواءِ، وهكذا هاهنا، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، أي: أعْلَمتُكم ببراءتي منكم، وبَرَاءتكم مِنّي، لعلمي بذلك. وقولُه: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾، أي: هو واقعٌ لا محالَةَ، ولكن لا عِلْمَ لي بقُربه ولا بِبُعدِه، ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾، أي: إنَّ الله يعلمَ الغيبَ جَميعَه، ويعلَم ما يُظهِرُهُ العباد وما يُسِرُّون، يعلم الظَّواهِرَ والضَّمائِرَ، ويعلَمُ السرَّ وأَخفى، ويعلَم ما العبادُ عاملُون في إجْهَارِهم وإسْرَارهم، وسَيَجزيهم على ذلك، على القليل والجليل. وقولُه: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾، أي: وما أدري لعلَّ هذا فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين. قال ابنُ جَريرٍ: لَعلَّ تأخِيرَ ذَلِك عَنكُم فتنةٌ لكم، ومتاعٌ إلى أجَل مُسَمّىً. وحكاه عن ابن عباس والله أعلم. ﴿قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾، أي: افصِلْ بَينَنا وبين قَومنا المُكَذِّبين بالحقِّ. قال قتادةُ: كان الأنبياءُ ـ عليهم السلام ـ يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]. وأُمِرَ النبي ﷺ أن يقولَ ذلك. وعن مالك، عن زيد بن أسلَمَ: كان النبي ﷺ إذا شَهد قتالاً قال: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾. وقولُه: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، أي: على ما يَقُولون ويَفْتَرُون من الكَذِب، ويَتَنوعُون في مقاماتِ التكذيبِ والإفكِ، والله المستعانُ عليكم في ذلك.

هذا آخر تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام، ولله الحمد والمنّة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾

يقولُ تعالى آمراً عبادَه بتقواه، ومخبراً لهم بما يَستقبِلُون من أهوالِ يوم القيامة وَزَلازِلها وأحوالها. وقد اختلَف المُفسِّرون في زَلزلة الساعة: هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يومَ نُشورهم إلى عَرَصات القيامة؟ أو ذلك عبارةٌ عن زلزلة الأرضِ قبل قيام الناس من أجداثهم؟ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة: ١ ـ ٢]. وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ [الحاقة: ١٤ ـ ١٥]. وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة: ٤ ـ ٦]. فقال قائلون: هذه الزلزلةُ كائنةٌ في آخر عُمُر الدنيا، وأوَّلِ أحوالِ الساعةِ. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بَشَّار، حدثنا يحيى، حدثنا سُفيان، عن الأعمشِ، عن إبراهيمِ، عن علقمةَ في قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾، قال: قبلَ الساعة. ورواه ابن أبي حاتم من حديث الثوري، عن منصور والأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقمةَ، فذكره. قال: ورُوي عن الشعبي، وإبراهيم وعُبَيد بن عُمَير، نحوُ ذلك. وقال أبو كُدَينة، عن عطاء، عن عامر الشعبيّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾، الآية، قال: هذا في الدنيا قبل يوم القيامة.

[٤٦٤٣] وقد أورد الإمام أبو جعفر ابن جرير مُسْتَنَدَ مَنْ قال ذلك في حديث الصُّور، من رواية إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة، عن يزيدَ بن أبي زياد، عن رجُلٍ من الأنصار، عن محمد بن كعب القُرَظيِّ، عن رَجُلٍ، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله لما فَرَغَ من خَلْقِ السموات والأرض خَلَقَ الصُّورَ، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعُه على فيه، شاخصٌ ببصره إلى العَرْش، ينتظرُ متى يُؤمَر. قال أبو هُريرة: يا رسولَ الله، وما الصُّورُ؟ قال: قَرْن. قال: فكيفَ هو؟ قال: قرن عظيم يُنفَخ فيه ثلاثُ نفخات، الأولى نفخةُ الفَزَع، والثانية نفخة الصَّعْق، والثالثة نفخةُ القيام لربِّ العالمين. يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفُخ نفخَةَ الفَزَع. فيفزَعُ أهلُ السموات وأهلِ الأرض إلا من شاء الله، ويأمره فَيَمُدُّها ويُطَوِّلها ولا يَفتُر، وهي التي يقولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥﴾ [ص: ١٥] فَيُسَيِّرُ الله الجبال فتكونُ سراباً، وتُرَجّ الأرضُ بأهلها رَجّاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ [النازعات: ٦ ـ ٨]، فتكون الأرضُ كالسفينة المُوبَقَةِ في البحر، تَضربُها الأمواجُ تكفؤها بأهلها، وكالقِنْدِيل المعلَّق بالعَرْش تُرَجِّحه الأرواحُ، فَتَميدُ الناس على ظهر، فتذهَلُ المَرَاضِعُ، وتَضَع الحوامِلُ، ويَشيب الوِلْدَانُ، وتَطِير الشياطين هاربةً حتى تأتي الأقطارَ، فَتَلقَّاها الملائكةُ

فتضربُ وُجُوهَهَا، فترجع ويُوَلّي الناس مُدبِرِينَ، يُنادي بعضُهم بعضاً، وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر: ٣٢ ـ ٣٣]، فبينما هم على ذلك إذ انْصَدَعتِ الأرضُ من قُطرٍ إلى قُطرٍ، فَرَأوا أمراً عظيماً فأخذهم لذلكَ من الكَرْب ما الله أعلَمُ به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمُهلِ. ثم خُسِفَ شَمسُها وخُسِفَ قَمَرُها، وانتثرتْ نجومُها، ثم كُشِطت عنهم. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: والأمواتُ لا يعلمون بشيءٍ من ذلك. قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حينَ يقولُ: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]؟ قال: أولئك الشهداءُ، وإنما يَصل الفَزَعُ إلى الأحياء، أولئك أحياءٌ عند رَبِّهم يرزقون، وقاهم الله شرّ ذلك اليوم وآمَنهم، وهو عذابُ الله يبعثُه على شِرارِ خَلقِه، وهو الذي يقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾»[1]. وهذا الحديث قد رواه الطبرانيّ، وابن جَرير، وابنُ أبي حاتم، وغير واحد، مُطوّلاً جداً. والغرضُ منه أنه دَلّ على أنّ هذه الزَّلْزَلة كائِنَةٌ قبلَ يوم السّاعة، وأُضيفَتْ إلى السّاعة لِقُربها منها، كما يُقال: أشراطُ الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم. وقال آخرون: بل ذلك هَولٌ وفَزَعٌ وزَلْزالٌ وبَلبالٌ، كائنٌ يومَ القيامةِ في العَرَصات، بعدَ القِيَامِ من القُبورِ. واختار ذلك ابنُ جرير، واحتجُوا بأحاديث:

[٤٦٤٤] الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن هِشَام، حدثنا قتادةُ، عن الحَسَن، عن عِمْرانَ ابن حُصَين: أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوتَ بين أصحابه السيرُ، رَفَع بهاتين الآيتين صوتَه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾، فلما سَمِعَ أصحابهُ بذلك حَثُّوا المَطِيّ، وعَرَفوا أنه عند قولٍ يقولُه. فَلَمّا تَأَشّبُوا حولَه قال: أتَدرُونَ أيّ يوم ذاك؟ ذاك يومَ يُنادَى آدمُ ـ عليه السلام ـ فيناديه ربُّه ـ عَزّ وجلّ ـ فيقول: يا آدَمُ، ابعَثْ بعثك إلى النار. فيقول: يا ربِّ، وما بَعثُ النار؟ فيقول: من كلّ ألفٍ تسعمئةٍ وتسعةٌ وتسعون في النار، وواحد في الجَنّةِ. قال: فَأَبْلَسَ أصحابُه حَتّى ما أَوْضَحُوا بضَاحِكَةٍ فلما رَأى ذلك قال: أَبشِرُوا واعملُوا، فوالذي نفسِ محمد بيدِه إنكم لَمَعَ خَلِيقَتَين ما كانتا مَعَ شَيءٍ قَطُّ إلا كَثّرتاه: يأجوج ومأجوجُ، ومن هَلَك من بني آدم وبني إبليس، قال: فَسُرِّي عنهم، ثم قال: اعملُوا وَأبشِرُوا، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده ما أنتم في الناسِ إلا كالشّامَةِ في جَنْبِ البعير، أو الرَّقْمَةِ في ذِرَاعِ الدابة»[2]. وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سُننهما، عن محمد بن بشار، عن يحيى ـ وهو القطان ـ عن هشام ـ وهو الدَّستَوائِيُّ ـ عن قتادةَ، به بنحوِهِ. وقال الترمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[٤٦٤٥] طريق أخرى لهذا الحديث، قال التِّرمِذِيُّ: حدثنا ابنُ أبي عُمَر، حدثنا سفيان بن عُيينة، حدثنا ابن جُدْعان، عن الحسن، عن عِمْران بن حُصَينٍ أن النبي ـ ﷺ ـ قال لما نَزَلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾، قال: أنزلت عليه هَذه وَهُو في سَفَرٍ، فقال: أتدرُونَ أيّ يوم ذلك؟ فقالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: ذلك يوم يقولُ الله لآدم: ابعثْ بَعْثَ

---

(١) هو بعض حديث الصور المطول، وتقدم تخريجه؛ بعضه منكر، وبعضه الآخر له شواهد.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ٣١٦٩ والنسائي في «التفسير» ٣٦٠ وأحمد ٤/٤٣٥ والطبري ٢٤٩٠٤، وصححه الحاكم ١/٢٨ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح اهـ. وفيه عنعنة الحسن، لكن له شواهد ستأتي.

النارِ. قال: يا ربِّ، وما بعثُ النار؟ قال: تسعمئة وتسعةٌ وتسعونَ إلى النار، وواحدٌ إلى الجنة. فأنشأ المسلِمُونَ يبكُون، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: قَارِبُوا وسَدِّدُوا، فإنها لم تكن نُبُوَّةٌ قطُّ إلا كان بين يديها جاهليةٌ، قال: فَيُؤخَذُ العَدَد من الجاهلية، فإن تَمّت وإلا كَمُلَتْ من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كَمثل الرَّقْمة في ذِرَاع الدابّة، أو كالشامَةِ في جنب البَعير. ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا رُبعَ أهلِ الجَنَّة. فكبَّروا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجَنَّةِ. فَكَبَّروا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نصفَ أهل الجنة. فَكَبَّروا، ثم قال: ولا أدري أقال الثلثين أم لا[١]. وكذا رواه الإمامُ أحمدُ عن سُفيانَ بن عُيَينة به، ثم قال التِّرمذِيُّ أيضاً: هذا حديثٌ حَسَن صَحِيحٌ. وقد رُوِي من غير وَجْهٍ، عن الحسن، عن عِمْرانَ بن الحُصَين. وقد رَوَاه ابنُ أبي حاتم من حديثِ سَعِيد بن أبي عَرُوبة، عن قَتَادَةَ، عن الحسن والعلاء بن زياد العَدَوِيّ، عن عِمْرانَ بن الحُصَين، فذكره.

[٤٦٤٦] وهكذا رَوَى ابن جرير عن بُنْدَار، عن غُنْدر، عن عوفٍ، عن الحَسَن قال: بلغني أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ لما قَفَل من غزوة العسرة ومعه أصحابُه بعد ما شارَفَ المدينة قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ①﴾... وذكر الحديث[٢]، فذكر نحو سياق ابن جُدعانَ، فالله أعلم.

[٤٦٤٧] الحديث الثاني، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن الطباع، حدثنا أبو سفيان المَعْمَرِيُّ، عن معمر، عن قتادَةَ، عن أنس قال: نزلت: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾... وذكر يعني نَحو سياقِ الحَسَن عن عِمْرَانَ، غير أنه قال: «ومن هَلَك من كفَرَةِ الجِنّ والإِنسِ»[٣]. رواه ابنُ جَرير بطوله، من حديث مَعْمَرٍ.

[٤٦٤٨] الحديث الثالث، قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سُلَيمان، حدثنا عَبّاد ـ يعني ابن العَوّام ـ حدثنا هلالُ بن خَبّاب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ هذه الآية... فذكر نحوه، وقال فيه: «إنّي لأرجُو أن تَكونُوا رُبُعَ أهلِ الجَنَّةِ، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجَنَّة، ثم قال: إني لأرجُو أن تكونُوا شَطر أهلِ الجَنَّةِ. ففرحوا، وزاد أيضاً: وإنما أنتم جُزءٌ من أَلْفِ جزءٍ»[٤].

[٤٦٤٩] الحديث الرابع، قال البخاريُّ عند هذه الآية: حدثنا عُمَر بن حَفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمشُ، حدثنا أبو صالح، عن أبي سَعِيد قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يقولُ الله تعالى يوم القيامة: يا آدمُ. فيقول: لَبَّيك ربنا وسعدَيك. فَيُنادَى بِصَوتٍ: إن الله يأمرك أن تُخرِج من ذريتك بَعثاً إلى النار. قال: يا ربِّ، وما بعثُ النار؟ قال: من كلِّ ألف ـ أُراهُ قال ـ تِسعَمئةٍ وتسعةً وتسعين. فحينئذٍ تَضَع الحامل حَمْلَها، ويَشيبُ

(١) أخرجه الترمذي ٣١٦٨ وأحمد ٤/٤٣٢ وقال الترمذي: حسن صحيح. قلت: فيه علي بن زيد بن جدعان ضعيف، لكن توبع كما تقدم وله شواهد.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤٩٠٦ عن الحسن مرسلاً، وتقدم موصولاً.

(٣) صحيح. أخرجه أبو يعلى ٣١٢٢ والحاكم ١/٢٩ وابن حبان ٧٣٥٤ والطبري ٤٩١٠، صححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٣٩٤: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير محمد بن مهدي، وهو ثقة اهـ.

(٤) جيد. أخرجه البزار ٣٤٩٧ «كشف» وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٣٩٤: ورجاله رجال الصحيح، غير هلال بن خباب، وهو ثقة اهـ وله شواهد.

الوليدُ، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾. فَشَقَّ ذلك على الناس حتى تَغَيَّرت وجوهُهُم. قال النبي ـ ﷺ ـ: مِن يأجُوجَ ومأجُوجَ تسعمئة وتسعةً وتسعينَ، ومنكم واحدٌ، ثم أنتم في الناسِ كالشَّعَرةِ السوداءِ في جَنْب الثَّور الأبيض. أو كالشَّعَرةِ البيضاءِ في جَنْبِ الثَّورِ الأسودِ وإني لأرجُو أن تكونُوا رُبُعَ أهلِ الجَنَّة. فَكَبَّرنا. ثم قال: ثلث أهلِ الجنة. فكبرنا. ثم قال: شَطْرَ أهلِ الجنة. فكبرنا»[١]. وقد رواه البُخارِيُّ أيضاً في غير هذا الموضعِ، ومسلم، والنسائي في تفسيره، من طُرُقٍ، عن الأعمش، به.

[٤٦٥٠] الحديث الخامس، قال الإمام أحمد: حدثنا عَمَّارُ بن محمد ـ ابنُ أختِ سُفيانَ الثَّوريِّ ـ وعبيدة المَغنى، كلاهما عن إبراهيم بن مسلم، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله يبعثُ يومَ القيامة منادياً يُنادي: يا آدمُ، إن الله يأمرُكَ أن تبعَث بعثاً من ذُرِّيتك إلى النار، فيقول آدمُ: يا ربِّ من هم؟ فيقال له: من كلِّ مئةٍ تسعةً وتسعين. فقال رجلٌ من القوم: مَن هذا الناجي مِنّا بعد هذا يا رسول الله؟ قال: هل تَدْرُون ما أنتم في الناس إلاَّ كالشَّامَةِ في صَدْرِ البعير»[٢]. انفَرد بهذا السَّندِ وهذا السياق الإمامُ أحمدُ.

[٤٦٥١] الحديث السادس، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن حاتم بن أبي صغيرة، حدثنا ابن أبي مليكة أن القاسم بن محمد أخبره عن عائشة عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاة عراة غدلاً» قالت عائشة: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: «يا عائشة إن الأمر أشد من أن يهمّهم ذاك»[٣]. أخرجاه في الصحيحين.

[٤٦٥٢] الحديث السابع، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بنُ إسحاقَ، حدثنا ابنُ لَهيعَةَ، عن خالد ابن أبي عِمْران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: قلتُ: يا رسولَ الله، هل يذكر الحبيبُ حبيبَه يومَ القيامة؟ قال: «يا عائشةُ، أمَّا عند ثلاثٍ فلا، أمَّا عند الميزان حتى يثقل أو يَخفَّ فلا. وأما عند تَطَايُر الكُتُب فإما أنْ يُعطَى بيمينه أو يُعطَى بشماله، فلا. وحين يخرج عُنُق من النار فَيَنْطَوِي عليهم، ويتَغيَّظُ عليهم، ويقول ذلك العُنُق: وُكِلْتُ بثلاثة، وُكِلْتُ بثلاثة، وُكِلْتُ بثلاثة: وُكِلْتُ بمن ادَّعَى مع الله إلهاً آخراً، وَوُكِلْتُ بمن لا يُؤْمِنُ بيومِ الحِسَاب، وَوُكِلْتُ بكلِّ جبَّارٍ عَنيد. قال: فَيَنْطَوِي عليهم، ويَرْمِيهم في غَمَرات، وَلجَهنَّم جِسْرٌ أدَقّ من الشَعر وأحدُّ من السيف، عليه كَلاَلِيبُ وَحَسكٌ يَأخُذْنَ من شاء الله، والناس عليه كالطَّرْف وكالبَرْق، وكالرِّيح، وكأجَاوِيدِ الخيل، والرِّكابِ، والملائكةُ يقولون: ربِّ سَلِّم سَلِّم. فناجٍ مُسَلَّمٌ، ومَخْدوشٌ مُسَلَّم، ومُكَوَّرٌ في النار على وَجْهه»[٤].

والأحاديثُ في أهوال يوم القيامة والآثارُ كثيرةٌ جداً، لها موضِعٌ آخَرُ. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾، أي: أمرٌ كبيرٌ، وخَطْب جَلِيل، وطارق مُفظِعٌ، وحادث هائلٌ، وكائن عجيبٌ.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤١ ومسلم ٢٢٢ والنسائي في «التفسير» ٣٥٩ وأحمد ٣/ ٣٢ ـ ٣٣ والطبري ٢٤٩٠٧.

(٢) حسن. أخرجه أحمد ١/ ٣٨٨ وأبو يعلى ٥١٢٤ وإسناده ضعيف، لضعف إبراهيم بن مسلم الهجري، لكن له شواهد يقوى بها.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٢٧ ومسلم ٢٨٥٩ والنسائي ٤/ ١١٤.

(٤) هذا مرسل، أخرجه أحمد ٦/ ١١٠ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩ وقال: وفيه ابن لهيعة وفيه ضعيف، وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ قلت: ابن لهيعة ضعيف الحديث، فليس الراوي عنه أحد العبادلة، وقد أتى بألفاظ منكرة في هذا المتن، ولبعضه الآخر شواهد. وهو يشهد لما قبله.

والزلزال: هو ما يحصُل للنفوس من الفزَع والرعب كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١١]. ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾: هذا من باب ضمير الشأنِ، ولهذا قال مُفسّراً له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: تَشتَغِلُ لهولِ ما تَرَى عن أحَبِّ الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه، تَدهَش عنه في حَالِ إرضاعِها له، ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، ولم يقل «مُرْضِع». وقال: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾، أي: عن رضيعها قبل فطامه. وقولُه: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾، أي: قبل تَمامِهِ لِشدَّةِ الهَوْلِ، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾. وقُرِىء: «سَكْرَى»، أي: من شِدَّة الأمر الذي صَارُوا فيه قد دَهِشَت عقولُهم، وغابت أذهانُهم، فمن رآهم حَسِبَ أنهم سكارَى، ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾

يقولُ تعالى ذاماً لمن كَذَّب بالبعث، وأنكر قُدرَةَ الله على إحياء الموتى، مُعرضاً عما أنزَلَ الله على أنبيائه، مُتَّبِعاً في قوله وإنكاره وكُفره كُلَّ شيطان مَرِيد، من الإنس والجن، وهذا حالُ أهل الضَّلال والبدَع، المُعرضِينَ عن الحقِّ، المتَّبِعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويَتبعون أقوالَ رُؤُوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء. ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: علم صحيح، ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ﴾، قال مجاهد: «يعني الشيطان»، يعني كُتِبَ عليه كتابةً قَدَرِيَّةً ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾، أي: اتبعه وقلَّده، ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: يُضِلُّه في الدنيا، ويَقوده في الآخرة إلى عذاب السَّعير، وهو الحارُّ المؤلم المُزعِجُ المُقلِقُ. وقد قال السديّ، عن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث. وكذا قال ابن جُرَيج.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن سَلْم البَصْرِيُّ، حدثنا عمرو بن المحرَّم أبو قتادة، حدثنا المُعْتَمِر، حدثنا أبو كعب المكي قال: قال خَبيثٌ من خُبَثَاء قريش: أُخبرونا عن ربكم، مِن ذَهَبٍ هُوَ، أو من فِضَّةٍ هو، أو نُحَاسٍ هو؟ فقعقعت السماءُ قعقعةً ـ والقَعْقَعَةُ في كلام العَرَب: الرعدُ ـ فإذا قِحْفُ رأسه ساقطٌ بين يَدَيه. وقال ليث بن أبي سُلَيم، عن مجاهد: جاء يهوديٌّ فقال: يا محمدُ، أَخبِرْني عن رَبِّك، من أيِّ شيءٍ هُو؟ من دُرّ من ياقُوتٍ؟ قال: فجاءت صاعقةٌ فأخذته[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

لما ذَكر تعالى المخالفَ للبَعثِ، المُنكِرَ للمَعادِ، ذَكَر تعالى الدليل على قُدرَتِهِ تعالى على المعاد، بما

(١) تقدم في سورة الرعد.

يُشاهَدُ من بَدْئِه للخلق، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، أي: في شك ﴿مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾، وهو المعادُ وقيامُ الأرواح والأجساد، يوم القيامة، ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾، أي: أصلُ بَرْئِه لكم من تُراب، وهو الذي خُلِق منه آدمُ عليه السلام، ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾، أي: ثم جعل نَسْلَه من سُلالة من ماء مَهِين، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾. وذلك أنه إذا استقرت النطفةُ في رَحِم المرأة، مَكثَت أربعين يوماً كذلك، يُضاف إليه ما يجتمعُ إليها، ثم تنقلب عَلَقَةً حمراءَ بإذن الله، فتمكث كذلك أربعينَ يوماً، ثم تستحيل فتصيرُ مُضغةً: قطعةً من لحم لا شكلَ فيها ولا تخطيط، ثم يشرَعُ في التشكيل والتخطيط، فيُصوَّر منها رأس ويَدَان، وصدر وبطن، وفخذان، ورِجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تُسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تُلقيها وقد صارت ذات شَكل وتَخطيط، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، أي: كما تشاهِدُونها، ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وتارةً تَستقِرُّ في الرَّحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهِدٍ في قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، قال: هو السِّقط مخلوقٌ وغيرُ مخلوقٍ. فإذا مَضى عليها أربعون يوماً، وهي مُضغَة، أرسَل الله تعالى إليها ملكاً فَنَفَخَ فيها الروحَ، وسَوّاها كما يشاء الله عز وجل، من حَسَن وقَبِيح، وذَكَر وأنثى، وكَتَب رزقها وأجلها، وشَقي أو سَعيد.

[٤٦٥٣] كما ثَبت في الصَّحِيحَين، من حديث الأعمش، عن زيد بن وَهْب، عن ابن مَسْعُودٍ قال: حَدَّثنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ وهو الصَّادقُ المصدُوقُ: «إنَّ خَلْقَ أحدكُم يُجمَعُ في بطن أُمِّه أربعين ليلةً، ثم يكون عَلَقةً مثل ذلك، ثم يكون مُضغَةً مثلَ ذلك، ثم يبعَثُ الله إليه المَلَك فيُؤمَرُ بأربعِ كَلِماتٍ، يكتب عملَه وأجلَه ورزقَه، وشقيٌّ أو سعيدٌ، ثم يُنفَخُ فيه الرّوح»[١].

وروى ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم من حديث داودَ بن أبي هندٍ، عن الشَّعبيِّ، عن عَلْقَمَةَ، عن عبد الله قال: النطفة إذا استقرت في الرحم جاءَهَا مَلَكٌ بِكفِّه قال: يا ربِّ، مُخَلَّقةٌ أو غير مُخلَّقة؟ فإن قيل: «غيرُ مُخلَّقة» لم تكن نَسمَةً، وقَذَفتها الأرحامُ دماً. وإن قيل: «مُخلَّقة»، قال: أيْ ربِّ، ذكرٌ أو أنثى؟ شقيٌّ أو سعيدٌ؟ ما الأجلُ، وما الأثرُ؟ وبأيِّ أرضٍ يموتُ؟ قال: فيُقال للنُّطفةِ: من ربُّك؟ فتقول: الله. فيقال: من رَازِقُكِ؟ فتقولُ: الله. فيقال له: اذهَبْ إلى أم الكِتابِ، فإنك ستجدُ فيه قِصةَ هذه النُّطفةِ. قال: فتُخلَق فتَعِيشُ في أجلها، وتأكُلُ رزقَها وتطأ أثرها، حتى إذا جاء أجَلُها ماتت، فَدُفِنَت في ذلك المكان. ثم تلا عامِرٌ الشَّعبيُّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾. فإذا بلغت مُضغةً نُكِست في الخَلْق الرابع فكانت نَسَمة، فإن كانت غير مُخلَّقة قَذفتها الأرحامُ دماً، وإن كانت مُخلَّقة نُكِسَت في الخَلْقِ.

[٤٦٥٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المُقرِىء، حدثنا سفيان، عن عَمرو ابن دِينار، عن أبي الطُّفَيل، عن حُذَيفة بن أسِيدٍ ـ يَبلُغُ به النبي ـ ﷺ ـ قال: «يدخلُ المَلَك على النُّطفة بعد ما تَستقِرُّ في الرَّحِم بأربعين أو خَمسٍ وأربعين، فيقول: أيْ ربِّ، أشقِيٌّ أم سَعِيدٌ؟ فيقول الله، ويَكتُبان، فيقول: أذكرٌ أم أنثى؟ فيقولُ الله ويكتُبانَ، ويكتب عَمَله وأثره ورزقه وأجَله، ثم تُطوى الصحفُ، فلا يُزاد على ما فيها ولا يُنقصُ»[٢]. وَرَواه مسلمٌ من حديث سُفيانَ بن عُيَينة، ومن طُرُق أخَر، عن أبي الطُّفَيلِ، بنحوِ مَعناه.

---

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٣٤.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٦٤٤ وأحمد ٦/٤ ـ ٧ والطحاوي في «المشكل» ٢٦٦٣ وابن أبي عاصم في «السنة» ١٧٩ من طرق عن عاصم به. وأخرجه مسلم ٢٦٤٥ والطحاوي ٢٦٦٤ وابن حبان ٦١٧٧ من وجه آخر من حديث حذيفة بنحوه.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، أي: ضَعِيفاً في بَدَنِه وسَمْعِه وبَصَرِه وحَوَاسِّه، وبَطْشِه وعقله. ثم يعطيه الله القُوّة شيئاً فشيئاً ويَلْطُفُ به. ويُحَنِّن عليه والِدَيه في آناء الليل وأطراف النَّهارِ. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾، أي: يتكامَل القويّ ويتزايَدُ، ويَصِلُ إلى عُنفُوانِ الشباب وحُسْن المنظَر. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾، أي: في حال شبابه وقُواه، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾، وهو الشيخُوخَةُ والهَرَم، وضَعْفِ القُوة والعقل والفَهم، وتناقص الأحوال من الخَرَف وضَعْفِ الفِكْر، ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

[٤٦٥٥] وقد قال الحافظ أبو يَعْلَى أحمدُ بن علي بن المُثَنَّى المَوْصِلي في مسنده: حدثنا منصور بن أبي مُزاحِم، حدثنا خالد الزيات، حدثني داود بن سليمان، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معْمَر بن حَزْمٍ الأنصاري، عن أنس بن مالك ـ رَفَع الحديث ـ قال: المولود حتى يبلغ الحِنْثَ، ما عَمِل من حَسَنةٍ كُتِبَت لوالده أو لوالدته، وما عَمِل من سَيِّئةٍ لم تُكتَب عليه ولا على والديه، فإذا بلغ الحِنْثَ أجرَى الله عليه القَلَمَ، أمرَ المَلَكَان اللَّذانِ معه أن يحفظَا وأن يُشَدِّدا، فإذا بلغ أربعين سنةً في الإسلام أَمَّنَه الله من البلايا الثلاث: الجُنُونِ، والجُذَام، والبَرَص. فإذا بلغ الخمسين، خَفَّفَ الله من حسابَه. فإذا بَلَغ الستّين رَزقه الله الإنابة إليه بما يُحبُّ، فإذا بلَغ السبعين أَحبَّه أهلُ السماء، فإذا بلغ الثمانين كَتَب الله حَسَناتِه وتجاوَز عن سيِّئاتِهِ، فإذا بلغ التِّسعين غَفَر الله له ما تَقَدَّم من ذنبه وما تَأَخَّرَ، وشَفَّعه في أهل بيته، وكان أسيرَ الله في أرضه، فإذا بلغ أرذل العُمر ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، كَتَبَ الله له مثلَ ما كان يعملُ في صِحَّتِهِ من الخير، فَإذَا عَمِل سَيِّئةً لم تُكتَب عليه[1]. هذا حديثٌ غريبٌ جداً، وفيه نَكَارة شَدِيدة. ومع هذا قد رَوَاه الإمامُ أحمدُ بن حَنبلٍ في مسنده مرفوعاً وموقوفاً فقال:

[٤٦٥٦] حدثنا أبو النضر، حدثنا الفَرَجُ، حدثنا محمد بن عامر، عن محمد بن عبد الله العَامِرِيِّ، عن عمرو بن جعفر، عن أنس قال: إذا بَلَغ الرجلُ المسلمُ أربعينَ سنةً أَمَّنه الله من أنواع البلايا، من الجُنون والجُذام والبَرَص. فإذا بلغ الخمسين لَيَّن الله حسابه، وإذا بلغ الستّين رزقه الله إنابةً يُحبُّه عليها. وإذا بَلَغ السَّبعين أحبَّه الله وأحبَّه أهل السماء، وإذا بَلَغ الثمانين تَقَبَّل الله حسناتِهِ، ومحا عنه سَيِّئاتِه. وإذا بلغ التِّسعين غَفَر الله له ما تقَدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وسُمِّي أَسِير الله في الأرض، وشُفِّع في أهله.

[٤٦٥٧] ثم قال: حدثنا هاشم، حدثنا الفرج، حدثني محمد بن عبد الله العامِرِيّ، عن محمد بن عبد الله بن عَمرو بن عُثمانَ، عن عبد الله بن عُمَر بن الخطاب، عن النبي ـ ﷺ ـ مثله[2].

[٤٦٥٨] ورواه الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدثنا أَنَس بن عِيَاضٍ، حدثني يُوسُفُ بن أبي ذرة[3] الأنصاريّ، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضَّمْرِيّ، عن أنسِ بن مالك: أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: ما من مُعمَّر يُعمَّر في

---

(١) ضعيف. أخرجه أبو يعلى ٣٦٧٨ وفيه خالد الزيات عن داود بن سليمان، وكلاهما مجهول، وانظر ما بعده.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه أحمد ٢/ ٨٩، وفيه الفرج بن فضالة، ضعفه النسائي والدارقطني، وقال أبو حاتم: صدوق، لا يحتج به، ومحمد بن عبد الله العامري، لا يعرف كما في الميزان ٧٧٧٦. واكتفى الهيثمي في «المجمع» ١٧٥٦٠ بقوله: رجاله وُثقوا على ضعف في بعضهم كثير اهـ وقال العراقي كما في «المسدد» ص ٤٠ لم يذكر ابن الجوزي في الموضوعات حديث ابن عمر، وكان ينبغي أن يذكره، فإنه موضوع قطعاً.

(٣) وقع في الأصل وفي مسند أحمد والموضوعات «بردة» وهو تصحيف. والمثبت من مصادر التخريج.

الإسلام أربعين سنة إلا صَرَفَ الله عنه ثلاثةَ أنواعٍ من البلاءِ: الجُنونَ والجُذامَ والبَرَصَ...»[١] وذكر تمام الحديث، كما تقدم سَوَاءً.

[٤٦٥٩] ورواه الحافظُ أبو بكر البزّارُ، عن عبد الله بن شَبِيبٍ، عن أبي شَيْبَة، عن عبد الله بن عبد الملك، عن أبي قَتَادَةَ العُذْري، عن ابن أخي الزهري، عن عَمِّه، عن أنس بن مالكٍ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما من عبد يُعمَّر في الإسلام أربعينَ سنة، إلا صَرَفَ الله عنه أنواعاً من البلاء: الجُنون والجُذَامَ والبَرَصَ، فإذا بلغ خمسينَ سنةً لَيَّن الله له الحساب، فإذا بلغ سِتِّين سنة رَزَقه الله الإنابَةَ إليه بما يُحبُّ، فإذا بلغ سبعين سنةً غَفَر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، وسُمِّي أسِير الله، وأحبَّه أهلُ السماء، فإذا بلغ الثَّمانِينَ تَقبَّل الله منه حَسَنَاتِهِ وتجاوزَ عن سيئاته، فإذا بَلَغ التّسعين غفَر الله له ما تَقَدَّم من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، وسُمِّي أسير الله في أرْضِهِ، وشُفِّع في أهْلِ بَيْتِهِ»[٢].

وقولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾: هذا دليلٌ آخَرُ على قُدْرَتِهِ تعالى على إحياءِ الموتى، كما يُحيي الأرضَ الميْتَةَ الهامدة، وهي القَحلَة التي لا نبتَ فيها ولا شيْءَ. وقال قتادة: غبراءُ مُتهشِّمَةً. وقال السُّدِّيُّ: مَيْتة. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾، أي: فإذا أنزلَ الله عليها المَطَر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾، أي: تَحرَّكت بالنبات وحَيِيتْ بعد مَوْتها، ﴿وَرَبَتْ﴾، أي: ارتفعت لما سَكَن فيها الثَّرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفُنُون، من ثمار وزروع، وأشتاتِ النباتات في اختلاف ألوانها وطُعُومها، وروائحها وأشكالها ومَنَافعها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾، أي: حَسَنِ المَنْظرِ طَيِّب الرِّيح. وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: الخالق المدبِّر الفعَّالُ لما يَشاءُ، ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: كما أحيا الأرضَ وأنبتَ منها هذه الأنواعَ؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، فـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]. ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾، أي: كائنةٌ لا شَكَّ فيها ولا مِرْيَة، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: يُعيدهم بعد ما صَارُوا في قُبورهم رِمَماً، ويُوجِدُهم بعد العَدَم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا

---

(١) ضعيف جداً، أخرجه أحمد ٣/ ٢١٧ ح ١٢٨٦٦ وأبو يعلى ٤٢٤٦ و٤٢٤٧ وابن حبان في «المجروحين» ٣/ ١٣١ ـ ١٣٢ وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ١٧٩ من حديث أنس بهذا الإسناد، قال ابن حبان: يوسف ابن أبي ذَرّة منكر الحديث جداً، ممن يروي المناكير التي لا أصول لها من حديث رسول الله ﷺ على قلة روايته، لا يجوز الاحتجاج به بحال. قال ابن معين: لا شيء. ووافقه ابن الجوزي. وورد من وجه آخر أخرجه ابن الجوزي ١/ ١٧٩ وأعله بعباد بن عباد ونقل عن ابن حبان قوله: كان يحدث بالتوهم، فيأتي بالمناكير، فاستحق الترك. وأخرجه أبو يعلى ٤٢٤٩ و٤٢٥٠ من طريقين عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان عن أنس، وإسناده ضعيف، فهو منقطع بين محمد هذا وأنس، وفي رواته من يجهل حاله. والخبر منكر بكل حال. وانظر ما بعده.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه البزار ٣٥٨٧ و٣٥٨٨ من حديث أنس، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٧٥٦٢: رواه البزار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات اهـ وفيما قاله الهيثمي نظر، فإن في الإسناد الذي ذكره ابن كثير عبد الله ابن شبيب، ضعفه الذهبي، ونقل عن أبي أحمد الحاكم قوله: ذاهب الحديث، وقال ابن حبان: يقلب الأخبار، ويسرقها. راجع الميزان ٤٣٧٦، والإسناد الآخر واهٍ أيضاً فيه مجاهيل. والخبر منكر حكم ببطلانه ابن حبان وابن الجوزي والذهبي والعراقي وخالفهم ابن حجر في «الذب من المسند» ص ٦٢ على أنه ليس بموضوع، وتبعه على ذلك السيوطي في «اللآلئ» لكن قول الجمهور أولى بالصواب، فالحديث منكر من جهة المتن، بل هو باطل، فإن الكثير من المسلمين والمؤمنين يصاب بجنون أو غير ذلك، بعد الأربعين بل وبعد الخمسين والستين، وقد تفرد به ضعفاء هلكى ومجاهيل، والظاهر أن بعضهم سرقه من البعض الآخر، وركبوا له أسانيد، حتى يروج على الطالب، نسأل الله السلامة.

ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨٠]. . . والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

[٤٦٦٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْزٌ، حدثنا حَمَّاد بنُ سَلَمةَ قال: أنبأنا يعلَى بنُ عَطَاءٍ، عن وكيع ابن عدس، عن عمه أبي رَزِينٍ العُقَيلي ـ واسمه لَقِيطُ بن عامر ـ أنه قال: يا رسولَ الله، أَكُلُّنا يَرَى رَبَّه ـ عَزَّ وجلَّ ـ يوم القيامة؟ وما آيةُ ذلك في خلقه؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أَليسَ كُلُّكم ينظرُ إلى القَمَر مُخلياً به؟ قلنا: بلى. قال: فالله أعظم. قال: قلتُ: يا رسولَ الله، كيفَ يُحيي الله الموتى، وما آيةُ ذَلِك في خَلْقِهِ؟ قال: أما مَرَرْتَ بِوادِي أهلك مُمْحِلاً قال: بلى. قال: ثم مررتَ به يهتَزُّ خَضِراً؟ قال: بلى. قال: فَكَذَلك يُحيي الله الموتى، وذلك آيتُه في خَلْقِهِ»[(١)]. ورواه أبو داودَ وابنُ ماجه، من حديث حَمَّاد ابن سَلَمة، به.

[٤٦٦١] ثم رواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن ابن يَزِيدَ بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبي رَزِين العُقَيلي قال: أتيت رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسولَ الله، كيف يُحيي الله الموتى؟ قال: أمررت بأرض من أرضِ قومك مُجْدِبَةً، ثم مَرَرْتَ بها مُخصِبَةً؟ قال: نعم. قال: كذلك النُّشورُ[(٢)].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عُبَيس بن مرحوم، حدثنا بُكَير بن أبي السَّمِيطِ، عن قتادة، عن أبي الحَجَّاج، عن مُعاذِ بن جبل قال: «مَن عَلِم أن الله هو الحقُّ المبينُ، وأن الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأن الله يبعثُ من في القبور، دَخَل الجنة. والله أعلم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الضُّلاَّل الجُهَّال المُقَلِّدين في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾، ذكر في هذه حال الدُّعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبِدَع، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾، أي بلا عقل صَحيح، ولا نَقْل صَريح، بل بمجرَّد الرَّأيِ والهَوَى. وقولُه: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾، قال ابن عباس وغيره: مُستكبراً عن الحقِّ إذا دُعِي إليه. وقال مجاهدٌ، وقتادةُ، ومالك، عن زيد بن أسلَمَ: «ثاني عطفه»، أي: لاوِيَ عُنُقِهِ، وهي رقبته. يعني يُعرض عما يُدعَى إليه من الحق ويُثْني رقبته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات: ٣٨ ـ ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [المنافقون: ٥]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١١ وأبو داود ٤٧٣١ وابن ماجه ١٨٠ وإسناده لين لأجل وكيع بن عدس، لكن لأصله ما يشهد له، وانظر صحيح أبي داود ٣٩٥٧.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١١ ـ ١٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ١/ ٥٣ ـ ٥٤ وقال: وفي إسناده سليمان بن موسى، وقد وثقه ابن معين، وأبو حاتم، وضعفه آخرون. قلت: تابعه على سياقه وكيع بن عدس.

خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]، أي: تُميله عنهم استكباراً عليهم. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [لقمان: ٧].

وقولُه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قال بعضهم: هذه لام العاقبة، لأنه قد لا يقصد ذلك وَيَحتَمِلُ أن تكون لام التعليل. ثم إمَّا أن يكونَ المرادُ بها المعاندين، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جعلناه على هذا الخُلُق الذي يجعلُه ممن يُضلّ عن سبيل الله. ثم قال تعالى: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ وهو الإهانة والذلُ، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَّاه الله المذلّةَ في الدنيا، وعاقَبَه فيها قبل الآخرة، لأنها أكبر همِّه ومبلغُ عِلمِه، ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، أي: يقال له هذا تقريعاً وتوبيخاً، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾ [الدخان: ٤٧ ـ ٥٠].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام، عن الحسن قال: بَلَغَني أنَّ أحدَهُم يُحرقُ في اليومِ ألفَ مَرَّةٍ.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٢ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ۝١٣﴾

قال مجاهدٌ، وقتادةُ، وغيرهما: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: على شكٍّ. وقال غيرُهم: على طَرَفٍ. ومنه حَرْفُ الجبل. أي: طَرَفُه، أي: دخل في الدين على طَرَفٍ، فإن وَجد ما يُحبُه استقرَّ، وإلا انشمَرَ.

[٤٦٦٢] وقال البخاريُّ: حدثنا إبراهيمُ بن الحارث، حدثنا يحيى بنُ أبي بُكير، حدثنا إسرائيل، عن أبي حَصِين، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، قال: كان الرجل يَقْدمُ المدينة، فإن وَلدت امرأته غلاماً، ونُتِجت خَيلُه، قال: هذا دينٌ صالحٌ. وإن لم تَلِد امرأته، ولم تُنتَج خيلُه قال: هذا دينُ سَوْءٍ(١).

[٤٦٦٣] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق القُمّي، عن جعفر بن أبي المُغيرَة، عن سَعيد بن جُبير، عن ابن عَبّاس قال: كان ناسٌ من الأعراب يأتون النبيَّ ـ ﷺ ـ فيُسلِمون، فإذا رَجَعوا إلى بلادهم فإن وَجَدُوا عام غَيث وعام خِصْب وعَام وِلادٍ حَسَنٍ قالوا: إنَّ ديننا هذا لَصالح. فتمسَّكوا به. وإن وَجَدُوا عام جُدوبة وعام وِلادِ سَوْءٍ وعام قَحطٍ قالوا: ما في ديننا هذا خير. فأنزل الله على نَبيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾(٢).

وقال العَوفيُّ، عن ابن عَبّاس: كان أحدُهم إذا قَدِم المدينةَ، وَهِي أرضٌ وبيئة، فإن صحَّ بها جِسمُه، ونُتِجت فرسُه مُهراً حَسناً، وَوَلدتِ امرأتُه غُلاماً، رَضي به واطمأنَّ إليه، وقال: ما أصبتُ منذ كنتُ على ديني هذا إلا خيراً. وإن أصابته فتنة ـ والفتنة: البلاءُ ـ أي: وإنْ أصابه وَجَع المدينة، وولدت امرأته جاريةً،

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤٢.

(٢) إسناده لا بأس به لأجل جعفر بن أبي المغيرة، لكن له شواهد كما ترى.

وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبتَ منذُ كنتَ على دِينِكَ هذا إلا شرّاً. وذلك الفتنةُ. وهكذا ذَكر قتادةُ، والضحاكُ، وابنُ جُريج، وغيرُ واحدٍ من السَّلَفِ، في تفسير هذه الآية. وقال عبدُ الرحمن بن زَيدِ بن أسلم: هو المنافق، إن صَلَحت له دُنياه أقام على العِبادةِ، وإن فَسدت عليه دُنياه وتَغيَّرت انقلب فلا يُقيم على العبادةِ إلا لِمَا صَلَح من دنياه، فإن أصابته فتنةٌ أو شدّةٌ أو اختبارٌ ضِيقٌ ترك دينَه ورجع إلى الكفر. وقال مجاهدٌ في قوله: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾، أي: ارتدَّ كافراً.

وقولُه تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، أي: فلا هو حَصَلَ من الدنيا على شيءٍ، وأما الآخرةُ فقد كَفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاءِ والإهانة. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: هذه هي الخسارةُ العظيمةُ، والصفقةُ الخاسرة. وقوله: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾، أي: من الأصنام والأنداد، يستغيثُ بها ويستنصِرُها ويَسترزِقُها، وهي لا تنفعهُ ولا تَضرُّه، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾، أي: ضَررُه في الدنيا قبلَ الآخرةِ أقربُ من نَفعِهِ فيها، وأما في الآخرة فَضررُهُ مُحقّقٌ متيقنٌ. وقولُه: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾، قال مجاهد: يعني الوثن. يعني بِئْسَ هذا الذي دَعَا به من دون الله مولى، يعني: ولياً وناصراً، ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾، وهو المخالطُ والمعاشرُ. واختار ابنُ جرير أنّ المراد: لَبِئْسَ ابنُ العمّ والصاحِبُ من يَعبُدُ الله على حَرفٍ. ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾. وقولُ مجاهدٍ إنّ المرادَ به الوثنُ، أولى وأقربُ إلى سياق الكلامِ، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

لما ذكر أهلَ الضلالة الأشقياء عَطَف بذكر الأبرار السُّعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدَّقوا إيمانَهم بأفعالهم، فَعملوا الصالحات من جَميع أنواع القُرُبات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سُكنَى الدرجاتِ العالياتِ، في رَوْضاتِ الجنّاتِ. ولما ذَكر تعالى أنه أضلَّ أولئك، وهَدى هؤلاءِ، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

قال ابن عباس: من كان يظنُّ أن لن ينصرَ الله محمداً ـ ﷺ ـ في الدنيا والآخرة، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾، أي: بحبلٍ ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: سماءِ بيتِهِ، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾، يقول: ثُمَّ ليختَنِقْ به. وكذا قال مجاهدٌ، وعكرمَةُ، وعطاءٌ، وأبو الجوزاءِ، وقتادةُ، وغيرهم. وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: ليتوصَّل إلى بُلُوغِ السماءِ، فإنّ النصرَ إنما يأتي مُحمّداً من السماء، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه، إنْ قَدرَ على ذلك. وقولُ ابن عباسٍ وأصحابه أولى وأظهرُ في المعنى، وأبلغُ في التهكم؛ فإنَّ المعنى: من ظَنَّ أن الله ليس بناصر محمداً وكتابَه ودينَه فَليذهَبْ فَليقتُلْ نفسه، إن كان ذلك غائظَه فإن الله ناصِرُه لا محالَةَ، قال الله تعـالـى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١ ـ ٥٢]. ولهذا قال: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾. قال السدّيُّ: يعني من شأن مُحمّد ﷺ. وقال عطاءٌ الخُراسانيُّ: فَلْينظُرْ هل يَشْفِي ذلك ما يَجدُ في صَدرِهِ من الغَيظِ. وقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: القرآنَ ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، أي: واضِحاتٍ في لَفظِها ومعناها، حُجّةً

من الله على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾، أي: يُضِلّ من يشاء ويَهدِي من يشاء، وله الحكمةُ التامّةُ والحجّةُ القاطِعَةُ في ذلك، ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أما هو فلحكْمَته ورَحْمَته وعَدْله، وعلمه وقَهْرِه وعَظَمَتِه، لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه، وهو سَرِيعُ الحساب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِـِٔينَ وَالنَّصَٰرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

يخبرُ تعالى عن أهل هذه الأديانِ المختلفة من المؤمنين، ومن سِوَاهم من اليهود والصَّابئينَ ـ وقد قدّمنا في سورة البقرة التعريفَ بهم، واختلافَ الناس فيهم ـ والنصارى والمجُوس، والذين أشركوا فعَبدُوا غيرَ الله مَعَه؛ فإنه تعالى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾، ويحكُم بينهم بالعدل، فيُدخِلُ من آمَنَ به الجنّة، ومن كَفَر به النارَ، فإنه تعالى شهيدٌ على أفعالهم، حَفِيظٌ لأقوالهم، عليمٌ بسرائِرهم، وما تُكِنُّ ضَمَائِرُهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾

يخبرُ تعالى أنه المستحقُّ للعبادة وحدَه لا شريكَ له؛ فإنه يسجُدُ لعظمته كُلُّ شيءٍ طوعاً وكرهاً، وسجُودُ كلّ شيءٍ ممّا يختصّ به، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨]. وقال هاهنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ﴾، أي: من الملائكةِ في أقطار السموات، والحيواناتِ في جَميع الجهاتِ، من الإنسِ والجنِّ والدوابِّ والطيرِ، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾. وقولُه: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾، إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبِدَت من دون الله، فبيّن أنها تَسجُدُ لخالقها، وأنها مربُوبةٌ مُسخَّرة ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

[٤٦٦٤] وفي الصحيحين عن أبي ذَرّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «أتدري أين تذهبُ هذه الشمسُ؟ قلت: الله ورسولُه أعلم. قال: فإنها تذهبُ فتسجُدُ تحتَ العرشِ، ثم تستأمرُ فيُوشِكُ أن يقال لها: ارجعي من حيثُ جِئتِ»[(١)].

[٤٦٦٥] وفي المسند وسُنَن أبي داودِ، والنسائي، وابن ماجه، في حديث الكُسُوف: «إن الشمس والقمر خَلْقان من خَلْق الله، وإنهما لا يَنْكَسِفَانِ لموتِ أحَدٍ ولا لِحَياتِهِ، ولكنّ الله ـ عَزَّ وجلّ ـ إذا تَجلّى لشيءٍ من خَلْقِه خَشع له»[(٢)]. وقال أبو العالية: ما في السماءِ نجمٌ ولا شمسٌ ولا قمرٌ إلا يَقع لله ساجداً حين يَغِيب، ثم لا يَنصرِفُ حتى يُؤذَنَ له، فيأخُذُ ذاتَ اليمين حتّى يرجعَ إلى مَطْلَعِهِ. وأما الجبالُ والشَّجر فسجودُهُما بفَيْءِ ظلالهما عن اليمين والشمائل.

---

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٥٨.

(٢) أخرجه النسائي ٣/١٤١ وابن ماجه ١٢٦٢ من طريق خالد الحذاء عن أبي قلابة عن النعمان بن بشير مرفوعاً. وأخرجه أحمد ٤/٢٦٧ من طريق أبي قلابة عن رجل عن النعمان بن بشير مرفوعاً، وهذا هو الصواب أنه عن رجل، وأبو قلابة كثير الإرسال. فالإسناد ضعيف، والوهن فقط في عجزه، وأما أصله ففي الصحيحين.

[٤٦٦٦]وعن ابن عباس قال: جاء رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، إني رأيتني الليلةَ وأنا نائمٌ كأنّي أصَلّي خَلْفَ شَجَرةٍ، فَسَجدتُ فسجدَتِ الشجرةُ لسُجُودي، فسمعتُها وهي تقولُ: اللهُمَّ: اكتُبْ لي بها عندكَ أجراً، وَضَعْ عَنّي بها وِزراً، واجْعَلْها لي عندَكَ ذُخراً، وتقبلْها مِنّي كما تَقَبّلتَها من عبدك داودَ. قال ابن عباس: فقرأ النبيُّ ﷺ سجدةً ثم سَجد، فَسَمِعتُهُ وهُو يقولُ مثلَ ما أخبره الرجلُ عن قَوْلِ الشَّجرَةِ[١]. رَوَاه الترمذيُّ، وابنُ ماجَه، وابنُ حِبّانَ في صَحيحِهِ. وقولُه: ﴿وَالدَّوَابُّ﴾ أي: الحيوانات كلها.

[٤٦٦٧]وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمَدُ: أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ نَهَى عن اتّخاذ ظُهُورِ الدوابّ مَنَابِرَ، فَرُبَّ مركوبةٍ خيرٌ وأكثرُ ذِكراً للهِ من رَاكِبِها[٢]. وقولُه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾، أي: يسجُد لله طوعاً مختاراً مُتعبِّداً بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾، أي: ممن امتنع وأبى واستكبَرَ، ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن شيبان الرملي، حدثنا القَدّاحُ، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي قال: قيل لعلي: إنّ هاهنا رجلاً يتكلّم في المشيئة. فقال له علي: يا عبد الله، خَلَقك الله كما يشاء أو كما شِئتَ؟ قال: بل كما شاءَ. قال: فَيُمْرِضُك إذا شاءَ أو إذا شِئتَ؟ قال: بل إذا شاء. قال: فَيَشْفِيكَ إذا شاءَ أو إذا شِئتَ؟ قال: بل إذا شاء. قال: فَيُدخلك حيث شِئتَ أو حيث يَشَاء؟ قال: بل حيثُ يَشَاء. قال: والله لو قلتَ غير ذلك لضربتُ الذي فيه عيناك بالسيف.

[٤٦٦٨]وعن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا قرأ ابن آدمَ السجدةَ اعتزلَ الشيطانُ يَبْكِي، يقولُ: يا وَيْلَه! أُمِرَ ابنُ آدَمَ بالسجود فَسَجد، فله الجَنّة. وأُمِرتُ بالسُّجُودِ فأبيتُ، فَلِي النار»[٣] رواه مسلم.

[٤٦٦٩]وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم وأبو عبد الرحمن المُقرىء قالا: حدثنا ابنُ لَهِيعَةَ، حدثنا مِشْرَحُ بن هَاعَانَ أبو مُصعَبٍ المَعَافِرِيُّ قال: سمِعتُ عقبةَ بنَ عامر يقولُ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَفَضلت سورةُ الحجِّ على سائرِ القُرآنِ بِسَجدَتَينِ؟ قال: نَعَم، فمن لم يَسْجُدهما فلا يَقرأْهما[٤]. ورواه أبو داود والتِّرمِذيُّ، من حديث عبد الله بن لَهِيعَةَ، به، وقال التِّرمِذيُّ: «ليس هو بِقَوِيٍّ». وفي هذا نظر، فإنّ ابنَ لهيعة قد صَرّح فيه بالسَّمَاعِ، وأكثرُ ما نَقَمُوا عليه تَدْليسُه.

---

(١) أخرجه الترمذي ٥٧٩ و٣٤٢٤ وابن ماجه ١٠٥٣ وابن حبان ٢٧٦٨ وابن خزيمة ٥٦٢ والحاكم ١/ ٢١٩ و٢٢٠ والعقيلي ١/ ٢٤٣ والمزي في «تهذيب الكمال» ٦/ ٣١٤ كلهم من حديث ابن عباس. صححه الحاكم، وقال: رواته مكيون لم يذكر واحد منهم بجرح، وهو من شرط الصحيح! ووافقه الذهبي! وقال الترمذي: غريب، وهذا منه توهين للحديث. ومدار الحديث على الحسن بن محمد بن عبيد الله، قال العقيلي: لا يتابع على حديثه، وقال الذهبي: فيه جهالة، وقال في المغني: غير معروف، وقال في الكاشف: غير حجة.

تنبيه: وقد سقط «حسن بن محمد» من صحيح ابن خزيمة، لهذا صححه محققه جرياً على ظاهره! ووافقه الألباني! راجع كلام الشيخ شعيب في «الإحسان».

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤٤٠ من حديث معاذ بن أنس وإسناده ضعيف جداً، فيه ابن لهيعة عن زبان بن فائد عن سهل بن معاذ، ثلاثتهم ضعفاء. وله شاهد عن وابصة أخرجه الطبراني ٢٢/ ١٤٤ وفيه مبشر بن عبيد ضعيف متروك.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٨١ وابن ماجه ١٠٥٢ وأحمد ٢/ ٤٤٣ وابن حبان ٢٧٥٩.

(٤) أخرجه أبو داود ١٤٠٢ والترمذي ٥٧٨ وأحمد ٤/ ١٥١ والحاكم ١/ ٢٢١ والدارقطني ١/ ٤٠٨ وفيه مشرح مقبول، وصدر الحديث حسن يتأيد بما بعده. ولفظ «فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما» تفرد به ابن لهيعة، وهو واه، وانظر القرطبي ٣١٧٠ و٣١٦٩.

[٤٦٧٠] وقد قال أبو داودَ في المراسيل: حدثنا أحمد بن عمرو بن السَّرح، أنبأنا ابنُ وهب، أخبرني معاوية بن صالح، عن عامر بن جُشَيْبٍ، عن خالد بن مَعْدَانَ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «فَضلتْ سورةُ الحجِّ على القرآنِ بِسَجْدَتَينِ»[١]. ثم قال أبو داود: وقد أُسنِدَ هذا ـ يعني من غير هذا الوجه ـ ولا يصحُّ.

وقال الحافظُ أبو بكر الإسماعيليُّ: حدثنا ابنُ أبي داودَ، حدثنا يزيدُ بنُ عبدِ الله، حدثنا الوليدُ، حدثنا أبو عمرو، حدثنا حَفْصُ بن غياثٍ، حدثني نافع، حدثني أبو الجَهْم أن عُمَر سجد سجدتين في الحج، وهو بالجابية، وقال: إن هذه فضلت بِسَجْدَتَينِ.

[٤٦٧١] ورَوى أبو داودَ وابنُ ماجه: من حديث الحارث بن سَعيد العُتَقِيِّ، عن عبد الله بن مُنَينٍ، عن عمرو بن العاص: أنَّ رسولَ الله ﷺ أقرأه خَمسَ عشرَةَ سجدةً في القرآن، منها ثلاثٌ في المُفَصَّل، وفي سورة الحج سجدتان[٢]. فهذه شَوَاهدُ يَشُدُّ بعضُها بعضاً.

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾

[٤٦٧٢] ثَبت في الصَّحيحَين، من حديث أبي مِجْلِز، عن قيس بن عُبَادٍ، عن أبي ذَرٍّ: أنه كان يُقسم قَسَماً أنَّ هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾، نَزَلتْ في حَمزَةَ وصَاحِبَيه، وعتبة وصاحبيه يوم بَرَزوا في بَدْرٍ[٣]. لفظُ البخاريِّ عن تفسيرها.

[٤٦٧٣] ثم قال البخاري: حدثنا حَجّاجُ بن مِنْهَالٍ، حَدَّثنا المعتَمِرُ بن سُليمانَ، سَمِعتُ أبي، حدثنا أبو مِجلِزٍ، عن قَيْسِ بن عُبَادٍ، عن عَلِي بن أبي طالب أنه قال: أنا أوَّلُ من يجثُو بين يدَي الرَّحمن للخُصُومَةِ يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نَزلَت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾، قال: هم الذين بَارَزُوا يوم بَدْرٍ: عَلِيٌّ وحمزَةُ وعُبَيدَةُ، وشَيبةُ بن رَبِيعَةَ وعُتبَةُ بن رَبِيعَةَ والوليدُ بن عُتبَةَ[٤]. انفرد به البخاري.

وقال سَعِيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة في قوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾، قال: اختصَم المسلمون وأهلُ الكتاب، فقال أهلُ الكتاب: نَبيُّنا قبل نَبيِّكم، وكتابُنا قبل كِتَابكم، فنحنُ أولى بالله منكم. وقال المسلمون: كتابُنا يَقْضِي على الكُتُب كُلِّها، ونَبيُّنا خاتَمُ الأنبياءِ، فنحنُ أولى بالله منكم. فأفلجَ الله الإسلامَ على من ناوَأَه، وأنزل: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾. وكذا روى العَوفي، عن ابن عباس. وقال شعبةُ، عن قتادةُ في قوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾، قال: مُصدِّقٌ ومُكَذِّبٌ. وقال ابنُ أبي نَجِيح، عن مجاهد في هذه الآية: مثلُ الكافر والمؤمن اختَصَما في البعث. وقال ـ في رواية هو وعطاء في هذه

---

(١) هذا مرسل، أخرجه أبو داود في «المراسيل» ص ١٣ وهو يشهد لما قبله، ويتأيد بما بعده سواء الموقوف، أو المرفوع. وذلك لاختلاف مخارجه. والله أعلم.

(٢) أخرجه أبو داود ١٤٠١ وابن ماجه ١٠٥٧ والحاكم ١/ ٢٢٣ والدارقطني ١/ ٤٠٨ وقال الحافظ ابن حجر في «تلخيص الحبير» ٢/ ٦: حسنه المنذري، والنووي، وضعفه عبد الحق، وابن القطان، وابن منين مجهول، والراوي عنه لا يعرف أيضاً اهـ. لكن يتأيد بما قبله، والله أعلم.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢٧٤٣ ومسلم ٣٠٣٣ والنسائي في «التفسير» ٣٦١ وابن ماجه ٢٨٣٥.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤٤ والنسائي في «التفسير» ٣٦٢.

الآية ـ: هم المؤمنون والكافرون. وقال عكرمة: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾، قال: هي الجنة والنار، قالت النار: جَعَلَني للعُقُوبَةِ. وقالت الجنة: جَعَلَني للرَّحمَةِ. وقولُ مجاهدٍ وعطاءٍ: إنَّ المرادَ بهذا الكافرون والمؤمنون، يشمَلُ الأقوال كُلَّها، وينتظم فيه قِصَّة يوم بَدْرٍ وغيرها؛ فإن المؤمنين يُريدون نُصْرَة دين الله، والكافرون يريدون إطفاءَ نور الإيمان وخِذْلانَ الحقِّ وظُهُورَ الباطل. وهذا اختيار ابن جرير. وهو حَسَن. ولهذا قال: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾، أي: فُصِّلت لهم مُقطَّعات من نارٍ. قال سعيد بن جبير: من نُحاس وهو أشدُّ الأشياءِ حَرارَةً إذا حمي. ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾، أي: إذا صُبَّ على رُؤوسهم الحميمُ وهو الماء الحارُّ في غاية الحرارة. وقال سعيدٌ: هو النُّحاسُ المُذابُ، أذابَ ما في بُطُونهم من الشَّحمِ والأمعاء. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وسعيدُ بن جُبَير، وغيرهم. وكذلك تَذُوب جُلُودهم، وقال ابن عباس وسعيد: تَسَاقَطُ.

[٤٦٧٤] وقال ابنُ جرير: حدثني محمد بن المُثنَّى، حدثنا إبراهيمُ أبو إسحاق الطالَقانيُّ، حدثنا ابنُ المبارك، عن سعيد بن زَيدٍ، عن أبي السَّمِحِ، عن ابن حُجَيرة، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ قال: «إنَّ الحَمِيمَ لَيُصَبُّ على رُؤوسهم، فَيَنفذُ الجُمجُمَةَ حتى يخلُصَ إلى جَوْفِهِ، فَيَسْلُتُ ما في جَوْفِه، حتى يبلُغَ قَدَميه، وهو الصَّهر ثم يُعَادُ كما كان»[١]. ورواه التِّرمِذيُّ من حديث ابن المُبَارك، وقال: «حَسَن صحيح». وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه عن أبي نُعَيم، عن ابن المبارك، به. ثم قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا أحمَدُ بن أبي الحَوَارِيّ، سَمِعت عبد الله بن السَّرِيِّ قال: يأتيه المَلَك يحمِلُ الإناء بكَلْبَتَين من حَرَارته، فإذا أدناه من وجهه تَكَرَّهه، قال: فيرفع مِقْمَعَةً معه فيضرب بها رأسه، فَيُفرِغُ دِمَاغه، ثم يُفرِغ الإناء من دماغه، فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾.

[٤٦٧٥] وقولُه: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾. قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسنُ بنُ موسى، حدثنا ابنُ لَهِيعَةَ، حدثنا دَرَّاج، عن أبي الهيثَم، عن أبي سَعيدٍ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لو أن مِقْمَعاً من حَدِيد وُضِع فِي الأرض، فاجتمع له الثقلانَ ما أَقَلُّوه من الأرض»[٢].

[٤٦٧٦] وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا موسى بن دَاودَ، حدثنا ابنُ لَهِيعَةَ، حدثنا دَرَّاجٌ، عن أبي الهيثَم، عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لو ضُربَ الجَبَلُ بمقمَعٍ من حَدِيدٍ لَتفتَّتَ ثم عاد كما كان. ولو أن دَلْواً من غُسَّاقٍ يُهرَاقُ في الدُّنيا لأنتَنَ أهلَ الدنيا»[٣]. وقال ابنُ عبَّاس في قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾، قال: يُضرَبُون بها، فيَقعُ كُلُّ عضوٍ على حِيَالِه، فَيَدعُون بالثبورِ.

وقولُه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾، قال الأعمش، عن أبي ظبيان، عن

---

(١) ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٥٨٢ والطبري ٢٤٩٩٣ والبيهقي في «البعث والنشوز» ٥٧٩ وقال الترمذي: حسن صحيح غريب. والصواب أنه ضعيف لضعف سعيد بن زيد مداره عليه، والراجح وقفه.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٣/ ٢٩ وأبو يعلى ١٣٨٨ والحاكم ٤/ ٦٠٠ ح ٨٧٧٣ كلهم من حديث أبي سعيد، وإسناد أحمد ضعيف، له علتان ابن لهيعة، ودرّاج، وقد توبع ابن لهيعة في المستدرك، وعلته فقط درّاج، وهو ضعيف في روايته عن أبي الهيثم، وهذا منها. ومع ذلك صححه الحاكم! وسكت الذهبي! لكن تكلم الذهبي على دراج في مواضع من المستدرك بقوله: ذو مناكير.

(٣) إسناده ضعيف. أخرجه أبو يعلى ١٣٧٧ وأحمد ٣/ ٨٣ وفيه دراج وابن لهيعة، وانظر ما قبله. لكن يتساهل في أحاديث الترهيب كما نص عليه العلماء.

سلمان قال: النار سوداءُ مظلِمةٌ، لا يُضيءُ لَهَبُها ولا جَمْرُها، ثم قرأ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ . وقال زيدُ بن أسلَم في هذه الآية: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ ، قال: بَلَغني أنَّ أهلَ النار في النار لا يَتنفَّسون. وقال الفُضيل بن عياضٍ: والله ما طَمِعُوا في الخروج، إنَّ الأرجُلَ لَمُقيَّدَةٌ، وإنَّ الأيدِي لَمُوثَقَةٌ، ولكن يَرفَعُهم لَهَبُهَا، وتَرُدُّهم مَقامِعُها. وقولُه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ ، كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]، ومعنى الكلام أنهم يُهانُون بالعَذابِ قَوْلاً وفعلاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

لما أخبر تعالى عن حَالِ أهل النار ـ عياذاً بالله من حالهم ـ وما هُم فيه من العذاب والنَّكال والحريق والأغلالِ، وما أُعِدَّ لهم من الثياب من النار، ذكر حالَ أهلِ الجنة ـ نسألُ الله من فَضلِهِ وكَرَمِهِ أن يُدخِلنا الجنَّةَ ـ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ، أي: تتخرَّقَ في أكنافها وأرجائها وجَوَانبها، وتحت أشجارها وقُصورها، يَصْرِفُونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا﴾ ، من الحلية، ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗا﴾ ، أي: في أيديهم.

[٤٦٧٧] كما قال النبي ـ ﷺ ـ في الحديث المتَّفَق عليه: «تبلغُ الحِلْيةُ من المؤمنِ حيث يبلغُ الوضوءُ»[١] . وقال كعبُ الأحبار: إنَّ في الجنَّةِ مَلَكاً لو شِئتُ أن أُسَمِّيَهُ لَسمَّيتُه، يَصُوغ لأهل الجنَّة الحُليَّ منذ خَلَقه الله إلى يوم القيامةِ، لو أُبرِزَ قُلْبٌ منها ـ أي: سِوَارٌ منها ـ لردَّ شُعاعَ الشمس، كما تَرُدُّ الشمسُ نُورَ القَمَر.

وقولُه تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ ، في مُقابلة ثياب أهلِ النار التي فُصِّلت لهم، لباسُ هؤلاءِ من الحرير، إستَبرقِهِ وسُندسِهِ، كما قال: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢١ ـ ٢٢].

[٤٦٧٨] وفي الصحيح: «لا تلبسوا الحريرَ ولا الدِّيباج في الدُّنيا، فإنَّه من لَبِسَه في الدُّنيا لم يلبسه في الآخرة»[٢] . قال عبد الله بن الزُّبير: ومن لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ . وقولُه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ ، كقوله: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقولِهِ: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤]، وقولِهِ: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥ ـ ٢٦]، فَهُدوا إلى المكان الذي يَسمَعون فيه الكلامَ الطَّيِّبَ، وقولِهِ: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾، لا كما يهان أهلُ النار بالكلام الذي يُرَوَّعون به ويُقَرَّعون

---

(١) تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ٦.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٨٣٤ ومسلم ٢٠٦٩ ج ١١ والنسائي في «الكبرى» ٩٥٨٤ من حديث عبد الله بن الزبير عن عمر بن الخطاب مرفوعاً وليس فيه ذكر الديباج، وإنما ورد ذكره في حديث حذيفة بن اليمان عند البخاري ٥٦٣٣ ومسلم ٢٠٦٧.

به، يقال لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾، أي: إلى المكان الذي يَحمدَون فيه رَبَّهم، على ما أحسنَ إليهم وأنعَمَ به وأسداه إليهم،

[٤٦٧٩] كما جاء في الصَّحيح: «إنهم يُلهَمُون التَّسبيحَ والتَّحميدَ، كما يُلهمون النَّفَسَ»[١]. وقد قال بعضُ المفسرين في قوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، أي: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكارُ المشروعة. ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾، أي: الطَّريق المستقيم في الدنيا. وكلُّ هذا لا ينافي ما ذكرناه. والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

يقولُ تعالى مُنكِراً على الكُفار في صَدِّهم المؤمنين عن إتيانِ المسجد الحرام، وقَضاء مناسِكِهم فيه، ودَعواهم أنهم أولياؤه ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وفي هذه الآية دليلٌ أنها مَدَنية، كما قال في سورة البَقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي: ومن صِفَتهم مع كُفرهم أنَّهم يَصُدُّون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي: ويَصُدُّون عن المسجد الحرام مَن أراده من المؤمنين الذين هم أحقُّ الناس به في نفس الأمر. وهذا التركيبُ في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]، أي: وَمِن صِفَتِهم أنَّهم تطمئنُّ قلوبُهم بِذِكرِ الله. وقولُه: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أي: يمنعونَ الناس عن الوصُولِ إلى المسجدِ الحَرام، وقد جَعله الله شَرْعاً سواءً، لا فَرْقَ فيه بين المُقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه، ومن ذلك استواء الناس في رِباع مَكَّة وسُكناها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، قال: يَنزلُ أهلُ مكَّةَ وغيرُهم في المسجد الحَرَام. وقال مجاهدٌ: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، أهلُ مكَّة وغيرُهم فيه سواءٌ في المنازل، وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد بن أَسْلَم. وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادَة: سَواءٌ فيه أهلُه وغيرُ أهلِهِ. وهذه المسألةُ اختلَفَ فيها الشافعيُّ وإسحاقُ بن راهَويه بمسجد الخَيْفِ، وأحمدُ بن حنبلٍ حاضرٌ أيضاً، فذهب الشافعي ـ رحمه الله ـ إلى أن رِبَاع مكة تملك وتُورَّث وتُؤَجَر، واحتجّ بحديث الزُّهري، عن علي بن الحُسَين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد قال:

[٤٦٨٠] قلت: يا رسولَ الله، أتنزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: وهل ترك لنا عَقِيلٌ من رِبَاع؟. ثم قال: «لا يَرِثُ الكافِرُ المسلِمَ، ولا المُسْلِمُ الكافِرَ»[٢]. وهذا الحديثُ مُخَرَّجٌ في الصَّحيحَين. وبما ثَبَتَ أن عمر بن الخَطاب اشترى من صفوان بنِ أمية داراً بمكة، فَجَعلَها سِجْناً بأربعة آلاف درهم. وبه قال طاووس، وعَمرو بن دينار. وذهب إسحاقُ بن راهَويه إلى أنها لا تورث ولا تُؤَجَر. وهو مذهبُ طائفةٍ من السلف، ونصَّ عليه مجاهد وعطاء.

---

(١) تقدم في تفسير سورة يونس عند آية: ١٠.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٢٨٢ و٤٢٨٣ ومسلم ١٣٥١ وأبو داود ٢٩١٠ وابن ماجه ٢٧٣٠ وأحمد ٥/ ٢٠١ وابن حبان ٥١٤٩ والبيهقي ٦/ ٣٤ واللفظ للبخاري.

[٤٦٨١] واحتجَّ إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبَةَ؛ عن عيسى بن يونسَ، عن عُمَر بن سعيد بن أبي حُسَين، عن عثمان بن أبي سليمان، عن علقمة بن نَضْلة قال: تُوُفِّي رسول الله ـ ﷺ ـ وأبو بكر وعمر، وما تدعى رِباعُ مَكَّة إلا السوائبَ، من احتاج سَكَن، ومن استغنى أسكَنَ[١].

وقال عبد الرزاق، عن ابن مجاهد، عن أبيه، عن عبد الله بن عَمْرو أنه قال: لا يحلّ بيعُ دُورِ مَكَّة ولا كراؤها. وقال أيضاً عن ابنُ جُريج: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحَرَم، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تُبوّب دور مكة، لأن يَنْزل الحاجّ في عَرَصاتها، فكان أولُ من بَوّب داره سُهَيل بن عمرو، فأرسلَ إليه عُمَر بنُ الخطاب في ذلك، فقال: أنظِرْني يا أمير المؤمنين، إني كنت امرأً تاجِراً، فأردت أن أتّخذَ بابين يحبسان لي ظهري قال: فذلك إذاً. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن منصور، عن مجاهد: أن عُمَر بن الخطاب قال: يا أهلَ مَكَّةَ، لا تَتَّخِذُوا لِدُوركم أبواباً لِينزلَ البادي حيث شاءَ. قال: وأخبرنا معمرٌ، عمن سَمع عطاءً يقول: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾، قال: ينزلون حيث شاؤوا. ورَوَى الدارقطني من حديث ابن أبي نجيح، عن عبد الله بن عَمْرو موقوفاً: من أكل كراء بيوت مَكَّة أكَلَ ناراً. وتَوسَّط الإمامُ أحمدُ فقال: تُملَّك وتُوَرَّث ولا تُؤَجَّر، جمعاً بين الأدلة. والله أعلم. وقولُه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، قال بعضُ المفسِّرين من أهلِ العَرَبيَّةِ: الباءُ هاهنا زائدةٌ، كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، أي: تُنبِتُ الدُّهنَ، وكذا قولُه، ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ﴾، تقديره إلحاداً، وكما قال الأعشى:

ضَـمِـنَـتْ بِـرزْقِ عِـيَـالِـنَـا أرْمـاحُـنَـا ... بَـيْـنَ الـمَـرَاجِـلِ والـصَّـرِيـحَ الأجْـرَدَا

وقال الآخر:

بِـوَادٍ يَـمَـانٍ يُـنْـبِـت الـشَّـثَّ صَـدْرُهُ ... وأَسْـفَـلُـهُ بِـالـمَـرْخِ وَالـشَّـبَـهَـانِ[٢]

والأجودُ أنه ضَمَّن الفعلَ هاهنا معنى «يَهُمُّ»، ولهذا عَدَّاه بالباءِ، فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ﴾، أي: يَهُمُّ فيه بأمرٍ فَظيع من المَعَاصِي الكِبَار. وقولُه: ﴿بِظُلْمٍ﴾، أي: عامداً قاصداً أنه ظَلْم ليس بمُتَأوِّلٍ، كما قال ابن جُرَيج، عن ابن عباس: هو التعمّدُ. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿بِظُلْمٍ﴾: بِشِرْكٍ. وقال مجاهد: أن يُعبَدَ فيه غيرُ الله. وكذا قال قتادةُ، وغيرُ واحدٍ. وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿بِظُلْمٍ﴾ هو أن تَستَحِلَّ من الحرام ما حَرَّم الله عليكَ من لسانٍ، أو قَتْلٍ، فَتَظْلِمَ مَن لا يظلِمُك، وتَقتُلَ مَن لا يقتُلُكَ، فإذا فَعَل ذلك فَقَد وَجَب له العذابُ الأليمُ. وقال مجاهدٌ: ﴿بِظُلْمٍ﴾، يعمَلُ فيه عملاً سَيِّئاً. وهذا من خُصُوصية الحرم أنه يعاقَبُ النَّاوِي فيه الشرَّ، إذا كانَ عازِماً عليه، وإن لم يُوقِعْه، كما قال ابن أبي حاتم في تفسيره:

[٤٦٨٢] حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شعبة، عن السّدّيّ: أنه سمع مُرّة يحدِّث عن عبد الله ـ يعني ابنَ مسعودٍ ـ في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾، قال: لو أَنَّ رَجُلاً أرادَ فيه بإلحادٍ بظُلم، وهو بِعَدَنِ أَبْيَنَ، لأذاقه الله من العَذاب الأَليم. قال شعبةُ: هو رَفَعه لنا، وأنا لا أرفَعهُ لكم. قال يزيد: هو قَد رَفَعه[٣]. ورواه أحمد، عن يزيدَ بنِ هارُونَ، به. قلت: هذا الإسنادُ صَحيحٌ على شَرْطِ البخاريِّ، ، وَوَقْفه أَشبهُ من رَفْعِه، ولهذا صَمَّم شعبةُ على وَقْفه من كلام ابنِ مسعودٍ. وكذلك رواه أسباطٌ، وسفيانُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٣١٠٧، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح عن شرط مسلم.

(٢) الشث: شجر طيب الريح، مُرّ الطعم يُدبغ به. والمرخ: شجر من العضاه، ليس له ورق ولا شوك، سريع الاشتعال يقتدح به. والشبهان: من الرياحين، وهو الثمام.

(٣) أخرجه أحمد ٤٠٧١ وأبو يعلى ٥٣٨٤ والبزار ٢٢٣٦، والوهم في رفعه من قبل السدي، فإنه تكلم فيه غير واحد، بل ضعفه بعضهم. والله أعلم.

الثَّوريّ، عن السدِّي، عن مُرَّةَ، عن ابن مَسعُودٍ موقوفاً. والله أعلم. وقال الثوريُّ، عن السُّدِّيّ، عن مُرَّةَ، عن عبد الله قال: ما من رَجُل يهمّ بسيِّئةٍ فَتُكْتَب عليه، ولو أنّ رجلاً بعَدَنِ أبينَ هَمَّ أن يقتُلَ رَجُلاً بهذا البيتِ لأذاقه الله من العَذاب الأليم. وكذا قال الضَّحاك بن مُزَاحم. وقال سفيان الثوريُّ، عن منصور، عن مجاهد: إلحادٌ فيه: لا والله، وبَلَى والله. ورُوِي عن مجاهد، عن عبد الله بن عَمْرو، مثله. وقال سعيد بن جُبَير: شَتمُ الخادِمِ ظُلمٌ فما فَوْقَه. وقال سفيان الثَّوريُّ، عن عبد الله بن عطاء، عن ميمون بن مهران، عن ابن عَبَّاس في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، قال: تِجَارةُ الأمير فيه. وعن ابن عُمر: بيعُ الطعام بمكَّةَ إلحادٌ. وقال حَبِيبُ بن أبي ثابت: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، قال: المحتكِرُ بمكّةَ. وهكذا قال غيرُ واحد.

[٤٦٨٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدُ الله بن إسحاقَ الجوهريُّ، أنبأنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى، عن عَمِّه عمارةَ بن ثوبان، حدثني موسى بن باذان، عن يعلى بن أمية: أَنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «احتكارُ الطعامِ بِمكَّةَ إلحادٌ»[١].

[٤٦٨٤] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَير، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، حَدَّثني عَطَاء بن دينار، حدثني سعيد بن جُبَير قال: قال ابنُ عباس في قول الله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، قال: نَزلَت في عبد الله بن أُنَيس أن رسول الله ـ ﷺ ـ بَعَثه مع رجلين، أحدهما مُهاجِرٌ والآخر من الأنصار، فافتَخَرُوا في الأنساب، فَغَضِبَ عبد الله بن أُنَيسٍ، فقتل الأنصاريَّ ثم ارتدَّ عن الإسلام، وهَرَب إلى مَكَّةَ، فنزلت فيه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، يعني من لَجَأ إلى الحَرَم بإلحادٍ يعني بميلٍ عن الإسلام[٢]. وهذه الآثار، وإن دلّت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكنْ هُو أعم من ذلك، بل فيها تنبيهٌ على ما هو أغلظُ منها، ولهذا لما هَمّ أصحابُ الفيل على تَخريب البيتِ أرسلَ الله عليهم طيراً أبابيلَ ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝﴾ [الفيل: ٤ ـ ٥]، أي: دمَّرهم وجَعَلهم عبرةً ونَكالاً لكلِّ من أراده بسوء.

[٤٦٨٥] ولذلك ثَبَت في الحديثِ أَنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يَغزُو هذا البيتَ جيشٌ، حتى إذا كانوا ببيداءَ من الأرضِ خُسفَ بأوّلهم وآخرهم»[٣]... الحديث.

[٤٦٨٦] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن كُنَاسة، حدثنا إسحاقُ بن سَعِيدٍ، عن أبيه قال: أتى عبدُ الله بن عمر[٤] عبد الله بن الزبير، فقال: يا بن الزُّبير، إياكَ والإلحادَ في حَرَم الله، فإني سَمِعتُ رَسُول الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «إنه سيُلحِدُ فيه رجلٌ من قُرَيش، لو تُوزَن ذنوبُه بذنوب الثَّقلَين لرجَحَت»[٥]، فانظر لا تكونُهُ.

---

(١) إسناده ضعيف. أخرجه أبو داود ٢٠٢٠، وله علتان: موسى بن باذام قال في «التقريب»: مجهول. وقال الذهبي في «الميزان» لا يعرف، والعلة الثانية عمارة بن ثوبان، قال في التقريب: مستور.

(٢) إسناده ضعيف، فيه ابن لهيعة، ضعفه الجمهور، وعطاء بن دينار هو الهذلي، قال أحمد بن صالح: تفسيره فيما يروى عن سعيد بن جبير صحيفة، ليس فيها ما يدل على أنه سمع منه، وهذا اختاره أيضاً أبو حاتم الرازي، راجع الميزان ٥٦٣٨.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢١١٨ وابن حبان ٦٧٥٥.

(٤) كذا وقع في المسند والمجمع، وقد رجح العلامة أحمد شاكر، كون الحديث من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص، لا من رواية ابن عمر. راجع كلامه ٦٢٢٠.

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ١٣٦ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٣/ ٢٨٥ وقال: ورجاله ثقات.

[٤٦٨٧] وقال أيضاً في مسند عبد الله بن عَمرو بن العَاص: حدثنا هاشم، حدثنا إسحاقُ بنُ سَعيد، حدثنا سعيد بن عَمرو قال: أتى عبدُ الله بن عمرو ابنَ الزُّبير: وهو جالس في الحِجْر فقال: يا بن الزُّبير، إياكَ والإلحادَ في الحَرَم، فإني أشهَدُ لَسمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: يُحلُّها ويُحلُّ به رَجُلٌ من قريش، لو وُزِنَتْ ذنوبُه بذنوب الثقلَين لَوَزَنَتْهَا. قال: فانظر لا تكون هو[١]. لم يُخرّجه أحدٌ من أصحاب الكُتُب من هذين الوَجْهين.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

هذا فيه تَقْرِيعٌ وتَوبيخٌ لمن عَبَد غير الله، وأشركَ به من قُرَيش، في البقعة التي أُسِّسَتْ من أوَّل يوم على توحيدِ اللهِ وعبادَتِه وحدَه لا شريكَ له، فذكر تعالى أنه بَوَّأَ إبراهيمَ مكانَ البيت، أي: أرشده إليه، وسَلَّمَهُ له، وأذِن له في بنائه. واستدلَّ به كثيرٌ ممن قال: «إنَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو أوَّل من بنى البيتَ العتيقَ، وأنه لم يُبنَ قبله». كما ثبت في الصَّحيح عن أبي ذَرّ:

[٤٦٨٨] قلتُ يا رسولَ الله، أيُّ مسجدٍ وُضِعَ أوَّلُ؟ قال: المسجدُ الحَرَام. قلت: ثم أيُّ؟ قال: بيتُ المقدِس. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعونَ سنةً[٢]. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧]... الآية، وقال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد قَدَّمنا ذكر ما وَرَد في بناءِ البيتِ من الصِّحاح والآثارِ، بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقال تعالى هاهنا: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾، أي: ابْنِهِ على اسمِي وَحدِي، ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ قال مجاهدٌ وقتادةُ: من الشرك، ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، أي: اجعله خالصاً لهؤلاءِ الذين يَعبدُون الله وحدَه لا شريكَ له، فالطائفُ به معروفٌ، وهو أخصُّ العباداتِ عند البيت، فإنه لا يُفعَل ببقعة من الأرض سواها، والقائمين، أي: في الصلاة، ولهذا قال: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، فقَرَن الطَّواف بالصلاة، لأنهما لا يُشرَعَان إلا مُختَصَّين بالبيت، فالطوافُ عنده، والصلاةُ إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباهِ القبلة وفي الحربِ، وفي النافلةِ في السَّفَرِ، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾، أي: نادِ في الناس داعياً لهم إلى الحجِّ إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فَذُكر أنه قال: يا ربِّ، وكيفَ أبلِّغُ الناسَ وصَوتي لا ينفُذُهم؟ فقيلَ: نادِ وعلينا البلاغُ. فقام على مَقَامه، وقيل: على الحِجرِ، وقيل: على الصَّفا، وقيل: على أبي قُبَيس، وقال: يا أيها الناس، إنَّ ربكم قد اتخذ بيتاً فَحُجُّوه. فيقال: إن الجِبَال تواضَعت حتى بلغ الصوتُ أرجاءَ الأرض، وأسمَعَ مَن في الأرحام والأصلاب، وأجابه كُلُّ شيءٍ سَمِعه من حَجَر أو مَدَرٍ أو شجر، ومَن كَتَب الله أنه يحجُّ إلى يوم القيامة:

(١) إسناده على شرطهما، أخرجه أحمد ٢/١٩٦ و٢١٩ ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في «المجمع» ٣/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥. وكون الحجاج هو المراد بالحديث أقرب من كونه ابن الزبير، فالحجاج لم يقتصر على رمي الكعبة بالمنجنيق، بل قتل عشرات الآلاف من المسلمين، فجزاه الله بما كسبت يداه.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٣٢.

«لبيك اللهمّ لبيكَ». هذا مضمون ما رُوِي عن ابن عباس، ومجاهدٍ، وعكرمَةَ، وسَعِيد بن جُبَير، وغيرُ واحد من السَّلَف، والله أعلم. أورَدَها ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم مُطَوّلَةً. وقولُه: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، قد يَستدِلّ بهذه الآية من ذَهَب من العلماء إلى أن الحجَّ ماشياً لمن قَدَر عليه أفضلُ من الحجِّ راكباً، لأنه قدّمهم في الذكر، فَدَلَّ على الاهتمام بهم وقُوّة هِمَمِهم وشدَّة عَزْمِهم. وقال وكيعٌ، عن أبي العُمَيس، عن أبي حلحلة، عن محمد بن كعبٍ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما آسى على شيء إلاّ أني وَدِدْتُ أني كنت حججتُ ماشياً، إن الله يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾. والذي عليه الأكثرون أنّ الحجَّ راكباً أفضلُ؛ اقتداءً برسولِ الله ـ ﷺ ـ فإنه حجّ راكباً مع كمال قُوّتِهِ عليه السلام. وقولُ: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ﴾، يعني طريق، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١]. وقولُه: ﴿عَمِيقٍ﴾، أي: بعيد. قاله مجاهدُ، وعطاءُ، والسُدّيُّ، وقتادةُ، ومقاتلُ بن حَيّانَ، والثوريُّ، وغير واحد. وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم، حيث قال في دعائه: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فليس أحدٌ من أهل الإِسلام إلا وهو يَحنُّ إلى رؤية الكعبةِ والطواف، والناسُ يقصِدُونها من سائر الجهاتِ والأقطارِ.

﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

قال ابنُ عباس: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾، قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوانُ الله، وأما منافع الدنيا فما يُصِيبونَ من منافع البُدْن والربح والتجارات. وكذا قال مجاهدٌ، وغير واحد: إنها منافعُ الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]. وقولُه: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، قال شعبةُ وهُشَيم، عن أبي بشر، عن سعيد، عن ابن عباس: الأيام المعلومات أيام العشر. وعَلّقه البخاري عنه، بصيغة الجَزْم به، ويُروَى مثلُه عن أبي موسى الأشعريِّ، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، والحسنِ، وقتادَة، والضحّاكِ، وعطاء الخُراسانِيِّ، وإبراهيمَ النخَعِيِّ. وهو مذهبُ الشافعيِّ، والمشهورُ عن أحمدَ بن حَنْبَلٍ.

[٤٦٨٩] وقال البخاري: حدثنا محمد بن عَرْعَرَة، حدثنا شُعبَةُ، عن سُلَيمان، عن مُسلم البَطِين، عن سَعِيد بن جُبير، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما العملُ في أيّام أفضلَ منها في هذه. قالوا: ولا الجهادُ في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلٌ يخرُج يُخاطِر بنفسه ومالِهِ فلم يَرْجِع بشيءٍ»(١). ورواه الإِمامُ أحمد، وأبو داود، والترمذيُّ، وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حَسَنٌ غريبٌ صَحيح. وفي الباب عن ابن عُمَر، وأبي هُرَيرَةَ، وعبد الله بن عَمْرو، وجابر. قلت: وقد تَقَصَّيتُ هذه الطرق، وأفردتُ لها جُزءاً على حِدَتِه.

[٤٦٩٠] فمن ذلك ما قال الإِمامُ أحمدُ: حدثنا عَفّان، أنبأنا أبو عوانة، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهدٍ، عن ابن عُمَر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما من أيام أعظَمُ عند الله ولا أحبُّ إليه العملُ فيهنَّ، من هذه الأيام العشر؛ فأكثروا فيهنَّ من التهليل والتكبير والتحميد»(٢). ورُوِي من وجه آخَرَ، عن مجاهدٍ، عن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٩٦٩ والترمذي ٧٥٧ وأبو داود ٢٤٣٨ وابن ماجه ١٧٢٧ وأحمد ١/ ٢٢٤.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٧٥ و١٣١ والبيهقي في «الشعب» ٣٧٥٠ وإسناده غير قوي لأجل يزيد، لكن للحديث شواهد يحسن بها.

ابن عُمَرٍ، بنحوه. وقال البخاريُّ: وكان ابنُ عُمَر، وأبو هُرَيرة يخرجان إلى السُّوق في أيام العشر، فيُكبِّران ويُكَبِّر الناس بتكبيرهما.

[٤٦٩١] وقد رَوَى أحمدُ عن جابر مرفوعاً: «أن هذا هو العَشْر الذي أقسَمَ الله به في قوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝﴾»[١]. وقال بعضُ السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

[٤٦٩٢] وفي سُنَن أبي داودَ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يَصُوم هذا العَشْر[٢]. وهذا العشر مشتمل على يوم عَرَفة.

[٤٦٩٣] والذي ثَبَت في صحيح مسلم عن أبي قَتَادة ـ رضي الله عنه ـ قال: سئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن صيام يوم عرفة، فقال: أحتسِبُ على الله أن يُكَفِّر السنة الماضية والآتية»[٣]. ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحجِّ الأكبر، وقد وَرَد في حديثٍ أنه أفضلُ الأيامِ عند الله. وبالجملة فهذا العشرُ قد قيل: إنه أفضلُ أيامِ السَّنة، كما نَطَقَ به الحديث، ففضله كثيرٌ على عشرِ رمضانَ الأخير، لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فَرْضِ الحَجِّ فيه. وقيل: ذاك أفضلُ لاشتماله على ليلة القدرِ، التي هي خيرٌ من ألف شهر. وَتَوسَّط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضلُ، وليالي ذاك أفضلُ. وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثان في الأيام المعلومات؛ قال الحكم، عن مُقْسَم، عن ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده، ويُرْوَى هذا عن ابن عُمَر، وإبراهيم النخعيِّ، وإليه ذهب أحمدُ بن حَنبلٍ في رواية عنه.

قول ثالث، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن المَدِيني، حدثنا يحيى بن سَعِيد، حدثنا ابن عَجلان، حدثني نافع: أن ابنَ عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ كان يقول: الأيامُ المعلوماتُ والمعدوداتُ هُنَّ جَميعُهنَّ أربعةُ أيام، فالأيامُ المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيامُ المعدوداتُ ثلاثةُ أيام بعد يوم النَّحر. هذا إسنادٌ صحيحٌ إليه وقاله السُّدِّيُّ. وهو مذهبُ الإمام مالك بن أنس، ويُعضِّد هذا القولَ والذي قبله قولُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، يعني به ذِكر الله عند ذبحها.

قولٌ رابعٌ: إنها يومُ عرفةَ، ويوم النَّحر، ويومٌ آخرُ بعده. وهو مذهبُ أبي حنيفة. وقال ابنُ وهب: حدثني ابنُ زيدِ بن أسلَمَ، عن أبيه أنه قال: المعلوماتُ يومُ عَرَفَةَ، ويوم النَّحر، وأيام التَّشريق.

وقولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، يعني الإبلَ والبقرَ والغَنَم، كما فصَّلها تعالى في سورة الأنعام وأنها ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام: ١٤٣]... الآية وقولُه: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾، استدلَّ بهذه الآية مَن ذَهب إلى وُجوب الأكل من الأضاحي. وهو قولٌ غريب، والذي عليه الأكثرون أنه من باب الرُّخصةِ أو الاستحباب.

[٤٦٩٤] كما ثَبَت أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ لما نَحر هَدْيَه أَمَرَ من كُلِّ بَدَنَة ببَضعةٍ فَتُطبخ، فأكَلَ من لَحمِها، وحَسَا من مَرَقِها[٤]. وقال عبد الله بن وَهب: قال لي مالكٌ: أُحِبُّ أن ياكل من أُضحِيَتِه، لأن الله يقول:

---

(١) يأتي في سورة الفجر، إن شاء الله تعالى.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٤٣٧ وإسناده حسن لكن لفظه «تسع ذي الحجة» بدل «العشر» وانظر صحيح أبي داود ٢١٢٩.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١١٦٢ وأبو داود ٢٤٢٥ والترمذي ٧٥٢ وابن ماجه ١٧٣٠ وابن حبان ٣٦٣٢.

(٤) صحيح. هو بعض حديث جابر في صفة حجة النبي ﷺ أخرجه مسلم ١٢١٨.

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾. قال ابنُ وَهبٍ: وسألتُ الليثَ، فقال لي مثلَ ذلك. وقال سفيانُ الثوريُّ، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾، قال: كان المشركُونَ لا يأكُلونَ من ذَبائحهم، فَرُخِّص للمسلمين، فمن شاء أكَلَ، ومن شاء لم يأكُلْ. ورُوي عن مجاهد، وعطاء، نحو ذلك.

قال هُشَيم، عن حُسَين، عن مجاهد في قوله ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾: هي كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]. وهذا اختيارُ ابن جرير في تفسيره، واستدلَّ مَن نَصَر القولَ بأن الأضاحي يُتَصدَّقُ منها بالنِّصفِ بقوله في هذه الآيةِ ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾، فَجَزَّأها نصفين: نصف للمضحّي، ونصف للفقراء. والقولُ الآخر أنها تُجزَّأُ ثلاثة أجزاءٍ، ثُلُثٌ له، وثُلُثٌ يُهدِيه، وثُلُثٌ يَتَصدَّق به، لقوله في الآية الأخرى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾. وسيأتي الكلامُ عليها عندها، إن شاء الله، وبه الثقةُ. وقولُه: ﴿ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾، قال عكرمة: هو المضطرُّ الذي عليه البؤسُ، والفَقِيرَ: المتعفِّفَ. وقال مجاهدٌ: هو الذي لا يبسُطُ يده. وقال قتادةُ: هو الزَّمِنُ. وقال مقاتل بن حَيَّان: هو الضَّرير. وقولُه: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عَبَّاسٍ: هو وضعُ الإحرامِ، من حَلْقِ الرأسِ ولُبسِ الثِّياب وقَصِّ الأظفار، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاءٌ ومجاهدٌ، عنه. وكذا قال عكرمةُ، ومحمد بن كعب القُرَظِيّ. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾، قال: التَّفثُ: المناسكُ. وقولُه: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني نَحْرَ ما نَذَرَ من أَمْرِ البُدْن. وقال ابنُ أبي نَجِيح، عن مُجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾: نَذْرُ الحج والهَدْيِ. وما نَذَر الإنسانُ من شيء يكون في الحجِّ. وقال إبراهيم بن ميسَرَة، عن مجاهدٍ: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾، قال: الذبائحُ. وقال لَيث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾: كلُّ نَذْر إلى أَجَل. وقال عكرمة: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾، قال: حَجَّهُم.

وكذا رَوَى الإمامُ ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابنُ أبي عُمَر، حدثنا سفيان في قوله: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾، قال: نَذْرُ الحج. وكلّ من دخل بالحج فَعَليه من العمل فيه: الطَّوافُ بالبيتِ وبين الصَّفا والمروة، وعَرَفة، والمزدلفة، وَرمْيُ الجمار، على ما أمِرُوا به. ورُوِيَ عن مالك نحو هذا.

وقولُه تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾، قال مجاهد: يعني الطوافَ الواجبَ يوم النَّحر. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حَمَّاد، عن أبي جَمْرَةَ قال: قال لي ابنُ عَبَّاسٍ: أتقرأ سورةَ الحَجِّ؟ يقولُ الله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾، فإنَّ آخِرَ المناسِكِ الطَّواف بالبيتِ قلتُ: وهكذا صَنَع رسولُ الله ـ ﷺ ـ فإنه لما رَجَع إلى منى يومَ النَّحر بدأ بِرَمي الجَمْرَةِ، فرماها بسبع حصيات، ثم نَحَر هَدْيَه، وحَلَق رَأْسَه، ثم أفاض فَطَاف بالبيت.

[٤٦٩٥] وفي الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «أُمِرَ الناسُ أن يكون آخرَ عهدهم بالبيت الطوافُ، إلا أنه خُفِّفَ عن المرأةِ الحائضِ»[1].

وقولُه تعالى: ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾، فيه مُستَدَلٌّ لمن ذهب إلى أنه يَجِبُ الطواف من وراء الحِجْر، لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيمُ، وإن كانت قريشٌ قد أخرجُوه من البيتِ، حين قَصرت بهم النَّفَقةُ. ولهذا طافَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ من وراء الحِجْر، وأخبر أن الحِجْرَ من البيت، ولم يستلم الرُّكنين الشاميين، لأنهما لم يُتَمَّما على قَوَاعِدِ إبراهيم العتيقة.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١٧٥٥ ومسلم ١٣٢٨ والبيهقي ٥/ ١٦١.

[٤٦٩٦] ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عُمَر العَدَنيُّ، حدثنا سفيانُ، عن هشام بن حُجَيرٍ، عن رَجُلٍ، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، طاف رسولُ الله ـ ﷺ ـ من وَرَائِهِ[١]. وقال قتادةُ، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، قال: لأنه أوَّلُ بيت وُضِع للناس، وكذا قال عبد الرحمن بن زَيدِ بن أسلَمَ. وعن عكرمَة أنه قال: إنما سُمِّي البيتَ العتيقَ، لأنه أُعتِقَ يوم الغَرَق زمانَ نُوح. وقال خُصَيف: إنما سُمِّي البيتَ العتيقَ لأنه لم يظهر عليه جَبَّار قَطُّ. وقال ابنُ أبي نجيح، وليث، عن مجاهد: أُعْتِقَ من الجبابرة أن يُسلَّطوا عليه. وكذا قال قتادة.

وقال حَمَّاد بن سَلَمة، عن حُمَيد، عن الحسن بن مسلم، عن مجاهد: لأنه لم يُردْهُ أحدٌ بِسُوءٍ إلا هَلَك. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن ابن الزُّبَير قال: إنما سُمِّي العتيقَ لأنَّ الله أعتقه من الجبابرة.

[٤٦٩٧] وقال الترمذيُّ: حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد، حدثنا عبدُ الله بن صالح، أخبرني الليث، عن عبد الرحمن بنِ خالد، عن ابن شهاب، عن محمد بن عُروَةَ، عن عبد الله بن الزُّبير قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنما سُمِّي البيت العتيق لأنه لم يظهَر عليه جبَّار»[٢]. وكذا رواه ابنُ جرير، عن محمد بن سهل البُخَاريّ؛ عن عبد الله بن صالح، به. وقال: إن كان صحيحاً[٣]. وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسن غريب. ثم رواه من وجه آخر عن الزهري، مرسلاً.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

يقولُ تعالى: هذا الذي أمَرنا به مِنَ الطاعاتِ في أداءِ المناسِكِ، وما لفاعِلِها من الثَّواب الجَزيل. ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: ومن يَجتَنِب معاصيَه ومحارِمَه، ويكونُ ارتكابُها عَظِيماً في نفسِهِ، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾، أي: فله على ذلك خيرٌ كثيرٌ وثوابٌ جزيلٌ، فكَمَا على فِعْلِ الطَّاعاتِ ثوابٌ جَزيلٌ وأجرٌ كَبيرٌ، كذلك على تَرْكِ المحرمات واجتناب المحظورات. قال ابنُ جُرَيجٍ: قال مجاهد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، قال: الحرمة: مكة والحجُّ والعمرة، وما نَهَى الله عنه من معاصيه كلِّها. وكذا قال ابنُ زيدٍ.

---

(١) إسناده ضعيف، فيه راوٍ لم يسم.

(٢) ضعيف. أخرجه الترمذي ٣١٧٠ والحاكم ٢/٣٨٩ ح ٣٤٦٥ والطبري ٢٥١١٧، صححه الحاكم على شرط البخاري، وسكت الذهبي. وقال الترمذي: وقد روي مرسلاً، ثم ساق إسناده وكذا الطبري ٢٥١١٨ كلاهما عن الزهري مرسلاً، ومراسيل الزهري واهية، كما هو مقرر في كتب التراجم. والمتصل ضعيف، تفرد بوصله عبد الله بن صالح كاتب الليث، وهو وإن روىٰ له البخاري ـ لكن كان ذلك في أثناء شبابه ثم كبر وفسد بأَخَرَة ـ قال أبو حاتم: أخرج أحاديث في آخر عمره، أنكرها عليه، نُرىٰ أنها مما افتعل خالد بن نجيح، وكان أبو صالح يصحبه، وقال ابن حبان: كان في نفسه صدوقاً إنما وقعت المناكير في حديثه من قبل جار له. قال ابن خزيمة: كان له جار يضع له أحاديث ويكتبها بخط يشبه خطه، ويرميها في داره. وقال صالح جزرة: هو عندي ممن يكذب اهـ راجع الميزان، فالحديث ضعيف، وحسبه الوقف على ابن الزبير.

(٣) كذا وقع في سائر النسخ، وفي العبارة غموض، وبيانه هو أن الطبري ذكر أقوالاً مختلفة، في تسمية البيت «البيت العتيق» ثم قال: وأرجح الأقوال قول ابن زيد، غير أن الذي روي عن ابن الزبير أولىٰ بالصحة، إن كان صحيحاً اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أي: أحللنا لكم جميعَ الأنعام، وما جَعَلَ الله من بَحيرةٍ، ولا سائبة، ولا وَصِيلةٍ، ولا حَام. وقولُه: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أي: من تحريم ﴿ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾... الآية، قال ذلك ابن جَرير، وحكاه عن قتادة. وقولُه: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾: «من» هاهنا لبيان الجنس، أي: اجتَنِبُوا الرجسَ الذي هو الأوثان. وقَرَن الشرك بالله بقول الزُّور، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، ومنه شهادة الزور.

[٤٦٩٨] وفي الصحيحين عن أبي بَكْرَة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ألا أُنبِّئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى؛ يا رسولَ الله. قال: الإشراك بالله وعقوقُ الوالدَين ـ وكان مُتَّكِئاً فجلَسَ ـ فقال: ألا وقولَ الزُّور، ألا وشهادةَ الزور. فما زاد يُكرِّرها، حتى قلنا: ليته سَكَت[١].

[٤٦٩٩] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا مروان بن معاوية الفَزَارِيُّ، أنبأنا سفيان بن زياد، عن فَاتِكِ بن فَضالة، عن أيمنَ بن خُرَيم قال: قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ خطيباً فقال: يا أيُّها الناسُ، عَدَلَت شهادةُ الزُّورِ إشراكاً بالله، ثلاثاً، ثم قرأ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[٢]. وهكذا رواه التِّرمِذيُّ، عن أحمدَ بن مَنِيع، عن مَرْوَانَ بن معاوية، به. ثم قال: غريبٌ، إنما نعرفه من حديث سفيان ابن زياد. وقد اختُلِفَ عنه في رِوَايةِ هذا الحَديثِ، ولا نَعرفُ لأيمنَ بن خُرَيم سماعاً من النبي ـ ﷺ ـ.

[٤٧٠٠] وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدثنا مُحَمد بن عُبَيد، حدثنا سفيان العُصْفُرِيُّ، عن أبيه: عن حَبِيب بن النعمان الأسدِيِّ، عن خُرَيم بنِ فاتِكٍ الأسدي قال: صلَّى رسولُ الله ـ ﷺ ـ الصُّبحَ، فلما انصرف قام قائماً فقال: عَدَلَتْ شهادةُ الزُّورِ الإشراكَ بالله ـ عَزَّ وجلَّ ـ ثم تلا هذه الآية: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾[٣].

وقال سُفيان الثَّوريُّ، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن وائل بن ربيعةَ، عن ابن مسعود أنه قال: تَعدِلُ شهادةُ الزور الشرك بالله، ثم قرأ هذه الآية.

وقولُه تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾، أي: مُخلِصِينَ له الدينَ، مُنحَرِفين عن الباطل قصداً إلى الحق، ولهذا قال ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾. ثم ضَرَب للمُشرك مثلاً في ضَلالِهِ وهَلاكِهِ وبُعدِهِ عن الهُدَى فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: سَقَطَ منها، ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾، أي: تقطَعُه الطيورُ في الهواء: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، أي: بَعيدٍ مُهلِك لمن هَوَى فيه. ولهذا

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٧٦ ومسلم ٨٧ والترمذي ١٩٠١.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه الترمذي ٢٢٩٩ وأحمد ٤/١٧٨ و٢٣٣ بهذا الإسناد، وضعفه الترمذي بقوله: غريب، ولا نعرف لأيمن هذا سماعاً من النبي ﷺ؛ وانظر ما بعده.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٥٩٩ والترمذي ٢٣٠٠ وابن ماجه ٢٣٧٢ وأحمد ٤/٢٣١، قال الترمذي: هذا عندي أصح. خريم له صحبة اهـ والحديث معلول فهو من رواية زياد العصفري عن حبيب بن النعمان الأسدي. قال الحافظ في التقريب عقب كلٍّ: مقبول. في حين قال الذهبي في ترجمة زياد ٢٩٧٩: فزياد لا يدرى من هو، عن مثله. ثم ذكر هذا الحديث. أي وشيخه لا يدرىٰ من هو اهـ وورد عن ابن مسعود من قوله أخرجه الطبري ٢٥١٣٤ والطبراني ٨٥٦٩ وهو أصح من المرفوع. وانظر ضعيف أبي داود ٧٧٣، والله أعلم.

[٤٧٠١] جاء في حديث البراء: إن الكافر إذا تَوفّته ملائكةُ الموتِ، وصَعِدُوا برُوحِهِ إلى السَّماء، فلا تُفتَحُ له أبوابُ السماءِ، بل تُطرَح روحُه طَرْحاً من هناك. ثم قرأ هذه الآية[1]. وقد تَقدَّم الحديثُ في سورة إبراهيم بحُروفه وألفاظه وطُرُقِهِ. وقد ضرب تعالى للمشرك مثلاً آخر في «سورة الأنعام»، وهو قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

يقولُ تعالى: هذا: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾، أي: أوامره، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾. ومن ذلك تعظيمُ الهدايا والبُدْن، كما قال الحَكَم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: تعظيمُها: استسمانُها واستحسانُها. وقال ابنُ أَبي حاتم: حدثنا أبو سَعِيد الأشَجُّ، حدثنا حَفصُ بن غياثٍ، عن ابن أبي لَيلى، عن ابنِ أبي نَجيح، عن مُجاهد، عن ابن عباس: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال: الاستِسمَانُ والاستِحسَانُ والاستِعظامُ. وقال أبو أمامة بن سهل: كنا نُسَمِّن الأضحيَّةَ بالمدينةِ، وكان المسلمون يُسمِّنونَ. رواه البُخاري.

[٤٧٠٢] وعن أبي هُرَيرة أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: دَمُ عَفراءَ أَحبُّ إلى الله من دَمِ سَوداوَينِ»[2] رواه أحمد، وابن ماجه. قالوا: والعَفراءُ هي البيضاءُ بياضاً ليس بناصع، فالبيضاءُ أفضلُ من غيرها، وغيرُها يُجزِىءِ أيضاً.

[٤٧٠٣] لما ثَبت في صحيح البخاري، عن أَنسٍ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ ضَحّى بِكَبشَين أملَحَين أقرنَين[3].

[٤٧٠٤] وعَن أبي سَعِيد: أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ضَحَّى بكبش أَقرنَ فَحِيل يَأْكل في سَوَادٍ، وَيَنظُرَ في سَوَادٍ، ويَمْشِي في سَوَادٍ[4]. رَواه أهلُ السُّنَنِ، وصَحَّحه الترمِذِيُّ. أي: فيه نُكتةُ سَوادٌ في هذه الأماكن.

[٤٧٠٥] وفي سُنَنِ ابن ماجه، عن أبي رافع: أَنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ ضَحَّى بكبشَينِ عَظِيمين سَمِينين أقرنَين أَملَحين مَوجُوءَينِ[5]. قيل: هما الخَصِيّان. وقيل: اللذان رضَّ خُصياهُما، ولم يَقْطَعهما، والله أعلم.

---

(١) تقدم في سورة إبراهيم كما ذكر المصنف.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٤١٧ والحاكم ٤/ ٢٢٧ من حديث أبي هريرة بلفظ: «دم عفراء أحب إليّ من دم سوداوين» وفي إسناده رباح بن عبد الرحمن، وأبو ثفال، وكلاهما مقبول كما في «التقريب» وقال الهيثمي في «المجمع» ٤/ ١٨: وفيه أبو ثفال، قال البخاري: فيه نظر اهـ. وللحديث شاهد عند الطبراني في «الكبير» ٢٥/ ١٥ ـ ١٦ من حديث كبيرة بنت سفيان، وفيه محمد بن سليمان، وهو ضعيف. وله شاهد آخر من حديث ابن عباس عند الطبراني ١١٢٠١ وإسناده ضعيف.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٥٨ ومسلم ١٩٦٦ وأبو داود ٢٧٩٤ والترمذي ١٤٩٤ والنسائي ٧/ ٢٢٠ وابن ماجه ٣١٢٠ وأحمد ٣/ ١٧٠ وابن حبان ٥٩٠٠.

(٤) جيد. أخرجه أبو داود ٢٧٩٦ والترمذي ١٤٩٦ والنسائي ٧/ ٢٢١ وابن ماجه ٣١٢٨ وإسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

(٥) جيد. أخرجه الحاكم ٤/ ٢٢٩ والبيهقي ٩/ ٢٦٨ من حديث أبي رافع دون قوله «موجوءين» ولم أره عند ابن ماجه من حديث أبي رافع، وإنما أخرجه ابن ماجه ٣١٢٢ من حديث أبي هريرة وكذا الحاكم ٤/ ٢٢٧ والبيهقي ٩/ ٢٦٧، وله شاهد من حديث جابر، وهو الآتي وإسناده صحيح.

[٤٧٠٦] وكذا رَوَى أبو داود وابن ماجه عن جَابِرٍ: ضَحَّى رسولُ الله ـ ﷺ ـ بكبشين أقرنين أملحين موجوءين[١].

[٤٧٠٧] وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نَسْتَشْرِفَ العينَ والأُذُنَ، ولا نُضَحِّيَ بمقابَلَةٍ، ولا مُدابَرَةٍ، ولا شرقَاءَ، ولا خرقاء[٢]. رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي.

[٤٧٠٨] ولهم عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن نضحي بأعضَبِ القَرْنِ والأُذُنِ[٣]. قال سعيد بن المُسَيِّب: العَضْبُ: النِّصْفُ فأكثر. وقال بعضُ أهلِ اللُّغةِ: إن كُسِرَ قرنها الأعلى فهي قصماء، فأما العضب فهو كسر الأسفل وعضب الأذن قطع بعضها. وعند الشافعي أن التَّضحِيَةَ بذلك مُجزئةٌ، لكن تُكرَهُ. وقال أحمدُ: لا تُجزىءُ الأضحية بأعضَب القَرْنِ والأذن، لهذا الحديث. وقال مالكٌ: إن كان الدمُ يسيلُ من القَرْنِ لم يُجزِىء، وإلا أجزأ، والله أعلم.

وأما المقابَلَة: فهي التي قُطِعَ مُقدَّم أُذُنها، والمدابَرَةُ: من مُؤَخِرِ أُذُنها. والشَّرْقَاءُ: هي التي قُطِعت أُذُنها طُولاً، قاله الشافعيُ والأصمعي. والخرقاءُ: هي التي خَرَقَتِ السِّمَةُ أُذُنَها خَرْقاً مُدوراً، والله أعلم.

[٤٧٠٩] وعن البراء قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أربعٌ لا تجوزُ في الأضاحِيِّ: العَوْرَاء البَيِّنُ عَوَرُها، والمريضَةُ البَيِّنَ مَرَضُها، والعَرْجَاءُ البَيِّن ظَلَعُها، والكسيرة التي لا تُنقِي»[٤]. رواه أحمدُ، وأهلُ السُّنَنِ، وصَحَّحه التِّرمِذِيُّ. وهذه العيوبُ تنقُصُ اللَّحم، لِضَعفها وعَجزِها عن استكمال الرَّعي، لأن الشَّاء يَسبِقُونها إلى المرعَى، فلهذا لا تُجزِىءُ التضحيةُ بها عند الشافعيِّ وغيره من الأئِمَّةِ، كما هو ظاهرُ الحديثِ. واختلفَ قولُ الشافعيِّ في المريضة مَرَضاً يسيراً، على قولَينِ.

[٤٧١٠] وروى أبو داود، عن عُتْبَةَ بن عَبْدِ السُّلَمِيِّ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن المُصَفَّرَةِ، والمُستَأصَلَةِ، والبَخْقَاء، والمُشَيَّعَةِ والكَسِيرة[٥]. فالمُصَفَّرَة قيل: الهزِيلة. وقيل: المستأصَلَةُ الأذن. والمُستَأصَلةُ: المكسورةُ القَرْن. والبَخْقَاءُ: هي العَوْرَاءُ. والمُشَيَّعةُ: هي التي لا تَزَال تُشَيَّع خَلفَ الغَنَم، ولا تَتْبَع لِضَعفها. والكَسِيرة: العَرْجاءُ. فهذه العيوب كُلُّها مانعةٌ من الإجزاء. فَأَمَّا إن طَرَأَ العيبُ بعد تعيين الأُضحيَّة فإنه لا يضرُّ عيبُه عند الشافعي خلافاً لأبي حَنِيفَةَ.

[٤٧١١] وقد رَوَى الإمامُ أحمَدُ، عن أبي سعيدٍ قال: اشتريتُ كبشاً أُضَحِّي به، فعدا الذئبُ فأخذ الأليَةَ، فسألت النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال: ضَحِّ به[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٧٩٥ وابن ماجه ٣١٢١ وأبو يعلى ١٧٩٢ وأحمد ٣/ ٣٧٥ وإسناد أحمد لا بأس به، وله شاهد عن أنس، أخرجه البخاري ٥٥٦٥ ومسلم ١٩٦٦.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٨٠٤ والترمذي ١٤٩٨ والنسائي ٧/ ٢١٦ وابن ماجه ٣١٤٢ وأحمد ١/ ٨٠ و١٤٩، وصححه الحاكم ٤/ ٢٢٤ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح. وإسناده غير قوي لأجل شريح بن النعمان.

(٣) أخرجه أبو داود ٢٨٠٥ والنسائي ٧/ ٢١٧ و٢١٨ والترمذي ١٥٠٤ وابن ماجه ٣١٤٥ وأحمد ١/ ٨٣ و١٢٧ وابن حبان ٥٩٣١ وصححه الحاكم ٤/ ٢٢٤ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح. قلت: إسناده غير قوي لأجل جري بن كليب.

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود ٢٨٠٢ والترمذي ١٤٩٧ والنسائي ٧/ ٢١٥ وابن ماجه ٣١٤٤ وأحمد ٤/ ٢٨٤؛ وقال الترمذي: حسن صحيح، وإسناده صحيح، رجاله ثقات.

(٥) ضعيف. أخرجه أبو داود ٢٨٠٣ وفي إسناده أبو حميد الرعيني، وهو مجهول.

(٦) ضعيف جداً. أخرجه أحمد ٣/ ٣٢ و٨٦ وإسناده ضعيف جداً، فيه جابر الجعفي، وهو متروك، وشيخه محمد بن قرظة، وهو مجهول.

[٤٧١٢] ولهذا في الحديث: «أَمَرنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن نَستَشرِفَ العينَ والأذُنَ»[١]. أي: تكون الهديَّةُ أو الأضحيَّةُ حَسَنةً سمينَةً.

[٤٧١٣] كما رواه الإمام أحمدُ وأبو داودَ، عن عبد الله بن عُمر قال: أهدَى عمر نَجيباً، فَأُعطِيَ بها ثلاثمئة دينار، فأتى النبيَّ ﷺ فقالَ: يا رسُولَ الله، إنّي أهدَيْتُ نجيباً فأُعْطِيتُ بها ثلاثمئة دينار، أفأبيعها وأشتري بثمنها بُدْناً؟ قال: لا، انحرها إياها[٢]. وقال الضحَّاكُ، عن ابن عباس: البُدنُ من شَعائِرِ الله. وقال محمد بن أبي موسى: الوقوفُ ومزدلفة والجمارُ والرمي والبدنُ والحَلْقُ: من شعائِرِ الله. وقال ابنُ عَمَر: أعظم الشعائر البيتُ.

وقولُه تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾، أي: لكم في البدن منافع من لَبَنها، وصُوفها وأوبارها وأشعارها، ورُكُوبها. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قال مقسَم، عن ابن عباس: ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قال: ما لم يُسَمّ بُدْناً. وقال مجاهد في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سُميَت بَدَنةً أو هَدْياً ذهب ذلك كله. وكذا قال عطاءٌ، والضحاك، وقتادةُ، ومقاتلٌ، وعطاءٌ الخُراسَانيُّ، وغيرهم. وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كان هَدْياً، إذا احتاج إلى ذلك.

[٤٧١٤] كما ثَبَت في الصحيحَين عن أنس: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ رأى رجلاً يَسُوقُ بدَنَةً، قال: اركبها. قال: إنها بَدَنَةٌ. قال: اركبها، ويحك! في الثانية أو الثالثة[٣].

[٤٧١٥] وفي روايةٍ لمسلم، عن جابر، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «اركَبْها بالمعرُوفِ إذا أُلجِئتَ إليها»[٤]. وقال شعبةُ، عن زُهَير بن أبي ثابت الأعمى، عن المُغيرةِ بن أبي الحرّ، عن عَليٍّ أنه رأى رَجُلاً يسوقُ بدنةً ومعها وَلَدُها، فقال: لا تَشْرَب من لبنها إلاَّ ما فَضَل عن وَلَدِها، فإذا كانَ يومُ النحرِ فاذبَحها وَوَلَدَها.

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾، أي: مَحلُّ الهَدْي وانتهاؤه إلى البيتِ العَتِيق، وهو الكعبةُ، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]. وقال: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥]. وقد تقدم الكلام على معنى البيت العتيق قَريباً، ولله الحمدُ. وقال ابنُ جرَيج، عن عَطاءٍ: كان ابنُ عبَّاسٍ يقول: كلُّ مَن طافَ بالبيت فقد حَلّ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يُخبرُ تعالى أنه لم يَزل ذبحُ المناسِكِ وإراقةُ الدِّماءِ على اسم الله مَشْروعاً في جَميع المِلَل. قال علي ابن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾، قال: عِيداً. وقال عكرمةُ: ذَبحاً. وقال زيدُ بن

---

(١) تقدم تحت رقم ٤٧٠٧.

(٢) أخرجه أبو داود ١٧٥٦ وإسناده ضعيف لجهالة الجهم بن الجارود، وانظر ضعيف أبي داود ٣٨٥.

(٣) صحيح . أخرجه البخاري ١٦٩٠ ومسلم ٢٣٢٣ والترمذي ٩١١ والنسائي ٥/ ١٧٦ وابن ماجه ٣١٠٤.

(٤) صحيح . أخرجه مسلم ١٣٢٤ وأبو داود ١٧٦١ والنسائي ٥/ ١٧٧ وأحمد ٣/ ٣٢٤ وابن حبان ٤٠١٧.

أسلَمَ في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾: إنها مَكَّةُ، لم يجعل الله لأمَّةٍ قطُّ مَنْسَكاً غيرَها. وقولُه: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾.

[٤٧١٦] كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين فسجد وكبر ووضع رجله على صفاحهما(١).

[٤٧١٧] وقال الإمامُ أحمدُ بن حَنبلٍ: حدثنا يزيد بن هارونَ، أنبأنا سَلاَّم بن مِسْكين، عن عائذ الله المُجَاشِعِيِّ، عن أبي داود ـ وهو نُفَيع بن الحارث ـ عن زيد بن أرْقَمَ قال: قلت ـ أو قالوا ـ: يا رسولَ الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: سنةُ أبيكم إبراهيم. قالوا: ما لنا منها؟ قال: بِكُلِّ شَعرةٍ حَسَنَةٌ. قالوا: فالصُّوفُ؟ قال: بكُلِّ شعرةٍ من الصُّوف حَسنةٌ»(٢). وأخرجه الإمامُ أبو عبدِ الله مُحمَّد بنُ يزيدَ بن ماجه في سُنَنِه، من حديث سَلاَّم بن مِسْكِينٍ، به.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾، أي: مَعبودُكم واحدٌ وإن تَنوَّعَت شرائعُ الأنبياء ونَسخ بعضُها بعضاً فالجميع يدعُون إلى عبادة الله وحده لا شريكَ له، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾، أي: أخلِصُوا واستَسْلِمُوا لحُكْمِهِ وطاعَتِه. ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾، قال مجاهد: المُطْمئنين. وقال الضحَّاكُ وقتادة: المُتَواضِعين. وقال السدِّيُّ: الوَجِلِينَ. وقالَ عَمْرو بنُ أوسٍ: المخبِتُونَ: الذين لا يَظلِمُونَ، وإذا ظُلِمُوا لم يَنْتَصِروا. وقال الثوريُّ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾، قال: المُطْمَئِنِّين الراضِينَ بقضاءِ اللهِ، المُستَسْلِمِينَ له. وأحسن ما يُفسَّر بما بعده وهو قولُه: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: خافَت منه قلوبُهم، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾، أي: من المصائب. قال الحسن البصري: والله لَتَصبِرُنَّ أو لَتَهلِكُنَّ. ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾، قَرأَ الجمهورُ بالإضافةِ، وبقيةُ العَشَرةِ أيضاً. وقرأ ابنُ السَّمَيْقع: «والمقيمين الصلاةَ» بالنصب. وقال الحسن البصريُّ: «والمقيمي الصلاةَ». وإنما حُذِفَتِ النُّون هاهنا تخفيفاً، ولو حذفت للإضافة لوجب خفض الصلاة، ولكن على سبيل التَّخفِيفِ فَنُصِبت. أي: المُؤدِّين حَقَّ الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي وينفقون مما آتاهم الله من طيب الرِّزْقِ على أهليهم وأرقَّائهم وقَرَاباتِهم، وفقرائهم ومحاويجهم، ويُحسِنُون إلى خَلْق الله مع محافظتهم على حُدُودِ الله. وهذه بخلاف صفاتِ المنافقينَ، فإنهم بالعكس من هذا كُلِّه، كما تَقَدَّم تفسيرُه في «سُورَةِ بَراءةَ».

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقولُ تعالى مُمتنًا على عباده فيما خَلَق لهم من البُدْنِ، وجَعَلها من شعائره، وهو أنه جَعَلها تُهدى إلى بيته الحرام، بل هي أفضلُ ما يُهدى، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [المائدة: ٢]. قال ابن جُرَيج: قال عطاء في قوله: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٥٥٨ و٥٥٦٤ ومسلم ١٩٦٦ وقد تقدم برقم ٤٧١٥.

(٢) باطل. أخرجه ابن ماجه ٣١٢٧ وأحمد ٤/ ٣٦٨ وابن حبان في «المجروحين» ٣/ ٥٥ ـ ٥٦. قال ابن حبان: نفيع بن الحارث أبو داود، كان ممن يروي عن الثقات الموضوعات توهماً، وقال البوصيري في الزوائد: هو متروك، واتهم بوضع الحديث اهـ.

لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾، قال: البقرة، والبَعيرُ. وكذا رُوي عن ابن عُمَر، وسعيد بن المُسيَّب، والحَسَن البَصْرِي. وقال مجاهد: إنما البُدْن من الإبل. قلت: أما إطلاقُ البَدَنة على البعير فَمتَّفقٌ عليه، واختلَفُوا في صحَّةِ إطلاقِ البَدَنةِ على البقرة، على قولين، أصحهما أنه يُطلَق عليها ذلك شرعاً كما صَحَّ في الحديث. ثم جمهورُ العلماء على أنه تُجزيءُ البَدَنةُ عن سَبعةٍ، والبَقَرةُ عن سَبعةٍ.

[٤٧١٨] كما ثَبَت به الحديثُ عند مسلم، من رواية جابر بن عبد الله، قال: أَمَرنَا رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن نشترِكَ في الأضاحي، البَدَنَةُ عن سبعةٍ، والبقرةُ عن سبعة[١]. وقال إسحاقُ بن رَاهَويه وغيره: بل تُجزيءُ البقرةُ عن سَبعةٍ، والبعير عن عَشَرةٍ، وقد وَرَد به حديثٌ في مُسنَدِ الإمامِ أحمدَ، وسُنَن النسائي، وغيرهما. فالله أعلم. وقولُه: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، أي: ثوابٌ في الدار الآخرة.

[٤٧١٩] وعن سُلَيمانَ بن يزيدَ الكعبيِّ، عن هشام بن عُروة، عن أبيه، عن عائشةَ أَنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ما عَمِل ابنُ آدمَ يوم النحرِ عَمَلاً أحبَّ إلى الله من هِرَاقَةِ دَم. وإنَّه ليأتي يومَ القيامةِ بقُرُونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدمَ ليقع من الله بمكانٍ قبلَ أن يقَعَ على الأرضِ، فَطِيبُوا بها نفساً»[٢]. رواهُ ابن ماجه، والترمذيُّ وحَسَّنَه. وقال سفيان الثَّوريُّ: كان أبو حازمٍ يَستَدِينُ ويسوقُ البُدْنَ، فقيل له: تَستَدِينُ وتسوق البُدْنَ؟ فقال: إني سَمِعتُ الله يقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

[٤٧٢٠] وعن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما أنفقتَ الوَرِقَ في شيءٍ أفضلَ من نَحِيرةٍ في يوم عيدٍ»[٣]. رواه الدارقطني في سننه. وقال مجاهدٌ: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، قال: أجرٌ ومنافعُ. وقال إبراهيم النَّخعِيُّ: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها. وقولُه: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾.

[٤٧٢١] وعن المُطَّلِب بن عبد الله بن حَنْطَبٍ، عن جابر بن عبد الله قال: صَلَّيتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ عيدَ الأضحَى، فلما انصرفَ أُتي بِكَبْشٍ فَذَبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهُمَّ هذا عَنِّي وعمن لم يُضَح من أُمَّتِي»[٤]. رواه أحمدُ، وأبو داودَ، والتِّرمذيُّ.

[٤٧٢٢] وقال محمد بن إسحاقَ، عن يزيدَ بن أبي حَبيب، عن أبي عَيَّاش، عن جابرٍ قال: ضَحَّى رسولُ الله ـ ﷺ ـ بكبشَينِ في يوم عيدٍ، فقال حين وَجَّهها: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩]. ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]، اللهُمَّ مِنكَ ولَكَ، وعن مُحمَّدٍ وأُمَّتِهِ. ثم سَمَّى الله وكَبَّر وذَبَح»[٥].

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٣١٨ وأبو داود ٢٨٠٩ والترمذي ٩٠٤ وابن ماجه ٣١٣٢ وابن حبان ٧٠٠٦ والبيهقي ٥/١٦٨ ـ ١٦٩.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه الترمذي ١٤٩٣ وابن ماجه ٣١٢٦، وفي إسناده سليمان بن يزيد الكعبي، ضعيف كما في التقريب.

(٣) ضعيف، أخرجه الدارقطني ٤/٢٨٢ بهذا اللفظ من حديث ابن عباس، وفي إسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي، وهو متروك الحديث.

(٤) أخرجه أبو داود ٢٨١٠ والترمذي ١٥٢٠ وأحمد ٣/٣٦٢ والحاكم ٤/٢٢٩ والبيهقي ٤/٢٨٥ وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه، والمطلب بن حنطب يقال إنه لم يسمع من جابر اهـ وروي من غير هذا الوجه أخرجه أبو داود ٢٧٩٥ وابن ماجه من طريق أبي عياش الزرقي عن جابر، وانظر مزيد الكلام عليه في مسند أبي يعلى ١٧٩٢.

(٥) فيه عنعنه ابن إسحق، وابن أبي حبيب، وكلاهما مدلس، لكن يشهد لأصله ما قبله وما بعده. والله أعلم.

[٤٧٢٣] وعن علي بن الحُسَين، عن أبي رافع: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان إذا ضَحَّى اشترى كبشَين سَمِينَين أقرنين أملحَين، فإذا صَلَّى وخَطَب الناس أُتي بأحدهما وهو قائم في مُصَلاَّه فَذَبحه بِنَفْسِهِ بالمُديةِ، ثم يقول: «اللهمَّ، هذا عن أُمَّتي جَميعها، مَنْ شَهِد لك بالتوحيد وشَهِدَ لي بالبلاغ». ثم يُؤتى بالآخر فيذبَحه بنفسِهِ، ثم يقول: هذا عن مُحمَّدٍ وآلِ مُحمَّدٍ» فَيُطعِمُها جَميعاً المساكينَ، ويَأكلُ هو وأهلُه منهُمَا[1]. رواه أحمدُ وابنُ ماجه. وقال الأعمشُ، عن أبي ظَبيان، عن ابن عَبَّاسٍ في قوله: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾، قال: قياماً على ثلاث قوائم، معقولةً يدُها اليسرى، يقول: «باسم الله والله أكبرُ، اللهُمَّ منكَ ولكَ». وكذلك رَوَى مجاهدٌ، وعلي بن أبي طلحة، والعَوفي، عن ابن عَبَّاسٍ، نحوَ هذا. وقال ليثٌ، عن مجاهد: إذا عُقِلت رجلُها اليُسرى قامت على ثلاث. ورَوى ابن أبي نَجِيح، عنه، نحوه. وقال الضحاك: تعْقَلُ رجلٌ واحدة فتكون على ثلاثٍ.

[٤٧٢٤] وفي الصَّحِيحَين عن ابن عُمَر: أنه أَتى على رجل قد أناخ بَدَنَته وهو ينحرُها، فقال: ابْعَثْها قِياماً مقيَّدة، سُنَّةَ أبي القاسِم ﷺ[2].

[٤٧٢٥] وعن جابر أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وأصحابَه كانوا ينحَرون البُدْن معقولةَ اليُسْرَى، قائمة على ما بقي من قوائمها[3]. رواه أبو داود. وقال ابنُ لَهيعَةَ: حدثني عطاءُ بنُ دينارٍ، أَنَّ سالم بن عبد الله قال لِسُلَيمان بن عبد الملك، قفْ من شِقِّها الأيمن، وَانحرْ من شِقِّها الأيسَرِ.

[٤٧٢٦] وفي صحيح مسلم، عن جابر، في صفَةِ حَجَّةِ الوَدَاعِ، قال فيه: فَنَحر رسولُ الله ـ ﷺ ـ بيده ثلاثاً وستين بَدَنة، . جَعَلَ يَطعنُهَا بِحَرْبَةٍ في يَده[4].

وقال عبدُ الرزَّاقِ: أخبرنا معمَرٌ، عن قتادةَ قال: في حرف ابن مسعود: «صوافن»، أي: مُعَقَّلة قياماً. وقال سفيانُ الثوريُّ، عن منصورٍ، عن مجاهدٍ: من قَرَأها «صوافن»، قال: معقولة. ومن قرأها ﴿صَوَآفَّ﴾، قال: تُصَفُّ بين يديها. وقال طاووسٌ، والحَسنُ، وغيرُهما: «فاذكروا اسم الله عليها صوافي»، يَعني خالصةً لله عزَّ وجلَّ، وكذا رَوَاه مالكٌ، عن الزُّهري. وقال عبدُ الرحمن بنُ زيدٍ: «صوافي»، ليس فيها شِرْكٌ كَشِرْكِ الجَاهِلية لأصنامِهِم. وقولُه: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾، قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: يعني سَقَطت إلى الأرض. وهو رواية عن ابن عباس. وكذا قال مقاتلُ بنُ حَيَّانَ. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعني نُحِرَتْ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعني ماتت. وهذا القول هو مُراد ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البَدَنَة إذا نُحِرَت حتى تموتَ وتَبْرُدَ حَرَكَتُها.

[٤٧٢٧] وقد جاء في حديث مرفوع: «ولا تُعجِلُوا النفوسَ أن تَزْهَق»[5]. وقد رَوَاه الثوريُّ في جامعه، عن أيوبَ، عن يحيى بن أبي كَثِير، عن فَرافِصَةَ الحَنَفِي، عن عُمَر بن الخطاب أنه قال ذلك.

[٤٧٢٨] ويُؤَيِّدُه حديثُ شَدَّاد بن أوس في صحيح مسلم: «إن الله كتب الإِحسانَ على كلِّ شيء، فإذا

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٨ و٣٩١ ـ ٣٩٢.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ١٧١٣ ومسلم ١٣٢٠ وأبو داود ١٧٦٨ وأحمد ٢/ ٣ و٨٦ وابن حبان ٥٩٠٣.

(٣) أخرجه أبو داود ١٧٦٧ وإسناده حسن، ويشهد له ما قبله.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١٢١٨ وهو قطعة من حديث جابر المطوّل في صفة حجة النبي ﷺ.

(٥) لم أره مرفوعاً مسنداً، ولا يصح، وإنما هو موقوف، انظر «فتح الباري» ٩/ ٦٤١.

قتلتم فأحسِنُوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسِنوا الذَّبح، وَلْيَحُدَّ أحدُكم شَفْرَته، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[١].

[٤٧٢٩] وعن أبي واقد اللَّيثيِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما قُطِعَ من البَهِيمة وهي حَيَّةٌ فهو مَيْتَةٌ»[٢]. رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وصَحَّحَه.

وقولُه تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾، قال بعض السَّلَف. قولُه: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾، أَمْرُ إباحَةٍ. وقال مالكٌ: يُستحبُّ ذلك. وقال غيره: يَجبُ. وهو وَجْه لبعض الشافعيَّةِ. واختُلِفَ في المراد بالقانع والمعتر، فقال العوفي، عن ابن عباس: القانعُ: المُستغني بما أعطيته وهو في بيته. والمعتر: الذي يَتعرَّض لك، ويُلِمُّ بك أن تعطيهِ من اللَّحم، ولا يسألُ. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القُرَظِيُّ. وقالَ عليُّ بن أبي طَلْحَةَ، عن ابن عباسٍ: القانعُ: المُتَعفِّفُ، والمُعتر: السائِلُ. وهذا قولُ قتادةَ، وإبراهيمَ النخَعيِّ، ومجاهدٍ في روايةٍ عنه. وقال ابنُ عباس، وزيدُ بن أسلم، وعكرمة، والحسنُ البصريُّ، وابنُ الكلبيِّ، ومقاتلُ بن حَيَّانَ، ومالك بن أنس: القانع: هو الذي يَقْنع إليك ويسألك. والمُعْتَرُّ: الذي يَعْتَرِيكَ، يتضرَّع ولا يَسْأَلُكَ. وهذا لفظ الحسن. وقال سعيدُ بن جُبَير: القانع هو السائلُ، ثم قال: أما سمعت قول الشَّمَّاخ:

لَمَالُ المَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِي مَفَاقِرَه، أَعَفُّ مِنَ القُنُوعِ

قال: يغني من السؤال. وبه قال ابنُ زَيدٍ. وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذي يَطُوف، والمعترُّ: الصَّدِيق والضعيف الذي يَزُور. وهو رواية عن ابنه عبد الرحمن بن زيد أيضاً. وعن مجاهد أيضاً: القانعُ: جارك الغَنيُّ الذي يُبصِرُ ما يدخلُ بيتك. والمعتر: الذي يَعْتَرِيكَ مِنَ الناسِ. وعنه أنَّ القانِعَ: هو الطامعُ. والمعترّ: هو الذي يَعْتَرُّ بالبُدْن من غنيٍّ أو فقيرٍ. وعن عكرمة نحوُه، وعنه القانعُ: أهلُ مكَّةَ. واختار ابنُ جرير أنَّ القانعَ: هو السائلُ؛ لأنه من أقنَعَ بيَدِهِ إذا رَفَعها للسُّؤالِ. والمعترُّ من الاعتِرَارِ، وهو: الذي يَتعرَّض لأكل اللحم. وقد احتجَّ بهذه الآيةِ الكريمةِ من ذهب مِن العلماءِ إلى أن الأضحيَّة تُجزَّأ ثلاثةَ أجزاءٍ، فثُلث لصاحبها يأكلُه. وثُلث يُهديه لأصحابه، وثلث يَتصَدَّقُ به على الفُقَراء، لأنه تعالى قال: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾.

[٤٧٣٠] وفي الحديث الصحيح أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال للناس: «إني كنتُ نهيتُكم عن ادِّخار لُحُوم الأضاحِي فوقَ ثلاثٍ، فكلوا وادَّخِرُوا ما بدا لكم»[٣]. وفي رواية: «فَكُلُوا وادَّخرُوا وتَصدَّقوا»[٤]. وفي رواية: «فَكُلُوا وأطعِمُوا وتَصَدَّقوا»[٥].

والقول الثاني: أن المضحِّي يأكلُ النِّصف ويتصدَّقُ بالنصف، لقولِه في الآية المتقدِّمة: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾، ولقولِه في الحديث: «فكلوا وادَّخروا وتَصدَّقوا». فإن أكل الكلَّ فقيل: لا يَضمَن

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٩٥٥ وأبو داود ٢٨١٥ والترمذي ١٤٠٩ والنسائي ٧/ ٢٢٧ وابن ماجه ١٣٧٠ وابن حبان ٥٨٨٢ وأحمد ٤/ ١٢٣.

(٢) حسن صحيح. أخرجه أبو داود ٢٨٥٨ والترمذي ١٤٨٠ والحاكم ٤/ ٢٣٩ وأحمد ٥/ ٢١٨ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وأخرجه ابن ماجه ٣٢١٦ والدارقطني ٤/ ٢٩٢ من حديث ابن عمر، وصححه الحاكم ٤/ ١٢٤ ووافقه الذهبي. انظر «العدة» ص ٢٩ ـ ٣٠ بتخريجي.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٩٧٧ والترمذي ١٥١٠ والنسائي ٧/ ٢٣٤ من حديث بريدة.

(٤) هذه الرواية عند مسلم ١٩٧١ وأبي داود ٢٨١٢ والنسائي ٧/ ٢٣٥ وابن حبان ٥٩٢٧ من حديث عائشة.

(٥) هذه الرواية عند البخاري ٥٥٦٩ وابن حبان ٥٩٢٩ من حديث سلمة بن الأكوع، لكن فيه «وادخروا» بدل «وتصدقوا».

شيئاً. وبه قال ابنُ سُرَيجٍ من الشافعيةِ. وقال بعضُهم: يَضمَنها كُلَّها بمثلها أو قيمتها، وقِيل: يضمَنُ نِصْفَها، وقيل: ثُلثَهَا. وقيل: أدنَى جُزءٍ منها. وهو المشهورُ من مذهبِ الشافعيّ.

[٤٧٣١]وأما الجلودُ، ففي مُسندِ أحمدَ، عن قتادةَ بن النعمان، في حَدِيث الأَضَاحِي: «فكُلُوا، وتَصدَّقوا، واستمتِعُوا بجلودها، ولا تَبيعُوها»(١). ومِنَ العُلماء مَن رَخَّصَ في ذلك. ومِنهُم مَن قال: يُقاسِمُ الفُقَراءَ ثمنَهَا. والله أعلم.

[٤٧٣٢] مسألة: عن البَرَاء بن عازب قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنّ أوّلَ ما نبدأُ به في يومنا هذا أن نُصَلِّي، ثم نَرْجِع فننحر. فَمَن فَعَل ذلك فقد أصابَ سُنَّتنا، ومن ذَبح قبلَ الصلاةِ فإنّما هُوَ لحمٌ قَدَّمه لأَهْلِهِ، ليسَ هُو من النُّسكِ في شَيْءٍ»(٢). أخرجَاهُ. فلهذا قال الشافعيُّ وجماعةٌ من العلماء: إنَّ أَوَّلَ وقتِ ذَبْحِ الأضاحي إذا طلعت الشمسُ يومَ النَّحر، ومضى قَدرُ صلاةِ العيد والخُطْبَتَينَ. زاد أحمد: وأن يذبح الإِمامُ بعد ذلك. لما جاء في صَحيح مُسلم:

[٤٧٣٣]«وَأَلاَّ تَذْبحُوا حتَّى يَذْبَحَ الإِمامُ»(٣). وقال أبو حَنِيفَة: أمّا أهلُ السَّوادِ من القُرَى ونحوهم فَلَهُم أن يَذْبَحوا بعد طلوع الفجر؛ إذ لا صلاة عيد تُشرَعُ عنده لهم. وأما أهلُ الأمصار فلا يذبَحوا حتى يُصَلِّيَ الإِمامُ، والله أعلم. ثم قيل: لا يُشرَعُ الذبحُ إلا يومَ النَّحر وحدَه. وقيل: يومَ النَّحر لأهلِ الأمصارِ لِتَيسُّر الأضاحيّ عندهم. وأما أهلُ القُرَى فيومُ النَّحر وأيامُ التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جُبَير. وقيل: يومُ النحر، ويومٌ بعدَه للجميع، وقيل: ويومان بعده، وبه قال أحمد. وقيل: يومُ النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعي، لحديث جُبَير بن مُطعِم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال:

[٤٧٣٤]«أيامُ التشريق كُلُّها ذَبحٌ»(٤). رواه أحمد وابن حِبَّان. وقيل: إنَّ وقتَ الذَّبح يَمتدُّ إلى آخرِ ذي الحِجَّةِ، وبه قال إبراهيمُ النخَعِيُّ، وأبو سَلَمة بن عبد الرحمن. وهو قولٌ غريبٌ. وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، يقولُ تعالى: من أجل هذا ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾، أي: ذَلَّلناها لكم، وجعلناها مُنقادةً لكم خاضعة، إنْ شِئتُم رَكِبتُم، وإن شِئتُم حَلَبتُم، وإنْ شِئتُم ذَبحتُم. كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧﴾

يقولُ تعالى: إنما شَرَع لكم نَحرَ هذه الهدايا والضَّحَايا لتذكُروه عند ذَبحِها، فإنّه الخالقُ الرزّاقُ، لا أنّه

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٥ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٤/ ٢٦ وقال: وهو مرسل صحيح الإسناد.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٩٥١ و٩٦٥ و٥٥٤٥ ومسلم ١٩٦١ وأبو داود ٢٨٠١ والترمذي ١٥٠٨ والنسائي ٧/ ٢٢٢ وأحمد ٤/ ٣٠٣ وابن حبان ٥٩٠٦.

(٣) غريب هكذا. وأخرجه مسلم ١٩٦٤ من حديث جابر بلفظ «ولا تنحروا حتى ينحر النبي ﷺ».

(٤) أخرجه أحمد٤/ ٨٢ والبيهقي ٥/ ٢٩٥ من طريق سليمان بن موسى عن جبير بن مطعم بأتم منه، وإسناده منقطع. وأخرجه ابن حبان ٣٨٥٤ والبيهقي ٩/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦ من طريق سليمان عن عبد الرحمن بن أبي حسين عن جبير، وعبد الرحمن لم يوثقه غير ابن حبان، ولم يلق جبير بن مطعم.

يناله شَيْءٌ من لُحومها ولا دِمائها، فإنَّه تعالى هو الغنيُّ عما سِوَاهُ. وقد كانوا في جَاهليَّتِهم إذ ذَبَحُوها لآلهتهم وَضَعوا عَلَيها من لُحُوم قَرَابِينِهم، ونَضَحُوا عليها من دِمَائها، فقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ .

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا محمد بن أبي حَمّاد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جَريج قال: كان أهلُ الجاهلية ينضَحُون البيتَ بِلُحُوم الإبل ودِمَائها، فقال أصحابُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ: فنحنُ أحقُّ أن ننضح. فأنزل الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ . أي: يَتَقبَّل ذلك ويَجزي عليه؛ كما جاء في الصحيح:

[٤٧٣٥] «إنَّ الله لا يَنظُر إلى صُورِكم ولا إلى أموالِكم، ولكن يَنظُر إلى قُلوبكم وأعمالِكم»[1] .

[٤٧٣٦] وما جاء في الحديث: إنَّ الصدَقَةَ لتقَعُ في يَدِ الرَّحمن قبل أن تقع في يد السائل، وإنَّ الدم ليقعُ من الله بمكانٍ قبل أن يَقَع على الأرض[2] . كما تَقَدَّم في الحديث، رواه ابن ماجه والترمذيُّ وحَسَّنه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً ـ فمعناه أنه سِيقَ لتحقيق القَبُولِ من الله لمن أخلص في عمله، وليس له معنىً يتبادر عند العلماء المحققين سِوَى هذا، والله أعلم. وقال وكيعٌ، عن يحيى بن مُسلم ابن الضَّحاكِ: سألتُ عامراً الشَّعبيَّ عن جُلودِ الأضاحِي، فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ ، إن شئت فَبِعْ، وَإن شِئْتَ فأمسِكْ، وَإنْ شِئْتَ فَتَصدَّق. وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ ، أي: من أجل ذلك سَخَّر لَكم البدن، ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ ، أي: لِتُعظِّمُوه كما هداكم لدينه وشَرْعه وما يُحبُّه وما يرضاه، نَهَاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه. وقولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، أي: وبَشِّر يا محمدُ المحسنين، أي: في عَمَلِهم، القائمين بِحدُودِ الله المتَّبِعينَ ما شَرَع لهُم. المصَدِّقين بالرسُول فيما أبْلَغهم وجاءَهم به من عِنْدِ رَبِّهِ عَزَّ وجلَّ.

مسألة: وقد ذهبَ أبو حَنيفةَ ومالكٌ والثوريُّ إلى القولِ بوجوبِ الأضحيَّة على مَن ملك نِصاباً، وزاد أبو حَنيفةَ اشتراطَ الإقامة أيضاً.

[٤٧٣٧] واحتَجَّ لهم بما رواه أحمدُ وابنُ ماجه بإسنادٍ رجالُه كُلُّهم ثِقاتٌ، عن أبي هُرَيرة مرفوعاً: «مَنْ وَجد سعةً فلم يُضَحِّ فلا يَقربَنَّ مُصَلاَّنا»[3] . على أن فيه غرابةً، واستنكره أحمدُ بن حَنبلٍ.

[٤٧٣٨] وقال ابنُ عُمَر: أقامَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بالمدينة عَشْرَ سِنين يُضَحِّي[4] . رَواه التِّرمِذِيُّ. وقال الشافعيُّ وأحمدُ: لا تجِبُ الأُضحِيَّةُ، بل هي مُستحبَّةٌ.

---

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٧٥.

(٢) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ١٠٤.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٣٢١ وابن ماجه ٣١٢٣ وابن عدي ٦/ ٢٤٢ والحاكم ٢/ ٣٨٩ والدارقطني ٤/ ٢٨٥، وإسناده غير قوي. قال البوصيري في «الزوائد»: عبد الله بن عياش، وإن روى له مسلم، فإنما أخرج له في المتابعات والشواهد. وضعفه أبو داود والنسائي وقال أبو حاتم: صدوق، وقال ابن يونس: منكر الحديث. ووثقه ابن حبان اهـ وكرره الحاكم ٤/ ٢٣١ ـ ٢٣٢ وصححه ثم كرره عن أبي هريرة موقوفاً، وقال: أوقفه ابن وهب، إلا أن زيادة الثقة مقبولة، وأبو عبد الرحمن المقرىء، فوق الثقة. وقال الزيلعي في نصب الراية ٤/ ٢٠٧: قال في «التنقيح» ـ ابن عبد الهادي ـ وكذلك رواه حيوة بن شريح وغيره عن عبد الله بن عباس مرفوعاً، ورواه جعفر بن ربيعة وعبيد الله بن أبي جعفر عن الأعرج عن موقوفاً وهو أشبه بالصواب اهـ فالراجح وقفه والذي رفعه ابن عياش وحده، وقد اضطرب فيه فرفعه تارة، وأوقفه تارة. ورواه غيره موقوفاً. والله أعلم.

(٤) ضعيف، أخرجه الترمذي ١٥٠٧ وأحمد ٢/ ٣٨ وفي إسناده الحجاج بن أرطاة صدوق كثير الخطأ والتدليس وقد تفرد به، فهو ضعيف. ومع ذلك حسنه الترمذي!.

[٤٧٣٩] لما جَاءَ في الحديث: «ليس في المال حَقٌّ سوى الزكاة»(١). وقد تَقَدَّم أنه ـ ﷺ ـ ضَحَّى عن أُمَّتِه فأسقطَ ذلك وُجوبَها عنهم. وقال أبو سَرِيحَةَ: كنتُ جاراً لأبي بكر وعمَر، فكانا لا يُضَحِّيان خشيةَ أَنْ يَقْتَدِيَ الناسُ بهما. وقال بعضُ الناس: الأُضحيَةُ سنةُ كِفَايةٍ، إذا قام بها واحدٌ من أهل دارٍ أو مَحلةٍ أو بيتٍ سقطت عن الباقين، لأن المقصودَ إظهَارُ الشِّعار.

[٤٧٤٠] وقد رَوَى الإمامُ أحمد، وأهل السُّنَن ـ وحَسَّنه التِرمذيُّ ـ عن مِخْنَفِ بن سُلَيم أنه سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ بعَرَفاتٍ: «على كُلِّ أهلِ بيتٍ في كُلِّ عامٍ أَضْحَاةٌ وعَتِيرَةٌ، هل تَدرُونَ ما العَتِيرةُ؟ هي التي تَدْعُونَها الرَّجَبِيَّة»(٢). وقد تُكلِّم في إسنادِهِ.

[٤٧٤١] وقال أبو أَيُّوبَ: كان الرجلُ في عَهدِ رسول الله ـ ﷺ ـ يُضَحِّي بالشاةِ الواحدةِ عنه وعن أهل بيته، فيأكلون ويُطعمون حتى تَبَاهى الناسُ فصارَ كما تَرَى(٣). رواه الترمذيُّ وصَحَّحه، وابنُ ماجه. وكان عبدُ الله بن هِشَامٍ يُضَحِّي بالشاةِ الواحدةِ عن جَميعِ أهلِه. رَوَاه البخاريُّ.

[٤٧٤٢] وأما مقدار سِنِّ الأضحية. فقد روى مُسلِم عن جابرٍ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لاَ تَذْبَحُوا إلاَّ مُسِنَّةً، إلا أن يَعسُرَ عليكم فَتذبَحُوا جَذَعةً من الضأن»(٤). ومن هاهنا ذهب الزُهريُّ إلى أن الجَذَع لا يُجزِىءُ. وقابله الأوزاعيُّ فذهَبَ إلى أن الجذَعَ يُجزِىء من كُلِّ جنس، وهما غريبان. وقال الجمهور: إنما يجزِىء الثَّنِيُّ من الإِبل والبقرِ والمَعزِ، والجَذَعُ من الضَّأنِ. فأما الثَّنِيُّ من الإِبل فهو: الذي له خمس سنين. ودخل في السادسَة. ومن البَقَرِ ما لَه سنتان ودَخَلَ في الثالثة. وقيل ما له ثَلاثُ سنين ودخَلَ في الرابعة. ومن المَعز ما له سنتان، وأما الجَذَع من الضأن فقيل: ما له سنةٌ، وقيل: عشرةُ أشهُر، وقيل: ثمانيةُ أشهُرٍ، وقيل: ستةُ أشهُر، وهو أَقَلُّ ما قِيل في سِنِّهِ، وما دُونَه فهو حَمَلٌ، والفرقُ بينهما أنَّ الحَمَل شعرُ ظَهْرِه قائِمٌ، والجَذَعُ شعرُ ظَهْرِه نائمٌ، قد انعدل صدْعَينِ. والله أعلم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾

يخبرُ تعالى أنه يَدْفَع عن عباده الذين توكَّلُوا عليه وأنابُوا إليه شرَّ الأشرار وكيدَ الفُجَّار، ويحفظُهم ويَكْلؤهم ويَنصُرُهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٖ قَدْرٗا﴾ [الطلاق: ٣]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾،

---

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٧٧ وانظر «تلخيص الحبير» ٢/ ١٦٠.

(٢) أخرجه أبو داود ٢٧٨٨ والترمذي ١٥١٨ والنسائي ٧/ ١٦٧ وابن ماجه ٣١٢٥ وأحمد ٤/ ٢١٥. قال الترمذي: حسن غريب. وقال الزيلعي في «نصب الراية» ٤/ ٢١١: قال عبد الحق: إسناده ضعيف. قال ابن القطان: علته الجهل بحال أبي رملة، واسمه عامر، فإنه لا يعرف إلا بهذا. ورواه أيضاً حبيب بن مخنف، وهو مجهول اهـ. قال الزيلعي: وهذا الطريق عند عبد الرزاق في «مصنفه». وقال البيهقي في «المعرفة»: إن صح هذا، فالمراد الاستحباب، بدليل أنه قرن بين الأضحية والعتيرة، والعتيرة غير واجبة بالإجماع اهـ. فالحديث غير قوي، تفرد به اثنان وكلاهما مجهول، والمتن غريب. وذكر العتيرة منكر، فقد روى الستة عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا فرع ولا عتيرة». راجع نصب الراية ٤/ ٢٠٨.

(٣) أخرجه الترمذي ١٥٠٥ وابن ماجه ٣١٤٧ من حديث أبي أيوب وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٤) أخرجه مسلم ١٩٦٣ وأبو داود ٢٧٩٧ وابن ماجه ٣١٤١ وأحمد ٣/ ٣١٢ وأبو يعلى ٢٣٢٤، وهو وإن رواه مسلم، فإن فيه عنعنة أبي الزبير، وضعفه بعضهم.

أي: لا يُحبُّ من عبادِهِ من اتَّصفَ بهذا، وهو الخيانةُ في العُهُود والمواثيق، لا يفي بما قال. والكفر: الجَحدُ للنِّعم، فلا يعترِفُ به.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾

قال العَوفيُّ، عن ابن عبَّاس: نَزَلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة. وقاله مجاهد والضحاك وقتادة وغير واحد. وقال غير واحد من السلف كابن عَبَّاسٍ، ومُجَاهد، وعُروةَ بن الزُّبير، وزيد بن أسلَم، ومقاتِل بن حَيَّانَ، وقتادة، وغيرهم: هذه أول آية نزلت في الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية.

[٤٧٤٣] وقال ابنُ جَرير: حَدَّثني يحيى بنُ داودَ الواسطيُّ، حدثنا إسحاقُ بنُ يوسفَ، عن سفيانَ، عن الأعمشِ، عن مسلم ـ هو البَطِين ـ عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاس قال: لما خَرَج النبي ـ ﷺ ـ من مَكّة قال أبو بكر: أخرجُوا نَبِيَّهم! إنا لله وإنا إليه راجعونَ، لَيَهلِكُنّ. قال ابن عباس: فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾. قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: فعرفتُ أنه سيكونُ قِتَالٌ. وَرَواه الإمامُ أحمدُ، عن إسحاقَ بنُ يوسُفَ الأزرَقِ، به، وزاد: قال ابنُ عَبَّاسٍ: وهي أَوَّل آيَةٍ نَزَلت في القتال[1]. ورواه التِّرمذيُّ، والنسائي في التفسير من سُننهما، وابنُ أبي حاتم من حديثِ إسحاقَ بن يُوسُفَ ـ زاد الترمذيُّ: ووكيعٌ ـ كلاهما عن سُفيانَ الثوريِّ، به. وقال الترمذي: حديث حسن، وقد رَوَاه غَيرُ واحدٍ، عن الثوريِّ، وليس فيه ابنُ عباس.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، أي: هو قادرٌ على نصر عباده المؤمنين من غير قتالٍ، ولكن هو يُريد من عباده أن يبلو جُهدَهم في طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد: ٤ ـ ٦]. وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: ١٦]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١]. والآيات في هذا كثيرةٌ. ولهذا قال ابنُ عباس في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾: وقد فَعَل.

وإنما شَرَع الله تعالى الجهادَ في الوقت الأليَق به، لأنهم لما كانوا بمكّة كان المشركون أكثَرَ عدداً، فلو أَمَر المسلمين، وهم أقل من العشر، بقتال الباقين لشَقَّ عليهم.

(١) حسن، أخرجه الترمذي ٣١٧٠ والنسائي ١١٣٤٥ «كبرى» والطبري ٢٥٢٥٤ و٢٥٢٥٥ عن ابن عباس، وإسناده صحيح، رجاله رجال البخاري ومسلم، فهو وإن ذكر الترمذي أنه روي مرسلاً، فإن ذلك لا يعل المرفوع لثقة رجاله، وزيادة الثقة مقبولة، والله أعلم.

[٤٧٤٤] ولهذا لما بايَعَ أهلُ يثربَ ليلة العقبة رسولَ الله ـ ﷺ ـ وكانوا نيِّفاً وثمانين، قالوا: يا رسولَ الله، ألا نَميلُ على أهل الوادي ـ يعنون أهلَ مِنىً ـ لَيالِيَ مِنىً فنقتلَهم؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إني لم أُومَر بهذا[1]. فَلَمَّا بَغَى المشركون، وأخرجوا النبيَّ ـ ﷺ ـ من بين أظهُرهم، وهَمُّوا بقتله، وشَرَّدُوا أصحابه شَذَرَ مَذَرَ، فذهَب منهم طائفةٌ إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينةِ. فلما استقَروا بالمدينةِ، ووافاهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ واجتمعوا عليه، وقاموا بنَصْرِهِ، وصارت لهم دارَ إسلام ومعقِلاً يلجؤون إليه ـ شَرَعَ الله جهادَ الأعداءِ، فكانت هذه الآيةُ أوَّلَ ما نزل في ذلك، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾. قال العَوفيُّ، عن ابنِ عَبَّاسٍ: أُخرِجُوا من مَكَّة إلى المدينة بغير حَقٍّ، يعني محمداً وأصحابه. ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾. أي: ما كانَ لهم إلى قومهم إساءةٌ، ولا كان لهم ذنب إلا أنَّهم وَحَّدُوا الله وَعَبَدُوه لا شريكَ له. وهذا استثناءٌ منقطعٌ بالنسبة إلى ما في نَفْسِ الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبرُ الذُّنوبِ، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى في قِصَّة أصحاب الأُخدُودِ: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٨]. ولهذا لَمَّا كان المسلمون يَرتجِزُون في بناء الخَنْدَقِ، ويقولون:

لاهُمَّ لَولاَ أنتَ ما اهتَدَينا ... وَلاَ تَصَدَّقْنا وَلاَ صَلَّينَا

فأنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَينَا ... وَثَبِّتِ الأقْدَامَ إنْ لاَقَينَا

إنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوا عَلَينَا ... إذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَينَا

فيوافقهم رسول الله ـ ﷺ ـ ويقولُ معهم آخر كُلِّ قافيةٍ، فإذا قالوا: «إذا أرادوا فتنةً أبينَا»، يقول: «أبينا»، يمدُّ بها صَوْتَه. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، أي: لولا أنَّه يدفع عن قوم بقوم، ويَكْشِفُ شَرَّ أُناسٍ عن غيرهم، بما يخلقه ويُقَدِّره من الأسباب لفسَدَتِ الأرضُ، وأهلَكَ القويُّ الضَّعيفَ. ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾، وهي المعابد الصِّغار للرهبان، قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وأبو العاليةِ، وعكرمةُ، والضَّحَّاكُ، وغيرُهم. وقال قتادةُ: هي معابد الصابئين. وفي رواية عنه: صوامعُ المجوسِ. وقال مقاتلُ بنُ حَيَّان: هي البيوتُ التي على الطرق. ﴿وَبِيَعٌ﴾، وهي أوسع منها، وأكثرُ عابدين فيها. وهي للنصارى أيضاً، قاله أبو العاليةِ، وقتادةُ، والضَّحاكُ، وَأبو صَخْرٍ، ومقاتلُ بن حَيَّان، وخُصَيف، وغيرهم. وحكى ابنُ جُبَير عن مُجاهدٍ وغيره: أنها كنائس اليهود. وحكى السُّدِّيُّ عمن حَدَّثه، عن ابن عباس: أنها كنائسُ اليهود. ومجاهد إنما قال: هي الكنائس. والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: الصلوات الكَنَائِس. وكذا قال عكرمةُ، والضَّحَّاكُ، وقتادةُ: إنها كنائسُ اليهودِ. وهم يُسَمُّونَها: صلُوتا. وحكى السُّدِّيُّ، عمن حَدَّثه، عن ابن عباس: أنها كنائِسُ النصارى. وقال أبو العالية، وغيرُه: الصلواتُ: معابِدُ الصابئين. وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ: الصَّلَواتُ: مساجدُ لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطُّرق، وأما المساجدُ فهي للمسلمين. وقولُه: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، فقد قيل الضميرُ في قولِه: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ عائدٌ إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات. وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً. وقال ابن جرير: الصوابُ لهدِّمت صوامع الرهبان وَبِيَعُ النصارى وصلواتُ اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يُذْكَرُ فيها اسمُ اللهِ

(١) لم أره مسنداً. والمرفوع منه ورد في أثناء حديث آخر، انظر «أسباب النزول» للواحدي ٦٢١.

كثيراً، لأن هذا هو المستعملُ المعروف في كَلامَ العرب. وقال بعضُ العلماء: هذا تَرَقٍّ من الأقلِّ إلى الأكثر إلى أن ينتهي إلى المساجِدِ، وهي أكثر عُمَّاراً وأكثر عُبَّاداً، وهم ذَوُو القَصْدِ الصَّحيح.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٨﴾﴾ [محمد: ٧ ـ ٨]. وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وَصَف نفسه بالقُوَّة والعِزَّة، فَبِقُوَّتِهِ خَلَق كُلَّ شيءٍ فَقَدَّره تقديراً، وبِعِزَّته لا يقهَره قاهر، ولا يَغلِبُه غالِبٌ، بل كلُّ شيءٍ ذليل لديه، فقير إليه. ومَن كان القويُّ العزيزُ ناصِرَه فهو المنصور، وعَدُوُّه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]. وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع الزَّهرانيّ، حدثنا حَمَّاد بنُ زيد، عن أيوب وهشام، عن محمد قال: قال عثمان بن عفَّان: فِينا نزَلت: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾، فَأُخرِجنا من دِيارِنا بغير حَقٍّ إلاَّ أن قُلنا: «رَبُّنا الله»، ثم مُكِّنا في الأرض، فأقمنَا الصَّلاةَ، وآتينا الزكاةَ، وأمَرْنا بالمعروفِ، ونَهينا عن المنكر، ولله عاقبةُ الأمورِ، فَهِيَ لي ولأَصْحَابي. وقال أَبو العَالِيةِ: هُم أصحابُ مُحمَّدٍ ﷺ. وقال الصبَّاحُ بن سَوَادة الكِنديُّ: سَمِعتُ عُمَر ابن عبد العزيز يخطُب وهو يقولُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾... الآية، ثم قال: ألا إنَّها ليسَتْ على الوالي وحدَه، ولَكِنَّها على الوالي والمُوَلَّى عليه، ألا أُنَبِّئكم بِمَالَكُم على الوالي من ذَلكم، وبِما للوالي عليكُم منه؟ إنَّ لكم على الوالي من ذلكم أن يؤاخِذَكم بحُقُوق الله عليكم، وأن يأخُذَ لبعضكم من بَعْض، وأن يَهدِيَكم للتي هي أقومُ ما استطاع، وإنَّ عليكم من ذلك الطاعة غير المبْزوزَة ولا المُسْتَكْرَهِ بها، ولا المُخَالِفِ سِرُّها عَلانِيَتَها. وقال عَطِيَّةُ العَوْفي: هذه الآيةُ كقولِهِ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]. وقولُه: ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾، كقولِه تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وقال زيدُ بن أسلَمَ: ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾: وعند الله ثوابُ ما صَنَعُوا.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

يقولُ تعالى مُسَلِّياً نبيَّه محمداً ـ ﷺ ـ في تكذيب من خالَفه من قومه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾، أي: مع ما جاء به من الآياتِ البيِّناتِ والدَّلائلِ الواضِحاتِ. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾، أي: أنظرتُهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي: فكيفَ كان إنكَارِي عليهم ومُعاقَبَتي

لهم؟! ذكر بعضُ السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وبين إهلاكِ الله له أربعونَ سنة.

[٤٧٤٥] وفي الصَّحيحَينِ عن أبي موسى، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنَّ الله لَيُمْلي للظَّالم حَتَّى إذا أَخذَه لم يُفلِتْه»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[(1)] [هود: ١٠٢]. ثُمَّ قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾، أي: كَمْ من قَريةٍ أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: مُكَذِّبة لِرَسُولِها، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، قال الضحاك: سُقُوفها، أي: قد خَرِبت منازلُها وتعطَّلَتْ حَواضِرُها. ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾، أي: لا يُستقَى منها، ولا يَرِدُها أحدٌ بعد كثرة وَارِديها والازْدِحام علَيها. ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾، قال عكرمةُ: يعني المبيض بالجِصِّ. ورُوِي عن ابن علي بن أبي طالب، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، وأبي المُلَيح، والضَّحَّاك، نحوُ ذلك. وقال آخرون: هو المنيف المُرتفِعُ. وقال آخرون: المشيد المَنِيع الحَصِين. وكُلُّ هذه الأقوالِ متقاربةٌ، ولا منافاةَ بينها، فإنه لم يحم أهلَه شِدَّةُ بنائه ولا ارتفاعُه، ولا إحكامُه ولا حَصَانتُه عن حُلُولِ بأسِ الله بهم، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: بأبدانهم وبفكرهم أيضاً، وذلك كافٍ، كما قال ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار. حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سَيَّار، حدثنا جعفر، حدثنا مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أَنْ يا مُوسَى، اتَّخذ نَعلين من حديدٍ وعَصا، ثم سِحْ في الأرض واطلُب الآثارَ والعبرَ، حتى تَتَخرَّقَ النعلان وتَكسَرَ العَصا.

وقال ابنُ أبي الدنيا: قال بعض الحُكَماء: أَحْيِ قَلْبَكَ بالمَواعظ، ونَوِّره بالفِكَر، ومَوِّته بالزهد، وقَوِّه باليقين، وذَلِّلْهُ بالموت وقَرِّره بالفناء، وبَصِّره فجائع الدنيا، وحَذِّره صولة الدهر، وفحش تَقَلُّب الأيام، واعرض عليه أخبارَ الماضين، وذَكِّره ما أصاب من كان قبله، وسِرْ في ديارهم وآثارِهم، وانظر ما فعلوا، وأين حلُّوا، وعَمَّ انقلبوا. أي: فينظروا ما حلَّ بالأمم المكذبة من النِّقَم والنَّكالِ، ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، أي: فيعتبرون بها ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، أي: ليس العمى عَمَى البَصَر، وإنما العَمَى عَمى البَصِيرَةِ، وإن كانت القُوَّةُ الباصرةُ سليمةً فإنها لا تنفذ إلى العِبَر، ولا تدري ما الخَبَر. وما أحسن ما قاله بعضُ الشعراء في هذا المعنى، وهو أبو مُحمَّد عبدُ الله بنُ مُحمَّدِ بنِ سَارَةَ الأندلُسِيُّ الشَّنْتَرِينيُّ، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمئة:

يَا مَنْ يُصِيخُ إِلَى دَاعِي الشَّقَاءِ، وَقَدْ ... نَادَى بِهِ النَّاعِيَانِ: الشَّيْبُ وَالْكِبَرُ
إِنْ كُنتَ لاَ تَسْمَعِ الذِّكْرَى، فَفِيمَ تُرَى ... فِي رَأْسِكَ الوَاعِيانِ: السَّمْعُ وَالبَصَرُ؟
لَيْسَ الأَصَمُّ ولا الأعمَى سوى رَجُلٍ ... لَمْ يَهْدِهِ الهَادِيَانِ: العَيْنُ والأثَرُ
لاَ الدَّهرُ يَبْقى وَلاَ الدُّنيا، وَلاَ الفَلَكُ ... الأَعْلَى وَلاَ النَّيِّرانِ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
لَيَرْحَلَنَّ عَنِ الدُّنْيَا، وَإنْ كَرِهَا ... فِرَاقَهَا، الثَّاوِيَانِ: البَدْوُ والحَضَرُ

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

(١) والحديث تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٦.

يقول تعالى لنبيه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾، أي: هؤلاء الكفارُ المُلْحِدُون المُكَذِّبون بالله وكتابه ورَسُوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]. وقولُه: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، أي: الذي قد وَعَد، من إقامةِ الساعةِ والانتقام من أعدائِهِ، والإكرام لأوليائه. قال الأصمعيُّ: كنتُ عند أبي عَمْرو بن العَلاَء، فَجاءه عمرو بن عُبَيد، فقال: يا أبا عَمْرو، وَهَل يُخْلِفُ الله الميعاد؟ فقال: لا. فذكر آيةَ وَعِيدٍ، فقال له: أمن العجم أنت؟ إنَّ العربَ تَعُدُّ الرجوع عن الوَعْدِ لُؤماً، وعن الإيعاد كرماً، أو مَا سمعتَ قول الشاعر:

لا يُرْهِبُ ابنَ العَمِّ والجار سَطْوَتي ... ولا يَنْثَني عن سَطْوَة المُتَهَدِّد
فَإنِّي وَإنْ أوْعَدْتُه أوْ وَعَدْتُه ... لَمُخْلِفُ إيعَادِي ومُنْجِزُ مَوْعِدِي

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، أي: هو تعالى لا يَعجَلُ، فإنَّ مقدارَ ألفِ سَنَةٍ عند خَلْقِهِ كيوم واحدٍ عنده بالنسبة إلى حُكمه، لِعِلْمِه بأنَّه على الانتقام قادرٌ، وأنه لا يفوتُه شيءٌ، وإن أجَّلَ وأنظَرَ وأملَى. ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

[٤٧٤٦] قال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا الحسنُ بن عَرَفَةَ، حدثني عبدةُ بن سُلَيمان، عن محمد بن عَمْرو، عن أبي سَلَمَة، عن أبي هُرَيرَةَ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «يدخلُ فقراءُ المسلمين الجنةَ قبلَ الأغنياءِ بنصف يَوم، خمسمئةِ عام»[١]. وَرَواه التِّرمِذِيُّ والنَّسائيُّ، من حديث الثَّورِيِّ، عن محمد بن عمرٍو، به. وقال التِّرمِذِيُّ: «حسن صَحيح». وقد رواه ابنُ جرير، عن أبي هُرَيرَةَ موقوفاً، فقال: حدثني يعقوبُ، حَدَّثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا سَعِيد الجُرَيرِيُّ، عن أبي نَضْرَةَ، عن سُمَير بن نَهَارٍ قال: قال أبو هُرَيرة: يدخُلُ فقراءُ المسلمين الجنةَ قبلَ الأغنياءِ بمقدارِ نصف يوم. قلت: وما نصف يوم؟ قال: أوَ ما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

[٤٧٤٧] وقال أبو داود في آخر كتاب المَلاَحم من سُنَنِهِ: حدثنا عَمرو بن عُثمانَ، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صَفوانُ، عن شُرَيح بن عُبَيد، عن سَعدِ بن أبي وقَّاص، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ أنه قال: «إني لأرجو ألاَّ تَعجِزَ أُمَّتي عند ربِّها أن يُؤخِّرهم نِصفَ يوم». قيل لسعد: وما نِصفُ يوم؟ قال: خَمسُمئةِ سنةٍ[٢]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن سِنَان، حدثنا عبد الرحمن بن مهديّ، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عبَّاس ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، قال: من الأيام التي خَلَق الله فيها السموات والأرض. رواه ابنُ جرير، عن ابن مَهدي، وبه قال مجاهدٌ، وعكرمةُ، ونصَّ عليه أحمدُ بنُ حَنبَلٍ في كتاب الردّ على الجَهْمِيَّة». وقال مجاهدٌ: هذه الآية كقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٥].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عارمٌ ـ محمد بن الفَضل ـ حَدَّثنا حَمَّاد بن زيد، عن يحيى ابن

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٥٣ و٢٣٥٤ والنسائي في «الكبرى» ١١٣٤٨ وابن ماجه ٤١٢٢ وأحمد ٢/٢٩٦ و٤٥١ وابن حبان ٦٧٦ من حديث أبي هريرة، وإسناده حسن، وله شواهد كثيرة راجع «الترغيب والترهيب» ٤٦٥٥ و٤٦٥٦ و٤٦٥٧ و٤٦٥٨ و٤٦٥٩ و٤٦٦٠ وعند مسلم ٢٢٧٩ بسياق آخر.

(٢) أخرجه أبو داود ٤٣٥٠ وإسناده صحيح، رجاله ثقات.

عَتيق، عن محمد بن سيرين، عن رَجُل من أهل الكتاب أسلَمَ قال: إن الله تعالى خلق السمواتِ والأرض في ستَّةِ أيام، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وجعل أَجلَ الدنيا ستَّةَ أيام، وجعَلَ السَّاعة في اليوم السابعِ، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، فقد مضتِ الستةُ الأيامُ، وأنتُم في اليوم السابع. فَمَثَلُ ذلك كَمَثَلِ الحامِلِ إذا دخَلَت شهرَها، ففي أَيَّةِ لحظةٍ وَلَدت كان تَماماً.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

يقولُ تعالى لنبيِّه ـ ﷺ ـ حين طلب منه الكُفَّارُ وُقوعَ العذاب واستعجَلُوه به: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾، أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ، وليسَ إليَّ من حِسَابكم من شَيْءٍ، أَمْرُكُم إلى الله، إن شاء عَجَّل لكم العذابَ، وإن شاء أَخَّره عنكم، وإن شاء تابَ على مَن يتوب إليه، وإن شاء أَضلَّ من كتب عليه الشَّقاوة، وهو الفَعَّال لما يشاء ويُريد ويَختار، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، و﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: آمنَتْ قلوبُهم وصَدَّقوا إيمانهم بأعمالهم، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، أي: مَغفرةٌ لما سَلَف من سَيِّئاتهم، ومجازَاةٌ حَسَنةٌ على القليلِ من حَسَناتِهم. قال محمدُ بنُ كعبِ القُرَظِيُّ: إذا سَمعتَ الله تعالى يقولُ: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، فهو الجنةُ. وقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾، قال مجاهد: يُثَبِّطُونَ الناس عن مُتَابعَةِ النبيِّ ﷺ. وكذا قال عبد الله بن الزبير: مُثَبِّطين. وقال ابن عباس: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: مُراغِمِينَ. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، وهي النارُ الحارَّة المُوجِعَةُ الشديدةُ عذابُها ونَكالُها، أجارنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

قد ذَكَر كثيرٌ من المفسِّرين هاهنا قصةَ الغَرَانيق، وما كان من رُجُوع كثير من المُهاجرة إلى أرضِ الحَبَشة، ظَنّاً منهم أن مشركي قريش قد أسلمُوا. ولكنها من طرق كلها مُرسَلَةٍ، ولم أرها مسندةً من وجهٍ صحيحٍ، والله أعلم.

[٤٧٤٨] قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونُس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَير قال: قرأ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بمكَّةَ «النَّجمَ» فلما بَلَغ هذا الموضعَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾، قال: فألقى الشيطانُ على لِسَانه: «تلك الغَرانِيقُ العُلَى. وإنَّ شفاعَتَهُنَّ تُرتَجى». قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبلَ اليوم. فَسَجَدَ وسَجَدُوا، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1]. رواهُ ابنُ جَرِير، عن بندار، عن غُنْدَر، عن شعبة، به نحوه. وهو مرسل.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٥٣٣١ و٢٥٣٣٢ عن سعيد بن جبير مرسلاً، والمرسل من قسم الضعيف، والمتن باطل.

[٤٧٤٩] وقد رواه البَزَّارُ في مسنده، عن يوسف بن حماد، عن أميَّةَ بن خالد، عن شُعبَةَ، عن أبي بشر، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عباس، فيما أحسِبُ ـ الشكُ في الحديث ـ أنَّ النبيَّ ـ ﷺ ـ قرأ بمكَّة سُورَةَ النَّجم، حتى انتهَى إلى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾. وذَكَر بَقِيَّته[١]. ثم قال البَزَّارُ: «لا نَعْلَمهُ يُرْوَى مُتَّصِلاً إلا بهذَا الإسنادِ، تَفَرَّد بِوَصْلِهِ أميةُ بنُ خالِدٍ، وهو ثِقَةٌ مشهور. إنما يُروى هذا من طَرِيق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس». ثم رَوَاه ابنُ أبي حاتم، عن أبي العَالِية، وعن السُدِّيّ، مُرسَلاً. وكذا رَواه ابنُ جَرِير، عن محمد بن كعب القُرَظِيّ، ومحمد بن قَيس، مرسلاً أيضاً.

[٤٧٥٠] وقال قتادةُ: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ يُصَلّي عند المقام إذ نَعَس، فألقى الشيطان على لسانه «وإن شفاعَتَها لَتُرتَجى. وإنها لَمَع الغَرَانيق العُلَى». فَحَفِظَها المشركُونَ. وأجرى الشيطانُ أن نبيَّ الله قد قَرَأها، فَذَلَّتْ بها ألسنتُهم، فأنزل الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ . . . الآية، فَدَحَر الله الشيطانَ[٢].

[٤٧٥١] ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا مُوسَى بن أبي موسى الكوفيُّ، حدثنا محمد بن إسحاق المُسَيَّبي، حدثنا محمد بن فُلَيح، عن موسى بن عُقبَةَ، عن ابن شِهَابٍ قال: أُنزلَت سورةُ النَّجم، وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجلُ يذكُر آلهتنا بخير أقْرَرْناه وأصحابَه، ولكنّه لا يذكُر من خَالَف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يَذْكُر آلهتنا من الشَّتْم والشَّر. وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ قد اشتدَّ عليه ما ناله وأصحابَه من أذاهم وتكذِيبهم، وأحزَنَه ضَلالُهم، فكانَ يتمنَّى هُدَاهم، فلما أنزل الله سورة النجم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾، ألقى الشيطانُ عِندها كلماتٍ حين ذَكَر الله الطواغِيت، فقال: «وإنهنّ لَهُنّ الغرانيقُ العُلَى. وإنَّ شفاعَتَهُنَّ لهِي التي تُرتَجى». وكان ذلك من سَجْعِ الشَّيطان وَفتنَتِهِ، فوقَعت هاتان الكلمتان في قَلْب كُلِّ مُشْرِكٍ بمكَّة، وذَلَّت بها ألسنتُهم، وَتباشَرُوا بها، وقالوا: إنَّ محمداً قد رَجَع إلى دِينِهِ الأوَّل، وَدِينِ قَوْمِهِ. فلما بَلَغ رسولُ الله ـ ﷺ ـ آخر النَّجم، سَجَدَ وسَجد كُلُّ من حَضَرهُ من مُسلِم أو مُشرِكٍ. غَير أنَّ الوليدَ بن المُغِيرةِ كان رَجُلاً كَبِيراً، فرَفَع على كَفِّه تراباً، فَسجد عليه، فَعَجِب الفريقان كِلاَهما من جَمَاعتهم في السُّجودِ لِسُجود رسول الله ـ ﷺ ـ فأمّا المُسلِمُونَ فَعجِبُوا لِسُجودِ المشركين مَعَهُم على غير إيمانٍ ولا يقينٍ ـ ولم يَكُن المسلمون سَمِعُوا الَّذي ألقى الشيطانُ في مَسَامع المشركين ـ وأما المشركون فاطمأنت أنفُسهم لمَا ألقى الشيطانُ في أُمنِيَةِ رسُولِ الله ـ ﷺ ـ وحَدَّثهم به الشيطانُ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قد قَرَأها في السورة، فَسَجَدُوا لتعظيم آلهتهم فَفَشَت تلك الكلمةُ في الناس، وأظهرها الشيطانُ، حتى بلغت أرضَ الحبشة ومَن بها من المسلمين، عثمانَ بنِ مظعونٍ وأصحابَه، وتحدَّثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلّهم، وصَلُّوا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ وبلغهم سجودُ الوليد بن المغيرَة على التراب على كَفه، وحُدِّثوا أن المسلمين قد أَمِنُوا بمكة. فَأَقبلُوا سِراعاً وقد نَسَخ الله ما ألقى الشيطانُ، وأحكم الله تعالى

---

(١) باطل. تفرد بوصله أمية بن خالد القيسي، كما ذكر البزار، وهو وإن وثقه الجمهور لكن نقل الذهبي في الميزان ١٠٢٩ عن أحمد أنه لم يحمده. وذكره العقيلي في «الضعفاء» اهـ وقد رواه غيره عن سعيد بن جبير، ليس فيه ذكر ابن عباس. وقد ذكر البزار أن هذا الحديث، إنما يروى من طريق الكلبي. والكلبي هو محمد ابن السائب متروك متهم. وورد عن أبي العالية مرسلاً أخرجه الطبري ٢٥٣٢٩ و٢٥٣٣٠، وورد عن الضحاك ٢٥٣٣٤ وعن محمد بن كعب، ومحمد بن قيس ٢٥٣٢٧ وهي مراسيل واهية، لاحجة في شيء منها، وألفاظها مضطربة.

(٢) هو مرسل، والمرسل من قسم الضعيف.

آياتِهِ، وحَفِظه الله من الفِرْيَة، وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾، فلما بَيَّن الله قضاءَه، وبَرَّأه من سَجْعِ الشيطانِ، انقلبَ المشركُون بِضَلالِهم وعَدَاوتهم المسلمين، واشتدُّوا عليهم[1]. وهذا أيضاً مرسل.
وفي تفسير ابن جَرير عن الزُّهريِّ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هِشَام، نحوه. وقد رواه الحافظ أبو بكر البَيهقيُّ في كتابه «دلائل النبوة» فلم يَجُز به موسى بن عُقبَةَ، ساقه في مَغازيه بنحوه، قال: وقد رَوينا عن ابن إسحاق هذهِ القِصَّة. قلت: وقد ذَكرها محمدُ بن إسحاقَ في السيرة بِنَحوٍ من هذا[2]، وكلها مرسلَات ومنقطعاتٌ، فالله أعلم. وقد ساقها البغويُّ في تفسيره مجموعةً من كلام ابن عباس، ومحمد بن كعب القُرَظي، وغيرهما بِنَحوٍ من ذلك، ثم سَأل هاهنا سؤالاً: «كيف وَقَع مثلُ هذا مع العِصْمَةِ المضمونةِ من الله لرسوله صلواتُ الله وسلامُه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس، من ألطفها: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك. فَتَوهَّموا أنه صَدر عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ وليس كذلك في نفسِ الأمرِ، بل إنما كان من صَنيع الشيطان لا من رسول الرحمن والله أعلم.

وهكذا تنوعت أجوبةُ المُتكلِّمين عن هذا بتقدير صِحَّتِهِ. وقد تَعَرَّض القاضي عياض رحمه الله في كتاب «الشِّفَا» لهذا، وأجاب بما حاصلُه: . . . .[3]. وقولُه تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، هذا فيه تسليةٌ له ـ صلوات الله وسلامُه عليه ـ أي: لا يَهيدَنَّك ذلك، فقد أصاب مثلَ هذا مَن قبلك من المُرسَلين والأنبياء. قال البخاريُّ: قال ابنُ عَبَّاسٍ: ﴿فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾: إذا حَدَّث ألقى الشيطان في حديثه، فَيبطِلُ الله ما يُلقي الشيطانُ ويُحكِمُ الله آياته. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ

(١) هذا مرسل، ومراسيل الزهري واهية، لأنه حافظ ثبت، لا يرسل إلا لعلة، كما قرر علماء هذا الفن، وهو عند الطبري ٢٥٣٣٥ مختصراً.

(٢) باطل. وورد عن ابن عباس أخرجه الطبري ٢٥٣٣٣ وفيه عطية العوفي، واه، روى مناكير كثيرة، وفي الإسناد مجاهيل. وأعجب من ذلك ما أخرجه الطبراني ٩٠٧٨ عن عروة مرسلاً فذكر في ذلك خبر طويلاً وفيه «أن من هاجر إلى الحبشة بلغهُ هذا الخبر فرجع إلى المدينة. .» وفيه ابن لهيعة، ومع ذلك قال الهيثمي في «المجمع» ١١١٨٦: رواه الطبراني مرسلاً، وفيه ابن لهيعة، ولا يُحتمل هذا من ابن لهيعة، أي أن راو آخر ركب هذا الحديث.
الخلاصة: «خبر الغرانيق» باطل لا أصل له، والظاهر أنه من وضع الزنادقة، ركبوا له أسانيد إلى بعض التابعين، بل وصل به بعضهم إلى ابن عباس، ولا يصح عنه، وابن عباس على فرض ثبوته عنه، لم يدرك تلك الحادثة، وقد قال ابن كثير رحمه الله: وكلها مرسلات ومنقطعات. وقد حكم ببطلان قصة الغرانيق، أبو بكر بن العربي، والشوكاني، والبيهقي، وابن إسحق صاحب السيرة حيث سئل عن هذه القصة، فقال: هذا من وضع الزنادقة. نقله عنه أبو حيان في البحر. وقال أبو منصور الماتريدي: هذا الخبر من إيحاء الشيطان إلى أوليائه الزنادقة، والرسالة بريئة من هذه الرواية، وقال القاضي عياض: يكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، راجع ما ذكره العلامة الآلوسي في «روح البيان» ١٧/ ١٨٢، قال الآلوسي: ويكفي في ردها قوله تعالى في وصف القرآن ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ اهـ. وقد جمع الألباني رسالة جمع طرق هذا الخبر وتكلم على تلك الطرق وسماها «نصب المجانيق في نسف قصة الغرانيق». وحكم بوضعها العلامة أحمد شاكر، والله تعالى أعلم.

(٣) هنا بياض في بعض الأصول؛ وفي بعض الطبعات زيد جملة: «أنها كذلك لثبوتها»!! ولا ندري من أين جيىء بهذه الخلاصة؟! لأن خلاصة كلام القاضي عياض تفيد بعدم تسليمه بصحة قصة الغرانيق من أساسها. راجع «الشفا»: ٢/ ٧٥٠ وما بعدها.

فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾، يقولُ: إذا حدَّث ألقى الشيطانُ في حديثه. وقال مجاهد: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ يعني: إذا قال. ويقال: ﴿أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾: قراءته، ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾، يقولونَ ولا يكتبونَ. قال البغوي: وأكثر المفسِّرين قالوا: معنى قوله: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾، أي: تَلاَ وقرأ كتاب الله، ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾، أي: في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قُتِل:

تَمَنَّى كِتَابَ الله أوّلَ لَيْلَةٍ ... وآخِرَهَا لاقَى حِمَامَ المَقَادِرِ

وقال الضحاك: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾، إذا تلا، قال ابنُ جرير: هذا القولُ أشبهُ بتأويل الكلام. وقولُه: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، حقيقة النسخ لغة: الإزالةُ والرَّفعُ. قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عبَّاس: أي: فَيُبطِلُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما ألقى الشيطانُ. وقال الضحاك: نَسَخ جبريلُ بأمر الله ما ألقى الشيطانُ، وأحكَمَ الله آياتِهِ. وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: بما يكونُ من الأمور والحوادِثِ، لا تَخفَى عليه خافيةٌ، ﴿حَكِيمٌ﴾، أي: في تَقديره وخَلقِهِ وأَمرِه، له الحكمةُ التامَّةُ، والحجَّةُ البالغةُ. ولهذا قال: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: شَكٌّ وشِرْكٌ وكفرٌ ونفَاقٌ، كالمشركين حين فَرحوا بذلك واعتقدُوا أنه صحيحٌ، وإنما كان من الشيطان. قال ابنُ جُرَيج: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم: المنافقون، ﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾: المشركون. وقال مُقاتِل بن حَيَّان: هم اليهودُ.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾، أي: في ضلالٍ ومُخالفةٍ وعنادٍ بعيدٍ، أي: من الحَقِّ والصَّوابِ.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾، أي: وليعلم الذين أُوتُوا العلم النافعَ الذي يُفرِّقون به بين الحقِّ والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أنَّ ما أوحيناه إليك هو الحقُّ من ربِّك، الذي أنزله بعلمه وحَفِظه وحَرَسه أن يختلط به غيرُه، بل هو كتابٌ حكيم، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فصلت: ٤٢]. وقولُه: ﴿فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾، أي: يُصدِّقوه وينقادوا له، ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، أي: تخضعَ وتذِلَّ، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، أي: في الدُّنيا والآخرة، وأما في الدنيا فَيُرشِدُهم إلى الحقِّ واتِّباعه، ويُوفِّقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يَهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصِل إلى درجاتِ الجناتِ، ويُزحزِحُهم عن العذابِ الأليم والدركات.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الكفار أنَّهم لا يَزالون في مِرْيَةٍ، أي: في شَكٍّ وريب من هذا القرآن، قاله ابنُ جُرَيج، واختارَه ابن جرير. وقال سَعيد بن جُبَير، وابنُ زيدٍ: ﴿مِّنۡهُ﴾، أي: مما ألقى الشيطانُ. ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾، قال مجاهد: فجأةً. وقال قتادة: ﴿بَغۡتَةً﴾، بَغتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قطُّ إلا عند سكرتهم وغِرَّتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنَّه لا يَغتَرُّ بالله إلاَّ القومُ الفاسقون. وقولُه: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾، قال مجاهد: قال أُبيُّ بن كعب: هو يوم بدر. وكذا قال مجاهد وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وقتادةُ وغيرُ واحد، واختاره ابن جرير. وقال عكرمةُ، ومجاهد ـ في روايةٍ عنهما ـ: هو يومُ القيامةِ لا ليلةَ له. وكذا قال الضحَّاكُ، والحسنُ البصريُّ. وهذا القولُ هو الصحيحُ، وإن كان يومُ بدر من جُملة ما أُوعِدُوا به، لكن هذا هو المرادُ، ولهذا قال: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، كقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ

﴿٤﴾ وقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: آمنت قلوبُهم، وصدَّقوا بالله ورسُوله، وعمِلوا بمقتضى ما علِموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم. ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: لهم النعيمُ المقيمُ، الذي لا يَحولُ ولا يزولُ ولا يَبيدُ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: كَفرتْ قُلوبُهم بالحقِّ وجَحَدَتْهُ وكَذَّبوا به، وخالَفوا الرسُلَ، واستكبروا عن اتِّباعِهم. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أي: مُقابلةَ استكبارِهم وإعراضِهم عن الحقِّ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: صاغِرين.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾

يُخبر تعالى عمَّن خرج مُهاجراً في سبيل الله ابتغاء مرضاتِهِ، وطَلَباً لما عنده، وتَرَكَ الأوطانَ والأهلِين والخُلاَّنَ، وفارقَ بلادَه في الله ورسُولِه، ونُصرةً لدين الله، ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟﴾ أي: في الجهاد، ﴿أَوْ مَاتُوا۟﴾، أي: حَتْفَ أنفهم ـ أي: من غير قتال على فُرُشهم ـ فقد حَصَلوا على الأجر الجزيل، والثناءِ الجَميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]. وقولُه: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، أي: لَيُجرِيَنَّ عليهم من فضله ورزقِه من الجنة ما تَقَرُّ به أعينهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾، أي: الجنة. كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩]، فأخبر أنه يحصلُ له الراحةُ والرزقُ وجنةُ نعيم، كما قال هاهنا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ثم قال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾، أي: بمن يُهاجِرُ ويُجاهِدُ في سبيله، وبمن يستحقُّ ذلك، ﴿حَلِيمٌ﴾، أي: يحلمُ ويصفحُ ويغفِرُ لهم الذنوبَ ويُكفِّرها عنهم بهجْرتِهم إليه، وتوَكُّلِهم عليه. فأما من قُتِل في سبيل الله من مُهاجر أو غير مُهاجر، فإنه حيٌّ عند ربه يُرزَقُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]. والأحاديث في هذا كثيرة، كما تقدَّم. وأما مَنْ تُوفي في سبيل الله من مُهاجِرٍ أو غَيْرِهِ فقد تَضَمَّنت هذه الآيةُ الكريمةُ مع الأحاديثِ الصَّحيحةِ إجراءَ الرِّزقِ عليه، وعَظِيمَ إحسانِ الله إليه.

[٤٧٥٢] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا المسَيَّب بن وَاضِح، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن بن شُرَيح، عن ابن الحارث ـ يعني عبد الكريم ـ عن ابن عُقبة ـ يعني أبا عُبيدةَ بن عقبة ـ قال: حدثنا شُرحبيل بن السِّمط: طال رِباطُنا وإقامتُنا على حصن بأرض الرُّوم، فمرَّ بي سلمان ـ يعني الفارسيَّ، رضي الله عنه ـ فقال: إني سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: مَن مَاتَ مُرابطاً أجرَى اللهُ عليه مثلَ ذلك الأجر، وأجرى عليه الرِّزقَ، وأَمِنَ من الفَتَّانين. واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ (١).

---

(١) إسناده غير قوي لأجل المسيب بن واضح، وقد تفرد بذكر الآية. وأخرجه مسلم ١٩١٣ من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن بن شريح به دون ذكر الآية.

وقال أيضاً: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا زيد بن بِشْرٍ، أخبرني همَامٌ، أنه سَمِع أبا قَبيل وَرَبيعةَ بنَ سَيفٍ المَعَافِرِيّ يقُولان: كنا بِرُودِسَ، ومعنا فَضالةُ بن عُبَيد الأنصاريّ صاحبُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فَمرّ بجنازتين، إحداهما قَتِيلٌ والأُخرَى مُتوفًّى، فمال الناسُ على القَتِيل، فقال فَضالة: ما لي أرى الناسَ مالُوا معَ هذا وتَرَكُوا هذا؟! فقالُوا: هذا قتيلٌ في سبيلِ الله تعالى. فقال: والله ما أُبالي من أيّ حُفرتَيهِمَا بُعِثْتُ، اسمعُوا كتاب الله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

وقال أيضاً: حَدّثنا أبي، حَدّثنا عَبْدةُ بن سُلَيمان، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا ابن لَهيعة، حدثنا سَلاَمان ابن عامر الشَّعبانيّ، أن عبد الرحمن بن جَحْدَم الخولاني حَدَّثَه: أنه حَضَر فضالة بن عُبيدٍ في البحرِ مع جَنازَتَين، أحدُهما أُصِيبَ بِمَنجنيقٍ والآخر تُوفّي، فَجلس فضالة بن عُبَيد عند قبر المُتوفَّى، فقيل له: تَرَكْتَ الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالي من أيّ حفرتيهما بُعِثْتُ، إن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾: فما تَبتغِي أيُّها العبدُ إذا أُدخِلْتَ مُدخلاً تَرضاه وَرُزِقتَ رزقاً حَسَناً؟! والله ما أُبالي من أيّ حُفرتَيهما بعثتُ؟! ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابنَ وهبٍ، أخبرني عبدُ الرحمن ابن شُرَيح، عن سَلاَمان بن عامر قال: كان فضالة برُودِسَ أميراً على الأرباع، فخرج بجنازَتي رجلين، أحدهما قتيلٌ والآخر مُتوفًّى... فذكر نحو ما تقدم. وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾، ذكر مقاتلُ بن حَيّان وابنُ جُرَيج أنها نزلت في سَرِيّةٍ من الصّحابة، لَقُوا جَمعاً من المشركين في شهر مُحَرّم، فناشَدهم المسلمون لئلاً يُقاتِلُوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركُون إلا قتالَهم وبغَوا عليهم، فقاتلهم المسلمُون، فَنصرَهم الله عليهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

يقولُ تعالى مُنبهاً على أنه الخالق المتصرِّف في خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦ ـ ٢٧]، ومعنى إيلاجه اللّيل في النهار والنهارَ في اللّيل: إدخالُه مِن هَذا في هذا، ومِنْ هذا في هذا، فتارةً يطولُ الليل ويقصُر النهار كما في الشتاء، وتارةً يطولُ النهارُ ويقصُر الليل كما في الصَّيفِ.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، أي: سَمِيعٌ بأقوال عباده، بصيرٌ بهم، لا يخفَى عليه منهم خافيةٌ في أحوالهم وحَرَكاتهم وسَكَناتهم. ولما بَيّن أنه المتصرِّفُ في الوجُودِ الحاكِمُ الذي لا مُعقّب لِحُكْمِه. قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، أي: الإِله الحقُّ الذي لا تَنبغي العبادةُ إلا له، لأنه ذُو السلطانِ العظيم، الذي ما شاء كانَ وما لم يَشأ لم يَكُنْ، وكلُّ شيءٍ فقير إليه، ذَليل لديه، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾، أي: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكلُّ ما عُبِد من دونه تعالى فهو باطلٌ، لأنه لا يملكُ ضَرّاً ولا نَفعاً. وقولُه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، كما قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾

[الرعد: ٩]، فكل شيء تحتَ قَهرِه وسُلطانه وعَظَمته، لا إله إلا هو، ولا ربَّ سِوَاهُ، لأنه العظيمُ الذي لا أعظمَ منه، العليُّ الذي لا أعلى منه، الكبيرُ الذي لا أكبَرَ منه، تَعالى وتَقدَّس وتَنزَّه، وعزَّ وجلَّ عما يقول الظالمون المعتدون عُلُوّاً كَبيراً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

وهذا أيضاً من الدّلالة على قُدرتِه وعَظِيم سُلطانه، فإنه يُرسِلُ الرِّياح فتثيرُ سَحاباً، فَيُمطِرُ على الأرض الجُرُزِ التي لا نَبات فيها، وهي هامِدَةٌ يابسَةٌ سوداءُ مُمْحِلَةٌ، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥].

وقولُه: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، «الفاء» هاهنا للتعقيب، وتعقيبُ كُلِّ شيءٍ بِحَسَبِهِ، كما قال: ﴿خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقد ثبت أنَّ بين كُلِّ شيئين أربعينَ يوماً، ومع هذا هو مُعَقَّبٌ بالفاء، وهكذا هاهنا قال: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، أي: خضراء بعد يَبَسِهَا ومُحُولِها. وقد ذُكِرَ عن بعض أهل الحِجَازِ أنها تُصبِحُ عَقِيبَ المطر خَضراءَ. فالله أعلمُ.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، أي: عليمٌ بما في أرجاءِ الأرض وأقطارِهَا وأجزاءِها من الحبِّ وإن صَغُر، لا يخفى عليه خافيةٌ، فيُوصِلُ إلى كُلٍّ منه قِسْطه من الماء فيُنبتُه به، كما قال لُقمانُ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦]، وقال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]. ولهذا قال أُميَّةُ بن أبي الصَّلت ـ أو: زيد بن عَمرو بن نُفَيلٍ ـ في قصيدته:

وقولاَ لَه: مَنْ يُنْبِتُ الحَبَّ في الثَّرَى ... فَيُصبِحَ مِنْهُ البَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيَا؟

وَيُخرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ في رؤوسِهِ ... فَفِي ذَاكَ آياتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا

وقولُه تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾، أي: مُلكه جميعُ الأشياء، وهو غنيٌّ عما سواه، وكلُّ شيءٍ فَقيرٌ إليه، عبدٌ لديه. وقولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: من حيوان، وجَماد، وزُرُوع، وثمار؟! كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، أي: من إحسانِهِ وَفَضلِهِ وامتِنَانِهِ، ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: بِتَسخيره وتَسْييرِهِ، أي: في البحر العَجَاج، وتَلاطُم الأمواج، تجري الفُلكُ بأهلها، بِريحٍ طَيِّبة، ورفق وتُؤدَةٍ، فَيحمِلُون فيها ما شاؤوا من تَجائِرَ وبضائع ومَنَافِعَ، من بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، وقُطرٍ إلى قُطرٍ، وَيأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذَهَبُوا بما عندَ هؤلاءِ إلى أولئك، مما يحتاجونَ إليه، ويَطلبُونه ويُريدُونه، ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾، أي: لو شاء لأذِن للسماء فسقطت على الأرض، فَهَلَكَ مَن فيها، ولكن من لُطفِه ورحمته وقُدرته، يُمسِك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾،

أي: مع ظلمهم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾، كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقوله: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]. ومعنى الكلام: كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيرَه، وهو المستقلُّ بالخلقِ والرِّزقِ والتصرُّفِ، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾، أي: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يُذكرُ فأوجدَكم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، أي: يومَ القيامة، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾، أي: جحودٌ.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يُخبرُ تعالى أنه جعَل لِكُلِّ قوم مَنسكاً، قال ابنُ جَرير: يعني لكلِّ أُمَّةِ نَبيٍّ مَنسَكاً قال: وأصلُ المنسَكِ في كلامِ العَرَب هو الموضِعُ الذي يعتادُه الإنسانُ ويتردَّدُ إليه إما لخير أو شرٍّ. قال: ولهذا سُمِّيت مناسِكُ الحجِّ بذلك، لتردادِ الناس إليها وعُكوفِهم عليها. فإن كان كما قال من أنَّ المراد «لِكلِّ أمةِ نَبيٍّ جعلنا مَنسَكاً»، فيكون المرادُ بقوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: هؤلاءِ المشركُون، وإن كان المرادُ: لكل أُمَّةٍ جعلنا مَنسَكاً جعلاً قدَرياً، كما قال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]، ولهذا قال هاهنا: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، أي: فاعِلوه. فالضَّميرُ هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أي: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قَدَرِ الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعَتِهم لك، ولا يَصرِفْك ذلك عما أنت عليه من الحقِّ. ولهذا قال: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: طريقٍ واضحٍ مستقيم مُوَصِّلٍ إلى المقصود. وهذه كقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٧]. وقوله: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. وقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، كقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨]، ولهذا قال: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾. وهذه كقوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: ١٥].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

يخبرُ تعالى عن كمال عِلمِه بِخلقه، وأنه محيطٌ بما في السَّمواتِ وما في الأرض، فلا يَعزُب عنه مثقالُ ذرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى عَلِمَ الكائناتِ كلَّها قبل وُجودِها، وكتَبَ ذلك في كتابِه اللوح المحفوظِ.

[٤٧٥٣] كما ثَبتَ في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله قَدَّر

مقاديرَ الخلائقِ قبل خَلْق السموات والأرضِ بخمسينَ ألفَ سَنةٍ، وكان عرشه على الماءِ»[١] .

[٤٧٥٤] وفي السُّنَن من حَديثِ جَماعةٍ من الصَّحابةِ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «أوَّلُ ما خَلَق الله القلمُ، قال له: اكتُب. قال: وما أكتُب؟ قال: اكتُبْ ما هو كائنٌ. فَجَرى القلمُ بما هو كائنٌ إلى يوم القِيامَةِ»[٢] .

وقال ابنُ أبي حاتِم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا ابن بُكَير، حدثني ابن لَهيعة، حدثني عطاء بن دينارَ، حدثني سَعيد بن جُبَير قال: قال ابنُ عَبَّاسٍ: خَلَق الله اللوحَ المحفوظَ كَمَسيرَةِ مئةِ عام، وقال للقلم قبل أن يَخلُقَ الخَلْقَ ـ وهو على العرش ـ تبارك وتعالى ـ: اكتُب. فقال القلم: وما أكتُب؟ قال: عِلْمِي في خلقي إلى يوم تَقُوم السَّاعة. فجرى القلمُ بما هو كائنٌ في عِلْمِ الله إلى يوم القيامة، فذلك قولُه تعالى للنبي ـ ﷺ ـ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ . وهذا مَن تَمَام عِلْمِه تعالى أنه علم الأشياء قبل كَونها، وقَدَّرها، وكَتَبها أيضاً، فما العبادُ عامِلُون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يُطِيع باختيارِه، وهذا يَعْصِي باختياره، وكَتَب ذلك عنده، وأحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، وهو سَهْلٌ عليه، يَسيرُ لديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ .

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المشركين فيما جَهلوا وكَفروا وعَبدوا من دون الله ما لم يُنَزِّل به سُلطاناً، يعني: حُجَّةً وبُرهاناً، كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧)﴾ [المؤمنون: ١١٧] ولهذا قال هاهنا: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ ، أي: ولا علم لهم فيما اختلقُوه وائتفكُوه، وإنَّما هو أمر تَلَقَّوه عن آبائهم وأسلافِهم، بلا دليلٍ ولا حُجَّةٍ، وأصله مما سَوَّل لهم الشيطانُ وزَيَّنه لهم، ولهذا تَوعَّدَهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ، أي: من ناصر ينصُرهم من الله، فيما يَحلُّ بهم من العذاب والنَّكالِ. ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: وإذا ذُكِرَت لهم آياتُ القرآن والحُجَجُ والدلائلُ الواضحاتُ على توحيدِ الله، وأنه لا إله إلا هُو، وأنَّ رُسُلَه الكرامَ حقٌّ وصدقٌ، ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ ، أي: يكادون يُبادِرُون الذين يَحتجُّون عليهم بالدلائل الصَّحيحَةِ من القرآن، وَيَبسطُون إليهم أيديَهم وألسنتَهم بالسوء! ﴿قُلْ﴾ ، أي: يا مُحمَّدُ لهؤلاء: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، أي: النارُ وعذابها ونكالها أشدُّ وأشقُّ وأطمُّ وأعظم مما تُخوِّفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذابُ الآخرة على صَنيعكم هذا أعظمُ مما تنالون منهم، إن نلتم بزعمكم وإرادَتِكم.

وقولُه: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ . أي: وبئس النارُ منزلاً ومَقِيلاً ومَرجِعاً ومَوئِلاً ومَقَاماً، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ

---

(١) صحيح . وقد تقدم في تفسير سورة الأعراف عند آية: ١٧٩.

(٢) يأتي في تفسير سورة القلم إن شاء الله تعالى وهو حديث قوي.

ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنبِّها على حَقارة الأصنام وسخافة عُقولِ عابديها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾، أي: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾، أي: أنصِتُوا وتفهَّموا، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾، أي: لو اجتمَع جميعُ ما تَعبدُون من الأصنامِ والأندادِ على أن يَقْدِرُوا على خلق ذُبابٍ واحدٍ ما قَدَروا على ذلك؛ كما قال الإمامُ أحمدُ:

[٤٧٥٥] حَدثنا أسودُ بن عامرٍ، حدثنا شَريك عن عُمارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعَةَ، عن أبي هُرَيرة ـ رفع الحديث ـ قال: «ومن أظلم ممن خَلَق كخلقي! فَلْيخلقُوا مثل خَلقي ذَرّة، أو ذُبابة، أو حبّة»[١].

[٤٧٥٦] وأخرجَه صاحبا الصَّحيح، من طريق عمَارة، عن أبي زُرعَةَ، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «قال الله عَزَّ وجلَّ: ومَن أظلمُ ممن ذَهَب يخلُق كَخلْقِي؟ فَلْيخلقُوا ذَرَّةً، فَلْيخلقُوا شعيرة»[٢].

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، أي: هم عاجزُونَ عن خَلْقِ ذُبابٍ واحدٍ، بل أبلغ من ذلك عاجزُونَ عن مقاومته والانتصارِ منه، لو سَلَبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تَستنقِذَه منه لمَا قدَرت على ذلك. هذا والذبابُ من أضعفِ مخلوقاتِ الله وأحقرها ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾. قال ابنُ عباس: الطالبُ: الصَّنَم، والمطلوبُ: الذبابُ. واختاره ابنُ جَرير. وهو ظاهرُ السِّياق. وقال السدّيّ وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم. ثم قال: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، أي: ما عَرَفوا قَدْرَ الله وعظَمَته حين عَبدُوا معه غَيرَه مِنْ هذه التي لا تُقاوِم الذباب لضعفها وعَجزها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾، أي: هو القويُّ الذي بِقُدرَته وقُوّته خلَق كُلَّ شيء، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: ١٢ ـ ١٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]. وقولُه: ﴿عَزِيزٌ﴾، أي: قَد عَزَّ كُلَّ شيءٍ فقهَرَه وغلَبه، فلا يُمانَعُ ولا يُغالب، لعظمته وسُلطانه، وهو الواحد القَهّارُ.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

يُخبر تعالى أنه يختارُ من الملائكة رُسُلاً فيما يشاء من شَرعه وقَدَرِه، ومن الناس لإبلاغ رسالاتِه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، أي: سَميعٌ لأقوال عباده، بَصيرٌ بهم، عَليمٌ بمن يستحقُّ ذلك منهم، كما قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾. وقولُه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾، أي: يعلم ما يفعل رُسُله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه من أمورهم شيءٌ، كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٨] فهو ـ سبحانه ـ رقيبٌ عليهم، شَهيدٌ

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٢/ ٣٩١ ح ٨٨٣٩ وإسناده حسن في الشواهد لأجل شريك، وقد توبع.
(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٥٣ و٧٥٥٩ ومسلم ٢١١١ وابن حبان ٥٨٥٩ والبيهقي ٧/ ٢٦٨.

على ما يُقال لهم، حافِظٌ لهم، ناصرٌ لجنابهم؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. . . الآية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

اختلف العُلَماء ـ رحمهم الله ـ في هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هي مشروعٌ السجودُ فيها أم لا؟ على قولين.

[٤٧٥٧]وقد قَدَّمنا عند الأولى حديث عُقبَةَ بن عامر عن رسولُ الله ـ ﷺ ـ: فُضِّلت سورةُ الحج بِسَجدَتَين، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما[١]. وقولُه: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، أي: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وقولُه: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾، أي: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفَضَّلكم وشرَّفكم وخَصَّكم بأكرَم رسولٍ، وأكمَلِ شرْع. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، أي: ما كَلَّفكم ما لا تُطِيقون، وما ألزَمكم بشيء فَشَقَّ عليكم إلا جَعَلَ لكم فرجاً ومخرجاً، فالصلاةُ ـ التي هي أكبرُ أركان الإسلام بعد الشهادتين ـ تَجبُ في الحَضَر أربعاً، وفي السفر تُقْصَر إلى ثِنْتَين، وفي الخوف يُصَلِّيها بعضُ الأئمة ركعةً، كما وَرَد بها الحديث، وتصَلَّى رِجَالاً وركباناً، مستقبلي القبلة وغيرَ مستقبلها. كذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها. والقيامُ فيها يَسقُط بِعذر المرض، فيصلِّيها المريض جالساً، فإن لم يستطع فَعَلَى جَنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، في سائر الفرائض والواجبات.

[٤٧٥٨]ولهذا قال عليه السلام: «بُعِثْتُ بالحنيفيَّة السَّمحة»[٢].

[٤٧٥٩]وقال لمعاذ وأبي موسى، حين بعثهما أميرَين إلى اليمن: «بَشِّرا ولا تُنَفِّرا، ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا»[٣]. والأحاديث في هذا كثيرة. ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، يعني من ضيقٍ.

وقولُه تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾، قال ابنُ جرير: نُصِب على تقدير: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، أي: من ضيق، بل وَسَّعه عليكم كمِلَّة أبيكم إبراهيم. قال: ويَحتَمِلُ أنه منصوبٌ على تقدير: الزموا ملة أبيكم إبراهيم. قلتُ: وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]. . . الآية. وقولُه: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾، قال الإمام عبد الله ابن المبارك، عن ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، قال: الله عز وجل. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والضحاك، والسدي، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان. وقال عبد الرحمن بنُ

(١) تقدم تخريجه تحت رقم ٤٦٦٩، وعجزه غريب.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٨٥.

(٣) تقدم أيضاً في تفسير سورة البقرة.

زيد بن أسلَم: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، يعني: إبراهيم، وذلك لقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]. قال ابن جرير: هذا لا وجه له؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يُسَمِّ هذه الأمة في القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾، قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة، وفي الذكر، ﴿وَفِى هَٰذَا﴾، يعني القرآن. وكذا قال غيره.

قلتُ: وهذا هو الصواب، لأنه تعالى قال: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ثم حَثَّهم وأغراهم على ما جاء به الرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بأنه ملَّة أبيهم إبراهيمَ الخليلِ. ثم ذكر مِنَّته تعالى على هذه الأمة بما نَوَّه به من ذكرها، والثناء عليها في سالِفِ الدَّهر وقَدِيم الزمان في كتب الأنبياء، يُتلَى على الأحبار والرهبان، فقال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل هذا القرآن ﴿وَفِى هَٰذَا﴾.

[٤٧٦٠] وقد قال النسائي عند تفسير هذه الآية: أنبأنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن شعيب، أنبأنا معاوية بن سلاَّم، أن أخاه زيد بن سَلاَّم أخبره، عن أبي سَلام أنه أخبره قال: أخبرني الحارثُ الأشعريّ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من دعا بدَعْوى الجاهلية فإنَّه من جِثِيّ جَهَنَّم. قال رجلٌ: يا رسولَ الله، وإن صامَ وصَلَّى؟ قال: نَعَم، وإن صامَ وصَلَّى. فادعوا بِدَعْوَة الله التي سَمَّاكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله». وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾[1] من سورة البقرة، ولهذا قال: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عُدولاً خِياراً، مَشْهوداً بِعَدَالتكم عندَ جَميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذٍ بسيادتهم وفضلهم على كل أمة سواها، فلهذا تُقبلُ شهادتُهم عليهم يوم القيامة في أنَّ الرسل بَلَّغتْهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك. وقد تقدَّم الكلام على هذا عند قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وذكرنا حديث نوح وأُمَّتِه بما أغنى عن إعادته.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أي: قابلوا هذه النعمةَ العظيمةَ بالقيام بِشُكرها، وَأَدُّوا حَقَّ الله عليكم في أداء ما افترضَ، وطاعةِ ما أوجَبَ، وتَرْكِ ما حَرَّم. ومن أهمِّ ذلك إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة، وهو الإحسان إلى خلقِ الله بما أوجبَ للفقير على الغني، من إخراج جُزْءٍ نَزْرٍ من ماله في السَّنة للضعفاء والمحاويج، كما تَقَدَّم بيانُه وتفصيلُه في آية الزكاة من «سورة التوبة». وقولُه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، أي: اعتَضِدُوا بالله، واستَعِينُوا به، وتوكَّلُوا عليه، وتَأيَّدوا به، ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾، أي: حافظُكم وناصِرُكم ومُظفِرُكُم على أعدائكم، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾، يعني نعم الوليُّ ونعم الناصرُ من الأعداء. قال وُهَيبُ بنُ الوَرْدِ: يقول الله تعالى: ابن آدم، اذكُرني إذا غَضِبتَ أذكرْكَ إذا غَضِبتُ، فلا أمحقُكَ فيمن أمحَقُ وإذا ظُلِمتَ فاصبر، وارض بِنُصرتي، فإنَّ نُصرتي لك خَيرٌ من نُصرتِك لنفسك. رواه ابن أبي حاتم.

آخر تفسير سورة الحج ولله الحمدُ والمنَّةُ، والثناء الحسن الجميلُ، لا نحصي ثناءً عليه

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية ٢١ كما ذكر المصنف.



مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾

[٤٧٦١] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني يونس بن سُليم قال: أملى عليّ يونس بن يزيد الأيْليُّ، عن ابن شهاب، عن عُروة بن الزبير، عن عبد الرحمٰن بن عَبْد القاريّ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ـ ﷺ ـ الوحيُ يُسمَع عند وَجْهِهِ كَدَوِيِّ النَّحلِ فَمَكثنا ساعةً، فاستقبل القبلةَ ورفعَ يديه، فقال: اللهمَّ، زِدْنَا ولا تَنقُصنا، وأكرمنا ولا تُهنَّا، وأعطِنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تُؤثِر علينا، وارضَ عنا وأرضِنَا. ثم قال: «لقد أُنزلَت عَليَّ عشر آيات، مَن أقامهن دَخَل الجنة»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ حتى ختم العَشر[1]. وكذا رَواه الترمذي في تفسيره، والنسائي في الصلاة، من حديث عبد الرزاق، به. وقال النسائي[2]: منكر، لا نعرف أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه.

[٤٧٦٢] وقال النسائي في تفسيره: أنبأنا قُتيبة بن سعيد، حدثنا جعفر، عن أبي عمران، عن يزيدَ ابن بَابَنُوسَ قال: قلنا لعائشةَ: يا أمّ المؤمنين، كيف كانَ خُلُق رسولِ الله ـ ﷺ ـ؟ قالت: كان خُلُق رسول الله ـ ﷺ ـ القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾، حتى انتهت إلى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ

---

(١) منكر. أخرجه الترمذي ٣١٧٣ والنسائي ١٤٣٩ في «الكبرى» وأحمد ١/ ٣٤ والحاكم ٢/ ٣٩٢ ح ٣٤٧٩، وإسناده ضعيف، فيه يونس بن سُليم، تفرد به، وهو مجهول كما في التقريب. ومع ذلك صححه الحاكم! وتعقبه الذهبي بقوله: سئل عبد الرزاق عن شيخه يونس بن سليم، فقال: لا أظنه شيء، وقال الذهبي في «الميزان»: حدث عنه عبد الرزاق، وتكلم فيه، ولم يعتمده في الرواية. وقال العقيلي: لا يتابع على حديثه، ولا يعرف إلا به، ثم ذكر الذهبي حديثه هذا، وقال: قال النسائي: هذا حديث منكر اهـ.

(٢) وقع في سائر النسخ «الترمذي» وهو سبق قلم، والصواب أنه كلام النسائي، وبحرفيته، وقد ذكر الترمذي كلاماً طويلاً، ليس فيه شيء من الألفاظ التي ذكرها المصنف. والله أعلم.

يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾، قالت: هكذا كان خُلُقُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ. وقد رُوي عن كعب الأحبار، ومجاهد، وأبي العالية، وغيرهم: لَمّا خلقَ الله جنةَ عدن، وغرَسها بيده، نظر إليها وقال لها: تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾. قال كعب الأحبار: لِمَا أَعَدَّ لهم فيها من الكرامة. وقال أبو العالية: فأنزل الله ذلك في كتابه. وقد رُوي ذلك عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

[٤٧٦٣] فقال أبو بكر البَزّار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا المغيرة بن سلمة، حدثنا وُهَيب، عن الجُرَيري، عن أبي نَضرَةَ، عن أبي سعيد قال: خلق الله الجنّة لَبِنةً من ذَهَب ولَبِنَةً من فِضّةٍ، وغَرَسها، وقال لها تَكَلَّمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾، فدخلتها الملائكة فقالت: طوبى لك، مَنزِلَ الملوك[١].

[٤٧٦٤] وقال: وحدثنا بشر بن آدم، وحدثنا يونس بن عُبَيد الله العُمَري، حدثنا عَدِيُّ بن الفَضل، حدثنا الجُرَيري، عن أبي نَضرَةَ، عن أبي سَعيد، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «خلق الله الجنة لَبِنَةً من ذَهَب، ولَبِنَة من فضة، ومِلاَطُها المسك». قال أبو بكر: ورأيت في موضع آخر من هذا الحديث: حَائِطُ الجنة لَبِنَةُ ذَهَبٍ ولَبِنَةُ فِضّةٍ، ومِلاَطُها المِسْكُ. فقال لها: تَكَلَّمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾. فقالت الملائكة: طُوبى لك، منزلَ الملوكِ[٢]! ثم قال البَزّارُ: لا نعلَم أحداً رفعه إلا عَدِيّ بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وهو شيخٌ مُتقدِّمُ المَوْتِ.

[٤٧٦٥] وقال الحافظ أبو القاسم الطَبرانيُّ: حدثنا أحمد بن علي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا بقية، عن ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «لما خَلَق جنةَ عَدْنٍ خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ثم قال لها: تكلمي. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾»[٣]. بَقيَّةُ عن الحجازيين ضعيف.

[٤٧٦٦] وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شَيبةَ، حدثنا مُنجَابُ بن الحارث، حدثنا حَمّاد بن عيسى العَبْسي، عن إسماعيل السدِّي، عن أبي صالح، عن ابن عباس يرفعه: لما خَلَق الله جَنَّةَ عَدْنٍ

---

(١) هو موقوف، وانظر ما بعده.

(٢) ضعيف. أخرجه البزار ٣٥٠٨ وأبو نعيم ٦/ ٢٠٤ وفي «صفة الجنة» ١/ ١٣٧/ ١٤٠ والبيهقي في «البعث» ٢٣٦ من حديث أبي سعيد، وضعفه البزار بقوله: لا نعلم رفعه إلا عدي بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وكذا ضعفه البيهقي. وجاء في الميزان: عدي بن الفضل، قال ابن معين وأبو حاتم: متروك الحديث، وقال يحيى: لا يكتب حديثه، وقال غير واحد: ضعيف اهـ. فالرجل ضعيف جداً، وانظر الحديث الآتي.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبراني ١١٤٣٩ وفي «الأوسط» ٧٤٢ من حديث ابن عباس، وقال المنذري في «الترغيب» ٥٤٦٨: رواه الطبراني في الكبير والأوسط بإسنادين أحدهما جيد. وتبعه على ذلك الهيثمي في «المجمع» ١٨٦٣٩، وأما ابن كثير ـ رحمه الله ـ فأعله بضعف رواية بقية عن الحجازيين. والمعروف أن إسماعيل بن عياش هو الذي يتصف بهذه الصفة، وإنما علة الحديث هي أن بقية مدلس، وقد عنعن، قال أحمد: توهمت أن بقية لا يحدث المناكير إلا عن المجاهيل، فإذا هو يحدث المناكير عن المشاهير. وللحديث علة أخرى: ابن جريج أيضاً مدلس، وقد عنعن، لكن الحمل فيه على بقية أولى، والله أعلم.

تنبيه: وقع في الأوسط تصريح بقية بالتحديث، وهو خطأ من شيخ الطبراني، أو من هشام بن خالد، فإنه كان يجعل ما رواه بقية بـ «عن» «حدثنا» توهماً، راجع ذلك في «الميزان».

بيده، ودَلّى فيها ثمارها. وَشقَّ فيها أنهارها، ثم نَظَر إليها فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ قال: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل[١].

[٤٧٦٧] وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن المثنى البَزّارُ، حدثنا محمد بن زياد الكَلْبي، حدثنا يعيش بن حسين، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادَةَ، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «خَلَق الله جَنّة عدن بيده لَبِنَةً من دُرّة بيضاء، ولَبِنَةً من ياقوتة حمراء، ولَبِنَةً من زَبَرجَدَة خضراء، مِلاطُها المسكُ وحصباؤها اللؤلؤ، وحَشِيشها الزعفَران، ثم قال لها: انطقي. قالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾، فقال الله: وعِزّتي وجلالي لا يُجاورُني فيك بَخِيلٌ. ثم تَلاَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢] [الحشر: ٩].

فقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾، أي: قد فازُوا وسَعِدوا وحَصَلُوا على الفَلاَح، وهُم المؤمنون المتَّصِفُون بهذه الأوصاف. ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿خَٰشِعُونَ﴾: خائِفُون ساكنون. وكذا رُوي عن مجاهد، والحسن، وقتَادَة، والزهريِّ. وعن علي بن أبي طالب ـ رَضِي الله عنه ـ: الخشوعُ خشوعُ القلب. وكذا قال إبراهيم النَّخَعي. وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخَفَضوا الجناح. وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يرفعُون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾، خفضوا أبصارهم إلى موضع سُجُودهم. قال ابن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصرهُ مُصَلاَّه، فإن كان قد اعتاد النظر فَلْيُغمِض. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

[٤٧٦٨] ثم رَوَى ابنُ جرير عنه، وعن عطاء بن أبي رباح أيضاً مرسلاً: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يفعل ذلك، حتى نزلت هذه الآية[٣]. والخشوعُ في الصلاة إنما يحصُل لمن فَرَّغ قلبه لها، واشتغل بها عمَّا عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحةً له وقرّة عين.

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ١٢٧٢٣ وفي الأوسط ٥٦٤٨ من حديث ابن عباس وإسناده ضعيف جداً، وله ثلاث علل: محمد بن عثمان ضعفه غير واحد. وحماد بن عيسى، فيه جهالة كما في الميزان، وأبو صالح اسمه باذام ضعفه البخاري ومغيرة والنسائي وغيرهم، والسدي وهو الكبير ضعفه غير واحد.

(٢) والحديث ضعيف. أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» ٣/١ ـ ٢ بهذا الإسناد، وإسناده ضعيف، فيه محمد بن زياد الكلبي قال يحيى: ليس بشيء كما في الميزان، وشيخه يعيش بن حسين، لم أجد له ترجمة. ووقع عند أبي نعيم «بشر بن حسن» ولم أجد له ترجمة أيضاً. وله طريق آخر أشهر من هذا، وهو في المستدرك ٢/ ٣٩٢ والأسماء والصفات ٢/ ٤٧ وابن عدي ١٩٣/ ٥/ ١٨٣٧ كلهم من حديث أنس، صححه الحاكم! وتعقبه الذهبي بقوله: بل ضعيف. وذكره في الميزان ٥٨٧٣ في ترجمة علي بن عاصم مع حديث آخر وقال الذهبي: وهذان باطلان اهـ وعلته علي بن عاصم ضعفه غير واحد، واتهمه يحيى. وكان يخطيء، ثم يصر ولا يرجع. راجع الميزان.

الخلاصة: هو حديث ضعيف، فإن عامة طرقه شديدة الضعف، والمتن منكر، والأشبه أنه عن كعب الأحبار كما رواه البيهقي في «البعث» ٢٣٤ وسرقه بعض الضعفاء والهلكى فركبوا له أسانيد، وجعلوه عن النبي ﷺ، والله تعالى أعلم.

(٣) مرسل عطاء أخرجه الطبري ٢٥٤٢٥ ومرسل ابن سيرين أخرجه برقم ٢٥٤١٤ و٢٥٤١٦ تارة مرسلاً بصيغة الجزم وتارة بصيغة التمريض بقوله «نُبئت» وتارة جعله موقوفاً، وهو برقم ٢٥٤١٥، وهو أشبه، والله أعلم.

[٤٧٦٩] كما قال النبي ـ ﷺ ـ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي، عن أنس، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «حُبِّبَ إلي الطيبُ والنساءُ، وجُعِلت قُرَّة عيني في الصَّلاة»(١).

[٤٧٧٠] وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا وكيع، حدثنا مِسعَرٌ، عن عَمْرو بن مُرَّة، عن سالم بن أبي الجَعد، عن رجل من أسلَمَ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يا بلالُ أَرِحنا بالصلاة»(٢).

[٤٧٧١] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرحمٰن بن مهدي، حدثنا إسرائيل، عن عُثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبي الجعِد، أنَّ مُحمَّد بنَ الحنفيَّة قال: دَخَلتُ مع أبي على صِهرٍ لَنَا من الأنصارِ، فَحَضَرَتِ الصلاةُ، فقال: يا جاريةُ، ائتِني بِوَضُوءٍ لعلِّي أُصلِّي فَأستريحَ. فَرَآنا أنكرْنا عليه ذلك، فقال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «قُم يا بلالُ، فَأَرِحنا بالصَّلاَة»(٣).

وقولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، أي: عن الباطل، وهو يشملُ الشِّرك ـ كما قاله بعضُهم ـ والمعاصِيَ ـ كما قاله آخرون ـ وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. قال قتادةُ: أتاهم ـ والله ـ من أمرِ الله ما وقذهم عن ذلك. وقولُه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤﴾، الأكثرون على أنَّ المراد بالزكاة هاهنا زكاةُ الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فُرِضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات الأنصبة. والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهرُ أنَّ أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]. وقد يَحتَمِلُ أن يكون المرادَ بالزكاة هاهنا زكاةُ النفس من الشِّرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠]، وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦ ـ ٧]، على أحد القولين في تفسيرها. وقد يَحتَمِلُ أن يكونَ كِلا الأمرين مُراداً، وهو زكاةُ النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جُملة زكاةِ النفوس، والمؤمنُ الكاملُ هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم. وقولُه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾، أي: والذين قد حَفِظوا فروجهم من الحرام، فلا يَقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لِواطٍ، ولاَ يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حَرَج، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾، أي: غير الأزواج والإماء، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾، أي: المعتدون. وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة: أن امرأة اتخذت مملوكها، وقالت: تَأوَّلت آية من كتاب الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، فأُتِيَ بها عُمَرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه فقال له ناسٌ من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ: تَأوَّلتْ آيةً من كتابِ الله على غيرِ وَجْهِهَا. قال: فَغرَّب العبدَ وجزَّ رأسَه، وقال: أَنتِ بعدَه حَرامٌ على كُلِّ مسلم(٤). هذا أثرٌ غريبٌ منقطع، ذَكَره ابنُ جرير في أول تفسير سورةِ المائدة، وهو هاهنا أليقُ، وإنما حَرَّمها على الرجالِ معاملةً لها بنقيضِ قَصْدِها، والله أعلم. وقد استدلَّ الإمامُ الشافعيُّ ـ رحمه الله ـ ومن وافَقَه على تحريم

---

(١) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٤.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٤٩٨٥ وأحمد ٥/ ٣٦٤ وهو حديث قوي. راويه لم يسمّ. لكن يشهد له ما بعده.

(٣) جيد. أخرجه أبو داود ٤٩٨٦ وأحمد ٥/ ٣٧١ والطحاوي في «المشكل» ٥٥٤٩ وإسناده حسن صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر، وانظر صحيح أبي داود ٤١٧١.

(٤) موقوف ضعيف، لانقطاعه بين قتادة وعمر، وهو منكر شبه موضوع.

الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، قال: فهذا الصنيعُ خارجٌ عن هذين القسمين، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝﴾.

[٤٧٧٢] وقد استأنسوا بحديثٍ رَواه الإمامُ الحَسَن بن عَرَفَةَ في جُزئِه المشهور حيث قال: حدثني علي بن ثابت الجَزَرِيّ، عن مسلمة بن جعفر، عن حسان بن حُمَيد، عن أنس بن مالك، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا يجمعهم مع العاملين، ويدخلهم النار أول الداخلين، إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه: ناكح يده، والفاعل، والمفعول به، ومدمن الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره»[١]. هذا حديث غريب، وإسنادُه فيه مَن لا يُعرف، لجهالته، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾، أي: إذا اؤتُمنوا لم يَخُونوا، بل يُؤدُّونها إلى أهلها، وإذا عاهَدُوا أو عاقَدُوا أوفَوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ـ ﷺ ـ:

[٤٧٧٣] «آية المنافقِ ثلاث إذا حَدَّث كَذَب، وإذا وَعَد أخلَفَ، وإذا اؤتُمنَ خَانَ»[٢].

وقولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾، أي: يواظبون عليها في مواقيتها.

[٤٧٧٤] كما قال ابن مسعود: «سألت النبي ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسول الله، أيّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: الصلاةُ على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: برُّ الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله». أخرجاه في الصحيحين[٣]. وفي مستدرك الحاكم قال: الصلاة في أول وقتها.

وقال ابن مسعود، ومَسروقٌ في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾، يعني: مواقيتَ الصلاةِ. وكذا قال أبو الضحَى، وعلقمة بن قَيس، وسَعيد بن جُبَير، وعِكْرِمَة. وقال قتادةُ: على مواقيتها ورُكُوعها وسُجُودها. وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحَمِيدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها.

[٤٧٧٥] كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «استقيموا ولن تُحصُوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يُحافظ على الوُضوءِ إلا مؤمن»[٤]. ولمَّا وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعالِ الرَّشيدة قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝﴾.

[٤٧٧٦] وثبت في الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفِرْدَوس، فإنه أعلَى الجنة وأوسطُ الجنّةِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنّةِ، وفوقَهُ عرشُ الرحمٰن»[٥].

---

(١) ضعيف جداً. أخرجه البيهقي في «الشعب» ٥٤٧٠ من طريق الحسن بن عرفة بهذا الإسناد عن أنس مرفوعاً. استغربه المصنف، وفي إسناده: مسلمة بن جعفر عن حسان بن حميد. ذكره الذهبي في الميزان ٨٥١٨ بهذا الحديث، وقال: يجهل، هو وشيخه.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٧٧.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٨٣.

(٤) صحيح. أخرجه ابن ماجه ٢٧٧ وأحمد ٥/ ٢٧٦ و٢٨٢ والحاكم ١/ ١٣٠ والبيهقي من طريق سالم بن أبي الجعد عن ثوبان مرفوعاً وإسناده منقطع: سالم لم يسمع من ثوبان. وأخرجه أحمد ٥/ ٢٨٢ وابن حبان ١٠٣٧ من وجه آخر عن أبي كبشة السلولي عن ثوبان بنحوه وإسناده حسن وله شواهد كثيرة.

(٥) تقدم في تفسير سورة آل عمران ١٣٣.

[٤٧٧٧] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سِنانٍ، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما منكم من أحد إلا وله مَنْزِلان: منزلٌ في الجنَّة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾»[١]. وقال ابن جريج عن الليث عن مجاهد ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ قال: ما من عبد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيُبنَى بيته الذي في الجنة، ويُهدَم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيُهدَم بيته الذي في الجنة، ويُبنَى بيتهُ الذي في النار. وَرُوِي عن سعيد بن جُبَير نحوُ ذلك. فالمؤمنون يرثون منازل الكفار، لأنهم خُلِقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجَبَ عليهم من العبادة، وتَرَك أولئك ما أمرُوا به مما خُلقوا له أحرزَ هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل.

[٤٧٧٨] بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي بُردَةَ بن أبي موسى، عن أبيه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يجيء يومَ القيامة ناسٌ من المسلمين بذُنُوبٍ أمثالِ الجِبَالِ، فيغفرها الله لهم، ويَضَعُها على اليهودِ والنصارَى»[٢].

[٤٧٧٩] وفي لفظٍ له قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا كان يومُ القيامة دَفَع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال: «هذا فكَاكُك من النار». فاستحلف عُمَر بن عبد العزيز أبا بُردةَ بالله الذي لا إله إلا هو ـ ثلاث مرات ـ أن أباه حَدَّثه عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فحلف له[٣]. قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦٣]، وكقوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢]. وقد قال مجاهد، وسعيد بن جُبير: الجنة بالرومية هي الفردوس. وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوساً إلا إذا كان فيه عنب. فالله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن ابتداءِ خَلْقِ الإنسان من طينٍ ـ وهو آدمُ عليه السلام ـ خَلَقه الله من صَلصال من حَمَإٍ مسنُون. وقال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن أبي يحيى، عن ابن عباس: ﴿مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾، قال: صَفوةُ الماء. وقال مجاهد: ﴿مِن سُلَالَةٍ﴾، أي: من منيِّ آدم. قال ابن جَرير: وإنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوقٌ منه. وقال قتادة: استُلّ آدمُ من الطِّين. وهذا أظهر في المعنى، وأقرب إلى السياق، فإن آدم ـ عليه السلام ـ خُلِق من طينٍ لازبٍ، وهو الصلْصَال من الحمَإ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠].

[٤٧٨٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سَعيد، حَدَّثنا عوفٌ، حدثنا قَسامة بن زُهَير، عن أبي مُوسَى، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الله خَلَق آدمَ من قَبْضَةٍ قَبَضَها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قَدْر

---

(١) إسناده حسن، رجاله ثقات، وأصله في الصحيح.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٦٧ ح ٥١.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٦٧ ح ٤٩ واللفظ الموقوف هو عنده أيضاً برقم ٥٠.

الأرض، جاء منهم الأحمرُ والأسودُ والأبيضُ، وبَيْنَ ذلك، والخبيثُ والطيِّبُ، وبَيْنَ ذلك»[1]. وقد رَوَاه أبو داودَ والترمذي، من طُرُق، عن عَوفٍ الأعرابي، به نحوه. وقال الترمذيّ: حسن صحيح. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾: هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة: ٧ ـ ٨]، أي: ضعيف، كما قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١﴾، يعني: الرَّحِمُ مُعَدٌّ لذلك مُهَيَّأٌ له، ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٣]. أي: مُدَّةٍ معلومة وأجلٍ مُعَيَّن حتى استحكم وتنقَّل من حال إلى حال، وصفة إلى صفة، ولهذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾، أي: ثم صَيَّرنا النطفة وهي الماء الدافق الذي يخرُج من صُلْبِ الرجلِ، وهو ظهره، وترائب المرأة، وهي عظامُ صَدْرِها ما بين الترقُوة إلى السرة ـ فصارت علقة حمراءَ على شَكلِ العَلَقة مستطيلة. قال عكرمة: وهي دَمٌ. ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾، وهي قطعة كالبَضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾، يعني شكلناها ذات رأس ويَدين ورجلين بعظامها وعَصَبها وعُروقها. وقرأ آخرون: «فخلقنا المضغة عظماً». قال ابن عباس: وهو عَظْمُ الصلبِ.

[٤٧٨١] وفي الصحيح، من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كُلُّ جَسَدِ ابنِ آدمَ يَبْلَى إلا عَجْبُ الذَّنَب، منه خُلِقَ ومنه يُركَّب»[2]. ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾، أي: وجعلنا على ذلك ما يستُره ويشده ويُقوِّيه، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، أي: نفخنا فيه الروحَ. فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا النضر ـ يعني ابن كثير، مولى بني هاشم ـ حدثنا زيدُ بن علي، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا تَمَّت للنطفةِ أربعةُ أشهر بُعِث إليها مَلَك فَنَفخ فيها الروحَ في الظلمات الثلاثِ، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، يعني: نفخنا فيه الروحَ. ورُوي عن أبي سعيد الخُدريّ أنه نَفْخُ الروحِ. قال ابنُ عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، يعني نَفَخْنا فيه الروحَ. وكذا قال مجاهدٌ، وعكرمةُ، والشعبيُّ، والحسنُ، وأبو العاليةِ، والضحاكُ، والربيع بن أنس، والسدّيُّ، وابنُ زيدٍ. واختاره ابنُ جرير. وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، يعني نَنقُله من حالٍ إلى حالٍ، إلى أن خَرَج طفلاً، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً هَرِماً. وعن قتادةَ والضحاك نحوُ ذلك ولا منافاة، فإنه من ابتداءِ نَفخ الروح فيه شرَعَ في هذه التنقلات والأحوال. والله أعلم.

[٤٧٨٢] قال الإمامُ أحمدُ في مُسنَدِه: حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن زيدِ بن وَهْبٍ، عن عبد الله ـ هو ابنُ مسعودٍ ـ قال: حدثنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ وهو الصادقُ المصدوقُ: «إنَّ أحدَكُم ليُجمعُ خَلْقُه في بطن أمه في أربعين يوماً، ثم يكونُ علقةً مثلَ ذلك، ثم يكون مضغة مثلَ ذلك، ثم يُرسَلُ إليه الملكُ فينفُخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رِزقه، وأجلِه، وعَمَلِه، وهل هو شقي أو سعيد. فوالذي لا إله غيره إنَّ أحدَكم لَيعمَلُ بَعَمل أهل الجنّة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذِراعٌ، فيسبق عليه الكتابُ فَيُختَم له بعمَل أهلِ النار

---

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٤٦٩٣ والترمذي ٢٩٥٥ وأحمد ٤/ ٤٠٠ و٤٠٦ والحاكم ٢/ ٢٦١ و٢٦٢ وابن حبان ٦١٦٠ والبيهقي في «الأسماء والصفات» ٧١٥ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو كما قالوا.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٨١٤ و٤٩٣٥ ومسلم ٢٩٥٥ وأبو داود ٤٧٤٣ والنسائي ٤/ ١١١ ـ ١١٢ وابن ماجه ٤٢٦٦ وأحمد ٢/ ٣٢٢ و٤٢٨ وابن حبان ٣١٣٩.

فَيَدخلها، وإنَّ الرجل لَيعمل بعَمَلِ أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتابُ فَيختَم له بعَملِ أهل الجنة، فيدخُلُها»[١]. أخرجاه من حديث سليمانَ بن مِهْرَان الأعمش.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن خَيْثَمَةَ قال: قال عبد الله ـ يعني ابنَ مسعود ـ إن النُّطفَةَ إذا وَقَعت في الرَّحِم طارت في كل شَعْرٍ وظُفرٍ، فتمكث أربعينَ يوماً، ثم تَنْحَدِرُ في الرَّحِم فتكون علقةً.

[٤٧٨٣] وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا حُسَين بن الحسن، حدثنا أبو كُدَينة، عن عَطَاء بن السائب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله قال: مَرَّ يهودي برسول الله ـ ﷺ ـ وهو يحدِّث أصحابَه، فقالت قُرَيش: يا يهوديُّ، إن هذا يَزعُم أنه نبيٌّ فقال: لأسألنَّه عن شيء لا يعلَمُه إلا نبيٌّ. قال: فجاءه حتى جلس فقال: يا محمدُ، ممّ يُخلَق الإنسانُ؟ فقال: يا يهوديُّ، مِن كُلٍّ يُخلَق، من نُطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فَأما نُطفةُ الرجل فَنُطفةٌ غليظة منها العظم والعَصَب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدمُ. فقام اليهوديُّ فقال: هكذا كان يقول من قبلك[٢].

[٤٧٨٤] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سفيان، عن عمرو، عن أبي الطُّفَيل، عن حُذيفَةَ بن أَسيدٍ الغِفَاريُّ قال: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «يدخُل الملَكُ على النُّطفَة بعدما تستقرُّ في الرَّحِم بأربعين ليلةً، فيقولَ: يا ربِّ ماذا؟ أشقي أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله فَيَكتُبَان. فيقولان: ماذا؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ـ عزَ وجلّ ـ فيكتبان ويُكتَبُ عملُه، وأثرُه، ومُصِيبته، ورزقُه، ثم تُطوَى الصحيفةُ، فلا يُزاد على ما فيها ولا يُنقَصُ»[٣]. وقد رواه مسلم في صحيحه، من حديث سفيان بن عُيَينة، عن عمرو ـ وهو ابن دينار ـ به نحوَه. ومن طُرُق أخرَى، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حُذَيفة بن أَسِيدٍ أبي سَرِيحةَ الغفاري بنحوه، والله أعلم.

[٤٧٨٥] وقال الحافظُ أبو بكر البزّارُ: حدثنا أحمد بنُ عَبْدةَ حدثنا حَمّاد بنُ زيد، حدثنا عُبَيد الله بنُ أبي بكر، عَن أَنَسٍ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله وَكَّلَ بالرَحِم مَلَكاً فيقولُ: أَيْ ربِّ، نطفةٌ. أي رب عَلَقةٌ. أي رب، مضغَةٌ. فإذا أراد الله خَلقَها قالَ: أي ربِّ. ذَكَرٌ أو أنثى؟ شَقِيٌّ أو سَعِيد؟ فما الرِزقُ والأَجلُ؟ قال: فذلك يُكتَبُ في بَطْنِ أُمِّه»[٤] أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد، به.

وقولُه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، يَعني: حين ذَكَر قُدرتَه ولُطفَه في خَلْق هذه النطفة من حالٍ

---

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية ٢٣٤ وفي تفسير سورة الرعد عند آية: ٨.

(٢) ضعيف منكر. أخرجه أحمد ٤٤٣٨ والبزار ٢٣٧٦ و٢٣٧٧ والطبراني ١٠٣٦٠ من حديث ابن مسعود. قال الهيثمي في «المجمع» ١٣٩٠١: رواه أحمد والبزار بإسنادين، وفي أحد إسناديه، عامر بن مدرك، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وبقية رجاله ثقات. وفي إسناد الجماعة، عطاء بن السائب، وقد اختلط اهـ. والراوي عن عطاء عند أحمد، حسين بن حسن الأشقر، وهو ضعيف. وللحديث علة ما ذكرها الهيثمي رحمه الله، وهي الانقطاع بين عبد الرحمن، وأبيه عبد الله بن مسعود. ثم إن المتن منكر بهذا اللفظ، والمشهور في هذا حديث «بم يشبه الرجل أباه أو أمه..» الحديث. ليس فيه ذكر العظم والعصب، واللحم والدم. والله تعالى أعلم.

(٣) تقدم في تفسير سورة الحج عند آية: ٥.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٦٥٩٥ ومسلم ٢٦٤٦ وأحمد ٣/١٤٨ والآجري في «الشريعة» ٣٧٧.

إلى حالٍ، وشَكْلٍ إلى شكل، حتى تَصَوَّرت إلى ما صَارت إليه من الإنسان السَّوِيّ الكامَل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

[٤٧٨٦] قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونسُ بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا حَمّاد بن سَلَمة، حدثنا علي بن زيد، عن أنس، قال: قال عُمَر - يعني ابن الخطاب، رضي الله عنه -: وافقت ربِّي في أربع: نزلت هذه الآية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾، فلما نَزَلَتْ قلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[١].

[٤٧٨٧] وقال أيضاً: حدثنا أبي: حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شيبان، عن جابر الجُعفي، عن عامر الشعبي، عن زيد بن ثابت الأنصاري قال: أملىٰ عَلَيَّ رسولُ الله - ﷺ - هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، فقال معاذ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، فضحك رسولُ الله - ﷺ - فقال له معاذ: مِمَّ ضحكتَ يا رسولَ الله؟ قال: بها خُتِمَت ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[٢]. وفي إسناده جابر بن يزيد الجُعفيّ ضعيف جداً، وفي خبره هذا نَكَارة شديدة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة، وكذلك إسلامُ معاذِ بن جَبَلٍ إنما كان بالمدينةِ أيضاً، فالله أعلم.

وقولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾، يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تَصِيرون إلى الموت، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾، يعني النشأة الآخرة. ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، يعني يومَ المَعَاد، وقيام الأرواح والأجساد، فَيُحاسب الخلائقَ، ويُوفّى كلُّ عامِلٍ عَمَله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

لما ذكرَ تعالى خَلْقَ الإنسان، عَطَف بذكر خلق السموات السبع. وكثيراً ما يذكر تعالى خَلْقَ السموات والأرض مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وهكذا في أول ﴿الٓمٓ﴾ السجدة، التي كان رسولُ الله ﷺ يقرأ بها في صبيحة يوم الجمعة، في أولها خَلْق السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمرُ المعادِ والجزاءِ وغير ذلك من المقاصد.

وقولُه تعالى: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ قال مجاهد: يعني السموات السبع. وهذه كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، و﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: ١٥]، و﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾، أي: و﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

---

(١) إسناده ضعيف، أخرجه الطيالسي ٤١، وفي الإسناد علي بن زيد، وهو ضعيف كما في التقريب.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١١١٨٧، ومداره على جابر بن يزيد الجعفي وهو ضعيف جداً كما قال ابن كثير: بل كذبه أبو حنيفة رحمه الله وغيره، ثم إن السورة مكية كما ذكر المصنف - رحمه الله - والخبر مدني معاذ أسلم في المدينة، وزيد كتب الوحي أيضاً في المدينة. فهذا المتن من تخليطات جابر الجعفي ومع ذلك قال الهيثمي: جابر ضعيف، وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح.

[الحديد: ٤]. وهو ـ سبحانه ـ لا يَحجُب عنه سماءٌ سماءً، ولا أرضٌ أرضاً، ولا جبلٌ إلا يعلم ما في وَعْره، ولا بحرٌ إلا يعلم ما في قَعْره، يعلم عَدَد ما في الجبال والتِلاَل والرمَالِ، والبِحَارِ، والقِفَار والأشجار، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تعدّ ولا تحصى، في إنزاله القطر من السماء ﴿بِقَدَرٍ﴾، أي: بحسب الحاجة، لا كثيراً فَيُفسِدُ الأرضَ والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بِقَدْرِ الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحمل دِمْنتُها إنزالَ المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلادٍ أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها: «الأرضُ الجُرُز»، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زَمان أمطارها، فيأتي الماءُ يحملُ طيناً أحمَرَ، فَيسقِي أرضَ مصر، ويُقرُّ الطين على أرضهم ليزرعوا فيه. لأن أرضهم سباخٌ يغلِبُ عليها الرمال، فَسُبحان اللطيف الخَبِير الرَحيم الغفور! وقولُه: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: جعلنا الماء إذا نَزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابليّةً له، تشرَبه ويتغذّى به ما فيها من الحبِّ والنَّوَى. وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾، أي: لو شئنا ألاَّ تُمطِر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والبحار والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أُجاجاً لا يُنتَفَع به لِشُرب ولا لِسَقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض، بل يَنْجَرُّ على وجهها لفعلنا. ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يَغُور إلى مَدىً لا تَصِلُون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورَحمته يُنزِل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالاً، فيسكنه في الأرض ويَسْلُكُه ينابيع في الأرض، فَيُفَجِّرُ العيونَ والأنهارَ، فيسقِي به الزروعَ والثمارَ، وتشرَبُون منه ودوابّكم وأنعامكم، وتَغْتَسِلُونَ منه، وتتطهَّرُون وتتنظَّفُونَ، فله الحمدُ والمنَّةُ.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾، يعني فَأَخرجنا لكُم بما أنزلنا من الماء ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتينَ وحدائِقَ ذاتَ بهجةٍ، أي: ذات منظرٍ حَسَنٍ. وقولُه: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾، أي: فيها نخيلٌ وأعنابٌ، وهذا ما كان يألف أهلُ الحجاز، ولا فرق بين الشيء وبين نَظِيره، وكذلك في حق كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نِعَم الله عليهم ما يَعجِزون عن القيام بشكره. وقولُه: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾، أي: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: ١١]. وقولُه: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، كأنه معطوف على شيء مقدر، تقديره: تَنظُرون إلى حُسنه ونُضجه، ومنه تأكلون.

وقولُه: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾، يعني الزيتونة. والطور: هو الجبلُ. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عَرِي عنها سُمِّي جَبَلاً لا طوراً. والله أعلم. وطور سَيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذي كَلَّمَ الله عليه موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ وما حوله من الجبال التي فيها شَجَر الزيتون. وقولُه: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾، قال بعضُهم: الباءُ زائدةٌ وتقديره: تُنبتُ الدهنَ، كما في قول العرب: ألقى فلان

بيده أي: يَدَه. وأما على قول من يُضَمِّن الفعل فتقديره: تخرُج بالدهن، أو تأتي بالدُهن. ولهذا قال: ﴿وَصِبْغٍ﴾، أي: أُدْمٍ، قاله قتادة: ﴿لِّلْآكِلِينَ﴾، أي: فيها ما يُنْتَفَع به من الدهن والاصطباغ.

[٤٧٨٨] كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن عبد الله بن عيسى، عن عطاء الشامي، عن أبي أسيد ـ واسمه مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري ـ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «كُلُوا الزيتَ وادَّهِنُوا به، فإنه من شَجرةٍ مُبارَكةٍ»[١].

[٤٧٨٩] وقال عبد بن حُمَيد في مُسنَده وتَفسيره: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمَر، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عُمَر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ائتَدِمُوا بالزيتِ وادَّهِنُوا به، فإنه يَخرُج من شَجَرةٍ مُباركةٍ»[٢]. ورواه الترمذي وابنُ ماجه من غير وجه، عن عبد الرزّاق، قال الترمذيُّ: ولا يُعرَف إلا من حديثه، وكان يَضطرب فيه، فربما ذكر فيه عُمَر، وربما لم يذكره.

قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عُيَينة، حدثني الصعبَ بن حكيم بن شريك بن نَمْلَة، عن أبيه، عن جَدِّه. قال: ضِفْتُ عُمَر بن الخطاب ليلة عاشوراء، فأطعمني كُسُوراً من رأس بعيرٍ باردٍ، وأطعمنا زيتاً، وقال: هذا الزيتُ المباركُ الذي قال لنبيه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾، يذكر تعالى ما جَعَل لِخلْقِهِ في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشرَبون من ألبانها الخارجة من بين فَرْث ودَم، ويأكلُون من حُمْلانها، ويَلْبَسُون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركَبون ظهورها، ويُحَمِّلونها الأحمال الثقالَ إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح ـ عليه السلام ـ حين بعثه إلى قومه لِيُنذِرَهم عذابَ الله وبأسَه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به، وخالف أمره وكذب رسله، ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: ألا تخافون من الله في إشراككم به؟! فقال الملأ ـ وهم السادة والأكابرُ منهم ـ: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾، يعنون: يَترفَّعُ عليكم ويتعاظَمُ بدعوى النبوّة، وهو بَشَرٌ مثلكم. فكيفَ أُوحِي إليه دونكم؟ ﴿وَلَوْ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٧ والحاكم ٢/ ٣٩٧ وصححه، ووافقه الذهبي، وهو حديث حسن، يتأيد بما بعده.

(٢) حسن. أخرجه الترمذي ١٨٥١ وابن ماجه ٣٣١٩ ورجاله ثقات، لكن اضطرب فيه عبد الرزاق كما ذكر الترمذي، وقد ورد من حديث أبي هريرة أخرجه ابن ماجه ٣٣٢٠ والحاكم ٢/ ٣٩٨ وصححه، وقال الذهبي: عبد الله واهٍ. وقال البوصيري في «الزوائد»: فيه عبد الله بن سعيد المقبري متروك. وانظر «مجمع الزوائد» ٥/ ٤٣، ومع ذلك فالحديث حسن بشواهده.

شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ . أي: لو أراد أن يبعث نبياً لبَعَث مَلَكاً من عنده ولم يكُن بشراً! ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ ، أي: بِبَعْثِهِ البشر ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ . يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم الماضية. وقولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ ، أي: مجنونٌ فيما يزعمه، من أنَّ الله أرسله إليكم، واختصَّه من بينكم بالوحي، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ، أي: انتظروا به ريبَ المنُونِ، واصبِرُوا عليه مُدَّةً حتى تستريحوا منه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح ـ عليه السلام ـ أنه دعا رَبَّهُ يستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]، وقال هاهنا: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ ، فعند ذلك أمرَه الله تعالى بِصَنْعة السفينة وإحكامِها وإتقانِها، وأن يَحمِلَ فيها من كُلِّ زوجَين اثنين، أي: ذَكراً وأنثى من كُلِّ صِنفٍ من الحيوانات والنباتاتِ والثِّمارِ وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ ، أي: من سبقَ فيه القولُ من الله بالهلاك، وهم الذين لم يُؤمنوا به من أهله، كابنه وزوجَتِه، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ، أي: عند مُعَاينة إنزال المطر العظيم، لا تأخُذَنْك رأفةٌ بقومك، وشفقةٌ عليهم، وطَمَعٌ في تأخيرهم لَعَلَّهم يؤمنون، فإني قد قَضَيتُ أنهم مُغرَقُون على ما هم عليه من الكفر والطغيان. وقد تَقَدَّمت القصةُ مبسوطةً في «سورة هود» بما يُغني عن إعادة ذلك هاهنا. وقولُه: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ ، كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤]. وقد امتثل نوحٌ ـ عليه السلام ـ هذا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١]. فذكر الله تعالى عند ابتداءِ سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ . وقولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ . أي: إن في هذا الصنيع، وهو إنجاءُ المؤمنين وإهلاك الكافرين، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ ، أي: لَحُججاً ودَلالاتٍ واضحاتٍ على صِدْقِ الأنبياء فيما جاؤُوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعلٌ لما يشاء، وقادرٌ على كلِّ شيء، عليمٌ بكل شيء. وقولُه: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ، أي: لمختَبِرين للعباد بإرسالِ المرسلين.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ

بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

يُخبرُ تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قوماً آخرين، قيل: المرادُ بهم عادٌ، فإنهم كانوا مُستَخْلَفين بعدهم. وقيل: المراد بهؤلاء ثمودُ، لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾، وأنه تعالى أرسل فيهم رسولاً منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له، فكَذَّبوه وخالَفوه، وأَبوا من اتِّباعه لِكَونِهِ بَشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتِّباع رسول بشريّ، فكَذَّبوا بلقاء الله في القيامة، وأنكرُوا المعاد الجُثماني، وقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾، أي بعيد بعيد ذلك. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: فيما جاءكم به من الرسالة والنِّذارة والإخبار بالمَعاد، ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، أي: استفتح عليهم الرسولُ واستنصر ربَّه عليهم، فأجاب دُعاءه، ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾، أي: بمخالفتك وعِنادِك فيما جئتهم به، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾، أي: وكانوا يَستحِقُّون ذلك من الله لِكُفرِهم وطغيانهم. والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحةٌ مع الريح الصَّرْصر العاصف القويّ الباردة، ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. وقولُه: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾، أي: صَرعى هَلْكى كغُثاء السيلِ، وهو: الشيءُ الحقير التافهُ الهالك الذي لا يُنتفَع بشيءٍ منه. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، أي: بِكُفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله فليحذَر السامعون أن يُكَذِّبوا رسولَهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾، أي: أُمماً وخلائِق، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾، يعني: بل يُؤخذون حَسْبَ ما قَدَّر لهم تعالى في كتابه المحفوظِ وعِلْمِهِ قبل كَونِهم، أمةً بعد أمةٍ وقرناً بعد قرنٍ، وجيلاً بعد جيلٍ، وخَلَفاً بعد سلف. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾، قال ابن عباس: يعني يَتْبَعُ بعضُهم بعضاً. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]. وقولُه: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾، يعني: جُمهورَهم وأكثرَهم، كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠]. وقولُه: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾، أي: أهلكناهم. كقولِهِ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾، أي: أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩].

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

يخبر تَعالى أنه بَعَث رسولَه موسى ـ عليه السلام ـ وأخاه هارونَ إلى فِرْعَونَ ومَلَئِه بالآياتِ والحُجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأنَّ فرعونَ وقومه استكبَرُوا عن اتباعهما، والانقيادِ لأمرهما، لكونهما

بَشَرين، كما أنكرتِ الأممُ الماضيةُ بَعْثةَ الرسُل من البشر، تَشَابهَتْ قلوبُهم، فأهلك الله فرعونَ ومَلأَه، وأغرقَهُم في يوم واحدٍ أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب - وهو التوراةُ - فيها أحكامُه وأوامرُه ونواهيه، وذلك بعد ما قَصَم الله فِرْعَون والقبطَ، وأخذهم أخذَ عزيز مُقتَدِر. وبعد أن أنزل الله التوراة لم يُهلِك أمةً بعامّةٍ، بل أمر المؤمنين بقتالِ الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: ٤٣]. ثم قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبدِه ورسُولِه عيسى ابن مريم - عليهما السلام - أنه جعلهما آيةً للناس، أي: حجةً قاطعةً على قُدرتِهِ على ما يشاء فإنه خَلَق آدم من غير أبٍ ولا أم، وخَلَق حَوّاء من ذَكَرٍ بلا أُنثى، وخَلَق عيسى من أُنثى بلا ذَكَر، وخَلَق بقيَّة الناسِ من ذَكَرٍ وأنثى. وقولُه: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال الضحاك، عن ابن عباسٍ: الربوةُ: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبير، وقتادة.

قال ابن عباس: وقولُه: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾، يقولُ: ذاتِ خصبٍ ﴿وَمَعِينٍ﴾، يعني ماءً ظاهراً، وقال مجاهدٌ: رَبْوَة مستوية. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، استوى الماء فيها. وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَمَعِينٍ﴾: الماءِ الجاري. ثم اختلف المُفَسِّرون في مكان هذه الربوة في أيّ أرض هي؟ فقال عبدُ الرحمٰن بن زيدِ بن أسلَمَ: ليس الربَى إلا بمصر. والماءُ حين يرسل يكونُ الربَى عليها القُرَى، ولولا الربَى غَرِقت القُرَى. ورُوي عن وَهب بن مُنَبِّهٍ نحوُ هذا. وهو بعيدٌ جداً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيدَ المقرىءُ، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيَّب في قوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: هي دمشق. قال: ورُوي عن عبد الله بن سلام، والحَسَن، وزيد بن أسلَمَ، وخالد بن مَعْدَانَ نحوُ ذلك.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبو سعيدٍ الأشجُّ، حدثنا وكيعٌ، عن إسرائيلَ، عن سِمَاكٍ، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: أنهار دمشق. وقال ليث بن أبي سُليم، عن مجاهد: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾، قال: عيسى ابنَ مريم وأمُّه، حين أويا إلى غُوطَة دِمشقَ وما حولها. وقال عبد الرزاق، عن بشر بن رافع، عن أبي عبد الله ابن عَمِّ أبي هُريرَة، قال: سَمِعتُ أبا هريرة يقول: في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: هي الرملَةُ من فِلَسْطِين.

[٤٧٩٠] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفِرْيابي، حدثنا روّاد ابن الجرّاح، حدثنا عَبّاد بن عَبّاد الخوّاصُ أبو عُتبة، حدثنا السَّيباني، عن ابن وَعْلَةَ، عن كُرَيب السَّحُولي، عن مُرَّة البَهْزِيِّ قال: سَمِعتُ النبي - ﷺ - يقول لرجل: إنك تموتُ بالرَّبوَةِ. فمات بالرَّملَةِ[1]. وهذا حديثٌ

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» ١١١٨٨ عن مرة البهزي. - وقع في المجمع «مرة الزهري» وهو تصحيف - قال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم اهـ. قلت: فيه روّاد بن الجراح، قال أحمد: لا بأس به إلا أنه حدث عن سفيان بمناكير. وقال يحيى: ثقة. وقال النسائي: روى غير حديث منكر. وقال الدارقطني: متروك، وضعّفه البخاري. راجع الميزان ٢٧٩٥، وشيخه عباد بن عباد هو الأرسوفي، وثقه ابن معين وغيره، وقال ابن حبان كان يأتي بالشيء على التوهم، حتى كثرت المناكير في روايته على قلتها، فاستحق الترك اهـ الميزان ٤١٢٤. وأسنده الطبري من هذا الوجه ٢٥٥١٠ بدون ذكر القصة.

غريبٌ جداً. وأقربُ الأقوال في ذلك ما رواه العَوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: المَعِين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]. وكذا قال الضحاك، وقتادة: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ هو بيت المقدس. فهذا والله أعلم هو الأظهر، لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً. وهو أولى ما يُفَسَّر بِهِ، ثُمَّ الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يأمر تعالى عبادَه المرسلين ـ عليهم الصلاةُ والسلام أجمعينَ ـ بالأكل من الحلال. والقيام بالصالِح من الأعمالِ، فَدَلَّ هذا على أَنَّ الحلال عَونٌ على العمل الصالح، فقام الأنبياءُ ـ عليهم السلام ـ بهذا أتَمَّ القيَام، وجَمَعوا بين كل خير، قولاً وعملاً، ودلالةً ونصحاً، فَجزاهم الله عن العباد خَيراً. قال الحسنُ البصريُّ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، قال: أما والله ما أُمِروا بأصفركم ولا أحمركم، ولا حُلوكم ولا حَامِضِكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقال سعيد بن جبير، والضحاك: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، يعني: الحلال. وقال أبو إسحاق السَّبيعي، عن أبي مَيسَرَةَ عَمْرو بن شُرَحبيل: كان عيسى ابنُ مريم يأكلُ من غَزْل أُمّه.

[٤٧٩١] وفي الصَّحِيح: «ما من نَبِي إلا رَعَى الغَنَم. قالوا: وأنتَ يا رسولَ الله؟ قال: نعم، كنت أرعاها على قراريطَ لأهل مكة»(١).

[٤٧٩٢] وفي الصحيح: «إنَّ داود ـ عليه السلام ـ كان يأكُلُ من كسب يده»(٢).

[٤٧٩٣] وفي الصحِيحَين: «إنَّ أَحَبَّ الصيام إلى الله صيامُ داودَ، وأحبُّ القيام إلى الله قيامُ داودَ، كان ينام نصفَ الليل، ويقومُ ثلثَه وينامُ سُدسَه، وكانَ يصومُ يوماً ويفطر يوماً، ولا يَفِرُّ إذا لاقَى»(٣).

[٤٧٩٤] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان الحَكَم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبي مريم، عن ضَمْرَة بن حبيب: أَنَّ أم عبد الله، أختَ شَدَّاد بن أوس بَعَثَت إلى النبي ـ ﷺ ـ بقَدح لبن عند فِطره وهو صائم، وذلك في طول النهار وشدة الحرّ، فَرَدَّ إليها رسولها: أنّى كانت لك الشاة؟ فقالت: اشتريتُها من مالي. فَشَرب منه، فلما كان من الغد أتته أم عبد الله أخت شدّاد فقالت: يا رسول الله بعثتُ إليك بلبن مَرْثية

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٢٦٢ وابن ماجه ٢١٤٩ وابن سعد في «الطبقات» ١/ ١٠٠ من حديث أبي هريرة. وفي الباب من حديث جابر عند البخاري ٣٤٠٦ ومسلم ٦٠٥٠ وأحمد ٣/ ٣٢٦ وابن حبان ٥١٤٣.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٧٣ وابن حبان ٦٢٢٧ من حديث أبي هريرة.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٤٢٠ ومسلم ١١٥٩ ح ١٨٩ وأبو داود ٢٤٤٨ والنسائي في «الكبرى» ١٣٢٧ وابن ماجه ١٧١٢ من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن أوس الثقفي عن عبد الله بن عمرو وليس فيه قوله «ولا يفرُّ إذا لاقى» وإنما هذا اللفظ أخرجه البخاري ٣٤١٩ ومسلم ١١٥٩ ح ١٨٧ والنسائي ٤/ ٢١٤ وأحمد ٢/ ١٨٩ من وجه آخر عن أبي العباس عن ابن عمرو مطوّلاً.

لك من طُولِ النهار وشدَّة الحرِّ، فَرددت إليَّ الرسول فيه؟! فقال لها: بِذَلِكَ أُمِرتِ الرسلُ، ألاَّ تأكل إلا طيِّباً، ولا تعمَلَ إلاَّ صَالِحاً[1].

[٤٧٩٥] وقد ثبت في صحيح مسلم، وجامع الترمذي، ومسند الإمام أحمد ـ واللفظُ له ـ من حديث فُضَيل بن مَرزُوقٍ، عن عَدِيِّ بن ثابت، عن أبي حازِم، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا أيها الناسُ إن الله طيبٌ لا يقبلُ إلا طيِّباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمَر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[2] [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يُطيل السفرَ أشعث أغبر، ومطعَمُه حرامٌ، ومَشربُه حَرامٌ، ومَلْبَسُه حَرَامٌ، وغُذِيَ بالحرام، يَمُدُّ يَدَيه إلى السماءِ: يا ربِّ. «فأنَّى يستجاب لذلك»؟!. وقال الترمذيُّ: «حَسَن غريبٌ، لا نَعرِفه إلا من حديث فُضَيل بن مَرْزُوقٍ».

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: وإنَّ دينكم ـ يا معشر الأنبياء ـ دينٌ واحدٌ، ومِلَّةٌ واحدةٌ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له. ولهذا قال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾، وقد تقدَّم الكلامُ على ذلك في سورة الأنبياء، وأن قوله ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ منصوب على الحال. وقولُه: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾، أي: الأُمَم الذين بُعث إليهم الأنبياء، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، أي: يَفرَحُون بما هُم فيه من الضلال لأنهم يحسَبون أنهم مهتدون، ولهذاقال مُتهدِّداً لهم ومُتوعِّداً ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: في غَيِّهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى حين حَينهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: ٣].

وقولُه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، يعني: أيظنُّ هؤلاء المغرورون أن ما نُعطِيهم من الأموال والأولاد لِكَرامتهم علينا ومَعزَّتهم عندنا؟! كلاَّ، ليس الأمرُ كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعلُ بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاءً، ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤ ـ ٤٥]، وقال: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧]، والآيات في هذا كثيرةٌ. قال قتادةُ في قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، قال: مُكِر ـ والله ـ بالقوم في أموالهم وأولادِهم، يا بنَ آدم، فلا تَعتَبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتَبِرهم بالإيمان والعمل الصالح.

[٤٧٩٦] وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا محمد بن عُبَيد، حدثنا أبانُ بن إسحاقَ، عن الصبَّاح بن مُحمَّد، عن مُرَّةَ الهَمدانيِّ، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله قسم بينكم

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ٢٥/ ١٧٤ ـ ١٧٥ وإسناده ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم، انظر «المجمع» ١٠/ ٢٩١.

(٢) وقد تقدم تخريج الحديث أثناء تفسيرها.

أخلاقكم، كما قَسم بينكم أرزاقكم. وإنَّ الله يعطي الدنيا من يُحبُّ ومن لا يُحبّ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فَمَن أعطاه الله الدين فقد أحبه. والذي نفسي بيده، لا يُسلِمُ عبدٌ حتى يَسْلَم قلبه ولسانه، ولا يؤْمنُ حتى يأمنَ جاره بوائِقَه. قالوا: وما بوائقه يا نَبيَّ الله؟ قال: غَشْمه وظُلْمه ولا يكسِبُ عبدٌ مالاً من حَرَام فينفِق منه فيبارَك له فيه، ولا يَتصدَّقُ به فَيُقبل منه، ولا يتركه خَلْفَ ظهره إلا كان زادَه إلى النار، إن الله لا يمحُو السيىء بالسّيىء، ولكن يمحو السيىء بالحسَن، إن الخبيث لا يمحُو الخبيث»[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾، أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعَمَلهم الصالِح مُشفِقونَ مِنَ الله، خائِفون منه، وَجِلون مِن مَكْرِهِ بهم، كما قال الحَسَنُ البَصريُّ: إن المؤمِنَ جَمَع إحساناً وشَفَقة، وإن الكافر جَمَع إساءة وأمناً. ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾، أي: يؤمنون بآياته الكَونية والشَرعِيّة، كقوله تعالى إخباراً عن مريم ـ عليها السلام ـ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢]، أي: أيقنت أن ما كانَ فإنما هو عن قَدَرِ الله وقَضائِه، وما شَرَعه الله فهو إن كان أمراً فمما يُحبّهُ ويَرْضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرَهُه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾، أي: لا يعبدون مَعَه غيره، بل يُوَحِّدُونه ويَعلَمُون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نَظِير له ولا كُفْءَ له. وقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾، أي: يُعطُون العَطَاء وهم خائفون وَجِلُون ألا يُتقبَّلَ منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصَّروا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاقِ والاحتياط؛ كما قال الإمام أحمد:

[٤٧٩٧] حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مِغْوَل، حَدَّثنا عبد الرحمٰن بن سعيد بن وَهب، عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، يا رسولَ الله، هو الذي يَسرِقُ ويَزني ويشرَبُ الخمرَ، وهو يخافُ الله عز وجل؟ قال: «لا يا بنت أبي بكر، يا بنتَ الصِدّيق، ولكنه الذي يُصَلّي ويصومُ ويَتَصدَّق، وهو يخاف الله عَزَّ وجلّ»[2]. وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم، من حديث مالك بن مِغْوَلٍ، به بنحوه. وقال: «لا يا بنتَ الصديق، ولكنهم الذين يُصَلّون ويصومُون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾»، قال الترمذي: «ورُوي هذا الحديث من حديث عبد الرحمٰن بن سعيد، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ نَحوَ هذا». وهكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب القُرَظي، والحسنُ البصري في تفسيره هذه الآية.

وقد قرأ آخرون هذه الآية: «والذين يَأتون ما أتَوْا وقُلوبُهم وَجِلَةٌ»، أي: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، ورُوي هذا مرفوعاً إلى النبي ـ ﷺ ـ أنه قرأ كذلك.

[٤٧٩٨] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عثمان حَدَّثنا صَخرُ بن جُوَيرِيَّة، حدثنا إسماعيلُ المَكّي، حدثني أبو

---

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٦٧.

(٢) أخرجه الترمذي ٣١٧٥ وأحمد ٦/١٥٩ و٢٠٥، وفيه إرسال، عبد الرحمن بن سعيد لم يدرك عائشة، لكن ما بعده متصل، فهو يعتضد به، والله أعلم. وله طريق آخر عند الطبري ٢٥٥٦١ وآخر ٢٥٥٦٣.

خَلَفٍ مولى بني جُمحَ: «أنه دخل مع عُبَيد بن عُمَير على عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: مرحباً بأبي عاصم، ما يمنعُك أن تزورَنا ـ أو: تُلِمّ بنا ـ؟ فقال: أَخشَى أن أُملَّكِ. فقالت: ما كنت لتفعَلَ؟ قال: جئتُ أسأَلُكِ عن آية في كتاب الله عز وجل، كيف كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقرؤها؟ فقالت: أيَّةُ آيةٍ؟ فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾، أو «والذين يأتون ما أتوا»؟ فقالت: أيتهما أحبُّ إليك؟ قلتُ: والذي نفسي بيده، لإحداهما أحب إليّ من الدنيا جميعاً ـ أو: الدنيا وما فيها ـ قالت أيتهما؟ قلت: «والذين يأتون ما أتوا». فقالت: أشهدُ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أُنزلَت، ولكن الهجاء حرف»[1]. فيه إسماعيل بن مُسلِم المكي وهو ضعيفٌ. والمعنى على القراءة الأولى ـ وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم ـ أظهر، لأنه قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾، فجعلهم من السابقين. ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك ألاَّ يكونوا من السابقين، بل من المقتصدين أو المُقَصرين، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن عدله في شَرعه على عباده في الدنيا: أنه لا يُكَلِّف نفساً إلا وُسْعَها، أي: إلا ما تُطيق حمله والقيامَ به، وأنه يوم القيامة يُحاسِبُهم بأعمالهم التي كَتَبها عليهم في كتاب مَسطُورٍ لا يَضِيع منه شيءٌ، ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾، يعني: كتابَ الأعمال، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، أي: لا يُبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئاتُ فيعفو ويَصفَحُ عن كثير منها لعباده المؤمنين. ثم قال منكراً على الكُفّار والمشركين من قريش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾، أي: غَفْلَةٍ وضَلالةٍ ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾، أي: القرآن الذي أنزله على رَسُوله ـ ﷺ ـ. وقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾، قال الحكَمُ بن أبانَ، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾، أي: سَيِّئة من دُون ذلك، يعني الشِرْكَ ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾، قال: لا بُدَّ أن يعملوها. وكذا رُوي عن مجاهدٍ، والحسَنِ، وغير واحدٍ. وقال آخرون: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾، أي: قد كُتِبَتْ عليهم أعمالُ سيئة لا بدَّ أن يعملوها قبل مَوْتِهم لا محالة، لِتَحِقَّ عليهم كلمةُ العَذَاب. ورُوِي نحوُ هذا عن مقاتِل بن حَيَّان، والسدّيّ، وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلَم. وهو ظاهرٌ قويٌ حَسَنٌ.

[٤٧٩٩] وقد قَدمنا في حديث ابن مسعود: «فوالذي لا إله غيره، إن الرجُل ليعمَل بعمل أهلِ الجَنّة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذِراعٌ، فَيسبِقُ عليه الكتابُ، فيعمَلُ بِعَمَلِ أهلِ النَّار، فيدخُلُها»[2].

وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾، يعني حتى إذا جاءَ مترفيهم ـ وهم

---

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٦/ ٩٥ ح ٢٤١٢٠ وح ٢٤٥٩١ و١٤٥٩٢، وأعله ابن كثير وكذا الهيثمي في «المجمع» ١١١٨٩ بضعف إسماعيل بن مسلم المكي، وله علة ثانية، أبو خلف، هو المكي، ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» مع هذا الحديث بدون جرح أو تعديل، وذكره الذهبي في الميزان ١٠١٥٧ بهذا الحديث، وقال: لا يعرف، وأخرجه الطبري ٢٥٥٥٨ من وجه آخر عن أبي خلف، لكن ليس فيه ذكر النبي ﷺ وإنما هي أقرأتهما ذلك، وأيّاً كان، فأبو خلف مجهول، وهو علة هذا الخبر.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٣٢.

السعداء المنعَّمون في الدنيا ـ عذابُ الله وبأسُه ونقمتُه بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ أي: يَصرخُون ويَستغيثُون، كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [المزمل: ١١ ـ ١٣] وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾ [ص: ٣]. وقولُه: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾، أي: لا نُجيركم مما حلَّ بكم، سواء جأرتم أو سكتُّم، لا مَحيدَ ولا مَناصَ ولا وَزَرَ، لَزِم الأمرُ، وَوَجبَ العذابُ. ثم ذكر أكبر ذُنُوبهم فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾، أي: إذا دُعِيتُم أبيتُم، وإذا طُلِبتُم امتنعتم، ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١٢]. وقولُه: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾، في تفسيره قولان، أحدهما: أن ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حال منهم حين نُكوصهم عن الحق وإبائهم إياه، استكباراً عليه واحتقاراً له ولأهله. فعلى هذا الضَّميرُ في ﴿بِهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدُها: أنَّه الحرَمُ بمكة، ذُمُّوا لأنهم كانوا يسمرون به بالهُجْر من الكلام. والثاني: أنَّه ضميرُ القرآن، كانوا يسمُرون ويذكُرون القرآن بالهُجرِ من الكلام: «إنه سحرٌ، إنه شعرٌ، إنه كهانةٌ». إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. والثالثُ: أنَّه محمدٌ ـ ﷺ ـ كانوا يذكُرونه في سَمَرِهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون الأمثال الباطلة، من أنَّه شاعر، أو كاهنٌ، أو ساحرٌ، أو كذابٌ، أو مجنونٌ، وكلُّ ذلك باطلٌ، بل هو عبدُ الله ورسولُه، الذي أظهره الله عليهم، وأخرجَهُم من الحَرَم صاغِرِين أذِلَّاءَ. وقيل: المراد بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾، أي: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا بهم.

كما قال النَّسائي في التفسير من سُنَنِهِ: أخبرنا أحمدُ بن سليمان، أخبرنا عبد الله، عن إسرائيل، عن عبد الأعلى، أنه سَمِعَ سعيد بن جُبير يُحَدِّث عن ابن عباس أنه قال: إنما كُرِه السمرُ حين نَزَلت هذه الآيةُ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾، فقال مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهلُه، ﴿سَامِرًا﴾، قال: كانوا يتكبَّرون ويَسمُرونَ فيه ولا يَعمرُونَه: يَهجُرونَه. وقد أطنبَ ابن أبي حاتم هاهُنا بما هذا حاصِلُه.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾

يقولُ تعالى منكراً على المشركين في عَدَم تَفَهُّمهم للقرآن العظيم وتَدَبُّرهم له وإعراضِهم عنه، مع أنهم قد خُصُّوا بهذا الكتاب الذي لم يُنزل الله على رسولٍ أكمل منه ولا أشرفَ، لا سيما آباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتابٌ ولا أتاهم نذيرٌ، فكان اللائقُ بهؤلاء أن يُقابلُوا النعمةَ التي أسداها الله إليهم بقَبُولها، والقيام بشكرها وتفهُّمها، والعَمَلِ بمقتضاها آناءَ الليل وأطرافَ النهار، كما فعله النُّجباءُ منهم مِمَّن أسلَمَ واتَّبع الرسولَ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ ورَضِي عنهم. وقال قتادةُ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾: إذاً والله يَجدُون في القرآن زَاجراً عن مَعْصِيَةِ الله لو تَدَبَّره القومُ وعَقَلوه، ولكنهم أخذُوه بما تَشابه، فَهلَكُوا عند ذلك.

ثم قال مُنكراً على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾، أي: أفَهُم لا يعرِفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم، أفيقدرون على إنكار ذلك والمُباهَتَةِ فيه؟ ولهذا قال

جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ للنجاشي ملك الحبشة: «يا أيها الملكُ، إن الله بَعَثَ إلينا رَسُولاً نَعرِفُ نَسَبه وصدْقَه وأمانَته». وهكذا قال المغيرة بن شُعبة لنائب كسرى حين بارَزَهم. وكذلك قال أبو سُفيان صخْرِ بن حرب لملك الروم هِرقل حين سأله وأصحابَه عن صفات النبيّ ـ ﷺ ـ وَنَسَبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعدُ كفاراً لم يسلموا، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدقُ فاعترفوا بذلك. وقولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾، يَحكي قولَ المشركين عن النبي ـ ﷺ ـ أنه تَقوّل القرآن، أي: افتراه من عنده، أو أنَّ به جُنوناً لا يَدْري ما يقول. وأخبر عنهم أنَّ قلوبهم لا تُؤمِنُ به، وهم يَعلمُون بُطلان ما يقولونه في القرآن، فإنه قد أتاهم مِنْ كلام الله ما لا يُطاق ولا يدافَع، وقد تحدّاهم وجميعَ أهلِ الأرض أن يَأتُوا بمثله، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين، ولهذا قال: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾: يَحتَمِلُ أن تكون هذه جملة حالية، أي: في حال كراهة أكثرهم للحق، ويَحتمَلُ أن تكون خبرية مستأنفة، والله أعلم.

[٤٨٠٠] وقال قتادةُ: ذُكِر لنا أن نَبيّ الله ﷺ لقي رجلاً فقال له: أَسْلِمْ. فقال الرجلُ: إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كارهٌ. فقال نبيُّ الله ﷺ وإن كنتَ كارهاً. وذُكِرَ لنا أنه لقي رَجُلاً فقال له: أسلم. فَتَصعّده ذلك وكَبُرَ عليه. فقال له نبيُّ الله: أرأيتَ لو كنتَ في طريق وعْرٍ وَعْثٍ، فَلقيتَ رَجُلاً تعرِفُ وجهه. وتعرف نَسَبه، فدعَاك إلى طريق واسعٍ سهلٍ، أكنت مُتّبعه؟ قال: نعم. فقال فَوَالذي نفسُ محمدٍ بيده إنك لفي أَوْعَرَ من ذلك الطريق لو قد كُنتَ عليه، وإني لأدعوكَ إلى أسهلَ من ذلك لو دُعِيت إليه. وذكر لنا أن نَبيّ الله ﷺ لقي رجلاً، فقال له: أسلم، فَتَصعّده ذلك، فقال له نبي الله ﷺ: أرأيت فتيان، أحدهما إذا حَدّثك صَدَقك، وإذا أتمنته أدّى إليك أهو أحبُّ إليكَ أم فتاكَ الذي إذا حدثك كَذَبك، وإذا ائتمنه خانَك؟! قال: بل فتاي الذي إذا حَدّثني صَدقني، وإذا ائتمنتُه أدّى إليّ. فقال النبي ﷺ: كذاكُم أنتم عند رَبكم[١].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، قال مجاهد، وأبو صالح، والسدّيُّ: الحق هو الله عَزّ وجلّ. والمرادُ لو أجابهم الله إلى ما في أنفسِهم من الهوى، وشَرّعَ الأمور على وفق ذلك، ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، أي: لِفَسادِ أهوائِهم واختلافِها، كما أخبَر عنهُم في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١ ـ ٣٢]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: ١٠٠]. وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء: ٥٣]، ففي هذا كله تبيين عَجزِ العباد واختلافِ آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاتِه وأقوالِه وأفعالِه وشرعِه وقَدَرِه، وتَدْبيره لخلقه ـ تعالى وتقدّس ـ فلا إلَه غيرُه، ولا ربَّ سواه. ثم قال: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾، يعني القرآن، ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾، قال الحسن: أجراً. وقال قتادة: جُعلاً، ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾، أي: أنت لا تسألهم أجرةً ولا جُعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهُم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تَحتسِبُ عند الله جزيلَ ثوابِه، كما قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧]، وقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس: ٢١].

---

(١) هذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف، وقد رواه بصيغة التمريض.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾.

[٤٨٠١] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حَسَن بن موسى، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسفَ بن مِهْران، عن ابن عباس: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ أتاه ـ فيما يَرَى النائم ـ ملكان، فَقَعد أحدُهما عند رجليه، والآخرُ عند رأسه، فقال الذي عند رِجلَيه لِلَّذي عند رأسِهِ: اضرب مَثَل هذا ومَثَل أمته. فقال: إن مثَلَه ومثل أُمَّته كَمَثَل قوم سَفْرٍ انتهوا إلى رأس مَفازَةٍ، فلم يكنْ معهم من الزادِ من يقطعُون به المفازَةَ ولا ما يرجعونَ به، فَبينا هُم كذلكَ إذ أتاهم رجلٌ في حُلَّةٍ حِبَرَةٍ، فقال: أرأيتُم إن وردت بكُم رياضاً مُعشبة، وحياضاً رِوَاءَ تَتَّبِعُوني؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق بهم، فأوردهم رياضاً مُعْشِبَةً وحياضاً رواءَ فأكلوا وشَرِبوا وسَمِنوا. فقال لهم: أَلَم أَلقكُم على تلك الحال فَجعلتم لي إن وَرَدتُ بكم رياضاً مُعْشِبة وحياضاً رواءَ أنْ تتبعوني؟ قالوا: بلى. قال: فإنَّ بين أيديكم رِياضاً أعشَبَ من هذه، وحياضاً هي أَرْوَى من هذه فاتَّبِعُوني. قال: فقالت طائفةٌ: صَدَق والله، لَنَتَّبِعَنَّه. وقالت طائفة: قد رَضِينا بهذا، نُقيمُ عليه[١].

[٤٨٠٢] وقال الحافظ أبو يعلَى الموصلي: حدثنا زُهَير، حدثنا يُونُس بن محمد، حدثنا يعقُوب بن عبد الله الأشعريُّ، حدثنا حفصُ بن حُمَيد، عن عكرمةَ، عن ابن عَبَّاس، عن عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إني مُمسِكٌ بِحُجَزِكم: هَلُمّ عن النار، هلم عن النار، وتغلبونني وتَقَاحَمون فيها تَقَاحمُ الفَرَاش والجَنَادِب، فأوشِكُ أن أُرسِلَ حُجَزكم وأنا فَرَطُكم على الحوض، فَتَرِدُون عَلَيَّ معاً وأشتاتاً، أعرفكم بسيماكُم وأسمائكم، كما يعرِفُ الرجلُ الغريبَ من الإبل في إبله، فيُذهَب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأُناشِدُ فيكم ربَّ العالمين: أيْ ربِّ، قَومِي، أيْ ربِّ أُمتي، فيُقالُ: يا محمدُ، إنك لا تَدرِي ما أحدثُوا بعدكَ، إنهم كانوا يمشُون بعدكَ القَهْقَرى على أعقابهم، فَلأعرفنَّ أحدكم يأتي يوم القيامة يَحمِلُ شاةً لها ثغاءٌ يُنادي: يا محمدُ، يا محمدُ. فأقولُ: لا أملِكُ لك شيئاً، قد بَلَّغتُ، ولأعرفَنَّ أحدَكم يأتِي يوم القيامة يَحمِلُ بعيراً له رُغاءٌ يُنَادي: يا محمدُ، يا محمدُ. فأقول: لا أملِكُ لك شيئاً، قد بَلَّغتُ. ولأعرفَنَّ أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرساً لها حَمْحَمَةٌ فيُنادي: يا محمدُ، يا محمدُ. فأقول: لا أَملُكُ لَكَ شيئاً، قد بَلَّغتُ. ولأعرفَنَّ أَحَدُكم يأتي يومَ القيامةِ يحمل سقاءً من أدم، ينادي يا محمدُ، يا محمدُ، فأقول: لا أملِكُ لك شيئاً، قد بَلَّغتُ»[٢]. وقال علي بن المَدِيني: هذا حَديثٌ حَسَن الإسناد، إلاَّ أنَّ حفصَ بن حُميد مجهول، لا أعلم رَوَى عنه غيرُ يعقوبُ بن عبد الله الأشعريُّ القُمِّي. قلتُ: بل قد رَوَى عنه أيضاً أشعثُ بن إسحاق، وقال فيه يحيى بن معين: صالحٌ. وَوَثَّقه النسائيُّ وابن حِبَّان.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾، أي: لعادِلُونَ جائِرُونَ مُنحرِفُونَ. تقولُ العربُ: نَكَب فلانٌ عن الطريق: إذا زاغَ عنها. وقوله: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾: يُخبر تعالى عن غِلظهم في كُفرهم، بأنه لو أزاحَ عِلَلَهُم وأفهمَهُم القرآن لما انقادُوا له، ولاستمرُّوا على كفرهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٦٧ والطبراني ١٢٩٤٠ وفيه علي بن زيد، وهو غير قوي، لكن له شواهد يحسن بها إن شاء الله.

(٢) أخرجه أبو يعلى في «المسند الكبير» كما في «المجمع» ٣/ ٨٥ والبزار ٩٠٠ «كشف» وقال الهيثمي: ورجاله الجميع ثقات اهـ. وللحديث شواهد تقويه وهي في الصحيح.

حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٩]، فهذا من باب عِلمِه تعالى بما لا يكون، ولو كان كيف كان يكون. قال الضحاك، عن ابن عباس: كلُّ ما فيه «لو» فَهو مما لا يكونُ أبداً.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾، أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، أي: فما رَدَّهم ذلك عما كانوا فيه من الكُفر والمخالفة، بل استمرُّوا على ضلالهم وغَيِّهم. ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ أي ما خشعوا، ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، أي: ما دَعوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣].

[٤٨٠٣] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا علي بن خَشرم المروزيُّ، حدثنا علي ابن الحُسَين، حدثنا أبي، عن يزيد ـ يعني النحوي ـ عن عكرمةَ، عن ابن عباس أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العِلْهِزَ ـ يعني الوبَرَ والدم ـ فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾[1]. وهكذا رواه النسائي عن محمد بن عَقيل، عن علي بن الحسين، عن أبيه، به.

[٤٨٠٤] وأصل هذا الحديث في الصحيحين أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ دَعَا على قُريشٍ حين استعصَوا فقال: اللَّهُمَّ، أعِنِّي عَلَيهِم بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا سلمة بن شَبيب، حدثنا عبد الله بن إبراهيم بن عُمَر بن كيسان، حَدَّثني وهبُ بن عمر بن كيسَان قال: حُبِسَ وهبُ بن مُنَبِّه، فقال له رجل من الأبناء: ألا أنشِدُك بيتاً من شعر يا أبا عبد الله؟ فقال وهب: نحن في طرف من عذاب الله، والله يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ فصام وهب ثلاثاً متواصلة فقيل له: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله قال: أحدَثَ لنا فأحدَثْنا. يعني أحدثنا زيادة عبادةٍ.

وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾، أي: حتى إذا جاءهم أمرُ الله وجاءتهم الساعةُ بغتةً وأخذَهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتَسِبُونَ، فعند ذلك أَبْلَسُوا من كلِّ خير وأيِسُوا من كلِّ راحةٍ، وانقطعت آمالُهم ورجاؤُهم. ثم ذكرَ تعالى نعمتَه على عباده في أن جَعَل لهم السمعَ والأبصارَ والأفئدة ـ وهي العُقول والفُهوم ـ التي يُدرِكون بها الأشياءَ، ويَعتبِرُون بما في الكون من الآيات الدالة على

(١) أخرجه النسائي في «التفسير» ٣٧٢ وابن حبان ٩٦٧ والطبراني ١٢٠٣٨؛ من طرق عن علي عبن الحسين به وصححه الحاكم ٢/ ٣٩٤ ووافقه الذهبي، وإسناده حسن من أجل علي بن الحسين بن واقد قال الحافظ في «الفتح» ٦/ ٥١٠: صدوق يهم اهـ لكنه توبع فقد أخرجه الطبري ٢٥٦٣٣ والبيهقي في «الدلائل» ٤/ ٨١ من وجه آخر عن عكرمة به.

(٢) تقدم في تفسير سورة يوسف عند آية: ٩٩.

وحدانية الله تعالى، وأنه الفاعل المختار لما يشاء. وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، أي: مَا أقلَّ شكركُم لله على ما أنعمَ به عليكُم، كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]. ثم أخبر تعالى عن قُدرته العظيمةِ وسلطانِهِ القاهِر، في بَرْئِهِ الخليقةَ وذَرئه لهم في سائِرِ أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولُغاتهم وصِفاتهم، ثم يوم القيامة يجمَعُ الأولين منهم والآخرين لميقاتِ يوم معلوم، فلا يتركُ منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا ذَكراً ولا أنثى، ولا جَليلاً ولا حَقيراً، إلا أعاده كما بَدَأه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، أي: يُحيي الرمَمَ ويُميت الأُمَم، ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: وعن أمره تسخيرُ الليل والنهارِ، كلُّ منهما يطلُب الآخر طلباً حثيثاً، لا يتَعاقَبان لا يَفتُران، ولا يفترقان بزَمان غيرهم، كقوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠]. وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: أفليس لكم عقولٌ تَدلُّكم على العزيزِ العليم، الذي قد قهر كُلَّ شيءٍ وعَزَّ كُلَّ شيءٍ، وخَضَع له كل شيء. ثم قال مُخبِراً عن مُنكِري البعثِ الذين أشبَهوا من قَبلَهم من المُكذِّبين: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟ يعني: يَستبعِدُون وقوع ذلك بعد صَيرُورتهم إلى البلَى، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، يعنون أن الإعادة محال، إنما يخبرُ بها من تَلَقَّاها عن كُتب الأولين واختلاقهم. وهذا الإنكارُ والتكذيبُ منهم كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١١ ـ ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩]... الآيات.

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾

يُقرِّر تعالى وحدانيَّته واستقلالَه بالخلق والتصرف والمُلكِ، ليرشدَ إلى أنه الذي لا إلَه إلا هُو، ولا تَنبغي العبادةُ إلا لَهُ وحدَه لا شريك له، ولهذا قال لرسوله محمد ـ ﷺ ـ أن يقولَ للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركُوا معه في الإلهية، فعبدوا غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عَبَدُوهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئاً، ولا يستبدُّون بشيء، بل اعتقدُوا أنهم يُقرِّبونهم إليه زلفى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فقال: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾؟ أي: مَن مالكها الذي خلقها ومَن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات، وسائر صنوف المخلوقات؟ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾. أي: فيعترِفونَ لك بأن ذلك لله وحدَه لا شريك له، فإذا كان كذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: ألا تذكرون أنه لا تنبغي العبادةُ إلاَّ للخالِق الرزَّاق لا لغيره. ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾؟ أي: مَن هُو خالقُ العالم العُلْوي بما فيه من الكواكب النيرات، والملائكةِ الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهاتِ، ومَن هو ربُّ العرش العظيم؟ يعني الذي هو سَقفُ المخلوقات.

[٤٨٠٥] كما جاء في الحديث الذي رَوَاه أبو داودَ، عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «شأنُ الله أعظمُ من ذلك، إن عَرْشَه على سمواتِهِ هكذا. وأشار بيده مثل القُبَّة»[(١)].

[٤٨٠٦] وفي الحديث الآخر: «ما السمواتُ السبعُ والأرضون السبعُ وما فيهنَّ وما بينهنَّ في الكرسيِّ إلا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بأرضِ فلاة، وإنَّ الكرسيَّ بما فيه بالنسبة إلى العَرش كتلك الحلقة في تلك الفَلاة»[(٢)]. ولهذا قال بعضُ السلف: إنَّ مسافة ما بين قُطْرَي العرشِ من جانبٍ إلى جانبٍ مسيرةُ خمسين ألفَ سنةٍ، وارتفاعها عن الأرض السابعةِ مسيرةُ خمسين ألفَ سَنَةٍ.

وقال الضحاكُ، عن ابن عَبَّاس: إنما سُمِّي عَرشاً لارتفاعِهِ. وقال الأعمش، عن كعب الأحبار: إنَّ السمواتِ والأرض في العرش كالقنديل المعلَّقِ بين السماءِ والأرضِ. وقال مجاهد: ما السمواتُ والأرضُ في العرشِ إلا كحلقةٍ في أرضٍ فلاةٍ. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا العلاءُ بن سالم، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان الثوري، عن عمار الدُّهنِيِّ، عن مسلم البَطين، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: العرش لا يقدُر أحد قَدْرَه. وفي رواية: إلا الله عزَّ وجلَّ. وقال بعض السلف: العرشُ من ياقوتةٍ حمراءَ. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، يعني: الكبير، وقال آخر السورة: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾، أي: الحسن البَهيّ. فقد جَمَع العرشُ بين العَظَمة في الاتساع والعلو، والحُسن الباهِرِ. ولهذا قال من قال: إنه من ياقوتة حمراء. وقال ابنُ مسعود: إنَّ ربَّكُم ليسَ عنده ليلٌ ولا نهارٌ، نورُ العَرْشِ من نُورِ وَجْهِهِ.

وقولُه تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧﴾، أي: إذا كنتم تعترفون بأنه رَب السمواتِ وربُّ العرشِ العظيمِ، أفلا تخافونَ عِقابَه وتحذَرون عذابَه في عبادَتِكم معه غيرَه وإشراكِكُم به؟!

[٤٨٠٧] قال أبو بكر عبدُ الله بن محمد بن أبي الدنيا القُرَشي في كتاب «التفكر والاعتبار»: حدثنا إسحاقُ بن إبراهيم، أخبرنا عَبدُ الله بن جعفر، أخبرني عبد الله بن دينار، عن ابن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كان رسول الله ـ ﷺ ـ كثيراً ما يُحدِّث عن امرأة كانت في الجاهلية على رأس جبلٍ، معها ابنٌ لها يرعى غنماً، فقال لها ابنُها: يا أمَّاه، من خلَقَكِ؟ قالت: الله. قال: فمن خَلَق أبي؟ قالت: الله. قال: فمن خَلَقني؟ قالت: الله. قال: فمن خلق السموات؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الجبل؟ قالت: الله. قال: فمن خَلَق هذه الغَنَم؟ قالت: الله. قال: فإني أسمعُ لله شأناً. ثم ألقى نفسه من الجبل فَتَقطَّعَ. قال ابنُ عُمَر: كان رسول الله ـ ﷺ ـ كثيراً ما يحدثنا هذا الحديث. قال عبد الله بن دينار: كان ابنُ عُمَر كثيراً ما يُحدِّثنا بهذا الحديث»[(٣)]. قلتُ: في إسناده عبد الله ابن جعفر المَديني، والِد الإمام عَليِّ بن المديني، وقد تكلَّموا فيه، فالله أعلم. ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: أي: بيده الملكُ، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]، أي: متصرِّف فيها.

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٧٢٦ من حديث جبير بن مطعم وتقدم الكلام عليه في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٥٥.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٥٥.

(٣) ضعيف جداً. أخرجه ابن عدي ٤/١٧٨ بهذا الإسناد من حديث ابن عمر، وعلته عبد الله بن جعفر والد علي المديني. قال ابن كثير: تكلموا فيه. وجاء في الميزان ٤٢٤٧: متفق على ضعفه. قال يحيى: ليس بشيء. وقال ابن المديني: أبي ضعيف. وقال أبو حاتم: منكر الحديث جداً، وقال النسائي: متروك اهـ قلت: عبد الله بن دينار، ثقة، بل هو فوق الثقة، فلو كان هذا الحديث عنده لرواه الأئمة، فكيف يتفرد به عبد الله بن جعفر وحده ولا يتابع عليه كما قال ابن عدي، فهذا دليل على بطلانه، فهو ضعيف جداً.

[٤٨٠٨] وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا والذي نَفْسِي بيده»[١]،

[٤٨٠٩] وكان إذا اجتهد في اليمين قال: «لا، ومُقَلِّب القُلُوب»[٢]. فهو سبحانه الخالق المالكُ المتصرف، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر في جواره، وليس لمن دونه أن يُجيرَ عليه لئلا يفتَات عليه. ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾، أي: وهو السَّيدُ العَظِيم الذي لا أعظَمَ منه، الذي له الخلقُ والأمرُ، ولا مُعقِّب لحكمه، الذي لا يُمانَع ولا يُخالَف، وما شاء الله كانَ، وما لم يَشَأ لم يَكُن، وقال الله: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣] أي: لا يُسئل عما يفعل لعَظَمته وكِبْريائِهِ، وقَهْرِه وغَلَبته، وعِزَّتِهِ وحِكْمتِهِ وعَدْلِهِ، والخلق كلهم يُسألون عن أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣].

وقولُه تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، أي: سيعترفون أن السيدَ العظيم الذي يُجير ولا يُجَار عليه هو الله تعالى، وحده لا شريكَ له. ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾، أي: فكيف تذهبُ عُقولُكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافِكُم وعِلْمِكُم بذلك ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلَّة الصحيحةَ الواضحةَ القاطعةَ على ذلك، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، أي: في عبادتهم مع الله غيره، ولا دليلَ لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾، فالمشركون لا يفعلُونَ ذلك عن دليلٍ قادهم إلى ما هُم فيه من الإفك والضَّلالِ، وإنما يفعلُون ذلك اتباعاً لآبائهم وأسلافِهم الحيارَى الجُهَّالِ، كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يُنَزِّه تعالى نفسه عن أن يكون له ولدٌ أو شريكٌ في الملك، فقال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي: لو قُدِّر تَعدُّدَ الآلهة لانفرد كلُّ منهم بما يخلق، فما كان ينتظم الوجود. والمشاهد أن الوجود منتظم مُتَّسِقٌ، كلٌ من العالم العُلْوي والسفلي مرتبط بعضُه ببعض، في غاية الكمال، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣]. ثم لَكَان كلٌّ منهم يطلب قهر الآخرِ وخلافَه، فيعلو بعضُهم على بعض. والمُتكلِّمون ذكروا هذا المعنى وعَبَّرُوا عنه بدليل التمانع، وهو: لو فُرِض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يَحصُل مرادُ كلِّ واحدٍ منهما كانا عاجِزَين، والواجبُ لا يكون عاجزاً ويمتنع اجتماعُ مرَادَيهما للتضادِّ. وما جاء هذا المحالُ إلا من فرض التعدُّد، فيكون محالاً، فأما إن حَصَل مرادُ أَحَدِهما دون الآخر، كان الغالبُ هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يَليقُ بصفةِ الواجب أن يكونَ مَقهوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا

---

(١) ورد في ذلك أحاديث كثيرة بلغت حد التواتر.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٦١٧ و٦٦٢٨ وأبو داود ٣٢٦٣ والترمذي ١٥٤٠ والنسائي ٧/ ٢ وأحمد ٢/ ٢٥ و٦٧ وأبو يعلى ٥٤٤٢ من حديث ابن عمر.

يَصِفُونَ﴾، أي: عما يقولُ الظالمونَ المعتدونَ في دعواهم الولدَ أو الشريكَ عُلوّاً كبيراً. ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: يعلم ما يغيبُ عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تقدّس وتنزه، وتعالى، وعزّ وجلّ، عما يقول الظالمون الجاحدون.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً نبيه محمداً أن يُدعَو بهذا الدعاء عند حُلولِ النِّقم: ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾، أي: إن عاقبتهم ـ وإني شاهدُ ذلك ـ فلا تَجعَلني فيهم.

[٤٨١٠] كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذيّ وصَحّحه: «وَإِذَا أردت بقوم فتنةً فَتوفَّني إليك غيرَ مَفتُونٍ»[١]. وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾، أي: لو شئنا لأريناك ما نحِلُ بهم من النقَم والبلاءِ والمِحَنِ. ثم قال مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس، وهو الإحسانُ إلى من يُسيىء لِيَستجلِبَ خاطِره، فتعود عداوتُه صداقةً وبُغضُه محبّةً، فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾. وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، أي: ما يلهم هذه الوَصِيّة أو الخَصْلَة أو الصفَةَ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾، أي: على أذى الناسِ، فَعامَلوهُم بالجَميلِ مع إسدائِهم إليهم القبيحَ، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، أي: في الدنيا والآخرة. وقولُه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾، أمره أن يستعيذَ من الشياطين، لأنهم لا ينفَعُ معهم الجميل. ولا ينقادون بالمعروف.

[٤٨١١] وقد قدَّمنا عند الاستعاذة أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «أعوذُ بالله السميع العليم من الشيطانِ الرجيم، من هَمزِه ونفخه ونَفْثِهِ»[٢]. وقولُه: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾، أي: في شيءٍ من أمري. ولهذا أمَر بذكر الله في ابتداءِ الأمور ـ وذلك مَطْرَدَةٌ للشياطين ـ عند الأكل والجماع والذَّبحِ، وغير ذلك من الأمورِ.

[٤٨١٢] ولهذا رَوَى أبو دَاود أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «اللهُمَّ إني أعوذُ بِكَ من الهَرم، وأعوذ بِكَ من الهدْمِ ومِنَ الغرَق، وأعوذ بك أن يَتَخبّطني الشيطانُ عند الموتِ»[٣].

[٤٨١٣] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ، أخبرنا محمد بن إسحاقَ، عن عَمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جَدّه قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُعلِّمنا كلماتٍ يَقولُهنَّ عند النوم، من الفزع: باسم الله، أعوذُ بكلمات الله التامّةِ من غَضَبه وعِقَابه، ومن شرِّ عبادِهِ، ومن هَمَزاتِ الشياطينَ وأن يَحضُرونِ. قال: فكان عبد الله بن عَمْرو يُعَلِّمها من بَلَغ من ولَده أن يقولَها عند نَومِهِ، ومَن كان منهم صغيراً لا يَعقِل أن يَحفظَها كَتَبها له، فَعلَّقها

(١) يأتي.
(٢) تقدم عند الاستعاذة كما ذكر المصنف.
(٣) أخرجه أبو داود ١٥٥٢ من حديث أبي اليسر بأتم منه، وهو صحيح.

في عُنُقِه[1]. ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث محمد بن إسحاق، قال الترمذيُّ: حَسَنٌ غريبٌ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

يُخبر تعالى عن حال المحتضَر عند الموت من الكافرين أو المفرِّطين في أمر الله تعالى، وقِيلِهم عند ذلك، وسُؤالهم الرَّجعةَ إلى الدنيا، ليصلِحَ ما كان أفسدَه في مُدَّةِ حياتِهِ، ولهذا قال: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ١٠ ـ ١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١١ ـ ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]. فذكر تعالى أنهم يسألونَ الرجعة فلا يُجابون عند الاحتضارِ، ويوم النشورِ، ووقت العرضِ، على الجبّارِ، وحين يُعرَضُونَ على النار، وهم في غَمَراتِ العذاب في الجحيم.

وقولُه هاهنا: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾، كَلاً: حرفُ رَدْع وزَجْر، أي: لا نُجيبه إلى ما طَلَب، ولا نقبلُ منه. وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾، قال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: أي لا بُدَّ أن يَقولَها محالَة كلُّ مُحتضرٍ ظالم. ويَحتمِلُ أن يكونَ ذلك عِلَّةً لقوله ﴿كَلَّآ﴾، أي: لأنها كلمة، أي: سؤاله الرجوع ليعملَ صالحاً هو كلامٌ منه، وقولٌ لا عَمَل معه، ولو رُدَّ لما عمل صالحاً، ولكان يُكذِّبُ في مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال محمد بن كعب القُرَظي: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، قال: فيقول الجبّارُ: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾. وقال عُمَر بن عبد الله مولى غُفْرَة: إذا سَمِعت الله يقول: ﴿كَلَّآ﴾، فإنما يقول: كَذَب. وقال قتادةُ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، قال: كان

---

(١) أخرجه أبو داود ٣٨٩٣ والترمذي ٣٥٣٨ والنسائي في «اليوم والليلة» ٧٦٥ وابن السني في «اليوم والليلة» ٧٤٨ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال الترمذي: حسن غريب. والمرفوع منه حسن له ما يؤيده، وفعل عبد الله بن عمرو ضعيف، انظر ضعيف أبي داود ٨٤٠.

العلاء بن زِيَاد يقول: لِيُنْزِلْ أحدُكم نفسَه أنه قد حَضَره الموتُ، فاستقالَ ربَّه فأقاله، فَلْيعملْ بطاعَةِ الله عَزَّ وجلَّ. وقال قتادةُ: والله ما تَمنّى أن يرجعَ إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تَمنّى أن يَرجع فيعمَلَ بطاعةِ الله فانظُروا أُمنيَّةَ الكافر المفرِّط فاعمَلُوا بها، ولا قُوَّة إلا بالله. وعن محمد بن كعب القرظي نحوه. وقال محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن يوسف، حدثنا فُضَيل ـ يعني ابن عياض ـ عن ليث، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة قال: إذا وُضِع ـ يعني الكافر ـ في قَبره، فَيَرى مقعده من النار، قال: فيقول: رب، ارجعني أتوب وأعملُ صالحاً، قال: فيقال: قد عُمِّرتَ ما كنتَ مُعَمَّراً، قال: فَيُضيَّق عليه قبرُه، قال: فهو كالمنهوش، ينام ويفزَعُ، تَهوي إليه هَوَامُّ الأرضِ وحيَّاتُها وعَقَارِبُها.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عَمرو بن علي، حدثني سَلَمة بن تمام، حدثنا علي بن زيد، عن سعيد بن المُسيِّب، عن عائشة أنها قالت: ويلٌ لأهل المعاصِي من أهل القبور! تدخُل عليهم في قبورهم حيَّات سُودٌ أو دُهْمٌ، حيَّة عند رأسه، وحيَّة عند رجليه، تَقْرِصانِهِ حتى يلتقيا في وسَطه، فذلك العذابُ في البرزخِ الذي قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. وقال أبو صالح وغيرُه في قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾: يعني أمامَهم. وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة. وقال محمد بن كعب: البرزخُ: ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلُون ويشربُون ولا مع أهل الآخرةِ يُجازُون بأعمالهم. وقال أبو صخر: البرزخُ: المقابرُ، لا هُم في الدنيا، ولا هُمْ في الآخرة، فهم مُقِيمون إلى يوم يُبعثُونَ. وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ تهديد لهؤلاءِ المحتضَرين من الظلَمةِ بعذاب البرزخِ، كما قال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وقولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أي: يستمر به العذابُ إلى يوم البعث.

[٤٨١٤] كما جاء في الحديث: «فلا يزال مُعَذَّباً فيها»(١)، أي: في الأرض.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

يُخبر تعالى أنه إذا نُفخ في الصورِ نفخةُ النشور، وقام الناسُ من القبور، ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لا تنفعُ الأنسابُ يومئذٍ، ولا يرثِي والدٌ لولده، ولا يَلْوِي عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠ ـ ١١]، أي: لا يسأل القريب عن قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو كان أعز الناس عليه في الدنيا، ما التفت إليه ولا حَمَل عنه وزنَ جناح بَعُوضةٍ، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧]. وقال ابنُ مسعودٍ: إذا كان يومُ القيامة جَمَع الله الأولين والآخرين ثم نادى منادٍ: ألا من كان له مظلمةٌ فَلْيجيء فلْيأخُذ حَقَّه، قال: فيفرَحُ المرءُ أن يكون له الحقُّ على والدِه أو وَلَدِهِ أو زَوجته وإن كان صغيراً، ومِصداقُ ذلك في كتاب الله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾. رواه ابن أبي حاتم.

---

(١) حسن. أخرجه الترمذي ١٠٧١ من حديث أبي هريرة. انظر الأحاديث الصحيحة ١٣٩١.

[٤٨١٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد ـ مولى بني هاشم ـ حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثتنا أم بكر بنت المِسْوَر بن مَخْرَمَة، عن عُبَيد الله بن أبي رافع، عن المِسْوَرِ ـ هو ابن مَخْرَمة، رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «فاطمة بَضْعَةٌ مني، يَقْبِضُني ما يَقبضُها، ويَبْسطُني ما يَبْسطُها، وإنَّ الأنسابَ تنقطع يوم القيامة غَير نسبي وسَبَبي وصهْري»[١].

[٤٨١٦] وهذا الحديث له أصل في الصحيحين عن المِسْوَرِ أن رسول الله ـ ﷺ ـ: قال: «فاطمة بَضعة مني، يَريبُني ما رَابَها، ويؤذِيني ما آذاها»[٢].

[٤٨١٧] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو عامر، حدثنا زُهَير، عن عبد الله بن محمد، عن حمزة بن أبي سَعِيد الخُدَري، عن أبيه قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول على هذا المنبر: ما بالُ رجال يقولونُ: إنَّ رَحم رسولِ الله ـ ﷺ ـ لا تنفع قومَه؟ بلى، والله، إنَّ رَحمي موصولةٌ في الدنيا والآخرة، وإني ـ أيُّها الناسُ ـ فَرَطٌ لكم. فإذا جئتم قال رجلٌ: يا رسولَ الله، أنا فلانُ بنُ فلانٍ. وقال آخَرُ: أنا فلانُ بن فلانٍ. فأقول: أما النسبُ فقد عرفتُ، ولكنكم أحدثتُم بعدِي، وارتددتُم القهقرى[٣].

[٤٨١٨] وقد ذكرنا في مُسنَد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، من طرق مُتَعدِّدة عنه ـ رضي الله عنه ـ: أنه لما تَزَوَّج أُمَّ كُلثوم بنتَ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ قال: أَما ـ والله ـ ما بي إلا أني سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: كل سبَبٍ ونسبٍ فإنه منقطعٌ يوم القيامة، إلا سَبَبي ونَسَبِي[٤]. رواه الطبراني، والبزَّار، والهيثَمُ بن كُلَيب، والبيهقي، والحافظ الضياءُ في «المختارة»، وذكرنا أنه أصدقها أربعين ألفاً، إعظاماً وإكراماً رضي الله عنه.

[٤٨١٩] فقد رَوَى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي العاص بن الربيع ـ زوج زينبَ بنت رسول الله ـ ﷺ ـ من طريق أبي القاسم البَغَوي: حدثنا سليمانُ بن عُمَر الأقطعُ، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن إبراهيم بن يزيدَ، عن محمد بن عباد بن جعفر، سمعت ابنَ عُمَر يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نَسَبي وصهْري»[٥].

[٤٨٢٠] وروى فيها من طريق عَمّار بن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «سألتُ ربي ـ عَزَّ وجلَّ ـ ألاّ أتزوج إلى أحد من أمتي، ولا يتزوج إليَّ أحد إلا كان مَعِي في الجنَّة.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٣٢٣ و٣٣٢ والطبراني في «الكبير» ٢٠/ ٢٥ و٢٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٩/ ٢٠٣: وفيه أم بكر بنت المسور، ولم يجرحها أحد، ولم يوثقها، وبقية رجاله وثقوا اهـ ويشهد لأصله ما بعده.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٣٠ ومسلم ٢٤٤٩ وأبو داود ٢٠٧١ والترمذي ٣٨٦٦ وابن ماجه ١٩٩٨ وأحمد ٤/ ٣٣٨.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ١٨ و٣٩ و٦٢ وأبو يعلى ١٢٣٨ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٣٦٤: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن محمد بن عقيل، وقد وثق اهـ. وفيه أيضاً حمزة بن أبي سعيد الخدري، وثقه ابن حبان، وقد توبع على هذا المتن، وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني ١١٦٢١ وقال الهيثمي ١٥٠٢٠: رجاله ثقات.

(٤) أخرجه الحاكم ٣/ ١٤٢ عن علي بن الحسين أن عمر... فذكره، وصححه، وهو مرسل، وأعله الذهبي بالانقطاع، ووصله الطبراني ٢٦٥ وقال الهيثمي ٩/ ١٧٣ ح ١٥٠١٩: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجالهما رجال الصحيح غير الحسن بن سهل، وهو ثقة اهـ.

(٥) فيه إبراهيم بن يزيد، وهو ضعيف، لكن يشهد له ما قبله، والله أعلم. وذكره الألباني في «صحيح الجامع» ٤٥٦٣ وعزاه لابن عساكر عن ابن عمر وانظر الصحيحة ٢٣٦ فقد ذكر شواهده.

فأعطاني ذلك»[١]. ومن حديث عَمّار بن سَيْفٍ، عن إسماعيل، عن عبد الله بن عمرو.

وقولُه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾، أي: من رَجَحت حَسَناته على سَيِّئاتِهِ ولو بواحدةٍ، قاله ابن عباس. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، أي: الذين فازوا فَنجَوا من النار وأُدخِلوا الجنة. وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونَجُوا من شَرّ ما منه هَربُوا. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، أي: ثقلت سيئاته على حسناته، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، أي خابوا وهلكوا، وبَاؤوا بالصَّفقة الخاسرة.

[٤٨٢١] وقال الحافظ أبو بكر البزّار: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا داود بن المحَبَّر، حدثنا صالح المُرّيُّ، عن ثابت البُناني وجعفر بن زيد ومنصور بن زَاذان، عن أنس بن مالك يرفعه قال: لله مَلكٌ موكّل بالميزان، فيُؤتى بابن آدم، فيُوقَف بين كفَّي الميزان، فإن ثَقُل ميزانه نادى ملكٌ بصوتٍ يُسْمِعُ الخلائقَ: سَعِدَ فلانٌ سعادةً لا يشقَى بعدَها أبداً. وإن خَفّ ميزانُه نادى ملك بصوت يُسمِعُ الخلائقَ: شَقِيَ فلان شقاوةً لا يسعَدُ بعدها أبداً[٢]. إسنادهُ ضعيفٌ. فإنّ داود بن المُحَبَّر متروك. ولهذا قال تعالى: ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾، أي: ماكثون فيها، دائمونَ مُقِيمون لا يَظْعَنون. قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنبياء: ٣٩].

[٤٨٢٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فَرْوَةُ بن أبي المَغْرَاء، حدثنا محمد بن سُلَيمان بن الأصبهاني، عن أبي سنان ضِرَار بن مُرَّةَ، عن عبد الله بن أبي الهُذَيل، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن جَهَنّم لما سِيقَ إليها أهلها تَلَقّاهم لهبُها ثمّ لَفَحتْهم لفحةً فلم يَبْقَ لحمٌ إلا سَقَطَ على العُرقُوبِ»[٣].

[٤٨٢٣] وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزاز، حدثنا الخضر بن علي بن يونس القطان، حدثنا عمر بن أبي الحارث بن الخَضِر القَطّان، حدثنا سعد بن أبي سعيد المقبري، عن أخيه، عن أبيه، عن أبي الدَّرْدَاء ـ رضي الله عنه ـ قال: رسول الله ـ ﷺ ـ في قول الله: «تلفح وجوههم النار»، قال: تَلفَحُهم لفحةً فَتسِيلُ لحومُهم على أعقابهم[٤].

---

(١) ضعيف جداً. فيه عمار بن سيف، وهو الضبي الكوفي، جاء في «تهذيب التهذيب» ٧/ ٣٥٢ ما ملخصه: قال ابن معين: ليس حديثه بشيء، وفي رواية: ثقة، وقال أبو زرعة: ضعيف، وقال أبو حاتم: كان شيخاً صالحاً، وكان ضعيف الحديث، منكر الحديث. وقال أبو داود: كان مغفلاً. وقال العجلي: ثقة ثبت. وقال الدارقطني: كوفي متروك. وقال الحاكم: يروي عن الثوري وإسماعيل بن أبي خالد مناكير، وقال البخاري: لا يتابع منكر الحديث ذاهب، وكذا ضعّفه العقيلي، وقال ابن عدي: الضعف على حديثه بين اهـ فتلخص أن الجمهور على توهين أمره. وحديثه شبه موضوع.

(٢) أعله المصنف بداود بن المحبر، وضعفه به، وهو كما قال؛ بل هو متروك متهم بالكذب. وهو الذي وضع أحاديث فضل العقل. راجع ترجمته في «الميزان». وفيه صالح بن بشير المري، ضعفه غير واحد.

(٣) إسناده ضعيف. أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٢٨٠ والبيهقي في «البعث» ٥٦١ وأبو نعيم ٤/ ٣٦٣ من حديث أبي هريرة. ومداره على محمد بن سليمان بن الأصبهاني، وهو ضعيف كما في «المجمع» ١٨٥٨٦ وصوب المنذري في «ترغيبه» ١٥٤٢٦ الوقف فيه على أبي هريرة.

(٤) ضعيف، سعد بن أبي سعيد المقبري، لين الحديث. وليس هو علة الحديث، وإنما علته أخوه عبد الله بن أبي سعيد ذكره الذهبي في الميزان ٤٣٦٣ فقال: قال يحيى: ليس بشيء. وفي رواية: ليس بثقة. وقال الفلاس: منكر الحديث متروك. وقال البخاري، تركوه اهـ والراوي عنه لم أجد من ترجمه.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني عابسون. وقال الثوريُّ، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوط، عن عبد الله بن مسعود: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: ألم تر إلى الرأس المُشيَّط الذي قد بدا أسنانه وقَلَصت شَفَتَاهُ.

[٤٨٢٤] وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: أخبرنا عليّ بن إسحاق، أخبرنا عبد الله ـ هو ابن المبارك، رحمه الله ـ أخبرنا سَعيد بن يزيدَ، عن أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخُدْري، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: تَشْويه النارُ فتَقَلَّصُ شفتهُ العليا حتى تبلغ وَسَطَ رأسه. وتسترخي شفته السفلى حتى تَضرِب سُرَّته[1]. ورواه الترمذيُّ، عن سُوَيد بن نَصر، عن عبد الله بن المبارك، به. وقال: حَسَن غريبٌ.

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

هذا تقريعٌ من الله تعالى لأهل النار وتوبيخٌ لهم على ما ارتكبُوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾؟ أي: قد أرسلتُ إليكم الرسلَ، وأنزلتُ الكتب، وأزلتُ شُبَهكم، ولم يبق لكم حجة تُدْلُونَ بها كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ٨ ـ ١١]، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾، أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كُنّا أشقَى من أن ننقاد لها ونتّبعَها، فضَلَلْنا عنها ولم نُرزَقها. ثم قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾، أي: رُدّنا إلى الدنيا، فإن عُدنا إلى ما سَلَف منا، فنحن ظالمون مُستحِقُّون للعقوبةِ، كما قالوا: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١١ ـ ١٢]، أي: لا سبيلَ إلى الخروج، لأنكم كنتم تُشرِكون بالله إذا وَحّده المؤمنون.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

هذا جوابٌ من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروجَ من النار والرجعةَ إلى هذه الدار، يقول: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾، أي: امكثوا فيها صغرين مُهَانين أذلاء. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا

(١) إسناده ضعيف. أخرجه أبو يعلى ١٣٦٧ وأحمد ٣/ ٨٨ والترمذي ٢٥٩٠ من حديث أبي سعيد، ومداره على درّاج عن أبي الهيثم، ودرّاج، ضعيف في روايته عن أبي الهيثم خاصة، ومع ذلك قال الترمذي: حسن صحيح غريب! وقال الحاكم: صحيح! وسكت الذهبي! والظاهر من سكوت الذهبي، وتصحيح الترمذي له، هو أنه يتعلق بأنواع العذاب في جهنم، والسلف يتساهلون في أحاديث الرقاق، أو الترغيب والترهيب، والله أعلم.

جوابَ لكُم عندي. قال العَوفي، عن ابن عباس: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، قال: هذا قولُ الرحمٰن حين انقطع كلامُهم منه.

وقال ابنَ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَبْدَة بن سليمان المَرْوَزِي، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عَمرو قال: إن أهل جهنم يَدْعُون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يَرُد عليهم: ﴿إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾. قال: هانت دعوتهم ـ والله ـ على مالك وَرَبِّ مالك. ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، قال: فيسكت عنهم قَدْرَ الدنيا مَرَّتين، ثم يَرُدُّ عليهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، قال: والله ما نَبَس القومُ بعدها بكَلِمة واحدةٍ، وما هو إلا الزفيرُ والشهيقُ في نار جهنم. قال: فشُبهت أصواتهم بأصوات الحمير، أولها زَفِيرٌ وآخرها شَهِيقٌ.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمٰن بن مَهْدي، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كُهَيل، حدثنا أبو الزَعْراءِ، قال عبد الله بن مسعودٍ: إذا أراد الله ألاَّ يُخرِجَ منهم أحداً ـ يعني من جَهَنَّم ـ غَيَّر وجُوهَهم وألوانهم، فَيَجِيءُ الرجلُ من المؤمنين فيشفع فيقول: يا ربِّ. فيقول: من عَرَف أحداً فَلْيُخرِجه. فيجيء الرجلُ فينظر فلا يعرفُ أحداً فيقول: أنا فلانٌ. فيقول: ما أعرِفُكَ. قال: فعند ذلك يقول: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾، فعند ذلك يقول: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. وإذا قال ذلك أطبقَتْ عليهم فلا يخرج منهم بَشَر.

ثم قال تعالى مُذَكِّراً لهم بذنوبهم في الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾، أي: فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرّعهم إليّ، ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾، أي: حَمَلكم بغضهم على أن نَسِيتم مُعاملتي ﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾، أي: من صَنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٠]، أي: يلمزونهم استهزاء. ثم أخبر عما جازَى به أولياءه وعبادَه الصالحين، فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾، أي: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم، ﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾، أي: جعلتُهم هُمُ الفائزين بالسعادةِ والسَلامَةِ والجَنَّةِ، الناجِينَ من النّارِ.

﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

يقولُ تعالى مُنَبِّهاً لهم على ما أضاعُوه في عُمرُهم القصير في الدنيا من طاعة الله وعبادته وحده، ولو صَبَروا في مدة الدنيا القصيرة لَفَازوا كما فاز أولياؤهُ المتقون، ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾؟ قال: كم كانت إقامتكم في الدنيا ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾، أي: الحاسبين. ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾، أي: مُدّةً يسيرة على كل تقدير ﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، أي: لما آثرتم الفانيَ على الباقيَ، ولما تَصرّفتم لأنفسكم هذا التصرف السيىء ولا استحققتم من الله سُخطَه في تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لَفُزتم كما فَازُوا.

[٤٨٢٥] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوَزير، حدثنا الوليد، حدثنا صفوان، عن

أيفعَ بن عبدِ الكلاعي أنه سَمِعه يخطب الناس فقال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله إذا أدخلَ أهلَ الجنةِ الجنة، وأهلَ النار النارَ، قال: يا أهلَ الجنة، كم لَبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم. قال: لَنِعم ما اتجرتُم في يوم أو بعض يوم، رحمتي ورضواني وجَنّتي، امكثوا فيها خالدين مُخلّدين ثم يقول: يا أهلَ النار، كم لَبِثْتم في الأرض عَدَد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يومٍ. فيقولُ: بِئْسَ ما اتجرتُم في يومٍ أو بعضِ يوم، ناري وسَخَطي، امكثوا فيها خالدين مخلدين»[١].

وقولُه تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾، أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصدٍ ولا إرادةٍ منكم ولا حكمةٍ لنا، وقيل: للعبث أي لتلعبوا أو تعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب بها ولا عقاب، إنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل؛ ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، أي: لا تَعُودُون في الدار الآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، يعني هَمَلاً. وقولُه تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾، أي: تقَدّس أن يَخلُقَ شيئاً عبثاً، فإنه المَلِك الحقُّ المُنزّه عن ذلك، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾. فَذَكر العرش لأنه سقفُ جميع المخلوقاتِ، وَوَصفه بأنه كريمٌ، أي: حَسَنُ المنظر بَهِيُّ الشكْلِ، كما قال تعالى: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

قال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا علي بن الحُسين، حدثنا علي بن محمد الطنَافِسِيُّ، حدثنا إسحاق بن سليمان ـ شيخ من أهل العراق ـ أنبأنا شُعَيب بن صَفوان، عن رجل من آل سعيد بن العاص قال: كان آخرُ خطبةٍ خَطَبها عُمَر بنُ عبد العزيز أن حَمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعدُ، أيها الناس، فإنكم لم تُخلَقُوا عبثاً، ولن تتركُوا سُدىً، وإن لكم معاداً يَنزلُ الله فيه للحُكْم بينكم والفَصْل بينكم، فَخَاب وخَسِر مَن خرج من رحمةِ الله، وحُرِمَ جَنّةً عرضُها السمواتُ والأرضُ، ألم تعلمُوا أنه لا يأمن غداً إلا من حَذِر هذا اليومَ وخَافه، وباع نافداً بباقٍ، وقَليلاً بكثير، وخَوفاً بأمانٍ، ألا تَرَون أنكم من أصلاب الهالكين، وسَيَكون مَن بعدكم الباقين، حتى تُرَدُّوا إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تُشَيّعُون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل، قد قَضَى نحبه، وانقَضى أجلُه، حتى تُغيّبُوه في صَدْعٍ من الأرض، في بطن صَدْع غير مُمَهّدٍ ولا مُوسّد، قد فارق الأحبابَ، وباشر التُرابَ، وواجَه الحساب، مُرتَهَن بعَمَله، غَنيٌّ عما تَرَكَ، فقِيرٌ إلى ما قَدّم: فاتقُوا الله عبادَ الله قبل انقضاءِ مَوَاثيقه، ونُزُولِ الموت بكم». ثم جعل طَرَف ردائِهِ على وَجْهِهِ، فَبَكى وأبكَى من حوله.

[٤٨٢٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا بَحرُ بن نَصْرِ الخَوْلاني، حدثنا ابن وَهب، أخبرني ابن لَهيعَة، عن ابن هُبَيرة، عن حَنَش بن عبد الله: أَنَّ رجلاً مصاباً مرَّ به على عبد الله بن مسعود، فقرأ في أذنه هذه الآية: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾، حتى خَتم السورة فَبرأ، فَذكر ذلك لِرسُولِ الله ـ ﷺ ـ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: بماذا قرأت في أذنه؟ فأخبره، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: والذي نفسي بيده لو أَنَّ رجُلاً مُوقناً قَرَأها على جَبَل لَزَال[٢].

---

(١) هذا مرسل، أيفع بن عبد الكَلاعي، تابعي صغير، وهو غير معروف. ذكره ابن أبي حاتم فلم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً. وإنما ذكر أنه روىٰ عن راشد بن سعد وهو تابعي وعنه صفوان بن عمرو اهـ وهذا يدل على جهالته حيث لم يرو عنه غير واحد.

(٢) ضعيف جداً. أخرجه أبو يعلى ٥٠٤٥ وابن السني ٦٣١ وأبو نعيم ١/ ٧٠، وفيه ابن لهيعة، وهو واهٍ، والظاهر أنه من تخليطاته. فقد سئل الإمام أحمد عن هذا المتن فقال: هذا موضوع، هذا حديث الكذابين، وذكره الذهبي في «الميزان» ٢/ ١٧٥ لكن في ترجمة سلام بن رزين.

[٤٨٢٧] وروى أبو نُعَيم من طريق خالد بن نزار، عن سفيان بن عُيينة، عن محمد بن المنكدر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبيه قال: بعثنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ في سَرِية، وأمَرنا أن نقولَ إذا نحنُ أمسَينا وأصبحنا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾، قال: فقرأناها فَغَنِمنا وسَلِمنا[١].

[٤٨٢٨] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا إسحاق بن وَهب العَلاَّف الواسطي، حدثنا أبو المسيب سَلَمة بن سلام، حدثنا بكر بن خُنَيس، عن نَهْشَل بن سعيد، عن الضحَّاك بن مزاحم، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أمانٌ لأمتي من الغَرَق إذا ركبوا في السفن: باسم الله الملك الحق، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] [هود: ٤١].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

يقول تعالى مُتوعِّداً مَن أشرك به غيرَه، وَعَبَد معه سِواهُ، ومُخبِراً أنَّ مَن أشرَكَ بالله ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ﴾، أي: لا دَليلَ له على قوله، فقال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾، وهذه جملةٌ معترِضَةٌ، وجوابُ الشرطِ في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾، أي: اللهُ يُحاسِبُه على ذلك. ثم أخبر: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أي: لَدَيه يومَ القيامة، لا فَلاحَ لَهُم ولا نَجاة.

[٤٨٢٩] قال قتادةُ: ذُكِر لنا أن نبيَّ الله ـ ﷺ ـ قال لِرجل: ما تعبُد؟ قال: أعبد الله وكذا وكذا. حتى عدَّ أصناماً، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: فأيُّهم إذا أصابك ضُرٌّ فَدعَوْتَه كَشَفه عَنك؟ قال: الله عزَّ وجلَّ. قال: فأيُّهم إذا كانت لك حاجةٌ فدعوتَهُ أعطاكَها؟ قال: الله عزَّ وجلَّ. قال: فما يحملُكَ على أن عبدتَ هؤلاء معه؟ قال: أردت شُكره بعبادةِ هؤلاء معه، أم حَسِبْتَ أن يُغلَب عليه! فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «تَعْلَمُونَ ولا تَعلمُون قال الرجلُ بعدَما أسلم: لَقِيتُ رَجُلاً خَصَمَني»[٣]. هذا مُرسَلٌ من هذا الوجه، وقد رَوَى أبو عيسى الترمذي في جامعه مُسنداً عن عمران بن الحُصَين، عن أبيه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ نحو ذلك. وقولُه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾، هذا إرشادٌ من الله إلى هذا الدعاء، فالغَفْرُ إذا أطلِق معناه محوُ الذنب وسَتْرُه عن الناس، والرحمة معناها أن يُسَدِّدَه ويُوَفِّقَه في الأقوالِ والأفعالِ.

آخرُ تفسير سُورةِ المؤمنون

(١) ذكره الحافظ في «الإصابة» ١/ ١٥/٥ وعزاه لابن مندة، وقال: إسناده لا بأس به. وحسنه السيوطي في «الدر المنثور» ٥/ ٣٤.

(٢) والحديث ضعيف جداً، وتقدم تخريجه.

(٣) هذا مرسل، لكن يعتضد بما بما رواه الترمذي كما ذكر المؤلف، والله أعلم.



وهي مَدَنِيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾

يقولُ تعالى: هذه ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾، فيه تنبيه إلى الاعتناء بها ولا يَنْفي ما عداها: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾، قال مجاهدٌ وقتادةُ: أي بيَّنا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود. وقال البخاريُّ: «ومن قَرأ ﴿وَفَرَّضْنَاهَا﴾ يقول: فَرَضنا عليكم وعلى مَن بعدَكم». ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، أي: مُفسَّراتٍ واضِحاتٍ، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾: هذه الآية الكريمة فيها حُكم الزاني في الحدِّ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع؛ فإنَّ الزاني لا يخلو إما أن يكون بكراً، وهو الذي لم يتزوج. أو محصناً، وهو الذي قد وَطِىءَ في نكاح صحيح، وهو حُرٌّ بالغ عاقل. فأما إذا كان بكراً لم يَتزوَّج فإن حَدَّه جلد مئةٍ، كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يُغرّب عاماً عن بلده عند جمهور العلماء، خلافاً لأبي حنيفةَ ـ رحمه الله ـ فإن عنده أنَّ التغريبَ إلى رأي الإمام، إن شاء غرَّب وإن شاء لم يُغرِّب.

[٤٨٣٠] وحجةُ الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين، من رواية الزهري، عن عُبَيْد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، عن أبي هُريرةَ وزيد بن خالدٍ الجُهَنِي، في الأعرابيين اللَّذينِ أتيا رَسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال أحدُهما: يا رسولَ الله، إن ابني كان عَسيفاً ـ يعني أجيراً ـ على هذا فَزنى بامرأته، فافتديت ابني منه بمئة شاة وَوَليدَة، فسألتُ أهل العلم، فأخبروني أنَّ على ابني جلدَ مئة وتغريبَ عام، وأنَّ على امرأةِ هذا الرجمَ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيده لأقضينَّ بينكما بكتاب الله: الوليدةُ والغنم ردٌّ عليك، وعلى ابنك جَلْدُ مئةٍ وتغريبُ عام. واغدُ ـ يا أنيس، لرجلٍ من أَسْلَم ـ إلى امرأةِ هذا، فإن اعترفَت فارجُمها. فَغَدا عليها، فاعترفَت، فرَجَمَها»[1]. ففي هذا دلالةٌ على تغريبِ الزَّاني مع جَلْدِ مئةٍ إذا كان بِكْراً لم يتزوَّج، فأما إنْ كان مُحصَناً وهو الذي قد وطيء في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فإنه يُرجَم.

[٤٨٣١] كما قال الإمام مالك: حَدَّثني ابن شِهَابٍ، أخبرنا عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبَة بن مسعودٍ، أنَّ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٣١٤ و٢٧٢٤ و٦٦٣٣ ومسلم ١٦٩٧ وأبو داود ٤٤٤٥ والترمذي ١٤٣٣ والنسائي ٨/ ٢٤٠ ـ ٢٤١ وابن ماجه ٢٥٤٩ وأحمد ٤/ ١١٥ و١١٦ وابن حبان ٤٤٣٧.

ابن عباس أخبره، أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ قام فَحَمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعدُ، أيها الناسُ، فإنَّ الله تعالى بعثَ محمداً ﷺ بالحقِّ، وأنزلَ عليه الكتابَ، فكان فيما أنزلَ عليه آيةُ الرَّجْمِ، فقرأناها وَوَعَيْناها، ورَجَم رسولُ الله ـ ﷺ ـ ورَجَمْنا بعده، فأخشى أن يطول بالناسِ زمان أن يقول قائل: «لا نجدُ آيةَ الرَّجم في كتابِ الله». فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فريضةٍ قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حَقٌّ على من زَنَى، إذا أحصَنَ، من الرجال والنساء، إذا قامت البينةُ أو الحبَل أو الاعتراف»[١]. أخرَجاه في الصَحِيحَين من حديثِ مالكٍ مُطوّلاً، وَهذِه قطعةٌ منه، فيها مَقصودُنا هاهنا.

[٤٨٣٢] وَروَى الإمامُ أحمدُ عن هُشيم، عن الزهريِّ، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عَبّاس: حدثني عبد الرحمن بن عَوف: أن عُمَر بن الخطاب خَطَب الناسَ فَسمِعتُه يقولُ: ألاَ وَإنَّ أناساً يقُولون: ما بالُ الرَّجْمُ؟ في كتاب الله الجلدُ. وقد رَجَم رسولُ الله ـ ﷺ ـ ورَجَمنا بعدَه، ولولا أن يقولَ قائلون ـ أو يتكَلَّم مُتكَلِّمونَ ـ أنَّ عمر زادَ في كتابِ الله ما ليس منه لأثبتُّها كما نزلت[٢] به. وأخرجه النسائي، من حديث عُبَيد الله بن عبد الله، به.

[٤٨٣٣] وقد رَوَى أحمد أيضاً عن هُشَيم، عن علي بن زيد، عن يوسُف بن مِهْران، عن ابن عباس قال: خَطَب عمرُ بن الخطاب فذَكَر الرجمَ فقال: لا تُخدَعُنّ عنه فإنه حَدٌّ من حُدودِ الله تعالى، ألا إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قد رَجَم ورَجَمنا بعده، ولولا أن يقولَ قائلون: زاد عُمَر في كتاب الله ما ليس فيه لكتبتُ في ناحيةٍ من المصحَفِ: «وشَهِد عُمَر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وفلان، وفلان أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قد رَجَم ورَجَمنا بعده». ألا وإنه سيكونُ من بعدكم قومٌ يُكَذِّبون بالرجمِ وبالدجالِ وبالشفاعةِ وبعذابِ القبر، وبقوم يخرجون من النار بعدما امتُحِشُوا[٣].

[٤٨٣٤] ورَوَى أحمدُ أيضاً عن يحيى القطّانِ، عن يحيى الأنصاري: عن سَعِيد بن المسيّب، عن عُمَر بن الخطاب: «إيَّاكُم أن تَهلِكوا عن آية الرجم»[٤]... الحديث. ورواه الترمذيُّ: من حديث سعيد، عن عُمَر، وقال: صحيح.

[٤٨٣٥] وقال الحافظ أبو يعلَى المَوْصِلي: حدثنا عُبَيد الله بن عُمَر القَوَارِيريُّ، حدثنا يزيدُ بن زُرَيع، حدثنا ابن عَونٍ، عن محمد ـ هو ابن سيرين ـ قال: نُبِّئتُ عن كَثِير بن الصَّلْتِ قال: كنا عند مَرْوان وفينا زيدٌ، فقال زيد بن ثابت: كنا نقرأ: «والشيخ والشيخة إذا زَنَيا فارجموهما البتةَ»، قال مَرْوان: ألاَ كتبتَهَا في المُصحَف؟ قال: ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب، فقال: أنا أَشفِيكم من ذلك. قال: قلنا: فكيفَ؟ قال: جاء رجلٌ إلى النبي ـ ﷺ ـ قال: فَذَكر كذا وكذا، وذكر الرجْم فقال: يا رسول الله، أَكْتِبْني آيةَ الرجم. قال: لا أستطيع الآن. هذا أو نحو ذلك[٥]. وقد رواه النسائي عن مُحَمَّد بن المثنَّى، عن غُندر، عن شعبةَ، عن

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٨٢٩ ومسلم ١٦٩١ وأبو داود ٨/ ٤٤ والترمذي ١٤٣٢ وابن ماجه ٢٥٥٣ وأبو يعلى ١٥١ من حديث ابن عباس عن عمر. وأخرجه مالك ٢/ ٨٢٣ ح ٨ من طريق الزهري مختصراً. وأخرجه البخاري ٦٨٣٠ من طريق الزهري مطوّلاً.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد ١/ ٢٩ والنسائي في «الكبرى» ٧١٥١ وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٣ وأبو يعلى ١٤٦ وإسناده ضعيف، لضعف علي بن زيد بن جدعان، ولأصله شواهد. و«امتحشوا»: أي احترقت جلودهم.

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٣٦ و٤٣ والترمذي ١٤٣١ وقال: حسن صحيح.

(٥) أخرجه أبو يعلى كما ذكر المصنف. وأخرجه النسائي في «الكبرى» ٧١٤٥ و٧١٤٨ وعنده أن عمر هو الذي سأل النبي ﷺ.

قتادة، عن يونُس بن جُبَير، عن كَثِير بن الصَّلت، عن زيد بن ثابت، به. وهذه طرق كلها مُتعاضِدةٌ ودالَّةٌ على أن آية الرجم كانت متلوّةً فَنُسِخَ تلاوتُها وبَقِي حكمُها معمولاً به، والله أعلم.

وقد أَمَر رسولُ الله ـ ﷺ ـ بِرَجْم هذه المرأة[١]، وهي زوجةُ الرجلِ الذي استأجَرَ الأجيرَ لما زَنَت مع الأجير، وَرَجم النبيُّ ـ ﷺ ـ ماعزاً والغامديّة. وكلُّ هؤلاء لم يُنقَل عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه جَلدهم قبل الرجم، وإنما وَرَدت الأحاديثُ الصّحاح المتعددة الطرق والألفاظ بالاقتصارِ على رَجْمهم، وليس فيها ذكر الجَلْدِ. ولهذا كان هذا مذهبَ جمهور العلماء، وإليه ذَهَب أبو حنيفة، ومالكٌ، والشافعيُّ، رحمهم الله.

وذهب الإمامُ أحمد ـ رحمه الله ـ إلى أنه يجب أن يُجمَعَ على الزاني المحصَنِ بين الجلد للآيةِ، والرجم للسنةِ، كما رُوِي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه لما أُتِي بشُرَاحَةَ، وكانت قد زَنَتَ وهي مُحصَنةٌ، فَجَلدها يوم الخميس، ورَجَمها يوم الجمعة، ثم قال: جَلَدتُها بكتاب الله ورَجَمتُها بِسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ.

[٤٨٣٦] وقد رَوَى الإمام أحمد، وأهلُ السُّنَن الأربعةِ، ومسلم من حديث قتادةَ، عن الحسن، عن حطّانَ بن عبد الله الرّقاشي، عن عُبادَةَ بن الصامِتِ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «خذُوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سَبِيلاً: البِكر بالبِكر، جلدُ مئةٍ وتغريبُ عام، والثَّيِّبُ بالثيِّبِ جَلْدُ مئةٍ والرجمُ»[٢].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، أي: في حُكم الله، لا تَرحَمُوهما وتَرْئُوا لهما في شرع الله، وليس المنْهيُّ عنه الرأفةِ الطبيعيةِ ألاّ تكون حاصلةً، وإنّما هي الرأفة التي تحمل الحاكم الرأفةُ الطبيعيةُ على تَرْك الحَدّ، فإنّه لا يجوز له ذلك. قال مجاهد: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، قال: إقامةُ الحدود إذا رُفعت إلى السلطان، فتقام ولا تعطل. وكَذَا رُوي عن سعيد بن جُبَير، وعطاء بن أبي رباح.

[٤٨٣٧] وقد جاء في الحديث: «تَعافَوْا الحدُودَ فيما بينكم، فما بَلَغني من حَدٍّ فقد وَجَبَ»[٣].

[٤٨٣٨] وفي الحديث الآخر: «لَحَدٌّ يقام في الأرض خَيْرٌ لأهلها من أن يُمطَروا أربعينَ صباحاً»[٤].

وقيل: المرادُ: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، فلا تُقِيموا الحدَّ كما يَنبغِي من شِدَّة الضربِ الزاجِرِ عن المأثم، وليس المرادُ الضربَ المبرِّح. قال عامرُ الشعبيُّ: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، قال: رحمةٌ في شدّة الضَّرب. وقال عطاء: ضرب ليس بالمبرح. وقال سعيدُ بن أبي عَرُوبةَ، عن حَمّاد بن أبي سليمان: يُجلَد القاذفُ وعليه ثيابُه، والزاني تُخلَع ثيابُه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، فقلتُ: هذا في الحُكمِ؟ قال: هذا في الحكم والجَلْدِ. يعني في إقامة الحدِّ، وفي شدّةِ الضرب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأَوْدِيُّ، حدثنا وكيع، عن نافع بن عُمَر، عن ابن أبي مُلَيكَةَ، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عمر: أن جاريةً لابن عُمَر زنت، فضرَبَ رِجليها ـ قال نافع: أُرَاه قال: وظهرَها ـ قال: قلتُ: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا

---

(١) هي المذكورة في الحديث المتقدم برقم ٤٨٣٠.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١٥.

(٣) أخرجه أبو داود ٤٣٧٦ والنسائي ٨/ ٧٠ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وصححه الحاكم ٤/ ٣٨٣ ووافقه الذهبي، وإسناده حسن للخلاف المعروف في رواية عمرو بن شعيب عن آبائه. وفي الباب من حديث ابن مسعود عند أبي يعلى ٥٤٠١، فيه العباس بن الفضل والحجاج بن أرطاة، وكلاهما ضعيف. ومن حديث علي أخرجه أبو يعلى ٣٢٨ وإسناده ضعيف لجهالة أبي مطر. انظر «مجمع الزوائد» ٦/ ٢٥٩.

(٤) هذا حديث حسن، له شواهد وطرق عدة. انظر: النسائي ٨/ ٧٦ وابن حبان ٤٣٩٧ والترغيب ٣٢٢٧.

رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، قال: يا بُنَيّ، ورأيتني أخذَتْني بها رأفةٌ؟ إن الله لم يأمرني أن أقتلَها، ولا أن أجعل جَلْدَها في رَأْسِها، وقد أوجعتُ حيثُ ضَرَبت. وقولُه: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، أي: فافعلوا ذلك، أَقِيمُوا الحدودَ على من زَنَى، وشَدِّدُوا عليه الضربَ، ولكن ليس مُبرِّحاً؛ ليرتدع هو ومن يصنَعُ مثلَه بذلك.

[٤٨٣٩] وقد جاء في المسند عن بعضِ الصحابة أنه قال: «يا رسولَ اللهِ، إني لأذبَح الشاةَ وأنا أَرحَمُها. فقال: ولك في ذلك أجرٌ»[١].

وقولُه تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، هذا فيه تنكيلٌ للزانِيين إذا جُلِدَا بحضرةِ الناس، فإنَّ ذلك يكونُ أبلغَ في زجرهما وأنجعَ في رَدْعِهما، فإن في ذلك تقريعاً وتوبيخاً وفضيحةً إذا كان الناس حُضُوراً. قال الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني: علانيةً. قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، الطائفة: الرجلُ فما فوقه. وقال مجاهد: الطائفة: رجل إلى ألْفٍ. وكذا قال عكرمة، ولهذا قال الإمام أحمد: إن الطائفة تصدُقُ على واحد. وقال عطاءُ بن أبي رَبَاح: اثنان، وبه قال إسحاقُ بن راهَويه. وكذا قال سعيد بن جُبَير: ﴿طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: يعني رجلين فصاعداً. وقال الزهري: ثلاثة نَفَرٍ فصاعداً.

وقال عبدُ الرزاق: حَدَّثني ابنُ وهب، عن الإمام مالك في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: الطائفةُ أربعةُ نَفَرٍ فصاعِداً، لأنه لا يكون شهادةٌ في الزِنَا دُون أربعةِ شُهَداءَ فَصَاعِداً. وبه قال الشافعيُّ، وقال ربيعةُ: خمسةٌ. وقال الحسنُ البصريُّ: عشرةٌ. وقال قتادةُ: أَمَرَ الله أن يشهَدَ عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين، أي: نفر من المسلمين، ليكونَ ذلك موعظةً وعبرةً ونَكالاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عُثمان، حدثنا بَقِيةُ قال: سَمِعتُ نصر بن عَلْقَمة في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: ليس ذلك للفضيحة، إنَّما ذلك لِيُدعى اللهُ تعالى لهما بالتوبة والرحمة.

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

هذا خَبَرٌ من الله تعالى بأنَّ الزاني لا يَطأُ إلا زانيةً أو مشركةً، أي: لا يُطاوِعُه على مُرَادِه من الزنا إلا زانيةٌ عاصيةٌ أو مشركةٌ، لا ترى حُرمَةَ ذلك، وكذلك: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾، أي: عاصٍ بزناه، ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾، لا يعتقد تحريمه. قال سفيانُ الثوري، عن حَبيب بن أبي عَمْرَةَ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، قال ليس هذا بالنكاح، إنما هو الجِمَاعُ، لا يزني بها إلا زانٍ أو مشركٌ. وهذا إسناد صحيح عنه. وقد رُوِيَ عنه من غير وجه أيضاً. وقد رُوِي عن مجاهد، وعِكْرِمَةَ، وسعيد بن جُبَير، وعُروَةَ بن الزبَيرِ، والضحَّاكِ، ومَكْحُولٍ، ومُقَاتِل بن حَيَّانَ، وغير واحد، نحوُ ذلك.

وقولُه تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: تَعَاطِيه والتزويجُ بالبَغَايا، أو تزويجُ العفائِفِ بالفجّارِ من الرجال. وقال أبو داود الطَّيَالسيُّ: حدثنا قَيسٌ، عن أبي حُصَين، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال: حَرَّم الله الزِنَا على المؤمنينَ. وقال قتادةُ، ومقاتلُ بن حَيَّان: حَرَّم الله على المؤمنين نِكَاحَ البَغَايا، وتَقَدَّمَ في ذلك فقالَ: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/٤٣٦. وانظر مجمع الزوائد ٤/٣٢ ـ ٣٣.

مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥]... الآية. ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد بن حَنبل ـ رحمه الله ـ إلى أنه لا يَصِحُ العقد من الرجل العفيف على المرأة البغيّ ما دامت كذلك حَتّى تُستَتَاب، فإن تابت صَحّ العقدُ عليها وإلا فلا، وكذلك لا يَصِحُ تزويجُ المرأةِ الحُرَّةِ العفيفةِ بالرجل الفاجر المُسَافح، حتى يتوبَ توبةً صَحِيحَةً، لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

[٤٨٤٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا مُعْتَمِرُ بن سليمان قال: قال أبي، حدثنا الحَضْرمي، عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عَمْرو ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رَجُلاً من المسلمين استأذنَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في امرأة ـ يقال لها: أم مهزُولٍ ـ كانت تُسافِح، وتشترط له أن تُنفِق عليه ـ قال فاستأذن رسولَ الله ـ ﷺ ـ أو: ذُكِرَ له أمرُها ـ قال: فقرأ عليه نبيُّ الله ـ ﷺ ـ: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾[1].

[٤٨٤١] وقال النسائي: أخبرنا عَمرو بن علي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن الحَضرمي؛ عن القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها: أم مَهزُولٍ، وكانت تسافح، فأراد رجلٌ من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أن يتزوجها، فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾[2].

[٤٨٤٢] قال الترمذي: حدثنا عبدُ بن حُمَيد، حدثنا رَوحُ بن عُبَادة، عن عُبَيد الله بن الأخنسِ، أخبرني عمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه قال: كان رجلٌ يُقَال له: مَرْثَدُ بن أبي مَرْثَدٍ، وكان رجلاً يحمل الأُسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينةَ. قال: وكانت امرأة بَغِيٌّ بمكة يقال لها: عناق، وكانت صديقةً له، وأنه واعد رجلاً من أُسارى مكة يَحْمِلُه. قال: فجئتُ حتى انتهيتُ إلى ظلّ حائط من حوائِطِ مكَّةَ في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عَنَاقُ فأبصرَتْ سَوَادَ ظلِّ تحتَ الحائِط، فلما انتهَتْ إليّ عَرَفتني، فقالت: مَرْثَدٌ؟ فقلت: مَرْثَدٌ. فقالت: مرحباً وأهلاً، هَلُمَّ فَبِت عندنا الليلة. قال: فقلتُ: يا عناقُ، حَرَّمَ الله الزنا. فقالت: يا أهلَ الخيام، هذا الرجُل يحمِلُ أسْرَاكم، قال: فتبعني ثمانية ودخلتُ الخَنْدَمَةَ[3]، فانتهيت إلى غار ـ أو: كَهْفٍ فدخلتُ فيه، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالُوا، فَظَلَّ بولُهم على رأسي، فأعماهم الله عَنّي. قال: ثم رَجَعُوا ورَجعتُ إلى صاحبي فَحَمَلتُه، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيت إلى الإذْخِر، ففككت عنه أكبُلَه، فَجَعلتُ أحمِلُه ويُعْيِيني، حتى قَدِمتُ المدينةَ، فأتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسولَ الله، أنكِحُ عناقاً؟ ـ مرتين ـ فأمسك رسولُ الله ـ ﷺ ـ فلم يرد عَلَيّ شيئاً، حتى نزلت: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا مَرْثَدُ، ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، فلا تَنكِحْها»[4]. ثم قال الترمذيّ: هذا حديث حسنٌ

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٢/ ١٥٩ وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه النسائي في «التفسير» ٣٧٩ وأحمد ٢/ ٢٢٥ والطبري ٢٥٧٤٢ والبيهقي ٧/ ١٥٣ وصححه الحاكم ٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤ ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٧٤: ورجال أحمد ثقات.

(٣) الخندمة: جبل بمكة.

(٤) جيد. أخرجه أبو داود ٢٠٥١ والترمذي ٣١٧٧ والنسائي في «الكبرى» ٥٣٣٨ والبيهقي ٧/ ١٥٣. وأخرجه الحاكم ٢/ ١٦٦ مختصراً وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

غريبٌ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقد رواه أبو داودَ والنسائي، في كتاب النكاح من سُنَنِهما، من حديث عُبَيد الله بن الأخنس به.

[٤٨٤٣] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مُسَدَّد أبو الحسن، حدثنا عبد الوارث، عن حَبيب المعلم، حَدَّثني عمرو بن شُعَيب، عن سعيدٍ المَقبُريِّ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا ينكح الزاني المجلودُ إلا مثلَه»[(١)] . وهكذا أخرجه أبو داود في سُنَنه عن مُسَدَّد وأبي مَعْمَر ـ عبد الله بن عمرو ـ كِلاَهُما عن عبد الوارث، به.

[٤٨٤٤] وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوبُ، حدثنا عاصم بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن أخيه عُمَر بن محمد، عن عبد الله بن يَسَار ـ مولى ابن عمر ـ قال: أشهد لَسَمِعتُ سالماً يقولُ: قال عبدُ الله: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثةٌ لا يدخلون الجنةَ، ولا ينظر الله إليهم يومَ القيامة: العاقُّ لوالديه، والمرأة المترجِّلَةُ ـ المتشبهة بالرجال ـ والديُّوثُ. وثلاثةٌ لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه، ومدمِنُ الخمر، والمَنَّان بما أعطى»[(٢)] . ورواه النسائي عن عمرو بن علي الفَلاَّس، عن يزيد بن زُرَيعٍ، عن عُمَر بن محمد العُمَري، عن عبد الله بن يَسَار، به.

[٤٨٤٥] وقال الإمام أحمدُ أيضاً: حدثنا يعقوبُ، حدثنا أبي، حدثنا الوليدُ بن كثير، عن قَطَن بن وَهبِ بن عُوَيمرِ بن الأجدع، عَمَّن حَدَّثه، عن سالم بن عبد الله بن عمر قال: حدَّثني عبدُ الله بن عمر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ثلاثةٌ حرَّم الله عليه الجنةَ: مُدمِن الخمر، والعاقُّ، والدَّيُوثُ الذي يُقِرُّ في أهله الخَبَث»[(٣)] .

[٤٨٤٦] وقال أبو داود الطيالسي في مُسنَده: حدثنا شعبةُ، حَدَّثني رجل من آل سهل بن حُنَيفٍ، عن محمد بن عَمَّار، عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يدخلُ الجنَّةَ دَيوثٌ»[(٤)] . يُستَشهد به لما قبله مِنَ الأحَادِيثِ.

[٤٨٤٧] وقال ابنُ ماجه: حدثنا هشام بن عَمَّار، حدثنا سَلاَّم بن سَوَّار، حدثنا كَثِير بن سُلَيم، عن الضحَّاكِ بن مُزَاحم: سمعتُ أنسَ بن مالك يقول: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «من أراد أن يلقى الله طاهراً مُطَهَراً فَلْيَتزوَّج الحرائر»[(٥)] . في إسناده ضعفٌ. قال الإمام أبو نصر إسماعيل بن حَمَّاد الجوهري في كتاب «الصحَاحِ» في اللغة: الديُّوثُ القُنذُع، وهو الذي لاَ غَيرَة له.

[٤٨٤٨] فأما الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب النكاح من سُنَنه: أخبرنا

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٠٥٢ وأحمد ٢/ ٣٢٤ والطحاوي في «المشكل» ٤٥٤٨ و٤٥٤٩ وصححه الحاكم ٢/ ١٦٦ ووافقه الذهبي وإسناده قوي رجاله ثقات وانظر صحيح أبي داود ١٨٠٧.

(٢) صحيح . أخرجه أحمد ٢/ ١٣٤ والنسائي ٥/ ٨٠ والطبراني ١٣١٨٠ من طرق عن عمر بن محمد به. وأخرجه ابن حبان ٧٣٤٠ والبيهقي ٨/ ٣٨٨ من طريق عمر بن محمد مختصراً، وإسناده صحيح، وله شواهد.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٦٩ و١٢٨ وقال الهيثمي في «المجمع» ٤/ ٣٢٧: وفيه راوٍ لم يسم، وبقية رجاله ثقات. وللحديث شواهد تقويه.

(٤) أخرجه الطيالسي ٦٤٢ وفي إسناده راوٍ لم يسمّ، لكن ذكره المصنف شاهداً لما قبله.

(٥) ضعيف جداً . أخرجه ابن ماجه ١٨٦٢ وابن عدي ٣/ ٣١١ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢/ ٢٦١ وأعله بقوله: كثير، متروك، قاله النسائي، وسلام قال عنه ابن عدي: منكر الحديث اهـ وأعله البوصيري في الزوائد والهيثمي في «المجمع» ١/ ٥٩٨ بكثير وسلام أيضاً اهـ.

محمد بن إسماعيل بن عُلَيَّة، عن يزيدَ بن هارون، عن حَمَّاد بن سَلَمة وغيره، عن هارون بن رِئاب، عن عبد الله بن عُبَيد بن عمير؛ وعبد الكريم، عن عبد الله بن عبيد الله بن عميرعن ابن عباس - عبدُ الكريم رفعه إلى ابن عباس، وهارون لم يرفعه - قالا: جاء رجلٌ إلى رسول الله - ﷺ - فقال: إنَّ عندي امرأة مِن أَحبِّ الناسِ إليَّ، وهي لا تمنع يَدَ لامسٍ، قال: طَلِّقها. قال: لا صبرَ لي عنها. قال: استمتع بها[1]. ثم قال النسائي: هذا الحديثُ غير ثابت، وعبد الكريم ليس بالقوي، وهارون أثبتُ منه، وقد أرسل الحديث وهو ثقة، وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم. قلتُ: هو ابن أبي المخارق البَصْرِي المؤدِّب، تابعيٌّ ضعيفُ الحديث، وقد خالفه هارونُ بن رِئاب، وهو تابعي ثقة من رجال مسلم، فَحَدِيثه المرسَلُ أولى كما قال النسائي. لكن قد رَوَاه النسائي في كتابِ الطلاق، عن إسحاق بن إبراهيم ابن راهَوَيهِ، عن النضرِ بن شُمَيل، عن حَمَّاد بن سَلَمة، عن هارون بن رِئابٍ، عن عبد الله بن عُبَيد بن عُمَير، عن ابن عباس مسنداً، فذكره، فهذا بهذا الإسناد رِجَالُه على شَرْطِ مسلم، إلا أن النسائي بعد روايته له قال: «وهذا خطأ، والصواب مرسل، ورواه غير النضر على الصواب».

[٤٨٤٩] وقد رواه النسائي أيضاً وأبو داود، عن الحسين بن حُرَيث، أخبرنا الفضل بن موسى، أخبرنا الحُسَين بن واقد، عن عُمَارة بن أبي حَفْصَةَ، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - فذكره[2]. وهذا إسناد جيد. وقد اختلف الناس في هذا الحديث ما بين مُضَعِّف له، كما تَقَدَّم عن النسائي، وكما قال الإمام أحمد: هو حديث منكر. وقال ابن قُتَيبة: إنما أراد أنها سَخِيَّة لا تمنع سائلاً. وحَكَاه النسائي في سُنَنه عن بعضهم فقال: وقيل: «سخية تعطي». ورُدَّ هذا بأنه لو كان المراد لقال: لا تَرُدّ يد ملتمس. وقيل: المراد إن سَجِيَّتها لا تَرُدّ يد لامس، لا أن المراد أن هذا واقع منها، وأنها تفعلُ الفاحشة؛ فإن رسول الله - ﷺ - لا يأذَنُ في مُصَاحبة من هذه صفتها، فإن زوجها - والحالة هذه - يكون دَيُّوثاً، وقد تَقَدَّم الوعيد على ذلك. ولكن لما كانت سَجِيَّتُها هكذا ليس فيها مُمانَعَة ولا مُخَالَفة لمن أرادها لو خَلاَ بها أحد، أمره رسولُ الله - ﷺ - بفراقها، فلما ذكر أنهُ يحبُها أباح له البقاء معها، لأنَّ محبته لها مُحَقَّقة، ووقوعُ الفاحشة منها مُتَوَهَّم، فلا يُصَار إلى الضررِ العاجِلِ لتوهُّم الآجِلِ، والله - سبحانه وتعالى - أعلمُ.

---

(١) حسن، أخرجه النسائي ٦/ ٦٧ والبيهقي ٧/ ١٥٤، وأعله النسائي بأن هارون بن رئاب أرسله، وهو أثبت من عبد الكريم بن أبي المخارق. لكن كرره النسائي ٦/ ١٧٠ بإسناد على شرط مسلم، كما ذكر ابن كثير رحمه الله، ومع ذلك أعله النسائي بالإرسال، وخطأ فيه النَّضْرَ بن شُميل. وبأن غيره أرسله، وله طريق آخر سيأتي.

(٢) هذا إسناد جيد، كما قال الحافظ ابن كثير، وقد أخرجه النسائي ٦/ ١٧٠ بهذا الإسناد، وكذا البيهقي ٧/ ١٥٤ وسكت عنه النسائي، ولم يعله بالإرسال كسابقيه. فهو حديث قوي، وقد أخرجه البيهقي ٧/ ١٥٥ وابن الجوزي في «الموضوعات» ٢/ ٢٧٢ عن عبد الكريم الجزري عن أبي الزبير، وإسناده صحيح كما في تلخيص الحبير ٣/ ٢٢٥ ولم يعله ابن الجوزي بضعف واحد من رواته وإنما اعتمد كلام الإمام أحمد حيث قال في رواية الخلال عنه: لا يثبت عن رسول الله ﷺ، ليس له أصل. مع أن ابن الجوزي ذكر أنه قد رواه عبيد بن عمير وحسان بن عطية، مرسلاً. فلا يحسن الحكم عليه بالوضع، فإن المرسل وحده يكون ضعيفاً، فكيف.وقد جاء موصولاً بأسانيد حسان. وجاء في تلخيص الحبير ٣/ ٢٢٥ ما ملخصه: أطلق النووي عليه الصحة، ولكن نقل ابن الجوزي عن أحمد أنه لا يثبت، وتمسك ابن الجوزي بهذا فأورده في الموضوعات مع أنه ساقه بإسناد صحيح اهـ. وله طريق آخر عن جابر أخرجه البيهقي ٧/ ١٥٥ وجاء في «اللآلىء المصنوعة» ٢/ ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ ما ملخصه: قال المنذري: إسناده محتج بهم في الصحيح. وقال ابن حجر: هو حديث حسن صحيح، ولم يصب من قال إنه موضوع. وقال الحافظ الذهبي: إسناده صالح، وقد أطال الكلام عليه نقلاً في عامة ذلك عن ابن حجر.

قالوا: فأما إذا حَصَلت توبة فإنه يحل التزويج، كما قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم، رَحِمه الله؛ حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد، عن ابن أبي ذئب، قال: سَمِعت شعبَة ـ مولى ابن عباس، رضي الله عنه ـ قال: سَمِعتُ ابن عباس وسأله رجلٌ قال: إني كنتُ أُلِمُّ بامرأة آتي منها ما حَرّم الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ عليَّ، فرزق الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ من ذلك توبةً، فأردت أن أتزوَّجها، فقال أناس: إن الزاني لا ينكِحُ إلا زانيةٍ أو مشركة. فقال ابن عباس: ليس هذا في هذا، انكحها فما كان من إثم فَعَلَيّ. وقد ادعى طائفة آخَرُون من العلماء أن هذه الآيةَ منسوخةٌ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد، عن يحيى بن سَعِيد، عن سَعِيد بن المسيَّب قال: ذُكِرَ عندَه: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، قال: كان يُقَال: نَسَختها الّتي بعدَها: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، قال: كان يُقَال الأيامَى من المُسلِمِينَ. وهكذا رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ له عن سعيد بن المسيب ونَصّ على ذلك أيضاً الإمامُ أبو عبد الله محمدُ بن إدريسَ الشافعيُّ، رَحِمَه الله.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

هذه الآيةُ الكريمةُ فيها بَيَان حكم جلدِ القاذف للمحصَنة، وهي الحرَّة البالغة العفيفة، فإذا كان المقذوفُ رجلاً فكذلك يُجلَد قاذِفُه أيضاً، وليس في هذا نزاعٌ بين العلماء، فأما إن أقام القاذفُ بيِّنةً على صحة ما قاله درأ عنه الحدُّ، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾. فَأوجبَ على القاذف إذا لم يُقِم بينةً على صِحّةِ ما قاله ثلاثةَ أحكام، أحدها: أن يُجلَد ثمانين جلدة. الثاني: أنه تُرَدّ شهادته أبداً. الثالث: أن يكون فاسقاً ليس بِعَدْلٍ، لا عندَ الله ولا عندَ الناسِ.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾. اختلف العلماء في هذا الاستثناء: هل يعود إلى الجُملةِ الأخيرةِ فقط فَترفَعُ التوبةُ الفسقَ فقط، ويبقَى مردودَ الشهادةِ دائماً وإن تاب، أو يعودُ إلى الجملتين الثانية والثالثة؟ أما الجلدُ فقد ذَهَب وانقضى، سواء تاب أو أصرَّ، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف. فذهب الإمامُ مالكٌ والشافعيُّ وأحمدُ بن حَنبل إلى أنه إذا تاب قُبلت شهادتُه، وارتَفَع عنه حكمُ الفِسْقِ. ونَصّ عليه سَعِيد بن المسيب ـ سَيِّد التابعين ـ وجماعة من السلف أيضاً. وقال الإمامُ أبو حنيفةَ إنما يعود الاستثناءُ إلى الجُملةِ الأخيرة فقط، فَيرتفع الفِسْقُ بالتوبة، ويبقى مردودَ الشهادة أبداً. وممن ذَهَب إليه من السلف القاضي شُرَيح، وإبراهيم النخعيُّ، وسعيد بن جُبَير، ومكحولٌ، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر. وقال الشعبيُّ والضَّحاكُ: لا تُقبَلُ شهادتُه وإن تاب، إلا أن يَعْتَرِف على نفسه بأنه قد قال البهتان، فَحِينئذ تُقبَل شهادتُه، والله أعلم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

هذه الآيةُ الكريمةُ فيها فَرَجٌ للأزواج وزيادةُ مخرج ـ إذا قذفَ أحدُهم زوجتَه ـ وتَعَسَّر عليه إقامةُ البينة ـ أن يُلاعِنَها، كما أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو أن يُحضِرها إلى الإمام، فَيَدَّعِيَ عليها بما رماها به، فَيُحلِفَه الحاكمُ أربعَ شهاداتٍ بالله في مُقَابَلةِ أربعةِ شُهَداء، ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: فيما رَمَاها به من الزنَا، ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾﴾. فإذا قال ذلك بانت منه بِنَفْس هذا اللعان عند الشافعيِّ وطائفةٍ كثيرةٍ من العلماء، وحُرِّمت عليه أبداً، ويُعطِيها مَهْرَها، ويَتوجَّه عليها حَدُّ الزنَا، ولا يُدرأُ عنها إلا أن تُلاعِن فتشهَدَ أربعَ شهاداتٍ بالله إنه لمن الكاذبينَ، أي: فيما رَمَاها به، ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾.

ولهذا قال: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾، يعني: الحدَّ، ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾. فَخَصَّها بالغضب، لأنَّ الغالب أن الرجل لا يَتَجشَّم فضيحةَ أهلِهِ وَرَمْيَها بالزنَا إلا وهو صادقٌ مَعْذورٌ، وهي تعلَمُ صدقه فيما رماها به. ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غَضَبَ الله عليها، والمغضوبُ عليه هو الذي يعلَم الحقَّ ثم يحيدُ عنه.

ثم ذكر تعالى لُطفه بخلقه، ورأفته بهم، وشَرْعَه لهم الفرجَ والمخرجَ من شِدَّةٍ ما يكونُ فيه من الضيق، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾، أي: لَحرجتُم ولشقَّ عليكم كثيرٌ من أُمورِكم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ على عبادِهِ ـ وإن كان ذلك بعد الحَلف والأيمان المُغَلَّظة ـ ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرعه ويأمرُ به وفيما ينهَى عنه. وقد وردت الأحاديثُ بمُقتضى العَمَل بهذه الآية، وذِكْرِ سَبَبِ نزولها، وفيمَن نَزلت فيهِ مِنَ الصَّحابةِ.

[٤٨٥٠] فقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ، أخبرنا عَبّاد بن منصور، عن عِكْرِمَةَ، عنِ ابن عباس قال: لما نَزَلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾، قال سعدُ بن عُبادة ـ وهو سَيِّدُ الأنصار ـ: أهكذا أُنزِلَت يا رسول الله؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سَيِّدكم؟ قالوا: يا رسولَ الله، لا تَلُمه فإنه رجلٌ غيورٌ، والله ما تَزَوَّجَ امرأة قَطُّ إلا بكراً، وما طلق امرأة له قَطُّ فاجترأ رجلٌ منا أن يَتزوَّجها، من شِدَّةِ غَيْرَتِهِ. فقال سعد: واللهِ ـ يا رسولَ الله ـ إني لأعلَمُ أنها حقٌّ، وأنها من الله، ولكنِّي قد تَعَجَّبت أني لو وَجَدتُ لَكَاعاً قد تَفَخَّذَها رجلٌ، لم يكن لي أن أُهَيِّجه ولا أُحَرِّكه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله لا آتي بهم حتى يَقضِيَ حاجته. قال: فما لَبِثُوا إلا يسيراً حتى جاء هلالُ بن أمية ـ وهو أحد الثلاثة الذين تيبَ عليهم ـ فجاء من أرضِهِ عِشاءً، فوجدَ عند أهلِهِ رجلاً، فرأى بعَينيه، وسَمِعَ بأذنيه، فلم يَهِجه حتى أصبحَ، فَغَدا على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ اللهِ، إني جئتُ أهلي عشاءً، فوجدتُ عندها رَجُلاً، فرأيت بِعَيني وسمعتُ بأُذُني. فَكَرِهَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ما جاء به، واشتدَّ عليه. واجتمعتِ الأنصارُ فقالت: قد ابتُلينا بما قال سعدُ بن عُبادَةَ، الآن يَضربُ رسولُ الله ـ ﷺ ـ هلالَ بن أُمَيَّة، ويُبْطِلُ شهادَتَه في الناس. فقال هلالٌ: والله إني لأرجو أن يجعَل الله لي منها مخرجاً. وقال هلالٌ: يا رسولَ اللهِ، إني قد أرى ما اشتدَّ عليك مما جِئْتُ به، والله يعلَمُ إني لَصَادِقٌ. فوالله إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ يريد أن يأمر بِضَرْبِهِ إذ أنزَل الله على رسول الله ـ ﷺ ـ الوحي، وكان إذا نَزَل عليه الوحيُ عرفوا ذلك، في تَرَبُّدِ وجهه، يعني فأمسكوا عنه حتى فَرَغ من الوحي ـ فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾. . . الآية، فَسُرِّيَ عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: أبشر يا هلال فقد جعلَ الله لك فرجاً ومخرجاً، فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أَرسِلُوا إليها. فأَرسَلُوا إليها، فجاءت فتلاها رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ عليهما، وذَكَّرهما وأخبرَهُما أن عذابَ الآخرة أشدُّ من عذاب الدنيا. فقال هلال: والله ـ يا رسولَ اللهِ ـ لقد صَدَقتُ عَلَيها. فقالت: كَذَبَ. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لاعنوا

بينهما. فقيل لهلال: اشهَدْ. فَشهِدَ أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فَلَما كان في الخامسة قيل له: يا هلالُ، اِتّقِ الله، فإن عذابَ الدنيا أهْونُ من عذاب الآخرةِ، وإنّ هذه الموجبةُ التي تُوجِب عليك العذابَ. فقال: والله لا يُعَذّبني الله عليها كما لم يَجْلِدني عليها. فَشهِد في الخامسة أنّ لعنةَ الله عليه إن كان من الكاذبين. ثم قيل لها: اشهَدِي أربعَ شهاداتٍ بالله إنّه لمن الكاذبين، فلما كانت الخامسةُ قيل لها: اتق الله، فإنّ عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبةُ التي تُوجِب عليك العذاب، فَتَلكّأت ساعةً، ثم قالت: والله لا أفضحُ قومي. فشهدت في الخامسة أن غَضَب الله عليها إن كان من الصادقين. فَفَرّق رسول الله ـ ﷺ ـ بينهما، وقضى أن لا يُدْعَى ولدُها لأب ولا يُرمَى ولدها، ومن رَمَاها أو رَمَى ولدها فعليه الحدُّ، وقَضى ألاّ بيتَ لها عليه ولا قُوتَ لها، من أجل أنهما يَتفرّقان من غير طَلاَقٍ ولا مُتَوفّى عنها، وقال: إن جَاءَت به أُصَيهِبَ أُرَيسِحَ حَمْشَ الساقين فَهُو لهلالٍ، وإن جاءت به أورقَ جعداً جُمَاليّاً خَدَلّجَ الساقين سَابغَ الألْيَتين، فهو للّذي رُمِيت به. فجاءت به أورقَ جَعداً جُمَاليًا خَدلّجَ الساقين سابغ الأليتين[1]، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لولا الأيمانُ لكان لي ولها شأنٌ. قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر، وكان يُدعَى لأمّه ولا يُدْعَى لأبٍ[2]. ورواه أبو داود عن الحسن بن عليّ، عن يزيد بن هارون، به نحوه مختصراً. ولهذا الحديثِ شواهد كثيرةٌ في الصحَاح وغيرها من وُجُوهٍ كثيرةٍ.

[٤٨٥١] فمنها ما قال البخاريُّ: حدثني محمد بن بَشّار، حدثنا ابن أبي عَدِيٍّ، عن هشام بن حَسّانَ، حدثني عِكرِمَةُ، عن ابن عباس: أن هلال بن أُمَيّة قذفَ امرأته عند النبي ـ ﷺ ـ بِشَريك بن سَحْمَاءَ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: البينةَ أو حدٌّ في ظَهرك. فقال: يا رسول الله، إذا رَأى أحدُنا على امرأته رجلاً ينطلقُ يلتمسُ البيّنة؟! فَجعَل النبي ـ ﷺ ـ يقول: البينةَ وإلا حَدٌّ في ظهرك. فقال هلالٌ: والّذِي بعَثك بالحقّ إني لصادق، ولينزلنّ الله ما يُبرِىءُ ظَهْرِي من الحدّ. فَنزل جبريل، وأنزلَ عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، فقرأ حتى بَلَغ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. فانصرف النبيُّ ـ ﷺ ـ فأرسل إليهما، فجاء هلالٌ فَشهِدَ، والنبيُّ ـ ﷺ ـ يقول: إنّ الله يعلَمُ أنّ أحدكما كاذِبٌ، فهل منكما تائبٌ؟ ثم قامت فَشهِدَت، فلما كانت عند الخامسةِ وَقّفُوها وقالوا: إنّها موجبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضَحُ قَومي سائرَ اليوم. فمضت، فقال النبي ـ ﷺ ـ: أبصرُوها. فإن جاءت به أكْحَلَ العينين، سَابِغَ الأَلْيَتَينِ، خَدَلّج الساقين، فهو لشَريك بن سَحماء، فجاءت به كذلك، فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: لولا ما مَضَى مِن كِتَاب الله، لكان لي ولها شأن[3]. انفرَدَ به البخاريُّ من هذا الوَجهِ، وقد رواه من غير وَجْهٍ، عن ابن عباس وغَيرِه.

[٤٨٥٢] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرّمادي، حدثنا يونُس بن محمد، حدثنا صالح ـ وهو ابن عُمر ـ حدثنا عاصم ـ يعني ابن كُلَيب ـ عن أبيه، حدثني ابن عباس قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله،

---

(١) أصيهب: تصغير أصهب، وهو الذي تعلو شعره حمرة مع اسوداد. والثبج: ما بين الكاحل إلى الظهر، والأثبج: الناتىء الثبج، وقيل: العريض الثبج. وأريسح: تصغير أرسح، وهو الذي لا عجز له. وحمش الساقين: دقيقهما. والأورق: الأسمر. وجماليّاً: ضخم الأعضاء، مشبه بالجمل لعظمه وبدانته. خدلج الساقين. عظيمهما.

(٢) أخرجه أحمد ١/٢٣٨ ـ ٢٣٩ وأبو داود ٢٢٥٦ وأبو يعلى ٢٧٤٠، وإسناده ضعيف، لضعف عباد بن منصور ولأكثره شواهد.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤٧ و٥٣٠٧ وأبو داود ٢٢٥٤ والترمذي ٣١٧٩ وابن ماجه ٢٠٦٧ والطحاوي في «المشكل» ٢٩٦٢.

فَرَمَى امرأته برجل، فَكَرِه ذلك رسولُ الله ـ ﷺ ـ، فلم يزل يُرَدّده حتى أنزل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾، فقرأ حتى فرغ من الآيتين، فأرسل إليهما فدعاهما، فقال: إن الله ـ عَزّ وجلّ ـ قد أنزل فيكما. فَدَعا الرجل فقرأ عليه، فَشَهِد أربع شهادات بالله إنّه لمن الصادقين. ثم أَمَر به فَأُمسِكَ على فيه فَوَعظه، فقال له: كلُّ شيء أهونُ عليه من لَعْنَةِ الله. ثم أرسله فقال: ﴿لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾. ثم دعا بها، فقرأ عليها، فَشَهِدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، ثم أَمَر بها فَأُمسِكَ على فيها فَوَعظها، وقال: ويحكِ. كلُّ شيء أهون من غضب الله. ثم أرسلها، فقالت: ﴿غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أما والله لأقضينّ بينكما قضاءً فصلاً. قال: فَوَلدت، فما رأيتُ مولوداً بالمدينة أكثر غاشيةً منه، فقال: إن جاءت به لِكَذا وكَذَا فهو لكذا. وإن جاءت به لِكَذا وكَذَا فهو لِكَذَا. فجاء به يُشبِهُ الذي قُذِفَت به[1].

[٤٨٥٣]وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عبد الملك بن أبي سُلَيمان قال: سمعت سَعيد بن جُبَير قال: سُئلتُ عن المتلاعِنَين أَيُفرّق بينهما؟ في إمارة ابن الزبير، فما دَرَيتُ ما أقولُ، فَقُمت من مكاني إلى منزِل ابن عمر فقلت: أبا عبدِ الرحمن، المتلاعنان أيُفرّقُ بينهما؟ فقال: سُبحانَ اللهِ! إن أول مَن سأل عن ذلك فلانُ بن فلان. فقال: يا رسولَ الله، أرأيتَ الرجل يَرَى امرأته على فاحِشَة فإن تَكَلَّم تَكَلَّم بأمر عظيم، وإن سَكَت سَكَت على مثل ذلك؟ فَسَكَت فلم يُجبه، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال: الذي سألتك عنه قد ابتُلِيت به. فأنزل الله ـ عَزّ وجلّ ـ هذه الآيات في سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾، حتى بلغ: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. فَبَدأ بالرجل فَوَعظه وذكّره، وأخبَرَه أن عَذَاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، فقال: والذي بَعَثك بالحق ما كَذَبْتُك. ثم ثَنّى بالمرأة فَوَعظها وذَكّرها، وأخبرها أن عَذَاب الدُّنيا أهونُ من عذابِ الآخرةِ، فقالت: والذي بَعَثك بالحَقّ، إنه لكاذب. قال: فَبَدأ بالرجل، فَشَهِد أربعَ شَهَاداتٍ بالله إنه لمن الصادقين. والخامسةُ أن لعنةَ الله عليه إن كان من الكاذبين. ثم ثنى بالمرأة فَشَهِدت أربع شهاداتٍ بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسة أنَّ غَضَبَ اللهِ عليها إن كان من الصادقين. ثم فَرّقَ بينهما[2]. رواه النسائي في التفسير، من حديث عبد الملك بن أبي سليمان به، وأخرجاه في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

[٤٨٥٤]وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يحيى بن حَمّاد، حدثنا أبو عَوَانة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمةَ، عن عبد الله قال: كنّا جلوساً عَشِيّةَ الجُمُعةِ في المسجد، فقال رجلٌ من الأنصار: أحدُنا إذا رأى مَعَ امرأته رجلاً فقتله قتلتُموه، وإن تكلم جَلَدتُموه، وإن سَكَت سَكَت على غَيظٍ، والله لَئِن أصبحتُ صالحاً لأسألنّ رسول الله ﷺ. قال: فسألَه، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ أحَدنا إذا رأى مَعَ امرأتِه رَجُلاً فَقَتله قتلتُموه، وإن تكلّم جلدتُموه، وإن سَكَت سكت على غيظٍ، اللهُمّ احكُم. قال: فَأُنزِلت آية اللعان، فكان ذلك الرجل أولَ مَنِ ابتُلِي به[3]. انفرد بإخراجه مسلمٌ، فَرَواه من طُرُق، عن سُلَيمان بن مهرانَ الأعمش، به.

[٤٨٥٥]وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حَدّثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيمُ بن سَعدٍ، حدثنا ابن شِهابٍ، عن سهل بن سعد، قال: جاء عُوَيمرٌ إلى عاصم بن عديٍّ فقال: سَلْ رسولَ الله ـ ﷺ ـ: أرأيت رَجُلاً وَجَدَ رجلاً

---

(١) إسناده حسن، رجاله ثقات.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٩٣ ح ٤ والترمذي ١٢٠٢ والنسائي في «التفسير» ٣٧٧ وأحمد ١٩/٢ و٤٢.

(٣) صحيح. أخرجه مسلم ١٤٩٥ وأبو داود ٢٢٥٣ والبيهقي ٤٠٥/٧ وابن حبان ٤٢٨١ وأحمد ٤٢١/١.

مع امرأته فقتله، أيُقتَل به أم كيف يَصنعُ؟ فسأل عاصمٌ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فَعَاب رسولُ الله ـ ﷺ ـ المَسَائلَ، قال: فلقيه عُوَيمر فقال: ما صنعت؟ قال: ما صنعت! إنك لم تأتني بخير؛ سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل، فقال عويمر: والله لآتيَن رسولَ الله ﷺ فَلأسألنه. فأتاه فوجَدَه قد أُنزِل عليه فيهما، قال: فَدَعا بهما فَلاعَن بينهما. قال عُوَيمر: لئن انطلقتُ بها يا رسولَ اللهِ لقد كَذَبت عليها. قال: ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ـ ﷺ ـ فصارت سنة المتلاعنين، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أبصروها فإن جاءت به أسحَمَ أدعَجَ العينين عظيم الأليتين، فلا أراه إلا قد صَدَق، وإن جاءت به أحيمر كأنه وَحَرَةٌ فلا أراه إلا كاذباً. فجاءت به على النعت المكروه[١]. أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذِيّ، ورواه البخاري أيضاً من طُرُق، عن الزهريِّ، به فقال:

[٤٨٥٦] حدثنا سليمان بن داود أبو الربيع حدثنا فليح عن الزهري عن سهل بن سعد أن رجلاً أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أرأيت رجلاً رأىٰ مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل؟ فأنزل الله تعالى فيهما ما ذكر في القرآن من التلاعن فقال له رسول الله ﷺ: قد قُضي فيك وفي امرأتك قال: فتلاعنا وأنا شاهد عند رسول الله ﷺ، ففارقها، فكانت سنة أن يفرق بين المتلاعنين، وكانت حاملاً فأنكر حملها، وكان ابنها يدعىٰ إليها؛ ثم جرت السنة في الميراث أن يرثها وترث منه ما فرض الله لها[٢].

[٤٨٥٧] وقال الحافظ أبو بكر البزّارُ: حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا النضر بن شُمَيل، حدثنا يُونُسُ بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن زيد بن يُثَيع، عن حُذَيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لأبي بكر: لو رأيتَ مع أم رُومَانَ رجلاً، ما كنتَ فاعلاً به؟ قال: كنتُ والله فاعلاً به شراً. قال: فأنتَ يا عُمر؟ قال: كنتُ والله قَاتِلَه، كنت أقولُ: لَعَن الله الأعجَزَ، فإنه خبيثٌ قال: فنَزَلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾[٣]. ثم قال: لا نعلم أحداً أسنَدَه إلا النضر بن شميل، عن يُونُسَ بن أبي إسحاقَ. ثم رواه من حديث الثوري عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثيع مرسلاً، فالله أعلم.

[٤٨٥٨] وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مسلم بن أبي مسلم الجَرْمِيُّ، حدثنا مَخلد بن الحُسَين، عن هشام، عن ابن سيرينَ، عن أَنَسِ بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: أول لِعَانٍ كان في الإسلام أَنّ شريكَ ابن سَحْمَاءَ قَذفه هلالُ بن أمية بامرأته، فَرُفِعَتْ إلى رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أَربعةَ شُهودٍ وإلا فحدٌّ في ظهرك. فقال: يا رسولَ الله، إن الله يعلم إني لصادق، وَلَيُنزلنَّ الله عليك ما يُبَرّىءُ به ظهري من الجلد. فأنزل الله آية اللِعَانِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾، إلى آخر الآية. قال: فَدَعاه النبيُّ ـ ﷺ ـ فقال: اشهَدْ بالله إنّك لمن الصادقين فيما رميتها بِهِ من الزِنا، فَشَهد بذلك أربعَ شهاداتٍ، ثم قال له في الخامسة: ولعنة الله عليك إن كنتَ من الكاذبين فيما رميتَها به من الزنا، ففعل. ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال: قومي فاشهدي بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا، فَشَهدت بذلك أربع شهادات، ثم قال لها

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٥/ ٣٣٤. وأخرجه البخاري ٤٧٤٥ ومسلم ١٤٩٢ ح ٢ و٣ وأبو داود ٢٢٤٧ و٢٢٤٨ وابن ماجه ٢٠٦٦ وابن حبان ٤٢٨٥ من طرق عن الزهري به.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٤٦ و٤٢٣ ومسلم ١٤٩٢ وأبو داود ٢٢٤٥ والنسائي ٦/ ١٤٣ ـ ١٤٤ وابن ماجه ٢٠٦٦ وأحمد ٥/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧ وابن حبان ٤٢٨٥ من طرق عن الزهري به.

(٣) أخرجه البزار ٢٢٣٧ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٧٤ وقال: ورجاله ثقات.
قلت: فيه عنعنة ابن إسحاق، وهو مدلس، والراجح إرساله.

في الخامسة: وغَضِبَ الله عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا. فقالت، فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتة، حتى ظنوا أنها ستعترفُ، ثم قالت: لا أفضح قومي سائِرَ اليوم. فَمضَت على القول. فَفرّق رسول الله ـ ﷺ ـ بينهما، وقال: انظرُوه، فإن جاءت به جَعْداً حَمْشَ الساقين فهو لِشَريك بن سَحْماءَ، وإن جاءت به أبيضَ سَبِطاً أقْمَرَ قَضِيء[1] العينين فهو لهلال بن أمية. فجاءت به آدَمَ جَعْداً حَمْشَ الساقَينِ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لولا ما نَزَل فيهما من كتابِ الله لكانَ لي ولها شأن»[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

هذه العشرُ الآياتِ كلُّها نزلَت في شأن عائشةَ أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ حين رَماها أهلُ الإفك والبُهتان من المنافقين بما قالُوه من الكَذِب البَحْتِ والفِرْية التي غار الله تعالى لها ولنبيهِ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ فأنزل بَراءتها صيانةً لِعِرْضِ الرسول ـ عليه أفضلُ الصلاةِ والسلام ـ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ﴾، أي: جماعةٌ منكم، يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدَّمُ في هذه اللعنة عبدَ الله بن أُبَيّ بن سَلُولَ رأسَ المنافقين، فإنه كان يجمَعه ويَسْتَوشِيه، حتى دَخَل ذلك في أذهانِ بعض المسلمين فتكلَّموا به، وَجوَّزه آخرون منهم، وبقي الأمرُ كذلك قريباً من شهر، حتى نَزَل القرآن، وسياقُ ذلك في الأحاديث الصحيحةِ.

[٤٨٥٩] قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعمرٌ، عن الزهريِّ: قال: أخبرني سعيدُ بن المسيَّب، وعُروةُ بن الزُبير، وعلقمةُ بن وَقَّاص، وعُبَيد الله بن عبد الله بن عُتبةَ بن مسعودٍ، عن حديث عائشةَ زوجِ النبي ـ ﷺ ـ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فَبَرّأها الله تعالى، وكلُّهم قد حَدَّثني بطائفةٍ من حديثها، وبعضُهم كان أوعَى لحديثها من بعضٍ وَأَثْبَتَ اقتصاصاً، وقد وَعَيتُ عن كلِّ واحدٍ منهم الحديثَ الذي حَدَّثني، وبعضُ حديثهم يصدق بعضاً: ذكروا أن عائشةَ زوجَ النبي ـ ﷺ ـ قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا أراد أن يخرج سَفَراً أقرعَ بين نسائه، فأيَّتهُنّ خرجَ سهمُها خَرَج بها رسولُ الله ـ ﷺ ـ معه، قالت عائشة: فأقرعَ بيننا في غَزوةٍ غزاها، فَخرَج فيها سَهمي، وخرجتُ مع رسولُ الله ـ ﷺ ـ وذلك بعدما أُنزِلَ الحجابُ، فأنا أُحْمَل في هَودَجي وأنزل فيه مَسِيرنا، حتى إذا فَرَغ رسولُ الله ـ ﷺ ـ من غَزْوِه وقَفل ودَنَونا من المدينة آذنَ ليلةً بالرَحيلِ، فقمتُ حين آذنُوا بالرحيل، فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيتُ شأني أقبلتُ إلى الرحل فَلَمستُ صَدرِي، فإذا عقد من جَزْع ظِفَارَ قد انقطع، فرجعتُ فالتمستُ عِقدي، فحبسني ابتغاؤه. وأقبل الرهطُ الذين كانوا يرحَلُون بي فحملُوا هودجي فَرَحلوه على بعيري الذي كنت أركبُ، وهم يَحسَبون أني فيه ـ قالت: وكان النساءُ إذ ذاك خفافاً لم يُهَبِّلْهُنّ ولم يغشهنّ اللحمُ، إنما يأكُلن العُلْقة من الطعام. فلم يستنكر القومُ ثِقَل الهودج حين رَحَلوه وَرَفعُوه، وكنت جاريةً حديثةَ السِنّ، فبعثُوا الجَمَل وساروا، ووجدتُ عِقدي بعدما استمرّ الجيشُ، فجئت منازِلَهم وليس بها داعٍ ولا مُجيبٌ، فتيممتُ منزلي الذي كنتُ فيه، وظننتُ أن القومَ سَيَفقِدُوني فَيرجِعُون إليّ. فبينا أنا جالسة فيّ منزلي، غَلَبتني عَيني فنمت. وكان صفوان بن

---

(١) القضيء: طويل شعر العينين، ليس بمفتوح العينين، ولا جاحظهما والله أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه أبو يعلى ٢٨٢٤ والنسائي ٦/ ١٧٢ ـ ١٧٣ وإسناده صحيح. وأخرجه مسلم ١٤٩٦ والنسائي ٦/ ١٧١ والبيهقي ٧/ ٤٠٦ من طريق هشام به.

المعطِّل السلَمِيُ ثم الذَّكْوَاني قد عَرَس من وراء الجيش، فادَّلجَ فأصبحَ عند منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائم، فأتاني فَعَرفني حينَ رآني وقد كان يراني قبل أن يُضرَبَ عليَّ الحِجَابُ، فاستيقظتُ باسترجاعِهِ حين عَرَفَنِي، فَخمَّرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كَلِمةً، ولا سَمِعتُ منه كلمةً غير استِرجاعه، حتى أناخ راحلته، فَوَطِىءَ على يَدِها فركبتُها، فانطلَق يقود بي الراحلةَ حتى أتينا الجيشَ بعد ما نزلوا مُوْغِرينَ في نَحْرِ الظهيرة. فَهَلَكَ مَن هَلَكَ في شأني، وكان الذي تولى كِبْرَه عبد الله بن أبي ابن سَلُولَ. فَقَدِمتُ المدينةَ فاشتكيتُ حين قَدِمنا شهراً، والناسُ يُفِيضُون في قَول أهلِ الإفكِ، ولا أشعرُ بشيءٍ من ذلك، وهو يَريبني في وَجَعي أني لا أعرفُ من رسولِ الله - ﷺ - اللُّطفَ الذي كنتُ أرى منه حين أشتكِي، إنما يدخلُ رسولُ الله - ﷺ - فَيسلِّم، ثم يقول: كيفَ تِيكُم؟ فذلك يَريبني ولا أشعُر بالشرِّ، حتى خرجتُ بعد ما نَقِهتُ، وخَرَجت معي أم مِسطح قِبَلَ المَناصِعِ - وهو مُتَبرَّزُنا - ولا نخرجُ إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نَتَّخِذَ الكُنُف قريباً من بُيوتِنا، وأمرُنا أمرُ العرب الأوَلِ في التنزُّه، وكنا نتأذى بالكُنُف أن نَتَّخِذَها في بيوتنا. فانطلقتُ أنا وأمُّ مِسطَح - وهي ابنةُ أبي رُهْم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنةُ صخر بن عامر، خالةُ أبي بكر الصديق، وابنها مِسْطَح بن أثاثة بن عَبَّاد بن المطلب - فأقبلتُ أنا وابنةُ أبي رهم قِبَلَ بيتي حين فَرَغنا من شأننا، فَعَثرت أم مُسْطح في مِرْطها، فقالت: «تَعِس مِسطحٌ». فقلت لها: بئسما قلت! تَسُبِّينَ رجلاً قد شهد بدراً؟! قالت: أيْ هَنْتَاه، ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقولِ أهلِ الإفكِ، فازددتُ مَرَضاً إلى مرضي، فلما رَجَعت إلى بَيتي فدخل عليَّ رسولُ الله - ﷺ - فَسَلَّم، ثم قال: كيف تِيكُم؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ - قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقَّن الخبر من قِبَلِهما - فأَذِنَ لي رسولُ الله - ﷺ - فجئتُ أبويَّ فقلت لأمي: يا أُمَّتَاهُ، ما يتحدَّث الناس؟ قالت: أيْ بُنَيَّة، هَوِّني عليكِ، فوالله لَقَلَّما كانتِ امرأةٌ قَطُّ وَضِيئةٌ عند رجل يُحبُّها، ولها ضَرائِرُ، إلا أكْثَرنَ عليها. قالت: فقلتُ: سُبحانَ الله! أوقد تحدَّث الناسُ بهذا؟ قالت: فَبَكَيتُ تلك الليلةَ حتى أصبحتُ، لا يَرْقَأُ لي دمعٌ ولا أكتَحِلُ بنوم، ثم أصبحتُ أبكي، فَدَعا رسول الله - ﷺ - عَلِيّاً، وأسامَة بنَ زيدٍ حين استلبثَ الوحيُ، يَستشِيرُهما في فِراقِ أهله، قالت: فأمَّا أسامة بن زيد فأشارَ على رسول الله - ﷺ - بالذي يعلَم من براءةِ أهله، وبالذي يعلَمُ في نفسِه لهم من الودِّ، فقال: يا رسولَ الله، هم أهلك، ولا نعلَمُ إلا خيراً. وأما عليّ بنُ أبي طالب فقال: لَمْ يُضيِّق الله عليك، والنساءُ سِوَاها كثيرٌ، وإن تَسألِ الجاريَةَ تَصدُقْكَ الخَبَر. قالت: فَدَعا رسولُ الله - ﷺ - بَريرَة، فقال: أيْ بَريرةُ هَل رأيتِ من شيء يَريبك من عائشَة؟ فقالت له بَريرةُ: والذي بَعَثك بالحقِّ إنْ رأيتُ عليها أمراً قَطُّ أغْمِصُهُ عليها أكثَرَ من أنَّها جارِيةٌ حديثةُ السِنِّ، تنامُ عن عَجِين أهلِها، فتأتي الداجِنُ فتأكلُه. فقام رسولُ الله - ﷺ - فاستعذَرَ من عبدِ الله بن أبي ابن سَلُولَ، قالت: فقال رسولُ الله - ﷺ - وهو على المنبر: يا معشَر المُسلِمين، مَنْ يَعذِرُني من رَجُلٍ قد بَلَغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمتُ على أهلي إلا خيراً، ولَقَد ذكروا رَجُلاً ما علمتُ عليه إلا خيراً، وما كان يدخُل على أهلي إلا مَعِي. فقام سعدُ بن مُعَاذ الأنصاري فقال: أنا أعْذِرُكَ منه يا رسولَ الله، إن كان من الأوسِ ضَرَبنا عُنُقَه، وإن كان من إخواننا مِنَ الخزرج أمرتنا فَفعلنا أمرَك. قالت: فقام سعدُ بن عُبادَةَ - وهو سيدُ الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فقال لسعدِ بن مُعاذ: لَعَمرُ الله لا تقتُله، ولا تَقدِر على قَتْلِه. فقام أُسَيد بن حُضَير - وهو ابنُ عَمِّ سعد بن مُعاذٍ - فقال لسعدِ بن عُبادَةَ: كَذَبت! لعمرُ الله لَنَقتُلَنَّه، فإنك منافق تُجادِلُ عن المنافقين. فثار الحيَّانِ الأوسُ والخزرجُ حتى هَمُّوا أن يَقتَتِلُوا، ورسولُ الله - ﷺ - قائمٌ على المنبر، فلم يَزَل رسولُ الله - ﷺ - يُخفِّضُهم حتى سَكَتُوا وَسَكَت رسولُ الله - ﷺ - قالت: وبَكَيتُ يومِي ذلك، لا يرقَأُ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيتُ ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمعٌ، ولا أكتحل بنومٍ، وَأبواي

يَظُنَّان أن البكاء فالِقٌ كَبِدي. قالت: فبينما هُمَا جَالِسانِ عندي وأنا أبكِي استأذنَت عَلَيّ امرأةٌ من الأنصار، فأذِنتُ لها، فَجَلَست تبكي معي. فبينا نحن على ذلك إذ دَخَل علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ فسلَّم ثم جلس، قالت: ولم يجلسْ عندي منذ قيل فيّ ما قِيلَ، وقد لَبِث شهراً لا يُوحَى إليه في شأني شيءٌ، قالت: فَتَشهَّد رسولُ الله ـ ﷺ ـ حين جلَس، ثم قال: أمَّا بعدُ يا عائشة فإنه قَد بَلَغني عنكِ كَذا وكَذا، فإن كنت بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ الله، وإن كنتِ ألممْتِ بِذَنب فاستغفري الله ثم تُوبي إليه، فَإِنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذَنبٍ ثم تَاب، تاب الله عليه. قالت: فلما قَضى رسولُ الله ـ ﷺ ـ مقالته قَلَص دمعي، حتى ما أُحِسَ منه قطرةً، فقلت لأبي: أجِب عَنّي رسولَ الله ﷺ. فقال: والله ما أدري ما أقولُ للرسول! فقلتُ لأمي: أجِيبي عَنّي رسولَ الله. فقالت: والله ما أدرِي ما أقولُ لرسول الله! قالت: فقلت، وأنا جارية حديثةُ السِنّ، لا أقرأ كثيراً من القرآن: إنّي والله لقد عرفتُ أنّكم قد سَمِعتُم بهذا، حتى استقرّ في أنفسِكم وصَدَّقتُم به، فلَئِن قلتُ لكم إني بريئةٌ ـ والله يعلم أنّي بريئةٌ ـ لا تُصَدِّقُوني بذلك، وَلَئِن اعترفتُ لكم بأمرٍ ـ والله عَزّ وجلَّ ـ يعلم أني بريئة ـ تُصَدِّقوني، وإني والله ما أجِدُ لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسُفَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. قالت: ثم تحوّلتُ فاضطجعتُ على فِرَاشي، قالت: وأنا والله حينئذٍ أعلَمُ أني بريئة، وأن الله مُبَرِّئي ببَرَاءتي، ولكن والله ما كنتُ أظنُّ أن يَنزلَ في شأني وحيٌ يُتلَى، وَلَشأني كان أحقَرَ في نفسي من أن يَتكلَّم الله فيَّ بأمرٍ يُتلَى. ولكن كُنتُ أرجُو أن يَرَى رسولَ الله ـ ﷺ ـ في النوم رُؤيَا يُبرّئني الله بها. قالت: فوالله ما رام رسولُ الله ـ ﷺ ـ من مَجلِسِه ولا خَرَج من أهل البيت أحدٌ، حتى أنزل الله عَلَى نَبِيِّه، فأخذه ما كان يأخذُه من البُرَحاء عند الوحي، حَتّى إنه لَيَتحدّرُ منه مثل الجُمَان، من العَرَق في اليوم الشّاتي، من ثِقَلِ القَول الذي أُنزِل عليه. قالت: فلما سُرّيَ عن رَسُولِ الله ـ وهو يضحكُ، كان أولُ كَلِمةٍ تَكلَّم بها أن قال: أبْشِري يا عائشةُ، أما الله فقد بَرّأكِ. فقالت لي أمّي: قُومي إليه. فقلتُ: والله لا أقومُ إليه ولا أحمَدُ إلا الله ـ عَزّ وجلّ ـ هو الذي أنزل بَراءتي. وأنزل الله ـ عَزّ وجلّ ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾، عَشْرَ آياتٍ، فأنزل الله هذه الآيات بَراءَتي. قالت: فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وكان يُنفِقُ على مِسْطَح لقرابته منه وَفَقرِه: والله لا أُنفِق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشةَ. فأنزل الله ـ عَزّ وجلّ ـ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، فقال أبو بكر: والله إنّي لأُحِبُّ أن يَغفِرَ الله لي. فَرجَع إلى مِسْطَح النفقةَ التي كان يُنفِق عليه. وقال: لا أَنزِعها منه أبداً. قالت عائشةُ: وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ سأل زينبَ بنتَ جَحشٍ زَوْجَ النبيِّ ـ ﷺ ـ عن أمري: ما عَلِمْتِ، أو: ما رَأيْتِ، أو: ما بَلَغَكِ؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سَمْعِي وبصري، والله ما عَلِمتُ إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تُسَامِيني من أزواج النبيّ ـ ﷺ ـ فَعَصَمها الله تعالى بالوَرَع، وطَفِقَت أختُها حَمنة بنتُ جحش تُحارِب لها، فَهَلَكت فيمن هَلَك. قال ابنُ شهاب: فهذا ما انْتهى إلينا من أمْرِ هؤلاء الرَّهْطِ[1]. أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، من حديث الزهري. وهكذا رواه ابن إسحاق، عن الزهري كذلك، قال: وحدثني يحيى بن عبد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة ـ وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، عن عَمرة، عن عائشة بنحو ما تقدم، والله أعلم.

[٤٨٦٠] ثم قال البخاري: وقال أبو أُسامَةَ، عن هِشَام بن عُروَةَ قال: أخبَرَني أَبي، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما ذُكِرَ مِن شأني الذي ذُكِرَ وما عَلِمتُ به قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ فيَّ خَطِيباً، فتشهد فَحمِد

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٢٦٦١ و٤٧٥٠ ومسلم ٢٧٧٠ والنسائي في «التفسير» ٣٨٠ وأحمد ٦/ ١٩٤.

الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال: أما بعدُ أَشِيرُوا عَلَيَّ في أناس أبَنُوا أهلي، وَايمُ الله ما عَلِمتُ على أهلي من سُوءٍ، وَأَبَنُوهم بمَن والله ما عَلِمتُ عليه من سُوءٍ قطُ، ولا يدخل بيتي قَطُّ إلا وأنا حاضرٌ، ولا غِبتُ في سَفَرٍ إلا غابَ معي. فقام سعدُ بنُ مُعاذٍ الأنصاريّ فقال: ائذن يا رسولَ الله أن نَضرِبَ أعناقهم. فقام رجلٌ من الخزرج ـ وكانت أمّ حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل ـ فقال: كَذَبتَ، أما والله لو كانُوا من الأوس ما أحببتَ أن تُضرَبَ أعناقُهم. حتى كاد أن يكونَ بينَ الأوس والخزرج شرٌ في المسجد، وما عَلمت. فلما كان مساءُ ذلكَ اليوم، خَرَجتُ لبعض حاجتي ومعي أمُّ مِسطَحٍ، فعَثَرتْ فقالت: تَعِسَ مِسطَحٌ! فقلت: أيْ أمّ، تَسبِّين ابنك؟! وسكَتَتْ، ثم عَثَرت الثانية فقالت: تعِسَ مِسْطَحٌ! فقلت لها: أيْ أمّ، تَسُبِّين ابنَكِ؟! ثم عَثَرت الثالثة فقالت: تَعِس مِسطَحٌ! فانتهرتُها فقالت: والله ما أسبُهُ إلا فيكِ، فقلت: في أيّ شأني؟ قالت: فَبَقَرت لي الحديثَ. فقلتُ: وقد كانَ هذا؟ قالت: نعم، والله. فرجعتُ إلى بيتي كأن الذي خرجت له لا أَجِدُ منه قليلاً ولا كثيراً، وَوُعِكتُ، وقلتُ لرسول الله ـ ﷺ ـ: أَرْسِلني إلى بَيتِ أبي. فأرسلَ معي الغلامَ، فدخلتُ الدارَ، فوجدتُ أم رُومانَ في السُّفل، وأبا بكر فوقَ البيت يَقرأ، فقالت أمي: ما جاء بك يا بُنَيّة؟ فأخبرتُها، وذكرتُ لها الحديثَ، وإذا هو لم يبلُغ منها ما بلغ منّي، فقالت: يا بنية، خَفّفي عليك الشأن؛ فإنه ـ والله ـ لَقَلّما كانت امرأةٌ حسناءُ عند رجل يُحبُّها لها ضرائر إلا حَسَدْنها، وقيل فيها. فقلتُ: وقد عَلِمَ به أبي؟ قالت: نعم. قلتُ: ورسولُ الله ﷺ؟ قالت: نَعَم، ورسولُ الله ﷺ. فاستَعْبَرتُ وبكَيتُ، فَسَمِعَ أبو بكر صَوتي، وهو فوقَ البيتِ يقرأ، فَنَزل فقال لأمي: ما شأنُها؟ قالت: بَلَغَها الذي ذُكِرَ من شأنها. ففاضت عيناه وقال: أقسمتُ عليك ـ أي بُنَيّة ـ إلا رَجَعتِ إلى بيتكِ. فَرَجعتُ، ولقد جاءَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بيتي، فسأل عني خادمتي، فقالت: يا رسول الله، لا والله ما علمتُ عليها عيباً، إلا أنها كانت ترقُد حتى تدخلَ الشاةُ فتأكل خَميرَها أو: عَجِينها، وانتهرها بعضُ أصحابه فقال: اصدُقِي رَسُولَ الله ﷺ. حتى أسقَطُوا لها به، فقالت: سبحانَ اللهِ! والله ما علمتُ عليها إلا ما يعلَم الصائغ على تِبْرِ الذَّهَبِ الأحمرِ. وبلغ الأمرُ ذلك الرجلَ الذي قِيلَ له، فقال: سبحانَ اللهِ. والله ما كَشَفتُ كَنَفَ أنثى قطُ. قالت عائشة: فَقُتِل شهيداً في سَبيل الله. قالت: وأصبَحَ أبواي عندي، فَلَم يزالا حتى دَخَل عليَّ رسول الله ـ ﷺ ـ وقد صَلَّى العصرَ، ثم دخل وقد اكتنفَني أبواي عن يميني وعن شمالي، فَحَمِدَ الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أما بعدُ يا عائشة، إن كُنتِ قَارَفْتِ سُوءاً أو ظَلَمتِ فتوبي إلى الله، فإن الله يقبلُ التوبةَ عن عباده. قالت: وقد جاءت امرأةٌ من الأنصار، فهي جالسة بالباب، فقلت: ألا تستحِي من هذه المرأة أن تذكُرَ شيئاً؟! فوَعَظَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فالتفتُ إلى أبي فقلتُ: أجبْه. قال: فماذا أقول؟ فالتفتُ إلى أُمّي فقلت: أجيبيه. قالت: أقولُ ماذا؟ فلما لم يجيباه تَشَهّدتُ فَحَمِدتُ الله وأثنيتُ عليه بما هو أهلُه، ثم قلت: أما بعد، فَوَاللهِ لَئِن قلتُ لكم إني لم أفعل، والله عزَّ وجلَّ يشهدُ إني لصادقة، ما ذاك بنافعي عندكم، لقد تكلمتُم به، وَأُشرِبَتْهُ قلوبُكُم، وإن قلت: إني قد فعلتُ، والله يعلم أني لم أفعل، لَتَقولُنَّ: قد باءَت به على نَفسِهَا، وإني ـ والله ـ ما أجد لي ولكم مثلاً ـ والتمستُ اسمَ يعقوبَ فلم أقدِر عليه ـ إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، وأنزل الله على رسوله ـ ﷺ ـ من ساعته، فسكتنا، فَرُفِع عنه وإني لأتبيَّنُ السرورَ في وجهه، وهو يمسَحُ جَبِينه ويقول: أَبشِري يا عائشةُ، فقد أنزل الله براءَتَك. قالت: وكنتُ أشدَ ما كنتُ غضباً، فقال لي أبواي: قومي إليه. فقلتُ: لا، واللهِ لا أقومُ إليه ولا أحمَدُهُ ولا أحمَدُكُما، ولكن أحمَدُ الله الذي أنزَلَ براءَتي، فقد سَمِعتُموه فما أنكرتُمُوه ولا غَيَّرتُموه. وكانت عائشةُ تقول: أما زينبُ بنتُ جَحش فقد عَصَمها الله بدينها، فلم تَقُل إلا خيراً. وأما أختها حَمنةُ بنتُ جَحْشٍ، فَهَلَكت فيمن هَلَكَ. وكان الذي يتكلَّم فيه مِسطَحٌ وحَسّانُ بنُ ثابتٍ. وأما المنافقُ عبد الله بن أبي ابن

سَلُولَ فهو الذي كان يَسْتَوشِيه ويَجمعه، وهو الذي تَولى كِبْرَه منهم هو وَحَمْنَةُ. قالت: وحَلَف أبو بكر ألاَّ ينفعَ مِسْطحاً بنافعةٍ أبداً، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ يعني أبا بكر، ﴿وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ﴾، يعني مِسْطَحاً، إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. فقال أبو بكر: بلى والله يا رَبّنا، إنّا لنُحِبُّ أن تَغفِر لنا. وعادَ له بما كان يصنع[1]. هكذا رواه البخاري من هذا الوجه مُعَلّقاً بصيغة الجزم، عن أبي أُسَامة حَمَّادِ بن أسامة أحدِ الأئمة الثقات. وقد رواه ابنُ جَرير في تفسيره عن سفيانَ بن وَكيعٍ، عن أبي أسامَة، به مُطوّلاً، مثلَه أو نحوَه. ورواه ابنُ أبي حاتم عن أبي سَعيدِ الأشجّ، عن أبي أسامَة بِبَعضِه.

[٤٨٦١] قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم، أخبرنا عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما نَزَل عُذْري من السماء جاءني النبي ـ ﷺ ـ فأخبرني بذلك، فقلتُ: بحمد الله لا بحمدكَ[2].

[٤٨٦٢] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثني ابن أبي عَدِيّ، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عَمْرَة، عن عَائِشَةَ قالت: لما نزلَ عُذْرِي قامَ رسول الله ـ ﷺ ـ فذكر ذلك، وَتَلا القُرآن، فلما نَزَلَ أمَرَ برجلين وامرأة فَضُرِبُوا حَدَّهم[3]. وأخرجه أهل السننِ الأربعة، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن». ووقع عند أبي داودَ تسميتُهم: حسانُ بن ثابت، ومسطحُ بن أُثَاثَة، وحَمْنَةُ بنتُ جَحْشٍ[4]. فهذه طرقٌ مُتَعَدِّدة عن أمِّ المؤمنينَ عائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ في المسانيدِ والصِحَاحِ والسُّنَنِ وغيرها.

[٤٨٦٣] وقد رُوِيَ من حَدِيث أمها أمّ رُومَانَ ـ رضي الله عنها ـ فقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا علي بن عاصم، أخبرنا حُصَين، عن أبي وائل، عن مَسْرُوقٍ، عن أم رُومانَ قالت: بينا أنا عندَ عائشةَ إذ دخلت عليها امرأةٌ من الأنصار فقالت: فَعَل الله بابنها وفعل. فقالت عائشة: وَلِمَ؟ قالت: إنه كان فيمن حَدّث الحديثَ. قالت عائشةُ: وأيُّ حديث؟ قالت: كذا وكذا. قالت: وقد بَلَغ ذلك رسولَ الله ﷺ؟ قالت: نَعَم. قالت: وبلَغَ أبا بكر؟ قالت: نعم. قالت: فَخرّت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ مَغشِيّاً عليها، فما أفاقت إلا وعَلَيها حُمّى بنافض[5]. قالت: فقمتُ فَدَثّرتها، قالت: وجاء النبيُّ ـ ﷺ ـ فقال: ما شأنُ هذه؟ قلت: يا رسولَ الله، أخذتها حُمّى بنافِضٍ. قال: فَلعلَّه في حَدِيث تُحدِّثَ به. قالت: فاستوت عائشة قاعدةً فقالت: واللهِ لَئِن حَلَفتُ لَكُم لا تُصَدِّقوني، وَلَئِن اعتذرتُ إليكم لا تَعذِروني، فَمَثلي ومَثَلُكم كَمَثلِ يعقوبَ وبَنِيه فصبر جميل ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾. قالت: وخَرَج رسولُ الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله عُذرَها، فَرَجع رسولُ الله ـ ﷺ ـ معه أبو بكر، فدخَل فقال: يا عائشةُ، إنَّ الله تعالى قد أنزل عُذرَكِ. فقالت: بحمد الله لا بحمدك. فقال لها أبو بكر: تقولين هذا لرسول الله ﷺ؟! قالت: نعم. قالت: فكان فيمن حَدَّث الحديثَ رجلٌ كان يعولُه أبو بكر. فَحَلف أبو بكر ألا يَصِلَه، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾... إلى آخر الآية، قال أبو

---

(١) أخرجه البخاري ٤٧٥٧ معلقاً بصيغة الجزم، ووصله الطبري ٢٥٨٥٧ كما ذكر المصنف.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٣٠ وابن حبان ٧١٠٢ وإسناده حسن.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٣٥ وأبو داود ٤٤٧٤ والترمذي ٣١٨٠ والنسائي في «الكبرى» ٧٣٥١ وابن ماجه ٢٥٦٧ والبيهقي ٨/ ٢٥٠، وفي إسناده ابن إسحاق مدلس، وقد عنعن، ولم يثبت أنه حدهم.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٤٧٥ عن محمد بن إسحاق مرسلاً. وأخرجه أبو يعلى ٤٩٣٢ عن عروة مرسلاً.

(٥) النافض: حمى الرِّعدة.

بكر: بَلَى. فَوَصَله[1]. تَفرّد به البخاريُّ دون مُسلم، من طريق حُصَين. وقد رواه البخاري عن موسى بن إسماعيل، عن أبي عَوَانة ـ وعن محمد بن سلام، عن محمد بن فُضَيل ـ كلاهما عن حُصَين، به. وفي لفظ أبي عوانة: «حدثتني أم رُومانَ». وهذا صريحٌ في سَمَاعِ مَسرُوقٍ منها، وقد أنكر ذلك جماعةٌ من الحفاظ، منهم الخطيبُ البغداديُّ، وذلك لما ذَكَره أهلُ التاريخ أنَّها ماتت في زمانِ النبي ـ ﷺ ـ قال الخطيبُ: «وقد كان مَسْرُوقٌ يُرسِلُه فيقول: «سُئِلت أُمُّ رومان»، ويَسُوقه، فَلَعل بعضهم كَتَبَ «سُئِلَت» بألف، فاعتقد الراوي أنها «سَأَلتُ»، فَظَنَّه مُتصِّلاً، قال الخطيب: «وقد رَوَاه البخاري كذلك، ولم تظهر له عِلَّته». كذا قال، والله أعلم. ورواه بعضهم عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، عن أم رومان، فالله أعلم.

فقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾، أي: بالكَذِبِ والبَهْتِ والافتراء، ﴿عُصْبَةٌ﴾، أي: جماعةٌ منكم، ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾، يا آلَ أبي بكر، ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: في الدنيا والآخرة، لِسانُ صِدْقٍ في الدنيا، وَرِفعَةُ منازلَ في الآخرةِ، وإظهارُ شرف لهم باعتناء الله بعائشةَ أم المؤمنين، حيث أنزلَ الله تعالى براءَتها في القرآن العظيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، ولهذا لما دَخَل عليها ابنُ عباس ـ رضي الله عنه ـ وهي في سِيَاقِ الموتِ، قال لها: أَبْشِري، فإنَّك زوجةُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ وكان يُحبُّكِ، ولم يَتزوَّج بكراً غيرك، وَنزلت براءَتُكِ من السماء.

وقال ابن جرير في تفسيرِه: حدثني محمد بن عثمان الواسطي، حدثنا جعفر بن عون، عن المُعَلَّى ابن عِرْفان، عن محمد بن عبد الله بن جَحْش قال: تفاخَرَت عائشةُ وزينبُ ـ رضي الله عنهما ـ فقالت زينب: أنا التي نَزَل تَزْويجي من السماء، قال: وقالت عائشة: أنا التي نزلَ عُذري في كتابه، حين حَمَلني ابن المُعَطَّل على الراحِلَةِ. فقالت لها زينب: يا عائشة، ما قلت حين رَكِبتيها؟ قالت: قلت: حَسْبي الله ونِعْمَ الوكيل. قالت: قلتِ كلمةَ المؤمنين.

وقولُه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾، أي: لِكُلِّ مَن تَكَلَّم في هذه القضية ورَمَى أم المؤمنين عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ بشيءٍ من الفاحشة، نصيبٌ عظيمٌ من العذاب. ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾، قيل: ابتدأ به. وقيل: الذي كان يجمَعُه ويَسْتَوشيه ويُذِيعه ويُشِيعه، ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: على ذلك. ثم الأكثرون على أنَّ المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبي ابن سَلُولَ ـ قَبَّحه الله ولعنه ـ وهو الذي تَقَدَّم النصُّ عليه في الحديث. وقال ذلك مجاهدٌ وغير واحد. وقيل: بل المرادُ به حسانُ بن ثابتٍ. وهو قولٌ غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يَدُلُّ على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائلُ ومناقبُ ومآثرُ، وأحسنُ محاسنه أنه كان يَذُبّ عن رسول الله ـ ﷺ ـ بشِعره.

[٤٨٦٤] وهو الذي قال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: هاجهم وجبريلُ معك[2].

[٤٨٦٥] وقال الأعمشُ، عن أبي الضحَى، عن مَسْرُوقٍ قال: كنتُ عندَ عائشة ـ رضي الله عنها ـ فَدَخل حسانُ بن ثابت، فَأَمَرَتْ فَأُلقِي له وسادةٌ، فلما خَرَج قلت لعائشة: ما تَصنَعين بهذا؟! يَدْخلُ عليك؟! ـ وفي رواية قيل لها: أتأذَنين لهذا يدخلُ عليك ـ وقد قال الله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟! ـ قالت: وأيُّ عذاب أشدُّ من العَمَى ـ وكان قد ذَهَب بَصرُه ـ لعلَّ الله أن يجعلَ ذلك هو العذَابَ العظيمَ. ثم قالت: إنه

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٨٨ و٤١٤٣ والطيالسي ١٦٦٥ وأحمد ٦/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨ وابن حبان ٧١٠٣.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٨٧.

كان يُنافحُ عن رسولِ الله ﷺ. وفي رواية أنه أنشدَها عندما دخل عليها شعراً يمتدحُها به، فقال:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنّ بريبة ... وتُصبح غَرثَى من لُحوم الغَوافل[1]

فقالت: أما أنتَ فلستَ كذلك. وفي رواية: لكنك لستَ كذلك[2].

وقال ابنُ جرير: حدثنا الحسن بن قَزَعَة، حدثنا سلمةُ بنُ عَلْقمة، حدثنا دَاود، عن عامر، عن عائشةَ أنها قالت: ما سَمِعت بِشَيء أَحْسَنَ من شعر حسانَ، ولا تَمَثَّلت به إلا رجوتُ له الجنةَ، قوله لأبي سفيانَ، يعني ابن الحارث بن عبد المطلب:

هَجَوتَ مُحمَّداً، فَأَجبتُ عنه ... وَعِندَ الله في ذاكَ الجَزَاءُ

فَإنَّ أَبي وَوَالِدَه وَعِرضِي ... لِعِرضِ مُحَمَّدٍ مِنكُم وِقَاءُ

أَتَشتُمُه، وَلَستَ لَهُ بِكُفْءٍ؟! ... فَشَرُّكُمَا لِخَيرِكُما الفِدَاءُ

لِسَانِي صَارِمٌ لاَ عَيبَ فِيهِ ... وَبَحرِي لا تُكَدِّرُهُ الدِّلاءُ

فقيل: يا أُمَّ المؤمنينَ، أليس هذا لغواً؟ قالت: لاَ، إنما اللغوُ ما قيل عند النِّساء، قيل: أليسَ الله يقولُ: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قالت: أليسَ قد أصابه عَظِيمٌ؟ قد ذَهب بَصَرُه وكُنِّع بالسيف. تعني الضربةَ التي ضَرَبه إِيَّاها صَفوانُ بن المُعَطَّل، حين بَلَغه عنه أنه يَتَكلَّم في ذلك، فَعَلاه بالسيفِ، وكاد أن يَقتُلَه.

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾

هذا تأديبٌ من الله تعالىٰ للمؤمنين في قضيةِ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ حين أفاض بعضُهم في ذلك الكلام السيِّىء، وما ذكر من شأنِ الإفكِ، فقال: ﴿لَّوْلَآ﴾، بمعنى هلاّ ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾، أي: ذلك الكلامَ الذي رُمِيت به أُمُّ المؤمنين رضي الله عنها ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليقُ بهم فأمُّ المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى. وقد قيل: إنها نزلَت في أبي أيوبَ خالِد بن زيدٍ الأنصاري وامرأتِه ـ رضي الله عنهما ـ كما قال الإمامُ محمد بن إسحاقَ ابن يَسَار، عن أبيه، عن بعضِ رجالِ بني النجّارِ: أن أبا أيوب خالدَ بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوبَ، أما تسمَعُ ما يقول الناسُ في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلكَ لَلكَذِبُ، أكنتِ فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا، والله ما كنتُ لأفعله. قال: فعائشةُ والله خيرٌ منك. فلما نزل القرآن ذكر الله ـ عَزّ وجلّ ـ من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾، وذلك حسانُ وأصحابه، الذين قالوا ما قالوا، ثم قال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ الآية، أي: كما قال أبو أيوبَ وصاحبته.

وقال محمد بن عُمَر الواقديُّ: حدثني ابنُ أبي حَبِيبة، عن داود بن الحُصَين، عن أبي سفيان، عن أَفْلَح مولى أبي أيوبَ، أن أمَّ أيوب قالت لأبي أيوبَ: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أفكانت يا أم أيوب فاعلة ذلك! قالت: لا، واللهِ. قال: فعائشةُ والله خيرٌ منك. فلما نزل القرآنُ، وذَكَر أهل الإفك، قال الله ـ عَزّ وجلّ ـ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ

---

(١) حصان: عفيفة. رزان: ذات وقار. ما تزن: ما تتهم. غرثى: جائعة. الغوافل: جمع غافلة. يريد أنها لا تتكلم في أعراض الناس.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٥٥ و٤٧٥٦ من طريق الأعمش به، وانظر مسند أبي يعلى ٤٩٣١.

مُّبِينٌ﴾، يعني أبا أيوبَ حين قال لأمّ أيوبَ. ما قال، ويقال: إنما قالها أُبَيُّ بن كعب. وقولُه تعالى: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، أي: هَلاّ ظنوا الخير، فإنّ أمّ المؤمنين أهلُه وأولى به، هذا ما يتعلّق بالباطن، ﴿وَقَالُوٓاْ﴾، أي: بألسنتهم: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، أي: كَذِبٌ ظاهرٌ على أمّ المؤمنين، فإن الذي وَقَع لم يكن ريبةً، وذلك أنّ مجيءَ أمّ المؤمنين راكبةً جَهْرَةً على راحلةِ صفوانَ بن المُعَطّل في وقت الظهيرة، والجيش بكامله يُشاهِدُون ذلك، ورسولَ الله ﷺ بين أظهرِهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبةٌ لم يكن هكذا جَهْرَة، ولا كانا يُقدِمَان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان هذا يكون ـ لو قُدِّر ـ خِفيةً مَستوراً، فتعيَّن أن ما جاء به أهلُ الإفكِ مما رَمَوا به أمّ المؤمنين هو الكَذِب البَحْتُ، والقول الزور، والرّعُونة الفَاجِرة، والصفقَة الخاسرةُ. قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَا﴾، أي: هَلاّ ﴿جَآءُو عَلَيْهِ﴾، أي: على ما قالوه ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يَشْهَدُون على صِحّةِ ما جاؤوا به، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: في حكم الله كَذَبَةٌ فَجَرَةٌ.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أيّها الخائِضُون في شأن عائشة، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة، ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾، من قضية الإفكِ، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وهذا فيمن عنده إيمان رَزَقَه الله بِسَببه التوبة إليه، كَمِسْطَح، وحَسّانَ، وحَمْنَة بنت جَحْشٍ، أخت زينبَ بن جَحْشٍ. فأما من خَاضَ فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي سلولَ وأضرابه، فَلَيس أولئك مرادين في هذه الآية، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادِلُ هذا ولا ما يُعَارِضُه، وهكذا شأنُ ما يَرِد من الوعيد على فِعْلٍ مُعَيّن، يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة، أو ما يُقَابِله من عَمَلٍ صَالِحٍ يُوَازِنُه أو يَرجحُ عليه. ثم قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، قال مجاهد، وسعيد بن جبير: أي يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا: سمعته من فلان كذا، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا. وقرأ آخرون: (إذ تَلِقُونَهُ بألسنتكم). وفي صَحِيح البخاري عن عائشة: أنها كانت تَقرؤُها كذلك[1]. وتقول: هو من وَلْق القَوْلِ، يعني الكَذِبَ الذي يستمرُّ صاحبه فيه، تَقُول العربُ: وَلَق فلانٌ في السير: إذا استمرّ فيه. القراءة الأولى أشهر، وعليها الجمهور، ولكن الثانية مَرْوِيّة عن أم المؤمنين عائشة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأَشَجّ، حدثنا أبو أُسَامَةَ، عن نافع بن عُمَر، عن ابن أبي مُلَيكَةَ، عن عائشةَ أنها كانت تقرأُ: «إذ تَلِقُونَه»، وتقول: إنما هو وَلْقُ القَوْل. قال ابن أبي مُلَيكَة: هي أعلم به من غيرها.

وقولُه تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، أي: تَقُولون ما لا تَعْلَمُون. ثم قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي: تقولون ما تقولُون في شَأنِ أمّ المؤمنين، وتَحسَبُون ذلك يسيراً سهلاً، ولو لم تكن زوجةَ النبي ـ ﷺ ـ لما كان هَيِّناً، فكيف وهي زوجةُ النبيّ الأميّ، خَاتَم الأنبياء وسَيِّد المرسلين، فَعظِيمٌ عند الله أن يقال في زَوجةِ رَسُولِه ما قيل! فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ لا يُقَدِّرُ على زوجةِ نبي من أنبيائه ذلك، حاشا وكَلاّ ولمّا لم يكن ذلك، فَكَيفَ يكونُ هذا في سيدةِ نساءِ الأنبياء، وزوجةِ سَيِّد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

(١) البخاري ٤٧٥٢، وانظر الطبري ٢٥٨٦٥ و٢٥٨٦٦.

[٤٨٦٦] وفي الصحيحين: «إن الرجل ليتكلَّم بالكلمةِ من سَخَطِ الله لاَ يَدْري ما تبلُغ، يَهوِي بها في النارِ أبعدَ ما بينَ السماءِ والأرضِ». وفي رواية: «لا يُلقِي لها بالاً»[١].

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

هذا تأديبٌ آخرُ بعدَ الأوَّلِ الآمر بالظنِّ خيراً، أي: إذا ذُكِر ما لا يَليق من القول في شأن الخِيَرةِ فأَوْلاً ينبغي الظنُّ بهم خيراً، وألاَّ يُشعِرَ نفسه سِوَى ذلك. ثم إن عَلِقَ بنفسِه شيءٌ من ذلك ـ وَسْوَسةً أو خَيالاً ـ فلا ينبغي أن يَتَكلَّم به، فإن رسول الله ـ ﷺ ـ قال:

[٤٨٦٧] «إن الله تجاوزَ لأُمَّتي عما حَدَّثت به أنفُسَها ما لم تَقُل أو تَعمَل»[٢]. أخرجاه في الصحِيحَين.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، أي: ما ينبغي لنا أن نَتَفوَّه بهذا الكلام ولا نَذكُرَه لأحدٍ، ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، أي: سُبحانَ اللهِ أن يقال هذا الكلام على زوجة نَبيِّه ورسولِه وَحليلة خليله. ثم قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾، أي: ينهاكُم الله مُتوعِّداً أن يَقَع منكم ما يُشبه هذا أبداً، أي: فيما يُستقبلُ فلهذا قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: إن كنتُم تؤمِنُون بالله وَشرْعِهِ، وتُعظِّمون رسولَه ـ ﷺ ـ فأمَّا من كان مُتَّصِفاً بالكُفرِ فذاك له حُكمٌ آخرُ. ثم قال: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾، أي: يُوضِح لكم الأحكام الشرعية والحِكَمَ القَدَرِيَّة، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عَليم بما يُصلح عبادَه، حَكِيم في شَرْعه وقَدَره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

وَهذا تأديبٌ ثالثٌ لمن سَمِع شيئاً من الكلام السيىء، فَقَام بذهنه منه شيءٌ، وتكلم به، فلا يُكثِرُ منه ويُشيعه ويُذِيعه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: يختارون ظُهورَ الكلام عنهم بالقبيح، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾، أي: بالحَدّ، وفي الآخرة بالعذابِ، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: فَرُدُّوا الأمورَ إليه تَرْشُدُوا.

[٤٨٦٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمونُ أبو محمد المَرَئِيُّ، حدثنا محمد ابن عَبَّاد المخزوميّ، عن ثَوبانَ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا تُؤذُوا عبادَ الله ولا تُعيِّروهم، ولا تطلبُوا عَوْرَاتِهم، فإنه مَن طَلَب عورَة أخِيه المسلم طَلَب الله عَوْرَته، حتى يفضحَه في بَيتِه»[٣].

(١) أخرجه البخاري ٦٤٧٨ من حديث أبي هريرة ولفظه «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم». وأخرجه مسلم ٢٩٨٨ من حديث أبي هريرة بلفظ «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» وانظر ما يأتي في تفسير سورة الحجرات آية ٢ وسورة ق آية: ١٨.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٨٤.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٩ وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٨٦: ورجاله رجال الصحيح، غير ميمون بن عطاء، وهو ثقة اهـ. بل ضعفه الفلاس، وقال أحمد: كان يدلس، وقال النسائي: ليس بالقوي. فالإسناد ضعيف.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢١﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾، أي: لولا هذا لكانَ أمرٌ آخرُ، ولكنه تعالى رؤوفٌ بعبادِه، رحيمٌ بهم. فتاب على من تَاب إليه من هذه القضية، وَطهَّر من طَهَّر منهم بالحدِّ الذي أقيم عليه. ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، يعني طرائِقَه ومَسالِكه وما يأمر به، ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾: هذا تنفيرٌ وتحذيرٌ من ذلك، بأفصح العبارة وأبلغها وأوجزها وأحسَنها. قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، عَمَلَه. وقال عكرمة: نَزَغاتِه. وقال قتادةُ: كلِ معصيةٍ فهي من خُطُواتِ الشيطان. وقال أبو مِجْلَز: النذورُ في المعاصي من خطوات الشيطان. وقال مسروقٌ: سأل رجلٌ ابنَ مسعود فقال: إني حَرَّمتُ أن آكل طعاماً، وسماه. فقال: هذا من نَزَغات الشيطان، كَفر عن يمينك، وكُلْ. وقال الشعبيُّ في رجل نَذَر ذَبح ولده: هذا من نَزَغاتِ الشيطانِ، وأفتاه أن يَذْبح كبشاً.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حَسّان بن عبد الله المصري، حدثنا السَرِيُّ بن يحيى، عن سليمان التيمي، عن أبي رافع قال: غَضِبت عليَّ امرأتي فقالت: هي يوماً يهوديةٌ ويوماً نصرانيةٌ، وكل مملوك لها حر إن لم تُطلِّق امرأتك. فأتيت عبد الله بن عُمَر فقال: إنما هذه من نزغات الشيطان. وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهي يومئذ أفقهُ امرأة بالمدينة، وأتيت عاصم بنَ عُمَر، فقال مثل ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، أي: لولا هو يرزقُ مَن يشاء التوبة والرجوعَ إليه، ويُزكِّي النفوس شِركها وفُجورها ودَنسها وما فيها من أخلاق رديئة، كلٌّ بِحَسَبِهِ لَمَا حصَّلَ أحد لنفسه زكاة ولا خيراً، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ أي: مِن خَلقِهِ، ويُضِلُّ من يشاءُ ويُرديه في مَهالِك الضلال والغي. وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾، أي: سميعٌ لأقوالِ عبادِه، ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم، مَنْ يستحق منهم الهُدَى والضلالَ.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾، من الألِيَة وهي: الحَلِف، أي: لا يَحلِفُ ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾، أي: الطَّوْلِ والصدقةِ والإحسان ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾، أي: الجِدَةِ، ﴿أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لا تَحلِفُوا ألاَّ تَصِلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين. وهذه في غايةِ الترفُّق والعطف على صِلَة الأرحام، ولهذا قال: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾، أي: عما تقدَّم منهم في الإساءةِ والأذى؟ وهذا من حِلمه تعالى وكَرَمِه ولُطفِهِ بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم. وهذه الآية نزلت في الصدِّيق، حين حَلَفَ ألاَّ ينفَعَ مِسْطح بن أُثَاثَة بنافعةٍ أبداً بعد ما قال في عائشة ما قال، كما تَقَدَّم في الحديث، فلما أنزل الله براءةَ أُمِّ المؤمنين عائشة، وطابت النفوسُ المؤمنةُ واستقرَّت، وتاب الله عَلَى من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأُقِيم الحدُّ على من أقيم عليه ـ شَرَعَ تبارك وتعالى ـ وله الفَضْلُ والمِنَّةُ ـ يَعطِفُ الصدِّيق على قَريبه ونسيبه، وهو مِسطَحُ بنُ أُثَاثة، فإنه كان ابن خالة الصدِّيق، وكان مِسكيناً لا مالَ له إلا ما يُنفِقُ عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المُهاجِرين في سبيل الله، وقد زَلَقَ زَلْقَةً تاب الله عليه منها، وضُرب الحد عليها، وكان الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ معروفاً

بالمعروف، له الفضلُ والأيادي على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآيةُ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفرُ لك، وكما تصفح نصفح عنك. فعند ذلك قال الصدِّيق: بلى، والله إنا نُحِبّ ـ يا ربنا ـ أنْ تغفِرَ لنا. ثم رَجَع إلى مِسْطح ما كان يَصِلُه من النفقة، وقال: والله لا أنزِعُها منه أبداً، في مقابلة ما كانَ قال: «والله لا أنفعه بنافعةٍ أبداً». فلهذا كان الصدِّيقُ هو الصدِّيقُ، رضي الله عنه، وعن بنته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

هذا وعيدٌ من الله تعالى للذين يَرمُون المحصَنات الغافلات المؤمنات ـ خُرِّج مخرجَ الغالِب ـ، فأُمَّهات المؤمنين أولى بالدخُولِ في هذا من كلِّ مُحصَنة، ولا سيَّما التي كانت سبَب النزول، وهي عائشة بنت الصدِّيق، رضي الله عنهما. وقد أجمع العلماءُ ـ رحمهم الله ـ قاطبةً على أن من سَبَّها بعد هذا ورَماها بما رَمَاها به الذين ذُكِروا في هذه الآية، فإنه كافر، لأنه مُعانِدٌ للقرآن. وفي بقية أمهات المؤنين قولان: أصحهما أنهن كهي ـ رضي الله عنهنّ ـ والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾. وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة، فقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبد الله بن خرَاش، عن العَوّام، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، قال: نزلت في عائشة خاصة. وكذا قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان، وقد ذكره ابنُ جرير عن عائشة فقال:

[٤٨٦٩] حدثنا أحمدُ بن عَبْدَةَ الضبِّي، حدثنا أبو عَوانة، عن عُمَر بن أبي سَلَمة، عن أبيه قال: قالت عائشة: رُميتُ بما رُمِيت به وأنا غافلة، فَبلغني بعد ذلك، قالت: فبينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ جالس عندي إذ أُوحِيَ إليه، قالت: وكان إذا أُوحِيَ إليه أخذَه كهيئة السُّبات، وإنه أوحي إليه وهو جالسٌ عندي، ثم استوى جالساً يمسح على وَجْهه، وقال: يا عائشةُ، أبْشِري. قالت: قلت: بحَمْد الله لا بحَمدك. فقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، حتى بلغ: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾[1]. هكذا أورده، وليس فيه أنّ الحكم خاصٌ بها، وإنما فيه أنها سَبَبُ النزولِ دونَ غيرها، وإن كان الحكم يعمُّها كغيرها. ولعله مرادُ ابن عباس ومَن قال كقوله، والله أعلم. وقال الضَّحاك، وأبو الجَوزاء، وسَلَمة بن نُبَيط: المراد بها أزواج النبيّ خاصَّة، دون غيرهنَّ من النساء.

وقال العَوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ . . . الآية. يعني أزواجَ النبي ـ ﷺ ـ، رَمَاهنَّ أهلُ النفاق، فأوجب الله لهم اللعنةَ والغضبَ، وباؤوا بِسَخط من الله، فكان ذلك في أزواج النبي ـ ﷺ ـ ثم نَزَل بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فأنزل الله الجَلد والتوبة، فالتوبة تُقبَلُ، والشهادةُ تُردُّ. وقال ابنُ جَرير: حدثنا القاسم،

---

(١) أخرجه الطبري ٢٥٨٨٢ وإسناده ضعيف لضعف عمر بن أبي سلمة. وله شاهد صحيح بغير هذا السياق.

حدثنا الحُسَين، حدثنا هُشَيم، أخبرنا العوّام بن حَوشَب، عن شيخ من بني أسَدٍ، عن ابن عباس، قال: فَسَّر سورةَ النور، فلما أتى على هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾. . . الآية، قال: في شأن عائشةَ وأزواج النبيِّ - ﷺ - وهي مُبهمَةٌ، وليست لهم توبة، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾. . . الآية، قال: فجعل لهؤلاء توبةً، ولم يجعل لمن قَذَف أولئك توبة، قال: فَهَمَّ بعضُ القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه، من حسن ما فسر به سورة النور. فقولُه: «وهي مبهمة»، أي: عامّةٌ في تحريم قَذْفِ كُلِّ محصنة، ولَعْنته في الدنيا والآخرة. وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا في عائشةَ، ومن صنع مثلَ هذا أيضاً اليومَ في المسلماتِ فله ما قالَ الله - عزَّ وجلَّ - ولكن عائشةَ كانت إمَامَ ذلك. وقد اختار ابنُ جَرير عُمومها، وهو الصحيح.

[٤٨٧٠] ويُعَضِّد العُمُوم ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن عبد الرحمن، ابنُ أخي ابن وهب، حدثنا عَمّي، حدثنا سُليمان بن بلال، عن ثور بن زيد، عن أبي الغَيث، عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله - ﷺ - قال: «اجتنبوا السبعَ الموبقاتِ. قيل: يا رسولَ الله وما هُنّ؟ قال: الشركُ بالله، والسحرُ، وقتلُ النفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ، وأكلُ الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحفِ، وقذفُ المحصنات الغافلات المؤمنات»[١]. أخرجاه في الصَّحِيحَين، من حديث سليمان بن بلال، به.

[٤٨٧١] وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عَمْرو بن خالد الحَذّاء الحراني، حدثني أبي، (ح) وحدثنا أبو شُعَيب الحَرّاني، حدثنا جَدّي أحمد بن أبي شُعَيب، حدثنا موسى بن أعينَ، عن ليثٍ، عن أبي إسحاقَ، عن صِلَةَ بن زُفَرَ، عن حُذَيفةَ، عن النبيِّ - ﷺ - قال: «قذفُ المحصنةِ يَهدِم عملَ مئةِ سنة»[٢]. وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو يحيى الرازيُّ، عن عَمرو بن أبي قيس، عن مُطَرِّف، عن المِنهال، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: إنهم - يعني المشركين - إذا رَأوا أنه لا يدخُل الجنةَ إلا أهلُ الصلاة قالوا: تعالوا حتى نجحَدَ. فيجحَدُون فيختم على أفواههم، وتشهدُ أيديهم وأرجلُهم، ولا يكتمونَ الله حديثاً.

[٤٨٧٢] وقال ابن جرير، وابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا يونُس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن دَرّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ، عن رسولِ الله - ﷺ - قال: «إذا كان يومُ القيامة عُرفَ الكافر بعمله، فَجَحَد وخاصَمَ، فيُقال له: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك. فيقول: كَذَبوا. فيقول: أهلك وعشيرتك؟ فيقول: كَذَبوا، فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يُصْمِتهم وتَشْهَد عليهم أيديهم وألسنتُهم، ثم يُدخِلُهم النار»[٣].

[٤٨٧٣] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبو شيبةَ إبراهيمُ بن عبد الله بن أبي شيبةَ الكوفيّ، حدثنا مِنجَابُ بن الحارث التَّميمي، حدثنا أبو عامر الأسَدِيّ، حدثنا سفيان، عن عُبَيد المُكْتِب، عن فُضَيل بن

---

(١) تقدم في تفسير آية ١٠ من سورة النساء.

(٢) إسناده ضعيف، أخرجه الطبري في «الكبير» ٣٠٢٣ والبزار ١٠٥، فيه ليث، وهو ابن أبي سُليم، وهو ضعيف، روى مناكير كثيرة.

(٣) إسناده ضعيف. أخرجه أبو يعلى ١٣٩٢ والطبري ٢٥٨٨٨، قال الهيثمي في «المجمع» ١٨٣٩٨: إسناده حسن على ضعف فيه! بل هو ضعيف، فإنه عند أبي يعلى له علتان ضعف ابن لهيعة ودراج في روايته عن أبي الهيثم، وقد توبع ابن لهيعة عند الطبري، فالعلة فيه دراج فحسب، والله أعلم. وانظر ما بعده.

عمرو الفُقَيمي، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: كُنَّا عند النبي ـ ﷺ ـ فَضحِك حتى بدت نَوَاجذُه، ثم قال: تدرون مِمَّ أضحك؟ قلنا: الله ورسولُه أعلم. قال: من مجادلة العبدِ ربَّه يوم القيامة، يقول: يا ربِّ، ألم تُجرني من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: لا أُجيزُ عليَّ شاهداً إلا من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام عليك شهوداً. فَيُختم علي فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فَتَنطق بعَمَلِه، ثم يُخَلّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسُحقاً، فعنكُنَّ كنتُ أناضل[1]. وقد رواه مسلم والنسائي جَميعاً، عن أبي بكر بن أبي النَّضر، عن أبيه، عن عُبَيد الله الأشجعي، عن سُفيانَ الثَّوري، به، ثم قال النَّسائي: لا أعلم أحداً روى هذا الحديث عن سُفيانَ الثوريِّ غيرُ الأشجَعِيّ، وهو حديثٌ غريبٌ، والله أعلم. هكذا قال. وقال قتادةُ: ابن آدَم، والله إنَّ عليك لَشُهوداً غير مُتَّهمَةٍ من بَدَنِكَ، فراقبهم واتق الله في سَرَائِرِكَ وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظُّلْمَة عنده ضوء، والسِرُّ عنده علانيةٌ. فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعلِ، ولا قوة إلا بالله.

وقولُه تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ قال ابن عباس: ﴿دِينَهُمُ﴾، أي: حِسَابهم، وكلُّ ما في القرآن ﴿دِينَهُمُ﴾، أي: حِسَابهم. وكذا قال غيرُ واحدٍ. ثم إن قراءة الجُمهور بنصب ﴿ٱلْحَقَّ﴾، على أنه صِفَةٌ لِدِينهم، وقَرَأَ مجاهدٌ بالرفعِ، على أنه نَعْتِ الجَلالَةِ. وقرأها بعضُ السلف في مُصحَفِ أبيِّ بن كعب: «يومئذٍ يوفيهم الله الحقُّ دينَهم». وقولُه: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: وعدُه ووعيدُه وحسابُه هو العدلُ، الذي لا جَوْرَ فِيهِ.

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

قال ابنُ عباس: الخبيثاتُ من القولِ للخبيثين من الرجَالِ. والخَبيثُون من الرجال للخَبيثاتِ من القول. والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبُونَ من الرجال للطيباتِ من القَولِ. قال: ونزلَت في عائشةَ وأهلِ الإفْكِ. وهكذا رُوِيَ عن مجاهدٍ، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، والشَعبي، والحسن بن أبي الحَسن البصريِّ، وحَبيب بن أبي ثابت، والضحَّاكِ. واختاره ابنُ جرير، ووجَّههُ بأن الكلامَ القبيحَ أولى بأهل القبح من الناس، والكلامَ الطيبَ أولى بالطيِّبين من الناس، فما نَسَبه أهلُ النفاق إلى عائشةَ من كلام هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهةِ منهم. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾. وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: الخبيثاتُ من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثُون من الرجال للخبيثاتِ من النساء، والطيِّباتُ من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيِّباتِ من النساء. وهذا أيضاً يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم، أي: ما كان الله ليجعلَ عائشةَ زوجةً لرسولِ الله ـ ﷺ ـ إلا وهي طَيِّبة؛ لأنه أطيبُ من كلِّ طيِّبٍ من البشر، ولو كانت خبيثةً لما صَلَحت له، لا شرعاً ولا قَدَراً، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هم بُعَداءُ عمَّا يقوله أهل الإفك والعُدوان، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: بِسَببِ ما قيلَ فيهم من الكَذِبِ، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: عند الله في جَنَّاتِ النعيم. وفيه وعدٌ بأن تكونَ زوجةَ النبيِّ ﷺ في الجنة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا عبد السلام بن حَرب، عن يزيدَ ابن عبد الرحمن، عن الحَكَم. عن يحيى بن الجَزَّار قال: جاء أُسَيرُ بن جابر إلى عبد الله فقال: لقد سَمِعت

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٦٩ والنسائي في «الكبرى» ١١٦٥٣ وأبو يعلى ٣٩٧٧ وابن حبان ٧٣٥٨.

الوليدَ بن عُقْبَةَ اليوم تكلَّم بكلام أعجبني، فقال عبد الله: إن الرجل المؤمن يكون في قلبه الكلمةُ غيرُ الطيِّبة تَتَجلجلُ في صدره ما تستقر حتى يلفظها، فيسمَعُها رجل عنده يَتُلُها فَيَضُمّها إليه. وإن الرجل الفاجرَ يكونُ في قلبه الكلمةُ الطيبة تتجلجل في صدره ما تستقر حتى يلفظها، فيسمَعُها الرجل الذي عنده يَتُلُها فيضمّها إليه، ثم قرأ عبد الله: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ الآية.

[٤٨٧٤] ويُشبه هذا ما رواه الإمامُ أحمدُ في المسند مرفوعاً: «مثلُ الذي يَسمَعُ الحكمة ثم لا يُحدثُ إلا بشرِّ ما سَمِع، كمثل رجل جاء إلى صاحب غَنَم فقال: أجزرْني شاةً. فقال: اذهب فَخُذ بِأُذُنِ أيها شئتَ. فذهب فأخذ بأذن كَلْب الغنم»(١).

[٤٨٧٥] وفي الحديث الآخر: «الحكمة ضالة المؤمن، حيثُ وجَدها أخذها»(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

هذه آدابٌ شرعية، أَدَّب الله بها عبادَه المؤمنين، وذلك في الاستئذان، أَمَر الله المؤمنين ألاَّ يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي: يستأذنوا قبلَ الدخول، ويسلِّموا بعده. وينبغي أن يستأذن ثلاثاً، فإن أُذِن له وإلا انصرف.

[٤٨٧٦] كما ثبت في الصحيح: أن أبا موسى حين استأذن على عُمَر ثلاثاً، فلم يُؤذَن له، انصرف. ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قَيس يستأذن؟ ائذنُوا له. فطلبوه فَوجَدُوه قد ذَهَب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رَجَعَك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذَن لي، وإني سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إذا استأذن أحدُكم ثلاثاً، فلم يُؤذَن له، فَلْينصرِف». فقال: لَتَأتيَنّ على هذا ببينة وإلا أوجعتُك ضرباً. فذهب إلى مَلأ من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهَدُ لك إلا أصغَرُنا. فقام معه أبو سعيد الخُدرِيّ فأخبر عُمَر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصَّفق بالأسواق(٣).

[٤٨٧٧] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمَرٌ، عن ثابت، عن أَنس ـ أو غيره ـ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ استأذن على سعد بن عُبَادة فقال: السلامُ عليكَ ورحمةُ الله. فقال سعدٌ: وعليكَ السلامُ ورحمةُ الله، ولم يسمَع النبي ـ ﷺ ـ حتى سَلَّم ثلاثاً، وردَّ عليه سعد ثلاثاً ولم يُسْمِعه. فَرَجع النبيُّ ـ ﷺ ـ فاتَّبعه سعد فقال: يا رسولَ الله، بأبي أنتَ وأُمِّي ما سَلَّمتَ تسليمةً إلا وَهِي بأذني، ولقد رَدَدْتُ عليكَ ولم أسمِعْكَ، وأردتُ أن أستكثر من سَلاَمك ومن البَرَكة. ثم أدخله البيت. فقرَّبَ إليه زَبيباً، فأكل نبيُّ الله، فلما

---

(١) ضعيف. أخرجه ابن ماجه ٤١٧٢ وأحمد ٢/ ٣٥٣ و٥٠٨ والطيالسي ٩٠ وأبو يعلى ٦٣٨٨ من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف، لضعف علي بن زيد بن جدعان، قاله البوصيري في «الزوائد».

(٢) ضعيف. أخرجه القضاعي ١٤٦ عن زيد بن أسلم مرسلاً. وأخرجه الترمذي ٢٦٨٧ وابن ماجه ٤١٦٩ وابن الجوزي في «العلل» ١١٤ من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المخزومي ضعيف في الحديث. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح. قال يحيى: إبراهيم ليس حديثه بشيء.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٢٠٦٣ ومسلم ٢١٥٣ وأبو داود ٥١٨١ وأحمد ٣٩٨ و٤٠٠ وابن حبان ٥٨٠٧.

فَرَغ قال: «أكل طعامَكُم الأبرار، وصَلَّت عليكم الملائكة، وأفطر عندكُم الصائمون»[١] .

[٤٨٧٨] وقد رَوَى أبو داودَ والنَّسائي، من حديث أبي عمرو الأوزاعي: سَمِعتُ يحيى بن أبي كثير يقول: حَدَّثني محمد بن عبد الرحمن بن أسْعَد بن زُرَارة، عن قيس بن سعدٍ ـ هو ابن عُبَادَةَ ـ قال: زارَنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ في منزلنا، فقال: السلامُ عليكُم ورحمةُ الله. فردّ سعدٌ رداً خفيفاً، قال قيس: فقلتُ: ألا تأذنُ لرسول الله ﷺ؟ فقال: ذَرْه يُكثِرُ علينا من السلام. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: السلامُ عليكم ورحمةُ الله. فرد سعدٌ رَداً خفيفاً. ثم قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: السلامُ عليكم ورحمةُ الله. ثم رَجَع رسول الله ـ ﷺ ـ واتبعَهُ سعد فقال: يا رسولَ الله، إني كنتُ أسمَعُ تسليمَكَ، وأردُّ عليكَ رداً خفياً، لتكثر علينا من السلام. قال: فانصرف معه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فأمر له سعدٌ بِغُسلٍ، فاغتسل، ثم ناوله مِلْحَفَةً مصبوغةً بزعفرانٍ ـ أو: وَرْسٍ[٢] ـ فاشتمل بها، ثم رفع رسولُ الله ـ ﷺ ـ يديه وهو يقول: اللهمَّ اجعل صلاتَك ورحمتَك على آل سعدِ بن عُبَادة. قال: ثم أصابَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ من الطعام، فلما أراد الانصراف قَرَّب إليه سعدٌ حماراً قد وَطَّأ عليه بقطيفة، فركب رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال سعد: يا قيس، اصحَبْ رسولَ الله ﷺ. قال قيسٌ: فقال لي رسولُ الله ـ ﷺ ـ: اركب. فأبيتُ، فقال: إما أن تركب وإما أن تَنصرِفَ. قال: فانصرفت[٣] . وقد رُوي هذا من وجوهٍ أخَرَ، فهو حديثٌ جيدٌ قويٌّ، والله أعلم.

ثُم ليُعْلَم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل ألاَّ يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليَكن البابُ عن يمينه أو يساره.

[٤٨٧٩] لما رواه أبو داودَ: حَدّثنا مُؤمل بن الفضل الحَرّاني ـ في آخرين ـ قالوا: حدثنا بقيَّةُ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن بُسْر قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا أتَى باب قَوم لم يستقبل الباب من تِلقاءِ وَجْهه، ولكن من رُكنه الأيمنِ أو الأيسرِ، ويقول: السلام عليكُم، السلامُ عليكُمْ. وذلك أن الدُورَ لم يكُن عليها يومئذٍ ستورٌ[٤] . تَفَرّد به أبو داود.

[٤٨٨٠] وقال أبو داودَ أيضاً: حدثنا عُثمانُ بن أبي شَيبة، حدثنا جَرير ـ(ح) ـ قال أبو داودَ: وحدثنا أبو بكر بن أبي شَيبة، حدثنا حَفصٌ، عن الأعمش، عن طلحةَ، عن هُزَيل قال: جاء رجلٌ ـ قال عثمان: سعد ـ فوقفَ على بابِ النبي ـ ﷺ ـ يستأذن، فقام على الباب ـ قال عثمان: مُستقبِلَ الباب ـ فقال له النبي ـ ﷺ ـ: هكذا عنك، أو: هكذا، فإنما الاستئذانُ من النَّظرِ[٥] . وقد رَوَاه أبو داودَ الحَفَرِيُّ، عن سُفيانَ الثَّورِيِّ، عن

---

(١) جيد. أخرجه أحمد ٣/ ١٣٨ والبزار ٢٠٠٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٣٤: ورجالهما رجال الصحيح. وأخرج أبو داود ٣٨٥٤ وأبو يعلى ٤٣١٠ عجزه فقط.

(٢) نبت أصفر باليمن، تتخذ منه الغمرة للوجه. وورَّس الثوب: صبغه به.

(٣) أخرجه أبو داود ٥١٨٥ والنسائي في «الكبرى» ١٠١٥٧ وقال أبو داود: رواه عمر بن عبد الواحد، وابن سماعة عن الأوزاعي مرسلاً، ولم يذكرا قيس بن سعد. قلت: رجال الموصول ثقات، وهو صحيح إن كان محمدٌ سمعه من قيس بن سعد. وذكره الألباني في «ضعيف أبي داود» ١١٠٥، وبكل حال يشهد لأصله ما بعده، وهو بهذا السياق المطول فيه غرابة. ولعل الألباني لم يقف على رواية أحمد المتقدمة، فإن إسنادها على شرط الشيخين.

(٤) أخرجه أبو داود ٥١٨٦ وإسناده ضعيف لضعف رواية بقية عن محمد بن عبد الرحمن اليحصبي، وبقية وإن صرح بالتحديث، فلا يبعد أن يكون أسقط شيخ شيخه، فإنه يدلس التسوية.

(٥) أخرجه أبو داود ٥١٧٤ وهذا مرسل، هزيل تابعي كبير، وهو ثقة، وكرره أبو داود موصولاً وفيه راوٍ لم يسم، وهو في صحيح أبي داود ٤٣١٠ ولعله لشواهده.

الأعمشِ، عن طلحةَ بن مُصَرِّفٍ، عن رجل، عن سعد، عن النبي ﷺ. رَوَاهُ أبو داود من حَدِيثه.

[٤٨٨١] وفي الصحيحَين عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لو أنَّ أمراً اطَّلَعَ عليكَ بغير إذنٍ فَحَذَفْتَه بحصاةٍ، ففقأتَ عينَه، ما كان عليك من جُناح»[١].

[٤٨٨٢] وأخرجَ الجماعةُ من حديث شُعبةَ، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: أتيتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ في دَين كان على أبي فدققتُ البابَ، فقال: مَن ذا؟ قلتُ: أنا. قال: أنا، أنا. كأنَّه كَرِهه[٢]. وإنما كَرِه ذلك لأن هذه اللفظَةَ لا يُعرَف صاحبُها حتى يُفصِحَ باسمِه أو كُنيته التي هو مشهورٌ بها، وإلاَّ فكل أحد يُعبّر عن نفسِه «أنا» فلا يَحصُل بها المقصودُ من الاستئذان، الذي هو الاستئناسُ المأمورُ به في الآية. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: الاستئناس: الاستئذانُ. وكذا قال غيرُ واحد.

وقال ابنُ جَرِير: حدثنا ابن بَشّار، حدثنا محمد بن جَعفر، حدثنا شعبةُ، عن أبي بشر، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾، قال: إنما هي خطأ من الكاتب، «حتى تستأذنوا وتسلموا». وهكذا رواه هُشَيم، عن أبي بشر ـ وهو جعفرُ بن إياسٍ ـ به. وروى معاذ بن سليمان، عن جعفر بن إياس، عن سعيد، عن ابن عباس، بمثله، وزاد: وكان ابن عباس يقرأ: «حتى تستأذنوا وتسلموا»، وكان يقرأ على قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه. وهذا غريب جداً عن ابن عباس. وقال هُشَيم: أخبرنا مغيرة، عن إبراهيم قال: في مصحف ابن مسعود: «حتى تُسَلِّموا على أهلها وتستأذنوا». وهذا أيضاً رواية عن ابن عباس، وهو اختيارُ ابنِ جَرِيرٍ.

[٤٨٨٣] وقد قال الإمام أحمد: حدثنا رَوحٌ، حدثنا ابن جُرَيج، أخبرني عَمرو بن أبي سفيان، أن عمرو بن عبد الله بن صفوان أخبره، أن كَلَدَةَ بن الحَنْبَلِ أخبَرَه، أن صَفوان بن أُميّةَ بعثَه في الفتح بِلِبَأٍ وجَدَايَةٍ وضَغَابِيسَ. والنبي ـ ﷺ ـ بأعلى الوادي، قال: فدخلتُ عليه ولم أُسَلِّم ولم أستأذن، فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: ارجع فقل: السلامُ عليكُم، أأدخل؟ وذَلِكم بعدما أسلَم صفوانُ[٣]. ورواه أبو داودَ والترمذيُّ والنسائي من حديث ابن جُرَيج، به، وقال الترمذي: حَسَنٌ غريب، لا نَعرِفُه إلا من حديثه.

[٤٨٨٤] وقال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو الأحوَص، عن منصور، عن رِبْعِيّ قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذَن على النبي ـ ﷺ ـ وهو في بيته، فقال: أألِجُ؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ لخادمه: اخرج إلى هذا فَعَلِّمه الاستئذان، فقل له: قل السلام عليكم، أأدخلُ؟ فَسَمِعه الرجلُ فقال: السلامُ عليكُم، أأدخل؟ فأذن له النبي ـ ﷺ ـ فدخل[٤].

[٤٨٨٥] وقال هُشَيم: أخبرنا منصور، عن ـ ابن سِيرينَ ـ وأخبرنا يونس بن عُبَيد، عن عَمرو بن سعيد الثقفي: أنَّ رجلاً استأذن على النبي ـ ﷺ ـ فقال: أألِج ـ أو: أَنَلِجُ؟ ـ فقال النبي ـ ﷺ ـ لأمةٍ له، يُقَال لها

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٩٠٢ ومسلم ٢١٥٨ والنسائي ٨/ ٦١ وأحمد ٢/ ٢٤٣ وابن حبان ٦٠٠٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٥٠ ومسلم ٢١٥٥ وأبو داود ٥١٨٧ والترمذي ٢٧١١ والنسائي في «اليوم والليلة» ٣٢٨ وابن ماجه ٣٧٠٩ وأحمد ٣/ ٣٢٠ و٣٦٣ وابن حبان ٥٨٠٨.

(٣) جيد. أخرجه أبو داود ٥١٧٦ والترمذي ٢٧١٠ والنسائي في «الكبرى» ٦٧٣٥ و١٠١٤٧ وأحمد ٣/ ٤١٤ وإسناده حسن صحيح. والجداية: الصغيرة من الظباء. والضغابيس: صغار القثاء.

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود ٥١٧٧ وإسناده صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر.

روضةُ: قُومِي إلى هذا فَعَلِّمِيه، فإنه لا يُحسِنُ يستأذنُ، فقولي له يقول: السلام عليكم، أأدخل؟ فَسَمِعها الرجل، فقالها، فقال: ادخلْ[١].

[٤٨٨٦] وقال الترمذيُّ: حَدَّثنا الفضلُ بن الصبَّاح، حدثنا سعيدُ بن زكريا، عن عَنْبَسَةَ بن عبد الرحمن، عن محمد بن زاذان، عن محمد بن المُنْكَدِرِ، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: السلامُ قبل الكلام»[٢]. ثم قال الترمذيُّ: عنبسةُ ضعيفُ الحديثِ ذاهِبٌ، ومحمد بن زاذان مُنكر الحديث.

وقال هُشَيم: قال مُغيرة: قال مجاهدٍ: جاء ابنُ عُمَر من حاجةٍ، وقد آذاه الرمضاء، فأتى فُسطاطَ امرأةٍ من قُريش، فقال: السلامُ عليكم، أأدخلُ؟ قالت: ادخُل بِسَلام. فأعاد، فأعادت، وهو يُراوح بين قَدَميه، قال: قُولِي: ادخُلْ. قالت: ادخُلْ. فدخَلَ. وقال ابن أبي حاتِم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو نعيم الأحوَلُ، حدثنا خالدُ بن إياس، حدثتني جَدَّتي أمُّ إياس قالت: كنتُ في أربع نِسْوةٍ نستأذنُ على عائِشَةَ، فقلن: ندخُل؟ قالت: لا، قُلن لصاحِبَتِكُنَّ: تستأذن. فقالت: السلامُ عليكم، أندخلُ؟ قالت: ادخلُوا، ثم قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ الآية. وقال هُشَيم: أخبرنا أشعثُ بن سَوَّار، عن كُردُوس، عن ابن مسعود قال: عليكم أن تَستأذنوا على أمهاتكم وأَخَواتكم.

[٤٨٨٧] قال أشعث، عن عدي بن ثابت: إنَّ امرأة من الأنصار قالت: يا رسولَ الله، إني أكونُ في منزلي على الحال التي لا أُحِبُّ أن يراني أحدٌ عليها والد ولا وَلَد، وإنه لا يزالُ يدخلُ عليَّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال؟ قال: فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[٣].

وقال ابن جُرَيج: سمعتُ عطاءَ بن أبي رباح يُخبِر عن ابن عباس ـ رَضِي الله عنه ـ قال: ثلاثُ آياتٍ جَحَدهن الناس: قال الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، قال: ويقولُون: إن أكرمَهُم عند الله أعظمهم بيتاً. قال: والإذنُ كُلُّهُ قد جَحَده الناس. قال: قلت: استأذن على أخَواتي أيتام في حجري مَعِي في بيتٍ واحدٍ؟ قال: نعم. فَرَدَدتُ لِيُرخِّصَ لي فأبى، قال: تحب أن تَرَاها عُريانة؟ قلت: لا. قال: فاستأذِنْ. قال: فراجعتهُ أيضاً، فقال: أتحِبُ أن تطيع الله؟ قلتُ: نعم. قال: فاستأذِنْ. قال ابنُ جُرَيج: وأخبرني ابن طاووس، عن أبيه قال: ما من امرأة أكرَهُ إليَّ أن أرى عُرْيَتَها من ذاتِ محرم. قال: وكان يُشَدِّد في ذلك. وقال ابن جُرَيج، عن الزهريِّ: سمعتُ هُزَيل بن شُرَحبيل الأَوْدِيَّ الأعمى أنه سَمِع ابن مسعودٍ يقول: عليكم الإذنَ على أمهاتكم. وقال ابن جُرَيج: قلت لعطاء: أيستأذن الرجلُ على امرأته؟ قال: لا. وهذا محمولٌ على عَدَم الوجوب، وإلا فالأولى أن يُعلِمَها بدخُوله ولا يُفَاجِئَها به، لاحتمال أن تكونَ على هيئةٍ لا تُحبُّ أن يَرَاها عليها. وقال أبو جعفر بن جَرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحُسَين، حدثنا محمد بن حازم، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّةَ، عن يحيى بن الجَزَّار، عن ابن أخي زَينَب ـ امرأةِ عبد الله بن

---

(١) أخرجه الطبري ٢٥٩١٧ تعليقاً وهو مرسل، لكن يعتضد بما قبله.

(٢) ضعيف جداً، أخرجه الترمذي ٢٦٩٩ وأبو يعلى ٢٠٥٩ وابن عدي ٦/ ٢٠٤ من حديث جابر، وإسناده ضعيف جداً، قال الترمذي: هذا حديث منكر، وسمعت البخاري يقول: عنبسة بن عبد الرحمن، ضعيف الحديث، ذاهب. ومحمد بن زاذان، منكر الحديث. وأورده الديلمي في الفردوس ٣٥٣٧ لكن جعله من حديث جابر وابن عمر معاً. وضعفه السيوطي في «الجامع» كما في «فيض القدير» ٤٨٤٢.

(٣) أخرجه الطبراني ٢٥٩٢١ وإسناده ضعيف لضعف أشعث بن سوار، وهو مرسل.

مسعودٍ ـ عن زينبَ ـ رَضِي الله عنها ـ قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجةٍ فانتهى إلى البابِ، تَنحنحَ وبزَق، كراهيةَ أن يَهجُمَ منا على أمْرٍ يكرَهُه، إسناده صحيح[١]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان الواسطي، حدثنا عبد الله بن نُمَير، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مُرّة، عن أبي عبيدة قال: كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس، تكلم ورفع صوته. وقال مجاهد: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾، قال: تَنحنَحوا، وتَنخَّموا. وعن الإمام أحمدَ بنِ حَنبل ـ رحمه الله ـ أنه قال: إذا دَخَل الرجلُ بيته استُحِبَّ له أن يَتنحنَحَ، أو يُحرِّكَ نعليه.

[٤٨٨٨] ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ: أنه نَهَى أن يَطرُقَ الرجلُ أهلَه طُرُوقاً. وفي رواية: ليلاً يَتخوّنهم[٢].

[٤٨٨٩] وفي الحديث الآخر: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قدِم المدينة نهاراً، فأناخَ بظاهِرِها، وقال: انتظرُوا حتى تدخُلَ عِشَاءً ـ يعني آخرَ النهار ـ حتى تمتشِطَ الشعثَة وتَستحِد المغيبة[٣].

[٤٨٩٠] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبةَ، حدثنا عبد الرحيم بن سُلَيمان، عن واصل بن السائب، حدثني أبو سَوْرَة ابن أخي أبي أيُّوبَ، عن أبي أيُّوب قال: قلتُ: يا رسولَ الله، هذا السلام، فما الاستئناسُ، قال: يتكلَّم الرجل بِتَسبيحةٍ أو تَكبيرةٍ أو تَحميدةٍ، ويتنحنَحُ فيُؤذِنُ أهلَ البيتِ[٤].

هذا حديث غريب. وقال قتادةُ في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾، قال: هو الاستئذانُ ثلاثاً، فمن لم يُؤذَن له فيهنّ فَلْيرجِعْ، أما الأولى فَليستَمِعَ الحي، وأمَّا الثانية فَليأخذُوا حِذْرَهم، وأما الثالثةُ فإن شاؤوا أذِنُوا وإن شاؤوا رَدُّوا. ولا تَقِفَنَّ على باب قوم رَدُّوكَ عن بَابِهم، فإنَّ للناسِ حاجاتٍ ولهم أشغالٌ، والله أولى بالعُذرِ. وقال مُقَاتل بن حَيَّان في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾: كان الرجل في الجاهلية إذا لَقِي صاحِبَه لا يُسَلِّم عليه، ويقول: حُيِّيت صباحاً وحُيِّيت مساءً، وكان ذلك تحيةَ القوم بينهم، وكان أحدُهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذنُ حتى يقتحمَ، ويقول: قد دخلتُ نحو ذلك. فَيشُقُّ ذلك على الرجل، ولعله يكونُ مع أهلِه، فغيَّر الله ذلك كُلَّه، في سَتْرٍ وعِفَّةٍ، وجعله نَقِياً نَزِهاً من الدنس والقَذَرِ والدَرَنِ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾. وهذا الذي قاله مقاتل: حَسَن. ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، يعني الاستئذانَ خيرٌ لكم، بمعنى هو خيرٌ للطرفين: للمستأذِنِ ولأهل البيت، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، وذلك لما فيه من التصرُّف في ملك الغير بغير إذنه، فإن شاء أذِن، وإن شاء لم يأذن، ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾، أي: إذا رَدُّوكم من الباب قبلَ الإذْنِ أو بعدَه، ﴿فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾، أي: رُجُوعكم أزكى لكم وأطهر، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وقال قتادةُ: قال بعضُ المهاجرين: لقد طلبتُ عُمْري كُلَّه هذه الآيةَ فما أدركتُها: أن استأذِنَ على بعضِ إخواني، فيقول لي: «ارجع». فأرجعُ وأنا مغتبط: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾، لا تقفوا على أبواب الناس.

---

(١) بل فيه راو لم يسم، فالإسناد ضعيف.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٤٣ ومسلم ص ١٥٢٨ ح ١٨٤ و١٨٥ وأبو داود ٢٧٧٦ وأحمد ٣/ ٢٩٩ وابن حبان ٤١٨٢.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٥٠٧٩ ومسلم ٧١٥ وأحمد ٣/ ٣٠٣ وأبو يعلى ١٨٥٠ من حديث جابر مطوّلاً.

(٤) ضعيف جداً. ذكره الحافظ في «الفتح» ١١/ ٨ وقال: أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف. قلت: بل ضعيف جداً، واصل بن السائب متروك الحديث، وشيخه أبو سورة قال البخاري: عنده مناكير اهـ والخبر شبه موضوع.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد، إذا كان له متاع فيها، بغير إذن، كالبيت المعد للضيف، إذ أُذِن له فيه أول مرّةٍ كَفَى. قال ابنُ جُرَيج: قال ابن عباس: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾، ثم نُسخ واستُثني فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾. وكذا روي عن عكرمة، والحسن البصري. وقال آخرون؛ هي بيوت التجار، كالخانات ومنازل الأسفار، وبيوتُ مكة، وغير ذلك. واختار ذلك ابن جرير، وحكاه عن جماعة. والأول أظهرُ، والله أعلم. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هي بيوت الشِّعْرِ.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يَغضُوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يَغضُوا أبصارَهم عن المحارِمِ، فإن اتفق أن وَقَع البصرُ على مُحرّم من غير قصدٍ فَلْيصرف بَصَرَه عنه سريعاً.

[٤٨٩١] كما رَوَاه مسلِمٌ في صحيحه، من حديث يونُسَ بن عُبَيد، عن عَمرو بن سعيد، عن أبي زُرعة بن عَمرو بن جَرير، عن جَدِّه جَرير بن عبد الله البَجَليِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: سألتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ عن نَظْرَةِ الفَجْأَةِ، فأمرني أن أصرفَ بَصَري[1]. وكذا رواه الإمام أحمد، عن هُشَيم، عن يُونُسَ بن عُبَيد، به. ورواه أبو داود والترمذيّ والنسائيّ، من حديثه أيضاً، وقال الترمذيّ: «حَسَن صحيحٌ». وفي رواية لبعضهم: «قال: أطرِقْ بَصَرَكَ»، يعني: انظر إلى الأرض. والصرفُ أعمُّ، فإنه قد يكون إلى الأرض، وإلى جهة أخرى، والله أعلَم.

[٤٨٩٢] وقال أبو داود: حدثنا إسماعيلُ بن موسى الفَزارِيُّ، حدثنا شَريك، عن أبي رَبيعةَ الإِيادِيِّ، عن عبد الله بن بُرَيدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لعليٍّ: «يا عليُّ، لا تُتبع النظرةَ النظرةَ؛ فإنَّ لَكَ الأولى، وليس لك الآخرة». ورواه الترمذيّ من حديث شَريك، وقال: غَرِيبٌ، لا نعرفُه إلا من حديثه[2].

[٤٨٩٣] وفي الصحيح عن أبي سَعيدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إيَّاكُم والجلوسَ على الطُّرُقاتِ. قالوا: يا رسولَ الله، لا بدَّ لنا من مجالسنا، نَتَحدَّثُ فيها. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إن أبيتم فأعطُوا الطريقَ حقَّه. قالوا: وما حَقُّ الطريق يا رسولَ الله؟ قال: غَضُّ البَصَر وكفُّ الأذَى، ورَد السلامِ، والأمر بالمعروفِ، والنهيُ عن المنكرِ[3].

[٤٨٩٤] وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا فَضَّال بن جُبَير، سمعت أبا أمامة يقول: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «اكفُلُوا لي بست أكفلْ لَكم بالجنةِ: إذا حَدَّث أحدُكم فلا يكذب،

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢١٥٩ وأبو داود ٢١٤٨ والترمذي ٢٧٧٦ وأحمد ٤/ ٣٥٨ و٣٦١ وابن حبان ٥٥٧١.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٢١٤٩ والترمذي ٢٧٧٧ وأحمد ٥/ ٣٥١ و٣٥٧ وصححه الحاكم ٢/ ١٩٤ على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، قال الترمذي: حسن غريب. وفي الباب من حديث علي عند أحمد ١/ ١٥٩ والدارمي ١٩٨٢ وابن حبان ٥٥٧٠ وإسناده ضعيف.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٢٩ وأحمد ٣/ ٣٦ وابن حبان ٥٩٥.

وإذا ائتُمنَ فلا يَخُن، وإذا وَعَد فلا يُخلِفَ، وغُضُّوا أبصاركم، وكُفُّوا أيديكم، واحفَظُوا فُروجَكُم»[١].

[٤٨٩٥] وفي صحيح البخاري: «من تكفَّل لي ما بين لَحْيَيه وَما بين رِجلَيه أكفل له الجنةَ»[٢].

وقال عبد الرزّاق: أنبأنا مَعْمَرٌ، عن أيوبَ، عن ابن سِيرينَ، عن عَبِيدَةَ قال: كُلُّ ما عُصِيَ الله به فهو كَبِيرةٌ. وقد ذكر الطَّرَفين فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾. ولما كان النظرُ داعيةً إلى فسادِ القلب، كما قال بعض السَلَفِ: النظرُ سِهَامُ سمٍّ إلى القلبِ. ولذلك أمر الله بحفظ الفُروج كما أمر بحفظِ الأبصارِ التي هي بواعثُ إلى ذلك، فقال: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾. وحِفظُ الفَرج تارةً يكون بِمَنْعِه من الزنَا، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٦]، وتارةً يكونُ بحفظه من النظرِ إليه، كما جاء في الحديث في المُسنَدِ والسنَنِ:

[٤٨٩٦] «احفظ عَوْرَتك، إلاّ من زَوجتِكَ أو ما مَلَكَتْ يَمينكَ»[٣]. ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾، أي: أطهرُ لقلوبهم وأنقى لدينِهم، كما قيلَ: من حَفِظ بصرَه أورَثَه الله نوراً في بَصِيرته. ويُروَى: في قلبه.

[٤٨٩٧] وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عتّابٌ، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عُبَيد الله بن زَحْر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما من مُسلِم ينظرُ إلى محاسِنِ امرأةٍ ثم يَغُضُّ بَصَره إلا أخلَفَ الله له عبادةً يَجِدُ حَلاَوَتها»[٤]. ورُوي هذا مرفوعاً عن ابن عُمَر، وحُذَيفة، وعائِشَة رَضِيَ الله عنهم. ولكن في أسانيدها ضعفٍ، إلا أنها في التَّرغيب ومثلُه يُتَسامَحُ فيه.

[٤٨٩٨] وفي الطبراني من طريق عُبَيد الله بن زَحْرٍ، عن عَلّي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعاً: «لَتغضُّنَّ أبصاركم، ولتحفظُنَّ فُروجَكم، وَلَتُقِيمُنَّ وُجوهَكُم، أو لَتُكسَفَنَّ وُجوهَكُم»[٥].

[٤٨٩٩] وقال الطبراني: حدثنا أحمد زُهَير التُسْتَرِي قال: قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرِىء، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا هُرَيم بن سفيان، عن عبد الرحمن بن إسحاقَ، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود ـ رَضِي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ النظر سَهمٌ من سِهَام إبليس مَسْمُومٌ، من تَركَه مخافتي أبدلتُه إيماناً يجدُ حَلاَوَتَه في قَلْبِه»[٦]. وقولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝﴾ [غافر: ١٩].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» ٨٠١٨ و«الأوسط» ٢٥٦٠ وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٣٠١: وفيه فضال ابن الزبير، ويقال ابن جبير، وهو ضعيف اهـ لكن له شاهد.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٦٤٧٤ والترمذي ٣٤٠٨ بلفظ «من يضمن..».

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٤٠١٧ والترمذي ٢٧٦٩ وابن ماجه ١٩٢٠ وأحمد ٥/ ٣ و٤ والطحاوي في «المشكل» ١٣٨١ من حديث معاوية بن حيدة، وصححه الحاكم ٤/ ١٧٩ ـ ١٨٠ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حديث حسن. وهو كما قال. وللحديث شواهد.

(٤) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٥/ ٢٦٤ والطبراني ٧٨٤٢ من حديث أبي أمامة، وقال الهيثمي ١٢٩٤٣ «مجمع»: فيه علي بن يزيد الألهاني، متروك اهـ. لكن له شواهد كما ذكر ابن كثير، وإنما هو ضعيف بهذا الإسناد فحسب، والله أعلم وانظر الآتي بعد حديث.

(٥) أخرجه الطبراني ٧٨٤٠ وإسناده كسابقه.

(٦) إسناده ضعيف، أخرجه الطبراني ١٠٣٦٣ من حديث ابن مسعود، وأعله الهيثمي في «المجمع» ١٢٩٤٦ بعبد الرحمن بن إسحق، وأنه ضعيف اهـ وله علة أخرى: عبدُ الرحمن لم يدرك أباه ابنَ مسعود. لكن للحديث شواهد يعتضد بها.

[٤٩٠٠] وفي الصحيح، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كُتِبَ على ابن آدم حظُّه من الزنا، أدرَكَ ذلك لا محالة، فزِنا العينين النظر، وَزِنَا اللسان النطقُ، وزِنَا الأُذنين الاستماع، وَزِنَا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخُطَى، والنفس تَمَنَّى وتَشْتَهِي، والفرج يُصَدِّقُ ذلك أو يُكَذِّبه»[١]. رواه البخاري تعليقاً[٢]، ومسلم مُسنداً من وجهٍ آخَرَ، بنحو ما تقدم. وقد قال كثيرٌ من السلَفِ: إنهم كانوا ينهونَ أن يحدَّ الرجلُ بَصَره إلى الأمرد. وقد شَدَّد كَثِيرٌ من أئمةِ الصوفيةِ في ذلك، وحَرَّمه طائفةٌ من أهل العلم، لما فيه من الافتتان، وشَدَّد آخرون في ذلك كثيراً جداً.

[٤٩٠١] وقال ابنُ أبي الدنيا: حدثنا أبو سعيد المدني، حدثنا عُمَر بن سَهل المازني، حدثني عُمَر ابن محمد بن صهبان، حدثني صفوان بن سليم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «كلُّ عين باكيةٌ يومَ القيامة، إلا عيناً غَضَّت عن محارِمِ الله، وعيناً سَهِرَت في سبيل الله، وعيناً يخرُج منها مثلُ رأسِ الذباب من خشية الله عزَّ وجلَّ»[٣].

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

هذا أمرٌ من الله تعالى للنساء المؤمنات، وغَيْرَةٌ منه لأزواجهنّ عباده المؤمنين، وتمييزٌ لهنّ عن صفةِ نساءِ الجاهلية وفعال المشركات. وكان سببُ نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حَيّان قال: بلغنا ـ والله أعلم ـ أن جابر بن عبد الله الأنصاري حَدث: أن «أسماءَ بنت مُرثَدَ، كانت في محلّ لها في بَني حارثة، فجعل النساءُ يدخُلن عليها غير مُتَّزِراتٍ فيبدُو ما في أرجلهن من الخَلاخِل، وتبدو صدورهن وذَوَائِبُهُنَّ، فقالت أسماء: ما أقبح هذا! فأنزل الله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية. فقولُه تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾، أي: عما حَرّم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن. ولهذا ذهبَ كثيرٌ من العلماء إلى أنه لا يجوزُ للمرأة أن تنظر إلى الرجال الأجانب بِشهوة ولا بغير شَهوةٍ أصلاً.

[٤٩٠٢] واحتج كثير منهم بما رواه أبو داودَ والترمذي، من حديث الزُّهريِّ، عن نَبْهَان ـ مَولى أم سلمة ـ أنه حَدَّثه: أن أمّ سلمة حَدَّثته: أنها كانت عند رسولَ الله ـ ﷺ ـ وميمونةَ، قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابنُ أمّ مكتوم، فدخَلَ عليه، وذلك بعدما أُمِرْنا بالحجاب، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: احتجبا منه. فقلت: يا رسولَ الله، أليس هو أعمى لا يُبصِرُنا ولا يَعرفنا؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أو عمياوان أنتما؟ ألستما

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٦٢٤٣ و٦٦١٢ ومسلم ٢٦٥٧ وأحمد ٢/٢٧٦ وابن حبان ٤٤٢٠.

(٢) بل رواه مسنداً موصولاً في كلا الروايتين.

(٣) ضعيف. أخرجه أبو نعيم ٣/١٦٣، ومداره على عمر بن محمد بن صهبان، قال الذهبي في «الميزان» ٦١٤٩: قال أحمد: لم يكن بشيء، وقال يحيى: لا يساوي فلساً، وقال البخاري منكر الحديث.

تُبصِرانه[١]. ثم قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وذهبَ آخرُون من العلماء إلى جواز نظرهنّ إلى الأجانب بغير شهوة.

[٤٩٠٣] كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ـ ﷺ ـ جَعَلَ ينظر إلى الحبشة وهم يَلعَبُون بحرابهم يومَ العيد في المسجد، وعائشةُ أمُّ المؤمنين تنظُر إليهم من ورائه. وهو يسترها منهم حتى مَلَّت ورَجَعت[٢].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، قال سعيد بن جُبَير: عن الفواحش، وقال قتادةُ وسفيان: عما لا يحلُّ لهنَّ. وقال مقاتل: عن الزنا. وقال أبو العالية: كلُّ آية أنزلت في القرآن يُذكَرُ فيها حِفظُ الفُروج فهُو من الزنَا، إلا هذه الآية: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾، ألاَّ يراها أحدٌ. وقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، أي: ولا يُظهِرْنَ شيئاً من الزينة للأجانب إلاَّ ما لا يمكن إخفاؤه. وقال ابن مسعود: كالرداء والثياب. يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب، من المقنعة التي تُجَلِّل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حَرَج عليها فيه، لأنَّ هذا لا يُمكِنُ إخفاؤه. ونظيرُه في زِيِّ النساءِ ما يظهر من إزارها، وما لا يُمكِنُ إخفاؤه. وقال بِقَولِ ابنِ مسعود الحسنُ، وابنُ سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيمُ النخعي، وغيرهم.

وقال الأعمش، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، قال: وجهها وكفيها والخاتم. ورُوِي عن ابن عُمَر، وعطاءٍ، وعكرِمَة، وسعيد بن جُبير، وأبي الشعثاء، والضحَّاكِ، وإبراهيم النخَعي، وغيرهم، نحو ذلك. وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها، كما قال أبو إسحاق السَّبِيعي، عن أبي الأحوَصِ، عن عبد الله قال في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، الزينة: القُرْط، والدُّملُوجُ[٣]، والخَلْخَال، والقلادة. وفي روايةٍ عنه بهذا الإِسناد قال: الزينةُ زينتان، فزينةٌ لا يَرَاها إلا الزوج: الخاتم والسوَارُ وزينة يراها الأجانب، وهي الظاهرُ والثيابُ. وقال الزهريُّ: لا يبدُو لهؤلاء الذين سَمّى الله مِمَّن لا تَحلُّ له إلا الأَسورَةُ والأخمرةُ والأقرِطةُ من غير حَسرٍ. وأما عامَّةُ الناسِ فلا يبدُو منها إلا الخواتمُ. وقال مالك، عن الزهريِّ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، الخاتم والخَلْخَال. ويَحتمِل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظَهَر منها بالوجه والكفين، وهذا هو المشهورُ عند الجمهور.

[٤٩٠٤] ويُستأنس له بالحديث الذي رواه أبو دَاودَ في سُنَنه: حَدَّثنا يعقوبُ بن كَعب الأنطاكيُّ ومُؤَمَّل بن الفَضل الحرَّاني قالا: حَدَّثنا الوليدُ، عن سعيدِ بن بَشِير، عن قَتادَةَ، عن خالد بنِ دُرَيك، عن عائشة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ أسماءَ بنتَ أبي بكرٍ دَخَلت على النبي ـ ﷺ ـ وعليها ثيابٌ رِقاقٌ، فأعرضَ عنها وقال: يا أسماءُ، إن المرأةَ إذا بَلَغتِ المحيضَ لم يصلُح أن يُرَى منها إلا هذا. وأشار إلى وَجهه وكَفَّيه[٤]. لكن قال أبو

---

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٦/ ٢٩٦ وأبو داود ٤١١٢ والترمذي ٢٧٧٨ وابن حبان ٥٥٧٥ والبيهقي ٧/ ٩١ من حديث أم سلمة، ومداره على نبهان. قال عنه في التقريب: مقبول. وقال في «الفتح» ١/ ٥٥٠: هو حديث مختلف في صحته. قال أبو داود: هذا خاص بأزواج النبي ﷺ، ونقل ابن قدامة في «المغني» ٦/ ٥٦٣ بعد أن تكلم في توجيه هذا الحديث، عن ابن عبد البر قوله: نبهان مجهول. وقد قال أحمد وأبو داود: هو خاص اهـ وحكم الشيخ شعيب بضعفه، وأنه معارض بأحاديث صحاح. والله أعلم.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٥٥ ومسلم ٧٩٢ ح ١٨ وأحمد ٦/ ٢٤٧.

(٣) القرط: هو ما يعلق في شحمة الأذن. الدُّملوج: المعضد.

(٤) أخرجه أبو داود ٤١٠٤ عن خالد بن دريك عن عائشة به. قال أبو داود: هذا مرسل، خالد لم يدرك عائشة. وقال الزيلعي في «نصب الراية» ١/ ٢٩٩: وقال ابن القطان: ومع هذا، خالد مجهول الحال. وقال المنذري في «مختصره»: وفيه سعيد بن بشير، تكلم فيه غير واحد اهـ لكن للحديث شواهد مرسلة ومتصلة يعتضد بها، والله أعلم.

داودَ وأبو حاتم الرازيُّ: هذا مرسَلٌ؛ خالد بن دُرَيك لـم يَسمع من عائشةَ رضي الله عنها، فالله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، يعني: المَقانع يُعمَلُ لها صَنفات ضاربات على صُدُور النساء، لِتُواريَ ما تحتَها من صَدرها وترائبها، ليخالفن شِعارَ نساء أهل الجاهلية، فإنهنَّ لم يكُنَّ يَفعَلْنَ ذلك، بل كانت المرأة تَمُرُّ بين الرجالِ مُسفِحَةً بصدرها، لا يُوارِيه شيءٌ، وربما أظهرت عُنقَها وذوائب شعرها وأقرِطَة آذانها، فأمَرَ الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالِهنَّ، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، والخمُرُ: جمعُ خِمَارٍ، وهو ما يَخمِرُ، أي: يُغطِّي به الرأس، وهي التي تُسمِّيها الناسُ المقانع. قال سَعيد بن جُبير: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾: وَلْيشدُدنَ ﴿بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، يعني على النَّحرِ والصدْرِ، فلا يُرَى منه شيءٌ.

[٤٩٠٥] وقال البخاري: حدثنا أحمد بن شَبِيبَ، حدثنا أبي، عن يونُسَ، عن ابنِ شِهاب، عن عُروة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «يرحَمُ الله النساءَ المهاجراتِ الأُوَل، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، شقَقْنَ مُروطَهنَّ فاختَمرنَ بها»[١].

[٤٩٠٦] وقال أيضاً: حَدثنا أبو نُعَيم، حَدَّثنا إبراهيم بن نافع، عن الحَسَنِ بن مسلم، عن صَفيّة بنت شيبة: أنَّ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ كانت تقول: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، أخذن أُزُرَهُنَّ فَشَقَقْنها من قبل الحواشي، فَاختَمرْنَ بها»[٢].

[٤٩٠٧] وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونُسَ، حدثني الزنجيُّ بن خَالدٍ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن صَفِيَّة بنت شَيبةَ قالت: بينا نحنُ عند عائشةَ، قالت: فذكرنا نِساءَ قُريشٍ وفَضلهُنَّ، فقالت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ: «إن نساءَ قُريش لفُضلَى، وإني ـ والله ـ ما رأيتُ أفضلَ من نساءِ الأنصار أشدَّ تصديقاً بكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أُنزِلت سورةُ النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، انقلبَ إليهنَّ رجالهنَّ يتلُون عليهنَّ ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلُو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابته، فما منهنَّ امرأةٌ إلا قامت إلى مِرْطها المُرَحَّل فاعتجَرت به، تصديقاً وإيماناً بما أنزلَ الله من كتابِهِ، فأصبحْنَ وراءَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ الصبُحِ معتجِرات، كأنَّ على رؤوسهنَّ الغِربَان»[٣]. ورواه أبو داود من غير وَجهٍ، عن صَفيّة بنت شَيْبَةَ[٤]، به.

[٤٩٠٨] وقال ابنُ جَرير: حدثنا يونُس، أخبرنا ابن وَهب، أن قُرّة بن عبد الرحمن أخبره، عن ابن شِهاب، عن عُروَةَ، عن عائشةَ أنها قالت: يرحَمُ الله النساءَ المهاجراتِ الأُوَل، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، شَقَقْن أكثَف مُرُوطِهِنَّ فاختمرن به[٥]. ورواه أبو داود من حديث ابن وهب، به. وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾، يعني أزواجَهُنَّ، ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٥٨.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٥٩ والنسائي في «التفسير» ٣٨٣.

(٣) إسناده ضعيف، فيه الزنجي بن خالد، وثقه ابن حبان وحده على قاعدته، والخبر في بعض ألفاظه نكارة، وأصله محفوظ له شواهد.

(٤) أخرجه أبو داود ٤١٠٠ وإسناده غير قوي من أجل ابن مهاجر، لكن له شواهد.

(٥) أخرجه أبو داود ٤١٠٢ وابن جرير ٢٥٩٧٨ وإسناده حسن لأجل قرة بن عبد الرحمن، لكن له شواهد.

﴿أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾، كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تظهَرَ عليهم بزينتِها، ولكن من غير اقتصادٍ وتَبَهرُج.

وقال ابنُ المنذِر: حدثنا موسى - يعني ابن هارون - حدثنا أبو بكر - يعني ابن أبي شيبةَ - حدثنا عفّان، حدثنا حَمّاد بن سَلَمة، أخبرنا داود، عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾، حتى فَرَغ منها قال: لم يذكر العَمّ ولا الخال، لأنهما يَنْعَتَانِ لأبنائهما، ولا تضع خِمارها عند العم والخال، فأما الزوج فإنما ذلك كلُّه من أجلِهِ، فتتصنع له: ما لا يكون بِحَضرةِ غيره.

وقولُه: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾، يعني: تُظهر زينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمّة، لئلا يَصِفْنَ لرجالهن، وذلك وإن كان محذوراً في جَميع النساء إلا أنه في نساء أهل الذمة أشدُّ، فإنهن لا يمنعهُنّ من ذلك مانع، وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حَرَام فتنزَجِرُ عنه.

[٤٩٠٩] وقد قال رسولُ الله - ﷺ -: «لا تباشرُ المرأةُ المرأةَ، تنعتُها لزوجها كأنه ينظرُ إليها»(١). أخرجاه في الصحيحَين، عن ابنِ مَسعُودٍ.

وقال سعيد بن منصور في سُنَنه: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن هشام بن الغازي، عن عُبادةَ بن نُسيٍّ، عن أبيه، عن الحارث بن قَيس قال: كتبَ أميرُ المؤمنين عُمر بن الخطاب إلى أبي عُبَيدة: أما بعد فإنه بَلَغني أنّ نساءَ من نساءِ المسلمين يَدخُلن الحمّاماتِ مع نساءِ أهلِ الشرك، فأنَهَ مَن قِبلَكَ فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها. وقال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾، قال: نساؤهُنَّ المسلماتُ، ليس المشركاتِ من نسائِهِنّ، وليس للمرأةِ المسلمةِ أن تَنْكَشِفَ بين يَدَي المُشرِكَةِ. ورَوَى عَبدُ بن حميد في تفسيره، عن الكَلْبِيّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾، قال: هُنَّ المسلماتُ، لا تُبديه ليهوديةٍ ولا نَصرانيَّةٍ، وهو النحرُ والقُرط والوِشَاح، وما لا يحل أن يَراه إلا مَحْرَمٌ.

وَرَوى سعيدٌ: حدثنا جرير، عن ليثٍ، عن مجاهدٍ قال: لا تَضَع المسلمة خِمَارها عند مشركة، لأن الله تعالى يقول: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾، فَلَسْنَ من نسائِهِنّ. وعن مكحول وعُبَادَة بن نُسَيٍّ: أنهما كَرِها أن تُقَبِّلَ النصرانيةُ واليهوديةُ والمجوسيةُ المسلمة. فأما ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا أبو عُمَير، حدثنا ضَمرةُ قال: قال ابنُ عطاءٍ، عن أَبِيه: «وَلمّا قَدِمَ أصحابُ النبيِّ - ﷺ - بيتَ المقدِس، كان قَوابلُ نسائهم اليهودياتِ والنصرانياتِ. فهذا إن صح مَحمول على حال الضرورة، أو أنَّ ذلك من باب الامتهانِ. ثم إنه ليس فيه كشفُ عَورةٍ ولا بُدّ والله أعلم.

وقولُه تعالىٰ: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾، قال ابن جُرَيج: يعني من الإماء المشركات، فيجوزُ لها أن تُظهِرَ زينتَها لها وإن كانت مشركةً، لأنها أمتُها. وإليه ذَهَب سعيدُ بن المسيِّبِ. وقال الأكثرون: بل يجوز لها أن تظهر على رَقِيقها من الرجال والنساء.

[٤٩١٠] واستدلُّوا بالحدِيث الذي رَوَاه أبو داود. حدثنا محمدُ بن عيسى، حدثنا أبو جُمَيع سالم بن دِينار، عن ثابتٍ، عن أنس - رضي الله عنه - أن النبيَّ - ﷺ - أتى فاطمةَ بعبدٍ قد وَهَبه لها، قال: وعلى فاطمة

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٤٠ وأبو داود ٢١٥٠ والترمذي ٢٧٧٢ وأحمد ١/ ٤٤٠ وأبو يعلى ٥٠٨٣ وابن حبان ٤١٦٠ من حديث ابن مسعود، ولم أره في «صحيح مسلم».

ثوبٌ إذا قنّعت به رأسَها لم يبلُغ رجلَيها، وإذا غطّت به رَجلَيها لم يبلُغ رَأسَها، فلَما رأى النبيُّ ـ ﷺ ـ ما تلقى قال: «إنَّه ليس عليكِ بأسٌ، إنما هو أَبوكِ وغلامُكِ»[١].

وقد ذكر الحافظ ابنُ عساكرٍ في تاريخه ترجمة خَدِيج الخَصِيِّ ـ مولى معاوية ـ أنَ عبد الله بن مَسْعَدَة الفَزَارِيَّ كان أسودَ شديد الأدمةِ، وأنه قد كان النبيُّ ـ ﷺ ـ وهبه لابنته فاطمة، فَرَبَّته ثم أعتقته، ثم قد كان بعد ذلك كله برز مع معاويةَ أيام صِفِّين، وكان من أشدِّ الناس على عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه.

[٤٩١١] وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عُيَينة، عن الزهريِّ، عن نَبهان، عن أم سلمة ذَكَرت أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا كان لإحداكُنَّ مُكَاتَبٌ، وكان لَه ما يُؤَدِّي، فَلْتحتَجِبْ منه»[٢]. ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن سُفيانَ، به. وقولُه تعالىٰ: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾، يعني كالأَجراء والأتباع الذين ليسُوا بأكفاءٍ، وهم مع ذلك في عقولهم ولَه وخَوَث، ولا هَمّة لهم إلى النساءِ ولا يشتهونهنّ. قال ابن عباس: هو المُغفَّلُ الذي لا شهوةَ له. وقال مجاهد: هو الأبلهُ. وقال عكرمة: هو المخنَّثُ الذي لا يقوم ذكره. وكذلك قال غيرُ واحدٍ من السَلَفِ.

[٤٩١٢] وفي الصحيح من حديث الزُهرِيِّ، عن عُروة، عن عائشة: أن مُخنَّثاً كان يدخل على أهل رسول الله ـ ﷺ ـ وكانوا يعدّونه من غير أولي الإِربة، فدخل النبيُّ ـ ﷺ ـ وهو ينعَت امرأةً: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمانٍ. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ألا أرى هذا يعلَم ما هاهنا، لا يدخلَنّ عَلَيكُنّ. فأخرَجه، فكان بالبيداءُ يدخلُ يومَ كُلِّ جمعة يَسْتَطعِم[٣].

[٤٩١٣] روىٰ الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا هِشَامُ بن عُروَةَ، عن أبيه، عن زَينَب بنتِ أبي سَلَمة، عن أم سَلَمَة قالت: دخل عليها رسول الله ـ ﷺ ـ وعندها مخنث، وعندها أَخوها عبد الله بن أبي أمية والمخنَّث يقول لعبد الله: يا عبد الله بن أبي أمية، إن فَتَحَ الله عليكم الطائف غداً فعليكَ بابنة غيلانَ، فإنها تُقبِلُ بأربع وتُدبِر بِثمانٍ. قال: فَسَمِعه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال لأم سلمة: «لاَ يدخُلَنَّ هذا عليك»[٤]. أخرجاه في الصَّحِيحَين، من حديث هشام بن عروة، به.

[٤٩١٤] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاقِ، حدثنا مَعمَرٌ، عن الزُهرِيِّ، عن عُروَةَ بن الزبير، عن عائشة ـ رَضِي الله عنها ـ قالت: كان رجلٌ يدخلُ على أزواج النبي ـ ﷺ ـ مُخَنَّثٌ، وكانوا يَعُدُّونه من غير أولي الإِربَةِ، فدخل النبي ـ ﷺ ـ وهو عند بَعضِ نسائه، وهو ينعَتُ امرأةً. فقال: إنها إذا أقبلَت أقبلَت بأربعٍ

---

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٤١٠٦ والبيهقي ٧/ ٩٥ وإسناده لين من أجل أبي جميع، وتابعه سلام بن أبي الصهباء كما قال البيهقي، وهو ضعيف، لكن يصلح للمتابعة، وله شواهد.

(٢) جيد. أخرجه أبو داود ٣٩٢٨ والترمذي ١٢٦١ وابن ماجه ٢٥٢٠ وأحمد ٦/ ٢٨٩ وأبو يعلى ٢٩٥٦ والبيهقي ١٠/ ٣٢٧ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) صحيح. لكن عجزه «فأخرجه...» ما رواه الشيخان، وإنما أخرجه أبو داود ٤١٠٩ بسند صحيح وكرره، ٤١١٠ من وجه آخر. وهو دون عجزه، أخرجه مسلم ٢١٨١ وأبو داود ٤١٠٧ وأحمد ٦/ ١٥٢.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٤٣٢٤ و٥٢٣٥ ومسلم ٢١٨٠ وأبو داود ٤٩٢٩ وابن ماجه ١٩٠٢ وأحمد ٦/ ٢٩٠ و٣١٨ وأبو يعلى ٦٩٦٠.

وإذا أدبرَتْ أدبرَتْ بثمانٍ. فقال النبيُّ - ﷺ -: ألا أرى هذا يعلَمُ ما هاهنا؟ لا يدخلن عليكم هذا. فَحَجَبُوه[(١)]. ورواه مسلم، وأبو داود، والنسائي من طَريق عبد الرزاق، به.

وقولُه تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، يعني لِصِغَرهم لا يفهَمُون أحوال النساء وعوراتهنّ، من كلامِهنّ الرَّخيم، وتَعَطُّفِهن في المِشْيَةِ وحَرَكاتِهنّ وسكناتِهنّ، فإذا كان الطفلُ صغيراً لا يفهَمُ ذلك فلا بأسَ بدُخُوله على النساء، فأما إن كان مُراهِقاً أو قَريباً منه بحيث يَعرفُ ذلك ويَدْرِيه، ويُفَرِّق بين الشوهاء والحسناء، فلا يُمَكَّن من الدخول على النساء.

[٤٩١٥] وقد ثَبَت في الصحيحَين عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إيّاكُم والدخولَ على النساء. قالوا: يا رسولَ الله، أفرأيت الحَمْو؟ قال: الحَمْوُ الموتُ»[(٢)].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تَمشي في الطريق وفي رجلها خَلْخَالٌ صامت - لا يُسمَعُ صوته - ضَرَبت برجلها الأرضَ، فيعلم الرجال طَنِينه. فنَهى الله المؤمنات عن مثل ذلك. وكذلك إذا كان شيءٌ من زينتها مَستوراً فتحرّكت بِحَرَكةٍ لتُظهِر ما هو خَفِيٌّ دَخَلَ في هذا النهي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾. ومن ذلك أيضاً أنّها تنهى عن التعطُّر والتطيُّبِ عند خروجها من بيتها ليَشتَمّ الرجالُ طيبها.

[٤٩١٦] فقد قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا محمد بن بَشّارٍ، حدثنا يحيى بن سَعِيد القَطّان، عن ثابت بن عُمَارةَ الحَنَفيِّ، عن غُنَيم بن قَيسٍ، عن أبي مُوسَى - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «كلُّ عينٍ زانيةٌ، والمرأة إذا استعطرت فَمرّت بالمجلس فهي كذا وكذا، يعني زانيةً»[(٣)]. قال: وفي البابِ عن أبي هُرَيرَةَ، وهذا حَسَنٌ صحيحٌ ورواه أبو داودَ والنَسائيُّ، من حديث ثابت بن عُمَارَةَ، به.

[٤٩١٧] وقال أبو داود: حدثنا محمد بن كَثير، أخبرنا سُفيانُ، عن عاصم بن عُبَيد الله، عن عُبَيد مولى أبي رُهْم، عن أبي هُرَيرَةَ - رضي الله عنه - قال: لقيَتْه امرأةٌ وَجَد منها ريحَ الطيب، ولذيلها إعصارٌ فقال: يا أَمَةَ الجَبَّار، جئتِ من المسجد؟ قالت: نعم. قال: وَلَه تَطَيّبتِ؟ قالت: نعم. قال: إنّي سَمِعتُ حِبِّيَ أبا القاسم - ﷺ - يقول: «لا يقبل الله صلاةَ امرأةٍ تَطَيبت لهذا المسجدِ، حتى تَرجِعَ فتغتسِلَ غُسلَهَا من الجنابة»[(٤)]. ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن سُفيانَ - هو ابن عُيَينَةَ - به.

[٤٩١٨] وروى الترمذيُّ أيضاً من حديث موسى بن عُبَيدة، عن أيوب بن خالد، عن ميمونةَ بنت سَعدٍ أَنّ رسولَ الله - ﷺ - قال: «مَثَلُ الرافِلَةِ في الزِينَةِ في غير أهلها كمثل ظُلمةٍ يومَ القيامة لا نُورَ لها»[(٥)]. ومن ذلك أيضاً أنهنّ يُنهَينَ عن المشي في وسط الطريق، لما فيه من التبرُّجِ.

---

(١) هو المتقدم قبل حديث واحد.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٥٢٣٢ ومسلم ٢١٧٢ والترمذي ٢١٧١ وأحمد ٤/١٤٩ و١٥٣ وابن حبان ٥٥٨٨ والبيهقي ٧/ ٩٠ من حديث عقبة بن عامر.

(٣) جيد. أخرجه الترمذي ٢٧٨٦ والنسائي ٨/ ١٥٣ وأحمد ٤/ ٤١٤ وابن حبان ٤٤٢٤ وصححه الحاكم ٢/ ٣٩٦، ووافقه الذهبي، وإسناده قوي، وقال الترمذي: حسن صحيح، وانظر صحيح الترمذي ٢٢٣٧.

(٤) أخرجه أبو داود ٤١٧٤ وابن ماجه ٤٠٠٢ وأحمد ٢/ ٢٤٦ و٤٤٤ وإسناده ضعيف لضعف عاصم بن عبيد الله.

(٥) إسناده ضعيف. أخرجه الترمذي ١١٦٧، والزيادة منه، وضعفه بقوله: موسى بن عبيدة يضعف من قبل حفظه، وهو صدوق، ورواه بعضهم عن موسى بن عبيدة، ولم يرفعه.

[٤٩١٩] قال أبو داود: حدثنا القعنبيُّ، حدثنا عبد العزيز ـ يعني ابنَ محمد ـ عن أبي اليمانِ، عن شدَّادِ بن أبي عمرو بن حمَّاسٍ، عن أبيه، عن حمزَةَ بن أبي أُسَيد الأنصاريّ، عن أبيه: أنه سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ وهو خارج من المسجد ـ وقد اختلط الرجالُ مع النساء في الطريق ـ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ للنساء: «استأخِرنَ، فإنه ليس لكنَّ أن تَحقُقْنَ[1] الطريق، عليكُنَّ بحافاتِ الطريقِ. فكانت المرأة تَلصَقُ بالجدار، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجِدَارِ، من لُصوقِها به»[2]. وقولُه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: افعلُوا ما أمركم به من هذه الصفاتِ الجَمِيلةِ والأخلاقِ الجليلةِ، واتركُوا ما كان عليه أهلُ الجاهليةِ من الأخلاق والصفاتِ الرذيلةِ، فإن الفلاحَ كلُّ الفلاحِ في فعل ما أمر الله به ورسولُه، وترك ما نَهيا عنه، والله تعالى هو المستعان، وعليه التكلان.

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

اشتملت هذه الآياتُ الكريماتُ المُبيِّنة عَلَى جُمَل من الأحكام المحكمة، والأوامر المُبرَمةِ، فقولُه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ﴾، هذا أمرٌ بالتزويج. وقد ذَهب طائفةٌ من العلماء إلى وُجوبه، على كل من قَدَر عَلَيه، واحتجُّوا بظاهر قوله ـ ﷺ ـ:

[٤٩٢٠] «يا معشرَ الشَّباب، مَنِ استطاعَ منكم البَاءَةَ فليتزوَّج، فإنَّه أغضُّ للبَصَر، وأحصنُ للفَرْج. ومن لم يستطع فَعَليه بالصَّوم، فإنه لَه وِجاءٌ»[3]. أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن مسعود.

[٤٩٢١] وجاء في السنن ـ من غير وجه ـ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «تَزَوَّجُوا تَوَالدوا تَناسَلُوا، فإني مُباهٍ بكم الأمم يوم القيامة». وفي رواية: «حتى بالسَّقْطِ»[4]. الأيامى: جمع أَيِّم، ويقال ذلك للمرأة التي لا زَوْجَ لها، وللرجُل الذي لا زَوْجَةَ له. وسواء كان قد تَزَوَّج ثم فارق، أو لم يَتَزَوَّج واحدٌ منهما، حكاه الجوهري عن أهل اللغة، يقال: رجل أَيِّمٌ وامرأة أَيِّمٌ أيضاً.

وقولُه تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رَغَّبهم الله في التزويج، وأمر به الأحرار والعَبِيد، ووعَدَهم عليه الغِنَى، فقال: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد الأزرقُ، حدثنا عُمَر بن عبد

---

(١) حَقّ الطريق: تَوَسُّطه.

(٢) أخرجه أبو داود ٥٢٧٢ وإسناده ضعيف، أبو اليمان مستور وشداد وأبوه مجهولان، وهو بهذا السياق ضعيف. وورد بلفظ «ليس للنساء وسط الطريق» أخرجه ابن حبان ٥٦٠١ بسند ضعيف لضعف مسلم بن خالد الزنجي، ولعل الراجح فيهما الوقف، والله أعلم.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٨٣.

(٤) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ١٤.

الواحد، عن سعيد ـ يعني ابن عبد العزيز ـ قال: بلغني أن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: أطيعوا الله فيما أَمَرَكُم به من النكاحِ يُنجِزْ ما وعدكُم من الغنى، قال: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾. وعن ابن مسعود: التمسوا الغِنَى في النكاح، يقول الله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾. رواه ابنُ جَرِير، وذَكَر البَغَوِيُّ عن عُمَر بنحوه.

[٤٩٢٢] وعن الليث، عن محمد بن عَجْلانَ، عن سعيد المقبري، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثة حقٌّ على الله عَونُهم: الناكحُ يريد العَفَاف، والمكاتَبُ يريد الأداء، والغازي في سَبيل الله»(١). رَوَاه الإمام أحمدُ، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وابنُ ماجه. وقد زَوَّج رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك الرجلَ الذي لم يَجد إلا إزارَه، ولم يَقدِر على خاتم من حديد(٢)، ومع هذا فَزَوَّجه بتلك المرأة، وجعل صداقها عليه أن يُعَلِّمها ما يحفظه من القرآن. والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يَرزُقه وإياها ما فيه كفايةٌ له ولها. فأما ما يُورِده كثير من الناس على أنه حديث:

[٤٩٢٣] «تَزَوَّجوا فقراءَ يُغنِكُم الله»، فلا أصل له، ولم أَرَه بإسناد قويٍّ ولا ضعيفٍ إلى الآن، وفي القرآن غُنيةٌ عنه، وكذلك هذا الحديثُ الذي أوردناه، ولله الحمد والمنة.

وقولُه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، هذا أمرٌ من الله تعالى لمن لا يجدُ تزويجاً بالتعفُّفِ عن الحرام، كما قال ـ ﷺ ـ:

[٤٩٢٤] «يا معشَر الشباب، من استطاع منكم الباءةَ فَلْيتزوّج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاءٌ»(٣). وهذه الآية مطلقةٌ، والتي في سورة النساء أخصُّ منها، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى أن قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: صَبرُكم عن تَزويج الإماءِ خيرٌ، لأن الولَدَ يجيءُ رَقِيقاً، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥]. قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾، قال: هو الرجل يرى المرأة فَكَأنّه يشتهي، فإن كانت له امرأةٌ فليذهب إليها وَلْيقضِ حاجتَه منها، وَإن لم يكن له امرأةٌ فَلْينظُر في ملكوت السمواتِ والأرض حتى يُغنِيَه الله.

وقولُـه تـعـالـىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، هـذا أمرٌ من الله تعالى للسادة إذا طَلَب عَبِيدُهم منهم الكتابة أن يُكاتبوهم، بشرط أن يكون للعبد حيلةٌ وكسبٌ يُؤدِّي إلى سَيِّده المالَ الذي شَارَطه على أدائه. وقد ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أن هذا الأمر أمرُ إرشادٍ واستحباب، لا أمرُ تحتُّمٍ وإيجابٍ، بل السيدُ مخير، إذا طَلَب منه عبدُه الكتابَة إن شاءَ كاتَبَه، وإن شاء لم يُكَاتِبه. وقال الثوريُّ، عن جَابرٍ، عن الشَّعبيِّ: إن شاء كاتَبَهُ، وإن لم شاءَ لم يُكَاتبه. وكذا روى ابن وهب عن إسماعيل بن عياش عن رجل عن عطاء بن أبي رباح: إن يشأ كاتبه وإن لم يشأ لم يكاتبه. وكذا قال مُقاتل ابن حَيَّانَ، والحسن البصريُّ. وذهبَ آخرون إلى أنه يَجب على السيد إذا طَلَب منه عبدُه ذلك أن يُجيبه إلى ماطلب؛ أخذاً بظاهر هذا الأمر.

---

(١) تقدم في تفسير سورة التوبة عند آية: ٦٠.

(٢) هو معنى حديث يأتي في سورة الأحزاب إن شاء الله.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة.

وقال البخاري: وقال رَوحٌ، عن ابن جُرَيج، قلتُ لعطاء: أَواجبٌ عليّ إذا عَلِمتُ له مالاً أن أُكَاتِبَه؟ قال: ما أراه إلا واجباً. وقال عمرُو بن دينار: قلت لعطاءٍ أتأثُره عن أحدٍ؟ قال: لا. ثم أخبرني أن مُوسى ابن أَنسٍ أخبرَه أن سِيرينَ سأل أَنساً المُكاتَبَةَ، وكان كَثير المال فَأَبى، فانطلقَ إلى عُمَرَ بن الخطاب فقال: كَاتِبْه. فأبى، فَضربه بالدِّرة، ويتلُو عُمَر ـ رضيَ الله عنه ـ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾. فكاتبه». هكذا ذكره البخاري تَعليقاً، ورواه عبد الرزَّاق: أخبرنا ابنُ جُرَيج قال: قلت لعطاء: أواجبٌ عليّ إذا عَلِمْتُ له مالاً أن أُكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجباً. وقالها عَمرو بن دينار، قال: قلتُ لعَطاءٍ: أَتأثُره عن أحد؟ قال: لا. وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا سَعِيد، عن قَتَادة، عن أنس بن مالك: أَنَّ سيرين أراد أن يُكَاتبه، فَتَلكَّأ عليه، فقال له عمر: لَتُكَاتِبَنَّه. إسناد صحيح. وقال سَعِيدُ بنُ منصور: حدثنا هُشَيم، عن جُوَيبر، عن الضَّحَّاكِ قال: هي عزمة. وهذا هو القولُ القديم من قولَي الشافعي ـ رحمه الله ـ وذهب في الجَدِيد إلى أنه لا يجبُ، لقوله عليه الصلاة والسلام:

[٤٩٢٥] «لا يَحلُّ مالُ امرىءٍ مسلم إلا بِطيبِ من نَفْسِهِ»(١). وقال ابنُ وَهب: قال مالك: الأمرُ عندنا أنْ ليس على سَيِّد العبدِ أن يُكَاتبه إذا سألَه ذلك، ولم أسمَع أحداً من الأمة أكرَهَ أحداً على أن يُكَاتِبَ عبده، قال مالك: وإنما ذلك أمرٌ من الله تعالى وإذنٌ منه للناس، وليس بواجب. وكذا قال الثوريّ، وأبو حنيفة، وعبد الرحمن بن زيدِ بن أسلَم، وغيرهم: واختار ابنُ جَريرٍ قولَ الوجوب لظاهرِ الآية.

وقولُه تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، قال بعضُهم: أمانةً، وقال بعضُهم: صدقاً. وقال بعضهم: مالاً، وقال بعضهم: حِيلة وكسباً.

[٤٩٢٦] ورَوَى أبو داود في كتاب «المراسيل»، عن يحيى بن أبي كثير قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، قال: إن علمتم فيهم حِرفةً، ولا ترسلوهم كَلاً على الناس(٢). وقولُه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾، اختلف المفسِّرون فيه، فقال قائلون: معناه اِطْرحُوا لهم من الكتابة بعضها، ثم قال بعضهم: مقدارَ الربع. وقيل: الثلث. وقيل: النصف. وقيل: الربع. وقيل: جزءٌ من الكتابة من غير حدٍّ. وقال آخرون: بل المراد من قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾: هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكَاة. وهذا قولُ الحسنِ، وعبد الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ، وأبيه، ومقاتل بن حيان. واختاره ابنُ جرير. وقال إبراهيم النخعي في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾، قال: حَثُّ الناس عَلَيه، مولاه وغيره. وكذلك قال بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي، وقتادةُ. وقال ابنُ عباس: أمر الله المؤمنينَ أن يُعِينُوا في الرِقَابِ.

[٤٩٢٧] وقد تَقَدَّم في الحديث عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «ثلاثةٌ حق على الله عونُهم»(٣). فذكر منهم المكاتَب يريد الأداء. والقول الأول أشهر.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمدُ بن إسماعيلَ، حدثنا وكيعٌ، عن ابن شَبِيب، عن عكرمةَ، عن ابن

---

(١) حسن. أخرجه أبو يعلى ١٥٧٠ وأحمد ٥/ ٧٢ والدارقطني ٣/ ٢٦ والبيهقي ٦/ ١٠٠ من حديث أبي مرة الرقاشي عن عمه، وفيه علي بن زيد غير قوي، لكن له شواهد تقوّيه منها حديث أبي حميد الساعدي عند أحمد ٥/ ٤٢٥ وابن حبان ٥٩٧٨ والبزار ١٣٧٣ وإسناده حسن رجاله ثقات.

(٢) ذكره أبو داود في «المراسيل» ١٦٢ عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً. ومراسيل يحيى واهية، والخبر شبه موضوع.

(٣) تقدم برقم ٤٩٢٢.

عباس، عن عُمَرَ: أنه كاتَبَ عبداً له، يُكنَى أبا أُميَّةَ، فجاء بِنَجْمه حين حَلَّ، فقال: يا أبا أُميَّةَ، اذهب فاستعن به في مُكَاتبتك. قال: يا أميرَ المؤمنين، لو تركتَه حتى يكون من آخر نَجم؟ قال: أخافُ ألا أُدرِكَ ذلك. ثم قرأ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾. قال عكرمةُ: فكان أولَ نجم أُدِّي في الإسلام. وقال ابنُ جَرِيرٍ: حدَّثنا ابن حُمَيد، حدَّثنا هارونُ بن المُغِيرة، عن عَنْبَسَةَ، عن سالم الأفطَس، عن سعيد بن جُبَير قال: كان ابنُ عُمَر إذا كاتَبَ مُكاتَبه لم يَضَع عنه شيئاً من أوَّلِ نُجومِهِ، مخافة أن يَعجِزَ فَتَرجِعَ إليه صدقتُه. ولكنه إذا كان في آخر مُكَاتبته وَضَع عنه ما أحبَّ. وقال علي بن أبي طلحَةَ، عن ابن عَبَّاس: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾، قال: يعني ضَعُوا عنهم من مكاتبتهم. وكذلك قال مجاهدٌ، وعطاءٌ، والقاسم بن أبي بَزّة، وعبد الكريم بن مالك الجَزَريّ، والسدِّي. وقال محمد بن سِيرينَ في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾: كان يُعجِبُهم أن يدَعَ الرجل لمكاتَبه طائفةً من مكاتبته.

[٤٩٢٨] وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا الفضلُ بن شاذانَ المُقرِىء، أخبرنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشامُ بن يوسُفَ، عن ابن جُرَيج، أخبرني عطاءُ بن السائب: أن عبد الله بن حبيب[1] أخبره، عن علي ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ربع الكِتَابَةِ»[2]، وهذا حديث غريبٌ، ورفعه مُنكَر، والأشبهُ أنه موقوفٌ على علي ـ رضي الله عنه ـ كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلَمِيُّ، رَحِمه الله.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾... الآية، كان أهلُ الجاهلية إذا كان لأحدهم أمةٌ أرسَلَها تَزني، وجعل عليها ضريبةً يأخذُها منها كُلَّ وقتٍ. فلما جاء الإسلامُ نَهى الله المؤمنين عن ذلك. وكان سببُ نزول هذه الآية الكريمة ـ فيما ذكره غيرُ واحدٍ من المفسرين، من السلَف والخَلَف ـ في شأن عبد الله بن أبي ابن سَلُولَ، المنافق، فإنه كان له إماءٌ، فكان يُكرِهُهُنَّ على البغاءِ طلباً لخَراجِهِنَّ، ورغبةً في أولادِهِنَّ، وَرِياسَةً منه فيما يزعم.

ذكرُ الآثار الواردة في ذلك: قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عَمرو بن عبد الخالق البَزّار رحمه الله في مُسنَدِهِ: حدثنا أحمدُ بن داودَ الواسطي، حدثنا أبو عمرو اللَّخمِيُّ ـ يعني محمدَ بن الحجَّاج ـ حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهريِّ قال: كانت جارية لعبد الله بن أُبيٍّ يقال لها مُعاذَة، يُكرِهُها على الزنا، فلما جاء الإسلام نَزَلت: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقال الأعمشُ، عن أبي سفيانَ، عن جابر في هذه الآية: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾، قال: نَزَلت في أمةٍ لعبد الله بن أُبيٍّ ابن سَلُول يقال لها: مُسَيكَة، كان يُكرِهُها على الفُجور، وكانت لا بأسَ بها، فتأبى. فأنزل الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ هذه الآية إلى قوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وروى النسائيُّ، من حديث ابن جُرَيج، عن أبي الزبير، عن جَابرٍ، نحوه. وقال الحافظ أبو بكر البزّار: حَدَّثنا عمرو بن علي، حدثنا علي بن سعيد، حدثنا الأعمشُ، حدثني أبو سفيانَ، عن جابر قال: كان لعبد الله ابن أُبيّ ابن سَلُول جاريةٌ يقال لها مُسَيكَةُ، وكان يُكرِهُها على البِغَاءِ، فأنزلَ الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ

---

(١) وقع في سائر الأصول «عبد الله بن جُندب» والتصويب عن كتب التراجم والمستدرك.

(٢) الصحيح موقوف. أخرجه الحاكم ٢/٣٩٧ ح ٣٥٠١. وصححه، وقال: عبد الله بن حبيب هو أبو عبد الرحمن السلمي، وقد أوقفه عن علي في رواية أخرى اهـ قلت: الاضطراب في رفعه، ووقفه من ابن السائب، فإنه صدوق، لكن اختلط بأخرة، والموقوف أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» ٢٠٣٨ والطبري ٢٦٠٤٦ و٢٦٠٤٧ و٢٦٠٤٩ من طريق ابن السائب، وأخرجه الطبري ٢٦٠٤٨ من طريق آخر عن السلمي عن علي موقوفاً أيضاً، وهو أصح.

بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. صَرَّح الأعمشُ بالسماع من أبي سفيانَ طلحةَ بن نافع، فَدلَّ على بُطلانِ قولِ من قالَ: لم يسمَع منه، إنما هو صَحِيفةٌ، حكاه البَزّار. وروى أبو داودَ الطيالِسيُّ، عن سُلَيمان بن مُعاذٍ، عن سِمَاكٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباسٍ: أن جارية لعبد الله بن أُبَيّ كانت تزني في الجاهلية، فولدت أولاداً من الزنا، فقال لها: مالكِ لا تزنين؟ قالت: لا، والله لا أزني. فَضربها، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾. وروى البزاز أيضاً حدثنا أحمد بن داود الواسطي حدثنا أبو عمرو اللخمي يعني محمد بن الحجاج حدثنا محمد بن إسحاق عن الزهري عن أنس رضي الله عنه قال: كانت جارية لعبد الله بن أبيّ يقال لها معاذةُ يكرهها على الزنا فلما جاء الإسلام نزلت ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمرٌ، عن الزهريِّ: أنَّ رجُلاً من قُرَيش أُسِر يومَ بدرٍ، وكان عند عبد الله بن أُبَيّ أسيراً، وكانت لعبد الله بن أُبَيّ جاريةٌ يقال لها: معاذةُ، وكان القرشيُّ الأسيرُ يُريدها على نفسها، وكانت مسلمةً، وكانت تمتنع منه لإسلامها، وكان عبد الله بن أُبيّ يُكرِهها على ذلك ويضربها، رجاءَ أن تحمل للقُرَشِيّ، فيطلب فداءَ ولدِهِ، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾.

[٤٩٢٩] وقال السدّي: أنزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن أُبيّ ابن سَلُولَ رأس المنافقين، وكانت له جارية تدعى معاذةُ، وكان إذا نُزل به [ضيف] أرسلها إليه ليواقعها، إرادةَ الثوابِ منه والكرامةِ، فأقبَلت الجاريةُ إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فشكت إليه ذلك فَذكره أبو بكر للنبي ـ ﷺ ـ فأمره بِقَبضها. فصاح عبد الله بن أُبيّ: من يَعذُرنا من محمد؟! يغلبنا على مملوكتنا. فأنزل الله فيهم هذا[1]. وقال مقاتلُ بن حَيّان: بلغنا ـ والله أعلمُ ـ أن هذه الآية نزلت في رَجُلين كانا يُكرِهان أمتين لهما، إحداهما اسمُها مُسَيكةُ، وكانت للأنصاريّ، وكانت أميمةُ أمُّ مُسيكَةَ لعبد الله بن أبيّ، وكانت معاذَة وأروى بتلك المنزلةِ، فأتت مُسَيكَةُ وأمها النبيَّ ـ ﷺ ـ فذكرَتا ذلك له، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾، يعني الزنا[2].

وقولُه تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾: هذا خَرَج مخرجَ الغالب، فلا مفهومَ له. وقولُه: ﴿لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: من خَرَاجِهِنّ ومُهُورهن وأولادِهن.

[٤٩٣٠] وقد نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن كسبِ الحجّام، ومَهْرِ البَغيّ، وحُلْوانِ الكاهن[3].

[٤٩٣١] وفي رواية: «مهرُ البغي خبيثٌ، وكسبُ الحجّام خَبيث، وثمنُ الكَلْبِ خَبيث»[4].

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي، لهن، كما تقدم في الحديث عن جابر. وقال ابن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: فَإن فعلتُم فإن الله لهن غَفُور رحيم، وإثمهن على من أكرههنّ. وكذا قال مجاهد، وعطاء الخراساني، والأعمش، وقتادةُ.

وقال أبو عُبيد: حدثني إسحاقُ الأزرقُ، عن عَوفٍ، عن الحَسَنِ في هذه الآية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ

---

(١) هذا مرسل، والسدي غير قوي إذا وصل الحديث، فكيف إذا أرسله؟ والغريب فيه فقط ذكر النبي ﷺ. فإنه عليه السلام لو علم بذلك لألزم ابن سلول بالشريعة وإقامة الحدود.

(٢) هذا معضل، ومقاتل ذو مناكير. والصحيح ما رواه عبد الرزاق آنفاً.

(٣) تقدم برقم (٤٤٧١).

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ١٥٦٨ ح ٤١ من حديث رافع بن خديج.

غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قال: لهنّ واللهِ، لهنّ واللهِ. وعن الزهري قال: غفور لهن ما أُكرِهْنَ عليه. وعن زيد بن أسلم قال: غفور رحيم للمُكْرَهاتِ. حكاهن ابن المنذر في تفسيره بأسانيده. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله، حدثني ابن لَهيعة، حدثني عطاء، عن سعيد بن جُبَير قال: في قراءة عبد الله بن مسعود: «فإنّ الله من بَعدِ إكراهِهِنّ لهُنّ غفورٌ رحيمٌ»، وإثمُهنّ على من أكرهَهُنّ.

[٤٩٣٢] وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ـ ﷺ ـ إنه قال: «رُفِعَ عن أُمتي الخطأُ والنسيانُ وما استُكرِهُوا عليه»[١].

ولما فَصَّل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبيَّنها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾، يعني: القرآنَ فيه آياتٌ واضحاتٌ مُفسَّرات، ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾، أي: خَبراً عن الأمم الماضية، وما حَلَّ بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]. ﴿وَمَوْعِظَةً﴾، أي: زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارِم، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: لمن اتّقى الله وخافه. قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في صفة القرآن: «فيه حكمُ ما بينكم، وخَبَرُ ما قبلكم، وَنَبأُ ما بعدَكم. وهو الفصل ليس بالهَزلِ، من تَركه من جَبّارٍ قَصَمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله».

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباسٍ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يقول: هادي أهلِ السمواتِ والأرضِ. وقال ابن جُريج: قال مجاهد وابن عباس في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: يُدَبِّر الأمرَ فيهما، نجومِهما وشَمسِهما وقَمرِهما. وقال ابنُ جَرير: حدثنا سليمان بن عُمَر بن خَالد الرقّيّ، حدثنا وهبُ بن راشدٍ، عن فَرْقَدٍ، عن أنس بن مالك قال: إن الله يقول: نُورِي هُدَاي. واختار هذا القول ابن جرير، رحمه الله. وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبَيّ بن كعب في قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾، قال: هو المؤمن الذي قد جُعل الإيمانُ والقرآنُ في صدره، فَضَرب الله مثله فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فبدأ بنور نفسِه. ثم ذكر نورَ المؤمن فقال: مثل نور من آمن به، قال فكان أُبيُّ بن كَعبٍ يَقرؤُها: «مثلُ نورِ مَن آمن به»، فهو المؤمن جُعِلَ الإيمانُ والقرآنُ في صدره. وهكذا رَوَى سعيد بن جُبَير، وقيسُ بن سَعدٍ، عن ابنِ عَبّاسٍ أنه قَرَأها كذلك «مَثَلُ نور مَن آمنَ باللّهِ». وقَرأَ بعضُهم: «الله مُنَوِّرُ السمواتِ والأرضَ». وعن الضحّاك: «الله نَوَّر السمواتِ والأرضَ».

وقال السديُّ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: فَبِنُورِه أضاءتِ السمواتُ والأرضُ.

[٤٩٣٣] وفي الحديث الذي رواه محمدُ بن إسحاقَ في السيرة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال في دعائه يوم آذاه أهلُ الطائف: «أعوذُ بِنُورِ وجهكَ الذي أشرقت له الظلماتُ، وصَلَح عليه أمرُ الدنيا والآخرة، أن يَحلَّ بي غضبُك، أو ينزل بي سَخَطُك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حَول ولا قوة إلا بك»[٢].

(١) غير قوي، وقد تقدم باستيفاء.

(٢) هذا معضل، ولعله تقدم.

[٤٩٣٤] وفي الصَّحِيحين، عن ابن عباس: كان رسولُ الله ـ إذا قام من الليل يقول: «اللهمّ لك الحمد، أنت قَيّم السمواتِ والأرضِ ومن فيهنّ، ولك الحمدُ، أنت نورُ السمواتِ والأرضِ ومن فيهنّ»[١]. الحديث. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «إنّ ربّكم ليس عنده ليل ولا نهار، نُور العرشِ من نُورِ وَجْهِهِ». وقولُه: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾، في هذا الضّمير قولان: أحدُهما: أنه عائدٌ إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ أي: مثلُ هُداه في قلبِ المُؤمِن ـ قاله ابن عباسٍ ـ كَمِشْكَاةٍ. والثاني: أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دَلّ عليه سياق الكلام، تقديره: مثل نُور المؤمن الذي في قلبه كَمِشْكَاةٍ. فَشُبه قلبُ المؤمن وما هو مفطورٌ عليه من الهُدَى، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه ـ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧] ـ فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقِنديل من الزجاجِ الشفاف الجَوْهرِيّ، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيتِ الجيد الصافي المشرق المعتدل، الذي لا كَدَر فيه ولا انحراف.

فقوله تعالى: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وغير واحد: هو مَوضِعُ الفَتِيلة من القنديل. هذا هو المشهور، ولهذا قال بعده: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، وهو الذُّبالة التي تُضِيء. وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾، وذلك أن اليهود قالوا لمحمد ـ ﷺ ـ: كيف يَخلُصُ نورُ الله من دونِ السماء؟ فضرب الله مثل ذلك لنُوره، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾. والمِشْكَاةُ: كُوّة في البيت ـ قال: وهو مثل ضَرَبه الله لطاعته، فَسمى طاعَتَه نُوراً، ثم سَمّاها أنواعاً شتىً. وقال ابن نَجِيح، عن مجاهد: هي الكُوّةُ بلغة الحبشة. وَزادَ غيرُه فقال: المشكاة: الكُوّةُ التي لا منفذ لها. وعن مجاهد: المشكاة: الحَدَائد التي يُعَلّق بها القنديلُ. والقولُ الأول أولى، وهو أن المشكاة هي مَوضِع الفَتيلة من القِنْدِيل، ولهذا قال: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، وهو النور الذي في الذبالة. قال أُبيّ بن كَعب: المصباح، النورُ، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره. وقال السدّي: هو السراج. ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾، أي: هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية. قال أبيّ بن كعب وغيرُ واحد: وهي نظيرُ قلبِ المؤمن، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾، قَرأ بعضهم بضم الدال من غير هَمْزٍ، من الدُّرِّ، أي: كأنها كوكَبٌ من دُرّ. وقرأ آخرون: «دِرّيءٌ»، و «دُرّيءٌ» بكسر الدال وضمها مع الهمز، من الدَّرْءِ وهو الدفعُ، وذلك أن النجم إذا رمي به يكونُ أشدّ استنارة من سائر الأحوالِ، والعربُ تُسمّي ما لا يُعرف من الكواكب دراريّ. قال أبيُّ بن كعب: كوكبٌ مضيءٌ. وقال قتادةُ: مُضِيءٌ مُبِينٌ ضَخمٌ. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، أي: يَستمدُّ زيت زيتونِ شجرةٍ مباركة. ﴿زَيْتُونَةٍ﴾، بدلٌ أو عطفُ بَيانٍ، ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، أي: ليست في شرقي بقعتها فلا تصلُ إليها الشمسُ من أولِ النهار، ولا في غربيِّها فيتقلّص عنها الفَيءُ قبل الغروب، بل هي في مكانٍ وسطٍ تَفْرَعُهَا الشمسُ من أولِ النهار إلى آخرِه، فيجيءُ زَيتها معتدلاً صَافياً مشرقاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَمّار قال: حدثنا عبدُ الرحمن بنُ عبد الله بن سَعدٍ، أخبرنا عَمرُو بن أبي قَيْسٍ، عن سِمَاك بن حَرْبٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عَبّاس في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، قال: «شجرةٌ بالصحراء، لا يُظِلُّها جَبَلٌ ولا شجر ولا كَهفٌ، ولا يُوَارِيها شيءٌ، هُو أجودُ لزيتِهَا». وقال يحيى بن سعيد القطان، عن عمران بن حُدَير، عن عكرمة، في قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: هي بصحراء، وذلك أصفى لزيتها. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا عُمَر بن فَرُّوخ،

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ١١٢٠ ومسلم ٧٦٩ والنسائي ٣/٢٠٩ وأحمد ١/٣٥٨ وابن حبان ٢٥٩٧.

عن حَبيب بن الزبير، عن عكرمة سأله رجلٌ عن قوله تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، قال: تلك زيتونة بأرضِ فَلاةٍ، إذا أشرقت الشمسُ أشرقت عليها، وإذا غَربت غَربت عليها، فذاك أصفى ما يكونُ من الزيت. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، قال: ليست بشرقيةٍ، لا تُصِيبها الشمس إذا غَربت، ولا غَربية لا تصيبها الشمس إذا طَلَعت، ولكنها شرقيةٌ وغربيةٌ تُصيبها إذا طَلَعت وإذا غَربت. وقال سَعيد بن جُبير في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ قال: هو أجودُ الزيتِ. قال: إذا طَلَعت الشمسُ أصابتها من صَوبِ المشرق، فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمسُ، فالشمسُ تصيبها بالغداة والعشي، فتلك لا تُعَدُّ شرقية ولا غربية. وقال السُّديّ قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، يقول: ليست بشرقيةٍ يحوزُها المشرق، ولا غربية يحوزُها المغرب دون المشرق، ولكنها على رأس جبل، أو في صحراء، تُصِيبها الشمسُ النهارَ كلَّه. وقيلَ: المرادُ بقوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: أنها في وَسَط الشجر، وليست بادية للمشرق ولا للمغرب. قال أبو جَعفر الرازيُّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب، في قول الله تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: فهي خضراء ناعمة، لا تُصيبها الشمس على أيِّ حالٍ كانت، لا إذا طَلَعت ولا إذا غَربت، قال: فكذلك هذا المؤمنُ، قد أُجير من أن يُضِلَّه شيء من الفِتَنِ، وقد ابتلي بها فَيُثَبِّته الله فيها، فهو بين أربع خلال: إن قال صَدَقَ، وإن حكَم عَدلَ، وإن ابتُلي صَبر، وإن أُعطِي شكر. فهُو في سائر الناسِ كالرجلِ الحيِّ يمشي في قُبور الأموات. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحَسَن، حدثنا مُسَدَّد، حَدَّثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَير في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، قال: هي وَسَطُ الشجر، لا تُصِيبها الشمسُ شرقاً ولا غرباً. وقال عطية العوفي: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، قال: هي شجرةٌ في مَوضِعٍ من الشجرِ، يُرَى ظلُّ ثَمَرِها في وَرَقها وهذه من الشجرِ لا تطلع عليها الشمسُ ولا تَغرُبُ. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن الدَّشْتَكِيّ، حدثنا عَمرو بن أبي قيس، عن عطاء، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، ليست شرقيةً ليس فيها غربٌ، ولا غربية ليس فيها شرقٌ، ولكنها شرقيةٌ غربيةٌ. وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، قال: هي القِبْلية. وقال زيدُ بن أسلَمَ: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، قال: الشامُ. وقال الحسنُ البصريُّ: لو كانت هذه الشجرةُ في الأرض لكانت شرقيةً أو غربيةً، ولكنه مثلٌ ضرَبَه الله تعالى لنوره. وقال الضحاك، عن ابن عباس ﴿توقد من شجرة مباركة﴾، قال: رجلٌ صالح، ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، قال: لا يهوديٌّ ولا نَصرانيٌّ. وأولى هذه الأقوال القولُ الأول، وهو أنها في مستوى من الأرض، في مكان فسيح بارز ظاهرٍ ضاحٍ للشمس، تَقرَعُهُ من أول النهار إلى آخره، ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطفَ، كما قال غير واحد ممن تَقَدم. ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، قال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني كضوء إشراق الزيت.

وقوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بذلك إيمانَ العبد وعملَه. وقال مجاهدٌ، والسدي: يعني نورَ النارِ ونورَ الزيتِ. وقال أُبَيّ بن كَعب: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، فهو يتقلب في خمسة من النور: فكلامُه نورٌ، وعملُه نورٌ، ومدخَلُه نورٌ، ومخرجُه نورٌ، ومَصِيره إلى النورِ يومَ القيامةِ إلى الجَنَّة. وقال شِمْرُ بن عَطِية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: حَدِّثني عن قول الله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، قال: يكادُ محمدٌ يُبين للناسِ وإن لم يَتَكلَّم، أنه نبي، كما يكادُ ذلك الزيتُ أن يضيء. وقال السُّدّي في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، قال: نورُ النار ونور الزيت، حين اجتمعا أضاءَا، ولا يُضِيء واحدٌ بغير صاحبه، كذلك نورُ القرآنِ ونورُ الإيمانِ حين اجتمَعا، فلا يكون واحدٌ منهما إلا بصاحبه.

وقولُه تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، أي: يُرشدُ الله إلى هدايته من يختارُه، كما جاء في الحديثِ الذي رَوَاه الإمامُ أحمدُ:

[٤٩٣٥] حدثنا معاويةُ بن عمرو، حدثنا إبراهيمُ بن محمد الفَزَارِيُّ، حدثنا الأوزاعيُّ، حدثني رَبِيعة بن يَزيد، عن عبد الله الدَّيلمِيِّ، عن عبد الله بن عَمرو، سَمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله خَلَق خلْقه في ظُلمةٍ، ثم ألقى عليهم من نُورِهِ يومئذ، فمن أصابه من نوره يومئذٍ اهتدى، ومن أخطأ ضَلَّ، فلذلك أقولُ: جفَّ القَلَمُ على علم الله عزَّ وجلَّ»[١].

[٤٩٣٦] طريقٌ أخرى عنه، قال البزّارُ: حدثنا نَهار بن عثمان، حدثنا أيوبُ بن سُويد، عن يحيى بن أبي عمرو السَّيباني، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله خلق خَلْقَهُ في ظلمة، فألقى عليهم نوراً من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أَخْطَأَهُ ضَلَّ»[٢]. ورواه البزار عن عبد الله بن عمرو من طريق آخر بلفظه وحروفه. وقولُه تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، لما ذَكَر تعالى هذا مثلاً لنورِ هُدَاه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، أي: هو أعلمُ بمن يستحقُّ الهداية ممن يستحق الإضلال.

[٤٩٣٧] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النَّضر، حدثنا أبو معاوية شيبانُ، عن لَيثٍ، عن عَمرو بن مُرَّة، عن أبي البَخْتَرِيّ، عن أبي سَعِيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «القلوبُ أربعةٌ: قلبٌ أجردُ فيه مثل السراج يُزهر، وقلبٌ أغلفُ مربوطٌ على غلافِهِ، وقلبٌ منكوسٌ، وقلبٌ مُصْفَحٌ. فأما القلب الأجردُ فقلبُ المؤمِن، سِرَاجه فيه نورُه. وأما القلبُ الأغلفُ فقلب الكافر، وأما القلب المنكوسُ فقلبُ المنافق عَرَفَ ثم أنكر، وأما القلبُ المُصْفَح فقلبٌ فيه إيمانٌ ونفاقٌ، ومَثَلُ الإيمانِ فيه كمَثَل البقلة يَمُدّها الماء الطيِّب، ومثلُ النفاقِ فيه كمَثَلِ القُرحة يَمُدّها القيحُ والدمُ، فأيُّ المدّتين غَلَبت على الأخرى غَلَبت عليه»[٣]. إسناد جيدٌ، ولم يُخرجُوه.

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

لما ضَرَب الله تعالى مَثَل قلب المؤمن، وما فيه من الهُدى والعِلم بالمصباحِ في الزجاجة الصافية المتوقِّدِ

---

(١) جيد. أخرجه أحمد ٢/ ١٧٦ وابن حبان ٦١٦٩ والبيهقي في «الأسماء والصفات» ٢٢٨ وصححه الحاكم ٣٠١ وسكت عنه الذهبي. وأخرجه الترمذي ٢٦٤٢ وأحمد ٢/ ١٩٧ من وجه آخر عن ابن الديلمي به، وله شواهد تقويه.

(٢) أخرجه البزار ٢١٤٥ «كشف» وإسناده ضعيف لضعف أيوب بن سويد، لكن يشهد لما قبله.

(٣) ضعيف. جوده المصنف، وفي ذلك نظر. أخرجه أحمد ٣/ ١٧ والطبراني في «الصغير» ١٠٧٥، وقال الهيثمي في «المجمع» ٢٢٤: في إسناده ليث بن أبي سُليم اهـ، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» ١/ ١٢٣: ليث مختلف فيه اهـ. وفي «الميزان» ٦٩٩٧: ضعفه يحيى والنسائي، وعن يحيى: لا بأس به. وقال ابن حبان: اختلط في آخر عمره اهـ وله علة أخرى أبو البختري، صدوق لكنه يرسل كثيراً، وقد عنعن ههنا، وقال سلمة بن كهيل: يروي عن الصحابة، ولم يسمع من كبير أحد، فما كان سماعاً فهو حسن، وما كان «عن» فهو ضعيف اهـ. ورواه غيره موقوفاً عن حذيفة وغيره، والله أعلم.

من زيت طيِّب، وذلك كالقنديل مَثلاً، ذَكر مَحلَّها وهي المساجد التي هي أحبُّ البقاع إلى الله تعالى من الأرضِ، وهي بيوتُه التي يُعبَدُ فيها ويُوحَّدُ، فقال تعالىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾، أي: أمر الله تعالى بِرَفعها، أي بتطهيرها من الدَّنس واللغو، والأفعالِ والأقوالِ التي لا تليق فيها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية الكريم: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾، قال: نهى الله سبحانه عن اللغو فيها. وكذا قال عكرمة، وأبو صالح، والضحَّاكُ، ونافع بن جُبَير، وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، وسفيان بن حُسَين، وغيرهم من عُلَماء المفسرين.

وقال قتادةُ: هي هذه المساجد، أمر الله سبحانه ببنائها ورَفعها، وأمر بِعِمَارتها وتَطْهيرها. وقد ذُكِر لنا أن كعباً كان يقول: مكتوب في التوراة: «ألا إن بُيُوتي في الأرض المساجد، وَإِنَّه مَن تَوضَّأ فأحسنَ وُضوءَه، ثم زارني في بيتي أكرمته، وحَقّ على المَزْور كرامةُ الزائِر». رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره. وقد وَرَدت أحاديثُ كثيرةٌ في بناء المساجد، واحترامها وتَوقيرها، وتَطييبها وتَبخيرها. وذلك له محلٌ مفرد يذكر فيه، وقد كتبت في ذلك جُزءاً على حدة، ولله الحمدُ والمنَّةُ. ونحن بِعَونِ الله تعالى نذكر هاهنا طَرَفاً من ذلك، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التُكلان:

[٤٩٣٨] فعن أمير المؤمنين عثمانَ بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: سَمِعْتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من بَنَى مسجداً يبتغي به وجه الله بَنَى الله له مِثْلَه في الجنة»[(١)]. أخرجاه في الصحيحين.

[٤٩٣٩] ورَوَى ابنُ ماجه: عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من بنى مسجداً يُذكَر فيه اسمُ الله بَنَى الله له بيتاً في الجنة»[(٢)]. وللنسائي عن عَمْرو بن عَبَسَة مثلَه. والأحاديثُ في هذا كثيرة جداً.

[٤٩٤٠] وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أمر رسولُ الله ـ ﷺ ـ ببناء المساجد في الدُور، وأن تنظف وتُطَيَّب[(٣)]. رواه أحمدُ وأهلُ السنَن إلا النسائيّ. ولأحمد وأبي داودَ، عن سَمُرة بن جُندَب نحوَه. وقال البخاري: قال عُمَر: ابنِ للناسِ ما يُكِنُّهم، وإيَّاك أن تُحَمِّر أو تُصَفِّر فَتفْتِنَ الناسَ.

[٤٩٤١] وروى ابنُ ماجه عنه قال: قال رسولُ ﷺ ـ ﷺ ـ: «ما سَاءَ عَمَلُ قوم قَطُّ إلا زَخرَفُوا مساجِدَهُم»[(٤)]. وفي إسنادِه ضَعفٌ.

[٤٩٤٢] ورَوَى أبو داودَ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما أُمِرْتُ بتشييد المساجد». قال ابن عباس: «لَتُزَخرِفُنَّهَا كما زَخرَفَتِ اليهودُ والنصارى»[(٥)].

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٥٠ ومسلم ٥٣٣ والترمذي ٣١٨ وأحمد ١/ ٦١ و٧٠ وابن حبان ١٦٠٩ والبيهقي ٢/ ٤٣٧.

(٢) صحيح. أخرجه ابن ماجه ٧٣٥ وأحمد ١/ ٢٠ وابن حبان ١٦٠٨ وإسناده غير قوي، لكن له شواهد.
وفي الباب من حديث عمرو بن عبسة عند النسائي ٢/ ٣٢ وهو حديث صحيح بشواهده.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٥٥ والترمذي ٥٩٤ وابن ماجه ٧٥٩ وأحمد ٦/ ٢٧٩ وابن حبان ١٦٣٤ والبيهقي ٢/ ٤٤٠ وإسناده صحيح، وانظر صحيح أبي داود ٤٣٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٧٤١ من حديث عمر، وإسناده ضعيف جداً، قال البوصيري في «الزوائد»: أبو إسحق مدلس، وجبارة ابن مغلّس، كذاب اهـ وسيأتي ما يغني عنه.

(٥) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٤٨ وابن حبان ١٦١٥ والبيهقي ٢/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩ وإسناده صحيح.

[٤٩٤٣] وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تقومُ الساعةُ حتى يتباهى الناسُ في المساجِدِ»(١). رواه الإمامُ أحمدُ وأهلُ السنَن إلا الترمِذِيُّ.

[٤٩٤٤] وعن بُرَيدَةَ أنّ رَجُلاً أنشدَ في المسجِدِ، فقال: مَن دَعَا إلي الجَمَل الأحمرِ؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: «لا وَجَدتَ، إنما بُنِيت المساجدُ لما بُنِيت له»(٢). رَوَاه مُسلم.

[٤٩٤٥] وعن عَمرو بن شُعيب، عن أبيه، عن جَدِّه قال: نهى رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن البيع والابتياع، وعن تناشُد الأشعارِ في المساجد(٣). رواه أحمدُ وأهل السنَنِ، وقال الترمذي: حَسَنٌ.

[٤٩٤٦] وعن أبي هُرَيرة ـ رضيالله عنه ـ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا رأيتُم من يبيعُ أو يبتاع في المسجِدِ فقولُوا: لا أربَحَ الله تجارتَكَ. وإذا رأيتُم من يَنشُد ضالة في المسجِدِ فَقُولوا: لا رَدَّها الله عليكَ»(٤). رواه الترمذي، وقال: «حَسَنٌ غريبٌ».

[٤٩٤٧] وقد رَوَى ابنُ ماجَه وغيرُه، من حديثِ ابن عُمَر مرفوعاً، قال: «خِصَالٌ لا تنبغي في المسجد: لا يُتَّخَذُ طريقاً، ولا يُشهَرُ فيه سلاحٌ، ولا يُنبَض فيه بِقَوس، ولا يُنثَرُ فيه نَبْلٌ، ولا يُمَرُّ فيه بلحمِ نيءٍ، ولا يُضرَبُ فيه حَدٌ ولا يُقتَصُّ فيه أحدٌ، ولا يُتَّخذ سُوقاً»(٥).

[٤٩٤٨] وعن واثلةَ بن الأسقَع، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «جَنِّبوا مَساجِدكم صبيانكم ومجانينكم، وشراءكم وبَيعكم، وخُصُوماتكم ورَفْعَ أصواتكم، وإقامَة حُدُودكم وسَلِّ سُيوفكم، واتَّخذُوا على أبوابها المَطَاهر، وجَمِّروها في الجُمَع»(٦). ورواه ابنُ ماجَه أيضاً، وفي إسنادهما ضَعفٌ. أما أنه «لا يُتَّخذُ طريقاً»، فَقَد كَرِه بعضُ العلماء المرورَ فيه إلا لحاجةٍ إذا وَجَد مندوحةً عنه، وفي الأثر: «إن الملائكةَ لتعجَبُ من

---

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٤٩ والنسائي ٢/ ٣٢ وابن ماجه ٧٣٩ وأحمد ٣/ ١٤٥ و١٥٢ وابن حبان ١٦١٣ والبيهقي ٢/ ٤٣٩ وإسناده صحيح.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٥٦٩ والنسائي في «عمل اليوم والليلة» ١٧٤ وابن ماجه ٧٦٥ وابن حبان ١٦٥٢.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ١٠٧٩ والترمذي ٣٢٢ والنسائي ٢/ ٤٧ ـ ٤٨ وابن ماجه ٧٤٩ و٧٦٦ وأحمد ٢/ ١٧٨ و٢١٢ وحسنه الترمذي صححه أحمد شاكر، ونقل تصحيحه عن ابن العربي. وورد من حديث حكيم بن حزام عند أبي داود ٤٤٩٠ وفيه زفر بن وثيمة، قال الحافظ في «التقريب»: مقبول.

(٤) صحيح. أخرجه الترمذي ١٣١ وابن حبان ١٦٥٠ وابن السني ١٧٦ وصححه الحاكم ٢/ ٥٦ ووافقه الذهبي وحسنه الترمذي. وإسناده صحيح. وأخرجه مسلم ٥٦٨ وأبو داود ٤٧٣ وأحمد ٢/ ٣٤٩ وابن حبان ١٦٥١ من وجه آخر من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٥) إسناده ضعيف جداً، أخرجه ابن ماجه ٧٤٨ وابن الجوزي في «العلل» ٦٧٦ وابن عدي ٣/ ٢٠٢ وابن حبان في «المجروحين» ١/ ٣١٠. قال ابن حبان: زيد بن جبيرة، منكر الحديث، يروي المناكير عن المشاهير، قال يحيى: لا شيء، وأعله ابن الجوزي أيضاً بداود بن حصين. وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده ضعيف لاتفاقهم على ضعف زيد بن جبيرة، قال ابن عبد البر: أجمعوا على ضعفه. وقال البخاري وغيره: متروك. تنبيه: الفقرة الأولى منه صحت من طريق أخرى ولبعضه الآخر شواهد. والغريب فيه لفظ «ولا يمرّ فيه بلحم نيىء»، وانظر ما بعده اهـ.

(٦) ضعيف، أخرجه ابن ماجه ٧٥٠ من حديث واثلة، وإسناده ضعيف جداً، الحارث بن نبهان، متفق على ضعفه اهـ قاله البوصيري في «الزوائد». بل متروك. وورد عن أبي الدرداء، وواثلة، وأبي أمامة جميعاً عن النبي ﷺ به أخرجه العقيلي ٣/ ٣٤٨ وابن عدي ٥/ ٢١٩ والطبراني ٧٦٠١. وابن الجوزي في «العلل» ٦٧٧ وقال: لا يصح، فيه العلاء بن كثير، قال أحمد: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث. وورد من حديث أبي هريرة، أخرجه ابن عدي ٤/ ١٣٥ وأعله بابن محرر، وضعفه به، فالحديث ضعيف بكل طرقه. ولا يرقى إلى درجة الحسن لشدة ضعف رواته، والله أعلم.

الرجل يمرُّ في المسجد لا يُصَلِّي فيه». وأما أنه «لا يُشهَرُ فيه بسلاح، ولا يُنْبَضُ فيه بقوس، ولا يُنْثَرُ فيه نَبْلٌ»، فَلِمَا يُخشَى من إصابة بعضِ الناس به، لكثرة المصلين فيه.

[٤٩٤٩] ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مرّ رجل بسهام أن يقبض على نصالها لئلا يؤذي أحداً[١]؛ كما ثَبَت في الصَّحِيح. وأما النهيُ عن المُرور باللَّحم النَّيءِ فيه، فلما يخشى من تقاطر الدم منه، كما نُهيت الحائض عن المُرورِ فيه إذا خافت التلويث. وأما أنه «لا يُضرَبُ فيه حَدٌّ أو يُقتَصُّ»، فلما يُخشَى من إيجادِ نجاسَةٍ فيه من المضرُوبِ أو المقطوع. وأما أنه «لا يُتخذُ سُوقاً»، فَلِما تَقدَّم من النهي عن البيع والشراء فيه، فإنه إنما بُنِي لِذِكْر الله والصَّلاة. كما قال النبي ـ ﷺ ـ لذلك الأعرابيِّ الذي بال في طائفةِ المسجدِ:

[٤٩٥٠] «إن المساجد لم تُبنَ لهذا، إنما بُنِيت لذكر الله والصلاة فيها». ثم أمر بسَجْلٍ من ماء، فَأُهرِيقَ على بَوْلِه[٢].

وفي الحديث الثاني: «جَنِّبوا مساجدَكم صِبيانَكُم». وذلك لأنهم يَلْعَبون فيه ولا يُنَاسِبُهم، وقد كان عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا رأى صبياناً يلعبون في المسجد، ضربهم بالمِخْفَقَة ـ وهي الدِّرَّة ـ وكان يُفَتش المسجدَ بعد العِشَاء فلا يَترُكُ فيه أحداً. «ومَجَانينكم»، يعني: لأجل ضَعْفِ عُقُولهم، وسَخَرِ الناسِ بهم، فَيُؤدِّي إلى اللَّعِبِ فيها، ولما يُخشَى من تقذيرهم المسجدَ، ونحو ذلك. «وبيعَكم وشراءَكم»، كما تقدم. «وخُصُوماتكم»، يعني التحاكم والحُكم فيه. ولهذا نصَّ كثير من العُلَماء على أنَّ الحاكم لا ينتصب لِفَصْلِ الأقضية في المسجد، بل يكونُ في موضع غيره، لما فيه من كثرة الحُكُومات والتشاجُر والعِيَاط الذي لا يُنَاسبه، ولهذا قال بعده: «وَرَفْعَ أصواتِكم».

[٤٩٥١] وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حَدَّثنا يحيى بن سَعِيد، حدثنا الجُعَيد بن عبد الرحمن، عن يزيدَ بن خُصَيفة، عن السائب بن يَزيدَ الكِنديِّ قال: «كنتُ قائماً في المسجد، فَحَصَبني رجلٌ، فنظرتُ فإذا عُمَر بن الخطاب، فقال: اذهب فائتني بهذين. فجئته بهما، فقال: من أنتما؟ ـ أو: من أين أنتما؟ ـ قالا: من أهل الطائِف. قال: لو كنتُما من أهل البلد لأوجعتُكُما. ترفعانِ أصواتَكُمَا في مَسْجِدِ رسولِ الله ﷺ»[٣]. وقال النسائيّ: حدثنا سُوَيد بن نصر، عن عبد الله بن المبارك، عن شُعبَة، عن سَعد بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: سَمع عُمَرصوت رجلٍ في المسجدِ فقال: أتَدرِي أين أنتَ؟! وهذا أيضاً صحيحٌ.

وقولُه: «وإقامَة حُدودكم، وسَلّ سُيوفِكم»، تَقَدَّما. وقولُه: «واتَّخذُوا على أبوابها المَطَاهِر»، يعني: المراحِيضَ التي يُستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة. وقد كانت قريباً من مَسجِد رسول الله ـ ﷺ ـ آبارٌ يستَقُون منها، فَيشرَبُون ويَتَطهَّرُون، ويَتَوضَّئُون وغير ذلك. وقولُه: «وجمروها في الجمع»، يعني: بَخّروها في أيام الجُمَع لكثرة اجتماع الناسِ يومئذ. وقد قال الحافظُ أبو يعلَى الموصليُّ: حدثنا عُبَيد الله، حدثنا عبدُ

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧٠٧٥ ومسلم ٢٦١٥ وأبو داود ٢٥٨٧ وابن ماجه ٣٧٧٨ وأحمد ٤/ ٤١٠ وابن حبان ١٦٤٩ والبيهقي ٨/ ٢٣ من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٢١٩ و٢٢١ و٦٠٢٥ ومسلم ٢٨٤ والنسائي ١/ ٤٧ وابن ماجه ٥٢٨ وأحمد ٣/ ٢٢٦ وابن حبان ١٤٠١ من حديث أنس بأتم منه.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٠.

الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عُمَر، عن نافع، عن ابن عُمَر: أن عمر كان يُجَمِّر مَسْجِدَ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ كُلَّ جُمُعة. إسنادُه حسن لا بأسَ به، والله أعلم.

[٤٩٥٢] وقد ثَبَت في الصَّحِيحَين عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «صلاةُ الرجل في الجماعة تُضَعَّفُ على صَلاَتِه في بيته وفي سُوقه، خمساً وعشرين ضِعفاً. وذلك أنه إذا توضأ فأحسَنَ الوُضُوءَ، ثم خَرَجَ إلى المسجدِ، لا يُخرِجُه إلا الصلاةِ، لم يَخطُ خَطوة إلا رفع له بها درجةٌ، وحُطَّ عنه بها خطيئةٌ. فإذا صَلَّى لم تَزَلِ الملائكةُ تُصَلّي عليه ما دام في مُصَلاَّه: اللهمَّ صَلِّ عليه، اللهُمَّ ارحَمه. ولا يزالُ في صلاةٍ ما انتظَرَ الصلاةَ»[1].

[٤٩٥٣] وعندَ الدارَقُطنيِّ مَرفُوعاً: «لا صَلاةَ لِجَارِ المَسْجِدِ إلاَّ في المَسْجِدِ»[2].

[٤٩٥٤] وفي السُّنَن: «بَشِّرِ المشّائين إلى المساجد في الظُّلَم بالنُّورِ التامِّ يومَ القِيامةِ»[3]. ويستَحَبُّ لِمن دَخَلَ المسجِد أن يبدأ برجله اليُمنى.

[٤٩٥٥] وأن يقولَ كما ثَبَت في صحيح البُخَارِيّ عن عبد الله بن عَمرو ـ رضي الله عنه ـ عن رَسُول الله ـ ﷺ ـ أنه كان إذا دَخَلَ المسجدَ قال: «أعوذُ باللهِ العظيم، وَبِوجْهِه الكَرِيم، وسُلطانِه القَدِيمِ، من الشيطانِ الرجيم. قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان: حُفِظ مني سائرَ اليوم»[4].

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٧ ومسلم ٦٦١ ح ٢٧٢ وأبو داود ٥٥٩ والترمذي ٦٠٣ وابن ماجه ٢٨١ وابن حبان ٢٠٤٣ وأحمد ٢/ ٢٥٢ والبيهقي ٣/ ٦١ من حديث أبي هريرة.

(٢) الراجح وقفه. أخرجه الحاكم ١/ ٢٤٦ والدارقطني ١/ ٤٢٠ وابن الجوزي في «العلل» ٦٩٣ والبيهقي ٣/ ٥٧ كلهم من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف، فيه سليمان بن داود اليمامي، وهو ضعيف. قال عنه البخاري: منكر الحديث، وقال يحيى: ليس بشيء، وبه أعله ابن الجوزي وغيره، وقال: لا يصح. وورد من حديث جابر، أخرجه الدارقطني ١/ ٤٢٠ وابن الجوزي ٦٩٤ وقال: في إسناده مجاهيل، وقال الذهبي في «الميزان» ٣/ ٥٦٧: محمد بن السكن، لا يعرف، وخبره منكر.

وورد من حديث عائشة، أخرجه ابن حبان في «المجروحين» ٢/ ٩٤ وابن الجوزي ٦٩٥ وقال ابن الجوزي: لا يصح، قال أحمد: عمر بن راشد، لا يساوي حديثه شيئاً. وقال ابن حبان: لا يحل ذكره إلا على سبيل القدح فيه، يضع الحديث اهـ وذكره في الموضوعات ٢/ ٩٣ من حديث عائشة دون ذكر المتن. وجاء في نصب الراية ٤/ ٤١٣ ما ملخصه: قال ابن حزم: ضعيف، وصح عن علي موقوفاً. وقال ابن حجر في «التلخيص» ٢/ ٣١: ضعيف ليس له إسناد ثابت.

وله شاهد من حديث ابن عباس بلفظ «من سمع النداء فلم يجب، فلا صلاة له إلا من عذر، قالوا: وما العذر؟ قال: خوف أو مرض» أخرجه الحاكم ١/ ٢٤٥ ح ٨٩٣ و٨٩٤ و٨٩٥ عن شعبة عن عدي بن ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً، وهذا إسناد صحيح على شرطهما كما قال الحاكم، ووافقه الذهبي، لكن ذكر الحاكم أن أكثر أصحاب شعبة رووه موقوفاً. ورفعه هشيم، وقراد، وهما ثقتان. وأسنده الحاكم ٨٩٦ و٨٩٧ من طريق أبي جناب عن عدي بهذا الإسناد، وأبو جناب ضعيف، وأسنده من حديث أبي موسى ٨٩٩، وصححه، ووافقه الذهبي، وهو ضعيف، فيه أبو بكر بن عياش صدوق لكنه كثير الخطأ، والراجح وقفه كسابقه، والله تعالى أعلم.

(٣) حسن. أخرجه أبو داود ٥٦١ والترمذي ٢٢٣ من حديث بريدة واستغربه الترمذي وقال: هو صحيح مسند، وموقوف إلى أصحاب النبي ﷺ، ولم يسند إلى النبي ﷺ اهـ. وقال المنذري: ورجال إسناده ثقات. وفي الباب من حديث أنس عند ابن ماجه ٧٨١، ومن حديث سهل بن سعد عند ابن ماجه ٧٨٠ أيضاً، فالحديث حسن بشواهده.

(٤) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٦٦ وقال الحافظ كما في «الفتوحات» ٢/ ٤٧: حديث حسن، رجاله موثقون، وهو رجال الصحيح، إلا اثنين إسماعيل بن بشر، وعقبة بن مسلم اهـ. ولم أقف عليه عند البخاري.

[٤٩٥٦] وَرَوى مُسلِمٌ بِسَندِهِ عن أبي حُميد ـ أو: أَبي أُسَيْدٍ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إذا دخل أحدُكم المسجدَ فَليقُل: اللهمَّ افتَح لي أبوابَ رَحمَتِكَ. وإذا خَرَج فَلْيَقُل: اللهمَّ إني أسألُكَ من فَضلِكَ»[١].
وَرَواه النَّسائي عنهما، عن النبيِّ ﷺ.

[٤٩٥٧] وعن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا دَخل أحدُكم المسجدَ فَلْيسلِّم على النبي ـ ﷺ ـ وليقل: «اللهمَّ افتَح لي أبوابَ رحمتِكَ، وإذا خَرَج فَلْيُسلِّم على النبي ـ ﷺ ـ وَلْيقُل: اللهمَّ اعصِمْني من الشيطانِ الرَّجيم»[٢]. رواه ابنُ ماجه، وابن خُزيمة، وابن حبّان في صَحِيحَيهِمَا.

[٤٩٥٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيلُ بن إبراهيمَ، حَدَّثنا ليثُ بن أبي سُلَيم، عن عبد الله بن حَسَنٍ، عن أُمِّه فاطمةَ بنت حُسَين، عن جَدَّتها فاطمةَ بنتِ رسول الله ـ ﷺ ـ قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا دخلَ المسجِدَ صلَّى على محمد وسلَّم، ثم قال: «اللهمَّ، اغفِرْ لي ذُنوبي، وافتَحْ لي أبواب رَحمتك». وإذا خرج صلَّى على محمد وسلَّم ثم قال: «اللهمَّ، اغفِر لي ذُنوبي، وافتَح لي أبوابَ فَضلِك»[٣]. ورواه الترمذِيُّ وابنُ ماجَه، وقال الترمذِيُّ: «هذا حديثٌ حَسَن، وإسنادُه ليس بمُتَّصل؛ لأنَّ فاطمةَ بنت الحُسَين الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى». فهذا الذي ذكرناه، مع ما تَركناه من الأحاديثِ الواردةِ في ذلك كله محاذرة الطُول، داخِلٌ في قَوله تَعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، أي: اسمُ الله، كقولِه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقولِه: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقولِه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨]. قال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ يعني: يتلى فيها كتابُه. وقولُه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾، أي: في البُكرات والعَشِيَّات. والآصال: جمع أصيل، وهو آخر النهار. وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: كُلُّ تسبيح في القرآن هو الصلاةُ. وقال علي بن أبي طَلحَة، عن ابن عَبَّاس: يعني بالغدوِّ صلاة الغَدَاةِ، ويعني بالآصالِ صلاةَ العصرِ، وهما أوَّلُ ما افترَضَ الله من الصلاة، فأحبَّ أن يَذكرهما وأن يُذكَرَ عبادَه. وكذا قال الحسن، والضحّاك: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾، يعني الصلاةَ. ومن قرَأ من القُرّاء: «يُسَبَّحُ له فيها بالغُدُوّ والآصالِ» ـ بِفَتح الباء من «يُسَبَّحُ»، على أنه مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعله ـ وَقَف على قوله: ﴿وَٱلْأَصَالِ﴾ وقفاً تاماً. وابتدأ بقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وكأنَّه مُفَسِّرٌ للفاعل المحذوف، كما قال الشاعِرُ:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لِخُصومة ... ومُختَبِطٌ مما تُطيحُ الطَّوائحُ

كأنه قال: من يبكيه؟ قال: هذا يبكيه. وكأنه قيل: من يُسَبَّح له فيها؟ قال: رجالٌ. وأما على قراءة مَن قرأ ﴿يُسَبِّحُ﴾ ـ بكسر الباء ـ فجعله فعلاً، وفاعله ﴿رِجَالٌ﴾، فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل، لأنه تَمامُ

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٧١٣ وأبو داود ٤٦٥ والنسائي ٢/ ٥٣ وابن ماجه ٧٧٢ وأحمد ٣/ ٤٩٧ وابن حبان ٢٠٤٨.

(٢) جيد. أخرجه ابن ماجه ٧٧٣ والحاكم ١/ ٢٠٧ وابن حبان ٢٠٤٧ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناد صحيح، رجاله ثقات. وانظر صحيح ابن ماجه ٦٢٧.

(٣) حسن. أخرجه الترمذي ٣١٤ وابن ماجه ٧٧١ وأحمد ٥/ ٤٢٥ وابن السني ٨٦، وإسناده ضعيف، قال الترمذي: حسن. ثم ضعفه بقوله: وليس إسناده بمتصل، وفاطمة بنت الحسين لم تدرك فاطمة الكبرى، إنما عاشت فاطمة بعد النبي ﷺ أشهراً اهـ وله علة ثانية ليث بن أبي سليم وثقه قوم، وضعفه آخرون، ولكن للحديث شواهد لكن فيها ذكر السلام دون لفظ «الصلاة» فالغريب فيه فقط هذه اللفظة.

الكَلام. فقولُه: ﴿رِجَالٌ﴾ فيه إشعار بهمَمِهِم السامية، ونيّاتهم وعَزائمهم العالية، التي بها صاروا عُمّاراً للمساجد، التي هي بيوتُ الله في أرضِهِ، ومواطنُ عبادَتِه وشُكرِهِ، وتوحيدِهِ وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. فأما النساء فَصلاتُهنّ في بيوتِهنّ أفضلُ لهنّ.

[٤٩٥٩] لما رَواه أبو داود، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبيّ ـ ﷺ ـ قال: «صلاةُ المرأةِ في بَيْتِها أفضلُ من صَلاتِها في حُجرَتِها، وصلاتها في مَخْدعها أفضلُ من صلاتها في بيتها»[١].

[٤٩٦٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غَيلانَ، حدثنا رِشدينُ، حَدَّثني عَمرو، عن أبي السَّمح، عن السائِبِ ـ مولى أم سَلَمة ـ عن أم سَلَمَة ـ رضي الله عنها ـ عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «خيرُ مساجدِ النساءِ قعرُ بُيُوتِهنّ»[٢].

[٤٩٦١] وقال الإمامُ أحمد أيضاً: حدثنا هارونُ، أخبرني عبد الله بن وَهب، حدثنا داوُد بن قَيس، عن عبد الله بن سُوَيد الأنصاريّ، عن عَمّتِه أم حُمَيد ـ امرأة أبي حُمَيد السّاعِدِي ـ: أنها جاءتَ النبيَّ ـ ﷺ ـ فقالت: يا رَسُولَ اللّهِ إنّي أحبُ الصلاةَ معك. قال: «قد عَلِمتُ أنكِ تُحبِّين الصلاةَ معي، وصلاتك في بيتِكِ خيرٌ من صَلاتِكِ في حُجرَتك، وصلاتُكِ في حُجرَتِكِ خيرٌ من صَلاتِك في دارِكِ، وصلاتُكِ في دارِكِ خيرٌ من صلاتِكِ في مسجد قَومِكِ، وصَلاتُكِ في مَسجدِ قَومِكِ خيرٌ من صَلاتِكِ في مَسْجدي». قال: فَأَمَرَتْ فَبُني لها مسجدٌ في أقصى بيتٍ من بيتها، فكانت واللّهِ تُصَلّي فيه حتّى لَقِيَتِ الله عَزَّ وجلّ[٣]. لم يُخرِجُوه. هذا ويجوزُ لها شهودُ جماعة الرجال، بِشَرطِ ألاّ تؤذِيَ أحداً من الرجال بظهور زينةٍ ولا ريحِ طَيِّبٍ، كما ثبت في الصَّحيحَين عن عبد الله بن عُمَر أنه قال:

[٤٩٦٢] قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تمنعوا إماءَ الله مساجِدَ الله». رواه البخاريُّ ومُسلِمٌ، ولأحمدَ وأبي داودَ: «وبيوتُهنّ خير لهن»[٤].

[٤٩٦٣] وفي رواية: «وَلْيخرُجْنَ وهُنّ تَفِلاتٌ». أي: لا رِيحَ لهنّ[٥].

[٤٩٦٤] وقد ثبت في صحيح مسلم، عن زينبَ امرأة عبد الله بن مَسعُودٍ قالت: قال لنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا شَهِدَتْ إحداكُنّ المسجِدَ فلا تَمسّ طيباً»[٦].

[٤٩٦٥] وفي الصَّحيحَين عن عائشةَ ـ رَضِي الله عنها ـ أنها قالت: «كان نساءُ المؤمنات يَشهدْنَ الفجرَ

---

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٥٧٠ وابن خزيمة ١٦٩٠ وقال المنذري في «الترغيب» ٥٠٨: رواه أبو داود وابن خزيمة وتردد في سماع قتادة هذا الخبر من مُوَرِّق اهـ لكن الحديث حسن بشواهده، وانظر ما بعده.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٢٩٧ وابن خزيمة ١٦٨٣ والحاكم ١/ ٢٠٩ وأبو يعلى ٧٠٢٥ وإسناده ضعيف لضعف رشدين بن سعد، ويشهد لمعناه ما بعده.

(٣) حسن. أخرجه أحمد ٦/ ٣٧١ وابن خزيمة ١٦٨٩ وابن حبان ٢٢١٧ وقال الهيثمي في «المجمع» ٢/ ٣٣ ـ ٣٤: ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن سويد، وثقه ابن حبان، وأخرجه الطبراني ٢٥ (٣٥٦) والبيهقي ٣/ ١٣٢ ـ ١٣٣ من وجه آخر من حديث أم حميد. وللحديث شواهد أخرى.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٩٠٠ ومسلم ٤٤٢ وأبو داود ٥٦٧ وأحمد ٢/ ٧٦ و٧٧.

(٥) صحيح. أخرجه أبو داود ٥٦٥ وأحمد ٢/ ٥٢٨ وابن حبان ٢٢١٤ من حديث أبي هريرة وإسناده حسن، وله شواهد يتقوى بها.

(٦) صحيح. أخرجه مسلم ٤٤٣ والنسائي ٨/ ١٥٥ وأحمد ٦/ ٣٦٣ وابن حبان ٢٢١٥.

مع رسول الله ـ ﷺ ـ: ثم يرجعنَ مُتلفِّعاتٍ بمُروطِهِنَّ[١]، ما يُعرفْن من الغَلَسِ»[٢].

[٤٩٦٦] وفي الصَحِيحَين أيضاً عنها أنها قالت: «لو أدركَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ما أحدثَ النساءُ لمنعهُنَّ المساجدَ، كما مُنِعت نساءُ بني إسرائيل»[٣].

وقولُه تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩]. وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [الجمعة: ٩]. يقولُ تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرفُها وزينتُها، ومَلاذُّ بَيعها وربحها، عن ذكر رَبِّهم الذي هو خَالِقُهم ورازقُهم، والذين يعلمون أن الذي عندَه هو خيرٌ لهم وأنفعُ مما بأيديهم، لأنَّ ما عندَهم ينفَدُ وما عندَ الله باقٍ، ولهذا قال: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، أي: يُقَدِّمون طاعتَه ومُرَاده ومَحبَّته على مُرَادهم ومَحَبَّتهم. قال هُشَيم عن سَيَّار: حُدِّثت عن ابن مَسعُودٍ أنه رأى قوماً من أهل السُّوق، حيث نُودِي بالصلاة، تركوا بياعاتهم ونَهَضُوا إلى الصلاة، فقال عبد الله: هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. وهكذا روى عَمْرُو بن دينار القَهْرَمَانيّ، عن سالم، عن عبد الله بن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ أنه كان في السُّوقِ فَأُقِيمت الصلاة، فأغلقوا حَوانيتهم ودخَلُوا المسجدَ، فقال ابن عُمَر: فيهم نَزَلت: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. رواه ابنُ أبي حاتم، وابنُ جَرير.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أَبي، حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر الصنعاني، حدثنا أبو سَعيد مولى بني هاشم، حدثنا عبد الله بن بجير، حدثنا أبو عبدِ ربٍّ[٤] قال: قال أبو الدَرداءِ ـ رضي الله عنه ـ: إني أَقمتُ على هذا الدَّرَج أبايُع عليه، أربَحُ كلَّ يوم ثلاثمئة دينار، وأشهدُ الصلاةَ في كلِّ يوم في المسجدِ، أما إني لا أقول: «إِنَّ ذلك ليس بحلالٍ»، ولكني أُحِبُّ أن أكون من الذين قال الله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. وقال عَمرُو بن دينارِ الأعورُ: كنتُ مع سالِم بن عَبدِ الله ونحنُ نُريد المسجدَ، فمررنا بسُوقِ المدينةِ وقد قامُوا إلى الصلاة، وخَمَّروا مَتَاعهم، فنظر سالم إلى أَمتعتهم ليس معها أحدٌ، فتلا سالم هذه الآيةَ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، ثم قال: هم هؤلاء. وكذا قال سعيدُ بن أبي الحَسَنِ، والضَّحاكُ: لا تُلهِيهم التجارةُ والبيعُ أن يأتُوا الصلاةَ في وقتها. وقال مطر الوَرّاق: كانوا يبيعُون ويشترُون، ولكن كان أحدهم إذَا سَمِع النداء وميزانُه في يده خَفَضه، وأقبل إلى الصلاة.

وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، يقول: عن الصلاة المكتوبة، وكذا قال الربيع بن أنس، ومُقاتِلُ بن حيان. وقال السدي: عن الصلاة في جَماعة. وعن مُقاتل بن حَيَّانَ: لا يُلهِيهم ذلك عن حُضُور الصلاةِ، وَأن يقيموها كما أَمَر اللّهُ، وأن يُحافِظُوا على مَوَاقيتها، وما

---

(١) المِرْط: كساء من صوف، أو خزّ، كان يؤتزر به.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٧٢ و٥٧٨ ومسلم ٦٤٥ وأبو داود ٤٢٣ والترمذي ١٥٣ وأحمد ٦/١٧٩ وأبو يعلى ٤٤١٥.

(٣) أخرجه البخاري ٨٦٩ ومسلم ٤٤٥. قال الحافظ في الفتح ٢/٣٥٠: تمسك بعضهم بقول عائشة مطلقاً، وفيه نظر، إذ لا يترتب على ذلك تغير الحكم، فقالت «لو رأى لمنع» فيقال عليه «لم ير، ولم يمنع» فاستمر الحكم اهـ وقال ابن عنبر في «تفسيره» ١/٥٩٢: هذا إسناد لا يثبت اهـ فالخبر واهٍ، والله تعالى أعلم، فالأشبه أنه موقوف. ثم إن الإحداث من بعض النساء دون بعض، والأولى أن يجتنب ما يخشى منه الفساد، وذلك بترك الطيب والزينة وغير ذلك اهـ باختصار.

(٤) كذا ضبطه الحافظ في «التقريب» قال: ويقال: أبو عبد ربه، وأبو عبد رب العزة.

استحفظهم الله فيها. وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾، أي: يومَ القيامة الذي تتقلب فيه القلوبُ والأبصارُ، أي: من شدّة الفزع وعظمة الأهوالِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ٨ ـ ١٢].

وقال هاهنا: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾، أي: هؤلاء من الذين يَتقبّل حسناتهم ويَتجاوزُ عن سيّئاتهم. وقوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾، أي: يَتقبّل منهم الحَسَن ويُضاعفه لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾، كما قال هاهنا: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وعن ابن مسعود: أنه جيءَ بلبن فَعَرضه على جُلَسائه واحداً واحداً، فَكُلُّهم لم يشربه لأنه كان صائماً، فتناوله ابنُ مسعود وكان مُفطِراً فَشَربه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾، رواه النسائي وابن أبي حاتم، من حديث الأعمشِ، عن إبراهيمَ، عن علقمةَ، عنه.

[٤٩٦٧] وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا سُوَيد بن سعيد، حدثنا علي بن مُسهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيدَ قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا جمَع الله الأولين والآخرين يومَ القيامة جاء منادٍ فنادى بصوتٍ يُسمِع الخلائق: سيعلم أهلُ الجَمع مَن أولى بالكَرَم، لِيَقم الذين لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذِكر الله. فَيَقُومون وهم قليلٌ، ثم يُحاسِبُ سائِر الخلائِقِ»[(١)].

[٤٩٦٨] وروى الطبراني، من حديث بَقِيَّةَ، عن إسماعيل بن عبد الله الكِنْدِي، عن الأعمش، عن أبي وائلٍ، عن ابن مسعودٍ، عن النبيّ ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾، قال: «أجورُهم يدخلهم الجنة، ويزيدُهم من فضله الشفاعةَ لمن وَجَبَتْ له الشفاعة، لِمَن صَنَع لهم المعروف في الدنيا»[(٢)].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

هذان مَثَلانِ ضَرَبَهما الله تعالى لنوعَي الكُفّار، كما ضَرَب للمنافقين في أوّلِ «البقرة» مَثَلين نارياً ومائياً، وكما ضرب لما يَقِرُّ في القلوب من الهدى والعلم في «سُورَة الرَعدِ» مثلين مائياً وناريا. وقد تكلّمنا على كُلِّ

---

(١) حسن. إسناده ضعيف لأجل سويد بن سعيد، لكن للحديث شواهد، راجع الدر المنثور ٥/ ٩٥ فهو يتقوى بها إن شاء الله.

(٢) ضعيف منكر. أخرجه الطبراني ١٠٤٦٢ وفي «الأوسط» ٢٩٢ «مجمع البحرين» كلاهما من حديث ابن مسعود. وإسناده ضعيف. ذكره الذهبي في «الميزان» ٩٠١ إسماعيل بن عبد الله الكندي، فقال: عن الأعمش، وعنه بقية، بخبر منكر عجيب اهـ. وحسبه الوقف.

منها في موضعه بما أغنى عن إعادَتِه، ولله الحمدُ والمِنّة. فأمّا الأولُ من هَذين المَثَلين فهو للكفّار الدعاة إلى كُفرهم، الذين يحسَبون أنّهم على شيء من الأعمال والاعتقاداتِ، وليسوا في نفسِ الأمرِ على شيء، فَمَثلُهم في ذلك كالسَرابِ الذي يُرَى في القِيعان من الأرضِ عن بُعدٍ كأنه بحرٌ طام. والقِيعَةُ: جمعَ قاع، كَجار وجِيرَة. والقاعُ أيضاً: واحد القِيعَانِ، كما يقال: جار وجيران. وهي: الأرضُ المستويةُ المتّسِعةُ المنبسطةُ، وفيه يكونُ السرابُ وإنما يكون ذلك بعد نصفِ النَهارِ. وأما الآلُ فإنما يكون أولَ النهارِ، يُرَى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السرابَ مَن هو محتاجٌ إلى الماء حَسِبه ماءً فَقصده ليشربَ منه، فلما انتهى إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾، فكذلك الكافر يحسَب أنه قد عَمِل عَمَلاً، وأنه قد حَصّل شيئاً، فإذا وافى الله يومَ القيامةِ وحاسَبَه عليها، ونُوقِش على أفعاله، لم يَجد له شيئاً بالكلّية قد قُبِلَ، إما لِعدَمِ الإخلاصِ، وإما لِعَدَمِ سُلوكِ الشرع، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]. وقال هاهنا: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾. وهكذا رُويَ عن أُبيّ بن كعب، وابن عباس، ومجاهد، وقتادةَ، وغير واحدٍ.

[٤٩٦٩] «وفي الصحيحَينِ أنه يُقَال يوم القيامة لليهود: ما كنتم تعبدُون؟ فيقولون: كنا نعبد عُزَير ابن الله. فيقال: كذبتم، ما اتخذ الله من وَلَدٍ، ماذا تبغُون؟ فيقولون: أَيْ رَبّنا، عَطِشنا فَاسقِنا. فيقال: ألا تَرَون؟ فَتمثَّلُ لهم النارُ كأنها سَرَاب يحطِمُ بعضُها بعضاً، فينطلقون فيتهافَتُون فيها»[1]. وهذا مثالٌ لذوي الجهل المُرَكّب، فأما أصحابُ الجهل البسيطِ، وهم الطّماطم الأغشامُ المقلِّدون لأئمة الكفر، الصُم البُكم الذين لا يعقِلون، فَمَثلُهم كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ ـ قال قتادةُ: وهو العميقُ ـ ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾، أي: لم يُقارِب رُؤيَتَها من شِدّة الظلام، فهذا مثلُ قلبِ الكافر الجاهل البسيط المقلِّد الذي لا يعرف حال من يقوده ولا يدرِي أين يذهب، ولا هو يعرِفُ حال من يوقدُه، بل كما يُقَال في المثلِ للجاهِل: أين تذهَبُ؟ قال: مَعَهم. قِيلَ: فإلَى أين يذهبُونَ؟ قال: لا أدري.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس ـ رَضِي الله عنهما ـ ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ﴾، يعني بذلك الغِشَاوة التي على القلب والسمع والبَصَر، وهي كقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة: ٧]، وكقولِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]. وقال أُبيّ بن كعب في قوله: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، فهو يَتقلب في خَمسة من الظلَم: كلامُه ظُلمةٌ، وعَمَله ظُلمة، ومَدخلُه ظُلمة، ومَخرَجُه ظُلمة، ومَصيره يومَ القيامةِ إلى الظُلُمات إلى النار. وقال الربيعُ بن أنسٍ، والسدّي نحوَ ذلك أيضاً.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾، أي: مَنْ لَم يهدِه الله فهو هَالِك جَاهِلٌ حائِرٌ بائِرٌ كافِرٌ، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وهذا في مُقابلةِ ما قال في مَثَل المؤمنين: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]. فَنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نُوراً، وعن أيماننا نُوراً، وعن شَمَائِلنا نُوراً، وأن يُعظِمَ لنا نُوراً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٥٨١ ومسلم ١٨٣ من حديث أبي سعيد الخدري، وقد تقدم.

يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

يُخبر تعالى أنه يُسبِّحه مَن في السموات والأرض، أي: من الملائكة والأناسي، والجانّ والحيوانِ، حتى الجَماد، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقولُه: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾، أي: في حال طَيرانِها تُسبح ربَّها وتعبدُه بتسبيح ألهمَها وأرشدَها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلةٌ، ولهذا قال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، أي: كلٌّ قد أرشدَه إلى طريقتِه ومَسلَكِه في عبادةِ الله عزَّ وجلَّ. ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. ثم أخبر تعالى: أن له ملكَ السمواتِ والأرض، فهو الحاكِمُ المتصرِّف الذي لا مُعقِّب لِحُكْمِهِ، وهو الإلهُ المعبودُ الذي لا تَنبغي العبادةُ إلا له، ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾، أي: يومَ القيامة، فيحكُم فيه بما يشاء، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، فهو الخالقُ المالِك، ألا له الحُكمُ في الدنيا والأُخرىٰ، وله الحمدُ في الأُولى والآخِرَة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾

يذكُر تعالى أنه بقُدرته يسوق السحابَ أول ما يُنشِئها وهي ضعيفةٌ، وهو الإزجاءُ، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾، أي: يجمَعه بعد تفرُّقه، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾، أي: متراكماً، أي: يَرْكَب بعضه بعضاً، ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾، أي: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، أي: من خَلَلِه. وكذلك قرأها ابنُ عبّاسٍ والضّحاك. قال عُبيد بن عُمير اللّيثي: يَبعث الله المُثيرةَ فتَقُمُّ الأرضَ قمّاً، ثم يبعثُ الله الناشِئة فتُنشِيءُ السحابَ، ثم يَبعَثُ الله المؤلِّفة فتُؤلِّفُ بينه، ثم يبعث الله اللواقح فتُلقِحُ السحابَ. رواه ابنُ أبي حاتم، وابنُ جَرير، رحمهما الله.

وقولُه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾، قال بعض النحاة: «من» الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتّبعيض، والثالثة لبيان الجنس. وهذا إنما يجيءُ على قولِ من ذَهَب من المُفسِّرين إلى أنَّ قوله: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾، معناه: أن في السماء جبالَ بَرَد ينزل الله منها البرد. وأما من جعل الجبال هاهنا كنايةً عن السحاب، فإن «من» الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضاً، لكنها بَدَلٌ من الأولى، والله أعلم. وقولُه تعالىٰ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾، يَحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾، أي: بما يُنزل من السماء من نَوْعَي المَطَرِ والبَرَدِ، فيكون قوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾، رحمةً لهم، ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾، أي: يُؤخِّر عنهم الغيثَ. ويَحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾، أي: بالبَرَد نقمةً على من يشاء، لما فيه من نَثْر ثِمارِهم، وإتلافِ زُروعهم وأشجارهم، ويَصرِفُه عمَّن يشاءُ رحمةً بهم.

وقولُه تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾، أي: يكادُ ضوءُ بَرْقِه من شِدَّته يَخطَفُ الأبصارَ إذا اتّبعته وتَراءته. وقولُه: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، أي: يَتصرَّفُ فيهما، فيأخذُ من طُولِ هذا في قِصَر هذا حتّى يَعتدِلا، ثم يأخذُ من هذا في هذا، فيَطُولُ الذي كان قصيراً، ويَقصُر الذي كان طويلاً. والله هو المتصرِّفُ في ذلك بأمرِه وقَهرِه. وعِزّته وعِلْمِه. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، أي: لَدليلاً على عَظَمته تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وما بعدها من الآياتِ الكريماتِ.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾

يذكر تعالى قُدرته التامَّة وسُلطانه العظيم، في خلقه أنواعَ المخلوقاتِ، على اختلافِ أشكالِها وألوانِها، وحَركاتِها وسَكَناتِها، من ماءٍ واحدٍ، ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾، كالحيَّة وما شاكلها، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾، كالإنسان والطير، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾، كالأنعام، وسائرِ الحيواناتِ. ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: بِقُدرَتِه، لأنه ما شاء كانَ، وما لم يَشَأ لم يَكُن، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

يُقَرِّر تعالى أنه أنزلَ في هذا القرآنِ من الحُكْمِ والحِكَم والأمثالِ البَيِّنَةِ المُحكمَةِ كثيراً جدّاً، وأنه يُرشِدُ إلى تفهُّمها وتعقّلها أولي الألبابِ والبَصائر والنُّهى، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يُخبر تعالى عن صفاتِ المنافقين، الذين يُظهِرون خِلافَ ما يُبطِنُون، يَقُولُونَ قولاً بألسِنَتهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: يُخالِفُون أقوالَهم بأعمالِهم، فَيقُولون ما لا يفعلُون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقولُه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾، أي إذا طُلِبُوا إلى اتِّباع الهدى، فيما أنزل الله على رَسُوله، أعرضُوا عنه واستكبَرُوا في أنفُسِهم عن اتِّباعِهِ. وهذه كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦١].

[٤٩٧٠] وفي الطَّبَرانيِّ من حَديثِ رَوح بن عطاءِ بن أبي مَيمُونَةَ، عن أبيه، عن الحَسَن، عن سَمُرَة مرفوعاً: «من دُعي إلى سُلطانٍ فلم يُجب فهو ظالِمٌ لا حَقَّ له»(١).

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبراني ٦٩٣٩، قال الهيثمي في «المجمع» ٧٠٢٢: فيه روح بن عطاء، وثقه ابن عدي، وضعفه الأئمة اهـ وفيه عنعنه الحسن. وله طريق آخر أخرجه الطبراني ٧٠٧٨، وقال الهيثمي ٧٠٢١: فيه مساتير. وله طريق ثالث أخرجه البزار ١٣٦٣ وقال الهيثمي ٧٠٢٠: فيه يوسف بن خالد، ضعيف. قلت: بل متهم! وورد من حديث عمران بن حصين، أخرجه البزار ١٣٦٢، وقال: لا نعلم أحداً رواه عن النبي ﷺ متصل الإسناد إلا من هذا الوجه عن عمران، وقد رواه غير واحد عن الحسن مرسلاً، وأسنده روح، وهو ليّن الحديث اهـ وقال الهيثمي ٧٠١٩: روح ضعيف، ووثقه ابن عدي اهـ فالحديث غير قوي، فإن مداره على الحسن، وهو مدلس، وعنه روح وهو ضعيف، أو مجاهيل. والراجح فيه الإرسال كما ذكر البزار، رحمه الله وحكم ابن العربي ببطلانه، وانظر تفسير الشوكاني عند هذه الآية بتخريجي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾، أي إذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامِعِينَ مُطِيعين، وهو معنى قوله: ﴿مُذْعِنِينَ﴾، وإذا كانت الحكومةُ عليه أعرضَ ودَعَا إلى غير الحقِّ، وأحبَّ أن يتحاكم إلى غير النبي ـ ﷺ ـ ليروِّجَ باطلَه ثمَّ. فإذعانُه أولاً لم يكُن عن اعتقادٍ منه أنَّ ذلك هُو الحقُّ، بل لأنه موافقٌ لهواه، ولهذا لما خَالَف الحقُّ قَصْدَهُ عَدَل عنه إلى غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾، يعني: لا يخرجُ أمرُهم عن أن يكونَ في القُلُوب مَرَضٌ لازمٌ لها، أو قد عَرَضَ لها شَكٌّ فِي الدِين، أو يخافُون أن يَجُور الله ورسوله عليهم في الحكم! وأيّاً ما كان فهو كُفرٌ محضٌ، والله عليمٌ بكل منهم، وما هو عليه مُنْطَوٍ من هذه الصفاتِ.

وقولُه تعالى: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، أي: بل هُم الظالِمُونَ الفاجِرُونَ، والله ورسولُه مُبرّآن مما يَظنُّون ويتوهَّمُونَ مِنَ الحَيف والجَور، تعالى الله ورسولُه عن ذلك.

[٤٩٧١] قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مُوسَى بن إسماعيلَ، حَدَّثنا مباركٌ، حَدَّثنا الحسنُ قال: كان الرجلُ إذا كان بينه وبين الرجل منازعةٌ، فَدُعِي إلى النبي ـ ﷺ ـ وهو مُحقٌّ أذعنَ، وعَلِم أن النبي ـ ﷺ ـ سيَقضي له بالحقّ، وإذا أراد أن يَظلِم فَدُعِي إلى النبي ـ ﷺ ـ أعرضَ، وقال: انطلِقْ إلى فلانٍ. فأنزل الله هذه الآيَةَ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من كان بينه وبين أخيه شيءٌ فَدُعِيَ إلى حَكَمٍ من حُكّام المسلمين فأبى أن يُجيبَ فَهُو ظالمٌ لا حَقَّ له»[١]. وهذا حَديثٌ غريبٌ وهو مُرسَلٌ.

ثُم أخبر تعالى عن صفةِ المؤمنين المستجيبين لله ولرسولِه، الذين لا يَبغُون ديناً سِوَى كتاب الله وسُنَّة رسولِه، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، أي: سمعاً وطاعةً. ولهذا وَصَفَهم تعالى بالفلاح، وهو نيلُ المطلوبِ والسلامةُ من المرهوبِ، فقال تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. وقال قتادةُ في هذه الآية: ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: ذُكر لنا أن عُبادة بن الصامت ـ وكان عَقَبياً بَدْرِياً، أحدَ نُقَباء الأنصار ـ: أنه لما حَضَره الموتُ قال لابن أُختِهِ جُنادَةَ بن أبي أَميَّةَ: ألا أُنبِئُكَ بماذا عليكَ وَمَاذا لك؟ قال: بلى. قال: فإنَّ عليك السمعَ والطاعةَ، في عُسرِكَ ويُسرِكَ، ومَنْشَطِكَ ومَكْرهِكَ، وأثرةٍ عَلَيكَ، وعليك أن تُقِيم لسانَكَ بالعدل، وَألاّ تُنازِعَ الأمرَ أهلَه، إلا أن يأمروكَ بمعصيةِ الله بَوَاحاً، فما أُمِرتَ به من شيءٍ يُخالِفُ كتابَ الله فاتَّبِع كتابَ الله.

وقال قتادةُ: وَذُكِر لنا أن أبا الدرداء قال: لا إسلامَ إلا بطاعةِ الله، ولا خَيرَ إلا في جَمَاعةٍ، والنصيحةُ لله ولرسولِه، وللخليفةِ وللمؤمنين عامّةً. قال: وقد ذُكِرَ لنا أن عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان يقولُ: عُروةُ الإسلامِ شَهادةُ أَن لا إله إلا الله، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، والطاعةُ لمن وَلّاهُ الله أمر المسلمين. رواه ابن أبي حاتم. والأحاديثُ والآثارُ في وجوبِ الطاعةِ لكتاب الله وسُنَّة رسولِه، وللخلفاء الراشدين، والأئمة إذا أَمَروا بطاعةِ الله كثيرةٌ جداً، أكثرُ من أن تُحصَرَ في هذا المكان.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، قال قتادةُ: ﴿يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمراه، ويترك ما نَهَيا عنه، ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه، ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يُستَقبل. وقولُه: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، يعني: الذينَ فازُوا بِكُلِّ خيرٍ، وأَمِنُوا من كلِّ شَرٍّ في الدُنيا والآخرة.

---

(١) هو مرسل، وانظر ما قبله.

﴿۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٥٣ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٥٤﴾

يقولُ تعالى: مُخبِراً عن أهل النِّفاقِ، الذين كانوا يَحلِفُونَ للرسول ـ ﷺ ـ: لئن أمَرهم بالخروج في الغَزْو ليخرجن قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾، أي: لا تحلِفوا. وقولُه: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، قيل: تقديرُه طاعتكم طاعةٌ معروفةٌ، أي: قد عُلِمَ طاعتُكم، إنما هي قولٌ لا فعلَ معه، وكُلَّما حلفتم كَذَبتم، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٩٦﴾ [التوبة: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ [المنافقون: ٢]، فهم من سَجِيَّتِهم الكذبُ حتى فيما يختارونه، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١١ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١٢﴾ [الحشر: ١١ ـ ١٢]. وقيل: المعنى في قوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، أي: لِيكُن أمركُم طاعةً معروفةً، أي: بالمعروفِ من غير حِلْفٍ ولا إقسام، كما يُطِيع الله ورسولَه المؤمنون بغير حَلِفٍ، فَكُونُوا أنتم مثلَهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: هو خَبيرٌ بكم وبمن يُطيع ممن يَعصِي، فالحِلفُ وإظهارُ الطاعة ـ والباطن بخلافه، وإن راج على المخلوق ـ فالخالق تعالى يعلَم السرَّ وأخفى، لا يروجُ عليه شيءٌ من التدليس، بل هو خبيرٌ بِضَمائر عبادِه وإن أظهروا خلافَها.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، أي: اتَّبِعُوا كتابَ اللهِ وسنةَ رَسولِه. وقولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، أي: تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾، أي: إبلاغُ الرسالةِ وأداءُ الأمانةِ، ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾، أي: من قبولِ ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾، وذلك لأنه يدعُو إلى صراطٍ مستقيم ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى: ٥٣]. وقولُه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، كقولِه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقولِهِ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢]. وقال وَهبُ بن مُنَبِّه: أوحى الله إلى نَبيٍّ من أنبياءِ بني إسرائيلَ يُقال له شعياءُ: أن قُم في بني إسرائيل فإني سَأُطلِقُ لسانك بِوَحي، فقال: يا سماءُ اسمَعِي، ويا أرضُ أنصِتي، فإنَّ الله يُريد أن يَقضِيَ شأناً ويُدبِّر أمراً هو مُنفِذُه، إنه يُريد أن يُحوِّل الريفَ إلى الفَلاةِ، والآجامَ في الغِيطان، والأنهار في الصحاري، والنعمةَ في الفُقَراء، والمُلْكَ في الرعَاةِ، ويُريد أن يبعثَ أُميّاً من الأُميين، ليس بِفَظٍ ولا غَلِيظٍ ولا سَخّاب في الأسواق، لو يَمرُّ على جَنبِ السِراج لم يُطفِئْه من سَكِينته، ولو يَمشي على القَصَب اليابس لم يُسمِع من تحتِ قَدَميه. أبعثُه مَبَشراً ونَذيراً، لا يقول الخَنَا، أفتحُ به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلُوباً غُلفاً، وأسدِّدُه لِكُلِّ أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينَةَ لباسَه، والبرَّ شِعَارَه، والتقْوَى ضَمِيره، والحِكْمَةَ مَنطِقَه، والصدقَ والوفاءَ طَبيعته، والعَفْوَ والمعروفَ خُلُقه، والحقَّ شريعته، والعدلَ سِيرَته، والهُدى إمامَه، والإسلامَ مِلَّته، وأحمد اسمُه، أَهْدِي به بعدَ الضلالَةِ، وأعلِّمُ به من الجَهالة، وأَرْفَعُ به بعد الخمالة، وأُعرِّفُ به بعد النَّكْرَة، وأُكثِرُ به بعد القِلَّة، وأُغني به بعد العَيلَةِ، وأجمَعُ به بعد الفُرقة، وأُؤلِّف به بين أُمَمٍ مُتفرِّقة، وقُلوب مُختَلِفة، وأهواء مُتَشتِّتة، وأستنقِذُ به فِئَاماً من الناس عظيماً من الهَلَكة، وأجعَلُ أمتهُ خيرَ أمةٍ أُخرِجَت للناس، يَأمرُون

بالمعروفِ، ويَنْهَون عن المُنكَرِ، مُوحِّدين مُؤمِنين مُخلِصِين، مُصَدِّقين بما جاءت به رُسُلِي. رواه ابنُ أبي حاتمٍ.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

هذا وعدٌ من الله لرسولِه ـ ﷺ ـ بأنه سيجعَلُ أُمَّته خُلَفاءَ الأرض أئمةً للناسِ والولاةَ عليهم، وبهم تصلُح البلادُ، وتخضَع لهم العبادُ، ولَيُبَدِّلُنَّ بعد خَوفهم من الناسِ أمناً وحَكَماً فيهم. وقَد فَعَل تبارك وتعالى ذلك، وله الحمد والمنَّة: فإنه لم يُمت رسول الله ـ ﷺ ـ حتى فتح الله عليه مكَّة وخيبرَ والبحرين، وسائِر جَزيرة العَرَب وأرضَ اليمن بكمالها. وأخذَ الجِزية من مَجُوس هَجَر، ومن بعضِ أطرافِ الشام، وهاداه هرقلُ ملَكُ الروم، وصاحبُ مصرَ والإسكندرية ـ وهو المُقوقِسُ ـ وملوكُ عُمَان والنجَاشي مَلِكُ الحَبَشة، الذي تَمَلَّك بعد أصحَمَة، رَحِمه الله وأكرَمَه.

ثم لما ماتَ رسول الله ـ ﷺ ـ واختارَ الله له ما عندَه من الكرامةِ، قامَ بالأمر بعده خليفتُه أبو بكر الصديقُ، فَلَمَّ شعَثَ ما وَهَى بعد مَوْتِهِ ـ ﷺ ـ وأطَّدَ[1] جزيرةَ العرب ومَهَّدَها، وبعثَ الجيوشَ الإسلاميةَ إلى بلادِ فارسَ صحبةَ خالد بن الوليد ـ رَضي الله عنه ـ فَفَتحُوا طَرَفاً منها، وقتلوا خَلقاً من أهلها. وجيشاً آخر صُحبةَ أبي عُبَيدةَ ـ رضي الله عنه ـ ومن مَعَه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة عَمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصَرى ودِمَشقَ ومَخَاليفهما من بلاد حَوران وما والاها، وتوفاه الله ـ عزّ وجلّ ـ واختار له ما عندَه من الكرامةِ. ومَنَّ على الإِسلام وأهله بأن ألهم الصدِّيقَ أن استخلفَ عُمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياماً تامّاً، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ على مثله، في قُوَّةِ سيرتِهِ وكمالِ عَدلِهِ. وتَمَّ في أيامه فتحُ البلاد الشاميَّةِ بكمالها، وديار مِصرَ إلى آخرها، وأكثرُ إقليم فارسَ، وكَسَّر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقَصَّر قيصر، وانتزع يدَه عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينة، وأنفق أموالَهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك وَوَعد به رسول الله، عليه من رَبِّه أتم سَلاَم، وأزكى صَلاَة. ثم لما كانت الدولةُ العثمانيةُ[2] امتدت الممالكُ الإِسلاميةُ إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، فَفُتِحت بلادُ المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرصَ، وبلاد القيروان، وبلاد سَبْتَةَ[3] مما يلي البحر المحيط. ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصِين، وقُتِل كسرى، وباد ملكُه بالكلِّية. وفُتِحت مدائنُ العراق، وخُراسان، والأهوازُ. وقتلَ المسلمُونَ من التُركِ مقتلةً عظيمةً جداً، وخَذَلَ الله مَلِكَهم الأعظَم خاقان، وجُبِيَ الخراجُ من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه. وذلك ببركة تِلاَوته ودراسته وجَمعه الأُمَّةَ على حفظِ القرآن.

[٤٩٧٢] ولهذا ثَبَت في الصَحِيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن الله زَوَى لي الأرض فرأيتُ

---

(١) أطَّد: ثبّت.

(٢) المراد عثمان بن عفان، وإلا فابن كثير كان قبل قيام الدولة العثمانية التركية.

(٣) مدينة تحت الاستعمار الإسباني حالياً، وذلك بعد أن كانت مئات السنين، من مدن الإسلام. نسأل الله أن يعيدها وكامل بلاد المسلمين.

مشارِقَهَا ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوِيَ لي منها»[١]. فها نحنُ نَتَقلَّب فيما وَعَدنا اللهُ ورسولُه، وصَدَق اللهُ ورسولُه، فنسأل الله الإيمانَ به، وبرسوله، والقيامَ بِشُكْرِهِ على الوجهِ الذي يُرْضِيه عنا.

[٤٩٧٣] قال الإمامُ مُسلِمُ بن الحجّاج في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سَمُرَة قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا يزالُ أمرُ الناس ماضِياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً». ثم تكلم النبيّ ـ ﷺ ـ بكلمة خفيت عَلَيّ فسألتُ أبي: ما قال رسولُ الله ﷺ؟ فقال: كُلُّهم من قريش[٢]. ورواه البخاري من حديث شُعبةَ، عن عبد الملك بن عُمَير، به، وفي رواية لِمُسلم «أنه قال ذلك عَشِية رَجْم ماعز بن مالك»، وذكر معه أحاديث أخر. وهذا الحديثُ فيه دلالةٌ على أنه لا بدّ من وجود اثني عشرَ خلِيفةً عادلاً، وليسوا هم بأئمة الشيعةِ الاثني عَشَر، فإن كثيراً من أولئك لم يكُن إليهم من الأمر شيءٌ؛ فأما هؤلاء فإنهم يكُونون من قريشٍ، يَلُون فَيعدِلون. وقد وقعت البشارةُ بهم في الكُتُب المتقدمة، ثم لا يُشترَط أن يكونوا مُتتابعين، بل يكون وجودُهم في الأُمّةِ مُتَتابعاً ومُتفرِّقاً، وقد وُجد منهم أربعة على الولاء، وهم: أبو بكر، ثم عُمَر، ثم عُثمان، ثم عَلِيٌّ رضي الله عنهم. ثم كانت بعدهم فترةٌ بينهم، ثم وُجِد منهم ما شاءَ الله، ثم قد يُوجَد منهم مَن بَقِي في وقتٍ يعلمُه الله. ومنهم المهديُّ الذي يُطابِق اسمُه اسم رسول الله ـ ﷺ ـ وكُنيته كُنيته، يملأُ الأرض عدلاً وقِسطاً، كما مُلِئت جُوراً وظُلماً.

[٤٩٧٤] وقد رَوى الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والترمذيُّ، والنَّسائيُّ، من حديث سَعِيد بن جُمْهانَ، عن سَفِينَة ـ مولى رسول الله ـ ﷺ ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الخلافةُ بعدي ثلاثونَ سنةً، ثم تكونُ ملكاً عَضُوضاً»[٣].

[٤٩٧٥] وقال الربيعُ بن أَنس، عن أبي العاليةِ في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ . . . الآية، فقال: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ وأصحابه بمكةَ نحواً من عَشرِ سِنينَ، يَدعُون إلى الله وحدَه، وعبادَتَه وحدَه لا شريكَ له، سراً وهم خائفون، لا يُؤمَرُون بالقتال، حتى أُمِروا بعدُ بالهجرة إلى المدينة، فَقَدِمُوا المدينةَ، فأمرهم الله بالقتال، فكانوا بها خائفين يُمْسُون في السلاح ويُصبِحُون في السلاح، فَغَبَرُوا بذلك ما شاء الله. ثم إن رجلاً من أصحابه قال: يا رسولَ الله، أَبَدَ الدهر نحن خائفون هكذا؟ ما يأتي علينا يوم نأمنُ فيه ونضع عنا فيه السلاحَ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لن تَغْبُرُوا إلا يسيراً حتى يجلِس الرجُل منكم في الملأ العظيم مُحتبياً، ليست فيهم حَدِيدَةٌ. وأنزل الله هذه الآية، فأظهر الله نَبيّه على جزيرةِ العَرَب، فَأَمِنُوا ووضعوا السلاح. ثم إن الله ـ عزّ وجلّ ـ قبضَ نبيه ـ ﷺ ـ فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعُمَر وعثمانَ حتى وَقَعُوا فيما وقعوا، فَأُدخِلَ عليهم الخوف، فاتخذوا الحَجَزَة والشرَط وغَيّروا، فَغُيِّرَ بهم[٤].

---

(١) تقدم في تفسير سورة الأنعام عند آية: ٦٥.

(٢) تقدم في تفسير سورة المائدة عند آية: ١٢.

(٣) صحيح. أخرجه أبو داود ٤٦٤٦ والترمذي ٢٢٢٦ والطيالسي ١١٠٧ وأحمد ٥/ ٢٢١ والنسائي في «فضائل الصحابة» ٥٢ والحاكم ٣/ ١٤٥ وصححه ابن حبان ٦٦٥٧ و٦٩٤٣، ومداره على سعيد بن جمهان فيه كلام، وقد وثق. وقد صححه ابن تيمية في «الفتاوى» ٣٥/ ١٨ وقال: ثبته أحمد هو متفق عليه عند الفقهاء، وأهل السنة. وفي الباب من حديث أبي بكرة أخرجه أحمد ٥/ ٤٤ وأبو داود ٤٦٣٥ وفيه علي بن زيد، وهو ضعيف، لكن يصلح شاهد.

(٤) أخرجه الطبري ٢٦١٧٩ عن أبي العالية مرسلاً، لكن لأصله شواهد، والله أعلم.

وقال بعضُ السلَفِ: خلافةُ أبي بكر وعُمَر ـ رضي الله عنهما ـ حقٌّ في كتابه، ثم تلا هذه الآية.

وقال البراءُ بن عازبٍ: نَزَلت هذه الآيةُ ونحنُ في خوفٍ شديدٍ. وهذه الآيةُ الكريمةُ كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦]. وقولُه تعالى: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، كما قال تعالى عن موسى ـ عليه السلام ـ أنه قال لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٥ ـ ٦].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.

[٤٩٧٦] كما قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لِعديِّ بن حاتم، حينَ وَفَد عليه: «أتعرِفُ الحيرة[1]؟ قلت: لم أرها، ولكن قد سَمِعتُ بها. قال: «فوالذي نفسي بيده لَيُتِمَّن الله هذا الأمرَ حتى تخرجَ الظعينة من الحِيرَةِ حتى تطوفَ بالبيتِ في غير جوارِ أحدٍ، ولَتَفتَحُنَّ كنوزَ كسرى بن هُرمُزَ. قلت: كِسرى بن هُرمُزَ؟! قال: نعم، كسرى بن هُرمُزَ، وليُبذَلَنَّ المالُ حتى لا يقبَلُه أحد». قال عَدِيُّ بن حاتِم: فهذه الظعينةُ تخرج من الحيرةِ فتطوفُ بالبيتِ في غير جوارِ أحدٍ، ولقد كنتُ فيمن افتتَح كُنوزَ كِسرَى بن هُرمُزَ، والذي نفسي بيده لتكونَنَّ الثالثةُ، لأن رسول الله ـ ﷺ ـ قد قالَها[2].

[٤٩٧٧] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا سُفيانُ، عن أبي سَلَمة، عن الرُّبيع بن أنسٍ، عن أبي العَاليةِ، عن أُبَي بن كَعبٍ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بَشِّر هذه الأمة بالسناءِ والرفعةِ، والدين والنَّصر والتمكينِ في الأرض، فمن عَمِل منهم عَمَل الآخرةِ للدنيا لم يَكُن له في الآخرةِ نَصِيبٌ»[3].

[٤٩٧٨] وقولُه: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا عَفَّان، حدثنا هَمّام، حدثنا قتادةُ، عن أنس، أن مُعاذَ بن جَبَل حَدَّثه قال: بينما أنا رَديفُ رسول الله ـ ﷺ ـ ليس بيني وبينه إلا آخِرَةُ الرَّحْل، قال: «يا معاذُ، قلت: لَبَّيكَ يا رسولَ الله وسَعْدَيكَ. ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: ثم سار ساعةً ثم قال: يا معاذُ بن جَبَلٍ. قلت: لَبَّيْكَ يا رسولَ الله وسَعْدَيكَ. قال: هل تَدْري ما حَقُّ اللهِ على العبادِ. قلت: الله ورسولُه أعلم. قال: حَقُّ اللهِ على العِبَادِ أن يَعبدُوه ولا يُشرِكوا به شيئاً، قال: ثم سار ساعةً ثم قال: يا معاذُ بنَ جبلٍ. قلت: لَبَّيكَ يا رسولَ الله وسَعْدَيكَ. قال: فهل تَدرِي ما حقُّ العباد على الله إذا فَعَلُوا ذلك؟ قلتُ: الله ورسولُه أعلمُ. قال: فإن حَقَّ العبادِ على الله ألاَّ يُعَذِّبهم»[4]. أخرجاه في الصحيحَين من حديث قَتادَةَ.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أي: فمن خَرَج عن طاعتي بعد ذلك فقد فَسَق عن أمر رَبِّه وكفى بذلك ذنباً عظيماً. فالصحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ لما كانوا أقوَمَ الناس بعد النبي ـ ﷺ ـ

---

(١) الحيرة: قرب الكوفة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٩٥ والبيهقي في «الدلائل» ٥/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤ من حديث عدي بن حاتم.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٥/ ١٣٤ والحاكم ٤/ ٣١١ وابن حبان ٤٠٥، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وفي إسناده الربيع بن أنس، وهو صدوق، وتوبع عند أحمد ٥/ ١٣٤، وإسناده على شرطهما.

(٤) صحيح. أخرجه البخاري ٥٩٦٧ و٦٢٦٧ ومسلم ٣٠ وأحمد ٥/ ٢٤٢ وابن حبان ٣٦٢.

بأوامر الله ـ عزّ وجلّ ـ، وأطوعهم لله ـ كان نصرُهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم الله تأييداً عظيماً، وتحكموا في سائر العبادِ والبلادِ. ولما قَصّر الناس بعدَهم في بعض الأوامر نَقَص ظهورُهم بِحسبِهم.

[٤٩٧٩] ولكن قد ثبت في الصحيحين، من غير وَجه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة». وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك»[١]. وفي رواية: «حتى يقاتلوا الدجالَ»[٢]. وفي رواية: «حتى ينزل عيسى ابن مريمَ وهم ظاهرون»[٣]. وكل هذه الروايات صَحِيحةٌ، ولا تعارُضَ بينها.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً عبادَه المؤمنين بإقام الصلاة، وهي: عبادةُ اللهِ وحدَه لا شريكَ له، وإيتاءُ الزكاةِ، وهي: الإحسانُ إلى المخلوقين ضُعَفائهم وفقرائهم، وأن يكونوا في ذلك مُطيعين للرسولِ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أي: سالكينَ وراءه فيما أمرهم، وتاركين ما عنه زَجَرهم، لعلَّ الله يرحمُهم بذلك، ولا شكَّ أنَّ من فعل ذلك أن الله سيرحمُهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١]. وقولُه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾، أي: يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أي: خالَفوك وكذبوك، ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لا يُعجِزون الله، بل اللهُ قادرٌ عليهم، وسَيُعذِّبهم على ذلك أشدَّ العذاب، ولهذا قال ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: في الدار الآخرةِ ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: بئسَ المآلُ مآلُ الكافرين، وبِئسَ القرارُ وبِئسَ المهادُ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

هذه الآياتُ الكريمةُ اشتَمَلت على استئذان الأقارب بعضِهم على بعض. وما تقدم في أول السورة فهو استئذانُ الأجانبِ بعضِهم على بعض، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنَهم خَدَمُهم مما ملكت أيمانُهم

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٩٢٠ وأبو داود ٤٢٥٢ والترمذي ٢١٧٧ من حديث ثوبان، وأخرجه مسلم ١٩٢٣ ح ١٧٣ من حديث معاوية.

(٢) أخرجه البزار ٣٣٨٧ من حديث نهيك بن صُريم، وإسناده ضعيف، وله شاهد من حديث أنس أخرجه أبو يعلى ٢٨٢٠ والحاكم ٤/ ٥٤٤ وإسناده ضعيف لأجل عباد بن منصور، لكن للحديث شواهد تقويه.

(٣) أخرجه أبو يعلى ٢٠٧٨ من حديث جابر وإسناده ضعيف، لكن أصله عند مسلم ١٥٦ وأحمد ٣/ ٣٨٤ وفي الباب أحاديث كثيرة.

وأطفالُهم الذين لم يبلُغوا الحلم منهم في ثلاثةِ أحوال: الأول من قبل صَلاة الغداةِ، لأن الناس إذ ذاك يكونونَ نياماً في فُرُشهم، ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾، أي: في وقتِ القَيلُولة؛ لأن الإنسانَ قد يَضَع ثيابه في تلك الحال مع أهلِه، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾، لأنه وقتُ النوم، فيُؤمَرُ الخَدَمُ والأطفال ألاَّ يَهجُمُوا على أهل البيت في هذه الأحوالِ، لما يُخشَى من أن يكون الرجلُ على أهله، أو نحو ذلك من الأعمال، ولهذا قال: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾، أي: إذا دَخلُوا في غَيرِ هذه الأحوالِ فلا جُناحَ عليكم في تمكينكُم إياهُم من ذلك، ولا عَليهم إن رأوا شيئاً في غير تلك الأحوالِ، لأنه قد أُذِن لهم في الهجوم، ولأنهم ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾، أي: في الخدمةِ وغير ذلك. ويغتفر في الطوّافين ما لا يُغتَفر في غيرهم.

[٤٩٨٠] ولهذا رَوَى الإمام مالكٌ وأحمدُ بن حَنبلٍ وأهلُ السنَن أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال في الهِرَّة: «إنها ليست بِنَجس؛ إنها من الطَوّافين عليكُم، أو: والطَوّافاتِ»[١]. ولما كانت هذه الآيةُ محكمةً ولم تُنسَخ بشيء، وكان عمل الناس بها قليلاً جداً، أنكر عبدُ الله بن عباس ذلكَ على الناس.

كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لَهِيعَةَ، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جُبَير قال: قال ابنُ عباس: تركَ الناسُ ثلاثَ آياتٍ فلم يعمَلُوا بهنَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ . . . إلى آخر الآيةِ، والآيةَ التي في سورةِ النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨]، والآية التي في الحُجُراتِ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وروى أيضاً من حديث إسماعيل بن مسلم ـ وهو ضعيفٌ ـ عن عَمرو بن دينار، عن عَطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: غلب الشيطانُ الناسَ على ثلاثِ آياتٍ، فلم يعملوا بهنَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ . . . إلى آخر الآية.

وقال أبو داود: حدثنا ابن الصباح بن سفيان، وابن عَبْدَه ـ وهذا حديثُه ـ أخبرنا سفيانُ، عن عُبَيد الله ابن أبي يزيد، سَمِع ابنَ عباس يقول: لم يُؤمن بها أكثرُ الناس آيةُ الإذن، وإني لآمُرُ جاريتي هذه تستأذِنُ عَلَيّ. قال أبو داود: وكذلك رواه عطاءٌ، عن ابن عباسٍ يأمُرُ به. وقال الثوريُّ، عن موسى بن أبي عائشةَ سألتُ الشعبيَّ: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، قال: لَم تُنسَخ، قلتُ: فإنَّ الناس لا يعمَلُون بها؟ فقال: الله المستعان.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الربيعُ بن سُليمانَ، حدثنا ابنُ وهب، أخبرنا سُليمان بن بلالٍ، عن عمرو ابن أبي عَمرو، عن عِكرمَةَ، عن ابن عباسٍ: أنّ رجلين سَألاه عن الاستئذانِ في الثلاثِ عَوراتِ التي أمر الله بها في القرآنِ، فقال ابن عباس: إن الله سِتِّير يحب السترَ، كان الناسُ ليس لهم سُتورٌ على أبوابهم ولا حِجَال[٢] في بُيوتهم، فربما فاجأ الرجلَ خادمُه أو ولده أو يتيمُه في حجره، وهو على أهلِه، فأمرهم الله أن يستأذِنوا في تلك العَوراتِ التي سَمّى الله. ثم جاء بعده الستورُ، فبسط الله عليهم في الرزقِ، فاتخذوا الستورَ واتخذوا الحِجَال، فرأى الناسُ أنّ ذلك قد كَفَاهم من الاستئذانِ الذي أُمِرُوا به. وهذا إسنادٌ صَحِيح إلى ابن عباس، ورواه أبو داودَ، عن القَعنبي، عن الدَّراوردي، عن عَمرو بن أبي عَمرو به.

---

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٧٥ والترمذي ٩٢ والنسائي ١/ ٥٥ وابن ماجه ٣٦٧ وأحمد ٥/ ٣٠٣ وابن حبان ١٢٩٩ وصححه الحاكم ١/ ١٦٠ ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو كما قالوا، وتقدم.

(٢) الحجلة: كالقبة، وموضع يزين بالثياب والستور للعروس.

وقال السّديّ: كان أناسٌ من الصحابةِ ـ رَضِي الله عنهم ـ يُحبون أن يُوَاقعوا نساءهم في هذه الساعات، ليغتسلوا ثم يخرجُوا إلى الصلاةِ. فأمرهُم الله أن يأمروا المملوكين والغِلمان ألاَّ يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن.

[٤٩٨١] وقال مقاتل بن حَيَّان: بَلَغنا ـ والله أعلم ـ أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماءُ بنتُ مرثد صَنَعا للنبي ـ ﷺ ـ طعاماً، فجعل الناس يدخلون بغير إذن. فقالت أسماءُ: يا رسولَ الله، ما أقبحَ هذا! إنه لَيَدخُلُ على المرأة وزوجها، وهما في ثوب واحد غلامُهما بغير إذن! فأنزل الله في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾[١] . . . الآية. ومما يَدلّ على أنها مُحكمة لم تنسخ، قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، يعني إذا بلغ الأطفالُ الذين إنما كانُوا يستأذنون في العَورات الثلاثِ، إذا بَلَغوا الحلم وَجبَ عليهم أن يستأذنوا على كُلِّ حال، يعني بالنسبة إلى أجانبهم وإلى الأحوالِ التي يكون الرجل فيها مع أهله، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث.

قال الأوزاعي: عن يحيى بن أبي كَثير: إذا كان الغلامُ رَباعياً فإنه يستأذنُ في العَوراتِ الثلاثِ على أبَويه، فإذا بلغ الحُلُم فَليستأذِن على كُلِّ حالٍ. وهكذا قال سَعِيد بن جُبَير. وقال في قوله: ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، يعني: كَمَا استأذَنَ الكبارُ من وَلَدِ الرجل وأقاربه. وقولُه: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، قال سعيد بن جُبَير، ومقاتلُ بن حَيَّان، وقتادةُ، والضحَّاكُ: هُنَّ اللواتي انقطع عنهنَّ الحيضُ ويَئسْنَ من الولد، ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾، أي: لم يبقَ لهن تَشوُّفٌ إلى التزويج، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾، أي: ليس عليها من الحَجْرِ في التَستُّر كما على غيرها من النساء.

قال أبو داود: حدثنا أحمدُ بن محمد المروزيّ، حدثني علي بن الحُسَين بن واقد، عن أبيه، عن يزيدَ النحويّ، عن عِكرِمَةَ، عن ابن عَبَّاس: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. . . الآية، فَنُسِخَ، واستُثنيَ من ذلك: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ . . . الآية. قال ابنُ مسعود: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾، قال: الجِلْبابُ، أو الرِّداءُ. وكذا رُوِي عن ابن عباس، وابن عُمَر، ومجاهِدٍ، وسعيد بن جُبَير، وأبي الشعثاءِ، وإبراهيمَ النخعِيِّ، والحَسَنِ، وقتادةَ، والزهريّ، والأوزاعيِّ، وغيرهم. وقال أبو صالح: تَضَع الجلبابَ، وتقومُ بين يَدَي الرجُلِ في الدرْع والخِمَارِ. وقال سعيد بن جُبَير وغيره، في قراءة عبد الله بن مسعُودٍ: «أن يَضعْنَ مِن ثِيَابهنَّ»: وهو الجلبابُ من فوقِ الخِمَارِ، فلا بأس أن يَضَعن عند غريبٍ أو غيره، بعد أن يكون عليها خمار صَفيق.

وقال سعيد بن جُبَير في الآيَة: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾، يقولُ: لا يتبرّجن بِوَضع الجلباب أن يُرى ما عليها من الزينَةِ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عُبَيد الله، حدثنا ابنُ المبارك، حدثني سوار بن ميمون، حدثتنا طلحةُ بنتُ عاصم، عن أم المضاء، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: دخلتُ عليها فقلتُ: يا أمَّ المؤمنين، ما تقولين في الخِضَاب، والنفاض[٢]، والصبَاغ، والقُرطين، والخَلْخَالِ، وخاتَم الذهبِ، وثيابِ الرقاق؟ فقالت: يا معشَر النساءِ، قِصّتكنّ كلُها واحدةٌ، أحلَّ الله لكنَّ الزينةَ غيرَ مُتبرِّجاتٍ. أي: لا يَحلُّ لكنَّ أن يَرَوا منكنَّ مُحرَّماً.

---

(١) هذا معضل. وهو من قسم الضعيف. ومقاتل ذو مناكير.

(٢) النفاض: إزار للصبيان.

وقال السُّدّي: كان شريكٌ لي يُقال له: مُسلِم، وكان مولىً لامرأةِ حُذَيفة بن اليمان، فجاء يوماً إلى السوقِ وأثر الحناء في يَدِه، فسألته عن ذلك، فأخبرني أنه خَضَب رأس مولاته ـ وهي امرأة حُذَيفة ـ فأنكرتُ ذلك، فقال: إن شئتَ أدخلتُكَ عليها؟ فقلتُ: نعم. فأدخلني عليها، فإذا امرأةٌ جليلةٌ، فقلتُ: إن مُسلِماً حَدَّثني أنه خَضَب رَأسَكِ؟ فقالت: نَعَم، يا بُنَيّ، إني من القواعد اللاتي لا يَرجُون نكاحاً؛ وقد قال الله في ذلك ما سَمِعتَ. وقولُه: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾، أي: وتَرْكُ وَضعِهنَّ لِثيابهنَّ، وإن كانَ جائزاً، خيرٌ وأفضلُ لهنّ، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)﴾

اختلف المفسرون ـ رَحِمهم الله ـ في المعنى الذي رُفِع من أجله الحرجُ عن الأعمى والأعرج والمريضِ هاهنا، فقال عطاءُ الخراساني، وعبدُ الرحمنِ بن زيدِ بنِ أسلَم: يُقَال إنها نزلت في الجهاد. وجَعَلوا هذه الآيةَ هاهنا كالتي في سورة الفتح، وتلك في الجهادِ لا محالةَ، أي: إنهم لا إثمَ عليهم في تَرك الجهادِ، لِضَعفهم وعَجزهم، وكما قال تعالى في سورة براءة: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾. وقيل: المراد هَهنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكلِ مع الأعمى، لأنه لا يَرَى الطعام وما فيه من الطيِّباتِ، فربما سبقه غيرُه إلى ذلك، ولا مع الأعرجِ لأنه لا يَتَمكّن من الجلوس فيفتاتَ عليه جليسُه، والمريضِ لا يستوفي من الطعام كغيره. فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآيةَ رخصةً في ذلك. وهذا قول سَعيد بن جُبَير، ومِقْسَم.

وقال الضَّحاكُ: كانوا قبل المبعث يتحرَّجون من الأكل مع هؤلاء تَقذُّراً وتَقزُّزاً، ولئلا يَتَفضَّلوا عليهم، فأنزل الله هذه الآية. وقال عبد الرزّاق: أخبرنا معمرٌ، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾... الآية قال: كان الرجلُ يذهَبُ بالأعمى أو الأعرج أو المريضِ إلى بيتِ أبيه، أو بيتِ أخيه، أو بيتِ أخته، أو بيتِ عَمّته، أو بيت خالته. فكان الزمنى يَتَحرَّجون من ذلك، يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم. فنزلت هذه الآية رخصةً لهم. وقال السُّدّي: كان الرجل يدخلُ بيتَ أبيه، أو أخيه أو ابنه، فتُتحفه المرأةُ بالشيءِ من الطعام، فلا يأكُل من أجل أن رَبَّ البيت ليس ثَمّ. فقال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾، إنما ذُكر هذا، وهو معلومٌ، ليعطف عليه غيره

في اللفظ، وليُساوِيَ به ما بعدَه في الحُكم. وتَضَمَّنَ هذا بيوتَ الأبناء، لأنه لم يَنُصَّ عليهم. ولهذا استدلَّ بهذا من ذَهبَ إلى أنّ مال الولدِ بمنزلة مال أبيه.

[٤٩٨٢] وقد جاء في المسند والسنَن، من غير وجه، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «أنتَ ومالُك لأبيك»[١]. وقولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾، هذا ظاهرٌ. وقد يَستدِلُّ به من يُوجِب نَفقه الأقارِبِ بعضِهم على بعضٍ، كما هو مذهبُ أبي حَنِيفة والإمامِ أحمدَ بن حَنبَلٍ، في المشهور عنهما. وأمّا قولُ: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾، فقال سعيدُ بنُ جُبيرٍ، والسدِّي: هو خادمُ الرجلِ من عبدٍ وقَهرَمان[٢]، فلا بأسَ أن يأكلَ مما استودَعه من الطعَامِ بالمعروف. وقال الزُهرِيُّ، عن عُروَةَ، عن عائِشَةَ ـ رَضِي الله عنها ـ قالت: كان المسلمُون يرغَبُون في النفِير مع رسول الله ـ ﷺ ـ، فيدفَعُون مفاتحهم إلى ضُمَنائِهِم، ويقولون: قد أحْللنا لَكُم أن تأكلوا مِمّا احتجتم إليه. فكانوا يقولون: إنه لا يحلّ لنا أن نأكلَ؛ إنهم أذنوا لنا عن غير طِيب أنفُسِهم، وإنما نحن أُمناءُ. فأنزل الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾، أي: بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جُناحَ عليكُم في الأكلِ منها إذا عَلِمتم أنَّ ذلك لا يَشُقّ عَلَيهِم ولا يَكرَهُون ذلك. وقال قتادةُ: إذا دخلت بيتَ صَدِيقك فلا بأسَ أن تَأكل بغيرِ إذنه. وقولُه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباسٍ في هذه الآية: وذلك لَمّا أنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]، قالَ المسلمُون: إنَّ الله قد نَهانا أن نأكُل أموالَنا بيننا بالباطِل، والطعامُ هو أفضلُ الأموال، فلا يحلُّ لأحد منا أن يأكلَ عند أحدٍ. فكفَّ الناسُ عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾، إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾، وكانوا أيضاً يأنفونَ ويتحرَّجُون أن يأكُلَ الرجلُ الطعامَ وحدَه، حتى يكون مَعَه غيرُه، فَرَخصَّ الله لهم في ذلك، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾. وقال قتادةُ: كانَ هذا الحيُّ من بني كِنَانَة يرى أحدُهم أن مخزاةً عليه أن يأكُلَ وحدَه في الجاهلية، حتى إن كان الرجلُ لَيسُوق الذَّودَ الحُفَّل وهو جائعٌ حَتَّى يَجدَ مَن يُؤاكله ويُشَارِبُه، فأنزَلَ الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾. فهذه رخصةٌ من الله تعالى في أن يأكلَ الرجلُ وحدَه، ومع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعةِ أفضلَ وأبركَ، كما رواهُ الإمامُ أحمدُ:

[٤٩٨٣] حدثنا يزيدُ بن عبدِ رَبِّه، حدثنا الوليدُ بن مسلم، عن وَحْشيِّ بن حَربٍ، عن أبيه، عن جَدِّه: أنَّ رجلاً قال للنبيِّ ـ ﷺ ـ: إنّا نأكلُ ولا نشبَع؟! قال: «فَلَعَلَّكُم تأكلون مُتفرِّقين، اجتَمِعُوا على طعامكم، واذكروا اسم الله يُبَارَكْ لكم فيه»[٣]. وَرَواه أبو داودَ وابنُ ماجه، من حديث الوليد بن مُسلم، به.

[٤٩٨٤] وقد رَوَى ابنُ ماجه أيضاً، من حديث عَمرو بن دينار القَهْرَماني، عن سالم، عن أبيه، عن

---

(١) صحيح. أخرجه أبو داود ٣٥٣٠ وابن ماجه ٢٢٩٢ وأحمد ٢/ ١٧٩ من حديث عبد الله بن عمرو، وإسناده حسن، وله شواهد منها حديث جابر عند ابن ماجه ٢٢٩١ قال البوصيري في «الزوائد»: وإسناده صحيح على شرط البخاري. ومنها حديث عائشة عند ابن حبان ٤١٠، وحديث ابن مسعود عند الطبراني في «الكبير» ١٠٠١٩.

(٢) القهرمان: هو من يقوم بأمر الرجل من تجارة، وخدمة، ونحو ذلك.

(٣) مضى في سورة المائدة: ٤. وهو حسن بشواهده.

عُمَر، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «كُلُوا جميعاً ولا تَفرقُوا؛ فإنَّ البركة مع الجَمَاعة»[1].

وقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، قال سعيد بن جُبَير، والحسن البصري، وقتادةُ، والزهريُّ: فَلْيُسلِّم بعضُكم على بعضٍ. وقال ابنُ جريج: أخبرني أبو الزُّبَير: سَمِعتُ جابِرَ بن عبدِ الله يقول: إذا دَخلتَ على أهلِكَ فَسلِّم عليهم تحيةً من عند الله مباركةً طيبةً. قال: ما رأيته إلا يُوجِبه. قال ابن جريج: وأخبرني زياد، عن ابن طاووسَ أنه كان يقول: إذا دخلَ أحدكم بيته فَلْيُسَلِّم. قال ابنُ جُرَيج: قلتُ لعطاء: أواجبٌ إذا خرجْتُ ثم دَخلتُ أن أُسَلِّم عليهم؟ قال: لا، ولا آثِرُ وجوبه عن أحد، ولكن هو أحب إلي، وما أدعه إلا ناسياً. وقال مجاهد: إذا دخلتَ المسجد فقل: السلامُ على رسولِ الله. وإذا دَخلت على أهلِك فَسَلِّم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحدٌ فقل: السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالِحينَ. وروى الثوريّ، عن عبد الكريم الجَزَرِيّ، عن مجاهد: إذا دخلتَ بيتاً ليس فيه أحد فقل: بسم الله، والحمدُ لله، السلام علينا من رَبِّنا، السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالِحِينَ. وقال قتادةُ: إذا دخلتَ على أهلك فَسلِّم عليهم، وإذا دخلتَ بيتاً ليس فيه أحد، فقل: السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالحين. فإنه كان يؤمر بذلك، وحُدِّثنا أن الملائكة تَرُدُّ عليه.

[٤٩٨٥] وقال الحافظُ أبو بكر البزّارُ: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عُوَيدُ بن أبي عمران الجَوْني، عن أبيه، عن أنس قال: أوصاني النبيّ ـ ﷺ ـ بخمس خصال، قال: «يا أنس، أسبغ الوضوء يُزَد في عمرك. وسَلِّم على من لقيك من أمتي تَكْثُر حسناتك. وإذا دخلت ـ يعني بيتك ـ فسلم على أهل بيتك، يكثر خير بيتك. وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك. يا أنس، ارحم الصغير، ووقِّر الكبير، تَكُنْ من رفقائي يوم القيامة»[2]. وقولُه: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾، قال محمدُ بن إسحاق: حدثني داودُ بن الحُصَين، عن عكرمَة، عن ابن عَبَّاسٍ أنه كان يقول: ما أخذتُ التشهُّدَ إلا من كتابِ الله، سَمِعتُ الله يقولُ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾، فالتشهد في الصلاة: التحيات المباركاتُ الصلواتُ الطيباتُ لله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، السلام عليكَ أيها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. ثم يدعو لنفسه ويسلم. هكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث ابن إسحاقَ. والذي في صَحِيح مسلم، عن ابن عباس، عن رسول الله ـ ﷺ ـ يخالف هذا، والله أعلم. وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، لما ذكر تعالى ما في هذه السورة الكريمة من الأحكامِ المُحكَمة، والشرائع المُتقنة المُبرمَةِ نَبَّه تعالى على أنه يُبَيِّن لعباده الآياتِ بَياناً شافياً، لِيتدبَّرُوها ويَتَعقَّلُوها، لعلهم يعقلون.

---

(١) أخرجه ابن ماجه ٣٢٨٧ من حديث عمر، وإسناده ضعيف لضعف عمرو بن دينار هذا، ولصدره شواهد منها المتقدم. والله أعلم.

(٢) ضعيف. أخرجه ابن عدي ٥/٣٨٢ بهذا الإسناد، وهو ضعيف جداً، فيه عويد الجوني، أعله ابن عدي به، وجاء في الميزان ٢٥٢٦: قال البخاري: منكر الحديث. وقال ابن معين: ليس بشيء.

وتابعه بشر بن حازم عند البيهقي ٨٧٦٥ «الشعب» و٨٧٦٦ وفيه مجاهيل. وورد من وجه آخر برقم ٨٧٦٢ و٨٧٦٣ و٨٧٦٤، ومداره على أزور بن غالب، وهو متروك. وورد من وجه آخر ٨٧٥٨ و٨٧٥٩ وفيه اليَسَعُ ابن زيد بن سهل. ذكره الذهبي في الميزان ٩٧٨٥ فقال: عن ابن عيينة بخبر باطل، ولم أر لهم فيه كلاماً اهـ وهو قد رواه عن ابن عيينة، فالحديث ضعيف، وإن تعددت طرقه. والله أعلم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

وهذا أيضاً أدبٌ أرشدَ الله عبادَه المؤمنين إليه، فكما أمَرَهُم بالاستئذان عند الدُخولِ، كذلك أمَرهم بالاستئذان عند الانصراف، لا سِيَّما إذا كانُوا في أمرٍ جامعٍ مع الرسول ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ من صلاةِ جُمُعة أو عيدٍ أو جَمَاعةٍ، أو اجتماعٍ لمشورةٍ ونحو ذلك، أمَرهم الله تعالى ألاَّ يَنصرِفُوا عنه ـ والحالةُ هذه ـ إلا بعد استئذانِه ومشاورته. وإن مَن يفعل ذلك فَهُو من المؤمنين الكاملين. ثم أمر رسوله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ إذا استأذنه أحدٌ منهم في ذلك أن يأذَن له، إن شاء، ولهذا قال: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

[٤٩٨٦] وقد قال أبو داود: حدثنا أحمد بن حَنْبَل ومُسَدّد قالا: حدثنا بشر ـ هو ابن المُفَضَّل ـ عن ابن عَجلان، عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإذا أراد أن يقوم فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة»[1] وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن عجلان به. وقال التِرمذِيُّ: حديث حسن.

﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

قال الضحّاكُ، عن ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمدُ، يا أبا القاسم. فنهاهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن ذلك، إعظاماً لنبيه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ قال: فقالُوا: يا رسولَ الله، يا نبي الله. وهكذا قال مجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير. وقال قتادةُ: أمر الله أن يُهابَ نَبيُّه ـ ﷺ ـ وأن يُبَجَّل وأن يُعظَّم وأن يُسَوَّد. وقال مُقاتِل بن حَيَّانَ في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، يقول: لا تُسَمُّوه إذا دَعوتموه «يا محمدُ»، ولا تقولوا: يا ابنَ عبدِ الله. ولكن شَرِّفوه فقُولوا: «يا نبيَّ الله»، «يا رسولَ الله».

وقال مالكُ، عن زيدِ بن أسلَمَ في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، قال: أمرهُم الله أن يُشرِّفُوه. هذا قول، وهو الظاهرُ من السياق، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٢ ـ ٥]. فهذا كلّه من بابِ الآدابِ في مُخاطبةِ النبي ـ ﷺ ـ والكلام مَعَه وعندَه، كما أُمِرُوا بتقديم الصدَقة قبل مُناجاته. والقولُ الثاني في ذلك أن المعنى في: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، أي: لا تعتقِدُوا أن دعاءه على غيره كدُعاء غيره، فإنَّ دعاءه مستجاب، فاحذرُوا أن يدعُو عليكُم فتَهلِكوا. حكاه ابنُ أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسنِ البصريّ، وعَطِيةَ العَوفِي. والله أعلم. وقولُه تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ

(١) حسن. أخرجه أبو داود ٥٢٠٨ والترمذي ٢٨٠٦ والنسائي في «اليوم والليلة» ٣٦٩ وأحمد ٢/ ٢٨٧ والبخاري في «الأدب المفرد» ١٠٠٨ وابن حبان ٤٩٤ وإسناده حسن من أجل محمد بن عجلان.

مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قال مقاتل بن حَيَّان: هم المنافقونَ، كان يثقلُ عليهم الحديثُ في يوم الجمعة ـ ويعني بالحديثِ الخطبةَ ـ فيلوذُون ببعض الصحابة ـ أصحاب محمدٍ ـ ﷺ ـ حتى يخرجُوا من المسجد، وكان لا يَصلُح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذنٍ من النبي ـ ﷺ ـ في يوم الجمعة، بعد ما يأخذ في الخطبة. وكان إذا أراد أحدُهم الخروجَ أشارَ بإصبعه إلى النبي ـ ﷺ ـ فيأذن له من غير أن يَتكلَّم الرجل؛ لأنَّ الرجلَ منهم كان إذا تَكلَّم والنبيُّ ـ ﷺ ـ يخطُب، بطلتْ جُمعتُه. وقال السديُّ: كانوا إذا كانوا مَعَه في جماعةٍ لاذ بعضُهم ببعضٍ، حتى يَتغَيَّبوا عنه، فلا يراهُم. وقال قتادةُ في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾، يعني: لِواذاً عن نبي الله وعن كتابه. وقال سفيانُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾، قال: من الصفِّ، وقال مجاهد: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾، قال: خلافاً.

وقولُه تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾، أي: عن أَمرِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ وهو سبيلهُ ومنهاجُه وطريقتُه وشريعتُه، فَتُوزَنُ الأقوالُ والأعمالُ بأقوالِه وأعمالِه، فما وافق ذَلِك قُبِلَ، وما خالفه فهو مَرْدُود على قائلِه وفاعِله، كائناً من كانَ، كما ثَبَت في الصَّحِيحَين وغيرهما، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال:

[٤٩٨٧] «من عَمِل عَمَلاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ»[١]. أي: فَلْيحذَر وَلْيخْشَ من خالف شريعةَ الرسولِ باطناً أو ظاهراً ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، أي: في قلوبهم، من كُفرٍ أو نفاقٍ أو بِدْعةٍ، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: في الدنيا، بقتل أو حَدٍّ أو حَبْس أو نحو ذلك؛ كما قال الإمام أحمد:

[٤٩٨٨] حدثنا عبد الرزّاق، حدثنا معمرٌ، عن هَمَّام بن مُنَبه قال: هذا ما حَدَّثنا أبو هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مثلي ومثلُكم كمَثَلِ رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهَذه الدوابُ اللّاتي يَقَعن في النار يَقعن فيها، وجَعَل يَحجُزهُنَّ ويَغلِبنه فَيَتَقحَّمن فيها. قال: فذلكَ مثلي ومثلُكم، أنا آخذ بحُجزكم عن النار: هَلُمَّ عن النارِ. فَتَغلِبوني وتقتحمون فيها»[٢]. أخرجاه من حديث عبد الرزاق.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

يُخبِرُ تعالى أنه مَالِكُ السمواتِ والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو عالم بما العباد عامِلُون في سرهم وجهرهم، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، و«قد» للتحقيق، كما قال قبلها: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾، وقال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨]. وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ١]. وقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣]. وقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]. فَكلُّ هذه الآياتِ فيها تحقيقُ الفعلِ بقد، كما يقولُ المؤذن تحقيقاً وثبوتاً: «قد قامت الصلاة. قد قامت الصلاة». فقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: هو عَالِمٌ به، مُشاهِدٌ له، لا يعزب عنه مثقالُ ذَرَّةٍ، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧ ـ ٢٢٠]. وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا

---

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١١٢.

(٢) تقدم في تفسير سورة الرعد عند آية: ١٧.

يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١]. وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، أي: هو شهيدٌ على عباده بما هُم فاعلون من خير وشر. وقال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]. وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦]، وقال: ﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]. والآيات والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ جداً.

وقولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾، أي: ويومَ ترجع الخلائق إلى الله ـ وهو يومُ القيامة ـ ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾، أي: يُخبرهُم بما فعلوا في الدنيا، من جليلٍ وحقيرٍ، وصغيرٍ وكبيرٍ، كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣]. وقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ والحمد لله رب العالمين، ونسأله التمام.

آخر تفسير سورة النور ولله الحمد والمنة وبه المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل



وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)﴾

يقولُ تعالى حامداً نفسَه الكريمةَ على ما نزّله على رسولِه الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣)﴾ [الكهف: ١ ـ ٣]. وقال هاهنا: ﴿تَبَارَكَ﴾، وهو تفاعل من البركة المستقرة الدائمة الثابتة ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾، نزّل: فعّل، من التكرر والتكثر، كما قال: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]؛ لأن الكتب المتقدِّمة كانت تنزلُ جملةً واحدة، والقرآنَ نزَل منجماً مُفرقاً مفصّلاً، آياتٍ بعد آياتٍ، وأحكاماً بعد أحكام، وسُوراً بعد سُور. وهذا أبلغُ وأشدُّ اعتناءً بمن أُنزل عليه، كما قال في أثناء هذه السورة. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)﴾. ولهذا سماه هاهنا الفُرقان؛ لأنه يَفرِق بين الحقِّ والباطلِ، والهُدَى والضلالِ، والغيِّ والرشادِ، والحلالِ والحرام.

وقولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾، هذه صفةُ مدحٍ وثناءٍ، لأنه أضافه إلى عُبوديّتِه، كما وَصَفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وكما وَصَفه بذلك في مقام الدعوة إليه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩)﴾ [الجن: ١٩]. وكذلك وَصَفه عند إنزالِ الكتاب عليه ونزُول المَلَك إليه، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)﴾. وقولُه: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، أي: إنما خَصّه بهذا الكتاب العظيم المُبيّن المفصّل المُحكَم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ [فصلت: ٤٢]، الذي جَعَله فُرقاناً عَظيماً، إنما خصه به ليخصّه بالرسالة إلى من يَستظِلُّ بالخَضراءِ، أو يَستقلُّ بالغبراءِ.

[٤٩٨٩] كما قال ـ صَلَواتُ الله وسلامُه عليه ـ: «بُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود»[١].

[٤٩٩٠] وقال: «أُعطِيتُ خمساً لم يُعطَهنَّ أحدٌ مِنَ الأنبياءِ قَبلي»، فذكر منهن: أنّه «كان النبيُّ يُبعَثُ إلى قومه، وبُعِثْتُ إلى الناسِ عامةً»[٢]. وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ

(١) تقدم مراراً وهو صحيح.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٤٣ وهو في الصحيح.

مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، أي: الذي أرسلني هو مالكُ السمواتِ والأرضِ، الذي يقولُ للشيءِ كُن فيكونُ. وهو الذي يُحيي ويُميت، وهكذا قال هاهنا: ﴿الَّذِى لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ﴾، فنَزَّه نفسَه عَن الوَلَدِ، وعَن الشَرِيكِ. ثم أخبره أنه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، أي: كُلُّ شيءٍ مما سِواه مخلوقٌ مربوبٌ، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومليكه وإلهُه، وكلُّ شيءٍ تحتَ قَهره وتسخيره، وتَدبيره وتَقديره.

﴿وَاتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

يُخبِرُ تعالى عن جَهل المشركين في اتِّخاذهم آلهةً من دُون الله، الخالِق لكلِّ شيءٍ، المالِك لأزمَّةِ الأمورِ، الذي ما شاء كانَ وما لم يَشأ لم يَكُن، ومع هذا عَبَدُوا مَعَه من الأصنام ما لا يَقدِر على خَلق جناح بَعُوضةٍ، بل هُم مخلوقون، ولا يَملكُون لأنفُسِهم ضراً ولا نفعاً، فكيف يَملِكُون لعابديهم؟! ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾، أي: ليس إليهم من ذلك شيءٌ، بل ذلك مرجعُه كلُّه إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ فهو الذي يُحيي ويُميت، وهو الذي يُعيد الخلائقَ يوم القيامةِ أوَّلهم وآخِرَهم، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣ ـ ١٤]، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الصافات: ١٩]، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: ٥٣]. فهو الله الذي لا إله غيرُه ولا ربَّ سِواه، ولا تنبغي العبادةُ إلا له، لأنه ما شاءَ كانَ وما لم يَشأ لم يكن. وهو الذي لا وَلَد له ولا والدَ، ولا عديلَ ولا نَديدَ، ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحدُ الصمدُ، الذي لَم يَلِد ولم يُولَد، ولَم يَكُن له كُفُواً أحَدٌ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ افْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن سَخَافة عُقُول الجَهَلة من الكُفّار، في قولِهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾، أي: كَذِبٌ، ﴿افْتَرَىٰهُ﴾، يعنون محمداً النبي ـ ﷺ ـ ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾، أي: واستعان على جَمعه بقوم آخرين قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾، أي: فقد افتَرَوا هم قَولاً باطلاً، وَهُم يعلمون أنه باطل، ويعرِفُونَ كَذِب أنفُسِهم فيما يزعمُون. ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾، يعنون كتبَ الأوائِل استنسَخَها، ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾، أي: تُقرأ عليه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، أي: في أوّلِ النهار وآخِره. وهذا الكلامُ ـ لسَخافتِه وكَذِبه وبهتِه منهم ـ كُلُّ أحد يعلم بطلانه، فإنه قد عُلِمَ بالتواتر وبالضرُورَة: أن محمداً رسولَ الله لم يكُن يُعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عُمرِه ولا في آخِره، وقد نَشَأ بين أظهرهم من أوّلِ مَولِده إلى أن بعثَه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يَعرِفون مدخَله ومخرجه، وصِدْقه وبِرّه وأمانتَه ونزاهَته من الكذب والفجور وسائِر الأخلاق الرذيلة، حتى إنّهم لم يكونوا يُسمُّونه في صِغَره وإلى أن بُعثَ إلا الأمينَ، لما يَعلَمُون من صدقه وبِرّه. فلما أكرَمَه الله بما أكرَمَه به، نَصَبُوا له العداوَةَ، ورَمَوْه بهذه الأقوالِ التي يعلَم كلُّ عاقِل براءتَه منها، وحاروا ماذا يَقذِفُونه به، فتارةً من إفكهم يقولُون: ساحرٌ، وتارةً يقولُون: شاعرٌ، وتارةً يقولون: مجنونٌ، وتارةً يقولونَ: كذابٌ، قال الله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ الْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

وقال تعالى في جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: أنزل القرآن المشتملَ على أخبار الأوَّلين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج، ماضياً ومستقبلاً، ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾، أي: الله الذي يعلَم غيبَ السمواتِ والأرضِ، ويعلَم السرائر كعِلْمِه بالظواهِر. وقولُه: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، دعاءً لهم إلى التوبةِ والإنابةِ، وإخبارٌ بأن رَحمَته واسعةٌ، وأنَّ حلمَه عظيمٌ، وأن من تاب إليه تابَ عليه. فهؤلاء مع كَذِبهم وافترائِهم وفُجورهم وبهتهم وكُفرهم وعِنادهم وقولِهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعُوهم إلى التوبةِ والإقلاع عما هُم فيه إلى الإسلام والهُدَى، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣ ـ ٧٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكَرَم والجُود، قتَلُوا أولياءَه وهو يدعُوهم إلى التوبةِ والرحمةِ!

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤)﴾

يُخبر تعالى عن تَعنُّت الكُفَّار وعِنادِهم، وتكذيبهم للحقِّ بلا حُجَّةٍ ولا دَليلٍ منهم، وإنما تَعلَّلُوا بقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾، يعنون كما نأكله، ويحتاجُ إليه كما نحتاجُ إليه، ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾، أي: يتردَّد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة، ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾، يقولون: هلا أُنزِلَ إليه مَلَكٌ من عند الله فيكونَ له شاهداً على صِدقِ ما يَدَّعيه! وهذا كما قال فِرعَونُ: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣)﴾ [الزخرف: ٥٣]. وكذلك قال هؤلاء على السَّواء، تشابهت قلوبُهم، ولهذا قال: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾، أي: عِلْمُ كنز يُنفِق منه، ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، أي: تسير معه حيث سار. وهذا كلُّه سهلٌ يَسيرٌ على الله، ولكن له الحكمةُ في تَرْكِ ذلك، وله الحجةُ البالغةُ. ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾. قال الله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾، أي: جاؤوا بما يقذفونك به ويَكْذِبون به عليك، من قولهم ساحرٌ، مسحورٌ، مجنونٌ، كذابٌ، شاعرٌ. وكلُّها أقوالٌ باطلةٌ، كلُّ أحدٍ ممَّن له أدنى فهم وعقلٍ يعرفُ كَذِبهم وافتراءَهم في ذلك، ولهذا قال: ﴿فَضَلُّوا﴾، أي: عن طريقِ الهُدَى، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، وذلك لأن كلَّ مَن خَرج عن الحقِّ فإنه ضالٌّ حيثما توَجَّه، لأن الحقَّ واحدٌ ومنهجٌ مُتَّحِدٌ، يُصَدِّقُ بعضُه بعضاً.

ثم قال تعالى مخبراً نبيَّه أنه لو شاءَ لآتاهُ خيراً مما يقولُون في الدنيا وأفضلَ وأحسنَ، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠)﴾. قال مجاهد: يعني في الدنيا، قال: وقريشٌ يُسمُّون كُلَّ بيتٍ من حجارةٍ قصراً سَواءٌ كان كَبيراً أو صغيراً.

[٤٩٩١] وقال سفيانُ الثوريُّ، عن حَبيبِ بن أبي ثابت، عن خَيثَمَةَ؛ قيل للنبي ـ ﷺ ـ: إن شِئتَ أن نُعطِيَكَ خَزائن الأرض ومفاتِيحَها ما لم يُعطَ نَبِيٌّ قبلك، ولا يُعطى أحدٌ من بعدك، ولا يَنقُصُ ذلك مما لك عند الله؟ فقال: اجمَعُوها لي في الآخرة. فأنزل الله في ذلك: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠﴾[١].

وقولُه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾، أي: إنما يقولُ هؤلاءِ هكذا تكذيباً وعناداً، لا أنهم يطلبُون ذلك تبصُّراً واسترشاداً، بل تكذِيبهم بيوم القيامة يحمِلُهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، أي: وَأرْصَدنا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾، أي: عذاباً أليماً حارّاً لا يُطاقُ في نارِ جَهنَّم. وقال الثوريُّ، عن سَلَمة بنِ كُهَيلٍ، عن سَعيد بن جُبَير: «السعير»: وادٍ من قَيحِ جَهنَّم. وقولُه: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾، أي: جهنَّم ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، يعني: في مقام المحشر. قال السدِّي: من مسيرةِ مئة عام، ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾، أي: حَنقاً عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧ ـ ٨]، أي: يكاد ينفصِلُ بعضُها من بعض، من شِدَّة غيظِها على مَن كفر بالله.

[٤٩٩٢] قال ابن أبي حاتم: حدثنا إدريس بن حاتم بن الأحنفِ الواسِطِي: أنه سمع محمد بن الحسن الواسِطِيّ، عن أصبغَ بن زيد، عن خالد بن كثير، عن خالد بن دُرَيك، عن رَجُلٍ من أصحاب النبي قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: من يَقُل عليّ ما لم أَقُل، أو ادَّعى إلى غير والِدَيه، أو انتمى إلى غير مَواليه فَلْيتبوَّأ بين عَينَي جَهنَّم مقعداً. قيل: يا رسولَ الله، وهل لها من عَينَينِ؟ قال: أما سمعتُم الله يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ . . . الآية.[٢] ورواه ابن جرير، عن محمد بن خِدَاش، عن محمد بن يزيدَ الواسطي، به. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطَّنافِسيُّ، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عيسى بن سُلَيم، عن أبي وائل قال: خَرَجنا مع عبد الله ـ يعني ابنَ مسعُود ـ ومعنا الربيع بن خُثَيم فمروا على حَدَّاد، فقام عبد الله ينظر إلى حَدِيدة في النار، ونَظَر الربيعُ بن خُثَيم إليها فتمايل ليسقُطَ، فمر عبد الله على أَتُون[٣] على شاطىء الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تَلتهِبُ في جَوفِهِ قرأ هذه الآية: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾، فصعق ـ يعني الربيع بن خُثَيم ـ فحملوه إلى أهل بيتِه، ورابطه عبد الله إلى الظُّهر، فلم يُفِق. رضي الله عنه.
وحدثنا أبي: حدثنا عبدُ الله بن رَجَاءٍ، حدثنا إسرائيلُ، عن أبي يحيى، عن مجاهد، عن ابن عَبَّاسٍ قال: إنَّ العبدَ لَيُجَرُّ إلى النار، فَتَشهَقُ إليه شهقةَ البغلةِ إلى الشعيرِ، ثم تَزْفِر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا خافَ. هكذا رَواه ابنُ أبي حاتم مختصراً، وَقد رواه الإمامُ أبو جعفرِ بنِ جَرِيرٍ: حدثنا أحمد ابن إبراهيم الدَّورقي، حدثنا عُبَيد الله بن مُوسى، أخبرنا إسرائيلُ، عن أبي يحيى، عن مجاهِدٍ، عن ابن عباس قال: إن الرجل لَيُجَرُّ إلى النار فَتَنزوي وتَنْقَبِض بعضُها إلى بعض، فيقول لها الرحمنُ: مالك؟ قالت: إنه يستجيرُ مِنّي. فيقولُ: أرسِلُوا عَبدِي. وإن الرجل ليُجَرّ إلى النار، فيقول: يا ربِّ، ما كان هذا الظنُّ بك؟ فيقول: فما كان ظَنُّك؟ فيقول: أن تَسَعني

---

(١) ضعيف. عزاه السيوطي في «أسباب النزول» ٨١٤ لابن أبي شيبة، والطبري روياه عن خيثمة. والذي في تفسير الطبري ٢٦٢٨٦ عن سفيان عن حبيب، والظاهر أنه سقط منه «خيثمة» والله أعلم.

(٢) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٦٢٨٧ بهذا الإسناد لكن قال عن «فديك» بدل «خالد بن دريك» والصواب رواية ابن أبي حاتم. وبكل حال الإسناد ضعيف. فيه أصبغ بن زيد، ضعفه ابن سعد، ووثقه ابن معين، وخالد بن دريك روايته عن الصحابة مرسلة راجع الميزان ٢٤١٩.

(٣) الأتون: التنور.

رَحمتُك. فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليُجَرّ إلى النار، فتشهَقُ إليه النار شهوقَ البغلةِ إلى الشَّعِير، وتزفِر زفرَةً لا يبقى أحدٌ إلا خاف. وهذا إسناد صحيح.

وقال عبد الرَّزاق: أخبرنا معمرٌ، عن منصور، عن مجاهد، عن عُبَيد بن عُمَير في قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾، قال: إن جَهنّم تزفِرُ زفرةً، لا يَبقى مَلَكٌ ولا نَبيٌّ إلا خرّ ترْعدُ فرائصُه، حتى إنّ إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ لَيَجثُو على رُكبَتيه ويقول: رب، لا أسألك اليومَ إلا نفسي. وقولُه: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾، قال قتادةُ، عن أبي أيّوب، عن عَبدِ الله بن عَمرو قال: مثل الزُّجّ[1] في الرمحِ. أي: من ضيقه.

[٤٩٩٣] وقال عبدُ الله بن وهب: أخبرني نافع بن يزيد، عن يحيى بن أبي أسيد ـ يرفع الحديثَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أنه سُئِل عن قول الله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾، قال: «والّذي نفسي بيَدِهِ إنّهم لَيُستَكرَهُون في النار كما يُستكرَهُ الوتِدُ في الحائط»[2].

وقولُه تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، قال أبو صالح: يعني مُكتَّفِينَ. ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾، أي: بالويل والحسرة والخيبة ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

[٤٩٩٤] قال الإمام أحمد: حدثنا عفّان، حدثنا حَمّاد بن سلمة، عن علي بن زيد[3]، عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أولُ من يُكسَى حُلّةً من النار إبليسُ، فَيضَعها على حاجِبَيه ويسحَبُها من خَلفه، وذُرِّيته من بعدِه، وهو ينادي: يا ثُبوراه. وينادون: يا ثُبورَهُم. حتى يَقِفُوا على النار، فيقول: يا ثُبوراه. ويقولون: يا ثُبورَهُم. فيقال لهم: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾»[4]. لم يُخرجه أحدٌ من أصحابِ الكُتُب الستّةِ، ورواه ابنُ أبي حاتم، عن أحمدَ بن سِنانٍ، عن عَفّانَ، به. ورواه ابنُ جرير، من حديث حماد بن سلمة به. وقال العَوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾، أي: لا تدعوا اليومَ وَيلاً واحداً، وادعوا وَيلاً كَثِيراً. وقال الضّحاك: الثبور: الهلاك. والأظهر أن الثّبور يجمع الهلاكَ والويل والخَسار والدّمار، كما قال موسى لفرعون: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، أي: هالكاً. وقال عبد الله بن الزِّبَعْرى:

إذْ أُجارِي الشَّيطانَ في سَنَنِ الغَـ ـيِّ وَمَنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى: يا محمدُ، هذا الذي وَصَفناهُ من حال أولئك الأشقياءِ، الذين يُحشَرون على وُجوهِهم إلى

(١) الزج: الحديدة في أسفل الرمح.

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» ١١٧/٥ لابن أبي حاتم، وهو مرسل يحيى بن أبي أسيد تابعي، فالخبر واهٍ.

(٣) وقع في سائر الأصول «يزيد» وهو تصحيف من الناسخ.

(٤) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ١٥٢/٣ ـ ١٥٣ ـ ١٥٤ ـ ٢٤٩ وابن أبي شيبة ١٦٨/١٣ والطبري ٢٦٢٩٢ والبزار ٣٤٩٥ والخطيب ٢٥٣/١١ وأبو نعيم ٢٥٦/٦، ومداره على علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف كما في «التقريب». وقال الهيثمي في «المجمع» ١٨٦١١: رجاله رجال الصحيح، غير علي بن زيد، وقد وُثق اهـ ومع ذلك قال السيوطي في «الدر المنثور» ١١٧/٥: سنده صحيح! وهذا شيء عجيب، علي بن زيد ضعفه الجمهور روى مناكير كثيرة عن أنس وغيره. راجع ترجمته في الميزان.

جهنَّم، فتتلقاهم بوجهٍ عَبُوسٍ وبغيظٍ وَزَفير، ويُلقَون في أماكنها الضَّيقةِ مقرَّنين، لا يستطيعون حِرَاكاً، ولا انتصاراً ولا فكاكاً مما هم فيه، أهذا خيرٌ أم جنة الخلدِ التي وَعَدها الله المتقين من عباده، التي أعدَّها لهم، وجَعَلها لهم جزاءً ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا، وجَعَل مآلهم إليها. ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾، أي من الملاذِّ، من مآكلَ ومشاربَ، وملابسَ ومساكنَ، ومراكبَ ومناظرَ، وغير ذلك، مما لا عينٌ رأت، ولا أُذُن سَمِعَت، ولا خَطَر على قلبِ أحدٍ. وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سَرْمَداً بلا انقطاع ولا زوالٍ ولا انقضاءٍ، لا يبغُون عنها حِوَلاً. وهذا مِن وَعْد الله الذي تفضَّل به عليهم، وأحسَنَ به إليهم. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾، أي: لا بدَّ أن يقعَ وأن يكونَ، كما حكاه أبو جعفر بن جرير، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله: ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾، أي: وعداً واجباً. وقال ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾، يقول: سلوا الذي واعدتُكم ـ أو قال: واعدناكم ـ ننجز. وقال محمدُ بن كَعبِ القُرَظي في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾: إن الملائكة تسألُ لهم ذلك: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨]. وقال أبو حازم: إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون: ربَّنا عَمِلنا لك بالذي أمرتنا، فأنجز لنا ما وَعدتنا. فذلك قولُه: ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾. وهذا المقام في هذه السورةِ من ذِكْرِ النارِ، ثم التنبيه على حالِ أهل الجنةِ، كما ذَكَر تعالى في «سورة الصافات» حالَ أهلِ الجنة، وما فيها من النضرةِ والحُبُورِ، ثم قال: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عما يَقعُ يومَ القيامة من تَقريع الكفار في عبادتهم مَن عَبَدُوا من دون الله، من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال مجاهد: عيسى، والعُزَير، والملائكة. ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾، أي: فيقول الرب تبارك وتعالى للمعبودين: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير دَعوةٍ منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧] الآية، ولهذا قال تعالى مخبراً عما يُجيبُ به المعبودُون يومَ القيامة: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، قرأ الأكثرون بفتح «النون» من قوله ﴿نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فَعَلُوا ذلك من تِلقاءِ أنفسِهم من غير أمرنا ولا رِضانا ونحن بُرآءُ منهم ومِن عبادتِهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ:

٤٠ ـ ٤١]. وقرأ آخرون: «ما كان ينبغي لنا أن نُتَّخَذَ من دونك أولياء»، أي: ما ينبغي لأحدٍ أن يعبدَنا، فإنا عَبيدٌ لك، فُقَراءُ إليكَ. وهي قريبة المعنى من الأولى. ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾، أي: طال عليهم العمر حتى نَسُوا الذكر، أي: نَسُوا ما أنزلته إليهم على ألسِنَةِ رُسُلِك، من الدَّعوةِ إلى عبادَتِك وحدَكَ لا شريكَ لك. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾، قال ابنُ عباس: أي هَلْكَى. وقال الحسنُ البصريُّ ومالك، عن الزُهريِّ: أي لا خير فيهم. وقال ابن الزِّبعرى حين أسلم:

يَا رَسُولَ المَلِيكِ إنَّ لِسَانِي ... رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ

إذْ أُجَارِي الشَّيطَانَ فِي سَنَنِ الغَيِّ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾، أي: فقد كَذَّبَكُم الذين عَبَدْتُم فيما زَعَمتُم أنهم لكم أولياءُ، وأنكم اتخذتُموهم قُرباناً يُقرِّبونَكم إليه زُلفى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦]. وقولُه: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾، أي: لا يَقدِرُون على صَرْفِ العذاب عنهُم ولا الانتصار لأنفسِهم، ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾، أي: يُشرِك بالله، ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن جَميع مَن بَعثَه من الرسل المتقدِّمين: أنهم كانوا يأكلون الطعام، ويحتاجون إلى التغذِّي به ﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾، أي: للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمنافٍ لحالهم ومَنصِبهم؛ فإن الله تعالى جَعَل لهم من السمَات الحسنةِ، والصفاتِ الجميلةِ، والأقوالِ الفاضلةِ، والأعمالِ الكاملةِ، والخَوارقِ الباهرةِ، والأدلة القاهرة، ما يَستَدِلُّ به كلُّ ذي لُبٍّ سَليم، وبَصيرةٍ مستقيمةٍ، على صِدقِ ما جاؤوا به من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. ونظيرُ هذه الآيةِ الكريمةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقولُه تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَٰلِدِينَ ۝٨﴾ [الأنبياء: ٨]. وقولُه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾، أي اختبرنا بعضَكم ببعضٍ، وبَلونا بعضَكم ببعض، لنعلم مَن يُطيعُ ممَّن يَعصِي. ولهذا قال: ﴿أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾، أي: ممن يَستحِقُّ أن يُوحَى إليه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ومن يَستحِقُّ أن يهديه الله لما أرسلَهُم بِهِ، ومَن لا يَستحقُّ ذلك. وقال مُحمَّد بن إسحاق في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾، قال: يقول اللهُ: لو شئتُ أن أجعلَ الدنيا مع رسلي فلا يُخالَفُون، لَفَعلتُ، ولكنّي قد أردتُ أن أبتلي العِبادَ بهم، وأبتليهم بهم.

[٤٩٩٥] وفي صحيح مسلم عن عِياضِ بن حِمَارٍ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ: «يَقُولُ الله: إني مُبتَليكَ ومُبتَلٍ بكَ»[1].

[٤٩٩٦] وفي المسند عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «لو شئتُ لأجرى الله معي جبالَ الذهب والفضة»[2].

---

(١) هو بعض حديث طويل عند مسلم ٢٨٦٥ ولفظه: «إنما بعثتك لأبتليك، وأبتلي بك».

(٢) أخرجه أبو يعلى ٤٩٢٠ من حديث عائشة وإسناده ضعيف لضعف أبي معشر، وأخرجه أحمد في «الزهد» ١٤ والبغوي في «الأنوار» ٤٢٩ من وجه آخر عن عائشة.

[٤٩٩٧] وفي الصَّحيح أنَّه ـ عليه أفضلُ الصلاةِ والسلامِ ـ خُيِّرَ بين أن يكون نبياً مَلَكاً أو عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً»[١].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن تَعنُّتِ الكُفّارِ في كُفرهم وعِنادِهم في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أي: بالرسالة كما نُزِّل على الأنبياء، كما أخبر عنهم تعالى في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ويَحتمِلُ أن يكون مرادُهم هاهنا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فنراهم عِياناً، فيُخبرونا أن محمداً رسول الله، كقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]. وقد تَقدَّم تفسيرُها في «سُورَةِ سُبحانَ». ولهذا قال: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾. وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾، أي: هم لا يَرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يَرون الملائكة لا بُشرى يومئذ لهم، وذلك يَصْدُق على وقت الاحتضار حين تُبشّرهم الملائكةُ بالنار، وغَضب الجبّار، فتقول الملائكة للكافر عند خُروج روحه: اخرُجي أيتها النفس الخَبيثة في الجَسَد الخَبيث، اخرُجي إلى سَمُوم وحَميم، وظِلٍّ من يَحمُوم. فتأبى الخروجَ وتتفرّق في البدن، فيضربُونه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] الآية. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: بالضرب، ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]. ولهذا قال في هذه الآية الكريمةِ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، وهذا بخلاف حالِ المؤمنين في وقتِ احتضارِهم، إنهم يُبَشّرون بالخيراتِ، وحُصُول المسرات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

[٤٩٩٨] وفي الحديث الصحيح عن البَراءِ بن عَازِبٍ: أن الملائكةَ تقولُ لروحِ المُؤمن: «اخرُجي أيتُها النفسُ الطَّيبةُ في الجسد الطيِّب، كنتِ تَعمُرينه، اخرُجي إلى روحٍ ورَيحان وربٍّ غيرِ غضبانَ»[٢]. وقد تقدم الحديث في «سورة إبراهيم»، عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

وقال آخرون: بل المرادُ بقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، يعني: يوم القيامة. قاله مجاهدٌ، والضحاكُ،

---

(١) أخرجه ابن حبان ٦٣٦٥ وأحمد ٢/ ٢٣١ من حديث أبي هريرة، وأخرجه البغوي في «الأنوار» ١٥ من حديث ابن عباس.

(٢) هو مرفوع لا موقوف، وقد تقدم في تفسير سورة إبراهيم: ٢٧، كما ذكر المصنف.

وغيرهما. ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدَّم، فإن الملائكة في هذين اليومين، يوم الممات ويوم المَعَاد، تتجلَّى للمؤمنين وللكافرين، فَتُبشِّر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتُخبِر الكافرين بالخيبة والخسرانِ، فلا بُشرَى يومئذٍ للمجرمين. ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، أي: وتقول الملائكة للكافرين: حَرَام مُحَرَّم عليكم الفلاحُ اليومَ. وأصل الحِجْر المنعُ، ومنه يقال: حَجَر القاضي على فلان: إذا مَنَعه التصرفَ إما لسَفَهٍ، أو فَلَسٍ، أو صِغَرٍ، أو نحو ذلك. ومنه سُمِّي «الحِجْر» عند البيت الحرام؛ لأنه يمنع الطوّاف أن يَطُوفوا فيه، وإنما يُطاف من ورائه. ومنه يقال للعقل: «حِجْر»، لأنه يمنع صاحبَه عن تعاطِي ما لا يليقُ. والغرضُ أن الضَّمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائدٌ على الملائكة. هذا قولُ مجاهدٍ، وعكرمةَ، والضحاكِ، والحسنِ، وقتادةَ، وعطيةَ العَوفي، وعطاءِ الخُراسَانِيِّ، وخُصَيفٍ، وغيرِ واحدٍ، واختاره ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا موسى ـ يعني ابن قيس ـ عن عطيةَ العَوفيِّ، عن أبي سعيدٍ الخُدري: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، قال: حَرَاماً مُحَرَّماً أن نُبَشَّرَ بما يُبَشَّرُ به المتقون. وقد حكى ابنُ جَريرَ عن ابن جُرَيج أنه قال: ذلك من كلامِ المشركينِ: يومَ يرونَ الملائكةَ يقولونَ: حِجراً محجوراً، أي: يَتَعوَّذون من الملائكةِ، وذلك أن العربَ كانوا إذا نَزل بأحدهم نازلة أو شدة يقولون: حِجْراً محجُوراً. وهَذا القولُ ـ وإن كان له مأخذٌ ووجهٌ ـ ولكنه بالنسبةِ إلى السياقِ في الآية بعيدٌ، ولا سيَّما قد نصَّ الجمهور على خلافهِ. ولكن قد روى ابنُ أبي نَجيح، عن مجاهد أنه قال في قوله: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، أي: عَوذاً مُعَاذاً. فَيَحتَمِلُ أنه أراد ما ذكره ابن جُرَيج. ولكن في رواية ابن أبي حاتم، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد أنه قال: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، عَوذاً مُعَاذاً، الملائكةُ تَقُوله. فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾، وهذا يوم القيامة، حين يُحاسِب الله العبادَ على ما عَمِلوه من خير وشرٍّ، فأخبر أنه لا يَتَحصَّلُ لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظَنُّوا أنها منجاةٌ لهم شيءٌ؛ وذلك لأنها فَقَدت الشرطَ الشرعيَّ، إما الإخلاصَ فيها، وإما المتابعةَ لشرع الله. فَكُلُّ عملٍ لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية، فهو باطل. فأعمالُ الكفار لا تخلُو من واحدٍ من هذين، وقد تَجمَعُهما معاً، فتكون أبعدَ من القبولِ حينئذٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾. قال مجاهدٌ، والثوريُّ: ﴿وَقَدِمْنَآ﴾، أي: عَمَدنا. وكذا قال السدِّيُّ: ﴿وَقَدِمْنَآ﴾: عمَدنا، وبعضُهم يقول: أتينا عليه. وقولُه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾، قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاقَ، عن الحارثِ، عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ في قولِهِ: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾، أي: شُعَاعُ الشمسِ إذا دَخل في الكُوَّة. وكذا رُوِي من غير هذا الوجه عن علي. ورُوِي مثله عن ابن عباسٍ، ومجاهدٍ، وعكرمةَ، وسَعِيد بن جُبَيرٍ، والسدّي، والضحّاكِ، وغيرهم. وكذا قال الحسن البصري: هو الشُّعاعُ في كُوَّة أحدهم لو ذَهَب يقبضُ عليه لم يَستطع. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾، قال: هو الماء المُهَرَاقُ. وقال أبو الأحوصِ، عن أبي إسحاقَ، عن الحارثِ، عن عَليٍّ: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾، قال: الهَبَاءُ رَهْجُ[١] الدوابِّ. ورُوِي مثله عن ابن عباس أيضاً، والضحّاكِ، وقاله عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ. وقال قتادةُ في قولِه: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال: أما رأيت يَبِيس الشجَرِ إذا ذَرَته الريحُ؟ فهو ذلك الوَرَقُ. وقال عبدُ الله بن وهب: أخبرني عاصمُ بن حَكِيم، عن أبي سريع الطائي، عن عُبَيد بن يَعْلَى

(١) الرهج: الغبار.

قال: وإنَّ الهَبَاء الرَّمادُ إذ ذَرَّته الريح. وحاصلُ هذه الأقوال التنبيهُ على مضمون الآية، وذلك أنهم عَمِلوا أعمالاً اعتقدوا أنها شيءٌ، فلما عُرِضت على الملك الحَكم العَدْلِ الذي لا يجُور ولا يظلِم أحداً، إذ إنَّها لا شيءَ بالكُلِّية. وشُبِّهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق، الذي لا يقدر صاحبه منه على شيءٍ بالكلية، كما قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ [إبراهيم: ١٨] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٣٩]. وتَقدَّم الكلامُ على تفسير ذلك، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾، أي: يومَ القيامة ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [الحشر: ٢٠]، وذلك أنَّ أهلَ الجنة يصيرونَ إلى الدرجاتِ العَالياتِ، والغُرُفاتِ الآمناتِ، فهم في مقام أمينٍ، حَسَنِ المنظرِ، طَيِّب المقام، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾ [الفرقان: ٧٦] وأهلُ النارِ يصيرونَ إلى الدركاتِ السافلات، والحَسَراتِ المُتَتابعاتِ، وأنواع العذابِ والعُقُوباتِ، ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ [الفرقان: ٦٦]، أي: بئسَ المنزلُ منظراً وبئس المَقِيلُ مَقاماً، ولهذا قال تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾، أي: بما عملوه من الأعمالِ المُتقبّلة، نالُوا ما نالُوا، وصارُوا إلى ما إليه صاروا، بخلاف أهل النارِ فإنه ليسَ لهم عملٌ واحدٌ يقتضي لهم دخولَ الجنة والنجاة من النار، فَنبَّه ـ تعالى ـ بحال السعَداءِ على حال الأشقياءِ، وأنه لا خيرَ عندَهم بالكُلِّيّة، فقال: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾. قال الضحّاكُ، عن ابن عباسٍ: إنما هي ضَحوةٌ، فَيَقِيلُ أولياءُ الله على الأسرّةِ مع الحُورِ العينِ، ويَقِيلُ أعداءُ الله مع الشياطينِ مُقرّنين.

وقال سعيد بن جُبَير: يفرغ الله من الحساب نصفَ النهار، فيَقِيل أهلُ الجنةِ في الجنةِ، وأهلُ النار في النار، قال الله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾. وقال عِكرِمةُ: إني لأعرفُ الساعَة التي يدخُلُ فيها أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، هي الساعةُ التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحَى الأكبر، إذا انقلبَ الناسُ إلى أهليهم للقَيلولةِ، فينصرفُ أهلُ النارِ إلى النارِ، وأما أهلُ الجنةِ فَيُنطَلق بهم إلى الجنة، فكانت قَيلُولتُهم في الجَنّة وأطعِمُوا كَبِد حُوتٍ، فأشبعهم ذلك كلَّهم، وذلك قولَه: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾. وقال سفيانُ، عن ميسرة، عن المنهال، عن أبي عُبيدة، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لا ينتصِفُ النهارُ حتى يَقِيلَ هؤلاءِ وهؤلاءِ، ثم قرأ: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾، وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ٦٨﴾ [الصافات: ٦٨].

وقال العوفيُّ، عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾، قال: قالُوا في الغُرَف من الجنة، وكان حِسَابهم أن عُرِضُوا على ربِّهم عَرضةً واحدةً، وذلك الحسابُ اليَسِيرُ، وهو مثلُ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ٩]. وقال قتادةُ في قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾، أي: مأوى ومنزلاً. قال قتادة: وحَدَّث صفوانُ بن مُحرِزٍ أنه قال: يُجاء يومَ القيامةِ برجلين، كان أحدهما مَلِكاً في

الدنيا إلى الحُمرةِ والبياض فيُحاسَبُ، فإذا عبدٌ لم يعمل خيراً فيُؤمر به إلى النار. والآخرُ كان صاحبَ كساءٍ في الدنيا، فيُحاسَب فيقول: يا رب، ما أعطيتَني من شيءٍ فتُحاسِبَني به. فيقول: صَدَق عبدي، فأرسلوه. فيؤمر به إلى الجنة، ثم يُترَكان ما شاء الله. ثم يُدعَى صاحبُ النار، فإذا هو مثلُ الحُمَمَةِ السوداء، فيُقال له: كيف وجدتَ؟ فيقول: شرَّ مَقيلٍ. فيقال له: عُدْ. ثم يُدعَى بصاحِبِ الجنّةِ، فإذا هو مثلُ القَمرِ ليلةَ البدرِ، فيقال له: كيفَ وجدتَ؟ فيقولُ: رَبِّ، خَيرَ مَقيل. فيقال له: عُدْ. رواها ابنُ أبي حاتم كُلَّها. وقال ابنُ جرير: حَدَّثني يونس، أنبأنا ابنُ وهب، أنبأنا عمرو بن الحارث، أن سعيداً الصوّاف حَدَّثه، أنه بَلَغه: «أن يوم القيامة يَقصرُ على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وإنهم لَيَقِيلُون في رياضِ الجنّةِ حتى يفرغ من الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

يُخبر تعالى عن هَول يوم القيامة، وما يكونُ فيه من الأمورِ العظيمةِ، فمنها انشقاقُ السماء وتَفطُّرها وانفراجُها بالغمام ـ وهو ظُلَلُ النور العظيم الذي يَبهَرُ الأبصارَ ـ ونزولُ ملائكةِ السمواتِ يومئذٍ، فيُحيطون بالخلائقِ في مقام المحشرِ، ثم يجيء الربُّ تباركَ وتعالَى لِفصل القَضاءِ. قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَمّار بن الحارث، حدثنا مُؤَمّل، حدثنا حماد بن سَلَمة، عن علي بن زيدٍ، عن يُوسُفَ بن مِهرانَ، عن ابن عَبّاسٍ، أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾، قال ابن عباس: يجمَعُ الله الخلقَ يوم القيامة في صَعيدٍ واحدٍ، الجنُّ والإنسَ والبهائِمَ والسباع والطيرَ وجَميع الخَلْقِ، فتَنشقُّ السماءُ الدنيا، فينزلُ أهلُها ـ وهم أكثرُ من الجنّ والإنس ومن جَميع الخلائق ـ فيُحيطون بالجنّ والإنس وبجميع الخلق. ثم تنشقُّ السماءُ الثانيةُ فينزلُ أهلها، وهم أكثرُ من أهلِ السماء الدنيا ومن الجنّ والإنسِ، ومن جميع الخلق، فيُحيطون بالملائكةِ الذين نَزلوا قبلهم والجنّ والإنسِ وجميعِ الخلق. ثم تنشق السماء الثالثة، فينزلُ أهلُها، وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدُنيا ومن جَميع الخلق، فيُحيطون بالملائكة الذين نَزلوا قبلَهم، وبالجنّ والإنس وبجميع الخلقِ. ثم كذلك كل سماء، حتى تنشقَّ السماءُ السابعةُ، فينزلُ أهلُها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق، فيُحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات، وبالجن والإنس وجميع الخلق، وربُنا ـ عزّ وجلّ ـ في ظُلَلٍ من الغَمَام، وحولَه الكَرُوبيُون، وهم أكثرُ من أهلِ السموات السبع الإنسِ والجنّ وجميع الخلقِ، لهم قرونٌ كأكعُب القَنا، وهم تحتَ العرش، لهم زَجَلٌ بالتسبيح والتهليل والتقديس لله ـ عزّ وجلّ ـ ما بين أخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمئة عام وما بين كعبه إلى ركبتيه مسيرة خمسمئة عام، وما بين رُكبَتِهِ إلى حُجزَتِه مَسِيرةُ خمسمئة عام، وما بين حُجزَتِه إلى تَرقُوتِه مَسِيرةُ خمسمئةِ عامٍ، وما بين تَرقُوَته إلى موضعِ القُرط مَسِيرةُ

خمسمئةِ عامٍ. وما فوقَ ذلك مسيرةُ خمسمئة عامٍ، وجَهَنَّم مُجَنَّبتُه. هكذا رواه ابنُ أبي حاتمٍ بهذا السياق[1].

وقال ابنُ جَرِير: حَدَّثنا القاسم، حَدَّثنا الحُسَين، حدثني الحجَّاجُ، عن مُبَارك بن فَضَالة، عن عَلي ابن زيدِ بن جُدعَان، عن يوسفَ بن مِهْران، أنه سَمِع ابن عباس يقول: إنَّ هذه السماءَ إذا انشقَّت نَزَل منها من الملائكةِ أكثرُ من الجنِّ والإنس، وهو يوم التَّلاقِ، يوم يلتقي أهلُ السماء وأهلُ الأرض، فيقول أهلُ الأرض: جاء ربُّنا؟ فيقولون: لم يجيء، وهو آتٍ. ثم تَنْشَقُّ السماءُ الثانيةُ، ثم سماءٌ سماءٌ، على قدرِ ذلك من التضعيفِ إلى السماء السابعةِ. فينزل منها من الملائكة أكثر من جَميع من نَزَل من السمواتِ ومن الجنِّ والإنسِ. فتنزل الملائكة الكَرُوبيّون، ثم يأتي ربُّنا في حَمَلةِ العرش الثمانيةِ، بين كعب كُلِّ مَلَكٍ ورُكبتِهِ مسيرةُ سبعينَ سنةً، وبين فَخِذِه ومَنْكِبه مَسِيرةُ سبعينَ سنةً. قال: وكلُّ ملك منهم لم يَتَأمَّل وجهَ صاحِبِه، وكُلُّ مَلَكٍ منهم واضعٌ رأسَه بين ثَدْيَيه يقولُ: سبحانَ الملكِ القُدُّوس. وعلى رُؤوسِهِم شيءٌ مبسوطٌ كأنه القَبَاءُ، والعرشُ فوقَ ذلك. ثم وقف. فمدارُه على عليِّ بن زيد بن جُدْعان، وفيه ضعفٌ، وفي سياقاته غالباً نَكارةٌ شديدةٌ. وقد ورد في حديث الصور المشهور قريبٌ من هذا، والله أعلم. وقد قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١٥ ـ ١٧]، قال شهرُ بن حَوشبٍ: حملةُ العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانَك اللهم وبحمدِك، لك الحمدُ على حِلْمِك بعد علمك. وأربعة يقولون: سبحانَك اللهم وبحمدك، لك الحمدُ على عَفوك بعد قُدرَتِك، رواه ابن جرير، عنه. وقال أبو بكر بن عبد الله: إذا نَظَر أهلُ الأرض إلى العرشِ يهبط عليهم من فوقهم، شَخَصت إليه أبصارُهم، ورَجَفت كُلاهم في أجوافِهم، وطارت قلوبُهم من مَقَرِّها من صُدُورِهم إلى حَنَاجِرهم.

وقال ابنُ جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحُسَين، حدثنا مُعتَمِرُ بن سليمان، عن عبد الجليل، عن أبي حازم، عن عبد الله بن عَمرو قال: يَهبطُ الله عز وجل حينَ يَهبِطُ وبينه وبين خَلقِهِ سبعونَ ألفَ حجابٍ، منها النورُ والظلمة، فيُصَوِّت الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخلعُ له القلوبُ. وهذا موقوفٌ على عبد الله بن عَمرو من كلامه، ولعله من الزَّامِلَتَينِ، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

[٤٩٩٩] وفي الصحيح: «إن الله يطوي السمواتِ بيمينِه ويأخذُ الأرَضِين بيَدِه الأخرىٰ ثم يقولُ: أنا الملك، أنا الديَّانُ، أين ملوكُ الأرض؟ أين الجبَّارُونَ؟ أين المُتَكبِّرونَ»[2]. وقولُه: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، أي: شديداً صعباً، لأنه يومُ عدلٍ وقضاءُ فصلٍ، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٨ ـ ١٠]، فهذا حال الكافرين في ذلك اليوم. وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

[٥٠٠٠] وقال الإمام أحمد: حدثنا حَسَن بن مُوسَى، حدثنا ابنُ لَهِيعَةَ، حدثنا دَرَّاجٌ، عن أبي الهَيْثَم، عن أبي سَعِيدِ الخُدرِيِّ قال: قيل: يا رسولَ الله ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]: ما أطولَ هذا

(١) هذه الآثار مصدرها كتب الأقدمين، وعلي بن زيد ضعيف، ليس بشيء.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٧٤١٢ ومسلم ٢٧٨٨ وأبو داود ٤٧٣٢ وأبو يعلى ٥٥٥٨ من حديث ابن عمر.

اليوم؟! فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: والذي نفسي بيده إنه ليُخفَّفُ على المؤمن حتى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ يُصلِّيها في الدنيا[1]. وقولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾، يُخبِرُ تعالى عن نَدَم الظالم الذي فارقَ طريقَ الرسولِ وما جاء به من عندِ الله من الحقِّ المبين، الذي لا مِرْيةَ فيه، وسَلَكَ طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يومُ القيامة نَدِمَ حيثُ لا ينفعه النَدَمُ، وعضَّ على يديه حسرةً وأسفاً. وسواءٌ كان سببُ نُزولِها في عُقبةَ بن أبي مُعَيط أو غيره من الأشقياءِ، فإنها عامَّةٌ في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨]. فكل ظالم يندَم يوم القيامة غايةَ الندم، ويَعَض على يديه قائلاً: ﴿يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾، يعني: مَنْ صرفه عن الهدى وعَدَل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك أميَّة بن خَلَفٍ، أو أخوه أبيُّ بن خَلَفٍ، أو غيرهما. ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ ـ وهو القرآن ـ ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾، أي: بعد بُلوغِه إليّ، قال الله تعالى؛ ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾، أي: يَخذُله عن الحقّ، ويَصرِفهُ عنه، ويَستعمِلُه في الباطل، ويدعُوه إليه.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمَّد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه دائماً إلى يوم الدين ـ أنه قال: ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾. وذلك أن المشركين كانوا لا يُصغُون للقرآن ولا يسمَعُونه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]، وكانوا إذا تُلِيَ عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلامَ في غيره، حتى لا يَسمعُوه. فهذا من هِجرانه. وتركُ الإيمان به وتصديقِه من هِجْرانِهِ، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وتَرْكُ العَمَل به من امتثال أوامره واجتناب زَواجِره من هجرانه، والعدولُ عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناءٍ أو لَهْوٍ أو كَلامٍ أو طريقةٍ مأخوذةٍ من غيره، من هِجْرانه. فنسأل الله الكريمَ المنانَ القادرَ على ما يشاء، أن يخلّصنا مما يُسْخِطُه، ويستعملنا فيما يُرضِيه، من حِفْظِ كتابِه وفَهْمِه، والقيامِ بمُقتضاه آناء الليل وأطرافَ النهار، على الوجه الذي يُحبُّه ويرضاه، إنه كريمٌ وهابٌ.

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ﴾، أي: كما حَصَل لك ـ يا محمَّدُ ـ في قومِك من الذين هَجَروا القرآن، كذلك كان في الأُمَم الماضين، لأن الله جَعَل لكلِّ نَبيٍّ عَدوّاً من المجرمينَ، يدعُونَ الناس إلى ضَلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢ ـ ١١٣]. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، أي: لمن اتَّبع رسولَه، وآمنَ بكتابه وصَدَّقه واتَّبعَه، فإن الله هاديه وناصِرُه في الدُنيا والآخرةِ. وإنما قال: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لأن المشركين كانوا يصدُّون الناس عن اتباع القرآن، لئلاً يهتدِيَ أحدٌ به، ولِتَغلِبَ طريقتُهم طريقةَ القرآن، فلهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٧٥ وأبو يعلى ١٣٩٠ وإسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة ودراج، وللحديث شواهد تؤيده دون ذكر الآية الكريمة، وستأتي.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كثرةِ اعتراضِ الكُفّار وتَعنُّتِهم، وكلامهم فيما لا يَعنيهم، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، أي: هَلاَّ أُنزلَ عليه هذا الكتابُ الذي أُوحِي إليه جملةً واحدةً، كما نَزلت الكتبُ قبله، كالتوراة والإنجيلِ والزبُور، وغيرها من الكُتبِ الإلهية. فأجابهمُ الله تعالى عن ذلكَ بأنه إنما أُنزلَ مُنجَّماً في ثلاث وعشرين سنةً بحسب الوقائع والحوادث، وما يُحتَاج إليه من الأحكام لتثبيت قُلوب المؤمنين به، كما قال: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ولهذا قال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، قال قتادةُ: وبيَّناه تَبييناً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلَم: وفَسَّرناه تفسيراً. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾، أي: بحجة وشبهة ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أي: ولا يقولُون قولاً يُعارِضُون به الحقَّ إلا أجبناهم بما هُو الحقُّ في نفسِ الأمر وأبينُ وأوضحُ وأفصحُ من مقالتهم.

قال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾، أي: بما يلتمسون به عيبَ القرآن والرسول، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أي: إلا نَزَل جبريلُ مِنَ الله بجوابهم. وما هذا إلا اعتناء كبير؛ وشرف للرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ حيث كان يأتيه الوحيُ من الله بالقرآن صباحاً ومساءً، ليلاً ونهاراً، سفراً وحَضَراً، فكلُّ مَرَّةٍ كان يأتيه المَلَك بالقرآن كإنزالِ كتابٍ مما قبله من الكتب المتقدِّمة، فهذا المقامُ أعلى وأجلُّ، وأعظمُ مكانةً من سائر إخوانه من الأنبياء ـ صلوات الله وسلامُه عليهم أجمعين ـ فالقرآنُ أشرفُ كتاب أنزله الله، ومحمد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أعظم نَبيٍّ أرسلَه الله، وقد جَمَع الله تعالى للقرآن الصفتين معاً، ففي الملأ الأعلى أُنزلَ جملةً من اللوحِ المحفوظِ إلى بيتِ العزَّةِ من سماء الدنيا، ثم نزل بعدَ ذلك إلى الأرض مُنَجَّماً بحسبِ الوقائع والحوادث. قال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا أحمدُ بن سُليمان، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا داودُ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: أُنزلَ القرآنُ جملةً إلى سماء الدنيا في ليلة القدرِ، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

ثم قال تعالى مُخبراً عن سُوءِ حالِ الكُفّار في مَعَادهم يوم القيامة وحَشرهم إلى جَهَنَّم، في أسوإِ الحالاتِ وأقبح الصفات: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

[٥٠٠١] وفي الصحيح، عن أنس أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، كيف يُحشَر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رِجلَيهِ قادرٌ أن يُمشِيَهُ على وجهه يوم القيامة»[١]. وهكذا قال مجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ من المفسِّرين.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً

(١) تقدم في سورة الإسراء، عند آية: ٩٧.

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُتوعِّداً مَن كَذَّبَ رسولَه محمداً ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ من مشركي قَومِه ومن خالفَه، ومُحذِّرَهم من عقابه وأليم عذابه، مما أحلَّه بالأمم الماضية المكذِّبين لرسله، فَبَدأ بِذِكْرِ مُوسَى عليه السلام. وأنه ابتَعثه وجَعَل معه أخاه هارونَ وَزِيراً، أي: نبياً مُؤَازِراً ومؤَيِّداً وناصِراً، فَكذَّبهما فرعون وجنودُه، فـ ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]. وكذلك فعل بقوم نُوحٍ حين كذّبوا رسولَه نُوحاً عليه السلام، ومن كَذَّب برسولٍ فقد كَذَّب بجميع الرسل؛ إذ لا فرقَ بين رسولٍ ورَسولٍ، ولو فُرِضَ أن الله بَعَث إليهم كلّ رسول فإنهم كانُوا يُكذِّبونه، ولهذا قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ﴾، ولم يُبعَثْ إليهم إلا نُوحٌ فقط، وقد لَبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله، ويُحذِّرهم نقمَه، فما آمن معه إلا قليلٌ، ولهذا أغرقهم الله جميعاً، ولم يَبْقَ منهم أحدٌ، ولم يَبْقَ على وجه الأرض من بني آدم سِوى أصحاب السَفِينة فقط.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾، أي: عبرةً يعتبِرُون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢] أي: وأبقينا لكُم من السُفُن ما تركبونَ في لُججِ البحارِ، لتذكُروا نعمةَ الله عليكم في إنجائِكُم من الغَرَق، وجَعْلكم من ذريّة مَن آمن به وصَدَّق أمرَه.

وقولُه تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا﴾ وقد تقدّم الكلامُ على قِصَّتيهما في غير ما سُورةٍ، منها في سورة الأعراف، بما أغنى عَن إعادَتِهِ. وأما أصحابُ الرسّ فقال ابنُ جُرَيج، عن ابن عَبَّاس: هُم أهلُ قَريةٍ من قُرَى ثَمُودَ. وقال ابن جُرَيج: قال عكرمةُ: أصحابُ الرسِّ بفَلَجَ وهم أصحابُ ياسين. وقال قتادةُ: فَلْجٌ من قُرَى اليَمَامةِ. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن عَمرو بن أبي عاصم النَّبيل، حَدَّثنا أبي عَمْرو بن الضَّحّاك، حَدَّثنا أبي الضَّحَّاك بن مخلد أبو عاصم، حدثنا شَبِيبُ بن بشر، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾، قال: بِئرٌ بِأَذْرِبِيجَانَ. وقال سفيانُ الثوريُّ، عن أبي بَكْرٍ، عن عكرمةَ: الرس بئرٌ رَسُّوا فيها نَبِيَّهم. أي دفنوه بها.

[٥٠٠٢] وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنّ أول الناسِ يدخلُ الجنةَ يومَ القيامة العبدُ الأسودُ، وذلك أن الله ـ تعالى وتبارك ـ بعثَ نبياً إلى أهل قريةٍ، فلم يُؤمِن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود، ثم إنَّ أهلَ القريةِ عَدَوا على النبيِّ، فحَفَروا له بئراً فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحَجَر أصَمّ. قال: فكان ذلك العبدُ يذهَب فيَحتطب على ظَهرِه، ثم يأتي بحطَبِه فيَبيعه، ويَشْتري به طعاماً وشراباً، ثم يأتي به إلى تلك البئر، فيرفَعُ تلك الصخرةَ، ويُعِينُه الله عليها، فيُدلي إليه طَعَامَه وشَرَابَه، ثم يَردُّها كما كانت. قال: فكان كذلك ما شاء الله أن يكون، ثم إنه ذَهب يوماً يحتطبُ كما كان يَصنعُ، فَجمع حَطَبه وحَزَم حُزمَته وفَرَغ منها، فلما أراد أن يَحتَمِلَها وَجَد سِنةً، فاضطجَعَ فنام. فَضَرب الله على أُذُنه سبعَ سنينَ نائماً، ثم إنه هَبَّ فتمطى، فَتَحوَّل لشقه الآخر فاضطجع، فضرب الله على أذنه سبع سنينَ أخرى. ثم إنه هَبَّ واحتمل حُزمَته ولا يحسبُ إلا أنه نام ساعةً من نهار، فجاء إلى القرية فَباع حزمته، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنعُ. ثم ذهب إلى الحَفِيرَة في موضعها الذي كانت فيه، فالتمسَه فلم يجده. وكان قد بدا لقومه فيه بَداء، فاستخرجُوه وآمنوا به وصَدَّقوه. قال: فكان نبيُّهم يسألهم عن ذلك الأسود: ما فَعَل؟

فيقولون له: ما نَدْري، حتى قَبض الله النبيّ، وَأَهبَّ الأسودَ من نومته بعد ذلك. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن ذلك الأسودَ لأوّلُ من يدخُلُ الجنّةَ[1]. وهكذا رواه ابنُ جرير، عن ابن حُمَيد، عن سَلَمة، عن ابن إسحاقَ، عن محمد بن كَعب مرسلاً. وفيه غرابة ونَكارَةٌ، ولعل فيه إدْرَاجاً، والله أعلم. وأما ابنُ جرير فقال: لا يجوزُ أن يُحمَل هؤلاء على أنهم أصحابُ الرسّ الذين ذُكِروا في القرآن، لأنّ الله أخبرَ عنهم أنه أهلكَهُم، وهؤلاءِ قد بَدَا لهم فآمنوا بِنَبِيّهم، اللهمّ إلا أن يكونَ حَدَث لهم أحداث، آمنوا بالنبيّ بعد هَلاكِ آبائهم. والله أعلم. واختار ابنُ جرير أنّ المراد بأصحاب الرسّ هم أصحابُ الأخدُودِ، الذين ذُكِروا في سورة البُروج، فالله أعلم.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾، أي: وأمماً بين أضْعَافِ مَنْ ذُكِرَ أهلكناهم كثيرةً، ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾، أي: بيّنّا لهم الحُجج، ووضّحنا لهم الأدلة، كما قال قتادة: أزحنا عنهم الأعذار، ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾، أي: أهلكنا إهلاكاً، كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. والقرنُ: هو الأمةُ من الناس، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١﴾. وحَدَّه بعض المفسّرين بمئة وعشرينَ سنةً، وقيل: بمئةِ سنةٍ. وقيل: بثمانينَ سنةٍ. وقيل: أربعينَ. وقيل غيرُ ذلك. والأظهرُ أن القَرْنَ هم الأمةُ المتعاصِرُونَ في الزمن الواحد؛ فإذا ذَهَبُوا وخَلَفَهم جيلٌ فهم قرنٌ ثانٍ.

[٥٠٠٣] كما ثَبَت في الصَّحِيحَين عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «خيرُ القُرونِ قَرني، ثُمّ الذين يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونَهم»[2]... الحديث. وقولُه: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾، يعني قريةَ قوم لوطٍ، وهي سَدُوم ومُعَامَلَتُها التي أهلَكَها الله بالقلب، وبالمَطر من الحجارَةِ التي من سِجّيل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٣﴾ [الشعراء: ١٧٣]، وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦﴾ [الحجر: ٧٦]، وقال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩]. ولهذا قال: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾، أي: فَيَعْتَبِرُوا بما حَلَّ بأهلها مِنَ العَذاب والنَّكالِ بِسببِ تكذِيبِهم بالرسولِ ومُخالَفَتِهم أوامرَ الله. وقولُه: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾، يعني: المارِّين بها من الكُفّار لا يَعتَبرون، لأنهم لا يَرجُون نُشوراً، أي: مَعَاداً يوم القيامة.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾

يُخبر تعالى عن استهزاءِ المشركين بالرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ إذا رأوه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، يَعْنُونَ بالعيب والنّقص، وقال هاهنا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾؟! أي: على سبيل التنقُّصِ والازدِراءِ ـ قبّحهم الله ـ كما قال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ

---

(١) ضعيف جداً. أخرجه الطبري ٢٦٣٨١ عن محمد بن كعب وهذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف. وابن إسحق مدلس وقد عنعن.

(٢) تقدم، لكن لفظ «القرون» ليس في شيء من الكتب الستة ولا المسانيد المعتمدة.

كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد: ٣٢]. وقولُهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾، يعنون أنه كاد يَثْنِيهم عن عبادةِ أصنامهم، لولا أن صَبَرُوا وتجلَّدوا واستمرُّوا على عبادتها. قال الله تعالى مُتوعِّداً لهم ومتهدِّداً: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾. ثم قال تعالى لنبيِّه، منبهاً له أن من كَتَب الله عليه الشقاوَة والضلالَ فإنه لا يَهدِيه أحدٌ إلا الله عز وجل: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، أي: مهما استحسَنَ من شيءٍ ورآه حَسَناً في هَوى نفسِه كان دِينَه ومَذهبَه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]. ولهذا قال هاهنا: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾، قال ابنُ عباسٍ: كان الرجلُ في الجاهليةِ يعبدُ الحجر الأبيضَ زماناً، فإذا رأى غيرَه أحسنَ منه عَبَد الثاني وتركَ الأولَ. ثم قال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾، أي: أسوأُ حالاً من الأنعام السارحةِ، فإن تلك تَعقِلُ ما خُلِقت له، وهؤلاء خُلِقُوا لعبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، وهم يعبدون غيره ويُشرِكون به، مع قيامِ الحُجَّةِ عليهم، وإرسالِ الرُّسُلِ إليهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾

مِن هاهنا شَرَع تعالى في بيان الأدلة الدالة على وُجوده، وقُدرته التامة على خَلقِ الأشياءِ المختلِفَة والمتضادَّة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، قال ابنُ عباس، وابنُ عُمَر، وأبو العالية، وأبو مالك، ومَسرُوق، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، وإبراهيم النخعيُّ، والضحّاك، والحسن البَصري، وقتادةُ، والسدِّي، وغيرهم: هو ما بين طُلوع الفجر إلى طُلوع الشَمس. ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، أي: دائماً لا يزول، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القصص: ٧١]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القصص: ٧٢]. وقولُه تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، أي لولا أن الشمسَ تطلعُ عليه لما عُرِف، فإنَّ الضِدَّ لا يُعرَف إلا بِضِدِّه. وقال قتادةُ، والسدِّي: دَليلاً يتلُوه ويَتبعُه حتى يأتي عَلَيه كُلِّه.

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾، أي: الظلَّ. وقيل: الشمس. ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، أي: سَهلاً. قال ابنُ عباس: سَريعاً. وقال مجاهد: خَفِياً. وقال السدِّي: قبضاً خَفِيًّا، حتى لا يبقى في الأرض ظلٌّ إلا تحتَ سقفٍ أو تحت شَجرةٍ، وقد أَظلَّت الشمسُ ما فوقه. وقال أيوبُ بن موسى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾، أي: قليلاً قليلاً. وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾، أي: يلبَسُ الوُجودَ ويَغشاه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ [الليل: ١] وقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾ [الشمس: ٤]. ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾، أي: قَطعاً للحركةِ لراحةِ الأبدانِ، فإنَّ الأعضاء والجوارحَ تَكِلُّ من كَثرةِ الحركة في الانتشار بالنهار في المعاشِ، فإذا جاء الليلُ وسَكن، سكنتِ الحركاتُ فاستراحَت، فحصلَ النومُ الذي فيه راحةُ البدن والروح معاً. ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: يَنتشِرُ الناسُ فيه لمعايشهم ومَكاسِبهم وأسبابِهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾

وهذا أيضاً من قُدرته التامَّة وسلطانه العَظِيم، وهو أنه تعالى يُرسِلُ الرياحَ مُبشِّراتٍ، أي: بمجيءِ السحاب بعدها، والرياحُ أنواعٌ، في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحابَ، ومنها ما يَحمِله، ومنها ما يَسُوقُه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يكون قبل ذلك تَقُمّ الأرضَ. ومنها ما يُلقِحُ السحابَ لِيُمطِرَ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، أي: آلة يتطهر بها، كالسُّحُور والوَقود وما جرى مجراه. فهذا أصح ما يقال في ذلك. وأما من قال: إنه فَعُول بمعنى فاعل، أو: مبنيٌّ للمبالغةِ أو التعدي فَعلى كُلٍّ منهما إشكالاتٌ من حيث اللغةُ والحكمُ، ليس هذا موضعَ بَسطِها، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عُمرَ بنُ حفص بنِ غِيَاثٍ، حدثنا أبي، عن أبي جعفر الرازيِّ، حدثني حُمَيد الطويلُ، عن ثابت البُنَاني قال: دخلت مع أبي العاليةِ في يوم مطير، وطُرُق البصرةِ قَذِرةٌ، فَصَلَّى فقلت له، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، قال: طهره ماءُ السماءِ.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سَلَمة، حدثنا وُهَيب، عن داودَ، عن سعيد بن المسيَّب في هذه الآية: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، قال: أنزل الله ماءً طَهُوراً لا يُنَجِّسهُ شيء.

[٥٠٠٤] وعن أبي سعيد قال: قيل: يا رسولَ الله، أنتوضأُ من بئر بُضَاعَةَ؟ ـ وهي بئر يُلقَى فيها النَّتَن ولُحومُ الكلاب ـ فقال: إن الماء طهورٌ لا يُنجِّسه شيء[1]. رواه الشافعي، وأحمد وصححه، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الأشعثِ، حدثنا مُعتَمِرٌ، سمعت أبي يُحدِّث عن سيَّار، عن خالد بن يزيدَ قال: كنا عند عبد الملك بن مَرْوانَ، فذكروا الماءَ، فقال خالد بنُ يزيدَ: منه منَ السماء، ومنه ما يسقيه الغيمُ من البحر فَيُعْذِبه الرعدُ والبرقُ. فأمّا ما كان من البحرِ فلا يكونُ منه نباتٌ، فأمّا النباتُ فمما كان من السماء. وَرُوِي عن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرةً إلا أنبت بها في الأرض عُشبةً أو في البحر لؤلؤةً. وقال غيره: في البَرِّ بُرٌّ، وفي البحر دُرٌّ.

وقولُه تعالىٰ: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، أي: أرضاً قد طال انتظارُها للغيثِ، فهي هامدةٌ لا نباتَ فيها ولا شيءَ. فلما جاءها الحَيَا عاشت واكتست رُباها أنواعَ الأزاهيرِ والألوانِ، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]. ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾، أي: وَلِيشرَبَ منه الحيوانُ من أنعام وأناسي يحتاجون إليه غَايَةَ الحاجةِ، لشربهم وزروعهم وثِمارهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: ٥٠].

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾، أي: أمطرنا هذه الأرضَ دُون هذه، وسُقنا السحابَ فَمرَّ على الأرض وَتعدَّاها وجاوزَها إلى الأرضِ الأخرى، فأمطرتها وكَفَتْها فَجعَلتها غَدِقةً، والتي وراءها لم يَنزل فيها قطرةٌ من ماءٍ، وله في ذلك الحجَّةُ البالغةُ والحكمة القاطِعَةُ. قال ابنُ مسعود وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس عامٌ بأكثرَ مطراً من عامٍ، ولكن الله يُصرِّفه كيف يشاءُ. ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ

---

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٦٦ والترمذي ٦٦ والنسائي ١/ ١٧٤ وأحمد ٣/ ١٥ و٣١ وأبو يعلى ١٣٠٤ من حديث أبي سعيد الخدري، وحسنه الترمذي، وقال الحافظ في «التلخيص» ١/ ١٣: وقد صححه أحمد ويحيى بن معين، وابن حزم اهـ ويشهد له حديث ابن عباس. أخرجه النسائي ١/ ١٧٣ وأبو داود ٦٨ والترمذي ٦٥ وابن ماجه ٣٧٠ وابن حبان ١٢٤٢.

﴿أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾. أي: ليتذكرُوا بإحياءِ الله الأرضَ الميتة أنه قادرٌ على إحياءِ الأمواتِ والعِظام الرفاتِ أو: ليذكر مَن مُنِعَ القَطْرَ أنما أصابَه ذلك بذنبٍ أصابه، فَيُقلِع عما هو فيه.

[٥٠٠٥] وقال عُمَر مولى غُفْرَةَ: كان جبريل ـ عليه السلام ـ في موضع الجَنائز، فقال له النبيُّ ـ ﷺ ـ: يا جبريلُ، إني أحب أن أعلم أمْرَ السحابِ؟ قال: فقال جبريلُ: يا نبيَّ الله، هذا مَلَكُ السحاب فَسَلْه. فقال: تأتينا صِكَاكٌ مُخَتَّمة: اسقِ بلادَ كذا وكذا، كذا وكذا قطرة[١]. رواه ابنُ أبي حاتم، وهو حديثٌ مرسَلٌ. وقولُه تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، قال عِكْرِمةُ: يعني الَّذين يقولون: مُطِرنا بِنَوءِ كَذَا وكَذَا.

[٥٠٠٦] وهذا الذي قاله عِكْرِمة كَمَا صَحّ في الحديث المخرَّج في صحيح مسلم، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال لأصحابه يوماً، على أثر سَمَاء أصابَتهم من الليل: «أتدرُون ماذا قالَ ربُّكم؟ قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: قال: أصبَح مِن عبادِي مُؤمِنٌ بي وكافر، فأما مَن قال: مُطِرنا بِفَضلِ الله وَرَحمتِه، فذاك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب. وأما من قال: مُطِرنا بنوء كذا وكذا، فَذَاك كافرٌ بي، مؤمنٌ بالكوكب»[٢].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١﴾ يدعُوهم إلى الله ـ عز وجلّ ـ ولكنّا خصصناك ـ يا محمدُ ـ بالبعثةِ إلى جَميعِ أهل الأرض، وأمرناك أن تُبلِّغ الناسَ هذا القرآنَ، ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

[٥٠٠٧] وفي الصَحيحَين: «بُعِثتُ إلى الأَحمرِ والأَسْودِ»[٣].

[٥٠٠٨] وفيهما: «وكان النبي يُبعث إلى قومه، وبُعِثتُ إلى الناسِ عامة»[٤]. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾، يعني: بالقرآنِ، قالَهُ ابنُ عباسٍ، ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أي: خَلَق الماءين: الحلو والمِلح، فالحُلو كالأنهار والعُيون والآبار، وهذا هو البحر الحُلو الفُرات العذب الزُّلال. قاله ابن جُرَيج، واختاره ابنُ جرير. وهذا المعنى لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحرٌ ساكن وهو عذبٌ فُرَات. والله سبحانه وتعالىٰ إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نِعَمِه عليهم ليشكروه، فالبحرُ العذبُ هو هذا السارحُ بين الناس، فَرّقه تعالى بين خَلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعُيوناً في كل أرضٍ، بحَسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم.

---

(١) ضعيف جداً. هو مرسل، ومع إرساله، عمر مولى غفرة، هو ابن عبد الله، ضعيف كما في التقريب، فهاتان علتان للحديث.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٨٤٦ و١٠٣٨ ومسلم ٧١ وأبو داود ٣٩٠٦ والنسائي ٣/١٦٥ وأحمد ٤/١١٧ وابن حبان ١٨٨ من حديث زيد بن خالد الجهني.

(٣) تقدم مراراً.

(٤) أخرجه البخاري ٣٣٥ و٣١٢٢ ومسلم ٥٢١ وقد تقدم، وصدره «أعطيت خمساً...».

وقولُه تعالى: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أي: مالحٌ مُرٌّ زُعَاقٌ لا يُستَساغُ، وذلك كالبحارِ المعروفةِ في المشارقِ والمغاربِ، البحر المحيط وما يتصل به من الزُّقَاقِ وبحر القَلْزَم، وبحر اليَمَنِ، وبحر البصرَةِ، وبحر فارِس، وبحر الصين والهند، وبحر الروم وبحر الخَزَر، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تتموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدَّة الرياح، ومنها ما فيه مَدٌّ وجَزر، ففي أول كلِّ شهر يحصُل منها مدٌّ وفيضٌ، فإذا شرع الشهر في النقصان جَزرت، حتى تَرجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهلَّ الهلالُ من الشهر الآخرِ شَرَعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرَع في النقص، فأجرى الله سبحانه وتعالى ـ وله القدرةُ التامةُ ـ العادةَ بذلك. فكل هذه البحار الساكنة خَلَقها الله سبحانه وتعالى مالحةَ الماء، لئلا يحصُلَ بسببها نَتْنُ الهواء، فَيَفسُدَ الوجودُ بذلك، ولئلا تَجوَى الأرض بما يموتُ فيها من الحيوانِ، ولما كان ماؤُها مِلحاً كان هواؤُها صَحيحاً وَمِيتَتُهَا طيبة.

[٥٠٠٩] ولهذا قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ وقد سُئِل عن ماءِ البحر: أنتوضأ به؟ فقال: «هو الطهورُ ماؤه، الحلُّ ميتتُه»[1]. رواه الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمدُ، وأهل السنَنِ بإسنادٍ جيدٍ.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا﴾، أي: بين العَذْب والمالح ﴿بَرْزَخًا﴾، أي: حاجزاً، وهو اليَبس من الأرض، ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، أي: مانعاً أن يصل أحدَهما إلى الآخر، كما قال: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ ـ ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١]. وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، أي: خلَق الإنسان من نُطفةٍ ضَعيفةٍ، فَسوَّاه وعدَله، وجعَله كاملَ الخِلْقَةِ، ذكراً أو أنثى، كما يشاء، ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾، فهو في ابتداءِ أمره وَلَدٌ نَسِيبٌ، ثم يتزوَّج فيصير صِهراً، ثم يَصِيرُ له أصهارٌ وأختانٌ وقَرَابات. وكل ذلك من ماءٍ مَهينٍ. ولهذا قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾

يُخبر تعالى عن جَهْلِ المشركين في عبادتهم غيرَ الله من الأصنام، التي لا تملِكُ لهم نفعاً ولا ضَرّاً، بلا دليلٍ قادَهم إلى ذلك، ولا حُجَّةٍ أدّتهم إليه، بل بمجرَّدِ الآراء، والتشهي والأهواء، فهم يُوالونَهم ويُقاتِلون في سَبيلهم، ويُعَادُون الله ورسوله والمؤمنين فيهم، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾، أي: عوناً في سبيلِ الشيطانِ على حِزب الله، وحِزبُ الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٥]، أي: آلهتهم التي اتَّخذُوها من

---

(١) تقدم وهو صحيح.

دونِ الله لا تَمْلِكُ لهم نَصراً، وهؤلاءِ الجَهَلَةُ للأصنام جندٌ مُحضَرون، يقاتلون عنهم، ويَذِبُّون عن حَوْزتهم، ولكنَّ العاقبةَ والنُصرَةَ لله ولرسولِه والمؤمنين في الدنيا والآخرة.

قال مجاهدٌ: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾، قال: يظاهر الشيطانَ على مَعصيةِ الله: يُعِينه. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾، يقول: عوناً للشيطانِ على رَبِّه بالعداوةِ والشِرْكِ. وقال زيدُ بن أسلَم: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾، قال: مُوَالياً. ثم قال تعالى لرسوله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾، أي: بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مُبَشِّراً بالجنة لمن أطاع الله، ونَذِيراً بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ لمن خَالَفَ أمرَ الله. ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، أي: على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أُجرَةٍ أطلبُها من أموالِكم، وإنما أفعل ذلكَ ابتغاءَ وجهِ الله، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٨]، ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، أي: طريقاً ومَسْلَكاً ومنهجاً يَقتَدِي فيها بما جِئتَ به.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، أي: في أمورِكَ كُلِّها كُن متوكِّلاً على الله الحيِّ الذي لا يموتُ أبداً، الذي هو ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، الدائمُ الباقي السَّرْمَدِيُّ الأبَدِيُّ، الحيُّ القيُّوم ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، اجعله ذُخْرَكَ وملجَأَك، وهو الذي يُتوكَّل عليه ويُفزَع إليه، فإنه كَافِيكَ وناصرُك ومُؤَيِّدك ومُظفِرُك، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

[٥٠١٠] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا عبد الله بن محمَّد بن عَلي بن نُفَيل قال: قرأت على مَعقِل ـ يعني ابن عُبَيد الله ـ عن عبد الله بن أبي حُسَين، عن شهر بن حَوْشَب قال: لَقِيَ سَلْمَانُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في بعضِ فِجاجِ المدينة، فَسَجد له، فقال: لا تسجُد لي يا سلمان، واسجُد للحيِّ الذي لا يموتُ[1]. وهذا مُرسَلٌ حَسَنٌ. وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾، أي: اقرِن بين حَمْده وتَسبيحه.

[٥٠١١] ولهذا كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «سُبحانك اللهُمَّ رَبَّنا وبِحمدكَ»[2]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩] أي: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩]. وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾، أي: لعلمه التامّ الذي لا يَخفَى عليه خافيةٌ، ولا يعزُب عنه مثقالُ ذَرَّة. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، أي: هو الحيُّ الذي لا يموتُ، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومليكُه، الذي خَلَق بقدرته وسُلطانه السموات السبعَ، في ارتفاعها واتِّساعها، والأرضينَ السبعَ في سفولها وكَثَافتها، في ستةِ أيامٍ، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، أي: يُدَبِّر الأمر، ويقضِي الحقَّ، وهو خيرُ الفاصِلين.

وقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، أي: استَعلم عَنهُ من هو خبيرٌ به عالمٌ به فاتَّبِعه واقتدِ به، وقد عُلِم أنه لا أحدَ أعلمُ بالله ولا أخبرُ به من عَبدِه ورسولِه مُحمَّدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه سَيِّد وَلَدِ آدمَ على الإِطلاق، في الدنيا والآخرة، الذي لا يَنطِقُ عن الهوى، إن هُو إلا وحيٌ يوحَى ـ فما قاله فهو حَقٌّ، وما أخبر

(١) هذا مرسل، والمرسل من قسم الضعيف، وقد تقدم تخريجه غير مرة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٩٦٨ ومسلم ٤٨٤ وأبو داود ٨٧٧ والنسائي ٢/٢١٩ وابن ماجه ٨٨٩ وأحمد ٦/٤٣ وابن حبان ١٩٢٩ والبيهقي ٢/١٠٩ من حديث عائشة.

به فهو صِدقٌ، وهو الإمامُ المحكَم الذي إذا تنازَعَ الناسُ في شيءٍ وَجب رَدُّ نِزاعهم إليه، فما يُوافِق أقوالَه وأفعالَه فهو الحقُّ، وما يُخالِفُها فهو مردودٌ على قائله وفاعله، كائناً من كان، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الإخبارِ وعدلاً في الأوامِر والنَّواهِي، ولهذا قال: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾، قال مجاهد في قوله: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾، قال: ما أخبرتُك من شيءٍ فهو كما أخبرتك. وكذا قال ابن جُرَيج.

وقال شِمْرُ بن عَطيّة في قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾، قال: هذا القرآن خبيرٌ به. ثم قال تعالى منكراً على المشركين الذين يَسجُدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، أي: لا نعرف الرحمن. وكانوا يُنكِرون أن يُسَمَّى الله باسمِه الرحمن.

[٥٠١٢] كما أنكروا ذلك يوم الحُديبية حين قال النبي ـ ﷺ ـ للكاتب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقالوا: «لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتُب كما كنت تكتُب: باسمِكَ اللّهُمّ»[1]. ولهذا أنـزل الله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسـراء: ١١٠]، أي: هـو الله وهـو الرحمن. وقال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؟ أي: لا نعرفه ولا نُقرّ به، ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾، أي: لمجرد قولك؟! ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾. أما المؤمنون فإنهم يعبدُون الله الذي هو الرحمنُ الرحيم، ويُفرِدُونه بالإلهية ويسجدون له. وقد اتفق العلماءُ ـ رحمهم الله ـ على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروعٌ السجودُ عندها لقارِئها ومُستَمِعها، كما هو مُقرّر في موضعه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ۝٦١ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ۝٦٢﴾

يقول تعالى مُمَجِّداً نفسه ومُعَظِّماً على جميل ما خلَق في السماء من البُروجِ، وهي الكَواكِبُ العِظَامُ، في قول مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وأبي صالح، والحَسَن، وقتادة. وقيل: هي قصورٌ في السماء للحَرَس، يُروَى هذا عن علي، وابن عباس، ومحمد بن كَعب، وإبراهيم النخَعي، وسُليمان بن مِهْران الأعمش. وهو رواية عن أبي صالح أيضاً. والقول الأول أظهرُ، اللهم إلا أن يكون الكواكب العِظَامُ هي قصور للحرس، فَيجتمع القولانِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك: ٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا﴾، وهي الشمسُ المُنيرة، التي هي كالسِراجِ في الوُجود، كما قال: ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ۝١٣﴾ [النبا: ١٣]. ﴿وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾، أي: مُضيئاً مُشرِقاً بنور آخَرَ غير نُورِ الشمس[2]، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: ٥]، وقال مخبراً عن نوح ـ عليه السـلام ـ أنه قـال لـقومـه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ۝١٦﴾ [نوح: ١٥ ـ ١٦]. ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ﴾، أي: يَخلُف كُلُّ واحدٍ منهما الآخَرَ، يتعَاقبانِ لا يفتران، إذا ذَهَب هذا جاء هَذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣﴾ [إبـراهـيـم: ٣٣]، وقـال: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا

(١) يأتي في سورة الفتح إن شاء الله.

(٢) يلاحظ أن القمر غير مضيء كما كانوا يظنون قديماً، وإنما هو منيريعكس ضوء الشمس.

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

وقولُه تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، أي: جَعَلهما يتعاقبان، توقيتاً لِعبَادةِ عباده له عَزَّ وجَلَّ، فمن فاته عملٌ في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عَمَلٌ في النهار استدرَكَه في الليل.

[٥٠١٣] وقد جاء في الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يبسُط يده بالليل ليتوبَ مُسِيءُ النهار ويبسط يده بالنهار ليتُوب مُسِيءُ الليل»(١).

قال أبو داود الطيالسي: حَدَّثنا أبو حُرَّة، عن الحسن: أنَّ عُمر بن الخطاب أطالَ صلاةَ الضُحى، فقيل له: صنعت اليوم شيئاً لم تكن تَصنَعُه؟ فقال: إنَّه بَقِي عَليَّ من وِرْدِي شيء، فأحببت أن أُتِمَّه، أو قال: أقضِيه. وتَلاَ هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾. وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يقول: من فاته شيءٌ من الليل أن يعمَله أدركه بالنهار، أو من النهار أدركه بالليل. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن. وقال مجاهدٌ: ﴿خِلْفَةً﴾، أي: مُختلِفَين، هذا بِسَوَادِه، وهذا بِضِيائِه.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

هذه صفاتُ عبادِ الله المؤمنينَ ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، أي بِسَكِينةٍ وَوَقارٍ من غيرِ جَبْرِيَّةٍ ولا استكبار، كما قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، فأما هؤلاء فإنهم يَمشُون من غير استكبارٍ ولا مَرَح، ولا أَشَرٍ ولا بَطَرٍ، وليس المرادُ أنهم يمشون كالمرضَى من التصانُع تَصَنُّعاً ورياءً، فقد كان سيِّدُ وَلَدِ آدم ﷺ إذا مَشَى كأنما ينحطُّ من صَبَبٍ(٢) وكأنما الأرض تُطوَى له. وقد كَرِه بعضُ السلف المشي بِتَضعُّفٍ وتَصنُّع، حتى رُوِي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رُوَيداً، فقال: ما بالُكَ؟ أأنت مَريضٌ؟ قال: لا، يا أميرَ المؤمنين. فَعَلاه بالدِّرَّة، وأمره أن يمشيَ بقُوَّةٍ. وإنما المراد بالهَوْن هاهنا السكينةُ والوقَارُ.

[٥٠١٤] كما قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إذا أتيتُم الصلاةَ فلا تأتوها وأنتم تَسْعَون، وأْتوها وعليكُم السَّكِينَةُ، فما أدركتم فَصَلُّوا، وما فاتكم فأتِمُّوا»(٣).

وقال عبد الله بن المبارك: عن معمر، عن يحيى بن المختار، عن الحَسَن البصري في قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال: إن المؤمنين قوم ذُلُل، ذَلَّت منهم ـ والله ـ الأسماعُ والأبصارُ والجوارحُ، حتى تَحسَبُهم مرضَى وما بالقوم من مَرَضٍ، وإنهم لأصحَّاءُ، ولكنَّهم دَخَلَهم من الخوفِ ما لم

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ١٧٩ وابن ماجه ١٩٥ وأحمد ٤/ ٣٩٥ من حديث أبي موسى الأشعري بأتم منه.

(٢) الصبب: ما انصب من الرمل وما انحدر من الأرض.

(٣) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٠٥.

يدخُل غيرَهم، ومَنَعهم من الدنيا علمُهم بالآخرة، فقالوا: الحمدُ لله الذي أذهب عنا الحَزَن. أما والله ما أحزنَهم حَزَنُ الناس، ولا تعاظَمَ في نُفوسهم شيءٌ طَلَبُوا به الجنّة، أبكاهم الخوف من النار، وإنه من لم يَتعزَّ بعَزَاءِ الله تَقَطَّعُ نفسُه على الدنيا حَسَراتٍ، ومن لم يَرَ لله نعمَةً إلا في مطعَم أو في مَشرَب، فقد قَلَّ علمُه وحَضَر عَذَابُه. وقولُه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾، أي: إذا سَفِهَ عليهم الجُهّالُ بالسَّيّىءِ لم يقابلُوهم عليه بمثله، بل يعفُون ويصفَحُون، ولا يقولُون إلا خيراً، كما كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ لا تَزيده شِدَّةُ الجهلِ عليه إلا حِلماً، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥].

[٥٠١٥] وقال الإمام أحمد: حدثنا أسودُ بن عامر، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي خالد الوالبي، عن النعمان بن مُقَرّن المُزَني قال: «قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ وسَبَّ رجلٌ رجلاً عنده، قال: فجعل الرجل المسبُوب يقول: عليكَ السلامُ. قال: فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أما إنَّ مَلَكاً بينكما يَذِبُّ عنك، كلَّما شَتَمك هذا قال له: بل أنت، وأنتَ أحقُّ به. وإذا قال له: عليكَ السلامُ، قال: لا، بل عَلَيك، وأنتَ أحقُّ به»[1]. إسنادٌ حسن، ولم يُخرجُوه. وقال مجاهدٌ: ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾، يعني قالوا سداداً. وقال سعيد بن جُبَير: ردوا معروفاً من القول. وقال الحَسَن البَصرِيّ: «قالوا: سَلامٌ عَلَيكُم، إن جُهِل عليهم حَلمُوا، يُصاحِبونَ عبادَ الله نهارَهُم بما تَسمعُونَ. ثم ذَكَر: لَيلُهُم خيرُ ليلٍ». وقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾﴾، أي: في عبادَتِه وطَاعتِه، كما قال تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٨]. وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦]. وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] الآية، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾، أي: ملازماً دائماً، كما قال الشاعر:

إنْ يُعَذِّبْ يَكُنْ غَراماً، وإن يُعـ ـطِ جَزِيلاً فإنَّه لا يُبالي

ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾: كلُّ شيءٍ يُصيب ابنَ آدم ويزولُ عنه فليس بغَرام، وإنما الغَرامُ اللازمُ ما دامت السمواتُ والأرضُ. وكذا قال سليمان التَّيميُّ. وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يعني: ما نَعِمُوا في الدنيا؛ إنَّ الله تعالىٰ سَأَل الكُفّار عن النعمةِ فلم يَرُدُّوها إليه، فأغرَمَهُم فأدخلَهُم النار. ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾، أي: بئسَ المنزلُ مَنزلاً، وبئس المَقيلُ مَقيلاً. وقال ابنُ أبي حاتم عند قوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾: حدثنا أبي، حدثنا الحسنُ بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن مالِك بن الحارث قال: إذا طُرِح الرجل في النارِ هَوَى فيها، فإذا انتهَى إلى بعض أبوابها قيل: مكانَك حتى تُتحفَ، قال: فَيُسقَى كأساً من سُمّ الأساوِدِ والعقارِبِ، قال: فَيميزُ الجلدَ على حِدَةٍ، والشعر على حِدَة، والعصَب على حِدَةٍ، والعُروقَ على حِدَةٍ. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عُبيدِ بن عُمَير قال: إن في النارِ لَجباباً فيها حَيّاتٌ أمثال البُختِ، وعقاربُ أمثالُ البغالِ الدُّهم، فإذا قُذِف بهم في النار خَرَجت إليهم

(١) أخرجه أحمد ٥/٤٤٥ وقال الهيثمي في «المجمع» ٨/٧٥: ورجاله رجال الصحيح، غير أبي خالد الوالبي، وهو ثقة. قلت: وثقه ابن حبان على قاعدته، وهو شبه مجهول، وله علة أخرى، وهي عنعنة الأعمش.

من أوطانها فأخذت بِشفَاههم وأبشارِهم وَأشعارِهم، فكَشَطت لُحومَهُم إلى أقدامِهم، فإذا وَجَدت حَرَّ النار رَجَعت.

[٥٠١٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا الحَسَنُ بن مُوسى، حدثنا سَلاَّم ـ يعني ابن مسكين ـ عن أبي ظِلاَلٍ، عن أَنَسِ بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: إن عبداً في جَهَنَّم لَيُنادي أَلفَ سنةٍ: يا حَنَّانُ، يَا منَّانُ. فيقول الله عز وجل لجبريلَ: اذهب فآتني بعبدي هذا. فينطلِق جبريلُ فيجِدُ أهلَ النار مُنكبِّين يبكُون، فيرجعُ إلى ربه ـ عز وجل ـ فيخبره، فيقول الله ـ عز وجل ـ: آتني به فإنه في مكان كذا وكذا. فيجيء به فيوقفه على رَبِّه ـ عزَّ وجلّ ـ فيقول له: يا عبدي، كيف وجدْت مكانَك ومَقِيلك؟ فيقول: يا ربِّ، شَرَّ مكانٍ وَشرَّ مَقِيلٍ! فيقول: رُدُّوا عَبدِي. فيقول: يا ربِّ، ما كنتُ أرجُو إذ أخرجتَنِي منها أن تَرُدَّني فيها! فيقول: دَعُوا عَبدِي[١]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾، أي: ليسُوا بمبذِّرين في إنفاقهم فَيَصرِفُون فوقَ الحاجةِ، ولا بُخَلاء على أهليهم فَيُقَصِّرُون في حَقِّهم فلا يكفُونَهم، بل عَدْلاً خِيَاراً، وخَيرُ الأمور أوسطُها، لا هذا ولا هذا، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

[٥٠١٧] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عِصام بن خالد، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مَرْيَم الغَسَّاني، عن ضَمْرَةَ، عن أبي الدَّرْدَاءِ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: مِن فِقهِ الرجل رِفقُه في مَعِيشته[٢]. لم يُخرجُوه

[٥٠١٨] وقال أحمدُ أيضاً: حدثنا أبو عُبَيدة الحداد، حدثنا مسكين بنُ عبد العزيز العَبْدي، حدثنا إبراهيم الهَجَري عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مَسعُودٍ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما عَالَ من اقتَصَد[٣]. لم يُخرِجُوه.

[٥٠١٩] وقال الحافظ أبو بكر البزَّارُ: حدثنا أحمدُ بن يحيى، حدثنا إبراهيمُ بن محمد بن مَيمُون، حدثنا سعيد بن حكيم، عن مُسلم بن حبيب، عن بلال ـ يعني العَبْسي ـ عن حُذَيفةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ما أحسنَ القَصْدَ في الغِنَى، وأحسنَ القصدَ في الفَقرِ، وأحسنَ القصدَ في العبادةِ[٤]. ثم قال: لا نعرِفُه يُروَى إلا من حديثِ حُذيفة رضي الله عنه. وقال إياس بن مُعاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرَفٌ. وقال غيره: السرف: النفقةُ في مَعصِية الله. وقال الحسنُ البصريُّ: ليسَ النفقةُ في سبيلِ الله سَرَفٌ، والله أعلم.

---

(١) ضعيف. أخرجه أحمد ٣/ ٢٣٠ وأبو يعلى ٤٢١٠ من حديث أنس، قال الهيثمي في «المجمع» ١٨٥٥٩: رجالهما رجال الصحيح، غير أبي ظلال، وضعفه الجمهور، ووثقه ابن حبان اهـ. كذا وقع للحافظ الهيثمي. والصواب أن ابن حبان لم يوثقهُ. بل وثق ابن حبان رجلاً آخر اسمه هلال بن أبي هلال، أبو ظلال. وأما أبو ظلال المذكور في الإسناد فهو هلال بن أبي ميمونة القسملي، جاء في «الميزان» ٩٢٨٠: قال ابن معين: ليس بشيء، وقال النسائي والأزدي: ضعيف. وقال ابن حبان: مغفل، لا يجوز الاحتجاج به. بحال. وقال البخاري: عنده مناكير.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ٥/ ١٩٤ بهذا الإسناد، وقال الهيثمي في «المجمع» ٦٣٠٨: فيه أبو بكر بن أبي مريم، وقد اختلط اهـ وله علة أخرى، ضمرة هو ابن حبيب، لم يسمع من أبي الدرداء، فهو منقطع.

(٣) تقدم تخريجه باستيفاء.

(٤) أخرجه البزار ٣٦٠٤ بهذا الإسناد، وهو ضعيف، فيه مسلم بن حبيب، لم يوثقه أحد. وإنما ذكره ابن حبان في الثقات في ترجمة سعيد بن حكيم راجع «المجمع» ١٧٨٥٠.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

[٥٠٢٠] قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن شَقِيق، عن عبدِ الله ـ هو ابن مسعُودٍ ـ قال: سُئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أيُّ الذنبِ أكبرُ؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قال: ثم أي؟ قال: أن تُزَاني حَلِيلَة جارك. قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾(١). وهكذا رواه النسائي عن هَنَّاد بن السريِّ، عن أبي مُعاويةَ، به. وقد أخرجه البخاري ومسلم، من حديث الأعمش ومنصور ـ زاد البخاري: وواصل ـ ثلاثتُهم عن أبي وائلٍ شقيق بن سلمة، عن أبي مَيْسَرَة عَمرو بن شُرحَبيل، عن ابن مَسْعُودٍ، به، فالله أعلم، ولفظُهما عن ابن مسعود قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم؟ الحديث، طريقٌ غريب.

[٥٠٢١] وقال ابنُ جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازيُّ، حدثنا عامر بن مُدرِك، حدثنا السَّرِي ـ يعني ابن إسماعيل ـ حدثنا الشعبي، عن مَسرُوق قال: قال عبد الله: خَرَج رسول الله ـ ﷺ ـ ذاتَ يومَ فاتبعتُه، فجلس على نَشَزٍ من الأرض وقعدتُ أسفَلَ منه، ووجهي حيال ركبتيه، فَاغتَنَمتُ خَلْوَتَهُ وقلت: بأبي أنتَ وأمّي يا رسولَ اللهِ، أيُّ الذنوبِ أكبرُ؟ قال: أن تدعُوَ لِلهِ نداً وهو خَلَقَك. قلت: ثُمَّ مه؟ قال: أن تقتُلَ ولَدَك كراهيةَ أن يطعَم معك. قلت: ثم مه؟ قال: أن تُزَاني حَلِيلةَ جَارِك. ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ . . . إلى آخر الآية(٢).

[٥٠٢٢] وقال النسائي: حدثنا قُتَيبةُ بن سعيد، حدثنا جرير، عن منصور، عن هلالِ بن يسافِ، عن سَلْمة بن قَيسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ في حَجَّة الوداع: ألاَ إنما هي أربع، فما أنا بأشحَّ عليهن مِنّي منذُ سَمِعتُهنَّ من رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرِقُوا»(٣).

[٥٠٢٣] وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عَليّ بن المَدِيني ـ رحمه الله ـ حدثنا محمد بن فُضَيل بن غَزْوَانَ، حدثنا محمد بن سعد الأنصاريُّ، سَمِعت أبا ظَبْيَةَ الكَلَاعي، سَمِعت المِقداد بن الأسود ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: ما تقولُون في الزنا؟ قالوا: حَرَّمه الله ورسوله، فهو حَرَام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: لأَن يَزنِيَ الرجلُ بِعَشر نسوة أيسرُ عليه من أن يَزْنِي بامرأةِ جارِه.

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٦١ و٤٧٦٢ ومسلم ٣٠٢٣ ح ٢٠ والنسائي في «التفسير» ٣٨٨ وأحمد ١/ ٣٨٠ و٤٣١ و٤٣٤ و٤٦٢.

(٢) أخرجه الطبري ٢٦٥٠٩ ورجاله ثقات، لكن الصحيح أن الذي قرأ الآية هو ابن مسعود.

(٣) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٣١.

قال: ما تقولون في السَرِقة؟ قالوا: حَرَّمها الله ورسوله، فهي حرامٌ. قال: لأَن يَسرِق الرجلُ من عشرةِ أبياتٍ أَيسَرُ عليه من أن يسرِقَ مِن جَارِه[١].

[٥٠٢٤] وقال أبو بكر بن أبي الدُنيا: حدثنا عَمّار بن نَصر، حدثنا بَقِيَّةُ، عن أبي بكر بن أبي مَرْيَم، عن الهَيثم بن مالك الطَائي عن النبي ـ ﷺ ـ: قال: مَا مِن ذَنْبٍ بعد الشِرْكِ أعظَمَ عند الله من نُطفةٍ وَضعَها رجلٌ في رَحِم لا يحلُّ له[٢].

[٥٠٢٥] وقال ابن جُرَيج: أخبرني يَعلى، عن سَعِيد بن جُبَير أنه سَمِع ابنَ عَبَّاس يحدث: أَنَّ ناساً من أهل الشرك قَتلوا فأكثَرُوا، وَزَنوا فأكثَرُوا، ثم أَتوا مُحمَّداً ـ ﷺ ـ فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتدعُو إليه لَحَسنٌ، لو تُخبرُنا أنَّ لِمَا عَملنَا كَفَّارةً، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، ونزلت: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[٣] [الزمر: ٥٣].

[٥٠٢٦] وقال ابنُ أبي حَاتِم: حَدَّثنا أبي، حدثنا ابنُ أبي عُمَر، حدثنا سُفيانُ، عن عَمرو، عن أبي فَاخِتَةَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لرجل: «إنَّ الله ينهاك أن تعبُدَ المخلوقَ وتدعَ الخالق، وينهاك أن تقتُلَ وَلَدك وتغذُو كَلْبَكَ، وينهَاك أن تزني بحَليلة جَارِك. قال سفيان: وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[٤].

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ـ رُوي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: ﴿أَثَامًا﴾: وادٍ في جهنم. وقال عكرمة: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾، أودِيَةٌ في جَهَنَّم يُعذَّب فيها الزُناة. وكذا رُوِي عن سعيد بن جُبَير، ومجاهد. وقال قتادةُ: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾: نَكَالاً، كنا نُحدَّث أنه وادٍ في جَهَنَّم. وقد ذُكِر لنا أن لُقمانَ كان يقُول: يا بُنَيّ، إيَّاك والزنا، فإنَّ أوَّله مخافةٌ وآخِرَه نَدَامةٌ.

[٥٠٢٧] وقد وَرَدَ في الحديث الذي رواه ابنُ جرير وغيره، عن أبي أُمَامَةَ الباهِليّ، موقوفاً ومرفوعاً: «أنَّ غيّاً، وَأثاماً بئرانِ في قَعْرِ جهنَّم»[٥]. أجارنا الله منهما بمنِّه وكَرَمِه. وقال السدِّي: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاءً. وهذا أشبهُ بظاهِرِ الآية. ولهذا فَسَّره بما بعده مُبدَلاً منه، وهو قوله تعالىٰ: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾، أي: يُكرَّر عليه ويُغلَّظ، ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾، أي: حَقِيراً ذَلِيلاً. وقولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، أي: جزاؤه على ما فَعَل من هذه الصفات القبيحةِ ما ذُكِر ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ في الدنيا إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ مِن جَميع ذلك، فَإن الله يتوبُ عليه. وفي ذلك دلالة على صحةِ توبة القاتل، ولا تعارُضَ بين هذه وبين آية النساء: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾، فإن هذه وإن كانت مَدَنية إلا أنها مُطلَقَةٌ، فَتُحمل على مَن لم يتب، لأن هذه مُقيَّدة

---

(١) تقدم في سورة النساء: ٣٦.

(٢) ضعيف جداً، فيه عنعنه بقية، وأبو بكر، واهٍ. والهيثم بن مالك، تابعي، فهذه علل ثلاث تقدح في صحة الحديث أو حسنه، وتقدم تخريجه.

(٣) والحديث أخرجه الطبري ٢٦٥٠٤ وإسناده حسن، رجاله ثقات، وورد بنحوه من وجه آخر عنه، أخرجه الطبري ٢٦٥١٠ و٢٦٥١١ ورجاله ثقات.

(٤) هذا مرسل، أبو فاختة، هو سعيد بن عِلاقة: تابعي ثقة، ولأصله شواهد.

(٥) تقدم تخريج هذا الخبر في تفسير سورة مريم عند آية: ٥٩، والمرفوع ضعيف.

بالتوبة، ثم قد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]. وقد ثبتت السنةُ الصحيحةُ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ بصحة توبةِ القاتلِ، كما ذُكِر مُقرَّراً من قصة الذي قَتَل مئة رَجُلٍ ثم تاب، وقُبِل مِنه[١]. وغير ذلك من الأحاديث. وقولُه تعالىٰ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، في معنى قوله: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾، قولان:

أحدُهما: بُدِّلوا مكانَ عملِ السيئاتِ بعَمِلِ الحسنات، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عَبّاس في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ قال: هم المؤمنونَ، كانوا من قبلِ إيمانِهم على السيئات، فَرَغِبَ الله بهم عن ذلك فَحوّلهم إلى الحسناتِ، فأبدلهم مكانَ السيِّئاتِ الحسناتِ، ورَوَى مجاهد، عن ابن عباس أنه كان يُنشِدُ عند هذه الآية:

بُـدِّلْـنَ بَـعْـدَ جِـرَّةٍ صَـرِيـفَـا ... وَبَـعْـدَ طُـول الـنَّـفَـسِ الـوَجِـيـفَـا

يعني: تَغيَّرت الأحوالُ إلى غَيرِها. وقال عطاءُ بن أبي رَبَاحِ: هذا في الدنيا، يكون الرجلُ على هيئةٍ قبيحةٍ، ثم يُبَدِّله الله بها خَيراً. وقال سَعيد بنُ جُبير: أبدلهم الله بعبادَةِ الأوثانِ عبادةَ الرحمن، وأبدَلَهم بقتالِ المسلمين قتالاً مع المسلمين للمشركينَ، وأبْدَلَهم بنكاحِ المشركاتِ نكاحَ المؤمناتِ. وقال الحسن البصريّ: أَبدَلَهُم الله بالعملِ السَّيِّىء العملَ الصالحَ، وأبدلَهُم بالشركِ إخلاصاً، وأبدلَهُم بالفجورِ إحصاناً وبالكفر إسلاماً. وهذا قولُ أبي العاليةِ، وقتادَةَ، وجماعةٍ آخَرِينَ.

والقول الثاني: أَنَّ تلك السيئات الماضية تنقلِبُ بنفس التوبةِ النصُوح حسناتٍ، وما ذاك إلا أنه كلما تَذَكَّر ما مَضَى نَدِم واسترجَعَ واستغفر، فَينقلبُ الذَّنْبُ طاعةً بهذا الإعتبار، فيومَ القيامةِ وإن وَجَده مكتوباً عليه لكنه لا يَضُرُّه وينقلِبُ حسنةً في صحيفته، كما ثَبتتِ السنةُ بذلك، وصحَّت به الآثارُ المرويةُ عن السَّلَفِ رَحِمَهُم الله تعالى. وهذا سياق الحديث:

[٥٠٢٨] قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن المعرُورِ بن سُوَيد، عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إني لأعرفُ آخِرَ أهل النار خُروجاً من النارِ، وآخِرَ أهلِ الجنة دخولاً إلى الجنة: يُؤتَى برجل، فيقول: نَحُّوا كِبَارَ ذُنُوبه وَسلُوه عن صِغارِهَا. قال: فَيُقالُ له: عَملتَ يومَ كذا وكذا كذا، وعَمِلت يومَ كذا وكذا كذا؟ فيقول: نعم ـ لا يستطيع أن يُنكِرَ من ذلك شيئاً ـ فَيُقالُ: فإن لَكَ بكل سيئةٍ حسنةً. فيقول: يا ربِّ، عملت أشياء لا أراها هاهنا! قال: فَضَحِكَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى بَدَت نواجِذُه[٢]. وانفرد به مسلم.

[٥٠٢٩] وقال الحافِظُ أبو القاسم الطَّبَرانِيُّ: حدثنا هاشم بن يَزيد، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني أبي، حدثني ضَمْضَمُ بن زُرْعَةَ، عن شُرَيح بن عُبَيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا نام ابن آدم قال المَلَكُ للشيطان: أعطِني صحيفتك. فَيُعطيه إيَّاها، فما وَجَد في صحيفته من حَسَنةٍ محا بها عَشرَ سَيِّئاتٍ من صحيفة الشيطان، وكتبهُنَّ حسناتٍ، فإذا أراد أن ينامَ أحدُكم فَلْيُكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرةً، ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدةً، ويُسَبِّح ثلاثاً وثلاثين تَسبيحةً، فتلك مئةٌ»[٣].

---

(١) تقدم، وهو في الصحيحين.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ١٩٠ والترمذي ٢٥٩٦ وأحمد ٥/ ١٧٠ وابن حبان ٧٣٧٥.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبراني ٣٤٥١، فيه محمد بن إسماعيل بن عياش، وهو ضعيف كما قال الهيثمي في «المجمع» ١٧٠٣٦. وله علة ثانية، وهي الإرسال بين شريح وأبي مالك الأشعري، راجع «تهذيب التهذيب» ٤/ ٢٨٩.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سَلَمة وعارمٌ قالا: حدثنا ثابت ـ يعني ابن يزيدَ أبو زيدٍ ـ حدثنا عاصمٌ، عن أبي عُثمانَ، عن سَلمان قال: يُعطَى رجلٌ يومَ القيامةِ صحيفتَه فيقرأُ أعلاَها، فإذا سَيئاتُه، فإذا كاد يَسُوءُ ظنهُ نَظَر في أسفلها فإذا حَسَناتُه، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بُدِّلت حَسَناتٍ. وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا سُلَيمان بن موسى الزُهريُّ أبو دَاوُدَ، حدثنا أبو العَنبس، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة قال: لَيَأتينَّ الله ـ عزَ وجلّ ـ بأُناسٍ يومَ القيامةَ رأوا [لو] أنهم قد استكثَرُوا من السيِّئاتِ، قيل: مَن هُم يا أبا هُرَيرة؟ قال: الذين يُبَدِّل الله سَيِّئاتهم حسناتٍ.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زِياد، حدثنا سَيّارٌ، حدثنا جعفرٌ، حدثنا أبو حَمْزَةَ، عن أبي الضَّيفِ ـ وكان من أصحابِ مُعاذِ بن جَبَلٍ ـ قال: يدخُل أهلُ الجنةِ الجنةَ على أربعةِ أصنافٍ: المتقينَ، ثم الشاكرين ثم الخائفين، ثم أصحاب اليمين. قلت: لم سُمُّوا أصحابَ اليمينِ؟ قال: لأنهم عَمِلوا بالحسناتِ والسيئاتِ، فَأُعطُوا كُتبهم بأيمانهم، فَقَرؤوا سَيِّئاتِهم حَرْفاً حَرْفاً، قالوا: يا رَبَّنا، هذه سيئاتُنا، فأين حَسَناتُنا؟. فعند ذلك محا الله السيئاتِ وجَعَلها حسناتٍ، فعند ذلك قالوا: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩]، فهم أكثر أهلِ الجنّةِ. وقال علي بن الحُسَين زين العابِدِينَ: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾، قال: في الآخرةِ. وقال مَكحُولٌ: يَغفِرُها لهم فيجعلها حَسَناتٍ. رَوَاهما ابنُ أبي حاتم. ورَوَى ابن جرير، عن سَعيدِ بن المُسَيَّب، مثلَه.

[٥٠٣٠] قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا محمدُ بن الوزير الدِمَشقِيُّ، حدثنا الوليدُ بن مُسلِم، حدثنا ابنُ جابر، أنه سَمع مَكحُولاً يُحدِّث قال: جاء شيخٌ كبيرٌ هَرِمٌ قد سقطت حاجِبَاه على عَينيه، فقال: يا رسولَ الله، رجل غَدَرٌ وفُجَرٌ، لم يدع حاجَةً ولا داجَةً إلا اقتطعها بيمينه، لو قُسِّمت خطيئتُه بين أهل الأرض لأَوْبَقَتْهُم، فَهَل له مِن توبةٍ؟ فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أسلمتَ؟ قال: أَمَّا أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: فإن الله غافرٌ لَك ما كنتَ كذلك، ومُبدِّل سيئاتِكَ حسناتٍ. فقال: يا رسولَ الله، وغَدَرَاتي وفَجَراتي؟ فقال: وغَدَرَاتِكَ وفَجَرَاتِكَ. فَوَلَّى الرجلُ يُكبِّرُ ويُهَلِّلُ[١].

[٥٠٣١] ورَوَى الطَبَرانيّ من حديث أبي المُغِيرة، عن صفوان بن عَمْرو، عن عبد الرحمن بن جُبَير، عن أبي طويل ـ شَطْبٍ ـ أنه أتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: أرأيتَ رَجُلاً عَمِل الذنوبَ كُلَّها، ولم يترُك حاجةً ولا داجةً. فهل لَه مِن توبةٍ؟ قال: أسلمتَ؟ فقال: نعم، قال: فافعل الخيراتِ، واترك السيئاتِ، فَيَجعلُها الله لكَ خيراتٍ كلَّها. قال: وغَدرَاتي وفَجَراتي؟ قال: نعم. قال: فما زال يكبِّر حتى تَوَارَى[٢].

[٥٠٣٢] ورواه الطبراني من طريق أبي فَروة الرهَاويّ، عن ياسينِ الزياتِ، عن أبي سَلَمَة الحِمْصِيّ، عن يحيى بن جابرٍ، عن سَلَمة بن نُفَيل مرفوعاً[٣].

---

(١) هذا مرسل، وانظر ما بعده.

(٢) حسن. أخرجه البزار ٣٢٤٤ والطبراني ٧٢٣٥ من حديث أبي طويل، واسمه «شطب المدود» وإسناده قوي. قال الهيثمي في المجمع ١٧٥٣٨: رجال البزار رجال الصحيح، غير محمد بن هارون، وهو ثقة. وقال الحافظ في «الإصابة» ٢/ ١٥٢: هو على شرط الصحيح اهـ وله طرق أخرى ومنها المتقدم. وانظر «المجمع» ٧٥ و٧٧ و٧٨.

(٣) فيه ياسين الزيات، متهم، والحجة بالحديث المتقدم.

[٥٠٣٣] وقال[1] أيضاً: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا إبراهيم بن المُنذر، حدثنا عِيسَى بن شُعَيب بن ثَوبَان، عن فُلَيحِ الشماس عن عُبَيدِ بن أبي عُبيد[2]، عن أبيه، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: جاءتني امرأة فقالت: هل لي من تَوبةٍ؟ إني زَنَيتُ وولدتُ وقتلتُه. فقلت: لا، ولا نَعِمَت العينُ ولا كرامَةَ. فقامت وهي تدعُو بالحَسرة. ثم صَلَّيت مع النبي ـ ﷺ ـ الصبحَ، فَقَصصتُ عليه ما قالت المرأةُ وما قُلتُ لها، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: بئسما قلتَ! أما كنتَ تقرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾، فقرأتها عليها، فَخرَّت ساجدةً وقالت: الحمدُ لله الذي جَعَل لي مخرجاً[3]. هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي رجاله مَن لا يُعرف، والله أعلم. وقد رواه ابنُ جرير من حديث إبراهيمَ بن المنذر الحِزَامِيِّ بسنده بنحوه، وعنده: «فَخرجت تدعُو بالحسرة وتقول: يا حسرتَا! أَخُلِقَ هذا الحسنُ للنارِ؟!». وعنده أنه لما رَجَع من عندِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ تَطَلَّبها في جميع دُورِ المدينة فلم يَجدها، فلما كان من الليلة المقبلةِ جاءته، فأخبرها بما قال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ فَخرَّت ساجِدَة وقالت: «الحمد لله الذي جَعَل لي مخرجاً وتوبةً مما عَمِلت». وأعتقت جاريةً كانت معها وابنتها، وتابت إلى الله عزَّ وجلَّ.

ثم قال تعالى مخبراً عن عُمُوم رَحمتِه بِعبادِه، وأن مَن تاب إليه منهُم تاب عليه مِن أيِّ ذَنب كان، جليلٍ أو حَقير، كبيرٍ أو صغيرٍ، فقال: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾، أي: فإن الله يَتقبَّل توبتَه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]، أي: لمن تابَ إليه.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

وهذه أيضاً من صفاتِ عبادِ الرحمن أنهم: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾، قيل: هو الشركُ وعبادةُ الأصنام. وقيل: الكذب، والفسق، واللغو، والباطل. وقال محمد بن الحَنَفِيَّةِ: هو اللهو والغناء. وقال أبو العالية، وطاوسُ، ومحمد بن سِيرينَ، والضَّحاكُ، والربيعُ بن أنس، وغيرهم: هي أعيادُ المشركين. وقال عَمرو بن قيس: هي مجالس السوء والخنا. وقال مالك، عن الزُّهريِّ: شربُ الخمر، لا يحضُرُونه، ولا يرغَبون فيه.

---

(١) كذا وقع في سائر النسخ، وظاهره أن فاعل قال هو الإمام الطبراني، وليس كذلك فإن فاعل قال هو الإمام ابن أبي حاتم. لأنه هو الوحيد من المفسرين الذي يروي عن أبي زرعة، ثم إن الطبراني، لم يدرك أبا زرعة، فتنبه، والله الموفق.

(٢) في الأصول: «عن فليح بن عبيد بن أبي عبيد الشماس»، والمثبت عن الطبري والميزان.

(٣) باطل. أخرجه الطبري ٢٦٥١٥ مطولاً، بهذا الإسناد، وذكره الذهبي في الميزان ٦٥٧٢ في ترجمة عيسى بن شعيب بن ثوبان المدني، وقال: لا يعرف. ثم ذكر هذا الحديث، وقال: وهذا خبر موضوع اهـ.

[٥٠٣٤] كما جاء في الحديث: «من كان يُؤمِن بالله واليوم الآخر فلا يَجلِس على مائدةٍ يدار عليها الخمرُ»(١). وقيل: المرادُ بقوله تعالى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: شهادَة الزور، وهي الكَذِب مُتعمِّداً على غيره.

[٥٠٣٥] كما ثبت في الصحيحين عن أبي بَكْرَة، قال: قال رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ: «ألا أُنبِّئكم بأكْبر الكبائر؟ ثلاثاً، قلنا: بلى، يا رسولَ الله. قال: الشركُ بالله وعُقوقُ الوالدين. وكان مُتَّكِئاً فَجَلس، فقال: ألا وقولَ الزورِ، ألا وشهادَةَ الزورِ، فما زال يُكرِّرها، حتى قلنا: ليتَه سَكَت»(٢). والأظهر من السياق أن المراد: لا يَشهَدُون الزور، أي: لا يَحضُرونه، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾، أي: لا يحضُرون الزورَ، وإذا اتفق مُرورهم به مَرُّوا ولم يَتدنَّسُوا منه بشيءٍ، ولهذا قال: ﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾.

[٥٠٣٦] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سَعيد الأشجُّ، حدثنا أبو الحُسَين العُكْليُّ، عن محمد بن مسلم، أخبرني إبراهيم بن مَيْسَرَة، أن ابن مسعود مَرَّ بلهو فلم يقف، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ «لقد أصبَحَ ابنُ مسعودٍ! أو أمسى ـ كريماً»(٣).

[٥٠٣٧] وحدثنا الحسنُ بنُ محمد بن سَلَمة النحويُّ، حدثنا حَبَّانُ، أخبرنا عبد الله، أخبرنا محمدُ ابن مُسلم، أخبرني ابنُ ميسَرَة قال: بَلَغني أن ابن مسعود مر بلهو مُعرِضاً فلم يقف، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لقد أصبحَ ابنُ مسعودٍ ـ أو أمسى ـ كريماً»، ثم تلا إبراهيمُ بن ميسرةَ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾(٤).

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾، هذه من صفات المؤمنين، ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، بخلاف الكافر، فإنه إذا سَمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يُقْصِر عما كان عليه، بل يبقى مستمراً على كُفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥]. فقولُه: ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، أي: بخلافِ الكافرِ الذي ذُكِّر بآيات ربِّه فاستَمرَّ على حَالِهِ كأن لم يَسمعها أصمَّ أعمى.

قال مجاهد: قوله تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾. لم يسمَعُوا ولم يبصروا، ولم يفقهوا شيئاً. وقال الحسن البصريُّ: كم من رجل يقرؤها ويخرُّ عليها أصمَّ أعمى. وقال قتادةُ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾، يقول: لم يَصمُّوا عن الحق ولم يَعْمَوا فيه، فهم ـ والله ـ قوم عقلوا عن الحق، وانتفعوا بما سَمِعُوا من كتابه. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أُسيد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن حُمْران، حدثنا ابن عَون قال: سألت الشعبيَّ قلتُ: الرجلُ يَرَى القومَ سُجوداً ولم يَسمع ما سَجدوا، أَيسجد معهم؟ قال: فتلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾. يعني: أنه لا يسجُدُ معهم لأنه لم يتدبر آيةَ السجدة، فلا ينبغي للمؤمن أن يكون إمَّعةً، بل يكون على بَصِيرة من أمرِهِ، ويقينٍ واضحٍ بيِّن.

---

(١) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ١٤٠.

(٢) تقدم في تفسير سورة النساء عند آية: ٣١.

(٣) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٦٥٤٧ وهذا مرسل.

(٤) ضعيف. ذكره السيوطي في «الدر المنثور» ١٤٨/٥ وعزاه لابن أبي حاتم وابن عساكر، وهو ضعيف لكونه مرسلاً، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾، يعني الذينَ يسألونَ الله أن يخرج من أصلابهم وذُرِّياتهم مَن يُطِيعه ويَعبُده وحدَه لا شريكَ له. قال ابن عباس: يعنون مَن يعمل بالطاعة، فَتَقرُّ به أعينُهم في الدنيا والآخرة. وقال عِكرِمَةُ: لم يُريدوا بذلك صَباحة ولا جَمالاً، ولكن أرادوا أن يكونُوا مُطِيعين. وقال الحسن البصري ـ وسُئل عن هذه الآية ـ فقال: أن يُرِيَ الله العبدَ المسلم من زوجته، ومن أخيه، ومن حَميمه طاعةَ الله. لا والله ما شيءٌ أقرّ لعين المسلم من أن يَرَى ولداً، أو وَلَد وَلَدٍ، أو أخاً، أو حَميماً مطيعاً لله عزّ وجلّ. وقال ابنُ جُرَيج في قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾، قال: يَعبدُونك ويُحسِنُون عِبادَتَك، ولا يَجُرُّون علينا الجَرائرَ. وقال عبد الرحمن بن زَيد ابن أسلم: يعني يسألونَ الله لأزواجهم وذُرِّياتهم أن يَهدِيَهم للإسلام.

[٥٠٣٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا يَعْمَرُ بنُ بشر، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا صفوانُ بن عمرو، حدثني عبدُ الرحمن بن جُبَير بن نُفَير، عن أبيه قال: جَلَسنا إلى المِقداد بن الأسودِ يوماً، فَمرَّ به رجل فقال: طُوبى لهاتين العَينين اللتَين رَأتا رسولَ الله ﷺ! لَوَدِدْنَا أنا رأينا ما رأيتَ، وشَهِدنا ما شهدتَ. فاستغضَبَ، فجعلتُ أعجبُ، ما قال إلا خيراً! ثم أقبل إليه فقال: ما يحمِلُ الرجلَ على أن يتمنى مَحضراً غَيَّبه الله عنه، لا يَدري لو شَهِده كيفَ كان يكُون فيه؟ والله لقد حَضَر رسولَ الله ـ ﷺ ـ أقوامٌ أكبَّهم الله على مَناخِرهم في جَهنَّم، لم يُجيبوه ولم يُصدِّقوه، أَوَ لا تحمَدُون الله إذا أخرَجُكم لا تَعرِفون إلا رَبَّكم مُصدِّقين لما جاء به نَبيُّكم، قد كُفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بَعَث الله النبي ـ ﷺ ـ على أشدِّ حالٍ بعَثَ عليها نَبياً من الأنبياء في فترةٍ من جاهلية، ما يَرَون أنّ ديناً أفضلَ من عبادةِ الأوثان. فجاء بِفُرقانٍ فَرَقَ به بين الحقِّ والباطِلِ، وفَرَّقَ بين الوالِد وَوَلَدِه، إن كان الرجلُ لَيَرى والده وولَدَه، أو أخاه كافراً، وقد فتح الله قُفْلَ قلبِه للإيمانِ، يعلَم أنه إن هلك دَخَل النار، فلا تَقرُّ عينه وهو يعلم أن حَبِيبَه في النار، وَإنّها التي قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[1]. وهذا إسناد صحيحٌ، ولم يُخرجُوه.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، قال ابنُ عباسٍ، والحسنُ، وقتادةُ، والسدّي، والربيعُ بن أنس: أئمةً يُقتدَى بنا في الخير. وقال غيرُهم: هداة مَهدِيِّين ودعاةً إلى الخير. فأحبوا أن تَكون عبادتهم مُتَّصلة بعبادة أولادهم وذراريهم، وأن يكون هُداهُم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثرُ ثواباً وأحسنُ مآباً.

[٥٠٣٩] ولهذا ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُه إلا من ثلاثٍ، ولدٍ صالحٍ يدعُو له، أو عِلْمٍ يُنتفَعُ به من بَعدِه، أو صَدَقةٍ جاريةٍ»[2].

﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

لما ذكر تَعالى من أوصافِ عبادِه المؤمنين ما ذكر من هذه الصفاتِ الجميلة، والأقوال والأفعال الجليلة، قال بعد ذلك كله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾، أي: المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾، أي: يوم القيامة ﴿الْغُرْفَةَ﴾، وهي الجنة. قال أبو جَعفرٍ الباقرُ، وسَعِيد بن جُبَير، والضحَّاك، والسدِّي: سُمِّيت بذلِك لارتِفاعِها. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، أي: على القيام بذلك، ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾، أي: في الجنة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾، أي: يُبتَدرونَ فيها

---

(١) أخرجه أحمد ٦/٣ وإسناده صحيح كما ذكر ابن كثير.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٨.

بالتحية والإكرام. ويُلَقَّون التوقيرَ والاحترامَ، فلهم السلامُ وعليهم السلامُ، فإن الملائكة ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤]. وقولُه تعالىٰ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، أي: مُقيمين، لا يظعنون ولا يَحُولون، ولا يموتُون، ولا يَزُولون عنها ولا يبغُون عَنها حِوَلاً، كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨]. وقولُه تعالىٰ: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، أي: حَسُنت منظراً وطابَت مَقِيلاً ومَنزِلاً.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾، أي: لا يُبالي ولا يكترِثُ بكم إذا لم تعبُدوه؛ فإنه إنما خَلَق الخَلْقَ ليعبدُوه ويُوَحِّدوهُ ويُسَبِّحُوهُ بكرةً وأَصيلاً. وقال مجاهد، وعَمرو بن شعيب: ﴿مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾، يقول: ما يفعلُ بكم ربِّي. وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ يقول: لولا إيمانكم، وأخبر الله تعالىٰ الكفارَ أنه لا حاجةَ له بهم إذ لم يخلقهم مُؤمنين، ولو كان له بهم حاجةٌ لحبَّب إليهم الإيمانَ كما حَبَّبه إلى المؤمنين.

وقولُه تعالىٰ: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾، أي: أيها الكافرون، ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾، أي: فسوفَ يكون تكذيبُكم لِزاماً لكم، يعني مُقتَضياً لهلاككم وعذابكم ودَماركم في الدنيا والآخرة. ويدخلُ في ذلك يومُ بدر، كما فَسَّره بذلك عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومحمد بن كعب القُرَظي، ومجاهد، والضَّحاك، وقتادة، والسدِّي، وغيرهم. وقال الحسن البصريُّ: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾، يعني: يومَ القيامة. ولا منافَاة بينهما. والله أعلم.

آخر تفسير سورة الفرقان، ولله الحمد والمنة



وهي مكية

ووقع في تفسير مالك المرويّ عنه تسميتُها: سورة الجامعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

أما الكلامُ على الحروف المُقطعة في أوائل السُورَ فقد تكلَّمنا عليه في أول تفسير سُورَةِ البقرة. وقولُه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾، أي: هذه آياتُ القرآنِ المبينِ، أي: البينُ الواضح الجلي، الذي يَفصِل بين الحَقّ والباطل، والغيّ والرشادِ. وقولُه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾، أي: مُهلِكٌ ﴿نَّفْسَكَ﴾، أي: مما تَحرِص وتحزَن عليهم، ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾: وهذه تسليةٌ من الله لرسولِه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ في عدم إيمانِ مَن لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال عزّ وجلّ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦]. قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادةُ، وعطيةُ، والضحّاك: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾، أي: قَاتِلٌ نفسَك، قال الشاعرُ:

ألاَ أيُّهذا البَاخِعُ الحُزنُ نَفْسَهُ ... لِشَيءٍ نَحَتْهُ عَنْ يَدَيهِ المَقَادِرُ

ثم قال الله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾، أي: لو شئنا لأنزلنا آيةً تضطرُهم إلى الإيمانِ قَهراً، ولكننا لاَ نفعلُ ذلك، لأنا لا نُريد من أحدٍ إلا الإيمانَ الاختياريّ، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]، فنفذ قَدَرُهُ، ومَضت حِكمتُه، وقامت حُجّته البالغةُ على خَلقِه، بإرسال الرسل إليهم، وإنزالَ الكتب عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾، أي: كُلّما جاءَهم كتابٌ من السماء أعرضَ عنه أكثرُ الناس، كما قال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: ٤٤]. ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾، أي: فقد كَذَّبوا بما جاءَهم

من الحقِّ، فَسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حينٍ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. ثم نَبَّه تعالى على عَظَمتِهِ في سلطانه وجلالةِ قَدْرِهِ وشَأنِهِ، الذين اجترؤوا على مُخالفة رَسُوله وتكذيبِ كتابه، وهو القاهرُ العظيمُ القادرُ. الذي خَلَقَ الأرضَ وأنبتَ فيها من كلِّ زوج كريم، من زُرُوعٍ وثمارٍ وحيوانٍ.

قال سفيان الثوري، عن رجُلٍ، عن الشعبي: الناسُ من نباتِ الأرضِ، فمن دَخَلَ الجنةَ فهو كريمٌ، ومن دخل النار فهو لَئيم. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾، أي: دلالةً على قُدرة الخالِق للأشياءِ، الذي بَسَط الأرضَ ورَفَع بناءَ السماءِ، ومَع هذا ما آمن أكثرُ الناس، بل كَذَّبوا به وبرُسُلِه وكتبه، وخالفوا أوامره وارتكبوا زَوَاجِره. وقولُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: الذي عَزَّ كلَّ شيءٍ وقَهره وغَلَبه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: بِخَلقِهِ، فلا يَعجَلُ على من عصاه، بل يُنظِرُه ويُؤَجله، ثم يأخذُه أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ. قال أبو العاليةِ، وقتادةُ، والربيعُ بن أنس، وابن إسحاقَ: العزيزُ في نقمته وانتصارِه ممن خَالَف أمره وعَبَد غيرَهُ. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن تاب إليه وأناب.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عما أمر به عبدَه ورسولَه وكليمَه موسى بنَ عِمرانَ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ حينَ ناداه من جانِب الطور الأيمن، وكلَّمه وناجاه، وأرسلَه واصطفاه، وأمره بالذَهاب إلى فرعونَ ومَلَئِه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، أي: بسبب ما كان من قتل ذلك القبطيِّ الذي كان سببَ خُروجه من بلاد مصر: ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: قال الله تعالىٰ له: لا تَخف من شيءٍ من ذلك، كما قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾، أي: بُرهاناً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]. ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، أي: إنَّني معكُما بحفظي وكَلاءَتي ونَصري وتأييدي. ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، أي: كلٌّ منا رسولٌ من ربك إليك، ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾، أي: أطلقهم من إسارك وقَبضتك وقَهرك وتَعذيبك، فإنهم عبادُ الله المؤمنون، وحِزبُه المخلصون، وهُم معك في العذاب المهين. فلما قال له موسى ذلك أعرضَ فرعونُ عما هُنالك بالكلية، ونَظر

بعين الإزدراء والغَمْص فقال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾، أي: أما أنت الذي رَبَّيناه فينا وفي بيتنا وعلى فِراشنا وغَذَّيناه، وأنعمنا عليه مُدَّةً من السِنينَ، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسانَ بتلك الفَعلةِ أن قتلتَ منا رجلاً، وجَحَدت نعمتنا عليك! ولهذا قال: ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي: الجَاحِدين، قاله ابن عباس، وعبدُ الرحمٰن بن زيدِ بن أسلَم، واختاره ابنُ جرير. ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا﴾، أي: في تلك الحال، ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾، أي: قبل أن يُوحَى إليَّ ويُنعِم الله عليَّ بالرسالة والنبُوَّة.

قال ابن عباس ـ رَضِي الله عنهما ـ ومجاهدٌ، وقتادةُ، والضحاكُ، وغيرهم: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾، أي: الجاهلين. قال ابن جريج: وهو كذلك في قِراءةِ عبد الله بن مسعُودٍ، رَضِي الله عنه. ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ أي: انفصل الحال الأول وجاء أمرٌ آخر، فقد أرسلني الله إليك، فإن أطعتَه سَلِمتُ، وإن خالفتَه عَطِبتُ. ثم قال موسى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾، أي: وما أحسنتَ إليَّ وَرَبَّيْتَني مُقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل! فجعلتَهم عبيداً وخَدَماً، تُصَرِّفهمَ في أعمالك ومشاقّ رَعِيَّتك، أَفَيَفي إحسانُك إلى رجلٍ واحدٍ منهم بما أسأتَ إلى مَجمُوعهم؟!. أي: ليس ما ذكرتَه شيئاً بالنِسبةِ إلى ما فعلتَ بِهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن كُفر فِرْعَونَ، وتَمرُّدِه، وطغيانه وجُحُوده في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، و﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وكانوا يَجحدُون الصانع ـ تعالى ـ ويعتقدُون أنه لا ربَّ لهم سوى فِرعَونَ. فلما قال موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعُم أنه ربُّ العالمين غيري؟! هكذا فَسَّره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السُدِّي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٠]. ومن زَعَمَ من أهل المنطق وغيرهم أنَّ هذا سؤالٌ عن الماهِيَّة فقد غَلِطَ، فإنه لم يكُن مقراً بالصانع حتى يَسأَلَ عن ماهِيَّته، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحُجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال مُوسَى لما سأله عن ربِّ العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: خالِقُ جميع ذلك ومالكه، والمتصرِّف فيه وإلهه، لا شريكَ له، هو الله الذي خَلَقَ الأشياءَ كُلَّها، العالَم العُلويَّ وما فيه من الكواكب الثوابت والسيَّاراتِ النَيِّراتِ، والعالَم السفليَّ وما فيه من بحارٍ وقفارٍ، وجبالٍ وأشجارٍ، وحَيوانٍ ونَباتٍ وثِمارٍ، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجوُّ، الجميعُ عبيدٌ له خاضعونَ ذليلون. ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، أي: إن كانت لكُم قلوبٌ مُوقِنة، وأبصارٌ نافِذَةٌ. فعند ذلك التفتَ فِرعَونُ إلى مَن حوله من مَلَئه ورؤساءِ دولته قائلاً لهم، على سَبيلِ التهكُم والاستهزاءِ والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، أي: ألا تعجَبُون مما يقول هذا في زعمه أنَّ لكم إلهاً غيري؟! فقال لهم موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: خالقُكم وخالقُ آبائكم الأولين، الذين كانوا قبل فِرعَونَ وزمانِه، ﴿قَالَ﴾، أي: فرعونُ لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، أي: ليس له عقل في دَعواه أن ثَمّ ربّاً

غيري. ﴿قَالَ﴾، أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعونُ ما أوعز من الشبهَةِ، فأجاب موسى بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: هو الذي جَعَل المشرِقَ مَشرِقاً تطلعُ منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكبَ، ثوابتُها وسيّاراتها، مع هذا النظام الذي سَخرها فيه وقدّرها، فإن كان هذا الذي يزعُم أنه ربُكم وإلهكم صادقاً فَليعكس الأمرَ، ولْيَجعل المشرقَ مغرباً، والمغرب مَشرقاً، كما أخبر تعالى عن ﴿ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. ولهذا لما غُلِب فرعونَ وانقطعَت حُجّته عَدَل إلى استعمال جاهِه وقوّتِه وسلطانِه، واعتقد أنَّ ذلك نافعٌ له ونافذٌ في موسى - عليه السلام - فقال ما أخبر الله تعالى عنه:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

لما قامت على فِرْعَونَ الحجةُ بالبيانِ والعقل عَدَل إلى أن يَقهَرَ موسَى بيده وسلطانه، وظَنّ أنه ليس وراءَ هذا المقام مقال، فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾. فعند ذلك قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾، أي: بِبرهـان قـاطـع واضـح، ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، أي: ظاهرٌ واضحٌ في غايَة الجَلاء والوُضُوح والعَظَمة، ذات قَوائِمَ وفم كبيرٍ، وشكلٍ هائِل مُزعج ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾، أي: من جيبه، ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾، أي: تتلألأ كقطعةٍ من القَمر. فبادر فرعون بشقائه إلى التكذيب والعِناد، فـ ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾، أي: فَاضِلٌ بارعٌ في السحرِ. فرَوّج عليهم فِرعونُ أن هذا من قبيل السِّحرِ لا من قبيل المُعجزة، ثم هَيّجهم وحَرّضهم على مخالفته والكُفر به. فقال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾، أي: أراد أن يذهَب بقلوب الناس مَعَه بِسَببِ هذا، فَيكثر أعوانُه وأنصارُه وأتباعُه ويغلبكم على دَولتِكم، فيأخذَ البِلاد مِنكم، فأشِيرُوا عَليّ فيه ماذا أصنعُ به؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾، أي: أَخْره وأخاه حتى تجمَع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كلّ سحّار عليم يُقابِلُونه، ويأتون بنظير ما جاءَ به، فَتغلبَه أنت وتكونَ لك النصرةُ والتأييدُ، فأجابهم إلى ذلك. وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك، لِيجتَمِعَ الناسُ في صَعيدٍ واحدٍ، ولِتظهَرَ آياتُ الله وحُجَجه وبَراهِينُه على الناس في النهار جَهرةً.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ذكر الله تعالى هذه المناظرةَ الفعليّة بين موسى عليه السلام والقِبط في «سورة الأعراف» وفي «سورة طه» وفي هذه السورة، وذلك أن القِبطَ أرادوا أن يُطفِئوا نُور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يُتِمّ نوره ولو كَره الكافرون. وهذا شأنُ الكفر والإيمان، ما تَواجَها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]. ولهذا لما جاء السحرةُ، وقد جَمعوهم من أقاليم بلاد مصرَ، وكانوا إذ ذاك أسحرَ الناس وأصنَعَهم وأشدَّهم تخييلاً في ذلك، وكان السحرةُ جمعاً كثيراً، وجَمّاً غَفِيراً، قيل: كانوا اثني عشر ألفاً، وقيلَ: خمسةَ عشر ألفاً، وقيل: سبعةَ عشر ألفاً. وقيل: تسعةَ عشر ألفاً، وقيل: بضعةً وثلاثينَ ألفاً. وقيل: ثمانين ألفاً[1]. وقيلَ غيرَ ذلك، والله أعلم بعدتهم. قال ابن إسحاق: وكان أمرُهم راجعاً إلى أربعةٍ منهم وهم رؤساؤهم، وهم: ساتُور وعازُور وحُطَحِط ويصفى. وحُشِد الناسُ في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾، ولم يقولوا: نَتّبع الحقّ سواءٌ كان من السحَرةِ أو من موسى، بل الرعيةُ على دين ملكهم. ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾. أي: إلى مجلس فِرعَونَ وقد ضَرَب له وطاقاً. وجَمَع حَشَمه وخَدَمه ووُزَراءه ورؤساءَ دولتِه وجُنودَ مملكتِه. فقام السحَرةُ بين يَدَي فرعون، يطلبُون منه الإحسانَ إليهم والتقرُّبَ إليه إن غَلَبوا، أي: هذا الذي جَمعتنا من أجله. فقالوا: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، أي: وأخصُّ مما تطلبُونَ، أجعلكم من المقرَّبين عندي وجُلَسائي. فعادُوا إلى مقام المناظرة، ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ [طه: ٦٥]، وقد اختُصِر هذا هاهنا. فقال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾، وهذا كما يقول الجهلة من العوام إذا فَعلُوا شيئاً: هذا بثواب فلان. وقد ذكر الله في «سورة الأعراف»: أنهم ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾، وقال في «سورة طه»: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾. وقال هاهنا: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾، أي تَخطفُه وتَجمعُه من كل بُقعةٍ وتَبتلِعهُ فلم تَدَع منه شيئاً، قال الله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١١٨ ـ ١٢٢]. وكان هذا أمراً عَظيماً جداً، وبُرهاناً قاطِعاً للعُذرِ وحُجّةً دامغةً، وذلك أن الذين استنصَرَ بهم وطلب منهم أن يَغلبُوا قد غُلِبُوا وخَضعوا وآمنُوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله ربِّ العالمين، الذي أرسلَ موسى وهارونَ بالحقِّ وبالمعجزةِ الباهرةِ، فغُلِب فِرعونُ غَلْباً لم يُشاهِد العالمُ مثلَه، وكان وَقِحاً جريئاً ـ عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ـ فعدل إلى المُكابرة والعِناد ودَعوى الباطل، فَشرع يَتهدَّدُهم ويتوعَّدُهم، ويقول: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]. وقال: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

(١) هذه أرقام خيالية إسرائيلية.

تَهدَّدَهم فلم يقطَع ذلك فيهم، وتوعَّدَهم فما زادَهم إلا إيماناً وتسليماً. وذلك أنه قد كُشِف عن قُلوبهم حِجابُ الكفرِ، وظَهر لهم الحقُّ بِعلمهم ما جَهل قومُهم، من أنَّ هذا الذي جاء به موسى لا يصدُر عن بَشَرٍ، إلا أن يكونَ الله قد أيَّده به، وَجَعله له حُجَّةً ودَلالَةً على صِدْقِ ما جاء به من ربِّه. ولهذا لما قال لهم فرعَونُ: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾، أي: كان ينبغي أن تَستأذِنوني فيما فَعلتم، ولا تفتاتُوا عليَّ في ذلك، فَإن أَذِنتُ لكم فعلتُم، وإن منعتكم امتنعتُم، فإني أنا الحاكمُ المطاعُ، ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]. وهذه مكابرةٌ يعلم كلُّ أحدٍ بُطلانها، فإنهم لم يجتَمِعُوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكُون كبيرَهم الذي أفادهم صناعةَ السحرِ؟! هذا لا يقوله عاقل. ثم تَوعَّدهم فرعونُ بقطع الأيدي والأرجُلِ والصَّلب، فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾، أي: لا حَرَجَ، ولا يَضرُّنا ذلك ولا نُبالي به ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، أي: المرجعُ إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ، وهو لا يُضِيع أجرَ مَن أحسنَ عَملاً، ولا يخفَى عليه ما فعلَت بنا، وسَيَجزينا على ذلك أتمَّ الجزاء. ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾، أي: ما قَارفناه مِنَ الذُنوب، وما أكرهتَنا عليه من السحْرِ، ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: بِسَبَبِ أنا بادَرْنَا قَومَنا من القِبطِ إلى الإيمانِ، فقتلهم كُلَّهم.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾

لما طال مُقام موسى ـ عليه السلام ـ ببلاد مصرَ، وأقام بها حُجَج الله وبراهينَه على فِرعَونَ ومَلئِه، وهُم مع ذلك يُكابِرُون ويُعَانِدون، لم يبقَ لهم إلا العذابُ والنَّكال، فأمر موسى ـ عليه السلام ـ أن يخرُج ببني إسرائيل ليلاً من مصرَ، وأن يمضي بهم حيث يُؤمر، ففعل موسى ـ عليه السلام ـ ما أمره به ربُّه ـ عزّ وجلّ ـ. خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعونَ حُلِيّاً كثيراً، وكان خروجُه بهم فيما ذَكَر غيرُ واحدٍ من المفسِّرين وقتَ طلوع القمر. وذكر مجاهدٌ ـ رحمه الله ـ أنه كُسِفَ القمرُ تلك الليلةِ، فالله أعلم، وأن مُوسى ـ عليه السلام ـ سأل عن قبر يوسُفَ عليه السلام، فَدلَّته امرأةٌ عجوزٌ من بني إسرائيلَ عليه، فاحتمل تابُوتَه معَهم، ويقال: إنه هو الذي حَمَله بِنفسه عليهما السلامُ، وكان يوسُفُ ـ عليه السلام ـ قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يَحمِلُوه معهم.

[٥٠٤٠] وقد وَرَد في ذلك حديثٌ رواه ابنُ أبي حاتم ـ رحمه الله ـ فقال: حدثنا علي بن الحُسَين، حَدَّثنا عبدُ الله بنُ عُمَر بن أبانَ بن صالح، حدثنا ابن فُضَيل، عن يُونُسَ بن أبي إسحاقَ، عن أبي بُردَة، عن أبي مُوسَى قال: نزلَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بأعرابيٍّ فأكرمَه، فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: تعاهَدْنا. فأتاه الأعرابيُّ فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ ما حاجتُك؟ قال: ناقةٌ برحلها وأعنُزٌ يحتلبها أهلي، فقال: أعجزتَ أن تكون مثل عَجُوزِ بني إسرائيل؟ فقال له أصحابه: وما عجوزُ بني إسرائيل يا رسول الله؟ قال: إنَّ موسى لما أراد أن يسيرَ ببني إسرائيل أضلَّ الطريق، فقال لبني إسرائيل: ما هذا؟ فقال له علماءُ بني إسرائيل: نحن نُحدِّثك أن يوسُفَ ـ عليه السلام ـ لما حضره الموتُ أخذ علينا مَوثِقاً من الله ألاّ نخرُجَ من مصرَ حتى ننقُلَ تابُوتَه معَنا. فقال لهم مُوسَى: فَأيُّكم يَدرِي أين قَبرُ يُوسُفَ؟ قالوا: ما يعلَمه إلا عجوزٌ لبني إسرائيل. فأرسل إليها فقال لها: دُلِّيني على قَبرِ يوسُفَ. فقالت: والله لا أفعلُ حتى تُعطيني حُكْمِي. قال لها: وما حُكمُكِ؟ قالت: حُكْمِي أن أكونَ مَعَك في الجَنة. فكأنه ثَقُلَ عليه ذلك، فقيل له: أعطِها حُكمَها. قال: فانطلَقت مَعهُم إلى بُحيرةٍ ـ مُستَنقع ماءٍ ـ فقال لهم: أَنْضِبُوا هذا الماء. فلما أنضبُوه قالت: احتفِرُوا. فلما احتفَرُوا استخرجُوا قَبرَ

يوسف. فلما احتمَلُوه إذا الطريقُ مثلُ ضوءِ النَّهار[1]. هذا حديثٌ غريبٌ جداً، والأقربُ أنه موقوفٌ، والله أعلم. فلما أصبحُوا وليس في ناديهم دَاعٍ ولا مُجيبٌ غاظ ذلك فرعونَ واشتدَّ غَضبهُ على بني إسرائيلَ، لما يريد الله به من الدَّمارِ. فأرسل سَرِيعاً في بلاده حاشرين، أي: مَن يحشُر الجندَ ويجمَعه كالنُّقَباء والحُجَّاب، ونادى فيهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ـ يعني: بني إسرائيل ـ ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾، أي: لطائفةٌ قليلةٌ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾، أي: كل وقت يصل إلينا منهم ما يَغِيظنا، ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾، أي: نحنُ كلَّ وقت نحذَرُ من غائلتهم وقرأ طائفة من السلف «وإذا الجميع حذرون» أي مستعدون بالسلاح، وإني أريد أن أستاصلَ شأفتَهم، وأُبيدَ خَضراءهم. فَجُوزِيَ في نفسِه وجُندِه بما أرادَ لهم، قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾، أي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجَحِيم وتركُوا تلك المنازلَ العالية والبساتين والأنهارَ والأموالَ والأرزاقَ والملكَ والجاه الوافرِ في الدنيا، ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦].

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾

ذكر غيرُ واحدٍ من المفسِّرين أنَّ فِرعَونَ خرجَ في جَحْفَلٍ عظيم وجَمع كَبيرٍ، هو عبارةٌ عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحَلِّ والعَقدِ والدُّوَلِ، من الأُمراء والوُزراءِ والكُبَراء والرؤساء والجنود، فأما ما ذكره غيرُ واحد من الإسرائيليات، من أنه خَرَج في ألفِ ألفٍ وستمئةِ ألف فارسٍ، منها مئة ألفٍ على خَيلٍ دُهمٍ، وقال كعبُ الأحبار: فيهم ثمانمئةِ ألفِ حصانٍ أدهَمَ، ففي ذلك نَظَرٌ. والظاهر أنه من مُجازفات بني إسرائيل، والله سبحانه وتعالى أعلم، والذي أخبر به القرآن هو النافعُ، ولم يُعين عِدَّتهم، إذ لا فائدة تحتَه، إلا أنَّهم خَرَجُوا بأجمَعهم. ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾، أي: وَصَلوا إليهم عندَ شُروقِ الشمس، وهو طلوعُها. ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾، أي: رأى كلٌّ من الفريقين صاحبَه فعند ذلك ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، وذلك أنَّهم انتهى بهم السيرُ إلى سيفِ البحر، وهو بحر القُلزُم، فصار أمامَهم البحرُ، وفرعَونُ قد أدركَهم بجنوده، فلهذا قالوا:

---

(١) الراجح وقفه. أخرجه أبو يعلى ٧٢٥٤ وابن حبان ٧٢٣ والحاكم ٢/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥ ـ ٥٧١ ـ ٥٧٢ وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي! وفي ذلك نظر، فإن مداره على يونس بن أبي إسحق السبيعي، وهو من رجال مسلم، ولم يرو عنه البخاري في صحيحه، وإنما روى له في جزء «القراءة خلف الإمام» ومع ذلك فقد ضعفه غير واحد. جاء في «الميزان» ٩٩١٤: قال ابن مهدي: لم يكن به بأس. وقال أبو حاتم: صدوق، لا يحتج به. وقال ابن خراش: لين، وقال ابن حزم في «المحلى» ضعفه يحيى القطان وأحمد. قال الذهبي: قلت: هو صدوق، ما هو في قوة شعبة ومسعر، قال يحيى بن سعيد: كان فيه غفلة، وقال أحمد: حديثه مضطرب. ووثقه أحمد في رواية اهـ باختصار وأعدل هذه الأقوال قول أبو حاتم: هو صدوق، ولا يحتج به اهـ وقد تفرد بهذا الحديث الغريب جداً، كما قال ابن كثير. والله أعلم.

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، أي: لا يصلُ إليكُم شيءٌ مما تحذَرون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسيرَ هاهنا بِكُم، وهو لا يُخلِفُ الميعادَ. وكان هارونُ ـ عليه السلام ـ في المقدِّمة، ومعه يُوشَعُ بن نُونٍ، ومؤمن آل فرعون، وموسى عليه السلام في الساقة، وقد ذَكَر غيرُ واحد من المفسِّرين: أنهم وَقَفُوا لا يدرون ما يصنعُون، وجعل يُوشَع بنُ نونٍ، أو مؤمن آل فِرعَونَ يقول لموسى عليه السلام: يا نَبِيَّ الله، هاهنا أمرك ربك أن تَسِير؟ فيقول: نعم. واقتربَ فِرعَونُ وجنودُه، ولم يبق إلا القليلُ. فعند ذلك أمر الله نبيه موسَى أن يضرِبَ بعصاه البحر، فَضَربه وقال: انفلق بإذن الله. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا صفوانُ بن صالح، حدثنا الوليد، عن محمد بن حمزةَ بن يوسُفَ عن عبد الله بن سَلاَم: أَنَّ مُوسَى ـ عليه السلام ـ لما انتَهى إلى البحر قال: يا مَن كان قبلَ كلِّ شيءٍ والمُكوِّنَ لكلِّ شيء، والكائنَ بعدَ كلِّ شيءٍ، اجعل لنا مخرجاً، فأوحى الله إليه: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾. وقال قتادةُ: أوحى الله تلك الليلة إلى البحر: أَنْ إذا ضَرَبك مُوسى بعصَاه فاسمَع له وأَطِع. فبات البحرُ تلك الليلة وله اضطراب، لا يَدْرِي من أيِّ جانبٍ يَضرِبُه موسى، فلما انتهى إليه موسَى قال له فتاه يوشَع بن نُونٍ: يا نبي الله، أين أمرَك ربك؟ قال: أمرني ربي أن أضرِب البحر. قال: فاضربه. وقال محمدُ بن إسحاق: أوحى الله، فيما ذُكر لي، إلى البحر: أن إذا ضَرَبَكَ موسَى بعصاه فانفلِق له. قال: فبات البحر يضطرب، يضربُ بعضُه بعضاً، فَرَقاً من الله تعالى، وانتظاراً لما أمره الله، وأوحى الله إلى موسى: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾، فضربه بها، ففيها سلطانُ الله الذي أعطاه، فانفلق. وذكر غيرُ واحدٍ أنه كَنَّاه فقال: انفلِق عَلَيَّ أبا خالد بإذن الله. قال الله تعالى: ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾، أي: كالجَبَل الكبير. قاله ابنُ مسعود، وابنُ عباس، ومحمدُ بن كعب، والضَّحاكُ، وقتادةُ، وغيرهم. وقال عطاء الخراساني: هو الفَجُّ بين الجَبَلين. وقال ابن عباس: صارَ البحر اثني عَشَر طريقاً، لكل سِبْطٍ طريقٌ. وزاد السدِّي: وصار فيه طاقاتٌ ينظُر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حَيْلِهِ كالحيطان، وبَعَثَ الله الريحَ على قَعرِ البحرِ فَلَفَحته، فصار يَبَساً كوجهِ الأرض، قال الله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]. وقال في هذه القصة: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ۝٦٤﴾، أي: هناك الآخرين. قال ابن عباس، وعطاء الخَراسَانيّ، وقتادةُ، والسدِّي، ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾، أي: قَرَّبنا فِرْعَونَ وجنودَه من البحر وأدنيناهُم إليه. ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾، أي: أنجينا مُوسى وبَني إسرائيلَ ومن مَعَهم على دِينهم فلم نُهلِك منهُم أحداً، وأُغرق فِرعَونُ وجُنودُه فلم يبقَ منهُم رجلٌ إلا هَلَكَ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا أبو بكر بن أبي شَيبَةَ، حدثنا شبابَةُ، حدثنا يونسَ بن أبي إسحاقَ، عن أبي إسحاقَ، عن عَمرو بن ميمُونٍ، عن عبد الله، هو ابن مَسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ أن موسى عليه السلام حين أَسرَى ببني إسرائيل بَلَغَ فِرعَونَ ذلك، فأمر بشاةٍ فَذُبِحَت، ثم قال: لا، والله لا يُفرَغُ مِن سَلخها حتى يجتَمع إليّ ستمئة ألف من القِبطِ. فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر، فقال له: انفرق. فقال البحر: لقد استكبرتَ يا موسى، وهل فُرِقتُ لأحد من بني آدم فَأُفرقَ لكَ؟! قال: ومع مُوسَى رجلٌ على حِصَانٍ له، فقال له ذلك الرجلُ: أين أُمِرتَ يا نبي الله؟ قال: ما أُمِرْتُ إلا بهذا الوجه، هذا البحر. فأقحم فرسه فَسَبَحَ به فَخَرج، فقال: أين أُمرتَ يا نبي الله؟ قال: ما أُمِرْت إلا بهذا الوجه. قال: والله ما كَذَبْتَ. ثم اقتحم الثانية فَسَبَحَ، ثم خرج، ثم قال: أين أُمِرت يا نبيَّ الله؟ قال: ما أُمِرتُ إلا بهذا الوجه. قال: والله ما كُذِبْتَ. قال: فأوحى الله إلى موسى أن اضرِب بعصَاك البحرَ، فضربه مُوسَى بعصاه، فانفلق، فكان فيه اثنا عشر طريقاً، لكلِّ سبطٍ طريق يتراءون، فلما خَرَج أصحابُ موسى وتَتَامَّ أصحابُ فِرعَونُ، التقى البحر عليهم فأغرقهم. وفي رواية إسرائيلَ، عن أبي إسحاقَ، عن عَمرو بن مَيمُونٍ، عن عبد الله قال: فلما خَرَج آخرُ

أصحاب موسَى، وتكاملَ أصحابُ فرعَون، اضطمّ عليهم البحرُ، فما رُئي سوادٌ أكثرُ من يومئذٍ، وغَرق فِرعَونُ لعنه الله. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، أي: في هذه القصةِ وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين، لدلالة وحُجَّة قاطِعةٌ وحِكمةٌ بالغةٌ، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، تقدم تفسيره.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾

هذا إخبارٌ من الله تعالى عن عبدِه ورسوله وخليله إبراهيمَ عليه السلام إمام الحُنفاء، أمر الله رسولَه محمداً ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أن يتلُوه على أُمّتِهِ، ليقتدُوا به في الإخلاص والتوكُل، وعبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، والتبرّي من الشركِ وأهلِه، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رُشدَه من قبلُ، أي: من صِغَره إلى كِبَره، فإنه من وقتِ نَشأ وشَبَّ أنكر على قومِه عبادةَ الأصنام مع الله ـ عزّ وجلّ ـ فقال ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكفون؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾، أي: مُقيمين على عبادتها ودُعائِها، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، يعني اعترفوا بأنّ أصنامَهُم لا تفعلُ شيئاً من ذلك. وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلُون، فهم على آثارهم يُهرَعُون. فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: إن كانت هذه الأصنامُ شيئاً ولها تأثير فَلْتَخلُص إليّ بالمَساءَةِ، فإني عدوٌّ لها لا أباليها ولا أفكِّر فيها. وهذا كما قال تعالى مُخبراً عن نوحٍ عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، وقال هود عليه السلام: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦]. وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم، وقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: ٨١]. وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]، يعني لا إله إلا الله.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

يعني: لا أعبُد إلا الذي يفعلُ هذه الأشياء، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾، أي: هو الخالقُ الذي قَدَّر قدراً، وهَدَى الخلائق إليه، فكلّ يجري على قَدَر، وهو الذي يَهدِي مَن يشاء ويُضِلُّ من يشاء. ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾، أي: هو خالقي ورازقي، بما سَخَّر ويَسَّر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق

المُزْنَ، وأنزل الماءَ، وأحيا به الأرضَ، وأخرجَ به من كلِّ الثمراتِ رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زُلالاً ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾. وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾، أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخَلْقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً، كما قال تعالى آمراً للمصلّي أن يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ فأسند الإنعام والهداية إلى الله سبحانه وتعالى، والغَضَب حُذِف فاعله أدباً، وأسنِدَ الضلالُ إلى العبيد، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ١٠]، ولهذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾، أي: إذا وَقعتُ في مرضٍ فإنه لا يَقدِرُ على شفائي أحدٌ غيره، بما يُقَدِّر من الأسبابِ المُوصِّلةِ إليه. ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾، أي: هو الذي يُحيي ويميتُ، لا يَقدِر على ذلك أحدٌ سواه، فإنه هو الذي يُبدِىءُ ويعيدُ، ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾، أي: هُوَ الذِي لا يَقْدِر على غُفرانِ الذُنوبِ في الدنيا والآخرةِ إلا هو، ومن يغفرُ الذنوبَ إلا الله، فهو الفعَّال لما يشاءُ.

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝٨٤ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨٥ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾

وهذا سؤال من إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يؤتِيَه ربه حُكماً. قال ابنُ عباس: وهو العِلْمُ. وقال عكرمة: هو اللبُّ. وقال مجاهد: هو القرآنُ، وقال السدِّي: هو النبوَّةُ. وقولُه: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: اجعَلني مع الصَّالحِين في الدنيا والآخرة.

[٥٠٤١] كما قال النبي ـ ﷺ ـ عند الاحتِضَار: «اللهُمّ في الرفيقِ الأعلى»[١]. قالها ثلاثاً.

[٥٠٤٢] وفي الحديث في الدعاءِ: «اللهم أحيِنَا مُسلمينَ، وأمِتنا مُسلِمين، وألحقنا بالصَّالحِين، غير خزَايا ولا مُبدِّلينَ»[٢].

وقولُه تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾، أي: واجعَل لي ذكراً جميلاً بَعدِي أُذكَرُ به، ويُقتَدى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨ ـ ١١٠]. قال مجاهد، وقتادةُ: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝٨٤﴾، يعني الثناء الحسن. قال مجاهد: وهو كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وكقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢﴾ [النحل: ١٢٢]. قال ليثُ بن أبي سُليم: كلُّ ملة تُحبُه وتتولاًه. وكذا قال عكرمة. وقولُه: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨٥﴾، أي: أنعِم عليَّ في الدُنيا ببقاءِ الذكر الجَميل بَعدِي، وفي الآخرة بأن تجعلني من وَرَثةِ جَنَّةِ النعيم. وقولُه تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦﴾ كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ

---

(١) تقدم في تفسير سورة يوسف عند آية: ١٠١.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٤٢٤، وسيأتي في سوة الحجرات، عند تفسير الآية: ٧.

حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤]. وقد قَطع تعالى الإلحاقَ في استغفاره لأبيه فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقولُه: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، أي: أجرني من الخِزْي يومَ القيامةِ وبَعْثِ الخلائق أوَّلهم وآخرهم.

[٥٠٤٣] قال البُخاريُّ في قولِه: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾: قال إبراهيم بن طَهمَانَ، عن ابن أبي ذِئبٍ، عن سَعِيد بن أبي سَعِيد المقبُريّ، عن أبيه، عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: إنَّ إبراهيمَ رَأى أباه يومَ القيامة عليه الغَبَرَةُ والقَتَرَةُ[١].

[٥٠٤٤] وفي رواية أخرى: حدَّثنا إسماعيلُ، حدَّثنا أخي، عن ابن أبي ذِئبٍ، عن سعيدٍ المقبُريِّ، عن أبي هريرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: يلقَى إبراهيمُ أباه، فيقول: يا ربِّ، إنكَ وَعَدتني أن لا تُخزِني يومَ يُبعَثُون. فيقولُ الله تعالىٰ: إني حرَّمتُ الجنةَ على الكافرين[٢]. هكذا رواه عند هذه الآية.

[٥٠٤٥] وفي أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفرداً به، ولفظه: يلقى إبراهيمُ أباه آزرَ يومَ القيامة، وعلى وَجهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وغَبَرَةٌ، فيقول له إبراهيمُ: ألم أقل لَكَ: لا تَعصِيني؟ فيقولُ أبوه: فاليومَ لا أعصِيك. فيقول إبراهيمُ: يا ربِّ، إنك وعدتني أن لا تُخزيني يومَ يُبعثُونَ، فَأيُّ خِزيٍ أخزى من أبي الأبعَد؟ فيقول الله تعالى: إني حَرَّمتُ الجنة على الكافرين. ثم يُقَال: يا إبراهيمُ، ما تحتَ رِجلَيكَ؟ فينظر فإذا هو بِذِيخٍ مُتلطِّخٍ، فَيُؤخَذُ بقوائمه فَيُلقَى في النار[٣].

[٥٠٤٦] وقال أبو عبدِ الرحمٰن النَّسائِي في التفسير من سُننه الكَبِير: قَولُه: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾: أخبرنا أحمد بن حَفص بن عبد الله، حدثني أبي، حدثني إبراهيم بن طَهمان، عن محمد بن عبد الرحمٰن، عن سَعيد بن أبي سعيد المقبُري، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن إبراهيم رَأى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرة والقَتَرة، قال له: قد نهيتُك عن هذا فَعَصيتني. قال: لَكِنِّي اليوم لا أعصِيك واحدةً. قال: يا ربِّ، وعَدتني ألاَّ تُخزيني يومَ يُبعثون، فإن أخزَيت أباه فقد أخزيت الأبعدَ. قال: يا إبراهيمُ، إني حَرَّمتُها على الكافرين. فأُخِذَ منه، قال: يا إبراهيمُ، أين أبوك؟ قال: أنت أخذته منِّي. قال: انظر أسفلَ مِنكَ. فَنَظَر فإذا ذيخٌ يتمرَّغُ في نَتْنِه، فأُخذ بقوائمه فَأُلقِيَ في النار»[٤]. هذا سياقٌ غريبٌ، وفيه نَكَارةٌ. والذيخُ: هو الذكَرُ من الضباع، كأنه حُوِّل آزر إلى صُورة ذِيخٍ مُتلطِّخ بعَذِرَتِهِ، فَيُلقَى في النار كذلك.

[٥٠٤٧] وقد رواه البزَّارُ من حديث حَمَّاد بن سَلَمة، عن أيوبَ، عن محمد بن سيرينَ، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ. وفيه غَرَابة[٥].

[٥٠٤٨] ورواه أيضاً من حديث قتادَةَ، عن جعفر بن عبد الغفار، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ بنحوه[٦].

---

(١) ذكره البخاري تعليقاً ٤٧٦٨ من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٦٩.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣٥٠.

(٤) أخرجه النسائي في «التفسير» ٣٩٥ واستغربه المصنف على أن في بعض ألفاظه نكارة مع أنه ورد عند البخاري بهذا السياق، وانظر المتقدم برقم ٥٠٤٥.

(٥) حماد من رجال مسلم ومن فوقه رجال الشيخين.

(٦) جعفر لم أجد له ترجمة، ويغني عنه ما تقدم.

وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، أي: لا يَقِي المرءَ من عذاب الله مالُه، ولو افتدَى بملءِ الأرض ذهباً، ﴿وَلَا بَنُونَ﴾، أي: ولو افتدى بِمَن في الأرضِ جَميعاً، ولا ينفعُ يومئذٍ إلا الإيمانُ بالله، وإخلاصُ الدين له، والتبرِّي من الشركِ وأهله، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾، أي: سالم من الدنسِ والشركِ. قال مُحمَّد بن سِيرينَ: القلب السليم أن يعلَم أن الله حقٌّ، وأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعَثُ مَن في القبور. وقال ابنُ عباس: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾، يعني: يشهدُ أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد، والحسنُ، وغيرهما: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، يعني: من الشركِ. وقالَ سعيدُ بن المسيَّب: القلبُ السليمُ: هو القلبُ الصحيحُ، وهو قلبُ المؤمن، لأن قلبَ المنافق مريضٌ، قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾. وقال أبو عُثمان النيسابوريُّ: هو القلبُ الخالي من البِدعةِ، المطمئنُّ على السنَّةِ.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾، أي: قُرِّبت الجنةُ وأُدنِيَت من أهلها يومَ القيامة مزخرفةً مزيَّنةً لِنَاظريها، وهُم المتَّقون الذين رَغِبُوا فيها على ما في الدنيا، وعَمِلُوا لها في الدنيا. ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾، أي: أُظهِرَت وكُشِفَ عنها، وبَدَت منها عُنُقٌ فزَفرت زَفرةً بَلَغت منها القلوبُ الحناجرَ، وقيل لأهلها تقريعاً وتوبيخاً: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾؟ أي: ليستِ الآلهةُ التي عَبدتُموها من دُون الله، من تلك الأصنام والأندادِ تُغنِي عنكُم اليومَ شيئاً، ولا تدفعُ عن أنفسِها، فإنَّكم وإيَّاها اليومَ حَصَبُ جهنَّم أنتم لها وارِدُونَ. وقولُه: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾﴾، قال مجاهدٌ: يعني فَدُهْوِرُوا فيها. وقال غيره: كُبُّبوا فيها والكاف مُكرَّرة، كما يقال: صَرْصَرٌ. والمراد أنه أُلقِي بعضُهم على بَعض، من الكُفَّارِ وقادتهم الذين دَعَوهم إلى الشرك، ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾، أي: أُلقوا فيها عن آخرهم. ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾، أي: يقولُ الضعفَاءُ للذين استكبَرُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾. ويقولون وقد عَادُوا على أنفسهم بالمَلامة: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾، أي: نجعلُ أمركُم مطاعاً كما يُطاعُ أمرُ ربِّ العالمين، وعبدناكم مع ربِّ العالمين، ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: ما دَعانا إلى ذلك إلا المجرمُونَ، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾، قال بعضهم: يعني من الملائكةِ، كما يَقولُون: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]. وكذا قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾، أي: قريب.

قال قتادةُ: يعلمون ـ والله ـ أن الصديقَ إذا كان صالحاً نَفَعَ، وأن الحميمَ إذا كان صالحاً شفع. ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وذلك أنهم يَتمنَّونَ أن يُردُّوا إلى الدار الدنيا، ليعملُوا بطاعةِ ربِّهم فيما يزعُمون، وهو سبحانه وتعالى يعلم أنه لو رَدَّهم إلى الدار الدنيا لعادُوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون. وقد أخبر تعالى عن تخاصُمِ أهل النار في سورة «ص»، ثم قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: إن في محاجَّةِ إبراهيمَ لقومِه وإقامتِه الحُجَج عليهم في التوحيد لآيةً

ودلالةٌ واضحةٌ جليلةٌ على أنه لا إله إلا الله، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾

هذا إخبارٌ من الله ـ عز وجل ـ عن عبدِه ورسوله نوحٍ عليه السلام، وهو أولُ رسولٍ بُعث إلى أهل الأرض بعدَ ما عُبِدَت الأصنامُ والأندادُ، بَعَثه الله ناهياً عن ذلك، ومُحذِّراً من وَبيل عقابه، فَكَذَّبه قومه واستمرُّوا على ما هم عليه من الفِعَالِ الخبيثة في عبادتهم أصنامهم. ونُزِّل تكذيبهُم له بمنزلة تكذيب جميع الرُّسُل، ولهذا قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: ألا تخافونَ الله في عِبادَتكم غيره؟ ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، أي: إني رسولٌ من الله إليكم، أمين فيما بعثني به، أُبلِّغكم رسالة الله لا أَزِيدُ فيها ولا أَنقُصُ منها، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: لا أطلبُ منكم جزاءً على نُصحِي لكم، بل أَدَّخرُ ثوابَ ذلك عند الله، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾، فقد وَضَح لكم وبانَ صِدقي ونُصحِي وأَمانتي فيما بَعثني به وائتمنني عليه.

﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾

يقولون: أنؤمِن لك ونتبعُكَ، ونتساوى في ذلك بهؤلاء الأراذل الذين اتَّبعُوك وصَدَّقوكَ، وهم أراذلنا؟! ولهذا قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾، أي: وأيُّ شيءٍ يلزَمُني من اتِّباع هؤلاءِ لي، ولو كانوا على أي شيءٍ كانُوا عليه لا يَلزَمُني التنقيبُ عنه والبحثُ والفحصُ، إنما عليَّ أن أقبل منهم تَصدِيقَهم إيايَ، وأكِل سَرائرهم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾، كأنهم سألوا منه أن يُبعِدَهم عنه ليتابعوه، فأبى عليهم ذلك، وقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾، أي: إنما بُعِثتُ نذيراً، فمَن أطاعني واتَّبعني وصَدَّقني كان مِنّي وكنتُ منه، سَواءٌ كان شَرِيفاً أو وَضِيعاً، أو جَلِيلاً أو حَقِيراً.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

لما طال مقامُ نبي الله بين أظهرِهم يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وجهراً وإسراراً، وكلَّما كرَّر عليهم الدعوةَ صَمَّمُوا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾، أي: عن دَعْوَتِكَ إيانا إلى دينك يا نوحُ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾، أي: لنرجمَنَّك. فعند ذلك دَعا عليهم دعوةً استجاب الله منه، ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١٠ ـ ١٤]، وقال هاهنا: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾، والمشحُون: هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حَمَل فيه من كلِّ زوجين اثنين، أي: نجينا نوحاً ومَن اتَّبعه كلَّهم، وأغرقنا من كَذَّبه وخالَف أمره كُلَّهم، ﴿إِنَّ

فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾

وهذا إخبار مِنَ الله تعالى عن عَبدِه ورسوله هُودٍ ـ عليه السلام ـ: أنه دَعَا قومه عاداً وكانوا قوماً يسكُنون الأحقاف، وهي جبالُ الرمل قريباً من بلادِ حَضرَمُوتَ، متاخمةٌ لبلادِ اليمن، وكان زمانُهم بعدَ قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، وذلك أنهم كانوا في غاية من قُوَّة التركيب، والقُوَّة والبطشِ الشديدِ، والطولِ المَديدِ، والأرزاقِ الدارَّة، والأموالِ والجنَّاتِ والعُيونِ، والأبناء والزروعِ والثمارِ، وكانوا مع ذلك يعبدُون غيرَ الله معه، فبعثَ الله إليهم رجلاً منهم رَسُولاً وبَشِيراً ونَذِيراً، فدعاهم إلى الله وحدَه، وحذَّرهم نِقمَتَه وعذابه في مخالفته، فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلى أن قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾، اختلف المفسِّرون في الريع بما حاصلُه: أنه المكان المرتفعُ عند جوادِّ الطرق المشهورة، يبنونَ هناك بناء محكماً باهراً هائلاً، ولهذا قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً﴾، أي: مَعْلَماً بناء مشهوراً، ﴿تَعْبَثُونَ﴾، أي: وإنما تفعلون ذلك عَبَثاً لا للاحتياج إليه، بل لمجرَّد اللعب واللهو وإظهار القوة. ولهذا أنكر عليهم نَبيُّهم ـ عليه السلام ـ ذلك، لأنه تضييع للزمان، وإتعاب للأبدان في غير فائدةٍ، واشتغالٌ بما لا يُجدِي في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾، قال مجاهد: المصانع: البروجُ المشيَّدة، والبنيان المخلَّد. وفي رواية عنه: بُروجُ الحمام. وقال قتادةُ: هي مآخِذُ الماء. قال قتادة: وقرأ بعض القراء: «وتتَّخذون مصانع كأنَّكم خَالِدُون». وفي القراءة المشهورة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾، أي: لكي تُقِيمُوا فيها أبداً، وليس ذلك بحاصل لكم، بل زائلٌ عنكم، كما زَال عَمَّن كان قبلكم.

وقال ابنُ أبي حاتم رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا الحَكَمُ بن موسى، حدثنا الوليد، حدثنا ابن عَجْلانَ، حدثني عَونُ بن عبد الله بن عُتبَةَ، أن أبا الدرداء ـ رَضِي الله عنه ـ لما رأى ما أحدَث المسلمونَ في الغُوطَةِ من البُنيان ونَصب الشَّجرِ قام في مسجدهم فَنادى: يا أهلَ دمشقَ! فاجتمعوا إليه، فَحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا تَستَحيُون! ألا تَستَحيون! تجمَعُون ما لا تأكلون، وتبنُون ما لا تسكُنون، وتأملُون ما لا تُدرِكون! قد كانت قبلكم قرونٌ، يجمَعُون فَيُوعُون، ويَبنُون فَيُوثِقُون، ويأملُون فَيُطِيلُون، فأصبحَ أملُهم غُروراً، وأصبحَ جمعُهم بوراً، وأصبحت مساكِنُهم قُبوراً، ألا إن عاداً مَلَكت ما بين عَدَنَ وعُمانَ خيلاً ورِكَاباً، مَن يشتري مني ميراث عادٍ بدرهمين؟!

وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾، وصفَهم بالقُوَّة والغِلظة والجَبرُوت، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ أي: اعبدُوا رَبَّكم، وأطِيعُوا رَسُولَكم. ثم شرَعَ يُذكِّرهم نِعَمَ الله عليهم فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾، أي: كَذَّبتُم وخالفتُم، فدعاهم إلى الله بالتَّرغِيب والتَّرهِيب، فما نَفَع فيهم.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

يقولُ الله تعالى مخبراً عن جواب قوم هُودٍ له. بعد ما حَذَّرهم وأنذرهم، ورَغَّبهم ورَهَّبهم، وبَيَّن لهم الحقَّ ووضَّحه ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾، أي: لا نَرجِعُ عمَّا نحن فيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣]. وهكذا الأمر، فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]. وقولُه: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٧﴾﴾. قرأ بعضُهم: «إن هذا إلا خَلْقُ الأوَّلين»، بفتح الخاء وتسكين اللام. قال ابن مسعود، والعوفي عن عبد الله بن عباس، وعَلْقمةُ، ومجاهدٌ: يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا اختلاق الأولين. كما قال المشركُون من قُريش: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥]، وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: ٤ ـ ٥]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: ٢٤]. وقرأ آخرون: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٧﴾﴾، بضم الخاء واللام، يعنون: دينَهم وما هم عليه من الأمر هو دينُ الأوائل من الآباء والأجداد. ونحن تَابِعُون لهم، سالِكُون وراءهم، نعيشُ كما عاشُوا، ونموتُ كما ماتوا، ولا بَعثَ ولا مَعَاد. ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾. قال علي ابن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٧﴾﴾، يقولُ: دينُ الأولين. وقاله عكرمة، وعطاء الخراساني، وقتادةُ، وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، واختاره ابنُ جرير.

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ﴾، أي: فاستمرُّوا على تكذيب نبيّ الله هُودٍ ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله. وقد بَيَّن سببَ إهلاكه إيَّاهم في غير موضع من القرآنِ بأنه أرسلَ عليهم ريحاً صرصراً عاتيةً، أي: ريحاً شديدةَ الهُبُوبِ، ذاتَ بردٍ شديدٍ جداً، فكان إهلاكُهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيءٍ وأجبرَه، فَسلَّط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشدُّ قوة، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ [الفجر: ٦ ـ ٧]، وهُم عادٌ الأولى، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [النجم: ٥٠]، وهم من نَسْلِ إِرَمِ بنِ سام بن نُوح «ذاتِ العمادِ»، أي: الذين كانُوا يسكُنون العَمَد. ومن زَعَم أن «إرَم» مدينةٌ، فإنما أخَذَ ذَلك من الإسرائيليّاتِ من كَلام كعبٍ ووهبٍ، وليس لذلك أصلٌ أصيلٌ. ولهذا قال: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٨]، أي: لم يخلق مثلَ هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجَبَرُوتهم، ولو كان المراد بذلك مدينةً لقال: التي لم يُبنَ مثلُها في البلاد، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥]. وقد قدَّمنا أن الله تعالى لم يُرسل عليهم من الرِّيح إلا بمقدار أنفِ الثَّور، عَتَت على الخزنة، فأذن الله لها في ذلك، وسَلَكت وحَصَبت بلادهم، فَحصَبت كلَّ شيءٍ لهم كما قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ﴾، أي: كاملة، ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٧]، أي: بقُوا أبداناً بلا رُؤُوس، وذلك أنَّ الريحَ كانت تأتي الرجلَ منهم فتَقتلِعهُ وترفَعُه في الهواء، ثم تَنكِسهُ على أُمِّ رأسه فتشدَخ دِماغَه، وتكسِر رأسه، وتُلقِيه، كأنهم أعجازُ نخلٍ مُنقعِر. وقد كانوا تحصَّنُوا في الجبالِ والكُهُوفِ

والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافِهم، فلم يُغنِ عنهم ذلكَ من أمر الله شيئاً، ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

وهذا إخبارٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن عبده ورسوله صالح ـ عليه السلام ـ أنه بَعَثه إلى قومِهِ ثَمُودَ، وكانوا عَرَباً يسكُنون مدينة الحِجْر، التي بين وادِي القرَى وبلادِ الشام، ومساكنُهم معروفةٌ مشهورةٌ. وقد قدّمنا في سُورَةِ الأعرافِ الأحاديثَ المرويَّة في مُرور رسول الله ـ ﷺ ـ بهم حينَ أرادَ غزوَ الشام، فَوَصل إلى تَبُوكَ، ثم عاد إلى المدينة لِيتأهّب لذلك. وقد كانوا بعد عادٍ وقبل الخليل عليه السلام. فدعاهُم نَبيُّهم صالحٌ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يعبدُوه وَحده لا شريك له، وأن يُطيعوه فيما بَلَّغهم من الرسالة، فَأَبوا عليه وكَذَّبوه وخَالَفُوه. فأخبرهم أنه لا يَبتغي بِدَعوتِهم أجراً منهم، وإنما يطلُب ثوابَ ذلكَ من الله عَزَّ وجلَّ. ثم ذَكَّرهم آلاءَ الله عليهم فقال:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

يقولُ لهم واعظاً لهم ومحذِّراً إياهم نِقَمَ الله أن تَحلَّ بهم، ومُذكِّراً بأنعم الله عليهم فيما رَزَقهم من الأرزاقِ الدارّةِ، وجعلهم في أَمْنٍ من المحذُوراتِ، وأنبتَ لهم مِن الجناتِ، وأنبعَ لهم من العُيُونِ الجارياتِ، وأخرجَ لهم من الزروعِ والثمراتِ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: أينع وبَلَغ، فهو هضيم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، يقول: مُعْشِبة. وقال إسماعيلُ بن أبي خالد، عن عمرو بن أبي عمرو، وقد أدركَ الصحَابَة، عن ابن عباس، في قولِه: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، قال: إذا رَطُب واسترخَى. رواه ابنُ أبي حاتِم، قال: ورُوِيَ عن أبي صالح نحو هذا.

وقال أبو إسحاقَ، عن أبي العَلاءِ: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، قال: هو المُذَنِّبُ من الرطَب. وقال مجاهد: هو الذي إذا مُسّ تَهشَّم وتفتَّت وتناثر. وقال ابن جريج: سَمِعتُ عبد الكريم أبا أمية، سَمِعتُ مجاهِداً يقول: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، قال: حين يُطلِعُ تَقبِضُ عليه فتَهضِمُه، فهو من الرطَب الهَضِيمُ، ومن اليابس الهشِيم، تقبِضَ عليه فَتَهشِمه. وقال عكرمة، وقتادة: الهَضِيم: الرطبُ الليِّنُ. وقال الضّحاك: إذا كثر حَمْلُ النخلةِ المثمرةِ، ورَكِب بعضُه بعضاً، فهو هَضيم. وقال مُرّةُ: هو الطَّلْعَ حين يَتفرّق ويخضرُ. وقال الحسن البصري: هو الذي لا نوى له. وقال أبو صخر: أما رأيت الطَّلْعَ حين يتشقّق عنه الكِمُّ، فترى الطَّلْعَ قد لَصِق بعضُه ببعض، فهو الهَضِيم.

وقولُه تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾، قال ابن عباس، وغير واحد: يعني حاذقين. وفي رواية عنه: شَرِهين أشِرين. وهو اختيارُ مجاهدٍ وجماعةٍ. ولا منافاةَ بينهما، فإنهما كانوا يتَّخذون تلك البيوتَ المنحُوتة في الجبال أشراً وبَطَراً وعَبَثاً، من غير حاجةٍ إلى سكناها، وكانوا حاذِقين مُتقِنين لنحتِها ونَقْشِها،

كما هو المشاهَدُ من حالهم لِمَن رَأى مَنَازِلهم، ولهذا قال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾، أي: أقبلوا على عَمَلِ ما يعود عليكم نفعُه في الدنيا والآخرة، من عبادة رَبِّكم الذي خَلَقكم ورزقكم لتوحِّدُوه وتعبدُوه وتُسبِّحُوه بكرةً وأَصيلاً، ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ يعني: رُؤَساءهم وكُبَراءهم، الدعاةَ لهم إلى الشركِ والكفرِ، ومخالفةِ الحقِّ.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن ثمودَ في جوابهم لنبيِّهم صالح ـ عليه السلام ـ حين دعاهُم إلى عبادة ربِّهم، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾، قال مجاهدٌ، وقتادةُ: يعنونَ من المسحُورين. وروى أبو صالح، عن ابن عباس: ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: يعين من المخلُوقينَ. واستشهد بعضُهم على هذا القول بما قال الشاعر:

فَإنْ تَسْألِينَا: فِيمَ نَحْنُ؟ فإنَّنَا عَصَافِيرُ من هَذَا الأنَامِ المُسَحَّرِ

يعني الذين لهم سحرٌ، والسَّحْرُ: هو الرئة. والأظهر في هذا قول مجاهد وقتادة: أنهم يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحورٌ لا عقل لك. ثم قالوا: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، يعني: فكيف أُوحِي إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر: ٢٥ ـ ٢٦]. ثم إنهم اقترحُوا عليه آيةً يأتيهمْ بها، ليعلَمُوا صِدقَه بما جاءهم به من ربِّهم، فَطَلبوا منه وقد اجتمع ملؤهم أن يُخرِجَ لهم الآن من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرةٍ عندهم، ناقةً عُشَراءَ من صِفتها كذا وكذا. فعند ذلك أخذ عليهم نبيُّ الله صالحٌ العهودَ والمواثيق، لئن أجابهم إلى ما سألوا لَيُؤمِنُنَّ به. ولَيُصَدِّقُنَّه وليتبعُنَّه، فأعطوه ذلك. فقام نبيُّ الله صالح عليه السلام فصلَّى، ثم دعا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يُجيبهم إلى سُؤَالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقةٍ عُشَراءَ على الصفة التي وَصَفُوها. فآمن بعضُهم وكَفر أكثرُهم، ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ يعني: تَرِدُ ماءَكم يوماً، ويوماً تَرِدُونه أنتم، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾. فَحَذَّرهم نقمةَ الله إن أصابوها بِسُوءٍ، فمكثتَ الناقةُ بين أظهُرِهم حيناً من الدهر تَرِدُ الماء، وتأكل الوَرَقَ والمرعى. وينتفِعُون بلَبَنِها، يحتلبونَ منها ما يَكفيهم شُرباً وريّاً، فلما طال عليهم الأمدُ وحَضَر أشقاهم، تمالؤوا على قَتْلِها وعَقْرِها، ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، وهو أن أرضهم زُلزِلَت زِلزالاً شَديداً، وجاءتهم صيحةٌ عظيمةٌ اقتلعت القلوبَ عن مَحَالِّها، وأتاهُم من الأمر ما لم يكونوا يَحتسِبُون، فأصبحُوا في ديارهم جاثمين، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾

يقولُ الله تعالى مخبراً عن عبده ورسولِه لوطٍ ـ عليه السلام ـ وهو: لوط بن هارانَ بن آزرَ، وهو ابنُ أخي إبراهيم الخليل، وكان الله تعالى قد بَعَثَه إلى أمةٍ عظيمةٍ في حياة إبراهيم، وكانوا يسكنُون «سَدُوم»

وأعمالَها التي أهلكها الله بها، وجعل مكانها بُحيرةً مُنتِنَة خَبِيثة، وهي مشهورةٌ ببلاد الغَور، متاخمة لجبالِ بيت المقدِس، بينها وبين بلاد الكَرَك والشَّوبَك. فَدَعاهم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يعبدوه وحدَه لا شريكَ له، وأن يطيعوا رَسُولهم الذي بَعَثَه الله إليهم، ونهاهم عن مَعصيةِ الله، وارتكاب ما كانُوا قد ابتدعُوه في العالم، مما لم يسبقهُم الخلائقُ إلى فِعله، من إتيان الذُكرَانِ دُونَ الإناثِ، ولهذا قال تعالى:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

لما نَهاهم نبي الله عن إتيانهم الفواحش، وغِشيانهم الذكورَ، وأرشدَهم إلى إتيانِ نسائهم اللاتي خلقَهُنَّ الله لهم، ما كان جوابُ قومِهِ له إلا أن قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾، يعنُون عما جئتنا به، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾، أي: نَنفِيك من بين أظهُرنا، كما قال تعالى: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: ٥٦]. فلما رأى أنَّهم لا يَرتَدِعُون عما هم فيه وأنهم مُستمِرُّون على ضلالتهم تبرّأ منهم فقال: ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾، أي: المُبغضِينَ، لا أحبه ولا أرضى به، وأنا بَرِيءٌ منكم. ثم دعا الله عليهم فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾، أي: كُلهم، ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، وهي امرأته، كانت عجوزَ سَوءٍ، بَقِيت فَهَلكت مع من بَقِي من قومها، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في «سورة الأعراف» و«هُودٍ»، وكذا في «الحِجْر» حين أمره الله أن يسرِيَ بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يَلتَفِتُون إذا سَمِعوا الصيحةَ حين تنزلُ على قومه، فَصَبرُوا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذابَ الذي عَمَّ جميعَهم، وأمطر عليهم حجارةً من سِجِّيل مَنضُودٍ، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

هؤلاء ـ أعني أصحابَ الأيكةِ ـ هم أهل مَدْيَنَ على الصحيح. وكان نبيُّ الله شُعَيبٌ من أنفسهم، وإنما لم يَقُل هاهنا أخُوهم شُعَيب، لأنهم نُسِبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرةٌ. وقيل: شَجرٌ مُلتفٌ كالغَيضةِ، كانوا يعبدونها فلهذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، فَقَطع نِسبَة الأُخُوّة بينهم، للمعنى الذي نُسِبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً. ومن الناس من لم يتفطن لهذه النُكتةِ، فظن أن أصحابَ الأيكةِ غيرُ أهل مدين، فزعم أن شعيباً ـ عليه السلام ـ بعثه الله إلى أُمَّتين، ومنهم من قال: ثلاث أمم. وقد رَوَى إسحاقُ بن بشر الكَاهلي ـ وهو ضعيف ـ: حدثني ابن السدِّي، عن أبيه ـ وزكريا بن عُمَر، عن خُصَيف، عن عِكرِمَةَ ـ قالا[1]: ما بَعَثَ الله نبياً مرَّتين إلا شُعيباً، مرَّة

---

(١) أي عكرمة والسدي، والأثر باطل، إسحق بن بشر متهم بالكذب.

إلى مدينَ فأخذهم الله بالصيحةِ، ومرّةً إلى أصحاب الأيكةِ، فأخَذَهم الله بعذاب يوم الظُلّة.

ورَوَى أبو القاسم البغَويُّ، عن هُدْبَة، عن هَمّام، عن قتادةَ في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾: قوم شُعَيب، وقولِه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾: قوم شُعَيب. قال إسحاقُ بن بشر: وقال غيرُ جُوَيبر: أصحابُ الأيكة ومدينُ هما واحدٌ. والله أعلم.

[٥٠٤٩] وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة شُعَيب، من طريق محمد بن عُثمان بن أبي شَيبةَ، عن أبيه، عن معاويةَ بن هِشَام، عن هِشَام بن سعدٍ، عن سَعِيد بن أبي هلال، عن ربيعةَ، بن سيفٍ، عن عبد الله بن عَمرو قال: رسول الله ـ ﷺ ـ: إن قومَ مدينَ وأصحابَ الأيكةِ أُمّتَان، بعَثَ الله إليهما شُعَيباً النبي عليه السلام»[1]. وهذا غريبٌ، وفي رَفْعِهِ نَظَرٌ، والأشبهُ أن يَكُونَ موقُوفاً. والصحيحُ أنهم أُمَّةٌ واحدةٌ، وُصِفُوا في كلِّ مقام بشيءٍ، ولهذا وَعَظَ هؤلاء وأمرهم بوفاءِ المكيالِ والميزانِ، كما في قِصَّةِ مدين سواءً بسواءٍ، فدل ذلك على أنهم أمةٌ واحدةٌ.

﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾

يأمرهم تعالى بإيفاءِ المكيالِ والميزانِ، وينهاهُم عن التطفيفِ فيهما، فقال: ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾، أي: إذا دفعتُم إلى الناس فَكَمِّلوا الكيلَ لهم، ولا تُخسِرُوا الكيلَ فتعطوه ناقصاً، وتأخذُوه إذا كان لكم تامّاً وافياً، ولكن خُذوا كما تُعطُون، وأعطُوا كما تأخذُون. ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾، والقِسطاسُ هو الميزانُ، وقيل: القَبّانُ. قال بعضُهم: هو مُعَرَّبٌ من الرُوميَّةِ. وقال مجاهدٌ: القسطاسُ المستقيمُ: العدلُ بالروميّةِ. وقال قتادةُ: القِسطاس: العدلُ. وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾، أي: لا تَنْقُصُوهم أموالَهم، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، يعني: قَطع الطريقِ، كما قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾. وقـولُـه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾، يُخَوِّفهم بأس الله الذي خَلَقهم وخَلَق آباءَهم الأوائل، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]. قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والسدّي، وسفيانُ بن عُيَينة، وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلَم: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، يقولُ: خَلْقُ الأوّلين. وقرأ ابنُ زيد: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢].

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

---

(١) ضعيف جداً. فيه محمد بن عثمان بن أبي شيبة، وهو ضعيف، وفيه ربيعة بن سيف المصري. ذكره الذهبي في «الميزان» ٢٧٥١ وقال: قال البخاري وابن يونس: عنده مناكير اهـ وله علة ثالثة وهي الانقطاع. قال الترمذي: لا نعرف له سماعاً من عبد الله بن عمرو راجع الميزان ٢٧٥١ وله علة رابعة، هشام بن سعد ضعفه غير واحد. والمرفوع ضعيف جداً شبه موضوع. والصواب فيه الوقف كما قال ابن كثير رحمه الله.

يخبر تعالى عن جواب قومِه له بمثل ما أجابت به ثمودُ لرسولِها، تَشابهت قلوبُهم، حيث قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾، يعنون: من المَسْحُورين، كما تَقَدَّم. ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾، أي: تتعمَّد الكَذِب فيما تقوله، لا أنَّ الله أرسَلَكَ إلينا، ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، قال الضحَّاكُ: جانباً من السماء. وقال قتادة: قِطعاً من السماء. وقال السدِّي: عَذاباً من السماء. وهذا شبيهٌ بما قالت قُرَيش فيما أخبرَ الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾، إلى أن قالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٢]. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢]. وهكذا قال هؤلاء الكَفرةُ الجهلةُ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾. ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، يقول: الله أعلمُ بكم، فإن كنتُم تَستحقُّونَ ذلك جازاكم به غير ظالم لكم. وكذلك وَقَع بهم كما سَألوا، جزاءً وفاقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. وهذا من جنس ما سألوا من إسقاط الكِسَفِ عليهم، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل عُقوبتهم أن أصابهم حَرٌّ شديدٌ جداً مُدَّةَ سبعةِ أيام لا يَكُنُّهم منه شيءٌ، ثم أقبلت إليهم سحابةٌ أظلتهم، فَجعلوا يَنطلِقون إليها يَستظِلُّون بظلها من الحرّ، فلما اجتمعوا كُلُّهم تحتها أرسلَ الله تعالى عليهم منها شَرَراً من نار، ولهباً وَوَهجاً عظيماً، وَرَجَفت بهم الأرضُ، وجاءتْهم صيحةٌ عظيمةٌ أزهقَت أرواحَهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد ذكر الله تعالى صفةَ إهلاكِهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تُناسِب ذلك السياقَ، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفةُ فأصبحوا في دارهم جاثمينَ، وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٨]، فَأَرْجَفُوا بنبيِّ الله ومَن اتَّبعه، فأخذتهم الرجفةُ. وفي سورة هُودٍ قال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤] وذلك لأنهم استهزؤُوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. قالوا ذلك على سبيل التهكُّم والازدراءِ، فناسب أن تأتيَهُم صيحة تسكتهم، فقال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾. وهاهنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝١٨٧﴾، على وجه التعنُّتِ والعناد، فناسب أن يُحقَّق عليهم ما استبعدوا وقوعه: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قال قتادةُ: قال عبد الله بن عُمَر: إن الله سَلَّط عليهم الحرَّ سبعة أيام حتى ما يُظِلُّهم منه شيءٌ. ثم إن الله أنشأ لهم سحابةً، فانطلق إليهم أحدهُم واستظل بها، فأصاب تحتها برداً وراحةً، فأعلم بذلك قومَه، فأتوها جَميعاً، فاستظلُّوا تحتَها، فأجَّجتْ عليهم ناراً. وهكذا رُوي عن عكرمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادَة، وغيرهم. وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلَمَ: بَعَثَ الله إليهم الظلّة، حتى إذا اجتمعوا كلُّهم كَشَفَ الله عنهم الظلَّة، وأحمى عليهم الشمسَ فاحترقُوا كما يحترق الجَرَادُ في المِقْلَى. وقال محمدُ ابن كَعب القُرَظيُّ: إن أهل مَدْيَن عُذِّبوا بثلاثة أصنافٍ من العذاب: أخذتهم الرجفةُ في دارهم حتى خَرَجُوا منها، فلما خَرَجُوا منها أصابهم فزعٌ شديدٌ، فَفَرِقُوا أن يدخلُوا إلى البيوت فتسقُطَ عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة، فدخل تحتها رجلٌ فقال: ما رأيتُ كاليوم ظِلاً أطيبَ ولا أبرَد، هَلُمُّوا أيُّها الناس. فدخلُوا جميعاً تحت الظلَّة، فصاح بهن صيحةً واحدةً، فماتوا جميعاً. ثم تلا محمدُ بن كعب: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال ابنُ جرير: حدثني الحارثُ، حدثني الحسنُ، حدثني سعيدُ بن زيدٍ ـ أخو حمادِ بن زيدٍ ـ حَدَّثني حاتم بن أبي صَغِيرة، حدثني يزيدُ الباهليُّ: سألتُ ابنَ عبّاسٍ عن هذه الآية: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ

كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، قال: بعث الله عليهم رَعْدَةً وحرّاً شديداً، فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا البيوت، فدخَلَ عليهم أجواف البيوت، فأخذ بأنفاسهم، فَخرجُوا من البيوتِ هِرَاباً إلى البرِّية، فبعث الله سحابةً فأظلّتْهم من الشمس، فَوَجدُوا لها بَرداً ولذّةً، فنادى بعضُهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها عليهم ناراً. قال ابنُ عباس: فذلك عذابُ يوم الظلّةِ، إنه كان عذابَ يوم عظيم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾، أي: العزيزُ في انتقامِهِ مِن الكافرين، الرحيمُ بعبادِهِ المؤمنينَ.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبدِه ورسولِه محمدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: ﴿وَإِنَّهُ﴾، أي: القرآنُ الذي تَقَدَّم ذكره في أول السورةِ في قولِه: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾. . . الآية، ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: أنزله الله عليكَ وأوحاهُ إليكَ، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾، وهو جبريلُ عليه السلام. قال غيرُ واحدٍ من السلف: ابنُ عباس، ومحمدُ بن كعب، وقتادةُ، وعطيةُ العوفيّ، والسدّي، والضّحاكُ، والزهريُّ، وابن جُرَيج. وهذا ما لا نِزَاعَ فيه. قال الزهريُّ: وهذه كقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]. . . الآية. وقال مجاهد: من كَلّمه الروحُ الأمينُ لا تأكله الأرض. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾، أي: نَزَل به مَلَكٌ كريمٌ أمين، ذو مَكَانةٍ عند الله، مُطَاع في المَلإِ الأعلى، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، يا محمدُ، سالماً من الدنَسِ والزيادةِ والنقصِ، ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، أي: لتُنذِرَ به بأسَ الله ونقمَتَه على من خالفه وكَذّبه وتُبَشِّر به المؤمنين المُتّبِعين له.

وقولُه تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾، أي: هذا القرآنُ الذي أنزلناه إليكَ بلسانِكَ العَرَبيِّ الفَصِيح الكاملِ الشامل، ليكونَ بَيّناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعُذرِ، مُقيماً للحجّةِ، دَليلاً إلى المحجّةِ.

[٥٠٥٠] قال ابنُ أبي حاتم: حدّثنا أبي، حَدّثنا عبدُ الله بن أبي بكر العَتَكِيُّ، حدثنا عبّاد بن عباد المُهَلّبي، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التَّيميّ، عن أبيه قال: بينما رسولُ الله ـ ﷺ ـ مع أصحابه في يوم دَجْنٍ إذ قال لهم كيف تَرَون بَوَاسِقَها؟ قالوا: ما أحسنَها وأشد تراكُمَها! قال: فكيف ترون قواعِدَها؟ قالوا: ما أحسَنَها وأشد تَمَكُّنَهَا! قال: فكيف ترون جَوْنها؟ قال: ما أحسَنَه وأشد سَوَادَه! قال: فكيف تَرَون رَحَاها استدارت؟ قالوا: ما أحسَنَها وأشدَّ استدارَتها! قال: فكيف تَرَون بَرْقَها، أَوَميضٌ أم خَفْوٌ أم يَشُقّ شَقّاً؟ قالوا: بل يَشُقُّ شقّاً. قال: الحَباءَ الحياءَ إن شاء الله. قال: فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، بأبي وأمي ما أفصحَكَ! ما رأيت الذي هو أعربُ مِنْك! قال: فقال: حقٌّ لي، وإنما نَزَل القرآنُ بلساني! والله يقول: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1].

---

(١) باطل، فهو مرسل، محمد بن إبراهيم التيمي، تابعي، ومع إرساله تفرد به موسى بن محمد التيمي، وهو ضعيف جداً، قال الذهبي في «الميزان» ٨٩١٤: قال يحيى: ليس بشيء، ولا يكتب حديثه. وقال البخاري: عنده مناكير، وقال النسائي: منكر الحديث، وقال الدارقطني: متروك اهـ فالحمل عليه في هذا الحديث. وقوله: يوم دجن: أي فيه غيم يلبس الأرض وأقطار السماء. والبواسق: ما استطال من فروع السحاب. والقواعد: ما اعترض منها وسَفَل. وجونها: سودها. ورحاها: استدارتها من الأعلى. والخفو: لمعان خفيف. وشق البرق: رُئي مستطيلاً بين السحاب ولم يدُ انتشاره، ويستدلون به على المطر. والحباء: العطاء والهبة. وفي بعض النسخ: الحيا الحيا: أي المطر والخصب.

وقال سفيانُ الثَّوريُّ: لم ينزلْ وَحيٌ إلا بالعربيَّةِ، ثم تَرْجَم كُلُّ نَبيٍّ لقومِه، واللسانُ يوم القيامة بالسُّريانيَّةِ، فمن دَخَل الجنَّة تكلَّم بالعَربيَّة[١]. رواه ابنُ أبي حاتمٍ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

يقولُ تعالى: وَإنَّ ذِكْرَ هذا القرآنِ والتنويهَ به لموجودٌ في كتب الأولين المأثورةِ عن أنبيائهم، الذين بَشَّروا به في قديم الدهر وحَديثه، كما أخذَ الله عليهم الميثاق بذلك، حتى قام آخرهم خطيباً في مَلَئِه بالبشارة بأحمدَ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. والزبُر: هاهنا هي الكتبُ، وهي جمع زَبُور، وكذلك الزبور، وهو كتابُ داودَ. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر: ٥٢]، أي: مكتوبٌ عليهم في صُحُف الملائكة. ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾، أي: أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادِق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل يجدُون ذكر هذا القرآن في كُتُبهم التي يدرسونها؟! والمراد العُدُول منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صِفةِ محمد ـ ﷺ ـ ومَبْعثه وأُمَّتِه، كما أخبر بذلك مَنْ آمَنَ منهم كعبد الله بن سلاَم، وسَلمان الفارسي، عمن أدركه منهُم ومن شاكَلَهم. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]... الآية.

ثم قال تعالى: مخبراً عن شدَّة كُفرِ قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو أنزَله على رَجُلٍ من الأعاجم ممن لا يدري من العربيَّة كلمةً، وأنزل عليه هذا الكتابَ ببيانه وفصاحته، لا يؤمنون به، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾، كما أخبر عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤ ـ ١٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧].

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيبَ والكُفر والجحُود والعِناد، أي: أدخلناه في قُلوبِ المجرمين، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، أي: بالحقِّ، ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، أي: حيث لا ينفع الظالمين مَعذرتُهم، ولهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدار. ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: عذابُ الله بغتةً، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي: يَتمنَّون حين يُشاهِدُون العذاب أن لو أُنظِرُوا قليلاً ليعملوا في زَعْمِهم بطاعة الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ

---

(١) لعله لا يصح عن الثوري، فمثل هذا لا يعلم إلا توقيفاً.

ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، فكلُّ ظالم وفاجر وكافر إذا شاهَدَ عقوبته نَدِم نَدَماً شَدِيداً، هذا فرعونُ لما دعا عليه الكَلِيم بقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٨ ـ ٨٩]. فأثَّرت هذه الدعوةُ في فِرعَون، فما آمَنَ حتى رأى العذاب الأليم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩١]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ﴾ [غافر: ٨٤] الآية. وقولُه تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾، إنكارٌ عليهم، وتهديدٌ لهم، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣ ـ ٥٤]. ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾، أي: ولو أَخَّرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم بُرهة من الزمان وحيناً من الدهر وإن طال، ثم جاءهم أمر الله، أيُّ شيءٍ يُجدِي عنهم ما كانوا فيه من النعيم، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل: ١١]، ولهذا قال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾.

[٥٠٥١] وفي الحديث الصحيح: «يُؤتَى بالكافر فَيُغمَسُ في النار غَمْسَةً، ثم يقال له: هَل رأيتَ خيراً قَطُّ؟ هل رأيت نَعيماً قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويُؤتى بأشدِّ الناس بُؤساً كان في الدنيا، فَيُصبَغُ في الجَنَّة صَبغةً، ثم يقال له: هل رأيتَ بُؤساً قطُّ؟ فيقول: لا والله يا رب. «أي: ما كأنْ شيئاً كان»[1]. ولهذا كان عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يتمثَّلُ بهذا البيت:

كَأنكَ لَمْ تُوتَرْ مِنَ الدَّهْرِ لَيلَةً إذا أنتَ أدرَكْتَ الذي كنتَ تَطلُبُ

ثم قال الله تعالى مخبراً عن عَدله في خَلقِهِ: أنه ما أهلَكَ أمةً من الأُمَم إلاَّ بعد الإعذار إليهم، والإنذار لهم وبعثه الرسل، وقيام الحُجَج عليهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كتابهِ العزيز، الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيه ولا من خَلفِهِ، تنزيلٌ من حَكِيم حَميدٍ: أنه نَزَل به الروحُ الأمينُ المؤيَّد من الله، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾. ثم ذَكَرَ أنه يمتنع عليهم من ثلاثة أوجُهٍ، أحدُها: أنه لا ينبغي لهم، أي: ليس هو من بُغيتهم ولا من طَلِبَتهم، لأن من سَجَاياهم الفَساد وإضلالَ العباد، وهذا فيه الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المُنكَرِ، ونورٌ وهُدىً وبرهانٌ عظيمٌ، فبينه وبين

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٨٠٧ وأحمد ٣/٢٠٣ وأبو يعلى ٣٥٢١ من حديث أنس.

الشياطينِ منافاةٌ عظيمةٌ. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، أي: ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]. ثم بيّن أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حَمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمعزل عن استماع القرآنِ حالَ نُزوله، لأنَّ السماء مُلِئت حَرساً شَدِيداً وشُهُباً في مُدّة إنزال القرآن على رَسُوله، فلم يخلُص أحدٌ من الشياطين إلى استماع حَرفٍ واحدٍ منه، لئلاً يَشتبه الأمرُ. وهذا من رَحمةِ الله بعباده، وحِفظِه لِشرعه، وتأييدِه لكتابه ولرسوله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾، كما قال تعالى مُخبراً عن الجنّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ٨ ـ ١٠].

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾

يقولُ تعالى آمراً بعبادته وحدَه لا شريكَ له، ومُخبِراً أن من أشرك به عَذَّبه. ثم قال تعالى آمراً لرسولِه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أن ينذر عشيرَته الأقربين، أي: الأدنَين إليه، وأنه لا يُخلِّص أحداً منهم إلا إيمانُه بربِّه عزَّ وجلَّ. وأمره أن يُلِينَ جانبَه لمن اتَّبعه من عباد الله المؤمنينَ. ومن عَصَاه من خَلق الله كائناً مَن كان فَلْيتبرأ منه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦﴾. وهذه النِّذارةُ الخاصّةُ لا تُنافي العامّة، بل هي فردٌ من أجزائها، كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس: ٦]، وقال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال تعالى: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]. وقال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

[٥٠٥٢] وفي صحيح مسلم: «والذي نَفسِي بيده لا يَسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، يهوديٌ ولا نصراني، ثم لا يُؤمن بي إلا دَخَلَ النار»[1]. وقد وردت أحاديثُ كثيرةٌ في نزول هذه الآية الكريمة، فلنذكرها.

[٥٠٥٣] الحديث الأول، قال الإمام أحمد ـ رَحِمه الله ـ: حدثنا عبد الله بن نُمَير، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرّة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾، أتى النبي ـ ﷺ ـ الصفا فَصَعِدَ عليه، ثم نادى: يا صَبَاحَاه. فاجتمع الناسُ إليه بين رَجُل يجيء إليه، وبين رَجُل يبعَثُ رسوله، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: يا بَني عبد المطلب، يا بني فِهرٍ، يا بني لُؤَيٍّ، أرأيتُم لو أخبرتكُم أن خَيلاً بِسَفح هذا الجبلِ تُريد أن تُغير عليكم، صَدَّقتُموني؟ قالوا: نعم. قال: فإني نَذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذاب شديدٍ. فقال أبو لَهَبٍ: تَبّاً لك سائرَ اليوم، أما دَعَوتنا إلا لهذا؟! وأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[2]. ورواه البخاريُ ومسلمٌ والنسائيُ والترمذيُ، من طُرُقٍ، عن الأعمشِ، به.

---

(١) تقدم في تفسير سورة آل عمران عند آية: ٢٠.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٢٥ و٤٩٧١ ومسلم ٢٠٨ والترمذي ٣٣٦٣ والنسائي في «الكبرى» ١٠٨١٩ وأحمد ١/ ٢٨١ و٣٠٧ وابن حيان ٦٥٥.

[٥٠٥٤] الحديث الثاني، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ، حدثنا هشامٌ، عن أبيه، عن عائشةَ قالت: لما نزلَت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، قام رسولُ الله ﷺ فقال: يا فاطمةَ ابنةَ محمدٍ، يا صفيةَ ابنةَ عبدِ المُطَّلب، يا بَني عبدِ المطلب، لا أملكُ لكم من الله شيئاً، سَلُوني من مالي ما شِئتُم[١]. انفرد بإخراجِه مسلمٌ.

[٥٠٥٥] الحديث الثالث، قال أحمدُ: حدثنا معاويةُ بن عمرو، حدثنا زائدةُ، حدثنا عبد الملك بن عُمَير، عن موسى بن طلحةَ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نَزلت هذه الآيةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، دعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ قريشاً، فَعَمَّ وخَصَّ، فقال: يا معشَر قريش، أنقذوا أنفُسَكم من النار. يا معشرَ بني كعب، أنقذُوا أنفسَكم من النارِ. يا معشَرَ بني عَبد مَنَافٍ، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشَر بني هاشم أنقذُوا أنفسكم من النار. يا معشرَ بني عبدِ المطلب، أنقذوا أنفُسكم من النار. يا فاطمةَ بنتَ محمدٍ، أنقذِي نَفسَك من النار. فإني ـ والله ـ ما أملُك لكُم من الله شيئاً، إلا أنَّ لكم رَحِماً سأبُلُّها بِبِلالها[٢].

ورَواهُ مسلِمٌ والترمذي، من حديث عبد الملك بن عُمَير، به، وقال الترمذيُّ: غريبٌ من هذا الوجه. ورواه النسائيُّ من حديث مُوسَى بن طَلْحَةَ، مُرسَلاً، لم يذكر فيه أبا هُرَيرَةَ. والموصولُ هو الصحيحُ. وأخرجاه في الصَحيحَين من حديث الزُهريُّ، عن سَعيدِ بنِ المُسيَّب وأبي سلمَةَ بن عبد الرحمٰنِ، عن أبي هُرَيرَة.

[٥٠٥٦] وقال الإمام أحمدُ حدثنا يزيدُ، حدثنا محمَّدُ ـ يعني ابن إسحاقَ ـ عن أبي الزنَادِ، عن الأَعرجِ، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رَضِي الله عنه ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا بَني عبدِ المطلب، اشترُوا أنفُسَكم من الله. يا صَفيَّة عمةَ رسولِ الله. ويا فاطمةَ بنتَ رسول الله، اشتريا أنفُسَكما منَ الله، لا أُغني عَنكُما من الله شيئاً، سَلاني من مالي ما شِئتُما[٣]. تفرّد به من هذا الوجه. وَتَفرّد به أيضاً، عن معاويةَ، عن زَائِدة، عن أبي الزناد، عن الأعرَج، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه، ورواه أيضاً عن حَسَن، حدثنا ابن لَهيعة، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرةَ مرفوعاً.

[٥٠٥٧] وقال أبو يَعْلَى: حدثنا سُوَيد بن سَعيد، حدثنا ضِمَامُ بن إسماعيل، عن موسى بن وَرْدَان، عن أبي هُرَيرَة، عن النبي ـ ﷺ ـ: «يا بني قُصَيّ، يا بني هَاشِمٍ، يا بني عبدَ منافٍ، أنا النذيرُ والموت المُغير. والساعة الموعد»[٤].

[٥٠٥٨] الحديث الرابع، قال أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا التيمي، عن أبي عثمان، عن قَبيصة بن مُخارق وزهَير بن عمرو قالا: لما نَزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، صَعد رسوُل الله ـ ﷺ ـ رَضْمَةً من جَبَلٍ، على أعلاها حَجرٌ فجعل يُنادي: يا بني عبد مناف، إنما أنا نذير، إنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو، فذهب يَرْبأ أهله، يخشَى أن يسبقوه، فَجعل يُنادي ويهتِفُ: يا صَبَاحاه[٥]. ورواه مسلمٌ

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٠٥ والترمذي ٣١٨٤ والنسائي ٦/ ٢٥٠ وأحمد ٦/ ١٨٧ وابن حبان ٦٥٤٨.

(٢) صحيح. أخرجه مسلم ٢٠٤ والترمذي ٣١٨٥ والنسائي ٦/ ٢٤٨ وأحمد ٢/ ٣٣٣. وأخرجه البخاري ٢٧٥٣ و٤٧٧١ ومسلم ٢٠٦ والنسائي ٦/ ٢٤٨ وابن حبان ٦٥٤٩ من وجه آخر من حديث أبي هريرة بنحوه.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٥٢٧ ومسلم ٢٠٦ ح ٣٥٢ وأحمد ٢/ ٣٩٨ و٣٥٠.

(٤) ضعيف. أخرجه أبو يعلى ٦١٤٩ وفيه سويد بن سعيد، وهو ضعيف، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٢٢٧ ورجاله رجال الصحيح، غير ضمام بن إسماعيل، وهو ثقة اهـ والصواب أنه ضعيف بهذا الإسناد واللفظ.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٠٧ والنسائي في «الكبرى» ١٠٨١٥ و١١٣٧٩ وأحمد ٥/ ٦٠. وقوله: رضمة: أي صخور بعضها على بعض. ويربأ أهله: ينذرهم من مكان عالٍ.

والنسائي، من حديث سُلَيمانَ بن طَرخان التَّيمِيّ، عن أبي عثمان عبد الرحمٰن بن مُلّ النَّهدِيّ، عن قَبيصة وزُهَير بن عَمرو الهِلاَلي، به.

[٥٠٥٩] الحديث الخامس، قال الإمام أحمد: حدثنا أَسوَدُ بن عامر، حدثنا شَرِيك، عن الأعمش، عن المِنهال، عن عباد بن عبد الله الأَسَدي، عن عَلِي ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت هذه الآيةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، جمع النبي ـ ﷺ ـ من أهل بَيتِهِ، فاجتمع ثلاثُون. فَأَكلُوا وشَربوا قال: وقال لهم: مَن يَضمَنُ عَني دَيني ومواعيدي، ويكونُ معي في الجنة، ويكونُ خَلِيفتي في أهلي؟ فقالَ رجلٌ ـ لم يُسَمِّه شريك ـ: يا رسولَ الله، أنت كنت بحراً، من يقوم بهذا؟! قال: ثم قال الآخَرَ، قال: فَعَرض ذلك على أهلِ بيتِه، فقال عَلِيّ: أنا[١].

[٥٠٦٠] طريق أخرى بأبسَطَ من هذا السياق: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن عثمان بن المغيرةِ، عن أبي صادقٍ، عن ربيعةَ بن ناجذٍ، عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: جَمَع رسولُ الله ـ ﷺ ـ أو دعا رسول الله ـ ﷺ ـ بني عبد المطلب، وهم رَهطٌ، كلهم يأكل الجَذَعة ويشرَب الفَرَق، قال: فصَنَع لهم مُدّاً من طعام فأكلوا حتى شبعوا، قال: وبقي الطعام كما هو كأنه لم يُمَسّ، ثم دعا بغُمَرٍ فشربوا حتى رَوُوا، وبقي الشراب كأنه لم يُمَسّ ـ أو: لم يُشرَبْ ـ وقال: يا بَني عبد المطلب، إني بُعِثتُ إليكم خاصة وإلى الناس عامة، وقد رأيتُم من هذه الآية ما رأيتم، فَأَيُّكم يُبايعُني على أن يَكُونَ أخِي وصَاحِبي؟ قال: فلم يَقُم إليه أحدٌ. قال: فقُمتُ إليه ـ وكنتُ أصغرَ القوم ـ قال: فقال: اجلس. ثم قال ثلاثَ مراتٍ، كلُّ ذلك أقومُ إليه فيقولُ لي: اجلس. حتى كان في الثالثةِ ضَرَبَ بيَدِهِ على يَدِي[٢].

[٥٠٦١] طريقٌ أخرى أغرَبُ وأبسَطُ من هذا السياق، بزياداتٍ أُخَرَ: قال الحافظُ أبو بكر البَيهقيّ في دَلائِلِ النبُوّةِ: أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ، حَدّثنا أبو العباس محمد بن يَعقُوبَ، حدثنا أحمدُ بن عبدِ الجَبّارِ، حدثنا يُونُس بن بُكَير، عن محمد بن إسحاقَ قال: فحدثني من سَمِع عبد الله بن الحارث بن نوفل ـ واستكتَمَني اسمَه ـ عن ابن عَبّاس، عن علي بن أبي طالب ـ رَضِي الله عنه ـ قال: لما نزلت هذه الآيةُ على رسولِ الله ـ ﷺ ـ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: عَرَفت أنّي إن بادأتُ بها قَومي رأيتُ منهم ما أكرَه، فَصَمَتُّ. فَجاءني جبريلُ ـ عليه السلام ـ فقال: يا محمد، إنّك إن لم تفعل ما أمرَك به ربُّك عَذَّبك ربُّك. قال علي ـ رضي الله عنه ـ: فَدَعاني فقال: يا علي، إن الله قد أمرني أن أُنذِر عَشِيرتي الأقربين، فعرفتُ أني إن بادأتُهم بذلك رأيتُ منهم ما أكره،

---

(١) ضعيف جداً. أخرجه أحمد ٨٨٣ «بترقيم أحمد شاكر» وقال الهيثمي في «المجمع» ١٤٦٦٥: إسناده جيد. قلت: بل فيه شريك، روى له مسلم متابعة، وهو سيء الحفظ. وفيه المنهال بن عمرو فيه كلام. وشيخه عباد بن عبد الله الأسدي. جاء في الميزان ٤١٢٦: قال البخاري: فيه نظر، وقال ابن المديني: ضعيف وذكره ابن حبان في الثقات. وذكر الذهبي له حديث «أنا الصدّيق الأكبر» فقال الذهبي: هذا كذب على علي رضي الله عنه، وفيه عنعنة الأعمش، فالإسناد ظلمات.

(٢) إسناده ضعيف. أخرجه أحمد ١٣٧١، ١/١٥٩ من حديث علي، وقال الهيثمي في «المجمع» ١٤١٠٩: رجاله ثقات اهـ وفي ذلك نظر، فإن ربيعة، وإن وثقه ابن حبان، فقد قال عنه الذهبي في الميزان ٢٧٥٨: لا يكاد يُعرف. وعنه أبو صادق بخبر منكر فيه «علي أخي، ووارثي». وفيه عثمان بن مغيرة، وهو ثقة، لكن قال الذهبي في الميزان: ولأبي عوانة عنه ما ينكر اهـ وهذا الخبر غريب. وأغرب ما فيه لفظ «أيكم يبايعني على أن يكون أخي، وصاحبي» فإن رسول الله ﷺ ما كان يبايع الناس على الأخوّة والصحبة. وقوله: الجذعة: في السنة الثانية من العمر من الغنم والمعزى. والفَرَق: إناء يَسَع ثلاثة أَصْوُعٍ. والغمر: قدح صغير.

فَصَمَتُّ عن ذلك، ثم جاءني جبريل فقال: يا محمد، إن لم تفعَل ما أُمِرتَ به عذبك رَبُّك. فاصنع لنا يا عليُّ شاةً على صاعٍ من طعام، وأعدَّ لنا عُسَّ[1] لبن، ثم اجمَع لي بني عبد المطلب. ففعلتُ فاجتمعُوا له، وهم يومئذ أربعُون رَجلاً، يَزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً، فيهم أعمامه، أبو طالب، وحمزةُ، والعباسُ، وأبو لَهَب الكافرُ الخبيثُ. فَقَدَّمْتُ إليهم تلك الجفْنَةَ، فأخذَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ منها حِذْيَةً، فَشَقَّها بأسنانه ثم رَمَى بها في نَوَاحِيها، وقال: كُلوا بسم الله. فأكل القومُ حتى نَهلُوا عنه ما يُرَى إلا آثارُ أصابِعِهم. والله إن كانَ الرجلُ منهم ليأكُلُ مثلَها. ثم قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إسقِهم يا عليُّ. فجئتُ بذلك القَعب فَشَربوا منه حتى نَهلُوا جميعاً، وايمُ الله إن كان الرجلُ منهم ليشرَبُ مثله. فلما أراد رسول الله ـ ﷺ ـ أن يُكَلِّمهم، بَدَره أبو لهب إلى الكلام فقال: لَهدَّ ما سَحَرَكُم صاحبُكم. فتفرقوا ولم يُكَلِّمهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ. فلما كان الغدُ قال رسول الله ـ ﷺ ـ: يا عليُّ، عُدْ لنا بمثل الذي كنتَ صنعتَ بالأمس من الطعام والشراب، فإن هذا الرجلَ قد بَدَرني إلى ما سَمعت قبل أن أكلِّم القوم. ففعلتُ، ثم جَمَعتُهم له، فصنع رسولُ الله ـ ﷺ ـ كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا عنه وايم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ثم قال رسول الله ﷺ: اسقهم يا علي. فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً، وايم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله. فلما أراد رسول الله ـ ﷺ ـ أن يكلمَهُم بَدَره أبو لهب بالكلام فقال: لَهدَّ ما سحركم صاحبكم. فتفرقوا ولم يكلمْهُم رسول الله. فلما كان الغد قال رسول الله ـ ﷺ ـ: يا علي، عُد لنا بمثل الذي كنت صنعتَ لنا بالأمس من الطعام والشراب، فإنَّ هذا الرجلَ قد بَدَرني إلى ما سمعتَ قبل أن أكلِّم القوم. ففعلت، ثم جمعتُهم له فصَنع رسول الله ـ ﷺ ـ: كما صنع بالأمس، فأكلوا حتى نَهلوا عنه، ثم سقيتهم من ذلك القَعب حتى نهلوا عنه، وايم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشربُ مثلها، ثم قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يا بني عبد المطلب، إني ـ والله ـ ما أعلم شَاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتُكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة»[2]. قال أحمدُ بن عبد الجبار: بَلَغني أن ابن إسحاق إنما سَمِعه من عبد الغفار بن القاسم أبي مريم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث.

[٥٠٦٢] وقد رواه أبو جعفر بنُ جرير، عن ابن حُمَيد، عن سَلَمة، عن ابن إسحاقَ، عن عبد الغفارِ ابن القاسم، عن المنهال بن عَمرو، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس، عن عَلي بن أبي طالب، فذكر مثله، وزاد بعد قوله: «إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة»: «وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يُوَازِرني على هذا الأمر على أن يكون أخي، وكذا وكذا؟ قال: فأحجَم القومُ عنها جميعاً، وقلت ـ وإني لأحدثهم سناً، وأرمصُهم عيناً، وأعظمُهم بَطناً، وأحمشُهم ساقاً ـ: أنا يا نبيَّ الله، أكونُ وزيرَكَ عليه. فأخذ يَرْقُبني ثم قال: إنَّ هذا أخي، وكذا وكذا، فاسمعوا له وأطيعُوا. قال: فقام القومُ يضحَكُون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمَعَ لابنِكَ وتُطيعَ»[3]. تَفَرّد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبو مريم، وهو متروك كَذّاب شِيعي، اتهمه علي بن المَديني وغيرُه بوضع الحديث، وضَعّفه الأئمةُ، رحمهم الله.

---

(١) العُس: الآنية الكبيرة.

(٢) ضعيف جداً، والمتن منكر بهذا اللفظ. أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٢/ ١٧٨ ـ ١٨٠، وفيه راوٍ لم يسمّ، وابن إسحق لم يسمّه لأنه متهم بالكذب. وقد ذكر أحمد بن عبد الجبار ـ أحد الرواة ـ أن ابن إسحق رواه عن عبد الغفار بن القاسم، وهو متروك متهم بالكذب كما ذكر ابن كثير. ويؤكد ذلك أن الطبري أخرجه ٢٦٨٠٦ من طريق ابن إسحق عن عبد الغفار عن المنهال عن عبد الله بن الحارث به مطولاً.

(٣) إسناده ضعيف جداً، انظر ما قبله.

[٥٠٦٣] طريق أخرى، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حَدَّثنا الحُسَين بن عيسى بن مَيْسَرَة الحارثي، حدثنا عبد الله بن عبد القُدُّوس، عن الأعمش، عن المِنهال بن عَمرو، عن عبد الله بن الحارث قال: قال عَلي ـ رضي الله عنه ـ لما نَزَلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، قال لي رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «اصنع لي رِجْلَ شاةٍ بصاع من طعام وإناءً لَبناً. قال: ففعلتُ، ثم قال: ادعُ بني هاشم. قال: فَدَعوتُهم وَإنَّهم يومئذٍ لأربعون غيرَ رجل ـ أو: أربعون ورجلٌ ـ قال: وفيهم عشرةٌ كلُّهم يأكلُ الجَذَعة بإدامها. قال: فلما أتوا بالقَصعةِ أخَذَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ من ذرْوَتِها ثم قال: كُلُوا فأكلوا حتى شَبِعوا، وهي كهيئتَها لم يَرْزَأوا منها إلا يسيراً، قال: ثم أتيتُهم بالإناء فشربوا حتى رَوُوا. قال: وفَضَل فَضْلٌ، فلما فَرَغُوا أراد رسول الله ـ ﷺ ـ أن يتكلَّم، فَبدَرُوه الكلام، فقالوا: ما رأينا كاليوم في السِحْر. فسكَت رسولُ الله ـ ﷺ ـ، ثم قال: اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام، فصنعت، قال: فدعاهم، فلما أكلُوا وشَربوا قال: فَبَدَروه فقالوا مثل مقالَتهم الأولى، فسكت رسولُ الله ـ ﷺ ـ، ثم قال: اصنع لي رجل شاةٍ بصاع من طعام. فصنعتُ، قال: فجمعتُهم، فلما أكلوا وشَربوا بَدَرهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ الكلام فقال: أيكم يقضِي عني دَيني ويكونُ خَلِيفتي في أهلي؟ قال: فسكتوا وسكت العباسُ خشيةَ أن يُحيطَ ذلك بماله، وسَكَتُّ أنا لِسِنِّ العباس. ثم قالها مرةً أُخرى فسكتَ العباس، فلما رأيتُ ذلك قلتُ: أنَا يا رسولَ الله. فقال: أنتَ. قال: وإني يَوْمَئِذٍ لأسواهم هيئةً، وإني لأعمشُ العينين، ضَخْمُ البطن، حَمْشُ السَّاقين[1]. فهذه طرقٌ متعددةٌ[2] لهذا الحديثِ عن علي رضي الله عنه.

ومعنى سُؤاله ـ ﷺ ـ لأعمامه وأولادهم أن يقضُوا عنه دينه، ويخلفوه في أهله، يعني إن قُتِل في سبيل الله، كأنه خَشِي إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل، فَلَمَّا أنزل الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فعند ذلك أَمِن. وكان أولاً يُحرَسُ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. ولم يكن في بني هاشم إذ ذاك أشدُّ إيماناً وإيقاناً وتصديقاً لرسول الله ـ ﷺ ـ من عَليٍّ ـ رضي الله عنه ـ فلهذا بَدَرهم إلى التزام ما طلب منهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ ثم كان بعد هذا ـ والله أعلم ـ دعاؤه ـ ﷺ ـ الناسَ جَهرةً على الصفا، وإنذارُه لبطونِ قُرَيشٍ عموماً وخُصُوصاً، حَتَّى سَمَّى من سَمَّى من أعمامه وعَمَّاته وبناتِه، لِيُنبِّه بالأدنى على الأعلى، أي: إنما أنا نذير، والله يَهدِي من يشاء إلى صراط مستقيم.

[٥٠٦٤] وقد رَوَى الحافظ ابنُ عساكر في ترجَمَةِ عبدِ الواحد الدِّمشقي ـ غيرُ منسوب ـ من طريق عَمرو بن سَمُرة، عن محمد بن سوقَة، عن عبد الواحد الدمشقي قال: رأيتُ أبا الدرداء ـ رَضِي الله عنه ـ يُحدِّث الناس ويُفتِيهم، وولدهُ إلى جَنبه، وأهلُ بيته جلوسٌ في جانِب المسجد يَتَحدَّثون، فقيل له: ما بالُ الناس يَرْغَبُون فيما عندكَ من العلم، وأهلُ بيتك جلوسٌ لاهين؟ فقال: لأني سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: أزهدُ الناس في الدنيا الأنبياءُ، وأشدُّهم عليهم الأقربون. وذلك فيما أنزل الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، ثم قال: إنَّ أزهَدَ الناسِ في العالم أهله حتى يفارقهم. ولهذا قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[3].

---

(١) إسناده ضعيف جداً، وعلته عبد الله بن عبد القدوس، جاء في «الميزان» ٤٤٣١: روى عن الأعمش وغيره قال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي وغيره: ليس بثقة. وقال الدارقطني: ضعيف اهـ.

(٢) تعدد هذه الطرق ليس بشيء، فإن شدة ضعف رجالها، يجعلها لا تنجبر بمجموعها، والله تعالى أعلم.

(٣) ضعيف. قال الذهبي في «الميزان» ٥٣٠٥: عبد الواحد عن أبي الدرداء، لا يدرى من ذا، ولا حدث عنه سوى =

وقولُه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾، أي: في جَميع أُمورِكَ، فإنه مُؤيِّدك وناصرُك وحافظُك ومُظفِرُك ومُعْلٍ كلمتك. وقولُه: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾، أي: هو مُعتَنٍ بك، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، قال ابن عباس: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾، يعني: إلى الصلاةِ. وقال عكرمة: يَرى قيامَه وركُوعَه وسُجُوده. وقال الحسنُ: الذي يراك حين تقوم إذا صَلَّيت وحدك. وقال الضحَّاك: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾، أي: من فراشك أو مَجلِسك. وقال قتادةُ: الذي يراك قائماً وجالساً وعلى حالاتِك.

وقولُه تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾، قال قتادةُ ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، قال: في الصَّلاة، يَرَاك وحدَك ويراكَ في الجَمْعِ. وهذا قول عِكْرِمَةَ، وعطاءِ الخُراساني، والحَسَن البَصرِيّ. وقال مجاهد: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يرى من خَلْفه كما يرى من أمامه.

[٥٠٦٥] ويشهد لهذا ما صح في الحديث: «سَوُّوا صُفُوفَكُم فإني أراكُم من وَرَاءِ ظَهري»[1].

وروى البزَّارُ وابنُ أبي حاتم، من طريقين، عن ابن عبَّاس أنه قال في هذه الآية: يعني تَقَلُّبَه من صُلب نَبِيٍّ إلى صُلبِ نَبيّ، حتى أخرجه نَبيّاً. وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾، أي: السميعُ لأقوال عبادِه، العليمُ بحَرَكاتهم وسَكَناتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]. . . الآية.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً لمن زَعَم من المشركين أنَّ ما جاء به الرسولُ ليس حقّاً، وأنه شيءٌ افتعَله من تلقاءِ نفسه، أو أنه أتاه به رَئِيٌّ من الجنّ، فَنَزَّه الله ـ سبحانه ـ جَنَاب رسولِه عن قَولِهم وافترائهم، ونبَّه أن ما جاء به إنما هُو من عند الله، وأنه تنزيلُه ووحيُه، نَزَل به مَلَكٌ كريم عَظيمٌ، وأنه ليس من قَبيل الشياطين، فإنَّهمُ ليس لهم رغبةٌ في مثلِ هذا القرآن العظيم، وإنما يَتَنزَّلون على ما من يشاكلهم ويُشابههم من الكُهَّان الكَذَبة. ولهذا قال الله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾، أي: أُخبرُكم ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾، أي: كَذُوبٍ في قوله، وهو الأفَّاكُ الأثيمُ، أي: الفاجرُ في أفعاله. فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين كالكُهَّان وما جَرَى مَجراهم من الكَذَبة الفَسَقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾، أي: يَسترِقُون السمعَ من السماء، فيسمَعُون الكَلِمة من علم الغيبِ، فَيَزيدون معها مئة كِذْبةٍ، ثم يُلقونها إلى أوليائهم من الإنس فَيَتحدَّثون بها، فَيُصدِّقهم الناسُ في كلِّ ما قالوه، بسبب صِدقهم في تلك الكلمة التي سُمِعت من السماء، كما صَحَّ بذلك الحديثُ.

= محمد بن سوقة اهـ وفيه عمرو بن سمرة لم أجد من ترجمه. وورد من حديث جابر أخرجه ابن عدي ٦/ ٣٦٨ وأعله بأحمد بن المنذر وقد كذبه الفلاس.

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٧١٨ و٧٢٥ ومسلم ٤٣٤ والنسائي ٢/ ٩١ وأحمد ٣/ ٢٨٦ وأبو يعلى ٣٢٩١ وابن حبان ٢١٧٣ من حديث أنس.

[٥٠٦٦] كما رَوَاه البُخاريّ، من حديث الزُهريّ: أخبرني يحيى بن عُروَةَ بن الزبير، أنه سمع عُرْوَةَ ابن الزُبَير يقولُ: قالت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ: سَأَلَ ناسٌ النبي ـ ﷺ ـ عن الكُهان، فقال: إنَّهم ليسوا بشيء. قالوا: يا رسولَ الله، فإنهم يُحَدِّثون بالشيء يكون حقاً؟ فقال النبيُ ـ ﷺ ـ تلك الكلمةُ من الحقِّ يَخطَفُها الجنّي فيُقَرْقِرُها في أُذنِ وَلِيِّه كَقَرْقَرةِ الدجَاجةِ فيخلِطُون معها أكثَرَ من مئة كِذْبةٍ[١].

[٥٠٦٧] وقال البخاري أيضاً: حدثنا الحُمَيدي، حدثنا سفيان، حدثنا عَمرو قال: سَمعت عكرمةَ يقولُ سَمعت أبا هُريرَةَ يقولُ: إن نَبيَّ الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا قَضَى الله الأَمرَ في السماءِ ضَرَبت الملائكةُ بأجنِحَتِها خُضْعَاناً لقوله، كأنَّه سِلْسِلَة على صَفوان، حتى إذا فُزِّع عن قُلُوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحقَّ، وهو العَليُّ الكبيرُ. فَيسمعُها مُسترقو السمْع، ومُسترِقُو السمع ـ هكذا بعضُهم فوقَ بعض ـ ووصَفَ سفيانُ بيَده فَحَرَفَهَا، وبَدَّدَ بين أصابعه ـ فيسمَعُ الكَلمةَ، فَيُلقِيها إلى مَن تَحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحتَه، حتى يُلقِيها على لسانِ السَّاحر ـ أو: الكاهِن. فَرُبَّما أدركَهُ الشهَابُ قبل أن يُلقيهَا، ورُبَّما ألقاهَا قبل أن يُدرِكَه، فَيَكذِبُ معها مئة كذبة. فيقال: أليس قد قال لنا يوم كَذا وكذَا كَذَا وكذا؟ فَيصدَّقُ بتلك الكلمة التي سُمِعَت من السماء»[٢]. انفرد به البخاري. وروى مُسلِمٌ من حديث الزهريِّ، عن علي بن الحُسَين، عن ابن عَبّاس، عن رجالٍ من الأنصار قريباً من هذا. وسيأتي عند قوله تعالى في سبأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾... الآية، إن شاء الله تعالى.

[٥٠٦٨] وقال البُخاريُّ. وقال الليثُ: حدثني خالد بن يَزِيدَ، عن سَعيد بن أَبي هِلاَلٍ: أنا أبا الأسودِ أخبره، عن عُروَةَ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «الملائكةَ تَتحدَّثُ في العَنَان ـ والعَنَان: الغَمَام ـ بالأمر في الأرض، فتسمَعُ الشياطينُ الكَلِمَةَ، فَتَقرُها في أذُنِ الكَاهِن كما تُقَرّ القارُورَةُ، فيزيدون معها مئةَ كِذْبةٍ»[٣]. ورواه البخاري في موضع آخر من كتاب «بدء الخلق» عن سعيد ابن أبي مَرْيَم، عن اللَّيثِ، عن عبد الله بن أبي جَعفرٍ، عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمٰن، عن عُروة، عن عائشة، بنحوه.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني الكفارَ يتبعُهُم ضُلاَّلُ الإنس والجن. وكذا قال مجاهد ـ رحمه الله ـ وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلَمَ، وغيرهما. وقال عِكْرِمَةُ: كان الشاعران يَتَهاجيان، فينتصر لهذا فِئَامٌ من الناس، ولهذا فِئَامٌ من الناس، فأنزل الله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾.

[٥٠٦٩] وقال الإمام أحمدُ: حدثنا قُتَيبةُ، حدثنا لَيثٌ، عن ابن الهاد، عن يُحَنَّس ـ مولى مُصعَبَ ابن الزُبَير ـ عن أبي سَعِيد قال: بينما نَسِير مع رسول الله ـ ﷺ ـ بالعَرْج[٤] إذ عَرَضَ شاعرٌ يُنشدُ، فقال النبي ـ ﷺ ـ: خُذوا الشيطانَ ـ أو: أَمسِكُوا الشيطان ـ لأَنْ يمتلىء جوفُ أحدكم قَيحاً خيرٌ له من أن يمتلىء شِعراً[٥].

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٥٧٦٢ و٦٢١٣ ومسلم ٢٢٢٨ وأحمد ٦/ ٨٧ وابن حبان ٦١٣٦.

(٢) صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٠١ وأبو داود ٣٩٨٩ والترمذي ٣٢٢٣ وابن ماجه ١٩٤ وابن حبان ٣٦.

(٣) صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٨٨.

(٤) العرج: هي قرية جامعة من عمل الفرع على نحو ثمانية وسبعين ميلاً من المدينة.

(٥) صحيح. أخرجه أحمد ٣/ ٨ و٤١ ومسلم ٢٢٥٩.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝﴾، قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: في كلِّ لَغوٍ يَخُوضُونَ. وقال الضَّحاك عن ابن عباس: في كلِّ فَنٍّ من الكلام. وكذا قال مجاهد وغيره. وقال الحسنُ البصريُّ: قد ـ والله ـ رأينا أوديتَهم التي يَهيمُون فيها، مَرَّة في شَتْمَةِ فلان، ومرة في مِدْحَةِ فُلان. وقال قتادةُ: الشاعرُ يَمدح قوماً بباطل، ويذمّ قوماً بباطل. وقولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝﴾، قال العَوفيُّ، عن ابن عباس: كان رجلانِ على عهد رسول الله، أحدُهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وإنّهما تهاجيا، وكان مع كلِّ واحد منهما غُواة من قومه ـ وهم السفهاء ـ فقال الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝﴾. وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: أكثرُ قولهم يَكذِبُون فيه. وهذا الذي قاله ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ هو الواقع في نفسِ الأمر، فإن الشعراء يَتَبجّحون بأقوالٍ وأفعالٍ لم تصدُر منهم، ولا عنهم، فيتَكثَّرون بما ليس لهم. ولهذا اختلف العلماء ـ رَحِمهم الله ـ فيما إذا اعترفَ الشاعِرُ في شعره بما يُوجِب حَدّاً: هل يُقَام عليه بهذا الاعتراف أم لا؟ لأنهم يقولونَ ما لا يفعلون، على قولين. وقد ذَكَرَ محمد بن إسحاق، ومحمد بن سَعد في الطبقات، والزبَير بن بَكّار في كتاب الفكاهة: أنّ أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب ـ رَضِي الله عنه ـ استعمل النعمانَ بنَ عَدِيِّ بن نضلةَ على «مَيسان» ـ من أرض البَصرة ـ وكان يقول الشعر، فقال:

ألاَ هَـل أتَـى الـحَـسْـنَـاءَ أنّ حَـلِـيـلَـهـا ... بِـمَـيْـسَـانَ، يُـسقَـى فـي زُجـاجٍ وَحَـنْـتَـمِ[١]

إذَا شِـئـتُ غَـنَّـتْـنِـي دَهـاقِـيـنُ قَـرْيَـةٍ ... وَرَقّـاصَـةٌ تَـجْـذُو عـلـى كـل مَـنْـسِـمِ[٢]

فـإنْ كُـنـتَ نَـدْمـانِـي فَـبـالأكْـبَـرِ اسْـقِـنـي ... وَلاَ تَـسْـقِـنـي بـالأصْـغَـرِ الـمُـتَـثَـلّـمِ

لَـعَـلّ أمِـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ يَـسُـوؤه ... تَـنَـادُمُـنَـا بـالـجَـوْسَـقِ الـمُـتَـهَـدّمِ[٣]

فلما بلغ ذلك أميرَ المؤمنين قال: إي والله، إنّه ليسُوؤني ذلك، ومَن لَقِيه فَلْيُخبره أني قد عَزَلتُه. وكتب إليه عمر: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝﴾ [غافر: ١ ـ ٣]، أما بعد فقد بلغني قولك:

لَـعَـلّ أمِـيـرَ الـمُـؤمـنـيـنَ يَـسُـوؤهُ ... تَـنَـادُمُـنَـا بـالـجَـوْسَـقِ الـمُـتَـهَـدّمِ

وَايمُ اللهُ إنه ليسوؤني وقد عزلتك. فلما قَدِم على عُمَر بَكّتَه بهذا الشعر، فقال: والله ـ يا أمير المؤمنين ـ ما شَرِبتُها قَطُّ، وما ذاكَ الشِعرُ إلا شَيءٌ طَفَح على لِسَاني. فقال عُمَر: أظنُّ ذلك، ولكن والله لا تَعمَلُ لي على عَمَلٍ أبداً وقد قُلتَ ما قلتَ! فلم يذكر أنه حَدّه على الشراب، وقد ضَمّنه شعره، لأنهم يقولُون ما لا يفعلون، ولكنه ذَمّه عمر ـ رضي الله عنه ـ ولامَه على ذلك وعزله به.

[٥٠٧٠] ولهذا جاء في الحديث: «لأن يمتلىءَ جوفُ أحدِكم قَيحاً يَريه خيرٌ له من أن يمتلىءَ شِعراً»[٤].

والمرادُ من هذا أنّ الرسول الله ـ ﷺ ـ الذي أُنزِل عليه القرآنُ ليس بكاهن ولا بشاعرٍ، لأنّ حاله منافٍ

---

(١) الحنتم: الجرة الخضراء.

(٢) الدُّهقان: رئيس القرية. وتجذو: تنتصب. والمنسم: طرف خف البعير، وهنا استعارة لأطراف أصابع قدمي الرقاصة.

(٣) الجوسق: القصر.

(٤) صحيح. أخرجه مسلم ٢٢٥٨ والترمذي ٢٨٥٦ وابن ماجه ٣٧٦٠ وأحمد ١/ ١٧٤ و١٧٧ وأبو يعلى ٧٩٧ من حديث سعد بن أبي وقاص. وورى القيح جسده: أفسده.

لحالهم من وُجوهٍ ظاهرةٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٣]. وهكذا قال تعالى هاهنا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ . . . إلى أن قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾، إلى أن قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

[٥٠٧١] قال محمد بن إسحاقَ، عن يزيدَ بن عبد الله بن قُسَيط، عن أبي الحسن سالم البرّاد مولى تَميم الداريّ قال: لما نزلت: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾، جاء حَسّان بنُ ثابتٍ، وعبد الله بن رَوَاحَةَ، وكعبُ بن مالك إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ وهم يَبكون فقالوا: قد عَلِم الله حين أنزل هذه الآية أنّا شعراء. فتَلا النبي ـ ﷺ ـ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال: أنتم، ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، قال: أنتم، ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾، قال: أنتم[1]. رواه ابنُ أبي حَاتمٍ وابنُ جرير، من رواية ابن إسحاقَ.

[٥٠٧٢] وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً، عن أبي سعيد الأشجّ، عن أبي أُسَامة، عن الوَليد بن كثير، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي الحسنِ مولى بني نَوفلٍ: أن حَسّان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحة أتيا رسول الله ـ ﷺ ـ حين نزلت ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ يبكيان، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ وهو يَقرؤها عليهما: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ حتى بلَغ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال: أنتم[2].

[٥٠٧٣] وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عُروَةَ، عن عُروَةَ قال: لما نَزلت: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾، إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، قال عبد الله بن رَوَاحة: يا رسولَ اللهِ قد علم الله أنّي منهم. فأنزل الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿يَنقَلِبُونَ﴾[3]. وهكذا قال ابنُ عباس، وعكرمةُ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وزيدُ بنُ أسلَمَ، وغيرُ واحد أن هذا استثناءٌ مما تقدم، ولا شك أنه استثناءٌ، ولكنّ هذه السورةَ مكيّةٌ، فكيف يكون سببُ نزول هذه الآية في شعراء الأنصار؟ في ذلك نظرٌ، ولم يتقدّم إلا مُرسَلاتٌ لا يُعتمَدُ عليها، والله أعلم، ولكن هذا الاستثناء يدخُل فيه شعراء الأنصار، وغيرهم، حتى يدخل فيه من كان مُتلَبِّساً من شُعَراءِ الجاهليّةِ بِذَمِّ الإسلام وأهلِهِ، ثم تاب وأنابَ، ورجَعَ وأقلَعَ، وعَمِلَ صالحاً، وذَكَر الله كثيراً في مُقابلة ما تَقَدَّم من الكلام السيِّىءِ، فإنّ الحسناتِ يُذهِبنَ السيِّئاتِ، وامتَدَحَ الإسلام وأهلَه في مقابلة ما كانَ يَذُمُّه، كما قال عبد الله ابن الزِّبَعْرى حين أسلم:

يَا رَسُولَ المَلِيكِ، إنَّ لِسَانِي ... رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ
إذْ أُجَارِي الشَّيْطانَ في سَنَنِ الغَـ ... ـيِّ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

---

(١) ضعيف. أخرجه الطبري ٢٦٨٤٨ عن سالم البراد، وهو مرسل، وفيه عنعنة ابن إسحق، والمتن غريب، فالسورة مكية، والخبر مدني.

(٢) ضعيف. هو مرسل، وانظر ما بعده.

(٣) هو مرسل أيضاً.

وكذلك أبو سفيان بنُ الحارثِ بن عبد المطلب، كان من أشدِّ الناس عداوةً للنبي ـ ﷺ ـ وهو ابن عمه وأكثرهم له هجواً، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ، وكان يمدح رسول الله ـ ﷺ ـ بعد ما كان يهجوه، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه.

[٥٠٧٤] وهكذا رَوَى مُسلِمٌ في صَحِيحه، عن ابن عباس: أن أبا سفيان صَخْرَ بن حَرْبٍ لما أسلم قال: يا رسول الله؟ ثلاثٌ أعْطِنيهنّ. قال: نعم. قال: معاويةُ تجعله كاتباً بين يديكَ. قال: نعم. قال: وتُؤَمِّرني حتى أُقاتِلَ الكفار، كما كنتُ أقاتِلُ المسلمين. قال: نعم. وذكر الثالثةَ[١]. ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، قيل: معناه ذَكَروا الله كثيراً في كلامهم. وقيل: في شِعرهم، وكلاهُما صحيح مُكَفِّر لما سبق.

وَقَولُه تعالىٰ: ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾، قال ابن عباس: يَرُدُّون على الكفار الذين كانوا يَهجُون به المؤمنينَ. وكذا قال مجاهدٌ، وقتادةُ، وغير واحد.

[٥٠٧٥] وهذا كما ثبت في الصحيح: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لحسان: «اهْجهم ـ أو قال: هاجِهم ـ وجبريلُ معك»[٢].

[٥٠٧٦] وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزّاقِ، حدثنا معْمَرٌ، عن الزُّهرِيِّ، عن عبد الرحمٰن بن كعب بن مالك، عن أبيه أنه قال للنبي ـ ﷺ ـ: إن الله ـ عزّ وجلّ ـ قد أنزل في الشعرِ ما أنْزَلَ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن المؤمنَ يُجاهِد بسيفه ولِسانِهِ، والذي نفسِي بيده لَكَأَنَّ ما ترمُونهم به نَضْحُ النَّبْلِ»[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥٢].

[٥٠٧٦ م] وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إيّاكم والظلمَ، فإنَّ الظلم ظلماتٌ يومَ القيامة»[٤]. وقال قتادةُ بن دِعامَةَ في قوله تعالىٰ: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، يعني من الشعَراءِ وغيرهم.

وقال أبو داود الطيَالسيُّ: حدثنا إياس بن أبي تَميمَةَ، قال: حَضَرتُ الحسنَ وَمُرَّ عليه بجنازةِ نَصرانيٍّ، فقال الحسنُ: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾. وقال عبد الله بن رَبَاح، عن صَفوانَ بن مُحْرز: أنه كان إذا قرأ هذه الآية بَكَى حتى أقول: قد اندقّ قضيب زوره[٥]: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

وقال ابنُ وهب: أخبرني ابن سُرَيج الإسكندراني، عن بعض المشيَخَةِ: أنهم كانُوا بأرض الرُّوم، فبينما هم ليلة على نار يَشْتَوُونَ عليها ـ أو: يَصْطَلُونَ ـ إذا بركبانٍ قد أقبلُوا، فقاموا إليهم، فإذا فَضالة بن عُبيد فيهم، فأنزلوه فَجَلس معهم ـ قال: وصاحبٌ لنا قائم يُصَلِّي ـ قال: حتى مَرّ بهذه الآية: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، قال فضالة بن عُبَيد: هؤلاء الذين يُخربُون البيت. وقيل: المُرادُ بهم أهلُ مكّة. وقيل: الذين ظَلَمُوا من المشركين. والصحيح أن هذه الآية عامةٌ في كلِّ ظالمَ.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٠١.

(٢) تقدم في تفسير سورة البقرة عند الآية: ٨٧.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد ٦/ ٣٨٧ والبيهقي ١٠/ ٢٣٩ وابن حبان ٥٧٨٦ وإسناده صحيح على شرطهما.

(٤) تقدم في تفسير سورة طه عند الآية: ١١.

(٥) الزّور: وسط الصدر.

[٥٠٧٧] كما قال ابنُ أبي حاتم: ذُكر عن زكريا بن يحيى الواسطي: حدثني الهيثم بن محفوظ أبو سَعْدٍ النَّهْدِي، حدثنا محمد بن عبد الرحمٰن بن المُجَبَّر، حدثنا هشام بن عُروَة، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كَتَبَ أبي في وَصِيَّته سَطرين: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة، عند خُروجه من الدنيا، حين يُؤمن الكافِرُ، وينتهي الفاجِرُ، ويَصدُق الكاذب: أنِّي استخلفتُ عليكم عُمَر بنَ الخطاب، فإن يعدِلْ فذاك ظَنِّي به، ورجائي فيه، وإن يجر ويُبَدِّل فلا أعلَمُ الغيبَ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

آخر تفسير سورة الشُّعراء، والحمدُ لله ربِّ العالمين

(١) موقوف ضعيف. فيه محمد بن عبد الرحمن العمري، وهو ضعيف.



وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾

قد تقدَّم الكلامُ في «سُورةِ البَقرةِ» على الحُروفِ المُقطَّعةِ في أوائِلِ السوَرِ. وقَولُه تعالىٰ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ﴾، أي: هذه آياتُ ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾، أي: بيِّن واضح، ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾، أي: إنما تحصلُ الهدايةُ والبشارةُ من القرآن لمن آمنَ به واتَّبعه وصدَّقه، وعَمِل بما فيه، وأقام الصلاةَ المكتوبةَ، وآتى الزكاة المفروضة، وأيقَن بالدار الآخرة والبَعثِ بعد الموتِ، والجزاءِ عن الأعمالِ، خَيرِها وشرِّها، والجنَّةِ والنارِ، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال تعالىٰ: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ [مريم: ٩٧]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: يُكذِّبون بها، ويستبعدون وقوعها. ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾، أي: حسَّنا لَهُم ما هُم فيه، ومَدَدنا لهم في غيِّهم فهم يَتيهُونَ في ضَلالِهم. وكان هذا جزاءً على ما كَذَّبوا به منَ الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾، أي: في الدنيا والآخرة، ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾، أي: ليس يخسَر أنفسَهم وأموالَهم سِواهُم من أهل المَحشَرِ. وقَولُه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾، أي: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا مُحمَّد، قال قتادةُ: ﴿لَتُلَقَّى﴾، أي: لَتأخذُ ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، أي: من عندِ حَكيم عليم، أي: حَكيم في أوامِره ونواهِيه، عليم بالأمور جليلها وحقيرِها، فخَبره هو الصِدقُ المحضُ، وحُكمُه هو العدلُ التامُّ، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ

﴿١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى لرسولِه ـ ﷺ ـ مُذَكِّراً له ما كان من أَمرِ مُوسَى، كيفَ اصطفاه الله وكَلَّمه، وناجاه وأعطاه من الآياتِ العظيمةِ الباهرةِ، والأدلّة القاهرةِ، وابتعثه إلى فرعونَ ومَلَئِهِ، فَجَحَدوا بها وكَفَرُوا واستكبرُوا عن اتباعه والانقيادِ له، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾، أي: اذكر حين سار موسى بأهله، فأضلَّ الطريقَ، وذلك في ليل وظلام، فآنس من جانِب الطُورِ ناراً، أي: رأى ناراً تأجّجُ وتضطرمُ، فقال: ﴿لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، أي: عن الطريق، ﴿أَوْ ءَاتِيكُم﴾، منها ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، أي: تَتَدفَّئُون به. وكان كما قال، فإنه رَجَع منها بخبرِ عظيم، واقتبسَ منها نُوراً عَظِيماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: فلما أتاها رَأى مَنظراً هائلاً عظيماً، حيث انتهى إليها، والنارُ تضطرم في شجرةٍ خضراءَ، لا تزدادُ النارُ إلا تَوقُّداً، ولا تزدادُ الشجرةُ إلا خضرةً ونَضرَةً، ثم رَفَ رأسه فإذا نورُها مُتّصل بعَنَانِ السماء. قال ابنُ عباس، وغيرُه: لم تكن ناراً، إنما كانت نُوراً يَتَوَهّج. وفي رواية عن ابن عباس: نورُ ربِّ العالمين. فوقف موسى مُتعجّباً مما رأى، فَنُودِي: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، قال ابن عباس: قُدّس. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، أي: من الملائكة. قاله ابنُ عباس، وعِكْرِمَةُ، وسعيدُ بن جُبَير، والحسنُ، وقتادةُ.

[٥٠٧٨] وقال ابن أبي حاتم: حَدّثنا يُونُس بن حَبِيب، حدثنا أبو داودَ ـ هو الطيَالسي ـ حدثنا شُعبة والمَسعودِيُّ عن عمرو بن مُرّة، سمع أبا عُبَيدة يُحدِّث، عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يَخفِضُ القِسْطَ ويرفَعُهُ، يُرفَع إليه عملُ الليل بالنهار، وعَمَلُ النَّهارِ بالليل ـ زاد المسعودي: وحجابه النّارُ، لو كَشَفها لأحرقَت سُبُحات وَجْهه كلَّ شيءٍ أدركه بصرُه. ثم قرأ أبو عُبَيدة: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[1]. وأصلُ هذا الحديثِ مُخرّجٌ في الصحيح لمسلم، من حديث عَمرو بن مُرّة، بهِ. وَقولُه تعالىٰ: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: الذي يفعلُ ما يشاءُ ولا يُشبِهُ شيئاً من مخلوقاتِه، ولا يُحيطُ به شيءٌ من مَصنوعَاته، وهو العليُّ العظيمُ، المباينُ لجميعِ المخلوقاتِ، ولا يكتنفه الأرضُ والسمواتِ، بل هو الأحدُ الصمدُ، المنزّه عن مُماثَلةِ المحدثاتِ.

وَقولُه تعالىٰ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أعلَمَه أنَّ الذي يُخاطِبه ويُناجيه هو ربُّه الله ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، الذي عَزّ كلَّ شيءٍ وقهره وغلبه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعالِه وأقوالِه. ثم أمره أن يُلقِيَ عصاه من يَدِه لِيُظهِر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار، القادرُ على كلِّ شيءٍ. فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلَبَتْ في الحال حَيّةً عظيمة هائلةً في غاية الكِبَر، وسُرعَةِ الحركة مع ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، والجانُّ: ضَربٌ من الحيّاتِ، أَسرَعُه حركةً، وأكثرُه اضطراباً ـ وفي الحديثِ نَهيٌ عن قَتْلِ جِنّانِ البيوت[2] ـ فلما عاين مُوسَى ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، أي: ولم يَلتفت من شدّة فرقه، ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ

---

(١) رجاله ثقات غير المسعودي فإنه اختلط، وتقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ٢٥٥.

(٢) متفق عليه، وتقدم.

﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، أي: لا تخف مما ترى، فإني أُريدُ أن أصطفيك رسولاً وأجعلكَ نبياً وجيهاً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أنَّ من كان على شيءٍ ثم أقلعَ عنه، ورَجَع وأناب، فإن الله يتوبُ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠]. والآياتُ في هذا كثيرةٌ. وقولُه تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، هذه آيةٌ أُخرى، ودليلٌ باهرٌ على قُدرةِ الله الفاعل المختار، وصِدقِ مَن جعل له مُعجزةً، وذلك أن الله ـ تعالى ـ أمره أن يُدخِلَ يَدَه في جيب دِرْعه، فإذا أدخلها وأخرجها خَرجت بيضاء ساطعةً، كأنها قطعةُ قَمَرٍ لها لَمَعانٌ يتلألأ كالبرق الخاطِفِ. وقولُه تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾، أي: هاتان ثنتانِ من تسعِ آياتٍ أُؤيدك بِهِنَّ، وأجعلهن بُرهَاناً لك إلى فِرْعَونَ وقومِه، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

وهذه هي الآياتُ التسعُ التي قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] كما تقدم تقريرُ ذلك هنالك. وقولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي: بَيِّنة واضحةً ظاهرة ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وأرادوا مُعَارضته بسحرهم ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩]، ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾، أي: في ظاهر أمرهم ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾، أي: عَلِموا في أنفسهم أنها حَقٌّ من عند الله، ولكن جَحَدُوها وعاندوها وكابروها، ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، أي: ظُلماً من أنفسهم، سَجيَّةً ملعونةً، ﴿وَعُلُوًّا﴾، أي: استكباراً عن اتباع الحق. ولهذا قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، أي: انظر ـ يا محمد ـ كيف كان عاقبةُ أمرهم في إهلاكِ الله إيَّاهم، وإغراقِهم عن آخِرهم في صَبيحةٍ واحدةٍ. وفحوى الخطاب يقول: احذَرُوا أيها المكذبون بمحمد، الجَاحِدُون لما جاء به من رَبِّه، أن يُصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى؛ فإنَّ محمداً ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أشرفُ وأعظَمُ من موسى، وبُرهانُه أدلُّ وأقوى من برهان مُوسَى، بما آتاه الله من الدلائلِ المُقترنةِ بوُجودِه في نفسه وشمائله، وما سَبَقه من البشاراتِ من الأنبياء به، وأخذِ المواثيق له عليهم، عليه من رَبِّه أفضلُ الصلاة والسلام.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبدَيه ونَبِيَّيه داودَ وابنه سليمانَ ـ عليهما من الله السلامُ ـ من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمَعَ لهما بين سعادةِ الدنيا والآخرة، والمُلك والتمكين التامّ في الدنيا، والنبوّة والرسالةِ في الدِّين، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. قال ابن أبي حاتم: ذُكر عن إبراهيم بن هشام بن يحيى: أخبرني أبي، عن جَدِّي قال: كتب عمر بن عبد العزيز: إن الله لم يُنعِم على عَبدٍ نعمةً فحمِد الله عليها إلا كان حَمْدهُ أفضلَ من نِعمَتِه، لو كنتَ لا

تعرفُ ذلك إلا في كتاب الله المنزل؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فأيُّ نعمة أفضلُ مما أُوتي داودُ وسليمانُ عليهما السلام.

وَقولُه تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾، أي: في المُلك والنبوّةِ، وليس المرادُ وِراثَةَ المالِ، إذ لو كان كذلك لم يَخُصَّ سليمانَ وحدَه من بين سائر أولادِ داودَ، فإنه قد كان لداودَ مئةُ امرأةٍ. ولكن المرادَ بذلك وراثةُ المُلك والنبوّةِ؛ فإن الأنبياءَ لا تُورَث أموالهم.

[٥٠٧٩] كما أخبر بذلك رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «نحن معشر الأنبياءِ لا نُورَث، ما تركنا فهو صَدَقةٌ»[1].

وَقولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾، أي: أخبرَ سُليمان بنعم الله عليه، فيما وَهَبه له من الملك التام، والتَّمكِين العظيم. حتى إنه سَخَّر له الإنسَ والجنَّ والطيرَ. وكان يعرفُ لغةَ الطير والحَيَوان أيضاً، وهذا شيءٌ لم يُعطَه أحدٌ من البشر ـ فيما عَلِمناه ـ مما أخبر الله به ورسوله. ومن زَعَم من الجهلَة والرَّعَاع أنّ الحيوانات كانت تنطِق كنُطقِ بني آدمَ قبل سُليمانَ بن داود كما قد يتفوه به كثير من الناس فهو قول بلا علم ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدةٌ، إذ كلُّهم يسمَع كلام الطيور والبهائم، ويَعرِف ما تقول، فليس الأمرُ كما زَعَموا ولا كما قالوا، بل لم تزل البهائمُ والطيور وسائر المخلوقاتِ من وقتِ خُلِقت إلى زَمانِنا هذا على هذا الشكل والمنوال. ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان قد أفهمَ سُلَيمانَ ـ عليه السلام ـ ما يتخاطَبُ به الطيور في الهَواء، وما تَنطِق به الحيواناتُ على اختلاف أصنافها، ولهذا قال تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾، أي: مما يَحتاجُ إليه المُلكُ، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: الظاهرُ البيِّن لله علينا.

[٥٠٨٠] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا قُتَيبةُ، حدثنا يعقُوب بن عبد الرحمن، عن عَمرو بن أبي عمرو، عن المُطَّلب، عن أبي هُرَيرَة ـ رَضِي الله عنه: أنَّ رَسُول الله ـ ﷺ ـ قال: كان داودُ ـ عليه السلام ـ فيه غَيرةٌ شديدةٌ، فكان إذا خَرَجَ أُغلقت الأبوابُ، فلم يَدخُل على أهلِه أحد حتى يرجع. قال: فخرج ذاتَ يوم وأُغلِقَت الأبوابُ، فَأَقبلتِ امرأةٌ تطَّلِعُ إلى الدار، فإذا رجلٌ قائم وَسَطَ الدار، فقالت لمن في البيتِ: مِنْ أين دَخَل هذا الرجلُ، والدارُ مغلقة؟ والله لَنَفْتَضِحَنَّ بداود، فجاء داود ـ عليه السلام ـ فإذا الرجُل قائمٌ وسَطَ الدار، فقال له داود: من أنتَ؟ قال: الذي لا يَهاب المُلوك ولاَ يَمتنِع من الحُجَّاب. فقال داود: أنت والله إذاً مَلَكُ الموتِ! مَرْحَباً بأمر الله، فتَزمَّل داود ـ عليه السلام ـ مكانه حتى قُبِضت نفسُه، حتى فُرِغ من شأنه وَطَلعت عليه الشمسُ، فقال سليمان ـ عليه السلام ـ للطير: أظلي على داود. فأظلت عليه الطيرُ حتى أظلمت الأرض، فقال لها سليمان: اقبِضِي جَناحاً جناحاً ـ قال أبو هُرَيرَةَ: يا رَسُول الله، كيف فَعَلتِ الطيرُ؟ فقبض رسولُ الله ـ ﷺ ـ يَدَه ـ وغَلَبت عليه يومئذٍ المضرَحِيَّة[2]. قال أبو الفرج بنُ الجَوْزِيِّ: المَضرَحيّة: النُّسور الحُمْرُ.

وقولُه تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، أي: وجُمع لسليمان جنودُه من الجنّ والإنسِ والطَيرِ. يعني رَكِب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة، في الإنس وكانوا هم الذين يَلُونَه، والجنّ

(١) تقدم عند الآية: ٥ من سورة مريم.

(٢) أخرجه أحمد ٤١٩/٢ وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢٠٧/٨ وقال: وفيه المطلب بن حنطب، وثقه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ قلت: هو معلول: عمرو، وإن روى له الشيخان لكن فيه ضعف، وعنده مناكير، وشيخه ثقة لكن عامة روايته عن الصحابة مراسيل، ولم يذكر سماعاً.

وهم بعدَهم في المنزلةِ، والطير ومَنزلتُها فوقَ رأسِه، فإن كان حَرٌّ أظلته منه بأجنحتها. وَقولُه: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، أي: يَكُفُّ أوّلُهم على آخِرِهم، لئِلاَّ يَتقدَّم أحدٌ عن مَنزِلَتِهِ التي هي مَرْتَبَةٌ له. قال مجاهد: جُعِل على كل صنف وَزَعَة، يردُّون أُولاها على أُخراها، لئلا يَتقدَّموا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم.

وَقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾، أي: حتى إذا مَرَّ سليمان ـ عليه السلام ـ بمن مَعَه من الجُيوش والجنود على وادي النمل، ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾. أورد ابن عساكِرَ، من طريق إسحاق بن بشر، عن سعيد، عن قتادةَ، عن الحسن: أنَّ اسمَ هذه النملة حرس، وأنها من قَبيلة يقال لهم: بنو الشَّيصَانِ، وأنها كانت عرجاءَ، وكانت بِقَدْرِ الذِّيبِ. أي: خافت على النَّمل أن تحطِمَها الخيول بحوافرها، فَأمَرَتْهم بالدخول إلى مساكنها، فَفَهِم ذلك سليمانُ ـ عليه السلام ـ منها، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾، أي: ألهمني أن أشكُرَ نِعمتَكَ التي مَنَنتَ بها عليَّ، من تعليمي منطقَ الطير والحيوانِ، وعلى والديَّ بالإسلام والإيمان بك، ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾، أي: عَمَلاً تُحبُّه وترضَاه، ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: إذا تَوفَّيتني فَألحِقْني بالصَّالِحين من عبادِكَ، والرفيق الأعلَى من أوليائك. ومن قال من المفسرين: إنَّ هذا الوادِيَ كان بأرضِ الشام أو بغيره، وأن هذه النملَة كانت ذات جَناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصِلَ لها. وعن نَوفِ البَكَالِيِّ أنه قال: كان نملُ سُليمان أمثالَ الذيَاب. هكذا رأيتُه مضبوطاً بالياء المثنَّاةِ من تحت. وإنما هو بالباء المُوَحَّدة. وذلك تصحيفٌ، والله أعلم. والغرضُ أن سُلَيمانَ ـ عليه السلامُ ـ فَهِم قولها، وتَبَسَّم ضاحكاً من ذلك، وهذا أمرٌ عظيمٌ جداً.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أنبأنا مِسْعَر، عن زيد العَمّي، عن أبي الصِّدِّيق النَّاجي قال: خرج سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ يَسْتَسقِي، فإذا هُو بِنَملة مُستَلقِيَةٍ على ظَهرِهَا رافعةٍ قوائمَها إلى السَّماءِ، وهي تقولُ: اللَّهُمَّ، إنا خَلْقٌ من خَلْقِكَ، ولا غنى بِنَا عن سُقْيَاك، وإلا تَسقِنا تُهلِكنَا. فقال سُليمان ـ عليه السلام ـ: ارجعُوا فقد سُقِيتُم بدعوةِ غيرِكم.

[٥٠٨١] وقد ثبت في الصَّحيح ـ عند مُسلم ـ من طريق عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن هَمَّام، عن أبي هُريرَةَ، عن النبي ـ ﷺ ـ: قَرَصَت نَبِيّاً من الأنبياء نملةٌ، فأمر بقرية النمل فَأُحرِقَت، فأوحى الله إلَيه، أفي أن قَرَصتك نَملةٌ أهلكت أمة من الأمم تُسَبِّح؟ فهلاّ نملةً واحدة[1]!.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝٢١﴾

قال مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وغيرُهما، عن ابن عَبَّاس وغيره: كان الهدهدُ مهندساً، يَدُلُّ سليمان ـ عليه السلام ـ على الماء ـ إذا كان بأرض فَلاَةٍ طَلَبه فنظرَ له الماء في تُخوم الأرض، كما يَرَى الإنسانُ الشيءَ الظاهرَ على وجهِ الأرضِ، ويعرف كَم مساحةَ بُعدِه من وجهِ الأرض، فإذا دَلَّهم عليه أَمَر سليمان ـ عليه السلام ـ الجانَّ فَحفَرُوا له ذلك المكانَ، حتى يستنبط الماءَ من قَراره، فنزلَ سليمانُ ـ عليه السلام ـ يوماً بفلاةٍ من الأرض ـ فَتَفَقَّد الطير لِيرى الهُدهُدَ، فلم يَرَه ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾. حَدَّث

---

(١) صحيح. أخرجه البخاري ٣٣١٩ ومسلم ٢٢٤١ وأبو داود ٥٢٦٦ النسائي ٧/ ٢١٠ ـ ٢١١ وابن ماجه ٣٢٢٥ وأحمد ٢/ ٣١٣ و٤٤٩ وابن حبان ٥٦١٤.

يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجلٌ من الخوارج، يقال له «نافع بن الأزرق»، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: قف يا ابنَ عباس، غُلِبت اليومَ! قال: وَلِمَ؟ قال: إنك تُخبِر عن الهُدهد أنه يرى الماءَ في تُخوم الأرضِ، وإنَّ الصبيَّ ليضع له الحبَّة في الفَخّ، ويحثو على الفَخّ تُراباً، فيجيء الهدهد ليأخُذها فيقَع في الفخِّ، فيَصِيده الصبيُّ. فقال ابن عباس: لولا أن يذهَبَ هذا فيقولَ: رددتُ على ابن عباس، لما أجبتُه. ثم قال له: ويحَكَ! إنه إذا نَزَل القَدَر عَمِي البَصَرُ، وذَهَبَ الحَذَر. فقال له نافع: والله لا أُجادِلُك في شيء من القرآن أبداً.

وقد ذكر الحافِظ ابنُ عساكر في ترجمة أبي عبد الله البَرْزيّ ـ من أهل «بَرْزَة» من غُوطَةِ دمشق، وكان من الصالحين يصومُ الاثنين والخميس، وكان أعوَر قد بلغ الثمانين ـ فَرَوى ابنُ عساكر بسَنَدِه إلى أبي سليمان بن زيد: أنه سأله عن سَبَب عَوَره، فامتنع عليه، فألحَّ عليه شهوراً، فأخبره أن رَجُلين من أهل خُراسان نزلا عنده جُمعةً في قرية بَرْزَة، وسألاه عن وادٍ بها، فأريتهما إياه، فأخرجا مجامرَ وأوقدا فيها بخوراً كثيراً، حتى عَجْعَج الوادي بالدُّخان، فأخذا يَعزمان[١] والحياتُ تُقبِل من كلِّ مكانٍ إليهما، فلا يلتفتان إلى شيءٍ منها، حتى أقبلت حَيَّةٌ نحو الذِّراع، وعيناها تُوقِدان مثل الدِّينار. فاستبشرا بها عَظِيماً، وقالا: الحمدُ لله الذي لم يُخَيِّب سَفَرنا من سَنَةٍ، وكَسَرا المجامر، وأخذا الحيَّةَ فأدخلا في عَينِها مِيلاً فاكتحلا به، فَسَألتُهما أن يَكْحَلاني، فأبيا، فَألْحَحْتُ عليهما وقلتُ: لا بدَّ من ذلك، وتوعَّدتُهما بالدَّولة[٢]، فَكَحَلا عيني الواحدةَ اليُمنى، فحين وَقع في عيني نظرتُ إلى الأرض تحتي مثل المرآةِ، أنظُر ما تحتها كما تُرى المرآة، ثم قالا لي: سِرْ معنا قليلاً، فَسِرتُ معهما وهما يحدثاني، حتى إذا بَعُدت عن القريةِ أخذاني فَكَتَّفاني، وأدخَل أحدُهما يَدَه في عَيني فَفَقَأها، وَرَمَى بها ومَضَيا. فلم أزل كذلك مُلقىً مكتوفاً، حتى مَرَّ بي نَفَرٌ ففكَّ وَثَاقِي. فهذا ما كان من خَبَرِ عَيني[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا هشام بن عَمَّار، حدثنا صَدَقَةُ بن عَمْروٍ الغَسَّاني، حدثنا عَبَّاد بن مَيْسَرَة المِنقَري، عن الحَسَن قال: اسم هُدهُدِ سليمانَ عليه السلام: عنبر. وقال محمد بن إسحاق: كان سليمانُ ـ عليه السلام ـ غدَا إلى مجلسِهِ الذي كان يجلِس فيه، فَتَفقَّد الطيرَ، وكان فيما يزعُمون يأتيه نُوَبٌ من كلِّ صنفٍ من الطير، كلَّ يوم طائر، فنظر فرأى من أصنافِ الطير كُلِّها من حَضَره إلا الهُدهُدَ، ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، أخطأه بَصَري من الطير، أم غاب فلم يحضر.

وقولُه تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، قال الأعمشُ، عن المِنهَالِ بن عمرو، عَن سَعيدِ، عن ابن عباس: يعني نَتْفَ رِيشِه. وقال عبد الله بن شَدَّاد: نتفُ ريشه وتَشمِيسُه. وكذا قال غيرُ واحدٍ من السلف: إنه نَتفُ ريشه، وتَركه مُلقًى يأكله الذَّرُّ[٤] والنمل. وقولُه: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾، يعني: قَتْلَه، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بِعُذرٍ واضحٍ بيِّن. وقال سُفيان بن عُيينة، وعبد الله بن شدَّاد، لما قَدِم الهُدهُد قالت له الطير: ما خَلَّفَكَ، فقد نَذَر سُليمانُ دَمَك؟ فقال: هل استثنى؟ فقالوا: نعم، قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾، فقال: نجوتُ إذاً. قال مجاهد: إنما دَفَع الله عنه بِبرِّه بأُمِّه.

---

(١) يعزمان: يقرآن العزائم، أي الرُّقى.

(٢) الدولة: انقلاب الزمان، أي توعدهما بأنه سيغضب عليهما إذا تمكّن منهما.

(٣) لم يذكر المصنف إسناد ابن عساكر، والظاهر أنه عن مجاهيل، بل راويه غير معروف، والخبر عجيب بل هو موضوع.

(٤) الذر: صغار النمل.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ۝٢٦﴾

يقول تعالى: ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، أي: غاب زماناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، أي: اطَّلعت على ما لم تَطَّلع عليه أنتَ ولا جنودُك، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، أي: بخبرِ صِدْقٍ حَقٍّ يقينٍ. وسَبأ: هم حِميرُ، وهم ملوكُ اليمن. ثم قال: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، قال الحسنُ البصري: وهي بلْقِيسُ بنتُ شَراحِيلَ ملكةِ سَبأ. وقال قتادةُ: كانت أمُّها جِنية، وكان مُؤخرُ قَدَميها مثلَ حافرِ الدابةِ، من بَيْتِ مَمْلَكةٍ. وقال زُهير بن محمد: هي بِلْقِيسُ بنتُ شَراحِيلَ بن مالك بن الريَّانِ، وأمها فارعةُ الجِنِّيَّة. وقال ابن جُرَيج: بِلْقِيسُ بنتَ ذي شَرَخ، وأمها بلتقة.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا مُسَدَّد، حدثنا سُفيان ـ يعني ابن عُيينة ـ عن عطاء بن السائب، عن مجاهِد، عن ابن عَبَّاسٍ قال: كان مع صاحبةِ سُلَيمان ألفُ قَيْل[1]، تحت كل قَيْل مئةُ ألفِ مقَاتلٍ. وقال الأعمش، عن مُجاهِدٍ: كان تحتَ يَدَي مَلِكة سَبأ اثنا عشَر ألفَ قَيْل، تحتَ كلِّ قَيْل مئةُ ألفِ مقاتلٍ. وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرٌ، عن قتادةَ في قوله: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، كانت من بَيتِ مَمْلَكةٍ، وكان أُولو مشورتها ثلاثمئةٍ واثني عَشَر رجلاً، كلُّ رجل منهم على عشرة آلاف رَجُل. وكانت بأرض يقال لها مَأْرِبٌ، على ثلاثة أميال من صَنعاء. وهذا القولُ هو أقربُ، على أنه كثيرٌ على مَملَكةِ اليَمنِ، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، أي: من متاع الدنيا ما يَحتاجُ إليه المَلِك المُتمكِّنُ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، يعني: سرير تجلِس عليه عظيم هائلٌ مُزَخرَفٌ بالذهب، وأنواع الجَواهر واللآلىء. قال زُهير بن مُحمَّدٍ: كان من ذَهَب صفحتاه، مرمولٍ بالياقُوتِ والزَّبرجَد، طولُه ثمانونَ ذِراعاً، وعرضُه أربعُون ذِراعاً. وقال مُحمَّد بن إسحاقَ: كانَ من ذَهَبٍ مُفَصَّصٍ بالياقوتِ والزَّبَرجَدِ واللُّؤلؤِ، وكان إنَّما يخدمُها النِّساءُ، لها سِتمئةُ امرأةٍ تليها للخدْمَةِ. قال علماء التاريخ: وكان هذا السريرُ في قَصر عَظِيم مَشيدٍ رَفيع البناءِ مُحكَم، وكان فيه ثلاثمئة وستون طاقةً من شرقه، ومثلها من غربه. قد وُضِعَ بناؤه على أنْ تَدخلَ الشمسُ كلَّ يوم من طاقةٍ، وتغرُب من مقابلتها، فيسجُدون لها صباحاً ومساءً، ولهذا قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: عن طريق الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾، أي: لا يعرفون سَبيل الحقِّ التي هي إخلاصُ السجودِ لله وحده دونَ ما خلَق من شيءٍ من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. وقرأ بعض

(١) القَيْل: الملك من ملوك اليمن، وهذه أرقام خيالية.

القراء: «ألاَ يا اسجُدوا لله»، جعَلَها «ألاَ» الاستفتاحية، و«يا» للنداء، وحُذِف المنادى، تقديره عنده: «ألا يا قومِ، اسجُدوا لله».

وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال عَليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عَبَّاسٍ: يَعْلَمُ كلَّ خبيئةٍ في السماء والأرض. وكذا قال عكرمةُ، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، وقتادةُ، وغير واحد. وقال سعيد ابن المُسَيَّب: الخَبْء: الماء. وكذا قال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ: خَبْءُ السمواتِ والأرض ما جُعل فيها من الأرزاق: المَطرُ من السماء، والنَّباتُ من الأرض. وهذا مناسِبٌ من كلام الهُدهُدِ، الذي جعَل الله فيه مِن الخاصِّية ما ذَكَره ابنُ عباس وغيره، من أنه يرى الماء يجري في تُخُوم[1] الأرض ودَوَاخِلها.

وقولُه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، أي: يعلَم ما يُخفيه العبادُ، وما يُعلِنُونَه من الأقوال والأفعالِ. وهذا كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠]. وقولُه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾، أي: هو المدعوُّ الله، وهو الَّذِي لا إله إلا هُوَ ربُّ العرشِ العظيم، الذي ليس في المخلوقاتِ أعظَمُ منه. ولما كان الهُدْهُد داعياً إلى الخير، وعبادةِ الله وحدَه والسجُودِ له، نُهِيَ عن قَتْلِهِ.

[٥٠٨٢] كما رَوَاه الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ وابنُ ماجَه، عن أبي هُرَيرةَ ـ رَضِي الله عنه ـ قال: نَهى النبيُّ ـ ﷺ ـ عن قَتْلِ أَرْبعٍ من الدَّوابِّ: النَّملةِ والنَّحلةِ والهُدهُدِ والصُّرَدِ[2]. وإسناده صحيح.

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

يخبر تعالى عن قِيل سُليمان ـ عليه السلامُ ـ للهُدْهُدِ حين أخبره عن أَهْلِ سَبَإٍ وَمَلِكتِهم: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾، أي: أصدقتَ في إخْبارِكَ هذا، ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، في مقالتكَ، لتتخلَّص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾، وذلك أن سليمان ـ عليه السلام ـ كَتَب كتاباً إلى بِلْقِيس وقَومِها. وأعطاه لذلك الهُدهُد فَحمَله، قيل: في جناحه كما هو عادةُ الطير، وقيل: بمنقارِه، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بِلْقِيسَ، إلى الخَلْوَة التي كانت تختلي فيها بنَفْسِهَا، فألقاه إليها من كُوَّةٍ هُنالِك بين يَدَيها، ثم تَوَلَّى ناحيةً أدباً ورياسةً فتَحيَّرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عَمَدت إلى الكتاب فَأخذَته، فَفتحت خَتْمَهُ وقرأته، فإذا فيه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾. فَجمعت عند ذلك أمراءها وَوُزراءها وكُبَراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾، تعني بكرمه ما رأته من عَجيب أمره، كون طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تَولَّى عنها أدَباً. وهذا أمرٌ لا يَقدِر عليه أحدٌ من الملوك، ولا سَبيلَ لهم إلى ذلك، ثم قَرأته عليهم، ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، فَعرَفوا أنه من نبيِّ الله سُليمان، وأنه لا قِبَل لهم به. وهذا الكتابُ في غايةِ البلاغةِ والوَجَازةِ والفصاحةِ، فَإنَّه حَصَّل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، قال العلماء. ولم يكتُب أحدٌ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قبل سُليمان عليه السلام.

---

(١) التخوم: الحدود الفاصلة بين طبقات الأرض.

(٢) صحيح. أخرجه أبو داود ٥٢٦٧ وابن ماجه ٣٢٢٤ وأحمد ١/ ٣٣٢ والبيهقي ٩/ ٣١٧ وابن حبان ٥٦٤٦.

[٥٠٨٣] وقد رَوَى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً في تفسيره، حيث قال: حدثنا أبي، حدثنا هارون ابن الفضل أبو يعلى الحَنَّاطُ، حدثنا أبو يوسف، عن سَلَمة بن صالح، عن عبدِ الكَرِيم أبي أُمَيَّة، عن ابن بُرَيدَةَ، عن أبيهِ قال: كنتُ أمشِي مع رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: إني أعلم آيةً لم تَنزِلْ على نَبِيٍّ قَبلي بعد سُلَيمانَ بن دَاودَ. قال: قلتُ يا رسولَ الله، أيُّ آيةٍ؟ قال: سَأُعلِّمُكها قبل أن أخرُجَ من المسجدِ. قال: فانتهى إلى البابِ، فأخرَجَ إحدَى قَدَمَيهِ، فقلت: نَسِي. ثم التفت إليّ وقال: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾[1]. هذا حديثٌ غريبٌ، وإسنادُه ضعيفٌ. وقال مَيمونُ بن مِهرانَ: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يكتب: باسمِكَ اللَّهُمَّ، حتى نزلت هذه الآية، فكتب، ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. وقولُه: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾، قال قتادة: يقولُ: لا تَجبَّرُوا عليّ ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾. وقال عبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بن أسلَمَ: لا تَمتَنِعُوا ولا تَتَكَبَّرُوا عَلَيَّ. ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، قال ابنُ عباس: مُوَحِّدين. وقال غيرُه: مُخلِصِينَ. وقال سُفيان بن عُيينة: طائعين.

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾

لما قَرَأت عليهم كتابَ سُليمان استشارتهم في أمرها، وما قد نَزَل بها، ولهذا قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾، أي: حتى تَحضُرونَ وتُشِيرُونَ. ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾، أي: مَنُّوا إليها بَعَددهم وعُدَدهم وقُوَّتهم، ثم فَوَّضُوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾، أي: نحن ليس لنا عاقةٌ ولا بنا بأسٌ، إن شئت أن تَقصِديه وتُحارِبيه فما لنا عاقةٌ عنه. وبعد هذا فالأمرُ إليكِ، فَرَيْ فِينا رأيَكِ نَمتَثِلُهُ وَنُطِيعُه. قال الحسن البصريُ رَحِمَه الله: فَوَّضُوا أمرهم إلى عِلْجَةٍ تضطربُ ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأياً منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجُنُودِه وجُيُوشِه، وما سُخّر له من الجنّ والإنس والطير، وقد شاهَدَت من قَضِيَّةِ الكتاب مع الهُدْهُد أمراً عجيباً بديعاً، فقالت لهم: إني أخشَى أن نحارِبَه ونمتنع عليه، فيقصِدَنا بجُنُوده، ويُهلِكنا بِمَن مَعَه، ويخلص إليّ وإليكم الهلاكُ والدمارُ دون غيرنا. ولهذا قالت: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾. قال ابنُ عَبّاس: أي إذا دَخلوا بلداً عنوة أفسدُوه، أي: خَرَّبُوه، ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾، أي: وقصدُوا من فيها من الوُلاة والجنود فأهانُوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو بالأسر. قال ابن عباس: قالت بِلْقِيسُ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾، قال الربُّ عز وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾. ثم عَدَلت إلى المُصالحة والمُهادنة والمُسالمة والمُخادعة والمصانعة، فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾، أي: سأبعث إليه بهَدِيَّةٍ تَليق بمثله وأنظر ماذا يكونُ جوابُه بعدَ ذلِكَ، فَلَعلّه يَقبَلُ ذلك وَيَكُفّ عنا، أو يَضرِب علينا خَراجاً نَحملُه إليه في كلّ عام، ونَلتزمُ له بِذَلك وَيَترُك قتالنا ومُحاربتنا. قال قتادةُ: رَحِمَها الله ورَضِي عنها. ما كان أعقَلَها في إسلامِها وفي شِرْكِها! عَلِمت أن الهدية تقع مَوقعاً من الناسِ. وقال ابنُ عباس وغيرُ واحدٍ: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فَقَاتِلُوه، وإن لم يقبلها فهو نَبيٌّ فاتّبِعُوه.

---

(١) واهٍ، وعلته عبد الكريم، وهو ابن أبي المخارق، وهو متروك.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ذكر غيرُ واحدٍ من المفسِّرين، من السَّلَف وغيرهم: أنها بعثت إليه بهديَّةٍ عظيمةٍ من ذهبٍ وجَواهِرَ ولآلىء وغير ذلك. وقال بعضهُم: أرسلت إليه بِلَبنة من ذَهَب. والصحيح أنها أرسلَت إليه بآنيةٍ من ذهب. قال مجاهد، وسعيد بن جُبير، وغيرهما: وأرسلَت جَوارِيَ في زيّ الغلمان، وغلماناً في زيِّ الجَوَاري، وقالت: إن عَرَف هؤلاء مِن هؤلاء فهو نبيٌ. قالوا: فأمَرَهم عليه السلام أن يتوضئوا، فَجَعلت الجارية تُفرغُ على يدها من الماء، وجعل الغلامُ يَغْتَرِفُ، فميَّزهم بذلك. وقيل: بل جعلت الجارية تغسلُ باطن يدها قبل ظاهرها، والغلامُ بالعكس. وقيل: بل جعلت الجواري يغسلن من أكُفِّهن إلى مَرافِقِهن، والغلمان من مَرَافِقِهم إلى أكُفِّهم. ولا منافاة بين ذلك كلِّه، والله أعلم. وذكر بعضُهم: أنها أرسلت إليه بِقَدَح ليملأهُ ماءً رَوَاءً، لا من السماء ولا من الأرض، فأجرى الخيلَ حتَّى عَرِقَت، ثم ملأه من ذلك. وبخرزةٍ وسِلكٍ ليجعَلَه فيها، ففعل ذلك. والله أعلم أكانَ ذلك أم لا، وأكثرُه مأخوذٌ من الإسرائيليّات. والظاهر أن سُلَيمان ـ عليه السلامُ ـ لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلِّية، ولا اعتنى به، بل أعرَض عنه، وقال منكراً عليهم ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾، أي: أتصانعونني بمالٍ لأترُكَكُم على شِرْكِكم ومُلكِكم؟! ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾، أي: الذي أعطاني الله من المُلكِ والمالِ والجنُودِ خيرٌ مما أنتم فيه، ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، أي: أنتم الذين تنقادُون للهَدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبلُ إلا الإسلامَ أو السَّيفَ.

قال الأعمش، عن المِنْهَالِ بن عَمرو، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاس ـ رضي الله عنه ـ: أَمَر سليمانُ الشياطين فَموَّهُوا له ألفَ قصرٍ من ذَهَب وفِضَّةٍ، فلما رأت رُسلُها ذلك قالوا: ما يصنعُ هذا بهَدِيَّتنا؟! وفي هذا دلالةٌ على جَواز تَهيُّؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسُل والقُصاد. ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: بِهَديَّتهم، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، أي: لا طاقَة لهم بقتالهم، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾، أي: من بَلَدِهم ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، أي: مُهَانُون مدحُورُون. فلما رَجَعت إليها رسلُها بِهَدِيَّتِها، وبما قال سُلَيمان، سَمِعت وأطاعت هي وقومُها، وأقبلت تسيرُ إليه في جنودها خاضعة ذليلةً، مُعَظِّمة لسليمانَ، ناويةً متابعَته في الإسلام، ولما تَحقَّقَ سُلَيمانُ ـ عليه السلام ـ قُدُومَهم عليه وَوُفُودَهم إليه، فَرِح بذلك وسَرَّهُ.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قال محمد بن إسحاق، عن يزيدَ بن رُومَان قال: فلما رَجَعَتْ إليها الرسلُ بما قال سليمان قالت: قد ـ والله ـ عرفتُ ما هذا بملكٍ، وما لنا به من طاقةٍ، وما نصنعُ بمكابرته شيئاً. وبَعَثَتْ إليه: إني قادمةٌ عليك بملوك قومي، لأنظر ما أمرُك وما تدعُونا إليه من دينك. ثم أمَرت بسرير مُلكِها الذي كانت تجلُس عليه ـ وكان من ذهب مُفَصَّص بالياقوت والزبرجد واللُّؤلؤ ـ فَجُعِل في سبعةِ أبياتٍ، بعضُها في بعضٍ، ثم أقفلت عليه الأبوابَ، ثم قالت لمن خَلَّفتْ على سلطانها: احتفظ بما قِبَلك، وسريرِ ملكي فلا يخلُص إليه أحدٌ من

عباد الله، ولا يَرَينَّهُ أحدٌ حتى آتيك. ثم شَخَصَت إلى سُليمان في اثني عَشَر ألفَ قَيْلٍ من مُلوكِ اليَمن، تحت يَدَي كُلِّ قَيلٍ مِنهُم ألوفٌ كثيرة. فجعل سُليمان يبعث الجنَّ يأتونَه بمسيرها ومُنتهَاها كلَّ يوم وليلة، حتى إذا دَنت جَمَع من عندَه من الجنِّ والإنس، مِمَّن تحتَ يديه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾. وقال قتادةُ: لما بلغ سليمان أنها جائيةٌ، وكان قد ذُكِرَ لها عَرشُها فأعجَبه، وكان من ذَهَب، وقوائِمهُ لؤلؤ وجوهرٌ، وكان مُستَّراً بالدِّيباج والحرير، وكانت عليه تسعةُ مَغَالِيق، فكره أن يأخُذَه بعد إسلامهم. وقد عَلِمَ نبيُّ الله أنهم متى أسلموا تَحرُم أموالُهم مع دمائِهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾. وهكذا قال عطاء الخراساني، والسّدّيّ، وزُهير بن محمد: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، فتحرُم علي أموالُهم بإسلامهم، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، قال مجاهدٌ: أي ماردٌ من الجن. وقال شُعَيبٌ الجَبئيُّ: وكان اسمه كَوْزَن. وكذا قال محمد بن إسحاق، عن يزيدَ بن رُومانَ، وكذا قال أيضاً وهبُ بن مُنَبِّه. قال أبو صالح: وكان كأنه جبلٌ. ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ ـ قال ابن عباس: يعني قبل أن تقوم من مجلسك. وقال مجاهدٌ: مقعدك، وقال السُّدِّي، وغيره: كان يجلس للناس للقضاءِ والحُكومات، وللطعام، من أوّل النهار إلى أن تزُول الشمسُ. ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾، قال ابنُ عبَّاسٍ: أي قويٌّ على حَمْلِهِ، أمينٌ على ما فيه من الجوهَرِ. فقال سُلَيمان عليه السلام: أُريد أعجَلَ من ذلك. ومن هاهنا يظهر أن النبيَّ سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهارَ عَظَمة ما وَهَبه الله له من الملك، وما سَخَّر له من الجنودِ، الذي لم يعطه أحدٌ قبله، ولا يكونُ لأحدٍ من بعدِه. وَلِيتَّخذَ ذلك حجةً على نُبُوَّتِه عِند بِلْقِيسَ وقومِها؛ لأن هذا خارقٌ عظيمٌ أن يَأتي بِعَرشِها كما هُو من بلادِها قبل أن يَقْدَموا عليه. هذا وقد حَجَبته بالأغلاق والأقفالِ والحَفَظة. فلما قال سليمانَ: أريد أعجَلَ من ذلك، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، قال ابن عباس: وهو آصَفُ كاتبُ سُلَيمان. وكذا رَوَى محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومَان: أنه آصف بن برخيا، وكان صِدِّيقاً يعلم الاسم الأعظم. وقال قتادة: كان مؤمناً من الإنسِ، واسمه آصَفُ. وكذا قال أبو صالح، والضحَّاك، وقتادةُ: إنه كان من الإِنس. زاد قتادةُ: من بني إسرائيل. وقال مجاهد: كان اسمه أسطُومَ. وقال قتادة ـ في رواية عنه ـ كان اسمه بليخا. وقال زُهَير بن محمد: هو رجل من الإنس يقال له: ذو النور. وزَعَم عبد الله بن لَهيعة: أنه الخَضِر[1]. وهو غريب جداً.

وقولُه: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، أي: ارفعْ بَصَرك وانظر مَدَّ بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يَكِلُّ بصرُك إلا وهو حاضرٌ عندك. وقال وهبُ بنُ منبِّه: امدُد بصَرَك، فلا يبلغ مَدَاه حتى آتيكَ به. فذكرُوا أنه أمره أن ينظُرَ نحو اليَمَن التي فيها هذا العرشُ المطلوبُ، ثم قام فَتوضأ، ودعا الله عزَّ وجلَّ. قال مجاهدٌ: قال: يا ذا الجلالِ والإكرامِ. وقال الزهريُّ: قال: يا إلهنا وإله كلِّ شيءٍ، إلهاً واحداً، لا إله إلا أنت، ائتني بعرشها. قال: فمثل له بين يديه. قال مجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد ابن إسحاق، وزُهَير بن مُحمَّد، وغيرهم: لما دَعَا الله عزَّ وجلَّ، وسأله أن يأتيه بعرش بِلْقِيسَ ـ وكان في اليَمَن، وسُلَيمانُ عليه السلام بِبيتِ المقدس ـ غاب السريرُ، وغاص في الأرض، ثم نبع من بين يَدَي سُلَيمان عليه السلام.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لم يشعر سليمانُ إلا وعرشُها يُحمَلُ بين يَدَيه. قال: وكان هذا الذي جاء به من عُبَّاد البحر. فلما عاين سُلَيمان ومَلؤُه ذلك، ورآه مُستقرّاً عنده، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾، أي: هذا من نِعَمِ الله عليّ ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾، أي: ليختبرني ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، كقوله

---

(١) ابن لهيعة ضعيف إذا وصل الحديث، فكيف إذا أرسله!.

تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾، أي: هو غَنيٌّ عن العباد وعبادَتِهِمْ، ﴿كَرِيمٌ﴾، أي: كريمٌ في نفسه، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مُفتقرةً إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

[٥٠٨٤] وفي صحيح مسلم: يقول الله تعالى: «يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم، وإنسكم وجنَّكم، كانوا على أتقى قَلْبِ رَجُلٍ منكم. ما زاد ذلك في ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم. ما نَقص ذلك من مُلكي شيئاً. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أُحصِيها لكم، فمن وَجدَ خيراً فَلْيَحمَدِ الله، ومن وَجدَ غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه»(١).

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

لمَّا جِيءَ سُلَيمانُ ـ عليه السلام ـ بِعَرش بَلْقِيسَ قبل قُدومها، أَمَر به أن يُغَيَّر بعضُ صفاته، لِيَختَبر مَعْرفتها وثَباتها عند رُؤيَتِه، هل تُقدِمُ على أنه عَرْشُهَا أو أنه ليس بعرشها، فقال: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، قال ابن عباس: نُزِع عنه فُصوصُه ومَرَافِقُه. وقال مجاهد: أَمَر به فَغُيِّر ما كان أحمَرَ جُعِلَ أصفرَ، وما كان أصفرَ جُعِلَ أحمرَ، وما كانَ أخضرَ جُعِلَ أحمرَ، غُيِّر كلُّ شيءٍ عن حاله. وقال عِكْرِمَةُ: زادُوا فيه ونَقَصُوا. وقال قتادةُ: جُعِلَ أسفلُه أعلاه ومُقَدَّمُهُ مؤخَّرُه، وزادوا فيه ونَقَصُوا. ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾، أي: عُرِضَ عليها عرشُها، وقد غُيِّر ونُكِّر، وزيدَ فيه ونُقِص، وكان فيها ثَباتٌ وعقلٌ، ولها لُبٌّ ودَهاءٌ وحَزمٌ، فلم تُقدِمْ على أنه هُوَ لِبُعدِ مَسَافتِه عنها، ولا أنه غيرُه، لِمَا رأت من آثاره وصِفاتِهِ، وإن غُيِّر وبُدِّل ونُكِّر، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، أي: يُشبِهُهُ ويُقارِبه. وهذا غاية في الذَّكاءِ والحَزمِ.

وقولُه: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، قال مجاهد: هذا قول سليمانَ(٢). وقولُه: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾، هذا من تَمام كَلامِ سُلَيمان عليه السلام، في قول مجاهد، وسعيد بن جُبَير ـ رَحِمهما الله ـ أي: قال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، وهي كانت قد صَدَّها، أي: مَنَعها من عبادة الله وحده ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾. وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد حَسَنٌ، وقاله ابنُ جَرير أيضاً. ثم قال ابن جرير: وَيَحتَمِلُ أن يكون في قوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾، ضميرٌ يعودُ إلى سُلَيمان، أو إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ تقديره: ومَنَعها ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: صَدَّها عن عبادةِ غير الله، ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾. قلت: ويُؤيد قولَ مجاهد: أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصَّرْحِ كما سيأتي.

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٥٧٧ والبخاري في «الأدب المفرد» ٤٩٠ والترمذي ٢٤٩٥ وابن ماجه ٤٢٥٧ وأحمد ٥/ ١٦٠ وابن حبان ٦١٩ من حديث أبي ذر مطولاً.

(٢) العبارة في الأصول والطبري «سليمان يقوله» والمثبت عن تفسير مجاهد.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾، وذلك أن سُليمان ـ عليه السلام ـ أمر الشياطين فبَنوا له قصراً عَظِيماً من قوارير، أي: من زُجاج، وأجرى تحته الماءَ، فالذي لا يعرِفُ أمره يحسَب أنه ماءٌ، ولكن الزجاج يحولُ بين الماشي وبينه. واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان ـ عليه السلام ـ إلى اتّخاذه، فقيل: إنه لما عَزَم على تزوجها واصطفائها لنفسه؛ ذُكِر له جمالُها وحُسنُها، ولكن في ساقيها هُلْبٌ عَظِيم، ومؤخر أقدامها كمؤخَّر الدابّة. فساءه ذلك، فاتخذ هذا ليعلم صحَّته أم لا[1]؟ هذا قول محمد بن كعب القُرَظي، وغيره. فلما دَخلت وكَشَفت عن ساقيها، رأى أحسنَ الناس ساقاً وأحسَنَهُ قَدَماً، ولكن على رِجْلَيها شعرٌ، لأنها مَلِكَةٌ ليس لها بعلٌ، فأحبَّ أن يُذهِبَ ذلك عنها فَقِيل لها: الموسى؟ فقالت: لا أستطيعُ ذلك. وكَرِه سُليمان ذلك، وقال للجنّ: اصنَعُوا شيئاً غير المُوسَى يَذْهَب به هذا الشعرُ. فصنعوا له النُورة، فكان أوّل مَن اتّخذَت له النُورَةُ، قاله ابنُ عباسٍ، ومجاهِدٌ، وعكرمةٌ، ومُحمّد بنُ كعبِ القُرَظيُّ، والسدِّي، وابن جُرَيج، وغيرِهم.

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيدَ بن رُومَان: ثم قال لها: ادخُلي الصَّرح، لِيُرِيهَا مُلْكاً هو أعزُّ من مُلكِها، وسُلطاناً هو أعظمُ من سُلطانها. فلما رأته حسبته لُجّة وكَشَفت عن ساقيها، لا تشك أنه ماء تخوضه، فقيل لها: إنه صَرحٌ مُمَرَّد من قوارير. فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله، وعاتبها في عبادتها الشمسَ من دُونَ الله. وقال الحسنُ البصريُّ: لما رَأَتِ العِلْجَةُ الصَّرحَ عَرَفَتْ ـ والله ـ أنْ قد رأت مُلْكاً أعظَمَ من مُلْكِها. وقال محمدُ بنُ إسحاق، عن بَعضِ أهلِ العلم، عن وَهب بن مُنبِّه. قال: أمر سُلَيمان بالصَّرح، وقد عَمِلته له الشياطينُ من زُجَاج، كأنه الماءُ بياضاً. ثم أرسل الماءَ تحتَه، ثم وَضَع له في سَرِيرَه، فَجَلس عليه، وعَكَفت عليه الطيرُ والجنُّ والإنسُ، ثم قال: ادخُلي الصَّرح، لِيُرِيهَا مُلكاً هو أعزُّ من ملكها، وسُلطاناً هو أعظم من سلطانها، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾، لا تشك أنه ماء تخوضه، قيل لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، فلما وَقفت على سُلَيمانَ، دعاها إلى عبادةِ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ وعاتَبها في عبادتها الشمسَ دونَ الله، فقالت بقولِ الزنادقة، فوقع سليمان ساجداً إعظاماً لما قالت، وسجد معه الناس، فَسُقِط في يديها حين رأت سُلَيمان صَنَعَ ما صنع، فلما رفع سُلَيمانُ رأسه قال: ويحك! ماذا قلت؟ قالت: وأُنسِيتَ ما قُلتُ؟ فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فأسلمَتْ وحَسُنَ إسلامُها.

وقد رَوَى الإمامُ أبو بكر بن أبي شيبةَ في هذا أثراً غَريباً عن ابن عباس، قال: حدثنا الحُسَين بن علي، عن زائدةَ، حدَّثني عطاء بن السائب، حدثنا مجاهد ونحن في الأَزْدِ، قال: حَدَّثنا ابنُ عباس قال: كان سليمانُ ـ عليه السلام ـ يجلس على سَرِيره، ثم تُوضَعُ كراسيُّ حوله، فيجلِس عليها الإنس، ثم تجلِسُ الجن، ثم الشياطين، ثم تأتي الريح فَترفعُهم، ثم تُظِلُّهم الطير، ثم يَغدُو قَدْرَ ما يَشْتهي الراكبُ أن يَنزِلَ شهراً ورواحُها شهرٌ، قال: فبينما هو ذات يوم في مسير له، إذ تَفَقَّدَ الطير، قال: وتفقد الهُدهُد فقال: ﴿مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، قال: وكان عذابُه إيَّاه أن يَنتِفَه ثم يُلقِيه في الأرض، فلا يمتنعُ من نَملةٍ ولا مِن شيءٍ من هَوَامِّ الأرض. قال عطاء: وَذَكر سَعيد بن جُبَير عن ابن عباس مثل حديث مجاهد ـ ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٢٧ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا﴾، وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى بِلْقِيسَ: ﴿أَلَّا

---

(١) ليس بصحيح، فهو، وإن ورد عن جماعة من التابعين وابن عباس، فإن مصدره كتب الأقدمين، لا حجة في شيء منها، والله أعلم.

تعلوا عليّ وأتوني مسلمين ﴿٣١﴾﴾. فلما ألقى الهدهد هذا الكتاب إليها أُلقي في رُوعِها: إنه كتابٌ كَريم، وإنه من سليمان، وألاّ تعلوا علي، وائتوني مُسلِمينَ. ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ﴾، ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾، ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾. فلما جاءت الهديةُ سليمانَ ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾، ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ فلما نظر إلى الغبار ـ أخبرنا ابن عباس قال: وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومَن معها حين نظر إلى الغُبَار كما بيننا وبين الحِيرةِ، قال عطاء: ومجاهد حينئذ في الأزد. قال سُلَيمان: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾، قال: وبين عرشها وبين سُلَيمان حين نَظَر إلى الغُبَار مَسِيرَة شهرين، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ ـ قال: وكان لسُليمان مَجْلِسٌ يَجْلِس فيه للناس كما يجلسُ الأمراء ثم يقوم ـ فقال: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ ـ قال سُلَيمان: أريد أعجلَ من ذلك. فقال الذي عنده عِلمٌ من الكتاب: أنا أنظرُ في كتاب رَبِّي، ثم آتيكَ بِهِ قَبل أن يَرتَدَّ إليك طَرْفُكَ. قال: فَنظر إليهِ سُلَيمانَ فلما قَطع كَلامَه رَدَّ سُلَيمان بَصرَهُ، فَنبع عرشُها من تحت قَدَم سليمان، من تحتِ كرسيٍّ كان سُلَيمان يَضَع عليه رِجلَه، ثم يصعَد إلى السرير. قال: فلما رأى سُلَيمَانَ عرشَها قال: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾، ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾، فلما جاءت قيل لها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾، قال: فسألته حينَ جاءته عن أمرين، قالت لسليمان: ما ماءٌ من زَبَدٍ رَوَاء، ليس من أرض ولا سَمَاءٍ؟ وكان سُلَيمان إذا سُئِل عن شيء سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين. قال: فقالت الشياطين: هذا هيِّن، أجْرِ الخيلَ ثم خُذْ عَرَقَها، ثم املأ منه الآنية. قال: فأمر بالخيل فَأُجريَت، ثم أخذ عَرَقَها فملأ منه الآنِيَةَ. قال: وسَألت عن لون الله ـ عزّ وجلّ ـ قال: فوثَبَ سُلَيمانُ عن سَريرة، فَخرَّ ساجداً، فقال: يا ربِّ، سَألتني عن أمر إنه ليتعاظم في قلبي أن أذكره. قال: ارجع فقد كَفَيتُكَهُم. قال: فَرَجع إلى سَريره فقال: ما سألت عنه؟ قالت: ما سألتُكَ إلا عن الماء. فقال لجنوده: ما سَألتْ عَنه؟ فقالوا: ما سَألتكَ إلا عن الماء. ونَسُوهُ كلُّهم. قال: وقالت الشياطينُ إن سُلَيمان يريدُ أن يأخذَها لِنَفسه، فإن اتخذها لنفسه ثم وُلِد بينهما وَلَدٌ، لم نَنْفَكَّ من عُبُودِيَّتِهِ. قال: فجعلوا صَرْحاً مُمرَّداً من قَوَارِير، فيه السمك، قال: فقيل لها: ادخلي الصرح، فلما رأته حَسبته لُجَّةً، وكَشفت عن ساقيها، فإذا هي شَعْرَاءُ. فقال سليمان: هذا قبيحٌ، ما يُذْهِبه؟ فقالوا: يُذْهِبه الموسى. فقال: أثَر المُوسَى قَبيحٌ! قال: فَجَعلَتِ الشياطينُ النُورة. قال: فهو أول من جُعلت له النُورَة[1].

ثم قال أبو بكر بن أبي شَيبَةَ: ما أحسنَه من حَديثٍ! قلت: بل هو مُنكَرٌ غريبٌ جداً، ولعله من أوهام عطاء بن السائب، على ابن عباس، والله أعلم. والأقربُ في مثل هذه السياقات أنها مُتلَقاة عن أهل الكتاب، مما يُوجَدُ في صحُفِهم، كَروايَات كَعْبٍ ووَهْبٍ ـ سامَحَهما الله تعالى ـ فيما نَقَلا إلى هذه الأمة من أخبار بَنِي إسرائيل، من الأوَابد والغَرَائب والعَجَائب، مما كان وما لم يَكُن، ومما حُرِّف وبُدِّل ونُسِخ. وقد أغنانا الله ـ سبحانه ـ عن ذلك بما هو أصحُّ منه وأنفعُ وأوضحُ وأبلَغُ، ولله الحمدُ والمنَّةُ. أصلُ الصَّرح في كَلامَ العَرَب هو القصْرُ، وكلُّ بناءٍ مُرتفع، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ إخباراً عن فرعون ـ لعنه الله ـ أنه قال لوزيره هامان: ﴿ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ [غافر: ٣٦]... الآية. والصَّرحُ: قَصرٌ في اليَمن عَالي البناءِ، والمُمَرَّد أي: المَبنيُّ بناءً مُحكماً أملَس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾، أي: زُجَاج، وتَمريدُ البناءِ تَمْلِيسُه. ومارِدٌ: حِصْنٌ بِدَوْمَةِ الجَندلِ. والغَرَضَ أن سُلَيمان عليه السلام اتخذ قصراً عَظِيماً مُنيفاً من زُجَاج لهذه المَلِكَة، لِيُرِيها عَظَمَةَ سُلطانِهِ وَتَمكُّنِه، فلما رأت ما آتاه الله ـ تعالى ـ وجلالَةَ ما هُو فيه، وتَبَصَّرت في

---

(١) لا يصح عن ابن عباس مثل هذا، فإن المتن غريب جداً، وهو من الإسرائيليات، بلا شك، وعطاء بن السائب اختلط بأخَرَه وانظر ما ذكره ابن كثير رحمه الله بعد أسطر.

أمره انقادت لأمر الله تعالىٰ وعَرَفت أنه نَبيٌّ كَرِيمٌ، وملِك عظيم، فأسلمت لله ـ عَزَّ وجلَّ ـ وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، أي: بما سلف من كُفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دونِ الله، ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: مُتَابِعةً لدين سُليمان في عبادتِه لله وحدَه، لا شريكَ له، الذي خَلَق كلَّ شيء فَقَدَّره تقديراً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يُخبرُ تعالى عن ثَمُودَ وما كان أَمرها مع نَبيّها صالح عليهِ السلامُ، حين بَعَثه الله إليهم، فدَعَاهم إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له، ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾. قال مجاهد: مُؤمِنٌ وكافِرٌ، كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦]. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾، أي: لم تَدْعُون بحضور العذاب، ولا تطلُبون من الله رحمتَه؟! ولهذا قال: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، أي: ما رأينا على وَجْهك وَوُجُوهِ من اتَّبعَك خير. وذلك أنهم ـ لِشَقائِهم ـ كان لا يُصيب أحداً منهم سوءٌ إلا قال: هذا من قِبَلِ صالح وأصحابه. قال مجاهد: تشاءَمُوا بهم. وهذا كما قال تعالى إخباراً عن قوم فِرْعَون. ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، أي: بقَدَرِ الله وقضائه. وقال تعالىٰ مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٨ ـ ١٩]. . . الآية. وقال هؤلاء: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: الله يُجازيكم على ذلك ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، قال قتادة: تُبتَلُون بالطّاعةِ والمَعْصِيَةِ. والظاهِر أنَّ المُرادَ بقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾، أي: تُسْتَدرَجُون فيما أنتم فيه من الضَّلال.

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يخبر تعالى عن طُغَاةِ ثَمُودَ ورُؤُوسِهم، الذين كانُوا دعاة قومِهم إلى الضَّلالَةِ والكُفر وتَكذيب صالح، وآل بهم الحالُ إلى أنهم عَقَروا النَاقَةَ، وَهمُّوا بقَتلِ صالح أيضاً، بأن يُبيِّتُوه في أهلِهِ ليلاً فَيقتُلُوه غِيلَةً، ثم يقولوا لأوليائه من أقْرَبِيهِ: إنَّهم ما عَلِمُوا بشيءٍ من أمرِه. وإنهم لصادقُون فيما أخبروهم، من أنهم لم يُشاهِدُوا ذلك. فقال تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي: مدينةِ ثمودَ ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾، أي: تسعةُ نَفَر، ﴿يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمودَ، لأنهم كانوا كُبَراءَهم فيهم ورُؤَساءَهُم.

قال العَوفي، عن ابن عباس: هؤلاء هم الذين عَقَرُوا الناقة. أي: الذين صَدَر ذلك عن رأيهم ومَشُورتهم. قَبّحهم الله ولعنَهُم، وقد فَعَل ذلك. وقال السدّي، عن أبي مالك، عن ابن عباس: كان أسماءُ هؤلاء التسعة: زعمى، وزعيم، وهرم، وهريم، وداب، وصواب، ورياب، وسطيع، وقُدَار ابن سَالِف عاقِر النّاقة. أي: الذي باشَرَ ذلك بيدِه. قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا يَحيَى بن ربيعةَ الصَّنْعَاني، سَمِعتُ عطاءَ ـ هو ابن أبي رَبَاح ـ يقول: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾، قال: كانوا يَقرِضُون الدراهم، يعني أنهم كانوا يأخذون منها، وكأنهم كانوا يتعاملون بها عدداً، كما كان العربُ يَتعامَلُونَ. وقال الإمامُ مالكٌ، عن يَحيَى ابن سَعيدٍ، عن سَعِيدِ بن المُسَيَّب أنه قال: قَطْعُ الذّهَب والوَرِقِ من الفساد في الأرض.

[٥٠٨٥] وفي الحديثِ الذي رَوَاه أبو داودَ وغيرُهُ: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ نَهَى عن كَسْرِ سِكَّةِ المسلمين الجائزة بينهم إلا من بَأسٍ[١]. والغرضُ أن هؤلاءِ الكفرَة الفسَقة كان من صِفاتِهم الإفسادُ في الأرضِ بكلِّ طريقٍ يَقدِرُون عليها، فمنها ما ذكره هؤلاءِ الأئمةُ وغير ذلك.

وقولُه تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾، أي: تحالَفُوا وتَبَايَعُوا على قتل نبيِّ الله صالح ـ عليه السلام ـ من لقيه ليلاً غيلة، فكَادَهم الله، وجَعَل الدائِرَةَ عليهم. قال مجاهد: تَقَاسَمُوا وتحالَفُوا على هَلاَكِه، فلم يَصِلُوا إليه حتى هَلَكوا وقومَهم أجمعين. وقال قتادةُ: توافَقُوا على أن يأخذُوه ليلاً فيقتُلوه، وذُكِرَ لنا أنهم بينما هم مَعَانِيقُ[٢] إلى صالح لِيَفتِكُوا به، إذ بَعَث الله عَلَيهم صَخرَةً فأهمدَتْهم. قال العَوفي، عن ابن عباس: هم الذين عَقَرُوا الناقةَ، قالوا حين عقروها: نُبَيِّتُ صالحاً وأهله فنقتُلهم، ثم نقولُ لأولياءِ صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به علم. فَدَمَّرَهُم الله أجمعين. وقال محمدُ بن إسحاق: قال هؤلاء التسعةُ بعد ما عَقَرُوا الناقة: هَلُمَّ فلنقتُلْ صالحاً، فإن كان صادقاً عَجَّلناه قبلنا، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته! فأتوه ليلاً لِيُبيِّتوه في أهله، فَدَمَغَتْهم الملائكةُ بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم، أتوا مَنزل صالح، فوجدُوهم مُنشَدِخين قد رُضِخُوا بالحجارة فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، ثم هَمُّوا به، فقامت عشيرتُه دونَه، ولَبِسُوا السلاح، وقالوا لهم: والله لا تقتلُونه أبداً، وقد وعدكُم أن العذاب نازلٌ بكم في ثلاثٍ، فإن كان صادقاً فلا تزيدُوا ربّكم عليكم غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تُريدُون. فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: لما عَقَرُوا الناقةَ قال لهم صالحٌ: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، قالوا: زَعَم صالح أنه يَفرُغُ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرُغُ منه وأهلَه قبل ثلاثٍ. وكان لصالح مسجدٌ في الحِجْر عند شِعْبٍ هناك يُصَلِّي فيه، فَخَرَجُوا إلى كَهفٍ، أي: غارٍ هناك ليلاً، فقالوا: إذا جاء يُصَلي قتلناه ثُمَّ رَجَعنا إذا فرَغنا منه إلى أهلِه، ففرغنا منهُم. فبعث الله صخرة من الهِضَب حيالهم، فَخَشُوا أن تَشدَخهم فَتَبادَرُوا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يَدْرِي قومهم أين هم، ولا يَدرُون ما فُعل بقومهم. فعذَّب الله هؤلاءِ هاهنا، وهؤلاءِ هاهنا، وأنجى الله صالحاً ومن معه، ثم

---

(١) ضعيف. أخرجه أبو داود ٣٤٤٩ من حديث علقمة بن عبد الله عن أبيه، وإسناده ضعيف فيه محمد بن فضاء وهو ضعيف عن أبيه، وهو مجهول. وضعف إسناده الأرناؤوط في «جامع الأصول» ٩٥٠٤

(٢) عُنُقٌ إليه: أي مائلون نحوه ينظرون إليه.

قــرأ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾، أي: فارغةً ليس فيها أحدٌ ﴿بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾

يُخبر تعالى عن عبده لوطٍ ـ عليه السلامُ ـ أنه أنذر قومه نِقْمَةَ الله بهم، في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحدٌ من بني آدم، وهي إتيانُ الذُكورِ دونَ الإناثِ، وذلك فاحشةٌ عظيمةٌ، استغنى الرجالُ بالرجال، والنساءُ بالنساء، فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، أي: يَرَى بعضُكم بعضاً، وتأتون في ناديكم المنكر!؟ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾، أي: لا تعرفُون شيئاً لا طَبعاً ولا شَرعاً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦]. ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾، أي: يَتحرَّجُون من فعل ما تَفعَلُونه، ومن إقراركم على صَنِيعكم، فَأَخرِجوهم من بين أظهُركم فإنهم لا يَصلُحُون لمجاوَرَتِكم في بلادكم، فعزَمُوا على ذلك، فدَمَّر الله عليهم وللكافرين أمثالُها، قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ۝٥٧﴾، أي: من الهالِكينَ مع قومها، لأنها كانت رِدْءاً لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تَدُلّ قومها على ضِيفَانِ لوطٍ، ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعلُ الفاحشة، تكرمةً لنبيِّ الله ـ ﷺ ـ لا كَرَامة لها. وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، أي: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾ [هود: ٨٢ ـ ٨٣]، ولهذا قال: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾، أي: الذين قامت عليهم الحجَّةُ، ووصلَ إليهم الإنذارُ، فخالفوا الرسولَ وكذَّبوه، وهَمُّوا بإخراجِهِ من بينهم.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾

يقولُ تعالى آمراً رسوله ـ ﷺ ـ أن يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: على نِعَمِه على عباده، من النِّعم التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، وعلى ما اتَّصف به من الصِّفات العُلَى والأسماء الحُسنى، وأن يُسلِّم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارَهم، وهم رسلُه وأنبياؤه الكرام ـ عليهم من الله الصلاةُ والسلامُ ـ هكذا قال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَم، وغيرُه، إنَّ المرادَ بعبادِهِ الَّذِين اصطَفى هم الأنبياءُ، قال: وهو كقولِهِ تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٨٢﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]. وقال الثَّوريُّ والسدِّيُّ: هم أصحابُ مُحمَّدٍ ـ ﷺ ـ ورَضِي عنهم أجمعِين. ورُوِي نحوهُ عن ابن عباس. ولا منافاةَ، فإنهم إذا كانُوا من عبادِ الله الذين اصطَفى فالأنبياءُ بِطَرِيقِ الأَولَى والأَحْرَى. والقصدُ أنَّ الله تعالى أمَر

رسولَه ومن اتّبعه بعدما ذَكره لهم ما فَعَل بأوليائِه من النَّجاةِ والنصر والتأييدِ، وما أحلَّ بأعدائهِ من الخِزْي والنَّكالِ والقَهرِ، أن يَحمَدُوهُ على جَميع أفعالِه، وأن يُسلِّمُوا على عبادِه المُصطَفَين الأخيار.

وقد قال أبو بكر البزّار: حدثنا محمد بن عُمارة بن صَبيح، حدثنا طلق بن غنّام، حدثنا الحكم بن ظُهير، عن السدِّي ـ إن شاء الله ـ عن أبي مالكٍ، عن ابن عباس: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، قال: هم أصحابُ مُحمّدٍ ـ ﷺ ـ اصطفاهم الله لِنَبيِّه، رَضِيَ الله عنهم. وقولُه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استفهامُ إنكارٍ على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى، ثم شَرَع تعالى يبين أنه المُتفرِّدُ بالخَلقِ والرِّزقِ والتَّدبير دونِ غيره، فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: تلك السمواتِ بارتفاعها وصَفَائها، وما جعل فيها من الكواكب النيِّرة والنجوم الزَّاهِرَة والأفلاك الدائِرَة، والأرض باستفالها وكَثَافَتِها، وما جعل فيها من الجبالِ والأوعار والسهُول، والفَيافي والقِفَارِ، والأشجارِ، والزرُوعِ، والثِّمارِ والبِحَارِ والحيوان، على اختلافِ الأصنافِ والأشكالِ والألوان وغير ذلك.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، أي: جَعَله رزقاً للعباد، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾، أي: بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾، أي: مَنظرٍ حَسَن وشكل بَهيٍّ، ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾، أي: لم تكونُوا تَقدِرُون على إنباتِ شَجَرها. وإنما يَقدِر على ذلك الخالِقُ الرازِقُ، المستقلُّ بذلك المُتَفرِّد به، دُونَ ما سِوَاه من الأصنامِ والأندادِ، كما يعترف بِهِ هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الأُخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، أي: هم مُعترِفون بأنه الفاعلُ لجميع ذلك وحدَه لا شَريكَ له، ثم هم يعبدُون معه غيرَه مما يعترفون أنه لا يخلُق ولا يرزُق، وإنما يَستحِقُّ أن يُفرَدَ بالعبادة من هو المُتفَرِّد بالخَلق والرِّزقِ، ولهذا قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أي: أإلهٌ مع الله يُعبدُ وقد تبيَّن لكم ولكلِّ ذي لُبٍّ مما يَعرِفُون به أيضاً أنه الخالق الرزاق؟! ومن المفسرين من يقول معنى قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فَعلَ هَذا؟ هو يرجِعُ إلى معنى الأوَّل، وأنَّ تقدير الجواب أنّهم يقولُون: ليس ثَمَّ أحدٌ فَعَل هذا مَعَه، بل هُو المُتَفرِّد به. فيقال: فكيف تعبدُون معه غيره وهو المستقل المُتَفَرِّدُ بالخَلقِ والتَّدبيرِ؟ كما قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] الآية. وقولُه هاهنا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، ﴿أَمَّنْ﴾ في هذه الآيات كُلِّها تقديرُه: أمَّنْ يفعلُ هذه الأشياء كمن لا يَقدِرُ على شَيءٍ منها؟ هذا مَعْنَى السِّياق وإن لم يذكر الآخرُ، لأنَّ في قُوَّة الكلام ما يُرْشِدُ إلى ذلك، وقد قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ثم قال في آخر الآية: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، أي: يجعلون لله عدلاً ونظيراً. وهكذا قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، أي: أمَّنْ هُوَ هكذا كَمَن ليس كذلك؟ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، أي: أمَّنْ هو شهيدٌ على أفعَالِ الخَلْقِ، حَرَكَاتِهم وسَكَناتِهم، يعلَمُ الغيبَ جليله وحَقيره، كمن هو لا يَعْلَم ولا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ مِن هَذِه الأصنامِ التي عبدوها؟ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وهكذا هذه الآياتُ الكريماتُ كلُّها.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾، أي: قارةً ساكنةً ثابتةً، لا تَميدُ ولا تتحرك بأهلها ولا تَرْجُفُ بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيشُ والحياةُ، بل جَعَلَها من فَضْلِهِ ورَحْمَتِه مِهاداً بِساطاً ثابتةً لا تَتَزلزَلُ ولا تَتَحرّك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [غافر: ٦٤]. ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾، أي: جَعَل فيها الأنهار العَذْبَة الطَيِّبَة تَشقُّها في خِلالَها، وصَرّفها فيها، ما بين أنهار كبار وصِغَارٍ، وبين ذلك، وسَيَّرها شَرْقاً وغرباً وجَنُوباً وشَمَالاً، بِحَسَبِ مصالِح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيثُ ذَرَأهم في أرجاء الأرض وسَيَّر لهم أرزاقَهم بحسَب ما يحتاجُونَ إليه، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾، أي: جبالاً شامِخَةً تُرسِي الأرضَ وتُثَبِّتها لئلا تميدَ لكم، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾، أي: جَعَلَ بين المياه العذبةِ والمالحة حاجزاً، أي: مانِعاً يمنَعُها من الاختلاط، لئلا يفسُدَ هذا بهذا وهذا بهذا، فإنَّ الحكمة الإلهيَّة تقتضي بقاءَ كلٍّ منهما على صِفَتِهِ المقصُودةِ منه، فإن البحر الحُلْو هو هذه الأنهار السارِحَةُ الجارِيَةُ بين الناس، والمقصودُ منها أن تكون عَذْبَةً زُلالاً تسقي الحيوانَ والنباتَ والثِّمار منها. والبِحارُ المالحة هي المحيطةُ بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها أن يكون ماؤُها ملحاً أُجاجاً، لئلا يفسُدَ الهواء بريحها، كما قال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝﴾ [الفرقان: ٥٣]، ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أي: فَعَل هذا؟ يُعبدُ على القَوْلِ الآخِرِ، وكلاهما مُتلازِمٌ صَحِيحٌ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: في عِبادَتِهم غيره.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝﴾

يُنَبِّه تعالى أنه هو المدعوُّ عند الشدائد، المرجوُّ عند النَّوازِلِ، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. وهكذا قال هاهنا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، أي: مَن هو الذي لا يَلْجأ المُضطَرُّ إلا إليه، والذِي لا يَكشِفُ ضُرَّ المضرُورينَ سِواه.

[٥٠٨٦] قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عَفّان، حدثنا وُهيب، حدثنا خالد الحَذّاء، عن أبي تَميمةَ الهُجيمي، عن رَجُل من بَلْهُجَيم قال: قلت: يا رسولَ الله، إلامَ تدعُو؟ قال: «أدعُو إلى الله وحدَه، الذي إن مَسَّك ضُرٌّ فدعوته كشَفَ عنكَ، والَّذي إن أضلَلْتَ بأرضٍ قَفْرٍ فدعوتَه رَدَّ عليك، والذي إن أصابتك سَنَةٌ فدعوتَه أنبتَ لك. قال: قلتُ: أوصِني. قال: لا تَسُبَّنَّ أحداً، ولا تَزْهَدَنَّ في المعرُوفِ، ولو أن تلقَى أخاكَ وأنت مُنبَسِطٌ إليه وجهَكَ، ولو إن تُفرغَ من دَلوِكَ في إِناءِ المُستَقِي، واتَّزِر إلى نصفِ الساقِ، فإن أبيتَ فإلى الكعبين. وإيَّاكَ وإسبالَ الإزَارِ فإنَّ إسبالَ الإِزَارِ من المَخِيلة، وإن الله لا يحب المَخيلَةَ»[١].

[٥٠٨٧] وقد رواه الإمامُ أحمدُ من وجه آخَرَ، فَذكَر اسمَ الصَّحَابيِّ فقال: حدثنا عفّان، حدثنا حَمّاد ابنُ سَلَمَة، حدثنا يونس ـ هو ابنُ عُبَيد ـ حدثنا عبيدةُ الهُجَيمِيُّ، عن أبيه عن أبي تَميمَةَ الهُجيمي، عن جابر بن سُلَيم الهُجَيميِّ قال: أتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وهو مُحتَبٍ بشَمْلَة، وقد وقع هُدْبها على قَدَميه، فقلت: أيُّكم مُحَمَّد؟ ـ أو: رسول الله؟ ـ فأومأ بِيَدِهِ إلى نفسه، فقلتُ: يا رسولَ الله، أنا من أهلِ البادية، وفيَّ جَفاؤُهم، فأوصِني. فقال: لا تحقِرَنّ من المعروف شيئاً، ولو أن تَلْقَى أخاكَ وَوَجهُكَ مُنبَسِطٌ، ولو أن تُفرِغَ من دَلْوِكَ

(١) صحيح. أخرجه أحمد ٥/٦٤ وإسناده صحيح على شرطهما، وجهالة الصحابي لا تضر.

في إناءِ المُستقِي، وإن امرؤٌ شَتَمَك بما يعلَمُ فيكَ فَلا تشتمه بما تَعْلَم فيه، فإنّه يكونُ لَكَ أجرُه وعَلَيه وزرُه، وإيّاك وإسبالَ الإزار فإنَّ إسبالَ الإزَارِ من المَخِيلَةِ، وإن الله لا يُحبُّ المَخِيلَةَ، ولا تَسُبَّنَّ أحداً. قال: فما سَبَبْتُ بَعْدَه أَحَداً، ولاَ شَاةً وَلاَ بَعِيراً[1]. وقد رَوَى أبو داود والنسائيُّ لهذا الحديثِ طُرقاً، وعندهما طَرَفٌ صالحٌ منه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هَاشِم، حدثنا عَبدَةُ بن نُوح، عن عُمَر بن الحَجّاج، عن عُبَيد الله بن أبي صالح قال: دَخَل عليّ طاووسُ يعودُني، فقلت له: ادعُ الله لي يا أبا عبدِ الرّحمنِ. فقال: ادعُ لنفسِكَ، فإنه يُجيبُ المُضطَرّ إذا دَعَاه. وقال وَهبُ بن مُنَبِّهٍ: قرأتُ في الكِتابِ الأوّلِ: إنَّ الله يقولُ: بعزتي إنه من اعتصَمَ بي فإن كادته السموات بمن فيهن، والأرضُ بمن فيها، فإني أجعَلُ له من بين ذلك مخرَجاً. ومن لم يَعتصِم بي فإني أخسِفُ به من تحت قَدَمَيه الأرضَ، فأجعله في الهواء، فأَكِله إلى نَفْسِهِ.

وذكر الحافظ ابنُ عَساكر في ترجمة رَجُل ـ حَكَى عنه أبو بكر محمدُ بنُ داودَ الدِّينَوَرِيّ، المعروفُ بالدُّقِّي الصوفي قال هذا الرجلُ: كنتُ أُكارِي على بَغْلٍ لي من دِمَشْقَ إلى بلدِ الزَّبَدَاني، فركب معي ذاتَ مَرّةٍ رجلٌ، فَمَرَرْنَا على بَعْضِ الطريق، على طريقٍ غَيْرِ مَسلُوكةٍ، فقال لي: خُذ في هذِه، فإنها أقربُ. فقلت: لا خِبْرَة لي فيها. فقال: بلْ هي أقربُ. فسلكناها فانتهينا إلى مكانٍ وَعْرٍ وَوادٍ عَميقٍ، وفيه قَتْلَى كثيرٌ. فقال لي: أَمسِكْ رَأسَ البَغْلِ حتى أنزلَ، فَنَزلَ وَتَشمَّر، وجَمَع عليه ثيابَه، وسلَّ سكِّيناً معه وقَصَدَني، ففررت من بين يَدَيه وَتَبِعني، فناشدتُه الله وقلتُ: خُذِ البَغْلَ بما عليه. فقال: هُو لي، وإنما أريدُ قتلَك. فَخَوَّفتُه الله والعقوبَة فلم يَقبَلْ، فاستسلمتُ بين يَدَيه وقلت: إن رأيت أن تتركَني حتى أُصَلّيَ ركعتين؟ فقال: عَجِّل. فقمتُ أُصَلّي فَأرْتِج عليّ القرآنُ فلم يَحضُرني منه حرفٌ واحدٌ، فَبَقِيتُ واقفاً مُتحيِّراً وهو يقولُ: هِيهِ. افرُغْ. فأجرَى الله عَلى لِسَاني قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، فإذا أنا بفارسٍ قد أقبلَ من فم الوَادِي، وبيدِه حَرْبةٌ، فَرَمى بها الرجلَ فما أخطأت فُؤادَه، فَخرَّ صريعاً، فَتَعلَّقتُ بالفَارِس وقلت: بالله من أنت؟ فقال: أنا رسُول الذي يُجيبُ المُضطَرَّ إذا دَعَاه ويكشفُ السوءَ. قال: فأخذت البَغْلَ والحِمْلَ ورجعتُ سَالِماً[2].

وذَكَر في تَرجمة «فاطمةَ بنتِ الحسن أُمّ أحمدَ العِجْلِيّةِ»، قالت: هَزَم الكُفّار يوماً المسلمين في غَزاةٍ، فوقف جَوَاد جَيِّدٌ بصاحبه، وكان من ذَوِي اليسار ومن الصلَحَاء، فقال للجواد: مَا لَكَ؟ وَيْلَك! إنما كنت أُعِدُّك لمثل هذا اليوم. فقال له الجوادُ: وما لي لا أُقصِّر وأنت تَكِلُ عَلُوفتي إلى السُّواسِ فَيَظلِمُونني ولا يُطعِمُونني إلا القليل؟ فقال: لَكَ عليّ عهد الله أني لا أعلِفُكَ بعد هذا اليوم إلا في حِجْري. فجرى الجوادُ عند ذلك، ونَجّى صاحِبَه، وكان لاَ يعلِفُه بعد ذلك إلا في حِجْره. واشتهر أمرُه بين الناسِ، وجعلُوا يقصِدُونه ليسمَعُوا منه ذلك، وبَلَغ ملكَ الروم أمرُه، فقال: ما تُضَام بلدة يكون هذا الرجُل فيها. واحتال لِيُحصِّله في بلده، فبعث إليه رَجُلاً من المُرتدِّين عنده، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حَسُنت نِيّتُهُ في الإسلام وقَوْمِه، حتى استوثق، ثم خرجا يوماً يمشيان على جَنْبِ الساحل، وقد واعَدَ شخصاً آخر من جِهَةِ ملك الروم لِيَتَسَاعدا على أَسْرِه، فلما اكتنفاه ليأخُذاه رَفَع طَرْفَه إلى السماء وقال: اللهُمَّ، إنه إنما خَدَعني بك فاكفنيهما بما شِئْتَ. قال: فخرج سبعانِ إليهما فَأَخَذاهما، ورَجَع الرجُل سَالِماً.

---

(١) جيد. أخرجه أبو داود ٤٠٨٤ والنسائي في «الكبرى» ٩٦٩٤ و٩٦٩٦ وأحمد ٥/ ٦٤ وابن حبان ٥٢١ وقد سقط من «المسند» اسم الصحابي وسند أبي داود جيد.

(٢) هذا خبر ليس بشيء، فإن صاحب هذا الخبر لم يسم ولا يعرف، فهو لا شيء.

وقولُه تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يُخلِفُ قَرناً لِقرنٍ قبلهم وخَلَفاً لِسلَفٍ، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً كما قدَّمنا تقريره. وهكذا هذه الآية: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أُمَّةً بعد أُمَّةٍ، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم. ولو شاء لأوجَدَهم كُلَّهم في وقتٍ واحدٍ، ولم يجعَلْ بعضَهم من ذُرِّيَّة بَعْضٍ، بل لو شاء لَخلَقَهم كُلَّهم أجمعين كَمَا خَلَقَ آدم من تُرابٍ. ولو شاء أن يَجعَلَهُم من ذُرِّيَّة بعضهم بَعضاً، ولكن لا يُميتُ أحداً حتى تكون وفاةُ الجميع في وقتٍ واحدٍ، فكانت تضيقُ عليهم الأرضُ، وَتَضيق عليهم مَعايشُهم وأكسابُهم، ويتضرَّرُ بعضُهم ببعضٍ. ولكن اقتضت حكمتُه وقدرتُه أن يخلُقَهم من نفسٍ واحدةٍ، ثُم يُكثِّرَهُم غايَةَ الكَثْرةِ، ويَذرأهم في الأرض، ويجعَلَهم قروناً بعد قرون، وأُمماً بعد أُمَم، حتى ينقضي الأجلُ وتفرُغ البريَّةَ، كما قدَّر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهُم وعَدَّهم عَدّاً، ثم يُقيم القيامة، ويُوفِّي كل عامل عَمَلَه إذا بلغَ الكتابُ أجَله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أي: يقدِرُ على ذلك، أإله مع الله يُعْبَد؟ وقد عُلِم أن الله هو المُتَفرِّد بفعل ذلك ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: ما أقلَّ تذكُّرَهم فيما يُرشِدُهم إلى الحقِّ، ويَهديهم إلى الصراط المُستقيم.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقولُ ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، أي: بما خلَق من الدلائل السماويَّة والأرضيَّة، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]. . . الآية. ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، أي: بين يدي السحابِ الذي فيه مطرٌ، يُغيثُ به عِبادَه المُجدِبينَ الآزِلينَ[1] القَنِطِينَ، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

أي: هو الذين بقُدرته وسُلطانه يبدأ الخلْق ثم يُعيدُه، كما قال تعالى في الآية الأُخرى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: ١٢ ـ ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بما يُنزِلُ من مَطرِ السماء، ويُنبِت من بَركاتِ الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق: ١١ ـ ١٢]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢]. فهو ـ تبارك وتعالى ـ يُنزل من السماء ماءً مباركاً فيسكنه في الأرض، ثم يُخرِج به منها أنواع الزروع والثمار والأزاهير، وغير ذلك من ألوانٍ شتَّى، ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه: ٥٤]، ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أي:

---

(١) الأزْلُ: الضيق والشدة، وتأزّل: ضاق صدره.

فَعَل هذا؟ وعلى القول الآخر: يُعبَدُ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صِحَّة ما تَدْعُونه من عبادةِ آلهةٍ أخرى، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك، وقد عُلِم أنه لا حُجَّةَ لهم ولا بُرهَانَ، كما قال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً رسولَه - ﷺ - أن يقولَ مُعْلِماً لجميع الخَلْق: أنّه لا يَعْلَم أحدٌ من أهل السموات والأرض الغيبَ. وقولُه: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: لا يعلم أحدٌ ذلك إلا الله - عَزّ وجلّ - فإنه المُنفردُ بذلك وحدَه، لا شريكَ له، كما قال: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]... الآية، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]. والآياتُ في هذا كثيرةٌ. وقولُه: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، أي: وما يشعرُ الخلائقُ السّاكِنُون في السّمواتِ والأرض بوقتِ الساعةِ، كما قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، أي: ثَقُل علمُها على أهلِ السّمواتِ والأرضِ.

[٥٠٨٨] وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا عليّ بن الجعدِ، حدثنا أبو جَعفر الرازيُّ، عن داود ابن أبي هِندٍ، عن الشعبيِّ، عن مَسرُوقٍ، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: مَن زَعَم أنه يَعلَمُ - تعني النبيَّ - ﷺ - ما يكون في غد، فقد أعظَمَ على الله الفِرْيَةَ، لأن الله تعالى يقولُ: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[1]. وقال قتادةُ: إنما جَعل الله هذه النجومَ لثلاث خَصَال: جعلها زِينةً للسماءِ، وجَعَلها يُهتدَى بها، وجَعَلَها رجوماً فمن تعاطى فيها غيرَ ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حَظَّه، وأضاع نَصِيبه وتكلَّف ما لا عِلْمَ له به. وإنّ ناساً جَهَلَةً بأمر الله، قد أحدثُوا من هذه النجوم كَهَانة: من أعْرَس بِنجم كَذَا وكَذَا، كان كَذَا وكَذَا. ومن سافر بِنجم كَذَا وكَذَا، كان كَذَا وكَذَا. ومن وُلِد بِنجم كَذَا وكَذَا، كان كَذَا وكَذَا. ولَعَمْري ما من نجم إلا يُولَد به الأحمرُ والأسودُ، والقصيرُ والطويلُ، والحَسَن والدَّمِيمُ، وما عِلْمُ هذا النجم وهذه الدّابةِ وهذا الطير بشيءٍ من الغيب! وقَضى الله تعالىٰ أنه ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾. رَواه ابنُ أبي حاتمٍ عنه بحروفِهِ، وهو كلامٌ جليلٌ متينٌ صحيحٌ.

وقولُه تعالىٰ: ﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ أي: انتهى عِلمُهم وعَجزَ من مَعرِفَةِ وقتها. وقرأ آخرون: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ﴾، أي: تَسَاوى عِلمُهم في ذلك.

[٥٠٨٩] كما في الصَّحِيح لمسلم: أنّ رسولَ الله - ﷺ - قال لجبريلَ وقد سَأله عن وقتِ الساعةِ: «ما المسؤولُ عنها بأعلم من السائل»[2]. أي: تساوى في العجز عن دَرْك ذلك علمُ المسؤول والسائل. قال عَليُّ ابن أبي طلحَةَ، عن ابن عَبّاسٍ: «بل أدْرَكَ عِلمُهم في الآخِرَة»، أي: غاب. وقال قتادةُ: «بل أدْرَك عِلمُهم في الآخرةِ»، يعني بِجَهْلِهم رَبَّهم، يقول: لم يَنفُذ لَهُم إلى الآخرةِ علمٌ. هذا قولٌ. وقال ابن جُريج، عن عَطاءِ الخُراسَانيِّ عن ابن عَبّاس: «بل أدْرَكَ عِلمُهُم في الآخرة»، حين لم ينفَع العلمُ. وبه قال عطاء الخراساني، والسدّيّ: أن علمهم إنما يُدرِكُ ويَكمُل يومَ القيامةِ حيثُ لا ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ

---

(١) حسن، إسناده غير قوي لأجل أبي جعفر الرازي، لكن أصله في الصحيحين، وسيأتي في سورة لقمان.

(٢) هو بعض حديث سؤالات جبريل، وقد تقدم مراراً.

يَأْتُونَنَا لَكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [مريم: ٣٨]. وقال سفيان، عن عَمرو بن عُبَيدٍ، عن الحسن أنه كان يقرأ: «بَلِ ادْرَكَ عِلْمُهم»، قال: اضمحلَّ عِلمُهم في الدنيا حين عايَنُوا الآخرة.

وقولُه تعالىٰ: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾، عائدٌ على الجِنْس، والمرادُ الكافِرُون، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: ٤٨]، أي: الكافرون منهم. وهكذا قال هاهنا: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾، أي: شاكُّون في وُجودها وَوُقُوعِها، ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾، أي: في عَمَايةٍ وجهلٍ كَبيرٍ في أمرِها وشأنِها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقولُ تَعالى مُخبراً عن مُنكِري البعث من المشركين: أنهم استبعَدُوا إعادةَ الأجسادِ بعد صَيرُورَتِها عظاماً ورُفَاتاً وتُرَاباً، ثم قال: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، أي: ما زلنا نسمَعُ بهذا نحنُ وآباؤُنا، ولا نَرَى له حقيقةً ولا وُقُوعاً. وقولُهم: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، يعنون: ما هذا الوعدُ بإعادة الأبدانِ ﴿إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: أَخَذَه قومٌ عَمَّن قبلَهم من كُتُبٍ يتلقَّاها بعضٌ عن بعضٍ، وليس له حقيقة. قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظَنُّوه من الكفر وعَدَم المَعَادِ: ﴿قُلْ﴾ ـ يا مُحمَّد ـ لهؤلاء: ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: المُكَذِّبين بالرسل وما جاؤوهم به من أمر المَعَاد وغيره، كيف حَلَّت بهم نِقَمُ الله وعذابُه ونكالُه، ونَجَّى الله مِنْ بينهم رُسُلَه الكرامَ ومن اتَّبعهم من المؤمنين، فَدَلَّ ذلك على صِدْقِ ما جاءت به الرسلُ وصِحَّتِهِ. ثم قال تعالى مُسَلِّياً لنبيِّه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: المكذِّبين بما جئتَ به ولا تأسَفْ عليهم وتَذْهَبْ نفسُك عليهم حَسَراتٍ ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، أي: في كَيْدِك ورَدِّ ما جئتَ به، فإن الله مُؤيِّدك وناصرُك، ومُظهِرٌ دينَك على من خَالَفَه وعانَدَه في المشارق والمغارب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين، في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادِهم وُقُوعَ ذلك: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾، قال الله تعالىٰ مجيباً لهم: ﴿قُلْ﴾ ـ يا مُحمَّدُ ـ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾. قال ابنُ عبَّاس: عَسَى أن يكون قَرُب ـ أو: أن يَقرُبَ ـ لكم بعضُ الذي تَستَعجلون. وهكذا قال مجاهدٌ، والضحَّاك، وعطاءٌ الخُرَاسَاني، وقتادةُ، والسدِّيّ. وهذا هو المرادُ بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]. وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٤]. وإنما دخلت «اللام» في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾، لأنه ضُمِّن معنى عَجِلَ لكم، كما قال مجاهد في رواية عنه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾: عَجِلَ لكم.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي: في إسباغ نِعَمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يَشكُرُونه على ذلك إلا القليل منهم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾، أي: يعلم

السرائر والضمائر، كما يعلم الظواهر، ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠] ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥]. ثم أخبر تعالى بأنه عالمُ غيب السموات والأرض، وأنه عالمُ الغيبِ والشَّهادةِ ـ وهو ما غابَ عن العِبَاد وما شاهَدُوه ـ فقال: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾، قال ابنُ عبَّاسٍ: يعني وما مِن شيءٍ ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وما اشتَمَل عليه من الهُدَى والبيِّنات والفُرقَانِ: أنه يَقُصُّ على بني إسرائيل ـ وهم حَملَة التوراة والإنجيل ـ ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، كاختلافهم في عيسَى وَتَبايُنِهم فيه، فاليهود افترَوا، والنصارى غَلَوا فجاء القرآن بالقول الوسط الحقِّ العَدل: أنه عبدٌ من عبادِ الله وأنبيائه ورسله الكرام ـ عليهم الصلاةُ والسلامُ ـ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤]. وقولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: هُدَىً لقلوبِ المؤمنينَ، ورَحْمَةٌ لهم في العَمَلِيَّاتِ. ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾، أي: يومَ القيامة ﴿بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامِه، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالِ عبادِه وأقوالهم. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي في جميع أمورِكَ، وبَلِّغ رسالةَ ربِّك، ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾، أي: أنت على الحقِّ المُبين وإن خالَفَكَ من كُتِبت عليه الشقاوَة وحقَّت عليهم كلمةُ ربِّك أنهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كُلُّ آية. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: لا تُسمِعُهم شيئاً ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غِشَاوةٌ، وفي آذانهم وَقْرُ الكُفرِ، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾، أي: إنما يستجيبُ لَكَ من هو سميعٌ بَصِيرٌ، السمعُ والبصرُ النافعُ في القَلْبِ والبَصيرةِ الخاضعُ لله، ولما جاءَ عنه على ألسِنَةِ الرسلِ عليهم السلامُ.

﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

هذه الدَّابةُ تخرُج في آخر الزمان عند فَساد الناس وتَرْكِهم أوامرَ الله وتَبديلهم الدينَ الحقَّ؛ يُخرِجُ الله لهم دابَّةً من الأرض ـ قيل: من مكَّةَ. وقيل: من غيرها. كما سيأتي تَفصِيلُه ـ إن شاء الله تعالى ـ فَتُكَلِّم الناسَ على ذلك. قال ابنُ عباس، والحَسَن، وقتادةُ ـ ورُوِيَ عن عَليٍّ رضي الله عنه ـ: تُكَلِّمهم كلاماً، أي: تُخاطِبُهم مخاطبةً. وقال عطاء الخراساني: تُكَلِّمهم فتقول لهم: إنَّ الناسَ كانوا بآياتنا لا يُوقِنُون. ويُروَى هذا عن عَليّ، واختاره ابن جرير. وفي هذا القولِ نَظَرٌ لا يخفَى، والله أعلم. وقال ابن عباس ـ في رواية ـ: تجرحُهم. وعنه روايةٌ، قال: كُلاًّ تفعَلُ. يَعني هَذَا وهَذَا، وهو قولٌ حَسَنٌ، ولا منافَاةَ، والله أعلم. وقد وَرَد في ذكرِ الدابَّةِ أحاديثُ وآثارٌ كثيرةٌ، فَلْنذكُر ما تيسر منها، والله المستعانُ:

[٥٠٩٠] قال الإمام أحمدُ: حدثنا سفيان، عن فُرَات، عن أبي الطفيل، عن حُذَيفة بن أسيد الغِفَاريِّ قال: أشرف علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ من غُرفَةٍ ونحنُ نتذاكَرُ أَمْرَ السَّاعةُ فقال: لا تقومُ الساعةُ حتى تَرَوا عَشْرَ

آياتٍ: طلوعُ الشمس من مغربها، والدخَانُ، والدابّةُ، وخُرُوجُ يأجُوجَ، وخروجُ عيسى ابن مَرْيم، والدجالُ وثلاثة خُسُوفٍ: خَسْفٌ بالمغربِ، وخَسْفٌ بالمشرق، وخَسْفٌ بجزيرة العرب، ونارٌ تخرج من قَعرِ عَدَن تسوقُ ـ أو: تحشُرَ ـ الناسَ، تَبيت معهم حيثُ باتوا، وتَقِيل معهم حيث قَالُوا»[١]. وهكذا رواه مسلم وأهل السنن، من طرق، عن فُرَات القزاز، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حُذَيفَةَ به مرفوعاً، وقال الترمذي: حَسَنٌ صَحِيحٌ. ورواه مُسلِمٌ أيضاً من حديث عبد العزيز بن رُفَيع، عن أبي الطفَيلِ، عنه موقوفاً[٢]، والله أعلم.

[٥٠٩١] طريقٌ أُخرَى، قال أبو داودَ الطَّيَالسيُّ، عن طلحةَ بن عمرو، وجَرِير بن حازم، فأما طلحةُ فقال: أخبرني عبد الله بن عُبَيد بن عُمَير اللَّيثيُّ: أن أبا الطفيل حدثه، عن حذَيفة بن أسيد الغِفَاري أبي سَرِيحَةَ. وأما جَرِيرٌ فقال: عن عبد الله بن عُبيد، عن رَجُلٍ من آلِ عبدِ الله بن مَسْعُودٍ ـ وحديثُ طلحَة أتَمُّ وأحسَنُ ـ قال: ذَكَرَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ الدَّابةَ فقال: «لها ثلاث خَرَجَاتٍ من الدهر، فتخرج خَرْجَةً من أقْصَى البادِيةِ، ولا يدخُل ذِكْرَهَا القرية ـ يعني مَكَّةَ ـ ثم تكمُنُ زماناً طويلاً، ثم تخرج خَرْجة أخرى دُون تلك، فيعلو ذِكْرُها في أهلِ البادية، ويدخُل ذكرُها القرية ـ يعني مَكةَ ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ثم بينما الناس في أعظمِ المساجدِ عَلَى الله حُرمَةً وأكرمِها: المسجد الحرام، لم يَرُعْهم إلا وهي تَرْغُو بين الرُكنِ والمَقَام، تَنفُضُ عن رأسِهَا التُرابَ. فارفضَّ الناسُ عنها شتىً ومعاً، وَبقِيتْ عصابةٌ من المؤمنين، وعَرَفوا أنهم لم يُعجزُوا الله، فَبدأت بهم فجَلَت وُجُوهَهم حتى جَعَلتها كأنها الكوكبُ الدرِّيُ، وَوَلَّت في الأرض لا يُدركُها طالِبٌ، ولا ينجو منها هارب، حتى إنَّ الرجُلَ ليتعوَّذُ منها بالصلاة، فتأتيه من خَلْفِه فتقول: يا فلان، الآن تُصَلِّي؟! فيقبل عليها فَتَسِمُه في وجهه. ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال، ويَصْطَحِبُون في الأمصار، يُعرَف المؤمن مِنَ الكافر، حتى إنَّ المُؤمِنَ ليقُولُ: يا كافِرُ، اقضِنِي حَقِّي»[٣]. وحتَّى إنَّ الكافِرَ لَيَقُولُ: يا مُؤمِنُ، اقضِني حقي. ورواه ابنُ جرير من طريقين، عن حُذَيفة بن أَسِيد مَوقوفاً. فالله أعلم. وَرَوَاه من روايةِ حُذَيفة بن اليَمَان مرفوعاً، وأن ذلك في زمان عيسى ابن مَرْيَم، وهو يطوفُ بالبيتِ، ولكنَّ إسنادَهُ لا يَصِحُّ.

[٥٠٩٢] حديثٌ آخرُ، قال مُسلم بن الحَجَّاج: حدثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ، حدثنا محمد بن بشر، عن أبي حَيَّان، عن أبي زُرْعَةَ، عن عبد الله بن عَمْرو قال: حَفِظْتُ من رسول الله ـ ﷺ ـ حديثاً لم أنسه بعد: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «إنَّ أول الآيات خُروجاً طلوعُ الشمس من مَغربها، وخروجُ الدابة على الناس ضُحىً، وَأَيَّتُهما ما كانت قبل صاحِبَتها، فالأخرى على إثْرِها قَرِيباً»[٤].

[٥٠٩٣] حَدِيثٌ آخَرُ، روى مُسلِمٌ في صَحِيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقُوبَ ـ مولى الحُرَقَة ـ عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رَضِي الله عنه ـ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «بَادِرُوا بالأعمال سِتاً: طلوعَ الشَّمس من مَغْرِبها، أو الدُّخانَ، أو الدَّجَالَ، أو الدابّة، أو خاصّة أَحَدِكم، أو أَمْرَ العامَّةِ»[٥]. تفرد به.

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٠١ وأبو داود ٤٣١١ والترمذي ٢١٨٣ وابن ماجه ٤٠٤١ وأحمد ٤/٦ و٧ وابن حبان ٦٨٤٣.

(٢) الموقوف لا يعلل المرفوع. لأن المرفوع إسناده صحيح. فيكون زيادة ثقة، وهي مقبولة. ثم إن الموقوف لا يقال مثله بالرأي. والله أعلم.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام عند آية: ١٥٨.

(٥) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٤٧ ح ١٢٨ وأحمد ٢/٣٣٧.

[٥٠٩٤] وله من حديث قتادَةَ، عن الحَسَن، عن زيادِ بن رِيَاح، عن أبي هُرَيرة ـ رَضِي الله عنه ـ عن النبيّ ـ ﷺ ـ قال: «بَادِرُوا بالأعمالِ سِتاً: الدجال، والدخانَ، ودابَّةَ الأرضِ، وطُلُوعَ الشَّمسِ من مَغْرِبها، وأمر العامَّة وخُوَيصةَ أحدكم»[١].

[٥٠٩٥] حديث آخَرَ، قال ابن ماجه: حدثنا حَرْمَلة بن يحيى، حدثنا ابنُ وهبٍ، أخبرني عَمْرُو بن الحارث وابن لَهيعَةَ، عن يزيدَ بن أبي حَبيب، عن سِنَان بن سعدٍ، عن أنس بن مالك ـ رَضِي الله عنه ـ عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «بَادِرُوا بالأعمال ستاً: طلوعَ الشمسِ من مَغْرِبَها، والدخَانَ، ودابَّةَ الأرض، والدَّجالَ، وخُوَيْصة أحدكم، وأمر العامَّة»[٢]. تفرد به.

[٥٠٩٦] حديثُ آخَرَ، قال أبو داودَ الطَّيَالِسيُّ أيضاً: حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن علي بن زيد، عن أوسِ بن خالدٍ عن أبي هُريرة ـ رَضِي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: تخرجُ دابةُ الأرضِ، ومعها عَصَا موسى وخاتَم سُلَيمان عليهما السلام، فَتَخْطِمُ أنف الكافر بالعصا، وتُجلي وجهَ المؤمن بالخاتَمِ، حتى يجتمعَ الناسُ على الخُوَان يُعرَفُ المؤمنُ من الكافر[٣].

[٥٠٩٧] ورواهُ الإمَامُ أحمدُ، عن بَهْزٍ وعَفَّانَ ويَزِيدَ بن هارُونَ، ثلاثتُهم عن حَمَّادِ بن سَلَمَةَ، به، وقال: «فتخطِمُ أنفَ الكافِرِ بالخاتَم، وتجلُو وَجْه المؤمنِ بالعَصَا، حتى إنَّ أهلَ الخُوَانِ الواحدِ لَيَجْتَمِعُون فيقول هذا: يا مؤمنُ. ويقولُ هذا: يا كَافِر. ورواه ابنُ ماجه، عن أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ، عن يُونُسَ بنِ مُحمَّدِ المؤدِّب، عن حَمَّادِ بن سَلَمَةَ، به[٤].

[٥٠٩٨] حديثُ آخَرُ، قال ابنُ ماجه: حدثنا أبو غَسَّان مُحَمَّدُ بنُ عَمرو، حدثنا أبو تُمَيلَةَ، حدثنا خالدُ بنُ عُبَيدٍ، حدثنا عبد الله بن بُرَيدَةَ، عن أبيه قال: ذَهَب بي رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى مَوضِعٍ بالبادِية، قريب من مكَةَ، فإذا أرضٌ يابِسةٌ حولَهَا رَمْلٌ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: تَخرُج الدابَّة من هذا المَوضع، فإذا فِتْرٌ في شبْرٍ. قال ابن بُريدَةَ: فَحججْتُ بعد ذلك بِسِنِينَ فَأَرَانا عَصاً له، فإذا هو بعَصَاي هَذِه، كَذَا وكَذَا[٥].

وقال عبد الرزَّاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة أنَّ ابنَ عباس قال: هي دابَّةٌ ذاتُ زَغَبٍ، لها أربع قوائم، تخرج من بعض أَودِيَة تِهَامَةَ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدَّثنا عبدُ الله بن رَجَاءٍ، حدثنا فُضَيل بن مرزُوقٍ، عن عَطِيَّةَ قال: قال عبد الله: تخرُج الدَّابةُ من صَدْعٍ من الصَّفا كجَرْيِ الفَرَسِ ثلاثة أيامٍ، لم يخرُج ثلثها.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن أبان بن صالح قال: سُئِل عبدُ الله بن عَمرو عن الدَّابة، فقال: الدَّابةُ تخرجُ

---

(١) أخرجه مسلم ٢٩٤٧ وأحمد ٢/ ٣٢٤ و٤٠٧ وابن حبان ٦٧٩٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٤٠٥٦ وفيه سنان بن سعد، وهو ضعيف لكن لحديثه شواهد كما ترى يحسن بها.

(٣) أخرجه الطيالسي ٢٥٦٤ وإسناده ضعيف، وانظر ما بعده.

(٤) ضعيف. أخرجه أحمد ٢/ ٢٩٥ ـ ٤٩١ والترمذي ٣١٨٧ وابن ماجه ٤٠٦٦ والحاكم ٤/ ٤٨٥ من حديث أبي هريرة، حسنه الترمذي! وسكت عليه الحاكم، وكذا الذهبي، وإسناده ضعيف، له علتان: أوس بن خالد ضعيف الحديث كما في الميزان، وفي التقريب: مجهول. وعنه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف كما في التقريب، والمتن غريب.

(٥) أخرجه ابن ماجه ٤٠٦٧، وإسناده ضعيف جداً. قال البوصري في «زوائد ابن ماجه»: هذا إسناد ضعيف، لأن خالد بن عبيد، قال البخاري: في حديثه نظر. وقال ابن حبان والحاكم: يحدث عن أنس بأحاديث موضوعة اهـ وقال عنه الحافظ في التقريب: متروك الحديث مع جلالته.

من تحت صَخْرَةٍ بِجيادٍ، والله لو كنتُ مَعَهم ـ أو لو شِئْتُ لَقَرَعْتُ بِعَصَاي الصخرةَ التي تخرجُ الدابةُ من تحتها. قيل: فتصنعُ ماذا يا عبد الله بن عمرو؟ قال: تستقبلُ المشرِقَ فتصرُخ صَرْخَةً تَنفُذُه، ثم تستقبلُ الشام فتصرخ صرخة تَنفُذُه، ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تَنفُذُه، ثم تستقبلُ اليمنَ فتصرُخ صرخةً تنفُذُه. ثم تَرُوحُ من مَكّة فَتُصبِحَ بِعُسفَانَ. قيل: ثم ماذا؟ قال: ثُمَّ لا أعلَمُ.

وعن عبد الله بن عُمَر أنّه قال: تَخرُجُ الدابّةُ ليلة جَمْعٍ. رواه ابنُ أبي حاتِم. وفي إسناده ابنُ البَيْلَمانيِّ.

وعن وهب بن مُنَبِّه: أنه حكى من كلام عُزَير عليه السلام أنه قال: وتخرج من تحت سَدُومَ دابّةٌ تَكَلّم الناس، كُلٌّ يسمَعُها، وتَضَعُ الحبالى قبل التّمام، ويعودُ الماء العذبُ أُجاجاً ويَتَعادى الأَخِلاّء، وتُحرَقُ الحِكْمَةُ، ويُرفَعُ العِلْمُ، وتُكَلِّم الأرضُ التي تَليها. وفي ذلك الزمان يرجُو الناسُ ما لا يَبلُغون، ويَتعَبُون فيما لا يَنالُونَ، ويَعمَلُون فيما لا يأكُلون. رواه ابن أبي حاتم، عنه. وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي حَدّثنا أَبو صالح ـ كاتِبُ الليث ـ حَدّثني معاويةُ بنُ صالح، عن أبي مَرْيَمَ: أَنّه سَمِع أبا هُرَيرَةَ ـ رَضِي الله عنه ـ يقولُ: إن الدابّة فيها من كلِّ لونٍ، ما بين قرنيها فَرْسَخٌ للراكِبِ. وقال ابنُ عبّاسٍ: هي مثلُ الحربة الضخمة. وعن أمير المؤمنين عَليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: إنها دابّةٌ لها رِيشٌ وَزَغَبٌ وحافِرٌ، وما لها ذَنَبٌ، ولها لِحيَةٌ، وإنها لتُخرجُ حُضْر الفَرَسِ الجَوَادِ ثلاثاً، وما خَرج ثلثاها. رواه ابنُ أبي حاتِم.

وقال ابنُ جُريج، عن أبي الزبَير أنه وَصَف الدابة فقال: رأسُها رأسُ ثَور، وعينها عينُ خنزير، وأُذُنها أُذُنُ فيل، وقَرنُها قَرْنُ أَيِّلٍ وعُنُقها عُنق نَعامَةٍ، وصَدْرُها صَدْرُ أَسَدٍ، ولونُها لونُ نمر، وخاصِرَتها خاصِرة هِرٍّ، وَذَنَبُها ذَنَبُ كَبْشٍ، وَقَوائِمُها قوائمُ بَعير، بين كل مَفْصِلين اثنا عَشَر ذراعاً، تخرُج مَعَها عَصَا مُوسَى وخَاتم سُلَيمان، فلا يبقَى مُؤمِنٌ إلا نكتت في وَجْهِه بعصا موسى نُكتَةً بيضاء، فتفشو تلك النُّكتَةُ حتى يَبْيَضَّ لها وَجْهُ ولا يبقى كافر إلا نَكَتَتْ في وجهه نُكتَةً سوداءَ بخاتَم سليمان، فَتَفشُو تلك النُّكتَةُ حتى يَسْوَدَّ لها وجهُه، حتى إنَّ الناسَ يَتَبايَعُون في الأسواق بكم ذا يا مؤمن بكم ذا يا كافر وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم فيعرفون مُؤمِنَهم من كافِرهم، ثم تقول لهم الدابّة: يا فلانُ، أَبشِر، أنتَ من أهل الجَنّة؟ ويا فلانُ، أنتَ من أهلِ النّارِ[1]. فذلك قول الله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالى مُخبراً عن يوم القيامةِ، وحَشر الظّالِمين المكذّبين بآياتِ الله ورُسُله إلى بينَ يَدَي الله ـ عَزّ وجلّ ـ ليسألَهم عمّا فعلوه في الدّار الدُّنيا، تَقريعاً وتَوبيخاً، وتَصغيراً وتَحقيراً فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾، أي: من كلِّ قوم وقَرْنٍ فوجاً أي: جماعةً، ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ [التكوير: ٧].

وقولُه تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، قال ابنُ عبّاسٍ رَضِي الله عنهما: يُدْفَعُونَ، وقال قَتادةُ: وَزَعَةٌ تردُّ أَوَّلَهم

(١) هذا أثر متلقىً عن أهل الكتاب، وفيه من الركاكة ما لا يخفى.

على آخرهم. وقال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم: يُساقون. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾، أي: أُوقِفُوا بين يَدَي الله ـ عزّ وجلّ ـ في مقام المُساءَلةِ، ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: فيُسألون عن اعتقادِهم وأعمالهم، فلما لم يكونوا من أهل السَّعادةِ وكانوا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٣١ ـ ٣٢]، فحينئذ قامت عليهم الحجّةُ، ولم يكن لهم عُذرٌ يعتذِرون به، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المرسلات: ٣٥ ـ ٣٧] وهكذا قال هاهنا: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾، أي بُهتُوا، فلم يكن لهم جوابٌ، لأنهم كانوا في الدّار الدنيا ظَلَمَةً لأنفسِهم، وقد رُدُّوا إلى عالم الغَيبِ والشَّهادةِ الذي لا تخفى عليه خافيةٌ.

ثم قال تعالى مُنبِّهاً على قُدرتِه التّامةِ، وسُلطانه العَظِيم، وشأنِهِ الرفيع، الذي تجب طاعتُه والانقيادُ لأوامره، وتصديقُ أنبيائه فيما جاؤوا به من الحقّ الذي لا مَحيد عنه، فقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، أي: فيه ظلامٌ تسكنُ بسببه حركاتُهم وتهدأُ أنفاسُهم، ويستَريحُون من نَصَب التَّعبِ في نهارهم. ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾، أي: مُنيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يَتصرّفون في المعايشِ والمكاسب، والأسفارِ والتّجارات، وغير ذلك من شُؤونهم التي يحتاجون إليها، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

يُخبر تعالى عن هَولِ يوم نَفخةِ الفَزَع في الصُور، وهو كما جاء في الحديث:

[٥٠٩٩] «قَرْنٌ يُنفَخُ فيه»[1].

[٥١٠٠] وفي حديث «الصُور»[2] أنّ إسرافيل هو الذي يَنفُخ فيه بأمر الله تعالى، فينفُخ فيه أولاً نفخة الفَزَع ويُطوِّلها، وذلك في آخر عُمُر الدنيا، حين تقومُ الساعة على شِرار الناس من الأحياء، فيفزَعَ من في السموات ومَن في الأرض ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وهُم الشهداء، فإنّهم أحياءٌ عند ربِّهم يُرزَقُونَ.

[٥١٠١] قال الإمامُ مسلمُ بن الحجاج: حدثنا عُبيد الله بن مُعاذ العَنبَريُّ، حدثنا أبي، حدثنا شُعبةُ، عن النُعمان بن سالم: سَمعت يعقوبَ بن عاصم بن عُروَةَ بن مسعودِ الثقفِيِّ، سَمعت عبد الله بن عَمْرٍو ـ رَضي الله عنه ـ وجاءه رجلٌ فقالَ: ما هذا الحديثُ الذي تُحَدِّث به؟ تقول: إن الساعة تقومُ إلى كذا وكذا؟ فقال سُبحان الله! ـ أو: لا إله إلا الله. أو كلمةً نحوهما ـ لقد هَممتُ ألاَّ أُحدِّثَ أحداً شيئاً أبداً، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً، يُحَرَّقُ البيتُ، ويكونُ ويكونُ. ثم قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يخرُج الدجّالُ في أمتي فيمكثُ أربعينَ ـ لا أدري أربعينَ يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً ـ فيبعثُ الله عيسى ابنَ مريَمَ كأنه عُروةُ بنُ مسعودٍ، فيَطلُبه فيُهلِكهُ. ثم يمكثُ الناسُ سبعَ سنينَ، ليس بين اثنين عداوةٌ، ثم يُرسِلُ الله ريحاً باردةً من قِبَلِ الشامِ، فلا يبقَى على وَجهِ الأرض أحدٌ في قلبه مثقالُ ذَرّةٍ من خَير أو إيمانٍ إلا قَبضَتْهُ، حتى لو

(١) تقدم تخريجه، وهو حديث حسن صحيح.

(٢) تقدم الكلام عليه باستيفاء، والله الموفق.

أنَّ أحدهم دخلَ في كَبِدِ جَبَلٍ لدخلَتْه عليه حتى تَقْبِضَه. قال: سَمِعتُها من رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فيبقى شِرَارُ الناس في خِفَّة الطير وأحلام السِّباع، لا يَعرِفون معروفاً ولا يُنكِرُون مُنكراً، فيتمثَّل لهم الشيطانُ فيقولُ: ألا تَستَجيبُون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فَيأمُرُهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دارٌ رزقهم، حَسَنٌ عيشُهم. ثم يَنفُخ في الصور فلا يَسمَعُه أحدٌ إلا أصغَى لِيتاً ورَفَع لِيتاً. قال: وَأوَّلُ مِن يسمَعُه رجلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إبله. قال: فَيصْعَقُ ويَصعَقُ الناسُ، ثم يرسلُ الله ـ أو قال: يُنزلُ الله ـ مطراً كأنه الطَّلُّ ـ أو قال: الظِّل ـ نُعمانُ الشَّاكُّ ـ فَتَنبُتُ منه أجسادُ الناس، ثم يُنفَخُ فيه أخرى فإذا هُم قيامٌ ينظُرون، ثم يقال: يا أيُّها الناسُ، هَلُمُّوا إلى رَبِّكم، وَقِفُوهم إنهم مسؤولُونَ. ثم يُقال: أخرِجُوا بَعْثَ النَّار. فَيُقَالُ: مِنْ كَم؟ فَيُقال: من كُلِّ ألفٍ تِسعمئةٍ وتسعة وتسعين، قال: فذلك يومُ يَجعَلُ الوِلدانَ شيباً، وذلك يومُ يُكشَفُ عن سَاقٍ[1]. وقولُه: «ثم يُنفَخُ في الصُّور فلا يَسمَعُه أحدٌ إلاَّ أصغَى لِيتاً وَرَفَع لِيتاً»، اللِّيت: هو صَفْحَةُ العُنُق، أي: أمال عُنُقَه لِيستَمِعه من السماء جيداً. فهذه نفخةُ الفَزَع. ثم بعدَ ذلك نفخةُ الصَّعق، وهو الموتُ، ثم بعد ذلك نفخةُ القيامِ لربِّ العالمين، وهو النشُور من القُبُور لجميع الخلائق، ولهذا قال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ ـ قُرِئ بالمد، وبغيره على الفعل، وكل بمعنى واحدٍ ـ و﴿دَاخِرِينَ﴾، أي: صَاغرين مُطيعين، لا يتخلَّفُ أحدٌ عن أمره، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

[٥١٠٢] وفي حديث الصور: أنه في النفخةِ يأمرُ الله الأرواحَ، فتوضع في نَقْبٍ في الصور، ثم يَنفُخ إسرافيلُ فيه بعدما تَنبُتَ الأجسادُ في قُبورها وأماكِنها. فإذا نَفَخ في الصور طارت الأرواحُ، تَتوهَّجُ أرواح المؤمنين نُوراً، وأرواحُ الكافِرينَ ظُلمَةً، فيقولُ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ: وعِزَّتي وجلالي لترجعَنَّ كلُّ رُوحٍ إلى جَسَدِها. فتجيءُ الأرواحُ إلى أجسادِها، فَتَدِبُّ فيها كما يَدِبُّ السُّمُّ في اللَّدِيغ، ثم يقُومون فينفضُون التراب من قُبورهم[2]، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣].

وقولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾، أي: تَراها كأنها ثابتةٌ باقيةٌ على ما كانت عليه، هي تَمر مرَّ السَّحاب، أي: تَزُولُ عن أماكِنِها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطور: ٩ ـ ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]. وقولُه تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، أي: يفعَلُ ذلك بقُدرته العَظيمة الذي قد أتقن كُل ما خَلَق، وأودَعَ فيه من الحِكمَةِ ما أودَعَ، ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾، أي: هو عليمٌ بما يفعَلُ عبادُه من خيرٍ وشَرٍّ فيُجازيهم عليه أتم الجزاء.

ثم بيَّن تعالى حالَ السعَداء والأشقياءِ يومئذ فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، قال قتادة: بالإخلاص. وقال زينُ العابدين: هي لا إله إلا الله. وقد بيَّن في المَكانِ الآخر أن له عَشر أمثالها. ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]. وقولُه تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾، أي: مَن لَقِي الله مُسيئاً لا حَسَنَة له، أو: قد

(١) صحيح. أخرجه مسلم ٢٩٤٠ والنسائي في «الكبرى» ١١٦٢٩ وأحمد ٢/ ١٦٦ وابن حبان ٧٣٥٣.
(٢) تقدم تخريجه باستيفاء.

رَجَحت سيئاتُه على حَسَناته، كُلٌ بِحَسَبِه. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وقال ابنُ مسعود وأبو هُريرة وابن عباس ـ رَضِي الله عنهم ـ وأنسُ بن مالك، وعطاءٌ، وسعيدُ بن جُبَير، وعِكْرِمةُ، ومُجاهِدٌ، وإبراهيمُ النَّخعي، وأبُو وائلٍ، وأبو صالح، ومحمد بن كَعب، وزيد بن أسلم، والزهْرِيُّ، والسدِّي، والضَّحَّاك، والحَسَن، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، في قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، يعني: بالشِّركِ.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً رَسوله وآمراً له أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾، كما قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤]. وَإِضافة الرُّبوبيَّةِ إلى البَلدةِ على سَبيل التشريفِ لها والاعتناءِ بها، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣ ـ ٤]. وقولُه تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾، أي: الذي إنّما صارت حَراماً قَدَراً وشَرعاً بتَحريمه لها.

[٥١٠٣] كما ثبت في الصَّحيحين عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوم فَتح مَكّة: «إنَّ هذا البلدَ حَرَّمَه الله يومَ خَلَق السموات والأرض، فهُو حَرام بحُرمةِ الله إلى يوم القيامةِ، لا يُعْضَدُ شَوْكه، ولا يُنفَّر صيدُه، ولا يُلتقَطُ لُقَطتُه إلا لمن عرَّفها، ولا يُختلَى خَلاَها»[١]... الحديث بتمامه. وقد ثَبَت في الصِّحاح والحِسَان والمَسَانيد مِن طُرُقٍ جَماعةٍ تُفيدُ القطعَ، كما هو مُبيَّن في مَوْضعِهِ من «كتابِ الأحْكَامِ»، ولله الحمد والمنة.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾، من باب عَطفِ العامِّ على الخاصّ، أي: هو ربُّ هذه البلدةِ، وربُّ كلِّ شَيءٍ ومليكُه لا إله إلا هو، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أي: المُوحِّدين المُخلِصينَ المُنقادِينَ لأمره المُطيعين له. وقولُه: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي: على الناسِ أُبلِّغُهم إيّاه، كقولِهِ تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]. وكقوله تعالىٰ: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣]، أي: أنا مُبلِّغٌ ومُنذِرٌ، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، أي: لي سوية الرسُلِ الذين أنذرُوا قومَهم، وقامُوا بما عليهم من أداءِ الرِّسالة إليهم، وخَلَصُوا من عُهدَتِهم، وحِسَابُ أمَمِهم على الله تعالىٰ. كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، أي: لله الحمد الذي لا يُعذِّبُ أحَداً إلا بعد قيام الحُجَّةِ عليه، والإعذار إليه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، أي: بل هُو شهيدٌ على كلِّ شيءٍ.

[٥١٠٤] قال ابنُ أبي حاتم: ذكر عن أبي عُمَر الحَوْضِيِّ حفص بن عمر: حدثنا أبو أُمَيَّة بن يعلَى

---

(١) تقدم في تفسير سورة البقرة عند آية: ١٢٦.

الثَّقفي، حدثنا سعيد بن أبي سَعيدٍ، سَمِعت أبا هُرَيرَةَ يقولُ: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا أيها الناسُ، لا يَغْتَرَّنَّ أحدُكُم بالله، فَإِنَّ الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفَلَ البَعُوضَة والخردَلَة والذرَّة»[1]. وقال أيضاً: حَدَّثنا محمد بن يحيى، حدثنا نصر بنُ عَليّ، قال أبي: أخبرني خالد بن قيس، عن مَطَرٍ، عن عُمَر بن عبدِ العَزِيز قال: فلو كان الله مُغفِلاً شيئاً لأغفَل ما تعفِي الرياح من أثر قَدَمَي ابنِ آدم. وقد ذُكِر عن الإمام أحمدَ ـ رَحِمه الله ـ أنه كان يُنشِدُ هذين البيتين، إما له أو لغيره:

إذَا مَا خَلَوتَ الدَّهرَ يَوماً فَلا تَقُل ... خَلَوتُ ولكن قُل عَليّ رَقِيبُ
وَلا تَحسَبَنَّ الله يَغفَل سَاعةً ... وَلا أن مَا يَخفى عَلَيه يَغِيبُ

آخر تفسير سورة النمل، ولله الحمد والمنة

(١) أخرجه ابن أبي حاتم معلقاً، وهو بصيغة التمريض، فالخبر واهٍ من جهة إسناده.

فهرس المحتويات